الأحكام واللطائف

من جامع القرطبي

ⓒدار رواد المعرفة للنشر والتوزيع ، ١٤٤٧هـ

الشمراني ، صالح بن علي

الأحكام واللطائف من جامع القرطبي - أربعة مجلدات. / صالح بن علي الشمراني - ط١. .- مكة المكرمة ، ١٤٤٧هـ

٤مج.

رقم الإيداع: ١٤٤٧/٨٥٥١

ردمك: ٧-٢-١١٠٢-٦-٠٣-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

ردمك: ٨-١١٠٥-٦-٠٣-٦٠٣-٩٧٨ (ج٣)

الطبعة الأولى

١٤٤٧ هـ - ٢٠٢٦ م

جمعية عِلم للتنمية المعرفية
Elm Association for knowledge Development

الأحكام واللطائف

مِن جامعِ القرطبيّ

اختيار وتهذيب

أ.د. صالح بن عليّ الشّمرانيّ

جامعة أُمّ القرى

المجلد الثّالث

جمعية عِلم للتنمية المعرفية
Elm Association for knowledge Development

بسم الله الرحمن الرحیم

سورة يونس عليه السلام

مكيةٌ في قول، وقالَ ابنُ عباسٍ: إلا ثلاثَ آياتٍ منْ قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ إلى آخرهنَّ.

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓر﴾ عنِ ابنِ عباسٍ: الر، وحم، ونون حروفُ الرحمنِ مفرقةٌ، وعنه: معنى ﴿الٓر﴾ أنا اللهُ أرى. قرئت من غير إمالة، وقرئت بالإمالة لئلا تشبه "ما" و "لا" من الحروف.

قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ، أيْ تلكَ التي جرى ذكرها آياتُ الكتابِ الحكيم. قالَ مجاهدٌ وقتادةُ: أرادَ التوراةَ والإنجيلَ والكتبَ المتقدمةَ، فإنَّ ﴿تِلۡكَ﴾ إشارةٌ إلى غائبٍ مؤنثٍ. وقيل: ﴿تِلۡكَ﴾ بمعنى هذهِ، أيْ هذهِ آياتُ الكتابِ الحكيمِ والمرادُ القرآنُ وهوَ أولى بالصوابِ، لأنهُ لمْ يجرِ للكتبِ المتقدمةِ ذكرٌ، ولأنَّ ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ منْ نعتِ القرآنِ. دليلهُ قولهُ تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾، والحكيمُ: المحكمُ بالحلالِ والحرامِ والحدودِ والأحكامِ، وقيل: الحكيمُ بمعنى الحاكمِ، أيْ إنهُ حاكمٌ بالحلالِ والحرامِ، وحاكمٌ بينَ الناسِ بالحقِّ، فعيلٌ بمعنى فاعلٍ. دليلهُ قولهُ: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾. وقيل: الحكيمُ بمعنى المحكومِ فيهِ، أيْ حكمَ اللهُ فيهِ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القربى، وحكمَ فيهِ بالنهيِ عنِ الفحشاءِ والمنكرِ، وبالجنةِ لمنْ أطاعهُ وبالنارِ لمنْ عصاهُ، فهوَ فعيلٌ بمعنى المفعولِ. وقالَ مقاتلٌ: الحكيمُ بمعنى المُحْكَمِ منَ الباطلِ لا كذبَ فيهِ ولا اختلافَ، فعيلٌ بمعنى مفعلٌ.

قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ استفهامٌ معناهُ التقريرُ والتوبيخُ. وَ ﴿عَجَبًا﴾ خبرُ كانَ، واسمها ﴿أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ﴾ وهوَ في موضعِ رفعٍ، أيْ كانَ إيحاؤنا عجبًا للناسِ. وفي قراءةِ

عبدِ اللهِ «عَجَبٌ» على أنهُ اسمُ كانَ. والخبرُ ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾. ﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ قرئَ «رَجْل» بإسكانِ الجيم. وسببُ النزولِ فيما رويَ عنِ ابنِ عباسٍ أنَّ الكفارَ قالوا لما بُعثَ محمدٌ: إنَّ اللهَ أعظمُ منْ أنْ يكونَ رسولهُ بشرًا. وقالوا: ما وجدَ اللهُ منْ يرسلهُ إلا يتيمَ أبي طالبٍ، فنزلتْ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾ يعني أهلَ مكةَ ﴿عَجَبًا﴾. وقيل: إنما تعجبوا منْ ذكرِ البعثِ.

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في موضعِ نصبٍ بإسقاطِ الخافضِ، أيْ بأنْ أنذرِ الناسَ، وكذا ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾.

واختلفَ في معنى ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ فقالَ ابنُ عباسٍ: منزلَ صدقٍ، دليلهُ قولهُ تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾، وحقيقتهُ أنهُ كنايةٌ عنِ السعيِ في العملِ الصالحِ، فكنى عنهُ بالقدمِ كما يكنى عنِ الإنعامِ باليدِ وعنِ الثناءِ باللسانِ. وأنشدَ حسانُ:

لنا القدمُ العليا إليكَ وخلفنا ... لأولنا في طاعةِ اللهِ تابعُ

يريدُ السابقةَ بإخلاصِ الطاعةِ، واللهُ أعلمُ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ قرأ ابنُ كثيرٍ والكوفيونَ عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ ﴿لَسَٰحِرٌ﴾ نعتًا لرسولِ اللهِ ﷺ. وقرأ الباقونَ: «لَسِحْرٌ» نعتًا للقرآنِ وقدْ تقدمَ معنى السحرِ في «البقرة».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تقدمَ في الأعرافِ.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ يقضيهِ ويقدرهُ وحدهُ لا يشركهُ في تدبيرِ خلقهِ أحدٌ. **وقيل**: يبعثُ بالأمر. وقيل: ينزلُ بهِ. وقيل: يأمرُ بهِ ويمضيهِ، والمعنى متقاربٌ. فجبريلُ للوحيِ، وميكائيلُ للقطرِ، وإسرافيلُ للصورِ، وعزرائيلُ للقبضِ. وحقيقتهُ تنزيلُ الأمورِ في مراتبها على أحكامِ عواقبها، واشتقاقهُ منَ الدبرِ. والأمر اسمٌ لجنسِ الأمورِ ﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾ في موضعِ رفعٍ، والمعنى ما شفيعٌ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ وتقدمَ في «البقرةِ» معنى الشفاعةِ. فلا يشفعُ أحدٌ نبيٌّ ولا غيرهُ إلا بإذنهِ سبحانهُ، وهذا ردٌّ على الكفارِ في قولهمْ فيما عبدوهُ منْ دونِ اللهِ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ فأعلمهمُ اللهُ أنَّ أحدًا لا يشفعُ لأحدٍ إلا بإذنهِ، فكيفَ بشفاعةِ أصنامٍ لا تعقلُ.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ أيْ ذلكمُ الذي فعلَ هذهِ الأشياءَ منْ خلقِ السمواتِ والأرضِ هوَ ربكمْ لا ربَّ لكمْ غيرهُ. ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ أيْ وحدوهُ وأخلصوا لهُ العبادةَ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أيْ أنها مخلوقاتهُ فتستدلوا بها عليهِ.

قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ رفعَ بالابتداءِ. ﴿جَمِيعٗاۖ﴾ نصبَ على الحالِ. ومعنى الرجوع إلى الله الرجوع إلى جزائه ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ﴾ مصدرانِ، أيْ وعدَ اللهُ ذلكَ وعدًا وحققهُ ﴿حَقًّاۚ﴾ صدقًا لا خلفَ فيهِ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ أيْ منَ الترابِ. ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ إليهِ، فينشئهُ ثمَّ يميتهُ ثمَّ يحييهِ للبعثِ.

وقرأ يزيدُ بنُ القعقاع «أَنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ» تكونُ «أنَّ» في موضعِ نصبٍ، أيْ وعدكمْ أنهُ يبدأُ الخلقَ، ويجوزُ أنْ يكونَ التقديرُ لأنهُ يبدأُ الخلقَ، كما يقالُ: لبيكَ أنَّ الحمدَ والنعمةَ لكَ، والكسرُ أجودُ.

قوله تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ أيْ بالعدلِ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ أيْ ماءٌ حارٌّ ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ﴾ أيْ موجعٌ، يخلصُ وجعهُ إلى قلوبهمْ ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ أيْ بكفرهمْ، وكانَ معظمُ قريشٍ يعترفونَ بأنَّ اللهَ خالقهمْ، فاحتجَّ عليهمْ بهذا فقالَ: منْ قدرَ على الابتداءِ قدرَ على الإعادةِ بعدَ الإفناء أو بعد تفريق الأجزاء.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ﴾ مفعولانِ، أيْ مضيئةً، ولمْ يؤنثْ لأنهُ مصدرٌ، أوْ ذات ضياءٍ ﴿وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ عطفٌ، أيْ منيرًا، أوْ ذا نورٍ ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ أيْ ذا منازلَ، أوْ قدرَ لهُ منازلَ. ثمَّ قيلَ: المعنى وقدرهما، فوحدَ إيجازًا واختصارًا، كما قالَ: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾.

وقيل: إنَّ الإخبارَ عنِ القمرِ وحدهُ، إذْ بهِ تحصى الشهورُ التي عليها العملُ في المعاملاتِ ونحوها، وفي سورة يس: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ أيْ على عددِ الشهرِ، وهوَ ثمانيةٌ وعشرونَ منزلًا، ويومانِ للنقصانِ والمحاقِ.

قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ واحدُ ﴿ٱلسِّنِينَ﴾ سنةٌ، ومنَ العربِ منْ يقولُ: سنواتٌ في الجمعِ ومنهمْ منْ يقولُ: سنهاتٌ. والتصغيرُ سنيةٌ وسنيهةٌ ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أيْ ما أرادَ اللهُ عزَّ وجلَّ بخلقِ ذلكَ إلا الحكمةَ والصوابَ، وإظهارًا لصنعتهِ وحكمتهِ، ودلالةً على قدرتهِ وعلمهِ، ولتجزى كلُّ نفسٍ بما كسبتْ، فهذا هوَ الحقُّ.

﴿يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ تفصيلُ الآياتِ تبيينها ليستدلَّ بها على قدرتهِ تعالى، لاختصاصِ الليلِ بظلامهِ والنهارِ بضيائهِ منْ غيرِ استحقاقٍ لهما ولا إيجاب.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو وحفصٌ ويعقوبُ ﴿يُفَصِّلُ﴾ بالياءِ، لقولهِ منْ قبلهِ: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ وبعدهُ ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فيكونُ متبعًا لهُ، وقرأَ الباقون «نُفَصِّلُ» بالنون على التعظيم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾.

قيلَ: إنَّ سببَ نزولها أنَّ أهلَ مكةَ سألوا آيةً فردهمْ إلى تأملِ مصنوعاتهِ والنظرِ فيها، قاله ابنُ عباسٍ. ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ أيِ الشركَ، فأما منْ أشركَ ولمْ يستدلَّ فليستِ الآيةُ لهُ آية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ ﴿يَرْجُونَ﴾ يخافونَ، وقيلَ: يرجونَ يطمعونَ، فالرجاءُ يكونُ بمعنى الخوفِ والطمعِ، أيْ لا يخافونَ عقابًا ولا يرجونَ ثوابًا. وجعلَ لقاءُ العذابِ والثوابِ لقاءٌ للهِ تفخيمًا لهما. وقيل: يجري اللقاءُ على ظاهرهِ، وهوَ الرؤيةُ، أيْ لا يطمعونَ في رؤيتنا.

وقالَ بعضُ العلماءِ: لا يقعُ الرجاءُ بمعنى الخوفِ إلا معَ الجحدِ، كقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾. وقالَ بعضهمْ: بلْ يقعُ بمعناهُ في كلِّ موضعٍ دلَّ عليهِ المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أيْ رضوا بها عوضًا منَ الآخرةِ فعملوا لها ﴿وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ أيْ فرحوا بها وسكنوا إليها ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ أيْ عنْ أدلتنا ﴿غَٰفِلُونَ﴾ لا يعتبرونَ ولا يتفكرونَ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ﴾ أيْ مثواهمْ ومقامهمُ ﴿ٱلنَّارُ بِمَا

كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أي من الكفر والتكذيب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أيْ صدقوا ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ أيْ يزيدهمْ هدايةً، كقولهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾. وقيل: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ إلى مكانٍ تجري منْ تحتهمُ الأنهارُ، وقيل: بالنورِ على الصراطِ إلى الجنةِ، يجعلُ لهمْ نورًا يمشونَ بهِ.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ قيلَ: في الكلامِ واوٌ محذوفةٌ، أيْ وتجري منْ تحتهمْ، أيْ منْ تحتِ بساتينهمْ. وقيل: منْ تحتِ أسرتهمْ، وهذا أحسنُ في النزهةِ والفرجة.

قوله تعالى: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ دعواهم: دعاؤهم، والدعوى مصدرُ دعا يدعو، كالشكوى مصدرُ شكا يشكو، أي دعاؤهم في الجنةِ أنْ يقولوا سبحانكَ اللهمَّ وقيل: إذا أرادوا أنْ يسألوا شيئًا أخرجوا السؤالَ بلفظِ التسبيحِ ويختمونَ بالحمدِ. وقيل: نداؤهمُ الخدمَ ليأتوهمْ بما شاءوا ثمَّ سبحوا.

وقيل: إنَّ الدعاءَ هنا بمعنى التمني قالَ اللهُ تعالى ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أيْ ما تتمنونَ. واللهُ أعلمُ.

قوله تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ﴾ أيْ تحيةُ اللهِ لهمْ أوْ تحيةُ الملَكِ أوْ تحيةُ بعضهمْ لبعضٍ: سلامٌ.

قوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قيلَ: إنَّ أهلَ الجنةِ إذا مرَّ بهمُ الطيرُ واشتهوهُ قالوا: سبحانكَ اللهمَّ، فيأتيهمُ الملكُ بما اشتهوا، فإذا أكلوا حمدوا اللهَ فسؤالهمْ بلفظِ التسبيحِ والختمُ بلفظِ الحمدِ. ولمْ يحكِ أبو عبيدٍ إلا تخفيفَ «أنْ» ورفعِ ما بعدها، وفرّقوا بينها وبينَ قولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿أَنَّ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ﴾ و ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ﴾ لأنهمْ أرادوا الحكايةَ حينَ يقالُ الحمدُ للهِ.

الثانية: التسبيحُ والحمدُ والتهليلُ قدْ يسمى دعاءً، روى مسلمٌ والبخاريُّ عنِ ابنِ عباسٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يقولُ عندَ الكربِ: «لا إلهَ إلا اللهُ العظيمُ الحليمُ. لا إلهَ إلا اللهُ ربُّ العرشِ العظيمِ. لا إلهَ إلا اللهُ ربُّ السمواتِ وربُّ الأرضِ وربُّ العرشِ الكريمِ».

قالَ الطبريُّ: كانَ السلفُ يدعونَ بهذا الدعاءِ ويسمونهُ دعاءَ الكربِ. وقالَ ابنُ عيينةَ وقدْ سئلَ عنْ هذا فقالَ: أما علمتَ أنَّ اللهَ تعالى يقولُ «إذا شغلَ عبدي ثناؤهُ عنْ مسألتي أعطيتهُ أفضلَ ما أعطيَ السائلينَ».

والذي يقطعُ النزاعَ وأنَّ هذا يسمى دعاءً وإنْ لمْ يكن فيه من معنى الدعاء شيء وإنما هوَ تعظيمٌ للهِ تعالى وثناءٌ عليهِ ما رواه النسائي عن سعد ابن أبي وقاصٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «دعوة ذي النون إذ دعا بها في بطنِ الحوتِ: لا إلهَ إلا أنتَ سبحانكَ إني كنتُ منَ الظالمينَ فإنه لن يدعو بها مسلم في شيء إلا استجيبَ لهُ».

الثالثة: منَ السنةِ لمنْ بدأَ بالأكلِ أنْ يسميَ اللهَ عندَ أكلهِ وشربهِ ويحمدهُ عندَ فراغهِ اقتداءً بأهلِ الجنةِ، وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ أنس قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ ليرضى عنِ العبدِ أنْ يأكلَ الأكلةَ فيحمدهُ عليها أوْ يشربَ الشربةَ فيحمدهُ عليها».

الرابعة: يستحبُّ للداعي أنْ يقولَ في آخرِ دعائهِ كما قالَ أهلُ الجنةِ: وآخرُ دعواهمْ أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، وحسُنَ أنْ يقرأَ آخرَ «والصافاتِ» فإنها جمعتْ تنزيهَ الباريءِ تعالى عما نسبَ إليهِ، والتسليمَ على المرسلينَ، والختمَ بالحمدِ للهِ ربِّ العالمينَ.

قوله تعالى: ﴿۞وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿۞وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾ أي ولو عجّل اللهُ للكافرِ العذابَ على كفرهِ كما عجلَ لهُ خيرَ الدنيا منَ المالِ والولدِ لعجلَ له قضاء أجله ليتعجل

عذاب الآخرة، وقيل: هوَ قولُ النضرِ بنِ الحارثِ: اللهمَّ إنْ كانَ هذا هوَ الحقَّ منْ عندكَ فأمطرْ علينا حجارةً منَ السماءِ، فلوْ عجلَ لهمْ هذا لهلكوا.

وقالَ مجاهدٌ: نزلتْ في الرجلِ يدعو على نفسهِ أوْ مالهِ أوْ ولدهِ إذا غضبَ: اللهمَّ أهلكهُ، اللهمَّ لا تباركْ لهُ فيهِ والعنهُ، أوْ نحوَ هذا، فلوِ استجيبَ ذلكَ منهُ كما يستجابُ الخيرُ لقضيَ إليهمْ أجلهمْ.

الثانية: وقدْ يستجابُ ذلكَ الدعاءُ، لحديثِ جابرٍ الذي رواهُ مسلمٌ في صحيحهِ آخرَ الكتابِ، قالَ: سرنا معَ رسولِ اللهِ ﷺ في غزوةِ بطنِ بُواطٍ وهوَ يطلب المجدي بن عمرو الجهني وكانَ الناضحُ يعتقبهُ منا الخمسةُ والستةُ والسبعةُ، فدارتْ عقبةُ رجلٍ منَ الأنصارِ على ناضحٍ لهُ فأناخهُ فركبَ، ثمَّ بعثهُ فتلدنَ عليهِ بعضَ التلدنِ، فقالَ لهُ: شأْ، لعنكَ اللهِ! فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «منْ هذا اللاعنُ بعيرهُ»؟ قالَ: أنا يا رسولَ اللهِ، قالَ: «انزلْ عنهُ فلا تصحبنا بملعونٍ لا تدعوا على أنفسكمْ ولا تدعوا على أولادكمْ ولا تدعوا على أموالكمْ لا توافقوا منَ اللهِ ساعةً يسألُ فيها عطاءً فيستجيبَ لكمْ».

الثالثة: قولهُ تعالى: ﴿۞وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ﴾ قالَ العلماءُ: التعجيلُ منَ اللهِ، والاستعجالُ منَ العبدِ.

وقرأَ ابنُ عامرٍ «لَقَضَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَجَلَهُمۡ». وهيَ قراءةٌ حسنةٌ، لأنهُ متصلٌ بقولهِ: ﴿۞وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أيْ لا يعجلُ لهمُ الشرَّ فربما يتوبُ منهمْ تائبٌ، أوْ يخرجُ منْ أصلابهمْ مؤمنٌ ﴿فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ أيْ يتحيرونَ. والطغيانُ: العلوُّ والارتفاعُ.

وقدْ قيلَ: إنَّ المرادَ بهذهِ الآيةِ أهلُ مكةَ، وإنها نزلتْ حينَ قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ﴾ الآية، على ما تقدم والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ قيلَ: المرادُ بالإنسانِ هنا الكافرُ ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ أيْ على جنبِهِ مضطجعًا ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ وإنما أرادَ جميعَ حالاتِهِ، لأنَّ الإنسانَ لا يعدو إحدى هذه الحالات الثلاثة. قالَ بعضهمْ: إنما بدأَ بالمضطجعِ لأنهُ بالضرِّ أشدُّ في غالبِ الأمر، فهوَ يدعو أكثرَ، واجتهادُهُ أشدُّ، ثمَّ القاعدِ ثمَّ القائمِ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ﴾ أيِ استمرَّ على كفرِهِ ولمْ يشكرْ ولمْ يتعظْ.

قلتُ: وهذهِ صفةُ كثيرٍ من المخلطين الموحدينَ، إذا أصابتهُ العافيةُ مرَّ على ما كانَ عليهِ منَ المعاصي، فالآيةُ تعمُّ الكافرَ وغيرهُ ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ﴾ قالَ الأخفشُ: هيَ "كَأَنَّ" الثقيلةُ خففتْ، والمعنى كأنهُ. ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ﴾ أيْ كما زينَ لهذا الدعاءُ عندَ البلاءِ والإعراض عند الرخاءِ ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أيْ للمشركينَ أعمالهمْ منَ الكفرِ والمعاصي. وهذا التزيينُ يجوزُ أنْ يكونَ منَ اللهِ، ويجوزُ أنْ يكونَ منَ الشيطانِ، وإضلاله دعاؤه إلى الكفر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ يعني الأممَ الماضيةَ منْ قبلِ أهلِ مكةَ أهلكناهمْ ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ أيْ كفروا وأشركوا ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أيْ بالمعجزاتِ الواضحاتِ والبراهينِ النيراتِ ﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ أي أهلكناهم لعلمنا أنهمْ لا يؤمنونَ. يخوفُ كفارَ مكةَ عذابَ الأممِ الماضيةِ، أيْ نحنُ قادرونَ على إهلاكِ هؤلاءِ بتكذيبهمْ محمدًا ﷺ، ولكنْ نمهلهمْ لعلمنا بأنَّ فيهمْ منْ يؤمنُ، أوْ يخرجُ منْ أصلابهمْ منْ يؤمنُ. وهذهِ الآيةُ تردُّ على أهلِ الضلالِ القائلينَ بخلقِ الهدى والإيمانِ. وقيل: معنى ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾ أيْ جازاهمْ على كفرهمْ بأنْ طبعَ على قلوبهمْ، ويدلُّ على هذا أنهُ قالَ: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ مفعولانِ. والخلائفُ جمعُ خليفةٍ، وقدْ تقدمَ آخر «الأنعام» أي جعلناكم سكانًا في الأرضِ. ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أيْ منْ بعدِ القرونِ المهلكةِ. ﴿لِنَنظُرَ﴾ نصبَ بلامِ كيْ، أيْ ليقعَ منكمْ ما تستحقونَ بهِ الثوابَ والعقابَ، ولمْ يزلْ يعلمهُ

غيبًا. وقيل: يعاملكمْ معاملةَ المختبرِ إظهارًا للعدلِ. وقيل: النظرُ راجعٌ إلى الرسلِ، أيْ لينظر رسلنا وأولياؤنا ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ كيف أعمالكم. و ﴿كَيْفَ﴾ نصبَ بقولهِ: تعملونَ: لأنَّ الاستفهامَ لهُ صدرُ الكلامِ فلا يعملُ فيه ما قبله.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾، فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ ﴿تُتْلَىٰ﴾ تقرأ، و ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ نصبَ على الحالِ، أيْ واضحاتٍ لا لبسَ فيها ولا إشكالَ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ يعني لا يخافونَ يومَ البعثِ والحسابِ ولا يرجونَ الثوابَ. قالَ قتادةُ: يعني مشركي أهلِ مكةَ ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ والفرقُ بينَ تبديلهِ والإتيانِ بغيرهِ أنَّ تبديلهُ لا يجوزُ أنْ يكونَ معهُ، والإتيانَ بغيرهِ قد يجوز أن يكون معه، وفي قولهم ذلك ثلاثة أوجه:

أحدها- أنهمْ سألوهُ أنْ يحولَ الوعدَ وعيدًا والوعيدَ وعدًا، والحلالَ حرامًا والحرامَ حلالًا.

الثاني- سألوهُ أنْ يسقطَ ما في القرآنِ منْ عيبِ آلهتهمْ وتسفيهِ أحلامهمْ.

الثالثُ- أنهمْ سألوهُ إسقاطَ ما فيهِ منْ ذكرِ البعثِ والنشورِ.

الثانية: قولهُ تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ﴾ أيْ قلْ يا محمدُ ما كانَ لي. ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ ومنْ عندي، كما ليسَ لي أنْ ألقاهُ بالردِّ والتكذيبِ ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أيْ لا أتبعُ إلا ما أتلوهُ عليكمْ منْ وعدٍ ووعيدٍ، وتحريمٍ وتحليلٍ، وأمرٍ ونهيٍ. وقدْ يستدلُّ بهذا منْ يمنعُ نسخَ الكتابِ بالسنةِ، لأنهُ تعالى قالَ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن

تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓۖ﴾ وهذا فيهِ بعدٌ، فإنَّ الآيةَ وردتْ في طلبِ المشركينَ مثلَ القرآنِ نظمًا، ولمْ يكنِ الرسولُ ﷺ قادرًا على ذلكَ، ولمْ يسألوهُ تبديلَ الحكمِ دونَ اللفظِ، ولأنَّ الذي يقولهُ الرسولُ ﷺ إذا كانَ وحيًا لمْ يكنْ منْ تلقاءِ نفسهِ، بلْ كانَ منْ عندِ اللهِ تعالى.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾ أيْ إنْ خالفتُ في تبديلهِ وتغييرهِ أوْ في تركِ العملِ بهِ ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾ أيْ لوْ شاءَ اللهُ ما أرسلني إليكمْ فتلوتُ عليكمُ القرآنَ، ولا أعلمكمُ اللهُ ولا أخبركمْ بهِ، وفي الدراية معنى الختلِ، ومنهُ دريتُ الرجلَ أيْ ختلتهُ، ولهذا لا يطلقُ الداري في حقِّ اللهِ تعالى وأيضًا عُدمَ فيهِ التوقيفُ.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ: «وَلَأَدْرَاكُمْ بِهِ» بغيرِ ألفٍ بينَ اللامِ والهمزةِ، والمعنى: لوْ شاءَ اللهُ لأعلمكمْ بهِ منْ غيرِ أنْ أتلوهُ عليكمْ، فهيَ لامُ التأكيدِ دخلتْ على ألفِ أفعلَ.

قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا﴾ ظرفٌ، أيْ مقدارًا منَ الزمانِ وهوَ أربعونَ سنةً ﴿مِّن قَبۡلِهِۦٓ﴾ أيْ منْ قبلِ القرآنِ، تعرفونني بالصدقِ والأمانةِ، لا أقرأُ ولا أكتبُ، ثمَّ جئتكمْ بالمعجزاتِ ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أنَّ هذا لا يكونُ إلا منْ عندِ اللهِ لا منْ قِبلي. وقيل: معنى ﴿لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا﴾ أيْ لبثتُ فيكمْ مدةَ شبابي لمْ أعصِ الله أفتريدون مني الآنَ وقدْ بلغتُ أربعينَ سنةً أنْ أخالفَ أمرَ اللهِ وأغيرَ ما ينزلهُ عليَّ. قال قتادة: لبث فيهمْ أربعينَ سنةً وأقامَ ستينِ يرى رؤيا الأنبياءِ وتوفيَ ﷺ وهوَ ابن اثنتين وستين سنة.

قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٧﴾.

هذا استفهامٌ بمعنى الجحدِ، أيْ لا أحدَ أظلمُ ممنِ افترى على اللهِ الكذبَ، وبدلَ كلامهُ وأضافَ شيئًا إليهِ مما لمْ ينزلهُ. وكذلكَ لا أحدَ أظلمُ منكمْ إذا أنكرتمُ القرآنَ وافتريتمْ على اللهِ الكذبَ، وقلتمْ ليسَ هذا كلامهُ. وهذا مما أمرَ بهِ الرسولُ ﷺ أنْ يقولَ لهمْ. وقيل: هوَ منْ قولِ اللهِ ابتداءً. وقيل: المفتري المشركُ، والمكذبُ بالآياتِ أهلُ الكتابِ.

قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ يريدُ الأصنامَ ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ وهذهِ غايةُ الجهالةِ منهمْ، حيثُ ينتظرونَ الشفاعةَ في المآلِ ممنْ لا يوجدُ منهُ نفعٌ ولا ضرٌّ في الحالِ. وقيل: ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا﴾ أيْ تشفعُ لنا عندَ اللهِ في إصلاح معايشنا في الدنيا ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ قراءةُ العامةِ «تُنَبِّئُونَ» بالتشديدِ.

وقرأَ أبو السّمّالِ العَدَويُّ «أَتُنْبِئُونَ اللهَ» مخففًا، منْ أنبأَ ينبيءُ، وقراءةُ العامةِ منْ نبأَ ينبئُ تنبئةً، وهما بمعنى واحدٍ، جمعهما قولهُ تعالى: ﴿مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ أيْ أتخبرونَ اللهَ أنَّ لهُ شريكًا في ملكهِ أوْ شفيعًا بغيرِ إذنهِ، واللهُ لا يعلم لنفسه شريكا في السموات ولا في الأرضِ، لأنهُ لا شريكَ لهُ فلذلكَ لا يعلمهُ. نظيرهُ قولهُ: ﴿أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ثمَّ نزهَ نفسهُ وقدسها عنِ الشركِ فقالَ: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أيْ هوَ أعظمُ منْ أنْ يكونَ لهُ شريكٌ، وقيل: المعنى أيْ يعبدونَ ما لا يسمعُ ولا يبصرُ ولا يميزُ ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ فيكذبونَ، وهلْ يتهيأُ لكمْ أنْ تنبئوهُ بما لا يعلمُ، سبحانهُ وتعالى عما يشركونَ!. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ «تُشْرِكُونَ» بالتاءِ، والباقون بالياء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ﴾ قيلَ: كلُّ مولودٍ يولدُ على الفطرة، فاختلفوا عند البلوغ. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ إشارةٌ إلى القضاءِ والقدرِ، أيْ لولا ما سبقَ في حكمهِ أنهُ لا يقضي بينهمْ فيما اختلفوا فيهِ بالثوابِ والعقابِ دونَ القيامةِ لقضيَ بينهمْ في الدنيا، فأدخلَ المؤمنين الجنة بأعمالهم والكافرين النار بكفرهم، ولكنهُ سبقَ منَ اللهِ الأجلُ معَ علمهِ بصنيعهم فجعل موعدهم القيامةَ.

وقيل: ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ لأقامَ عليهمُ الساعةَ. وقيل: لفرغَ منْ هلاكهمْ.

وقيل: «الكلمةُ» أنَّ اللهَ أخرَ هذهِ الأمةَ فلا يهلكهمْ بالعذابِ في الدنيا إلى يومِ القيامةِ، فلولا هذا التأخيرُ لقضيَ بينهمْ بنزولِ العذابِ أوْ بإقامةِ الساعةِ.

والآيةُ تسليةٌ للنبيِّ ﷺ في تأخيرِ العذابِ عمنْ كفرَ بهِ. وقيل: الكلمةُ السابقةُ أنهُ لا يأخذُ أحدًا إلا بحجةٍ وهوَ إرسالُ الرسلِ، كما قالَ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وقيل: الكلمةُ قولهُ: «سبقتْ رحمتي غضبي» ولولا ذلكَ لما أخرَ العصاةَ إلى التوبةِ.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يريدُ أهلَ مكةَ، أيْ هلا أنزلَ عليهِ آيةٌ، أيْ معجزةٌ غيرُ هذهِ المعجزةِ، فيجعلُ لنا الجبالَ ذهبًا ويكونُ لهُ بيتٌ منْ زخرفٍ، ويحيي لنا منْ ماتَ منْ آبائنا. وقالَ الضحاكُ: عصًا كعصا موسى ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أيْ قلْ يا محمدُ إنَّ نزولَ الآيةِ غيبٌ ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ أيْ تربصوا ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لنزولها. وقيل: انتظروا قضاءَ الله بيننا بإظهار المحق على المبطل.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾ يريدُ كفارَ مكةَ ﴿رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ قيلَ: رخاءٌ بعدَ شدةٍ، وخصبٌ بعدَ جدبٍ ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ أيِ استهزاءٌ وتكذيبٌ. وجوابُ قولهِ: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا﴾ : ﴿إِذَا لَهُم﴾.

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ. ﴿مَكْرًا﴾ على البيانِ، أيْ أعجلُ عقوبةً على جزاءِ مكرهمْ، أيْ أنَّ ما يأتيهمْ منَ العذابِ أسرعُ في إهلاكهم مما أتوهُ منَ المكرِ ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ يعني بالرسلِ الحفظةَ. وقراءةُ العامةِ ﴿تَمْكُرُونَ﴾ بالتاءِ خطابًا.

وقرأ يعقوبُ في روايةِ رويسٍ وأبو عمرو في روايةِ هارونَ العتكيِّ «يَمْكُرُونَ» بالياءِ، لقولهِ: ﴿إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ أيْ يحملكمْ في البرِّ على الدوابِّ وفي البحرِ على الفلكِ. والآيةُ تتضمنُ تعديدَ النعمِ فيما هيَ الحالُ بسبيلهِ منْ ركوبِ الناسِ الدوابَّ والبحرَ.

و ﴿يُسَيِّرُكُمۡ﴾ قراءةُ العامةِ. وقرأ ابنُ عامرٍ «يَنْشُرُكُمْ» بالنونِ والشينِ، أيْ يبثكمْ ويفرقكمْ. والفلكُ يقعُ على الواحدِ والجمعِ، ويذكرُ ويؤنثُ، وقولهُ: ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ خروجٌ منَ الخطابِ إلى الغيبةِ، وهوَ في القرآنِ وأشعارِ العربِ كثيرٌ، قالَ النابغةُ:

يا دارَ ميةَ بالعلياءِ فالسندِ أقوت وطال عليها سالف الأمد

قالَ ابنُ الأنباريِّ: وجائزٌ في اللغةِ أنْ يرجعَ منْ خطابِ الغيبةِ إلى لفظِ المواجهةِ بالخطابِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾ فأبدلَ الكافَ منَ الهاءِ.

قوله تعالى: ﴿بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ الضميرُ في ﴿جَآءَتۡهَا﴾ للسفينةِ. وقيلَ: للريحِ الطيبةِ. والعاصفُ الشديدةُ، قالَ الشاعرُ:

حتى إذا أعصفتْ ريحٌ مزعزعةٌ فيها قِطارٌ ورعدٌ صوتهُ زجلُ

وقالَ ﴿عَاصِفٞ﴾ بالتذكيرِ لأنَّ لفظَ الريحِ مذكرٌ، وهيَ القاصفُ أيضًا. والطيبةُ غيرُ عاصفٍ ولا بطيئةٍ ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ والموجُ ما ارتفعَ منَ الماءِ ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ أيْ أيقنوا ﴿أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ أيْ أحاطَ بهمُ البلاءُ ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أيْ دعوهُ وحدهُ وتركوا ما كانوا يعبدونَ.

وفي هذا دليلٌ على أنَّ الخلقَ جبلوا على الرجوعِ إلى اللهِ في الشدائدِ، وأنَّ المضطرَّ يجابُ دعاؤهُ وإنْ كانَ كافرًا، لانقطاعِ الأسبابِ ورجوعهِ إلى الواحدِ ربِّ الأربابِ، على ما يأتي بيانهُ في «النملِ» إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

مسألةٌ- هذهِ الآيةُ تدلُّ على ركوبِ البحرِ مطلقًا، ومنَ السنةِ حديثُ أبي هريرةَ وفيهِ: إنا نركبُ البحرَ ونحملُ معنا القليلَ منَ الماءِ... الحديثَ. وحديثُ أنسٍ في قصةِ أمِّ حرام يدلُّ على جوازِ ركوبهِ في الغزوِ، وقدْ مضى هذا المعنى في «البقرةِ» مستوفى. وقدْ تقدمَ في آخرِ «الأعرافِ» حكمُ راكبِ البحرِ في حالِ ارتجاجهِ وغليانهِ، هلْ حكمهُ حكمُ الصحيحِ أوِ المريضِ المحجورِ عليهِ، فتأملهُ هناك.

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ أيْ من هذهِ الشدائدِ والأهوالِ. وقيل: منْ هذهِ الريحِ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أيْ منَ العاملينَ بطاعتكَ على نعمةِ الخلاصِ.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾ أيْ خلّصهم وأنقذهم ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أيْ يعملونَ في الأرضِ بالفسادِ وبالمعاصي. والبغيُ: الفسادُ والشركُ، منْ بغى الجرحُ إذا فسدَ، وأصلهُ الطلبُ، أيْ يطلبونَ الاستعلاءَ بالفسادِ ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أيْ بالتكذيبِ، ومنهُ بغتِ المرأةُ طلبتْ غيرَ زوجها. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ أيْ وبالهُ عائدٌ عليكمْ، وتمَّ الكلامُ، ثمَّ ابتدأَ فقالَ: ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أيْ هوَ متاعُ الحياةِ الدنيا، ولا بقاءَ لهُ ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ معنى الآيةِ التشبيهُ والتمثيلُ، أيْ صفةُ الحياةِ الدنيا في فنائها وزوالها وقلة خطرها والملاذِّ بها كماءٍ، أيْ مثلُ ماءٍ، فالكافُ في موضعِ رفعٍ. ﴿أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ نعتٌ لِـ﴿مَآءٍ﴾ ﴿فَٱخْتَلَطَ﴾ رويَ عنْ نافعٍ أنهُ وقفَ على ﴿فَٱخْتَلَطَ﴾ أيْ فاختلطَ الماءُ بالأرضِ، ثمَّ ابتدأَ ﴿بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ أيْ بالماءِ نباتُ الأرضِ، فأخرجتْ ألوانًا منَ النباتِ، فنباتُ على هذا ابتداءٌ، وعلى مذهبِ منْ لمْ يقفْ على ﴿فَٱخْتَلَطَ﴾ مرفوعٌ باختلطَ، أيِ اختلطَ النباتُ بالمطرِ، أيْ شربَ منهُ فتندى وحسنَ واخضرَّ. والاختلاطُ تداخلُ الشيءِ بعضهُ في بعضٍ.

قوله تعالى: ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ﴾ منَ الحبوبِ والثمارِ والبقولِ ﴿وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ منَ الكلإِ والتبنِ والشعيرِ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أيْ حسنها وزينتها ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ أيْ بالحبوبِ والثمارِ والأزهارِ، والأصلُ تزينتْ أدغمتِ التاءُ في الزاي وجيءَ بألفِ الوصلِ،

لأنَّ الحرفَ المدغمَ مقامُ حرفينِ الأولُ منهما ساكنٌ والساكنُ لا يمكنُ الابتداءُ بهِ. وقرأ ابنُ مسعودٍ وأبيُّ بنُ كعبٍ «وَتَزَيَّنَتْ» على الأصلِ.

قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾ أيْ أيقنَ ﴿أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أيْ على حصادها والانتفاعِ بها، أخبرَ عنِ الأرضِ والمعنيُّ النباتُ إذْ كان مفهوما وهو منها. وقيل: ردَّ إلى الغلةِ، وقيل: إلى الزينةِ ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ أيْ عذابنا، أوْ أمرنا بهلاكها ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ ظرفانِ ﴿فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا﴾ مفعولانِ، أيْ محصودةً مقطوعة لا شيء فيها. وقالَ ﴿حَصِيدًا﴾ ولمْ يؤنثْ لأنهُ فعيلٌ بمعنى مفعولٍ. والحصيدُ المستأصلُ ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ أيْ لمْ تكنْ عامرةً، منْ غنيَ إذا أقامَ فيهِ وعَمَرهُ. والمغاني في اللغةِ: المنازلُ التي يعمرها الناسُ.

وقراءةُ العامةِ ﴿تَغْنَ﴾ بالتاءِ لتأنيثِ الأرضِ. وقرأ قتادةُ «يَغْنَ» بالياءِ، يذهبُ بهِ إلى الزخرفِ، يعني فكما يهلكُ هذا الزرعُ هكذا كذلكَ الدنيا ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ أيْ نبينها ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في آيات الله.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ﴾ لمّا ذكرَ وصفَ هذهِ الدارَ وهيَ دارُ الدنيا وصفَ الآخرةَ فقالَ: إن الله لا يدعوكم إلى جمعِ الدنيا بلْ يدعوكمْ إلى الطاعةِ لتصيروا إلى دارِ السلامِ، أيْ إلى الجنةِ. قالَ قتادةُ والحسنُ: السلامُ هوَ اللهُ، ودارهُ الجنةُ، وسميتِ الجنةُ دارَ السلامِ لأنَّ منْ دخلها سلمَ منَ الآفاتِ. ومنْ أسمائهِ سبحانهُ «السلامُ». وقيل: المعنى واللهُ يدعو إلى دارِ السلامةِ. والسلامُ والسلامةُ بمعنى كالرضاعِ والرضاعةِ، وقيل: أرادَ واللهُ يدعو إلى دارِ التحيةِ، لأنَّ أهلها ينالونَ منَ اللهِ التحيةَ والسلامَ، وكذلكَ منَ الملائكةِ. قالَ الحسنُ: إنَّ السلامَ لا ينقطعُ عنْ أهلِ الجنةِ، وهوَ تحيتهمْ، كما قال: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ﴾.

وقالَ ابنُ عباسٍ: الجنانُ سبعٌ: دارُ الجلالِ، ودارُ السلامِ، وجنةُ عدنٍ، وجنةُ المأوى، وجنةُ الخلدِ، وجنةُ الفردوسِ، وجنةُ النعيمِ.

قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ عمَّ بالدعوةِ إظهارًا لحجتهِ، وخصَّ بالهدايةِ استغناءً عنْ خلقهِ. والصراطُ المستقيمُ، قيلَ: كتابُ اللهِ، وقيل: الإسلامُ، وقيل: الحقُّ، وقيل: رسولُ اللهِ ﷺ وصاحباهُ منْ بعدهِ أبو بكرٍ وعمرُ رضي الله عنهما.

وهذهِ الآيةُ بينةُ الحجةِ في الردِّ على القدريةِ، لأنهمْ قالوا: هدى اللهُ الخلقَ كلهمْ إلى صراطٍ مستقيمٍ، واللهُ قالَ: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ فردوا على اللهِ نصوص القرآن.

قوله تعالى: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

رويَ منْ حديثِ أنسٍ قالَ: سئلَ رسولُ اللهِ ﷺ عنْ قوله تعالى: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ قالَ: «للذينَ أحسنوا العملَ في الدنيا لهمُ الحسنى وهيَ الجنةُ والزيادةُ النظرُ إلى وجهِ اللهِ الكريمِ» وهوَ الصحيحُ في البابِ. وروى مسلمٌ في صحيحهِ عنْ صهيبٍ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «إذا دخلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ قالَ اللهُ تباركَ وتعالى تريدونَ شيئًا أزيدكمْ فيقولونَ ألمْ تبيضْ وجوهنا ألمْ تدخلنا الجنةَ وتنجنا منَ النارِ قالَ فيكشفُ الحجابَ فما أعطوا شيئًا أحبَّ إليهمْ منَ النظرِ إلى ربهمْ عزَّ وجلَّ»، وفي روايةٍ ثمَّ تلا: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ﴾ قيلَ: معناهُ يلحقُ، ومنهُ قيلَ: غلامٌ مراهقٌ إذا لحقَ بالرجالِ. وقيل: يعلو. وقيل: يغشى، والمعنى متقاربٌ. ﴿قَتَرٌ﴾ غبارٌ. ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أيْ مذلةٌ، كما يلحقُ أهلَ النارِ، أيْ لا يلحقهمْ غبارٌ في محشرهمْ إلى اللهِ ولا تغشاهمْ ذلةٌ، ومنهُ قوله تعالى: ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ أيْ تعلوها غبرةٌ. وقيل: قترٌ كآبةٌ وكسوفٌ. وقيل: القترُ سوادُ الوجوهِ. وقيل: دخانُ النارِ، ومنهُ قُتارُ القدرِ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أيْ عملوا المعاصيَ. وقيل: الشركُ ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ ﴿جَزَآءُ﴾ مرفوعٌ بالابتداءِ، وخبرهُ ﴿بِمِثْلِهَا﴾. قالَ ابنُ كيسانَ: الباءُ زائدةٌ، والمعنى جزاءُ سيئةٍ مثلها. وقيل: الباءُ معَ ما بعدها الخبرُ، وهيَ متعلقةٌ بمحذوفٍ قامتْ مقامهُ، والمعنى: جزاءُ سيئةٍ كائنٌ بمثلها، كقولك: إنما أنا بك، والباءُ على هذا التقديرِ تتعلقُ بمحذوفٍ، كأنهُ قالَ لهمْ جزاءُ سيئةٍ ثابتٌ بمثلها، أوْ تكونُ مؤكدةً أوْ زائدةً. ومعنى هذهِ

المثليةِ أنَّ ذلكَ الجزاءَ مما يعدُّ مماثلًا لذنوبهمْ، أيْ همْ غيرُ مظلومينَ، وفعلُ الربِّ جلتْ قدرتهُ وتعالى شأنهُ غيرُ معللٍ بعلةٍ ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ﴾ أيْ يغشاهمْ هوانٌ وخزيٌ ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أيْ منْ عذابِ اللهِ ﴿مِنۡ عَاصِمٖۖ﴾ أيْ مانعٍ يمنعهم منه ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ﴾ أيْ ألبستْ ﴿وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا﴾ جمعُ قطعة، وعلى هذا يكون ﴿مُظۡلِمًاۚ﴾ حال ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ أيْ أغشيتْ وجوههمْ قطعًا منَ الليلِ في حالِ ظلمتهِ. وقرأ الكسائيُّ وابنُ كثيرٍ ﴿قِطۡعًا﴾ بإسكانِ الطاءِ، فَـ ﴿مُظۡلِمًاۚ﴾ على هذا نعتٌ، ويجوزُ أنْ يكونَ حالًا منَ الليلِ. والقِطْعُ اسمُ ما قطعَ فسقطَ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ﴾ أيْ نجمعهمْ، والحشرُ الجمعَ ﴿جَمِيعٗا﴾ حالٌ ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ أي اتخذوا معَ اللهِ شريكًا ﴿مَكَانَكُمۡ﴾ أيِ الزموا مكانكمْ ﴿أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ﴾ وهذا وعيدٌ ﴿فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ﴾ أيْ فرقنا وقطعنا ما كانَ بينهمْ منَ التواصلِ في الدنيا، يقالُ: زيلتهُ فتزيلَ، أيْ فرقتهُ فتفرقَ، وقرأ بعضهمْ «فَزَايَلْنَا بَيْنَهُمْ»، يقالُ: لا أزايلُ فلانًا، أيْ لا أفارقهُ ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ٢٨﴾ عنيَ بالشركاءِ الملائكةُ. وقيل: الشياطينُ، وقيل: الأصنامُ، فيُنطقها اللهُ تعالى فتكونُ بينهمْ هذهِ المحاورةُ. وذلكَ أنهمُ ادعوا على الشياطينِ الذين أطاعوهم والأصنام التي عبدوها أنهمْ أمروهمْ بعبادتهمْ. وإنْ حُملَ الشركاءُ على الشياطينِ فالمعنى أنهمْ يقولونَ ذلكَ دهشًا، أوْ يقولونَ كذبًا واحتيالًا للخلاصِ، وقدْ يجري مثلُ هذا غدا، وإن صارت المعارف ضرورية.

قوله تعالى: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ ﴿شَهِيدًا﴾ مفعولٌ، أيْ كفى اللهُ شهيدًا، أوْ تمييزٌ، أيِ اكتفِ بهِ شهيدًا بيننا وبينكمْ إنْ كنا أمرناكمْ بهذا أوْ رضيناهُ منكمْ ﴿إِن كُنَّا﴾ أيْ ما كنا ﴿عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ٢٩﴾ إلا غافلينَ لا نسمعُ ولا نبصرُ ولا نعقلُ، لأنا كنا جمادًا لا روحَ فينا.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾ في موضع نصبٍ على الظرف ﴿تَبْلُواْ﴾ أي في ذلك الوقت تذوقُ. وقيل: تعلمُ. وقيل: تختبرُ ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْۚ﴾ أيْ جزاءَ ما عملتْ وقدمتْ. وقيل: تُسّلمُ، أيْ تسلمُ ما عليها منَ الحقوقِ إلى أربابها بغيرِ اختيارها. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ «تَتْلُو» أيْ تقرأُ كلُّ نفسٍ كتابها الذي كتبَ عليها. وقيل: «تَتْلُو» تتبعُ، أيْ تتبعُ كلُّ نفسٍ ما قدمتْ في الدنيا. ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۖ﴾ بالخفضِ على البدلِ أوِ الصفةِ، ووصفَ نفسهُ سبحانهُ بالحقِّ لأنَّ الحقَّ منهُ كما وصفَ نفسهُ بالعدلِ لأنَّ العدلَ منهُ، أيْ كلُّ عدلٍ وحقٍّ فمنْ قبلهِ، وقالَ ابنُ عباسٍ: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۖ﴾ أي الذي يجازيهم بالحق ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي بطل ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ٣٠﴾ أي افتراؤهم.

فإن قيل: كيفَ قالَ: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۖ﴾ وقدْ أخبرَ بأنَّ الكافرينَ لا مولى لهمْ. قيلَ: ليسَ بمولاهمْ في النصرةِ والمعونةِ وهوَ مولى لهمْ في الرزقِ وإدرارِ النعم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١﴾، المرادُ بمساقِ هذا الكلامِ الردُّ على المشركينَ وتقريرُ الحجةِ عليهمْ، فمنِ اعترفَ منهمْ فالحجةُ ظاهرةٌ عليهمْ، ومنْ لمْ يعترفْ فيقررُ عليهِ أنَّ هذه السمواتِ والأرضَ لا بدَّ لهما منْ خالقٍ، ولا يتمارى في هذا عاقلٌ. وهذا قريبٌ منْ مرتبةِ الضرورةِ.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أيْ بالمطرِ. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ بالنبات ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ أيْ منْ جعلهما وخلقهما لكمْ ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ أيِ النباتَ منَ الأرضِ، والإنسانَ منَ النطفةِ، والسنبلةَ منَ الحبةِ، والطيرَ منَ البيضةِ، والمؤمنَ منَ الكافرِ ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ﴾ أيْ يقدرهُ ويقضيهِ ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ لأنهمْ كانوا يعتقدونَ أنَّ الخالقَ هوَ اللهُ، أوْ فسيقولونَ هوَ اللهُ إنْ فكروا وأنصفوا ﴿فَقُلْ﴾ لهمْ يا محمدُ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أيْ أفلا تخافونَ عقابهُ ونقمتهُ في الدنيا والآخرة.

قولهُ تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٣٢﴾، فيهِ ثماني مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ﴾ الذي تحقُّ لهُ الألوهيةُ ويستوجبُ العبادةَ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ ﴿ذَا﴾ صلةٌ أيْ ما بعدَ عبادةِ الإلهِ الحقِّ إذا تركتَ عبادتهُ إلا الضلالُ.

الثانية: قالَ علماؤنا: حكمتْ هذهِ الآيةُ بأنهُ ليسَ بينَ الحقِّ والباطلِ منزلةٌ ثالثةٌ في هذهِ المسألةِ التي هيَ توحيدُ اللهِ تعالى، وكذلكَ هوَ الأمر في نظائرها، وهيَ مسائلُ الأصولِ التي الحقُّ فيها في طرفٍ واحدٍ، لأنَّ الكلامَ فيها إنما هوَ في تعديدِ وجودِ ذاتٍ كيفَ هيَ، وذلكَ بخلافِ مسائلِ الفروعِ التي قالَ اللهُ تعالى فيها: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾، وقولهُ ﷺ: «الحلالُ بينٌ والحرامُ بينٌ وبينهما أمورٌ متشابهاتٌ». والكلامُ في الفروعِ إنما هوَ في أحكامٍ طارئةٍ على وجودِ ذاتٍ متقررةٍ لا يختلفُ فيها وإنما يختلفُ في الأحكامِ المتعلقةِ بها.

الثالثة: ثبتَ عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ إذا قامَ إلى الصلاةِ في جوفِ الليلِ قالَ: «اللهمَّ لكَ الحمدُ» الحديثَ. وفيهِ «أنتَ الحقُّ ووعدكَ الحقُّ وقولكَ الحقُّ ولقاؤكَ الحقُّ والجنةُ حقٌّ والنارُ حقٌّ والساعةُ حقٌّ والنبيونَ حقٌّ ومحمدٌ حقٌّ» الحديثَ. فقولهُ: «أنتَ الحقُّ» أي الواجبُ الوجودِ، وأصلهُ منْ حقَّ الشيءُ أيْ ثبتَ ووجبَ. وهذا الوصفُ للهِ تعالى بالحقيقةِ إذْ وجودهُ لنفسهِ لمْ يسبقهُ عدمٌ ولا يلحقهُ عدمٌ، وما عداهُ مما يقالُ عليهِ هذا الاسمُ مسبوقٌ بعدمٍ، ويجوزُ عليهِ لحاقُ العدمِ، ووجودهُ منْ موجدهِ لا منْ نفسهِ. وباعتبارِ هذا المعنى كانَ أصدقُ كلمةٍ قالها الشاعرُ، كلمةُ لبيدٌ:

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ

وإليهِ الإشارةُ بقولهِ تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

الرابعة: مقابلةُ الحقِّ بالضلالِ عُرفَ لغةً وشرعًا، كما في هذهِ الآيةِ. وكذلكَ أيضًا مقابلةُ الحقِّ بالباطلِ عُرفَ لغةً وشرعًا، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ

مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾. والضلالُ حقيقتهُ الذهابُ عنِ الحقِّ، أخذَ منْ ضلالِ الطريقِ، وهوَ العدولُ عنْ سمتهِ.

قالَ ابنُ عرفةَ: الضلالةُ عندَ العربِ سلوكُ غيرِ سبيلِ القصدِ، يقالُ: ضلَّ عنِ الطريقِ وأضلَّ الشيءَ إذا أضاعهُ، وعليهِ حملَ العلماءُ قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ أيْ غافلًا، في أحدِ التأويلاتِ، يحققهُ قولهُ تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾.

الخامسة: عن مالك: اللعب بالشطرنج والنرد من الضلال، وعنه: اللعبُ كلهُ منَ الباطلِ، وإنهُ لينبغي لذي العقلِ أنْ تنهاهُ اللحيةُ والشيبُ عنِ الباطلِ.

السادسة: اختلفَ العلماءُ في جوازِ اللعبِ بالشطرنجِ وغيرهِ إذا لمْ يكنْ على وجهِ القمارِ، فتحصيلُ مذهبِ مالكٍ وجمهورِ الفقهاءِ في الشطرنجِ أنَّ منْ لمْ يقامرْ بها ولعبَ معَ أهلهِ في بيتهِ مستترًا بهِ مرةً في الشهرِ أوِ العامِ، لا يطلعُ عليهِ ولا يعلمُ بهِ أنهُ معفوٌّ عنهُ غيرُ محرمٍ عليهِ ولا مكروهٍ لهُ، وأنهُ إنْ تخلعَ بهِ واشتهرَ فيهِ سقطتْ مروءتهُ وعدالتهُ وردتْ شهادتهُ. وأما الشافعيُّ فلا تسقطْ في مذهبِ أصحابهِ شهادةُ اللاعبِ بالنردِ والشطرنجِ، إذا كانَ عدلًا في جميعِ أحوالهِ، ولمْ يظهرْ منهُ سفهٌ ولا ريبةٌ ولا كبيرةٌ إلا أنْ يلعب به قمارا، فإنْ لعبَ بها قمارًا وكانَ بذلكَ معروفًا سقطتْ عدالتهُ وسفهَ نفسهُ لأكلهِ المالَ بالباطلِ. وقالَ أبو حنيفةَ: يكرهُ اللعبُ بالشطرنجِ والنردِ وكلِّ اللهوِ، فإنْ لمْ تظهرْ منَ اللاعبِ بها كبيرةٌ وكانتْ محاسنهُ أكثرَ منْ مساويهِ قبلتْ شهادتهُ عندهمْ.

قالَ ابنُ العربيِّ: قالتِ الشافعيةُ إنَّ الشطرنجَ يخالفُ النردَ لأنَّ فيهِ إكدادُ الفهمِ واستعمالُ القريحةِ. والنردُ قمارٌ غررٌ لا يعلمُ ما يخرجُ لهُ فيهِ كالاستقسامِ بالأزلامِ.

السابعةُ: قالَ علماؤنا: النردُ قطعٌ مملوءةٌ منْ خشبِ البقسِ ومنْ عظمِ الفيلِ، وكذا هوَ الشطرنجُ إذْ هوَ أخوهُ غذيَ بلبانهِ. والنردُ هوَ الذي يعرفُ بالباطلِ، ويعرف أيضا بالنردشير. وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ سليمانَ بنِ بريدةَ عنْ أبيهِ عنِ النبيِّ ﷺ قال: «من لعب بالنرد شير فكأنما غمسَ يدهُ في لحمِ خنزيرٍ ودمهِ». قالَ علماؤنا: ومعنى هذا أيْ هوَ كمنْ غمسَ يدهُ في لحمِ الخنزيرِ يهيئهُ لأنْ يأكلهُ، وهذا الفعلُ في الخنزيرِ حرامٌ لا يجوزُ، يبينهُ قولهُ ﷺ: «منْ لعبَ

بالنردِ فقدْ عصى اللهَ ورسولهُ» رواهُ مالكٌ وغيرهُ منْ حديثِ أبي موسى الأشعريِّ وهوَ حديثٌ صحيحٌ، وهوَ يحرمُ اللعبَ بالنردِ جملةً واحدةً، وكذلكَ الشطرنجُ، لمْ يستثنِ وقتًا منْ وقتٍ ولا حالًا منْ حالٍ، وأخبرَ أنَّ فاعلَ ذلكَ عاصٍ للهِ ورسولهِ، إلا أنهُ يحتملُ أنْ يكونَ المرادُ باللعبِ بالنردِ المنهيِّ عنهُ أنْ يكونَ على وجهِ القمارِ، لما رويَ منْ إجازةِ اللعبِ بالشطرنجِ عنِ التابعينَ على غيرِ قمارٍ. وحملُ ذلكَ على العمومِ قمارًا وغيرُ قمارٍ أولى وأحوطُ إنْ شاءَ اللهُ.

الثامنةُ: ذكرَ ابنُ وهبٍ بإسنادهِ أنَّ ابنَ عمرَ مرَّ بغلمانٍ يلعبونَ بالكجةِ، وهيَ حفرٌ فيها حصى يلعبونَ بها، قالَ: فسدها ابنُ عمرَ ونهاهمْ عنها. وذكرَ الهرويُّ في بابِ «الكافِ معَ الجيمِ» في حديثِ ابنِ عباسٍ: في كلِّ شيءٍ قمارٌ حتى في لعبِ الصبيانِ بالكجةِ، قالَ ابنُ الأعرابيِّ: هوَ أنْ يأخذَ الصبيُّ خرقةً فيدورها كأنها كرةٌ، ثمَّ يتقامرونَ بها. وكجَّ إذا لعبَ بالكجةِ.

قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ أيْ كيفَ تصرفونَ عقولكمْ إلى عبادةِ ما لا يرزق ولا يحيي ولا يميت.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أيْ حكمهُ وقضاؤهُ وعلمهُ السابقُ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ أيْ خرجوا عنِ الطاعةِ وكفروا وكذبوا ﴿أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٣﴾ أيْ لا يصدقونَ. وفي هذا أوفى دليلٍ على القدريةِ. وقرأ نافع وابن عامر هنا وفي آخرها «كذلكَ حقتْ كلماتُ ربكَ» وفي سورةِ غافرٍ بالجمعِ في الثلاثةِ، الباقونَ بالإفرادِ.

وَ ﴿أَنَّ﴾ في موضعِ نصبٍ، أيْ بأنهمْ أوْ لأنهمْ. قالَ الزجاجُ: ويجوزُ أنْ تكونَ في موضعِ رفعٍ على البدلِ منْ كلماتُ. وقالَ الفراءُ: يجوز ﴿إِنَّهُمۡ﴾ بالكسر على الاستئناف.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ أيْ آلهتكم ومعبوداتكم ﴿مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أيْ قلْ لهمْ يا محمدُ ذلكَ على جهةِ التوبيخِ والتقريرِ، فإنْ أجابوك وإلا ف ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وليسَ غيرهُ يفعلُ ذلكَ ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣٤﴾ أيْ فكيفَ تنقلبونَ وتنصرفونَ عنِ الحق إلى الباطل.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ يقالُ: هداهُ للطريقِ وإلى الطريقِ بمعنى واحدٍ. أيْ هلْ منْ شركائكمْ منْ يرشدُ إلى دينِ الإسلامِ، فإذا قالوا لا ولا بدَّ منهُ فَـ ﴿قُلْ﴾ لهمُ ﴿ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ ثمَّ قلْ لهمْ موبخًا ومقررًا ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ﴾ أيْ يرشدُ ﴿إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ وهوَ اللهُ سبحانهُ وتعالى ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ يريدُ الأصنامَ التي لا تهدي أحدًا، ولا تمشي إلا أنْ تحملَ، ولا تنتقلُ عنْ مكانها إلا أنْ تنقلَ. وقيل: المرادُ الرؤساءُ والمضلونَ الذينَ لا يرشدونَ أنفسهمْ إلى هدى إلا أنْ يرشدوا.

وفي ﴿يَهِدِّىٓ﴾ قراءاتٌ ستٌّ:

الأولى: قرأَ أهلُ المدينةِ إلا ورشًا ﴿يَهْدِّي﴾ بفتحِ الياءِ وإسكانِ الهاءِ وتشديدِ الدالِ، فجمعوا في قراءتهمْ بينَ ساكنينِ كما فعلوا في قولهِ: ﴿لَا تَعْدُّواْ﴾ وفي قولهِ: ﴿يَخِصِّمُونَ﴾. قالَ النحاسُ: والجمعُ بينَ الساكنينِ لا يقدرُ أحدٌ أنْ ينطقَ بهِ. قالَ محمدُ بنُ يزيدُ: لا بدَّ لمنْ رامَ مثلَ هذا أنْ يحركَ حركةً خفيفةً إلى الكسرِ، وسيبويهِ يسمي هذا اختلاس الحركة.

الثانية: قرأَ أبو عمرو وقالونُ في روايةٍ بينَ الفتحِ والإسكانِ، على مذهبهِ في الإخفاءِ والاختلاسِ.

الثالثة: قرأَ ابنُ عامرٍ وابنُ كثيرٍ وورشٌ ﴿يَهَدِّي﴾ بفتحِ الياءِ والهاءِ وتشديدِ الدالِ، قالَ النحاسُ: هذهِ القراءةُ بينةٌ في العربيةِ، والأصلُ فيها يهتدي أدغمتِ التاءُ في الدالِ وقلبتْ حركتها على الهاءِ.

الرابعة: قرأَ حفصٌ ويعقوبُ مثلَ قراءةِ ابنِ كثيرٍ، إلا أنهمْ كسروا الهاءَ، قالوا: لأنَّ الجزمَ إذا اضطرَّ إلى حركتهِ حركَ إلى الكسرِ.

الخامسة: قرأَ أبو بكرٍ عنْ عاصمٍ ﴿يِهِدِّي﴾ بكسرِ الياءِ والهاءِ وتشديد الدال، كل ذلك لاتباع الكسرَ كما تقدمَ في البقرةِ في ﴿يَخَطَّفُ﴾ وقيل: هيَ لغةٌ منْ قرأَ «نِسْتَعِينُ»، وَ ﴿لَن تِمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ ونحوهُ.

السادسة: قرأَ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ ﴿يَهْدِي﴾ بفتحِ الياءِ وإسكانِ الهاءِ وتخفيفِ الدالِ، منْ هدى يهدي. التقديرَ أمنْ لا يهدي غيرهُ، تمَّ الكلامُ، ثمَّ قالَ: ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾

استأنفَ منَ الأولِ، أيْ لكنهُ يحتاجُ أنْ يهدى، فهوَ استثناءٌ منقطعٌ، كما تقولُ: فلانٌ لا يُسمعُ غيرهُ إلا أنْ يُسمعَ، أيْ لكنهُ يحتاجُ أنْ يسمعَ.

قولهُ تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ كلامٌ تامٌّ، والمعنى: فأيُّ شيءٍ لكمْ في عبادةِ الأوثانِ. ثمَّ قيلَ لهمْ: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أيْ لأنفسكمْ وتقضونَ بهذا الباطلِ الصراحِ، تعبدونَ آلهةً لا تغني عنْ أنفسها شيئًا إلا أنْ يفعلَ بها، واللهُ يفعلُ ما يشاءُ فتتركونَ عبادتهُ، فموضعُ ﴿كَيْفَ﴾ نصبٌ بـ ﴿تَحْكُمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ يريدُ الرؤساءَ منهمْ، أيْ ما يتبعونَ إلا حدسًا وتخريصًا في أنها آلهة وأنها تشفعُ، ولا حجةَ معهمْ. وأما أتباعهمْ فيتبعونهمْ تقليدًا ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أيْ منْ عذابِ اللهِ، فالحقُّ هوَ اللهُ. وقيلَ: ﴿الْحَقِّ﴾ هنا اليقينُ، أيْ ليسَ الظنُّ كاليقينِ. وفي هذهِ الآيةِ دليلٌ على أنهُ لا يكتفى بالظنِّ في العقائدِ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ منَ الكفرِ والتكذيبِ، وخرجت مخرج التهديد.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ﴿أَنْ﴾ معَ ﴿يُفْتَرَى﴾ مصدرٌ، والمعنى: وما كانَ هذا القرآنُ افتراءً، كما تقولُ: فلانٌ يحبُّ أنْ يركبَ، أيْ يحبُّ الركوبَ، وقيل: المعنى وما ينبغي لهذا القرآنِ أنْ يفترى، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾. وقيل: ﴿أَنْ﴾ بمعنى اللامِ، تقديرهُ: وما كانَ هذا القرآنُ ليفترى. وقيل: المعنى ما كانَ يتهيأُ لأحدٍ أنْ يأتيَ بمثلِ هذا القرآنِ منْ عندِ غيرِ اللهِ ثمَّ ينسبهُ إلى اللهِ تعالى لإعجازهِ، لرصفهِ ومعانيهِ وتأليفهِ ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ التقديرُ ولكنْ كانَ تصديقَ، ويجوزُ عندهمُ الرفعُ بمعنى: ولكنْ هوَ تصديقُ. ﴿الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أيْ منَ التوراةِ والإنجيلِ وغيرهما منَ الكتب، فإنها قد بشرت به فجاء مصدقًا لها في تلكَ البشارةِ، وفي الدعاءِ إلى التوحيدِ والإيمانِ بالقيامةِ. وقيل: المعنى ولكنْ تصديقُ النبيِّ بينَ يدي القرآنِ وهوَ محمدٌ ﷺ، لأنهمْ شاهدوهُ قبلَ أنْ يسمعوا منهُ القرآنَ ﴿وَتَفْصِيلَ﴾ بالنصبِ والرفع على الوجهينِ المذكورينِ في تصديقَ. والتفصيلُ التبيينُ، أيْ يبينُ ما في كتبِ اللهِ المتقدمةِ ﴿الْكِتَابِ﴾ اسمُ الجنسِ. وقيل: أرادَ بتفصيلِ الكتابِ ما بينَ في القرآنِ منَ

الأحكام ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ الهاءُ عائدةٌ للقرآنِ، أيْ لا شكَّ فيهِ أيْ في نزولهِ ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٧﴾ منْ قبلِ اللهِ تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أمْ هاهنا في موضعِ ألفِ الاستفهامِ لأنها اتصلتْ بما قبلها. وقيل: هيَ أمِ المنقطعةُ التي تقدرُ بمعنى بلْ والهمزةُ، كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أيْ بلْ أيقولونَ افتراهُ. وقيل: أمْ بمعنى الواوِ، مجازهُ: ويقولونَ افتراهُ. وقيل: الميمُ صلةٌ، والتقديرُ: أيقولونَ افتراهُ، استفهامٌ معناهُ التقريعُ ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ إلزامٌ بأنْ يأتوا بسورةٍ مثلهِ إنْ كانَ مفترى ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣٨﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ أيْ كذبوا بالقرآنِ وهمْ جاهلونَ بمعانيهِ وتفسيرهِ، وعليهمْ أنْ يعلموا ذلكَ بالسؤالِ، فهذا يدلُّ على أنهُ يجبُ أنْ ينظرَ في التأويلِ.

وقولهُ: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ أيْ ولمْ يأتهمْ حقيقةُ عاقبةِ التكذيبِ منْ نزولِ العذابِ بهمْ. أوْ كذبوا بما في القرآنِ منْ ذكرِ البعثِ والجنةِ والنارِ، ولمْ يأتهمْ تأويلهُ أيْ حقيقةُ ما وعدوا في الكتابِ، وقيلَ: للحسينِ بنِ الفضلِ: هلْ تجدُ في القرآنِ: «منْ جهلَ شيئًا عاداهُ» قالَ نعمْ، في موضعينِ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ وقولهِ: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾.

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يريدُ الأممَ الخاليةَ، أيْ كذا كانتْ سبيلهمْ. والكافُ في موضعِ نصبٍ ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٩﴾ أي أخذهم بالهلاك والعذاب.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ قيلَ: المرادُ أهلُ مكةَ، أيْ ومنهمْ منْ يؤمنُ بهِ في المستقبلِ وإنْ طالَ تكذيبهُ، لعلمهِ تعالى السابقِ فيهم أنهم من أهل السعادة. وَ ﴿مَن﴾ رفعَ بالابتداءِ والخبرُ في المجرورِ. وكذا ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ والمعنى ومنهمْ منْ يصرُّ على كفرهِ حتى يموتَ، كأبي طالبٍ وأبي لهبٍ ونحوهما. وقيل: المرادُ أهلُ الكتابِ. وقيل: هوَ عامٌّ في جميعِ الكفارِ، وهوَ الصحيحُ. وقيلَ. إنَّ الضميرَ في ﴿بِهِۦ﴾ يرجعُ إلى محمدٍ ﷺ، فأعلمَ اللهُ سبحانهُ أنهُ إنما أخرَ العقوبةَ لأنَّ منهمْ منْ سيؤمنُ ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤٠﴾

أيْ منْ يصرُّ على كفرِهِ، وهذا تهديد لهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي﴾ رفعَ بالابتداءِ، والمعنى: لي ثوابُ عملي في التبليغِ والإنذارِ والطاعةِ للهِ تعالى ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أيْ جزاؤهُ منَ الشركِ ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ مثلهُ، أيْ لا يؤاخذُ أحدٌ بذنبِ الآخرِ. وهذهِ الآيةُ منسوخةٌ بآيةِ السيفِ في قولٍ.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ يريدُ بظواهرهمْ، وقلوبهمْ لا تعي شيئًا مما يقوله من الحق ويتلوه من القرآن، ولهذا قال: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أيْ لا تسمعُ، فظاهرهُ الاستفهامُ ومعناهُ النفيُ، وجعلهمْ كالصمِّ للختمِ على قلوبهمْ والطبعِ عليها، أيْ لا تقدرُ على هدايةِ منْ أصمهُ اللهُ عنْ سماعِ الهدى. وكذا المعنى في: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أخبرَ تعالى أنَّ أحدًا لا يؤمنُ إلا بتوفيقهِ وهدايتهِ، وهذا وما كانَ مثلهُ يردُّ على القدريةِ قولهمْ، كما تقدمَ في غيرِ موضعٍ.

وقالَ: ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ على معنى ﴿مَن﴾ وَ ﴿يَنظُرُ﴾ على اللفظِ، والمرادُ تسليةُ النبيِّ ﷺ، أيْ كما لا تقدرُ أنْ تُسمعَ منْ سُلبَ السمعَ ولا تقدرَ أنْ تخلقَ للأعمى بصرًا يهتدي بهِ، فكذلكَ لا تقدرُ أنْ توفقَ هؤلاءِ للإيمانِ وقدْ حكمَ اللهُ عليهمْ ألا يؤمنوا. ومعنى: ﴿يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ أيْ يديمُ النظرَ إليكَ، كما قالَ: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾. قيلَ: إنها نزلتْ في المستهزئينَ، واللهُ أعلمُ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ وتقدير الشقاء على أهله ليسَ ظلمًا منه لهم، لأنه متصرف في ملكهِ بما شاءَ، وهوَ في جميعِ أفعالهِ عادلٌ. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ بالكفرِ والمعصيةِ ومخالفةِ أمرِ خالقهمْ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ «وَلَكِنْ» مخففًا «النَّاسُ» رفعًا.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ أيْ كأنهمْ -خففتْ- لمْ يلبثوا في قبورهمْ ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ فاستقصروا طولَ مقامهمْ في القبورِ لهولِ ما يرونَ منَ البعثِ، دليلهُ قولهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾. وقيل: إنما قصرتْ مدةُ لبثهمْ في الدنيا منْ هولِ ما استقبلوا لا مدةَ كونهمْ في القبرِ. وقال ابنُ عباسٍ: رأوا أنَّ طولَ أعمارهمْ في مقابلةِ الخلودِ كساعةٍ ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ في موضعِ نصبٌ على الحالِ منَ الهاءِ والميمِ في ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ منقطعًا، فكأنهُ قالَ فهمْ يتعارفونَ، وهذا التعارفُ تعارفُ توبيخٍ وافتضاحٍ، يقولُ بعضهمْ لبعضٍ: أنتَ أضللتني وأغويتني وحملتني على الكفرِ، وليس تعارفُ شفقةٍ ورأفةٍ وعطفٍ. ثمَّ تنقطعُ المعرفةُ إذا عاينوا أهوالَ يومِ القيامةِ كما قالَ: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾. وقيل: يبقى تعارفُ التوبيخِ، وهوَ الصحيحُ لقولهِ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ إلى قولهِ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ الآيةَ، وقولهُ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ الآية. فأما قوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ وقولهُ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ فمعناهُ لا يسألهُ سؤالَ رحمةٍ وشفقةٍ، واللهُ أعلمُ. وقيل: القيامةُ مواطنٌ.

وقيل: معنى ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ يتساءلونَ، أيْ يتساءلونَ كمْ لبثتمْ، كما قالَ: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ وهذا حسنٌ.

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ أيْ بالعرضِ على اللهِ، لأنَّ الخسرانَ إنما هوَ في تلكَ الحالةِ التي لا يرجى فيها إقالةٌ ولا تنفعُ توبةٌ. ويجوزُ أنْ يكونَ المعنى يتعارفونَ بينهمْ، يقولونَ هذا ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ۝٤٥﴾ يريد في علم الله.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ شرطٌ ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ أيْ منْ إظهارِ دينكَ في حياتكَ. وقالَ المفسرونَ: كانَ البعضُ الذي وعدهمْ قتَلَ منْ قُتلَ وأسرَ منْ أسرَ ببدرٍ ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ عطفٌ على ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ أيْ نتوفينكَ قبل ذلك ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ جواب ﴿إِمَّا﴾. والمقصودُ إنْ لمْ ننتقمْ منهمْ عاجلًا انتقمنا منهمْ آجلًا ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾ أيْ شاهدٌ لا يحتاجُ إلى شاهدٍ ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ منْ محاربتك وتكذيبك.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ شاهدٌ عليهمْ مثلُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾. وقولهُ: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ المعنى أنهمْ لا يعذبونَ في الدنيا حتى يرسلَ إليهمْ، فمنْ آمنَ فازَ ونجا، ومنْ لمْ يؤمنْ هلكَ وعذبَ. دليلهُ قولهُ تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ يومَ القيامةِ ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ أي العدلُ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أيْ لا يعذبونَ بغيرِ ذنبٍ ولا يؤاخذونَ بغيرِ حجةٍ.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ يريدُ كفارَ مكةَ لفرطِ إنكارهمْ واستعجالهمُ العذابَ، أيْ متى العقابُ أوْ متى القيامةُ التي يعدنا محمدٌ. وقيل: هوَ عامٌّ في كلِّ أمة كذبت رسولها.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ فليسَ ذلكَ لي ولا لغيري ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أنْ أملكهُ وأقدرَ عليهِ، فكيفَ أقدرُ أنْ أملكَ ما استعجلتمْ. فلا تستعجلوا ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أيْ لهلاكهمْ وعذابهمْ يعلمهِ سبحانهُ ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ أيْ وقتُ انقضاءِ أجلهمْ ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أيْ لا يمكنهمْ أنْ يستأخروا ساعةً باقينَ في الدنيا ولا يتقدمون فيؤخرون.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾ ظرفانِ، وهوَ جوابٌ لقولهمْ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ وتسفيهٌ لآرائهمْ في استعجالهمُ العذابَ ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ استفهامٌ معناهُ التهويلُ والتعظيمُ، أيْ ما أعظمَ ما يستعجلونَ بهِ، والضميرُ في ﴿مِنْهُ﴾ قيلَ: يعودُ على العذابِ، وقيل: يعودُ على اللهِ سبحانهُ وتعالى.

قوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ﴾ قيلَ: هوَ منْ قولِ الملائكةِ استهزاءً بهمْ. وقيل: هوَ منْ قولِ اللهِ تعالى، ودخلتْ ألفُ الاستفهامِ على ﴿ثُمَّ﴾ والمعنى: التقريرُ والتوبيخُ، وقيل: إنَّ ﴿ثُمَّ﴾ ها هنا بمعنى: «ثَمَّ» بفتحِ الثاءِ، فتكونُ ظرفًا، والمعنى: أهنالكَ، وحينئذٍ لا يكونُ فيهِ معنى الاستفهامِ. وَ ﴿ٱلۡـَٰٔنَ﴾ قيلَ: أصلهُ فعلٌ مبنيٌّ مثلُ حانَ، والألفُ واللامُ لتحويلهِ إلى الاسمِ ﴿وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ﴾ أيْ بالعذابِ ﴿تَسۡتَعۡجِلُونَ ٥١﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أيْ تقولُ لهمْ خزنةُ جهنمَ ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ أيِ الذي لا ينقطعُ ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٥٢﴾ أي جزاء كفركم.

قوله تعالى: ﴿۞وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ أي يستخبرونك يا محمد عن العذابِ وقيام الساعةِ ﴿أَحَقٌّ﴾ ابتداءٌ ﴿هُوَ﴾ سدَّ مسدَّ الخبرِ، ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿هُوَ﴾ مبتدأً، وَ ﴿أَحَقٌّ﴾ خبرهُ ﴿قُلۡ إِي﴾ ﴿إِي﴾ كلمةُ تحقيقٍ وإيجابٍ وتأكيدٍ بمعنى نعمْ ﴿وَرَبِّيٓ﴾ قسمٌ ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ جوابهُ، أيْ كائنٌ لا شكَّ فيهِ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٥٣﴾ أي فائتين عن عذابه ومجازاته.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ﴾ أيْ أشركتْ وكفرتْ ﴿مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أيْ ملكًا ﴿لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦٓۗ﴾ أيْ منْ عذابِ اللهِ، يعني ولا يقبلُ منها، كما قالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ﴾ وقدْ تقدمَ.

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ أيْ أخفوها، يعني رؤساءهمْ، أيْ أخفوا ندامتهمْ عنْ أتباعهم ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ وهذا قبل الإحراق بالنار فإذا وقعوا في النار ألهتهم النار عن التصنع بدليل قولهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾. فبين أنهم لا يكتمون ما بهم. **وقيل**: ﴿أَسَرُّواْ﴾ أظهروا، والكلمةُ منَ الأضدادِ، لأنَّ الآخرةَ ليستْ دارَ تجلدٍ وتصبر. **وقيل**: وجدوا ألمَ الحسرةِ في قلوبهمْ، لأنَّ الندامةَ لا يمكنُ إظهارها. ووجه ثالث: أنهُ بدتِ بالندامةِ أسرةُ وجوههمْ، وهيَ تكاسيرُ الجبهةِ، واحدها سِرارٌ. والندامةُ: الحسرةُ لوقوعِ شيء أو فوت شيء، وأصلها اللزومُ، ومنهُ النديمُ لأنهُ يلازمُ المجالسَ.

﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أيْ بينَ الرؤساءِ والسفلِ بالعدل ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٥٤﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٥﴾ ﴿أَلَا﴾ كلمةُ تنبيهٍ للسامعِ تزادُ في أولِ الكلامِ، أي انتبهوا لما أقولُ لكمْ ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾، ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فلا مانعَ يمنعهُ منْ إنفاذِ ما وعدهُ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ذلك.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يعني قريشًا ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ﴾ أيْ وعظٌ ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ يعني القرآنَ، فيهِ مواعظُ وحكمٌ ﴿وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أيْ منَ الشكِّ والنفاقِ والخلافِ، والشقاقِ ﴿وَهُدٗى﴾ أيْ ورشدًا لمنِ اتبعهُ ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ أيْ نعمةٌ ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ خصهمْ لأنهمُ المنتفعونَ بالإيمانِ، والكلُّ صفاتُ القرآنِ، والعطفُ لتأكيدِ المدحِ.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾ قالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ وابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: فضلُ اللهِ القرآنُ، ورحمتهُ الإسلامُ. وعنهما أيضًا: فضلُ اللهِ القرآنُ، ورحمتهُ أنْ جعلكمْ منْ أهلهِ ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ إشارةٌ إلى الفضلِ والرحمةِ. والعربُ تأتي ﴿بِذَٰلِكَ﴾ للواحدِ والاثنينِ والجمعِ. وروي عن النبي ﷺ أنهُ قرأَ «فَبِذَلِكَ فَلْتَفْرَحُوا» بالتاءِ، وهيَ قراءةُ يزيدَ بنِ القعقاعِ ويعقوبَ وغيرهما، والفرحُ لذةٌ في القلبِ بإدراكِ المحبوبِ. وقدْ ذمَّ الفرحُ في مواضعَ، كقولهِ: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ﴾ ولكنهُ مطلقٌ. فإذا قيدَ الفرحُ لمْ يكنْ ذمًا، لقولهِ: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ وها هنا قالَ تباركَ وتعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ أيْ بالقرآنِ والإسلامِ فليفرحوا، فقيدَ ﴿هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ يعني في الدنيا. وقراءةُ العامةِ بالياءِ في الفعلينِ، ورويَ عنِ ابنِ عامرٍ أنهُ قرأَ: ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ بالياءِ «تَجْمَعُونَ» بالتاءِ خطابًا للكافرينَ. ورويَ عنِ الحسنِ أنهُ قرأَ بالتاءِ في الأولِ، وَ ﴿يَجۡمَعُونَ﴾ بالياءِ على العكسِ.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ٥٩﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ﴾ يخاطبُ كفارَ مكةَ ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ﴾ ﴿مَا﴾ في موضعِ نصبٍ بِـ ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ و ﴿أَنزَلَ﴾ بمعنى خلقَ، كما قالَ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ﴾ ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾. فيجوزُ أنْ يعبرَ عنِ الخلقِ بالإنزالِ، لأنَّ الذي في الأرضِ منَ الرزقِ إنما هوَ بما ينزلُ منَ السماءِ منَ المطرِ ﴿فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا﴾ وهوَ ما حكموا بهِ منْ تحريمِ البحيرةِ والسائبةِ والوصيلةِ والحامِ. وما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا﴾.

﴿قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ﴾ أيْ في التحليلِ والتحريمِ ﴿أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ﴿أَمۡ﴾ بمعنى بلْ ﴿تَفۡتَرُونَ﴾ هوَ قولهمْ إنَّ اللهَ أمرنا بها.

الثانية: استدلَّ بهذهِ الآيةِ منْ نفى القياسَ، وهذا بعيدٌ، فإنَّ القياسَ دليلُ اللهِ تعالى، فيكونَ التحليلُ والتحريمُ منَ اللهِ تعالى عندَ وجودِ دلالةٍ نصبها اللهُ تعالى على الحكمِ، فإنْ خالفَ في كونِ القياسِ دليلًا للهِ تعالى فهوَ خروجٌ عنْ هذا الغرضِ ورجوعٌ إلى غيره.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ ﴿يَوۡمَ﴾ منصوبٌ على الظرفِ، أوْ بالظنِّ، نحوَ ما ظنكَ زيدًا، والمعنى: أيحسبونَ أنَّ اللهَ لا يؤاخذهمْ بهِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أيْ في التأخيرِ والإمهالِ. وقيل: أرادَ أهلَ مكةَ حينَ جعلهمْ في حرمٍ آمنٍ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ﴾ يعني الكفارَ ﴿لَا يَشۡكُرُونَ ٦٠﴾ اللهَ على نعمهِ ولا في تأخيرِ العذابِ عنهمْ. وقيل: ﴿لَا يَشۡكُرُونَ﴾ لا يوحدون.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ﴾ ﴿مَا﴾ للجحدِ، أيْ لستَ في شأنٍ، يعني منْ عبادةٍ أوْ غيرها إلا والربُّ مطلعٌ عليكَ. والشأنُ الخطبُ والأمر، وجمعهُ شؤونٌ ﴿وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ

﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ والهاءُ في ﴿مِنْهُ﴾ تعودُ على الشأنِ، أيْ تحدثُ شأنًا فيتلى منْ أجلهِ القرآنُ فيعلمُ كيفَ حكمهُ، أوْ ينزلُ فيهِ قرآنٌ فيتلى. وقالَ الطبريُّ: ﴿مِنْهُ﴾ أيْ منْ كتابِ اللهِ تعالى. ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ أعادَ تفخيمًا، كقولهِ: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾. ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ يخاطبُ النبيَّ ﷺ والأمةَ. وقولهُ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ خطابٌ لهُ والمرادُ هوَ وأمتهُ، وقدْ يخاطبُ الرسولُ والمرادُ هوَ وأتباعهُ. وقيل: المرادُ كفارُ قريشٍ ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ أيْ نعلمهُ، ونظيرهُ ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ أيْ تأخذونَ فيهِ، والهاءُ عائدةٌ على العملِ، يقالُ: أفاضَ فلانٌ في الحديثِ والعملِ إذا اندفعَ فيهِ، وقيل: الهاءُ عائدةٌ على القرآنِ، المعنى: إذْ تشيعونَ في القرآنِ الكذبَ ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ يغيبُ، وقرأ الكسائيُّ «يَعْزِبُ» بكسرِ الزايِ حيثُ وقعَ، وضمَّ الباقونَ، وهما لغتانِ فصيحتانِ، نحوَ يعرِشُ ويعرُشُ ﴿مِن مِّثْقَالِ﴾ «منْ» صلةٌ، أيْ وما يعزبُ عنْ ربكَ مثقالُ ﴿ذَرَّةٍ﴾ أيْ وزنُ ذرةٍ، أيْ نميلةٌ حمراءُ صغيرةٌ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ﴾ عطفٌ على لفظِ مثقالِ، وإنْ شئتَ على ذرةٍ. وقرأ يعقوبُ وحمزةُ برفعِ الراءِ فيهما عطفًا على موضعِ مثقالِ لأنَّ منْ زائدةٌ للتأكيدِ ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ٦١﴾ يعني اللوحَ المحفوظَ معَ علمِ اللهِ تعالى بهِ.

قالَ الجرجانيُّ ﴿إِلَّا﴾ بمعنى واوِ النسقِ، أيْ وهوَ في كتابٍ مبينٍ، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثم بدل حُسنا..﴾ أيْ ومنْ ظلمَ. وقولهُ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ أيْ والذينَ ظلموا منهمْ، فَـ ﴿إِلَّا﴾ بمعنى واوِ النسقِ. وأضمرَ هوَ بعدهُ كقولهِ: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ أيْ هيَ حطةٌ. وقولهُ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ﴾ أيْ همْ ثلاثةٌ. ونظيرُ ما نحنُ فيهِ: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ وهو في كتاب مبين.

قولهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ أيْ في الآخرةِ. ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ لفقدِ الدنيا. وقيل: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ يومَ القيامةِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا﴾ أيْ عنْ جهنمَ ﴿مُبۡعَدُونَ﴾ إلى قولهِ: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾. وروى سعيدُ بنُ جبيرٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سئلَ: منْ أولياءُ اللهِ؟ فقالَ: «الذينَ يُذكرُ اللهُ برؤيتهمْ».

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣﴾ هذهِ صفةُ أولياءِ اللهِ تعالى، فيكونُ: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في موضعِ نصبٍ على البدلِ منْ اسمِ ﴿إِنَّ﴾ وهوَ ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾. وإنْ شئتَ على أعني. وقيل: هوَ ابتداءٌ، وخبره. ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ فيكونُ مقطوعًا مما قبلهُ. أيْ يتقونَ الشركَ والمعاصيَ.

قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤﴾

عنْ أبي الدرداءِ قالَ: سألتُ رسولَ اللهِ ﷺ عنها فقالَ: «ما سألني أحدٌ عنها غيركُ منذُ أنزلتْ هيَ الرؤيا الصالحةُ يراها المسلمُ أوْ ترى لهُ» خرجهُ الترمذيُّ في جامعهِ. وقيل: هيَ البشارةُ التي تبشرُ بها الملائكةُ المؤمنَ في الدنيا عندَ الموتِ. قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾ وقيل: هيَ ما يبشرهمُ اللهُ تعالى في كتابهِ منْ جنتهِ وكريمِ ثوابهِ، لقوله: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ﴾، وقولهِ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾. وقوله: ﴿وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ ولهذا قال: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ أيْ لا خلفَ لمواعيدهِ، وذلك لأن مواعيده بكلماته ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ قيلَ: بالجنةِ إذا خرجوا منْ قبورهمْ. وقيل: إذا خرجتِ الروحُ بشرتْ برضوانِ اللهِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ﴾ تم الكلام، أيْ لا يحزنكَ افتراؤهمْ وتكذيبهمْ لكَ، ثمَّ ابتدأَ فقالَ: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ﴾ أيْ القوةُ الكاملةُ والغلبةُ الشاملةُ والقدرةُ التامةُ للهِ وحدهُ، فهوَ ناصركَ ومعينكَ ومانعكَ ﴿جَمِيعًاۚ﴾ نصبَ على الحالِ، ولا يعارضُ هذا قولهُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فإنَّ كلَّ عزةٍ باللهِ فهيَ كلها للهِ، قالَ اللهُ سبحانهُ: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴿٦٥﴾﴾ السميعُ لأقوالهمْ وأصواتهمْ، العليمُ بأعمالهم وأفعالهم وجميع حركاتهم.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أيْ يحكمُ فيهمْ بما يريدُ ويفعلُ فيهم ما يشاء سبحانه!. قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ﴾ ﴿مَا﴾ للنفيِ، أيْ لا يتبعونَ شركاءَ على الحقيقةِ، بلْ يظنونَ أنها تشفعُ أوْ تنفع. وقيل: ﴿مَا﴾ استفهام، أي أي شيء يتبعُ الذينَ يدعونَ منْ دونِ اللهِ شركاءَ تقبيحًا لفعلهمْ، ثمَّ أجابَ فقالَ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أيْ يحدسون ويكذبون.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ بينَ أنَّ الواجبَ عبادةُ منْ يقدرُ على خلقِ الليلِ والنهارِ لا عبادة من لا يقدر على شيء. ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ أي مع أزواجكم وأولادكم ليزولَ التعبُ والكلالُ بكمْ. والسكونُ: الهدوءُ عنِ الاضطرابِ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ أيْ مضيئًا لتهتدوا بهِ في حوائجكمْ. والمبصرُ: الذي يبصرُ، والنهارُ يبصرُ فيهِ. وقالَ: ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾ تجوزًا وتوسعًا على عادةِ العربِ في قولهمْ: «ليلٌ قائمٌ، ونهارٌ صائمٌ». وقالَ جريرٌ:

لقدْ لُمتِنا يا أمَّ غيلانَ في السُّرى ونمتِ وما ليلُ المطي بنائم

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ أيْ علاماتٍ ودلالاتٍ ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴿٦٧﴾﴾ أيْ سماعَ اعتبارٍ.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ يعني الكفارَ ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ نزه نفسه عن الصاحبة والأولادِ وعنِ الشركاءِ والأندادِ ﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أخبرَ بغناهُ المطلقِ، وأنَّ لهُ ما في السموات والأرض ملكا وخلقا وعبيدا، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا﴾ ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ﴾ أيْ ما عندكمْ منْ حجةٍ بهذا ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٨﴾ منْ إثباتِ الولدِ لهُ، والولدُ يقتضي المجانسةَ والمشابهةَ واللهُ تعالى لا يجانس شيئا ولا يشابه شيءٌ.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ﴾ أيْ يختلقونَ ﴿عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ٦٩﴾ أيْ لا يفوزونَ ولا يأمنونَ، وتمَّ الكلامُ ﴿مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ أيْ ذلكَ متاعٌ أوْ هوَ متاعٌ في الدنيا، وقيل: لهمْ متاعٌ في الدنيا. ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ أيْ رجوعهمْ ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ﴾ أيِ الغليظَ ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠﴾ أي بكفرهم.

قوله تعالى: ﴿۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ﴾ أمرهُ ﷺ أنْ يذكرهمْ أقاصيصَ المتقدمينَ، ويخوفهمُ العذابَ الأليمَ على كفرهمْ. وحذفتِ الواوُ منِ ﴿ٱتۡلُ﴾ لأنهُ أمرٌ، أيِ اقرأْ عليهمْ خبرَ نوحٍ ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ﴾ ﴿إِذۡ﴾ في موضع نصب ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم﴾ أيْ عظمَ وثقلَ عليكمْ ﴿مَّقَامِي﴾ المَقامُ «بفتحِ الميمِ»: الموضعُ الذي يقومُ فيهِ، والمُقامُ «بالضمِّ» الإقامةُ. ولمْ يُقرأْ بهِ فيما علمتُ، أيْ إنْ طالَ عليكمْ لبثي فيكم ﴿وَتَذۡكِيرِي﴾ إياكم وتخويفي لكمْ ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ وعزمتمْ على قتلي وطردي ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ أيِ اعتمدتُ. وهذا هوَ جوابُ الشرطِ، ولمْ يزلْ ؈ متوكلًا على اللهِ في كلِّ حالٍ، ولكنْ بينَ أنهُ متوكلٌ في هذا على الخصوصِ ليعرفَ قومهُ أنَّ اللهَ يكفيهِ أمرهمْ، أيْ إنْ لمْ تنصروني فإني أتوكلُ على منْ ينصرني.

قولهُ تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ قراءةُ العامةِ ﴿فَأَجۡمِعُواْ﴾ بقطعِ الألفِ ﴿شُرَكَآءَكُمۡ﴾ بالنصبِ. وقرأ عاصمٌ الجحدريُّ «فَاجْمَعُوا» بوصلِ الألفِ وفتحِ الميمِ، منْ جمعَ يجمعُ. ﴿شُرَكَآءَكُمۡ﴾ بالنصبِ. وقرأ يعقوبُ ﴿فَأَجۡمِعُواْ﴾ بقطعِ الألفِ «شُرَكَاؤُكُمْ» بالرفعِ. فأما القراءةُ الأولى منْ أجمعَ على الشيءِ إذا عزمَ عليهِ. وقالَ الفراءُ:

أجمعَ الشيءَ أعدهُ. وقالَ المؤرجُ: أجمعتُ الأمر أفصحُ منْ أجمعتُ عليهِ. قالَ النحاسُ: وفي نصبِ الشركاءِ على هذهِ القراءةِ ثلاثةُ أوجهٍ، قالَ الكسائيُّ والفراءُ: هوَ بمعنى وادعوا شركاءكمْ لنصرتكمْ، وهوَ منصوبٌ عندهما على إضمارِ هذا الفعلِ. وقالَ الزجاجُ: المعنى معَ شركائكمْ على تناصركم، كما يقالُ: التقى الماءُ والخشبةُ.

والقراءةُ الثانيةُ منَ الجمعِ، اعتبارًا بقولهِ تعالى: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ جمعَ وأجمعَ بمعنى واحدٍ، ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ على هذهِ القراءةِ عطفٌ على ﴿أَمْرَكُمْ﴾، أوْ على معنى فأجمعوا أمركمْ وأجمعوا شركاءكمْ، وإنْ شئتَ بمعنى معَ.

والقراءةُ الثالثة على أنْ يعطفَ الشركاءَ على المضمرِ المرفوعِ في أجمعوا، وحسنَ ذلكَ لأنَّ الكلامَ قدْ طالَ. قالَ النحاسُ: وهذهِ القراءةُ تبعدُ، لأنهُ لوْ كانَ مرفوعًا لوجبَ أنْ تكتبَ بالواوِ، ولمْ يرُ في المصاحفِ واوٌ في قولهِ: ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾، وأيضا فإن شركاء هم الأصنامُ، والأصنامُ لا تصنعُ شيئًا ولا فعلَ لها حتى تجمعَ. قالَ المهدويُّ: ويجوزُ أنْ يرتفعَ الشركاءُ بالابتداءِ والخبرُ محذوفٌ، أيْ وشركاؤكمْ ليجمعوا أمرهمْ، ونسبَ ذلكَ إلى الشركاءِ وهيَ لا تسمعُ ولا تبصرُ ولا تميزُ على جهة التوبيخ لمن عبدها.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ اسم يكن وخبرها. وغمة وغمٌّ سواءٌ، ومعناهُ التغطيةُ، منْ قولهمْ: غمَّ الهلالُ إذا استترَ، أيْ ليكنْ أمركمْ ظاهرًا منكشفًا تتمكنونَ فيهِ مما شئتمْ، لا كمنْ يخفى أمرهُ فلا يقدرُ على ما يريدُ.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ۝٧١﴾ ألفُ ﴿ٱقْضُوٓاْ﴾ ألفُ وصلٍ، منْ قضى يقضي. قالَ الأخفشُ والكسائيُّ: وهو مثل: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ أيْ أنهيناهُ إليهِ وأبلغناهُ إياهُ. ورويَ عنِ ابنِ عباسٍ ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ قالَ: امضوا إليَّ ولا تؤخرونَ. قالَ النحاسُ: هذا قولٌ صحيحٌ في اللغةِ، ومنهُ: قضى الميتُ أيْ مضى. وأعلمهمْ بهذا أنهمْ لا يصلونَ إليهِ، وهذا منْ دلائلِ النبواتِ.

وهذا إخبارٌ منَ اللهِ تعالى عنْ نبيهِ نوح ﷺ أنهُ كانَ بنصرِ اللهِ واثقًا، ومنْ كيدهمْ غيرَ خائفٍ، علمًا منهُ بأنهمْ وآلهتهمْ لا ينفعونَ ولا يضرونَ. وهوَ تعزيةٌ لنبيهِ ﷺ وتقويةٌ لقلبه.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أيْ فإنْ أعرضتمْ عما جئتكمْ بهِ فليسَ ذلكَ لأني سألتكمْ أجرًا فيثقلُ عليكمْ مكافأتي ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ في تبليغِ رسالتهِ ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ أيِ الموحدينَ للهِ تعالى.

فتحَ أهلُ المدينةِ وأبو عمرو وابنُ عامرٍ وحفصٌ ياءَ «أَجْرِيَ» حيث وقع، وأسكن الباقون.

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ يعني نوحًا ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ أيْ منَ المؤمنينَ ﴿فِي ٱلْفُلْكِ﴾ أيِ السفينةِ ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ أيْ سكانَ الأرضِ وخَلَفًا ممنْ غرقَ ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ يعني آخرَ أمرِ الذين أنذرهم الرسل فلم يؤمنوا.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أيْ منْ بعدِ نوحٍ ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ كهودٍ وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وغيرهم ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أيْ بالمعجزاتِ ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ التقديرُ: بما كذبَ بِهِ قومُ نوحٍ منْ قبلُ. وقيل: ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ أيْ منْ قبلِ يومِ الذرِّ، فإنهُ كانَ فيهمْ منْ كذبَ بقلبهِ وإنْ قالَ الجميعُ: بلى. قالَ النحاسُ: ومنْ أحسنِ ما قيلَ في هذا أنهُ لقوم بأعيانهمْ، مثلَ: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ﴾ أيْ نختمُ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ أيِ المجاوزينَ الحدَّ في الكفرِ والتكذيبِ فلا يؤمنوا. وهذا يردُّ على القدريةِ قولهمْ كما تقدم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أيْ منْ بعدِ الرسل والأمم ﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ أيْ أشرافِ قومهِ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يريدُ الآياتِ التسعِ، وقدْ تقدمَ ذكرها ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عنِ الحقِّ ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ أي مشركين.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ يريدُ فرعونَ وقومهُ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾ حملوا المعجزات على السحر ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ﴾ أي لهم ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ قيلَ: في الكلامِ حذفٌ، المعنى: أتقولونَ للحقِّ هذا سحرٌ. فـ ﴿أَتَقُولُونَ﴾ إنكارٌ وقولهمْ محذوفٌ أيْ هذا سحرٌ، ثمَّ استأنفَ إنكارًا آخرَ منْ قبلهِ فقالَ: أسحرٌ هذا! فحذفَ قولهمُ الأولَ اكتفاءً بالثاني منْ قولهمْ، منكرًا على فرعونَ وملئهِ ﴿وَلَا

يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ أيْ لا يفلحُ منْ أتى بهِ.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا﴾ أيْ تصرفنا وتلوينا ﴿عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ يريدُ منْ عبادةِ الأصنامِ ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ﴾ أيِ العظمةُ والملكُ والسلطانُ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يريدُ أرضَ مصرَ. ويقالُ للملكِ: الكبرياءُ لأنهُ أعظمُ ما يطلبُ في الدنيا. ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ إنما قالهُ لما رأى العصا واليدَ البيضاءَ واعتقدَ أنهما سحرٌ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ «سَحَّارٍ» وتقدمَ في الأعرافِ القولُ فيهما.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٨٠﴾﴾ أيِ اطرحوا على الأرضِ ما معكمْ منْ حبالكمْ وعصيكمْ.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ﴾ تكونُ ﴿مَا﴾ في موضعِ رفعِ بالابتداءِ، والخبرُ ﴿جِئۡتُم بِهِ﴾ والتقديرُ: أيُّ شيءٍ جئتمْ بهِ، على التوبيخِ والتصغيرِ لما جاءوا بهِ منَ السحرِ. وقراءةُ أبي عمرو «آلسِّحْرُ» ؟ على الاستفهامِ على إضمارِ مبتدأٍ، والتقديرُ أهوَ السحرُ. ويجوزُ أنْ يكونَ مبتدًا والخبرُ محذوفٌ، التقديرُ: السحرُ جئتمْ بهِ. ولا تكونُ ﴿مَا﴾ على قراءةِ منِ استفهمَ بمعنى الذي، إذْ لا خبرَ لها. وقرأ الباقونَ: ﴿ٱلسِّحۡرُ﴾ على الخبرِ، ودليلُ هذهِ القراءةِ قراءةُ ابنِ مسعودٍ: «ما جئتمْ بِهِ سحرٌ». وقراءةُ أبيٍّ: «مَا أَتَيْتُمْ بِهِ سِحْرٌ»، فَـ ﴿مَا﴾ بمعنى الذي، وَ ﴿جِئۡتُم بِهِ﴾ الصلةُ، وموضعُ ﴿مَا﴾ رفعٌ بالابتداء، والسحر خبرُ الابتداءِ. ولا تكونُ ﴿مَا﴾ إذا جعلتها بمعنى الذي نصبًا لأنَّ الصلةَ لا تعملُ في الموصولِ. ويجوزُ أنْ يُنصبَ السحرُ على المصدرِ، أيْ ما جئتمْ بهِ سحرًا، ثمَّ دخلتِ الألفُ واللامُ زائدتينِ، فلا يحتاجُ على هذا التقديرِ إلى حذفِ الفاءِ وحذفُ الفاءِ في المجازاةِ جائزٌ والدليلُ على ذلكَ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾. «وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ بِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ» قراءتانِ مشهورتانِ معروفتانِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ يعني السحرَ.

قوله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ أيْ يبينهُ ويوضحهُ ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أيْ بكلامهِ وحججهِ وبراهينهِ. وقيل: بعداتهِ بالنصرِ ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ منْ آلِ فرعون.

قوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ الهاءُ عائدةٌ على موسى: أيْ لمْ يؤمنْ منهمْ أحدٌ، وإنما آمنَ أولادُ منْ أرسلَ موسى إليهمْ منْ بني إسرائيلَ، لطولِ الزمانِ هلكَ الآباءُ وبقيَ الأبناءُ فآمنوا، والذريةُ أعقابُ الإنسانِ وقدْ تكثرُ. وقيل: أرادَ بالذريةِ مؤمني بني إسرائيلَ.

وقيل: ﴿مِن قَوْمِهِ﴾ يعني منْ قومِ فرعونَ، منهمْ مؤمنُ آلِ فرعونَ وخازنُ فرعونَ وامرأتهُ وماشطةُ ابنتهِ وامرأةُ خازنهِ.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾ لأنهُ كانَ مسلطًا عليهم عاتبًا ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ ولمْ يقلْ وملئهِ، وعنهُ ستةُ أجوبةٍ:

أحدها- أنَّ فرعونَ لما كانَ جبارًا أخبرَ عنهُ بفعلِ الجميعِ.

الثاني- أنَّ فرعونَ لما ذُكرَ عُلمَ أنَّ معهُ غيرهُ، فعادَ الضميرُ عليهِ وعليهمْ.

الثالثُ- أنْ تكونَ الجماعةُ سميتْ بفرعونَ مثلَ ثمودَ.

الرابعُ- أنْ يكونَ التقديرُ: على خوفٍ منْ آلِ فرعونَ، فيكونُ منْ بابِ حذفِ المضافِ مثلَ: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾.

الخامسُ- أنْ يكونَ الضميرُ يعودُ على الذريةِ، أيْ ملأِ الذريةِ.

السادسُ- أنْ يكونَ الضميرُ يعودُ على قومهِ.

﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ وحدَ ﴿يَفْتِنَهُمْ﴾ على الإخبارِ عنْ فرعونَ، أيْ يصرفهمْ عنْ دينهمْ بالعقوباتِ، وهوَ في موضعِ خفضٍ على أنهُ بدلُ اشتمالٍ. ويجوزُ أنْ يكونَ في موضعِ نصبٍ بـ ﴿خَوْفٍ﴾. ولمْ ينصرفْ فرعونُ لأنهُ اسمٌ أعجميٌّ وهوَ معرفةٌ ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أيْ عاتٍ متكبرٌ ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أيِ المجاوزينَ الحد في الكفر، لأنه كان عبد ادعى الربوبية.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم﴾ أيْ صدقتمْ ﴿بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ أيِ اعتمدوا ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤﴾ كررَ الشرطَ تأكيدًا، وبينَ أنَّ كمالَ الإيمانِ بتفويضِ الأمر إلى اللهِ ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ أيْ أسلمنا أمورنا إليهِ، ورضينا بقضائهِ وقدرهِ، وانتهينا إلى أمرهِ ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٥﴾ أيْ لا تنصرهمْ علينا، فيكونُ ذلكَ فتنةً لنا عنِ الدينِ، أوْ لا تمتحنا بأنْ تعذبنا على أيديهمْ.

قوله تعالى: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ﴾ أيْ خلصنا ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٦﴾ أيْ منْ فرعونَ وقومهِ لأنهمْ كانوا يأخذونهمْ بالأعمال الشاقة.

قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٧﴾، فيهِ خمس مسائل:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا﴾ أيِ اتخذا. ﴿لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا﴾ يقالُ: بوأتُ زيدًا مكانًا وبوأتُ لزيدٍ مكانًا. والمبوأُ المنزلُ الملزومُ، ومنهُ بوأهُ اللهُ منزلًا، أيْ ألزمهُ إياهُ وأسكنهُ، ومنهُ الحديثُ: «منْ كذبَ عليَّ متعمدًا فليتبوأْ مقعدهُ منَ النارِ».

ومصرُ في هذهِ الآيةِ هيَ الإسكندريةُ، في قول، وقيل: إنهُ البلدُ المسمى مصرُ، ومصرُ ما بينَ البحرِ إلى أسوانَ، والإسكندريةُ منْ أرضِ مصرَ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ﴾ قالَ أكثرُ المفسرينَ: كانَ بنو إسرائيلَ لا يصلونَ إلا في مساجدهمْ وكنائسهمْ وكانتْ ظاهرةً، فلما أرسلَ موسى أمرَ فرعونُ بمساجدِ بني إسرائيلَ فخربتْ كلها ومنعوا منَ الصلاةِ، فأوحى اللهُ إلى موسى وهارون أن اتخذا لبني إسرائيلَ بيوتًا بمصرَ، أيْ مساجدَ، ولمْ يردِ المنازلَ المسكونةَ.

وقيل المعنى: واجعلوا بيوتكمْ يقابلُ بعضها بعضًا. والقولُ الأولُ أصحُّ، أيِ اجعلوا مساجدكمْ إلى القبلةِ، قيلَ: بيتُ المقدسِ، وهيَ قبلةُ اليهودِ إلى اليومِ، وقيلَ: الكعبةُ.

وهذا يدلُّ على أنَّ القبلةَ في الصلاةِ كانتْ شرعًا لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولمْ تخلُ الصلاةُ عنْ شرطِ الطهارةِ وسترِ العورةِ واستقبالِ القبلةِ، فإنَّ ذلكَ أبلغُ في التكليفِ وأوفرُ للعبادةِ.

وقيل: المرادُ صلوا في بيوتكمْ سرًا لتأمنوا، وذلكَ حينَ أخافهمْ فرعونُ فأمروا بالصبرِ واتخاذِ المساجدِ في البيوتِ والإقدامِ على الصلاةِ، والدعاءِ إلى أنْ ينجزَ اللهُ وعدهُ، وهوَ المرادُ بقولهِ: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ الآيةَ. وكانَ منْ دينهمْ أنهمْ لا يصلونَ إلا في البيعِ والكنائسِ ما داموا على أمنٍ، فإذا خافوا فقدْ أذنَ لهمْ أنْ يصلوا في بيوتهمْ.

قالَ ابنُ العربيِّ: والأولُ أظهرَ القولينِ، لأنَّ الثاني دعوى. قلتُ: قولهُ: «دعوى» صحيحٌ، فإنَّ في الصحيحِ قولهُ ﷺ: «جعلتْ ليَ الأرضُ مسجدًا وطهورًا» وهذا مما خصَّ بهِ دونَ الأنبياءِ، فنحنُ بحمدِ اللهِ نصلي في المساجدِ والبيوتِ، وحيثُ أدركتنا الصلاةُ، إلا أنَّ النافلةَ في المنازلِ أفضلُ منها في المساجدِ، حتى الركوعَ قبلَ الجمعةِ وبعدها. وقبلَ الصلواتِ المفروضاتِ وبعدها، إذِ النوافلُ يحصلُ فيها الرياءُ، والفرائضُ لا يحصلُ فيها ذلكَ، وكلما خلصَ العملُ منَ الرياءِ كانَ أوزنَ وأزلفَ عندَ اللهِ سبحانهُ وتعالى. روى مسلمٌ عنْ عبدِ اللهِ بنِ شقيقٍ قالَ: سألتُ عائشةَ عنْ صلاةِ رسولِ اللهِ ﷺ عنْ تطوعهِ قالتْ: «كانَ يصلي في بيتي قبلَ الظهرِ أربعًا، ثمَّ يخرجُ فيصلي بالناسِ، ثمَّ يدخلُ فيصلي ركعتينِ، وكانَ يصلي بالناسِ المغربَ، ثمَّ يدخلُ فيصلي ركعتينِ، ثمَّ يصلي بالناسِ العشاءَ، ويدخلُ بيتي فيصلي ركعتينِ..» الحديثَ. وعنِ ابنِ عمرَ قالَ: صليتُ معَ النبيِّ ﷺ قبلَ الظهرِ سجدتينِ وبعدها سجدتينِ وبعدَ المغربِ سجدتينِ، فأما المغربُ والعشاءُ والجمعةُ فصليتُ معَ النبيِّ ﷺ في بيتهِ.

الثالثة: واختلفَ العلماءُ منْ هذا البابِ في قيامِ رمضانَ، هلْ إيقاعهُ في البيتِ أفضلُ أوْ في المسجدِ؟ فذهبَ مالكٌ إلى أنهُ في البيتِ أفضلُ لمنْ قويَ عليهِ، وبهِ قالَ أبو يوسفَ وبعضُ أصحابِ الشافعيِّ. وذهبَ أحمدُ وبعضُ أصحابِ الشافعيِّ إلى أنَّ حضورها في الجماعةِ أفضلُ.

والحجةُ لمالكٍ ومنْ قالَ بقولهِ: قولهُ ﷺ في حديثِ زيدِ بنِ ثابتٍ: «فعليكمْ بالصلاةِ في بيوتكمْ فإنَّ خيرَ صلاةِ المرءِ في بيتهِ إلا المكتوبةَ» خرجهُ البخاريُّ.

واحتجَّ المخالفُ بأنَّ النبيَّ ﷺ قدْ صلاها في الجماعةِ في المسجدِ، ثمَّ أخبرَ بالمانعِ الذي منعَ منهُ على الدوامِ على ذلكَ، وهوَ خشيةُ أنْ تفرضَ عليهمْ فلذلكَ قالَ لهمْ: «فعليكمْ

بالصلاةِ في بيوتكمْ». ثمَّ إنَّ الصحابةَ كانوا يصلونها في المسجدِ أوزاعًا متفرقينَ، إلى أنْ جمعهمْ عمرُ على قارئٍ واحدٍ فاستقرَّ الأمر على ذلكَ وثبتَ سنةً.

الرابعة: وإذا تنزلنا على أنهُ كانَ أبيحَ لهمْ أنْ يصلوا في بيوتهمْ إذا خافوا على أنفسهمْ فيستدلُّ بهِ على أنَّ المعذورَ بالخوفِ وغيرِهِ يجوزُ لهُ تركُ الجماعةِ والجمعةِ. والعذرُ الذي يبيحُ لهُ ذلكَ كالمرضِ الحابسِ، أوْ خوفِ زيادتهِ، أوْ خوفِ جورِ السلطان في مالٍ أوْ بدنٍ دونَ القضاءِ عليهِ بحقٍّ. والمطرُ الوابلُ معَ الوحلِ عذرٌ إنْ لمْ ينقطعْ، ومنْ لهُ وليٌّ حميمٌ قدْ حضرتهُ الوفاةُ ولمْ يكنْ عندهُ منْ يمرضهُ، وقدْ فعلَ ذلكَ ابنُ عمرَ.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيلَ: الخطابُ لمحمدٍ ﷺ. وقيلَ: لموسى عليه السلام، وهوَ أظهرُ، أيْ بشرْ بني إسرائيلَ بأنَّ اللهَ سيظهرهمْ على عدوهمْ.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ﴾ ﴿ءَاتَيْتَ﴾ أيْ أعطيت ﴿زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أيْ مالَ الدنيا ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ﴾ اختلفَ في هذهِ اللامِ، وأصحُّ ما قيلَ فيها أنها لامُ العاقبةِ والصيرورةِ، وقيل: هيَ لامُ كيْ أيْ أعطيتهمْ لكيْ يضلوا ويبطروا ويتكبروا. وقيل: هيَ لامُ أجل، أيْ أعطيتهمْ لأجلِ إعراضهمْ عنكَ فلمْ يخافوا أنْ تعرضَ عنهمْ. وزعمَ قومٌ أنَّ المعنى: أعطيتهمْ ذلكَ لئلا يضلوا، فحذفتْ لا كما قالَ عزَّ وجلَّ: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ﴾. والمعنى: لأنْ لا تضلوا. قالَ النحاسُ: ظاهرُ هذا الجوابِ حسنٌ، إلا أنَّ العربَ لا تحذفُ ﴿لَآ﴾ إلا معَ أنْ، فموهَ صاحبُ هذا الجوابِ بقولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿أَن تَضِلُّوا۟ ۗ﴾. وقيل: اللامُ للدعاءِ، أيِ ابتلهمْ بالضلالِ عنْ سبيلكَ، لأنَّ بعدهُ: ﴿ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ﴾. وقيل: الفعلُ معنى المصدرِ أيْ إضلالهمْ كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ﴾. قرأَ الكوفيونَ: «لِيُضِلُّوا» بضمِّ الياءِ منَ الإضلالِ، وفتحها الباقونَ.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ طمسُ الشيءِ إذهابهُ عنْ صورتهِ. قيل: صارتْ أموالهمْ وزروعهمْ حجارةً ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قالَ ابنُ عباسٍ: أيِ امنعهمُ الإيمانَ ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟﴾ قيلَ: هوَ عطفٌ على قولهِ: «لِيَضِلُّوا» أيْ آتيتهمُ النعمَ ليضلوا ولا

يؤمنوا، وعلى هذا لا يكون فيه من معنى الدعاء شيء. وقولهُ: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ ۞ وَٱشۡدُدۡ﴾ كلامٌ معترضٌ. وقيل: هوَ دعاءٌ، فهوَ في موضعِ جزمٍ، أيِ اللهمَّ فلا يؤمنوا، أيْ فلا آمنوا ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ قالَ ابنُ عباسٍ: هوَ الغرقُ.

وقدِ استشكلَ بعضُ الناسِ هذهِ الآيةَ فقالَ: كيفَ دعا عليهمْ وحكمُ الرسلِ استدعاءُ إيمانِ قومهمْ؟

فالجوابُ: أنهُ لا يجوزُ أنْ يدعوَ نبيٌّ على قومهِ إلا بإذنٍ منَ اللهِ، وإعلامٍ أنهُ ليسَ فيهمْ منْ يؤمنُ ولا يخرجُ منْ أصلابهمْ منْ يؤمنُ، دليلهُ قولهُ لنوحٍ ﷺ: ﴿أنهُ لنْ يؤمنَ منْ قومكَ إلا منْ قدْ آمنَ﴾ وعندَ ذلكَ قالَ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾ قالَ أبو العاليةِ: دعا موسى وأمنَ هارونُ، فقولك آمين دعاءٌ، أيْ يا ربِّ استجبْ لي. وقيل: دعا هارونُ معَ موسى أيضًا. لقول موسى ﷺ ﴿رَبَّنَا﴾ ولمْ يقلْ ربِّ.

قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمَا﴾ قالَ الفراءُ وغيرهُ: أمرٌ بالاستقامةِ على أمرهما والثباتِ عليهِ منْ دعاءِ فرعونَ وقومهِ إلى الإيمانِ، إلى أنْ يأتيهما تأويلُ الإجابةِ. قيل: مكثَ فرعونُ وقومهُ بعدَ هذهِ الإجابةِ أربعينَ سنة ثم أهلكوا.

وقيل: ﴿فَٱسۡتَقِيمَا﴾ أيْ على الدعاءِ، والاستقامةُ في الدعاءِ تركُ الاستعجالِ في حصولِ المقصودِ، ولا يسقطُ الاستعجالُ منَ القلبِ إلا باستقامةِ السكينةِ فيهِ، ولا تكونُ تلكَ السكينةُ إلا بالرضا الحسنِ لجميعِ ما يبدو منَ الغيبِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ بتشديدِ النونِ في موضعِ جزمٍ على النهيِ، والنونُ للتوكيدِ وحركتْ لالتقاءِ الساكنينِ واختيرَ لها الكسرُ لأنها أشبهتْ نونَ الاثنينِ. وقرأ ابنُ ذكوانَ بتخفيفِ النونِ على النفيِ. وقيل: هوَ حالٌ منِ استقيما، أيِ استقيما غيرَ متبعينِ، والمعنى: لا تسلكا طريقَ من لا يعلم حقيقة وعدي ووعيدي.

قوله تعالى: ﴿۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ تقدمَ القولُ فيهِ في «البقرةِ» في قولهِ: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ﴾. وقرأ الحسنُ «وَجَوَّزْنَا» وهما لغتانِ ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ يقالُ: تبعَ وأتبعَ بمعنى واحدٍ، إذا لحقهُ وأدركهُ. واتّبعَ «بالتشديدِ» إذا سارَ خلفهُ. وقالَ الأصمعيُّ: أتبعهُ «بقطعِ الألفِ» إذا لحقهُ وأدركهُ، واتبعهُ «بوصلِ الألفِ» إذا اتبعَ أثرهُ، أدركهُ أوْ لمْ يدركهُ، وقرأ قتادةُ «فَاتَّبَعَهُمْ» بوصلِ الألفِ. وقيل: «اتبعه» بوصلِ الألفِ في الأمر اقتدى بهِ. وأتبعهُ «بقطعِ الألفِ» خيرًا أوْ شرًا، وقدْ قيلَ هما بمعنى واحدٍ.

﴿بَغۡيٗا﴾ نصبَ على الحالِ ﴿وَعَدۡوًاۚ﴾ معطوفٌ عليهِ، أيْ في حالِ بغيٍ واعتداءٍ وظلمٍ، يقالُ: عدا يعدو عدوًا، مثلَ غزا يغزو غزوًا. وقرأ الحسنُ «وَعُدُوّا» بضمِّ العينِ والدالِ وتشديدِ الواوِ، مثلَ علا يعلو علوًا. وقالَ المفسرونَ: ﴿بَغۡيٗا﴾ طلبًا للاستعلاءِ بغيرِ حقٍّ في القولِ، ﴿وَعَدۡوًاۚ﴾ في الفعلِ، فهما نصبٌ على المفعولِ لهُ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾ أيْ نالهُ ووصلهُ ﴿قَالَ ءَامَنتُ﴾ أيْ صدقتُ ﴿أَنَّهُۥ﴾ أيْ بأنهُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ فلما حذفَ الخافضَ تعدى الفعلُ فنصبَ. وقرئ بالكسرِ ﴿إِنَّهُۥ﴾ أيْ صرتُ مؤمنًا ثمَّ استأنفَ، وقيل: إن القول محذوف، أي آمنت فقلت إنه... والإيمانُ لا ينفعُ حيئذٍ، والتوبةُ مقبولةٌ قبلَ رؤيةِ البأسِ، وأما بعدها وبعدَ المخالطةِ فلا تقبلُ وتقدم في النساء.

وروى الترمذيُّ عنِ ابنِ عباسٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «لما أغرقَ اللهُ فرعونَ قالَ آمنتُ أنهُ لا إلهَ إلا الذي آمنتْ بهِ بنو إسرائيلَ قالَ جبريلُ: يا محمدُ فلوْ رأيتني وأنا آخذُ منْ حالِ البحرِ فأدسهُ في فيهِ مخافةَ أنْ تدركهُ الرحمةُ». قالَ أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ. وحالُ البحرِ: الطينُ الأسودُ الذي يكونُ في أرضهِ.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠﴾ أيْ منَ الموحدين المستسلمين بالانقياد والطاعة.

قوله تعالى: ﴿ءَآلۡـَٔـٰنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١﴾.

قيلَ: هوَ منْ قولِ اللهِ تعالى. وقيل: هوَ منْ قولِ جبريلَ. وقيل: ميكائيلَ، أوْ غيرهما منَ الملائكةِ صلواتُ اللهِ عليهمْ. وقيل: هوَ منْ قولِ فرعونَ في نفسهِ، ولمْ يكنْ ثمَّ قولُ اللسانِ بلْ وقعَ ذلكَ في قلبهِ فقالَ في نفسهِ ما قالَ: حيثُ لمْ تنفعهُ الندامةُ، ونظيره. ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ﴾ أثنى عليهمُ الربُّ بما في ضميرهمْ لا أنهمْ قالوا ذلكَ بلفظهمْ، والكلامُ الحقيقيُّ كلامُ القلب.

قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أيْ نلقيكَ على نجوةٍ منَ الأرضِ. وذلكَ أنَّ بني إسرائيلَ لمْ يصدِّقوا أنَّ فرعونَ غرقَ، وقالوا: هوَ أعظمُ شأنًا منْ ذلكَ، فألقاهُ اللهُ على نجوةٍ منَ الأرضِ، أيْ مكانٍ مرتفعٍ منَ البحرِ حتى شاهدوهُ. وحكي عن ابن مسعود أنه قرأ «ننحيكَ» بالحاءِ منَ التنحيةِ. ﴿لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ﴾ أيْ لبني إسرائيلَ ولمنْ بقيَ منْ قومِ فرعونَ ممنْ لمْ يدركهُ الغرقُ ولمْ ينتهِ إليهِ هذا الخبرُ ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢﴾ أيْ معرضونَ عنْ تأملِ آياتنا والتفكرِ فيها. وقرئ «لِمَنْ خَلَفَكَ» «بفتحِ اللامِ»، أيْ لمنْ بقيَ بعدكَ يخلفكَ في أرضكَ، وقرأ عليُّ بنُ أبي طالبٍ «لِمَنْ خَلَقَكَ» بالقافِ، أيْ تكونُ آية لخالقك.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ﴾ أيْ منزلَ صدقٍ محمودٍ مختارٍ، يعني مصرَ. وقيل: الأردنَ وفلسطينَ. وقيل: هيَ مصرُ والشامُ ﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي من الثمار وغيرها. وقالَ ابنُ عباسٍ: يعني قريظةَ والنضيرَ وأهلَ عصرِ النبيِّ ﷺ منْ بني إسرائيلَ، فإنهمْ كانوا يؤمنونَ بمحمدٍ ﷺ وينتظرونَ خروجهُ، ثمَّ لما خرجَ حسدوهُ، ولهذا قالَ ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ﴾ أيْ في أمرِ محمدٍ ﷺ ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ﴾ أيِ القرآنُ ومحمدٌ ﷺ. والعلمُ بمعنى المعلوم، لأنهمْ كانوا يعلمونه قبل خروجه ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ﴾ أيْ يحكمُ بينهمْ ويفصلُ ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٩٣﴾ في الدنيا، فيثيبُ الطائعَ ويعاقب العاصي.

قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ الخطابُ للنبيِّ ﷺ والمرادُ غيرهُ، أيْ لستَ في شكٍّ ولكنْ غيركَ شكَّ ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ يعني عبدَ اللهِ بنَ سلامٍ وأمثالهُ، لأنَّ عبدةَ الأوثانِ كانوا يقرونَ لليهودِ أنهمْ أعلمُ منهمْ منْ أجلِ أنهمْ أصحابُ كتابٍ، فدعاهمُ الرسولُ ﷺ إلى أنْ يسألوا منْ يقرونَ بأنهمْ أعلمُ منهمْ، هلْ يبعثُ اللهُ برسولٍ منْ بعدِ موسى.

ثمَّ استأنفَ الكلامَ فقالَ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٩٤﴾ أيِ الشاكينَ المرتابينَ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٩٥﴾ والخطابُ في هاتينِ الآيتينِ للنبيِّ ﷺ والمراد غيره.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦﴾ تقدمَ القولُ فيهِ في هذهِ السورةِ. قالَ قتادةُ: أيِ الذينَ حقَّ عليهمْ غضبُ اللهِ وسخطهُ بمعصيتهمْ لا يؤمنونَ ﴿وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ أنث ﴿كُلَّ﴾ على المعنى، أيْ ولوْ جاءتهمُ الآياتُ ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٩٧﴾ فحينئذٍ يؤمنونَ ولا ينفعهمْ.

قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ﴾ أيْ فهلا، ومفهومٌ منْ معنى الآيةِ نفيُ إيمانِ أهلِ القرى ثمَّ استثنى قومَ يونسَ، فهوَ بحسبِ اللفظِ استثناءٌ منقطعٌ، وهوَ بحسبِ المعنى متصلٌ، لأنَّ تقديرهُ ما آمنَ أهلُ قريةٍ إلا قومَ يونسَ. والنصبُ في ﴿قَوۡمَ﴾ هوَ الوجهُ، لأنهُ استثناءٌ ليسَ منَ الأولِ، أيْ لكنَّ قومَ يونسَ.

ورويَ في قصةِ قومِ يونسَ عنْ جماعةٍ منَ المفسرينَ: أنَّ قومَ يونسَ كانوا بنينوى منْ أرضِ الموصلِ وكانوا يعبدونَ الأصنامَ، فأرسلَ اللهُ إليهمْ يونسَ عليه السلام يدعوهمْ إلى الإسلامِ وتركِ ما همْ عليهِ فأبوا، فقيلَ: إنهُ أقامَ يدعوهمْ تسعَ سنينَ فيئسَ منْ إيمانهمْ، فقيلَ لهُ: أخبرهمْ أنَّ العذابَ مصبحهمْ إلى ثلاثٍ ففعلَ، وقالوا: هوَ رجلٌ لا يكذبُ فارقبوهُ فإنْ أقامَ معكمْ وبينَ أظهركمْ فلا عليكمْ، وإنِ ارتحلَ عنكمْ فهوَ نزولُ العذابِ لا شكَّ، فلما كانَ الليلُ تزودَ

يونسُ وخرجَ عنهمْ فأصبحوا فلمْ يجدوهُ فتابوا ودعوا اللهَ ولبسوا المُسوح وفرقوا بينَ الأمهاتِ والأولادِ منَ الناسِ والبهائمِ، وردوا المظالمَ في تلكَ الحالةِ.

وقالَ الطبريُّ: خُصَّ قومُ يونسَ منْ بينِ سائرِ الأممِ بأنْ تيبَ عليهمْ بعدَ معاينةِ العذابِ.

وقالَ الزجاجُ: إنهمْ لمْ يقعْ بهمُ العذابُ، وإنما رأوا العلامةَ التي تدلُّ على العذابِ، ولوْ رأوا عينَ العذابِ لما نفعهمُ الإيمانُ. قلتُ: قولُ الزجاجِ حسنٌ، فإنَّ المعاينةَ التي لا تنفعُ التوبةُ معها هيَ التلبسُ بالعذابِ كقصةِ فرعونَ، ولهذا جاءَ بقصةِ قومِ يونسَ على أثرِ قصةِ فرعونَ لأنهُ آمنَ حينَ رأى العذابَ فلمْ ينفعهُ ذلكَ، وقومُ يونسَ تابوا قبلَ ذلكَ. ويعضدُ هذا قولهُ ﷺ: «إنَّ اللهَ يقبلُ توبةَ العبدِ ما لمْ يغرغرْ». والغرغرةُ الحشرجةُ، وذلكَ هوَ حالُ التلبسِ بالموتِ، وأما قبلَ ذلكَ فلا. واللهُ أعلمُ.

ويكونُ معنى ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾ أي العذابَ الذي وعدهمْ بهِ يونسُ أنهُ ينزلُ بهمْ، لا أنهمْ رأوهُ عيانًا ولا مخايلةَ. قالَ علي رضي الله عنه: وذلكَ يومُ عاشوراءَ.

قوله تعالى: ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ قيلَ: إلى أجلهمْ.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ أيْ لاضطرهمْ إليهِ. ﴿كُلُّهُمْ﴾ تأكيدٌ لِ ﴿مَن﴾. ﴿جَمِيعًا﴾ نصبَ على الحالِ. وقالَ الأخفشُ: جاءَ بقولهِ ﴿جَمِيعًا﴾ بعدَ كلِّ تأكيدًا، كقولهِ: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ قالَ ابنُ عباسٍ: كانَ النبيُّ ﷺ حريصًا على إيمانِ جميعِ الناسِ، فأخبرهُ اللهُ تعالى أنهُ لا يؤمنُ إلا منْ سبقتْ لهُ السعادةُ في الذكرِ الأولِ، ولا يضلُّ إلا منْ سبقتْ لهُ الشقاوةُ في الذكرِ الأولِ. وقيل: المرادُ بالناسِ هنا أبو طالبٍ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ﴿مَا﴾ نفيٌ، أيْ ما ينبغي أنْ تؤمنَ نفسٌ إلا بقضائهِ وقدرهِ ومشيئتهِ وإرادتهِ ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ وقرأ الحسنُ وأبو بكرٍ والمفضلُ ﴿وَنَجْعَلُ﴾ بالنونِ على التعظيمِ. والرجس: العذابُ، بضمِّ الراءِ وكسرها لغتانِ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ أمرَ اللهِ عزَّ وجلَّ ونهيهُ.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أمرٌ للكفارِ بالاعتبارِ والنظرِ في المصنوعاتِ الدالةِ على الصانعِ والقادرِ على الكمالِ ﴿وَمَا تُغۡنِي﴾ ﴿مَا﴾ نفيٌ، أيْ ولن تغني. وقيل: استفهامية، التقدير أي شيء تغني ﴿ٱلۡأٓيَٰتُ﴾ أي الدلالاتُ ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾ أي الرسلُ، جمعُ نذيرٍ، وهوَ الرسولُ ﷺ ﴿عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾ لما سبقَ في علمِ اللهِ.

قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ الأيامُ هنا بمعنى الوقائعِ، يعني وقائعَ اللهِ في قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم. والعربُ تسمي العذابَ أيامًا والنعمَ أيامًا، كقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾. وكلُّ ما مضى لكَ منْ خيرٍ أوْ شرٍّ فهوَ أيامٌ ﴿قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ أيْ تربصوا، وهذا تهديدٌ ووعيدٌ ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ١٠٢﴾ أي المتربصين لموعد ربي.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ أيْ منْ سنتنا إذا أنزلنا بقومٍ عذابًا أخرجنا منْ بينهمُ الرسلَ والمؤمنين، ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا﴾ أيْ واجبًا علينا، لأنهُ أخبرَ ولا خُلفَ في خبرِهِ، وقرأَ الكسائيُّ وحفصٌ ويعقوبُ «نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ» مخففًا، وشددَ الباقونَ، وهما لغتانِ فصيحتانِ: أنجى ينجي إنجاءً، ونجى ينجي تنجيةً بمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يريدُ كفارَ مكةَ ﴿إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي﴾ أيْ في ريبٍ منْ دينِ الإسلامِ الذي أدعوكمْ إليهِ ﴿فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ منَ الأوثانِ التي لا تعقلُ ﴿وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ﴾ أيْ يميتكمْ ويقبضُ أرواحكمْ ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٤﴾ أي المصدقين بآيات ربهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ﴾ ﴿أن﴾ عطفٌ على ﴿أَنۡ أَكُونَ﴾ أيْ قيلَ لي كنْ منَ المؤمنينَ وأقمْ وجهكَ. قالَ ابنُ عباسٍ: عملكَ، وقيل: نفسكَ ﴿لِلدِّينِ حَنِيفٗا﴾ أيْ قويمًا بهِ مائلًا عنْ كلِّ دينٍ. قالَ حمزةُ بنُ عبدِ المطلبِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

حمدتَ اللهَ حينَ هدى فؤادي   منَ الإشراكِ للدينِ الحنيفِ

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٥﴾ أيْ وقيلَ: لي ولا تشركْ، والخطابُ لهُ والمرادُ غيرهُ، وكذلكَ قولهُ: ﴿وَلَا تَدۡعُ﴾ أيْ لا تعبد. و ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ إنْ عبدتهُ

﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إنْ عصيتهُ ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ أي عبدت غيرَ اللهِ ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦﴾ أيِ الواضعين العبادة في غير موضعها.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أي يصبك به ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾ أيْ لا دافعَ ﴿لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ من رخاءٍ ونعمةٍ ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ﴾ أيْ بكلِّ ما أرادَ منَ الخيرِ والشرِّ ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لذنوبِ عباده وخطاياهم ﴿ٱلرَّحِيمُ ١٠٧﴾ بأوليائه في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أيِ القرآنُ. وقيل: الرسولُ ﷺ ﴿مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أيْ صدقَ محمدًا وآمنَ بما جاء به ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أيْ لخلاصِ نفسهِ ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ أيْ تركَ الرسولَ والقرآنَ واتبعَ الأصنامَ والأوثانَ ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أيْ وبالُ ذلكَ على نفسهِ ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ١٠٨﴾ أيْ بحفيظٍ أحفظُ أعمالكمْ إنما أنا رسولٌ. قالَ ابنُ عباسٍ: نسختها آية السيف.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ﴾ قيلَ: نُسخَ بآيةِ القتالِ: وقيل: ليسَ منسوخًا، ومعناهُ اصبرْ على الطاعةِ وعنِ المعصيةِ. وقالَ ابنُ عباسٍ: لما نزلتْ جمعَ النبيُّ ﷺ الأنصارَ ولمْ يجمعْ معهمْ غيرهمْ فقالَ: «إنكمْ ستجدونَ بعدي أثرةً فاصبروا حتى تلقوني على الحوضِ».

﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ١٠٩﴾ ابتداءٌ وخبرٌ، لأنهُ عزَّ وجلَّ لا يحكمُ إلا بالحقِّ.

تمتْ سورةُ يونس، والحمد لله وحده

سورة هود عليه السلام

مكيةٌ، قيل: إلا آيةً، وهيَ قولهُ تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾.

وروى الترمذيُّ عنِ ابنِ عباسٍ قالَ: قالَ أبو بكرٍ رضي الله عنه: يا رسولَ اللهِ قدْ شبتَ! قالَ: «شيبتني هودٌ والواقعةُ والمرسلاتُ وعمَّ يتساءلونَ وإذا الشمسُ كورتْ». قالَ: هذا حديث حسن غريب، فالفزعُ يورثُ الشيبَ قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ١٧﴾ فإنما شابوا منَ الفزعِ. وأما سورةُ «هودٍ» فلما ذكرَ الأممَ، وما حلَّ بهمْ منْ عاجلِ بأسِ اللهِ تعالى، فأهلُ اليقينِ إذا تلوها تراءى على قلوبهمْ منْ ملكهِ وسلطانهِ ولحظاتهِ البطشُ بأعدائهِ، فلوْ ماتوا منَ الفزعِ لحُقَّ لهمْ، ولكنَّ اللهَ تباركَ وتعالى اسمهُ يلطفُ بهمْ في تلكَ الأحايينِ حتى يقرؤوا كلامهُ. وأما أخواتها مثل «الحاقة» و «سألَ سائلٌ» و «إذا الشمسُ كورتْ» و «القارعة» ففي تلاوةِ هذهِ السورِ ما يكشفُ لقلوبِ العارفينَ سلطانهُ وبطشهُ فتذهلُ منهُ النفوسُ، وتشيب منه الرؤوس.

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓر﴾. تقدمَ القولُ فيهِ ﴿كِتَٰبٌ﴾ بمعنى هذا كتابٌ ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ في موضع رفع نعت لكتاب. أي جعلتْ محكمةً كلها لا خللَ فيها ولا باطلَ. وقالَ ابنُ عباسٍ: أيْ لمْ ينسخها كتابٌ، بخلافِ التوراةِ والإنجيلِ. وعلى هذا المعنى، أحكمَ بعضَ آياتهِ بأنْ جعلَ ناسخًا غيرَ منسوخ.

﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ بالوعدِ والوعيدِ والثوابِ والعقابِ. وقالَ قتادةُ: أحكمها اللهُ منَ الباطلِ، ثمَّ فصلها بالحلالِ والحرامِ. وقيل: ﴿فُصِّلَتْ﴾ أنزلتْ نجمًا نجمًا لتتدبرَ ﴿مِن لَّدُنْ﴾ أيْ منْ عندِ ﴿حَكِيمٌ﴾ أيْ محكمٌ للأمورِ ﴿خَبِيرٌ ١﴾ بكلِّ كائنٍ وغيرِ كائنٍ.

قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أيْ بألا، وقيل: لئلا ﴿إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ﴾ أيْ منَ اللهِ

﴿نَذِيرٌ﴾ أيْ مخوفٌ منْ عذابِهِ وسطوتِهِ لمنْ عصاهُ ﴿وَبَشِيرٌ ۝٢﴾ بالرضوانِ والجنةِ لمنْ أطاعهُ. وقيل: هوَ منْ قولِ اللهِ أولًا وآخرًا، كما قالَ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ عطفٌ على الأولِ ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ أيِ ارجعوا إليهِ بالطاعةِ والعبادةِ. قالَ الفراءُ: ﴿ثُمَّ﴾ هنا بمعنى الواوِ، أيْ وتوبوا إليهِ، لأنَّ الاستغفارَ هوَ التوبةُ، والتوبةَ هيَ الاستغفارُ. وقيل: استغفروهُ منْ سالفِ ذنوبكمْ، وتوبوا إليهِ منَ المستأنفِ متى وقعتْ منكمْ. قالَ بعضُ الصلحاءِ: الاستغفارُ بلا إقلاعٍ توبةُ الكذابينَ، وقيل: إنما قدمَ ذكرَ الاستغفارِ لأنَّ المغفرةَ هيَ الغرضُ المطلوبُ، والتوبةَ هيَ السببُ إليها، فالمغفرةُ أولٌ في المطلوبِ وآخرٌ في السببِ. ويحتملُ أنْ يكونَ المعنى استغفروهُ منَ الصغائرِ، وتوبوا إليهِ منَ الكبائرِ ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ هذهِ ثمرةُ الاستغفارِ والتوبةِ، أيْ يمتعكمْ بالمنافعِ من سعةِ الرزقِ ورغدِ العيشِ، ولا يستأصلكمْ بالعذابِ كما فعلَ بمنْ أهلكَ قبلكمْ، وقيل: هوَ القناعةُ بالموجودِ، وتركُ الحزنِ على المفقودِ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيلَ: هوَ الموتُ. وقيل: القيامةُ. وقيل: دخولُ الجنةِ ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ أيْ جزاءَ عملهِ. وقيل: الجنةَ، وهيَ فضلُ اللهِ، فالكنايةُ في قولهِ: ﴿فَضْلِهِۦ﴾ ترجعُ إلى اللهِ تعالى ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣﴾ أيْ يومَ القيامةِ، وهوَ كبيرٌ لما فيهِ منَ الأهوالِ. وقيل: اليومُ الكبيرُ هوَ يومُ بدرٍ وغيرهُ: وَ ﴿تَوَلَّوْا۟﴾ يجوزُ أنْ يكونَ ماضيًا، ويجوزُ أنْ يكونَ مستقبلًا حذفتْ منهُ إحدى التاءينِ.

قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أيْ بعدَ الموتِ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٤﴾ منْ ثوابٍ وعقابٍ.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٥﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ يخفونَ ما فيها منَ الشحناءِ والعداوةِ، ويظهرونَ خلافهُ، وقيل ﴿يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ شكًا وامتراءً، وقيل: يثنونها على ما فيها منَ الكفرِ. وقيل: نزلتْ في بعضِ المنافقينَ، والهاءُ في ﴿مِنۡهُ﴾ تعودُ على النبيِّ ﷺ.

﴿أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾ أي يغطون رؤوسهم بثيابهمْ. قالَ قتادةُ: أخفى ما يكونُ العبدُ إذا حنى ظهرهُ، واستغشى ثوبهُ، وأضمرَ في نفسه همه.

قوله تعالى: ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ ﴿مَا﴾ نفيٌ وَ ﴿مِن﴾ زائدةٌ وَ﴿دَآبَّةٖ﴾ في موضعِ رفعٍ، التقديرُ: وما دابةٌ إلا على اللهِ رزقها ﴿عَلَى﴾ بمعنى «منْ»، أيْ منَ اللهِ رزقها فضلًا لا وجوبًا. وقيل: وعدًا منهُ حقًا ﴿رِزۡقُهَا﴾ رفعَ بالابتداءِ، وعندَ الكوفيينَ بالصفةِ، والدابةُ كلُّ حيوانٍ يدبُّ. والرزقُ حقيقتهُ ما يتغذى بهِ الحيُّ ويكونُ فيهِ بقاءُ روحهِ ونماءُ جسدهِ. ولا يجوزُ أنْ يكونَ الرزقُ بمعنى الملكِ، لأنَّ البهائمَ ترزقُ وليسَ يصحُّ وصفها بأنها مالكةٌ لعلفها، وهكذا الأطفالُ ترزقُ اللبنُ ولا يقالُ: إنَّ اللبنَ الذي في الثدي ملكٌ للطفل. وقالَ تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ وليسَ لنا في السماءِ ملكٌ، ولأنَّ الرزقَ لوْ كانَ ملكًا لكانَ إذا أكلَ الإنسانُ منْ ملكِ غيرهِ أنْ يكونَ قدْ أكلَ منْ رزقِ غيرهِ، وذلكَ محالٌ، لأنَّ العبدَ لا يأكلُ إلا رزقَ نفسهِ، وأنشدَ بعضهم:

وكيفَ أخافُ الفقرَ واللهُ رازقي ... ورازقُ هذا الخلقِ في العسرِ واليسرِ

تكفلَ بالأرزاقِ للخلقِ كلهمْ ... وللضبِّ في البيداءِ والحوتِ في البحرِ

قوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا﴾ أيْ منَ الأرضِ حيثُ تأوي إليهِ ﴿وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾ أي الموضعَ الذي تموتُ فيهِ فتدفنُ، وقيل: ﴿مُسۡتَقَرَّهَا﴾ في الرحمِ ﴿وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾ في الصلبِ. وقيل: ﴿يَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا﴾ في الجنةِ أوِ النارِ. ﴿وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾ في القبرِ، يدلُّ عليهِ قولهُ تعالى في وصفِ أهلِ الجنةِ وأهلِ النارِ: ﴿حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ ﴿سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ ﴿كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾ أيْ في اللوحِ المحفوظ.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ تقدمَ في «الأعرافِ» بيانهُ والحمدُ للهِ ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ بيّنَ أنَّ خلقَ العرشِ والماءِ قبلَ خلقِ الأرضِ والسماءِ. وسئلَ ابنِ عباسٍ على أي شيء كانَ الماءُ؟ قالَ: على متنِ الريحِ. وروى البخاريُّ عنْ عمرانَ بنِ حصينٍ. قالَ: كنتُ عندَ النبيِّ ﷺ إذْ جاءهُ قومٌ منْ بني تميمٍ فقالَ: «اقبلوا البشرى يابني تميمٍ» قالوا: بشرتنا فأعطنا مرتينِ فدخلَ ناسٌ منْ أهلِ اليمنِ فقالَ: «اقبلوا البشرى يا أهلِ اليمنِ إذْ لمْ يقبلها بنو تميمٍ» قالوا: قبلنا، جئنا لنتفقهَ في الدينِ، ولنسألكَ عنْ هذا الأمر ما كانَ؟ قالَ: «كانَ الله ولم يكن شيء غيرهُ وكانَ عرشهُ على الماءِ ثمَّ خلقَ السموات والأرض وكتب في الذكر كل شيء» ثمَّ أتاني رجلٌ فقالَ: يا عمرانُ أدركْ ناقتكَ فقدْ ذهبتْ، فانطلقتُ أطلبها فإذا هيَ يُقطعُ دونها السرابُ، وايمُ اللهِ لوددتُ أنها قدْ ذهبتْ ولمْ أقمْ.

قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أيْ خلقَ ذلكَ ليبتليَ عبادهُ بالاعتبارِ والاستدلالِ على كمالِ قدرتهِ وعلى البعثِ ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أحسنُ عقلًا وأورعُ عنْ محارمِ اللهِ وأسرعُ في طاعةِ اللهِ ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ﴾ أيْ دللتَ يا محمدُ على البعثِ ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾ وذكرتَ ذلكَ للمشركينَ لقالوا: هذا سحرٌ. وكسرتْ ﴿إِنَّ﴾ لأنها بعدَ القولِ مبتدأةٌ ﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ فتحتِ اللامُ لأنهُ فعلٌ متقدمٌ لا ضميرَ فيهِ، وبعدهُ ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ لأنَّ فيهِ ضميرًا. وَ ﴿سِحْرٌ﴾ أيْ غرورٌ باطلٌ، لبطلانِ السحرِ عندهمْ، وقرأ حمزة والكسائي: «إن هذا إلا ساحر مبين» كنايةٌ عنِ النبيِّ ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ اللامُ في ﴿لَئِن﴾ للقسم، والجوابُ ﴿لَيَقُولُنَّ﴾. ومعنى: ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ إلى أجل معدودٍ وحينٍ معلوم، فالأمةُ هنا المدةُ، وأصلُ الأمةِ الجماعة، فعبر عن الحينِ والسنينَ بالأمةِ لأنَّ الأمةَ تكونُ فيها. وقيل: هوَ على حذفِ المضافِ، والمعنى إلى مجيءِ أمةٍ ليسَ فيها منْ يؤمنُ فيستحقونَ الهلاكَ.

والأمةُ اسمٌ مشتركٌ يقالُ على ثمانيةِ أوجهٍ: فالأمةُ تكونُ الجماعةَ، كقوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾. والأمةُ أيضًا اتباعُ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ. والأمةُ الرجلُ الجامعُ للخيرِ الذي يقتدى بهِ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾. والأمةُ الدينُ

والملةُ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾. والأمةُ الحينُ والزمانُ، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾، وكذلكَ قولهُ تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ والأمةُ القامةُ، وهوَ طولُ الإنسانِ وارتفاعهُ، يقالُ منْ ذلكَ: فلانٌ حسنُ الأمةِ أي القامةِ. والأمةُ الرجلُ المنفردُ بدينهِ وحدهُ لا يشركهُ فيهِ أحدٌ، قالَ النبيُّ ﷺ: «يبعثُ زيدُ بنُ عمرو بنِ نفيلٍ أمةً وحدهُ». والأمةُ الأمُّ، يقالُ: هذهِ أمةُ زيدٍ، يعني أمَّ زيدٍ.

﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ يعني العذابَ، وقالوا هذا إما تكذيبًا للعذابِ لتأخرهِ عنهمْ، أوِ استعجالًا واستهزاءً، أيْ ما الذي يحبسهُ عنا ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ قيلَ: هوَ قتلُ المشركينَ ببدرٍ، وقتلُ جبريلَ المستهزئينَ على ما يأتي ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أيْ نزلَ وأحاطَ ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ٨﴾ أيْ جزاءُ ما كانوا بهِ يستهزئونَ، والمضافُ محذوف.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الإنسانُ اسمٌ شائعٌ للجنسِ في جميعِ الكفارِ. ويقالُ: إنَّ الإنسانَ هنا الوليدُ بنُ المغيرةِ وفيهِ نزلتْ. وقيل: في عبدِ اللهِ بنِ أبي أمية المخزوميِّ. ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ أيْ نعمةً ﴿ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ﴾ أي سلبناه إياها ﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ﴾ أيْ يائسٌ منَ الرحمةِ ﴿كَفُورٌ ٩﴾ للنعمِ جاحدٌ لها.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ﴾ أيْ صحةً ورخاءً وسعةً في الرزقِ ﴿بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ أيْ بعدَ ضرٍّ وفقرٍ وشدةٍ ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾ أيِ الخطايا التي تسوءُ صاحبها منَ الضرِّ والفقرِ ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ١٠﴾ أيْ يفرحُ ويفخرُ بما نالهُ منَ السعةِ وينسى شكرَ اللهِ عليهِ، يقالُ: رجلٌ فاخرٌ إذا افتخرَ - وفخورٌ للمبالغةِ.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ يعني المؤمنينَ، مدحهمْ بالصبرِ على الشدائدِ. وهوَ في موضعِ نصبٍ. استثناءٌ ليسَ منَ الأولِ، أيْ لكنِ الذينَ صبروا ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في حالتي النعمةِ والمحنةِ. وقيل: هوَ استثناءٌ منْ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ﴾ أيْ منَ الإنسانِ، فإنَّ الإنسانَ بمعنى الناسِ، والناسُ يشملُ الكافرَ والمؤمنَ، فهوَ استثناءٌ متصلٌ وهوَ حسنٌ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ ﴿وَأَجْرٌ﴾ معطوف ﴿كَبِيرٌ ١١﴾ صفة.

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ أيْ فلعلكَ لعظيمِ ما تراهُ منهمْ منَ الكفرِ والتكذيبِ تتوهمُ أنهمْ يزيلونكَ عنْ بعضِ ما أنت عليه. وقيل: إنهم لما قالوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ همَّ أنْ يدعَ سبَّ آلهتهمْ فنزلتْ هذهِ الآيةُ، فالكلامُ معناهُ الاستفهامُ، أيْ هلْ أنتَ تاركٌ ما فيهِ سبُّ آلهتهمْ كما سألوكَ؟ وتأكدَ عليهِ الأمر في الإبلاغِ، كقولهِ: ﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾. وقيل: معنى الكلام النفي مع استبعادٍ، أيْ لا يكونُ منكَ ذلكَ، بلْ تبلغهمْ كلَّ ما أنزلَ إليكَ، وذلكَ أنَّ مشركي مكةَ قالوا للنبيِّ ﷺ: لوْ أتيتنا بكتابٍ ليسَ فيهِ سبُّ آلهتنا لاتبعناكَ، فهمَّ النبيُّ ﷺ أنْ يدعَ سبَّ آلهتهمْ، فنزلتْ.

قوله تعالى: ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ عطفٌ على ﴿تَارِكُۢ﴾ وَ ﴿صَدۡرُكَ﴾ مرفوعٌ بهِ، والهاءُ في ﴿بِهِۦ﴾ تعودُ على ﴿مَا﴾ أوْ على بعضَ، أوْ على التبليغِ، أوِ التكذيبِ. وقالَ: ﴿ضَآئِقُۢ﴾ ولمْ يقلْ ضيقٌ ليشاكلَ ﴿تَارِكُۢ﴾ الذي قبلهُ، ولأنَّ الضائقَ عارضٌ، والضيقَ ألزمُ منهُ ﴿أَن يَقُولُوٓاْ﴾ في موضعِ نصبٍ، أيْ كراهيةَ أنْ يقولوا، أوْ لئلا يقولوا كقولهِ: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾ أي لئلا تضلوا. أو لأن يقولوا ﴿لَوۡلَآ﴾ أيْ هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ يصدقهُ، قالهُ عبدُ اللهِ بنُ أبي أميةَ بنِ المغيرةِ المخزومي، فقال الله تعالى: يا محمد ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ﴾ إنما عليكَ أنْ تنذرهمْ، لا بأنْ تأتيهمْ بما يقترحونهُ منَ الآياتِ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ١٢﴾ أي حافظ وشهيد.

قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ ﴿أَمۡ﴾ بمعنى بلْ، فإنْ قالوا: افتريتهُ- أيِ اختلقتهُ- فليأتوا بمثلهِ مفترى بزعمهمْ ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أيْ منَ الكهنة والأعوان ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾ أيْ في المعارضةِ فقدْ قامتْ عليهمُ الحجةُ، إذْ هُمُ اللُّسْنُ البلغاءُ، وأصحابُ الألسنِ الفصحاءُ ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ واعلموا صدقَ محمدٍ ﷺ واعلموا ﴿أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ استفهامٌ معناهُ الأمر.

وقالَ: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ﴾ وبعدهُ. ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾ ولـمْ يقلْ لكَ، على تحويلِ المخاطبةِ منَ الإفرادِ، إلى الجمع تعظيمًا وتفخيمًا، وقدْ يخاطبُ الرئيسُ بما يخاطبُ بهِ الجماعةُ. وقيل: الضميرُ في ﴿لَكُمۡ﴾ وفي ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ للجميع، أي فليعلم للجميع ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾، وقيل: الضميرُ في ﴿لَكُمۡ﴾ وفي ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ للمشركينَ، والمعنى: فإنْ لـمْ يستجبْ لكمْ منْ تدعونهُ إلى المعاونةِ، ولا تهيأتْ لكمُ المعارضةُ ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾. وقيل: الضميرُ في ﴿لَكُمۡ﴾ للنبيِّ ﷺ وللمؤمنينَ، وفي ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ للمشركين.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَـٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ﴾ كانَ زائدةٌ، ولهذا جزمَ بالجوابِ فقالَ: ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ﴾ وقيل: ﴿مَن كَانَ﴾ في موضعِ جزمٍ بالشرطِ، وجوابهُ ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ﴾ أيْ منْ يكنْ يريدُ، والأولُ في اللفظ ماضي والثاني مستقبلٌ، كما قالَ زهيرٌ:

ومنْ هـابَ أسـبـابَ المنيةِ يلقها ... ولوْ رامَ أسـبـابَ الـسـماءِ بسـلـمِ

واختلفَ العلماءُ في تأويلِ هذهِ الآيةِ، فقيلَ: نزلت في الكفار، بدليلِ الآيةِ التي بعدها ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ﴾ أيْ منْ أتى منهمْ بصلةِ رحمٍ أوْ صدقة نكافئه بها في الدنيا، بصحةِ الجسمِ، وكثرةِ الرزقِ، لكن لا حسنة لهُ في الآخرةِ، وقيل: المرادُ بالآيةِ المؤمنونَ، أيْ منْ أرادَ بعملِهِ ثوابَ الدنيا عُجِّلَ لهُ الثوابُ ولـمْ يُنقصْ شيئًا في الدنيا، ولهُ في الآخرةِ العذابُ لأنهُ جرّدَ قصدهُ إلى الدنيا، وهذا كما قالَ ﷺ: «إنما الأعمالُ بالنياتِ» فالعبدُ إنما يعطى على وجهِ قصدهِ، وبحكمِ ضميرهِ، وهذا أمرٌ متفقٌ عليهِ في الأممِ بينَ كلِّ ملةٍ.

وقيل: هوَ لأهلِ الرياءِ، وفي الخبرِ أنهُ يقالُ لأهلِ الرياءِ: «صمتمْ وصليتمْ وتصدقتمْ وجاهدتمْ وقرأتمْ ليقالَ ذلكَ فقدْ قيلَ ذلكَ» ثمَّ قالَ: «إنَّ هؤلاءِ أولُ منْ تسعرُ بهمُ النارُ». رواهُ أبو هريرةَ، ثمَّ بكى بكاءً شديدًا وقالَ: صدقَ رسولُ اللهِ ﷺ، قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ وقرأ الآيتينِ. خرجهُ مسلمٌ في صحيحهِ بمعناهُ.

وقيل: الآيةُ عامةٌ في كلِّ منْ ينوي بعملهِ غيرَ اللهِ تعالى، كانَ معه أصل إيمان أو لم يكن، فإنْ كانَ مسلمًا مخلصًا وفيَ في الدنيا والآخرة، وإن كان كافرا وفي الدنيا.

الثانية: قالَ بعضُ العلماءِ: معنى هذهِ الآيةِ قولهُ ﷺ: «إنما الأعمالُ بالنياتِ» وتدلكَ هذهِ الآيةُ على أنَّ منْ صامَ في رمضانَ لا عنْ رمضانَ لا يقعُ عنْ رمضانَ، وتدلُّ على أنَّ منْ توضأَ للتبردِ والتنظفِ لا يقعُ قربةً عنْ جهةِ الصلاةِ، وهكذا كلُّ ما كانَ في معناهُ.

الثالثة: ذهبَ أكثرُ العلماءِ إلى أنَّ هذهِ الآيةَ مطلقةٌ، وكذلكَ الآيةُ التي في «الشورى» ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ الآيةَ. وكذلكَ ﴿وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ قيدها وفسرها بالتي في «سبحانَ» ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ إلى قوله: ﴿مَحۡظُورًا﴾ فأخبرَ سبحانهُ أنَّ العبدَ ينوي ويريدُ واللهُ سبحانهُ يحكمُ ما يريدُ.

وعنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما قولهِ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أنها منسوخة بقوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾. والصحيحُ ما ذكرناهُ، وأنهُ منْ بابِ الإطلاقِ والتقييدِ، ومثلهُ قولهُ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ فهذا ظاهرهُ خبرٌ عنْ إجابةِ كلِّ داعٍ دائمًا على كلِّ حالٍ، وليسَ كذلكَ، لقولهِ تعالى: ﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ﴾ والنسخُ في الأخبارِ لا يجوزُ، لاستحالةِ تبدلِ الواجباتِ العقليةِ، ولاستحالةِ الكذبِ على اللهِ تعالى فأما الأخبارُ عنِ الأحكامِ الشرعيةِ فيجوزُ نسخها على خلافٍ فيهِ، على ما هوَ مذكورٌ في الأصولِ، ويأتي في «النحلِ» بيانهُ إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ إشارةٌ إلى التخليدِ، والمؤمنُ لا يخلدُ، لقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ الآيةَ. فهوَ محمولٌ على ما لوْ كانتْ موافاةُ هذا المرائي على الكفرِ. وقيل: المعنى ليسَ لهمْ إلا النارُ في أيامٍ معلومةٍ ثمَّ يخرجُ، إما بالشفاعةِ، وإما بالقبضةِ.

والآيةُ تقتضي الوعيدَ بسلبِ الإيمانِ ﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦﴾ ابتداءٌ وخبرٌ.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ابتداءٌ والخبرُ محذوفٌ، أيْ أفمنْ كانَ على بينةٍ منْ ربهِ في اتباعِ النبيِّ ﷺ ﴿وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾ منَ اللهِ، وهوَ النبيُّ ﷺ. وقيلَ: المرادُ بقولهِ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ النبيُّ ﷺ والكلامُ راجعٌ إلى قولهِ: ﴿وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾، أيْ أفمنْ كانَ معهُ بيانٌ منَ اللهِ، ومعجزةٌ كالقرآنِ، ومعهُ شاهدٌ كجبريلَ وقدْ بشرتْ بهِ الكتبُ السالفةُ يضيقُ صدرهُ بالإبلاغِ، وهوَ يعلمُ أنَّ اللهَ لا يُسْلمه. والهاء في ﴿رَّبِّهِۦ﴾ تعود عليه. ﴿وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾. وهو جبريلُ، والهاءُ في ﴿مِّنۡهُ﴾ للهِ عزَّ وجلَّ، أيْ ويتلو البيانَ والبرهانَ شاهدٌ منَ اللهِ عزَّ وجلَّ.

وقيل: الشاهدُ القرآنُ في نظمهِ وبلاغتهِ، والمعاني الكثيرة منه في اللفظ الواحد، فالهاءُ في ﴿مِّنۡهُ﴾ للقرآنِ. وقالَ بعضهمْ: ﴿وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ﴾ الإنجيلُ ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ﴾ أيْ منْ قبلِ الإنجيلِ ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ رفعَ بالابتداءِ ﴿إِمَامٗا﴾ نصبٌ على الحالِ ﴿وَرَحۡمَةًۚ﴾ معطوفٌ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ﴾ إشارةٌ إلى بني إسرائيلَ، أيْ يؤمنونَ بما في التوراةِ منَ البشارةِ بكَ، وإنما كفرَ بكَ هؤلاءِ المتأخرونَ فهمُ الذينَ موعدهم النار ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن أو بالنبي ﷺ ﴿مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ يعني منَ المللِ كلها، وقيل: قريشٌ وحلفاؤهمْ ﴿فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ﴾ أيْ هوَ منْ أهلِ النارِ، وفي مسلمٍ منْ حديثِ أبي يونسَ عنِ النبيِّ ﷺ: «والذي نفسُ محمدٍ بيدهِ لا يسمعُ بي أحدٌ منْ هذهِ الأمةِ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ ثمَّ يموتُ ولمْ يؤمنْ بالذي أرسلتُ بهِ إلا كانَ منْ أصحابِ النارِ» ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ﴾ أيْ في شكٍّ ﴿مِّنۡهُ﴾ أيْ منَ القرآنِ ﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أيِ القرآنُ منَ اللهِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أيْ لا أحدَ أظلمُ منهمْ لأنفسهمْ لأنهمُ افتروا على اللهِ كذبًا، فأضافوا كلامهُ إلى غيرهِ، وزعموا أنَّ لهُ شريكًا وولدًا، وقالوا للأصنام هؤلاءِ شفعاؤنا عندَ اللهِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أيْ يحاسبهمْ على أعمالهمْ ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ يعني الملائكةَ الحفظةَ، وقيل: همُ الأنبياءُ والمرسلونَ، دليلهُ قولهُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾. وقيل: الملائكةُ والأنبياءُ والعلماءُ الذينَ بلّغوا الرسالاتِ، وفي صحيح مسلمٍ منْ حديثِ ابنِ عمرَ عنِ النبيِّ ﷺ، وفيهِ قالَ: «وأما الكفارُ والمنافقونَ فينادى بهمْ على رءوسِ الخلائقِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أيْ بعدهُ وسخطهُ وإبعادهُ منْ رحمتهِ على الذين وضعوا العبادة في غير موضعها.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في موضع خفضٍ نعتًا للظالمينَ، ويجوزُ أنْ تكونَ في موضعِ رفعٍ، أيْ همُ الذينَ. وقيل: هوَ ابتداءُ خطابٍ منَ اللهِ تعالى، أيْ همُ الذينَ يصدونَ أنفسهمْ وغيرهمْ عنِ الإيمانِ والطاعةِ ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ﴾ أيْ يعدلونَ بالناسِ عنها إلى المعاصي والشركِ ﴿وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ١٩﴾ أعادَ لفظَ ﴿هُمْ﴾ تأكيدًا.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أيْ فائتينَ منْ عذابِ اللهِ ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني أنصارًا، وَ ﴿مِنْ﴾ زائدةٌ. وقيل: ﴿مَا﴾ بمعنى الذي تقديرهُ: أولئكَ لمْ يكونوا معجزينَ، لا همْ ولا الذينَ كانوا لهمْ منْ أولياءَ من دونِ اللهِ ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ﴾ أيْ على قدرِ كفرهمْ ومعاصيهمْ ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ ﴿مَا﴾ في موضعِ نصبٍ على أنْ يكونَ المعنى: بما كانوا يستطيعونَ السمعَ ﴿وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ٢٠﴾ ولمْ يستعملوا ذلكَ في استماعِ الحقِّ وإبصارهِ. ويجوزُ أنْ تكونَ ﴿مَا﴾ ظرفًا، والمعنى: يضاعفُ لهمْ أبدًا، أيْ وقتَ استطاعتهمُ السمعَ والبصرَ، واللهُ سبحانهُ يجعلهمْ في جهنمَ مستطيعي ذلكَ أبدًا. ويجوزُ أنْ تكونَ ﴿مَا﴾ نافيةً لا موضعَ لها، إذِ الكلامُ قدْ تمَّ قبلها، والوقفُ على العذاب كاف، والمعنى: ما كانوا يستطيعونَ في الدنيا أنْ يسمعوا سمعًا ينتفعونَ بهِ، ولا أنْ يبصروا إبصارَ مهتدٍ.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ٢١﴾ أيْ ضاعَ عنهمُ افتراؤهمْ وتلفَ.

قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ٢٢﴾ ﴿لَا جَرَمَ﴾ للعلماءِ فيها أقوالٌ:

فقالَ الخليلُ وسيبويهِ: ﴿لَا جَرَمَ﴾ بمعنى حقٌّ، فَ ﴿لَآ﴾ وَ ﴿جَرَمَ﴾ عندهما كلمةٌ واحدةٌ، وَ ﴿أَنَّ﴾ عندهما في موضعِ رفعٍ.

وعنِ الخليل أيضا أن معناها لا بد ولا محالةَ.

وقال الزجاج: ﴿لَآ﴾ ها هنا نفيٌ وهوَ ردٌّ لقولهمْ: إنَّ الأصنامَ تنفعهمْ، كأنَّ المعنى لا ينفعهمْ ذلكَ، وجرمَ بمعنى كسبَ، أيْ كسبَ ذلكَ الفعلُ لهمُ الخسرانَ، وفاعل كسب مضمر، و «أنَّ» منصوبة بجَرَم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمُ ﴿إِنَّ﴾ وَ ﴿ءَامَنُواْ﴾ صلةٌ، أيْ صدقوا ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ عطفٌ على الصلةِ، والإخباتُ الخشوعُ للمخافةِ الثابتةِ في القلبِ، وأصلُ الإخباتِ الاستواءُ، منَ الخبتِ وهوَ الأرضُ المستويةُ الواسعةُ: فالإخباتُ الخشوعُ والاطمئنانُ، أوِ الإنابةُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ المستمرةُ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ قالَ الفراءُ: إلى ربهمْ ولربهمْ واحدٌ، وقدْ يكونُ المعنى: وجهوا إخباتهمْ إلى ربهمْ، وجملة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ٢٣﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ ابتداءٌ، والخبرُ ﴿كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ﴾ مثلُ فريقِ الكافرِ كالأعمى ﴿وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ مثلُ فريقِ المؤمنِ، ولهذا قالَ: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ فردَّ إلى الفريقين وهما اثنان، ﴿مَثَلًا﴾ منصوبٌ على التمييز ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٤﴾ في الوصفين وتنظرون.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ ذكرَ سبحانهُ قصصَ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ للنبيِّ ﷺ تنبيهًا لهُ على ملازمةِ الصبرِ على أذى الكفارِ إلى أنْ يكفيهُ اللهُ أمرهم ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾ أيْ فقالَ: إني، لأنَّ في الإرسالِ معنى القولِ. وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو والكسائيُّ «أَنِّي» بفتحِ الهمزةِ، أيْ أرسلناهُ بأني لكمْ نذيرٌ مبينٌ. ولمْ يقلْ «إنهُ» لأنهُ رجعَ منَ الغيبةِ إلى خطابِ نوحٍ لقومهِ، كما قالَ: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾، ثم قال: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي اتركوا الأصنامَ فلا تعبدوها، وأطيعوا اللهَ وحدهُ. ومنْ قرأَ ﴿إِنِّي﴾ بالكسرِ جعلهُ معترضًا في الكلامِ، والمعنى أرسلناهُ بألا تعبدوا إلا اللهَ ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟﴾ الملأُ الرؤساءُ، أيْ هم مليئونَ بما يقولونَ ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا﴾ أيْ آدميًا ﴿مِّثْلَنَا﴾ نصبَ على الحالِ. وَ ﴿مِّثْلَنَا﴾ مضافٌ إلى معرفةٍ وهوَ نكرةٌ يقدّرُ فيهِ التنوينُ، كما قالَ الشاعرُ:

يا رُبَّ مِثْلِكِ في النساءِ غَريرةٍ

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أراذلُ جمعُ أرذلٍ وأرذلُ جمعُ رذلٍ، والأراذل هم الفقراء، والذين لا حسب لهمْ، والخسيسو الصناعاتِ. قالَ هرقلُ لأبي سفيانَ: أشرافُ الناسِ اتبعوهُ أمْ ضعفاؤهمْ؟ فقالَ: بلْ ضعفاؤهمْ، فقالَ: همْ أتباعُ الرسلِ.

قالَ علماؤنا: إنما كانَ ذلكَ لاستيلاءِ الرياسةِ على الأشرافِ، وصعوبةِ الانفكاكِ عنها، والأنفةِ منَ الانقيادِ للغيرِ، والفقيرُ خليٌّ عنْ تلكَ الموانعِ، فهوَ سريعٌ إلى الإجابةِ والانقيادِ. وهذا غالبُ أحوالِ أهلِ الدنيا.

الثالثة: اختلفَ العلماءُ في تعيينِ السفلةِ على أقوالٍ، فذكرَ ابنُ المباركِ عنْ سفيانَ أنَّ السفلةَ همُ الذينَ يتقلَّسونَ، ويأتونَ أبوابَ القضاةِ والسلاطين يطلبون الشهادات.

وقالَ ثعلبٌ عنِ ابنِ الأعرابيِّ: السفلةُ الذينَ يأكلونَ الدنيا بدينهمْ، قيلَ لهُ: فمنْ سفلةُ السفلةِ؟ قالَ: الذي يصلحُ دنيا غيرهِ بفسادِ دينه.

الرابعة: جاءَ رجل إلى الترمذيِّ فقالَ: إنَّ امرأتي قالتْ لي يا سَفِلةُ، فقلتُ: إنْ كنتُ سفلةً فأنتِ طالقٌ، قالَ الترمذيُّ: ما صناعتكَ؟ قالَ: سماكٌ، قالَ: سفلةٌ واللهِ، سفلةٌ واللهِ. قلتُ: وعلى ما ذكرهُ ابنُ المباركِ عنْ سفيانَ لا تطلقُ، وكذلكَ على قول مالك وابن الأعرابي.

قوله تعالى: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأۡيِ﴾. أي ظاهر الرأي، يقالُ: بدا يبدو إذا ظهرَ، ويقالُ للبريةِ باديةٌ لظهورها. وبدا لي أنْ أفعلَ كذا، أيْ ظهرَ لي رأيٌ غيرَ الأولِ. وقالَ الأزهريُّ: معناهُ فيما يبدو لنا منَ الرأيِ.

ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿بَادِىَ ٱلرَّأۡيِ﴾ منْ بدأَ يبدأُ وحذفَ الهمزةَ. وحققَ أبو عمرو الهمزةَ فقرأَ: «بَادِئَ الرَّأْيِ» أيْ أولَ الرأيِ، أيِ اتبعوكَ حينَ ابتدؤوا ينظرونَ، ولوْ أمعنوا النظرَ والفكرَ لمْ يتبعوكَ، ولا يختلفُ المعنى هاهنا بالهمزِ وتركِ الهمزِ. وانتصبَ على حذفِ «في» كما قالَ عزَّ وجل: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾.

﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ﴾ أيْ في اتباعهِ، وهذا جحدٌ منهمْ لنبوتهِ ﷺ ﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ۝٢٧﴾ الخطابُ لنوح ومن آمن معه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ أيْ على يقينٍ، وقيل: على معجزةٍ ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ أيْ نبوةً ورسالةً ﴿فَعَمِيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ أيْ عميتْ عليكمُ الرسالةُ والهدايةُ فلمْ تفهموها، وقرأها حمزةُ والكسائيُّ وحفص عن عاصم ﴿فَعُمِّيَتۡ﴾ بضمِّ العينِ وتشديدِ الميمِ على ما لمْ يسمَّ فاعلهُ، أيْ فعماها اللهُ عليكمْ ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾ قيلَ: شهادةُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ. وقيل: الهاءُ ترجعُ إلى الرحمةِ. وقيل: إلى البينةِ، أيْ أنلزمكمْ قبولها، وأوجبها عليكمْ؟! وهوَ استفهامٌ بمعنى الإنكارِ، أيْ لا يمكنني أنْ أضطركمْ إلى المعرفةِ بها، وإنما قصد نوح ﷺ بهذا القولِ أنْ يردَّ عليهمْ ﴿وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾ أيْ لا يصحُّ قبولكمْ لها معَ الكراهةِ عليها. ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أيْ على التبليغِ ﴿مَالًا﴾ فيثقلُ عليكمْ ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ أيْ ثوابي في تبليغِ الرسالةِ ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾ سألوهُ أنْ يطردَ الأراذلَ الذينَ آمنوا به، كما سألتْ قريشٌ النبيَّ ﷺ أنْ يطردَ المواليَ والفقراءَ، فأجابهمْ بقولهِ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ يحتملُ أنْ يكونَ قالَ هذا على وجهِ الإعظامِ لهمْ بلقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ويحتملُ أنْ يكونَ قالهُ على وجهِ الاختصامِ، أيْ لوْ فعلتُ ذلكَ لخاصموني عندَ اللهِ، فيجازيهمْ على إيمانهمْ، ويجازي منْ طردهمْ ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٩﴾ في استرذالكمْ لهمْ، وسؤالكمْ طردهمْ. ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ أيْ يمنعني منْ عذابهِ ﴿إِن طَرَدتُّهُمۡۚ﴾ أيْ لأجلِ إيمانهمْ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠﴾ أدغمتِ التاءُ في الذالِ. ويجوزُ حذفها فتقولُ: تذكرونَ. ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ أخبرَ بتذلله وتواضعهِ للهِ عزَّ وجلَّ، وأنهُ لا يدعي ما ليسَ لهُ ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ من الملائكةِ. وقدْ قالتِ العلماءُ: الفائدةُ في الكلامِ الدلالةُ على أنَّ الملائكةَ أفضلُ منَ الأنبياءِ، لدوامهمْ على الطاعةِ، واتصالِ عباداتهمْ إلى يومِ القيامةِ، ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ﴾ أيْ تحتقرُ أعينكمْ، والأصلُ تزدريهمْ حذفتِ الهاءُ والميمُ لطولِ الاسمِ ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾ أيْ ليسَ لاحتقاركمْ لهمْ تبطلُ أجورهمْ، أوْ ينقصُ ثوابهمْ ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ فيجازيهمْ عليهِ ويؤاخذهمْ بهِ ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١﴾ أيْ إنْ قلتُ هذا الذي تقدمَ ذكرهُ. وَ ﴿إِذٗآ﴾ ملغاةٌ، لأنها متوسطة.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ أيْ خاصمتنا فأكثرتَ خصومتنا وبالغتَ فيها. والجدلُ في كلامِ العربِ المبالغة في الخصومة، مشتق من الجَدْل وهوَ شدةُ الفتلِ، وقرأ ابنُ عباسٍ «فَأَكْثَرْتَ جَدَلَنَا». والجدلُ في الدينِ محمودٌ، ولهذا جادلَ نوحٌ والأنبياءُ قومهمْ حتى يظهرَ الحقُّ، فمنْ قبلهُ أنجحَ وأفلحَ، ومنْ ردهُ خابَ وخسرَ. وأما الجدالُ لغيرِ الحقِّ حتى يظهرَ الباطلُ في صورةِ الحقِّ فمذمومٌ، وصاحبهُ في الدارينِ ملومٌ.

﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أيْ منَ العذابِ ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢﴾ في قولكَ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ أيْ إنْ أرادَ إهلاككمْ عذبكمْ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٣٣﴾ أيْ بفائتينَ. وقيل: بغالبينَ بكثرتكمْ، لأنهمْ أعجبوا بذلكَ، كانوا ملؤوا الأرضَ سهلًا وجبلًا على ما يأتي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ﴾ أيْ إبلاغي واجتهادي في إيمانكمْ ﴿إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ﴾ أيْ لأنكمْ لا تقبلونَ نصحًا ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾ أيْ يضلكمْ. وهذا مما يدلُّ على بطلانِ مذهبِ المعتزلةِ والقدريةِ ومنْ وافقهما، إذْ زعموا أنَّ اللهَ تعالى لا يريدُ أنْ يعصيَ العاصي، ولا يكفرَ الكافرُ، ولا يغويَ الغاوي، وأنْ يفعلَ ذلكَ، واللهُ لا يريدُ ذلكَ، فردَّ اللهُ عليهمْ بقولهِ: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾، وقدْ أكذبوا شيخهمُ اللعينَ إبليسَ في إغواءِ اللهِ تعالى إياهُ حيثُ قالَ: ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾، ولا محيصَ لهمْ عنْ قولِ نوحٍ عليه السلام: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾ فأضافَ إغواءهمْ إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى، إذْ هوَ الهادي والمضلُّ، سبحانهُ عما يقولُ الجاحدونَ والظالمونَ علوًا كبيرًا.

وقيل: ﴿أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾ يهلككمْ، لأنَّ الإضلالَ يفضي إلى الهلاكِ، ومنه ﴿فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾.

﴿هُوَ رَبُّكُمۡ﴾ فإليهِ الإغواءُ، وإليهِ الهدايةُ ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٣٤﴾ تهديد ووعيد.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ يعنونَ النبيَّ ﷺ. افترى افتعلَ، أيِ اختلقَ القرآنَ منْ قبلِ نفسهِ، وما أخبرَ بهِ عنْ نوحٍ وقومهِ، وقالَ ابنُ عباسٍ: هوَ منْ محاورةِ نوحٍ لقومهِ وهوَ أظهرُ، لأنهُ ليسَ قبلهُ ولا بعدهُ إلا ذكرُ نوحٍ وقومهِ، فالخطابُ منهمْ ولهمْ ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ أيِ اختلقتهُ وافتعلتهُ، يعني الوحيَ والرسالةَ ﴿فَعَلَيَّ إِجْرَامِى﴾ أيْ عقابُ إجرامي، وإنْ كنتُ محقًا فيما أقولهُ فعليكمْ عقابُ تكذيبي. والإجرامُ مصدرُ أجرمَ، وهوَ اقترافُ السيئةِ ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ۝٣٥﴾ أي من الكفرِ والتكذيب.

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ معنى الكلامِ الإياسُ منْ إيمانهمْ، واستدامةُ كفرهمْ، تحقيقًا لنزولِ الوعيدِ بهمْ، فدعا عليهمْ لما أخبرَ بهذا فقالَ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ الآيتينِ. ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾ أيْ فلا تغتمَّ بهلاكهمْ حتى تكونَ بائسًا، أيْ حزينًا. والبؤسُ الحزنُ.

قوله تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أيِ اعملِ السفينةَ لتركبها أنتَ ومنْ آمنَ معكَ. ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أيْ بمرأى منا، وقيل: بحراستنا، فعبرَ عنِ الرؤيةِ بالأعينِ، لأنَّ الرؤيةَ تكونُ بها. ويكونُ جمعُ الأعينِ للعظمةِ لا للتكثير، كما قال تعالى: ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾. وقدْ يرجعُ معنى الأعينِ في هذهِ الآيةِ وغيرها إلى معنى عينٍ، كما قالَ: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾.

﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝٣٧﴾ أي لا تطلب إمهالهم فإني مغرقهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ أيْ وطفقَ يصنعُ. ﴿وَكُلَّمَا﴾ ظرفٌ ﴿مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾. يقالُ: سخرتُ بهِ ومنهُ. وفي سخريتهمْ منهُ قولانِ:

أحدهما- أنهمْ كانوا يرونهُ يبني سفينتهُ في البرِّ، فيسخرونَ بهِ ويستهزئونَ ويقولونَ: يا نوحُ صرتَ بعدَ النبوةِ نجارًا.

الثاني– لما رأوهُ يبني السفينةَ ولمْ يشاهدوا قبلها سفينةً بنيتْ قالوا: يا نوح ما تصنعُ؟ قالَ: أبني بيتًا يمشي على الماءِ، فعجبوا منْ قولهِ وسخروا منهُ. قالَ ابنُ عباسٍ: ولمْ يكنْ في الأرضِ قبلَ الطوفانِ نهرٌ ولا بحرٌ، فلذلكَ سخروا منهُ، ومياهُ البحارِ هيَ بقيةُ الطوفانِ. ﴿قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا﴾ أيْ منْ فعلنا اليومَ عندَ بناء السفينة ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ غدًا عندَ الغرقِ ﴿كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨﴾.

قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ تهديد، و ﴿مَن﴾ متصلة ب ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ وَ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ هنا منْ بابِ التعديةِ إلى مفعولٍ، أيْ فسوفَ تعلمونَ الذي يأتيهِ العذابُ. ويجوزُ أنْ تكونَ ﴿مَن﴾ استفهاميةً، أيْ أينا يأتيهِ العذابُ؟. وقيل: ﴿مَن﴾ في موضعِ رفعٍ بالابتداءِ وَ ﴿يَأۡتِيهِ﴾ الخبرُ، وَ ﴿يُخۡزِيهِ﴾ صفةٌ لِ ﴿عَذَابٞ﴾. ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ﴾ أيْ يجبُ عليهِ وينزلُ بهِ ﴿عَذَابٞ مُّقِيمٌ ٣٩﴾ أيْ دائمٌ، يريدُ عذابَ الآخرةِ.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ اختلفَ في التنورِ على أقوالٍ منها:

الأولُ– أنهُ وجهُ الأرضِ، والعربُ تسمي وجهَ الأرضِ تنورًا، وذلكَ أنهُ قيلَ لهُ: إذا رأيتَ الماءَ على وجهِ الأرضِ فاركبْ أنتَ ومنْ معكَ.

الثاني– أنهُ تنورُ الخبزِ الذي يخبزُ فيهِ، فقيلَ لهُ: إذا رأيتَ الماءَ يفورُ منَ التنورِ فاركبْ أنتَ وأصحابكَ.

الثالثُ– أنهُ موضعُ اجتماعِ الماءِ في السفينةِ.

الرابعُ– أنهُ طلوعُ الفجرِ، ونورُ الصبحِ، منْ قولهمْ: نوّرَ الفجرُ تنويرًا.

الخامسُ– أنهُ أعالي الأرضِ، والمواضعُ المرتفعةُ منها.

قالَ النحاسُ: وهذهِ الأقوالُ ليستْ بمتناقضةٍ، لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أخبرنا أنَّ الماءَ جاءَ منَ السماءِ والأرضِ، قالَ: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾.

فهذهِ الأقوالُ تجتمعُ في أنَّ ذلكَ كانَ علامةً. والفورانُ الغليانُ. والتنورُ اسمٌ أعجميٌّ عربتهُ العربُ، وهوَ على بناءِ فعلَ، لأنَّ أصلَ بنائهِ تنرَ، وليسَ في كلامِ العربِ نونٌ قبلَ راءٍ.

وقيل: معنى ﴿فَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ التمثيلُ لحضورِ العذابِ، كقولهمْ: حميَ الوطيسُ إذا اشتدتِ الحربُ. والوطيسُ التنورُ. ويقالُ: فارتْ قدرُ القومِ إذا اشتدَّ حربهمْ.

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ يعني ذكرًا وأنثى، لبقاءِ أصلِ النسلِ بعدَ الطوفانِ. وقرأ حفصٌ «مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ» بتنوينِ «كُلٍّ» أيْ منْ كلِّ شيءٍ زوجينِ. والقراءتانِ ترجعانِ إلى معنى واحدٍ، ويقالُ: هما زوجانِ، في كلِّ اثنينِ لا يستغني أحدهما عنْ صاحبهِ، فإنَّ العربَ تسمي كلَّ واحدٍ منهما زوجًا يقالُ: لهُ زوجا نعلٍ إذا كانَ لهُ نعلانِ. وكذلكَ عندهُ زوجا حمامٍ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾. ويقالُ للمرأةِ هيَ زوجُ الرجلِ، وللرجلِ هوَ زوجها. وقدْ يقالُ للاثنينِ هما زوجٌ، وقدْ يكونُ الزوجانِ بمعنى الضربينِ، والصنفينِ، وكلُّ ضربٍ يدعى زوجًا، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ أيْ منْ كلِّ لونٍ وصنفٍ.

وَ ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ في موضعِ نصبٍ بِ ﴿ٱحْمِلْ﴾. ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ تأكيدٌ ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أيْ واحملْ أهلكَ ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ﴾ «منْ» في موضعِ نصبٍ بالاستثناءِ ﴿عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ منهمْ أيْ بالهلاكِ، وهوَ ابنهُ كنعانُ وامرأتهُ واعلةُ كانا كافرينِ ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ أي احملْ منْ آمنَ بي، أيْ منْ صدقكَ، فَ ﴿مَنْ﴾ في موضعِ نصبٍ بِ ﴿ٱحْمِلْ﴾ ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ٤٠﴾ قالَ ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: آمنَ منْ قومهِ ثمانونَ إنسانًا، منهمْ ثلاثةٌ منْ بنيهِ، سامٌ وحامٌ ويافثُ.

وَ ﴿قَلِيلٌ﴾ رفع بآمن، ولا يجوزُ نصبهُ على الاستثناءِ، لأنَّ الكلامَ قبلهُ لمْ يتمَّ، إلا أنَّ الفائدةَ في دخول ﴿إِلَّا﴾ و ﴿مَا﴾ لأنكَ لوْ قلتَ: آمنَ معهُ فلانٌ وفلانٌ جازَ أنْ يكونَ غيرهمْ قدْ آمنَ، فإذا جئتَ بما وإلا، أوجبتَ لما بعدَ إلا ونفيت عن غيرهم.

قوله تعالى: ﴿۞وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾ أمرٌ بالركوبِ، ويحتملُ أنْ يكونَ منَ اللهِ تعالى، ويحتملُ أنْ يكونَ منْ نوحٍ لقومهِ. والركوبُ العلوُّ على ظهرِ الشيءِ. ويقالُ: ركبهُ الدينُ. وفي الكلامِ حذفٌ، أيِ اركبوا الماءَ في السفينةِ. وقيل: المعنى اركبوها. وَ «في» للتأكيد كقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ وفائدةُ «في» أنهمْ أمروا أنْ يكونوا في جوفها لا على ظهرها.

وذكرَ الطبريُّ في هذا حديثًا عنِ النبيِّ ﷺ أنَّ نوحًا ركبَ في السفينةِ أولَ يومٍ منْ رجبٍ، وصامَ الشهرَ أجمعَ، وجرتْ بهمُ السفينةُ إلى يومِ عاشوراءَ، ففيهِ أرستْ على الجوديِّ، فصامهُ نوحٌ ومنْ معهُ.

قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ قراءةُ أهلِ الحرمينِ وأهلِ البصرةِ بضمِّ الميمِ فيهما إلا منْ شذَّ، على معنى بسمِ اللهِ إجراؤها وإرساؤها، فمُجراها ومُرساها في موضعِ رفعٍ بالابتداءِ، وقرأ حمزة والكسائي: «بِسْمِ اللهِ مَجْراها» بفتحِ الميمِ وَ «مُرْساها» بضمِّ الميمِ.

وفي هذهِ الآيةِ دليلٌ، على ذكرِ البسملةِ عندَ ابتداءِ كلِّ فعلٍ، كما بيناهُ في البسملةِ ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٤١﴾ أيْ لأهلِ السفينةِ.

قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾ الموجُ جمعُ موجةٍ، وهيَ ما ارتفعَ منْ جملةِ الماءِ الكثيرِ عندَ اشتدادِ الريحِ. والكافُ للتشبيهِ، وهيَ في موضعِ خفضٍ نعتٍ للموجِ. وجاءَ في التفسيرِ أنَّ الماءَ جاوزَ كل شيء بخمسةَ عشرَ ذراعًا ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ﴾ قيلَ: كانَ كافرًا واسمهُ كنعانُ. وقيل: يامُ ﴿وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ﴾ أيْ منْ دينِ أبيهِ. وقيل: عنِ السفينةِ. وقيل: إنَّ نوحًا لمْ يعلمْ أنَّ ابنهُ كانَ كافرا، وأنه ظنَّ أنهُ مؤمنٌ، ولذلكَ قالَ لهُ: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٤٢﴾ وسيأتي. وكانَ هذا النداءُ منْ قبلِ أنْ يستيقنَ القومُ الغرقَ، وقبلَ رؤيةِ اليأسِ، بلْ كانَ في أولِ ما فارَ التنورُ، وظهرتِ العلامةُ لنوحٍ. وقرأ عاصمٌ: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ بفتحِ الياءِ، والباقونَ بكسرها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ﴾ أيْ أرجعُ وأنضمُّ ﴿إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي﴾ أيْ يمنعني ﴿مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ فلا أغرقُ ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ فإنهُ يومٌ حقَّ فيهِ العذابُ على الكفارِ. وانتصبَ ﴿عَاصِمَ﴾ على التبرئةِ ويجوزُ «لَا عاصِمٌ الْيَوْمَ» تكونُ لا بمعنى ليسَ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ في موضعِ نصبِ استثناءً ليسَ منَ الأولِ، أيْ لكنْ منْ رحمهُ اللهُ فهو يعصمه، ويجوزُ أنْ يكونَ في موضعِ رفعٍ، على أنَّ عاصمًا بمعنى معصومٍ، مثلُ: ﴿مَّآءٖ دَافِقٖ﴾ أيْ مدفوقٌ، فالاستثناءُ. على هذا متصلٌ، قالَ الشاعر:

دعِ المكارمَ لا تنهضْ لبغيتها واقعدْ فإنكَ أنتَ الطاعمُ الكاسي

أيِ المطعومُ المكسوُّ. قالَ النحاسُ: ومنْ أحسنِ ما قيلَ فيهِ أنْ تكونَ ﴿مِنَ﴾ في موضعِ رفعٍ، بمعنى لا يعصمُ اليومَ منْ أمرِ اللهِ إلا الراحمُ، أيْ إلا اللهُ ﴿وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ﴾ يعني بينَ نوحٍ وابنهِ ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ٤٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ هذا مجازٌ لأنها مواتٌ. وقيل: جعلَ فيها ما تميزُ بهِ. والذي قالَ إنهُ مجازٌ قالَ: لوْ فُتِّشَ كلامُ العربِ والعجمِ ما وجدَ فيهِ مثلَ هذهِ الآيةِ على حسنِ نظمها، وبلاغةِ رصفها، واشتمالِ المعاني فيها.

وقيل: ميزَ اللهُ بينَ الماءينِ، فماء الأرضِ أمرها فبلعتهُ، وصارَ ماءُ السماءِ بحارًا.

قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ أيْ نقصَ ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أيْ أحكمَ وفرغَ منهُ، يعني أهلكَ قومُ نوحٍ على تمامٍ وإحكامٍ. ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ٤٤﴾ أيْ هلاكًا لهمْ. والجوديُّ جبلٌ بقربِ الموصلِ، استوتْ عليهِ في العاشرِ منَ المحرمِ يومَ عاشوراء، فصامَ نوحٌ وأمرَ جميعَ منْ معهُ منَ الناسِ فصاموهُ، شكرًا للهِ تعالى، وقيل: كانَ ذلكَ يومَ الجمعةِ.

ويقالُ: إنَّ الجوديَّ منْ جبالِ الجنةِ، فلهذا استوتْ عليهِ. ويقالُ: أكرمَ اللهُ ثلاثةَ جبالٍ بثلاثةِ نفرٍ: الجوديَّ بنوحٍ، وطورَ سيناءَ بموسى، وحراءَ بمحمدٍ صلواتُ اللهِ وسلامهُ عليهمْ.

مسألةٌ: لما تواضعَ الجوديُّ وخضعَ عزَّ، ولما ارتفعَ غيرهُ واستعلى ذلَّ، وهذهِ سنةُ اللهِ في خلقهِ، يرفعُ منْ تخشّعَ، ويضعُ منْ ترفعَ، ولقدْ أحسنَ القائلُ:

وإذا تـذللـتِ الـرقـابُ تـخشـعًا مـنـا إلـيـكَ فـعـزهـا في ذلـهـا

وفي صحيح البخاريِّ ومسلمٍ عنْ أنسٍ قالَ: كانتْ ناقةٌ للنبيِّ ﷺ تسمى العضباءَ، وكانتْ لا تُسبقُ، فجاءَ أعرابيٌّ على قعودٍ لهُ فسبقها، فاشتدَّ ذلكَ على المسلمينَ، وقالوا: سُبقتِ العضباءُ! فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ حقًا على اللهِ ألا يرفعَ شيئًا منَ الدنيا إلا وضعهُ».

وخرجَ مسلم عنْ أبي هريرةَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ قال: «ما نقصتْ صدقةٌ منْ مالٍ وما زادَ اللهُ عبدًا بعفوٍ إلا عزًا وما تواضعَ أحدٌ للهِ إلا رفعهُ اللهُ». وقالَ ﷺ: «إنَّ اللهَ أوحى إليَّ أنْ تواضعوا حتى لا يبغيَ أحدٌ على أحدٍ ولا يفخرَ أحدٌ على أحدٍ». خرجهُ البخاريُّ.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٤٦ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٤٧﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ﴾ أيْ دعاهُ ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ أيْ منْ أهلي الذينَ وعدتهمْ أنْ تنجيهمْ منَ الغرقِ، ففي الكلامِ حذفٌ ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ يعني الصدقَ.

وقالَ علماؤنا: وإنما سألَ نوحٌ ربهُ ابنهُ لقولهِ: ﴿وَأَهۡلَكَ﴾ وتركَ قوله: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾. فلما كانَ عندهُ منْ أهلهِ قالَ: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ يدلُّ على ذلكَ قوله: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أيْ لا تكنْ ممنْ لستَ منهمْ، لأنهُ كانَ عندهُ مؤمنًا في ظنهِ، فأخبرَ اللهُ تعالى نوحًا بما هوَ منفردٌ بهِ منْ علمِ الغيوبِ، أيْ علمتُ منْ حالِ ابنكَ ما لمْ تعلمهُ أنتَ.

﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٤٥﴾ ابتداءٌ وخبرٌ. أيْ حكمتَ على قوم بالنجاة، وعلى قوم بالغرق.

الثانية: قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الذينَ وعدتُهمْ أنْ أنجيهمْ، وقالَ الجمهورُ: ليسَ منْ أهلِ دينكَ ولا ولايتكَ، فهوَ على حذفِ مضافٍ، وهذا يدلُّ على أنَّ حكمَ الاتفاقِ في الدينِ أقوى منْ حكمِ النسبِ ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ قرأَ يعقوبُ والكسائيُّ: «إنهُ عمِلَ غيرَ صالحٍ» منَ الكفرِ والتكذيبِ، وقرأ الباقون ﴿عَمَلٌ﴾ أي: ابنكَ ذو عملٍ غيرِ صالحٍ فحذفَ المضافُ، وهذا القولُ والذي قبلهُ يرجعُ إلى معنى واحدٍ، ويجوزُ أنْ تكونَ الهاءُ للسؤالِ، أيْ إنَّ سؤالكَ إيايَ أن أنجيه عمل غير صالح.

الثالثة: في الآيةِ تسليةٌ للخلقِ في فسادِ أبنائهمْ وإنْ كانوا صالحينَ، وفيها أيضًا دليلٌ على أنَّ الابنَ منَ الأهلِ لغةً وشرعًا، ومنْ أهلِ البيتِ، فمنْ وصى لأهلهِ دخلَ في ذلكَ ابنهُ، ومنْ تضمّنهُ منزلهُ وهوَ في عيالهِ. قالَ تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ فسمى جميعَ منْ ضمهُ منزلهُ منْ أهلهِ.

الرابعة: ودلتِ الآيةُ على قولِ الحسنِ ومجاهدٍ وغيرهما(١): أنَّ الولدَ للفراشِ، ولذلكَ قالَ نوحٌ ما قالَ آخذًا بظاهرِ الفراشِ، وفي الحديثِ الصحيحِ عنِ النبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «الولدُ للفراشِ وللعاهرِ الحجرُ» يريد الخيبةُ أو الرجمُ. وقرأ عروةُ بنُ الزبيرِ. «وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهَا» يريدُ ابنَ امرأتهِ، وهيَ حجةٌ للحسنِ ومجاهدٍ، إلا أنها قراءةٌ شاذةٌ، فلا نترك المتفق عليها لها.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أيْ أنهاكَ عنْ هذا السؤالِ كراهيةَ أنْ تكونَ منَ الجاهلينَ، أي الآثمينَ. ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ﴾ أيْ يحذركمُ اللهُ. وقيل: المعنى أرفعكَ أنْ تكونَ منَ الجاهلينَ، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وهذهِ ذنوبُ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى﴾ ما فرطَ منَ السؤالِ ﴿وَتَرْحَمْنِىٓ﴾ بالتوبةِ ﴿أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ أعمالًا.

---

(١) أنه ليس ابنا لنوح بل خانته امرأته، ولذا قال: ﴿مِنْ أَهْلِى﴾ ولم يقل منى، والصواب أن الخيانة في المعتقد لا في الفراش وفي الأثر: ما خانت امرأة نبي قط، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ أيْ قالتْ لهُ الملائكةُ، أوْ قالَ اللهُ تعالى لهُ: اهبطْ منَ السفينةِ إلى الأرضِ، أوْ منَ الجبلِ إلى الأرضِ، فقدِ ابتلعتِ الماءَ وجفتْ. ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ أيْ بسلامةٍ وأمنٍ. وقيل: بتحيةٍ ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ أيْ نعمٍ ثابتةٍ، مشتقٌّ منْ بروكِ الجملِ وهوَ ثبوتهُ وإقامتهُ. ومنهُ البركةُ لثبوتِ الماءِ فيها. وقالَ ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: نوحٌ آدمُ الأصغرُ، فجميعُ الخلائقِ الآنَ منْ نسلِه، ولمْ يكنْ معهُ في السفينةِ منَ الرجالِ والنساءِ إلا منْ كانَ منْ ذريتهِ، وفي التنزيلِ ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾.

﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ قيلَ: دخلَ في هذا كلِّ مؤمنٍ إلى يومِ القيامةِ. ودخلَ في قولهِ: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ كلُّ كافرٍ إلى يومِ القيامةِ.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ أيْ تلكَ الأنباءُ، وفي موضعٍ آخرَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أيْ ذلكَ النبأُ والقصصُ منْ أنباءِ ما غابَ عنكَ ﴿نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ﷺ﴾ أيْ لتقفَ عليها ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ أيْ كانوا غيرَ عارفينَ بأمرِ الطوفانِ ﴿مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ خبرٌ أيْ مجهولةٌ عندكَ وعندَ قومكِ ﴿فَٱصْبِرْ﴾ على مشاقِّ الرسالةِ كما صبرَ نوحٌ ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ﴾ في الدنيا بالظفرِ، وفي الآخرةِ بالفوزِ ﴿لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ عن الشركِ والمعاصي.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أيْ وأرسلنا، فهوَ معطوفٌ على ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾. وقيلَ: لهُ أخوهمْ لأنهُ منهمْ، وكانتِ القبيلةُ تجمعهمْ، كما تقولُ: يا أخا تميمٍ. وقيل: إنما قيلَ لهُ أخوهمْ لأنهُ منْ بني آدمَ كما أنهمْ منْ بني آدمَ، وكانوا عبدةَ الأوثانِ. وقيل: همْ عادانِ، عادٌ الأولى وعادٌ الأخرى، فهؤلاءِ همُ الأولى، وأما الأخرى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾. وعاد اسم رجلٍ ثمَّ استمرَّ على قومٍ انتسبوا إليهِ.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ بالخفضِ على اللفظِ، وَ ﴿غَيْرُهُۥٓ﴾ بالرفعِ على الموضعِ، وَ ﴿غَيْرَهُ﴾ بالنصبِ على الاستثناءِ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أيْ ما أنتمْ في اتخاذكمْ إلهًا غيرهُ إلا كاذبونَ عليهِ جلَّ وعزَّ.

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓۚ﴾ تقدمَ معناهُ. والفطرةُ ابتداءُ الخلقِ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ ما جرى على قومِ نوحٍ لما كذبوا الرسلَ.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ تقدمَ في أولِ السورةِ ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾ جزمَ لأنهُ جوابٌ وفيهِ معنى المجازاةِ ﴿عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ نصبَ على الحالِ، وفيهِ معنى التكثيرِ، أيْ يرسلِ السماءَ بالمطرِ متتابعًا يتلو بعضهُ بعضًا، والعربُ تحذفُ الهاءَ في مفعالٍ على النسبِ، وأكثرُ ما يأتي مفعالٌ منْ أفعلَ، وقدْ جاءَ هاهنا منْ فعلَ، لأنهُ منْ دَرّتِ السماءُ تدِرُّ وتدُرُّ فهيَ مدرارٌ. وكانَ قومُ هودٍ - أعني عادًا - أهلَ بساتينَ وزروعٍ وعمارةٍ، وكانتْ مساكنهمُ الرمالَ التي بينَ الشامِ واليمنِ ﴿وَيَزِدْكُمْ﴾ عطفٌ على يرسلْ ﴿قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ شدةٌ على شدتكمْ. وقيل: خصبًا إلى خصبكمْ. وقيل: عزًا على عزكمْ. وقيل: ولدًا إلى ولدكمْ ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ أيْ لا تعرضوا عما أدعوكمْ إليهِ، وتقيموا على الكفرِ. ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أيْ حجةٍ واضحةٍ ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ إصرارًا منهمْ على الكفرِ. ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ﴾ أيْ أصابكَ ﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا﴾ أيْ أصنامنا ﴿بِسُوٓءٍ﴾ أيْ بجنونٍ لسبِّكَ إياها، يقالُ: عراهُ الأمر واعتراهُ إذا ألمَّ بهِ. ومنهُ: ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّۚ﴾. ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ أيْ على نفسي ﴿وَٱشْهَدُوٓاْ﴾ أيْ وأُشهدكمْ، لا أنهمْ كانوا أهلَ شهادةٍ، ولكنه نهاية للتقرير، أي لتعرفوا ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أيْ منْ عبادةِ الأصنامِ التي تعبدونها ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا﴾ أيْ أنتمْ وأوثانكمْ في عداوتي وضري ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ أيْ لا تؤخرونِ. وهذا القولُ معَ كثرةِ الأعداءِ يدلُّ على كمالِ الثقةِ بنصرِ اللهِ تعالى. وهوَ منْ أعلامِ النبوةِ، أنْ يكونَ الرسولُ وحدهُ يقولُ لقومهِ: ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا﴾. وكذلكَ قالَ النبيُّ ﷺ لقريشٍ، وقالَ نوحٌ ﷺ: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ الآيةَ.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْۚ﴾ أيْ رضيتُ بحكمهِ، ووثقتُ بنصرهِ ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾ أيْ نفسٍ تدبُّ على الأرضِ، وهوَ في موضعِ رفعٍ بالابتداءِ ﴿إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ أيْ يصرفها كيفَ يشاءُ، أو مالكها والقادرُ عليها، وكلُّ ما فيهِ روحٌ يقالُ لهُ دابٌّ ودابةٌ، والهاءُ للمبالغةِ. والناصيةُ قصاصُ الشعرِ في مقدمِ الرأسِ. وإنما خصَّ الناصيةَ، لأنَّ العربَ تستعملُ ذلكَ إذا وصفتْ إنسانًا بالذلةِ والخضوعِ، وكانوا إذا أسروا أسيرًا وأرادوا إطلاقهُ والمنَّ عليهِ جزوا ناصيتهُ ليُعرفوا بذلكَ فخرًا عليهِ، فخاطبهمْ بما يعرفونهُ في كلامهمْ.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦﴾ الصراطُ في اللغةِ المنهاجُ الواضحُ، والمعنى أنَّ اللهَ جلَّ ثناؤهُ وإنْ كانَ يقدرُ على كلِّ شيءٍ فإنهُ لا يأخذهمْ إلا بالحقِّ. وقيل: معناهُ لا خللَ في تدبيرهِ، ولا تفاوتَ في خلقهِ سبحانهُ.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ في موضعِ جزمٍ، فلذلكَ حذفتْ منهُ النونُ، والأصلُ تتولوا، فحذفتِ التاءُ لاجتماعِ تاءينِ ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ﴾ وبينتُ لكمْ ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أيْ يهلككمْ ويخلقُ منْ هوَ أطوعُ لهُ منكمْ يوحدونهُ ويعبدونهُ. ﴿وَيَسْتَخْلِفُ﴾ مقطوعٌ مما قبلهُ فلذلكَ ارتفعَ، أوْ معطوفٌ على ما يجبُ فيما بعدَ الفاءِ منْ قولهِ: ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم﴾. ورويَ عنْ حفصٍ عنْ عاصمٍ «وَيَسْتَخْلِفْ» بالجزمِ حملًا على موضعِ الفاءِ وما بعدها، مثلُ: ﴿وَيَذَرْهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ﴾ بتوليكمْ وإعراضكمْ ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ۝٥٧﴾ أي لكل شيء حافظٌ. ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى اللامِ، فهوَ يحفظني منْ أن تنالوني بسوء.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أيْ عذابنا بهلاكِ عادٍ ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ لأنَّ أحدًا لا ينجو إلا برحمةِ اللهِ تعالى، وإنْ كانتْ لهُ أعمالٌ صالحةٌ. وفي صحيحِ مسلمٍ والبخاريِّ وغيرهما عنِ النبيِّ ﷺ: «لنْ ينجيَ أحدًا منكمْ عملهُ» قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني اللهُ برحمةٍ منهُ».

﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨﴾ أيْ عذابِ يومِ القيامةِ. وقيل: هوَ الريحُ العقيمُ كما ذكرَ اللهُ في «الذارياتِ» وغيرها.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أيْ كذبوا بالمعجزاتِ وأنكروها ﴿وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ﴾ يعني هودًا وحدهُ، لأنهُ لمْ يرسلْ إليهمْ منَ الرسلِ سواهُ. ونظيرهُ قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ يعني النبيَّ ﷺ وحدهُ، لأنهُ لمْ يكنْ في عصرهِ رسولٌ سواهُ، وإنما جمعَ هاهنا لأنَّ منْ كذبَ رسولًا واحدًا فقدْ كفرَ بجميعِ الرسلِ. وقيل: عصوا هودًا والرسلَ قبلهُ، وكانوا بحيثُ لوْ أرسلَ إليهمْ ألفُ رسولٍ لجحدوا الكلَّ ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩﴾ أي اتبعَ سقاطهمْ رؤساءهمْ. والجبارُ المتكبرُ. والعنيدُ الطاغي الذي لا يقبلُ الحقَّ ولا يذعنُ لهُ.

قوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أيْ ألحقوها ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أيْ وأتبعوا يومَ القيامةِ مثلَ ذلكَ، فالتمامُ على قولهِ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾ أيْ كفروا نعمةَ ربهمْ، يقالُ كفرتهُ وكفرتُ بهِ، مثلُ شكرتهُ وشكرتُ لهُ ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ۝٦٠﴾ أيْ لا زالوا مبعدينَ عنْ رحمةِ اللهِ. والبعدُ الهلاكُ.

قوله تعالى: ﴿۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝٦١﴾، فيها خمسُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾ أيْ أرسلنا إلى ثمودَ ﴿أَخَاهُمْ﴾ أيْ في النسبِ ﴿صَـٰلِحًا﴾. وقرأ يحيى بنُ وثابٍ ﴿۞وَإِلَىٰ ثَمُودٍ﴾ بالتنوينِ في كلِّ القرآنِ، وكذلكَ رويَ عنِ الحسنِ. واختلفَ سائرُ القراءِ فيهِ فصرفوهُ في موضعٍ ولمْ يصرفوهُ في موضعٍ. وزعمَ أبو عبيدةَ أنهُ لولا مخالفةُ السوادِ لكانَ الوجهُ تركَ الصرفِ، إذْ كانَ الأغلبُ عليهِ التأنيثُ. قالَ النحاسُ: الذي قالَ أبو عبيدةَ- رحمهُ اللهُ- منْ أنَّ الغالبَ عليهِ التأنيثُ كلامٌ مردودٌ، لأنَّ ثمودًا يقالُ لهُ حيٌّ، ويقالُ لهُ قبيلةٌ، وليسَ الغالبُ عليهِ القبيلةَ، بلِ الأمرُ على ضدِّ ما قالَ عندَ سيبويهِ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ تقدمَ ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي ابتدأَ خلقكمْ منَ الأرضِ، وذلكَ أنَّ آدمَ خلقَ منَ الأرضِ على ما تقدمَ في «البقرةِ» وَ «الأنعام» وهمْ منهُ، وقيل: أشأكم في الأرض.

ولا يجوزُ إدغامُ الهاءِ منْ ﴿غَيْرُهُۥ﴾ في الهاءِ منْ ﴿هُوَ﴾ إلا على لغةِ منْ حذفَ الواوَ في الإدراجِ.

﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أيْ جعلكمْ عُمّارها وسكانها. وقيل: أطالَ أعماركمْ.

الثالثة: قالَ بعضُ علماءِ الشافعيةِ: الاستعمارُ طلبُ العمارةِ، والطلبُ المطلقُ منَ اللهِ تعالى على الوجوبِ.

الرابعة: فيها دليلٌ على الإسكانِ والعمرى وقدْ مضى القولُ في «البقرةِ» في السكنى والرقبى. وأما العمرى فاختلفَ العلماء فيها على ثلاثة أقوال:

أحدها- أنها تمليكٌ لمنافعِ الرقبةِ حياةَ المُعمَرِ مدةَ عمرهِ، فإنْ لمْ يذكرْ عقبًا فماتَ المعمَرُ رجعتْ إلى الذي أعطاها أوْ لورثتهِ، وهوَ مشهورُ مذهبِ مالكٍ، وقول للشافعي.

الثاني- أنها تمليكُ الرقبةِ ومنافعا وهيَ هبةٌ مبتولةٌ وهوَ قولُ أبي حنيفةَ والشافعيِّ وأحمدَ، قالوا منْ أعمرَ رجلًا شيئًا حياتهُ فهوَ لهُ حياتهُ، وبعدَ وفاتهِ لورثتهِ، لأنهُ قدْ ملكَ رقبتها، وشرطُ المعطي الحياةَ والعمرَ باطلٌ، لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «العمرى جائزة» «والعمرى لمنْ وهبتْ لهُ».

الثالثُ- إنْ قالَ عُمْرُكَ ولم يذكرِ العقبَ كانَ كالقولِ الأولِ: وإنْ قالَ لعقبكَ كانَ كالقولِ الثاني، رويَ عنْ مالكٍ، وهوَ ظاهرُ قولهِ في الموطأِ. والمعروفُ عنهُ وعنْ أصحابهِ أنها ترجعُ إلى المُعمِرِ، إذا انقرض عقب المُعمَر، إذا كانَ المعمِرُ حيًا، وإلا فإلى منْ كانَ حيًا منْ ورثتهِ، وأولى الناسِ بميراثهِ. ولا يملك المُعمَر بلفظ العُمرى عند مالكٌ رقبة شيء من الأشياء وإنما يملك بلفظ العمرى المنفعة دون الرقبة.

وقد قال مالك في الحُبُسِ أيضًا: إذا حَبَسَ على رجلٍ وعقبهِ أنهُ لا يرجعُ إليهِ. وإنْ حبسَ على رجلٍ بعينهِ حياتهُ رجعَ إليهِ، وكذلكَ العمرى قياسًا، وهوَ ظاهرُ الموطأِ.

وفي صحيحِ مسلمٌ عنْ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال «أيما رجل أعمر رجل عمرى لهُ ولعقبهِ فقالَ قدْ أعطيتكها وعقبكَ ما بقيَ منكمْ أحدٌ فإنها لمنْ أعطيها وأنها لا ترجعُ إلى صاحبها منْ أجلِ أنهُ أعطى عطاءً وقعتْ فيهِ المواريثُ».

وعنهُ قالَ: إنَّ العمرى التي أجازَ رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يقولَ: هيَ لكَ ولعقبكَ، فأما إذا قالَ: هيَ لكَ ما عشتَ فإنها ترجعُ إلى صاحبها.

قلتُ: معنى القرآنِ يجري معَ أهلِ القولِ الثاني، لأنَّ اللهَ سبحانهُ قالَ: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ﴾ بمعنى أعمركمْ، فأعمرَ الرجلَ الصالحَ فيها مدةَ حياتهِ بالعملِ الصالحِ، وبعدَ موتهِ بالذكرِ الجميلِ والثناءِ الحسنِ، وبالعكسِ الرجلُ الفاجرُ، فالدنيا ظرفٌ لهما حياةً وموتًا. وقدْ يقالُ: إنَّ الثناءَ الحسنَ يجري مجرى العقبِ. وفي التنزيلِ: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ أيْ ثناءً حسنًا. وقيلَ: هوَ محمدٌ ﷺ. وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ وقالَ: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ أيْ سلوهُ المغفرةَ منْ عبادةِ الأصنامِ ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ﴾ أيِ ارجعوا إلى عبادتهِ ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ أي قريب الإجابة لمن دعاه.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ﴾ أيْ كنا نرجو أنْ تكونَ فينا سيدًا قبلَ دعوتكَ النبوةَ. وقيل: كانَ صالحٌ يعيبُ آلهتهمْ ويشنؤها، وكانوا يرجونَ رجوعهُ إلى دينهمْ، فلما دعاهمْ إلى اللهِ قالوا: انقطعَ رجاؤنا منكَ ﴿أَتَنْهَىٰنَآ﴾ استفهامٌ معناهُ الإنكارُ ﴿أَن نَّعْبُدَ﴾ أيْ عنْ أنْ نعبدَ ﴿مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ فأنْ في محلِّ نصبٍ بإسقاطِ حرفِ الجرِّ ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ﴾ وفي سورة «إبراهيم» ﴿وَإِنَّا﴾ والأصلُ وإننا، فاستثقلَ ثلاثُ نوناتٍ فأسقطَ الثالثة ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ﴾ الخطابُ لصالحٍ، وفي سورةِ «إبراهيمَ» ﴿تَدْعُونَنَآ﴾ لأنَّ الخطابَ للرسلِ صلواتُ اللهِ وسلامهُ عليهمْ ﴿إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ منْ أربتهُ فأنا أريبهُ إذا فعلتُ بهِ فعلًا يوجبُ لديهِ الريبةَ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ تقدمَ معناهُ في قولِ نوحٍ ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ﴾ استفهامٌ معناه النفيُ، أيْ لا ينصرني منهُ إنْ عصيتهُ أحدٌ ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ أيْ تضليل وأبعاد من الخير، والتخسيرُ لهمْ لا لهُ عليه السلام. كأنهُ قالَ: غيرَ تخسيرٍ لكمْ لا لي. وقيل: المعنى ما تزيدونني باحتجاجكمْ بدينِ آبائكمْ غيرَ بصيرةٍ بخسارتكمْ.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ ﴿لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾ نصبَ على الحالِ، والعاملُ معنى الإشارةِ أوِ التنبيهِ، وإنما قيل: ناقة الله، لأنه أخرجها منْ جبلٍ - على ما طلبوا - على أنهمْ يؤمنونَ. وقيل: أخرجها منْ صخرةٍ صماءَ منفردةٍ في ناحيةِ الحجرِ يقالُ لها الكاثبةُ، فلما خرجتِ الناقةُ - على ما طلبوا - قالَ لهمْ نبيُّ اللهِ صالحٌ: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾ ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ﴾ أمرٌ وجوابهُ، وحذفتِ النونُ منْ ﴿فَذَرُوهَا﴾. لأنهُ أمرٌ، ويجوزُ رفعُ ﴿تَأۡكُلۡ﴾ على الحالِ والاستئنافُ ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا﴾ جزمٌ بالنهي ﴿بِسُوٓءٖ﴾ بعقرٍ ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ﴾ جوابُ النهيِ ﴿عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤﴾ أيْ قريبٌ منْ عقرها.

قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ إنما عقرها بعضهمْ، وأضيفَ إلى الكلِّ لأنهُ كانَ برضا الباقينَ ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُواْ﴾ أيْ قالَ لهمْ صالحٌ تمتعوا، أيْ بنعمِ اللهِ عزَّ وجلَّ قبلَ العذابِ ﴿فِي دَارِكُمۡ﴾ أيْ في بلدكمْ، ولوْ أرادَ المنزلَ لقالَ في دوركمْ. وقيل: أيْ يتمتعُ كلُّ واحدٍ منكمْ في دارهِ ومسكنهِ، كقولهِ: ﴿يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ أيْ كلَّ واحدٍ طفلاً. وعبرَ عنِ التمتعِ بالحياةِ لأنَّ الميتَ لا يتلذذُ ولا يتمتعُ بشيءٍ.

الثانية: استدل علماؤنا بإرجاء العذابَ عنْ قومِ صالحٍ ثلاثةَ أيامٍ على أنَّ المسافرَ إذا لمْ يجمعْ على إقامةِ أربعِ ليالٍ قصرَ، لأنَّ الثلاثةَ الأيامَ خارجةٌ عنْ حكمِ الإقامةِ.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥﴾ أيْ غيرُ كذبٍ. وقيل: غيرُ مكذوبٍ فيهِ.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ أيْ عذابنا ﴿نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ تقدمَ ﴿وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ﴾ أيْ ونجيناهمْ منْ خزيِ يومئذٍ، أيْ منْ فضيحتهِ وذلتهِ. وقيلَ: الواوُ زائدةٌ، أيْ نجيناهمْ منْ خزيِ يومئذٍ.

وقرأ نافعٌ والكسائيُّ ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ بالنصبِ. الباقونَ بالكسرِ على إضافةِ «يوم» إلى «إذْ».

قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ أيْ في اليومِ الرابعِ صيحَ بهمْ فماتوا، وذكّرَ لأنَّ الصيحةَ والصياحَ واحدٌ. قيلَ: صيحةُ جبريلَ. وقيل: صيحةٌ منَ السماءِ فيها صوتُ كلِّ

صاعقةٍ، وصوت كل شيء في الأرضِ، فتقطعتْ قلوبهمْ وماتوا، وقالَ هنا: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وقالَ في الأعرافِ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾.

﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٦٧﴾ أيْ ساقطينَ على وجوههمْ، قدْ لصقوا بالتراب كالطير إذ جثمتْ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ هذهِ قصةُ لوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهوَ ابنُ عمِّ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكانتْ قرى لوط بنواحي الشام، وإبراهيم ببلادِ فلسطينَ، فلما أنزلَ اللهُ الملائكةَ بعذابِ قوم لوط ومروا بإبراهيمَ ونزلوا عندهُ، وكانَ كلُّ منْ نزلَ عندهُ يحسنُ قراهُ، وكانوا مروا ببشارةِ إبراهيمَ، فظنهم أضيافا. وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلامُ، على صورةِ الغلمانِ الحسان الوجوه، ذوو وضاءةٍ وجمالٍ بارع. ﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ قيلَ: بالولدِ. وقيل: بإهلاكِ قوم لوطٍ ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ نصبَ بوقوعِ الفعلِ عليهِ، كما تقولُ: قالوا خيرًا. ولو رفعا جميعا أوْ نصبا جميعًا «قالُوا سَلامٌ قالَ سَلامٌ» جاز في العربية.

وقيل: انتصبَ على المصدرِ، وقيلَ: دعوا لهُ، والمعنى سلمتَ سلامًا وقيل: ﴿قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ أيْ فاتحوهُ بصوابٍ منَ القولِ، كما قالَ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ أي صوابا، فسلامًا معنى قولهمْ لا لفظهُ، قالَ معناهُ ابنُ العربيِّ واختارهُ. قالَ ألا ترى أنَّ اللهَ تعالى لما أرادَ ذكرَ اللفظِ قالهُ بعينهِ فقالَ مخبرًا عنِ الملائكةِ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾.

﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ في رفعهِ وجهانِ:

أحدهما: على إضمارِ مبتدأٍ أيْ هوَ سلامٌ، وأمري سلامٌ.

والآخرُ: بمعنى سلامٌ عليكمْ إذا جُعلَ بمعنى التحيةِ، فأضمرَ الخبرُ. وجازَ سلامٌ على التنكيرِ لكثرةِ استعمالهِ، فحذفَ الألف واللام كما حذفت من لا هم في قولك اللهم.

وقريء «سِلْمٌ» قالَ الفراءُ: السِلمُ والسلامُ بمعنى، مثلُ الحِلِّ والحلالِ.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ۝٦٩﴾، فيهِ ثلاث عشرةَ مسألةً:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ﴾ ﴿أن﴾ بمعنى حتى، قالهُ كبراءُ النحويينَ، التقديرُ: فما لبثَ حتى جاءَ. وَ ﴿حَنِيذٖ﴾ مشويٍّ. وقيلَ: هوَ المشويُّ بحرِّ الحجارةِ منْ غيرِ أنْ تمسهُ النارُ.

الثانية: في هذهِ الآيةِ منْ أدبِ الضيفِ أنْ يُعجلَ قراهُ، فيقدمُ الموجودَ الميسرَ في الحالِ، ثمَّ يتبعهُ بغيرهِ إنْ كانَ لهُ جدةٌ، ولا يتكلفُ ما يضرُّ بهِ. والضيافةُ منْ مكارمِ الأخلاقِ، ومنْ آدابِ الإسلامِ، ومنْ خلقِ النبيينَ والصالحينَ. وإبراهيمُ أولُ منْ أضافَ، وليستْ بواجبةٍ عندَ عامةِ أهلِ العلمِ لقولهِ ﷺ: «الضيافةُ ثلاثةُ أيامٍ وجائزتهُ يومٌ وليلةٌ فما كانَ وراءَ ذلكَ فهوَ صدقةٌ». والجائزةُ العطيةُ والصلةُ التي أصلها على الندبِ. وقالَ ﷺ: «منْ كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فليكرمْ جارهُ ومنْ كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فليكرمْ ضيفهُ». وإكرامُ الجارِ ليسَ بواجبٍ إجماعًا، فالضيافةُ مثلهُ. واللهُ أعلمُ.

الثالثة: اختلفَ العلماءُ فيمنْ يخاطبُ بها، فذهبَ الشافعيُّ إلى أنَّ المخاطبَ بها أهلُ الحضرِ والباديةِ. وقالَ مالكٌ: ليسَ على أهلِ الحضرِ ضيافةٌ فالفندقُ ينزلُ فيهِ المسافرُ.

قالَ ابنُ العربيِّ: الضيافةُ حقيقةً فرضٌ على الكفايةِ، ومنَ الناسِ منْ قالَ: إنها واجبةٌ في القرى حيثُ لا طعامَ ولا مأوى، بخلافِ الحواضرِ فإنها مشحونةٌ بالمأواةِ والأقواتِ، ولا شكَّ أنَّ الضيفَ كريمٌ، والضيافةَ كرامةٌ، فإنْ كانَ غريبًا فهيَ فريضةٌ.

الرابعة: السنةُ إذا قدمَ للضيفِ الطعامُ أنْ يبادرَ المقدمُ إليهِ بالأكلِ، فإنَّ كرامةَ الضيفِ تعجيلُ التقديمِ، وكرامةُ صاحبِ المنزلِ المبادرةُ بالقبولِ، فلما قبضوا أيديهمْ نكرهمْ إبراهيمُ، لأنهمْ خرجوا عنِ العادةِ وخالفوا السنةَ، وخافَ أنْ يكونَ وراءهمْ مكروهٌ يقصدونهُ، فلما رأى ذلكَ منهمْ ﴿نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ﴾ أيْ أضمرَ خوفًا، أيْ فزعًا. وكانوا إذا رأوا الضيفَ لا يأكلُ ظنوا بهِ شرًا، فقالتِ الملائكةُ ﴿لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾.

الخامسة: منْ أدبِ الطعامِ أنَّ لصاحبِ الضيفِ أنْ ينظرَ في ضيفهِ هلْ يأكلُ أمْ لا؟ وذلكَ ينبغي أنْ يكونَ بتلفتٍ ومسارقةٍ لا بتحديدِ النظرِ. رويَ أنَّ أعرابيًا أكل مع هشام بن عبدِ

الملكِ، فرأى هشام في لقمةِ الأعرابيِّ شعرةً فقالَ لهُ: أزلِ الشعرةَ عنْ لقمتكَ، فقالَ لهُ: أتنظرُ إليَّ نظرَ منْ يرى الشعرةَ في لقمتي؟! واللهِ لا أكلتُ معكَ، وخرجَ منْ عندهِ وهوَ يقولُ:

ولَلْموتُ خيرٌ منْ زيارةِ باخلٍ   يلاحظُ أطرافَ الأكيلِ على عمدِ

السادسة: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ يقولُ: أنكرهمْ، تقولُ: نكرتكَ وأنكرتكَ واستنكرتكَ إذا وجدتهُ على غيرِ ما عهدتهُ، قالَ الشاعرُ:

وأنكرتني وما كانَ الذي نكرتْ   منَ الحوادثِ إلا الشيبَ والصلعا

فجمعَ بينَ اللغتينِ. ويقالُ: نكرتُ لما تراهُ بعينكَ. وأنكرتُ لما تراهُ بقلبكَ.

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ، أيْ قائمةٌ بحيثُ ترى الملائكةَ. قيلَ: كانتْ منْ وراءِ السترِ. وقيلَ: كانتْ تخدم الملائكة وهو جالس. وقيل: قائمةٌ تصلي. وفي قراءةِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ «وامرأتهُ قائمةٌ وهوَ قاعدٌ».

الثامنة: قوله تعالى: ﴿فَضَحِكَتْ﴾ حاضتْ، وكانتْ آيسةٌ، تحقيقًا للبشارةِ، والعربُ تقولُ: ضحكتِ الأرنبُ إذا حاضتْ، وقالَ الجمهورُ: هوَ الضحكُ المعروفُ، واختلفوا فيهِ، فقيلَ: هوَ ضحكُ التعجبِ، قالَ أبو ذؤيب:

فجاء بمزجٍ لم يرَ الناسُ مثلهُ   هوَ الضَّحْكُ إلا أنهُ عملُ النحلِ

ويقالُ: ﴿ضَحِكَتْ﴾ لقولهمْ: ﴿لَا تَخَفْ﴾ سرورًا بالأمنِ أو سرورًا بالولدِ، وقدْ هرمتْ، واللهُ أعلمُ، والضحكُ انكشافُ الأسنانِ. ويجوزُ أنْ يكونَ الضحكُ إشراقَ الوجهِ، تقولُ رأيتُ فلانًا ضاحكًا، أيْ مشرقًا. وأتيتُ على روضةٍ تضحكُ، أيْ مشرقةٍ.

التاسعة: روى مسلمٌ عنْ سهلِ بنِ سعدٍ قالَ: دعا أبو أسيدٍ الساعديُّ رسولَ اللهِ ﷺ في عرسهِ، فكانتِ امرأته خادمهم يومئذ وهيَ العروسُ. قالَ سهلٌ: أتدرونَ ما سقتْ رسولَ اللهِ ﷺ؟ أنقعتْ لهُ تمراتٍ منَ الليلِ في تورٍ، فلما أكلَ سقتهُ إياهُ. وأخرجهُ البخاريُّ وترجمَ لهُ «بابُ قيامِ المرأةِ على الرجالِ في العرسِ وخدمتهمْ بالنفسِ». قالَ علماؤنا: فيهِ جوازُ خدمةِ العروسِ زوجها وأصحابهُ في عرسها. وفيهِ أنهُ لا بأسَ أنْ يعرضَ الرجلُ أهلهُ على صالحِ إخوانهِ، ويستخدمهنَّ لهمْ. ويحتملُ أنْ يكونَ هذا قبلَ نزولِ الحجابِ، واللهُ أعلمُ.

العاشرة: قالَ علماؤنا: ولمْ يأكلوا لأنَّ الملائكةَ لا تأكلُ. وقدْ كانَ منَ الجائزِ كما يسّرَ اللهُ للملائكةِ أنْ يتشكلوا في صفةِ الآدميِّ جسدًا وهيئةً أنْ ييسرَ لهمْ أكلَ الطعامِ، إلا أنهُ في قولِ العلماءِ أرسلهمْ في صفةِ الآدميِّ وتكلفَ إبراهيمُ عليه السلام الضيافةَ حتى إذا رأى التوقفَ وخافَ جاءتهُ البشرى فجأةً.

الحادية عشرة: ودلَّ هذا على أنَّ التسميةَ في أولِ الطعامِ، والحمدَ في آخرهِ مشروعٌ في الأممِ قبلنا.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ﴾ لما ولدَ لإبراهيمَ إسماعيلُ منْ هاجرَ تمنتْ سارةُ أنْ يكونَ لها ابنٌ، وأيستْ لكبرِ سنها، فبشرتْ بولدٍ يكونُ نبيًا ويلدُ نبيًا، فكانَ هذا بشارةً لها بأنْ ترى ولدَ ولدها.

الثالثة عشرة:- قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ قرأ حمزة وابن عامرٍ «يَعْقُوبَ» بالنصبِ، ورفعَ الباقونَ، فالرفع على معنى: ويحدثُ لها منْ وراءِ إسحاقَ يعقوبُ. ويجوزُ أنْ يرتفعَ بالفعلِ الذي يعملُ في ﴿مِن﴾ كأنَّ المعنى: وثبتَ لها منْ وراءِ إسحاقَ يعقوبُ. ويجوزُ أنْ يرتفعَ بالابتداءِ، ويكونُ في موضعِ الحالِ، أيْ بشروها بإسحاقَ مقابلًا لهُ يعقوبُ. والنصبُ على معنى: ووهبنا لها منْ وراءِ إسحاقَ يعقوبَ.

قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢﴾، فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ أصلها يا ويلتي، فأبدلَ منَ الياءِ ألفٌ، لأنها أخفُّ منَ الياءِ والكسرةِ، ولمْ تردِ الدعاءَ على نفسها بالويلِ، ولكنها كلمةٌ تخفُّ على أفواهِ النساءِ إذا طرأَ عليهن ما يعجبن منهُ، وعجبتْ منْ ولادتها ومنْ كونِ بعلها شيخًا لخروجهِ عنِ العادةِ، وَ ﴿ءَأَلِدُ﴾ استفهامٌ معناهُ التعجبُ ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٞ﴾ أيْ شيخةٌ. ولقدْ عجزتْ تعجزُ عجزًا وعجزتْ تعجيزًا، أيْ طعنتْ في السن، وقدْ يقالُ: عجوزةٌ أيضًا. وعجِزتِ المرأةُ بكسرِ الجيمِ، عظمتْ عجيزتها، قيل: كانتْ بنتَ تسعينَ سنةً.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي﴾ أيْ زوجي ﴿شَيۡخًا﴾ نصبَ على الحالِ، والعاملِ

فيهِ التنبيهُ أوِ الإشارةُ. وقيلَ: كانَ إبراهيمُ ابنُ مائةٍ وعشرينَ سنةٍ، وقيل: إنها عرضتْ بقولها: ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾ أيْ عنْ تركِ غشيانهِ لها. وسارةُ هذهِ امرأةُ إبراهيمَ بنتُ هارانَ، وهيَ بنت عم إبراهيم ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ۝٧٢﴾ أيِ الذي بشرتموني بهِ لشيءٌ عجيبٌ.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ۝٧٣﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ أنكرتِ الملائكةُ عليها تعجبها منْ أمرِ اللهِ، أيْ منْ قضائهِ وقدرهِ، وبهذهِ الآيةِ استدلَّ كثيرٌ منَ العلماءِ على أنَّ الذبيحَ إسماعيلُ، وأنهُ أسنُّ منْ إسحاقَ، لأنها بشرتْ بأنَّ إسحاقَ يعيشُ حتى يولدَ لهُ يعقوبُ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾ مبتدأٌ، والخبرُ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾، وهلْ هوَ خبرٌ أوْ دعاءٌ؟ وكونهُ إخبارًا أشرفُ، لأنَّ ذلكَ يقتضي حصولَ الرحمةِ والبركةِ لهمُ، وكونهُ دعاءً إنما يقتضي أنهُ أمرٌ يترجى ولم يحصل بعد. ونصب ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ على الاختصاصِ، وقيل: على النداءِ.

الثالثة: هذهِ الآيةُ تعطي أنَّ زوجةَ الرجلِ منْ أهلِ البيتِ، فدلَّ هذا على أنَّ أزواجَ الأنبياءِ منْ أهلِ البيتِ، فعائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وغيرها منْ جملةِ أهلِ بيتِ النبيِّ ﷺ، ممنْ قالَ اللهُ فيهمْ: ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ وسيأتي.

الرابعة: ودلتِ الآيةُ أيضًا على أنَّ منتهى السلام ﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾ كما أخبرَ اللهُ عنْ صالحي عباده ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾. والبركةُ النموُّ والزيادةُ، ومنْ تلكَ البركاتِ أنَّ جميعَ الأنبياءِ والمرسلينَ كانوا في ولدِ إبراهيمَ وسارةَ.

﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ۝٧٣﴾ أيْ محمودٌ ماجدٌ.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ﴾ أيِ الخوفُ، يقالُ: ارتاعَ منْ كذا إذا خافَ ﴿وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ أيْ بإسحاقَ ويعقوبَ. أو بأنهمْ إنما أتوا بالعذابِ إلى قوم لوطٍ، وأنهُ لا يخافُ ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ أيْ يجادلُ رسلنا، وأضافهُ إلى نفسهِ، لأنهمْ نزلوا بأمرهِ، و

﴿يُجَـٰدِلُنَا﴾ في موضعِ «جادلنا». أو يكونَ ﴿يُجَـٰدِلُنَا﴾ في موضعِ الحالِ، أيْ أقبلَ يجادلنا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ تقدمَ في «براءةٌ» معنى ﴿لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾. والمنيبُ الراجعُ، يقالُ: أنابَ إذا رجعَ. وإبراهيمُ عليه السلام كانَ راجعًا إلى اللهِ في أمورهِ كلها.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ﴾ أيْ دعْ عنكَ الجدالَ في قومِ لوطٍ ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أيْ عذابُهُ لهمْ ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ﴾ أيْ نازلٌ بهمْ ﴿عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ أيْ غيرُ مصروفٍ عنهمْ ولا مدفوع.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ﴾ أيْ ساءهُ مجيئهمْ، يقالُ: ساءَ يسوءُ فهوَ لازمٌ، وساءهُ يسوءهُ فهوَ متعدٍّ أيضًا ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أيْ ضاقَ صدرهُ بمجيئهمْ وكرههُ. وقيل: ضاقَ وسعهُ وطاقتهُ. وأصلهُ أنْ يذرعَ البعيرَ بيديهِ في سيرهِ ذرعًا على قدرِ سعةِ خطوه، فإذ حملَ على أكثرِ منْ طوقهِ ضاقَ عنْ ذلكَ، وضعفَ ومدَّ عنقهُ، وإنما ضاقَ ذرعهُ بهمْ لما رأى منْ جمالهمْ، وما يعلمُ منْ فسقِ قومهِ ﴿وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ أيْ شديدٌ في الشرِّ، ومنهُ قيل: عصبة وعصابة.

قولهُ تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ﴾ أيْ يسرعونَ في رعدةٍ.

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ أيْ ومنْ قبلِ مجيءِ الرسلِ. وقيل: منْ قبلِ لوطٍ ﴿كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أيْ كانتْ عادتهمْ إتيانَ الرجالِ. فلما جاءوا إلى لوط وقصدوا أضيافه قام إليهم لوط مدافعا و ﴿قَالَ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ ابتداءٌ وخبرٌ.

وقدِ اختلفَ في قولهِ: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ فقيلَ: كانَ لهُ ثلاثُ بناتٍ منْ صلبهِ ندبهمْ في هذهِ الحالةِ إلى النكاحِ، وكانتْ سنتهمْ جوازُ نكاحِ الكافرِ المؤمنةَ، وقدْ كانَ هذا في أولِ الإسلامِ جائزًا ثمَّ نُسخَ، فزوجَ رسولُ اللهِ ﷺ بنتًا لهُ منْ عتبةَ بنِ أبي لهبٍ، والأخرى منْ أبي العاصِ بنِ الربيعِ قبلَ الوحيِ، وكانا كافرينِ.

وقالتْ فرقةٌ: أشارَ بقولهِ: ﴿بَنَاتِى﴾ إلى النساءِ جملةً، إذْ نبيُّ القومِ أبٌ لهمْ، ويقوي هذا أنَّ في قراءةِ ابنِ مسعودٍ. «النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وهو أب لهم».

قوله تعالى: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ، أيْ أزوجكموهنَّ، فهوَ أطهرُ لكمْ مما تريدونَ، أيْ أحلُّ. والتطهرُ التنزهُ عما لا يحلُّ. وليسَ ألفُ ﴿أَطْهَرُ﴾ للتفضيلِ حتى يتوهمَ أنَّ في نكاحِ الرجالِ طهارةً، بلْ هوَ كقولكَ: اللهُ أكبرُ وأعلى وأجلُّ، وإنْ لم يكن تفضيل، وهذا جائزٌ شائعٌ في كلامِ العربِ، ولمْ يكابرِ اللهَ تعالى أحدٌ حتى يكونَ اللهُ تعالى أكبرَ منهُ. وقدْ قالَ أبو سفيانَ بنُ حربٍ يومَ أحدٍ: اعلُ هبلُ اعلُ هبلُ، فقالَ النبيُّ ﷺ لعمرَ: «قلِ اللهُ أعلى وأجلُّ». وهبلُ لمْ يكنْ قطُّ عاليًا ولا جليلًا. وقرأ العامةُ برفعِ الراءِ.

قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾ أيْ لا تهينوني ولا تذلوني. ويجوز أن يكون من الخزاية، وهو الحياء، والخجلُ، وضيفٌ يقعُ للاثنينِ والجميعِ على لفظِ الواحدِ، لأنهُ في الأصلِ مصدرٌ، ويجوزُ فيهِ التثنيةُ والجمعُ، والأولُ أكثرُ كقولكَ: رجالٌ صومٌ وفطرٌ وزورٌ.

ثمَّ وبخهمْ بقولهِ: ﴿أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨﴾ أيْ شديدٌ يأمرُ بالمعروفِ وينهى عنِ المنكرِ.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ﴾ ليسَ لنا إلى بناتكَ تعلقٌ، ولا هنَّ قصدنا، ولا لنا عادةٌ نطلبُ ذلكَ ﴿وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩﴾ إشارةٌ إلى الأضيافِ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً﴾ لمّا رأى استمرارهمْ في غيهمْ، وضعفَ عنهمْ، ولمْ يقدرْ على دفعهمْ، تمنى لوْ وجدَ عونًا على ردهمْ، فقالَ على جهةِ التفجعِ والاستكانةِ: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً﴾ أيْ أنصارًا وأعوانًا. وجوابُ ﴿لَوۡ﴾ محذوفٌ، أيْ لرددتُ أهلَ الفسادِ، وحلتُ بينهمْ وبينَ ما يريدونَ.

﴿أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾ أيْ ألجأُ وأنضوي، ومرادُ لوطٍ بالركنِ العشيرةُ، والمنعةُ بالكثرةِ. وبلغَ بهمْ قبيحُ فعلهمْ إلى قولهِ هذا معَ علمهِ بما عندَ اللهِ تعالى، وفي البخاريِّ عنْ أبي هريرةَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «يرحمُ اللهُ لوطًا لقدْ كانَ يأوي إلى ركنٍ شديدٍ» الحديثَ.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ لما رأتِ الملائكةُ حزنهُ واضطرابهُ ومدافعتهُ عرفوهُ بأنفسهمْ، فلما علمَ أنهمْ رسلٌ مكّنَ قومهُ منَ الدخولِ، فأمرَّ جبريلُ عليه السلام يدهُ على أعينهمْ فعموا، وعلى أيديهمْ فجفتْ ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ أيْ بمكروهٍ ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ﴾ قرئَ «فَاسْرِ» بوصلِ الألفِ وقطعها، لغتانِ فصيحتانِ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ وقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ﴾، وقدْ قيلَ: ﴿فَأَسۡرِ﴾ بالقطع إذا سار من أول الليل، وسرى إذا سارَ منْ آخرهِ، ولا يقالُ في النهارِ إلا سارَ.

﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ بظلمةٍ منَ الليلِ.

فإن قيل: السرى لا يكونُ إلا بالليلِ، فما معنى ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾؟

فالجوابُ: أنهُ لوْ لمْ يقلْ: ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ جازَ أنْ يكونَ أولهُ ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾ أيْ لا ينظرُ وراءهُ منكمْ أحد، وقيل: لا يتخلفُ منكمْ أحدٌ ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾ بالنصبِ، وهيَ القراءةُ الواضحةُ البينةُ المعنى، أيْ فأسرِ بأهلكَ إلا امرأتك. وكذا في قراءةِ ابنِ مسعودٍ «فأسرِ بأهلكَ إلا امرأتكَ» فهوَ استثناءٌ منَ الأهلِ. وعلى هذا لمْ يخرجْ بها معهُ. وقدْ قالَ اللهُ عزَّ وجل: ﴿كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أيْ منَ الباقينَ.

وقرأ أبو عمرو وابنُ كثيرٍ: «إِلَّا امْرَأَتُكُ» بالرفعِ على البدلِ منْ ﴿أَحَدٌ﴾، أيْ لا يلتفتُ منكمْ أحدٌ إلا امرأتكَ فإنها تلتفتُ وتهلكُ، وأنَّ لوطًا خرجَ بها، ونهى منْ معهُ ممنْ أسرى بهمْ ألا يلتفتَ، فلمْ يلتفتْ منهمْ أحدٌ سوى زوجتهِ، فإنها لما سمعت هدة العذاب التفتت وقالت: واقوماه! فأدركها حجر فقتلها.

﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا﴾ أيْ منَ العذابِ، والكنايةُ في ﴿إِنَّهُۥ﴾ ترجعُ إلى الأمر والشأن، فإنَّ الأمر والشأنَ والقصةَ.

﴿مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ﴾ لما قالتِ الملائكةُ: ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ﴾ قالَ لوطٌ: الآنَ الآنَ. استعجلهمْ بالعذابِ لغيظهِ على قومهِ، فقالوا: ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ أيْ عذابنا ﴿جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ وذلكَ أنَّ جبريلَ عليه السلام أدخلَ جناحهُ تحتَ قرى قومِ لوطٍ، فرفعها منْ تخومِ الأرضِ حتى أدناها منَ السماءِ بما في فيها، حتى سمعَ أهلُ السماءِ نهيقَ حمرهمْ وصياحَ ديكتهمْ، ثم نكسوا على رؤوسهم، وأتبعهمُ اللهُ بالحجارةِ.

قوله تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ﴾ دليلٌ على أنَّ منْ فعلَ فعلهمْ حكمهُ الرجمُ، وفي التفسيرِ: أمطرنا في العذابِ، ومطرنا في الرحمةِ. وأما كلامُ العربِ فيقالُ: مطرتِ السماء وأمطرت، واختلف في ﴿سِجِّيلٖ﴾ فقيل: السجيلُ الشديدُ الكثيرُ، وسجيلٌ وسجينٌ اللامُ والنونُ أختانِ. لأنَّ اللامَ تبدلُ منَ النونِ لقربِ إحداهما منَ الأخرى، وهما بالفارسيةِ حجرٌ وطينٌ عربتهما العربُ فجعلتهما اسمًا واحدًا. وقيل: هوَ منْ لغةِ العربِ والسجيلُ الطينُ بدليلِ قولهِ: ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ﴾. وقيل: هوَ مما سُجّلَ لهمْ أيْ كتبَ لهمْ أنْ يصيبهمْ، فهوَ في معنى سجينٍ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ٨ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾.

﴿مَّنضُودٖ ٨٢﴾ متتابعٌ مرصوصٌ.

قوله تعالى: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أيْ معلمةً، منَ السيما وهيَ العلامةُ، أيْ كانَ عليها أمثالُ الخواتيم. وقيل: مكتوبٌ على كلِّ حجرٍ اسمُ منْ رميَ بهِ، وكانتْ لا تشاكلُ حجارةَ الأرض، وَ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ منْ نعتِ حجارةٍ. وَ ﴿مَّنضُودٖ﴾ منْ نعتِ ﴿سِجِّيلٖ﴾.

وفي قولهِ: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ دليلٌ على أنها ليستْ منْ حجارةِ الأرضِ ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣﴾ يعني ظالمي هذهِ الأمةِ، واللهِ ما أجارَ اللهُ منها ظالمًا بعدُ، وقيل: المعنى ما هذهِ القرى منَ الظالمينَ ببعيدٍ، وهيَ بينَ الشامِ والمدينةِ. وجاءَ ﴿بِبَعِيدٖ﴾ مذكرًا على معنى بمكانٍ بعيدٍ.

وفي الحجارةِ التي أمطرتْ قولانِ:

أحدهما- أنها أمطرتْ على المدنِ حينَ رفعها جبريلُ.

الثاني- أنها أمطرتْ على منْ لمْ يكنْ في المدنِ منْ أهلها وكان خارجا عنها.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أيْ وأرسلنا إلى مدينَ، ومدينُ همْ قومُ شعيبٍ. وفي تسميتهمْ بذلكَ قولانِ:

أحدهما- أنهمْ بنو مدينَ بنِ إبراهيمَ، فقيلَ: مدينُ والمرادُ بنو مدينَ. كما يقالُ مضرُ والمرادُ بنو مضرَ.

الثاني- أنهُ اسمُ مدينتهمْ، فنسبوا إليها. قالَ النحاسُ: لا ينصرفُ مدينُ لأنهُ اسمُ مدينةٍ.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ كانوا معَ كفرهمْ أهلَ بخسٍ وتطفيفٍ، كانوا إذا جاءهمُ البائعُ بالطعامِ أخذوا بكيلٍ زائدٍ، واستوفوا بغايةِ ما يقدرونَ عليهِ وظلموا، وإنْ جاءهمْ مشترٍ للطعامِ باعوه بكيلٍ ناقصٍ، فأمروا بالإيمانِ إقلاعًا عنِ الشركِ، وبالوفاءِ نهيًا عنِ التطفيفِ ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ أيْ في سعةٍ منَ الرزقِ، وكثرةٍ منَ النعمِ ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ وصفَ اليومَ بالإحاطةِ، وأرادَ وصفَ ذلكَ اليومِ بالإحاطةِ بهمْ، فإنَّ يومَ العذابِ إذا أحاطَ بهمْ فقدْ أحاطَ العذابُ بهمْ، وهوَ كقولكَ: يومٌ شديدٌ، أيْ شديدٌ حرهُ. واختلفَ في ذلكَ العذابِ، فقيلَ: هوَ عذابُ النارِ في الآخرة، وقيل: عذابُ الاستئصالِ في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ لمْ يقلْ: أوفوا بالمكيالِ وبالميزانِ، بلْ أرادَ ألا تنقصوا حجمَ المكيالِ عنِ المعهودِ، وكذا الصنجاتِ ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أيْ لا تنقصوهمْ مما استحقوهُ شيئًا ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴿٨٥﴾﴾ بينَ أنَّ الخيانةَ في المكيالِ والميزانِ مبالغةٌ في الفسادِ في الأرضِ.

قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أيْ ما يبقيهِ اللهُ لكمْ بعدَ إيفاءِ الحقوقِ بالقسطِ أكثرُ بركةً، وقيل: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يريدُ طاعتهُ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ شرطَ هذا لأنهمْ إنما يعرفونَ صحةَ هذا إنْ كانوا مؤمنينَ. وقيل: يحتملُ أنهمْ كانوا يعترفونَ بأنَّ اللهَ خالقهمْ فخاطبهمْ بهذا ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ أيْ رقيبٍ أرقبكمْ عندَ كيلكمْ ووزنكمْ، أيْ لا يمكنني شهودُ كلِّ معاملةٍ تصدرُ منكمْ حتى أؤاخذكمْ بإيفاءِ الحقِّ. وقيل: أيْ لا يتهيأُ لي أنْ أحفظكمْ منْ إزالةِ نعمِ اللهِ عليكمْ بمعاصيكمْ.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ﴾ وقرئ «أَصَلَاتُكَ» منْ غيرِ جمع ﴿تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ ﴿أن﴾ في موضعِ نصبٍ، قالَ الكسائيُّ: موضعها خفضٌ على إضمارِ الباءِ.

ورويَ أنَّ شعيبًا عليه السلام كانَ كثيرَ الصلاةِ، مواظبًا على العبادةِ فرضها ونفلها ويقولُ: الصلاةُ تنهى عنِ الفحشاءِ والمنكرِ، فلما أمرهمْ ونهاهمْ عيروهُ بما رأوهُ يستمرُّ عليهِ منْ كثرةِ الصلاةِ، واستهزؤوا بهِ فقالوا ما أخبرَ اللهُ عنهمْ.

وقيل: إنَّ الصلاةَ هنا بمعنى القراءةِ، أيْ قراءتكَ تأمركَ، ودلَّ بهذا على أنهمْ كانوا كفارًا.

وقالَ الحسنُ: لمْ يبعثِ اللهُ نبيًا إلا فرضَ عليهِ الصلاةَ والزكاةَ ﴿أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ التقديرَ: أوْ تنهانا أنْ نفعلَ في أموالنا ما نشاءُ. وقرأ السلميُّ والضحاكُ بنُ قيسٍ «أوْ أنْ تفعلَ في أموالنا ما تشاءُ» بالتاءِ في الفعلينِ ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧﴾ يعنونَ عندَ نفسكَ بزعمكَ. ومثلهُ في صفةِ أبي جهلٍ: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ أيْ عندَ نفسكَ بزعمكَ. وقيل: قالوهُ على وجه الاستهزاءِ والسخرية، وأحسنُ منْ هذا كلهِ ويدلُّ ما قبلهُ على صحتهِ أيْ إنكَ أنتَ الحليمُ الرشيدُ حقًا، فكيفَ تأمرنا أنْ نتركَ ما يعبدُ آباؤنا! ويدلُّ عليهِ: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ أنكروا لما رأوا منْ كثرةِ صلاتهِ وعبادتهِ، وأنهُ حليمٌ رشيدٌ بأنْ يكونَ يأمرهمْ بتركِ ما كانَ يعبدُ آباؤهمْ، وبعدهُ أيضًا ما يدلُّ عليهِ. ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾ أيْ أفلا أنهاكمْ عنِ الضلالِ؟! وهذا كلهُ يدلُّ على أنهمْ قالوهُ على وجهِ الحقيقةِ، وأنهُ اعتقادهمْ فيهِ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ تقدم ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾ أيْ واسعًا حلالًا، وكانَ شعيبٌ عليه السلام كثيرَ المالِ، وقيل: أرادَ بهِ. الهدى والتوفيقَ، والعلمَ والمعرفةَ، وفي الكلام حذفٌ، وهوَ ما ذكرناهُ، أيْ أفلا أنهاكمْ عنِ الضلالِ! وقيل: المعنى ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ أتبعُ الضلالَ؟ وقيل: المعنى ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ أتأمرونني بالعصيانِ في البخسِ والتطفيفِ، وقدْ أغناني اللهُ عنهُ ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ﴾ في موضعِ نصبٍ بـ ﴿أُرِيدُ﴾ ﴿إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ أيْ ليسَ

أنهاكمْ عنْ شيءٍ وأرتكبهُ كما لا أتركُ ما أمرتكمْ بهِ ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ فتصلحوا دنياكمْ بالعدلِ وآخرتكمْ بالعبادةِ، وقالَ: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ لأنَّ الاستطاعةَ منْ شروطِ الفعلِ دونَ الإرادة. و ﴿مَا﴾ مصدريةٌ، أيْ إنْ أريدَ إلا الإصلاحَ جهدي واستطاعتي ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ﴾ أيْ رشدي ﴿إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أيِ اعتمدتُ ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ أيْ أرجعُ فيما ينزلُ بي منْ جميعِ النوائبِ. وقيل: إليهِ أرجعُ في الآخرةِ. وقيل: إنَّ الإنابةَ الدعاءُ، ومعناهُ ولهُ أدعو.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أيْ لا يحملنكمْ ﴿شِقَاقِىٓ﴾ في موضعِ رفعٍ. أي معاداتي على تركِ الإيمانِ ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ في موضعِ نصبٍ، أي فيصيبكمْ ما أصابَ الكفارَ قبلكمْ ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ وذلكَ أنهمْ كانوا حديثي عهدٍ بهلاكِ قومِ لوطٍ. وقيل: وما ديارُ قومِ لوطٍ منكمْ ببعيدٍ، أيْ بمكانٍ بعيدٍ، فلذلكَ وحّدَ البعيدَ. قالَ الكسائيُّ: أيْ دورُهمْ في دوركمْ.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ تقدمَ ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ اسمانِ منْ أسمائهِ سبحانهُ، والودودُ المحبُّ، والوِدُّ والوَدُّ والوُدُّ والمودةُ المحبةُ. ورويَ عنِ النبيِّ ﷺ أنهُ كانَ إذا ذكرَ شعيبًا قالَ: «ذاكَ خطيبُ الأنبياء».

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أيْ ما نفهمُ، لأنكَ تحملنا على أمورٍ غائبةٍ منَ البعثِ والنشورِ وتعظنا بما لا عهدَ لنا بمثلهِ. وقيل: قالوا ذلكَ إعراضًا عنْ سماعهِ، واحتقارًا لكلامهِ ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ قيلَ: إنهُ كانَ مصابا ببصره، وحكى أهلُ اللغةِ أنَّ حميرَ تقولُ للأعمى ضعيفًا، وقيل: المعنى ضعيفُ البدنِ، وقيل: وحيدًا ليسَ لكَ جندٌ وأعوانٌ تقدرُ بها على مخالفتنا. وقيل: قليلُ المعرفةِ بمصالحِ الدنيا وسياسةِ أهلها وَ ﴿ضَعِيفًا﴾ نصب على الحال ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ رفعَ بالابتداءِ، ورهطُ الرجلِ عشيرتهُ الذي يستندُ إليهمْ ويتقوى بهمْ، ومعنى ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾ لقتلناكَ بالرجمِ، وكانوا إذا قتلوا إنسانًا رجموهُ بالحجارةِ، وكانَ رهطهُ منْ أهلِ ملتهمْ، وقيل: معنى ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾ لشتمناكَ، والرجمُ أيضًا اللعنُ، ومنهُ الشيطانُ الرجيمُ ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ أيْ ما أنتَ علينا بغالبٍ ولا قاهرٍ ولا ممتنعٍ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ﴾ ﴿أَرَهۡطِيٓ﴾ رفعَ بالابتداءِ، والمعنى أرهطي في قلوبكمْ ﴿أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وأعظمُ وأجلُّ وهوَ يملككمْ ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾ أي اتخذتمْ ما جئتكمْ بهِ منْ أمرِ اللهِ ظهريًا، أيْ جعلتموهُ وراءَ ظهوركمْ، وامتنعتمْ منْ قتلي مخافةَ قومي ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أيْ منَ الكفرِ والمعصيةِ ﴿مُحِيطٞ ٩٢﴾ أيْ عليمٌ وقيلَ: حفيظٌ.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ تهديدٌ ووعيدٌ ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ أيْ يهلكهُ. وَ ﴿مَنۡ﴾ في موضعِ نصبٍ، مثلَ: ﴿يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾.

﴿وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ﴾ عطفٌ عليها. وقيل: أيْ وسوفَ تعلمونَ منْ هوَ كاذبٌ منا. وقيل: في محلِّ رفعٍ، تقديرهُ: ويخزي منْ هوَ كاذبٌ. وقيل: تقديرهُ ومنْ هوَ كاذبٌ فسيعلمُ كذبهُ، ويذوقُ وبالَ أمرهِ ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ٩٣﴾ أيِ انتظروا العذابَ والسخطةَ، فإني منتظرٌ النصرَ والرحمةَ.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ قيلَ: صاحَ بهمْ جبريلُ صيحةً فخرجتْ أرواحهمْ منْ أجسادهمْ ﴿نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ أيْ صيحةُ جبريلَ. وأنثَ الفعلَ على لفظِ الصيحةِ، وقالَ في قصةِ صالحٍ: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ فذّكرَ على معنى الصياحِ.

قالَ ابنُ عباسٍ: ما أهلكَ اللهُ أمتينِ بعذابٍ واحدٍ إلا قومَ صالحٍ وقومَ شعيبٍ، أهلكهمُ اللهُ بالصيحةِ، غيرَ أنَّ قومَ صالحٍ أخذتهمُ الصيحةُ منْ تحتهمْ، وقومَ شعيبٍ أخذتهمُ الصيحةُ منْ فوقهمْ.

قوله تعالى : ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩٤ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ٩٥﴾ تقدم معناه.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ بينَ أنهُ أتبعَ النبيَّ النبيَّ لإقامةِ الحجةِ، وإزاحةِ كلِّ علةٍ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أيْ بالتوراةِ. وقيل: بالمعجزاتِ ﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٩٦﴾ أيْ حجةٍ بينةٍ، يعني العصا ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ﴾ أيْ شأنهُ وحالهُ، حتى اتخذوهُ إلهًا، وخالفوا أمرَ اللهُ تعالى ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ٩٧﴾ أيْ بسديدٍ يؤدي إلى صوابٍ: وقيل: بمرشدٍ إلى خيرٍ.

قوله تعالى: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ إلى النارِ إذْ هوَ رئيسهمْ. يقالُ: قدمهمْ يقدمهمْ قُدْمًا وقدومًا إذا تقدمهمْ ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ﴾ أيْ أدخلهمْ فيها. وذُكرَ بلفظِ الماضي، والمعنى فيوردهمُ النارَ، وما تحققَ وجودهُ فكأنهُ كائنٌ، فلهذا يعبرُ عنِ المستقبلِ بالماضي ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨﴾ أيْ بئسَ المدخلُ المدخولُ، ولمْ يقلْ بئستْ لأنَّ الكلامَ يرجعُ إلى الموردِ.

قوله تعالى: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ﴾ أيْ في الدنيا ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أيْ ولعنةً يومَ القيامةِ ﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ٩٩﴾ اسمُ العطيةِ الرفدُ، أيْ بئسَ العطاءُ والإعانةُ.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ رفعَ على إضمارِ مبتدأٍ، أيِ الأمرُ ذلكَ. وإنْ شئتَ بالابتداءِ، والمعنى: ذلكَ النبأُ المتقدمُ منْ أنباءِ القرى نقصهُ عليكَ ﴿مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ١٠٠﴾ القائمُ ما كانَ خاويًا على عروشهِ، والحصيدُ ما لا أثرَ لهُ. وقيل: القائمُ العامرُ، والحصيدُ الخرابُ ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ أصلُ الظلمِ في اللغةِ وضعُ الشيءِ في غيرِ موضعهِ ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ﴾ بالكفرِ والمعاصي. ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ﴾ أيْ دفعتْ ﴿عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ في الكلامِ حذفٌ، أيِ التي كانوا يعبدونَ، أي يدعون ﴿لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ١٠١﴾ أيْ غيرَ تخسيرٍ، والتبابُ الهلاكُ والخسرانُ، وفيهِ إضمارٌ، أيْ ما زادتهمْ عبادةُ الأصنامِ.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ أيْ كما أخذَ هذهِ القرى التي كانتْ لنوحٍ وعادٍ وثمودَ يأخذُ جميعَ القرى الظالمةِ ﴿وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾ أيْ وأهلها ظالمونَ، فحذفَ المضافُ مثلُ: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ ﴿إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾ أيْ عقوبتهُ لأهلِ الشركِ موجعةٌ غليظةٌ. وفي صحيحِ مسلمٍ عن أبي موسى أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «إنَّ اللهَ تعالى يملي للظالمِ حتى إذا أخذهُ لمْ يفلتهُ» ثمَّ قرأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ الآيةَ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ أيْ لعبرةً وموعظةً ﴿لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ ﴿مَّجۡمُوعٞ﴾ منْ نعتهِ ﴿لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ اسمُ ما لمْ يسمَّ فاعلهُ، ولهذا لمْ يقلْ مجموعونَ، والجمعُ الحشرُ، أيْ يحشرونَ لذلكَ اليومِ ﴿وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ۝١٠٣﴾ يشهدهُ البرُّ والفاجرُ، ويشهدهُ أهلُ السماءِ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ أيْ ما نؤخرُ ذلكَ اليومَ ﴿إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ۝١٠٤﴾ أيْ لأجلٍ سبقَ بهِ قضاؤنا، وهوَ معدودٌ عندنا ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ﴾ الياءَ تحذفُ إذا كانَ قبلها كسرةٌ، تقولُ: لا أدرِ، وقرأهُ أهلُ المدينةِ وأبو عمرو والكسائيُّ بإثباتِ الياءِ في الإدراجِ، وحذفها في الوقف، وقرأ حمزةُ: «يومَ يأتِ» بغيرِ ياءٍ في الوقفِ والوصلِ ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ الأصلُ تتكلمُ، حذفتْ إحدى التاءينِ تخفيفًا. وفيهِ إضمارٌ، أيْ لا تتكلمُ فيهِ نفسٌ إلا بالمأذونِ فيهِ منْ حسنِ الكلامِ، لأنهمْ ملجؤونَ إلى تركِ القبيحِ. وقيلَ: المعنى لا تكلمُ بحجةٍ ولا شفاعةٍ إلا بإذنهِ. وقيلَ: إنَّ لهمْ في الموقفِ وقتًا يمنعونَ فيهِ منَ الكلامِ إلا بإذنهِ. وهذهِ الآيةُ أكثرُ ما يسألُ عنها أهلُ الإلحادِ في الدينِ. فيقولُ لمَ قالَ: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ وَ ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾. وقالَ في موضعٍ منْ ذكرِ القيامةِ: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾. وقالَ: ﴿۞يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾. وقال: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾. وقال: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ﴾!

والجوابُ: أنهمْ لا ينطقونَ بحجةٍ تجبُ لهمْ وإنما يتكلمونَ بالإقرارِ بذنوبهمْ، ولوم بعضهمْ بعضًا، وطرحِ بعضهمُ الذنوبَ على بعضٍ، فأما التكلمُ والنطقُ بحجةٍ لهمْ فلا، وهذا كما تقولُ للذي يخاطبكَ كثيرًا وخطابهُ فارغٌ عن الحجةِ: ما تكلمتَ بشيءٍ، وما نطقتَ بشيءٍ، فسمى منْ يتكلمُ بلا حجةٍ فيهِ لهُ غيرَ متكلمٍ. وقالَ: قومٌ: ذلكَ اليومُ طويلٌ، ولهُ مواطنُ ومواقفُ في بعضها يمنعونَ منَ الكلامِ، وفي بعضها يطلقُ لهمُ الكلامُ، فهذا يدلُّ على أنهُ لا تتكلمُ نفسٌ إلا بإذنهِ.

﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ١٠٥﴾ أيْ منَ الأنفسِ، أو من الناس، وقد ذكرهم في قولهِ: ﴿يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾. والشقيُّ الذي كتبتْ عليهِ الشقاوةُ. والسعيدُ الذي كتبتْ عليهِ السعادةُ، وروى الترمذيُّ عنِ ابنِ عمرَ عنْ عمرَ بنِ الخطابِ قالَ لما نزلتْ هذهِ الآيةُ ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ١٠٥﴾ سألتُ رسولَ اللهِ ﷺ، فقلتُ: يا نبيَّ اللهِ فعلامَ نعملُ؟ على شيء قد فرغ منه، أو على شيء لم يفرغ منه؟ فقال: «بل على شيء قدْ فرغَ منهُ وجرتْ بهِ الأقلامُ يا عمرُ ولكنْ كلٌّ ميسرٌ لما خلقَ لهُ». قالَ: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ منْ هذا الوجهِ لا نعرفهُ إلا منْ حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ ابتداءٌ ﴿فَفِي ٱلنَّارِ﴾ في موضعِ الخبرِ، وكذا ﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ١٠٦﴾ الزفيرُ منَ الصدرِ. والشهيقُ منَ الحلقِ، وقيل ضدُّ ذلكَ، وقيل: الزفيرُ إخراجُ النفسِ، وهوَ أنْ يمتلِئ الجوفُ غمًا فيخرجُ بالنفسِ، والشهيقُ ردُّ النفسِ، وقيل: الزفيرُ ترديدُ النفسِ منْ شدةِ الحزنِ، مأخوذٌ منَ الزَّفْرِ وهوَ الحملُ على الظهرِ لشدتهِ، والشهيقُ النفسُ الطويلُ الممتدُّ، مأخوذٌ منْ قولهمْ: جبلٌ شاهقٌ، أيْ طويلٌ. والزفيرُ والشهيقُ منْ أصواتِ المحزونينَ.

قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ ما دامتِ في موضعِ نصب على الظرف، أي دوام السموات والأرضِ، والتقديرُ: وقتَ ذلكَ. واختلفَ في تأويلِ هذا،

فقالتْ طائفةٌ:

المعنى ما دامت سموات الجنةِ والنارِ وأرضهما والسماءُ كلُّ ما علاكَ فأظلكَ، والأرضُ ما استقرَّ عليهِ قدمكَ، وفي التنزيلِ: ﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ﴾.

وقيل: أرادَ بهِ السماءَ والأرضَ المعهودتينِ في الدنيا وأجرى ذلكَ على عادةِ العربِ في الإخبارِ. عنْ دوامِ الشيءِ وتأبيدهِ، كقولهمْ: لا آتيكَ ما جنَّ ليلٌ، أوْ سالَ سيلٌ، وما اختلفَ الليلُ والنهارُ، وما ناحَ الحمامُ، وما دامت السمواتُ والأرضُ، ونحوُ هذا مما يريدونَ بهِ طولًا منْ غيرِ نهايةٍ، فأفهمهمُ اللهُ تخليدَ الكفرةِ بذلك. وإن كان قد أخبر بزوال السموات والأرضِ.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ في موضعِ نصبٍ، لأنهُ استثناءٌ ليسَ منَ الأولِ، وقدِ اختلفَ فيهِ على أقوالٍ عشرةٍ:

الأولى: أنهُ استثناءٌ منْ قولهِ: ﴿فَفِي ٱلنَّارِ﴾ كأنهُ قالَ: إلا ما شاءَ ربكَ منْ تأخيرِ قومٍ عنْ ذلكَ، وإنما لمْ يقلْ منْ شاءَ، لأنَّ المرادَ العددُ لا الأشخاصُ، كقولهِ: ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾.

الثاني – أنَّ الاستثناءَ إنما هوَ للعصاةِ منَ المؤمنينَ في إخراجهمْ بعدَ مدةٍ منَ النارِ، وعلى هذا يكونُ قولهُ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ عامًا في الكفرةِ والعصاةِ، ويكونُ الاستثناءُ منْ ﴿خَٰلِدِينَ﴾، وفي الصحيحِ منْ حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «يدخلُ ناسٌ جهنمَ حتى إذا صاروا كالحممةِ أخرجوا منها ودخلوا الجنةَ فيقالُ هؤلاءِ الجهنميونَ».

الثالثُ – أنَّ الاستثناءَ منَ الزفيرِ والشهيقِ، أيْ لهمْ فيها زفيرٌ وشهيقٌ إلا ما شاءَ ربكَ منْ أنواعِ العذابِ الذي لمْ يذكرهُ، وكذلكَ لأهلِ الجنةِ منَ النعيمِ ما ذكرَ وما لمْ يذكرْ.

الرابعُ – قالَ ابنُ مسعودٍ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ لا يموتونَ فيها، ولا يخرجونَ منها ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ وهوَ أنْ يأمرَ النارَ فتأكلهمْ وتفنيهمْ، ثمَّ يجددُ خلقهمْ. قلتُ: وهذا القولُ خاصٌّ بالكافرِ والاستثناءُ لهُ في الأكلِ، وتجديدِ الخلقِ.

الخامسُ - أنَّ ﴿إِلَّا﴾ بمعنى «سوى» كما تقولُ في الكلامِ: ما معي رجلٌ إلا زيدٌ، ولي عليكَ ألفا درهمٍ إلا الألفَ التي لي عليكَ. قيلَ: فالمعنى ما دامت السموات والأرضُ سوى ما شاءَ ربكَ منَ الخلودِ.

السادسُ - أنهُ استثناءٌ منَ الإخراجِ، وهوَ لا يريدُ أنْ يخرجهمْ منها. كما تقولُ في الكلامِ: أردتُ أنْ أفعلَ ذلكَ إلا أنْ أشاءَ غيرهُ، وأنتَ مقيمٌ على ذلكَ الفعلِ، فالمعنى أنهُ لوْ شاءَ أنْ يخرجهمْ لأخرجهمْ، ولكنهُ قدْ أعلمهمْ أنهمْ خالدونَ فيها.

ولأهلِ المعاني قولانِ آخرانِ:

فأحدُ القولينِ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ منْ مقدارِ موقفهمْ على رأسِ قبورهمْ، وللمحاسبةِ، وقدرِ مكثهمْ في الدنيا، والبرزخِ، والوقوفِ للحسابِ.

والقولُ الآخرُ - وقوعُ الاستثناءِ في الزيادةِ على النعيمِ والعذابِ، وتقديرهُ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ منْ زيادةِ النعيمِ لأهلِ النعيمِ، وزيادةِ العذابِ لأهلِ الجحيمِ.

قلتُ: فالاستثناءُ في الزيادةِ منَ الخلودِ على مدةِ كونِ السماءِ والأرضِ المعهودتينِ في الدنيا، وللسماءِ والأرضِ وقتٌ يتغيرانِ فيهِ، وهوَ قولهُ سبحانهُ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ فخلقَ اللهُ سبحانهُ الآدميينَ وعاملهمْ، واشترى منهمْ أنفسهم وأموالهم الجنة، وعلى ذلكَ بايعهمْ يومَ الميثاقِ، فمنْ وفى بذلكَ العهدِ فلهُ الجنةُ، ومنْ ذهبَ برقبتهِ يخلد في النار بمقدار دوام السموات والأرضِ، فإنما دامتا للمعاملةِ، وكذلكَ أهلُ الجنةِ خلودٌ في الجنةِ بمقدارِ ذلكَ، فإذا تمتْ هذهِ المعاملةُ وقعَ الجميعُ في مشيئةِ اللهِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ فيخلدُ أهلُ الدارينِ بمقدارِ دوامهما، وهوَ حقُّ الربوبيةِ بذلكَ المقدارِ منَ العظمةِ، ثمَّ أوجبَ لهمُ الأبدَ في كلتا الدارينِ لحقِّ الأحديةِ، فمنْ لقيهُ موحدًا لأحديتهِ بقيَ في دارهِ أبدًا، ومنْ لقيهُ مشركًا بأحديتهِ إلهًا بقيَ في السجنِ أبدًا، فأعلمَ اللهُ العبادَ مقدارَ الخلودِ، ثمَّ قالَ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾

منْ زيادةِ المدةِ التي تعجزُ القلوبُ عنْ إدراكها لأنهُ لا غايةَ لها، فبالاعتقادِ دامَ خلودهمْ في الدارينِ أبدًا.

وقدْ قيلَ: إنَّ ﴿إِلَّا﴾ بمعنى الواوِ، قالهُ الفراءُ وبعضُ أهلِ النظرِ وهو

الثامن- والمعنى: وما شاءَ ربكَ منَ الزيادةِ في الخلود على مدة دوام السموات والأرضِ في الدنيا. وقدْ قيلَ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أيْ ولا الذينَ ظلموا. وقالَ الشاعرُ:

وكلُّ أخٍ مفارقهُ أخوهُ ... لعمرِ أبيكَ إلا الفرقدانِ

أيْ والفرقدانِ. وقالَ أبو محمدٍ مكيٌّ: وهذا قولٌ بعيدٌ عندَ البصريينَ أنْ تكونَ ﴿إِلَّا﴾ بمعنى الواوِ، وقدْ مضى في «البقرةِ» بيانهُ.

وقيل: معناهُ كما شاءَ ربكَ، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ﴾ أي كما قد سلف، وهو التاسع.

العاشرُ- وهوَ أنَّ قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ﴾ إنما ذلكَ على طريقِ الاستثناءِ الذي ندبَ الشرعُ إلى استعمالهِ في كلِّ كلامٍ، فهوَ على حدِّ قولهُ تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ فهوَ استثناءٌ في واجبٍ، وهذا الاستثناءُ في حكمِ الشرطِ كذلكَ، كأنهُ قالَ: إنْ شاءَ ربكَ، فليسَ يوصفُ بمتصلٍ ولا منقطعٍ، ويؤيدهُ ويقويهِ قولهُ تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ۝١٠٨﴾

وقولٌ: حاديَ عشرَ- أنَّ ﴿مَا﴾ بمعنى «منْ» استثنى اللهُ عزَّ وجلَّ منَ الداخلينَ في النارِ المخلدينَ فيها الذينَ يخرجونَ منها منْ أمةِ محمدٍ ﷺ بما معهمْ منَ الإيمانِ، واستثنى منَ الداخلينَ في الجنةِ المخلدينَ فيها الذينَ يدخلونَ النارَ بذنوبهمْ قبلَ دخولِ الجنةِ ثمَّ يخرجونَ منها إلى الجنةِ. وهمُ الذينَ وقعَ عليهمُ الاستثناءُ الثاني، كأنهُ قالَ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ﴾ ألا يخلدهُ فيها، وهمُ الخارجونَ منها منْ أمةِ محمدٍ ﷺ بإيمانهمْ وبشفاعةِ محمدٍ ﷺ، فهمْ بدخولهمُ النارَ يسمونَ الأشقياءَ، وبدخولهمُ الجنةَ يسمونَ السعداءَ.

وقرأ حفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾ بضمِّ السينِ.

وقالَ أبو عمرو: والدليلُ على أنهُ سَعِدوا أنَّ الأولَ شقوا ولـمْ يقلْ أشقوا.

﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ أيْ غيرَ مقطوعٍ، منْ جذهُ يجذهُ أيْ قطعهُ.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ﴾ جزمٌ بالنهيِ، وحذفتِ النونُ لكثرةِ الاستعمالِ ﴿فِي مِرۡيَةٖ﴾ أيْ في شكٍّ ﴿مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ منَ الآلهةِ أنها باطلٌ.

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ١٠٩﴾، فيهِ ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدها- نصيبهمْ منَ الرزقِ.

الثاني- نصيبهم من العذاب.

الثالثُ- ما وعدوا بهِ منْ خيرٍ أوْ شرٍّ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١١٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ الكلمةُ: أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ حكمَ أنْ يؤخرهمْ إلى يومِ القيامةِ ﴿وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ إنْ حملتْ على قومِ موسى، أيْ لفي شكٍّ منْ كتابِ موسى فهم في شك من القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ﴾ أيْ إنَّ كلًا منَ الأممِ التي عددناهمْ يرونَ جزاءَ أعمالهمْ، فكذلكَ قومكَ يا محمدُ. واختلفَ القراءُ في قراءةِ ﴿وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا﴾ فقرأَ أهلُ الحرمينِ- نافعٌ وابنُ كثيرٍ- ﴿وَإِن كُلّٗا﴾ بالتخفيفِ، على أنها «إِنْ» المخففةِ منَ الثقيلةِ معملةً، وشددَ الباقونَ: ﴿إِنَّ﴾ ونصبوا بها ﴿كُلّٗا﴾ على أصلها. وقرأ عاصمٌ وحمزةُ وابنُ عامرٍ ﴿لَّمَّا﴾ بالتشديدِ. وخففها الباقونَ على معنى: وإنَّ كلًا ليوفينهمْ ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١١﴾ تهديد ووعيد.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ الخطابُ للنبيِّ ﷺ ولغيرِه. و: ﴿ٱسْتَقِمْ﴾ اطلبِ الإقامةَ على الدينِ منَ اللهِ واسألهُ ذلكَ. فتكونُ السينُ سينَ السؤالِ، كما تقولُ: أستغفرُ اللهَ أطلبُ الغفرانَ منهُ، وفي صحيح مسلم عنْ سفيانَ بنِ عبدِ اللهِ الثقفيِّ قالَ: قلتُ يا رسولَ اللهِ قلْ لي في الإسلامِ قولًا لا أسألُ عنهُ أحدًا بعدكَ! قالَ: «قلْ آمنتُ باللهِ ثمَّ استقمْ».

﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ أي استقمْ أنتَ وهمْ، يريدُ أصحابهُ الذينَ تابوا منَ الشركِ ومنْ بعدهُ ممنِ اتبعهُ منْ أمتهِ ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾ نهى عنِ الطغيانِ والطغيانُ مجاوزةُ الحدِّ، ومنهُ ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾ الركونُ حقيقته الاستنادُ والاعتمادُ والسكونُ إلى الشيءِ والرضا بهِ أي لا تميلوا إليهمْ، أو الركونُ هنا الإدهانُ وذلكَ ألا ينكرَ عليهمْ كفرهمْ.

الثانية: قرأَ الجمهورُ: ﴿تَرْكَنُوٓاْ﴾ بفتحِ الكافِ، قالَ أبو عمرو: هيَ لغةُ أهلِ الحجازِ. وقرأ طلحةُ بنُ مصرفٍ وقتادةُ وغيرهما: «تَرْكُنوا» بضمِّ الكافِ، قالَ الفراءُ: وهيَ لغةُ تميمٍ وقيسٍ. وجوزَ قومٌ ركَنَ يركَنُ مثلُ منعَ يمنعُ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ قيلَ: أهلُ الشركِ. وقيل: عامةٌ فيهمْ وفي العصاةِ، على نحوِ قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ الآيةَ. وهذا هوَ الصحيحُ في معنى الآيةِ، وأنها دالةٌ على هجرانِ أهلِ الكفرِ والمعاصي منْ أهلِ البدعِ وغيرهمْ، فإنَّ صحبتهمْ كفرٌ أوْ معصيةٌ، إذِ الصحبةُ لا تكونُ إلا عنْ مودةٍ، وقدْ قالَ حكيمٌ:

عنِ المرءِ لا تسألْ وسلْ عنْ قرينهِ ... فكلَّ قرينٍ بالمقارنِ يقتدي

وصحبةُ الظالمِ على التقيةِ مستثناةٌ منَ النهيِ بحالِ الاضطرارِ. واللهُ أعلمُ.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أيْ تحرقكمْ. بمخالطتهمْ ومصاحبتهمْ وممالأتهمْ على إعراضهمْ وموافقتهمْ في أمورهمْ.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾، فيهِ ستُّ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ لمْ يختلفْ أحدٌ منْ أهلِ التأويلِ في أنَّ الصلاةَ في هذهِ الآيةِ يرادُ بها الصلواتُ المفروضةُ، وخصها بالذكرِ لأنها ثانيةُ الإيمانِ، وإليها يفزعُ في النوائبِ، وكانَ النبيُّ ﷺ إذا حزبهُ أمرٌ فزعَ إلى الصلاةِ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ الطرفُ الأولُ: صلاةُ الصبحِ، والطرفُ الثاني: صلاةُ الظهرِ والعصرِ، وقيل: الطرفانِ الظهرُ والعصرُ. والزلفُ المغربُ والعشاءُ والصبحِ، كأنَّ هذا القائلَ راعى جهرَ القراءةِ، ورجحَ الطبريُّ أنَّ الطرفينِ الصبحُ والمغربُ.

وقدْ وقعَ الاتفاقُ إلا منْ شذَّ بأنَّ منْ أكلَ أوْ جامعَ بعدَ طلوعِ الفجرِ متعمدًا أنَّ يومهُ ذلكَ يومُ فطرٍ، وعليهِ القضاءُ والكفارةُ، وما ذلكَ إلا وما بعدَ طلوعِ الفجرِ منَ النهارِ، فدلَّ على صحةِ ما قالهُ الطبريُّ في الصبحِ، واللهُ أعلمُ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ أيْ في زلفٍ منَ الليلِ، والزلفُ الساعاتُ القريبةُ بعضها منْ بعضٍ واحدها زُلفةٌ، ومنهُ سميتِ المزدلفةُ، لأنها منزلٌ بعدَ عرفةَ بقربِ مكةَ.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ ذهبَ جمهورُ المتأولينَ منَ الصحابةِ والتابعينَ رضي الله عنهم أجمعينَ إلى أنَّ الحسناتِ هاهنا هيَ الصلواتُ الخمسُ، وقالَ مجاهدٌ: الحسناتُ قولُ الرجلِ سبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ ولا إلهَ إلا اللهُ واللهُ أكبرُ، قالَ ابنُ عطيةَ: وهذا على جهةِ المثالِ في الحسناتِ، والذي يظهرُ أنَّ اللفظَ عامٌّ في الحسناتِ خاصٌّ في السيئاتِ، لقولهِ ﷺ: «ما اجتنبتِ الكبائرُ».

قلتُ: سببُ النزولِ يعضدُ قولَ الجمهورِ، نزلتْ في رجلٍ منَ الأنصارِ، قيلَ: هوَ أبو اليسرِ بنُ عمرو. وقيل: اسمهُ عبادٌ، خلا بامرأةٍ فقبلها وتلذذَ بها فيما دون الفرجِ. روى الترمذيُّ عنْ عبدِ اللهِ قالَ: جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقالَ: إني عالجتُ امرأةً في أقصى المدينةِ وإني أصبتُ منها ما دونَ أنْ أمسها وأنا هذا فاقضِ فيَّ ما شئتَ. فقالَ لهُ عمرُ: لقدْ ستركَ اللهُ! لوْ سترتَ على نفسكَ، فلمْ يردَّ عليهِ رسولُ اللهِ ﷺ شيئًا فانطلقَ الرجلُ فأتبعهُ رسولُ اللهِ ﷺ

رجلًا فدعاه، فتلا عليه: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ إلى آخرِ الآيةِ، فقالَ رجلٌ منَ القوم: هذا لهُ خاصةً؟ قالَ: «لا، بلْ للناسِ كافةً». قالَ الترمذيُّ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

الخامسة: دلتِ الآيةُ معَ هذهِ الأحاديثِ على أنَّ القبلةَ الحرامَ واللمسَ الحرامَ لا يجبُ فيهما الحدُّ، وقدْ يستدلُّ بهِ على أنْ لا حدَّ ولا أدبَ على الرجلِ والمرأةِ وإنْ وجدا في ثوبٍ واحدٍ.

السادسة: ذكرَ اللهُ سبحانهُ في كتابهِ الصلاةَ بركوعها وسجودها وقيامها وقراءتها وأسمائها فقالَ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الآيةَ. وقالَ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ الآيةَ. وقالَ: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾. وقالَ: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ﴾، وقال: ﴿ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾. وقال: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾. وقالَ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ على ما تقدمَ. وقالَ: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾ أيْ بقراءتكَ، وهذا كلهُ مجملٌ أجملهُ في كتابهِ، وأحالَ على نبيهِ في بيانهِ، فقالَ جلَّ ذكرهُ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ فبينَ ﷺ مواقيتَ الصلاةِ، وعددَ الركعاتِ والسجداتِ، وصفةَ جميعِ الصلواتِ فرضها وسننها، وما لا تصحُّ الصلاةُ إلا بهِ منَ الفرائضِ وما يستحبُّ فيها منَ السننِ والفضائلِ، فقالَ في صحيحِ البخاريِّ: «صلوا كما رأيتموني أصلي». ونقلَ ذلكَ عنهُ الكافةُ عنِ الكافة، على ما هو معلوم، ولم يمتِ النبيُّ ﷺ حتى بينَ جميعَ ما بالناسِ الحاجةَ إليهِ، فكملَ الدينَ، وأوضحَ السبيلَ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾ أيِ القرآنُ موعظةٌ وتوبةٌ لمنِ اتعظَ وتذكرَ، وخصَّ الذاكرينَ بالذكرِ لأنهمُ المنتفعونَ بالذكرى. والذكرى مصدرٌ جاءَ بألفِ التأنيث.

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ أيْ على الصلاةِ، كقولهِ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾. وقيل: المعنى واصبرْ يا محمدُ على ما تلقى منَ الأذى ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ يعني المصلين.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ﴾ أيْ فهلا كانَ ﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي من الأمم التي قبلكم ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ أيْ أصحابُ طاعةٍ ودينٍ وعقلٍ وبصرٍ ﴿يَنْهَوْنَ﴾ قومهمْ ﴿عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لما أعطاهمُ اللهُ تعالى منَ العقولِ وأراهمْ منَ الآيات، وهذا توبيخ للكفار. وقيل: ولولا هاهنا للنفي، أيْ ما كانَ منْ قبلكمْ، كقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ أيْ ما كانتْ. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناءٌ منقطعٌ، أيْ لكنْ قليلاً ﴿مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ نهوا عنِ الفسادِ في الأرضِ. قيلَ: همْ قومُ يونسَ، لقولِهِ: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾. وقيل: همْ أتباعُ الأنبياءِ وأهلُ الحقِّ. ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أيْ أشركوا وعصوا ﴿مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾ أيْ منَ الاشتغالِ بالمالِ واللذاتِ، وإيثارِ ذلكَ على الآخرة ﴿وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أيْ أهلَ القرى ﴿بِظُلْمٍ﴾ أيْ بشركٍ وكفرٍ ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ أيْ فيما بينهمْ في تعاطي الحقوقِ، أيْ لمْ يكنْ ليهلكهمْ بالكفرِ وحدهُ حتى ينضافَ إليهِ الفسادُ، كما أهلكَ قومَ شعيبٍ ببخسِ المكيالِ والميزانِ، وقومَ لوطٍ باللواطِ، ودلَّ هذا على أنَّ المعاصيَ أقربُ إلى عذابِ الاستئصالِ في الدنيا منَ الشركِ، وإنْ كانَ عذابُ الشركِ في الآخرةِ أصعبَ. وفي صحيحِ الترمذيِّ منْ حديثِ أبي بكرٍ الصديقِ رضي الله عنه قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إنَّ الناسَ إذا رأوا الظالمَ فلمْ يأخذوا على يديهِ أوشكَ أنْ يعمهمُ اللهُ بعقابٍ منْ عندهِ».

وقيل: المعنى وما كانَ ربكَ ليهلكَ القرى بظلمٍ وأهلها مسلمونَ، فإنهُ يكونُ ذلكَ ظلمًا لهمْ ونقصًا منْ حقهمْ، أيْ ما أهلكَ قومًا إلا بعدَ إعذارٍ وإنذارٍ. **وقيل**: يجوزُ أنْ يكونَ المعنى ما كانَ ربكُ ليهلكَ أحدًا وهوَ يظلمهُ وإنْ كانَ على نهايةِ الصلاحِ، لأنهُ تصرفٌ في ملكهِ، دليلهُ قولهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾. **وقيل**: المعنى وما كانَ اللهُ ليهلكهمْ بذنوبهمْ وهمْ مصلحونَ، أيْ مخلصونَ في الإيمانِ. فالظلمُ المعاصي على هذا.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ﴾ على ملةِ الإسلامِ وحدها. وقيل: أهلُ دينٍ واحدٍ، أهلُ ضلالةٍ أوْ أهلُ هدى ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨﴾ أيْ على أديانٍ شتى ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ﴾ استثناءٌ منقطعٌ، أيْ لكنْ منْ رحمَ ربكَ بالإيمانِ والهدى فإنهُ لمْ يختلفْ. وقيل: مختلفين في الرزق، فهذا غنيٌّ وهذا فقيرٌ. ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ﴾ بالقناعةِ ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾ الإشارةُ للاختلافِ، أيْ وللاختلافِ خلقهمْ، وقيل: ولرحمتهِ خلقهمْ، وإنما قالَ: ﴿وَلِذَٰلِكَ﴾ ولمْ يقلْ ولتلكَ، والرحمةُ مؤنثةٌ لأنهُ مصدرٌ، وأيضًا فإنَّ تأنيثَ الرحمةِ غيرُ حقيقيٍّ، فحملتْ على معنى الفضلِ. وقيلَ. الإشارةُ بذلكَ للاختلافِ والرحمةِ، وقدْ يشار ب ﴿لِذَٰلِكَ﴾ إلى شيئينِ متضادينِ، كقوله تعالى: ﴿لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ﴾ ولمْ يقلْ بينَ ذينكَ ولا تينكَ، وقالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ وقالَ: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾ وكذلكَ قولهُ: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ وهذا أحسنُ الأقوالِ إنْ شاءَ اللهُ تعالى، لأنهُ يعمُّ، وإلى هذا أشارَ مالكٌ رحمهُ اللهُ فقالَ: خلقهمْ: أهلَ الاختلافِ للاختلافِ، وأهلَ الرحمةِ للرحمةِ.

وقيل: هوَ. متعلقٌ بقولهِ: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ والمعنى: ولشهودِ ذلكَ اليومِ خلقهمْ. وقيل: هوَ متعلق بقوله: ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾ أيْ للسعادةِ والشقاوةِ خلقهمْ.

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ معنى ﴿تَمَّتۡ﴾ ثبتَ ذلكَ كما أخبرَ وقدرَ في أزلهِ، وتمامُ الكلمةِ امتناعها عنْ قبولِ التغييرِ والتبديلِ ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ ﴿مِنَ﴾ لبيانِ الجنسِ، أيْ منْ جنسِ الجنةِ وجنسِ الناسِ. ﴿أَجۡمَعِينَ﴾ تأكيدٌ، وكما أخبرَ أنهُ يملأُ نارهُ كذلكَ أخبرَ على لسانِ نبيهِ ﷺ أنهُ يملأُ جنتهُ بقولهِ: «ولكلِّ واحدةٍ منكما ملؤها». خرجهُ البخاريُّ منْ حديثِ أبي هريرةَ.

قوله تعالى: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ﴾ ﴿كُلّٗاۖ﴾ نصبَ ب ﴿نَقُصُّ﴾ معناهُ وكلُّ الذي تحتاجُ إليهِ ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ أيْ منْ أخبارهمْ وصبرهمْ على أذى قومهمْ ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ

فُؤَادَكَۚ﴾ أيْ على أداءِ الرسالةِ، والصبرِ على ما ينالكَ فيها منَ الأذى. وقيل: نزيدكَ بهِ تثبيتًا ويقينًا ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ أيْ في هذهِ السورةِ، وخصها لأنَّ فيها أخبارَ الأنبياءِ والجنةِ والنارِ. وقيل: خصها بالذكرِ تأكيدًا وإنْ كانَ الحقُّ في كلِّ القرآنِ ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ١٢٠﴾ الموعظةُ ما يتعظُ بهِ منْ إهلاكِ الأممِ الماضيةِ، والقرونِ الخاليةِ المكذبةِ، وهذا تشريفٌ لهذهِ السورةِ، لأنَّ غيرها منَ السورِ قدْ جاءَ فيها الحقُّ والموعظةُ والذكرى ولمْ يقلْ فيها كما قالَ في هذهِ على التخصيصِ. ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ١٢٠﴾ أيْ يتذكرونَ ما نزلَ بمنْ هلكَ فيتوبونَ، وخصَّ المؤمنينَ لأنهمُ المتعظون إذا سمعوا قصص الأنبياء.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ تهديدٌ ووعيدٌ ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ ١٢١ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٢٢﴾ تهديدٌ آخرُ.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أيْ غيبهما وشهادتهما، فحذفَ لدلالةِ المعنى. وقالَ ابنُ عباس: خزائن السموات والأرضِ ﴿وَإِلَيْهِ يَرْجَعُ الأمرُ كُلُّهُ﴾ أيْ يومَ القيامةِ، إذْ ليسَ لمخلوقٍ أمرٌ إلا بإذنهِ. وقرأ نافعٌ وحفصٌ ﴿يُرْجَعُ﴾ بضمِّ الياءِ وبفتحِ الجيمِ، أيْ يردُّ ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ أيِ الجأ إليهِ وثقْ بهِ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ١٢٣﴾ أيْ يجازي كلًا بعملهِ. وقرأ أهلُ المدينةِ والشامِ وحفصٌ بالتاءِ على المخاطبةِ. الباقونَ بياءٍ على الخبرِ.

قيل: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ إذا لمْ يُخاطبِ النبيَّ ﷺ معهمْ، و «تَعْمَلُونَ» بالتاءِ لأنهُ خاطبَ النبيَّ ﷺ وقالَ: قلْ لهمْ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٢٣﴾.

سورة يوسف عليه السلام

وهيَ مكيةٌ كلها. وقالَ ابنُ عباسٍ وقتادةُ: إلا أربعَ آياتٍ منها. ورويَ أنَّ اليهودَ سألوا رسولَ اللهِ ﷺ عنْ قصةِ يوسفَ فنزلت السورة، وسيأتي.

قالَ العلماءُ: وذكرَ اللهُ أقاصيصَ الأنبياءِ في القرآنِ وكررها بمعنى واحدٍ في وجوهٍ مختلفةٍ، بألفاظٍ متباينةٍ على درجاتِ البلاغةِ، وقدْ ذكرَ قصةَ يوسفَ ولمْ يكررها، فلمْ يقدرْ مخالفٌ على معارضةِ ما تكررَ، ولا على معارضةِ غيرِ المتكرر، والإعجاز لمن تأمل.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿الٓرۚ﴾ تقدمَ القولُ فيهِ، والتقديرُ هنا: تلكَ آياتُ الكتابِ على الابتداءِ والخبرِ. وقيل: ﴿الٓرۚ﴾ اسمُ السورةِ، أيْ هذهِ السورةُ المسماةُ ﴿الٓرۚ﴾ ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١﴾ يعني القرآنَ المبينَ، أيِ المبينُ حلالهُ وحرامهُ، وحدودهُ وأحكامهُ وهداهُ وبركتهُ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ يجوزُ أنْ يكونَ المعنى: إنا أنزلنا القرآنَ عربيًا، نصبَ ﴿قُرۡءَٰنًا﴾ على الحالِ، أيْ مجموعًا. وَ ﴿عَرَبِيًّا﴾ نعتٌ لقولهِ ﴿قُرۡءَٰنًا﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ توطئةً للحالِ، كما تقولُ: مررتُ بزيدٍ رجلًا صالحًا، و ﴿عَرَبِيًّا﴾ على الحال، أيْ يُقرأُ بلغتكمْ يا معشرَ العربِ. أعربَ: بينَ، ومنهُ: الثيبُ تعربُ عنْ نفسها ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢﴾ أيْ لكيْ تعلموا معانيهُ، وتفهموا ما فيهِ، وقيل: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أيْ لتكونوا على رجاءٍ منْ تدبرهِ، فيعودُ معنى الشكِّ إليهمْ لا إلى الكتابِ، ولا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ.

وقيل: معنى ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ أيْ أنزلنا خبرَ يوسفَ، لأنهُ يروى أنَّ اليهودَ قالوا: سلوهُ لمَ انتقلَ آلُ يعقوبَ منَ الشامِ إلى مصرَ؟ وعنْ خبرِ يوسفَ، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ هذا بمكةَ موافقًا لما في التوراةِ، وفيهِ زيادةٌ ليستْ عندهمْ. فكانَ هذا للنبيِّ ﷺ إذْ أخبرهمْ ولمْ يكنْ يقرأُ كتابًا قطُّ.

قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ﴾ ابتداءٌ وخبرهُ ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ بمعنى المصدرِ، والتقديرُ: قصصنا أحسنَ القصصِ. وأصلُ القصصِ تتبعُ الشيءِ، ومنه قول تعالى: ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾ أيْ تتبعي أثرهُ، فالقاصُّ يتبعُ الآثارَ فيخبرُ بها. والحسنُ يعودُ إلى القصصِ لا إلى القصةِ. يقالُ: فلانٌ حسنُ الاقتصاصِ للحديثِ أيْ جيدُ السياقةِ لهُ. وقيل: القصصُ ليسَ مصدرًا، بلْ هوَ في معنى الاسمِ، كما يقالُ: اللهُ رجاؤنا، أيْ مرجونا فالمعنى على هذا: نحنُ نخبركَ بأحسنِ الأخبارِ ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ أي بوحينا ف ﴿بِمَا﴾ معَ الفعل بمنزلةِ المصدرِ ﴿هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ نصبَ القرآنُ على أنهُ نعتٌ لهذا، أوْ بدلٌ منهُ، أوْ عطفُ بيانٍ. وأجازَ الفراءُ الخفضَ، قالَ: على التكريرِ، وهوَ عندَ البصريينَ على البدل من ﴿مَا﴾.

﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣﴾ عما عرفناكهُ.

مسألةٌ:- واختلفَ العلماءُ لمَ سميتْ هذهِ السورةُ أحسنَ القصصِ منْ بينِ سائرِ الأقاصيصِ؟ فقيلَ: لأنهُ ليستْ قصةٌ في القرآنِ تتضمنُ منَ العبرِ والحكم ما تتضمنُ هذهِ القصةُ، وبيانهُ قولهُ في آخرها: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾.

وقيل: سماها أحسنَ القصصِ لحسنِ مجاوزةِ يوسفَ عنْ إخوتهِ، وصبرهِ على أذاهمْ، وكرمهِ في العفوِ عنهمْ، حتى قالَ: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾.

وقيل: لأنَّ فيها ذكرَ الأنبياءِ والصالحينَ والملائكةِ والشياطينِ، والجنِّ والإنسِ والأنعام والطيرِ، وسيرِ الملوكِ والممالكِ، والتجارِ والعلماءِ والجهالِ، والرجالِ والنساءِ وحيلهنَّ ومكرهنَّ، وفيها ذكرُ التوحيدِ والفقهِ والسيرِ وتعبيرُ الرؤيا، والسياسةُ والمعاشرةُ وتدبيرُ المعاشِ، وجملُ الفوائدِ التي تصلحُ للدينِ والدنيا.

وقيلَ: لأنَّ فيها ذكرَ الحبيبِ والمحبوبِ وسيرهما.

وقيل: ﴿أَحۡسَنَ﴾ هنا بمعنى أعجبَ.

وقالَ بعضُ أهلِ المعاني: إنما كانتْ أحسنَ القصصِ لأنَّ كلَّ منْ ذكرَ فيها كانَ مآلهُ السعادةَ، انظرْ إلى يوسفَ وأبيهِ وإخوتهِ، وامرأةِ العزيزِ، قيلَ: والملكُ أيضًا أسلمَ بيوسفَ، ومستعبرُ الرؤيا الساقي، والشاهدُ فيما يقالُ: فما كانَ أمرُ الجميعِ إلا إلى خيرٍ.

قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ﴾ ﴿إذ﴾ في موضعِ نصبٍ على الظرفِ، أيِ اذكرْ لهمْ حينَ قالَ يوسفُ، ولمْ ينصرفْ لأنهُ أعجميٌّ، وقيل: هو عربي والأسف في اللغة الحزنُ، والأسيفُ العبدُ، وقدِ اجتمعا في يوسفَ، فلذلكَ سميَ يوسفَ ﴿لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ﴾ بكسرِ التاءِ قراءةُ أبي عمرو وعاصمٍ ونافعٍ وحمزةَ والكسائيِّ، وقرأ أبو جعفرٍ وابنُ عامرٍ «يَا أَبَتَ» بفتح التاءِ، قالَ البصريونَ: أرادوا «يا أبتي» بالياءِ، ثمَّ أبدلتِ الياءُ ألفًا فصارتْ «يا أبتا» فحذفتِ الألفُ وبقيتِ الفتحةُ على التاءِ.

﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ ليسَ بينَ النحويينَ اختلافٌ أنهُ يقالُ: جاءني أحدَ عشرَ، ورأيتُ ومررتُ بأحدَ عشرَ، وكذلكَ ثلاثةَ عشرَ وتسعةَ عشرَ وما بينهما، جعلوا الاسمينِ اسمًا واحدًا وأعربوهما بأخفِّ الحركاتِ ﴿رَأَيۡتَهُمۡ﴾ توكيدٌ. وقالَ: ﴿رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾ فجاءَ مذكرًا، لأنهُ لما أخبر عن هذه الأشياء بالطاعة والسجود وهما من أفعال من يعقل أخبر عنهما كما يخبرُ عمنْ يعقلُ. وقدْ تقدمَ هذا المعنى في قولهِ: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾. والعربُ تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل إذا أنزلوه منزله، وإن كان خارجا عن الأصل.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٥﴾، وفيه إحدى عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ أي يحتالون في هلاكك، لأنَّ تأويلها ظاهرٌ، فربما يحملهمُ الشيطانُ على قصدكَ بسوءٍ حينئذٍ. واللامُ في ﴿لَكَ﴾ تأكيد، كقوله : ﴿إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾.

الثانية: الرؤيا حالةٌ شريفةٌ، ومنزلةٌ رفيعةٌ، قالَ ﷺ: «لمْ يبقَ بعدي منَ المبشراتِ إلا الرؤيا الصالحةُ الصادقةُ يراها الرجلُ الصالحُ أوْ ترى لهُ». وقالَ: «أصدقكمْ رؤيا أصدقكمْ حديثًا». وحكمَ ﷺ بأنها جزءٌ منْ ستةٍ وأربعينَ جزءًا منَ النبوةِ، ومعنى قولهِ: «جزءٌ منْ ستةٍ وأربعينَ جزءًا منَ النبوةِ» أنَّ اللهَ تعالى أوحى إلى محمدٍ ﷺ في النبوةِ ثلاثةً وعشرينَ عامًا- فإذا نسبنا ستةَ أشهرٍ منْ ثلاثةٍ وعشرينَ عامًا وجدنا ذلكَ جزءًا منْ ستةٍ وأربعينَ جزءًا.

الثالثة: إنما كانتْ الرؤيا جزءًا منَ النبوةِ، لأنَّ فيها ما يعجزُ ويمتنعُ كالطيران، وقلب الأعيان، والاطلاع على شيء منْ علمِ الغيبِ، كما قالَ ﷺ: «إنهُ لمْ يبقَ منْ مبشراتِ النبوةِ إلا الرؤيا الصادقةُ في النومِ» الحديثَ. وعلى الجملةِ فإنَّ الرؤيا الصادقةَ منَ اللهِ، وإنها منَ النبوةِ، قالَ ﷺ: «الرؤيا منَ اللهِ والحلمُ منَ الشيطانِ» وأنَّ التصديقَ بها حقَّ، ولها التأويلُ الحسنُ، وربما أغنى بعضها عنِ التأويلِ، وفيها منْ بديعِ اللهِ ولطفهِ ما يزيدُ المؤمنَ في إيمانهِ، ولا خلافَ في هذا بينَ أهلِ الدينِ والحقِّ منْ أهلِ الرأيِ والأثرِ، ولا ينكرُ الرؤيا إلا أهل الإلحاد وشرذمة منَ المعتزلةِ.

الرابعة: إنْ قيلَ: إذا كانتِ الرؤيا الصادقةُ جزءًا منَ النبوةِ فكيفَ يكونُ الكافرُ والكاذبُ والمخلطُ أهلًا لها؟ وقدْ وقعتْ منْ بعضِ الكفارِ وغيرهمْ ممنْ لا يرضى دينهُ مناماتٌ صحيحةٌ صادقةٌ، كمنامِ رؤيا الملكِ الذي رأى سبعَ بقراتٍ، ومنامِ الفتيينِ في السجن، ورؤيا بخت نصر، التي فسرها دانيالُ في ذهابِ ملكهِ، ورؤيا كسرى في ظهورِ النبيِّ ﷺ، ومنامِ عاتكةَ، عمةِ رسولِ اللهِ ﷺ في أمرهِ وهيَ كافرةٌ، وقدْ ترجمَ البخاريُّ «بابَ رؤيا أهلِ السجنِ»؟

فالجوابُ: أنَّ الكافرَ والفاجرَ والفاسقَ والكاذبَ وإنْ صدقتْ رؤياهمْ في بعضِ الأوقاتِ لا تكونُ منَ الوحيِ ولا منَ النبوةِ، إذْ ليسَ كل من صدق في حديثه عنْ غيبٍ يكونُ خبرهُ ذلكَ نبوةً، وقدْ تقدمَ في «الأنعام» أنَّ الكاهنَ وغيرهُ قدْ يخبرُ بكلمةِ الحقِّ فيصدقُ، لكنَّ ذلكَ على الندورِ والقلةِ، فكذلكَ رؤيا هؤلاءِ، قالَ المهلبُ: إنما ترجم البخاري بهذا الجوازِ أنْ تكونَ رؤيا أهلِ الشركِ رؤيا صادقةً، كما كانتْ رؤيا الفتيينِ صادقةً، إلا أنهُ لا يجوزُ أنْ تضافَ إلى النبوةِ إضافةَ رؤيا المؤمنِ إليها، إذْ ليسَ كلُّ ما يصحُّ لهُ تأويلٌ منَ الرؤيا حقيقةً يكونُ جزءًا منَ النبوةِ.

الخامسة: الرؤيا المضافة إلى الله تعالى هي التي خلصتْ منَ الأضغاثِ والأوهامِ، وكانَ تأويلها موافقًا لما في اللوحِ المحفوظِ، والتي هيَ منْ خبرِ الأضغاثِ هيَ الحلمُ، وهيَ المضافةُ إلى الشيطانِ، وإنما سميتْ ضغثًا، لأنَّ فيها أشياءَ متضادةً. وقدْ قسمَ رسولُ اللهِ ﷺ الرؤيا أقسامًا تغني عنْ قولِ كلِّ قائلٍ، روى عوف ابن مالكٍ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: «الرؤيا

ثلاثةٌ منها أهاويلُ الشيطانِ ليحزنَ ابنَ آدمَ، ومنها ما يهتمُّ بهِ في يقظتهِ فيراهُ في منامهِ، ومنها جزءٌ منْ ستةٍ وأربعينَ جزءًا منَ النبوةِ». قالَ قلتُ: سمعتَ هذا منْ رسولِ اللهِ ﷺ؟ قالَ نعمْ! سمعتهُ منْ رسولِ اللهِ ﷺ.

السادسة: قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾ الآيةَ. الرؤيا مصدرُ رأى في المنامِ رؤيا على وزنِ فعلى كالسقيا والبشرى، وألفهُ للتأنيثِ ولذلكَ لمْ ينصرفْ.

وقدِ اختلفَ العلماءُ في حقيقةِ الرؤيا، فقيلَ: هيَ إدراكٌ في أجزاءٍ لمْ تحلها آفةٌ، كالنومِ المستغرقِ وغيرهِ، ولهذا أكثرُ ما تكونُ الرؤيا في آخرِ الليلِ لقلةِ غلبةِ النومِ، فيخلقُ اللهُ تعالى للرائي علمًا ناشئًا، ويخلقُ لهُ الذي يراهُ على ما يراهُ ليصحَّ الإدراكُ.

قالَ ابنُ العربيِّ: ولا يرى في المنامِ إلا مايصحُّ إدراكهُ في اليقظةِ، ولذلكَ لا يرى في المنامِ شخصًا قائمًا قاعدًا بحالٍ، وإنما يرى الجائزاتِ المعتاداتِ.

وقيلَ: إنَّ للهِ ملكًا يعرضُ المرئياتِ على المحلِّ المدركِ منَ النائمِ، فيمثلُ لهُ صورًا محسوسةً، فتارةً تكونُ تلكَ الصورُ أمثلةً موافقةً لما يقعُ في الوجود، وتارة تكون لمعاني معقولة غير محسوسة، وفى الحالتين تكون مبشرة أوْ منذرةً، قالَ ﷺ في صحيحِ مسلمٍ وغيرهِ: «رأيتُ سوداءَ ثائرةَ الرأسِ تخرجُ منَ المدينةِ إلى مهيعةٍ فأولتها الحمى ورأيت سيفي قد انقطع صدره وبقرا تنحر فأولتها رجلٌ منْ أهلِ بيتي يقتلُ والبقرُ نفرٌ من أصحابي يقتلون، ورأيت أني أدخلتُ يديَّ في درعٍ حصينةٍ فأولتها المدينة، ورأيت في يديَّ سوارينِ فأولتهما كذابينِ يخرجانِ بعدي». إلى غيرِ ذلكَ مما ضربتْ لهُ الأمثالُ، ومنها ما يظهر معناه أولا فأول، ومنها ما لا يظهر إلا بعد التفكرِ، وقدْ رأى النائمُ في زمنِ يوسفَ ﷺ بقرًا فأولها يوسفُ السنينَ، ورأى أحد عشر كوكبا فأولها بإخوتهِ وأبويهِ.

السابعة: إنْ قيلَ: إنَّ يوسف ﷺ كان صغيرا حين رؤياه، والصغير لا حكم لفعلهِ، فكيفَ تكونُ لهُ رؤيا لها حكمٌ حتى يقولَ لهُ أبوهُ: ﴿لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾؟

فالجوابُ: أنَّ الرؤيا إدراكُ حقيقةٍ على ما قدمناهُ، فتكونُ منَ الصغيرِ كما يكونُ منهُ الإدراكُ الحقيقيُّ في اليقظةِ، وإذا أخبرَ عما رأى صدقَ، فكذلكَ إذا أخبرَ عما يرى في المنامِ،

وقدْ أخبرَ اللهُ سبحانهُ عنْ رؤياهُ وأنها وجدتْ كما رأى فلا اعتراض، وروي أنَّ يوسفَ عليه السلام كانَ ابنَ اثنتيْ عشرةَ سنةً.

الثامنة: هذهِ الآيةُ أصلٌ في ألا نقص الرؤيا على غيرِ شفيقٍ ولا ناصحٍ، ولا على منْ لا يحسنُ التأويلَ فيها، روى أبو رزينٍ العقيليُّ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «الرؤيا جزءٌ منْ أربعينَ جزءا من النبوة، والرؤيا معلقةٌ برجلِ طائرٍ ما لمْ يحدثْ بها صاحبها فإذا حدثَ بها وقعتْ، فلا تحدثوا بها إلا عاقلًا أوْ محبًا أوْ ناصحًا» أخرجهُ الترمذيُّ وقالَ فيهِ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وقيلَ: لمالكٍ: أيعبرُ الرؤيا كلُّ أحدٍ؟ فقالَ: أبالنبوةِ يلعبُ؟ وقالَ مالكٌ: لا يعبرُ الرؤيا إلا منْ يحسنها، فإنْ رأى خيرًا أخبرَ بهِ، وإنْ رأى مكروهًا فليقلْ خيرًا أوْ ليصمتْ، قيلَ: فهلْ يعبرها على الخيرِ وهيَ عندهُ على المكروهِ لقولِ منْ قالَ إنها على ما تأولتْ عليهِ؟ فقالَ: لا! ثمَّ قالَ: الرؤيا جزءٌ منَ النبوةِ فلا يتلاعبُ بالنبوةِ.

التاسعة: وفي هذهِ الآيةِ دليلٌ على أنَّ مباحًا أنْ يحذرُ المسلمُ أخاهُ المسلمَ ممنْ يخافهُ عليهِ، ولا يكونُ داخلًا في معنى الغيبةِ، لأنَّ يعقوبَ عليه السلام قدْ حذرَ يوسف أن يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له، وفيها ما يدلُّ على جوازِ تركِ إظهارِ النعمةِ عندَ منْ تخشى غائلتهُ حسدًا وكيدًا، وقالَ النبيُّ ﷺ: «استعينوا على حوائجكمْ بالكتمانِ فإنَّ كلَّ ذي نعمةٍ محسود». وفيها دليلٌ واضحٌ على معرفةِ يعقوبَ عليه السلام بتأويلِ الرؤيا، فإنهُ علمَ منْ تأويلها أنهُ سيظهرُ عليهمْ، ولمْ يبالِ بذلكَ منْ نفسهِ، فإن الرجل يود أن يكون ولده خير منهُ، والأخُ لا يودُّ ذلكَ لأخيهِ. ويدلُّ أيضًا على أنَّ يعقوبَ عليه السلام كانَ أحسَّ منْ بنيهِ حسدَ يوسفَ وبغضهُ، فنهاهُ عن قص الرؤيا عليهم خوفا أنْ تغلَّ بذلكَ صدورهمْ، فيعملوا الحيلةَ في هلاكهِ، ومنْ هذا ومنْ فعلهمْ بيوسفَ يدلُّ على أنهمْ كانوا غيرَ أنبياءَ في ذلكَ الوقتِ، ووقعَ في كتابِ الطبريِّ لابنِ زيدٍ أنهمْ كانوا أنبياءُ، وهذا يردهُ القطعُ بعصمةِ الأنبياءِ عنِ الحسدِ الدنيويِّ، وعنْ عقوقِ الآباءِ، وتعريضِ مؤمنٍ للهلاكِ، والتآمرِ في قتلهِ، ولا التفاتَ لقولِ منْ قالَ إنهمْ كانوا أنبياءُ، ولا يستحيلُ في العقلِ زلةُ نبيٍّ، إلا أنَّ هذهِ الزلةَ قدْ جمعتْ أنواعًا منْ الكبائرَ، وقدْ أجمعَ المسلمونَ على عصمتهمْ منها، وإنما اختلفوا في الصغائرِ.

العاشرة: روى البخاريُّ عنْ أبي هريرةَ قالَ سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «لمْ يبقَ منَ

النبوةِ إلا المبشراتُ» قالوا: وما المبشراتُ؟ قالَ: «الرؤيا الصالحةُ» وهذا الحديثُ بظاهرِهِ يدلُّ على أنَّ الرؤيا بشرى على الإطلاقِ وليسَ كذلكَ، فإنَّ الرؤيا الصادقةَ قدْ تكونُ منذرةً منْ قبلِ اللهِ تعالى لا تسرُّ رائيها، وإنما يريها اللهُ تعالى المؤمنَ رفقًا بهِ ورحمةً، ليستعدَّ لنزولِ البلاءِ قبلَ وقوعهِ، فإنْ أدركَ تأولها بنفسهِ، وإلا سألَ عنها منْ لهُ أهليةُ ذلكَ.

وقدْ رأى الشافعيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهوَ بمصرَ رؤيا لأحمدَ بنِ حنبلٍ تدلُّ على محنتهِ فكتبَ إليهِ بذلكَ ليستعدَّ لذلكَ، وقدْ تقدمَ في «يونسَ» في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أنها الرؤيا الصالحةُ، وحديثُ البخاريِّ مخرجهُ على الأغلب، والله أعلم.

الحادية عشرة: روى البخاريُّ عنْ أبي سلمةَ قالَ: لقدْ كنتُ أرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعتُ أبا قتادةَ يقولُ: وأنا كنتُ لأرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «الرؤيا الحسنةُ منَ اللهِ فإذا رأى أحدكمْ مايحبُّ فلا يحدثُ بهِ إلا منْ يحبُّ وإذا رأى مايكرهُ فليتعوذْ باللهِ منْ شرها وليتفلْ ثلاثَ مراتٍ ولا يحدثْ بها أحدًا فإنها لنْ تضرهُ».

قالَ علماؤنا: فجعلَ اللهُ الاستعاذةَ منها مما يرفعُ أذاها، ألا ترى قولَ أبي قتادةَ: إني كنتُ لأرى الرؤيا هيَ أثقلُ عليَّ منَ الجبلِ، فلما سمعتُ بهذا الحديثِ كنتُ لا أعدها شيئًا. وزادَ مسلمٌ منْ روايةِ جابرٍ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «إذا رأى أحدكمُ الرؤيا يكرهها فليبصقْ عنْ يسارهِ ثلاثًا وليتعوذْ باللهِ منَ الشيطانِ ثلاثًا وليتحولْ عنْ جنبهِ الذي كانَ عليهِ».

وفي حديثُ أبي هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ قال: «إذا رأى أحدكمْ ما يكرهُ فليقمْ فليصلِّ».

قالَ علماؤنا: وهذا كلهُ ليسَ بمتعارضٍ، وإنما هذا الأمر بالتحولِ، والصلاةِ زيادةٌ، فعلى الرائي أنْ يفعلَ الجميعَ، والقيامُ إلى الصلاةِ يشملُ الجميعَ، لأنهُ إذا صلى تضمنَ فعلهُ للصلاةِ جميعَ تلكَ الأمورِ، لأنهُ إذا قامَ إلى الصلاةِ تحولَ عنْ جنبهِ، وإذا تمضمضَ تفلَ وبصقَ، وإذا قامَ إلى الصلاةِ تعوذَ ودعا وتضرعَ للهِ تعالى في أنْ يكفيهُ شرها في حالٍ هيَ أقربُ الأحوالِ إلى الإجابةِ، وذلكَ السحر من الليل.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ الكافُ في موضعِ نصبٍ، لأنها نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ، أيْ كما أكرمكَ بالرؤيا فكذلكَ يجتبيكَ، ويحسنُ إليكَ بتحقيقِ الرؤيا أو بالسجودِ لكَ، وقيل: بالنبوةِ.

والاجتباءُ اختيارُ معالي الأمورِ للمجتبى، وأصلهُ منْ جبيتُ الشيءَ أيْ حصلتهُ، ومنهُ جبيتُ الماءَ في الحوض.

وهذا ثناءٌ منَ اللهِ تعالى على يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتعديدٌ فيما عددهُ عليهِ منَ النعمِ التي أتاهُ اللهُ تعالى، منَ التمكينِ في الأرضِ، وتعليمِ تأويلِ الأحاديثِ، وأجمعوا أنَّ ذلكَ في تأويلِ الرؤيا، وكانَ يوسفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أعلمَ الناسِ بتأويلها، وكانَ نبينا ﷺ نحوَ ذلكَ، وكانَ الصديقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منْ أعبرِ الناسِ لها، وحصلَ لابنِ سيرينَ فيها التقدمُ العظيمُ، والطبعُ والإحسانُ، ونحوهُ أوْ قريبٌ منهُ كان سعيد بن المسيب فيما ذكروا.

قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ أيْ أحاديثِ الأممِ والكتبِ ودلائلِ التوحيدِ، فهوَ إشارةٌ إلى النبوةِ، وهوَ المقصودُ بقولهِ: ﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ أيْ بالنبوةِ. وقيل: بإخراجِ إخوتكَ إليكَ، وقيل: بإنجائكَ منْ كلِّ مكروهٍ ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ بالخلةِ، وإنجائهِ منَ النارِ ﴿وَإِسۡحَٰقَ﴾ بالنبوةِ. وقيل: منَ الذبحِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بما يعطيك ﴿حَكِيمٞ ٦﴾ في فعله بك.

قوله تعالى: ﴿۞لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ٧﴾ يعني، منْ سألَ عنْ حديثهمْ. وقرأ أهلُ مكةَ «آيَةٌ» على التوحيدِ، و ﴿ءَايَٰتٞ﴾ موعظةٍ، وقيل: عبرةٌ، وقيل: بصيرةٌ. وقيل: عجبٌ، تقولُ فلانٌ آيةٌ في العلمِ والحسنِ أيْ عجبٌ.

قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ﴾ ﴿لَيُوسُفُ﴾ رفعَ بالابتداءِ، واللامُ للتأكيدِ، وهيَ التي يتلقى بها القسمُ، أيْ واللهِ ليوسفُ ﴿وَأَخُوهُ﴾ عطفٌ عليهِ ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ خبرهُ، ولا يثنى ولا يجمعُ لأنهُ بمعنى الفعلِ، وإنما قالوا هذا لأنَّ خبرَ المنامِ بلغهمْ فتآمروا في كيدهِ ﴿وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾ أيْ جماعةٌ، وكانوا عشرةً. والعصبةُ ما بينَ الواحدِ إلى العشرةِ، ولا واحدَ لها منْ لفظها كالنفرِ والرهطِ ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨﴾ لمْ يريدوا ضلالَ الدينِ، إذْ لوْ

أرادوهُ لكانوا كفارًا، بلْ أرادوا لفي ذهابٍ عنْ وجهِ التدبيرِ، في إيثارِ اثنينِ على عشرةٍ معَ استوائهمْ في الانتسابِ إليهِ.

قوله تعالى: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ في الكلامِ حذفٌ، أيْ قالَ قائلٌ منهمْ: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ﴾ ليكونَ أحسمَ لمادةِ الأمر ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أيْ في أرضٍ، فأسقطَ الخافضَ وانتصبَ الأرضَ، والمعنى أرضًا تبعدُ عنْ أبيهِ، فلا بدَّ منْ هذا الإضمارِ لأنهُ كانَ عندَ أبيهِ في أرضٍ ﴿يَخْلُ﴾ جزمَ لأنهُ جوابُ الأمر، معناهُ: يخلصُ ويصفو ﴿لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ فيقبلُ عليكمْ بكليتهِ ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أيْ منْ بعدِ الذنبِ، وقيل: منْ بعدِ يوسفَ ﴿قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ أيْ تائبينَ، أيْ تحدثوا توبةً بعدَ ذلكَ فيقبلها اللهُ منكمْ، وفي هذا دليلٌ على أنَّ توبةَ القاتلِ مقبولةٌ، لأنَّ اللهَ تعالى لمْ ينكرْ هذا القولَ منهمْ. وقيل: ﴿صَٰلِحِينَ﴾ أيْ يصلحُ شأنكمْ عندَ أبيكمْ من غير أثرة ولا تفضيل.

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾، فيه ثلاث عشر مسألةً:

الأولى: ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ قرأَ أهلُ مكةَ وأهلُ البصرةِ وأهلُ الكوفة: ﴿فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾. وقرأ أهلُ المدينةِ: «في غياباتِ الجبِّ»، وكلَّ موضع مما يغيبُ غيابةً، والغيابةُ طاقٍ في البئرِ فويقَ الماءِ، يُغَيبُ الشيءِ عنِ العينِ، والجبُّ الركيةُ التي لمْ تطوَ، فإذا طويت فهي بئر، وسميتْ جبًا لأنها قطعتْ في الأرضِ قطعًا، وجمعُ الجبِّ جِبَبَةٌ وجبابٌ وأجبابٌ، وجمعَ بينَ الغيابةِ والجبِّ لأنهُ أرادَ ألقوهُ في موضعٍ مظلمٍ منَ الجبِّ حتى لا يلحقه نظر الناظرين. قيل هوَ بئرُ ببيتِ المقدسِ، وقيل: هوَ بالأردنِّ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ جزمَ على جوابِ الأمر، والسيارةُ الجمعُ الذي يسيرونَ في الطريقِ للسفرِ، وإنما قالَ القائلُ هذا حتى لا يحتاجوا إلى حملهِ إلى موضعٍ بعيدٍ ويحصلُ المقصودُ، فإنَّ من التقطهُ منَ السيارةِ يحملهُ إلى موضعٍ بعيدٍ، وكانَ هذا وجهًا في التدبيرِ حتى لا يحتاجوا إلى الحركةِ بأنفسهمْ، فربما لا يأذنُ لهمْ أبوهمْ، وربما يطلعُ على قصدهمْ.

الثالثة: وفي هذا ما يدلُّ على أنَّ إخوةَ يوسفَ ما كانوا أنبياءَ لا أولًا ولا آخرًا، لأنَّ الأنبياءَ لا يدبرونَ في قتلِ مسلمٍ، بلْ كانوا مسلمينَ، فارتكبوا معصيةً ثمَّ تابوا. وقيل: كانوا أنبياءَ، ولا يستحيلُ في العقلِ زلةُ نبيٍّ، فكانتْ هذهِ زلةٌ منهمْ، وهذا يردهُ أنَّ الأنبياءَ معصومونَ منَ الكبائرِ على ما قدمناهُ. وقيل: ما كانوا في ذلكَ الوقتِ أنبياءَ ثمَّ نبأهمُ اللهُ، وهذا أشبهُ، واللهُ أعلمُ.

الرابعة: طُرحَ يوسفُ في الجبِّ وهوَ غلامٌ، والدليلُ عليهِ قولهُ تعالى: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ ولا يلتقطُ إلا الصغيرُ، وقولهُ: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ وذلكَ أمرٌ يختصُّ بالصغارِ، وقولهمْ: ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

الخامسة: الالتقاطُ تناولُ الشيءِ منَ الطريقِ، ومنهُ اللقيطُ واللُّقَطةُ، ونحنُ نذكرُ منْ أحكامها ما دلتْ عليهِ الآيةُ والسنةُ، وما قالَ في ذلكَ أهلُ العلمِ واللغةِ:

قالَ ابنُ عرفةَ: الالتقاطُ وجودُ الشيءِ على غيرِ طلبٍ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ أيْ يجدهُ منْ غيرِ أنْ يحتسبهُ.

وقدِ اختلفَ العلماءُ في اللقيطِ، فقيلَ: أصلهُ الحريةُ لغلبةِ الأحرارِ على العبيدِ، وقالَ إبراهيمُ النخعيُّ: إنْ نوى رقهُ فهوَ مملوكٌ، وإنْ نوى الحسبةَ فهوَ حرٌّ. وقالَ مالكٌ في موطئهِ: الأمر عندنا في المنبوذِ أنهُ حرٌّ، وأنَّ ولاءهُ لجماعةِ المسلمينَ، همْ يرثونهُ ويعقلونَ عنهُ، وبهِ قالَ الشافعيُّ، واحتجَّ بقولهِ ﷺ: «وإنما الولاءُ لمنْ أعتقَ» قالَ: فنفى الولاءَ عنْ غيرِ المعتقِ.

واتفقَ مالكٌ والشافعيُّ وأصحابهما على أنَّ اللقيطَ لا يوالي أحدًا، ولا يرثهُ أحدٌ بالولاءِ. وقالَ أبو حنيفةَ وأصحابهُ وأكثرُ الكوفيينَ: اللقيطُ يوالي من شاء، فمن والاه فهوَ يرثهُ ويعقلُ عنهُ، وعندَ أبي حنيفةَ لهُ أنْ يتنقلَ بولائهِ حيثُ شاءَ، ما لمْ يعقلْ عنهُ الذي والاهُ، فإنْ عقلَ عنهُ جنايةً لمْ يكنْ لهُ أنْ يتنقلَ عنهُ بولائهِ أبدًا.

قالَ ابنُ العربيِّ: إنما كانَ أصلُ اللقيطِ الحريةَ لغلبةِ الأحرارِ على العبيدِ، فقضي بالغالبِ، كما حكمَ أنهُ مسلمٌ أخذًا بالغالبِ، فإنْ كانَ في قريةٍ فيها نصارى ومسلمونَ قالَ ابنُ القاسمِ: يحكمُ بالأغلبِ، فإنْ وجدَ عليهِ زيُّ اليهودِ فهوَ يهوديٌّ، وإنْ وجدَ عليهِ زيُّ

النصارى فهوَ نصرانيٌّ، وإلا فهوَ مسلمٌ، إلا أن يكون أكثر أهل القرية على غيرِ الإسلامِ.

وقالَ غيرهُ: لوْ لمْ يكنْ فيها إلا مسلمٌ واحدٌ قضيَ للقيطِ بالإسلامِ تغليبًا لحكمِ الإسلامِ الذي يعلو ولا يعلى عليهِ، وهوَ مقتضى قولُ أشهبَ، قالَ أشهبُ: هوَ مسلمٌ أبدًا، لأني أجعلهُ مسلمًا على كلِّ حالٍ، كما أجعلهُ حرًا على كلِّ حالٍ.

واختلفَ الفقهاءُ في المنبوذِ تدلُّ البينةُ على أنهُ عبدٌ، فقالتْ طائفةٌ منْ أهلِ المدينةِ: لا يقبلُ قولها في ذلكَ، وإلى هذا ذهبَ أشهبُ لقولِ عمرَ: هوَ حرٌّ، ومنْ قضيَ بحريتهِ لمْ تقبلِ البينةُ في أنهُ عبدٌ. وقالَ ابنُ القاسمِ: تقبلُ البينةُ في ذلكَ وهوَ قولُ الشافعيِّ والكوفيِّ.

السادسة: قالَ مالكٌ في اللقيطِ: إذا أنفقَ عليهِ الملتقطُ ثمَّ أقامَ رجلٌ البينةَ أنهُ ابنهُ فإنَّ الملتقطَ يرجعُ على الأبِ إنْ كانَ طرحهُ متعمدًا، وإنْ لمْ يكنْ طرحهُ ولكنه ضل منه فلا شيء على الأبِ، والملتقطُ متطوعٌ بالنفقةِ. وقالَ أبو حنيفةَ: إذا أنفقَ على اللقيطِ فهوَ متطوعٌ، إلا أنْ يأمرهُ الحاكمُ. وقالَ الأوزاعيُّ: كلُّ منْ أنفقَ على منْ لا تجبُ عليهِ نفقةٌ رجعَ بما أنفقَ. وقالَ الشافعيُّ: إنْ لمْ يكنْ للقيطِ مالٌ وجبتْ نفقتهُ في بيتِ المالِ، فإنْ لمْ يكنْ ففيهِ قولانِ: **أحدهما**: يستقرضُ لهُ في ذمتهِ. و**الثاني**: يقسطُ على المسلمينَ منْ غيرِ عوضٍ.

السابعة: وأما اللقطةُ والضوالُّ فقدِ اختلفَ العلماءُ في حكمهما، فقالتْ طائفةٌ منْ أهلِ العلمِ: اللقطةُ والضوالُّ سواءٌ في المعنى، والحكمُ فيهما سواءٌ، وقيل: الضالةَ لا تكون إلا في الحيوان واللقطة غيرِ الحيوانِ.

الثامنة: أجمعَ العلماءُ على أنَّ اللقطةَ ما لمْ تكنْ تافهًا يسيرًا أوْ شيئًا لا بقاءَ لها فإنها تعرفُ حولًا كاملًا، وأجمعوا أنَّ صاحبها إنْ جاءَ فهوَ أحقُّ بها منْ ملتقطها إذا ثبتَ لهُ أنهُ صاحبها، وأجمعوا أنَّ ملتقطها إنْ أكلها بعدَ الحولِ وأرادَ صاحبها أنْ يضمنهُ فإنَّ ذلكَ لهُ، وإنْ تصدقَ بها فصاحبها مخيرٌ بينَ التضمينِ وبينَ أنْ ينزلَ على أجرها، فأي ذلك تخير كان ذلكَ لهُ بإجماعٍ، ولا تنطلقُ يدُ ملتقطها عليها بصدقةٍ ولا تصرفَ قبلَ الحولِ. وأجمعوا أنَّ ضالةَ الغنمِ المخوفِ عليها لهُ أكلها.

التاسعة: واختلفَ الفقهاءُ في الأفضلِ منْ تركها أوْ أخذها، فمنْ ذلكَ أنَّ في الحديثِ

دليلًا على إباحةِ التقاطِ اللقطةِ وأخذِ الضالةِ ما لَمْ تكنْ إبلًا. وقالَ في الشاةِ: «لكَ أوْ لأخيكَ أوْ للذئبِ» يحضهُ على أخذها، ولم يقل في شيء دعوهُ حتى يضيعَ أوْ يأتيهُ ربهُ. ولوْ كانَ تركُ اللقطةِ أفضلَ لأمرَ بهِ رسولِ اللهِ ﷺ كما قالَ في ضالةِ الإبلَ، واللهُ أعلمُ. وجملةُ مذهبِ أصحابِ مالكٍ أنهُ في سعةٍ، إنْ شاءَ أخذها وإنْ شاءَ تركها، وعنِ الشافعيِّ: لا أحبُّ لأحدٍ تركَ اللقطةِ إنْ وجدها إذا كانَ أمينًا عليها، قالَ: وسواءٌ قليلُ اللقطةِ وكثيرها.

العاشرة: روى الأئمةُ مالكٌ وغيرهُ عنْ زيدِ بنِ خالدٍ الجهنيِّ قالَ: جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فسألهُ عنِ اللقطةِ فقالَ: «اعرفْ عفاصها ووكاءها ثمَّ عرفها سنةً فإنْ جاءَ صاحبها وإلا فشأنكَ بها» قالَ: فضالةُ الغنمِ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «لكَ أوْ لأخيكَ أوْ للذئبِ» قالَ: فضالةُ الإبلِ؟ قالَ: «ما لكَ ولها معها سقاؤها وحذاؤها تردُ الماءَ وتأكلُ الشجرَ حتى يلقاها ربها». وفي حديثِ أبيٍّ قالَ: «احفظْ عددها ووعاءها ووكاءها فإنْ جاءَ صاحبها وإلا فاستمتعْ بها» ففي هذا الحديثِ زيادةُ العددِ، خرجهُ مسلمٌ وغيرهُ.

وأجمعَ العلماءُ أنَّ عفاصَ اللقطةِ ووكاءها منْ إحدى علاماتها وأدلها عليها، فإذا أتى صاحبُ اللقطةِ بجميعِ أوصافها دفعتْ لهُ. قالَ ابنُ القاسمِ: يجبرُ على دفعها، فإنْ جاءَ مستحقٌّ يستحقها ببينةٍ أنها كانتْ لهُ لمْ يضمنِ الملتقطُ شيئًا، وهلْ يحلفُ معَ الأوصافِ أوْ لا؟ قولانِ: الأولُ لأشهبَ، والثاني لابنِ القاسمِ، ولا تلزمهُ بينةٌ عندَ مالكٍ وأصحابهِ وأحمدَ وغيرهمْ.

وقالَ أبو حنيفةَ والشافعيُّ: لا تدفعُ لهُ إلا إذا أقامَ بينةً أنها لهُ، وهو بخلافِ نص الحديث، ولوْ كانتِ البينةُ شرطًا في الدفعِ لما كانَ لذكرِ العفاصِ والوكاءِ والعددِ معنى، فإنهُ يستحقها بالبينةِ على كلِّ حالٍ، ولما جازَ سكوتُ النبيِّ ﷺ عنْ ذلكَ، فإنهُ تأخيرٌ للبيانِ عنْ وقتِ الحاجةِ. واللهُ أعلمُ.

الحادية عشرة: نصَّ الحديثُ على الإبلِ والغنمِ وبينَ حكمهما، وسكتَ عما عداهما منَ الحيوانِ. وقدِ اختلفَ علماؤنا في البقرِ هلْ تلحقُ بالإبلِ أوْ بالغنمِ؟ قولانِ، وكذلكَ اختلفَ أئمتنا في التقاطِ الخيلِ والبغالِ والحميرِ، وظاهرُ قولِ ابنِ القاسمِ أنها تلتقطُ، وقالَ أشهبُ: لا تلتقطُ، وقولُ ابنِ القاسمِ أصحُّ، لقولهِ ﷺ: «احفظْ على أخيكَ المؤمنِ ضالتهُ».

الثانية عشرة: واختلفَ العلماءُ في النفقةِ على الضوالِّ، فقالَ مالكٌ فيما ذكرَ عنهُ ابنُ القاسمِ: إنْ أنفقَ الملتقطُ على الدوابِّ والإبلِ وغيرها فلهُ أنْ يرجعَ على صاحبها بالنفقةِ، وسواءٌ أنفقَ عليها بأمرِ السلطانِ أوْ بغيرِ أمرهِ، قالَ: ولهُ أنْ يحبسَ بالنفقةِ ما أنفقَ عليهِ ويكونُ أحقُّ بهِ كالرهنِ. وقالَ الشافعيُّ: إذا أنفقَ على الضوالِّ منْ أخذها فهوَ متطوعٌ، وقالَ المزنيُّ عنهُ: إذا أمرهُ الحاكمُ بالنفقةِ كانتْ دينًا، وما ادعى قبلَ منهُ إذا كانَ مثلهُ قصدًا. وقالَ أبو حنيفةَ: إذا أنفقَ على اللقطةِ والإبلِ بغيرِ أمرِ القاضي فهوَ متطوعٌ، وإنْ أنفقَ بأمرِ القاضي فذلكَ دينٌ على صاحبها إذا جاءَ، ولهُ أنْ يحبسها إذا حضرَ صاحبها، والنفقةُ عليها ثلاثةُ أيامٍ ونحوها، حتى يأمرَ القاضي ببيعِ الشاةِ وما أشبهها ويقضي بالنفقةِ.

الثالثة عشرة: – ليسَ في قولهِ ﷺ في اللقطةِ بعدَ التعريفِ: «فاستمتعْ بها» أوْ «فشأنكَ بها» أوْ «فهيَ لكَ» أوْ «فاستنفقها» أوْ «ثمَّ كلها» أوْ «فهوَ مالُ اللهِ يؤتيهِ منْ يشاءُ» على ما في صحيحِ مسلمٍ وغيرهِ ما يدلُّ على التمليكِ، وسقوطِ الضمانِ عنِ الملتقطِ إذا جاءَ ربها، فإنَّ في حديثِ زيدِ بنِ خالدٍ الجهنيِّ عنِ النبيِّ ﷺ: «فإنْ لمْ تعرف فاستنفقها ولتكنْ وديعةً عندكَ فإنْ جاءَ صاحبها يومًا منَ الدهرِ فأدها إليهِ» في روايةٍ «ثمَّ كلها فإنْ جاءَ صاحبها فأدها إليهِ» خرجهُ البخاريُّ ومسلمٌ. وأجمعَ العلماءُ على أنَّ صاحبها متى جاءَ فهوَ أحقُّ بها، إلا ما ذهبَ إليهِ داودُ منْ أنَّ الملتقطَ يملكُ اللقطةَ بعدَ التعريفِ، لتلكَ الظواهرِ، ولا التفاتَ لقولهِ، لمخالفةِ الناسِ، ولقولهِ ﷺ: «فأدها إليه».

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قيلَ للحسنِ: أيحسدُ المؤمنُ؟ قالَ: ما أنساكَ ببني يعقوبَ! ولهذا قيلَ: الأبُ جلَّابٌ والأخُ سلَّابٌ، فعندَ ذلكَ أجمعوا على التفريقِ بينهُ وبينَ ولدهِ بضربٍ منَ الاحتيالِ، وفيهِ دليلٌ على أنهمْ سألوهُ قبلَ ذلكَ أنْ يخرجَ معهمْ يوسفَ فأبى على ما يأتي.

قرأَ يزيدُ بنُ القعقاعِ وعمرو بنُ عبيدٍ والزهريُّ ﴿لَا تَأۡمَنَّا﴾ بالإدغامِ، وبغيرِ إشمامٍ وهوَ القياسُ، لأنَّ سبيلَ ما يدغمُ أنْ يكونَ ساكنًا. وقرأ طلحةُ بنُ مصرفٍ «لَا تَأۡمَنُنَا» بنونينِ ظاهرتينِ على الأصلِ، وقرأ سائرُ الناسِ بالإدغامِ والإشمامِ ليدلَّ على حالِ الحرفِ قبلَ إدغامهِ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ١١﴾ أيْ في حفظهِ حتى نردهُ إليكَ.

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إلى الصحراء ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ ﴿غَدًا﴾ ظرفٌ، وما بينَ الفجرِ وصلاةِ الصبحِ يقالُ له غدوة، وكذا بكرةً. «نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ» بالنونِ وإسكانِ العينِ قراءةُ أهلِ البصرةِ. والمعروفُ منْ قراءةِ أهلِ مكةَ. «نَرْتَعِ» بالنونِ وكسرِ العينِ. وقراءةِ أهلِ الكوفةِ. ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ بالياءِ وإسكانِ العينِ. وقراءةِ أهلِ المدينةِ بالياءِ وكسرِ العينِ، القراءةُ الأولى منْ قولِ العربِ رتعَ الإنسانُ والبعيرُ إذا أكلا كيفَ شاءا، والمعنى: نتسعْ في الخصبِ، وكلُّ مخصبٍ راتعٌ، وَ «يَرْتَعِ» بكسرِ العينِ منْ رعيِ الغنمِ، أيْ ليتدربَ بذلكَ ويترجلُ، فمرةً يرتعُ، ومرةً يلعبُ لصغرهِ. وقالَ القتبيُّ «نَرْتَعُ» نتحارسُ ونتحافظُ، ويرعى بعضنا بعضًا، منْ قولكَ: رعاكَ اللهُ، أيْ حفظكَ. «وَنَلْعَبُ» منَ اللعبِ وقيلَ: لأبي عمرو بنِ العلاءِ: كيفَ قالوا «وَنَلْعَبُ» وهمْ أنبياءُ؟ فقالَ: لمْ يكونوا يومئذٍ أنبياءَ. وقيل: المرادُ باللعبِ المباحُ منَ الانبساطِ، لا اللعبُ المحظورُ الذي هوَ ضدَّ الحقِّ، ولذلكَ لمْ ينكرْ يعقوبُ قولهمْ «وَنَلْعَبُ». ومنهُ قولهُ ﷺ: «فهلا بكرا تلاعبها وتلاعبك»، وقرأَ مجاهدٌ وقتادةُ: «يُرْتِعُ» على معنى يرتعُ مطيتهُ، فحذفَ المفعولَ «وَيَلْعَبُ» بالرفعِ على الاستئنافِ، والمعنى: هوَ ممنْ يلعبُ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢﴾ منْ كلِّ ما تخافُ عليهِ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ في موضعِ رفعٍ، أيْ ذهابكمْ بهِ. أخبرَ عنْ حزنهِ لغيبتهِ ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ وذلكَ أنهُ رأى في منامهِ أنَّ الذئبَ شدَّ على يوسفَ، فلذلكَ خافهُ عليهِ، وقيل: إنما قالَ ذلكَ لخوفهِ منهمْ عليهِ، وإنهُ أرادهمْ بالذئبِ، فخوفهُ إنما كانَ منْ قتلهمْ لهُ، فكنى عنهمْ بالذئبِ مساترةً لهمْ، قالَ ابنُ عباسٍ: فسماهمْ ذئابًا. وقيل: ما خافهمْ عليهِ، ولوْ خافهمْ لما أرسلهُ معهمْ، وإنما خافَ الذئبَ، لأنهُ أغلبُ ما يخافُ في الصحاري. والذئبُ مهموز، وروى ورشٌ عنْ نافعٍ «الذِّيبُ» بغيرِ همزٍ، لما كانتِ الهمزةُ ساكنةً وقبلها كسرةٌ فخففها صارتْ ياءً ﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ١٣﴾ أي مشغلون بالرعيِ.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أيْ جماعةٌ نرى الذئبَ ثمَّ لا نردهُ عنهُ ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ١٤﴾ أيْ في حفظنا أغنامنا، أيْ إذا كنا لا نقدرُ على دفعِ الذئبِ عنْ أخينا فنحنُ أعجزُ أنْ ندفعهُ عنْ أغنامنا. وقيل: ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾ لجاهلون بحقه. وقيل: لعاجزون.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ﴾ ﴿أن﴾ في موضعِ نصبٍ، أيْ على أنْ يجعلوهُ ﴿فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾، وجواب ﴿فَلَمَّا﴾ محذوفٌ، أيْ فلما ذهبوا بهِ وأجمعوا على طرحهِ في الجبِّ عظمتْ فتنتهمْ. وقيل: جوابُ ﴿فَلَمَّا﴾ قولهمْ: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾. وقيل: التقديرُ فلما ذهبوا بهِ منْ عندِ أبيهمْ وأجمعوا أنْ يجعلوهُ في غيابةِ الجبِّ جعلوهُ فيها، هذا على مذهبِ البصريينَ، وأما على قولِ الكوفيينَ فالجوابُ:. ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ والواوُ مقحمةٌ، والواوُ عندهمْ تزادُمعَ لما وحتى، قالَ اللهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ أيْ فتحتْ وقولهُ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أيْ فارَ. قالَ امرؤُ القيسِ:

فلما أجزنا ساحةَ الحيِّ وانتحى

أيِ انتحى، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ أي ناديناه. وفي قوله: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ دليلٌ على نبوتهِ في ذلكَ الوقتِ، وقيل: كانَ وحيُ إلهامٍ كقولهِ: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾، وقيل: كانَ منامًا، والأولُ أظهرُ - واللهُ أعلمُ - وأنَّ جبريلَ جاءهُ بالوحيِ.

قوله تعالى: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا﴾، فيهِ وجهانِ:

أحدهما - أنهُ أوحى إليهِ أنهُ سيلقاهمْ ويوبخهمْ على ما صنعوا، فعلى هذا يكونُ الوحيُ بعد إلقائه في الجب تقوية لقلبه، وتبشير لهُ بالسلامةِ.

الثاني - أنهُ أوحى إليهِ بالذي يصنعونَ بهِ، فعلى هذا يكونُ الوحيُ قبلَ إلقائه في الجب إنذارا لهُ.

قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١٥﴾ أنكَ يوسفَ، وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى أمرهُ لما أفضى إليهِ الأمر بمصرَ ألا يخبرَ أباهُ وإخوتهُ بمكانهِ. وقيل: بوحيِ اللهِ تعالى بالنبوةِ.

وقيل: «الهاءُ» ليعقوبَ، أوحى اللهُ تعالى إليهِ ما فعلوهُ بيوسفَ، وأنهُ سيعرفهمْ بأمرهِ، وهمْ لا يشعرونَ بما أوحى اللهُ إليهِ، واللهُ أعلمُ.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ١٦﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً﴾ أيْ ليلًا، وهوَ ظرفٌ يكونُ في موضع الحالِ، وإنما جاءوا عشاءً ليكونوا أقدرَ على الاعتذارِ في الظلمةِ، ولذا قيلَ: لا تطلبِ الحاجةَ بالليلِ، فإنَّ الحياءَ في العينينِ، ولا تعتذرْ بالنهارِ منْ ذنبٍ فتتلجلجَ في الاعتذارِ.

الثانية: قالَ علماؤنا: هذهِ الآيةُ دليلٌ على أنَّ بكاءَ المرءِ لا يدلُّ على صدقِ مقالهِ، لاحتمالِ أنْ يكونَ تصنعًا، فمنَ الخلقِ منْ يقدرُ على ذلكَ، ومنهمْ منْ لا يقدرُ. وقدْ قيلَ: إنَّ الدمعَ المصنوعَ لا يخفى، كما قالَ حكيمٌ:

إذا اشتبكتْ دموعٌ في خدودٍ تبينَ منْ بكى ممنْ تباكى

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ١٧﴾، فيهِ سبعُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿نَسْتَبِقُ﴾ نفتعلُ، منِ المسابقةِ. وقيل: أيْ ننتضلُ، وكذا في قراءةِ عبدِ اللهِ «إِنَّا ذَهَبْنَا نَنْتَضِلُ» وهوَ نوعٌ منَ المسابقةِ، وقالَ الأزهريُّ: النضالُ في السهامِ، والرهانُ في الخيلِ، والمسابقةُ تجمعهما. وقيل: ﴿نَسْتَبِقُ﴾ أيْ في الرمي، أوْ على الفرسِ، أوْ على الأقدامِ، والغرضُ منَ المسابقةِ على الأقدامِ تدريبُ النفسِ على العدوِ، لأنهُ الآلةُ في قتالِ العدوِّ، ودفعِ الذئبِ عنِ الأغنامِ.

قالَ ابنُ العربيِّ: المسابقةُ شرعةٌ في الشريعةِ، وخصلةٌ بديعةٌ، وعونٌ على الحربِ، وقدْ فعلها ﷺ بنفسهِ وبخيلهِ، وسابقَ عائشةَ رضي الله عنها على قدميهِ فسبقها، فلما كبرَ رسولُ اللهِ ﷺ سابقها فسبقتهُ، فقالَ لها: «هذهِ بتلكَ». قلتُ: وسابقَ سلمةُ بنُ الأكوعِ رجلًا لمّا رجعوا منْ ذي قَرَدٍ إلى المدينةِ فسبقهُ سلمة، خرجه مسلم.

الثانية: وروى مالكٌ عنْ نافعٍ عنِ ابنِ عمرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سابقَ بينَ الخيلِ التي قدْ أضمرتْ منَ الحفياءِ وكانَ أمدها ثنيةَ الوداعِ، وسابقَ بينَ الخيلِ التي لمْ تضمرْ منَ الثنيةِ إلى مسجدِ بني زريقٍ، وأنَّ ابنَ عمرَ كانَ ممنْ سابقَ بها، وهذا الحديثُ معَ صحتهِ في هذا البابِ تضمنَ ثلاثةَ شروطٍ، فلا تجوزُ المسابقةُ بدونها:

الأول: أنَّ المسافةَ لا بدَّ أنْ تكونَ معلومةً.

الثاني- أنْ تكونَ الخيلُ متساويةَ الأحوالِ.

الثالثُ- ألا يسابقَ المضمرُ معَ غيرِ المضمرِ في أمدٍ واحدٍ وغايةٍ واحدةٍ.

والخيلُ التي يجبُ أنْ تضمرَ ويسابقُ عليها وتقامُ هذهِ السنةُ فيها هيَ الخيلُ المعدةُ لجهادِ العدوِّ لا لقتالِ المسلمينَ في الفتنِ.

الثالثة: وأما المسابقةُ بالنصالِ والإبلِ، فروى مسلم عنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرو قالَ: سافرنا معَ رسولِ اللهِ ﷺ فنزلنا منزلًا فمنا منْ يصلحُ خباءهُ، ومنا منْ ينتضلُ، وذكرَ الحديثَ. وخرجَ النسائيُّ عنْ أبي هريرةَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «لا سبقَ إلا في نصلٍ أوْ خفٍّ أوْ حافرٍ». وثبتَ ذكرُ النصلِ منْ حديثِ ابنِ أبي ذئبٍ عنْ نافعِ بنِ أبي نافعٍ عنْ أبي هريرةَ، ذكرهُ النسائيُّ، وبهِ يقولُ فقهاءَ الحجازُ والعراقُ.

وروى البخاريُّ عنْ أنسٍ قالَ: كانَ للنبيِّ ﷺ ناقةٌ تسمى العضباءُ لا تسبقُ- قالَ حميد: أو لا تكادُ تسبقُ- فجاءَ أعرابيٌّ على قعودٍ فسبقها، فشقَّ ذلكَ على المسلمينَ حتى عرفهُ، فقالَ: «حق على الله ألا يرتفع شيء منَ الدنيا إلا وضعهُ».

الرابعة: أجمعَ المسلمونَ على أنَّ السبقَ لا يجوزُ على وجهِ الرهانِ إلا في الخفِّ والحافرِ والنصلِ، قالَ الشافعيُّ: ما عدا هذهِ الثلاثةِ فالسَبَقُ فيها قمار.

وظاهر الحديث يستوي بينَ السَّبَقِ على النُجبِ والسبقِ على الخيلِ. وقدْ منعَ بعضُ العلماءِ الرهانَ في كلِّ شيءٍ إلا في الخيلِ، لأنها التي كانتْ عادةُ العربِ المراهنةَ عليها. ورويَ عنْ عطاءٍ أنَّ المراهنة في كل شيء جائزةٌ، وقدْ تؤولَ قولهُ، لأنَّ حملهُ على العموم في كل شيء يؤدي إلى إجازةِ القمارِ وهوَ محرمٌ باتفاقٍ.

الخامسة: لا يجوزُ السَّبَقُ في الخيلِ والإبلِ إلا في غايةٍ معلومةٍ وأمدٍ معلوم، كما ذكرنا، وكذلكَ الرميُ لا يجوزُ السَّبَقُ فيهِ إلا بغايةٍ معلومةٍ ورشقٍ معلومٍ، ونوعٍ منَ الإصابةِ مشترطٍ: خسقًا أوْ إصابة بغيرِ شرطٍ.

والأسباقُ ثلاثةٌ:

- سَّبَقٌ يعطيهِ الوالي أوِ الرجلُ غيرُ الوالي منْ مالهِ متطوعًا فيجعلُ للسابقِ شيئًا معلومًا، فمنْ سبقَ أخذهُ.

- وسَّبَقٌ يخرجهُ أحدُ المتسابقينِ دونَ صاحبهِ، فإنْ سبقهُ صاحبهُ أخذهُ، وإنْ سبقَ هوَ صاحبهُ أخذهُ، وحسنٌ أنْ يمضيهُ في الوجهِ الذي أخرجهُ لهُ، ولا يرجعُ إلى مالهِ، وهذا مما لا خلافَ فيهِ.

- وسَّبَقٌ ثالثٌ اختلفَ فيهِ، وهوَ أنْ يخرجَ كلٌّ واحدٌ منهما شيئًا مثلَ ما يخرجهُ صاحبهُ، فأيهما سبقَ أحرزَ سبقهُ وسبقَ صاحبهِ، وهذا الوجهُ لا يجوزُ حتى يدخلا بينهما محللًا لا يأمنا أنْ يسبقهما، فإنْ سبقَ المحللُ أحرزَ السبقينِ جميعًا وأخذهما وحدهُ، وإنْ سبقَ أحدُ المتسابقينِ أحرزَ سبقهُ وأخذ سبق صاحبه، ولا شيء للمحلل فيه، ولا شيء عليهِ. وإنْ سبقَ الثاني منهما الثالثَ كانَ كمنْ لمْ يسبقْ واحدٌ منهما.

واتفقَ العلماءُ على أنهُ إنْ لمْ يكنْ بينهما محللٌ واشترطَ كلٌّ واحدٍ منَ المتسابقينِ أنهُ إنْ سبقَ أخذَ سبقهُ وسبقَ صاحبهُ أنهُ قمارٌ، ولا يجوزُ. وفي سننِ أبي داودَ عنْ أبي هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «منْ أدخلَ فرسًا بينَ فرسينِ وهوَ لا يأمنُ أنْ يسبقَ فليسَ بقمارٍ ومنْ أدخلهُ وهوَ يأمنُ أنْ يسبقَ فهوَ قمارٌ».

وفي الموطأِ عنْ سعيدِ بنِ المسيبِ قالَ: ليسَ برهانِ الخيلِ بأسٌ إذا دخلَ فيها محللٌ، فإنْ سبقَ أخذَ السَّبَقَ، وإنْ سُبق لم يكن عليه شيء، وبهذا قالَ الشافعيُّ وجمهورُ أهلِ العلمِ. واختلفَ في ذلكَ قولُ مالكٍ، فقالَ مرةً لا يجبُ المحللُ في الخيلِ، ولا نأخذُ فيهِ بقولِ سعيدٍ، ثمَّ قالَ: لا يجوزُ إلا بالمحللِ، وهوَ الأجودُ منْ قولهِ.

السادسة: ولا يحملُ على الخيلِ والإبلِ في المسابقةِ إلا محتلمٌ، ولوْ ركبها أربابها كانَ أولى، وقدْ رويَ عنْ عمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنهُ قالَ: لا يركبُ الخيلَ في السباقِ إلا أربابها.

السابعة: رويَ عنِ النبيِّ ﷺ أنهُ سابقَ أبا بكرٍ وعمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فسبقَ رسولُ اللهِ ﷺ، وصلّى

أبو بكرٍ وثلّث عمرُ. ومعنى وصلى أبو بكرٍ: يعني أنَّ رأسَ فرسهِ كانَ عندَ صلوي فرسِ رسولِ اللهِ ﷺ، والصلوانِ موضعُ العجزِ.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ أيْ عندَ ثيابنا وأقمشتنا حارسًا لها ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ وذلك أنهم لما سمعوا أباهمْ يقولُ: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ أخذوا ذلك منْ فيهِ فتحرموا بهِ، لأنهُ كانَ أظهرَ المخاوفِ عليهِ ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ أيْ بمصدقٍ ﴿وَلَوۡ كُنَّا﴾ أيْ وإنْ كنا ﴿صَٰدِقِينَ ١٧﴾ في قولنا، ولمْ يصدقهمْ يعقوبُ لما ظهرَ لهُ منهمْ منْ قوةِ التهمةِ وكثرةِ الأدلةِ على خلافِ ما قالوهُ على ما يأتي بيانهُ.

وقيل: ﴿وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ أيْ ولوْ كنا عندكَ منْ أهلِ الثقةِ والصدقِ ما صدقتنا، ولاتهمتنا في هذهِ القضيةِ، لشدةِ محبتكَ في يوسفَ.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ﴾. فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿بِدَمٖ كَذِبٖۚ﴾ قالَ مجاهدٌ: كانَ دمَ سخلةٍ أوْ جدي ذبحوهُ، أيْ جاءوا على قميصهِ بدمٍ مكذوبٍ فيهِ، فوصفَ الدمَ بالمصدرِ، فصار تقديره: بدم ذي كذب، مثل: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ والفاعلُ والمفعولُ قدْ يسميانِ بالمصدرِ، يقالُ: هذا ضربُ الأميرِ، أيْ مضروبهُ، وماءٌ سكبٌ أيْ مسكوبٌ، وماءٌ غورٌ أيْ غائرٌ، ورجلٌ عدلٌ أيْ عادلٌ. وقرأ الحسنُ وعائشةُ: «بِدَمٍ كَدِبٍ» بالدالِ غيرَ المعجمةِ، أيْ بدمٍ طريٍّ، يقالُ للدمِ الطريِّ الكدبُ.

الثانية: قالَ علماؤنا رحمةُ اللهِ عليهمْ: لما أرادوا أنْ يجعلوا الدمَ علامةً على صدقهمْ قرنَ اللهُ بهذهِ العلامةِ علامةً تعارضها، وهيَ سلامةُ القميصِ منَ التنييبِ، إذْ لا يمكنُ افتراسُ الذئبِ ليوسفَ وهوَ لابسٌ القميصَ ويسلمُ القميصُ منَ التخريقِ، ولما تأملَ يعقوبُ عليه السلام القميصَ فلمْ يجدْ فيهِ خرقًا ولا أثرًا استدلَّ بذلكَ على كذبهمْ.

وحكى الماورديُّ أنَّ في القميصِ ثلاثَ آياتٍ: حينَ جاءوا عليهِ بدمٍ كذبٍ، وحينَ قُدَّ قميصهُ منْ دبرٍ، وحينَ ألقيَ على وجهِ أبيهِ فارتد بصيرا.

الثالثة: استدلَّ الفقهاءُ بهذهِ الآيةِ في إعمالِ الأماراتِ في مسائلَ منَ الفقهِ كالقسامةِ وغيرها، وأجمعوا على أنَّ يعقوبَ عليه السلام استدلَّ على كذبهمْ بصحةِ القميصِ، وهكذا يجبُ

على الناظرِ أنْ يلحظَ الأماراتِ والعلاماتِ إذا تعارضتْ، فما ترجحَ منها قضى بجانبِ الترجيحِ، وهيَ قوةُ التهمةِ، ولا خلافَ بالحكمِ بها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾. فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ﴾ أي زينت ﴿لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾ غيرَ ما تصفونَ وتذكرونَ. ثمَّ قالَ توطئةً لنفسهِ: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ وهيَ:

الثانية: أيْ فشأني والذي اعتقدهُ صبرٌ جميلٌ. وقالَ قطربٌ: أيْ فصبري صبرٌ جميلٌ. وقيل: أيْ فصبرٌ جميلٌ أولى بي، فهوَ مبتدأٌ وخبرهُ محذوفٌ. ويروى أنَّ النبيَّ ﷺ سئلَ عنِ الصبرِ الجميلِ فقالَ: «هوَ الذي لا شكوى معهُ»، وفي هذا ما يدلُّ على أنهُ عفا عنْ مؤاخذتهمْ.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ أيْ على احتمالِ ما تصفونَ منَ الكذبِ.

الثالثة: قالَ ابنُ أبي رفاعةَ ينبغي لأهلِ الرأيِ أنْ يتهموا رأيهمْ عندَ ظنِّ يعقوبَ عليه السلام وهو نبي، حين قال له بنوه: ﴿إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ﴾ قالَ: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ فأصابَ هنا، ثمَّ قالوا لهُ: ﴿إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ﴾ قالَ: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾ فلمْ يصبْ.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ﴾ أيْ رفقةٌ مارةٌ يسيرونَ منَ الشامِ إلى مصرَ ﴿فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ﴾ فذكر على المعنى، ولوْ قالَ: فأرسلتْ واردها لكان على اللفظ، مثل ﴿وَجَآءَتۡ﴾. والواردُ الذي يردُ الماءَ يستقي للقومِ ﴿فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ﴾ أيْ أرسلهُ، يقالُ: أدلى دلوهُ إذا أرسلها ليملأها، ودلاها أيْ أخرجها، وجمعُ دلوٍ في أقلِّ العددِ أَدلٍ فإذا كثرتْ قلتُ: دُليٌّ ودِليٌّ، فقلبتِ الواوُ ياءً، إلا أنَّ الجمعَ بابهُ التغييرُ، وليفرقَ بينَ الواحدِ والجمعِ، ودلاءٌ أيضًا. فتعلقَ يوسفُ بالحبلِ، فلما خرجَ إذا غلامٌ كالقمرِ ليلةَ البدرِ، أحسنُ ما يكونُ منَ الغلمانِ. قالَ ﷺ

في حديثِ الإسراءِ منْ صحيحِ مسلمٍ: «فإذا أنا بيوسفَ إذا هوَ قدْ أعطيَ شطرَ الحسنِ».

فلما رآهُ ﴿قال يا بشراى هذا غلامٌ﴾ وهذه قراءةُ أهلِ المدينةِ وأهلِ البصرةِ، وقرأ أهلُ الكوفةِ ﴿يَٰبُشۡرَىٰ﴾ غيرَ مضافٍ، وفي معناهُ قولانِ:

أحدهما- اسمُ الغلامِ.

و**الثاني**- معناهُ يا أيتها البشرى هذا حينكِ وأوانكِ. قالَ قتادةُ: بشرَ أصحابهُ بأنهُ وجدَ عبدًا. وقيل: نادى رجلًا اسمهُ بشرى.

قالَ النحاسُ: قولُ قتادةَ أولى، لأنهُ لمْ يأتِ في القرآنِ تسميةُ أحدٍ إلا يسيرًا، وإنما يأتي بالكنايةِ كما قالَ عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾ وهو عقبة بن أبي معيط، وبعده ﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ وهو أمية بن خلف، وهذا أصحُّ، لأنهُ لوْ كانَ اسمًا علمًا لمْ يكنْ مضافًا إلى ضميرِ المتكلمِ، وعلى هذا يكونُ ﴿بُشۡرَىٰ﴾ في موضعِ نصبٍ، لأنهُ نداءٌ مضافٌ، ومعنى النداءِ هاهنا التنبيهُ، أيِ انتبهوا لفرحتي وسروري.

﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ﴾ الهاءُ كنايةٌ عنْ يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأما الواوُ فكنايةٌ عنْ إخوتهِ. وقيل: عنِ التجارِ الذينَ اشتروهُ، وقيل: عنِ الواردِ وأصحابهِ. ﴿بِضَٰعَةٗۚ﴾ نصبَ على الحالِ، أسروه عن التجارِ الذين معهم وقالوا لهمْ: هوَ بضاعةٌ استبضعناها بعضَ أهلِ الشامِ أوْ أهلَ هذا الماءِ إلى مصرَ، وإنما قالوا هذا خيفةَ الشركةِ.

وقالَ ابنُ عباسٍ: أسرهُ إخوةُ يوسفَ بضاعةً لما استخرجَ منَ الجبِّ، وذلكَ أنهمْ جاءوا فقالوا: هذا عبدٌ لنا أبقَ، وقالوا ليوسفَ بالعبرانيةِ: إما أنْ تقرَّ لنا بالعبوديةِ فنبيعكَ منْ هؤلاءِ، وإما أنْ نأخذكَ فنقتلكَ، فأقرَّ لهمْ فباعوهُ منهمْ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾، فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ﴾ يقالُ: شريتُ بمعنى اشتريتُ، وشريتُ بمعنى بعتُ لغةٌ ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ أيْ نقصٍ، وهوَ هنا مصدرٌ وضعَ موضعَ الاسمِ، أيْ باعوهُ بثمنٍ مبخوسٍ، أيْ منقوصٍ. ولمْ يكنْ قصدُ إخوتهِ ما يستفيدونهُ منْ ثمنهِ، وإنما كانَ قصدهمْ ما يستفيدونهُ منْ خلوِّ وجهِ أبيهمْ عنهُ ﴿دَرَٰهِمَ﴾ على البدلِ والتفسيرُ لهُ ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ نعتٌ، وهذا يدلُّ على أنَّ الأثمانَ كانتْ تجري عندهمْ عدًا لا وزنًا بوزنٍ. وقيل: هوَ عبارةٌ عنْ قلةِ الثمنِ، لأنها دراهمُ لمْ تبلغْ أنْ توزنَ لقلتها، وذلكَ أنهمْ كانوا لا يزنونَ ما كانَ دونَ الأوقيةِ، وهيَ أربعونَ درهمًا.

الثانية: قالَ ابنُ العربيِّ: وأصلُ النقدينِ الوزنُ، قالَ ﷺ: «لا تبيعوا الذهبَ بالذهبِ ولا الفضةَ بالفضةِ إلا وزنًا بوزنٍ منْ زادَ أوِ ازدادَ فقدْ أربى». والزنةُ لا فائدةَ فيها إلا المقدارُ، فأما عينها فلا منفعةَ فيهِ، ولكنْ جرى فيها العدُّ تخفيفًا عنِ الخلقِ لكثرةِ المعاملةِ، فيشقُّ الوزنُ، حتى لوْ ضربَ مثاقيلَ أوْ دراهمَ لجازَ بيعُ بعضها ببعضٍ عدًا إذا لمْ يكنْ بها نقصانٌ ولا رجحانٌ، فإنْ نقصتْ عادَ الأمرُ إلى الوزنِ، ولأجلِ ذلكَ كانَ كسرها أوْ قرضها منَ الفسادِ في الأرضِ.

الثالثة: واختلفَ العلماءُ في الدراهمِ والدنانيرِ هلْ تتعينُ أمْ لا؟ وقدْ اختلفتِ الروايةُ في ذلكَ عنْ مالكٍ: فذهبَ أشهبُ إلى أنَّ ذلكَ لا يتعينُ، وهوَ الظاهرُ منْ قولِ مالكٍ، وبهِ قالَ أبو حنيفةَ. وذهبَ ابنُ القاسمِ إلى أنها تتعينُ، وبهِ قالَ الشافعيُّ. وفائدةُ الخلافِ أنا إذا قلنا لا تتعينُ فإذا قالَ: بعتكَ، هذهِ الدنانيرَ بهذهِ الدراهمِ تعلقتِ الدنانيرُ بذمةِ صاحبها، والدراهمُ بذمةِ صاحبها، ولوْ تعينتْ ثمَّ تلفتْ لمْ يتعلقْ بذمتهما شيء، وبطلَ العقدُ كبيعِ الأعيانِ منَ العروضِ وغيرها.

الرابعة: رويَ عنِ الحسنِ بنِ عليٍّ رضي الله عنهما أنهُ قضى، في اللقيطِ أنهُ حرٌّ، وقرأَ: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ وقدْ مضى، القولُ فيهِ.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾ قيلَ: المرادُ إخوتهُ. وقيل: السيارةُ. وقيل: الواردةُ، وعلى أيِّ تقديرٍ فلمْ يكنْ عندهمْ غبيطًا، لا عندَ الإخوةِ، لأنَّ المقصدَ زوالهُ عنْ أبيهِ لا مالهُ، ولا عندَ السيارةِ لقولِ الإخوةِ إنهُ عبدٌ أبَقَ منا - والزهدُ قلةُ الرغبةِ - ولا عندَ الواردةِ لأنهمْ خافوا اشتراكَ أصحابهمْ معهمْ، ورأوا أنَّ القليلَ منْ ثمنهِ في الانفرادِ أولى.

السادسة: في هذهِ الآيةِ دليلٌ واضحٌ على جوازِ شراءِ الشيءِ الخطيرِ بالثمنِ اليسيرِ، ويكونُ البيعُ لازمًا، ولهذا قالَ مالكٌ: لوْ باعَ درةً ذاتَ خطرٍ عظيمٍ بدرهمٍ ثمَّ قالَ لمْ أعلمْ أنها درةٌ لزمهُ البيعُ ولمْ يلتفتْ إلى قولهِ.

وقيل: ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾ أيْ في حسنهِ، لأنَّ اللهَ تعالى وإنْ أعطى يوسفَ شطرَ الحسنِ صرفَ عنهُ دواعي نفوسِ القومِ إليهِ إكرامًا لهُ. وقيل: ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾ لمْ يعلموا منزلتهُ عندَ اللهِ تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ قيلَ: الاشتراءُ هنا بمعنى الاستبدال، إذا لمْ يكنْ ذلكَ عقدًا، مثلُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾. وقيل: إنهمْ ظنوهُ في ظاهرِ الحالِ اشتراءً، فجرى هذا اللفظُ على ظاهرِ الظنِّ. قالَ الضحاكُ: هذا الذي اشتراهُ ملكُ مصرَ، ولقبهُ العزيزُ، وكانَ اللهُ ألقى محبةَ يوسفَ على قلبِ العزيزِ، فأوصى بهِ أهلهُ.

وقيل: هوَ فرعونُ موسى، لقولِ موسى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وأنهُ عاشَ أربعمائةِ سنةٍ. وقيل: فرعونُ موسى منْ أولادِ فرعونِ يوسفَ، على ما يأتي في «غافرٍ» بيانهُ.

وكانَ هذا العزيزُ الذي اشترى يوسفَ على خزائنِ الملكِ، وقيل إنَّ هذا الملكَ لمْ يمتْ حتى آمنَ واتبعَ يوسفَ على دينهِ.

﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ أيْ منزلهُ ومقامهُ بطيبِ المطعمِ واللباسِ الحسنِ، وهوَ مأخوذٌ منْ ثوى بالمكانِ أيْ أقامَ بهِ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ أيْ يكفينا بعضَ المهماتِ إذا بلغَ ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ قالَ ابنُ عباسٍ: كانَ حصورًا لا يولدُ لهُ، فإنْ قيل: كيفَ قالَ: ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ وهوَ

ملكهُ، والولديةُ معَ العبديةِ تتناقضُ؟ قيلَ لهُ: يعتقهُ ثمَّ يتخذهُ ولدًا بالتبني، وكانَ التبني في الأممِ معلومًا عندهمْ، وكذلكَ كانَ في أولِ الإسلامِ.

قالَ ابنُ مسعودٍ: أحسنُ الناسِ فراسةً ثلاثةٌ، العزيزُ حينَ تفرسَ في يوسفَ فقالَ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾، وبنتُ شعيبٍ حينَ قالتْ لأبيها في موسى ﴿ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾، وأبو بكرٍ حينَ استخلفَ عمرَ.

قالَ ابنُ العربيِّ: عجبًا للمفسرينَ في اتفاقهمْ على جلبِ هذا الخبرِ! والفراسةُ هيَ علمٌ غريبٌ على ما يأتي بيانهُ في سورةِ «الحجرِ» وليسَ كذلكَ فيما نقلوهُ، لأَنَّ الصديقَ إنما ولى عمرَ بالتجربةِ في الأعمالِ، والمواظبةِ على الصحبةِ وطولها، والاطلاعِ على ما شاهدَ منهُ منَ العلمِ والمنةِ، وليسَ ذلكَ منْ طريقِ الفراسةِ، وأما بنتُ شعيبٍ فكانتْ معها العلامةُ البينةُ على ما يأتي بيانهُ في «القصصِ»، وأما أمرُ العزيزِ فيمكنُ أنْ يجعلَ فراسةً، لأنهُ لمْ يكنْ معهُ علامةٌ ظاهرةٌ. واللهُ أعلمُ.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الكافُ في موضعِ نصبٍ، أيْ وكما أنقذناهُ منْ إخوتهِ ومنَ الجبِّ فكذلكَ مكنا لهُ، أيْ عطفنا عليهِ قلبَ الملكِ الذي اشتراهُ حتى تمكنَ منَ الأمرِ والنهيِ في البلدِ الذي هو مستولٍ عليهِ ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ أيْ فعلنا ذلكَ تصديقًا لقولِ يعقوبَ: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾. وقيل: المعنى مكناهُ لنوحيَ إليهِ بكلامٍ منا، ونعلمهُ تأويلهُ وتفسيرهُ، وتأويلَ الرؤيا، وتمَّ الكلامُ. ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ الهاءُ راجعةٌ إلى اللهِ تعالى، أيْ لا يغلب الله شيء، بل هو الغالب على أمر نفسهِ فيما يريدهُ أنْ يقولَ لهُ: كنْ فيكونُ. وقيل: ترجعُ إلى يوسفَ، أيِ اللهُ غالبٌ على أمرِ يوسفَ يدبرهُ ويحوطهُ ولا يكلهُ إلى غيرهِ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ أيْ لا يطلعونَ على غيبهِ. وقيل: المرادُ بالأكثرِ الجميعُ، لأنَّ أحدًا لا يعلمُ الغيبَ. وقيل: هوَ مجرى على ظاهرهِ، إذْ قدْ يطلعُ منْ يريدُ على بعضِ غيبهِ. وقيل: المعنى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنَّ اللهَ غالبٌ على أمرهِ، وهمُ المشركونَ ومنْ لا يؤمنُ بالقدرِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ ﴿أَشُدَّهُۥ﴾ عندَ سيبويهِ جمعٌ واحدهُ شِدةٌ. وقالَ الكسائيُّ: واحدهُ شَدٌّ، ومعناهُ استكمالُ القوةِ ثمَّ يكونُ النقصانُ بعدُ. وقيل: الأشدُّ ثلاثٌ وثلاثونَ سنةً. وقيل: الأشدُّ بلوغُ الحلمِ ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قيلَ: جعلناهُ المستولي على الحكمِ، فكانَ يحكمُ في سلطانِ الملكِ، أيْ وآتيناهُ علمًا بالحكم. وقالَ مجاهدٌ: العقلُ والفهمُ والنبوةُ. وقيل: الحكمُ النبوةُ، والعلمُ علمُ الدينِ، وقيل: علمُ الرؤيا، ومنْ قالَ: أوتيَ النبوةَ صبيًا قالَ: لما بلغَ أشدهُ زدناهُ فهمًا وعلمًا ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ يعني المؤمنينَ. وقيل: الصابرينَ على النوائبِ كما صبرَ يوسفُ، وقالَ الطبريُّ: هذا وإنْ كانَ مخرجهُ ظاهرًا على كلِّ محسنٍ فالمرادُ بهِ محمدٌ ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ وهيَ امرأةُ العزيزِ، طلبتْ منهُ أنْ يواقعها. وأصلُ المراودةِ الإرادةُ والطلبُ برفقٍ ولينٍ. يقالُ: فلانٌ يمشي رويدًا، أيْ برفقٍ ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ غلّقَ للكثيرِ ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أيْ هلمَّ وأقبلْ وتعالَ، ولا مصدرَ لهُ ولا تصريفَ. وفيها قراءات:

﴿هَيْتَ لَكَ﴾ وبها قرأَ أبو عمرو بنُ العلاءِ وعاصمٌ وحمزةُ والكسائي.

وقرأ ابنُ كثيرٍ «هَيْتُ لَكَ» بفتحِ الهاءِ وضمِّ التاءِ.

وقرأ أبو جعفرٍ وشيبةُ ونافعٌ «وَقَالَتْ هِيتَ لَكَ» بكسرِ الهاءِ وفتحِ التاءِ.

ورويَ عنْ عليٍّ وابنِ عباسٍ: «هِئتُ لَكَ» بكسرِ الهاءِ وبعدها همزةٌ ساكنةٌ والتاءُ مضمومةٌ.

وعنِ ابنِ عامرٍ وأهلِ الشامِ: «وَقَالَتْ هِئتَ» بكسرِ الهاءِ وبالهمزةِ وبفتحِ التاءِ.

والمعنى في قراءةِ أهلِ المدينةِ «هِيتَ» أيْ حسنتْ هيئتكَ، ويكونُ ﴿لَكَ﴾ منْ كلامٍ آخرَ، كما تقولُ: لكَ أعني.

ومنْ همزَ وضمَّ التاءَ فهوَ فعلٌ بمعنى تهيأتُ لكَ، وكذلكَ منْ قرأَ «هِيتُ لَكَ».

وقيل: ﴿هَيْتَ﴾ كلمةٌ بالسريانيةِ تدعوهُ إلى نفسها. وقيل: معناها بالقبطيةِ: هلمَّ لكَ.

وقيل: هيَ لغةٌ عربيةٌ تدعوهُ بها إلى نفسها، وهيَ كلمةُ حثٍّ وإقبالٍ على الأشياءِ.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أيْ أعوذُ باللهِ وأستجيرُ بهِ مما دعوتني إليهِ، وهوَ مصدرٌ، أيْ أعوذُ باللهِ معاذًا، فيحذفُ المفعولُ وينتصبُ المصدرُ بالفعلِ المحذوفِ، ويضافُ المصدرُ إلى اسمِ اللهِ كما يضافُ المصدرُ إلى المفعولِ، كما تقولُ: مررتُ بزيدٍ مرورَ عمرو أيْ كمروري بعمرو. ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ﴾ يعني زوجها، أيْ هوَ سيدي أكرمني فلا أخونهُ، وقيل: أيْ إنَّ اللهَ ربي تولاني بلطفهِ، فلا أرتكبُ ما حرمهُ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ واختلفَ العلماءُ في همهِ. ولا خلافَ أنَّ همها كانَ المعصيةَ، وأما يوسف فهم بها ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ ولكنْ لما رأى البرهانَ ما همَّ، وهذا لوجوبِ العصمةِ للأنبياءِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٢٤﴾ فإذًا في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، أيْ لو لا أنْ رأى برهانَ ربهِ همَّ بها. وقيل: همَّ بها أيْ بضربها ودفعها عنْ نفسهِ، والبرهانُ كفهُ عنِ الضربِ، إذْ لوْ ضربها لأوهمَ أنهُ قصدها بالحرامِ فامتنعتْ فضربها. وقيل: إنَّ همَّ يوسفَ كانَ معصيةً، وأنهُ جلسَ منها مجلسَ الرجلِ منَ امرأتهِ، وإلى هذا القولِ ذهبَ معظمُ المفسرينَ وعامتهمْ، قالوا: والانكفافُ في مثلِ هذهِ الحالةِ دالٌّ على الإخلاص، وأعظم للثواب.

قلتُ: وهذا كانَ سببَ ثناءِ اللهِ تعالى على ذي الكفلِ حسبَ ما يأتي بيانهُ في «ص» إنْ شاءَ اللهُ تعالى. وجوابُ ﴿لَوۡلَآ﴾ على هذا محذوف، أي لو لا أن رأى برهانَ ربهِ لأمضى ما همَّ بهِ، ومثلهُ ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ وجوابهُ لمْ تتنافسوا.

قالوا: الحكمةُ في ذلكَ أنْ يكونَ مثلًا للمذنبينَ ليروا أنَّ توبتهمْ ترجعُ إلى عفوِ اللهِ تعالى كما رجعتْ ممنْ هوَ خيرٌ منهمْ، ولمْ يوبقهُ القربُ منَ الذنبِ.

وقالَ الحسنُ: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لمْ يذكرْ معاصي الأنبياءِ ليعيرهمْ بها، ولكنهُ ذكرها لكيلا تيأسوا منَ التوبةِ.

قالَ ابنُ عطيةَ: الذي أقولُ بهِ في هذهِ الآيةِ إنَّ كونَ يوسفَ نبيًا في وقتِ هذهِ النازلةِ لمْ يصحَّ، ولا تظاهرتْ بهِ روايةٌ، وإذا كانَ كذلكَ فهوَ مؤمنٌ قدْ أوتيَ حكمًا وعلمًا، ويجوزُ عليهِ

الهمُّ الذي هوَ إرادةُ الشيءِ دونَ مواقعتهِ وأنْ يستصحبَ الخاطرَ الرديءَ على ما في ذلكَ منَ الخطيئةِ، وإنْ فرضناهُ نبيًا في ذلكَ الوقتِ فلا يجوزُ عليهِ عندي إلا الهمُّ الذي هو خاطر، ولا يصح عليه شيء مما ذكر من حل تكته ونحوهِ، لأنَّ العصمةَ معَ النبوةِ.

قلتُ: ما ذكرهُ منْ هذا التفصيل صحيح، لكن قول تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ يدلُّ على أنهُ كانَ نبيًا على ما ذكرناهُ، وهوَ قولُ جماعةٍ منَ العلماءِ، وإذا كانَ نبيًا فلمْ يبقَ إلا أنْ يكونَ الهمُّ الذي همَّ بهِ ما يخطرُ في النفسِ ولا يثبتُ في الصدرِ، وهوَ الذي رفعَ اللهُ فيهِ المؤاخذةَ عنِ الخلقِ، إذْ لا قدرةَ للمكلفِ على دفعهِ، ويكونُ قولهُ: ﴿۞وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ إنْ كانَ منْ قولِ يوسفَ - أيْ منْ هذا الهمِّ، أوْ يكونُ ذلكَ منهُ على طريقِ التواضعِ والاعترافِ، لمخالفةِ النفسِ لما زكيَ بهِ قبلُ وبرئَ، وقدْ أخبرَ اللهُ تعالى عنْ حالِ يوسفَ منْ حينِ بلوغهِ فقالَ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ على ما تقدمَ بيانهُ، وخبرُ اللهِ تعالى صدقٌ، ووصفهُ صحيحٌ، وكلامهُ حقٌّ، فقدْ عملَ يوسف بما علمه الله من تحريم الزنى ومقدماتهِ، وخيانةِ السيدِ والجارِ والأجنبيِّ في أهلهِ، فما تعرضَ لامرأةِ العزيزِ، ولا أجابَ إلى المراودةِ، بلْ أدبرَ عنها وفرَّ منها، حكمةً خصَّ بها، وعملًا بمقتضى ما علمهُ اللهُ. وفي صحيح مسلمٍ عنْ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «قالتِ الملائكةُ ربِّ ذاكَ عبدكَ يريدُ أنْ يعملَ سيئةً وهوَ أبصرُ بهِ فقالَ ارقبوهُ فإنْ عملها فاكتبوها لهُ بمثلها وإنْ تركها فاكتبوها لهُ حسنةً إنما تركها منْ جراي».

وقالَ ﷺ مخبرًا عنْ ربهِ: «إذا همَّ عبدي بسيئةٍ فلمْ يعملها كتبتْ حسنةً». فإنْ كانَ ما يهمُّ بهِ العبدُ منَ السيئةِ يكتبُ لهُ بتركها حسنةً فلا ذنبَ، وفي الصحيحِ: «إنَّ اللهَ تجاوزَ لأمتي عما حدثتْ بهِ أنفسها ما لمْ تعملْ أوْ تكلمْ بهِ» وقدْ تقدمَ.

قوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ ﴿أن﴾ في موضعِ رفعٍ أيْ لولا رؤيةُ برهانِ ربهِ والجوابُ محذوفٌ لعلمَ السامعِ، أيْ لكانَ ما كانَ. وهذا البرهانُ غيرُ مذكورٍ في القرآنِ، وبالجملةِ: فذلكَ البرهانُ آيةٌ منْ آياتِ اللهِ أراها اللهُ يوسفَ حتى قويَ إيمانهُ، وامتنعَ عنِ المعصيةِ.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾ الكافُ منْ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يجوزُ

أنْ تكونَ رفعًا، بأنْ يكونَ خبرَ ابتداءٍ محذوفٍ، التقديرُ: البراهينُ كذلكَ، ويكونُ نعتًا لمصدرٍ محذوفٍ، أيْ أريناهُ البراهينَ رؤيةً كذلكَ. والسوءُ الشهوةُ، والفحشاءُ المباشرة، وقيل: السوءُ خيانةُ صاحبِهِ، والفحشاءُ ركوبُ الفاحشةِ. وقيل: السوء عقوبة الملك العزيز.

وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو وابنُ عامرٍ «الْمُخْلِصِينَ» بكسرِ اللامِ، وتأويلها الذينَ أخلصوا طاعةَ اللهِ. وقرأ الباقونَ بفتحِ اللامِ، وتأويلها: الذينَ أخلصهمُ اللهُ لرسالتهِ، وقدْ كانَ يوسفُ ﷺ بهاتينِ الصفتينِ، لأنهُ كانَ مخلصًا في طاعةِ اللهِ تعالى، مستخلصًا لرسالةِ الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾. فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ قال العلماءُ: وهذا منَ اختصارِ القرآنِ المعجزِ الذي يجتمعُ فيهِ المعاني، وذلكَ أنهُ لما رأى برهانَ ربهِ هربَ منها فتعاديا، هيَ لتردهُ إلى نفسها، وهوَ ليهربَ عنها، فأدركتهُ قبلَ أنْ يخرجَ. ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ أيْ منْ خلفهِ، والاستباقُ طلبُ السبقِ إلى الشيءِ، ومنهُ السباقُ. والقدُّ القطعُ، وأكثرُ ما يستعملُ فيما كانَ طولًا، والقطُّ بالطاءِ يستعملُ فيما كانَ عرضًا. وحذفتِ الألفُ منَ ﴿ٱسْتَبَقَا﴾ في اللفظِ لسكونها وسكونِ اللامِ بعدها، كما يقالُ: جاءني عبدَ اللهِ في التثنيةِ، ومن العرب من يقول: جاءني عبدا اللهِ بإثباتِ الألفِ بغيرِ همزٍ، يجمعُ بينَ ساكنينِ، لأنَّ الثانيَ مدغمٌ، والأولَ حرفُ مدٍّ ولين. ومنهم من يقول: عبدا أللهِ بإثباتِ الألفِ والهمزِ، كما تقولُ في الوقفِ.

الثانية: في الآيةِ دليلٌ على القياسِ والاعتبارِ، والعملِ بالعرفِ والعادةِ، لما ذكرَ منْ قدِّ القميصِ مقبلًا ومدبرًا، وهذا أمرٌ انفردَ بهِ المالكيةُ في كتبهمْ، وذلكَ أنَّ القميصَ إذا جبذَ منْ خلفٍ تمزقَ منْ تلكَ الجهةِ، وإذا جبذَ منْ قدامَ تمزقَ منْ تلكَ الجهةِ، وهذا هوَ الأغلبُ.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ أيْ وجدا وصادف العزيزَ عندَ البابِ، والسيد الزوجُ، والقبطُ يسمونَه سيدا. فلما رأتْ زوجها طلبتْ وجهًا للحيلةِ وكادتْ فَـ ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ أيْ زنى ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ تقولُ: يضربُ ضربًا وجيعًا. وَ ﴿مَا جَزَآءُ﴾ ابتداءٌ، وخبرهُ ﴿أَن يُسْجَنَ﴾. ﴿أَوْ عَذَابٌ﴾ عطفٌ على موضعِ ﴿أَن يُسْجَنَ﴾ لأنَّ المعنى: إلا السجنُ. ويجوزُ أوْ عذابًا أليمًا بمعنى: أوْ يعذب عذابا أليما.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾. فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قالَ العلماءُ: لما برأتْ نفسها، ولمْ تكنْ صادقةً في حبهِ- لأنَّ منْ شأنِ المحبِّ إيثارَ المحبوبِ- قالَ: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾ نطقَ يوسفُ بالحقِّ في مقابلةِ بهتها وكذبها عليهِ.

الثانية: ﴿شَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ لأنهما لما تعارضا في القولِ احتاجَ الملكُ إلى شاهدٍ ليعلمَ الصادقَ منَ الكاذبِ، فشهدَ شاهدٌ منْ أهلها. أيْ حكمَ حاكمٌ منْ أهلها، لأنهُ حكمٌ منهُ وليسَ بشهادةٍ، وقدِ اختلفَ في هذا الشاهدِ على أقوالٍ أربعةٍ:

الأولُ- أنهُ طفلٌ في المهدِ تكلمَ، قالَ السهيليُّ: وهوَ الصحيحُ، للحديثِ الواردِ فيهِ عنِ النبيِّ ﷺ، وهوَ قولهُ: «لمْ يتكلمْ في المهدِ إلا ثلاثةٌ» وذكرَ فيهمْ شاهدُ يوسفَ.

الثاني- أنَّ الشاهدَ قدُّ القميصِ، وهوَ مجازٌ صحيحٌ منْ جهةِ اللغةِ، فإنَّ لسانَ الحالِ أبلغُ منْ لسانِ المقالِ، وقدْ تضيفُ العربُ الكلامَ إلى الجماداتِ وتخبرُ عنها بما هيَ عليهِ منَ الصفاتِ، وذلكَ كثيرٌ في أشعارها وكلامها، ومنْ أحلاهُ قولُ بعضهمْ: قالَ الحائطُ للوتدِ لمَ تشقني؟ قالَ لهُ: سلْ منْ يدقني. إلا أنَّ قولَ اللهِ تعالى بعدُ ﴿مِّنۡ أَهۡلِهَا﴾ يبطلُ أنْ يكونَ القميصَ.

الثالثُ- أنهُ خلقٌ منْ خلقِ اللهِ تعالى ليسَ بإنسيٍّ ولا بجنيٍّ، وهذا يرده قول تعالى: ﴿مِّنۡ أَهۡلِهَا﴾.

الرابعُ- أنهُ رجلٌ حكيمٌ ذو عقلٍ كانَ الوزيرُ يستشيرهُ في أمورهِ، وكانَ منْ جملةِ أهلِ المرأةِ.

والأشبهُ بالمعنى- واللهُ أعلمُ- أنْ يكونَ رجلًا عاقلًا حكيمًا شاورهُ الملكُ فجاءَ بهذهِ الدلالةِ، ولوْ كانَ طفلًا لكانتْ شهادتهُ ليوسفَ عليه السلام تغني عنْ أنْ يأتيَ بدليلٍ منَ العادةِ، لأنَّ كلامَ الطفلِ آيةٌ معجزةٌ، فكانتْ أوضحَ منَ الاستدلالِ بالعادةِ، وليسَ هذا بمخالفٍ للحديثِ «تكلمَ أربعةٌ وهمْ صغارٌ» منهمْ صاحبُ يوسفَ، يكونُ المعنى: صغيرًا ليسَ بشيخٍ، وسيأتي منْ تكلمَ في المهدِ منَ الصبيانِ في سورةِ «البروجِ» إنْ شاءَ اللهُ.

الثالثة: وإذا تنزلنا على أنْ يكونَ الشاهدُ طفلًا صغيرًا فلا يكونُ فيهِ دلالةٌ على العملِ بالأماراتِ كما ذكرنا، وإذا كانَ رجلًا فيصحُّ أنْ يكونَ حجةً بالحكمِ بالعلامةِ في اللقطةِ وكثيرٍ منَ المواضعِ، حتى قالَ مالكٌ في اللصوصِ: إذا وجدتْ معهمْ أمتعةٌ فجاءَ قومٌ فادعوها، وليستْ لهمْ بينةٌ فإنَّ السلطانَ يتلومُ لهمْ في ذلكَ، فإنْ لمْ يأتِ غيرهمْ دفعها إليهمْ.

وقالَ محمدٌ في متاعِ البيتِ إذا اختلفتْ فيهِ المرأةُ والرجلُ: إنَّ ما كانَ للرجالِ فهوَ للرجلِ، وما كانَ للنساءِ فهوَ للمرأةِ، وما كانَ للرجلِ والمرأةِ فهوَ للرجلِ. وكانَ شريحٌ وإياسُ بنُ معاويةَ يعملانِ على العلاماتِ في الحكوماتِ، وأصلُ ذلكَ هذهِ الآيةُ، واللهُ أعلمُ.

قوله تعالى: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ كانَ في موضعِ جزمٍ بالشرطِ.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ﴾ قيلَ: قالَ لها ذلكَ العزيزُ عندَ قولها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾. وقيل: قالهُ لها الشاهدُ. والكيدُ: المكرُ والحيلةُ ﴿إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨﴾ وإنما قالَ: ﴿عَظِيمٞ﴾ لعظمِ فتنتهنَّ واحتيالهنَّ في التخلصِ منْ ورطتهنَّ.

قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ﴾ القائلُ هذا هوَ الشاهدُ. وَ ﴿يُوسُفُ﴾ نداءٌ مفردٌ، أيْ يا يوسفُ، فحذفَ. ﴿أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ﴾ أيْ لا تذكرهُ لأحدٍ واكتمهُ. ثمَّ أقبلَ عليها فقالَ: وأنتَ ﴿ٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ﴾ يقولُ: استغفري زوجكِ منْ ذنبكِ لا يعاقبكِ ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ٢٩﴾ ولمْ يقلْ منَ الخاطئاتِ لأنهُ قصدَ الإخبارَ عنِ المذكرِ والمؤنثِ، فغلبَ المذكرَ، والمعنى: منَ الناسِ الخاطئينَ، أوْ منَ القومِ الخاطئينَ، مثلُ: ﴿إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ ﴿وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾. وقيل: إنَّ القائلَ ليوسفَ أعرضْ ولها استغفري زوجها الملكُ، وفيهِ قولانِ:

أحدهما– أنهُ لمْ يكنْ غيورًا، فلذلكَ، كانَ ساكنًا، وعدمُ الغيرةِ في كثيرٍ منْ أهلِ مصرَ موجودٌ.

الثاني– أنَّ اللهَ تعالى سلبهُ الغيرةَ وكانَ فيهِ لطفٌ بيوسفَ حتى كفيَ بادرتهُ وعفا عنها.

قوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ ويقالُ: ﴿نُسْوَةٌ﴾ بضمِّ النونِ، وهيَ قراءةٌ، والجمعُ الكثيرُ نساءٌ. ويجوزُ: وقالتْ نسوةٌ، وقالَ نسوةٌ، مثلُ قالتِ الأعرابُ وقالَ الأعرابُ، وذلكَ أنَّ القصةَ انتشرتْ في أهلِ مصرَ فتحدثَ النساءُ ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ الفتى في كلامِ العربِ الشابُّ، والمرأةُ فتاةٌ ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ قيلَ: شغفها غلبها. وقيل: دخلَ حبهُ في شغافها، والشغفُ باطنُ القلبِ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٠﴾ أيْ في هذا الفعلِ.

وقالَ: ﴿فَتَىٰهَا﴾ وهوَ فتى زوجها، لأنَّ يوسفَ كانَ عندهمْ في حكمِ المماليكِ، وكانَ ينفذُ أمرها فيهِ.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ أيْ بغيبتهنَّ إياها، واحتيالهنَّ في ذمها. وقيل: إنها أطلعتهنَّ واستأمنتهنَّ فأفشينَ سرها، فسميَ ذلكَ مكرًا. وقوله: ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ في الكلامِ حذفٌ، أيْ أرسلتْ إليهنَّ تدعوهنَّ إلى وليمةٍ لتوقعهنَّ فيما وقعتْ فيهِ ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ أيْ هيأتْ لهنَّ مجالسَ يتكئنَ عليها.

قولهُ تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ منَ العتادِ، وهوَ كلُّ ما جعلتهُ عدةً لشيءٍ. ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ مجلسًا، وأما قولُ جماعةٍ منْ أهلِ التفسيرِ إنهُ الطعامُ فيجوزُ على تقديرِ: طعامٌ متكأٌ، مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾، ودل على هذا الحذفُ ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ لأنَّ حضورَ النساءِ معهنَّ سكاكينُ إنما هوَ لطعامٍ يقطعُ بالسكاكينِ.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتُ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ بضمِّ التاءِ لالتقاءِ الساكنينِ، لأنَّ الكسرةَ تثقلُ إذا كانَ بعدها ضمةٌ، وكسرتِ التاءُ على الأصلِ ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ اختلفَ في معنى ﴿أَكْبَرْنَهُۥ﴾ فقيل: أعظمنهُ وهبنهُ، وقيل: أمنينَ وأمذينَ منَ الدهشِ، وقالَ الشاعرُ:

إذا ما رأينَ الفحلَ منْ فوقِ قارةٍ ... صهلنَ وأكبرنَ المنيَّ المدفقا

وقيل: معناهُ حضنَ منَ الدهشِ، قالَ الشاعرُ:

نأتي النساءَ على أطهارهنَّ ولا نأتي النساءَ إذا أكبرنَ إكبارًا

وأنكرَ ذلكَ أبو عبيدةَ وغيرهُ وقالوا: ليسَ ذلكَ في كلامِ العربِ، ولكنهُ يجوزُ أنْ يكنْ حضنَ منْ شدةِ إعظامهنَّ لهُ، وقدْ تفزعُ المرأةُ فتسقطُ ولدها أوْ تحيضُ.

قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ التقطيعُ يشيرُ إلى الكثرةِ، فيمكنُ أنْ ترجعَ الكثرةُ إلى واحدةٍ جرحتْ يدها في مواضع، ويمكن أن يرجع إلى عددهن.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أيْ معاذَاللهِ. وروى الأصمعيُّ عنْ نافعٍ أنهُ قرأَ كما قرأَ أبو عمرو بنُ العلاءِ. «وقلنَ حاشا للهِ» بإثباتِ الألفِ وهوَ الأصلُ، ومنْ حذفها جعلَ اللامَ في ﴿لِلَّهِ﴾ عوضًا منها، وقرأ الحسنُ «وَقُلْنَ حَاشْ لِلَّهِ» بإسكانِ الشينِ، وأصلُ الكلمةِ منَ الحاشيةِ، والحشا بمعنى الناحيةِ، تقولُ: كنتُ في حشا فلانٍ أيْ في ناحيتهِ، فقولكَ: حاشا لزيدٍ أيْ تنحى زيدٌ منْ هذا وتباعدَ عنهُ.

قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ قالَ الخليلُ وسيبويهِ: ﴿مَا﴾ بمنزلةِ ليسَ، تقولُ: ليسَ زيدٌ قائمًا، وَ ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ وَ ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾. وقال الكوفيون: لما حذفت الباء نصبتْ، وفي مصحفِ حفصةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «مَا هَذَا بِبَشَرٍ»، وذكرتِ النسوةُ أنَّ صورةَ يوسفَ أحسنُ منْ صورةِ البشرِ، بلْ هوَ في صورةِ ملكٍ، وقالَ اللهُ تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ والجمعُ بينَ الآيتينِ أنَّ قولهنَّ: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تبرئةٌ ليوسفَ عما رمتهُ بهِ امرأةُ العزيزِ منَ المراودةِ، أيْ بعدَ يوسفُ عنْ هذا، وقولهنَّ: ﴿لِلَّهِ﴾ أيْ لخوفهِ، أيْ براءةٌ للهِ منْ هذا، أيْ قدْ نجا يوسفُ منْ ذلك، فليس هذا من الصورة في شيء، والمعنى: أنهُ في التبرئةِ عنِ المعاصي كالملائكةِ، فعلى هذا لا تناقضَ. وقيل: المرادُ تنزيههُ عنْ مشابهةِ البشرِ في الصورةِ، لفرطِ جمالهِ.

وقولهُ: ﴿لِلَّهِ﴾ تأكيدٌ لهذا المعنى، فعلى هذا المعنى قالتِ النسوةُ ذلكَ ظنًا منهنَّ أنَّ صورة الملك أحسن، وما بلغهن قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ فإنهُ منْ كتابنا.

ورويَ عنِ الحسنِ: «ما هذا بِشِرى» بكسرِ الباءِ والشينِ، أيْ ما هذا عبدًا مشترى، أيْ ما

ينبغي لمثلِ هذا أنْ يباعَ، فوضعَ المصدرَ موضعَ اسمِ المفعولِ، كما قالَ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ أيْ مصيدهُ، وشبههُ كثيرٌ، وقراءةُ العامةِ أشبهُ، لأنَّ بعدهُ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ مبالغةٌ في تفضيلهِ في جنسِ الملائكةِ تعظيمًا لشأنهِ، ولأنَّ مثلَ ﴿بُشْرَىٰ﴾ يكتبُ في المصحفِ بالياءِ.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ لمّا رأتِ افتتانهنَّ بيوسفَ أظهرتْ عذرَ نفسها بقولها: ﴿لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ أيْ بحبهِ، وَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ بمعنى ﴿هَٰذَا﴾، وقيل: الهاء للحب، و ﴿ذَٰلِكَ﴾ على بابهِ، والمعنى: ذلكنَّ الحبُّ الذي لمتنني فيهِ، أيْ حبُّ هذا هوَ ذلك الحبُّ. واللومُ الوصفُ بالقبيحِ. ثمَّ أقرتْ وقالتْ: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي أمتنع، وسميتِ العصمةُ عصمةً لأنها تمنعُ منَ ارتكابِ المعصيةِ. وقيل: ﴿ٱسْتَعْصَمَ﴾ أيِ استعصى، والمعنى واحدٌ ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ﴾ عاودتهُ المراودةَ بمحضرٍ منهنَّ، وهتكتْ جلبابَ الحياءِ، ووعدتْ بالسجنِ إنْ لمْ يفعلْ، وإنما فعلتْ هذا حينَ لمْ تخشَ لومًا ولا مقالًا خلافَ أولِ أمرها إذْ كانَ ذلكَ بينهُ وبينها ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أيِ الأذلاءِ. وخطُّ المصحفِ ﴿وَلَيَكُونًا﴾ بالألفِ وتقرأُ بنونٍ مخففةٍ للتأكيدِ، ونونُ التأكيدِ تثقلُ وتخففُ، والوقفُ على قولهِ: ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ بالنونِ لأنها مثقلةٌ، وعلى ﴿لِيَكُونًا﴾ بالألفِ لأنها مخففةٌ، وهيَ تشبهُ نونَ الإعرابِ في قولكَ: رأيتُ رجلًا وزيدًا وعمرًا، ومثلهُ قولهُ: ﴿لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ ونحوها الوقفُ عليها بالألفِ، كقولِ الأعشى:

ولا تعبدِ الشيطانَ واللهَ فاعبدا

أيْ أرادَ فاعبدًا، فلما وقفَ عليهِ كانَ الوقفُ بالألفِ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ أيْ دخولُ السجنِ، فحذفَ المضافَ، ﴿أَحَبُّ إِلَىَّ﴾ أيْ أسهلُ عليَّ وأهونُ منَ الوقوعِ في المعصيةِ، لا أنَّ دخولَ السجنِ مما يحبُّ على التحقيقِ. وحكيَ أنَّ يوسفَ عليه السلام لما قالَ: ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ﴾ أوحى اللهُ إليهِ «يا يوسفُ! لوْ قلتَ العافيةُ أحبُّ إليَّ لعوفيتَ».

﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ أيْ كيدَ النسوانِ. وقيل: كيدُ النسوةِ اللاتي رأينهُ؟ فإنهنَّ أمرنهُ بمطاوعةِ امرأةِ العزيزِ، وقيل: طلبتْ كلُّ واحدةٍ أنْ تخلوَ بهِ للنصيحةِ في امرأةِ العزيزِ، والقصدُ بذلكَ أنْ تعذِلهُ في حقها.

وقيل: كيدُ امرأةِ العزيزِ فيما دعتهُ إليهِ منْ الفاحشةِ، وكنى عنها بخطابِ الجمعِ إما لتعظيمِ شأنها في الخطابِ، وإما ليعدلَ عنِ التصريحِ إلى التعريضِ. والكيدُ الاحتيالُ والاجتهادُ، ولهذا سميتِ الحربُ كيدًا لاحتيالِ الناسِ فيها.

﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ جوابُ الشرطِ، أيْ أملْ إليهنَّ، منْ صبا يصبو إذا مالَ واشتاقَ صبوًا وصبوةً، قالَ:

إلى هندَ صبا قلبي وهندٌ مثلها يُصبي

أيْ إنْ لمْ تلطفْ بي في اجتنابِ المعصيةِ وقعتُ فيها ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٣٣﴾ أيْ ممنْ يرتكبُ الإثمَ ويستحقُّ الذمَّ، أوْ ممنْ يعملُ عملَ الجهالِ، ودلَّ هذا على أنَّ أحدًا لا يمتنعُ عنْ معصيةِ اللهِ إلا بعونِ اللهِ، ودلَّ أيضًا على قبحِ الجهلِ والذمِّ لصاحبهِ.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ لما قالَ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ تعرضَ للدعاءِ، وكأنهُ قالَ: اللهمَّ اصرفْ عني كيدهنَّ، فاستجابَ لهُ دعاءهُ، ولطفَ بهِ وعصمهُ عنِ الوقوعِ في الزنى. ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ قيلَ: لأنهنَّ جمعٌ قدْ راودنهُ عنْ نفسهِ. وقيل: يعني كيدَ النساءِ. وقيل: يعني كيدَامرأةِ العزيزِ، على ماذكرَ في الآيةِ قبل، والعموم أولى ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٤﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ أيْ ظهر للعزيز وأهل مشورته ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أيْ علاماتِ براءةِ يوسفَ منْ قدِّ القميصِ منْ دبرٍ، وشهادةِ الشاهدِ، وحزِّ الأيدي، وقلةِ صبرهنَّ عنْ لقاءِ يوسفَ أنْ يسجنوهُ كتمانًا للقصةِ ألَّا تشيعَ في العامةِ، وللحيلولةِ بينهُ وبينها. وقيل: هيَ البركاتُ التي كانتْ تنفتحُ عليهمْ ما دامَ يوسفُ فيهمْ، والأولُ أصحُّ.

قوله تعالى: ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ﴾ في موضعِ الفاعلِ، أيْ ظهرَ لهمْ أنْ يسجنوهُ، وقيل: المعنى ثمَّ بدا لهمْ رأيٌ لمْ يكونوا يعرفونهُ، وحذفَ هذا لأنَّ في الكلامِ دليلًا عليهِ، وحذفَ أيضًا القولَ، أيْ قالوا: ليسجننهُ، واللامُ جوابٌ ليمينٍ مضمرٍ،، وهوَ فعلٌ مذكرٌ لا فعلٌ مؤنثٌ، ولوْ كانَ فعلًا مؤنثًا لكانَ ليسجنانهِ، ويدلُّ على هذا قولهُ ﴿لَهُمۡ﴾ ولمْ يقلْ لهنَّ، فكأنهُ أخبرَ عنِ النسوةِ وأعوانهنَّ فغلبَ المذكرَ، وقيل: كانَ سببُ حبسِ يوسفَ أنَّ امرأةَ العزيزِ شكتْ إليهِ أنهُ شهرها ونشرَ خبرها، فالضميرُ على هذا في ﴿لَهُمۡ﴾ للملكِ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ حِينٖ﴾ أيْ إلى مدةٍ غيرِ معلومةٍ، قالهُ كثيرٌ منَ المفسرينَ. وقالَ ابنُ عباسٍ: إلى انقطاعِ ما شاعَ في المدينةِ، وقدْ مضى في «البقرةِ» القولُ في الحينِ وما يرتبطُ بهِ منَ الأحكامِ.

وَ ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى إلى، كقولهِ: ﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾. وجعلَ اللهُ الحبسَ تطهيرًا ليوسفَ عليه السلام منْ همهِ بالمرأةِ. وكأنَّ العزيزَ وإنْ عرفَ براءةَ يوسفَ أطاعَ المرأةَ في سجنِه.

الرابعة: أكرهَ يوسفُ عليه السلام على الفاحشةِ بالسجنِ، وأقامَ خمسةَ أعوامٍ، وما رضيَ بذلكَ لعظيمِ منزلتهِ وشريفِ قدرهِ، ولوْ أكرهَ رجلٌ بالسجنِ على الزنى ما جازَ لهُ إجماعًا. فإنْ أكرهَ بالضربِ فقدِ اختلفَ فيهِ العلماءُ، والصحيحُ أنهُ إذا كان فادحا فإنه يسقط عنه إثم الزنى وحدهُ. وقدْ قالَ بعضُ علمائنا: إنهُ لا يسقطُ عنهُ الحدُّ، وهوَ ضعيفٌ، فإنَّ اللهَ تعالى لا يجمعُ على عبدهِ العذابينِ، ولا يصرفهُ بينَ بلاءينِ، فإنهُ منْ أعظمِ الحرجِ في الدينِ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ﴾ تثنيةُ فتى، وهوَ منْ ذواتِ الياءِ، وقولهمُ: الفتوُّ شاذٌّ.

ولعلَّ الفتى كانَ اسمًا للعبدِ في عرفهمْ، ولهذا قالَ: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ﴾. ويحتملُ أنْ يكونَ الفتى اسمًا للخادمِ وإنْ لمْ يكنْ مملوكًا. ويمكنُ أنْ يكونَ حبسهما معَ حبسِ يوسفَ أوْ بعدهُ أوْ قبلهُ، غيرَ أنهما دخلا معهُ البيتَ الذي كانَ فيهِ.

﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ أيْ عنبًا، وكانتْ رؤيا صدقٍ رأياها وسألاهُ عنها، ولذلكَ صدقَ تأويلها. وفي الصحيحُ عنْ أبي هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ: «أصدقكمْ رؤيا أصدقكمْ حديثًا»، وقيل: إنها كانتْ رؤيا كذبٍ سألاهُ عنها تجريبًا، وقيل: إنَّ المصلوبَ منهما كانَ كاذبًا، والآخرُ صادقًا، وروى الترمذيُّ عنِ ابنِ عباسٍ عنِ النبيِّ ﷺ: قالَ: «منْ تحلمَ كاذبًا كلفَ يومَ القيامةِ أنْ يعقدَ بينَ شعيرتينِ ولنْ يعقدَ بينهما». قالَ أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦﴾ فإحسانهُ، أنهُ كانَ يعودُ المرضى ويداويهمْ، ويعزي الحزانى، وقيل: ﴿مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أيِ العالمينَ الذينَ أحسنوا العلمَ، ﴿قَالَ﴾ لهما يوسفُ: ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾ منْ منزلكما ﴿إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ لتعلما أني أعلمُ تأويلَ رؤياكما، فقالا: افعلْ! فقالَ لهما: يجيئكما كذا وكذا، فكان على ما قال، وكانَ هذا منْ علمِ الغيبِ خصَّ بهِ يوسفَ. وبينَ أنَّ اللهَ خصهُ بهذا العلمِ لأنهُ تركَ ملةَ قومٍ لا يؤمنونَ باللهِ، يعني دينَ الملكِ، ولهذا لمْ يعبرْ لهما حتى دعاهما إلى الإسلامِ، فقالَ: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ الآيةَ كلها، على ما يأتي. وقيل: علمَ أنَّ أحدهما مقتولٌ فدعاهما إلى الإسلامِ ليسعدا بهِ. وقيل: إنَّ يوسفَ كرهَ أنْ يعبرَ لهما ما سألاهُ لما علمهُ منَ المكروهِ على أحدهما فأعرضَ عنْ سؤالهما، وأخذَ في غيرهِ فقالَ: ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ﴾ في النومِ ﴿إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا﴾ بتفسيرهِ في اليقظةِ.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾ لأنهمْ أنبياءُ على الحقِّ ﴿مَّا كَانَ﴾ أي ما ينبغي لنا ﴿لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ ﴿مِنۡ﴾ للتأكيد، كقولك: ما جاءني من أحد.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا﴾ إشارةٌ إلى عصمته من الزنى ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أيْ على المؤمنينَ الذينَ عصمهمُ اللهُ منَ الشركِ. وقيل: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا﴾ إذْ جعلنا أنبياءَ، ﴿وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ إذْ جعلنا الرسلَ إليهمْ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨﴾ على نعمة التوحيد والإيمان.

قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ أيْ يا ساكني السجنِ، وذكرَ الصحبةَ لطولِ مقامهما فيهِ، كقولك: أصحاب الجنة، وأصحاب النار ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ أيْ في الصغرِ والكبرِ والتوسطِ، أوْ متفرقونَ في العددِ ﴿خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾.

وقيل: الخطابُ لهما ولأهلِ السجنِ، وكانَ بينَ أيديهمْ أصنامٌ يعبدونها منْ دونِ اللهِ تعالى، فقالَ ذلكَ إلزامًا للحجةِ، أيْ: آلهةٌ لا تضرُّ ولا تنفعُ. ﴿خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ الذي قهرَ كلَّ شيءٍ. نظيره: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾. وقيل: أشارَ بالتفرقِ إلى أنهُ لوْ تعددَ الإلهُ لتفرقوا في الإرادةِ ولعلا بعضهمْ على بعضٍ، وبينَ أنها إذا تفرقتْ لمْ تكنْ آلهةٌ.

قوله تعالى: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ﴾ بينَ عجزَ الأصنامِ وضعفها فقالَ: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أيْ منْ دونِ اللهِ إلا ذواتِ أسماءٍ لا معانيَ لها ﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ منْ تلقاءِ أنفسكمْ. وقيل: عنى بالأسماءِ المسمياتِ، أيْ ما تعبدونَ إلا أصنامًا ليسَ لها من الإلهية شيءٌ إلا الاسمُ. وقالَ: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ وقدِ ابتدأَ بخطابِ الاثنينِ، لأنهُ قصدَ جميعَ منْ هوَ على مثلِ حالهما منَ الشركِ ﴿إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ فحذفَ المفعولَ الثانيَ للدلالةِ، والمعنى: سميتموها آلهةً منْ عندِ أنفسكمْ ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ذلكَ في كتابٍ ﴿مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ أيْ منْ حجةٍ ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ﴾ الذي هوَ خالقُ الكلِّ ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾. أيِ القويمُ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ﴾ أيْ قالَ للساقي: إنكَ تردُّ على عملكَ الذي كنتَ عليهِ منْ سقيِ الملكِ، وأما أنتَ فتدعى إلى ثلاثةِ أيامٍ فتصلبُ فتأكلُ الطيرُ منْ رأسكَ، قالَ: واللهِ ما رأيتُ شيئًا، قالَ: رأيتَ أوْ لمْ ترَ ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾. وحكى أهلُ اللغةِ أنَّ سقى وأسقى لغتانِ بمعنى واحدٍ، والذي عليهِ أكثرُ أهلِ اللغةِ أنَّ معنى سقاهُ ناولهُ فشربَ، أوْ صبَّ الماءَ في حلقهِ ومعنى أسقاهُ جعلَ لهُ سقيًا، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا﴾.

الثانية: قالَ علماؤنا: إنْ قيلَ منْ كذبَ في رؤياهُ ففسرها العابرُ لهُ أيلزمهُ حكمها؟ قلنا: لا يلزمهُ، وإنما كانَ ذلكَ في يوسفَ لأنهُ نبيٌّ، وتعبيرُ النبيِّ حكمٌ، وقدْ قالَ: إنهُ يكونُ كذا وكذا فأوجدَ اللهُ تعالى ما أخبرَ كما قالَ تحقيقًا لنبوتهِ.

فإن قيل: فقدْ روى عبدُ الرزاقِ عنْ معمرٍ عنْ قتادةَ قالَ: جاءَ رجلٌ إلى عمرَ بنِ الخطابِ فقالَ: إني رأيتُ كأني أعشبتُ ثمَّ أجدبتُ ثمَّ أعشبتُ ثمَّ أجدبتُ، فقالَ لهُ عمرُ: أنتَ رجلٌ تؤمنُ ثمَّ تكفرُ، ثمَّ تؤمنُ ثمَّ تكفرُ، ثمَّ تموتُ كافرًا، فقالَ الرجلُ: ما رأيتُ شيئًا، فقالَ لهُ عمرُ: قدْ قضيَ لكَ ما قضيَ لصاحبِ يوسفَ.

قلنا: ليستْ لأحدٍ بعدَ عمرَ، لأنَّ عمرَ كانَ محدثًا، وكانَ إذا ظنَّ ظنا كان وإذا تكلمَ بهِ وقعَ، على ما وردَ في أخبارهِ، وهيَ كثيرةٌ، منها- أنهُ دخلَ عليهِ رجلٌ فقالَ لهُ: أظنكَ كاهنًا فكانَ كما ظنَّ، خرجهُ البخاريُّ. ومنها- أنهُ سألَ رجلًا عنِ اسمهِ فقالَ لهُ فيهِ أسماءَ النارِ كلها، فقالَ لهُ: أدركْ أهلكَ فقدِ احترقوا، فكانَ كما قالَ: خرجهُ الموطأُ.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ﴾ ﴿ظَنَّ﴾ هنا بمعنى أيقنَ، في قولِ أكثرِ المفسرينَ وفسرهُ قتادةُ على الظنِّ الذي هوَ خلافُ اليقينِ، قالَ: إنما ظنَّ يوسفُ نجاتهُ لأنَّ العابرَ يظنُّ ظنا وربكَ يخلقُ ما يشاءُ، والأولُ أصحُّ وأشبهُ بحالِ الأنبياءِ وأنَّ ما قالهُ للفتيينِ في تعبيرِ الرؤيا كانَ عنْ وحيٍ، وإنما يكونُ ظنًا في حكمِ الناسِ.

الثانية: قولهُ تعالى: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ أيْ سيدكَ، وذلكَ معروفٌ في اللغةِ أنْ يقالَ للسيدِ ربٌّ، قالَ الأعشى:

ربي كريمٌ لا يكدرُ نعمةً وإذا تنوشدَ في المهارق أنشدا

وفي مسلمٍ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا يقلْ أحدكم اسق ربك أطعم ربك وضي ربكَ ولا يقلْ أحدكمْ ربي وليقلْ سيدي مولايَ ولا يقلْ أحدكمْ عبدي أمتي وليقلْ فتايَ فتاتي غلامي». وفي القرآنِ: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ أيْ صاحبي، يعني العزيزَ. ويقالُ لكلِّ منْ قام بإصلاح شيء وإتمامهِ: قدْ ربهُ يربهُ، فهوَ ربٌّ لهُ.

قال العلماء: قول ﷺ: «لا يقلْ أحدكمْ» «وليقلْ» منْ بابِ الإرشادِ إلى إطلاقِ اسم الأولى، لا أنَّ إطلاقَ ذلكَ الاسم محرمٌ، ولأنهُ قدْ جاءَ عنهُ ﷺ: «أنْ تلدَ الأمةُ ربها» أيْ مالكها وسيدها، وهذا موافقٌ للقرآنِ في إطلاقِ ذلكَ اللفظِ، فكانَ محلُّ النهيِ في هذا البابِ ألا نتخذَ هذهِ الأسماءَ عادةً فنتركُ الأولى والأحسنُ. وقدْ قيلَ: إنَّ قولَ الرجلِ عبدي وأمتي يجمعُ معنيينِ:

أحدهما- أنَّ العبوديةَ بالحقيقةِ إنما هيَ للهِ تعالى، ففي قولِ الواحدِ منَ الناسِ لمملوكهِ عبدي وأمتي تعظيمٌ عليهِ، وإضافةٌ لهُ إلى نفسهِ بما أضافهُ اللهُ تعالى بهِ إلى نفسهِ، وذلكَ غيرُ جائزٍ.

والثاني- أنَّ المملوكَ يدخلهُ من ذلك شيء في استصغارهِ بتلكَ التسميةِ، فيحملهُ ذلكَ

على سوءِ الطاعةِ.

وقيل: إنما قالَ ﷺ: «لا يقلِ العبدُ ربي وليقلْ سيدي» لأنَّ الربَّ منْ أسماءِ اللهِ تعالى المستعملةِ بالاتفاقِ، واختلفَ في السيدِ هلْ هوَ منْ أسماءِ اللهِ تعالى أمْ لا؟ فإذا قلنا ليسَ منْ أسماءِ اللهِ فالفرقُ واضحٌ، إذْ لا التباسَ ولا إشكالَ، وإذا قلنا إنهُ منْ أسمائهِ فليسَ في الشهرةِ ولا الاستعمالِ كلفظِ الربِّ، فيحصلُ الفرقُ.

وقالَ ابنُ العربيِّ: يحتملُ أنْ يكونَ ذلكَ جائزًا في شرعِ يوسفَ عليه السلام.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ الضميرُ في ﴿فَأَنسَىٰهُ﴾ فيهِ قولانِ:

أحدهما- أنهُ عائدٌ إلى يوسفَ عليه السلام، أيْ أنساهُ الشيطانُ ذكرَ اللهِ عزَّ وجلَّ، نسيَ في ذلكَ الوقتِ أنْ يشكوَ إلى اللهِ ويستغيث به، وجنح إلى الاعتصام بمخلوق، فعوقب باللبثِ.

وقيل: إنَّ الهاءَ تعودُ على الناجي، فهوَ الناسي، أيْ أنسى الشيطانُ الساقيَ أنْ يذكرَ يوسفَ لربهِ، أيْ لسيدهِ، وفيهِ حذفٌ، أيْ أنساهُ الشيطانُ ذكرهُ لربهِ، وقدْ رجحَ بعضُ العلماءِ هذا القولَ فقالَ: لولا أنَّ الشيطانَ أنسى يوسفَ ذكرَ اللهِ لما استحقَّ العقابَ باللبثِ في السجنِ، إذِ الناسي غيرُ مؤاخذٍ.

وأجابَ أهلُ القولِ الأولِ: بأنَّ النسيانَ قدْ يكونُ بمعنى التركِ، فلما تركَ ذكرَ اللهِ ودعاهُ الشيطانُ إلى ذلكَ عوقبَ.

ردَّ عليهمْ أهلُ القولِ الثاني بقولهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ فدلَّ على أنَّ الناسيَ هوَ الساقي لا يوسفُ، معَ قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ فكيفَ يصحُّ أنْ يضافَ نسيانهُ إلى الشيطانِ، وليسَ لهُ على الأنبياءِ سلطنةٌ؟!

قيلَ: أما النسيانُ فلا عصمةَ للأنبياءِ عنهُ إلا في وجهٍ واحدٍ، وهوَ الخبرُ عنِ اللهِ تعالى فيما يبلغونهُ، فإنهمْ معصومونَ فيهِ، وإذا وقعَ منهمُ النسيانُ حيثُ يجوزُ وقوعهُ فإنهُ ينسبُ إلى الشيطانِ إطلاقًا، وذلكَ إنما يكونُ فيما أخبرَ اللهُ عنهمْ، ولا يجوزُ لنا نحنُ ذلكَ فيهمْ، قالَ ﷺ: «نسيَ آدمُ فنسيتْ ذريتهُ». وقالَ: «إنما أنا بشرٌ أنسى كما تنسونَ».

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ البضعُ قطعةٌ منَ الدهرِ، والعربُ تستعملُ البضعَ فيما بينَ الثلاثِ إلى التسعِ.

الخامسة: في هذهِ الآيةِ دليلٌ على جوازِ التعلقِ بالأسبابِ وإنْ كانَ اليقينُ حاصلًا فإنَّ الأمورَ بيدِ مسببها، ولكنهُ جعلها سلسلةً، وركبَ بعضها على بعضٍ، فتحريكها سنةٌ، والتعويلُ على المنتهى يقينٌ. والذي يدلُّ على جوازِ ذلكَ نسبةُ ما جرى منَ النسيانِ إلى الشيطانِ كما جرى لموسى في لقيا الخضر، وهذا بين فتأملوه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾

لما دنا فرجُ يوسفَ ﷺ رأى الملكُ رؤياهُ، فجعلَ اللهُ الرؤيا أولًا ليوسفَ بلاءً وشدةً، وجعلها آخرًا بشرى ورحمةً، فهالتهُ الرؤيا، فأرسلَ إلى الناسِ وأهلِ العلمِ منهمْ والبصرِ بالكهانةِ والنجامةِ والعرافةِ والسحرِ، وأشرافِ قومهِ، فقص عليهم ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ حذفتِ الهاءُ منْ ﴿سَبْعَ﴾ فرقًا بينَ المذكرِ والمؤنثِ ﴿سِمَانٍ﴾ منْ نعتِ البقراتِ ﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ منْ عَجُفَ يعجفُ، على وزنِ عظمَ يعظمُ، ورويَ عجِفَ يعجَفُ على وزنِ حمد يحمد. ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ﴾ جمع الرؤيا رؤى: أيْ أخبروني بحكمِ هذهِ الرؤيا ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ العبارة مشتقة من عبور النهر، فمتى عبرت النهرَ بلغت شاطئهُ، فعابرُ الرؤيا يعبرُ بما يؤول إليه أمرها. واللام في ﴿لِلرُّءْيَا﴾ للتبيينِ، أيْ إنْ كنتمْ تعبرونَ، ثمَّ بينَ فقال: للرؤيا.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ المعنى: لمْ ترَ شيئًا لهُ تأويلٌ، إنما هيَ أضغاثُ أحلامٍ، أيْ أخلاطٌ. وواحدُ الأضغاثِ ضغثٌ، يقالُ لكلِّ مختلطٍ منْ بقلٍ أوْ حشيشٍ أوْ غيرهما ضغثٌ. أيْ قالوا: ليستْ رؤياكَ ببينةٍ، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ أي بتأويلِ الأحلامِ المختلطةِ، نفوا عنْ أنفسهمْ علمَ ما لا تأويلَ لهُ، لا أنهمْ نفوا عنْ أنفسهمْ علمَ التأويلِ. وقيل: نفوا عنْ أنفسهمْ علمَ التعبيرِ، ولهذا قالَ الساقي: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ فعلمَ أنَّ القومَ عجزوا عنِ التأويلِ، لا أنهمُ ادعوا ألا تأويلَ لها. وقيل: إنهمْ لمْ يقصدوا

تفسيرًا، وإنما أرادوا محوها منْ صدرِ الملكِ حتى لا تشغلَ بالهُ، وعلى هذا أيضا فعندهم علم.

و ﴿ٱلۡأَحۡلَٰمِ﴾ جمعُ حُلمٍ، والحُلمُ بالضمِّ ما يراهُ النائمُ، تقولُ منهُ: حلَمَ بالفتحِ واحتلمَ، وتقولُ: حلمتُ بكذا وحلمته، أصلهُ الأناةُ، ومنهُ الحِلمُ ضدَّ الطيشِ، فقيلَ لما يرى في النومِ حُلمٌ لأنَّ النومَ حالة أناة وسكون ودعه.

الثانية: في الآيةِ دليلٌ على بطلانِ قولِ منْ يقولُ: إنَّ الرؤيا على أولِ ما تعبرُ، لأنَّ القومَ قالوا: ﴿أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٍ﴾ ولمْ تقعْ كذلكَ، فإنَّ يوسفَ فسرها على سني الجدبِ والخصبِ، فكانَ كما عبرَ، وفيها دليلٌ على فسادِ أنَّ الرؤيا على رجلِ طائرٍ، فإذا عبرتْ وقعت.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا﴾ يعني ساقيَ الملكِ ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ أيْ تذكرَ حاجةَ يوسفَ، وهو قول: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾. ﴿بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ أيْ بعدَ حينٍ، ومنهُ ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ﴾، والأمةُ الجماعةُ الكثيرةُ منَ الناسِ.

ثمَّ قيلَ: نسيَ الفتى يوسفَ لقضاءِ اللهِ تعالى في بقائهِ في السجنِ مدةً. وقيل: ما نسيَ، ولكنهُ خافَ أنْ يذكرَ الملكُ الذنبَ الذي بسببهِ حبسَ هوَ والخبازُ، فقولهُ: ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ أيْ ذكرَ وأخبرَ. ثم قال: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ أيْ أنا أخبركمْ ﴿فَأَرۡسِلُونِ ٤٥﴾ خاطبَ الملكَ ولكنْ بلفظِ التعظيمِ، أوْ خاطبَ الملكَ وأهلَ مجلسهِ.

﴿يُوسُفُ﴾ نداءٌ مفردٌ، وكذا ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أيِ الكثيرُ الصدقِ ﴿أَفۡتِنَا﴾ أيْ فأرسلوهُ، فجاءَ إلى يوسفَ فقالَ: أيها الصديقُ! وسألهُ عنْ رؤيا الملكِ ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ أيْ إلى الملكِ وأصحابهِ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٤٦﴾ التعبيرَ، أوْ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ مكانكَ منَ الفضلِ والعلمِ فتخرجُ. ويحتملُ أنْ يريدَ بالناسِ الملكَ وحدهُ تعظيمًا له.

قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾ لما أعلمهُ بالرؤيا جعلَ يفسرها لهُ، فقالَ: السبعُ منَ البقراتِ السمانِ والسنبلاتِ الخضرِ سبعُ سنين مخصبات، وأما البقرات العجاف والسنبلاتُ اليابساتُ فسبعُ سنينَ مجدباتٍ، فذلكَ قولهُ: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أيْ متواليةً متتابعةً، وهوَ مصدرٌ على غيرِ المصدرِ، لأنَّ معنى ﴿تَزْرَعُونَ﴾ تدأبونَ كعادتكمْ في الزراعةِ سبعَ سنينَ. وقيل: هوَ حالٌ، أيْ دائبينَ. وقيل: صفةٌ لسبعِ سنينَ، أيْ دائبةً. وحكى أبو حاتمٍ عنْ يعقوبَ «دَأَبًا» بتحريكِ الهمزةِ، وكذا روى حفصٌ عنْ عاصمٍ، والباقون ﴿دَأْبًا﴾ بإسكان الهمزة، وهما لغتانِ، وفي قراءة التحريك قولانِ:

أنهُ منْ دئبَ. قالَ النحاسُ: ولا يعرفُ أهلُ اللغةِ إلا دأبَ.

والقولُ الآخرُ- إنهُ حُركَ لأنَّ فيهِ حرفًا منْ حروفِ الحلقِ.

﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ قيلَ: لئلا يتسوسُ، وليكونَ أبقى، وهكذا الأمر في ديارِ مصرَ ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ٤٧﴾ أي استخرجوا ما تحتاجونَ إليهِ بقدرِ الحاجةِ، وهذا القولُ منهُ أمرٌ، والأولُ خبرٌ. ويحتملُ أنْ يكونَ الأولُ أيضًا أمرًا، وإنْ كانَ الأظهرُ منهُ الخبرَ، فيكونُ معنى: ﴿تَزْرَعُونَ﴾ أيِ ازرعوا.

الثانية: هذهِ الآيةُ أصلٌ في القولِ بالمصالحِ الشرعيةِ التي هيَ حفظُ الأديانِ والنفوسِ والعقولِ والأنسابِ والأموالِ، فكلُّ ما تضمنَ تحصيلَ شيءٍ منْ هذهِ الأمورِ فهوَ مصلحةٌ، وكلُّ ما يفوتُ شيئًا منها فهوَ مفسدةٌ، ودفعهُ مصلحةٌ، ولا خلافَ أنَّ مقصودَ الشرائعِ إرشادُ الناسِ إلى مصالحهمُ الدنيويةِ، ليحصلَ لهمُ التمكنُ منْ معرفةِ اللهِ تعالى وعبادتهِ الموصلتينِ إلى السعادةِ الأخرويةِ، ومراعاةُ ذلكَ فضلٌ منَ اللهِ عزَّ وجلَّ ورحمةٌ رحمَ بها عبادهُ، منْ غيرِ وجوبٍ عليهِ، ولا استحقاقٍ، هذا مذهبُ كافةِ المحققينَ منْ أهلِ السنةِ أجمعينَ، وبسطهُ في أصول الفقه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ يعني السنينَ المجدباتِ ﴿يَأْكُلْنَ﴾ مجازٌ، والمعنى يأكلُ أهلهنَّ ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أيْ ما ادخرتمْ لأجلهنَّ، ونحوهُ قولُ القائلِ:

نهارُكَ يا مغرورُ سهوٌ وغفلةٌ … وليلُكَ نومٌ والردى لكَ لازمُ

والنهارُ لا يسهو، والليلُ لا ينامُ، وإنما يسهى في النهارِ، وينامُ في الليلِ.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ نصبَ على الاستثناءِ ﴿مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أيْ مما تحبسونَ لتزرعوا، وقيل: ﴿تُحْصِنُونَ﴾ تدخرونَ، والمعنى واحدٌ، وهوَ يدلُّ على جوازِ احتكارِ الطعامِ إلى وقتِ الحاجةِ.

الثانية: هذهِ الآيةُ أصلٌ في صحةِ رؤيا الكافرِ، وأنها تخرجُ على حسبِ ما رأى، لا سيما إذا تعلقتْ بمؤمنٍ، فكيفَ إذا كانتْ آيةً لنبيٍّ.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ﴾ هذا خبرٌ منْ يوسفَ عليه السلام عما لمْ يكنْ في رؤيا الملكِ، ولكنهُ منْ علمِ الغيبِ الذي آتاهُ اللهُ. قالَ قتادةُ: زادهُ اللهُ علمَ سنةٍ لمْ يسألوه عنها إظهارًا لفضلِهِ، وإعلامًا لمكانهِ منَ العلمِ وبمعرفتهِ ﴿فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ منَ الإغاثةِ أوِ الغوث، أي يمطرونَ ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ الأعنابَ خمرًا والسمسمَ دهنًا والزيتونَ زيتًا. وقيل: أرادَ حلبَ الألبانِ لكثرتها، ويدلُّ ذلكَ على كثرةِ النباتِ.

وقرأ عيسى «تُعْصَرُونَ» بضمِّ التاءِ وفتحِ الصادِ، ومعناهُ: تُمطرونَ، منْ قولِ اللهِ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَاتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ وكذلكَ معنى «تُعْصِرُونَ» بضمِّ التاءِ وكسرِ الصادِ، فيمن قرأه كذلك.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ أيْ فذهبَ الرسولُ فأخبرَ الملكَ، فقالَ: ائتوني بهِ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ أيْ يأمرهُ بالخروجِ قالَ: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ أيْ حالُ النسوةِ ﴿ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فأبى أنْ يخرجَ إلا أنْ تصحَّ براءتهُ عندَ الملكِ مما قذفَ بهِ، وأنهُ حبسَ بلا جرمٍ.

وروى البخاريُّ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «يرحمُ اللهُ لوطًا لقدْ كانَ يأوي إلى ركنٍ شديدٍ، ولوْ لبثتُ في السجنِ ما لبثَ يوسفَ لأجبتُ الداعيَ ونحنُ أحقُّ منْ إبراهيمَ إذْ قالَ لهُ ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾ ذكرَ النساءَ جملةً ليدخلَ فيهنَّ امرأةُ العزيزِ مدخلَ العمومِ بالتلويحِ حتى لا يقعَ عليها تصريحٌ، وذلكَ حسنُ عشرةٍ وأدبٍ، وفي الكلامِ محذوفٌ، أيْ فاسألهُ أنْ يتعرفَ ما بالُ النسوةِ. قالَ ابنُ عباسٍ: فأرسلَ الملكُ إلى النسوةِ وإلى امرأةِ العزيزِ وكانَ قدْماتَ العزيزُ فدعاهنَّ فَ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾ أيْ ما شأنكنَّ ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ﴾ وذلكَ أنَّ كلَّ واحدةٍ منهنَّ كلمتْ يوسفَ في حقِّ نفسها، على ما تقدمَ، أوْ أرادَ قولَ كلِّ واحدةٍ: قدْ ظلمتَ امرأةَ العزيزِ، فكانَ ذلكَ مراودةٌ منهنَّ ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أيْ معاذَ اللهِ ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ﴾ أي زنى ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ لما رأتْ إقرارهنَّ ببراءةِ يوسفَ، وخافتْ أنْ يشهدنَ عليها إنْ أنكرتْ أقرتْ هيَ أيضًا، وكانَ ذلكَ لطفًا منَ اللهِ بيوسفَ. وَ ﴿حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أيْ تبينَ وظهرَ، وأصلهُ حصصَ، فقيلَ: حصحصَ، كما قالَ: كبكبوا في كُببوا، وكفكفَ في كَففَ.

وأصلُ الحصِّ استئصالُ الشيءِ، يقالُ: حصَّ شعرهُ إذا استأصلهُ جزًا، وقيل: هوَ مشتقٌّ منَ الحصةِ، فالمعنى: بانتْ حصةُ الحقِّ منْ حصةِ الباطلِ.

﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١﴾ وهذا القولُ منها -وإنْ لمْ يكنْ سألَ عنهُ- إظهارٌ لتوبتها وتحقيقٌ لصدقِ يوسفَ وكرامتهِ، لأنَّ إقرارَ المقرِّ على نفسهِ أقوى منَ الشهادةِ عليهِ، فجمعَ اللهُ تعالى ليوسفَ لإظهارِ صدقهِ الشهادةَ والإقرارَ، حتى لا يخامرَ نفسًا ظنٌّ، ولا يخالطها شكٌّ. وشددتِ النونُ في ﴿خَطْبُكُنَّ﴾ وَ ﴿رَٰوَدتُّنَّ﴾ لأنها بمنزلة

الميم والواو في المذكر.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ اختلفَ فيمنْ قالهُ، فقيلَ: هوَ منْ قولِ امرأةِ العزيزِ، وهوَ متصلٌ بقولها: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ﴾ أيْ أقررتُ بالصدقِ ليعلمَ أني لمْ أخنهُ بالغيبِ أيْ بالكذبِ عليهِ، ولمْ أذكرهُ بسوءٍ وهوَ غائبٌ، بلْ صدقتُ وحدتُ عنِ الخيانةِ، ثمَّ قالتْ: ﴿۞وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ بلْ أنا راودتهُ، وعلى هذا هيَ كانتْ مقرةً بالصانعِ، ولهذا قالتْ: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾.

وقيل: هوَ منْ قولِ يوسفَ، أيْ قالَ يوسفُ: ذلكَ الأمر الذي فعلتهُ، منْ ردِّ الرسولِ ﴿لِّيَعۡلَمَ﴾ العزيزُ ﴿أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾، ومعنى: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ وهوَ غائبٌ. وإنما قالَ يوسفُ ذلكَ بحضرةِ الملكِ، وقالَ: ﴿لِّيَعۡلَمَ﴾ على الغائبِ توقيرًا للملكِ. وقيل: قالهُ إذْ عادَ إليهِ الرسولُ وهوَ في السجنِ بعدُ.

قوله تعالى: ﴿۞وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ قيلَ: هوَ منْ قولِ المرأةِ. وقيل: قولهُ: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ﴾ وقولهُ: ﴿۞وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ منْ قولِ يوسفَ.

قلتُ: إذا احتملَ أنْ يكونَ منْ قولِ المرأةِ فالقولُ بهِ أولى حتى نبرئَ يوسفَ منْ حلِّ الإزارِ والسراويلِ، وإذا قدرناهُ منْ قولِ يوسفَ فيكونُ مما خطرَ بقلبهِ، على ما قدمناهُ منَ القولِ المختارِ في قولهِ: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾. أو كرهَ نبيُّ اللهِ أنْ يكونَ قدْ زكى نفسهُ فقالَ: ﴿۞وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ لأنَّ تزكيةَ النفسِ مذمومةٌ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾ لما ثبتَ للملكِ براءتهُ مما نسبَ إليهِ، وتحققَ في القصةِ أمانتهُ، وفهمَ أيضًا صبرهُ وجلدهُ عظمتْ منزلتهُ عندهُ، وتيقنَ حسنَ خلالهِ قالَ: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾ فانظرْ إلى قولِ الملكِ أولًا - حينَ تحققَ علمهُ - ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦ﴾ فقطْ، فلما فعلَ يوسفُ ما فعلَ ثانيًا قالَ: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ﴾ فقالَ: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤﴾ قالَ لهُ يوسفُ: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ﴾ للخزائنِ ﴿عَلِيمٞ﴾ بوجوهِ تصرفاتها. وقيل: حافظٌ للحسابِ، عليمٌ بالألسنِ.

وقوله تعالى: ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ جزمَ لأنهُ جوابُ الأمر، وهذا يدلُّ على أنَّ قولهُ: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ جرى في السجنِ. ويحتملُ أنهُ جرى عندَ الملكِ ثمَّ قالَ في مجلس آخر: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ﴾ تأكيدًا ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أيْ أجعلهُ خالصًا لنفسي، أفوضُ إليهِ أمرَ مملكتي، فذهبوا فجاءوا بهِ، ودل على هذا: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ أيْ كلمَ الملكُ يوسفَ، وسألهُ عنِ الرؤيا فأجابَ يوسفُ، فَـ ﴿قَالَ﴾ الملكُ: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ أيْ متمكنٌ نافذ القول، ﴿أَمِينٌ﴾ لا تخاف غدرًا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ قالَ سعيدُ بنُ منصورٍ: سمعتُ مالكَ بنَ أنسٍ يقولُ: مصرُ خزانةُ الأرضِ، أما سمعتَ إلى قولهِ: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ أيْ على حفظها، فحذفَ المضافَ ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ لما وليتُ ﴿عَلِيمٌ﴾ بأمرهِ.

الثانية: قالَ بعضُ أهلِ العلمِ: في هذهِ الآيةِ ما يبيحُ للرجلِ الفاضلِ أنْ يعملَ للرجلِ الفاجرِ، والسلطانِ الكافرِ، بشرطِ أنْ يعلمَ أنهُ يفوضُ إليهِ في فعلٍ لا يعارضهُ فيهِ، فيصلحُ منهُ ما شاءَ، وأما إذا كانَ عملهُ بحسبِ اختيارِ الفاجرِ وشهواتهِ وفجورهِ فلا يجوزُ ذلكَ.

وقالَ قومٌ: إنَّ هذا كانَ ليوسفَ خاصةً، وهذا اليومُ غيرُ جائزٍ، والأولُ أولى إذا كانَ على الشرطِ الذي ذكرناهُ. واللهُ أعلمُ.

قالَ الماورديُّ: فإنْ كانَ المولي ظالمًا فقدِ اختلفَ الناسُ في جوازِ الولايةِ منْ قبلهِ على قولينِ:

أحدهما- جوازها إذا عملَ بالحقِّ فيما تقلدهُ، لأنَّ يوسفَ وليَ منْ قبلِ فرعونَ، ولأنَّ الاعتبارَ في حقهِ بفعلهِ لا بفعلِ غيرهِ.

الثاني- أنهُ لا يجوزُ ذلكَ، لما فيهِ منْ تولي الظالمينَ بالمعونةِ لهمْ، وتزكيتهمْ بتقلدِ أعمالهمْ، فأجابَ منْ ذهبَ إلى هذا المذهبِ عنْ ولايةِ يوسفَ منْ قبلِ فرعونَ بجوابينِ:

أحدهما- أنَّ فرعونَ يوسفَ كانَ صالحًا، وإنما الطاغي فرعونُ موسى.

الثاني- أنهُ نظرَ في أملاكهِ دونَ أعمالهِ، فزالتْ عنهُ التبعةُ فيهِ.

قالَ الماورديُّ: والأصحُّ منْ إطلاقِ هذينَ القولينِ أنْ يفصلَ ما يتولاهُ منْ جهةِ الظالمِ على ثلاثةِ أقسامٍ:

أحدها- ما يجوزُ لأهلهِ فعلهُ منْ غيرِ اجتهادٍ في تنفيذهِ كالصدقاتِ والزكواتِ، فيجوزُ توليهِ منْ جهةِ الظالمِ، لأنَّ النصَّ على مستحقهِ قدْ أغنى عنِ الاجتهادِ فيهِ، وجوازُ تفردِ أربابهِ بهِ قدْ أغنى عنِ التقليدِ.

والقسمُ الثاني- ما لا يجوزُ أنْ يتفردوا بهِ ويلزمُ الاجتهادُ في مصرفهِ كأموالِ الفيءِ، فلا يجوزُ توليهِ منْ جهةِ الظالمِ، لأنهُ يتصرفُ بغيرِ حقٍّ، ويجتهدُ فيما لا يستحقُّ.

والقسمُ الثالثُ- ما يجوزُ أنْ يتولاهُ لأهلهِ، وللاجتهادِ فيهِ مدخلٌ كالقضايا والأحكامِ، فعقدُ التقليدِ محلولٌ، فإنْ كانَ النظرُ تنفيذًا للحكمِ بينَ متراضيينِ، وتوسطًا بينَ مجبورينِ جازَ، وإنْ كانَ إلزامُ إجبارٍ لمْ يجزْ.

الثالثة: ودلتِ الآيةُ أيضًا على جوازِ أنْ يخطبَ الإنسانُ عملًا يكونُ لهُ أهلًا، فإن قيل: فقدْ روى مسلمٌ عنْ عبدِ الرحمنِ بنِ سمرةَ قالَ: قالَ لي رسولُ اللهِ ﷺ: «يا عبدَ الرحمنِ لا تسألِ الإمارةَ فإنكَ إنْ أعطيتها عنْ مسألةٍ وكلتَ إليها وإنْ أعطيتها عنْ غيرِ مسألةٍ أعنتَ عليها». وعنْ أبي بردةَ قالَ: قالَ أبو موسى: أقبلتُ إلى النبيِّ ﷺ ومعي رجلانِ منَ الأشعريينَ، أحدهما عنْ يميني والآخرُ عنْ يساري، فكلاهما سألَ العملَ، والنبيُّ ﷺ يستاكُ، فقالَ: «ما تقولُ يا أبا موسى- أوْ يا عبدَ اللهِ بنَ قيسٍ». قالَ قلتُ: والذي بعثكَ بالحقِّ ما أطلعاني علما في أنفسهما، وما شعرتُ أنهما يطلبانِ العملَ، قالَ: وكأني أنظرُ إلى سواكهِ تحتَ شفتهِ وقد قلصت، فقال: «لن- أو لا نستعملُ على عملنا منْ أرادهُ» وذكرَ الحديثَ، خرجهُ مسلمٌ أيضًا وغيرهُ؟

فالجوابُ:

أولًا- أنَّ يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إنما طلبَ الولايةَ لأنهُ علمَ أنهُ لا أحدَ يقومُ مقامهُ في العدلِ

والإصلاحِ وتوصيلِ الفقراءِ إلى حقوقهمْ فرأى أنَّ ذلكَ فرضٌ متعينٌ عليهِ فإنهُ لمْ يكنْ هناكَ غيرهُ، وهكذا الحكمُ اليومَ، لوْ علمَ إنسانٌ منْ نفسهِ أنهُ يقومُ بالحقِّ في القضاءِ أوِ الحسبةِ ولمْ يكنْ هناكَ منْ يصلحُ ولا يقومُ مقامهُ لتعينَ ذلكَ عليهِ، ووجبَ أنْ يتولاها ويسألُ ذلكَ، ويخبرُ بصفاتهِ التي يستحقها بهِ منَ العلمِ والكفايةِ وغيرِ ذلكَ، كما قالَ يوسفُ عليه السلام، فأما لوْ كانَ هناكَ منْ يقومُ بها ويصلحُ لها وعلمَ بذلكَ فالأولى ألا يطلبَ، لقول ﷺ لعبدِ الرحمنِ: «لا تسألِ الإمارةَ».

وأيضًا فإنَّ في سؤالها والحرصِ عليها معَ العلم بكثرة آفاتها وصعوبة التخلص منها دليل على أنهُ يطلبها لنفسهِ ولأغراضهِ، ومنْ كانَ هكذا يوشكُ أنْ تغلبَ عليهِ نفسهُ فيهلكُ، وهذا معنى قولهِ ﷺ: «وكلَ إليها» ومنْ أباها لعلمهِ بآفاتها، ولخوفهِ منَ التقصيرِ في حقوقها فرَّ منها، ثمَّ إنِ ابتليَ بها فيرجى لهُ التخلصُ منها، وهوَ معنى قولهِ: «أعينَ عليها».

الثاني- أنهُ لمْ يقلْ: إني حسيبٌ كريمٌ، وإنْ كانَ كما قالَ النبيُّ ﷺ: «الكريمُ ابنُ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريمِ يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ» ولا قالَ: إني جميلٌ مليحٌ، إنما قالَ: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥﴾ فسألها بالحفظِ والعلمِ، لا بالنسبِ والجمالِ.

الثالثُ- إنما قالَ ذلكَ عندَ منْ لا يعرفهُ فأرادَ تعريفَ نفسهِ، وصارَ ذلكَ مستثنى، منْ قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾.

الرابعُ- أنهُ رأى ذلكَ فرضًا متعينًا عليهِ، لأنهُ لمْ يكنْ هنالكَ غيرهُ، وهوَ الأظهرُ، واللهُ أعلمُ.

الرابعة: ودلتِ الآيةُ أيضًا على أنهُ يجوزُ للإنسانِ أنْ يصفَ نفسهُ بما فيهِ منْ علمٍ وفضلٍ، قالَ الماورديُّ: وليسَ هذا على الإطلاقِ في عمومِ الصفاتِ، ولكنهُ مخصوصٌ فيما اقترنَ بوصلهِ، أوْ تعلقَ بظاهرٍ منْ مكسبٍ، وممنوعٌ منهُ فيما سواهُ، لما فيهِ منْ تزكيةٍ ومراءاةٍ، ولوْ ميزهُ الفاضلُ عنهُ لكانَ أليقَ بفضلهِ، فإنَّ يوسفَ دعتهُ الضرورةُ إليهِ لما سبقَ منْ حالهِ، ولما يرجو من الظفر بأهله.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ﴾ أيْ ومثلُ هذا الأنعام الذي أنعمنا عليهِ في تقريبِهِ إلى قلبِ الملكِ، وإنجائهِ منَ السجنِ مكنا لهُ في الأرضِ، أيْ أقدرناهُ على ما يريد.

وقال الكيا الطبري قول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ دليلٌ على إجازةِ الحيلةِ في التوصلِ إلى المباحِ، وما فيهِ الغبطةُ والصلاحُ، واستخراجُ الحقوقِ، ومثلهُ قول تعالى: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ﴾ وحديثُ أبي سعيدٍ الخدريِّ في عاملِ خيبرَ، والذي أداهُ منَ التمرِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ وما قالهُ. قلتُ: وهذا مردودٌ على ما يأتي.

يقالُ: مكنّاهُ ومكنا لهُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾.

قوله تعالى: ﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ﴾ أيْ بإحساننا، والرحمةُ النعمةُ والإحسانُ ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ أيْ ثوابهمْ. وقيل: يعني الصابرينَ، لصبرهِ في الجبِّ، وفي الرقِّ، وفي السجنِ، وصبرهِ عنْ محارمِ اللهِ عما دعتهُ إليهِ المرأةُ.

وقالَ الماورديُّ: واختلفَ فيما أوتيهُ يوسفُ منْ هذهِ الحالِ على قولينِ:

أحدهما- أنهُ ثوابٌ منَ اللهِ تعالى على ما ابتلاهُ.

الثاني- أنهُ أنعمَ اللهُ عليهِ بذلكَ تفضلاً منهُ عليهِ، وثوابهُ باقٍ على حالهِ في الآخرةِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ﴾ أيْ ما نعطيهِ في الآخرةِ خيرٌ وأكثرُ مما أعطيناهُ في الدنيا، لأنَّ أجرَ الآخرةِ دائمٌ، وأجرُ الدنيا ينقطعُ، وظاهرُ الآيةِ العمومُ في كلِّ مؤمنٍ متقٍ.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عليهِ فَعَرَفَهُمۡ﴾ أيْ جاءوا إلى مصرَ لما أصابهمُ القحطُ ليمتاروا، وهذا منَ اختصارِ القرآنِ المعجزِ ﴿وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٨﴾ لأنهمْ خلفوهُ صبيًا، ولمْ يتوهموا أنهُ بعدَ العبوديةِ يبلغُ إلى تلكَ الحالِ منَ المملكةِ، معَ طولِ المدةِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ يقالُ: جهزتُ القومَ تجهيزًا أيْ تكلفتُ لهمْ بجهازهمْ للسفرِ، وجهازُ العروسِ ما تحتاجُ إليهِ عندَ الإهداءِ إلى الزوجِ، وجوزَ بعضُ الكوفيينَ الجهازَ بكسرِ الجيمِ، والجهازِ في هذهِ الآيةِ الطعامُ الذي امتاروهُ منْ عندهِ، وكانَ معَ إخوةِ يوسفَ أحدَ عشرَ بعيرًا، وهمْ عشرةٌ، فقالوا ليوسفَ: إنَّ لنا أخًا تخلفَ عنا، وبعيرهُ معنا ﴿قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ إنْ كنتمْ صادقينَ، فأنا أرضى بذلكَ ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ أيْ أتمهُ ولا أبخسهُ، وأزيدكمْ حملَ بعيرٍ لأخيكمْ، وهو يحتمل وجهينِ:

أحدهما- أنهُ رخصَ لهمْ في السعرِ فصارَ زيادةً في الكيلِ.

و**الثاني**- أنهُ كالَ لهم بمكيال واف.

﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾، فيهِ وجهانِ:

أحدهما- أنهُ خيرُ المضيفينَ، لأنهُ أحسن ضيافتهم.

الثاني- وهوَ محتملٌ، أيْ خيرُ منْ نزلتمْ عليهِ منَ المأمونينَ.

وهوَ على التأويلِ الأولِ مأخوذٌ منَ النُزلِ وهوَ الطعامُ، وعلى الثاني منَ المنزلِ وهوَ الدارُ.

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾ توعدهمْ إنْ لمْ يأتوا بهِ. أي فلا أبيعكمْ شيئًا فيما بعدُ، لأنهُ قدْ وفاهمْ كيلهمْ في هذهِ الحالِ ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ أيْ لا أنزلكمْ عندي منزلةَ القريبِ، ولمْ يردْ أنهمْ يبعدونَ منهُ ولا يعودونَ إليهِ، لأنهُ على العودِ حثهمْ. وَ ﴿تَقْرَبُونِ﴾ في موضعِ جزمٍ بالنهيِ، فلذلكَ حذفتْ منهُ النونُ وحذفتِ الياءُ، لأنهُ رأسُ آيةٍ، ولوْ كانَ خبرًا لكانَ «تقربونَ» بفتحِ النونِ.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أيْ سنطلبهُ منهُ، ونسألهُ أنْ يرسلهُ معنا ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ أيْ لضامنونَ المجيءَ بهِ، ومحتالونَ في ذلكَ.

مسألةٌ- إنْ قيلَ: كيفَ استجازَ يوسفُ إدخالَ الحزنِ على أبيهِ بطلبِ أخيهِ؟ قيلَ لهُ: عنْ هذا أربعةُ أجوبةٍ:

أحدها - يجوزُ أنْ يكونَ اللهُ عزَّ وجلَّ أمرهُ بذلكَ ابتلاءً ليعقوبَ، ليعظمَ لهُ الثوابُ، فاتبعَ أمرهُ فيهِ.

الثاني - يجوزُ أنْ يكونَ أرادَ بذلكَ أنْ ينبهَ يعقوبَ على حالِ يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الثالثُ - لتتضاعفَ المسرةُ ليعقوبَ برجوعِ ولديهِ عليهِ.

الرابعُ - ليقدمَ سرورَ أخيهِ بالاجتماعِ معهُ قبلَ إخوتهِ، لميلِ كانَ منهُ إليهِ، والأول أظهر. والله أعلم.

قوله تعالى: «وَقَالَ لِفِتْيَتِهِ» هذهِ قراءةُ أهلِ المدينةِ وأبي عمرو وعاصمٍ في رواية أبي بكر، وقرأ سائرُ الكوفيينَ: ﴿لِفِتْيَٰنِهِ﴾، وهما لغتانِ جيدتانِ، مثلُ الصبيانِ والصبيةِ. ﴿ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ لجوازِ ألا تَسلمَ في الطريقِ. وقيل: إنما فعلَ ذلكَ ليرجعوا إذا وجدوا ذلكَ، لعلمهِ أنهمْ لا يقبلونَ الطعامَ إلا بثمنهِ. وقيلَ: ليستعينوا بذلكَ على الرجوعِ لشراءِ الطعامِ. وقيل: استقبحَ أنْ يأخذَ منْ أبيهِ وإخوتهِ ثمنَ الطعامِ. وقيل: ليروا فضلهُ، ويرغبوا في الرجوع إليه ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٦٢﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ لأنهُ قالَ لهمْ: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾ وأخبروهُ بما كانَ منْ أمرهمْ وإكرامهمْ ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ الأصلُ نكتالُ، فحذفتِ الضمةُ منَ اللامِ للجزمِ، وحذفتِ الألفُ لالتقاءِ الساكنينِ. وقراءةُ أهلِ الحرمينِ وأبي عمرو وعاصمٍ ﴿نَكْتَلْ﴾ بالنونِ، وقرأ سائرُ الكوفيينَ «يَكْتَلْ» بالياءِ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٦٣﴾ منْ أنْ ينالهُ سوءٌ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ أيْ قدْ فرطتمْ في يوسفَ فكيفَ آمنكمْ على أخيهِ! ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حِفْظًا﴾ نصبَ على البيانِ، وهذهِ قراءةُ أهلِ المدينةِ وأبي عمرو وعاصمٍ في رواية أبي بكر، وقرأ سائرُ الكوفيينَ: ﴿حَٰفِظًا﴾ على الحالِ، وفي هذا دليل على أنه أجابهم إلى إرسال معهمْ، ومعنى الآيةِ: حفظُ اللهِ لهُ خيرٌ منْ حفظكمْ إياهُ.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ﴾ ما استفهام في موضع نصب، والمعنى: أي شيء نطلبُ وراءَ هذا؟! وفّى لنا الكيلَ، وردَّ علينا الثمنَ، أرادوا بذلكَ أنْ يطيبوا نفسَ أبيهمْ.

وقيل: هيَ نافيةٌ، أيْ لا نبغي منكَ دراهمَ ولا بضاعةَ، ﴿هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ نجلب لهم الطعام، وقرأ السلميُّ بضمِّ النونِ، أيْ نُعينهمْ على الميرةِ ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾ أيْ حملُ بعيرٍ لبنيامين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿تُؤْتُونِ﴾ أيْ تعطوني ﴿مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أيْ عهدًا يوثقُ بهِ. قالَ السديُّ: حلفوا باللهِ ليردنهُ إليهِ ولا يسلمونهُ، واللامُ في ﴿لَتَأْتُنَّنِى﴾ لامُ القسمِ ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ﴾ إلا أنْ تهلكوا أوْ تموتوا ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾ أيْ حافظٌ للحلفِ. وقيل: حفيظٌ للعهدِ قائمٌ بالتدبيرِ والعدلِ.

الثانية: هذهِ الآيةُ أصلٌ في جوازِ الحمالةِ بالعينِ والوثيقةِ بالنفسِ، وقدِ اختلفَ العلماءُ في ذلكَ، فقالَ مالكٌ وجميعُ أصحابهِ وأكثرُ العلماءِ: هيَ جائزةٌ إذا كانَ المتحملُ بهِ مالًا وقدْ ضعفَ الشافعيُّ الحمالةَ بالوجهِ في المالِ، ولهُ قولٌ كقولِ مالكٍ.

وقالَ عثمانُ البتيُّ: إذا تكفلَ بنفسٍ في قصاصٍ أوْ جراحٍ فإنهُ إنْ لمْ يجئْ بهِ لزمهُ الديةُ وأرشُ الجراحِ، وكانتْ لهُ في مالِ الجاني، إذْ لا قصاصَ على الكفيلِ، فهذهِ ثلاثةُ أقوالٍ في الحمالةِ بالوجهِ.

والصوابُ تفرقةُ مالكٍ في ذلكَ، وأنها تكونُ في المالِ، ولا تكونُ في حدٍّ أوْ تعزيرٍ، على ما يأتي بيانه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾، فيهِ سبعُ مسائلَ:

الأولى: لما عزموا على الخروجِ خشيَ عليهِمُ العينَ، فأمرهمْ ألا يدخلوا مصرَ منْ بابٍ واحدٍ، وكانتْ مصرُ لها أربعةُ أبوابٍ، وإنما خافَ عليهِمُ العينَ لكونِهِمْ أحدَ عشرَ رجلًا لرجلٍ واحدٍ، وكانوا أهلَ جمالٍ وكمالٍ وبسطةٍ.

الثانية: إذا كانَ هذا معنى الآيةِ فيكونُ فيها دليلٌ على التحرزِ منَ العينِ، والعينُ حقٌّ، وقدْ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ العينَ لتدخلُ الرجلَ القبرَ والجملَ القدرَ». وفي تعوذهِ ﷺ: «أعوذُ بكلماتِ اللهِ التامةِ منْ كلِّ شيطانٍ وهامةٍ ومنْ كلِّ عينٍ لامةٍ» ما يدلُّ على ذلكَ.

وروى مالكٌ عنْ محمدِ بنِ أبي أمامةَ بنِ سهلِ بنِ حنيفٍ أنهُ سمعَ أباهُ يقولُ: اغتسلَ أبي سهلُ بن حنيف بالخرار فنزعَ جبةً كانتْ عليهِ، وعامرُ بنُ ربيعةَ ينظرُ، قالَ: وكانَ سهلٌ رجلًا أبيضَ حسنَ الجلدِ قالَ فقالَ لهُ عامرُ بنُ ربيعةَ: ما رأيتُ كاليومِ ولا جلدَ عذراءَ! فوعكَ سهلٌ مكانهُ واشتدَّ وعكهُ، فأُتي رسولَ اللهِ ﷺ فأخبرَ أنَّ سهلًا وعكَ، وأنهُ غيرُ رائحٍ معكَ يا رسولَ اللهِ، فأتاهُ رسولِ اللهِ ﷺ، فأخبرهُ سهلٌ بالذي كانَ منْ شأنِ عامرٍ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «علامَ يقتلُ أحدكمْ أخاهُ ألا بركتَ إنَّ العينَ حقٌّ توضأْ لهُ» فتوضأَ عامرٌ، فراحَ سهلٌ معَ رسولِ اللهِ ﷺ ليسَ بهِ بأسٌ، في روايةٍ «اغتسلَ» فغسلَ لهُ عامرٌ وجههُ ويديهِ ومرفقيهِ وركبتيهِ وأطرافَ رجليهِ وداخلَ إزارهِ في قدحٍ ثمَّ صبَّ عليهِ، فراحَ سهلٌ معَ رسولِ اللهِ ﷺ ليسَ بهِ بأسٌ.

وركبَ سعدُ بنُ أبي وقاصٍ يومًا فنظرتْ إليهِ امرأةٌ فقالتْ: إنَّ أميركمْ هذا ليعلمُ أنهُ أهضمُ الكشحينِ، فرجعَ إلى منزلهِ فسقطَ، فبلغهُ ما قالتِ المرأةُ، فأرسلَ إليها فغسلتْ لهُ، ففي هذينَ الحديثينِ أنَّ العينَ حقٌّ، وأنها تقتلُ كما قالَ النبيُّ ﷺ، وهذا قولُ علماءِ الأمةِ، ومذهبُ أهلِ السنةِ، وقدْ أنكرتهُ طوائفُ منَ المبتدعةِ، وهمْ محجوجونَ بالسنةِ وإجماعِ علماءِ هذهِ الأمةِ، وبما يشاهدُ منْ ذلكَ في الوجودِ، فكم من رجلٍ أدخلتهُ العينُ القبرَ، وكمْ منْ جملٍ ظهيرٍ أدخلتهُ القدرَ، لكنَّ ذلكَ بمشيئةِ اللهِ تعالى كما قالَ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾.

الثالثة: واجبٌ على كلِّ مسلم أعجبه شيء أنْ يبرِّكَ، فإنهُ إذا دعا بالبركةِ صرفَ المحذورُ لا محالةَ، ألا ترى قولهُ ﷺ لعامرٍ: «ألا بركتَ» فدلَّ على أنَّ العينَ لا تضرُّ ولا تعدو إذا بركَ العائنُ، وأنها إنما تعدو إذا لمْ يبركْ. والتبريكُ أنْ يقولَ: تباركَ اللهُ، اللهمَّ باركْ فيهِ.

الرابعة: العائنُ إذا أصابَ بعينهِ ولمْ يبركْ فإنهُ يؤمرُ بالاغتسالِ، ويجبرُ على ذلكَ إنْ أباهُ، لأنَّ الأمر على الوجوبِ، لا سيما هذا، فإنهُ قدْ يخافُ على المعينِ الهلاكُ، ولا ينبغي لأحدٍ أنْ يمنعَ أخاهُ ما ينتفعُ بهِ أخوهُ ولا يضرهُ هوَ، ولا سيما إذا كانَ بسببهِ وكانَ الجانيَ عليهِ.

الخامسة: منْ عُرفَ بالإصابةِ بالعينِ منعَ منْ مداخلةِ الناسِ دفعًا لضررهِ، وقدْ قالَ بعضُ العلماءِ: يأمرهُ الإمامُ بلزومِ بيتهِ، وإنْ كانَ فقيرًا رزقهُ ما يقومُ بهِ، ويكفُّ أذاهُ عنِ الناسِ. وقدْ قيلَ: إنهُ ينفى، وحديثُ مالكٍ الذي ذكرناهُ يردُّ هذهِ الأقوالَ، فإنهُ ﷺ لمْ يأمرْ في عامرٍ بحبسٍ ولا بنفيٍ، بلْ قدْ يكون الرجل الصالح عاينا، وأنهُ لا يقدحُ فيهِ ولا يفسقُ بهِ.

السادسة: روى مالكٌ عنْ حميدِ بنِ قيسٍ المكيِّ أنهُ قالَ: دُخلَ على رسولِ اللهِ ﷺ بابنيْ جعفرِ بنِ أبي طالبٍ فقالَ لحاضنتهما: «مالي أراهما ضارعينِ» فقالتْ حاضنتهما: يا رسولَ اللهِ! إنهُ تسرعُ إليهما العينَ، ولمْ يمنعنا أنْ نسترقيَ لهما إلا أنا لا ندري ما يوافقكَ منْ ذلكَ؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «استرقوا لهما فإنه لو سبق شيء القدرَ سبقتهُ العينُ». وهذا الحديثُ منقطعٌ، ولكنهُ محفوظٌ لأسماءَ بنتِ عميسٍ الخثعميةِ عنِ النبيِّ ﷺ منْ وجوهٍ ثابتةٍ متصلةٍ صحاحٍ، وفيهِ أنَّ الرقى مما يستدفعُ بهِ البلاءُ، وأنَّ العينَ تؤثرُ في الإنسانِ وتضرعهُ، أيْ تضعفهُ وتنحلهُ، وذلكَ بقضاءِ اللهِ تعالى وقدرهُ. ويقالُ: إنَّ العينَ أسرعُ إلى الصغارِ منها إلى الكبارِ.

السابعة: أمرَ ﷺ في حديثِ أبي أمامةَ العائنَ بالاغتسالِ للمعينِ، وأمرَ هنا بالاسترقاءِ، قالَ علماؤنا: إنما يسترقى منَ العينِ إذا لمْ يعرفِ العائنُ، وأما إذا عرفَ الذي أصابهُ بعينهِ فإنهُ يؤمرُ بالوضوءِ على حديثِ أبي أمامةَ، واللهُ أعلمُ.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾ أحذرهُ عليكمْ، فلا ينفعُ الحذر معَ القدرِ ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ﴾ أي الأمر والقضاء لله ﴿إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ﴾ أيِ اعتمدتُ ووثقتُ ﴿وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ أيْ منْ أبوابٍ شتى ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ إنْ أرادَ إيقاعَ مكروهٍ بهمْ ﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ استثناءٌ ليسَ منَ الأولِ ﴿فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ أيْ خاطرٌ خطرَ بقلبِهِ، وهوَ وصيتهُ أنْ يتفرقوا خشيةَ العينِ، وقيل: لئلا يرى الملكُ عددهمْ وقوتهمْ فيبطشُ بهمْ حسدًا أوْ حذرًا، قالهُ بعضُ المتأخرينَ، واختارهُ النحاسُ، وقالَ: ولا معنى للعينِ هاهنا. ودلتْ هذهِ الآيةُ على أنَّ المسلمَ يجبُ عليهِ أنْ يُحذِّرَ أخاهُ مما يخافُ عليهِ، ويرشدهُ إلى ما فيهِ طريقُ السلامةِ والنجاةِ، فإنَّ الدينَ النصيحةُ، والمسلمُ أخو المسلمِ.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يعني يعقوبَ ﴿لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ أيْ بأمرِ دينهِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أيْ لا يعلمونَ ما يعلمُ يعقوبَ منْ أمرِ دينهِ. وقيل: «لذو علمٍ» أيْ عملٍ، فإنَّ العلمَ أولُ أسبابِ العملِ، فسميَ بما هوَ بسببِهِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ ضمهُ إليهِ، وأنزلهُ معهُ وقالَ لهُ سرًا منْ إخوتهِ: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أيْ لا تحزنْ ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ التجهيزُ التسريحُ وتنجيزُ الأمرِ، ومنهُ جهزَ على الجريحِ أيْ قتلهُ، ونجزَّ أمرهُ. والسقايةِ والصواعِ شيءٌ واحدٌ، إناءٌ لهُ رأسانِ في وسطهِ مقبضٌ، كانَ الملكُ يشربُ منهُ منَ الرأسِ الواحدِ، ويكالُ الطعامُ بالرأسِ الآخرِ، وكل شيءٍ يشربُ بهِ فهوَ صُواعٌ، قيل: كانَ منْ فضةٍ، وقيل: كانَ منْ ذهبٍ، والصاعُ يذكرُ ويؤنثُ، فمنْ أنثهُ قالَ: أصوعٌ، مثلُ أدورٍ، ومنْ ذكرهُ قالَ أصواعٌ، مثلُ أثوابٍ.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أيْ نادى منادٍ وأعلم. و﴿أَذَّنَ﴾ للتكثيرِ، فكأنهُ نادى مرارًا ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾. والعيرُ ما امتيرَ عليهِ منَ الحميرِ والإبلِ والبغالِ، والمعنى: يا أصحاب العير، كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ ويا خيلَ اللهِ اركبي: أيْ يا أصحابَ خيلِ اللهِ، وسيأتي.

وهنا اعتراضانِ:

الأولُ- كيفَ رضيَ بنيامينُ بالقعودِ طوعًا وفيهِ عقوقُ الأبِ بزيادةِ الحزنِ، ووافقهُ على

ذلكَ يوسفُ؟

الثاني- كيفَ نسبَ يوسفُ السرقةَ إلى إخوتهِ وهم براء؟

فالجوابُ عنِ الأولِ: أنَّ الحزنَ كانَ قدْ غلبَ على يعقوبَ بحيثُ لا يؤثرُ فيهِ فقدُ بنيامينَ كلَّ التأثيرِ، أولا تراهُ لما فقده قال: ﴿يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ ولَمْ يعرجْ على بنيامينَ، ولعلَّ يوسفَ إنما وافقهُ على القعودِ بوحيٍ، فلا اعتراضَ.

وأما نسبة يوسفَ السرقةَ إلى إخوتهِ فالجوابُ: أنَّ القومَ كانوا قدْ سرقوهُ منْ أبيهِ فألقوهُ في الجبِّ، ثمَّ باعوهُ، فاستحقوا هذا الاسمَ بذلكَ الفعلِ، فصدقَ إطلاقُ ذلك عليهمْ.

جوابٌ آخرُ- وهوَ أنهُ أرادَ أيتها العيرُ حالكمْ حالُ السراقِ، والمعنى: إنَّ شيئًا لغيركمْ صارَ عندكمْ منْ غيرِ رضا الملكِ ولا علمهِ.

وجوابٌ آخر- وهوَ أنَّ ذلكَ كانَ حيلةً لاجتماعِ شملهِ بأخيهِ، وفصلهِ عنهمْ إليهِ، وهذا بناءً على أنَّ بنيامينَ لَمْ يعلمْ بدسِّ الصاعِ في رحلهِ، ولا أخبرهُ بنفسهِ. وقدْ قيلَ: إن معنى الكلامِ الاستفهام، أي: أوَ إنكم لسارقون؟ كقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ﴾ أي أو تلك نعمةٌ تمنها عليَّ؟ والغرضُ ألا يعزى إلى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الكذب.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ٧١ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ٧٢﴾، فيهِ سبعُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ٧٢﴾. البعيرُ هنا الجملُ في قولِ أكثرِ المفسرينَ، وقيل: إنهُ الحمارُ، وهيَ لغةٌ لبعضِ العربِ، والزعيمُ هوَ المؤذنُ الذي قالَ: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾، والزعيمُ والكفيلُ والحميلُ والضمينُ والقبيلُ سواءٌ والزعيمُ الرئيسُ.

الثانية: إنْ قيلَ: كيفَ ضمنَ حملَ البعيرَ وهوَ مجهولٌ، وضمانُ المجهولِ لا يصحُّ؟ قيلَ لهُ: حملُ البعيرِ كانَ معينًا معلومًا عندهمْ كالوسقِ، فصحَّ ضمانهُ، غيرَ أنهُ كانَ بدل مالٍ للسارقِ، ولا يحلُّ للسارقِ ذلكَ، فلعلهُ كانَ يصحُّ في شرعهمْ أوْ كانَ هذا جعالةٌ، وبذلُ مالٍ لمنْ كانَ يفتشُ ويطلبُ.

الثالثة: قالَ بعضُ العلماءِ: في هذهِ الآيةِ دليلانِ:

أحدهما[(١)]- جوازُ الجعلِ وقدْ أجيزَ للضرورةِ، فإنهُ يجوزُ فيهِ منَ الجهالةِ ما لا يجوزُ في غيرهِ، فإذا قالَ الرجلُ: منْ فعلَ كذا فلهُ كذا صحَّ. وشأنُ الجعلِ أنْ يكونَ أحدُ الطرفينِ معلومًا والآخرُ مجهولًا للضرورةِ إليهِ، بخلافِ الإجارةِ، فإنهُ يتقدرُ فيها العوضُ والمعوضُ منَ الجهتينِ، وهوَ منَ العقودِ الجائزةِ التي يجوزُ لأحدهما فسخهُ، إلا أنَّ المجعولَ لهُ يجوزُ أنْ يفسخهُ قبلَ الشروعِ وبعدهُ، إذا رضيَ بإسقاطِ حقهِ، وليسَ للجاعلِ أنْ يفسخهُ إذا شرعَ المجعولُ لهُ في العملِ.

ولا يشترطُ في عقدِ الجُعلِ حضورُ المتعاقدينِ كسائرِ العقودِ، لقولهِ: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ وبهذا كلهُ قالَ الشافعيُّ.

الرابعة: متى قالَ الإنسانُ، منْ جاءَ بعبدي الآبقِ فلهُ دينارٌ لزمهُ ما جعلهُ فيهِ إذا جاءَ بهِ، فلوْ جاءَ بهِ منْ غيرِ ضمانٍ لزمهُ إذا جاءَ بهِ على طلبِ الأجرةِ، وذلكَ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «منْ جاءَ بآبقٍ فلهُ أربعونَ درهمًا» ولمْ يفصلْ بينَ منْ جاءَ بهِ منْ عقدِ ضمانٍ أوْ غير عقد.

قال ابن خويز منداد: ولهذا قالَ أصحابنا: إنَّ منْ فعلَ بالإنسانِ ما يجبُ عليهِ أنْ يفعلهُ بنفسهِ من مصالحهِ لزمهُ ذلكَ، وكانَ لهُ أجرٌ مثلهُ إنْ كانَ ممنْ يفعلُ ذلكَ بالأجرِ. قلتُ: وخالفنا في هذا كله الشافعي.

الخامسة: **الدليلُ الثاني**- جوازُ الكفالةِ على الرجلِ، لأنَّ المؤذنَ الضامنَ هوَ غيرُ يوسفَ عليه السلام، قالَ علماؤنا: إذا قالَ الرجلُ تحملتُ أوْ تكفلتُ أوْ ضمنتُ أوْ وأنا حميلٌ لكَ أوْ زعيمٌ أوْ كفيلٌ أوْ ضامنٌ أوْ قبيلٌ، أوْ هوَ لكَ عندي أوْ عليَّ أوْ إليَّ أوْ قِبلي فذلكَ كلهُ حمالةٌ لازمةٌ، وقدِ اختلفَ الفقهاءُ فيمنْ تكفلَ بالنفسِ أوْ بالوجهِ، هلْ يلزمهُ ضمانُ المالِ أمْ لا؟

فقالَ الكوفيونَ: منْ تكفلَ بنفسِ رجلٍ لمْ يلزمهُ الحقُّ الذي على المطلوبِ إنْ ماتَ، وهوَ أحدُ قولي الشافعيِّ في المشهورِ عنهُ. وقالَ مالكٌ: إذا تكفلَ بنفسهِ وعليهِ مالٌ فإنهُ إنْ لمْ يأت به غرم المال، ويرجع به على المطلوبِ، فإنِ اشترطَ ضمانَ نفسهِ أوْ وجههِ وقال: لا

---

(١) والثاني يأتي في المسألة الخامسة.

أضمن المال فلا شيء عليهِ منَ المالِ، والحجةُ لمنْ أوجبَ غرمَ المالِ أنَّ الكفيلَ قدْ علمَ أنَّ المضمونَ وجههُ لا يطلبُ بدمٍ، وإنما يطلبُ بمالٍ، فإذا ضمنهُ لهُ ولمْ يأتِهِ بهِ فكأنهُ فوتهُ عليهِ، وغره منهُ، فلذلكَ لزمهُ المالُ.

واحتجَّ الطحاويُّ للكوفيينَ فقالَ: أما ضمانُ المالِ بموتِ المكفولِ بهِ فلا معنى لهُ، لأنهُ إنما تكفلَ بالنفسِ ولمْ يتكفلْ بالمالِ، فمحالٌ أنْ يلزمهُ ما لمْ يتكفلْ بهِ.

السادسة: واختلفَ العلماءُ إذا تكفلَ رجلٌ عنْ رجلٍ بمالٍ، هلْ للطالبِ أنْ يأخذَ منْ شاءَ منهما؟ فقالَ الكوفيونَ والشافعيُّ وأحمدُ: يأخذُ منْ شاءَ حتى يستوفيَ حقهُ، وهذا كانَ قولُ مالكٍ ثمَّ رجعَ عنهُ فقالَ: لا يؤخذُ الكفيلُ إلا أنْ يفلسَ الغريمُ أوْ يغيبَ، لأنَّ التبديةَ بالذي عليهِ الحقُّ أولى، إلا أنْ يكونَ معدمًا فإنهُ يؤخذُ منَ الحميلِ، لأنهُ معذورٌ في أخذهِ في هذهِ الحالةِ، وهذا قولٌ حسنٌ. والقياسُ أنَّ للرجلِ مطالبةَ أيِّ الرجلينِ شاءَ.

السابعة: الزعامةُ لا تكونُ إلا في الحقوقِ التي تجوزُ النيابةُ فيها، مما يتعلقُ بالذمةِ منَ الأموالِ، وكانَ ثابتًا مستقرًا، فلا تصحُّ الحمالةُ بالكتابةِ لأنها ليستْ بدينٍ ثابتٍ مستقرٍّ، لأنَّ العبدَ إنْ عجزَ رقَّ وانفسختِ الكتابةُ، وأما كلُّ حقٍّ لا يقومُ بهِ أحدٌ عنْ أحدٍ كالحدودِ فلا كفالةَ فيهِ، ويسجنُ المدعى عليهِ الحدُّ حتى ينظرَ في أمرهِ. وشذَّ أبو يوسفَ ومحمدٌ فأجازا الكفالةَ في الحدودِ والقصاصِ، وقالا: إذا قالَ المقذوفُ أوِ المدعي القصاصَ بينتي حاضرةٌ كفلهُ ثلاثةُ أيامٍ، واحتجَّ لهمُ الطحاويُّ بما رواهُ حمزةُ بنُ عمروٍ عنْ عمرَ وابنِ مسعودٍ وجريرِ بنِ عبدِ اللهِ والأشعثِ أنهمْ حكموا بالكفالةِ بالنفسِ بمحضرِ الصحابةِ.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يروى أنهمْ كانوا لا ينزلونَ على أحدٍ ظلمًا، ولا يرعونَ زرعَ أحدٍ، وأنهمْ جمعوا على أفواهِ إبلهمُ الأكمةَ لئلا تعيثَ في زروعِ الناسِ. ثم قال: ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ۝٧٣﴾ يروى أنهمْ ردوا البضاعةَ التي كانتْ في رحالهمْ، أيْ فمنْ ردَّ ما وجدَ فكيفَ يكونُ سارقًا؟!.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤﴾ فأجابَ إخوةُ يوسفَ: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ أيْ يستعبدُ ويسترقُّ، وفي الجملةِ معنى التوكيدِ، كما تقولُ: جزاءُ منْ سرقَ القطعُ فهذا جزاؤهُ ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥﴾ أيْ كذلكَ نفعلُ في الظالمينَ إذا سرقوا أنْ يسترقوا، وكانَ هذا منْ دينِ يعقوبَ عليه السلام وحكمهِ. وقولهمْ هذا قولُ منْ لمْ يستربْ بنفسهُ، لأنهمُ التزموا استرقاقَ منْ وجدَ في رحلهِ، وكانَ حكمُ السارقِ عندَ أهلِ مصرَ أنْ يغرمَ ضعفيْ ما أخذَ.

مسألةٌ- قدْ تقدمَ في سورةِ «المائدةِ» أنَّ القطعَ في السرقةِ ناسخٌ لما تقدمَ منَ الشرائعِ، أوْ لما كانَ في شرعِ يعقوب من استرقاق السارق، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ إنما بدأَ يوسفُ برحالهمْ لنفي التهمةِ والريبةِ منْ قلوبهمْ إنْ بدأَ بوعاءِ أخيهِ. والوعاءُ يقالُ بضمِّ الواوِ وكسرها، لغتانِ، وهوَ ما يحفظُ فيهِ المتاعُ ويصونهُ ﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ﴾ يعني بنيامينَ، أيِ استخرجَ السقايةَ أوِ الصواعَ عندَ منْ يؤنثُ، وقالَ: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ﴾ فذكر، وهذا التفتيشُ منْ يوسفَ يقتضي أنَّ المؤذنَ سرقهمْ برأيهِ، فيقالُ: إنَّ جميعَ ذلكَ كانَ أمرٌ منَ اللهِ تعالى، ويقوي ذلكَ قولهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾، وفيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿كِدۡنَا﴾ معناهُ صنعنا، وفيهِ جوازُ التوصلِ إلى الأغراضِ بالحيلِ إذا لمْ تخالفْ شريعةً، ولا هدمتْ أصلًا، خلافًا لأبي حنيفةَ في تجويزهِ الحيلَ وإنْ خالفتِ الأصولَ، وخرمتِ التحليلَ.

الثانية: أجمعَ العلماءُ على أنَّ للرجلِ قبلَ حلولِ الحولِ التصرفَ في مالهِ بالبيعِ والهبةِ إذا لمْ ينوِ الفرارَ منَ الصدقةِ، وأجمعوا على أنهُ إذا حالَ الحولُ وأظلَّ الساعيَ أنهُ لا يحلُّ لهُ التحيلُ ولا النقصانُ، ولا أنْ يفرقَ بينَ مجتمعٍ، ولا أنْ يجمعَ بينَ متفرقٍ. وقالَ مالكٌ: إذا فوّتَ منْ مالهِ شيئًا ينوي بهِ الفرارَ منَ الزكاةِ قبلَ الحولِ بشهرٍ أوْ نحوهِ لزمتهُ الزكاةُ عندَ الحولِ، أخذًا منهُ بقولهِ ﷺ: «خشيةَ الصدقةِ». وقالَ أبو حنيفةَ: إنْ نوى بتفريقهِ الفرارَ منَ الزكاةِ قبلَ الحولِ بيومٍ لا يضرهُ، لأنَّ الزكاةَ لا تلزمُ إلا بتمامِ الحولِ، ولا يتوجهُ إليهِ معنى

قولِهِ: «خشيةَ الصدقةِ» إلا حينئذٍ.

وقدْ صنفَ البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في جامعه كتابا مقصود فقال: (كتاب الحيل)، وترجمَ فيهِ أبوابًا منها: «بابُ الزكاةِ وألا يفرقَ بينَ مجتمعٍ ولا يجمعَ بينَ متفرقٍ خشيةَ الصدقةِ». وأدخلَ فيهِ حديثَ أنسِ بنِ مالكٍ، وأنَّ أبا بكرٍ كتبَ لهُ فريضةَ الصدقة، وطلحةَ بنِ عبيدِ اللهِ أنَّ أعرابيًا جاءَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ ثائرَ الرأسِ. الحديثَ، وفي آخرِهِ: «أفلحَ إنْ صدقَ» أوْ «دخلَ الجنةَ إنْ صدقَ». وقالَ بعضُ الناسِ: في عشرينَ ومائةِ بعيرٍ حقتانِ، فإنْ أهلكها متعمدًا أوْ وهبها أوِ احتالَ فيها فرارا من الزكاة فلا شيء عليهِ، ثمَّ أردفَ بحديثِ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «يكونُ كنزُ أحدكمْ يومَ القيامةِ شجاعًا أقرعَ لهُ زبيبتانِ ويقولُ أنا كنزكَ» الحديثَ.

قالَ المهلبُ: إنما قصدَ البخاريُّ في هذا البابِ أنْ يعرفكَ أنَّ كلَّ حيلةٍ يتحيلُ بها أحدٌ في إسقاطِ الزكاةِ فإنَّ إثمَ ذلكَ عليهِ، لأنَّ النبيَّ ﷺ لما منعَ منْ جمعِ الغنمِ وتفريقِها خشيةَ الصدقةِ فهمَ منهُ هذا المعنى، وفهمَ منْ قولِهِ: «أفلحَ إنْ صدقَ» أنَّ منْ رامَ أنْ ينقضَ شيئًا منْ فرائضِ اللهِ بحيلةٍ يحتالها أنهُ لا يفلحُ، ولا يقومُ بذلكَ عذرهُ عندَ اللهِ، وما أجازهُ الفقهاءُ منْ تصرفِ صاحبِ المالِ في مالهِ قربَ حلولِ الحولِ إنما هوَ ما لمْ يردْ بذلكَ الهربَ منَ الزكاةِ، ومنْ نوى ذلكَ فالإثمُ عنهُ غيرُ ساقطٍ، واللهُ حسيبهُ، وهوَ كمنْ فرَّ منْ صيامِ رمضانَ قبلَ رؤيةِ الهلالِ بيومٍ، واستعملَ سفرًا لا يحتاجُ إليهِ رغبةً عنْ فرضِ اللهِ الذي كتبهُ اللهُ على المؤمنينَ، فالوعيدُ متوجهٌ عليهِ، ألا ترى عقوبةَ منْ منعَ الزكاةَ يومَ القيامةِ بأيِّ وجهٍ متعمدًا كيفَ تطؤهُ الإبلُ، ويمثلُ لهُ مالهُ شجاعًا أقرعَ!؟ وهذا يدلُّ على أنَّ الفرارَ منَ الزكاةِ لا يحلُّ، وهوَ مطالبٌ بذلكَ في الآخرةِ.

الثالثة: قالَ ابنُ العربيِّ: قالَ بعضُ علماءِ الشافعيةِ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ﴾. دليلٌ على وجهِ الحيلةِ إلى المباحِ، واستخراجِ الحقوقِ، وهذا وهم عظيم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ قيلَ فيهِ: كما مكنا ليوسفَ ملكَ نفسهِ عنِ امرأةِ العزيزِ مكنا لهُ ملكَ الأرضِ عنِ العزيزِ، أوْ مثلهُ مما لا يشبهُ ما ذكرهُ.

قالَ الشفعويُّ[١]: ومثلهُ قولهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ﴾ وهذا ليس حيلةً، إنما هوَ حملٌ لليمينِ على الألفاظِ أوْ على المقاصدِ.

قالَ الشفعويُّ: ومثلهُ حديثُ أبي سعيدٍ الخدريِّ في عاملِ خيبرَ أنهُ أتى النبيَّ ﷺ بتمرٍ جنيبٍ .. الحديثَ، ومقصودُ الشافعيةِ منْ هذا الحديثِ أنهُ ﷺ أمرهُ أنْ يبيعَ جمعًا ويبتاعَ جنيبًا منَ الذي باعَ منهُ الجمعَ أوْ منْ غيرهِ. وقالتِ المالكيةُ: معناهُ منْ غيرهِ، لئلا يكونَ جنيبًا بجمعٍ، والدراهمُ ربًا، كما قالَ ابنُ عباسٍ: حريرةٌ بحريرةٍ والدراهمُ ربًا.

قوله تعالى: ﴿فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ أيْ سلطانهِ، أو في حكمهِ، وهوَ استرقاقُ السراقِ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أيْ إلا بأنْ يشاءَ اللهُ أنْ يجعلَ السقايةَ في رحلهِ تعلةً وعذرًا لهُ.

قوله تعالى: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُ﴾ أيْ بالعلمِ والإيمان. وقرئ: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتِ مَّن نَّشَآءُ﴾ بمعنى: نرفعُ منْ نشاء درجات، وقوله: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾، واللهُ فوقَ كلِّ عالمٍ.

قوله تعالى: ﴿۞قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ المعنى: أي اقتدى بأخيهِ، ولوِ اقتدى بنا ما سرقَ، وإنما قالوا ذلكَ ليبرؤوا منْ فعلهِ، لأنهُ ليسَ منْ أمهمْ، وأنهُ إنْ سرقَ فقدْ جذبهُ عرقُ أخيهِ السارقِ، لأنَّ الاشتراكَ في الأنسابِ يشاكلُ في الأخلاقِ.

وقدِ اختلفوا في السرقةِ التي نسبوا إلى يوسفَ، فرويَ عنْ مجاهدٍ وغيرهِ أنَّ عمةَ يوسفَ بنتَ إسحاقَ كانتْ أكبرَ منْ يعقوبَ، وكانتْ صارتْ إليها منطقةُ إسحاقَ لسنها، لأنهمْ كانوا يتوارثونَ بالسنِّ، وهذا مما نسخَ حكمهُ بشرعنا، وكانَ منْ سرقَ استعبدَ. وكانتْ عمةُ يوسفَ حضنتهُ وأحبتهُ حبًا شديدًا، فلما ترعرعَ وشبَّ قالَ لها يعقوبُ: سلمي يوسفَ إليَّ، فلستُ أقدرُ أنْ يغيبَ عني ساعةً، فولعتْ بهِ، وأشفقتْ منْ فراقهِ، فقالتْ لهُ: دعهُ عندي أيامًا أنظرُ إليهِ فلما خرجَ منْ عندها يعقوبُ عمدتْ إلى منطقةِ إسحاقَ، فحزمتها على يوسفَ منْ تحتِ ثيابهِ، ثمَّ قالتْ: لقدْ فقدتُ منطقةَ إسحاقَ، فانظروا منْ أخذها ومنْ أصابها، فالتمستْ ثمَّ قالتِ: اكشفوا أهلَ البيتِ فكشفوا، فوُجِدتْ معَ يوسفَ. فقالتْ: إنهُ واللهِ لي سَلَمٌ أصنعُ

---

(١) نسبة للشافعي.

فيهِ ما شئتُ، ثمَّ أتاها يعقوبُ فأخبرتهُ الخبرَ، فقالَ لها: أنتِ وذلكَ، إنْ كانَ فعلَ ذلكَ فهوَ سلمٌ لكِ، فأمسكتهُ حتى ماتتْ، فبذلكَ عيرهُ إخوتهُ في قولهمْ: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ ومنْ هاهنا تعلمَ يوسفُ وضعَ السقايةِ في رحلِ أخيهِ كما عملتْ بهِ عمتهُ.

وقالَ سعيدُ بنُ جبيرٍ: إنما أمرتهُ أنْ يسرقَ صنمًا كانَ لجدهِ أبي أمهِ، فسرقهُ وكسرهُ وألقاهُ على الطريقِ، وكانَ ذلكَ منهما تغييرًا للمنكر، فرموه بالسرقة وعيروه بها، وقيل: إنهمْ كذبوا عليهِ فيما نسبوهُ إليهِ.

قوله تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أيْ أسرَّ في نفسهِ قولهمْ: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾، وقيل: إنهُ أسرَّ في نفسهِ قولهُ: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ ثمَّ جهرَ فقالَ: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ۝٧٧﴾، أيْ أنتمْ شرٌّ مكانًا ممنْ نسبتموهُ إلى هذهِ السرقةِ. ومعنى قولهِ: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي اللهُ أعلمُ أنَّ ما قلتمْ كذبٌ، وإنْ كانتْ للهِ رضًا. وقدْ قيلَ: إنَّ إخوةَ يوسفَ في ذلكَ الوقتِ ما كانوا أنبياءَ.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ خاطبوهُ باسمِ العزيزِ إذْ كانَ في تلكَ اللحظةِ بعزلِ الأولِ أوْ موتهِ. وقولهمْ: ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ أيْ كبيرُ القدرِ، ولمْ يريدوا كبرَ السنِّ، لأنَّ ذلكَ معروفٌ منْ حالِ الشيخ ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ أيْ عبدًا بدلهُ، وقدْ قيلَ: إنَّ هذا مجازٌ، لأنهمْ يعلمونَ أنهُ لا يصحُّ أخذُ حرٍّ يسترقُّ بدلَ منْ قدْ أحكمتِ السنةُ عندهمْ رقهُ، وإنما هذا كما تقولُ لمنْ تكرهُ فعلهُ: اقتلني ولا تفعلْ كذا وكذا، وأنتَ لا تريدُ أنْ يقتلكَ، ولكنكَ مبالغٌ في استنزالهِ. ويحتملُ أنْ يكونَ قولهمْ: ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ حقيقةً، وبعيدٌ عليهمْ وهمْ أنبياءُ أنْ يروا استرقاقَ حرٍّ، فلمْ يبقَ إلا أنْ يريدوا بذلكَ طريقَ الحمالةِ، أيْ خذْ أحدنا مكانهُ حتى ينصرفَ إليكَ صاحبكَ، ومقصدهمْ بذلكَ أنْ يصلَ بنيامينُ إلى أبيهِ، ويعرفُ يعقوبُ جليةَ الأمر، فمنعَ يوسفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ منْ ذلكَ، إذِ الحمالةُ في الحدودِ ونحوها - بمعنى إحضارِ المضمونِ فقطْ - جائزةٌ معَ التراضي، غيرُ لازمةٍ إذا أبى الطالبُ، وأما الحمالةُ في مثلِ هذا على أنْ يلزمَ الحميلَ ما كانَ يلزمُ المضمونَ منْ عقوبةٍ، فلا يجوزُ إجماعًا.

وفي الواضحةِ: إنَّ الحمالةَ في الوجهِ فقطْ في جميعِ الحدودِ جائزةٌ، إلا في النفسِ. وجمهورُ الفقهاءِ على جوازِ الكفالةِ في النفسِ. واختلفَ فيها عنِ الشافعيِّ، فمرةً ضعفها، ومرةً أجازها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٧٨﴾ يحتملُ أنْ يريدوا وصفهُ بما رأوا منْ إحسانهِ في جميعِ أفعالهِ معهمْ، ويحتملُ أنْ يريدوا: إنا نرى لكَ إحسانًا علينا في هذهِ اليدِ إنْ أسديتها إلينا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ مصدرٌ ﴿أَن نَّأْخُذَ﴾ في موضعِ نصبٍ، أيْ منْ أنْ نأخذَ ﴿إِلَّا مَن وَجَدْنَا﴾ في موضعِ نصبٍ بِ ﴿نَّأْخُذَ﴾. ﴿مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ أيْ معاذَ اللهِ أنْ نأخذَ البريء بالمجرمِ ونخالفَ ما تعاقدنا عليهِ ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ۝٧٩﴾ أي إن أخذنا غيره.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾ أيْ يئسوا، مثلُ عجبَ واستعجبَ، وسخرَ واستسخرَ ﴿خَلَصُوا۟﴾ أي انفردوا وليسَ هوَ معهمْ ﴿نَجِيًّا﴾ نصبَ على الحالِ منَ المضمرِ في ﴿خَلَصُوا۟﴾ وهوَ واحدٌ يؤدي عنْ جمعٍ، كما في هذهِ الآيةِ، ويقعُ على الواحدِ كقوله تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ وجمعهُ أنجيةٌ، وقرأَ ابنُ كثيرٍ: «اسْتَايَسُوا» «وَلَا تَايَسَوا» «إِنَّهُ لَا يَايَسُ» «أَفَلَمْ يَايَسْ» بألفٍ منْ غيرِ همزٍ على القلبِ، قدمتِ الهمزةُ وأخرتِ الياءُ، ثمَّ قلبتِ الهمزةُ ألفًا لأنها ساكنةٌ قبلها فتحةٌ، والأصلُ قراءةُ الجماعةِ، لأنَّ المصدرَ ما جاءَ إلا على تقديمِ الياءِ - يأسًا - والإياسَ ليسَ بمصدرِ أيسَ، بلْ هوَ مصدرٌ أستهُ أوسًا وإياسًا أيْ أعطيتهُ.

وقالَ قومٌ: أيسَ ويئسَ لغتانِ، أيْ فلما يئسوا منْ ردِّ أخيهمْ إليهمْ تشاوروا فيما بينهمْ لا يخالطهمْ غيرهمْ منَ الناسِ، يتناجونَ فيما عرضَ لهمْ. والنجيُّ فعيلٌ بمعنى المناجي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ في السنِّ، وقيل: كانَ أكبرهمْ في الرأي ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أيْ عهدًا منَ اللهِ في حفظِ ابنهِ، وردهِ إليهِ ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ﴾ أي وتعلموا تفريطكمْ في يوسفَ ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ أيْ ألزمها، ولا أبرحُ مقيمًا فيها، يقالُ: برحَ براحًا وبروحًا أيْ زالَ، فإذا دخلَ النفيُ صارَ مثبتًا ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ بالرجوعِ فإني أستحي منه ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ بالمسير معَ أخي

فأمضي معهُ إلى أبي. وقيل: المعنى أوْ يحكمُ اللهُ لي بالسيفِ فأحاربُ وآخذُ أخي، أوْ أعجزُ فأنصرفُ بعذرٍ، وذلكَ أنَّ يعقوبَ قالَ: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ ومنْ حاربَ وعجزَ فقدْ أحيطَ بهِ.

قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ﴾ قالهُ الذي قالَ: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ ﴿فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ وعن الكسائيِّ أنه قرأ: «يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سُرِّقَ» بضمِّ السينِ وتشديدِ الراءِ مكسورةً، على ما لمْ يسمَّ فاعلهُ، أيْ نسبَ إلى السرقة ورمي بها، مثل خونته وفسقته وفجرته إذا نسبتهُ إلى هذهِ الخلالِ.

وقالَ الزجاجُ: ﴿سُرِّقَ﴾ يحتملُ معنيينِ: **أحدهما**- علمَ منهُ السَّرقُ، **والآخرُ**- اتهمَ بالسَّرَقِ. قالَ الجوهريُّ: والسَّرِقُ والسَّرِقةُ بكسرِ الراءِ فيهما هوَ اسمُ الشيءِ المسروقِ، والمصدرُ سَرَق يَسْرِقُ سَرَقًا بالفتحِ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ يريدونَ ما شهدنا قطُّ إلا بما علمنا، وأما الآنَ فقدْ شهدنا بالظاهرِ وما نعلمُ الغيبَ، وقيلَ: المعنى: ما شهدنا عندَ يوسفَ بأنَّ السارقَ يسترقُّ إلا بما علمنا منْ دينك ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ أيْ لمْ نعلمْ وقتَ أخذناهُ منكَ أنهُ يسرقُ فلا نأخذهُ. وقيل: ما كنا نعلمُ أنَّ ابنكَ يسترقُّ ويصيرُ أمرنا إلى هذا، وإنما قلنا: نحفظُ أخانا فيما نطيقُ، وقيلَ: معناهُ: قدْ أخذتِ السرقةُ منْ رحلهِ، ونحنُ أخرجناها وننظرُ إليها، ولا علمَ لنا بالغيبِ، فلعلهمْ سرقوهُ ولمْ يسرقْ.

الثانية: تضمنتْ هذهِ الآيةُ جوازَ الشهادةِ بأيِ وجهٍ حصلَ العلمُ بها، فإنَّ الشهادةَ مرتبطةٌ بالعلمِ عقلًا وشرعًا، فلا تسمعُ إلا ممنْ علمَ، ولا تقبلُ إلا منهمْ، وهذا هوَ الأصلُ في الشهاداتِ، ولهذا قالَ أصحابنا: شهادةُ الأعمى جائزةٌ، وشهادةُ المستمع جائزةٌ، وشهادةُ الأخرسِ إذا فهمتْ إشارتهُ جائزةٌ، وكذلكَ الشهادةُ على الخطِّ- إذا تيقنَ أنهُ خطهُ أوْ خطُّ فلانٍ- صحيحةٌ فكلُّ منْ حصلَ لهُ العلمُ بشيءٍ جازَ أنْ يشهدَ بهِ وإنْ لمْ يشهدهُ المشهودُ عليهِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ألا أخبركمْ

بخيرِ الشهداءِ خيرُ الشهداءِ الذي يأتي بشهادتهِ قبلَ أنْ يسألها».

الثالثة: اختلفَ قولُ مالكٍ في شهادةِ المرورِ، وهوَ أنْ يقولَ: مررتُ بفلانٍ فسمعتهُ يقولُ كذا فإنِ استوعبَ القولَ شهدَ في أحدِ قوليهِ، وفي القولِ الآخرِ لا يشهدُ حتى يشهداهُ. والصحيحُ أداءُ الشهادةِ عندَ الاستيعابِ، وبهِ قالَ جماعةُ العلماءِ، وهوَ الحقُّ، لأنهُ قدْ حصلَ المطلوبُ وتعينَ عليهِ أداءُ العلمِ، فكانَ خيرَ الشهداءِ إذا أعلمَ المشهودَ لهُ، وشرَّ الشهداءِ إذا كتمها، واللهُ أعلمُ.

الرابعة: إذا ادعى رجلٌ شهادةً لا يحتملها عمرهُ ردتْ، لأنهُ ادعى باطلًا فأكذبهُ العيانُ ظاهرا.

قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾، فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ﴾ حققوا بها شهادتهمْ عندهُ، ورفعوا التهمةَ عنْ أنفسهمْ لئلا يتهمهم. فقولهم: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ أيْ أهلها، فحذفَ، ويريدونَ بالقريةِ مصرَ. وقيل: قريةٌ منْ قراها نزلوا بها وامتاروا منها. وقيل المعنى ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ وإنْ كانتْ جمادًا، فأنتَ نبيُّ اللهِ، وهو ينطق الجماد له، وعلى هذا فلا حاجةَ إلى إضمارٍ، والقولُ في العيرِ كالقولِ في القريةِ سواءٌ ﴿وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾ في قولنا.

الثانية: في هذهِ الآيةِ منَ الفقهِ أنَّ كلَّ منْ كانَ على حقٍّ، وعلمَ أنهُ قدْ يظنُّ بهِ أنهُ على خلافِ ما هوَ عليهِ أوْ يتوهمُ أنْ يرفعَ التهمةَ وكلَّ ريبةٍ عنْ نفسهِ، ويصرحُ بالحقِّ الذي هوَ عليهِ، حتى لا يبقى لأحدٍ متكلمٌ، وقدْ فعلَ هذا نبينا محمدٌ ﷺ بقولهِ للرجلينِ اللذينِ مرا وهوَ قدْ خرجَ معَ صفيةَ يقلبها منَ المسجدِ: «على رسلكما إنما هيَ صفيةُ بنتُ حييٍّ» فقالا: سبحانَ اللهِ وكبرَ عليهما فقال النبي: «إنَّ الشيطانَ يبلغُ منَ الإنسانِ مبلغَ الدمِ وإني خشيتُ أنْ يقذفَ في قلوبكما شيئًا» رواه البخاري ومسلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ﴾ أيْ زينتْ ﴿لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ﴾ أنَّ ابني سرقَ وما سرقَ، وإنما ذلكَ لأمرٍ يريدهُ اللهُ ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ﴾ أيْ فشأني صبرٌ جميلٌ، أوْ صبرٌ جميلٌ أولى بي، على ما تقدمَ أولَ السورةِ.

الثانية: الواجبُ على كلِّ مسلمٍ إذا أصيبَ بمكروهٍ في نفسهِ أوْ ولدهِ أوْ مالهِ أنْ يتلقى ذلكَ بالصبرِ الجميلِ، والرضا والتسليمِ لمجريهِ عليهِ وهوَ العليمُ الحكيمُ، ويقتدي بنبيِّ اللهِ يعقوبَ وسائرِ النبيينَ، صلواتُ اللهِ عليهمْ أجمعينَ.

وعنْ مجاهدٍ في قوله تعالى: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ﴾ أيْ لا أشكو ذلكَ إلى أحدٍ، وقدْ تقدمَ في «البقرةِ» أنَّ الصبرَ عندَ أولِ الصدمةِ، وثوابُ منْ ذكرَ مصيبتهُ واسترجعَ وإنْ تقادمَ عهدها.

قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ﴾ لأنهُ كانَ عندهُ أنَّ يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لمْ يمتْ، وإنما غابَ عنهُ خبرهُ، لأنَّ يوسفَ حملَ وهوَ عبدٌ لا يملكُ لنفسهِ شيئًا، ثمَّ اشتراهُ الملكُ فكانَ في دارهِ لا يظهرُ للناسِ، ثمَّ حبسَ، فلما تمكنَ احتالَ في أنْ يعلمَ أبوهُ خبرهُ، ولمْ يوجهْ برسولٍ لأنهُ كرهَ منْ إخوتهِ أنْ يعرفوا ذلكَ فلا يدعوا الرسولَ يصلُ إليهِ. وقالَ: ﴿بِهِمۡ﴾ لأنهمْ ثلاثةٌ، يوسفُ وأخوهُ، والمتخلفُ منْ أجلِ أخيهِ، وهوَ القائلُ: ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بحالي ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ فيما يقضي.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ أيْ أعرضَ عنهمْ، وذلكَ أنَّ يعقوبَ لما بلغهُ خبرُ بنيامينَ تتامَّ حزنهُ، وبلغَ جهدهُ، وجددَ اللهُ مصيبتهُ لهُ في يوسفَ فقالَ: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ ونسيَ ابنهُ بنيامينَ فلمْ يذكرهُ.

والأسفُ شدةُ الحزنِ على ما فاتَ. والنداءُ على معنى: تعالَ يا أسف فإنه من أوقاتك. وقالَ الزجاجُ: الأصلُ يا أسفي، فأبدلَ منَ الياءِ ألفٌ لخفةِ الفتحةِ ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ

﴿ٱلْحُزْنِ﴾ قيلَ: لمْ يبصرْ بهما ستَّ سنينَ، وأنه عمي، قال مقاتل. وقيل: قد تبيض العين ويبقى شيء منَ الرؤيةِ، واللهُ أعلمُ بحالِ يعقوبَ، وإنما ابيضتْ عيناهُ منَ البكاءِ، ولكنَّ سببَ البكاءِ الحزنُ، فلهذا قالَ: ﴿مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾.

الثالثة: قالَ النحاسُ: فإنْ سألَ قومٌ عنْ معنى شدةِ حزنِ يعقوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فللعلماءِ في هذا ثلاثةُ أجوبةٍ:

منها- أنَّ يعقوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لما علمَ أنَّ يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حيٌّ خافَ على دينهِ، فاشتدَّ حزنهُ لذلكَ.

وقيل: إنما حزنَ لأنهُ سلمهُ إليهمْ صغيرًا، فندمَ على ذلكَ.

والجوابُ الثالثُ- وهوَ أبينها- هو أن الحزنَ ليسَ بمحظورٍ، وإنما المحظورُ الولولةُ وشقُّ الثيابِ، والكلامُ بما لا ينبغي وقالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تدمعُ العينُ ويحزنُ القلبُ ولا نقولُ ما يسخطُ الربُّ». وقدْ بينَ اللهُ جلَّ وعزَّ ذلكَ بقولهِ: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أيْ مكظومٌ مملوءٌ منَ الحزنِ ممسكٌ عليهِ لا يبثهُ، ومنهُ كظمُ الغيظِ وهوَ إخفاؤهُ، فالمكظومُ المسدودُ عليهِ طريقُ حزنهِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أيْ مملوءٌ كربًا. ويجوزُ أنْ يكونَ المكظومُ بمعنى الكاظمِ، وهوَ المشتملُ على حزنهِ.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أيْ قالَ لهُ ولدهُ: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ قالَ الكسائيُّ: فتأتُ وفتئتُ أفعلُ ذلكَ أيْ ما زلتُ. وزعمَ الفراءُ أنَّ «لا» مضمرةٌ، أيْ لا تفتأُ، أيْ لا أبرحُ ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أيْ تالفًا، وقيل: هرمًا، وقيل: باليًا داثرًا، وقيل: الحارضُ الفاسدُ الجسمِ والعقلِ ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾ أيِ الميتينَ، وهوَ قولُ الجميعِ، وغرضهمْ منعُ يعقوبَ منَ البكاءِ والحزنِ شفقةً عليهِ، وإنْ كانوا السببَ في ذلكَ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي﴾ حقيقةُ البثِّ في اللغةِ ما يردُ على الإنسانِ منَ الأشياءِ المهلكةِ التي لا يتهيأُ لهُ أنْ يخفيها، وهوَ منْ بثثهُ أيْ فرقتهُ، فسميتِ المصيبةُ بثًا مجازًا، وقيل: ﴿بَثِّي﴾ همي. وقيل: حاجتي ﴿وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ معطوفٌ عليهِ، أعادهُ بغيرِ

لفظهِ. - ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨٦﴾ أيْ أعلمُ أنَّ رؤيا يوسفَ صادقةٌ، وأني سأسجدُ لهُ، وقيل: إني أعلمُ منْ إحسانِ اللهِ تعالى إليَّ ما يوجبُ حسنَ ظني بهِ، وقيل: أعلمُ منْ إجابةِ دعاء المضطرين ما لا تعلمون.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ هذا يدلُّ على أنهُ تيقنَ حياتهُ، إما بالرؤيا، وإما بإخبارِ ملكِ الموتِ إياهُ بأنهُ لمْ يقبضْ روحهُ، وهوَ أظهرُ. والتحسسُ طلبُ الشيءِ بالحواسِّ، فهوَ تفعلٌ منَ الحسِّ ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ أيْ لا تقنطوا منْ فرجِ اللهِ، وقيل: منْ رحمةِ اللهِ ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٧﴾ دليلٌ على أنَّ القنوطَ منَ الكبائرِ، وهوَ اليأسُ، وسيأتي في «الزمرِ» بيانهُ إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾ أي الممتنعُ ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ هذهِ المرةُ الثالثة منْ عودهمْ إلى مصرَ، وفي الكلام حذفٌ، أيْ فخرجوا إلى مصرَ، فلما دخلوا على يوسفَ قالوا: ﴿مَسَّنَا﴾ أيْ أصابنا ﴿وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ أيِ الجوعُ والحاجةُ، وفي هذا دليلٌ على جوازِ الشكوى عندَ الضرِّ، أيِ الجوعُ، بلْ واجبٌ عليهِ إذا خافَ على نفسهِ الضرَّ منَ الفقرِ وغيرهِ أنْ يبديَ حالتهُ إلى منْ يرجو منهُ النفعَ، كما هوَ واجبٌ عليهِ أنْ يشكوَ ما بهِ منَ الألمِ إلى الطبيبِ ليعالجهُ، ولا يكونُ ذلكَ قدحًا في التوكلِ، وهذا ما لمْ يكنِ التشكي على سبيلِ التسخطِ، والصبرِ والتجلدِ في النوائبِ أحسنُ، والتعففُ عنِ المسألة أفضل، وأحسن الكلام في الشكوى سؤالُ المولى زوالَ البلوى، وذلكَ قول يعقوب: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أيْ منْ جميل صنعهِ، وغريبِ لطفهِ، وعائدتهِ على عبادهِ، فأما الشكوى على غيرِ مشكٍ فهوَ السفهُ، إلا أنْ يكونَ على وجهِ البثِّ والتسلي.

قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ﴾ البضاعةُ القطعةُ منَ المالِ يقصدُ بها شراء شيء، تقولُ: أبضعتُ الشيءَ واستبضعتهُ أيْ جعلتهُ بضاعةً، وفي المثلِ: كمستبضعِ التمرِ إلى هجرَ.

قوله تعالى: ﴿مُّزْجَىٰةٍ﴾ صفةٌ لبضاعةٍ، والإزجاءُ السوقُ بدفع، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ والمعنى أنها بضاعةٌ تدفعُ، ولا يقبلها كلُّ أحدٍ. قالَ ثعلبٌ: البضاعةُ

المزجاةُ الناقصةُ غيرُ التامة.

قوله تعالى: ﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ﴾ يريدونَ كما تبيعُ بالدراهمِ الجيادِ لا تنقصنا بمكان دراهمنا، هذا قول أكثرا المفسرينَ ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ﴾ أيْ تفضلْ علينا بما بينَ سعرِ الجيادِ والرديئةِ؛ لأنَّ الصدقةَ تحرمُ على الأنبياءِ. وقيلَ: المعنى: ﴿تَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ﴾ بالزيادةِ على حقنا، ولمْ تحرم الصدقةُ إلا على نبينا محمدٍ ﷺ. وقيل: ﴿تَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ﴾ بردِ أخينا إلينا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ٨٨﴾ يعني في الآخرةِ، يقالُ: هذا منْ معاريضِ الكلام، لأنهُ لمْ يكنْ عندهمْ أنه على دينهم، لذلك لمْ يقولوا: إنَّ اللهَ يجزيكَ بصدقتكَ، فقالوا لفظًا يوهمهُ أنهمْ أرادوهُ، وهمْ يصحُّ لهمْ إخراجهُ بالتأويلِ، وفي الحديثِ: «إنَّ في المعاريضِ لمندوحةً عنِ الكذبِ».

الثانية: استدلَّ مالكٌ وغيرهُ منَ العلماءِ على أنَّ أجرةَ الكيالِ على البائعِ، فقد قالوا ليوسفَ ﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ﴾ فكانَ يوسفُ هوَ الذي يكيلُ، وكذلكَ الوزانُ والعدادُ وغيرهمْ، لأنَّ الرجلَ إذا باعَ عدةً معلومةً منْ طعامهِ، وأوجبَ العقدَ عليهِ، وجبَ عليهِ أنْ يبرزها ويميزَ حقَّ المشتري منْ حقهِ، إلا أنْ يبيعَ منهُ معينًا - صبرةً أوْ ما لا حقَّ توفيةٍ فيهِ- فخلى بينهُ وبينهُ، فما جرى على المبيعِ فهوَ على المبتاعِ، وليسَ كذلكَ ما فيهِ حقُّ توفيةٍ منْ كيلٍ أوْ وزنٍ، ألا ترى أنهُ لا يستحقُّ البائعُ الثمنَ إلا بعدَ التوفيةِ، وإنْ تلفَ فهوَ منهُ قبل التوفية.

الثالثة: وأما أجرةُ النقدِ فعلى البائعِ أيضًا، لأنَّ المبتاعَ الدافعَ لدراهمهِ يقولُ: إنها طيبةٌ، فأنتَ الذي تدعي الرداءةَ فانظرْ لنفسكَ، وأيضًا فإنَّ النفعَ يقعُ لهُ فصارَ الأجرُ عليهِ، وكذلكَ لا يجبُ على الذي يجبُ عليهِ القصاصُ، لأنهُ لا يجبُ عليهِ أنْ يقطعَ يدَ نفسهِ، إلا أنْ يمكنَ منْ ذلكَ طائعًا، ألا ترى أنَّ فرضًا عليهِ أنْ يفديَ يدهُ، ويصالحَ عليهِ إذا طلبَ المقتصُّ ذلكَ منهُ، فأجرُ القطاعِ على المقتصِّ. وقالَ الشافعيُّ في المشهورِ عنهُ: إنها على المقتصِّ منهُ كالبائعِ.

الرابعة: يكرهُ للرجلِ أنْ يقولَ في دعائهِ: اللهمَّ تصدقْ عليَّ، لأنَّ الصدقةَ إنما تكونُ ممنْ

يبتغي الثوابَ، واللهُ تعالى متفضلٌ بالثوابِ بجميعِ النعمِ لا ربَّ غيرهُ، وسمعَ الحسنُ رجلًا يقولُ: اللهمَّ تصدقْ عليَّ، فقالَ له: يا هذا! إنَّ اللهَ لا يتصدقُ إنما يتصدقُ منْ يبتغي الثوابَ، أما سمعتَ قولَ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ قل: اللهم أعطني وتفضل علي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ استفهامٌ بمعنى التذكيرِ والتوبيخِ، وهوَ الذي قالَ اللهُ: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا﴾ الآيةَ ﴿إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ٨٩﴾ دليلٌ على أنهمْ كانوا صغارًا في وقتِ أخذهمْ ليوسفَ، غيرَ أنبياءَ، لأنهُ لا يوصفُ بالجهلِ إلا منْ كانتْ هذهِ صفتهُ، ويكونُ قولهمْ: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ على هذا، لأنهمْ كبروا ولمْ يخبروا أباهمْ بما فعلوا حياء وخوفا منه. وقيل: جاهلون بما تؤول إليهِ العاقبةُ. واللهُ أعلمُ.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ﴾ لما دخلوا عليهِ فقالوا: ﴿مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ فخضعوا لهُ وتواضعوا رقَّ لهمْ، وعرفهمْ بنفسهِ، وقرأ ابنُ كثيرٍ «إِنَّكَ» على الخبرِ، ويجوزُ أنْ تكونَ هذهِ القراءة استفهاما كقوله: ﴿وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ﴾.

﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ أيْ أنا المظلومُ والمرادُ قتلهُ، ولمْ يقلْ أنا هوَ تعظيمًا للقصةِ ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ﴾ أيْ بالنجاةِ والملكِ ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ﴾ أيْ يتقِ اللهَ ويصبرْ على المصائبِ، وعنِ المعاصي ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾ أيِ الصابرينَ في بلائهِ، القائمينَ بطاعتهِ. وقرأ ابنُ كثيرٍ: «إنهُ منْ يتقي» بإثباتِ الياءِ، والقراءةُ بها جائزةٌ على أن تجعل ﴿مَنْ﴾ بمعنى الذي، وتدخلُ ﴿يَتَّقِي﴾ في الصلةِ، فتثبت الياء لا غير، وترفعُ ﴿وَيَصۡبِرۡ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ الأصلُ همزتانِ خففتِ الثانيةُ، ولا يجوزُ تحقيقها، واسمُ الفاعلِ مؤثرٌ، والمصدرُ إيثارٌ، والمعنى: لقدْ فضلكَ اللهُ علينا، واختاركَ بالعلمِ والحلمِ والحكمِ والعقلِ والملكِ ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١﴾ أيْ مذنبينَ منْ خطئَ يخطأُ إذا أتى الخطيئةَ، وفي ضمنِ هذا سؤالُ العفوِ.

وقيلَ: لابنِ عباسٍ: كيفَ قالوا ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ وقدْ تعمدوا لذلكَ؟ قالَ: وإنْ تعمدوا لذلكَ، فما تعمدوا حتى أخطؤوا الحقَّ، وكذلكَ كلُّ منْ أتى ذنبًا تخطى المنهاجَ

الذي عليهِ منَ الحقِّ، حتى يقعَ في الشبهةِ والمعصيةِ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ أيْ قالَ يوسفُ -وكانَ حليمًا موفقًا ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ وتمَّ الكلامُ. ومعنى: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾: الوقتُ. والتثريبُ التعييرُ والتوبيخُ، أيْ لا تعييرَ ولا توبيخَ ولا لومَ عليكمُ اليومَ، ومنهُ قولهِ ﷺ: «إذا زنتْ أمةُ أحدكمْ فليجلدها الحدَّ ولا يثربْ عليها».

وعنِ ابنِ عباسٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أخذَ بعضادتي البابِ يومَ فتح مكةَ، وقدْ لاذَ الناسُ بالبيتِ فقالَ: «الحمدُ للهِ الذي صدقَ وعدهُ ونصرَ عبدهُ وهزمَ الأحزابَ وحدهُ» ثمَّ قالَ: «ماذا تظنونَ يا معشرَ قريشٍ» قالوا: خيرًا، أخٌ كريمٌ، وابنُ أخٍ كريمٍ وقدْ قدرتَ، قالَ: «وأنا أقولُ كما قالَ أخي يوسفَ لا تثريبَ عليكمُ اليومَ».

﴿يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ مستقبلٌ فيهِ معنى الدعاءِ، سألَ اللهَ أنْ يسترَ عليهمْ ويرحمهمْ.

وأجازَ الأخفشُ الوقفَ على ﴿عَلَيْكُمْ﴾ والأولُ هوَ المستعملُ، فإنَّ في الوقفِ على ﴿عَلَيْكُمْ﴾ والابتداء ب ﴿ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ جزم بالمغفرةِ في اليومِ، وذلكَ لا يكونُ إلا عنْ وحيٍ، وهذا بينٌ.

وقالَ عطاءٌ الخراسانيُّ: طلبُ الحوائجِ منَ الشبابِ أسهلُ منهُ منَ الشيوخِ، ألمْ ترَ قولَ يوسفَ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ وقالَ يعقوبُ: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾ نعتٌ للقميصِ، والقميصُ مذكرٌ ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ لتتخذوا مصرَ دارًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ أيْ خرجتْ منطلقةً منْ مصرَ إلى الشامِ، يقالُ: فصلَ فصولًا، وفصلتهُ فصلًا، فهوَ لازمٌ ومتعدٍّ ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ أيْ قالَ لمنْ حضرَ منْ قرابتهِ ممنْ لمْ يخرجْ إلى مصرَ وهمْ ولدُ ولدهِ: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ قالَ ابنُ عباسٍ: هاجتْ ريحٌ فحملتْ ريحَ قميصِ يوسفَ إليهِ، وبينهما مسيرةُ ثمانِ ليالٍ، وقالَ مالكُ بنُ أنسٍ رضي الله عنه: إنما أوصلَ ريحهُ منْ أوصلَ عرشَ بلقيسِ قبلَ أنْ يرتدَّ إلى سليمانَ عليه السلام طرفهُ ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ

﴿٩٤﴾ تسفهونِ، وقيل: لولا أنْ تكذبونِ. والفَنَدُ الكذبُ، وقيل: لولا أنْ تقبحونَ، وقيل: لولا أن تهرمونَ، وكلهُ متقاربُ المعنى.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ أيْ لفي ذهابٍ عنْ طريقِ الصوابِ. وقيل: لفي خطئكَ الماضي منْ حبِّ يوسفَ لا تنساهُ، وقيل: إنما قالوا هذا، لأنَّ يوسفَ عندهمْ كانَ قدْ ماتَ. وقيل: إنَّ الذي قالَ لهُ ذلكَ منْ بقيَ معهُ منْ أهلهِ وقرابتهِ، وقيل: بنو بنيهِ وكانوا صغارًا، فاللهُ أعلمُ.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أيْ على عينيهِ ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ ﴿أن﴾ زائدةٌ، ودلتْ هذهِ الآيةُ على جوازِ البذلِ والهباتِ عندَ البشائرِ. وفي البابِ حديثُ كعبِ بنِ مالكٍ - الطويلُ - وفيهِ: «فلما جاءني الذي سمعتُ صوتهُ يبشرني نزعتُ ثوبيَّ فكسوتهما إياهُ ببشارتهِ» وذكرَ الحديثَ، وقدْ تقدمَ بكمالهِ في قصةِ الثلاثةِ الذينَ خلفوا، وكسوةُ كعبٍ ثوبيهِ للبشيرِ معَ كونهِ ليسَ لهُ غيرهما دليلٌ على جوازِ مثلِ ذلكَ إذا ارتجى حصولَ ما يستبشر به. وهو دليل على جوازِ إظهارِ الفرحِ بعدَ زوالِ الغمِّ والترحِ. ومنْ هذا البابِ جوازُ حذاقةِ الصبيانِ، وإطعامِ الطعام فيها، وقد نحرَ عمرُ بعدَ حفظهِ سورةَ «البقرةِ» جزورًا. واللهُ أعلمُ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ ذكرهم قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾ في الكلامِ حذفٌ، التقديرُ: فلما رجعوا منْ مصرَ قالوا يا أبانا، وهذا يدلُّ على أنَّ الذي قالَ لهُ: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ بنو بنيهِ أوْ غيرهمْ منْ قرابتهِ وأهلهِ لا ولدهُ، فإنهمْ كانوا غُيبًا، وكانَ يكونُ ذلكَ زيادةً في العقوقِ. واللهُ أعلمُ. وإنما سألوهُ المغفرةَ، لأنهمْ أدخلوا عليهِ منْ ألمِ الحزنِ ما لمْ يسقطِ المأثمُ عنهُ إلا بإحلالهِ.

قلتُ: وهذا الحكمُ ثابتٌ فيمنْ آذى مسلمًا في نفسهِ أوْ مالهِ أوْ غيرِ ذلكَ ظالمًا لهُ، فإنهُ يجبُ عليهِ أنْ يتحللَ لهُ ويخبرهُ بالمظلمةِ وقدرها، وهلْ ينفعهُ التحليلُ المطلقُ أمْ لا؟ فيهِ

خلافٌ، والصحيحُ أنهُ لا ينفعُ، فإنهُ لوْ أخبرهُ بمظلمةٍ لها قدرٌ وبالٌ ربما لمْ تطبْ نفسُ المظلوم في التحللِ منها. واللهُ أعلمُ. وفي صحيحِ البخاريِّ وغيرهِ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ ﷺ: «منْ كانتْ لهُ مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليحللهُ منهُ اليومَ قبلَ ألا يكونَ دينارٌ ولا درهمٌ إنْ كانَ لهُ عملٌ صالحٌ أخذَ منهُ بقدرِ مظلمتهِ وإنْ لمْ يكنْ لهُ حسناتٌ أخذَ منْ سيئاتِ صاحبهِ فحملَ عليهِ» قالَ المهلبُ فقولهُ ﷺ: «أخذَ منهُ بقدرِ مظلمتهِ» يجبُ أنْ تكونَ المظلمةُ معلومةَ القدرِ مشارًا إليها مبينةً، واللهُ أعلمُ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ قالَ ابنُ عباسٍ: أخرَ دعاءهُ إلى السحرِ. وقيل: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ أيْ أسألُ يوسفَ إنْ عفا عنكمُ استغفرتُ لكمْ ربي.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أيْ قصرًا كانَ لهُ هناكَ ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ أيْ ضمَّ، ويعني بأبويهِ أباهُ وخالتهُ، وكانتْ أمهُ قدْ ماتتْ في ولادةِ أخيهِ بنيامينَ. وقيل: أحيا اللهُ لهُ أمهُ تحقيقًا للرؤيا حتى سجدتْ لهُ.

قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ قالَ: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تبركًا وجزمًا. ﴿ءَامِنِينَ﴾ منَ القحطِ، أوْ منْ فرعونَ، وكانوا لا يدخلونها إلا بجوازهِ.

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ قالَ قتادةُ: يريد السرير، وقد تقدمت محامله، قد يعبرُ بالعرشِ عنِ المُلكِ والمَلِكِ نفسهِ.

قوله تعالى: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾. فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾ الهاءُ في ﴿خَرُّواْ لَهُۥ﴾ قيلَ: إنها تعودُ على اللهِ تعالى، المعنى: وخروا شكرًا للهِ سجدًا، ويوسفُ كالقبلةِ لتحقيقِ روياه، وقيل: الهاءُ راجعةٌ إلى يوسفَ لقولهِ تعالى في أول السورة: ﴿رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾. وكانَ تحيتهمْ أنْ يسجدَ الوضيعُ للشريفِ، والصغيرُ للكبيرِ، سجدَ يعقوبُ وخالتهُ وإخوتهُ ليوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقال: ﴿هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ وكانَ بينَ رؤيا يوسفَ وبينَ تأويلها اثنتانِ وعشرونَ سنةً. وقيل: أربعونَ سنةً، قالَ عبدُ اللهِ بنُ شدادٍ: وذلكَ آخرُ ما تبطئُ الرؤيا.

الثانية: قيل: لمْ يكنْ سجودًا، لكنهُ سنةٌ كانتْ فيهمْ، يومئونَ برؤوسهمْ إيماءً، كذلكَ

كانتْ تحيتهمْ. وقيل: كانَ سجودًا كالسجودِ المعهودِ عندنا، وهوَ كانَ تحيتهمْ. وقيل: كانَ انحناءً كالركوعِ، ولمْ يكنْ خرورًا على الأرضِ، وهكذا كانَ سلامهمْ بالتكفي والانحناءِ، وقدْ نسخَ اللهُ ذلكَ كلهُ في شرعنا، وجعلَ الكلامَ بدلًا عنِ الانحناءِ.

وأجمعَ المفسرونَ أنَّ ذلكَ السجودَ على أيِّ وجهٍ كانَ فإنما كانَ تحيةً لا عبادةً، قالَ قتادةُ: هذهِ كانتْ تحيةَ الملوكِ عندهمْ، وأعطى اللهُ هذهِ الأمةَ السلامَ تحيةَ أهلِ الجنةِ.

قلتُ: هذا الانحناءُ والتكفي الذي نسخَ عنا قدْ صارَ عادةً بالديارِ المصريةِ، وعندَ العجمِ، وكذلكَ قيامُ بعضهمْ إلى بعضٍ، حتى إنَّ أحدهمْ إذا لمْ يقمْ لهُ وجدَ في نفسهِ كأنهُ لا يؤبهُ بهِ، وأنهُ لا قدرَ لهُ، وكذلكَ إذا التقوا انحنى بعضهمْ لبعضٍ، عادةٌ مستمرةٌ، ووراثةٌ مستقرةٌ لا سيما عندَ التقاءِ الأمراءِ والرؤساءِ. نكبوا عنِ السَّنَنِ، وأعرضوا عنِ السُنَنِ. وروى أنسُ بنُ مالكٍ قالَ: قلنا يا رسولَ اللهِ أينحني بعضنا إلى بعضٍ إذا التقينا؟ قالَ: «لا»، قلنا: أفيعتنقُ بعضنا بعضًا؟ قالَ «لا». قلنا: أفيصافحُ بعضنا بعضًا؟ قالَ «نعمْ». خرجهُ أبو عمرَ في (التمهيدِ).

فإن قيل: فقدْ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «قوموا إلى سيدكمْ وخيركمْ» - يعني سعدَ بنَ معاذٍ- قلنا: ذلكَ مخصوصٌ بسعدٍ لما تقتضيهِ الحالُ المعينةُ، وقدْ قيلَ: إنما كانَ قيامهمْ لينزلوهُ عنِ الحمارِ، وأيضًا فإنهُ يجوزُ للرجلِ الكبيرِ إذا لمْ يؤثرْ ذلكَ في نفسهِ، فإنْ أثرَ فيهِ وأعجبَ بهِ ورأى لنفسهِ حظًا لمْ يجزْ عونهُ على ذلكَ، لقولهِ ﷺ: «منْ سرهُ أنْ يتمثلَ لهُ الناسُ قيامًا فليتبوأْ مقعدهُ منَ النارِ». وجاءَ عنِ الصحابةِ رضوانُ اللهِ عليهمْ أجمعينَ أنهُ لمْ يكنْ وجهٌ أكرمُ عليهمْ منْ وجهُ رسولِ اللهِ ﷺ، وما كانوا يقومونَ لهُ إذا رأوهُ، لما يعرفونَ منْ كراهتهِ لذلكَ.

الثالثة: فإن قيل: فما تقولُ في الإشارةِ بالإصبعِ؟ قيلَ لهُ: ذلكَ جائزٌ إذا بعدَ عنكَ، لتُعينَ لهُ بهِ وقتَ السلامِ، فإنْ كانَ دانيًا فلا، وقدْ قيلَ بالمنعِ في القربِ والبعدِ، لما جاءَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «منْ تشبهَ بغيرنا فليسَ منا». وقالَ: «لا تسلموا تسليمَ اليهودِ والنصارى فإنَّ تسليمَ اليهودِ بالأكفِّ والنصارى بالإشارةِ». وإذا سلمَ فإنهُ لا ينحني، ولا أنْ يقبلَ معَ السلامِ يدهُ، ولأنَّ الانحناءَ على معنى التواضعِ لا ينبغي إلا للهِ.

وأما تقبيلُ اليدِ فإنهُ منْ فعلِ الأعاجمِ، ولا يتبعونَ على أفعالهمُ التي أحدثوها تعظيمًا

منهمْ لكبرائهمْ، قالَ النبيُّ ﷺ: «لا تقوموا عندَ رأسي كما تقومُ الأعاجمُ عندَ رؤوسِ أكاسرتها» فهذا مثلهُ. ولا بأسَ بالمصافحةِ، فقدْ صافحَ النبيُّ ﷺ جعفرَ بنَ أبي طالبٍ حينَ قدمَ منَ الحبشةِ، وأمرَ بها، وندبَ إليها، وقالَ: «تصافحوا يذهبِ الغلُّ» وروى غالبٌ التمارُ عنِ الشعبيِّ أنَّ أصحابَ النبيِّ ﷺ كانوا إذا التقوا تصافحوا، وإذا قدموا منْ سفرٍ تعانقوا.

فإن قيل: فقدْ كرهَ مالكٌ المصافحةَ؟ قلنا: روى ابنُ وهبٍ عنْ مالكٍ أنهُ كرهَ المصافحةَ والمعانقةَ، وذهبَ إلى هذا سحنونٌ وغيرهُ منْ أصحابنا، وقدْ رويَ عنْ مالكٍ خلافَ ذلكَ منْ جوازِ المصافحةِ، وهوَ الذي يدلُّ عليهِ معنى ما في الموطأِ، وعلى جوازِ المصافحةِ جماعةُ العلماءِ منَ السلفِ والخلفِ. قالَ ابنُ العربيِّ: إنما كرهَ مالكٌ المصافحةَ لأنهُ لمْ يرها أمرًا عامًا في الدينِ، ولا منقولًا نقلَ السلامِ، ولوْ كانتْ منهُ لاستوى معهُ. قلتُ: قدْ جاءَ في المصافحةِ حديثٌ يدلُّ على الترغيبِ فيها، والدأبِ عليها والمحافظةِ، وهوَ ما رواهُ البراءُ بنُ عازبٍ قالَ: لقيتُ رسولَ اللهِ ﷺ فأخذَ بيديَّ فقلتُ: يا رسولَ اللهِ! إنْ كنتُ لأحسبُ أنَّ المصافحةَ للأعاجمِ؟ فقالَ: «نحنُ أحقُّ بالمصافحةِ منهمْ ما من مسلمينِ يلتقيانِ فيأخذُ أحدهما بيدِ صاحبهِ مودةً بينهما ونصيحة إلا ألقيت ذنوبها بينهما».

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ ولمْ يقلْ منَ الجبِّ استعمالًا للكرمِ، لئلا يذكرَ إخوتهُ صنيعهمْ بعدَ عفوهِ عنهمْ بقولهِ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾. قلتُ: وهذا هوَ الأصلُ عندَ مشايخِ الصوفيةِ: ذكرُ الجفا في وقتِ الصفا جفا، وهوَ قولٌ صحيحٌ دل عليه الكتاب.

وقيل: لأن دخول السجنَ كانَ باختيارهِ بقولهِ: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ وكانَ في الجبِّ بإرادةِ اللهِ تعالى لهُ. وقيل: لأنهُ كانَ في السجنِ معَ اللصوصِ والعصاةِ، وفي الجبِّ معَ اللهِ تعالى، وأيضًا فإنَّ المنةَ في النجاةِ منَ السجنِ كانتْ أكبر، لأنه دخله بسبب أمر همَّ بهِ، وأيضًا دخلهُ باختيارهِ إذْ قالَ: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ﴾ فكانَ الكربُ فيهِ أكثرَ، وقال فيه أيضا: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ فعوقبَ فيهِ.

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ يروى أنَّ مسكنَ يعقوبَ كانَ بأرضِ كنعانَ، وكانوا أهلُ مواشٍ وبريةٍ، وقيل: كانَ يعقوبُ تحولَ إلى باديةٍ وسكنها، وأنَّ اللهَ لمْ يبعثْ نبيًا منْ أهلِ

البادية. وقيل: إنهُ كانَ خرجَ إلى بدا، وهوَ موضعٌ.

﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ أي أفسدَ ما بيني وبينَ إخوتي، أحالَ ذنبهمْ على الشيطانِ تكرمًا منهُ ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ أيْ رفيقٌ بعباده. وقالَ الخطابيُّ: اللطيفُ هوَ البرُّ بعبادهِ الذي يلطفُ بهمْ منْ حيثُ لا يعلمونَ، ويسببُ لهمْ مصالحهمْ منْ حيثُ لا يحتسبونَ، كقولهِ: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ﴾. وقيل: اللطيفُ العالمُ بدقائقِ الأمورِ، والمرادُ هنا الإكرامُ والرفقُ.

قالَ أهلُ التواريخ: أقامَ يعقوبُ بمصرَ أربعًا وعشرينَ سنةً في أغبطِ حالٍ ونعمةٍ، وماتَ بمصرَ، وأوصى إلى ابنهِ يوسفَ أنْ يحملَ جسدهُ حتى يدفنهُ عندَ أبيهِ إسحاقَ بالشامِ ففعلَ، ثمَّ انصرفَ إلى مصرَ.

قوله تعالى: ﴿۞رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ قالَ قتادةُ: لمْ يتمنَّ الموتَ أحدٌ، نبيٌّ ولا غيرهُ إلا يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حينَ تكاملتْ عليهِ النعمُ وجمعَ لهُ الشملُ اشتاقَ إلى لقاءِ ربهِ عزَّ وجلَّ. وقيل: إنَّ يوسفَ لمْ يتمنَّ الموتَ، وإنما تمنى الوفاةَ على الإسلامِ، أيْ إذا جاءَ أجلي توفني مسلمًا، وهذا قولُ الجمهورِ.

وثبتَ في الصحيحِ عنْ أنسٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا يتمنينَّ أحدكمُ الموتَ لضرٍّ نزلَ بهِ فإنْ كانَ لا بدَّ متمنيًا فليقلِ اللهمَّ أحيني ما كانتِ الحياةُ خيرا لي وتوفني إذا كانتِ الوفاةُ خيرًا لي» رواهُ مسلمٌ. وفيهِ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا يتمنينَّ أحدكمُ الموتَ ولا يدعُ بهِ منْ قبلِ أنْ يأتيهُ إنهُ إذا ماتَ أحدكمُ انقطعَ عملهُ وإنهُ لا يزيدُ المؤمنَ عمرهُ إلا خيرًا». وإذا ثبتَ هذا فكيفَ يقالُ: إنَّ يوسفَ ﷺ تمنى الموتَ والخروجَ منَ الدنيا وقطعَ العملِ؟ هذا بعيدٌ! إلا أنْ يقالَ: إنَّ ذلكَ كانَ جائزًا في شرعهِ، أمَا إنهُ يجوزُ تمني الموتِ والدعاءِ بهِ عندَ ظهورِ الفتنِ وغلبتها، وخوفِ ذهابِ الدينِ.

وَ ﴿مِنَ﴾ منْ قولهِ: ﴿مِنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ للتبعيضِ، وكذلكَ قولهُ: ﴿وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ لأنَّ ملكَ مصرَ ما كانَ كلَّ الملكِ، وعلمُ التعبيرِ ما كانَ كلَّ العلومِ. وقيل: ﴿مِنَ﴾ للجنسِ كقوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾، وقيل: للتأكدِ. أيْ آتيتني الملكَ

وعلمتني تأويلَ الأحاديث.

قوله تعالى: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ نصبَ على النعتِ للنداءِ، وهوَ ربٌّ، وهوَ نداءٌ مضافٌ، والتقديرُ: يا ربِّ! ويجوزُ أنْ يكونَ نداءً ثانيًا. والفاطرُ الخالقُ، فهوَ سبحانهُ فاطرُ الموجوداتِ، أيْ خالقها ومبدئها ومنشئها ومخترعها على الإطلاقِ من غيرِ شيءٍ، ولا مثالٍ سبقَ.

﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾ أيْ ناصري ومتولي أموري في الدنيا والآخرةِ ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ يريدُ آباءهُ الثلاثةَ، إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ، فتوفاهُ اللهُ طاهرًا طيبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ بمصرَ، ثمَّ كانَ بينَ يوسفَ وموسى أممٌ وقرونٌ، وكانَ فيما بينهما شعيبٌ، صلواتُ اللهِ وسلامهُ عليهمْ أجمعين.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبرٌ ثانٍ ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أيْ معَ إخوةِ يوسفَ ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ﴾ في إلقاءِ يوسفَ في الجبِّ ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ أيْ بيوسفَ في إلقائهِ في الجبِّ. وقيل: ﴿يَمْكُرُونَ﴾ بيعقوبَ حينَ جاءوهُ بالقميصِ ملطخًا بالدمِ، أيْ ما شاهدتَ تلكَ الأحوالَ، ولكنَّ اللهَ أطلعكَ عليها.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ ظنَّ أنَّ العربَ لما سألتهُ عنْ هذهِ القصةِ وأخبرهمْ يؤمنونَ، فلمْ يؤمنوا، فنزلتِ الآيةُ تسليةً للنبيِّ ﷺ، أيْ ليسَ تقدرُ على هدايةِ منْ أردتَ هدايتهُ، تقولُ: حرَصَ يحرَصُ، مثلُ: ضربَ يضربُ. وفي لغةٍ ضعيفةٍ حرِصَ يحرَصُ مثلُ حمدَ يحمدُ. والحرصُ طلبُ الشيءِ باختيارٍ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ ﴿مِن﴾ صلةٍ، أيْ ما تسألهمْ جعلًا ﴿إِنْ هُوَ﴾ أيْ ما هوَ، يعني القرآن والوحي ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي عظة وتذكرة ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قالَ الخليلُ وسيبويهِ: هيَ «أيْ» دخلَ عليها كافُ التشبيهِ وبنيتْ معها، فصارَ في الكلامِ معنى كمْ، وقيل الآياتُ آثارُ عقوباتِ

الأممِ السالفةِ، ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ١٠٥﴾ أيْ همْ غافلونَ معرضونَ عنْ تأملها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ١٠٦﴾ نزلتْ في قوم أقروا باللهِ خالقهمْ وخالقِ الأشياءِ كلها، وهمْ يعبدون الأوثان، قاله أكثرُ المفسرينَ، وقيل أهلُ كتابٍ معهمْ شركٌ وإيمانٌ، آمنوا باللهِ وكفروا بمحمدٍ ﷺ، فلا يصحُّ إيمانهمْ، وقالَ ابنُ عباسٍ: نزلتْ في تلبيةِ مشركي العربِ: لبيكَ لا شريكَ لكَ إلا شريكًا هوَ لكَ تملكهُ وما ملكَ، وعنهُ أيضًا أنهمُ النصارى. وقيل: نزلتْ في المنافقينَ، المعنى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ أيْ باللسانِ إلا وهوَ كافرٌ بقلبهِ، وقالَ عطاءٌ: هذا في الدعاءِ، وذلكَ أنَّ الكفارَ ينسونَ ربهمْ في الرخاءِ، فإذا أصابهمُ البلاءُ أخلصوا في الدعاءِ، بيانهُ: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ الآيةَ. وقولهُ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ الآيةَ. وفي آيةٍ أخرى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾. وقيل: معناها أنهمْ يدعونَ اللهَ ينجيهمْ منَ الهلكةِ، فإذا أنجاهمْ قالَ قائلهمْ: لولا فلانٌ ما نجونا، ولولا الكلبُ لدخلَ علينا اللصُّ، ونحوَ هذا، فيجعلونَ نعمةَ اللهِ منسوبةً إلى فلانٍ، ووقايتهُ منسوبةً إلى الكلبِ.

قلتُ: وقدْ يقعُ في هذا القولِ والذي قبلهُ كثيرٌ منْ عوامِّ المسلمينَ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ عذابٌ يغشاهمْ، نظيرهُ. ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾.

﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يعني القيامةَ ﴿بَغْتَةً﴾ نصبَ على الحالِ، وأصلهُ المصدرُ، ومعنى: ﴿بَغْتَةً﴾ إصابةٌ منْ حيثُ لمْ يتوقعْ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٠٧﴾ وهوَ توكيدٌ. وقولهُ: ﴿بَغْتَةً﴾ قالَ ابنُ عباسٍ: تصيحُ الصيحةُ بالناسِ وهمْ في أسواقهمْ ومواضعهمْ، كما قالَ: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ، أيْ قلْ يا محمدُ هذهِ طريقي وسنتي ومنهاجي ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أيْ على يقينٍ وحقٍّ، ومنهُ: فلانٌ مستبصرٌ بهذا ﴿أَنَا۠﴾ توكيدٌ

﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ عطفٌ على المضمرِ ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أيْ قلْ يا محمدُ: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾ الذين يتخذون من دون الله أندادا.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ هذا رد على القائلين: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾ أيْ أرسلنا رجالًا ليسَ فيهمُ امرأةٌ ولا جنيٌّ ولا ملكٌ، وهذا يردُّ ما يروى عنِ النبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «إنَّ في النساءِ أربعُ نبياتٍ حواءُ وآسيةُ وأمُّ موسى ومريمُ».

﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ يريدُ المدائنَ، ولمْ يبعثِ اللهُ نبيًا منْ أهلِ الباديةِ لغلبةِ الجفاءِ والقسوةِ على أهلِ البدوِ، ولأنَّ أهلَ الأمصارِ أعقلُ وأحلمُ وأفضلُ وأعلمُ. قالَ الحسنُ: لمْ يبعثِ اللهُ نبيًا منْ أهلِ الباديةِ قطُّ، ولا منَ النساءِ، ولا منَ الجنِّ. وقالَ قتادةُ: ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ أيْ منْ أهلِ الأمصارِ، لأنهمْ أعلمُ وأحلمُ. وقالَ العلماءُ: منْ شرطِ الرسولِ أنْ يكونَ رجلًا آدميًا مدنيًا، وإنما قالوا آدميًا تحرزًا، منْ قوله: ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿۞أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ﴾ إلى مصارعِ الأممِ المكذبةِ لأنبيائهمْ فيعتبروا ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ﴾ ابتداءٌ وخبرهُ. وقريء: «وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ». وقرأ نافعٌ وعاصمٌ ويعقوبُ وغيرهمْ ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾ بالتاءِ على الخطابِ. الباقونَ بالياءِ على الخبرِ.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ أيْ يئسوا منْ إيمانِ قومهمْ. ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِّبُواْ﴾ بالتشديدِ، أيْ أيقنوا أنَّ قومهمْ كذّبوهمْ. وقيلَ: المعنى: حسبوا أنَّ منْ آمنَ بهمْ منْ قومهمْ كذّبوهمْ، لا أنَّ القومَ كذَّبوا، ولكنَّ الأنبياءَ ظنوا وحسبوا أنهمْ يكذبونهمْ، أيْ خافوا أنْ يدخلَ قلوبَ أتباعهمْ شكٌّ، فيكونُ ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ على بابهِ في هذا التأويلِ.

وقرأ عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ «كُذِبُوا» بالتخفيفِ، أيْ ظنَّ القومُ أنَّ الرسلَ كذَبوهمْ فيما أخبروا به من العذاب، ولمْ يصدقوا. وقيل: المعنى ظنَّ الأممُ أنَّ الرسلَ قدْ كُذبوا فيما وُعِدوا بهِ منْ نصرهمْ.

وفي روايةٍ عنِ ابنِ عباسٍ، ظنَّ الرسلُ أنَّ اللهَ أخلفَ ما وعدهمْ. وقيل: لمْ تصحَّ هذهِ

الروايةُ، لأنهُ لا يظنُّ بالرسلِ هذا الظنُّ، ومنْ ظنَّ هذا الظنَّ لا يستحقُّ النصرَ، فكيفَ قالَ: ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾؟!

قال القشيري أبو نصر: ولا يبعد إن صحتِ الروايةُ أنَّ المرادَ خطرَ بقلوبِ الرسلِ هذا منْ غيرِ أنْ يتحققوهُ في نفوسهمْ، وفي الخبرِ: «إنَّ اللهَ تعالى تجاوزَ لأمتي عما حدثتْ بهِ أنفسها ما لمْ ينطقْ بهِ لسانٌ أوْ تعملْ بهِ». ويجوزُ أنْ يقالَ: قربوا منْ ذلكَ الظنِّ، كقولكَ: بلغتُ المنزلَ، أيْ قربتُ منهُ.

وعنِ ابنِ عباسٍ قالَ: كانوا بشرًا فضعفوا منْ طولِ البلاءِ، ونسوا وظنوا أنهمْ أخلفوا، ثمَّ تلا: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ﴾.

وقالَ الترمذيُّ الحكيمُ: وجههُ عندنا أنَّ الرسلَ كانتْ تخافُ بعدما وعدَ اللهُ النصرَ، لا منْ تهمةٍ لوعدِ اللهِ، ولكنْ لتهمةِ النفوسِ أنْ تكونَ قدْ أحدثتْ، حدثًا ينقضُ ذلكَ الشرطَ والعهدَ الذي عهدَ إليهمْ، فكانتْ إذا طالتْ عليهمُ المدةُ دخلهمُ الإياسُ والظنونُ منْ هذا الوجهِ.

وفي البخاريِّ عنْ عروةَ عنْ عائشةَ قالتْ لهُ وهوَ يسألها عنْ قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ قالَ قلتُ: أكُذِبوا أمْ كُذِّبوا؟ قالتْ عائشةُ: كُذِّبوا. قلتُ: فقدِ استيقنوا أنَّ قومهمْ كذَّبوهمْ فما هوَ بالظنِّ؟ قالتْ: أجلَّ! لعمري! لقدِ استيقنوا بذلكَ، فقلتُ لها: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾ قالتْ: معاذَ اللهِ! لمْ تكنِ الرسلُ تظنُّ ذلكَ بربها. قلتُ: فما هذهِ الآيةُ؟ قالتْ: همْ أتباعُ الرسلِ الذينَ آمنوا بربهمْ وصدقوهمْ، فطالَ عليهمُ البلاءُ، واستأخرَ عنهمُ النصر حتى إذا استيأس الرسل ممنْ كذبهمْ منْ قومهمْ، وظنتِ الرسلُ أنَّ أتباعهمْ قدْ كذبوهمْ جاءهمْ نصرنا عندَ ذلكَ.

وفي قوله تعالى: ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ قولانِ:

أحدهما– جاء الرسلَ نصرُ الله.

الثاني– جاءَ قومهمْ عذابُ اللهِ.

﴿فَنُنجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ﴾ قيلَ: الأنبياءُ ومنْ آمنَ معهمْ. ورويَ عنْ عاصمٍ ﴿فَنُجِّيَ مَن

﴿نَّشَآءُ﴾ بنونٍ واحدةٍ مفتوحةِ الياءِ، وَ ﴿مَن﴾ في موضعِ رفعٍ، اسمُ ما لمْ يسمَّ فاعلهُ، واختارَ أبو عبيدٍ هذهِ القراءةَ لأنها في مصحفِ عثمانَ، وسائرِ مصاحفَ البلدانِ بنونٍ واحدةٍ، وعلى قراءةِ الباقينَ نصبًا على المفعولِ ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا﴾ أيْ عذابنا ﴿عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾ أيِ الكافرينَ المشركين.

قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ﴾ أيْ في قصةِ يوسفَ وأبيهِ وإخوتهِ، أوْ في قصصِ الأممِ ﴿عِبۡرَةٞ﴾ أيْ فكرةٌ وتذكرةٌ وعظةٌ ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أيِ العقولِ ﴿مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ﴾ أيْ ما كانَ القرآنُ حديثًا يفترى، أوْ ما كانتْ هذهِ القصةُ حديثًا يفترى ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ أي ولكن كان تصديق، ويجوزُ الرفعُ بمعنى لكنْ هوَ تصديقُ الذي بينَ يديهِ أيْ ما كانَ قبلهُ منَ التوراةِ والإنجيلِ وسائرِ كتبِ اللهِ تعالى، وهذا تأويلُ منْ زعمَ أنهُ القرآنُ ﴿وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ مما يحتاجُ العبادُ إليهِ منَ الحلالِ والحرامِ، والشرائعِ والأحكامِ ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾.

سورة الرعد

مكيةٌ، ومدنيةٌ في قول، وقالَ ابنُ عباسٍ وقتادةُ: مدنيةٌ إلا آيتينِ منها نزلتا بمكةَ، وهما قولهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ إلى آخرهما.

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تقدمَ القولُ فيها ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني وهذا القرآنُ الذي أنزلَ إليكَ ﴿مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ لا كما يقولُ المشركونَ: إنكَ تأتي بهِ منْ تلقاءِ نفسكَ، فاعتصمْ بهِ، واعملْ بما فيهِ. ﴿وَٱلَّذِىٓ﴾ في موضعِ رفعٍ عطفًا على ﴿ءَايَٰتُ﴾ أوْ على الابتداءِ، وَ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبرهُ، ويجوزُ أنْ يكونَ موضعهُ جرًا على تقديرِ: وآياتُ الذي أنزلَ إليكَ، وارتفاعُ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ على هذا على إضمارِ مبتدأٍ، تقديرهُ: ذلكَ الحقُّ، كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ﴾ يعني ذلكَ الحقّ.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ الآيةَ. لمّا بينَ تعالى أنَّ القرآنَ حقٌّ، بينَ أنَّ منْ أنزلهُ قادرٌ على الكمالِ، فانظروا في مصنوعاتهِ لتعرفوا كمالَ قدرتهِ، وفي قولهِ: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ قولانِ:

أحدهما– أنها مرفوعةٌ بغيرِ عمدٍ ترونها.

الثاني– لها عمدٌ، ولكنا لا نراهُ.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أيْ ذللهما لمنافعِ خلقهِ ومصالحِ عبادهِ، وكلُّ مخلوقٍ مذللٌ للخالقِ ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أيْ إلى وقتٍ معلومٍ، وهوَ فناءُ الدنيا، وقيامُ الساعةِ التي عندها تكورُ الشمسُ، ويخسفُ القمرُ، وتنكدرُ النجومُ، وتنتثرُ الكواكبُ ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أيْ يصرفهُ على ما يريدُ ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أيْ يبينها أيْ منْ قدرَ على هذهِ الأشياءِ يقدرُ على الإعادةِ، ولهذا قالَ: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أيْ بسطها طولًا وعرضًا ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أيْ جبالًا ثوابتَ، واحدها راسيةٌ، لأنَّ الأرضَ ترسو بها، أيْ تثبتُ، والإرساءُ الثبوتُ، قالَ عنترةُ:

فصبرتُ عارفةً لذلكَ حرة ترسوا إذا نفسُ الجبانِ تطلعُ

وقالَ ابنُ عباسٍ وعطاءٌ: أولُ جبلٍ وضعَ على الأرضِ أبو قبيسٍ.

مسألةٌ: في هذهِ الآيةِ ردٌّ على منْ زعمَ أنَّ الأرضَ كالكرةِ، والذي عليهِ المسلمونَ وأهلُ الكتابِ القولُ بوقوفِ الأرضِ وسكونها ومدها، وأنَّ حركتها إنما تكونُ في العادةِ بزلزلةٍ تصيبها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ أيْ مياهًا جاريةً في الأرضِ، فيها منافعُ الخلقِ ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ بمعنى صنفينِ، وقيل: معنى ﴿زَوْجَيْنِ﴾ نوعانِ، كالحلوِ والحامضِ، والرطبِ واليابسِ، والأبيضِ والأسودِ، والصغيرِ والكبيرِ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ أيْ دلالاتٍ وعلاماتٍ ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ في الكلامِ حذفٌ، المعنى: وفي الأرضِ قطعٌ متجاوراتٌ وغيرُ متجاوراتٍ، كما قالَ: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ والمعنى: وتقيكمُ البردَ، ثمَّ حذفَ لعلمِ السامعِ، والمتجاوراتُ المدنُ وما كانَ عامرًا، وغيرُ متجاوراتٍ الصحاري وما كانَ غيرَ عامرٍ.

الثانية: قولهُ تعالى: ﴿مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ أيْ قرى متدانياتٌ، ترابها واحدٌ، وماؤها واحدٌ،

وفيها زروعٌ وجناتٌ، ثمَّ تتفاوتُ في الثمارِ والتمرِ، فيكونُ البعضُ حلوًا، والبعضُ حامضًا، والغصنُ الواحدُ منَ الشجرةِ قدْ يختلفُ الثمرُ فيهِ منَ الصغرِ والكبرِ واللونِ والمطعمِ، وإنِ انبسطَ الشمسُ والقمرُ على الجميعِ على نسقٍ واحدٍ، وفي هذا أدلُّ دليلٍ على وحدانيتهِ وعظمِ صمديتهِ، والإرشادُ لمنْ ضلَّ عنْ معرفتهِ، فإنهُ نبهَ سبحانهُ بقولهِ: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ على أنَّ ذلكَ كلهُ ليسَ إلا بمشيئتهِ وإرادتهِ، وأنهُ مقدورٌ بقدرتهِ، وهذا أدلُّ دليلٍ على بطلانِ القولِ بالطبعِ، إذْ لوْ كانَ ذلكَ بالماءِ والترابِ والفاعلُ لهُ الطبيعةُ لما وقعَ الاختلافُ.

وقيل: وجهُ الاحتجاجِ أنهُ أثبتَ التفاوتَ بينَ البقاعِ، فمنْ تربةٍ عذبةٍ، ومنْ تربةٍ سبخةٍ معَ تجاورهما، وهذا أيضًا منْ دلالاتِ كمالِ قدرتهِ، جلَّ وعزَّ تعالى عما يقولُ الظالمونَ والجاحدونَ علوا كبيرا.

الثالثة: ذهبتِ الكفرةُ- لعنهمُ اللهُ- إلى أنَّ كلَّ حادثٍ يحدثُ بنفسهِ لا منْ صانعٍ، وادعوا ذلكَ في الثمارِ الخارجةِ منَ الأشجارِ، وقدْ أقروا بحدوثها، وأنكروا محدثها، وأنكروا الأعراضَ.

وقالت فرقة: بحدوث الثمار لا من صانعٍ، وأثبتوا للأعراضِ فاعلًا، والدليلُ على أنَّ الحادثَ لا بدَّ لهُ منْ محدثٍ أنهُ يحدثُ في وقتٍ، ويحدثُ ما هوَ منْ جنسهِ في وقتٍ آخرَ، فلوْ كانَ حدوثهُ في وقتهِ لاختصاصهِ بهِ لوجبَ أنْ يحدثَ في وقتهِ كلُّ ما هوَ منْ جنسهِ، وإذا بطلَ اختصاصهُ بوقتهِ صحَّ أنَّ اختصاصهُ بهِ لأجلِ مخصصٍ خصصهُ بهِ، ولولا تخصيصهُ إياهُ بهِ لمْ يكنْ حدوثهُ في وقتهِ أولى منْ حدوثهِ قبلَ ذلكَ أوْ بعدهُ، واستيفاءُ هذا في علمِ الكلامِ.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ﴾ قرأ الحسنُ: «وَجَنَّاتٍ» بكسرِ التاءِ، على

تقديرِ: وجعلَ فيها جناتٍ، فهوَ محمولٌ على قولهِ: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾. الباقونَ: ﴿جَنَّتٌ﴾ بالرفعِ على تقديرِ: وبينهما جناتٌ ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ بالرفعِ. ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو وحفصٌ عطفًا على الجناتِ، أيْ على تقديرِ: وفي الأرضِ زرعٌ ونخيلٌ. وخفضها الباقونَ نسقًا على الأعنابِ، فيكونُ الزرعُ والنخيلُ منَ الجناتِ، «صِنْوانٌ» جمعُ صنوٍ، وهيَ النخلاتُ والنخلتانِ، يجمعهنَّ أصلٌ واحدٌ، وتتشعبُ منهُ رءوسٌ فتصيرُ نخيلًا، نظيرها قنوانِ، واحدها قنوٌ.

يقالُ للنخلةِ إذا كانتْ فيها نخلةٌ أخرى أوْ أكثرُ صنوانٌ. والصنوُ المثلُ، ومنهُ قولُ النبيِّ ﷺ: «عمُّ الرجلِ صنوُ أبيهِ». ولا فرقَ فيها بينَ التثنيةِ والجمعِ، ولا بالإعرابِ، فتعربُ نونُ الجمعِ، وتكسرُ نونُ التثنيةِ.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ كصالحِ بني آدمَ وخبيثهمْ، أبوهمْ واحدٌ، وقرأ عاصمٌ وابنُ عامرٍ: ﴿يُسْقَىٰ﴾ بالياءِ، أيْ يسقى ذلكَ كلهُ. وقرأ الباقونَ بالتاءِ، لقولهِ: ﴿جَنَّتٌ﴾، قال أبو عمرو: والتأنيث أحسن، لقوله: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ ولمْ يقلْ بعضهُ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وغيرهما «وَيُفَضِّلُ» بالياء ردا على قوله: «يُدَبِّرُ الأمر» و «يُفَصِّلُ» و «يُغْشِي» الباقونَ بالنونِ على معنى: ونحنُ نفضلُ.

قالَ الحسنُ: المرادُ بهذهِ الآيةِ المثلُ، ضربهُ اللهُ تعالى لبني آدمَ، أصلهمْ واحدٌ، وهمْ مختلفونَ في الخيرِ والشرِّ. والإيمانِ والكفرِ، كاختلافِ الثمارِ التي تسقى بماءٍ واحدٍ.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أيْ لعلاماتٍ لمنْ كانَ لهُ قلب يفهم عن الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿*وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ﴾ أيْ إنْ تعجبْ يا محمدُ منْ تكذيبِهِمْ لكَ بعد ما كنتَ عندهمُ الصادقَ الأمينَ فأعجبُ منهُ تكذيبهمْ بالبعثِ، واللهُ تعالى لا يتعجبُ، ولا يجوزُ عليهِ التعجبُ، لأنهُ تغيرُ النفسِ بما تخفى أسبابهُ[1]، وإنما ذكرَ ذلكَ ليتعجبَ منهُ نبيهُ والمؤمنونَ. وقيلَ: المعنى: أيْ إنْ عجبتَ يا محمدُ منْ إنكارِهمُ الإعادةَ معَ إقرارِهمْ بأني خالقُ السماواتِ والأرضِ والثمارِ المختلفةِ منَ الأرضِ الواحدةِ فقولهمْ عجبٌ يعجبُ منهُ الخلقُ، لأنَّ الإعادةَ في معنى الابتداءِ. وقيل: الآيةُ في منكري الصانعِ، أيْ إنْ تعجبْ منْ إنكارِهمُ الصانعَ معَ الأدلةِ الواضحةِ بأنَّ المتغيرَ لا بدَّ لهُ منْ مغيرٍ فهوَ محلُّ التعجبِ، ونظمُ الآيةِ يدلُّ على الأولِ والثاني، لقولِهِ: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ أيْ: أنبعثُ إذا كنا ترابًا؟! ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ﴾ وقرئ «إِنَّا».

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ﴾ ﴿ٱلۡأَغۡلَٰلُ﴾ جمعُ غلٍّ، وهوَ طوقٌ تشدُّ بهِ اليدُ إلى العنقِ، أيْ يغلونَ يومَ القيامةِ، بدليلِ قولِهِ: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ﴾ إلى قولِه: ﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾. وقيل: الأغلالُ أعمالهمُ السيئةُ التي هيَ لازمةٌ لهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥﴾.

---

(١) هذا مذهب أهل التأويل كما تقدم غير مرة، وصفة التعجب ثابتة لله تعالى بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة على الوجه اللائق به سبحانه ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾:

– قال تعالى: ﴿بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ١٢﴾، وفي قراءة: ﴿عَجِبۡتُ﴾.

– وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه عنْ النبيِّ ﷺ قالَ: «عجبَ اللهُ منْ قومٍ يدخلونَ الجنةَ في السلاسلِ». رواه البخاري

– وعنْ عقبةَ بن عامرٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ليعجبُ منْ الشابِّ ليستْ لهُ صبوةٌ».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

وأما قوله: «التعجب استعظام للمتعجب منه». فيقال: نعم؛ وقد يكون مقرونا بجهل بسبب التعجب، وقد يكون لما خرج عن نظائره، والله تعالى بكل شيء عليم، فلا يجوز عليه أن لا يعلم سبب ما تعجب منه؛ بل يتعجب لخروجه عن نظائره تعظيما له. والله تعالى يعظم ما هو عظيم: إما لعظمة سببه، أو لعظمته. فإنه وصف بعض الخير بأنه عظيم. ووصف بعض الشر بأنه عظيم.

ولهذا قال تعالى: ﴿بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ١٢﴾ على قراءة الضم، فهنا هو عجب من كفرهم مع وضوح الأدلة. وقال النبي ﷺ للذي آثر هو وامرأته ضيفهما: «لقد عجب الله» وفي لفظ في الصحيح: «لقد ضحك الله الليلة من صنعكما البارحة».

قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ أيْ لفرطِ إنكارِهمْ وتكذيبهمْ يطلبونَ العذابَ، قيلَ هوَ قولهمْ: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. قالَ قتادةُ: طلبوا العقوبةَ قبلَ العافيةِ، وقدْ حكمَ سبحانهُ بتأخيرِ العقوبةِ عنْ هذهِ الأمةِ إلى يومِ القيامةِ. وقيل: ﴿قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ أيْ قبلَ الإيمانِ الذي يرجى بهِ الأمانُ والحسناتُ ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾ ﴿ٱلۡمَثُلَٰتُ﴾ العقوبات، الواحدة مُثلة. كغرفةٍ وغرفاتٍ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ﴾ أيْ لذو تجاوزٍ عنِ المشركينَ إذا آمنوا، وعنِ المذنبينَ إذا تابوا. وقالَ ابنُ عباسٍ: أرجى آيةٍ في كتابِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ﴾. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٦﴾ إذا أصروا على الكفرِ.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ﴾ أيْ هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ﴾. لما اقترحوا الآياتِ وطلبوها قالَ اللهُ تعالى لنبيهِ ﷺ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ﴾ أيْ معلمٌ ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ٧﴾ أيْ نبيٌّ يدعوهمْ إلى اللهِ. وقيل: الهادي اللهُ، أيْ عليكَ الإنذارُ، واللهُ هادي كلِّ قومٍ إنْ أرادَ هدايتهم.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ٨ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ٩﴾، فيهِ سبع مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ أيْ منْ ذكرٍ وأنثى، صبيحٍ وقبيحٍ، صالحٍ وطالحٍ، وقدْ تقدمَ في سورةِ «الأنعام» أنَّ اللهَ سبحانهُ منفردٌ بعلمِ الغيبِ وحده لا شريكَ لهُ، وذكرنا هناكَ حديثَ البخاريِّ عنِ ابنِ عمرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «مفاتيحُ الغيبِ خمسٌ» الحديثَ. وفيهِ «لا يعلمُ ما تغيضُ الأرحامُ إلا اللهُ».

واختلف العلماء في تأويل قول: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ﴾ فقيل: المعنى ما تسقطُ قبلَ التسعةِ الأشهرِ، وما تزدادُ فوقَ التسعةِ، وقيل: إذا حاضتِ المرأةُ في حملها كانَ ذلكَ نقصانًا في ولدها، فإنْ زادتْ على التسعةِ كانَ تمامًا لما نقصَ، وقيل: الغيضُ ما تنقصهُ الأرحامُ منَ الدمِ، والزيادةُ ما تزداد منه. وقيل: الغيض والزيادة يرجعانِ إلى الولدِ، كنقصانِ إصبعٍ أوْ غيرها، وزيادةِ إصبعٍ أوْ غيرها. وقيل: الغيضُ انقطاعُ دمِ الحيضِ. ﴿وَمَا تَزۡدَادُۚ﴾

بدمِ النفاسِ بعدَ الوضعِ.

الثانية: في هذهِ الآيةِ دليلٌ على أنَّ الحاملَ تحيضُ، وهوَ مذهبُ مالكٍ والشافعيِّ في أحدِ قوليهِ، وقالَ أبو حنيفةَ: لا تحيضُ، ودليلنا الآيةُ. قالَ ابنُ عباسٍ في تأويلها: إنهُ حيضُ الحبالى، وكذلكَ رويَ عنْ عائشةَ، وأنها كانتْ تفتي النساءَ الحواملَ إذا حضنَ أنْ يتركنَ الصلاةَ والصحابةُ إذْ ذاكَ متوافرونَ، ولمْ ينكرْ منهمْ أحدٌ عليها، فصارَ كالإجماعِ. وذكرَ أنَّ رجلينِ تنازعا ولدًا، فترافعا إلى عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فعرضهُ على القافةِ، فألحقهُ القافةُ بهما، فعلاهُ عمرُ بالدرةِ، وسألَ نسوةً منْ قريشٍ فقالَ: انظرنَ ما شأنُ هذا الولدِ؟ فقلنَ: إنَّ الأولَ خلا بها وخلاها، فحاضتْ على الحملِ، فظنتْ أنَّ عدتها انقضتْ، فدخلَ بها الثاني، فانتعشَ الولدُ بماءِ الثاني، فقالَ عمرُ: اللهُ أكبرُ! وألحقهُ بالأولِ، ولمْ يقلْ إنَّ الحاملَ لا تحيضُ، ولا قالَ ذلكَ أحدٌ منَ الصحابةِ، فدلَّ أنهُ إجماعٌ، واللهُ أعلم.

احتج المخالف بأن قال لو كان الحاملُ تحيضُ، وكانَ ما تراهُ المرأةُ منَ الدمِ حيضًا لما صحَّ استبراءُ الأمةِ بحيضٍ، وهوَ إجماعٌ.

الثالثة: في هذهِ الآيةِ دليلٌ على أنَّ الحاملَ قدْ تضعُ حملها لأقلِّ منْ تسعةِ أشهرٍ وأكثرَ، وأجمعَ العلماءُ على أنَّ أقلَّ الحملِ ستةُ أشهرٍ، وروي أنَّ عبدَ الملكِ بنَ مروانَ ولد لستة أشهر.

الرابعة: وهذهِ الستةُ الأشهرُ هيَ بالأهلةِ كسائرِ أشهرِ الشريعةِ.

الخامسة: واختلفَ العلماءُ في أكثرِ الحملِ، فروي عنْ عائشةَ: يكونُ الحملُ أكثرَ منْ سنتينِ، وقيل: إنَّ أكثرهُ ثلاثُ سنينَ. وعنِ الشافعيِّ أربعُ، ورويَ عنْ مالكٍ في إحدى روايتيهِ، والمشهورُ عنهُ خمسُ سنينَ، الروايةُ الثالثة عنهُ لا حدَّ لهُ، ولوْ زادَ على العشرةِ الأعوامِ.

قالَ أبو عمرَ: ومنَ الصحابةِ منْ يجعلهُ إلى سبعٍ، والشافعيُّ: مدته عنده الغاية فيها أربعُ سنينَ. والكوفيونَ يقولونَ: سنتانِ لا غيرَ. ومحمدُ بنُ عبدِ الحكمِ يقولُ: سنةٌ لا أكثرَ. وداودُ يقولُ: تسعةُ أشهرٍ، لا يكونُ عندهُ حملٌ أكثرَ منها. قالَ أبو عمرَ: وهذهِ مسألةٌ لا أصلَ لها إلا الاجتهادُ، والردُّ إلى ما عرفَ منْ أمرِ النساءِ وباللهِ التوفيقُ.

روى الدارقطنيُّ عنِ الوليدِبنِ مسلمٍ قالَ: قلتُ لمالك بن أنسٍ إني حدثتُ عنْ عائشةَ أنها قالتْ: لا تزيدُ المرأةُ في حملها على سنتينِ قدرَ ظلِّ المغزلِ، فقالَ: سبحانَ اللهِ! منْ يقولُ هذا؟! هذهِ جارتنا امرأةُ محمدِ بنِ عجلانَ، تحملُ وتضعُ في أربعِ سنينَ، امرأةُ صدقٍ، وزوجها رجلُ صدقٍ، حملتْ ثلاثةَ أبطنٍ في اثنتيْ عشرةَ سنةٍ، تحملُ كلَّ بطنٍ أربع سنين.

وقالَ الضحاكُ: وضعتني أمي وقدْ حملتْ بي في بطنها سنتينِ، فولدتني وقدْ خرجتْ سني. ويذكرُ عنْ مالكٍ أنهُ حُملَ بهِ في بطنِ أمهِ سنتينِ، وقيل: ثلاثَ سنينَ. ويقالُ: إنَّ محمدَ بنَ عجلانَ مكثَ في بطنِ أمهِ ثلاثَ سنينَ، فماتتْ بهِ وهوَ يضطربُ اضطرابًا شديدًا، فشقَّ بطنها وأخرجَ وقدْ نبتتْ أسنانهُ.

السادسة: قالَ ابنُ خويز منداد: أقلُّ الحيضِ والنفاسِ وأكثرهُ وأقلُّ الحملِ وأكثرهُ مأخوذٌ منْ طريقِ الاجتهادِ، لأنَّ علمَ ذلكَ استأثرَ اللهُ بهِ، فلا يجوزُ أنْ يحكم في شيء منهُ إلا بقدرِ ما أظهرهُ لنا، ووجدَ ظاهرًا في النساءِ نادرًا أوْ معتادًا، ولما وجدنا امرأةً قدْ حملتْ أربعَ سنينَ وخمسَ سنينَ حكمنا بذلكَ، والنفاسُ والحيضُ لما لمْ نجدْ فيهِ أمرًا مستقرًا رجعنا فيهِ إلى ما يوجدُ في النادرِ منهنَّ.

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ يعني منَ النقصانِ والزيادةِ. ويقالُ: ﴿بِمِقۡدَارٍ﴾ قدرِ خروجِ الولدِ من بطن أمه، وقدر مكثهِ في بطنها إلى خروجهِ. وقالَ قتادةُ: في الرزقِ والأجلِ. والمقدارُ القدرُ، وعمومُ الآيةِ يتناولُ كلَّ ذلكَ، واللهُ سبحانهُ أعلمُ.

قلتُ: هذهِ الآيةُ تمدَّحَ اللهُ سبحانهُ وتعالى بها بأنهُ ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أيْ هوَ عالمٌ بما غابَ عنِ الخلقِ، وبما شهدوهُ. فالغيبُ مصدرٌ بمعنى الغائبِ. والشهادةُ مصدرٌ بمعنى الشاهدِ، فنبهَ سبحانهُ على انفرادهِ بعلمِ الغيبِ، والإحاطةِ بالباطنِ الذي يخفى على الخلقِ، فلا يجوزُ أنْ يشاركهُ في ذلكَ أحدٌ، فأما أهلُ الطبِّ الذينَ يستدلونَ بالأماراتِ والعلاماتِ فإنْ قطعوا بذلكَ فهوَ كفرٌ، وإنْ قالوا إنها تجربةٌ تركوا وما همْ عليهِ، ولمْ يقدحْ ذلكَ في الممدوحِ، فإنَّ العادةَ يجوزُ انكسارها، والعلمُ لا يجوزُ تبدلهُ. وَ ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ الذي كلُّ شيء دونهُ ﴿ٱلۡمُتَعَالِ﴾ عما يقولُ المشركونَ، المستعلي على كل شيء بقدرتهِ وقهرهِ، وقدْ ذكرناهما في شرحِ الأسماءِ مستوفى، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ إسرارُ القولِ: ما حدثَ بهِ المرءُ نفسهُ، والجهرُ ما حدثَ بهِ غيرهُ، والمرادُ بذلكَ أنَّ اللهَ سبحانهُ يعلمُ ما أسرهُ الإنسانُ منْ خيرٍ وشرٍّ، كما يعلمُ ما جهرَ بهِ منْ خيرٍ وشرٍّ. وَ ﴿مِنكُمْ﴾ يحتملُ أنْ يكونَ وصفًا لـ ﴿سَوَآءٌ﴾ التقديرُ: سرُّ منْ أسرَّ وجهرُ منْ جهرَ سواءٌ منكمْ، ويجوزُ أن يتعلقَ بـ ﴿سَوَآءٌ﴾ على معنى: يستوي منكمْ ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ أيْ يستوي في علمِ اللهِ السرُّ والجهرُ، والظاهرُ في الطرقاتِ، والمستخفي في الظلماتِ.

وقالَ ابنُ عباسٍ: ﴿مُسْتَخْفٍ﴾ مستترٌ، ﴿وَسَارِبٌ﴾ ظاهرٌ. وقيل: ﴿مُسْتَخْفٍ﴾ بالمعاصي، ﴿وَسَارِبٌ﴾ ظاهرٌ. وقيل: معنى ﴿سَارِبٌ﴾ ذاهبٌ.

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ أيْ للهِ ملائكةٌ يتعاقبونَ بالليلِ والنهارِ، فإذا صعدتْ ملائكةُ الليلِ أعقبتها ملائكةُ النهارِ. وقالَ: ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ والملائكةُ ذكرانٌ لأنهُ جمعُ معقبةٍ، يقالُ: ملكٌ معقبٌ، وملائكةٌ معقبةٌ، ثمَّ معقباتٌ جمعُ الجمعِ. وقيل: أنثَ لكثرةِ ذلكَ منهمْ، نحو نسابة وعلامة وراوية، والتعقبُ العودُ بعدَ البدءِ، قالَ الله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أيْ لمْ يرجعْ، وفي الحديثِ: «معقباتٌ لا يخيب قائلهن -أو فاعلهن» فذكرَ التسبيحَ والتحميدَ والتكبيرَ.

وقولهُ: ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ أيِ المستخفي بالليلِ والساربِ بالنهارِ ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ اختلفَ في هذا الحفظِ، فقيلَ: يحتملُ أنْ يكونَ توكيلُ الملائكةِ بهمْ لحفظهمْ منَ الوحوشِ والهوامِّ والأشياءِ المضرةِ، لطفًا منهُ بهِ، فإذا جاءَ القدرُ خلوا بينهُ وبينهُ، وقيل: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أيْ بأمرِ اللهِ وبإذنهِ، فَ ﴿مِنْ﴾ بمعنى الباءِ، وحروفُ الصفاتِ يقومُ بعضها مقامَ بعضٍ. وقيل: ﴿مِنْ﴾ بمعنى عنْ، أيْ يحفظونهُ عنْ أمرِ اللهِ، وهذا قريبٌ منَ الأولِ، أيْ حفظهمْ عنْ أمرِ اللهِ لا منْ عندِ أنفسهمْ، ومنهُ قوله عز وجل: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ أيْ عنْ جوعٍ. وقيل: يحفظونهُ منْ ملائكةِ العذابِ، حتى لا تحلَّ بهِ عقوبةٌ، لأنَّ اللهَ لا يغيرُ ما بقومٍ منَ النعمةِ والعافيةِ حتى يغيروا ما بأنفسهمْ بالإصرارِ على الكفرِ، فإنْ أصروا حانَ نزلتْ بهمُ النقمةُ، وتزولُ عنهمُ الحفظةُ المعقباتُ.

وقيل: يحفظونهُ منَ الجنِّ، قالَ كعبٌ: لولا أنَّ اللهَ وكلَ بكمْ ملائكةً يذبونَ عنكمْ في مطعمكمْ ومشربكمْ وعوراتكمْ لتخطفتكمُ الجنُّ. وملائكةُ العذابِ منْ أمرِ اللهِ، وخصهمْ بأنْ قالَ: ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ لأنهمْ غيرُ معاينينَ، كما قالَ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أيْ ليسَ مما تشاهدونهُ أنتمْ.

وقيل: إنَّ المعنى يحفظونَ عليهِ عملهُ، فحذفَ المضافَ. وقيل: يكتبونَ أقوالهُ وأفعالهُ. ويجوزُ إذا كانتِ المعقباتُ الملائكةَ أنْ تكونَ الهاءُ في ﴿لَهُۥ﴾ للهِ عزَّ وجلَّ، كما ذكرنا، ويجوزُ أنْ تكونَ للمستخفي، فهذا قولٌ.

وقيل: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ يعني بهِ النبيَّ ﷺ، أيْ أنَّ الملائكةَ تحفظهُ منْ أعدائهِ، وقدْ جرى ذكرُ الرسولِ في قوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ أيْ سواءٌ منكمْ منْ أسرَّ القولَ ومنْ جهرَ بهِ في أنهُ لا يضرُّ النبيَّ ﷺ، بلْ لهُ معقباتٌ يحفظونهُ ﷺ، ويجوزُ أنْ يرجعَ هذا إلى جميعِ الرسلِ، لأنهُ قدْ قالَ: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أيْ يحفظونَ الهاديَ منْ بينِ يديهِ ومنْ خلفهِ.

وقولٌ رابعٌ- أنَّ المرادَ بالآيةِ السلاطينُ والأمراءُ الذينَ لهمْ قومٌ منْ بينِ أيديهمْ ومن خلفهم يحفظونهمْ، فإذا جاءَ أمرُ اللهِ لمْ يغنوا عنهمْ منَ اللهِ شيئًا، وقيل: إنَّ في الكلامِ على هذا التأويلِ نفيًا محذوفًا، تقديرهُ: لا يحفظونهُ منْ أمرِ اللهِ تعالى، قيل: ومنْ جعلَ المعقباتِ الحرسَ فالمعنى: يحفظونهُ منْ أمرِ اللهِ على ظنهِ وزعمهِ.

وقيل: سواءٌ منْ أسرَّ القولَ ومنْ جهرَ بهِ فلهُ حراسٌ وأعوانٌ يتعاقبونَ عليهِ فيحملونهُ على المعاصي، ويحفظونهُ منْ أنْ ينجعَ فيهِ وعظٌ. قالَ القشيريُّ: وهذا لا يمنعُ الربَّ منَ الإمهالِ إلى أنْ يحقَّ العذابَ، وهوَ إذا غيَّرَ هذا العاصي ما بنفسهِ بطولِ الإصرارِ فيصيرُ ذلكَ سببًا للعقوبةِ، فكأنهُ الذي يحلُّ العقوبةَ بنفسهِ، فقولهُ: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أيْ منَ امتثالِ أمرِ اللهِ.

وقيل: المعقباتُ ما يتعاقبُ منْ أمرِ اللهِ تعالى وقضائهِ في عبادهِ، قالَ الماورديُّ: ومنْ قالَ بهذا القولِ ففي تأويلِ قولهِ: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ وجهانِ:

أحدهما- يحفظونهُ منَ الموتِ ما لمْ يأتِ أجلٌ.

الثاني- يحفظونهُ منَ الجنِّ والهوامِّ المؤذيةِ، ما لمْ يأتِ قدرٌ.

والصحيحُ أنَّ المعقباتِ الملائكةُ، لقولِ النبيِّ ﷺ: «يتعاقبونَ فيكمْ ملائكةٌ بالليلِ وملائكةٌ بالنهارِ» الحديثَ، رواهُ الأئمةُ، وقال تعالى ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

قالَ العلماءُ رضوانُ اللهِ عليهمْ: إنَّ اللهَ سبحانهُ جعلَ أوامرهُ على وجهينِ:

أحدهما- قضى حلولهُ ووقوعهُ بصاحبهِ، فذلكَ لا يدفعهُ أحدٌ ولا يغيرهُ.

والآخرُ- قضى مجيئهُ ولمْ يقضِ حلولهُ ووقوعهُ، بلْ قضى صرفهُ بالتوبةِ والدعاءِ والصدقةِ والحفظِ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أخبرَ اللهُ تعالى في هذهِ الآيةِ أنهُ لا يغيرُ ما بقومٍ حتى يقعَ منهمْ تغييرٌ، إما منهمْ أوْ منَ الناظرِ لهمْ، أوْ ممنْ هوَ منهمْ بسببٍ، كما غيرَ اللهُ بالمنهزمينَ يومَ أحدٍ بسببِ تغييرِ الرماةِ ما بأنفسهمْ، إلى غيرِ هذا منْ أمثلةِ الشريعةِ، فليسَ معنى الآيةِ أنهُ ليسَ ينزلُ بأحدٍ عقوبةٌ إلا بأنْ يتقدمَ منهُ ذنبٌ، بلْ قدْ تنزلُ المصائبُ بذنوبِ الغيرِ، كما قالَ ﷺ وقدْ سئلَ أنهلكُ وفينا الصالحونَ؟ قالَ: نعمْ إذا كثرَ الخبثُ». واللهُ أعلمُ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا﴾ أيْ هلاكًا وعذابًا ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ وقيل: إذا أرادَ بهمْ بلاءً منْ أمراضٍ وأسقامٍ فلا مرد لبلائه. وقيل: إذا أراد الله بقوم سوءا أعمى أبصارهمْ حتى يختاروا ما فيهِ البلاءُ ويعملوهُ، فيمشونَ إلى هلاكهمْ بأقدامهمْ، حتى يبحثَ أحدهمْ عنْ حتفهِ بكفهِ، ويسعى بقدمهِ إلى إراقةِ دمهِ ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ أيْ ملجأٍ.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ١٢﴾ أي بالمطر، والسحاب جمعٌ، والواحدةُ سحابةٌ، وسحُبٌ وسحائبُ في الجمعِ أيضًا ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ المرادُ بالآيةِ بيانُ كمالِ قدرتِه، وأنَّ تأخيرَ العقوبةِ ليسَ عنْ عجزٍ، أيْ يريكمُ البرقَ في السماءِ خوفًا للمسافرِ، فإنهُ يخافُ أذاهُ لما ينال منَ المطرِ والهولِ والصواعقِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾ وطمعًا للحاضرِ أنْ يكونَ عقبهُ مطرٌ وخصبٌ. وقيل: خوفًا منْ صواعقِ البرقِ، وطمعًا في غيثِهِ المزيلِ للقحطِ. ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ بالماءِ.

قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ منْ قالَ إنَّ الرعدَ صوتُ السحابِ فيجوزُ أنْ يسبحَ الرعدُ بدليلِ خلقِ الحياةِ فيهِ، ودليلُ صحةِ هذا القولِ قولهُ: ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ فلوْ كانَ الرعدُ ملكًا لدخلَ في جملةِ الملائكةِ. ومنْ قالَ إنهُ ملكٌ قالَ: معنى. ﴿مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ منْ خيفةِ اللهِ.

وروى مالكٌ عنْ عامرِ بنِ عبدِ اللهِ عنْ أبيهِ أنهُ كانَ إذا سمعَ صوتَ الرعدِ قالَ: سبحانهُ الذي يسبحُ الرعدُ بحمدِهِ والملائكةُ منْ خيفتهِ، ثمَّ يقولُ: إنَّ هذا وعيدٌ لأهلِ الأرضِ شديدٌ.

﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ قيل: نزلتْ في يهوديٍّ قالَ للنبيِّ ﷺ: أخبرني! من أي شيء ربكَ، أمنْ لؤلؤٍ أمْ منْ ياقوتٍ؟ فجاءتْ صاعقةٌ فأحرقتهُ.

مسألةٌ– روى أبانُ عنْ أنسٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا تأخذُ الصاعقةُ ذاكرًا للهِ عزَّ وجلَّ». وقالَ أبو هريرةَ رضي الله عنه: كانَ النبيُّ ﷺ إذا سمعَ صوتَ الرعدِ يقولُ: «سبحانَ منْ يسبحُ الرعدُ بحمدِهِ والملائكةُ منْ خيفتهِ وهو على كل شيء قديرٍ فإنْ أصابتهُ صاعقةٌ فعليَّ ديتهُ».

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ، ﴿وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ حالًا، ويجوزُ أنْ يكونَ منقطعًا.

﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ١٣﴾ أي المكرُ، والمكرُ منَ اللهِ عزَّ وجلَّ التدبيرُ بالحقِّ. وقيل: المكرُ منَ اللهِ إيصالُ المكروهِ إلى منْ يستحقهُ منْ حيثُ لا يشعرُ. وقيل ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ١٣﴾ أيِ النقمةِ. وقيل: ﴿ٱلْمِحَالِ﴾ أيِ القوةُ والشدةُ. والمحلُ: الشدةُ، الميمُ أصليةٌ،

وماحلت فلانًا محالًا أيْ قاويتهُ حتى يتبينَ أينا أشدُّ. وقيل: ﴿ٱلْمِحَالِ﴾ العقوبةُ والمكروهُ. وقال ابن عرفة: ﴿ٱلْمِحَالِ﴾ الجدال، يقال: ما حل عنْ أمرهِ أيْ جادلَ.

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أيْ للهِ دعوةُ الصدقِ. قيل: لا إلهَ إلا اللهُ، وقيل: الإخلاصَ في الدعاءِ هوَ دعوة الحق، وقيل: دعوةُ الحقِّ دعاؤهُ عندَ الخوفِ، فإنهُ لا يدعى فيهِ إلا إياهُ. كما قالَ: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، قالَ الماورديُّ: وهوَ أشبهُ بسياقِ الآيةِ، لأنهُ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني الأصنامَ والأوثانَ ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ أيْ لا يستجيبونَ لهمْ دعاءً، ولا يسمعونَ لهمْ نداءً ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ ضربَ اللهُ عزَّ وجلَّ الماءَ مثلًا ليأسهمْ منَ الإجابةِ لدعائهمْ، لأنَّ العربَ تضربُ لمنْ سعى فيما لا يدركهُ مثلًا بالقابضِ الماءَ باليدِ، قالَ:

فأصبحتُ فيما كانَ بيني وبينها   منَ الودِّ مثل القابض الماء باليد

وفي معنى هذا المثل ثلاثة أوجه:

أحدها- أنَّ الذي يدعو إلهًا منْ دونِ اللهِ كالظمآنِ الذي يدعو الماءَ إلى فيهِ منْ بعيدٍ يريدُ تناولهُ ولا يقدرُ عليهِ بلسانهِ، ويشيرُ إليهِ بيدهِ فلا يأتيهِ أبدًا، لأنَّ الماءَ لا يستجيبُ.

الثاني- أنهُ كالظمآنِ الذي يرى خيالهُ في الماءِ وقدْ بسطَ كفهُ فيهِ ليبلغَ فاهُ وما هوَ ببالغهِ، لكذبِ ظنهِ، وفسادِ توهمهِ.

الثالثُ- أنهُ كباسطِ كفهِ إلى الماءِ ليقبضَ عليهِ فلا يجمدُ في كفهِ شيء منهُ. وزعمَ الفراءُ أنَّ المرادَ بالماءِ هاهنا البئرُ، لأنها معدنٌ للماءِ، وأنَّ المثلَ كمنْ مدَّ يدهُ إلى البئرِ بغيرِ رشاءٍ.

واللامُ في قولهِ: ﴿لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ متعلقةٌ بالبسطِ، وقولهُ: ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ كنايةٌ عنِ الماءِ، أيْ وما الماءُ ببالغ فاهُ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿هُوَ﴾ كنايةً عنِ الفمِ، أيْ ما الفمُ ببالغِ الماءَ ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ أيْ ليستْ عبادةُ الكافرينَ الأصنامَ إلا في ضلالٍ، لأنها شركٌ. وقيل: إلا في ضلالٍ أيْ يضلُّ عنهمْ ذلكَ الدعاءُ، فلا يجدونَ منهُ سبيلًا، كما قالَ: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ وقالَ ابنُ عباسٍ: أيْ أصواتُ الكافرينَ محجوبةٌ عن الله فلا يسمع دعاءهم.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ المؤمنُ يسجدُ طوعًا، والكافرُ يسجدُ كرهًا بالسيفِ. وقيل: يسجدُ الكافرُ كارهًا حينَ لا ينفعهُ الإيمانُ. وقيل: سجودُ الكافرِ كرهًا ما فيهِ من الخضوع وأثر الصنعة.

وقيل: ﴿طَوْعًا﴾ منْ طالتْ مدةُ إسلامهِ فألفَ السجودَ، وَ ﴿كُرْهًا﴾ منْ يكرهُ نفسهُ للهِ تعالى، فالآيةُ في المؤمنينَ، وعلى هذا يكونُ معنى ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ وبعضُ منْ في الأرضِ.

قالَ القشيريُّ: وفي الآيةِ مسلكانِ:

أحدهما- أنها عامةٌ والمرادُ بها التخصيصُ، فالمؤمنُ يسجدُ طوعًا، وبعضُ الكفارِ يسجدونَ إكراهًا وخوفًا كالمنافقينَ، فالآيةُ محمولةٌ على هؤلاءِ، وقيلَ: على هذا القولِ: الآيةُ في المؤمنينَ، منهمْ منْ يسجدُ طوعًا لا يثقلُ عليهِ السجودُ، ومنهمْ منْ يثقلُ عليهِ، لأنَّ التزامَ التكليفِ مشقةٌ، ولكنهمْ يتحملونَ المشقةَ إخلاصًا وإيمانًا، إلى أنْ يألفوا الحقَّ ويَمْرنوا عليهِ.

والمسلكُ الثاني- وهوَ الصحيحُ- إجراءُ الآيةِ على التعميمِ، وعلى هذا طريقانِ:

أحدهما- أنَّ المؤمنَ يسجدُ طوعًا، وأما الكافر فمأمور بالسجود مؤاخذٌ بهِ.

والثاني- وهوَ الحقُّ- أنَّ المؤمنَ يسجدُ ببدنهِ طوعًا، وكلُّ مخلوقٍ منَ المؤمنِ والكافرِ يسجدُ منْ حيثُ إنهُ مخلوقٌ، يسجدُ دلالةً وحاجةً إلى الصانعِ، وهذا كقولهِ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ وهوَ تسبيحُ دلالةٍ لا تسبيحُ عبادةٍ.

﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ۩ ١٥﴾ أيْ ظلالُ الخلقِ ساجدةٌ للهِ تعالى بالغدوِّ والآصالِ، لأنها تبينُ في هذينِ الوقتينِ، وتميلُ منْ ناحيةٍ إلى ناحيةٍ، وذلكَ تصريفُ اللهِ إياها على ما يشاءُ، وهوَ كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أمرَ اللهُ تعالى نبيهُ ﷺ أنْ يقولَ للمشركينَ: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ثمَّ أمرهُ أنْ يقولَ: هوَ اللهُ إلزامًا للحجةِ إنْ لمْ يقولوا ذلكَ، وجهلوا منْ هوَ ﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ هذا يدلُّ على اعترافهمْ بأنَّ اللهَ هوَ الخالقُ وإلا لمْ يكنْ للاحتجاجِ بقولهِ: ﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ معنى، دليلهُ قولهُ: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ أيْ فإذا اعترفتمْ فلِمَ تعبدونَ غيرهُ؟! وذلكَ الغيرُ لا ينفعُ ولا يضرُّ، وهوَ إلزامٌ صحيح. ثمَّ ضربَ لهمْ مثلًا فقالَ: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ فكذلكَ لا يستوي المؤمنُ الذي يبصرُ الحقَّ، والمشركُ الذي لا يبصرُ الحقَّ. وقيل: الأعمى مثلٌ لما عبدوهُ منْ دونِ اللهِ، والبصيرُ مثلُ اللهِ تعالى: ﴿أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ﴾ أي الشركُ والإيمانُ. وقرأ حمزةُ والكسائي ﴿يَسۡتَوِي﴾ بالياءِ لتقدمِ الفعلِ، ولأنَّ تأنيثَ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ليسَ بحقيقيٍّ. الباقونَ بالتاءِ.

وَ ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ﴾ مثلُ الإيمانِ والكفرِ، ونحنُ لا نقفُ على كيفيةِ ذلكَ ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ هذا منْ تمامِ الاحتجاجِ، أيْ خلقَ غيرُ اللهِ مثل خلقهِ فتشابهَ الخلقُ عليهمْ، فلا يدرونَ خلقَ اللهِ منْ خلقِ آلهتهمْ.

﴿قُلِ﴾ أيْ قلْ لهمْ يا محمدُ ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ فلزمَ لذلكَ أنْ يعبده كل شيء. والآيةُ ردٌّ على المشركينَ والقدريةِ الذينَ زعموا أنهمْ خلقوا كما خلقَ اللهُ ﴿وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ﴾ قبل كل شيء ﴿ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦﴾ الغالب لكل شيء.

قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ﴾ ضربَ مثلًا للحقِّ والباطلِ، فشبهَ الكفرَ بالزبدِ الذي يعلو الماءَ، فإنهُ يضمحلُّ ويعلقُ بجنباتِ الأوديةِ، وتدفعهُ الرياحُ، فكذلكَ يذهبُ الكفرُ ويضمحلُّ، ﴿فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ بقدرِ ملئها. وقيل: بقدرِ صغرها وكبرها، والأوديةُ جمعُ الوادي، وسميَ واديًا لخروجهِ وسيلانهِ، فالوادي على هذا اسمٌ للماءِ السائلِ.

وقالَ أبو عليٍّ: ﴿فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ﴾ توسعٌ، أيْ سالَ ماؤها فحذفَ، قالَ: ومعنى: ﴿بِقَدَرِهَا﴾ بقدرِ مياهها، لأنَّ الأوديةَ ما سالتْ بقدرِ أنفسها. ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ﴾

أيْ طالعًا عاليًا مرتفعًا فوقَ الماءِ، وتمَّ الكلامُ، ثمَّ قالَ: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ﴾ وهوَ المثلُ الثاني ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ أيْ حليةِ الذهبِ والفضةِ ﴿أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ الحديدُ والنحاسُ والرصاصُ. وقولهُ: ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أيْ يعلو هذهِ الأشياءَ زبدٌ كما يعلو السيلَ، وإنما احتملَ السيلُ الزبدَ لأنَّ الماءَ خالطهُ ترابُ الأرضِ فصارَ ذلكَ زبدًا، كذلكَ ما يوقدُ عليهِ في النارِ منَ الجوهرِ ومنَ الذهبِ والفضةِ مما ينبتُّ في الأرضِ منَ المعادنِ فقدْ خالطهُ الترابُ، فإنما يوقدُ عليهِ ليذوبَ فيزايلهُ ترابُ الأرضِ.

وقولهُ: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ الجفاءُ ما أجفاهُ الوادي أيْ رمى بهِ ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وهوَ الماءُ الخالصُ الصافي. وقيل: الماءُ وما خلصَ منَ الذهبِ والفضةِ والحديدِ والنحاسِ والرصاصِ، وهوَ أنَّ المثلينِ ضربهما اللهُ للحقِّ في ثباتهِ، والباطلِ في اضمحلالهِ، فالباطلُ وإنْ علا في بعضِ الأحوالِ فإنهُ يضمحلُّ كاضمحلالِ الزبدِ والخبثِ.

وقيل: المرادُ مثلٌ ضربهُ اللهُ للقرآنِ وما يدخلُ منهُ القلوبَ، فشبهَ القرآنَ بالمطرِ لعمومِ خيرهِ وبقاءِ نفعهِ، وشبهَ القلوبَ بالأوديةِ، يدخلُ فيها منَ القرآنِ مثلُ ما يدخلُ في الأوديةِ بحسبِ سعتها وضيقها. قالَ ابنُ عباسٍ: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ قالَ: قرآنًا ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ قالَ: الأوديةُ قلوب العباد.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ: ﴿يُوقِدُونَ﴾ بالياءِ لقولهِ: ﴿يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ فأخبرَ، ولا مخاطبةَ هاهنا، والباقونَ بالتاءِ لقولهِ في أولِ الكلامِ: ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ الآية.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ١٧﴾ أيْ كما بينَ لكمْ هذهِ الأمثالَ فكذلكَ يضربها بيناتٍ. تمَّ الكلامُ، ثمَّ قالَ: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾ أيْ أجابوا، واستجابَ بمعنى أجابَ، أيْ أجابَ إلى ما دعاهُ اللهُ منَ التوحيدِ والنبواتِ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لأنها في نهايةِ الحسنِ. وقيل: منَ الحسنى النصرُ في الدنيا، والنعيمُ المقيمُ غدا ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ أيْ لمْ يجيبوا إلى الإيمانِ بهِ ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أيْ منَ الأموالِ ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ ملكٌ لهمْ ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ منْ عذابِ يومِ القيامةِ، نظيرهُ في «آلِ عمرانَ» ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِيَ

عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ﴾، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ﴾ حسبَ ما تقدمَ بيانهُ هناكَ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أيْ لا يقبلُ لهمْ حسنةٌ، ولا يتجاوزُ لهمْ عنْ سيئةٍ ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ﴾ أي مسكنهم ومقامهم ﴿جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٨﴾ أيِ الفراشُ الذي مهدوا لأنفسهمْ.

قوله تعالى: ﴿۞أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ﴾ هذا مثلٌ ضربهُ اللهُ للمؤمنِ والكافرِ، ورويَ أنها نزلتْ في حمزة بن عبدِ المطلبِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وأبي جهل لعنهُ اللهُ. والمرادُ بالعمى عمى القلبِ، والجاهلُ بالدينِ أعمى القلبِ ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ هذا منْ صفةِ ذوي الألبابِ، أيْ إنما يتذكرُ أولو الألبابِ الموفونَ بعهدِ الله. والعهد اسم الجنس، أيْ بجميعِ عهودِ اللهِ، وهيَ أوامرهُ ونواهيهِ التي وصى بها عبيدهُ، ويدخلُ في هذهِ الألفاظِ التزامُ جميعِ الفروضِ، وتجنبُ جميعِ المعاصي. وقولهُ: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ يحتملُ أنْ يريدَ بهِ جنسَ المواثيقِ، أيْ إذا عقدوا في طاعةِ اللهِ عهدًا لمْ ينقضوهُ، ويحتملُ أنْ يشيرَ إلى ميثاقٍ بعينهِ، هوَ الذي أخذه اللهُ على عبادهِ حينَ أخرجهمْ منْ صلبِ أبيهمْ آدمَ

الثانية: روى أبو داودَ وغيرهُ عنْ عوفِ بنِ مالكٍ قالَ: كنا عندَ رسولِ اللهِ ﷺ سبعةٌ أوْ ثمانيةٌ أوْ تسعةٌ فقالَ: «ألا تبايعونَ رسولَ اللهِ ﷺ وكنا حديثَ عهدٍ ببيعةٍ فقلنا: قدْ بايعناكَ حتى قالها ثلاثًا، فبسطنا أيدينا فبايعناهُ، فقالَ قائلٌ: يا رسولَ اللهِ! إنا قدْ بايعناكَ فعلى ماذا نبايعكَ؟ قالَ: «أنْ تعبدوا اللهَ ولا تشركوا بهِ شيئًا وتصلوا الصلواتِ الخمسَ وتسمعوا وتطيعوا - وأسرَّ كلمةً خفيةً - قالَ: لا تسألوا الناسَ شيئًا». قالَ: ولقدْ كانَ بعضُ أولئكَ النفرُ يسقطُ - سوطهُ فما يسألُ أحدًا أنْ يناولهُ إياهُ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ ظاهرٌ في صلةِ الأرحام، وهوَ معَ ذلكَ يتناولُ جميعَ الطاعاتِ ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ قيلَ: في قطعِ الرحمِ. وقيل: في جميعِ المعاصي ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾. سوءُ الحسابِ الاستقصاءُ فيهِ والمناقشةُ، ومنْ نوقشَ الحسابَ عذبَ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ قيلَ: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مستأنفٌ، لأنَّ ﴿صَبَرُوا۟﴾ ماضٍ فلا ينعطفُ على ﴿يُوفُونَ﴾ وقيلَ: هوَ منْ وصفِ منْ تقدمَ، ويجوزُ الوصفُ تارةً بلفظِ الماضي، وتارةً بلفظِ المستقبلِ، وصبروا أي على طاعةِ اللهِ، وصبروا عنْ معصيةِ اللهِ وصبروا على الرزايا والمصائبِ، والحوادثِ والنوائبِ ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أدوها بفروضها وخشوعها في مواقيتها ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعني الزكاةَ المفروضةَ ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي يدفعون بالعمل الصالحِ السيئَ منَ الأعمالِ، أو: يدفعونَ الشرَّ بالخيرِ، أو المنكرَ بالمعروفِ، أو الفحشَ بالسلامِ. أو الظلمَ بالعفوِ. أو الذنبَ بالتوبةِ. أو الشركَ بشهادةِ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، ومعناها كلها متقاربٌ، والأولُ يتناولها بالعمومِ، ونظيرهُ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، ومنه قول ﷺ لمعاذٍ: «وأتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحها وخالقِ الناسَ بخلقٍ حسن».

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ أيْ عاقبةُ الآخرةِ، وهيَ الجنةُ بدلَ النارِ، والدارُ غدًا دارانِ: الجنةُ للمطيعِ، والنارُ للعاصي، فلما ذكرَ وصفَ المطيعينَ فدارهمُ الجنةُ لا محالةَ. وقيل: عنيَ بالدارِ دارُ الدنيا، أيْ لهمْ جزاءُ ما عملوا منَ الطاعاتِ في دارِ الدنيا.

قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ أيْ لهمْ جناتُ عدنٍ، فـ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بدلٌ منْ ﴿عُقْبَى﴾ ويجوزُ أنْ تكونَ تفسيرًا لِـ ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أيْ لهمْ دخولُ جناتِ عدنٍ، لأنَّ ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ حدثٌ وَ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ عينٌ، والحدثُ إنما يفسرُ بحدثٍ مثلهِ، فالمصدرُ المحذوفُ مضافٌ إلى المفعولِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ خبرَ ابتداءٍ محذوفٍ.

وَ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ وسطُ الجنة وقصبتها، وسقفها عرش الرحمن، وفي صحيحِ البخاريِّ: «إذا سألتمُ اللهَ فاسألوهُ الفردوسَ فإنهُ أوسطُ الجنةِ وأعلى الجنةِ وفوقهُ عرشُ

الرحمنِ ومنهُ تفجرُ أنهارُ الجنةِ».

و ﴿عَدۡنٍ﴾ مأخوذٌ منْ عدنَ بالمكانِ إذا أقامَ فيهِ.

﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ﴾ يجوز أن يكونَ معطوفًا على ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المعنى: أولئكَ ومنْ صلحَ منْ آبائهمْ وأزواجهمْ وذرياتهمْ لهمْ عقبى الدارِ. ويجوزُ أنْ يكونَ معطوفًا على الضميرِ المرفوعِ في ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ وحسنَ العطفُ لما حالَ الضميرُ المنصوبُ بينهما. ويجوزُ أنْ يكونَ المعنى: يدخلونها ويدخلها منْ صلحَ منْ آبائهمْ، أيْ منْ كانَ صالحًا، لا يدخلونها بالأنسابِ. ويجوزُ أنْ يكونَ موضعُ ﴿مَنۡ﴾ نصبًا على تقديرِ: يدخلونها معَ منْ صلحَ منْ آبائهمْ، وإنْ لمْ يعملْ مثلَ أعمالهمْ يلحقهُ اللهُ بهمْ كرامةً لهمْ.

والمعنى: أنَّ النعمةَ غدًا تتمُّ عليهمْ بأنْ جعلهم مجتمعين مع قراباتهم في الجنةِ، وإنْ دخلها كلُّ إنسانٍ بعملِ نفسهِ، بلْ برحمةِ اللهِ تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣﴾ أيْ بالتحفِ والهدايا منْ عندِ اللهِ تكرمةً لهمْ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ أيْ يقولونَ: سلامٌ عليكمْ، فأضمرَ القولُ، أيْ قدْ سلمتمْ منْ الآفاتِ والمحنِ. وقيل: هوَ دعاءٌ لهمْ بدوامِ السلامةِ، وإنْ كانوا سالمينَ، أيْ سلمكمُ اللهُ، فهوَ خبرٌ معناهُ الدعاءُ، ويتضمنُ الاعترافَ بالعبوديةِ ﴿بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾ أيْ بصبركمْ، فَـ ﴿مَا﴾ معَ الفعلِ بمعنى المصدرِ، والباءُ في ﴿بِمَا﴾ متعلقةٌ بمعنى. ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ ويجوزُ أنْ تتعلقَ بمحذوفٍ، أيْ هذهِ الكرامةُ بصبركمْ على الجهادِ في سبيلِ اللهِ أو على ملازمةِ الطاعةِ، ومفارقةِ المعصيةِ.

﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ أيْ نعمَ عاقبةُ الدارِ التي كنتمْ فيها، عملتمْ فيها ما أعقبكمْ هذا الذي أنتمْ فيهِ، فالعقبى على هذا اسمٌ، و ﴿ٱلدَّارِ﴾ هيَ الدنيا. وقيل: ﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ الجنةُ عنِ النارِ، أو الجنة عن الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ لما ذكرَ الموفينَ بعهدِه، والمواصلينَ لأمرِه، وذكرَ ما لهمْ ذكرَ عكسهمْ.

ونقضُ الميثاقِ: تركُ أمرِه ﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ أيْ منَ الأرحام. والإيمانِ بجميعِ الأنبياءِ ﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أيْ بالكفرِ وارتكابِ المعاصي ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ أيِ الطردُ والإبعادُ منَ الرحمةِ ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥﴾ أيْ سوءُ المنقلبِ، وهوَ جهنمُ. وقالَ سعدُ بنُ أبي وقاصٍ: واللهِ الذي لا إله إلا هو! إنهم الحرورية.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ فبسطُ الرزقِ على الكافرِ لا يدلُّ على كرامتِه، والتقتيرُ على بعضِ المؤمنينَ لا يدلُّ على إهانتهمْ. ﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾ أيْ يضيقُ، ومنهُ ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾ أيْ ضيقَ. وقيل: ﴿يَقۡدِرُ﴾ يعطي بقدرِ الكفايةِ ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ ولمْ يعرفوا غيرها، وجهلوا ما عندَ اللهِ، وهوَ معطوفٌ على ﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أيْ في جنبها ﴿إِلَّا مَتَٰعٞ ٢٦﴾ من الأمتعة كالقصعة شيء قليلٌ ذاهبٌ.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ بينَ في مواضعَ أنَّ اقتراحَ الآياتِ على الرسلِ جهلٌ، بعدَ أنْ رأوا آيةً واحدةً تدلُّ على الصدق، والقائل عبد الله ابن أبي أميةَ وأصحابهُ حينَ طالبوا النبيَّ ﷺ بالآياتِ ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ أيْ كما أضلكمْ بعدَ ما أنزلَ منَ الآياتِ وحرمكمُ الاستدلالَ بها يضلكمْ عندَ نزولِ غيرها ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧﴾ أيْ منْ رجعَ. والهاءُ في ﴿إِلَيۡهِ﴾ للحقِّ، أوْ للإسلامِ، أوْ للهِ عزَّ وجلَّ، أو هي للنبيِّ ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في موضعِ نصبٍ، لأنهُ مفعولٌ، أيْ يهدي اللهُ الذينَ آمنوا. وقيلَ: بدل من قول: ﴿مَنۡ أَنَابَ﴾ فهوَ في محلِّ نصبٍ أيضًا ﴿وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ بألسنتهم، وقيل: بالقرآنِ، وقيل: تسكنُ وتستأنسُ بتوحيدِ اللهِ فتطمئنُّ ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ أيْ قلوبُ المؤمنينَ. وقالَ ابنُ عباسٍ: هذا في الحلفِ، فإذا حلفَ خصمهُ باللهِ سكنَ قلبهُ. وقيل: ﴿بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ أيْ بطاعته. وقيلَ: بثوابه. وقيل: بوعدِ اللهِ.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ﴾ ابتداءٌ وخبرهُ. وقيل: معناهُ لهمْ طوبى، فـ﴿طُوبَىٰ﴾ رفعَ بالابتداءِ، ويجوزُ أنْ يكونَ موضعهُ نصبًا على تقديرِ: جعلَ لهمْ طوبى، ويعطفُ عليهِ: ﴿وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩﴾ على الوجهينِ، فترفعُ أوْ تنصبُ.

و: ﴿طُوبَىٰ﴾ شجرةٌ في الجنةِ ليسَ منها دارٌ إلا وفيها غصنٌ منها، ولا طيرٌ حسنٌ إلا هوَ فيها، ولا ثمرةٌ إلا هيَ منها، وقدْ قيلَ: إنَّ أصلها في قصرَ النبيِّ ﷺ في الجنةِ، ثمَّ تنقسمُ فروعها على منازلِ أهلِ الجنةِ، كما انتشرَ منهُ العلمُ والإيمانُ على جميعِ أهلِ الدنيا. وقالَ ابنُ عباسٍ: ﴿طُوبَىٰ لَهُمۡ﴾ فرحٌ لهمْ وقرةُ عينٍ، وعنهُ أيضًا أنَّ ﴿طُوبَىٰ﴾ اسمُ الجنةِ بالحبشية، وعن أنسٍ: هوَ البستانُ بلغةِ الهندِ، قالَ القشيريُّ: إنْ صحَّ هذا فهوَ وفاقٌ بينَ اللغتينِ. وطوبى فعلى منَ الطيبِ، أيِ العيشُ الطيبُ لهمْ.

﴿وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾ مرجع، آبَ إذا رجعَ.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ﴾ أيْ أرسلناكَ كما أرسلنا الأنبياءَ منْ قبلك ﴿لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ يعني القرآنَ ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ قيل: نزلتْ في صلح الحديبيةِ حينَ أرادوا أنْ يكتبوا كتابَ الصلح، فقالَ النبيُّ ﷺ لعليٍّ: «اكتبْ بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم» فقالَ سهيلُ بنُ عمرو والمشركونَ: ما نعرفُ الرحمنَ إلا صاحبَ اليمامةِ، يعنونَ مسيلمةَ الكذابَ، اكتبْ باسمكَ اللهمَّ، وهكذا كانَ أهلُ الجاهليةِ يكتبونَ.

وقيل: نزلتْ في كفارِ قريشٍ حينَ قالَ لهمُ النبيُّ ﷺ: «اسجدوا للرحمنِ» قالوا وما الرحمن؟ فنزلت ﴿قُلۡ﴾ لهمْ يا محمدُ: الذي أنكرتمْ ﴿هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا معبودَ سواهُ، هوَ واحدٌ بذاتهِ، وإنِ اختلفتْ أسماءُ صفاتهِ ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ واعتمدتُ ﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣٠﴾ أيْ مرجعي غدًا، واليومَ أيضًا عليهِ توكلتُ ووثقتُ، رضًا بقضائهِ، وتسليمًا لأمرهِ.

وقيل: سمعَ أبو جهلٍ رسولَ اللهِ ﷺ يدعو في الحجرِ ويقولُ: «يا اللهُ يا رحمان» فقالَ: كانَ محمدٌ ينهانا عنْ عبادةِ الآلهةِ وهوَ يدعو إلهينِ، فنزلتْ هذهِ الآيةُ، ونزلَ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ الجوابُ محذوفٌ تقديرُهُ: لكانَ هذا القرآنُ، لكنْ حذفَ إيجازًا، لما في ظاهرِ الكلامِ منَ الدلالةِ عليهِ، كما قالَ امرؤُ القيسِ:

فلوْ أنها نفسٌ تموتُ جميعةً … ولكنها نفسٌ تساقطُ أنفسا

يعني لهانَ عليَّ، وقيل: الجوابُ متقدمٌ، وفي الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، أيْ وهمْ يكفرونَ بالرحمنِ لوْ أنزلنا القرآنَ وفعلنا بهمْ ما اقترحوا.

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾ أيْ هوَ المالكُ لجميعِ الأمورِ، الفاعلُ لما يشاءُ منها، فليسَ ما تلتمسونهُ مما يكونُ بالقرآنِ، إنما يكونُ بأمرِ اللهِ.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ﴿يَاْيۡـَٔسِ﴾ بمعنى يعلمْ، لغةُ النخعِ، وقيل: هوَ لغةُ هوازنَ، أيْ أفلمْ يعلمْ، وقيل: هوَ من اليأس المعروف، أي أفلم ييأس الذينَ آمنوا منْ إيمانِ هؤلاءِ الكفارِ، لعلمهمْ أنَّ اللهَ تعالى لوْ أرادَ هدايتهمْ لهداهمْ، لأنَّ المؤمنينَ تمنوا نزولَ الآياتِ طمعًا في إيمانِ الكفارِ.

﴿أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ ﴿أن﴾ مخففةٌ منَ الثقيلةِ، أيْ أنهُ لوْ يشاءُ اللهُ ﴿لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ﴾ وهوَ يردُّ على القدريةِ وغيرهمْ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ أيْ داهيةٌ تفجؤهمْ بكفرهمْ وعتوهمْ، ويقالُ: قرعهُ أمرٌ إذا أصابهُ، والجمعُ قوارعُ، والأصلُ في القرعِ الضربُ، أيْ لا يزالُ الكافرونَ تصيبهمْ داهيةٌ مهلكةٌ منْ صاعقةٍ أوْ منْ قتلٍ أوْ منْ أسرٍ أوْ جدبٍ، أوْ غيرِ ذلكَ منَ العذابِ والبلاءِ، كما نزلَ بالمستهزئينَ، وهمْ رؤساءُ المشركينَ ﴿أَوۡ تَحُلُّ﴾ أي القارعةُ ﴿قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ﴾ وقيل: أوْ تحلُّ أنتَ قريبًا منْ دارهمْ. وقيل: نزلتِ الآيةُ بالمدينةِ، أيْ لا تزالُ تصيبهمُ القوارعُ فتنزلُ بساحتهمْ أوْ بالقربِ منهمْ كقرى المدينةِ ومكةَ ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ﴾ في فتح مكةَ، وقيل: نزلتْ بمكةَ، أيْ تصيبهمُ القوارعُ، وتخرجُ عنهمْ إلى المدينةِ يا محمدُ، فتحلُّ قريبًا منْ دارهمْ، أوْ تحلُّ بهمْ محاصرًا لهمْ، وهذهِ المحاصرةُ لأهلِ الطائفِ، ولقلاعِ خيبرَ، ويأتي وعدُ اللهِ بالإذنِ لكَ في قتالهمْ وقهرهمْ. وقالَ الحسنُ: وعدُ اللهِ يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ﴾ أيْ سخرَ بهمْ، وأزريَ عليهمْ، فأمهلتُ الكافرينَ مدةً ليؤمنَ منْ كانَ في علمي أنهُ يؤمنُ منهمْ، فلما حقَّ القضاءُ أخذتهمْ بالعقوبةِ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٣٢﴾ أيْ فكيفَ رأيتمْ ما صنعتُ بهمْ، فكذلكَ أصنعُ بمشركي قومكَ.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۗ﴾ ليسَ هذا القيامُ القيامَ الذي هوَ ضدُّ القعودِ، بلْ هوَ بمعنى التولي لأمورِ الخلقِ، كما يقالُ: قامَ فلانٌ بشغلِ كذا، فإنهُ قائمٌ على كلِّ نفسٍ بما كسبتْ أيْ يقدرها على الكسبِ، ويخلقها ويرزقها ويحفظها ويجازيها على عملها، فالمعنى: أنهُ حافظٌ لا يغفلُ، والجوابُ محذوفٌ، والمعنى: أفمنْ هوَ حافظٌ لا يغفلُ كمنْ يغفلُ. وقيل: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ أيْ عالمٌ، قالَ الشاعرُ:

فلولا رجالٌ منْ قريشٍ أعزةٌ ... سرقتمْ ثيابَ البيتِ واللهُ قائمُ

أيْ عالمٌ، فاللهُ عالمٌ بكسبِ كلِّ نفسٍ. وقيل: المرادُ بذلكَ الملائكةُ الموكلونَ ببني آدمَ ﴿وَجَعَلُواْ﴾ حالٌ، أيْ وقدْ جعلوا، أوْ عطفٌ على ﴿ٱسْتُهْزِئَ﴾ أيِ استهزءوا وجعلوا، أيْ سموا ﴿لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ يعني أصنامًا جعلوها آلهةً ﴿قُلْ سَمُّوهُمْۚ﴾ أيْ قلْ لهمْ يا محمدُ: ﴿سَمُّوهُمْۚ﴾ أيْ بينوا أسماءهمْ، على جهةِ التهديدِ، أيْ إنما يسمونَ: اللاتُ والعزى ومناةُ وهبلُ ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿أَمْ﴾ استفهامُ توبيخٍ، أيْ أتنبئونهُ، وهوَ على التحقيقِ عطفٌ على استفهامٍ متقدمٍ في المعنى، لأنَّ قولهُ: ﴿سَمُّوهُمْۚ﴾ معناهُ: ألهمْ أسماءُ الخالقينَ. ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؟. وقيل: المعنى قلْ لهمْ أتنبئونَ اللهَ بباطنٍ لا يعلمهُ. ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ﴾ يعلمهُ؟ فإنْ قالوا: بباطنٍ لا يعلمهُ أحالوا، وإنْ قالوا: بظاهرٍ يعلمهُ فقلْ لهمْ: سموهمْ، فإذا سموهمُ اللاتَ والعزى فقلْ لهمْ: إنَّ اللهَ لا يعلمُ لنفسهِ شريكًا أفتنبئونهُ بشريكٍ لهُ في الأرضِ وهوَ لا يعلمهُ! وإنما خصَّ الأرضَ بنفيِ الشريكِ عنها وإنْ لمْ يكنْ لهُ شريكٌ في غيرِ الأرضِ لأنهمُ ادعوا لهُ شركاءَ في الأرضِ. ومعنى ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ﴾: الذي أنزلَ اللهُ على أنبيائهِ. وقيل: معناهُ بباطلٍ منَ القولِ، ومنهُ قولُ الشاعرِ:

أعيرتنا ألبانها ولحومها ... وذلكَ عارٌ يا ابنَ ريطةَ ظاهرُ

أيْ باطلٌ.

﴿بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ﴾ أيْ دعْ هذا! فليسَ للهِ شريكٌ، لكنْ زينَ للذينَ كفروا مكرهمْ، والذي زينَ للكافرينَ مكرهمُ اللهُ تعالى، وقيل: الشيطانُ. ويجوزُ أنْ يسمى الكفرُ مكرًا، لأنَّ مكرهمْ بالرسولِ كانَ كفرًا ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ أيْ صدهمُ اللهُ، وهيَ قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ. الباقونَ بالفتحِ، أيْ صدوا غيرَهمْ، واختارهُ أبو حاتمٍ، اعتبارًا بقولهِ: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وقولهُ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾. وقراءةُ الضمِّ أيضًا حسنةٌ في «زُيِّنَ» وَ «صُدُّوا» لأنهُ معلومٌ أنَّ اللهَ فاعلٌ ذلكَ في مذهبِ أهلِ السنةِ، ففيهِ إثباتُ القدرِ. ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ بخذلانهِ ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣﴾ أيْ موفقٌ، وفي هذا إثبات قراءة الكوفيين ومنْ تابعهمْ، لقولهِ: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ فكذلكَ قولهُ: «وصُدوا». ومعظمُ القراءِ يقفونَ على الدالِ من غير الياء، وكذلك ﴿وَالٍ﴾ وَ ﴿وَاقٍ﴾، لأنكَ تقولُ في الرجلِ: هذا قاضٍ ووالٍ وهادٍ، فتحذفُ الياءُ لسكونها والتقائها مع التنوين.

وقريء: «فما له من هادي»، «وَالِي» وَ «وَاقِي» بالياءِ، وهوَ على لغةِ من يقول: هذا داعي ووالي وواقي بالياءِ، لأنَّ حذفَ الياءِ في حالةِ الوصلِ لالتقائها معَ التنوينِ، وقدْ أمنا هذا في الوقفِ، فردتِ الياءُ فصارَ هادي ووالي وواقي. وقالَ الخليلُ في نداءِ قاضٍ: يا قاضي بإثباتِ الياءِ، إذْ لا تنوينَ معَ النداءِ، كما لا تنوينَ في نحوِ الداعي والمتعالي.

قوله تعالى: ﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أيْ للمشركينَ الصادينَ، بالقتلِ والسبي والإسارِ، وغيرِ ذلكَ منَ الأسقامِ والمصائبِ ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ﴾ أيْ أشدُّ، منْ قولكَ: شقَّ عليَّ كذا يشقُّ ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٣٤﴾ أيْ مانعٍ يمنعهمْ منْ عذابهِ ولا دافع. و﴿مِنَ﴾ زائدة.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ اختلفَ النحاةُ في رفع ﴿مَثَلُ﴾ فقالَ سيبويهِ: ارتفعَ بالابتداءِ والخبرُ محذوفٌ، والتقديرُ: وفيما يتلى عليكمْ مثلُ الجنةِ. وقالَ الخليلُ: ارتفعَ بالابتداءِ وخبرهُ ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أيْ صفةُ الجنةِ التي وعدَ المتقونَ تجري منْ تحتها الأنهارُ، والمثلُ بمعنى الصفةِ موجودٌ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾، وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي الصفةُ العليا، وأنكرهُ أبو عليٍّ وقالَ: لمْ يسمعْ مَثَلُ بمعنى الصفةِ، إنما معناهُ الشبهُ، ألا تراهُ يجري مجراهُ في مواضعهِ ومتصرفاتهِ، كقولهمْ: مررتُ برجلٍ مثلكَ، كما تقولُ: مررتُ برجلٍ شبهك، قالَ: ويفسدُ أيضًا منْ جهة المعنى، لأن مثلا إذا كانَ معناهُ صفةً كانَ تقديرُ الكلامِ: صفةُ الجنةِ التي فيها أنهارٌ، وذلكَ غيرُ مستقيمٍ، لأنَّ الأنهارَ في الجنةِ نفسها لا صفتها.

وقيل: المثلُ مقحمٌ للتأكيدِ، والمعنى: الجنةُ التي وعدَ المتقونَ تجري منْ تحتها الأنهارُ، والعربُ تفعلُ ذلكَ كثيرًا بالمثلِ، كقولهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾: أيْ ليسَ هوَ كشيءٍ.

وقيلَ: التقديرُ: صفةُ الجنةِ التي وعدَ المتقونَ صفةُ جنةٍ ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ لا ينقطعُ ﴿وَظِلُّهَا﴾ أيْ وظلها كذلكَ، فحذفَ، أيْ ثمرها لا ينقطعُ، وظلها لا يزولُ، وهذا ردٌّ على الجهميةِ في زعمهمْ أنَّ نعيمَ الجنةِ يزولُ ويفنى ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ أيْ عاقبةُ أمر المكذبين وآخرتهم النار يدخلونها.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أيْ بعضُ منْ أوتيَ الكتابَ يفرحُ بالقرآنِ، كابنِ سلامٍ وسلمانَ، والذينَ جاءوا منَ الحبشةِ، فاللفظُ عامٌّ، والمرادُ الخصوصُ. وقيل: همْ أصحابُ محمدٍ ﷺ يفرحونَ بنورِ القرآنِ، وقيل: هم مؤمنو أهل الكتابِ، وقيل: همْ جماعةُ أهلِ الكتابِ منَ اليهودِ والنصارى يفرحونَ بنزولِ القرآنِ لتصديقهِ كتبهمْ.

﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ يعني مشركي مكةَ، ومنْ لمْ يؤمنْ منَ اليهودِ والنصارى والمجوسِ. وقيل: همُ العربُ المتحزبونَ على النبيِّ ﷺ. وقيل: ومن أعداء المسلمون منْ ينكرُ بعضَ ما في القرآنِ، لأنَّ فيهمْ منْ كانَ يعترفُ ببعضِ الأنبياءِ، وفيهمْ منْ كانَ يعترفُ بأنَّ اللهَ خالقُ السماواتِ والأرضِ ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾ أيْ أفردهُ بالعبادةِ وحدهُ لا شريكَ لهُ، وأتبرأُ عنِ المشركينَ، ومنْ قالَ: المسيحُ ابنُ اللهِ وعزيرٌ ابنُ اللهِ، ومنِ اعتقدَ التشبيه كاليهود ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ﴾ أيْ إلى عبادتهِ أدعو الناسَ ﴿وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ٣٦﴾ أي أرجع في أموري كلها.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ﴾ أيْ وكما أنزلنا عليكَ القرآنَ فأنكرهُ بعضُ الأحزابِ كذلكَ أنزلناهُ حكمًا عربيا، وإنما وصفهُ بذلكَ لأنهُ أنزلهُ على محمدٍ ﷺ، وهوَ عربيٌّ، فكذبَ الأحزابُ بهذا الحكمِ أيضًا.

وقيلَ: نظمُ الآيةِ: وكما أنزلنا الكتبَ على الرسلِ بلغاتهمْ كذلكَ أنزلنا إليكَ القرآنَ حكمًا عربيًا، أيْ بلسانِ العربِ، ويريد بالحكم ما فيه منَ الأحكامِ. وقيل: أرادَ بالحكمِ العربيِّ القرآنَ كلهُ، لأنهُ يفصلُ بينَ الحقِّ والباطلِ ويحكمُ ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾ أيْ أهواءَ المشركينَ في عبادةِ ما دونَ اللهِ، وفي التوجيهِ إلى غير الكعبة ﴿بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ﴾ أيْ ناصرٍ ينصركَ ﴿وَلَا وَاقٖ ٣٧﴾ يمنعكَ منْ عذابهِ، والخطابُ للنبيِّ ﷺ، والمرادُ الأمة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ٣٨﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قيلَ: إنَّ اليهودَ عابوا على النبيِّ ﷺ الأزواجَ، فأنزلَ اللهُ هذه الآية، وذكرهمْ أمرَ داودَ وسليمانَ فقالَ: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ﴾ أي جعلناهم بشرا يقضون ما أحلَّ اللهُ منْ شهواتِ الدنيا، وإنما التخصيصُ في الوحيِ.

الثانية: هذهِ الآيةُ تدلُّ على الترغيبِ في النكاحِ والحضِّ عليهِ، وتنهى عنِ التبتلِ، وهوَ تركُ النكاحِ، وهذهِ سنةُ المرسلينَ كما نصتْ عليهِ هذهِ الآيةُ، والسنةُ واردةٌ بمعناها، قالَ ﷺ: «تزوجوا فإني مكاثرٌ بكمُ الأممَ» الحديثَ.

ومعنى ذلكَ أنَّ النكاحَ يعفُّ عنِ الزنى، والعفافُ أحدُ الخصلتينِ اللتينِ ضمنَ رسولُ اللهِ ﷺ عليهما الجنةَ فقالَ: «منْ وقاهُ اللهُ شرَّ اثنتينِ ولجَ الجنةَ ما بينَ لحييهِ وما بينَ رجليهِ» خرجهُ الموطأُ وغيرهُ. وفي صحيحِ البخاريِّ عنْ أنسٍ قالَ: «جاءَ ثلاثةُ رهطٍ إلى بيوتِ أزواجِ النبيِّ ﷺ يسألونَ عنْ عبادةِ النبيِّ ﷺ، فلما أُخبروا كأنهمْ تقالوها فقالوا: وأينَ نحنُ منَ النبيِّ ﷺ! قدْ غفرَ اللهُ لهُ ما تقدمَ منْ ذنبهِ وما تأخرَ. فقالَ أحدهمْ: أما أنا فإني أصلي الليلَ أبدًا، وقالَ الآخرُ: إني أصومُ الدهرَ فلا أفطرُ. وقالَ الآخرُ: أنا أعتزلُ النساءَ فلا أتزوجُ، فجاءَ رسولُ اللهِ ﷺ إليهمْ فقالَ: «أنتمُ الذينَ قلتمْ كذا وكذا أما واللهِ إني لأخشاكمْ للهِ وأتقاكمْ لهُ لكني أصومُ وأفطرُ وأصلي وأرقدُ وأتزوجُ النساءَ فمنْ رغبَ عنْ سنتي فليسَ مني». خرجهُ مسلمٌ بمعناهُ، وهذا أبينُ.

وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ سعدِ بنِ أبي وقاصٍ قالَ: أرادَ عثمانُ ابن مظعونٍ أنْ يتبتلَ فنهاهُ النبيُّ ﷺ، ولوْ أجازَ لهُ ذلكَ لاختصينا، وقدْ قالَ ﷺ: «تزوجوا الودودَ الولودَ فإني مكاثرٌ بكمُ الأممَ». صححهُ أبو محمدٍ عبدُ الحقِّ وحسبكَ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ عادَ الكلامُ إلى ما اقترحوا منَ الآياتِ، وظاهرُ الكلامِ حظرٌ ومعناهُ النفيُ، لأنهُ لا يحظر على أحد ما لا يقدر عليهِ ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ٣٨﴾ أيْ لكلِّ أمرٍ قضاه الله كتاب عند الله، وقيل: أيْ لكلِّ أمرٍ كتبهُ اللهُ أجلٌ مؤقتٌ، ووقتٌ معلومٌ، نظيرهُ. ﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾ أيْ يمحو منْ ذلكَ الكتابِ ما يشاءُ أنْ يوقعهُ بأهلهِ ويأتيَ بهِ. ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ مايشاءُ، أيْ يؤخرهُ إلى وقتهِ، يقالُ: محوتُ الكتابَ محوًا، أيْ أذهبتُ أثرهُ. ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ أيْ ويثبتهُ، كقولهِ: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ أيْ والذاكراتِ اللهَ. وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو وعاصمٌ ﴿وَيُثۡبِتُۖ﴾ بالتخفيفِ، وشددَ الباقونَ.

﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾ الذي لا يتغيرُ منه شيء، وقيلَ: السعادةُ والشقاوةُ والخلقُ والخلقُ والرزقُ لا تتغيرُ، فالآيةُ فيما عدا هذهِ الأشياءِ، وفي هذا القولِ نوعُ تحكمٍ.

قلتُ: مثلُ هذا لا يدركُ بالرأيِ والاجتهادِ، وإنما يؤخذُ توقيفًا، فإنْ صحَّ فالقولُ بهِ يجبُ ويوقفُ عندهُ، وإلا فتكونُ الآيةُ عامةً في جميعِ الأشياءِ، وهوَ الأظهرُ واللهُ أعلمُ،

وقدْ تقدمَ في الصحيحينِ عنْ أبي هريرةَ قالَ: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقولُ: «منْ سرهُ أنْ يبسط له رزقه وينسأ له أثرهِ فليصلْ رحمهُ». ومثلهُ عنْ أنسِ بنِ مالكٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «منْ أحبَّ» فذكرهُ بلفظهِ سواءً، وفيهِ تأويلانِ:

أحدهما- معنويٌّ، وهوَ ما يبقى بعدهُ منَ الثناءِ الجميلِ والذكرِ الحسنِ، والأجرِ المتكررِ، فكأنهُ لمْ يمتْ.

والآخرُ- يؤخرُ أجلهُ المكتوبُ في اللوحِ المحفوظِ، والذي في علمِ اللهِ ثابتٌ لا تبدلَ لهُ، كما قالَ: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾.

وقيلَ: لابنِ عباسٍ لمّا روى الحديثَ الصحيحِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «منْ أحبَّ أنْ يمدَّ اللهَ في عمرهِ وأجلهِ ويبسطَ لهُ في رزقهِ فليتقِ اللهَ وليصلْ رحمهُ» كيفَ يزادُ في العمرِ والأجلِ؟! فقالَ: قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ﴾. فالأجلُ الأولُ أجلِ العبدِ منْ حينِ ولادتهِ إلى حين موته، والأجل **الثاني**- يعني المسمى عندهُ- منْ حينِ وفاتهِ إلى يوم يلقاهُ في البرزخِ لا يعلمهُ إلا اللهُ، فإذا اتقى العبدُ ربهُ ووصلَ رحمهُ زادهُ اللهُ في أجلِ عمرهِ الأولِ منْ أجلِ البرزخِ ما شاءَ، وإذا عصى وقطعَ رحمهُ نقصهُ اللهُ منْ أجلِ عمرهِ في الدنيا ما شاءَ، فيزيدهُ في أجلِ البرزخِ فإذا تحتمَ الأجلُ في علمهِ السابقِ امتنعَ الزيادةُ والنقصانُ، لقولهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ فتوافقَ الخبرُ والآيةُ، وهذهِ زيادةٌ في نفسِ العمرِ وذاتِ الأجلِ على ظاهرِ اللفظِ، في اختيارِ حبرِ الأمةِ، واللهُ أعلمُ.

وقيل: يمحو اللهُ ما يشاءُ منْ ديوانِ الحفظةِ ما ليسَ فيهِ ثوابٌ ولا عقابٌ، ويثبتُ ما فيهِ ثوابٌ وعقابٌ.

وقيل: يمحو منَ الرزقِ ويزيدُ فيهِ، ويمحو منَ الأجلِ ويزيدُ فيهِ.

وقيل: يمحو اللهُ ما يشاءُ منَ الفرائضِ والنوافلِ فينسخهُ ويبدلهُ، ويثبتُ ما يشاءُ فلا ينسخهُ، وجملةُ الناسخِ والمنسوخِ عندهُ في أمِّ الكتابِ.

وقيل: يغفرُ ما يشاءُ- يعني- منْ ذنوبِ عبادهِ، ويتركُ ما يشاءُ فلا يغفرهُ.

والعقيدةُ أنهُ لا تبديلَ لقضاءِ اللهِ، وهذا المحوُ والإثباتُ مما سبقَ بهِ القضاءُ، وقدْ تقدمَ أنَّ منَ القضاءِ ما يكونُ واقعًا محتومًا، وهوَ الثابتُ، ومنهُ ما يكونُ مصروفًا بأسبابٍ، وهوَ الممحوُّ، واللهُ أعلمُ.

وقالَ الغزنويُّ: وعندي أنَّ ما في اللوحِ خرجَ عنِ الغيبِ لإحاطةِ بعضِ الملائكةِ، فيحتملُ التبديلَ، لأنَّ إحاطةَ الخلقِ بجميعِ علمِ اللهِ محالٌ، وما في علمهِ منْ تقديرِ الأشياءِ لا يبدلُ. ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾ أصل ما كتب من الآجال وغيرها.

وقيل: أمُّ الكتابِ اللوحُ المحفوظُ الذي لا يبدلُ ولا يغيرُ. وقدْ قيلَ: إنهُ يجري فيهِ التبديلُ. وقيل: إنما يجري في الجرائد الأخر.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ ﴿مَا﴾ زائدةٌ، والتقديرُ: وإنْ نرينكَ بعضَ الذي نعدهمْ، أيْ منَ العذابِ لقولهِ: ﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ وقولهُ: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ أيْ إنْ أريناكَ بعضَ ما وعدناهمْ ﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ﴾ أيِ التبليغُ ﴿وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ٤٠﴾ أيِ الجزاءُ والعقوبةُ.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ يعني أهلَ مكةَ ﴿أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ﴾ أيْ نقصدها ﴿نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾ اختلفَ فيهِ، فقيل: ﴿نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾ موتُ علمائها وصلحائها، وعلى هذا فالأطرافُ الأشرافُ، وقيل مقصودَ الآيةِ: أنا أريناهمُ النقصانَ في أمورهمْ، ليعلموا أنَّ تأخيرَ العقابِ عنهمْ ليسَ عنْ عجزٍ، وقيل: هوَ ما يغلبُ عليهِ المسلمونَ مما في أيدي المشركينَ، وقيل: هوَ خرابُ الأرضِ حتى يكونَ العمرانُ في ناحيةٍ منها.

وعنْ عطاءٍ قالَ: هو ذهابُ فقهائها وخيارِ أهلها. قالَ أبو عمرَ بنُ عبدِ البرِّ: قولُ عطاءٍ في

تأويلِ الآيةِ حسنٌ جدًا، تلقاهُ أهلُ العلمِ بالقبولِ. قلتُ: وهذا نصُّ القولِ الأولِ نفسهُ، ومعروفٌ في اللغةِ أنَّ الطرفَ الكريمُ منْ كل شيء، والمعنى: أو لم ترَ قريشٌ هلاكَ منْ قبلهمْ، وخرابَ أرضهمْ بعدهمْ؟! أفلا يخافونَ أنْ يحلَّ بهمْ مثلُ ذلكَ. ورويَ عنِ ابنِ عباسٍ أيضًا أنه بركاتِ الأرضِ وثمارها وأهلها. وقيل: نقصها بجورِ ولاتها. قلتُ: وهذا صحيحٌ معنى، فإنَّ الجورَ والظلمَ يخربُ البلادَ، بقتلِ أهلها وانجلائهمْ عنها، وترفعُ منَ الأرضِ البركةُ.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ أيْ ليسَ يتعقبُ حكمهُ أحدٌ بنقضٍ ولا تغييرٍ ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ أيِ الانتقامِ منَ الكافرينَ، سريعُ الثوابِ للمؤمنِ. وقيل: لا يحتاجُ في حسابهِ إلى رويةِ قلبٍ، ولا عقدِ بنانٍ.

قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أيْ منْ قبلِ مشركي مكةَ، مكروا بالرسلِ وكادوا لهمْ وكفروا بهمْ ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ﴾ أيْ هوَ مخلوقٌ لهُ مكرُ الماكرينَ، فلا يضرُّ إلا بإذنهِ. وقيل: فللهِ خيرُ المكرِ، أيْ يجازيهمْ بهِ ﴿يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ﴾ منْ خيرٍ وشرٍ، فيجازي عليه «وَسَيَعْلَمُ الكافرُ» كذا قراءةُ نافعٍ وابنِ كثيرٍ وأبي عمرو. الباقونَ: ﴿ٱلۡكُفَّٰرُ﴾ على الجمعِ. وقيل: عنيَ بهِ أبو جهل ﴿لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ أيْ عاقبةُ دارِ الدنيا ثوابًا وعقابًا، أوْ لمنِ الثوابُ والعقابُ في الدارِ الآخرةِ، وهذا تهديدٌ ووعيدٌ.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾ أيْ لستَ بنبيٍّ ولا رسولٍ، وإنما أنتَ متقولٌ، أيْ لما لمْ يأتهمْ بما اقترحوا قالوا ذلكَ ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ أيْ قلْ لهمْ يا محمد: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ أي كفى الله ﴿شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾ بصدقي وكذبكمْ ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ وهذا احتجاجٌ على مشركي العربِ لأنهمْ كانوا يرجعونَ إلى أهلِ الكتابِ -منْ آمنَ منهمْ- في التفاسيرِ.

وقيل: كانتْ شهادتهمْ قاطعةً لقولِ الخصومِ، وهمْ مؤمنو أهلِ الكتابِ كعبدِ اللهِ بنِ سلامٍ وسلمانَ الفارسيِّ وتميمٍ الداريِّ والنجاشيِّ وأصحابهِ، وروى الترمذيُّ عنِ ابنِ أخي عبدِ اللهِ بنِ سلامٍ قالَ: لما أُريدَ قتلُ عثمانَ جاءَ عبدُ اللهِ بنُ سلامٍ فقالَ لهُ عثمانُ: ما جاءَ بكَ؟ قالَ: جئتُ في نصرتكَ، قالَ: اخرجْ إلى الناسِ فاطردهمْ عني، فإنك خارج خيرٌ لي منْ

داخل، قالَ فخرجَ عبدُ اللهِ بنُ سلامٍ إلى الناسِ فقالَ: أيها الناسُ! إنهُ كانَ اسمي في الجاهليةِ فلانٌ، فسماني رسولِ اللهِ ﷺ عبدَ اللهِ، ونزلتْ فيَّ آياتٌ منْ كتابِ اللهِ، فنزلتْ فيَّ. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠﴾ ونزلتْ فيَّ. ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ۝٤٣﴾ الحديثَ. وقالَ فيهِ أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ. وكانَ اسمهُ في الجاهليةِ حصينٌ فسماهُ النبيُّ ﷺ عبدُ اللهِ.

قالَ ابنُ جبيرٍ السورةُ مكيةٌ وابنُ سلامٍ أسلمَ بالمدينةِ بعدَ هذهِ السورةِ، فلا يجوزُ أنْ تحملَ هذهِ الآيةُ على ابنِ سلامٍ، فمنْ عندهُ علمُ الكتابِ جبريلُ، وهوَ قولُ ابنِ عباسٍ.

وقالَ الحسنُ ومجاهدٌ والضحاكُ: هوَ اللهُ تعالى، وكانوا يقرءونَ «وَمِن عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتابِ» وينكرونَ على منْ يقولُ: هوَ عبدُ اللهِ بنِ سلامٍ وسلمانُ، لأنهمْ يرونَ أنَّ السورةَ مكيةٌ، وهؤلاءِ أسلموا بالمدينةِ.

ورويَ عنِ النبيِّ ﷺ أنهُ قرأَ «وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتابِ» وإنْ كانَ في الروايةِ ضعفٌ، وروى محبوبٌ عنْ إسماعيلَ بنِ محمدٍ اليمانيِّ أنهُ قرأَ كذلكَ- «وَمِنْ عِنْدِهِ» بكسرِ الميمِ والعينِ والدالِ «عُلِمَ الْكِتَابُ» بضمِّ العينِ ورفعِ الكتابِ.

وقيل: جميعُ المؤمنينَ، لأنَّ كلَّ مؤمنٍ يعلمُ الكتابَ، ويدركُ وجهَ إعجازهِ، ويشهدُ للنبيِّ ﷺ بصدقهِ.

قلتُ: فالكتابُ على هذا هوَ القرآنُ.

سورة إبراهيم

سورة إبراهيم مكيةٌ كلها في قولٍ، وقالَ ابنُ عباسٍ وقتادةُ: إلا آيتينِ منها مدنيتينِ وقيل: ثلاثٌ، نزلتْ في الذينَ حاربوا اللهَ ورسولهُ وهيَ قولهُ تعالى: ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ٣٠﴾.

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ تقدمَ معناهُ ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ أيْ بالكتابِ، وهوَ القرآنُ، أيْ بدعائكَ إليهِ ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أيْ منْ ظلماتِ الكفرِ والجهلِ إلى نورِ الإيمانِ والعلمِ، ومنَ البدعةِ إلى السنةِ، ومنَ الشكِّ إلى اليقينِ ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ أيْ بتوفيقهِ إياهمْ ولطفهِ بهمْ، والباءُ في ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ متعلقة ب ﴿لِتُخۡرِجَ﴾ وأضيفَ الفعلُ إلى النبيِّ ﷺ لأنهُ الداعي والمنذرُ الهادي ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ﴾ الذي لا يغلبهُ غالبٌ ﴿ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ أيِ المحمودُ بكلِّ لسانٍ، والممجدُ في كلِّ مكانٍ على كلِّ حالٍ.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أيْ ملكًا وعبيدًا واختراعًا وخلقًا. وقرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ وغيرهما: ﴿ٱللَّهُ﴾ بالرفعِ على الابتداءِ ﴿ٱلَّذِي﴾ خبرهُ. وقيل: ﴿ٱلَّذِي﴾ صفةٌ، والخبرُ مضمرٌ، أيِ الله الذي له ما في السموات وما في الأرض قادر على كل شيء. الباقونَ بالخفضِ نعتًا للعزيزِ الحميدِ فقدمَ النعتَ على المنعوتِ، كقولكَ: مررتُ بالظريفِ زيدٍ. وقيل: على البدلِ منَ ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾ وليسَ صفةً، لأنَّ اسمَ اللهِ صارَ كالعلمِ فلا يوصفُ، كما لا يوصفُ بزيدٍ وعمرو.

وكانَ يعقوبُ إذا وقفَ على ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾ رفعَ، وإذا وصلَ خفضَ على النعتِ.

قوله تعالى: ﴿وَوَيۡلٌ﴾ كلمةٌ تقالُ للعذابِ والهلكةِ ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ٢﴾ أيْ من جهنم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أيْ يختارونها ﴿على الآخرةِ ويَصُدُّونَ عَن سَبيلِ اللهِ﴾ والكافرونَ يفعلونَ ذلكَ. فـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في موضعِ خفضٍ صفةٍ لهمْ. وقيل: في موضعِ رفعِ خبرِ ابتداءٍ مضمرٍ، أيْ همُ الذينَ. وقيل: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ﴾ مبتدأٌ وخبرهُ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وكلُّ منْ آثرَ الدنيا وزهرتها، واستحب البقاءَ في نعيمها على النعيمِ في الآخرةِ، وصدَّ عنْ دينِ اللهِ، الذي جاءتْ بهِ الرسلُ، فهوَ داخلٌ في هذهِ الآيةِ، وقدْ قالَ ﷺ: «إنَّ أخوفَ ما أخافُ على أمتي الأئمةُ المضلونَ» وهوَ حديثٌ صحيحٌ.

وقيل: ﴿يَسۡتَحِبُّونَ﴾ أيْ يلتمسونَ الدنيا منْ غيرِ وجهها، لأنَّ نعمةَ اللهِ لا تلتمسُ إلا بطاعتهِ دونَ معصيتهِ ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ﴾ أيْ يطلبونَ لها زيغًا وميلًا لموافقةِ أهوائهمْ، وقضاءِ حاجاتهمْ وأغراضهمْ. والسبيلُ تذكرُ وتؤنثُ. والعِوجُ بكسر العين في الدين والأمر والأرض وفي كلِّ ما لمْ يكنْ قائمًا، وبفتحِ العينِ في كلِّ ما كانَ قائمًا، كالحائطِ والرمحِ ونحوهُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ٣﴾ أيْ ذهابٌ عن الحق بعيد عنه.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ﴾ أيْ قبلكَ يا محمد ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ أي بلغتهم، ليبينوا لهمْ أمرَ دينهمْ، ووحدَ اللسانَ وإنْ أضافهُ إلى القومِ لأنَّ المرادَ اللغةُ، فهيَ اسمُ جنسٍ يقعُ على القليلِ والكثيرِ، ولا حجةَ للعجمِ وغيرهمْ في هذهِ الآيةِ، لأنَّ كلَّ منْ تُرجمَ لهُ ما جاءَ بهِ النبيُّ ﷺ ترجمةً يفهمها لزمتهُ الحجةُ، وقدْ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾. وقالَ ﷺ: «والذي نفسي بيدهِ لا يسمعُ بي أحدٌ منْ هذهِ الأمةِ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ ثمَّ لمْ يؤمنْ بالذي أرسلتُ بهِ إلا كانَ منْ أصحابِ النارِ». خرجهُ مسلمٌ.

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ ردٌّ على القدريةِ في نفوذِ المشيئةِ، وهوَ مستأنفٌ، وليسَ بمعطوفٍ على ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ لأنَّ الإرسالَ إنما وقعَ للتبيينِ لا للإضلالِ. ويجوزُ النصبُ في ﴿يُضِلّ﴾ لأنَّ الإرسالَ صارَ سببًا للإضلالِ، فيكونُ كقولهِ: ﴿لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ وإنما صارَ الإرسالُ سببًا للإضلالِ لأنهمْ كفروا بهِ لما جاءهمْ، فصارَ كأنهُ سببٌ لكفرهمْ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أيْ بالمعجزاتِ الدالةِ على صدقهِ وهيَ التسعُ ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ نظيرهُ قولهُ تعالى: لنبيناﷺ أولَ السورةِ: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ ﴿أَنْ﴾ هنا بمعنى أيْ، كقوله تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ﴾ أيِ امشوا.

قولهُ تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ أيْ بما أنعمَ اللهُ عليهمْ منَ النجاةِ منْ فرعونَ ومنَ التيهِ إلى سائرِ النعمِ، وقيل: بوقائعِ اللهِ في الأممِ السالفةِ، يقالُ: فلانٌ عالمٌ بأيامِ العربِ، أيْ بوقائعها.

ودلَّ هذا على جواز الوعظ المرقق للقلوبِ، المقوي لليقينِ، الخالي منْ كلِّ بدعةٍ، والمنزهِ عنْ كلِّ ضلالةٍ وشبهةٍ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أيْ في التذكيرِ بأيام اللهِ ﴿لَـَٔايَٰتٍ﴾ أيْ دلالاتٍ ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أيْ كثيرِ الصبرِ على طاعةِ اللهِ، وعنْ معاصيهِ ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمِ اللهِ، وإنما خصَّ بالآياتِ كلَّ صبارٍ شكورٍ، لأنهُ يعتبرُ بها ولا يغفلُ عنها، كما قالَ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ وإن كان منذرا للجميع.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾ تقدمَ في «البقرةِ» مستوفى والحمدُ للهِ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ قيلَ: هوَ منْ قولِ موسى لقومهِ، وقيلَ: هوَ منْ قولِ اللهِ، أيْ واذكرْ يا محمدُ إذْ قالَ ربكَ كذا. وَ ﴿تَأَذَّنَ﴾ وآذنَ بمعنى أعلمَ، مثلُ أوعدَ وتوعدَ ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أيْ لئنْ شكرتمْ إنعامي لأزيدنكمْ منْ فضلي. وقيل: لئنْ شكرتمْ نعمتي لأزيدنكمْ منْ طاعتي، والآية تنص في أنَّ الشكرَ سببُ المزيدِ، وسئل بعضُ الصلحاءِ عنِ الشكرِ للهِ فقالَ: ألا تتقوى بنعمهِ على معاصيهِ.

وحكيَ عنْ داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنهُ قالَ: أيْ ربِّ كيفَ أشكركَ، وشكري لكَ نعمةٌ مجددةٌ منكَ عليَّ. قالَ: يا داودُ الآنَ شكرتني. قلتُ: فحقيقةُ الشكرِ على هذا الاعترافِ بالنعمةِ للمنعمِ. وألا يصرفها في غيرِ طاعتهِ.

﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ أيْ جحدتمْ حقي. وقيل: نعمي، وعدَ بالعذابِ على الكفرِ، كما وعدَ بالزيادةِ على الشكرِ، وحذفتِ الفاءُ التي في جوابِ الشرطِ من ﴿إِنَّ﴾ للشهرة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾ أيْ لا يلحقهُ بذلكَ نقصٌ، بلْ هوَ الغنيُّ الحميدُ أيِ المحمودُ.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ النبأُ الخبرُ، والجمعُ الأنباءُ، ثمَّ قيلَ: هوَ منْ قولِ موسى. وقيل: منْ قولِ اللهِ، أيْ واذكرْ يا محمدُ إذْ قالَ ربكَ كذا. وقيل: هوَ ابتداءُ خطابٍ منَ اللهِ تعالى.

وقولهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أيْ لا يحصي عددهمْ إلا اللهُ، ولا يعرفُ نسبهمْ إلا اللهُ، والنسابونَ وإنْ نسبوا إلى آدمَ فلا يدّعونَ إحصاءَ جميعِ الأممِ، وإنما ينسبونَ البعضَ، ويمسكونَ عنْ نسبِ البعضِ، وقدْ رويَ عنِ النبيِّ ﷺ لما سمعَ النسابينَ ينسبونَ إلى معدِ بنِ عدنانَ ثمَّ زادوا فقالَ: «كذبَ النسابونَ إنَّ اللهَ يقولُ: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾».

وقدْ رويَ عنْ عروةَ بنِ الزبيرِ أنهُ قالَ: ما وجدنا أحدًا يعرف ما بين عدنان وإسماعيل.
وقال ابن عباس: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون.

﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أيْ بالحججِ والدلالاتِ ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أيْ جعلَ أولئكَ القومُ أيديَ أنفسهمْ في أفواههمْ ليعضوها غيظًا مما جاءَ بهِ الرسلُ، إذْ كانَ فيهِ تسفيه أحلامهم، وشتم أصنامهم، كما قال تعالى: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾.

وقيل: معناهُ: أومأوا للرسلِ أنْ يسكتوا.

وقالوا: يعني الأمم للرسل: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أيْ بالإرسالِ على زعمكمْ، لا أنهمْ أقروا أنهمْ أرسلوا ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ﴾ أيْ في ريبٍ ومريةٍ ﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾ منَ التوحيدِ ﴿مُرِيبٍ ۝٩﴾ أيْ موجبٌ للريبةِ.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾ استفهامٌ معناهُ الإنكارُ﴿أَفِي اللَّهِ شكٌ﴾ ، أيْ لا شكَّ في اللهِ، أيْ في توحيدِهِ، أو قدرته، يدلُّ عليهِ قولهُ: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خالقها ومخترعها ومنشئها وموجدها بعدَ العدمِ، لينبهَ على قدرتهِ فلا تجوزُ العبادةُ إلا لهُ ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ أيْ إلى طاعتهِ بالرسلِ والكتبِ ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ ﴿مِن﴾ زائدةٌ. وقيل: هيَ للتبعيضِ، وقيل: ﴿مِن﴾ للبدلِ وليستْ بزائدةٍ ولا مبعضةٍ، أيْ لتكونَ المغفرةُ بدلًا منَ الذنوبِ ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني الموتَ، فلا يعذبكمْ في الدنيا ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ﴾ أيْ ما أنتمْ ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ في الهيئةِ والصورةِ، ولستمْ ملائكةً ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ منَ الأصنامِ والأوثانِ ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ١٠﴾ أي بحجة ظاهرة، وكان محالًا منهمْ، فإنَّ الرسلَ ما دعوا إلا ومعهم المعجزات.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أيْ في الصورةِ والهيئةِ كما قلتمْ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أيْ يتفضلُ عليهِ بالنبوةِ. وقيلَ، بالتوفيقِ والحكمةِ والمعرفةِ والهدايةِ. وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ: بتلاوةِ القرآنِ وفهمِ ما فيهِ. قلتُ: وهذا قولٌ حسنٌ ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ﴾ أيْ بحجةٍ وآيةٍ ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أيْ بمشيئتهِ، وليسَ ذلكَ في قدرتنا، فلفظهُ لفظُ الخبرِ، ومعناهُ النفيُ، لأنهُ لا يحظر على أحد ما لا يقدر عليه ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١١﴾ تقدمَ معناهُ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ﴿مَا﴾ استفهامٌ في موضعِ رفعٍ بالابتداءِ، وَ ﴿لَنَا﴾ الخبرُ، وما بعدها في موضعِ الحالِ، التقدير: أي شيء لنا في تركِ التوكلِ على اللهِ ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ أيِ الطريقَ الذي يوصلُ إلى رحمته، وينجي من سخطه ونقمته ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ﴾ لامُ قسمٍ، مجازهُ: واللهِ لنصبرنَّ ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ بهِ، أيْ منَ الإهانةِ والضربِ، والتكذيبِ والقتلِ، ثقةً باللهِ أنهُ يكفينا ويثيبنا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ١٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ اللامُ لامُ قسمٍ، أيْ واللهِ لنخرجنكمْ ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ أيْ حتى تعودوا أوْ إلا أنْ تعودوا، وهذهِ سيرةُ اللهِ تعالى في رسلهِ وعبادهِ، ألا ترى إلى قولهِ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا

﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٧٦ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾. ﴿فِي مِلَّتِنَا﴾ أيْ إلى ديننا ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٣ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ۝١٤﴾ أيْ مقامهُ بينَ يديَّ يومَ القيامةِ، فأضيفَ المصدرُ إلى الفاعلِ. والمقامُ مصدرٌ كالقيامِ، يقالُ: قامَ قيامًا ومقامًا، وأضافَ ذلكَ إليهِ لاختصاصه به. والمَقام بفتح الميم مكان الإقامة، وبالضمِّ فعلُ الإقامةِ، وَ ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أيْ قيامي عليهِ، ومراقبتي لهُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾. وقالَ الأخفشُ: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ أيْ عذابي، ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أيِ القرآنَ وزواجرهُ. وقيل: إنه العذاب. والوعيد الاسم من الوعد.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ أيْ واستنصروا، أيْ أذنَ للرسلِ في الاستفتاحِ على قومهمْ، والدعاءِ بهلاكهمْ، وقيل: استفتحتِ الأممُ بالدعاءِ كما قالتْ قريشٌ: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ الآيةَ. وقيلَ: استفتح الرسول فقال: ﴿إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ۝١١٧ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ وقالتِ الأممُ: إنْ كانَ هؤلاءِ صادقينَ فعذبنا، نظيرهُ: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝١٥﴾ الجبارُ المتكبرُ الذي لا يرى لأحدٍ عليهِ حقًا، والعنيدُ المعاندُ للحقِّ والمجانبُ لهُ.

قوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أيْ منْ وراءِ ذلكَ الكافرِ جهنمَ، أيْ منْ بعدِ هلاكهِ. ووراءُ بمعنى بعدُ، قالَ النابغةُ:

حلفتُ فلمْ أتركْ لنفسكَ ريبةً ... وليسَ وراءَ اللهِ للمرءِ مذهبُ

أيْ بعدَ الله جل جلاله، وكذلك قول تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أيْ منْ بعده، وقوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ أيْ بما سواهُ، وفي التنزيل: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ أيْ أمامهمْ، كقوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أيْ منْ أمامهِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦﴾ أيْ منْ ماءٍ مثلِ الصديدِ، كما يقالُ للرجلِ الشجاعِ أسدٌ، أيْ مثلُ الأسدِ، وهوَ تمثيلٌ وتشبيهٌ. وقيل: هوَ ما يسيلُ منْ أجسامِ أهلِ النارِ

منَ القيحِ والدم، فإذا شربهُ قطعَ أمعاءهُ حتى تخرجَ منْ دبرهِ يقولُ اللهُ: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ ويقولُ اللهُ: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ أيْ يتحساهُ جرعًا لا مرةً واحدةً لمرارتهِ وحرارتهِ ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أيْ يبتلعهُ، يقالُ: جرعَ الماءَ واجترعهُ وتجرعهُ بمعنى. وساغَ الشرابُ في الحلقِ يسوغُ سوغًا إذا كانَ سلسًا سهلًا، وَ ﴿يَكَادُ﴾ صلةٌ، أيْ يسيغهُ بعدَ إبطاءٍ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ أيْ فعلوا بعدَ إبطاءٍ، ولهذا قالَ: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ فهذا يدلُّ على الإساغةِ.

﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ﴾ أيْ أسبابُه ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ منْ كلِّ جهةٍ عنْ يمينهِ وشمالهِ، ومنْ فوقه وتحته ومن قدامه وخلفه، كقوله: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾، وقيل: يأتيهِ منْ كلِّ مكانٍ منْ جسدهِ حتى منْ أطرافِ شعرهِ، للآلامِ التي في كل مكان منه.

قولهُ: ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾. قالَ الضحاكُ: لا يموتُ فيستريحُ. وقيل: تعلقُ روحهُ في حنجرتهِ فلا تخرجُ منْ فيهِ فيموتُ، ولا ترجعُ إلى مكانها منْ جوفهِ فتنفعهُ الحياةُ، ونظيرهُ قولهُ: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾. وقيل: ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ لتطاولِ شدائدِ الموتِ بهِ، وامتدادِ سكراتهِ عليهِ، ليكونَ ذلكَ زيادةً في عذابهِ.

قلتُ: ويظهرُ منْ هذا أنهُ يموتُ، وليسَ كذلكَ، لقول تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ وبذلكَ وردتِ السنةُ، فأحوالُ الكفارِ أحوالُ منِ استولى عليهِ سكراتُ الموتِ دائمًا، واللهُ أعلمُ.

﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ أيْ منْ أمامهِ ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ أي شديد متواصل الآلام من غيرِ فتورٍ، ومنهُ قولهُ: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أيْ شدةٌ وقوةٌ. وقالَ فضيلُ بنُ عياضٍ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ قال: حبس الأنفاس.

قولهُ تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨﴾

﴿مَثَلُ﴾ على حذفِ مضافٍ، التقديرُ: مثلُ أعمالِ الذينَ كفروا بربهمْ كرمادٍ، والمعنى: أعمالهمْ محبطةٌ غيرُ مقبولةٍ. والرمادُ ما بقيَ بعدَ احتراقِ الشيءِ، فضربَ اللهُ هذهِ الآيةَ مثلًا لأعمالِ الكفارِ في أنهُ يمحقها كما تمحقُ الريحُ الشديدةُ الرمادَ في يوم عاصفٍ. والعصفُ شدةُ الريحِ، وإنما كانَ ذلكَ لأنهمْ أشركوا فيها غيرَ اللهِ تعالى. وفي وصفِ اليومِ بالعصوفِ ثلاثةُ أقاويلَ:

أحدها- أنَّ العُصُوفَ وإنْ كانَ للريحِ فإنَّ اليومَ قدْ يوصفُ بهِ، لأنَّ الريحَ تكونُ فيهِ، فجازَ أنْ يقالَ: يومٌ عاصفٌ، كما يقالُ: يومٌ حارٌّ ويومٌ باردٌ، والبردُ والحرُّ فيهما.

والثاني- أنْ يريدَ ﴿فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖ﴾ الريحَ، لأنها ذكرتْ في أولِ الكلمةِ.

والثالثُ- أنهُ منْ نعتِ الريحِ، غيرَ أنهُ لما جاءَ بعدَ اليومِ أتبعَ إعرابهُ كما قيلَ: جحرُ ضبٍّ خربٍ.

﴿لَّا يَقۡدِرُونَ﴾ يعني الكفارَ ﴿مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ﴾ يريدُ في الآخرةِ، أيْ منْ ثوابِ ما عملوا منَ البرِّ في الدنيا، لإحباطهِ بالكفرِ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨﴾ أيِ الخسرانُ الكبيرُ، وإنما جعلهُ كبيرًا بعيدًا لفواتِ استدراكهِ بالموتِ.

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ الرؤيةُ هنا رؤيةُ القلبِ، لأنَّ المعنى: ألمْ ينتهِ علمكَ إليهِ؟ وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿خَٰلِقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ﴾ ومعنى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ ليستدلَّ بها على قدرتهِ ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ أيها الناسُ، أيْ هوَ قادرٌ على الإفناءِ كما قدرَ على إيجادِ الأشياءِ، فلا تعصوهُ فإنكمْ إنْ عصيتموهُ ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٩﴾ أفضلَ وأطوعَ منكمْ، إذْ لوْ كانوا مثلَ الأولينَ فلا فائدةَ في الإبدالِ ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ٢٠﴾ أي منيع متعذر.

قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ منْ قبورهمْ، يعني يومَ القيامةِ، والبروزُ الظهورُ، والبَرازُ المكانُ الواسعُ لظهورهِ، ومنهُ امرأةٌ برزةٌ أيْ تظهرُ للناسِ، وجاءَ بلفظِ الماضي ومعناهُ الاستقبالُ ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ يعني الأتباعَ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ وهمُ القادةُ ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ يجوزُ أنْ يكونَ تبعٌ مصدرًا، التقدير: ذوي تبع. ويجوز أن يكون تابع، مثلُ حارسٍ وحرسٍ، وخادمٍ وخدمٍ، وراصدٍ ورصدٍ، وباقرٍ وبقرٍ ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾ أيْ دافعونَ ﴿عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أيْ شيئًا، وَ﴿مِن﴾ صلةٌ، يقالُ: أغنى عنهُ إذا دفعَ عنهُ الأذى، وأغناهُ إذا أوصلَ إليهِ النفعَ ﴿قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ أيْ لوْ هدانا اللهُ إلى الإيمانِ لهديناكمْ إليهِ. وقيل: لوْ هدانا اللهُ إلى طريقِ الجنةِ لهديناكمْ إليها. وقيلَ: لوْ نجانا اللهُ منَ العذابِ لنجيناكمْ منهُ ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ﴾ هذا ابتداءٌ خبرهُ ﴿أَجَزِعْنَآ﴾ أيْ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ أيْ منْ مهربٍ وملجأٍ. ويجوزُ أنْ يكونَ بمعنى المصدرِ، وبمعنى الاسمِ، يقالُ: حاصَ فلانٌ عنْ كذا أيْ فرَّ وزاغَ يحيصُ حيصًا وحيوصًا وحيصانًا، والمعنى: ما لنا وجهٌ نتباعدُ بهِ عنِ النارِ.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ قالَ الحسنُ: يقفُ إبليسُ يومَ القيامةِ خطيبًا في جهنمَ على منبرٍ منْ نارٍ يسمعهُ الخلائقُ جميعًا. ومعنى: ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أيْ حصلَ أهلُ الجنةِ في الجنةِ وأهلُ النارِ في النارِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ هوَ إضافةُ الشيءِ إلى نعتهِ، وقيل: وعدكمْ وعدَ اليومِ الحقِّ، يعني البعثَ والجنةَ والنارَ وثوابَ المطيعِ وعقابَ العاصي فصدقكمْ وعدهُ، ﴿ووعدتكمْ﴾ أنْ لا بعثَ ولا جنةَ ولا نارَ ولا ثوابَ ولا عقابَ ﴿فأخلفتكمْ﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أيْ منْ حجةٍ وبيانٍ، أيْ ما أظهرتُ لكمْ حجةً على ما وعدتكمْ وزينتهُ لكمْ في الدنيا ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ أيْ أغويتكمْ فتابعتموني. وقيل: لمْ أقهركمْ على ما دعوتكمْ إليهِ. ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ هوَ استثناءٌ منقطعٌ، أيْ لكنْ دعوتكمْ بالوسواسِ فاستجبتمْ لي باختياركمْ، ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ وقيل: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أيْ على قلوبكمْ وموضع إيمانكم لكن دعوتكمْ فاستجبتمْ لي، وهذا على أنهُ خطبَ العاصيَ المؤمنَ والكافرَ الجاحدَ، وفيهِ نظرٌ، لقولهِ: ﴿لَمَّا

﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ فإنهُ يدلُّ على أنهُ خطبَ الكفارَ دونَ العاصينَ الموحدينَ، واللهُ أعلمُ ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ إذا جئتموني منْ غيرِ حجةٍ ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ أيْ بمغيثكمْ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ أيْ بمغيثيَّ. والصارخُ والمستصرخُ هوَ الذي يطلبُ النصرةَ والمعاونةَ، والمصرخُ هوَ المغيثُ.

وقراءةُ العامةِ ﴿بِمُصۡرِخِيَّ﴾ بفتحِ الياءِ. وقرأ حمزةُ «بِمُصْرِخِيِّ» بكسرِ الياءِ.

﴿إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ﴾ أيْ كفرتُ بإشراككمْ إيايَ معَ اللهِ تعالى في الطاعة، ف ﴿لَمَّا﴾ بمعنى المصدرِ ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢﴾.

وفي هذهِ الآياتِ ردٌّ على القدريةِ والمعتزلةِ والإماميةِ ومنْ كانَ على طريقهمْ، انظرْ إلى قولِ المتبوعينَ: ﴿لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ﴾ وقولِ إبليسَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ كيفَ اعترفوا بالحقِّ في صفاتِ اللهِ تعالى وهمْ في دركاتِ النارِ، كما قالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾ واعترافهمْ في دركاتِ لظى بالحقِّ ليسَ بنافعٍ، وإنما ينفعُ الاعترافُ صاحبهُ في الدنيا، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ و ﴿عَسَىٰ﴾ من الله واجبة.

قوله تعالى: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ﴾ أيْ في جناتٍ لأنَّ دخلتُ لا يتعدى، كما لا يتعدى نقيضهُ وهوَ خرجتُ، ولا يقاسَ عليهِ ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ أيْ بأمرهِ. وقيل: بمشيئتهِ وتيسيرهِ. وقالَ: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ ولمْ يقلْ: بإذني تعظيمًا وتفخيمًا ﴿تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ٢٣﴾ تقدمَ في «يونسَ» والحمدُ للهِ.

قولهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ لما ذكرَ تعالى مثلَ أعمالِ الكفارِ وأنها كرمادٍ اشتدتْ بهِ الريحُ في يومِ عاصفٍ، ذكرَ مثلَ أقوالِ المؤمنينَ وغيرها، ثمَّ فسرَ ذلكَ المثلَ فقالَ: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الكلمةُ الطيبةُ لا إلهَ إلا اللهُ والشجرةُ الطيبةُ المؤمنُ.

صحَّ عنِ النبيِّ ﷺ في حديثِ ابنِ عمرَ «إنَّ منَ الشجرةِ شجرةً لا يسقطُ ورقها وهيَ مثلُ المؤمنِ خبروني ما هيَ- ثمَّ قالَ- هيَ النخلةُ» خرجهُ مالكٌ في (الموطأِ).

﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ﴾ قالَ الربيعُ: ﴿كُلَّ حِينٍۭ﴾ غدوةٍ وعشيةٍ كذلكَ يصعدُ عملُ المؤمنِ أولَ النهارِ وآخره، وكذلكَ المؤمنُ لا يخلو منَ الخيرِ في الأوقاتِ كلها.

فهذا يبينُ لكَ أنَّ الحينَ بمعنى الوقتِ، فالإيمانُ ثابتٌ في قلبِ المؤمنِ، وعملهُ وقولهُ وتسبيحهُ عالٍ مرتفعٌ في السماءِ ارتفاعَ فروعِ النخلةِ، وما يكسبُ منْ بركةِ الإيمانِ وثوابهِ كما ينالُ منْ ثمرةِ النخلةِ في أوقاتِ السنةِ كلها، منَ الرطبِ والبسرِ والبلحِ والزهوِ والتمرِ والطلعِ.

الثانية: قولهُ تعالى: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ﴾ لما كانتِ الأشجارُ تؤتي أكلها كلَّ سنةٍ مرةً كانَ في ذلكَ بيانُ حكمِ الحينِ، ولهذا قلنا: منْ حلفَ ألا يكلمَ فلانًا حينًا، ولا يقولُ كذا حينًا أنَّ الحينَ سنةٌ. وقدْ وردَ الحينُ في موضعٍ آخرَ يرادُ بهِ أكثرُ منْ ذلكَ لقولهِ تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ قيلَ في التفسيرِ: أربعونَ عامًا. وحكى عكرمةُ أنَّ رجلًا قالَ: إنْ فعلتُ كذا وكذا إلى حينٍ فغلامهُ حُرٌّ، فأتى عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ فسأل، فسألني عنها فقلتُ: إنَّ منَ الحينِ حينًا لا يدركُ، قولهُ: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ فأرى أنْ تمسكَ ما بينَ صرامِ النخلةِ إلى حملها، فكأنهُ أعجبهُ، وهوَ قولُ أبي حنيفةَ في الحينِ أنهُ ستةُ أشهرٍ اتباعًا لعكرمةَ وغيرهِ. وقدْ مضى ما للعلماءِ في الحينِ في «البقرةِ» مستوفى والحمدُ للهِ ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أيِ الأشباهَ ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ ويعتبرون.

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ الكلمةُ الخبيثةُ كلمةُ الكفرِ. وقيل: الكافرُ نفسهُ، والشجرةُ الخبيثةُ شجرةُ الحنظلِ، وقيل: هيَ شجرةُ الثومِ ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ اقتلعتْ منْ أصلها ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ أيْ منْ أصلٍ في الأرضِ. وقيل: منْ ثباتٍ، فكذلكَ الكافرُ لا حجةَ لهُ ولا ثباتَ ولا خيرَ فيهِ، وما يصعدُ لهُ قولٌ طيبٌ ولا عملٌ صالحٌ.

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ قالَ ابنُ عباسٍ: هوَ لا إلهَ إلا اللهُ. وفي البخاريِّ عنِ البراءِ بنِ عازبٍ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «إذا أقعدَ المؤمنُ في قبرِهِ أتاهُ آتٍ ثمَّ يشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ فذلكَ قولهُ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾».

وقالَ جماعةٌ: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أيْ في القبرِ، لأنَّ الموتى في الدنيا إلى أنْ يبعثوا ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أيْ عندَ الحسابِ ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ منْ عذابِ قومٍ وإضلالِ قومٍ.

قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ أيْ جعلوا بدلَ نعمةِ اللهِ عليهمُ الكفرَ في تكذيبهمْ محمدًا ﷺ، حينَ بعثهُ اللهُ منهمْ وفيهمْ فكفروا، والمرادُ مشركو قريشٍ وأنَّ الآيةَ نزلتْ فيهمْ، وقيل: نزلتْ في المشركينَ الذينَ قاتلوا النبيِّ ﷺ يومَ بدرٍ، وقيل: إنها عامةٌ في جميعِ المشركينَ ﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ أيْ أنزلوهمْ وهمْ قادةُ المشركين يوم بدر. ﴿أَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ أيِ الذينَ اتبعوهمْ ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ قيلَ: جهنم، وقيل: يوم بدر ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ بيّنَ أنَّ دارَ البوارِ جهنمُ، وعلى هذا لا يجوزُ الوقفُ على ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ لأنَّ جهنمَ منصوبةٌ على الترجمةِ عنْ ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ فلوْ رفعها رافعٌ بإضمارٍ، على معنى: هيَ جهنمُ، أوْ بما عادَ منَ الضميرِ في ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ لحسنَ الوقفُ على ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾.

﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ أيِ المستقر.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أيْ أصنامًا عبدوها ﴿لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أيْ عنْ دينهِ. وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو بفتحِ الياءِ، وكذلكَ في الحجِّ ﴿لِيَضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ومثلهُ

في «لقمانَ» وَ «الزمرِ»، وضمها الباقونَ على معنى ليضلوا الناسَ عنْ سبيلِهِ، وأما منْ فتحَ فعلى معنى أنهمْ همْ يضلونَ عن سبيل الله على اللزوم، أي عاقبتم إلى الإضلالِ والضلالِ، فهذهِ لامُ العاقبةِ. ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ﴾ وعيدٌ لهمْ، وهوَ إشارةٌ إلى تقليلِ ما همْ فيهِ منْ ملاذِّ الدنيا إذْ هوَ منقطعٌ ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ٣٠﴾ أيْ مردكم ومرجعكم إلى عذاب جهنم.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني الصلواتِ الخمسَ، أيْ قلْ لهمْ أقيموا، والأمر معهُ شرطٌ مقدرٌ، وقيل: ﴿يُقِيمُواْ﴾ مجزومٌ بمعنى اللامِ، أيْ ليقيموا فأسقطتِ اللامُ لأنَّ الأمر دلَّ على الغائبِ بِ ﴿قُل﴾.

﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ يعني الزكاةَ، وقالَ الجمهورُ: السرُّ ما خفيَ والعلانيةُ ما ظهرَ. وقيل: السرَّ التطوعُ والعلانيةَ الفرضُ ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ٣١﴾ وَ ﴿خِلَٰلٌ﴾ جمعُ خُلةٍ كقلةٍ وقلالٍ.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ أيْ أبدعها واخترعها على غيرِ مثالٍ سبقَ ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أيْ منَ السحابِ ﴿مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي من الشجر ثمراتٍ ﴿رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ٣٢﴾ يعني البحارَ العذبةَ لتشربوا منها وتسقوا وتزرعوا، والبحارَ المالحةَ لاختلافِ المنافعِ منَ الجهاتِ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ﴾ أيْ في إصلاحِ ما يصلحانهِ منَ النباتِ وغيرهِ، والدؤوبُ مرورُ الشيءِ في العملِ على عادةٍ جاريةٍ. وقيل: دائبينِ في السيرِ امتثالًا لأمرِ اللهِ، والمعنى يجريانِ إلى يومِ القيامةِ لا يفترانِ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أيْ لتسكنوا في الليلِ ولتبتغوا منْ فضلهِ في النهارِ، كما قالَ: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾ أيْ أعطاكمْ منْ كلِّ مسئولٍ سألتموهُ شيئًا، فحذفَ، وقيل: المعنى وآتاكمْ منْ كلِّ ما سألتموهُ، ومنْ كلِّ ما لمْ تسألوهُ فحذفَ، فلمْ نسألهُ شمسًا ولا قمرًا ولا كثيرًا منْ نعمهِ التي ابتدأنا بها. وهذا كما قال: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ على ما يأتي. وقيل: ﴿مِن﴾ زائدةٌ، أيْ آتاكمْ كلَّ ما سألتموهُ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ

﴿ٱللَّهِ﴾ أيْ نعمَ اللهِ ﴿لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ ولا تطيقوا عدها، ولا تقوموا بحصرها لكثرتها، كالسمعِ والبصرِ وتقويمِ الصورِ إلى غيرِ ذلكَ منَ العافيةِ والرزقِ ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾ الإنسانُ لفظُ جنسٍ وأرادَ بهِ الخصوصَ، قالَ ابنُ عباسٍ: أرادَ أبا جهلٍ. وقيل: جميع الكفار.

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾ يعني مكةَ وقدْ مضى في «البقرةِ» ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥﴾ أيِ اجعلني جانبًا عنْ عبادتها، وأرادَ بقولهِ: ﴿وَبَنِيَّ﴾ بنيهِ منْ صلبهِ وكانوا ثمانيةً، فما عبدَ أحدٌ منهمْ صنمًا. وقيل: هوَ دعاءٌ لمنْ أرادَ اللهَ أنْ يدعوَ لهُ.

وكانَ إبراهيمُ التيميُّ يقولُ في قصصهِ: منْ يأمنُ البلاءَ بعدَ الخليلِ حينَ يقولُ: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ لما كانتْ سببًا للإضلالِ أضافَ الفعلَ إليهنَّ مجازًا، فإنَّ الأصنامَ جماداتٌ لا تفعلُ ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ في التوحيدِ ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ﴾ أيْ منْ أهلِ ديني ﴿وَمَنۡ عَصَانِي﴾ أيْ أصرَّ على الشركِ ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٦﴾ قيلَ: قالَ هذا قبلَ أنْ يعرفهُ اللهُ إنَّ اللهَ لا يغفرُ أنْ يشركَ بهِ. وقيل: غفورٌ رحيمٌ لمنْ تابَ منْ معصيتهِ قبلَ الموتِ. وقالَ مقاتلُ بنُ حيان: ﴿وَمَنۡ عَصَانِي﴾ فيما دون الشرك.

قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾، فيهِ ستُّ مسائلَ:

الأولى: روى البخاريُّ عنِ ابنِ عباسٍ: أولُ ما اتخذَ النساءُ المنطقَ منْ قبلِ أمِّ إسماعيلَ، اتخذتْ منطقًا لتعفيَ أثرها على سارةَ، ثمَّ جاءَ بها إبراهيمُ وبابنها إسماعيلَ وهيَ ترضعهُ، حتى وضعهما عندَ البيتِ عندَ دوحةٍ فوقَ زمزمَ في أعلى المسجدِ، وليسَ بمكةَ يومئذٍ أحد، وليس بها ماءٌ، فوضعهما هنالكَ، ووضعَ عندهما جرابًا فيهِ تمرٌ، وسقاءً فيهِ ماءٌ، ثمَّ قفى إبراهيمُ منطلقًا فتبعتهُ أمُّ إسماعيلَ، فقالتْ: يا إبراهيمُ! أينَ تذهبُ وتتركنا بهذا الوادي الذي

ليس فيه إنس ولا شيء، فقالتْ لهُ ذلكَ مرارًا وجعلَ لا يلتفتُ إليها، فقالتْ لهُ: آللهُ أمركَ بهذا؟ قالَ: نعمْ. قالتْ إذًا لا يضيعنا، ثمَّ رجعتْ، فانطلق إبراهيم. حتى إذا كان عند الثنية حيثُ لا يرونهُ، استقبلَ بوجههِ البيتَ ثمَّ دعا بهذهِ الدعواتِ، ورفعَ يديهِ فقالَ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ حتى بلغَ ﴿يَشۡكُرُونَ﴾ وجعلتْ أمُّ إسماعيلَ ترضعُ إسماعيلَ وتشربُ منْ ذلكَ الماءِ، حتى إذا نفدَ ما في السقاءِ عطشتْ وعطشَ ابنها، وجعلتْ تنظرُ إليهِ يتلوى - أوْ قالَ يتلبطُ - فانطلقتْ كراهيةَ أنْ تنظرَ إليهِ، فوجدتِ الصفا أقربَ جبلٍ في الأرضِ يليها، فقامتْ عليهِ، ثمَّ استقبلتِ الوادي تنظرُ هلْ ترى أحدًا، فلمْ ترَ أحدًا، فهبطتْ منَ الصفا، حتى إذا بلغتِ الوادي، رفعتْ طرفَ درعها، ثمَّ سعتْ سعيَ الإنسانِ المجهودِ، ثمَّ جاوزتِ الوادي، ثمَّ أتتِ المروةَ فقامتْ عليهِ، فنظرتْ هلْ ترى أحدًا فلمْ ترَ أحدًا، ففعلتْ ذلكَ سبعَ مراتٍ، قالَ ابنُ عباسٍ قالَ النبيُّ ﷺ: «فذلكَ سعيُ الناسِ بينهما» فلما أشرفتْ على المروةِ سمعتْ صوتًا فقالتْ: صهْ! تريدُ نفسها، ثمَّ تسمعتْ فسمعتْ أيضًا فقالتْ: قدْ أسمعتَ، إنْ كانَ عندكَ غواثٌ! فإذا هيَ بالمَلكِ عندَ موضعِ زمزمَ فبحثَ بعقبهِ - أوْ قالَ بجناحهِ - حتى ظهرَ الماءُ، فجعلتْ تحوضهُ وتقولُ بيدها هكذا، وجعلتْ تغرفُ منَ الماءِ في سقائها وهوَ يفورُ بعدَ ما تغرفُ، قالَ ابنُ عباسٍ قالَ النبيُّ ﷺ: «يرحمُ اللهُ أمَّ إسماعيلَ لوْ تركتْ زمزمَ - أوْ قالَ: لوْ لمْ تغرفْ منَ الماءِ - لكانتْ زمزمُ عينًا معينًا» قالَ: فشربتْ وأرضعتْ ولدها فقالَ لها الملك: لا تخافي الضيعة فإن ها هنا بيتَ اللهِ يبنيهِ هذا الغلامُ وأبوهُ، وإنَّ اللهَ لا يضيعُ أهلهُ وذكرَ الحديثَ بطولهِ.

مسألةٌ- لا يجوزُ لأحدٍ أنْ يتعلقَ بهذا في طرحِ ولدهِ وعيالهِ بأرضٍ مضيعةٍ اتكالًا على العزيزِ الرحيم، واقتداءً بفعلِ إبراهيمَ الخليلِ، كما تقولُ غلاةُ الصوفيةِ في حقيقةِ التوكلِ، فإنَّ إبراهيمَ فعلَ ذلكَ بأمرِ اللهِ لقولهِ في الحديثِ: آللهُ أمركَ بهذا؟ قالَ: نعمْ.

الثانية: لما أرادَ اللهُ تأسيسَ الحالِ، وتمهيدَ المقام، وخطَّ الموضع للبيتِ المكرم، والبلدِ المحرم، أرسلَ الملكَ فبحثَ عنِ الماءِ وأقامهُ مقامَ الغذاءِ، وفي الصحيح: أنَّ أبا ذرٍّ رضي الله عنه اجتزأَ بهِ ثلاثينَ بينَ يومٍ وليلةٍ، قالَ أبو ذرٍّ: ما كانَ لي طعامٌ إلا ماءُ زمزمَ فسمنتُ حتى تكسرتْ عكني، وما أجدُ على كبدي سخفةَ جوعٍ، وذكرَ الحديثَ.

وروى الدارقطنيُّ عنِ ابنِ عباسٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ماءُ زمزمَ لما شربَ لهُ إنْ شربتهُ تشتفي بهِ شفاكَ اللهُ وإنْ شربتهُ لشبعكَ أشبعكَ اللهُ بهِ وإنْ شربتهُ لقطعِ ظمئكَ قطعهُ وهيَ هزمةُ جبريلَ وسقيا اللهِ إسماعيلَ».

ورويَ أيضًا عنْ عكرمةَ قالَ: كانَ ابنُ عباسٍ إذا شربَ منْ زمزمَ قالَ: اللهمَّ إني أسألكَ علمًا نافعًا، ورزقًا واسعًا، وشفاءً منْ كلِّ داءٍ.

قالَ ابنُ العربيِّ: وهذا موجودٌ فيهِ إلى يومِ القيامةِ لمنْ صحتْ نيتهُ، وسلمتْ طويتهُ، ولمْ يكنْ بهِ مكذبًا، ولا يشربهُ مجربًا، فإنَّ اللهَ معَ المتوكلينَ، وهوَ يفضحُ المجربينَ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ ﴿مِن﴾ للتبعيضِ أيْ أسكنتُ بعضَ ذريتي، يعني إسماعيلَ وأمهُ، لأنَّ إسحاقَ كانَ بالشامِ. وقيل: هيَ صلةٌ، أيْ أسكنتُ ذريتي.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ يدلُّ على أنَّ البيتَ كانَ قديمًا على ما رويَ قبلَ الطوفانِ، وقدْ مضى هذا المعنى في سورةِ «البقرةِ»، وأضافَ البيتَ إليهِ لأنهُ لا يملكهُ غيرهُ، ووصفهُ بأنهُ محرمٌ، أيْ يحرمُ فيهِ ما يستباحُ في غيرهِ منْ جماعٍ واستحلالٍ. وقيل: محرمٌ على الجبابرةِ، وأنْ تنتهكَ حرمتهُ، ويستخفُّ بحقهِ.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ خصها منْ جملةِ الدينِ لفضلها فيهِ، ومكانها منهُ، وهيَ عهدُ اللهِ عندَ العبادِ، قالَ ﷺ: «خمسُ صلواتٍ كتبهنَّ اللهُ على العبادِ». الحديثَ. واللامُ في ﴿لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لامُ كيْ، هذا هوَ الظاهرُ فيها وتكونُ متعلقةً بـ ﴿أَسْكَنتُ﴾ ويصحُّ أنْ تكونَ لامَ أمرٍ، كأنهُ رغبَ إلى اللهِ أن يأتمنهم وأن يوفقهمْ لإقامةِ الصلاةِ.

السادسة: تضمنتْ هذهِ الآيةُ أنَّ الصلاةَ بمكةَ أفضلُ منَ الصلاةِ بغيرها، لأنَّ معنى ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أيْ أسكنتهمْ عندَ بيتكَ المحرمِ ليقيموا الصلاةَ فيهِ.

وقدِ اختلفَ العلماءُ هلِ الصلاةُ بمكةَ أفضلُ أوْ في مسجدِ النبيِّ ﷺ؟ فذهب عامة أهل الأثر إلى أن في المسجدِ الحرامِ أفضلُ منَ الصلاةِ في مسجد الرسول ﷺ بمئة صلاة لحديث ابن الزبير يرفعه: «صلاةٌ في مسجدي هذا أفضلُ منْ ألفِ صلاةٍ فيما سواهُ منَ المساجدِ إلا

المسجدَ الحرامِ وصلاةٌ في المسجد الحرام أفضل من صلاة مسجدي هذا بمائةِ صلاةٍ».

قالَ الإمامُ الحافظُ أبو عمرَ: وأسندَ هذا الحديثَ حبيبٌ المعلمُ عنْ عطاءِ بنِ أبي رباحٍ عنْ عبدِ الله ابن الزبيرِ وجوّدهُ، ولمْ يخلطْ في لفظهِ ولا في معناهُ، وكانَ ثقةً.

قالَ ابنُ أبي خيثمة سمعت يحيى بنَ معينٍ يقولُ: حبيبٌ المعلمُ ثقةٌ. وذكرَ عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ قالَ سمعتُ أبي يقولُ: حبيبٌ المعلمُ ثقةٌ ما أصحَّ حديثه! وسئل أبو زرعةَ الرازيُّ عنْ حبيبٍ المعلمِ فقالَ: بصريٌّ ثقةٌ.

قلتُ- وقدْ خرجَ حديثَ حبيبٍ المعلمِ هذا عنْ عطاءِ بنِ أبي رباحٍ عنْ عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ عنِ النبيِّ ﷺ الحافظُ أبو حاتمٍ محمدُ بنُ حاتمٍ التميميُّ البستيُّ في المسندِ الصحيحِ لهُ، فالحديثُ صحيحٌ وهوَ الحجةُ عندَ التنازعِ والاختلافِ. والحمدُ للهِ.

وقدِ اتفقَ مالكٌ وسائرُ العلماءِ على أنَّ صلاةَ العيدينِ يبرزُ لهما في كلِّ بلدٍ إلا مكةَ فإنها تصلى في المسجدِ الحرامِ.

وكانَ عمرُ وعليٌّ وابنُ مسعودٍ وأبو الدرداءِ وجابرٌ يفضلونَ مكةَ ومسجدها وهمْ أولى بالتقليدِ ممنْ بعدهمْ، وإلى هذا ذهبَ الشافعيُّ. وهوَ قولُ الكوفيينَ، ورويَ مثلهُ عنْ مالكٍ، والمشهورُ عنهُ وعنْ أهلِ المدينةِ تفضيلُ المدينةِ.

قوله تعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ الأفئدةُ جمعُ فؤادٍ وهيَ القلوبُ، وقدْ يعبرُ عنِ القلبِ بالفؤادِ كما قالَ الشاعرُ:

وإنَّ فؤادًا قادني بصبابةٍ ... إليكِ على طولِ المدى لصبورُ

﴿تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾، أيْ تنزعُ، يقالُ: هويَ نحوهُ إذا مالَ، قالَ ابنُ عباسٍ ومجاهدٌ: لوْ قالَ أفئدةَ الناسِ لازدحمتْ عليهِ فارسُ والرومُ والتركُ والهندُ واليهودُ والنصارى والمجوسُ، ولكنْ قالَ: ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فهمُ المسلمونَ، فقولهُ: ﴿تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ أيْ تحنُّ إليهمْ، وتحنُّ إلى زيارةِ البيتِ، وقرأ مجاهدٌ «تَهْوِي إِلَيْهِمْ» أيْ تهواهمْ وتجلهمْ.

﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ فاستجابَ اللهُ دعاءهُ، وأنبتَ لهمْ بالطائفِ سائرَ الأشجارِ، وبما يجلبُ إليهمْ منَ الأمصارِ. وفي صحيحِ البخاريِّ عنِ ابنِ

عباسٍ الحديثُ الطويلُ وقدْ ذكرنا بعضهُ: «فجاءَ إبراهيمُ بعدَ ما تزوجَ إسماعيلُ يطالعُ تركتهُ فلمْ يجدْ إسماعيلَ، فسألَ امرأتهُ عنهُ فقالتْ: خرجَ يبتغي لنا، ثمَّ سألهمْ عنْ عيشهمْ وهيئتهمْ فقالتْ: نحنُ بشرٍّ، نحنُ في ضيقٍ وشدةٍ، فشكتْ إليهِ، قالَ: فإذا جاءَ زوجكِ فاقرئي ﷺ وقولي لهُ يغيرُ عتبةَ بابهِ، فلما جاءَ إسماعيلُ كأنهُ آنسَ شيئًا فقالَ: هلْ جاءكمْ منْ أحدٍ! قالتْ: نعمْ جاءنا شيخٌ كذا وكذا فسألني عنكَ فأخبرتهُ، وسألني كيفَ عيشتنا فأخبرتهُ أنا في جهدٍ وشدةٍ، قالَ: فهلْ أوصاكِ بشيءٍ: قالتْ: أمرني أنْ أقرأَ عليكَ السلامَ، ويقولُ: غيرْ عتبةَ بابكَ، قالَ: ذاكَ أبي وقدْ أمرني أنْ أفارقكِ الحقي بأهلكِ، فطلقها وتزوجَ منهمْ أخرى، فلبثَ عنهمْ إبراهيمُ ما شاءَ اللهُ ثمَّ أتاهمْ بعدُ فلمْ يجدهُ، ودخلَ على امرأتهِ فسألها عنهُ فقالتْ: خرجَ يبتغي لنا. قال: كيفَ أنتمْ؟ وسألها عنْ عيشهمْ وهيئتهمْ فقالتْ: نحنُ بخيرٍ وسعةٍ وأثنتْ على اللهِ. قالَ: ما طعامكمْ؟ قالتِ: اللحمُ. قالَ فما شرابكمْ؟ قالتِ: الماءُ. قالَ: اللهمَّ باركْ لهمْ في اللحمِ والماءِ. قالَ النبيُّ ﷺ: «ولمْ يكنْ لهمْ يومئذٍ حبٌّ ولوْ كانَ لهمْ دعا لهمْ فيهِ». قالَ: فهما لا يخلو عليهما أحدٌ بغيرِ مكةَ إلا لمْ يوافقاهُ، وذكرَ الحديثَ.

وقالَ ابنُ عباسٍ: قولَ إبراهيمَ ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ سألَ أنْ يجعلَ اللهُ الناسَ يهوونَ السكنى بمكةَ، فيصيرُ بيتًا محرمًا، وكلُّ ذلكَ كانَ والحمدُ للهِ.

وأولُ منْ سكنهُ جرهمُ. ففي البخاريِّ- بعدَ قولهِ: وإنَّ اللهَ لا يضيعُ أهلهُ- وكانَ البيتُ مرتفعًا منَ الأرضِ كالرابيةِ تأتيهِ السيولُ فتأخذُ عنْ يمينهِ وعنْ شمالهِ، وكذلكَ حتى مرتْ بهمْ رفقةٌ منْ جرهمَ قافلينَ منْ طريقِ كذا، فنزلوا بأسفلِ مكةَ، فرأوا طائرًا عائفًا فقالوا: إنَّ هذا الطائرَ ليدورُ على ماءٍ! لعهدنا بهذا الوادي وما فيهِ ماءٌ، فأرسلوا جريًا أوْ جريينِ فإذا همْ بالماءِ، فأخبروهمْ بالماءِ فأقبلوا. قالَ: وأمُّ إسماعيلَ عندَ الماءِ، فقالوا: أتأذنينَ لنا أنْ ننزلَ عندكِ؟ قالتْ: نعمْ ولكنْ لا حقَّ لكمْ في الماءِ. قالوا: نعمْ. قالَ ابنُ عباسٍ قالَ النبيُّ ﷺ: «فألفى ذلكَ أمَّ إسماعيلَ وهيَ تحبُّ الأنسَ» فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهمْ فنزلوا معهمْ حتى إذا كانَ بها أهلُ أبياتٍ منهمْ، شبَّ الغلامُ، وماتتْ أمُّ إسماعيلَ، فجاءَ إبراهيمُ بعدَ ما تزوجَ إسماعيلُ يطالعُ تركتهُ.. الحديثَ.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ أي، ليس يخفي عليك شيء منْ أحوالنا. وقالَ ابنُ عباسٍ ومقاتلٌ: تعلمُ جميعَ ما أخفيهِ وما أعلنهُ منَ الوجدِ بإسماعيلَ وأمهِ حيثُ أسكنا بوادٍ غيرِ ذي زرعٍ ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾ قيلَ: هوَ منْ قولِ إبراهيمَ. وقيل: هوَ منْ قولِ اللهِ تعالى لما قالَ إبراهيمُ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ قالَ اللهُ: ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ .

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ﴾ أيْ على كبرِ سني وسنِّ امرأتي، قالَ ابنُ عباسٍ: ولدَ لهُ إسماعيلُ وهوَ ابنُ تسعٍ وتسعينَ سنةً. وإسحاقُ وهوَ ابنُ مائةٍ واثنتيْ عشرةَ سنةً ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أيْ منَ الثابتينَ على الإسلامِ والتزامِ أحكامهِ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ أيْ واجعلْ منْ ذريتي منْ يقيمها ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠﴾ أيْ عبادتي كما قالَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾. وقالَ ﷺ: «الدعاءُ مخُّ العبادةِ».

﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قيلَ: استغفرَ إبراهيمُ لوالديهِ قبلَ أنْ يثبتَ عندهُ أنهما عدوانِ للهِ. قالَ القشيريُّ: ولا يبعدُ أنْ تكونَ أمهُ مسلمةً لأنَّ اللهَ ذكرَ عذرهُ في استغفارهِ لأبيهِ دونَ أمهِ.

قلتُ: وعلى هذا قراءةُ سعيدِ بنِ جبيرٍ «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوالِدي» يعني. أباهُ. وقيل: استغفرَ لهما طمعًا في إيمانهما. وقيل: استغفرَ لهما بشرطٍ أنْ يسلما وقيل: أرادَ آدمَ وحواءَ. وقدْ رويَ أنَّ العبدَ إذا قالَ: اللهمَّ اغفرْ لي ولوالديَّ وكانَ أبواهُ قدْ ماتا كافرينِ انصرفتِ المغفرةُ إلى آدمَ وحواءَ لأنهما والدا الخلقِ أجمعَ. وقيل: إنهُ أرادَ ولديهِ إسماعيلَ وإسحاقَ. وكانَ إبراهيمُ النخعيَّ يقرأُ: «ولولديَّ» يعني ابنيهِ، وكذلكَ قرأَ يحيى بنُ يعمرَ، ذكرهُ الماورديُّ والنحاسُ ﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قالَ ابنُ عباسٍ: منْ أمةِ محمدٍ ﷺ. وقيل: ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ كلهمْ وهوَ أظهرُ ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١﴾ أيْ يومَ يقومُ الناسُ للحساب.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ أي اصبرْ كما صبرَ إبراهيمُ، وأعلمِ المشركينَ أنَّ تأخيرَ العذابِ ليسَ للرضا بأفعالهمْ، بلْ سنةُ اللهِ إمهالُ العصاةِ مدةً. قالَ ميمونُ بنُ مهرانَ: هذا وعيدٌ للظالمِ، وتعزيةٌ للمظلومِ ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يعني مشركي مكةَ يمهلهمْ ويؤخرُ عذابهمْ. وقراءةُ العامةِ ﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾ بالياءِ لقولهِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾ ورويَ عنْ أبي عمرو أيضًا «نُؤَخِّرُهُمْ» بالنونِ للتعظيمِ ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ أيْ لا تغمضُ منْ هولِ ما تراهُ في ذلكَ اليومِ، قالَ ابنُ عباسٍ: تشخصُ أبصارُ الخلائقِ يومئذٍ إلى الهواءِ لشدةِ الحيرةِ فلا يرمضونَ.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ أيْ مسرعينَ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ﴾ أيْ مسرعينَ. وقيل: المهطعُ الذي ينظرُ في ذلٍّ وخشوعٍ، أيْ ناظرينَ منْ غيرِ أنْ يطرفوا، وقيل: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أيْ مديمي النظرِ. قالَ أبو عبيدٍ: وقدْ يكونُ الوجهانِ جميعًا يعني الإسراعَ معَ إدامةِ النظرِ ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي رافعي رؤوسهم ينظرونَ في ذلٍّ.

وقيل: ناكسي رؤوسهم، ويقالُ أقنعَ إذا رفعَ رأسهُ، وأقنعَ إذا طأطأَ رأسهُ ذلةً وخضوعًا، والآيةُ محتملةٌ الوجهينِ ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ﴾ أيْ لا ترجعُ إليهمْ أبصارهمْ منْ شدةِ النظرِ فهيَ شاخصةُ النظرِ. يقالُ: طرفَ الرجلِ يطرفُ طرفًا إذا أطبقَ جفنهُ على الآخرِ، فسميَ النظرُ طرفًا لأنهُ بهِ يكونُ. والطرفُ العينُ. قالَ عنترةُ:

وأغضُّ طرفي ما بدتْ لي جارتي حتى يواريَ جارتي مأواها

﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ أيْ لا تغني شيئًا منْ شدةِ الخوفِ. وقيل: خاليةٌ منْ كلِّ خيرٍ. وقيل: خرجتْ قلوبهمْ منْ صدورهمْ فنشبتْ في حلوقهمْ، وفي التنزيلِ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ﴾ أي من كل شيء إلا منْ همِّ موسى. وقيل: في الكلامِ إضمار، أي ذات هواء وخلاء.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أرادَ أهلَ مكةَ ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ وهوَ يومُ القيامةِ، أيْ خوفهمْ ذلكَ اليومَ. وإنما خصهمْ بيومِ العذابِ وإنْ كانَ يومَ الثوابِ، لأنَّ الكلامَ خرجَ مخرجَ التهديدِ للعاصي ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أيْ في ذلكَ اليومِ ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ﴾ أيْ أمهلنا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ سألوهُ الرجوعَ إلى الدنيا حينَ ظهرَ الحقُّ في الآخرةِ ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ أي إلى الإسلام ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾. فيجابوا: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾ يعني في دار الدنيا. وهوَ ما حكاهُ عنهمْ في قولهِ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾.

﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ فيهِ تأويلانِ:

أحدهما- ما لكمْ منَ انتقالٍ عنِ الدنيا إلى الآخرةِ.

الثاني- ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ أيْ منَ العذابِ.

قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ أيْ في بلادِ ثمودَ ونحوها فهلا اعتبرتمْ بمساكنهمْ، بعدَما تبينَ لكمْ ما فعلنا بهمْ، وبعدَ أنْ ضربنا لكمُ الأمثالَ في القرآنِ. وقرأ أبو عبدِ الرحمنِ السلميُّ «ونبينْ لكمْ» بنونٍ والجزمِ على أنهُ مستقبلٌ ومعناهُ الماضي، وليناسبَ قولهُ: ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾. وقراءةُ الجماعةِ ﴿وَتَبَيَّنَ﴾ وهيَ مثلها في المعنى، لأنَّ ذلكَ لا يتبينُ لهمْ إلا بتبيينِ اللهِ إياهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾ أيْ بالشركِ باللهِ وتكذيبِ الرسلِ والمعاندةِ ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ ﴿إِن﴾ بمعنى ﴿مَا﴾ أيْ ما كانَ مكرهمْ لتزولَ منهُ الجبالُ لضعفهِ ووهنهِ، و ﴿إِن﴾ بمعنى ﴿مَا﴾ في القرآنِ في مواضعَ خمسةٍ:

أحدها: هذا.

الثاني- ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾.

الثالثُ- ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا﴾ أيْ ما كنا.

الرابعُ- ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ﴾.

الخامسُ- ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ﴾

وقرأ الجماعةُ ﴿وَإِن كَانَ﴾ بالنونِ. وقرأ عمرو بنُ عليٍّ وابنُ مسعودٍ وأبيٌّ «وَإِنْ كَادَ» بالدالِ.

والعامةُ على كسرِ اللامِ في ﴿لِتَزُولَ﴾ على أنها لامُ الجحودِ وفتحِ اللامِ الثانيةِ نصبا. وقرأ الكسائيُّ «لَتَزُولُ» بفتحِ اللامِ الأول على أنها لامُ الابتداءِ ورفعِ الثانيةِ و ﴿إِن﴾ مخففةٌ منَ الثقيلةِ، ومعنى هذهِ القراءةِ استعظامُ مكرهمْ، أيْ ولقدْ عظمَ مكرهمْ حتى كادتِ الجبالُ تزولُ منهُ.

وفي الجبالِ التي عنى زوالها بمكرهمْ وجهانِ:

أحدهما- جبالُ الأرضِ.

الثاني- الإسلامُ والقرآنُ، لأنهُ لثبوتهِ ورسوخهِ كالجبالِ.

﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ بكسرِ اللامِ، أيْ ما كانَ مكرهمْ مكرًا يكونُ لهُ أثرٌ وخطرٌ عندَ اللهِ تعالى، فالجبالُ مثلٌ لأمرِ النبيِّ ﷺ. وقيل: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ في تقديرهمْ ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ ويؤثرَ في إبطال الإسلام. وقرئ «لَتَزُولُ مِنْهُ الْجِبَالُ» بفتح اللامِ الأولى وضمِّ الثانيةِ، أيْ كانَ مكرًا عظيمًا تزولُ منهُ الجبالُ، ولكنَّ اللهَ حفظَ رسولَ اللهِ ﷺ، وهوَ كقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا﴾ والجبالُ لا تزولُ ولكنَّ العبارةَ عنْ تعظيمِ الشيء هكذا تكون.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ اسمُ اللهِ تعالى وَ مُخلِفَ مفعولا تحسبَ، وَ ﴿رُسُلَهُۥ﴾ مفعولُ وَعدِهِ وهوَ على الاتساعِ، وسواءٌ في قولكَ: مخلفَ وعدهِ رسلهُ، ومخلفَ رسلهِ وعدهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ أيْ منْ أعدائهِ. ومنْ أسمائهِ المنتقمُ.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ أيِ اذكرْ يومَ تبدلُ الأرضُ، فتكونُ متعلقةً بما قبلهُ. وقيل: هوَ صفةٌ لقولهِ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾.

واختلف في كيفية تبديل الأرضِ، فقالَ كثيرٌ منَ الناسِ: إنَّ تبدلَ الأرضِ عبارةٌ عنْ تغيرِ صفاتها، وتسويةِ آكامها، ونسفِ جبالها، ومدِّ أرضها.

وقيل: اختلافُ أحوالها، فمرةٌ كالمهلِ ومرةٌ كالدهانِ، والصحيحَ إزالةُ هذهِ الأرضِ حسبَ ما ثبتَ عنِ النبيِّ ﷺ. روى مسلمٌ عنْ ثوبانَ مولى رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: كنتُ قائمًا عندَ رسولِ اللهِ ﷺ فجاءهُ حبرٌ منْ أحبارِ اليهودِ فقالَ: السلامُ عليكَ، وذكرَ الحديثَ، وفيهِ، فقالَ اليهوديُّ أينَ يكونُ الناسُ يومَ تبدلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتِ؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «في الظلمةِ دونَ الجسرِ» وذكرَ الحديثَ. وخرجَ عنْ عائشةَ قالتْ: سئلَ رسولُ اللهِ ﷺ عنْ قولهِ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ فأينَ يكونُ الناسُ يومئذٍ؟ قالَ: «على الصراطِ». خرجهُ ابنُ ماجهْ بإسنادِ مسلمٍ سواءً، وخرجهُ الترمذيُّ عنْ عائشةَ وأنها هيَ السائلةُ، قالَ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح، فهذه الأحاديث تنص على أن السمواتِ والأرضَ تبدلُ وتزالُ، ويخلقُ اللهُ أرضًا أخرى يكونُ الناسُ عليها بعدَ كونهمْ على الجسرِ.

وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ سهلِ بنِ سعدٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «يحشرُ الناسُ يومَ القيامةِ على أرضٍ بيضاءَ عفراءَ كقرصةِ النقيِّ ليسَ فيها علمٌ لأحدٍ».

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ أيْ منْ قبورهمْ.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وهمُ المشركونَ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أيْ يومَ القيامةِ ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ أيْ مشدودينَ ﴿فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾﴾ وهيَ الأغلالُ والقيودُ واحدها صَفْدٌ وصَفَدٌ. ويقالُ: صفدتهُ صفدًا أيْ قيدتهُ والاسمُ الصفدُ، فإذا أردتَ التكثيرَ قلتَ: صفدتهُ تصفيدا، قال عمر بنُ كلثومٍ:

فـآبـوا بـالـنـهـابِ وبـالـسـبـايـا وأبـنـا بـالـمـلـوكِ مصـفـدينـا

أيْ مقيدينا.

قيلَ: يقرنُ كلُّ كافرٍ معَ شيطانٍ في غلٍّ، بيانهُ قولهُ: ﴿۞ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ يعني قرناءهمْ منَ الشياطينِ. وقيلَ: إنهمُ الكفارُ يجمعونَ في الأصفادِ كما اجتمعوا في الدنيا على المعاصي ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ أيْ قمصهمْ، واحدها سربالٌ، والفعلُ تسربلتُ وسربلتُ غيري ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ يعني قطرانَ الإبلِ الذي تُهنأُ بهِ، وذلكَ أبلغُ لاشتعالِ النارِ فيهمْ وفي الصحيحِ: أنَّ النائحةَ إذا لمْ تتبْ قبلَ موتها تقامُ يومَ القيامةِ وعليها سربالٌ منْ قطرانٍ ودرعٌ منْ جربٍ.

وقيل: هوَ النحاسُ، والقطرُ النحاسُ والصفرُ المذابُ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾.

﴿وَتَغْشَىٰ﴾ أيْ تضربُ ﴿وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ فتغشيها ﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي بما اكتسبت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾ تقدم.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ أيْ هذا الذي أنزلنا إليكَ بلاغٌ، أيْ تبليغٌ وعظةٌ ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أيْ ليخوفوا عقابَ اللهِ عزَّ وجل.

﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أيْ وليعلموا وحدانيةَ اللهِ بما أقامَ منَ الحججِ والبراهينِ ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا۟ الأَلْبَابِ﴾ أيْ وليتعظَ أصحابُ العقولِ. وهذهِ اللاماتُ في ﴿وَلِيُنذَرُوا۟﴾ ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟﴾ ﴿وَلِيَذَّكَّرَ﴾ متعلقةٌ بمحذوفٍ، التقديرُ: ولذلكَ أنزلناهُ.

تمَّ تفسيرُ سورةِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ والحمدُ للهِ.

سورة الحجر

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ①﴾

﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ قيلَ فيهِ: إنهُ اسمٌ لجنسِ الكتبِ المتقدمةِ منَ التوراةِ والإنجيلِ، ثمَّ قرنهما بالكتابِ المبينِ. وقيل: الكتابُ هوَ القرآنُ، جمعَ لهُ بينَ الاسمين.

قوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ②﴾ ﴿رُبَّ﴾ لا تدخلُ على الفعلِ، فإذا لحقتها «ما» هيأتها للدخولِ على الفعلِ تقولُ: ربما قامَ زيدٌ، وربما يقومُ زيدٌ، وقرأ نافعٌ وعاصمٌ ﴿رُبَمَا﴾ مخففَ الباءِ. الباقونَ مشددةً، وهما لغتانِ. قالَ أبو حاتمٍ: أهلُ الحجازِ يخففونَ ربما، قالَ الشاعرُ:

ربَّما ضربةٍ بسيفٍ صقيلٍ   بينَ بصرى وطعنةٍ نجلاءَ

وأصلها أنْ تستعملَ في القليلِ وقدْ تستعملُ في الكثيرِ، أيْ يودُّ الكفارُ في أوقاتٍ كثيرةٍ لوْ كانوا مسلمينَ، قالهُ الكوفيونَ.

وقالَ بعضهمْ: هي للتقليلِ في هذا الموضعِ، لأنهمْ قالوا ذلكَ في بعضِ المواضعِ لا في كلها، لشغلهمْ بالعذابِ، واللهُ أعلمُ. قالَ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ﴾ وهيَ إنما تكونُ لما وقعَ، لأنهُ لصدقِ الوعدِ كأنهُ عيانٌ قدْ كانَ.

قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ③﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ تهديدٌ لهمْ ﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُۖ﴾ أيْ يشغلهمْ عنِ الطاعةِ. يقالُ: ألهاهُ عنْ كذا أيْ شغلهُ. ولهيَ هوَ عنِ الشيءِ يلهى ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ إذا رأوا القيامةَ وذاقوا وبالَ ما صنعوا. وهذهِ الآيةُ منسوخةٌ بآيةِ السيفِ.

الثانية: طول الأمل داء عضالٌ ومرضٌ مزمنٌ، ومتى تمكنَ منَ القلبِ فسدَ مزاجهُ واشتدَّ

علاجهُ، وحقيقةُ الأمل: الحرصُ على الدنيا والانكبابُ عليها، والحبُّ لها والإعراضُ عنِ الآخرةِ، والأملُ يكسلُ عنِ العملِ ويورثُ التراخيَ والتوانيَ، ويعقبُ التشاغلَ والتقاعسَ، ويخلدُ إلى الأرضِ ويميلُ إلى الهوى، كما أنَّ قصرَ الأملِ يبعثُ على العملِ، ويحيلُ على المبادرةِ، ويحثُّ على المسابقةِ.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤﴾

أيْ أجلٌ مؤقتٌ كتبَ لهمْ في اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ٥﴾

﴿مِن﴾ صلةٌ، كقولكَ: ما جاءني منْ أحدٍ. أيْ لا تتجاوزُ أجلها فتزيدُ عليهِ، ولا تتقدمُ قبلهُ. ونظيرهُ قولهُ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ٧﴾.

قالهُ كفارُ قريشٍ لمحمدٍ ﷺ على جهة الاستهزاءِ، ثمَّ طلبوا منهُ إتيانَ الملائكةِ دلالةً على صدقه. و﴿لَّوۡمَا﴾ تحضيضٌ على الفعلِ كلولا وهلا.

قوله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ٨﴾.

قرأ حفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ والباقونَ «مَا تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ» وتقديرهُ: ما تتنزلُ بتاءينِ حذفتْ إحداهما تخفيفًا، ومعنى: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ إلا بالقرآنِ. وقيل: بالرسالةِ، وقالَ الحسنُ: إلا بالعذابِ إنْ لمْ يؤمنوا ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾ أيْ لوْ تنزلتِ الملائكةُ بإهلاكهمْ لما أمهلوا ولا قبلتْ لهمْ توبةٌ. وقيل: المعنى لوْ تنزلت الملائكة تشهد لك فكفروا بعدَ ذلكَ لمْ ينظروا. وأصلُ ﴿إِذٗا﴾ إذْ أنْ - ومعناهُ حينئذٍ - فضمَّ إليها أنْ، واستثقلوا الهمزة فحذفوها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ يعني القرآنَ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ منْ أنْ يزادَ فيهِ أوْ ينقصَ منهُ، وقالَ في غيرهِ: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ﴾، فوكلَ حفظهُ إليهمْ فبدلوا وغيروا.

وقيل: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أيْ لمحمدٍ ﷺ منْ أنْ يتقولَ علينا أوْ نتقولَ عليهِ. أوْ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ منْ أنْ يكادَ أوْ يقتلَ. نظيرهُ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾. و ﴿نَحۡنُ﴾ يجوز أن يكون موضعه رفعا بالابتداء و ﴿نَزَّلۡنَا﴾ الخبرَ. والجملةُ خبرَ ﴿إِنَّ﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿نَحۡنُ﴾ تأكيدًا لاسمِ ﴿إِنَّ﴾ في موضعِ نصبٍ، ولا تكونُ فاصلةً لأنَّ الذي بعدها ليسَ بمعرفةٍ وإنما هوَ جملةٌ، والجملُ تكونُ نعوتًا للنكرات فحكمها حكم النكرات.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٠﴾

المعنى: ولقدْ أرسلنا منْ قبلكَ رسلًا، فحذفَ. والشيعُ جمعُ شيعةٍ وهيَ الأمةُ، أيْ في أممهم، والشيعةُ: الفرقةُ والطائفةُ منَ الناسِ المتآلفةُ المتفقةُ الكلمةِ. فكأنَّ الشِيعَ الفرقُ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١١﴾.

تسليةٌ للنبيِّ ﷺ، أيْ كما فعلَ بكَ هؤلاءِ المشركونَ فكذلكَ فعلَ بمن قبلك من الرسل.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٢ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣﴾

قولهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ﴾ أيِ الضلالَ والكفرَ والاستهزاءَ والشركَ. ﴿فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ منْ قومكَ، أيْ كما سلكناهُ في قلوبِ منْ تقدمَ منْ شيعِ الأولينَ كذلكَ نسلكهُ في قلوبِ مشركي قومكَ حتى لا يؤمنوا بكَ، كما لمْ يؤمنْ منْ قبلهمْ برسلهمْ. والسَلْكُ: إدخالُ الشيءِ في الشيءِ كإدخالِ الخيطِ في المخيطِ. يقالُ: سلكهُ يسلكهُ سلكًا وسلوكا، والسِلكُ «بالكسرِ» الخيطُ ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أيْ مضتْ سنةُ اللهِ بإهلاكِ الكفارِ، فما أقربَ هؤلاءِ منَ الهلاكِ. وقيل: ﴿خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ بمثلِ ما فعلَ هؤلاءِ منَ التكذيبِ والكفرِ، فهمْ يقتدونَ بأولئك.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

يقالُ: ظلَّ يفعلُ كذا، أيْ يفعلهُ بالنهارِ. والمصدرُ الظلولُ. أيْ لوْ أجيبوا إلى ما اقترحوا منَ الآياتِ لأصروا على الكفرِ وتعللوا بالخيالاتِ، كما قالوا للقرآنِ المعجزِ: إنهُ سحرٌ.

و ﴿يَعْرُجُونَ﴾ منْ عرجَ يعرجُ أيْ صعدَ. والمعارجُ المصاعدُ. أيْ لوْ صعدوا إلى السماءِ وشاهدوا الملكوتَ والملائكةَ لأصروا على الكفرِ، وقيل: الضميرُ في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ للمشركينَ. وفي ﴿فَظَلُّوا۟﴾ للملائكةِ، تذهبُ وتجيءُ أيْ لوْ كشفَ لهؤلاءِ حتى يعاينوا أبوابًا في السماءِ تصعدُ فيها الملائكةُ وتنزلُ لقالوا: رأينا بأبصارنا ما لا حقيقةَ لهُ، ومعنى ﴿سُكِّرَتْ﴾ سدتْ بالسحرِ، وقيل: أغشيتْ أبصارنا، وعنهُ أيضًا عميتْ.

وقرأ ابنُ كثيرٍ «سَكِرَتْ» بالتخفيفِ. والباقونَ بالتشديدِ، التشديدُ للتكثيرِ والتخفيفُ يؤدي عنْ معناهُ. والمعروفُ أنَّ «سَكرَ» لا يتعدى، ومنْ قرأَ «سَكِرَتْ» فإنهُ شبّهَ ما عرضَ لأبصارهمْ بحالِ السكرانِ، كأنها جرتْ مجرى السكرانِ لعدمِ تحصيلهِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾

لما ذكرَ كفرَ الكافرينَ وعجزَ أصنامهمْ ذكرَ كمالَ قدرتهِ ليستدلَّ بها على وحدانيتهِ. والبروجُ: القصورُ والمنازلُ. أيْ بروجَ الشمسِ والقمرِ، أيْ منازلهما. وأسماءُ هذهِ البروجِ: الحملُ، والثورُ، والجوزاءُ، والسرطانُ، والأسدُ، والسنبلةُ، والميزانُ، والعقربُ، والقوسُ، والجديُ، والدلوُ، والحوتُ. والعربُ تعدُّ المعرفةَ لمواقعِ النجومِ وأبوابها منْ أجلِّ العلومِ، ويستدلونَ بها على الطرقاتِ والأوقاتِ والخصبِ والجدبِ.

وأصلُ البروجِ الظهورُ، ومنهُ تبرجُ المرأةِ بإظهارِ زينتها.

﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ يعني السماءَ، كما قالَ في سورةِ الملكِ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾. ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ للمعتبرين والمتفكرين.

قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ١٧﴾

أيْ مرجومٍ. والرجمُ الرميُ بالحجارةِ. وقيل: الرجمُ اللعنُ والطردُ.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ١٨﴾

أيْ لكنْ منِ استرقَ السمعَ، أيِ الخطفةَ اليسيرةَ، فهوَ استثناءٌ منقطعٌ. وقيلَ هوَ متصلٌ، أي إلا ممن استرق السمع. أيْ حفظنا السماءَ منَ الشياطينِ أنْ تسمعَ شيئًا منَ الوحيِ، وغيرِه، إلا منِ استرقَ السمعَ فإنا لمْ نحفظها منهُ أنْ تسمعَ الخبرَ منْ أخبارِ السماءِ سوى الوحيِ، فأما الوحيُ فلا تسمعُ منهُ شيئًا، لقولهِ: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ أتبعهُ: أدركهُ ولحقه. وشهاب: كوكبٌ مضيءٌ. وكذلكَ شهابٌ ثاقبٌ. وقولهُ: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ بشعلةِ نارٍ في رأسِ عودٍ، وسمي الكوكب شهابا لبريقه، يشبه النارَ.

قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ هذا منْ نعمهِ أيضًا، ومما يدلُّ على كمالِ قدرتهِ. قالَ ابنُ عباسٍ: بسطناها على وجهِ الماءِ، كما قالَ: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ أي بسطها. وقالَ: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾، وهوَ يردُّ على منْ زعمَ أنها كالكرةِ.

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالًا ثابتةً لئلا تتحركَ بأهلها ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ١٩﴾ أيْ مقدرٍ معلومٍ، وإنما قالَ: ﴿مَّوْزُونٍ﴾ لأنَّ الوزنَ يعرفُ بهِ مقدارُ الشيءِ. وقيل: موزونٌ يعني مقسومٌ. وقيل: موزونٌ معدودٌ. ويقالُ: هذا كلامٌ موزونٌ، أيْ منظومٌ غيرُ منتثرٍ. فعلى هذا أيْ أنبتنا في الأرضِ ما يوزنُ منَ الجواهرِ والحيواناتِ والمعادنِ، والمقصودُ منَ الإنباتِ الإنشاءُ والإيجادُ. وقيل: ﴿أَنبَتْنَا فِيهَا﴾ أيْ في الجبالِ ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ من الذهب والفضة والنحاس والرصاص والقزدير، حتى الزرنيخَ والكحلَ، كلُّ ذلكَ يوزنُ وزنًا. وقيل: أنبتنا في الأرضِ الثمارَ مما يكالُ ويوزنُ. وقيل: ما يوزنُ فيهِ الأثمانُ لأنهُ أجلُّ قدرًا وأعمُّ نفعًا مما لا ثمنَ لهُ ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ يعني المطاعمَ والمشاربَ التي يعيشونَ بها، واحدها معيْشةٌ بسكونِ الياءِ ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ٢٠﴾ يريدُ الدوابَّ والأنعام، وقيل: همُ العبيدُ والأولادُ الذينَ قالَ اللهُ فيهمْ: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ ولفظُ

﴿مَن﴾ يجوزُ أنْ يتناولَ العبيدَ والدوابَّ إذا اجتمعوا، لأنهُ إذا اجتمعَ منْ يعقلُ وما لا يعقلُ، غُلبَ من يعقل. أي جعلنا لكمْ فيها معايشَ وعبيدًا وإماءً ودوابَّ وأولادًا نرزقهمْ ولا ترزقونهمْ. فَـ﴿مَن﴾ على هذا التأويلِ في موضعِ نصبٍ، وقيل: أرادَ بهِ الوحشَ. فَـ﴿مَن﴾ على هذا تكونُ لما لا يعقلُ، مثلَ ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ الآيةَ.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ يعني المطرَ المنزلَ منَ السماءِ، لأنَّ بهِ نباتَ كل شيء. وقيل: الخزائنُ المفاتيحُ، أيْ في السماءِ مفاتيحُ الأرزاقِ ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ أيْ ولكنْ لا ننزلهُ إلا على حسبِ مشيئتنا وعلى حسبِ حاجةِ الخلقِ إليهِ، كما قالَ: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾. والخزائنُ جمعُ الخزانةِ، وهوَ الموضعُ الذي يسترُ فيهِ الإنسانُ مالهُ، والخزانةُ أيضًا مصدرُ خزنَ يخزنُ. وما كانَ في خزانةِ الإنسانِ كانَ معدًا لهُ.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ﴾ قراءةُ العامةِ ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمعِ. وقرأ حمزةُ بالتوحيدِ، لأنَّ معنى الريحِ الجمعُ أيضًا وإنْ كانَ لفظها لفظَ الواحدِ. كما يقالُ: جاءتِ الريحُ منْ كلِّ جانبٍ، وكذلك تفعل العرب في كل شيء اتسعَ. وأما وجهُ قراءةِ العامةِ فلأنَّ اللهَ تعالى نعتها بِـ ﴿لَوَٰقِحَ﴾ وهيَ جمعٌ.

ومعنى: ﴿لَوَٰقِحَ﴾ حواملَ، لأنها تحملُ الماءَ والترابَ والسحابَ والخيرَ والنفعَ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ أيْ حملتْ.

الثانية: قالَ مالكٌ: قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ فلقاحُ القمحِ عندي أنْ يحببَ ويسنبلَ، ولقاحُ الشجرِ كلها أنْ تثمرَ ثمَّ يسقطُ منها ما يسقطُ ويثبتُ ما يثبتُ، وليسَ ذلكَ بأنْ توَرِّدَ.

وعليهِ جاءَ الحديثُ: «نهى النبيُّ ﷺ عنْ بيعِ الحبِّ حتى يشتدَّ».

قالَ ابنُ عبدِ البرِّ: الإبارُ عندَ أهلِ العلمِ في النخلِ التلقيحِ، وهو أن يؤخذ شيء منْ طلعِ

ذكورِ النخلِ فيدخلَ بينَ ظهرانيْ طلعِ الإناثِ.

ولمْ يختلفِ العلماءُ أنَّ الحائطَ إذا انشقَّ طلعُ إناثهِ فأخرَ إبارهُ وقدْ أُبِّرَ غيرهُ ممن حال مثلُ حالهِ، أنَّ حكمهُ حكمُ ما أبرَ، لأنهُ قدْ جاءَ عليهِ وقتُ الإبارِ وثمرتهُ ظاهرةٌ بعدَ تغيبها في الجُفِّ. فإنْ أُبِّرَ بعضُ الحائطِ كانَ ما لمْ يؤبرْ تبعًا لهُ. كما أنَّ الحائطَ إذا بدا صلاحهُ كانَ سائرُ الحائطِ تبعًا لذلكَ الصلاحِ في جوازِ بيعهِ.

الثالثة: روى الأئمةُ كلهمْ عنِ ابنِ عمرَ قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «منِ ابتاعَ نخلًا بعدَ أنْ تؤبرَ فثمرتها للذي باعها إلا أنْ يشترطَ المبتاعُ. ومنِ ابتاعَ عبدًا فمالهُ للذي باعهُ إلا أنْ يشترطهُ المبتاعُ». قالَ علماؤنا: إنما لمْ يدخلِ الثمرُ المؤبرُ معَ الأصولِ في البيعِ إلا بالشرطِ، لأنهُ عينٌ موجودةٌ يحاطُ بها أمنَ سقوطها غالبًا. بخلافِ التي لمْ تؤبرْ، إذْ ليسَ سقوطها مأمونًا فلمْ يتحققْ لها وجودٌ، فلمْ يجزْ للبائعِ اشتراطها ولا استثناؤها، لأنها كالجنينِ. وهذا هوَ المشهورُ منْ مذهبِ مالكٍ. وقيل: يجوزُ استثناؤها، وهوَ قولُ الشافعيِّ.

الرابعة: لوِ اُشتريَ النخلُ وبقيَ الثمرُ للبائعِ جازَ لمشتري الأصلِ شراءُ الثمرةِ قبلَ طيبها على مشهورِ قولِ مالكٍ، ويرى لها حكمَ التبعيةِ وإنْ أفردتْ بالعقدِ. وعنهُ في روايةٍ: لا يجوزُ. وبذلكَ قالَ الشافعيُّ وأبو حنيفةَ والثوريُّ وأهلُ الظاهرِ وفقهاءُ الحديثِ. وهوَ الأظهرُ منْ أحاديثِ النهيِ عنْ بيعِ الثمرةِ قبلَ بدوِّ صلاحها.

الخامسة: ومما يتعلقُ بهذا البابِ النهيُ عنْ بيعِ الملاقحِ، والملاقحُ الفحولُ منَ الإبلِ، الواحدُ مُلْقِحٌ. والملاقحُ أيضًا الإناثُ التي في بطونها أولادها، الواحدةُ ملقَحةٌ «بفتحِ القافِ» والملاقيحُ ما في بطونِ النوقِ منَ الأجنةِ، الواحدةُ ملقوحةٌ، منْ قولهمْ: لُقِحَتْ، كالمحموم منْ حُمَّ، والمجنونِ منْ جُنَّ، وفى هذا جاء النهى. وقدْ جاءَ عنِ النبيِّ ﷺ: أنهُ نهى عنِ المَجْرِ وهوَ بيعُ ما في بطونِ الإناثِ. ونهى عنِ المضامينِ والملاقيحِ. قالَ أبو عبيدٍ: المضامينُ ما في البطونِ، وهيَ الأجنةُ. والملاقيحُ ما في أصلابِ الفحولِ، وقيلَ: بالعكسِ، وأيُّ الأمرينِ كانَ، فعلماءُ المسلمينَ مجمعونَ على أنَّ ذلكَ لا يجوزُ.

قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أيْ منَ السحابِ. وكلُّ ما علاكَ فأظلكَ يسمى سماءٌ. **وقيل**: منْ جهةِ السماءِ ﴿مَآءٗ﴾ أيْ قطرًا ﴿فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ﴾ أيْ جعلنا ذلكَ المطرَ

لسقياكمْ ولشربِ مواشيكمْ وأرضكمْ. وقيل: سقى وأسقى بمعنى. وقيلَ: بالفرقِ ﴿وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ أيْ ليستْ خزائنهُ عندكمْ، أيْ نحنُ الخازنونَ لهذا الماءِ ننزلهُ إذا شئنا ونمسكهُ إذا شئنا. ومثلهُ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾، ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٍ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾، وقالَ سفيانُ: لستمْ بمانعينَ المطر.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ٢٣﴾

أيِ الأرض ومن عليها، ولا يبقى شيء سوانا. نظيرهُ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾. فملك كل شيء للهِ تعالى. ولكنْ ملَّكَ عبادهُ أملاكًا فإذا ماتوا انقطعت الدعاوى، فكانَ اللهُ وارثًا منْ هذا الوجهِ. وقيل: الإحياءُ في هذهِ الآيةِ إحياءُ النطفةِ في الأرحامِ. فأما البعثُ فقدْ ذكرهُ بعدَ هذا في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ٢٤﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ﴾ فيهِ ثمان تأويلاتٍ:

الأولُ– ﴿ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ﴾ في الخلقِ إلى اليوم، و ﴿ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ﴾ الذينَ لمْ يخلقوا بعدُ.

الثاني– ﴿ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ﴾ الأموات، و ﴿ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ﴾ الأحياءُ.

الثالثُ– ﴿ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ﴾ من تقدم أمة محمد، و ﴿ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ﴾ أمةُ محمدٍ ﷺ.

الرابع– ﴿ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ﴾ في الطاعة والخير، و ﴿ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ﴾ في المعصيةِ والشرِّ.

الخامس– ﴿ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ﴾ في صفوف الحرب، و ﴿ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ﴾ فيها.

السادسُ– ﴿ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ﴾ من قتل في الجهاد، و ﴿ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ﴾ منْ لمْ يقتلْ.

السابعُ:– ﴿ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ﴾ أول الخلق، و ﴿ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ﴾ آخرُ الخلقِ.

الثامنُ- ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ في صفوف الصلاة، و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ فيها بسببِ النساءِ.

وكلُّ هذا معلومٌ للهِ تعالى، فإنهُ عالمٌ بكلِّ موجودٍ ومعدوم، وعالمٌ بمنْ خلقَ وما هوَ خالقهُ إلى يومِ القيامةِ. إلا أنَّ القولَ الثامنَ هوَ سببُ نزولِ الآيةِ، لما رواهُ النسائيُّ والترمذيُّ عنِ ابنِ عباسٍ قالَ: «كانتِ امرأةٌ تصلي خلفَ رسولِ اللهِ ﷺ حسناءُ منْ أحسنِ الناسِ، فكانَ بعضُ القومِ يتقدمُ حتى يكونَ في الصفِّ الأولِ لئلا يراها، ويتأخرُ بعضهمْ حتى يكونَ في الصفِّ المؤخرِ، فإذا ركعَ نظرَ منْ تحتِ إبطهِ، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾».

الثانية: هذا يدلُّ على فضلِ أولِ الوقتِ في الصلاةِ وعلى فضلِ الصفِّ الأولِ، قالَ النبيُّ ﷺ: «لوْ يعلمُ الناسُ ما في النداءِ والصفِّ الأولِ ثمَّ لم يجدوا إلا أن يستهموا عليهِ لاستهموا». فإذا جاءَ الرجلُ عندَ الزوالِ فنزلَ في الصفِّ الأولِ مجاورَ الإمامِ، حازَ ثلاثَ مراتبَ في الفضلِ: أولَ الوقتِ، والصفَّ الأولَ، ومجاورةَ الإمامِ.

ومجاورةُ الإمامِ لا تكونُ لكلِّ أحدٍ، وإنما هيَ كما قالَ ﷺ: «ليلني منكم أولو الأحلام والنهى» الحديث. فما يلي الإمامَ ينبغي أنْ يكونَ لمنْ كانتْ هذهِ صفتهُ، فإنْ نزلها غيرهُ أُخِرَ وتقدمَ هو إلى الموضعِ، لأنهُ حقهُ بأمرِ صاحبِ الشرعِ، كالمحرابِ هوَ موضعُ الإمامِ تقدمَ أوْ تأخرَ.

الثالثة: وكما تدلُّ هذهِ الآيةُ على فضلِ الصفِّ الأولِ في الصلاةِ، فكذلكَ تدلُّ على فضلِ الصفِّ الأولِ في القتالِ، فإنَّ القيامَ في نحرِ العدوِّ وبيعَ العبدِ نفسهُ منَ اللهِ تعالى لا يوازيهِ عملٌ، فالتقدمُ إليهِ أفضلُ، ولا خلافَ فيهِ ولا خفاءَ بهِ. ولمْ يكنْ أحدٌ يتقدم الحربِ بينَ يديْ رسولِ اللهِ ﷺ، لأنهُ كانَ أشجعَ الناسِ. قالَ البراءُ: كنا واللهِ إذا احمرَّ البأسُ نتقي بهِ، وإنَّ الشجاعَ منا للذي يحاذي بهِ، يعني النبيَّ ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أيْ للحساب والجزاء ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ٢٥﴾ تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعني آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾. أيْ منْ طينٍ يابسٍ، والصلصالُ: الطينُ الحرُّ خُلطَ بالرملِ فصارَ يتصلصلُ إذا جفَّ، فإذا طبخَ بالنارِ فهوَ الفخارُ، وقيل: هوَ الطينُ المنتنُ، تقول العرب: صلَّ اللحمُ وأصلَّ إذا أنتنَ – مطبوخًا كانَ أوْ نيئًا– يَصِلُّ صُلولًا.

فكانَ أولَ ترابًا، أيْ متفرقَ الأجزاءِ ثمَّ بُلَّ فصارَ طينًا، ثمَّ تركَ حتى أنتنَ فصارَ حمأً مسنونًا، أيْ متغيرًا، ثمَّ يبسَ فصارَ صلصالًا، على قولِ الجمهورِ، والحمَأُ: الطينُ الأسود، وكذلك الحمْأَةُ بالتسكين، والمسنونُ المتغيرُ، منْ قولهمْ: قدْ أسنَ الماءُ إذا تغيرَ، ومنهُ ﴿يَتَسَنَّهْ﴾ وَ ﴿مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ أيْ من قبل آدمَ، وسميَ جانًا لتواريهِ عنِ الأعينِ. وفي صحيحِ مسلمٍ منْ حديثِ ثابتٍ عنْ أنسٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «لما صورَ اللهُ تعالى آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في الجنةِ تركهُ ما شاءَ اللهُ أنْ يتركهُ فجعلَ إبليس يطيف به وينظر ما هوَ فلما رآهُ أجوفَ عرفَ أنهُ خلق خلقا لا يتمالك».

﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾ السمومُ الريحُ الحارةُ التي تقتلُ لا دخان لها، وقدْ خرجَ مسلمٌ منْ حديثِ عروةَ عنْ عائشةَ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «خلقتِ الملائكةُ منْ نورٍ وخلقَ الجانُّ منْ مارجٍ منْ نارٍ وخلقَ آدمُ مما وصفَ لكمْ».

وسميتِ الريح الحارة سمومًا لدخولها بلطفها في مسام البدن.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ تقدمَ في «البقرةِ» ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ﴾ منْ طينٍ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أيْ سويتُ خلقهُ وصورتهُ ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ النفخُ إجراءُ الريحِ في الشيءِ.

والروحُ جسمٌ لطيفٌ، أجرى اللهُ العادةَ بأنْ يخلقَ الحياةَ في البدنِ معَ ذلكَ الجسمِ. وحقيقتهُ إضافةُ خلقٍ إلى خالقٍ، فالروحُ خلقٌ منْ خلقهِ أضافهُ إلى نفسهِ تشريفًا وتكريمًا،

كقولِهِ: «أرضي وسمائي وبيتي وناقةُ اللهِ وشهرُ اللهِ». ومثلهُ ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾.

والروح جسمٌ لطيفٌ، وهي والنفس اسمانِ لمسمى واحدٍ ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩﴾ سجودُ تحيةٍ وتكريمٍ لا سجودَ عبادةٍ. وللهِ أنْ يفضلَ منْ يريدُ، ففضلَ الأنبياءَ على الملائكةِ. وقيل: أمروا بالسجودِ للهِ عندَ آدم، وكان آدم قِبْلة لهم.

قولُه تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: لا شكَّ أنَّ إبليسَ كانَ مأمورًا بالسجود، لقول: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ وإنما منعهُ منْ ذلكَ الاستكبارُ والاستعظامُ، ثمَّ قيلَ: كانَ منَ الملائكةِ، فهوَ استثناءٌ منَ الجنسِ، وقالَ قومٌ: لمْ يكنْ منَ الملائكةِ، فهوَ استثناءٌ منقطعٌ.

وقالَ ابنُ عباسٍ: الجانُّ أبو الجنِّ وليسوا شياطينَ. والشياطينُ ولدُ إبليسَ، لا يموتونَ إلا معَ إبليسَ. والجنُّ يموتونَ، ومنهمُ المؤمنُ ومنهمُ الكافرُ. فآدمُ أبو الإنسِ. والجانُّ أبو الجنِّ. وإبليسُ أبو الشياطينِ.

الثانية: الاستثناءُ منَ غيرِ الجنسِ صحيحٌ عندَ الشافعيِّ، حتى لوْ قالَ: لفلانٍ عليَّ دينارٌ إلا ثوبًا، أوْ عشرةُ أثوابٍ إلا قفيزَ حنطةٍ، ويسقطُ عنهُ منَ المبلغِ قيمةُ الثوبِ والحنطةِ. ويستوي في ذلكَ المكيلاتُ والموزوناتُ والمقدراتُ. وقالَ مالكٌ وأبو حنيفةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: استثناءُ المكيلِ منَ الموزونِ والموزونِ منَ المكيلِ جائزٌ، حتى لوِ استثنى الدراهمَ منَ الحنطةِ والحنطةَ منَ الدراهمِ قبُلَ. فأما إذا استثنى المقوماتِ منَ المكيلاتِ أوِ الموزوناتِ والمكيلاتِ منَ المقوماتِ، مثلَ أنْ يقولُ: عليَّ عشرةُ دنانيرَ إلا ثوبًا، أوْ عشرةُ أثوابٍ إلا دينارًا لا يصحُّ الاستثناءُ، ويلزمُ المقرَّ جميعُ المبلغِ. وقالَ محمدُ بنُ الحسنِ: الاستثناءُ منْ غيرِ الجنسِ لا يصحُّ، ويلزمُ المقرَّ جملةُ ما أقرَّ به. والدليل لقولِ الشافعيِّ أنَّ لفظَ الاستثناءِ يستعملُ في الجنسِ وغيرِ الجنسِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ فاستثنى السلامَ منْ جملةِ اللغوِ. ومثلهُ ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ وإبليسُ ليس منْ جملةِ الملائكةِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ﴾ أيْ ما المانعُ لكَ ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أيْ في ألا تكونَ ﴿قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٍ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ بينَ تكبرهُ وحسدهُ، وأنهُ خيرٌ منهُ، إذْ هوَ منْ نارٍ والنارُ تأكلُ الطينَ ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ أي من السموات، أوْ منْ جنةِ عدنٍ، أوْ منْ جملةِ الملائكةِ ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ أيْ مرجومٌ بالشهبِ. وقيل: ملعونٌ مشتومٌ ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ ﴿٣٥﴾﴾ أيْ لعنتي، كما في «ص».

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ هذا السؤالُ منْ إبليسٍ لمْ يكنْ عن ثقته منهُ بمنزلتهِ عندَ اللهِ تعالى، وأنهُ أهلٌ أنْ يجابَ لهُ دعاءٌ، ولكنْ سألَ تأخيرَ عذابهُ زيادةً في بلائهِ، كفعلِ الآيسِ منَ السلامةِ. وأرادَ بسؤالهِ الإنظارَ إلى يومِ يبعثونَ: ألا يموتَ، لأنَّ يومَ البعثِ لا موتَ فيهِ ولا بعدهُ ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ يعني من المؤجلين ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ قالَ ابنُ عباسٍ: أرادَ بهِ النفخةَ الأولى، أيْ حينَ تموتُ الخلائقُ. وقيل: الوقتُ المعلومُ الذي استأثرَ اللهُ بعلمهِ، ويجهلهُ إبليسُ. فيموتُ إبليسُ ثمَّ يبعثُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾. وفي كلامِ اللهِ تعالى لهُ قولانِ:

أحدهما- كلّمهُ على لسانِ رسولهِ.

الثاني- كلمهُ تغليظًا في الوعيدِ لا على وجه التكرمة والتقريب.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تزيينهُ هنا يكونُ بوجهينِ: إما بفعلِ المعاصي، وإما بشغلهمْ بزينة الدنيا عن فعل الطاعة. ومعنى: ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ أيْ لأضلنهمْ عنْ طريقِ الهدى.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾. قرأَ أهلُ المدينةِ وأهلُ الكوفةِ بفتحِ اللامِ، أيِ الذينَ استخلصتهمْ وأخلصتهمْ. وقرأ الباقونَ بكسرِ اللامِ، أيِ الذينَ أخلصوا لكَ العبادةَ منْ فسادٍ أوْ رياءٍ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

قالَ عمرُ بنُ الخطابِ: معناهُ هذا صراطٌ يستقيمُ بصاحبِهِ حتى يهجمَ بِهِ على الجنةِ. و ﴿عَلَيَّ﴾ بمعنى إليَّ. وقيل: هذا على الوعيدِ والتهديدِ، كقولكَ لمنْ تهددهُ: طريقكَ عليَّ ومصيركَ إليَّ. وكقولهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾. فكانَ معنى الكلامِ: هذا طريقٌ مرجعهُ إليَّ فأجازي كلًّا بعملهِ، يعني طريقَ العبوديةِ.

وقرأ يعقوبُ «هَذَا صِراطٌ عَلِيٌّ مُسْتَقِيمٌ» برفعِ «عَلِيٌّ» وتنوينهِ، ومعناهُ رفيعٌ مستقيمٌ، أيْ رفيعٌ في الدينِ والحقِّ. وقيل: رفيعٌ أنْ ينالَ، مستقيمٌ أن يمال.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾، فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ قالَ العلماءَ: يعني على قلوبهمْ، وهؤلاءِ الذين هداهم الله واجتباهم واختارهم واصطفاهم، وقولهُ سبحانهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ يحتملُ أنْ يكونَ خاصًا فيمنْ حفظهُ اللهُ، ويحتملُ أنْ يكونَ في أكثرِ الأوقاتِ والأحوالِ ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ أي الضالينَ المشركينَ. أيْ سلطانهُ على هؤلاءِ، دليلهُ: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾.

الثانية: وهذهِ الآيةُ والتي قبلها دليلٌ على جوازِ استثناءِ القليلِ منَ الكثيرِ والكثيرِ منَ القليلِ، مثلُ أنْ يقولَ: عشرةٌ إلا درهمًا. أوْ يقولَ: عشرةٌ إلا تسعة. وقال أحمد ابن حنبل: لا يجوزُ أنْ يستثنى إلا قدرَ النصفِ فما دونهُ. وأما استثناءُ الأكثرِ منَ الجملةِ فلا يصحُّ. ودليلنا هذهِ الآيةُ، فإنَّ فيها استثناءُ ﴿ٱلْغَاوِينَ﴾ منَ العبادِ والعبادَ منَ الغاوينَ، وذلكَ يدلُّ على أنَّ استثناءَ الأقلِّ منَ الجملةِ واستثناءَ الأكثرِ منَ الجملةِ جائزٌ.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ يعني إبليسَ ومنِ اتبعهُ ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ أيْ أطباق، طبق فوق طبق ﴿لِّكُلِّ بَابٍ﴾ أي لكل طبقة ﴿مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ أيْ حظٌّ معلومٌ.

والذي عليهِ الأكثرُ منَ العلماءِ أنَّ جهنمَ أعلى الدركاتِ، وهيَ مختصةٌ بالعصاةِ منْ أمةِ

محمدٍ ﷺ، وهيَ التي تخلى منْ أهلها فتصفقُ الرياحُ أبوابها. ثمَّ لظى، ثمَّ الحطمةُ، ثمَّ سعيرٌ، ثمَّ سقرُ، ثمَّ الجحيمُ، ثمَّ الهاويةُ. قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، وقالَ: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، وقال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي الذين اتقوا الفواحش والشرك ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾. أيْ بساتينَ. ﴿وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ هيَ الأنهارُ الأربعةُ: ماءٌ وخمرٌ ولبنٌ وعسلٌ، وضمُّ العينِ منْ ﴿عُيُونٍ﴾ على الأصلِ، والكسرُ مراعاة للياء، وقرئ بهما.

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ قراءةُ العامةِ ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ بوصلِ الألفِ وضمِّ الخاءِ، منْ دخلَ يدخلُ، على الأمر. تقديرُهُ: قيلَ ادخلوها. وقرأ رويسٌ عنْ يعقوبَ «أُدْخِلُوهَا» بضمِّ التنوينِ ووصلِ الألفِ وكسرِ الخاءِ على الفعلِ المجهولِ، منْ أُدخلَ. أيْ أدخلهمُ اللهُ إياها. ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ أيْ بسلامةٍ منْ كلِّ داءٍ وآفةٍ. وقيل: بتحيةٍ منَ اللهِ لهمْ ﴿ءَامِنِينَ﴾ أيْ منَ الموتِ والعذابِ والعزلِ والزوال.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ قالَ عليٌّ رضي الله عنه: أرجو أنْ أكونَ أنا وطلحةُ والزبيرُ منْ هؤلاءِ. والغلُّ: الحقدُ والعداوةُ، يقالُ منهُ: غَلَّ يغِلُّ. ويقالُ: منَ الغلولِ وهوَ السرقةُ منَ المغنمِ: غلَّ يغُلُّ. ويقالُ منَ الخيانةِ: أغلَّ يُغِلُّ ﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ أيْ لا ينظرُ بعضهمْ إلى قفا بعضٍ تواصلاً وتحابيًا، وقيل: الأسرةُ تدورُ كيفما شاءوا، فلا يرى أحدٌ قفا أحدٍ. وقيل: ﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾ قدْ أقبلتْ عليهمُ الأزواجُ وأقبلوا عليهنَّ بالودِّ.

وسررٍ جمعُ سريرٍ، مثلُ جديدٍ وجددٍ. وقيل: هوَ منَ السرورِ، فكأنهُ مكانٌ رفيعٌ ممهدٌ للسرورِ. والأولُ أظهرُ.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أيْ إعياءٌ وتعبٌ ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ دليلٌ على أنَّ نعيمَ الجنةِ دائمٌ لا يزولُ، وأنَّ أهلها فيها باقونَ. ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿۞نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾.

هذهِ الآيةُ وزانُ قولهِ ﷺ: «لوْ يعلمُ المؤمنُ ما عندَ اللهِ منَ العقوبةِ ما طمعَ بجنتهِ أحدٌ ولوْ يعلمُ الكافرُ ما عندَ اللهِ منَ الرحمةِ ما قنطَ منْ رحمتهِ أحدٌ» أخرجهُ مسلمٌ منْ حديثِ أبي هريرةَ، وهكذا ينبغي للإنسانِ أنْ يذكرَ نفسهُ وغيرهُ فيخوفُ ويُرجي، ويكونُ الخوفُ في الصحةِ أغلبُ عليهِ منهُ في المرضِ.

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١﴾ ضيفُ إبراهيمَ: الملائكةُ الذينَ بشروهُ بالولدِ وبهلاكِ قومِ لوطٍ، وكانَ إبراهيمُ عليه السلام يكنى أبا الضيفانِ، وسميَ الضيفُ ضيفًا لإضافتهِ إليكَ ونزولهِ عليكَ.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ جمعَ الخبرَ لأنَّ الضيفَ اسمٌ يصلحُ للواحدِ والجمعِ والتثنيةِ والمذكرِ والمؤنثِ كالمصدرِ. ضافهُ وأضافهُ أمالهُ، ومنهُ الحديثُ: «حينَ تضيفُ الشمسُ للغروبِ» ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أيْ سلموا سلامًا ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢﴾ أيْ فزعونَ خائفونَ، وإنما قالَ هذا بعدَ أنْ قرّبَ العجلَ ورآهمْ لا يأكلونَ، على ما تقدمَ في هودٍ. وقيلَ: أنكرَ السلامَ ولمْ يكنْ في بلادهمْ رسمُ السلامِ ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ﴾ أيْ قالتِ الملائكةُ لا تخفْ ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣﴾ قالَ الجمهورُ: عالمٌ، وهوَ إسحاقُ ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ ﴿أن﴾ مصدريةٌ، أيْ على مسِّ الكبرِ إيايَ وزوجتي ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤﴾ استفهامُ تعجبٍ. وقيلَ: استفهامٌ حقيقيٌّ، وقرأ ابنُ كثيرٍ «تُبَشِّرُونِّ» بكسرِ النونِ مشددةً، تقديرهُ تبشرونني، فأدغمَ النونَ في النونِ. الباقونَ: ﴿تُبَشِّرُونَ ۝٥٤﴾ بنصبِ النونِ بغيرِ إضافةٍ.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أيْ بما لا خُلفَ فيهِ، وأنَّ الولدَ لا بدَّ منهُ ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۝٥٥﴾ أيْ منَ الآيسينَ منَ الولدِ، وكانَ قدْ أيسَ منَ الولدِ لفرطِ الكبرِ. وقراءةُ العامةِ: ﴿مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۝٥٥﴾ بالألفِ. وقرأ الأعمشُ ويحيى بنُ وثابٍ «مِنَ الْقَنِطِينَ» بلا ألفٍ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾. أي المكذبونَ الذاهبونَ عنْ طريقِ الصوابِ. يعني أنهُ استبعدَ الولدَ لكبرِ سنهِ لا أنه قنط من رحمة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿۞قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٦٠﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: الخطبُ الأمر الخطيرُ. أيْ فما أمركمْ وشأنكمْ وما الذي جئتمْ بهِ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أيْ مشركينَ ضالينَ. وفي الكلامِ إضمارٌ، أيْ أرسلنا إلى قومٍ مجرمينَ لنهلكهمْ ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ أتباعهُ وأهل دينه ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ﴾ وقرأ حمزةُ والكسائيُّ «لَمُنْجُوهُمْ» بالتخفيفِ منْ أنجى. الباقونَ: بالتشديدِ منْ نجّى، والتنجيةُ والإنجاءُ التخليصُ ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ استثنى منْ آلِ لوطٍ امرأتهُ وكانتْ كافرةً فالتحقتْ بالمجرمينَ في الهلاكِ ﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ۝٦٠﴾ أيْ قضينا وكتبنا إنها لمنَ الباقينَ في العذابِ. والغابرُ: الباقي.

الثانية: لا خلافَ بينَ أهلِ اللسانِ وغيرهمْ أنَّ الاستثناءَ منَ النفيِ إثباتٌ ومنَ الإثباتِ نفيٌ، فإذا قالَ رجلٌ: لهُ عليَّ عشرةُ دراهمَ إلا أربعةً إلا درهمًا، ثبتَ الإقرارُ بسبعةٍ، لأنَّ الدرهمَ مستثنى منَ الأربعةِ، وهوَ مثبتٌ لأنهُ مستثنى منْ منفيٍّ، وكانتِ الأربعةُ منفيةً لأنها مستثناةٌ منْ موجبٍ وهوَ العشرةُ، فعادَ الدرهمُ إلى الستةِ فصارتْ سبعةً. وكذلكَ لوْ قالَ: عليَّ خمسةُ دراهمَ إلا درهمًا إلا ثلثيهِ، كانَ عليهِ أربعةُ دراهمَ وثلثٌ. وكذلكَ إذا قالَ: لفلانٍ عليَّ عشرةٌ إلا تسعةً إلا ثمانيةً إلا سبعةً، كانَ الاستثناءُ الثاني راجعًا إلى ما قبلهُ، والثالثُ إلى الثاني فيكونُ عليهِ درهمانِ، لأنَّ العشرةَ إثباتٌ والثمانيةُ إثباتٌ فيكونُ مجموعها ثمانيةُ عشرَ. والتسعةُ نفيٌ والسبعةُ نفيٌ فيكونُ ستةَ عشرَ تسقطُ منْ ثمانيةِ عشرَ ويبقى درهمانِ، وهوَ القدرُ الواجبُ بالإقرارِ لا غيرَ. فقولهُ سبحانهُ: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ فاستثنى آلَ لوطٍ منَ القومِ المجرمينَ، ثمَّ قالَ: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ فاستثناها منْ آلِ لوطٍ، فرجعتْ في التأويلِ إلى القومِ المجرمينَ كما بينا. وهكذا الحكمُ في الطلاقِ، لوْ قالَ لزوجتهِ: أنتِ طالقٌ ثلاثًا إلا اثنتينِ إلا واحدةً طلقتِ اثنتينِ، لأنَّ الواحدةَ رجعتْ إلى الباقي منَ المستثنى منهُ وهيَ الثلاثُ. وكذا كلُّ ما جاء من هذا فتفهمه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أيْ لا أعرفكمْ. وقيل: كانوا شبابًا ورأى جمالًا فخافَ عليهمْ منْ فتنةِ قومِهِ، فهذا هوَ الإنكارُ ﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أيْ يشكونَ أنهُ نازلٌ بهمْ، وهوَ العذابُ ﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أيْ بالصدقِ. وقيل: بالعذابِ ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أيْ في هلاكهمْ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ تقدم في هود ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ أيْ كنْ منْ ورائهمْ لئلا يتخلفَ منهمْ أحدٌ فينالهُ العذابُ ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ نهوا عنْ الالتفاتِ ليجدّوا في السيرِ ويتباعدوا عنِ القريةِ قبلَ أنْ يفاجئهمُ الصبحُ. وقيل: المعنى لا يتخلفُ ﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ قالَ ابنُ عباسٍ: يعني الشامَ.

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أيْ أوحينا إلى لوطٍ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ نظيرهُ: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾. ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ أيْ عندَ طلوعِ الصبحِ ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ أيْ أهلُ مدينةِ لوطٍ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ مستبشرينَ بالأضيافِ طمعًا منهمْ في ركوبِ الفاحشة ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى﴾ أيْ أضيافي ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾﴾ أيْ تخجلونِ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾﴾ يجوزُ أنْ يكونَ منَ الخزيِ وهوَ الذلُّ والهوانُ، ويجوز أن يكون من الخَزاية وهو الحياء والخجلُ ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾ أيْ عنْ أنْ تضيفَ أحدًا لأنا نريدُ منهمُ الفاحشةَ. وكانوا يقصدونَ بفعلهمُ الغرباءُ، وقيل: أو لم ننهكَ عنْ أنْ تكلمنا في أحدٍ منَ الناسِ إذا قصدناهُ بالفاحشةِ ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾ أيْ فتزوجوهنَّ ولا تركنوا إلى الحرامِ.

قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قالَ القاضي أبو بكرٍ بنُ العربيِّ: قالَ المفسرونَ بأجمعهمْ أقسمَ اللهُ تعالى ها هنا بحياةِ محمدٍ ﷺ تشريفًا لهُ، أنَّ قومهُ منْ قريشٍ في سكرتهمْ يعمهونَ وفي حيرتهمْ يترددونَ.

قلتُ: وهكذا قالَ القاضي عياضٌ: أجمعَ أهلُ التفسيرِ في هذا أنهُ قسمٌ منَ اللهِ جلَّ جلالهُ بمدةِ حياةِ محمدٍ ﷺ. وأصلهُ ضمُّ العينِ منَ العمرُ ولكنها فتحتْ لكثرةِ الاستعمالِ. ومعناهُ

وبقائكَ يا محمدُ. وقيل: وحياتكَ. وهذا نهايةُ التعظيمِ وغايةُ البرِّ والتشريفِ.

قالَ أبو الجوزاءِ: ما أقسمَ اللهُ بحياةِ أحدٍ غيرِ محمدٍ ﷺ، لأنهُ أكرمُ البريةِ عندهُ.

قالَ ابنُ العربيِّ: «ما الذي يمنعُ أنْ يقسمَ اللهُ سبحانهُ وتعالى بحياة لوط ويبلغ به من التشريف ما شاءَ، وكلُّ ما يعطيهِ اللهُ تعالى للوطٍ منْ فضلٍ يؤتي ضعفيهِ منْ شرفٍ لمحمدٍ ﷺ، لأنهُ أكرمُ على الله منه، أولا ترى أنهُ سبحانهُ أعطى إبراهيمَ الخلةَ وموسى التكليمَ وأعطى ذلكَ لمحمدٍ، فإذا أقسمَ بحياةِ لوطٍ فحياةُ محمدٍ أرفعُ. ولا يخرجُ منْ كلامٍ إلى كلامٍ لمْ يجرِ لهُ ذكرٌ لغيرِ ضرورةٍ».

قلتُ: ما قالهُ حسنٌ، فإنهُ كانَ يكونُ قسمهُ سبحانهُ بحياةِ محمدٍ ﷺ كلامًا معترضًا في قصةِ لوطٍ.

وقيل: لما وعظَ لوطٌ قومهُ وقالَ هؤلاءِ بناتي قالتِ الملائكةُ: يا لوطُ، ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ ولا يدرونَ ما يحلُّ بهمْ صباحًا.

فإن قيل: فقدْ أقسمَ تعالى بالتينِ والزيتونِ وطورِ سينينَ، فما في هذا؟ قيلَ لهُ: ما من شيء أقسمَ اللهُ بهِ إلا وذلكَ دلالةٌ على فضلهِ على ما يدخلُ في عدادهِ، فكذلكَ نبينا ﷺ يجبُ أنْ يكونَ أفضلَ ممنْ هوَ في عدادهِ.

والعُمْرُ والعَمْرُ «بضمِّ العينِ وفتحها» لغتانِ ومعناهما واحدٌ، إلا أنهُ لا يستعملُ في القسمِ إلا بالفتحِ لكثرةِ الاستعمالِ. وتقولُ: عمركَ اللهُ، أيْ أسأل الله تعميرك. و ﴿لَعَمْرُكَ﴾ رفعَ بالابتداءِ وخبرهُ محذوفُ. المعنى لعمركَ مما أُقسِمُ بهِ.

الثانية: كرهَ كثيرٌ منَ العلماءِ أنْ يقولَ الإنسانُ لعمري، لأنهُ حلفٌ بحياةِ نفسهِ.

الثالثة: قدْ مضى الكلامُ فيما يحلفُ بهِ وما لا يجوزُ الحلفُ بهِ في «المائدةِ»، وذكرنا هناكَ قولَ أحمدَ بنِ حنبلٍ فيمنْ أقسمَ بالنبيِّ ﷺ لزمتهُ الكفارةُ.

قالَ ابنُ خويزِ منداد: منْ جوّزَ الحلفَ بغيرِ اللهِ تعالى مما يجوزُ تعظيمهُ بحقٍّ منَ الحقوقِ فليسَ يقولُ إنها يمينٌ تتعلقُ بها كفارةٌ، إلا أنهُ منْ قصدَ الكذبَ كانَ ملومًا، لأنهُ في

الباطنِ مستخفٌّ بما وجبَ عليهِ تعظيمهُ. قالوا: وقوله تعالى: ﴿لَعَمۡرُكَ﴾ أيْ وحياتكَ، وإذا أقسمَ اللهُ تعالى بحياةِ نبيهِ فإنما أرادَ بيانَ التصريحِ لنا أنهُ يجوزُ لنا أنْ نحلفَ بحياتهِ.

وعلى مذهبِ مالكٍ معنى قوله: ﴿لَعَمۡرُكَ﴾، ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾، ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢﴾، ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾ كلُّ هذا معناهُ: وخالقِ التينِ والزيتونِ، وبربِّ الكتابِ المسطورِ، وبربِّ البلدِ الذي حللتَ بهِ، وخالقِ عيشكَ وحياتكَ، وحقِّ محمدٍ، فاليمينُ والقسمُ حاصلٌ بهِ سبحانهُ لا بالمخلوقِ.

قالَ ابنُ خويزِ منداد: ومنْ جوّزَ اليمينَ بغيرِ اللهِ تعالى تأولَ قولهُ ﷺ: «لا تحلفوا بآبائكمْ» وقالَ: إنما نهى عنِ الحلفِ بالآباءِ الكفارِ، ألا ترى أنهُ قالَ لما حلفوا بآبائهمْ: «للجبلُ عندَ اللهِ أكرمُ منْ آبائكمُ الذينَ ماتوا في الجاهليةِ». ومالكٌ حملَ الحديثَ على ظاهرهِ.

قالَ ابنُ خويزِ منداد: واستدلَّ أيضًا منْ جوزَ ذلكَ بأنَّ أيمانَ المسلمينَ جرتْ منذُ عهدِ النبيِّ ﷺ إلى يومنا هذا أنْ يحلفوا بالنبيِّ ﷺ، حتى أنَّ أهلَ المدينةِ إلى يومنا هذا إذا حاكمَ أحدهمْ صاحبهُ قالَ: احلفْ لي بحقِّ ما حواهُ هذا القبرُ، وبحقِّ ساكنِ هذا القبرِ، يعني النبيَّ ﷺ، وكذلكَ بالحرمِ والمشاعرِ العظامِ، والركنِ والمقامِ والمحرابِ وما يتلى فيه.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ۝٧٣﴾ نصبَ على الحالِ، أيْ وقتَ شروقِ الشمسِ مثلَ أصبحوا وأمسوا، وهوَ المرادُ في الآيةِ. وقيل: أرادَ شروقَ الفجرِ. وقيل: أولُ العذابِ كانَ عندَ الصبحِ وامتدَّ إلى شروقِ الشمسِ، فكانَ تمامُ الهلاكِ عندَ ذلكَ. واللهُ أعلم. و ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ العذاب.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ تقدم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾: «للمتفرسينَ»، وقيل: للمتبصرينَ، والمعنى متقاربٌ.

قالَ العلماءُ: التوسمُ تفعلٌ منَ الوسمِ، وهيَ العلامةُ التي يستدلُّ بها على مطلوبٍ غيرها. يقالُ: توسمتُ فيهِ الخيرَ إذا رأيتُ ميسمَ ذلكَ فيهِ، ومنهُ قولُ عبدُ اللهِ بنُ رواحةَ للنبيِّ ﷺ:

إني توسمتُ فيكَ الخيرَ أعرفه ... والله يعلمُ أني ثابتُ البصرِ

آخرُ:

توسمتهُ لما رأيتُ مهابةً ... عليهِ وقلتُ المرءُ منْ آلِ هاشمِ

الثانية: قالَ القاضي أبو بكرِ بنُ العربيِّ: «إذا ثبتَ أنَّ التوسمَ والتفرسَ منْ مداركِ المعاني فإنَّ ذلكَ لا يترتبُ عليهِ حكمٌ ولا يؤخذُ بهِ موسومٌ ولا متفرسٌ فإنَّ مداركَ الأحكامِ معلومةٌ شرعًا مدركةٌ قطعا وليست الفراسة منها.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا﴾ يعني قرى قومِ لوطٍ ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ أيْ على طريقِ قومكَ يا محمدُ إلى الشامِ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أيْ لعبرةٌ للمصدقينَ ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ يريدُ قومَ شعيبٍ، والأيكةُ: الغيضةُ، وهيَ جماعةُ الشجرِ، والجمعُ الأيكُ، وقيل: الأيكةُ اسمُ القريةِ ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾ أيْ بطريقٍ واضحٍ في نفسهِ، يعني مدينةَ قومِ لوطٍ وبقعةَ أصحابِ الأيكةِ يعتبرُ بهما من يمر عليهما.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٨٠﴾﴾

الحجرُ ينطلقُ على معانٍ: منها حجرُ الكعبةِ. ومنها الحرامُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾ أيْ حرامًا محرمًا. والحجرُ العقلُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿لِّذِي حِجۡرٍ﴾، والحِجرُ حجرُ القميصِ، والفتحُ أفصحُ. والحِجرُ الفرسُ الأنثى، والحِجرُ ديارُ ثمودَ، وهوَ المرادُ هنا، وهيَ ما بينَ مكةَ وتبوكَ، وهوَ الوادي الذي فيهِ ثمودُ، وهمْ قومُ صالحٍ.

وقالَ: ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ وهوَ صالحٌ وحدهُ، ولكنْ منْ كذبَ نبيًا فقدْ كذبَ الأنبياءَ كلهمْ، لأنهمْ على دينٍ واحدٍ في الأصولِ فلا يجوزُ التفريقُ بينهمْ. وقيل: كذبوا صالحًا ومنْ تبعهُ ومنْ تقدمهُ منَ النبيينَ أيضًا. واللهُ أعلمُ.

روى البخاريِّ عنِ ابنِ عمرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لما نزلَ الحجرَ في غزوةِ تبوكَ أمرهمْ ألا يشربوا منْ بئرها ولا يستقوا منها. فقالوا: قدْ عجنا واستقينا. فأمرهمْ رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يهريقوا الماءَ وأنْ يطرحوا ذلكَ العجينَ.

وفي الصحيحِ عنِ ابنِ عمرَ أنَّ الناسَ نزلوا معَ رسولِ اللهِ ﷺ على الحجرِ أرضِ ثمودَ، فاستقوا منْ آبارها وعجنوا بهِ العجينَ، فأمرهمْ رسولُ اللهِ ﷺ أن يهريقوا ما استقوا ويعلفوا الإبلَ العجينَ، وأمرهمْ أنْ يستقوا منَ البئرِ التي تردها الناقةُ.

ورويَ أيضًا عنِ ابنِ عمرَ قالَ: مررنا معَ رسولِ اللهِ ﷺ على الحجرِ فقالَ لنا رسولُ اللهِ ﷺ: لا تدخلوا مساكنَ الذينَ ظلموا أنفسهمْ إلا أنْ تكونوا باكينَ حذرًا أنْ يصيبكمْ مثلُ ما أصابهمْ ثمَّ زجرَ فأسرعَ.

قلتُ: ففي هذهِ الآيةِ التي بينَ الشارعُ حكمها وأوضحَ أمرها سبع مسائلَ، استنبطها العلماءُ واختلفَ في بعضها الفقهاءُ:

فأولها- كراهةُ دخولِ تلكَ المواضعِ، وعليها حملَ بعضُ العلماءِ دخولَ مقابرِ الكفارِ، فإنْ دخلَ الإنسانُ شيئًا منْ تلكَ المواضعِ والمقابرِ فعلى الصفةِ التي أرشدَ إليها النبيُّ ﷺ منْ الاعتبارِ والخوفِ والإسراعِ.

مسألةٌ: أمرَ النبيُّ بهرقِ ما استقوا منْ بئرِ ثمودَ وإلقاءِ ما عجنَ وخبزَ بهِ لأجلِ أنهُ ماءُ

سخطٍ، فلمْ يجزْ الانتفاعُ بِهِ فرارًا منْ سخط الله. وقال «اعلفوه الإبل».

قلتُ: وهكذا حكمُ الماءِ النجسِ وما يعجنُ بِهِ.

وثانيها: قالَ مالكٌ: إنَّ ما لا يجوز استعماله من الطعام والشراب يجوز أن تعلفه الإبلُ والبهائمُ، إذْ لا تكليفَ عليها، وكذلكَ قالَ، في العسلِ النجسِ: إنهُ يعلفهُ النحلُ.

وثالثها- أمرَ رسولُ اللهِ ﷺ بعلفِ ما عجنَ بهذا الماءِ الإبلَ، ولم يأمر بطرحه كما أمر لحومِ الحمرِ الإنسيةِ يومَ خيبرَ، فدلَّ على أنَّ لحمَ الحمرِ أشدُّ في التحريمِ وأغلظُ في التنجيسِ. وقدْ أمرَ رسولُ اللهِ ﷺ بكسبِ الحجام أنْ يعلفَ الناضحَ والرقيقَ، ولمْ يكنْ ذلكَ لتحريمٍ ولا تنجيسٍ. قالَ الشافعيُّ: ولوْ كانَ حرامًا لمْ يأمرهُ أنْ يطعمهُ رقيقهُ، لأنهُ متعبدٌ فيهِ كما تعبدَ في نفسهِ.

ورابعها- في أمرهِ ﷺ بعلفِ الإبلِ العجينَ دليلٌ على جوازِ حملِ الرجلِ النجاسةَ إلى كلابهِ ليأكلوها، خلافًا لمنْ منعَ ذلكَ منْ أصحابنا وقالَ: تطلقُ الكلابُ عليها ولا يحملها إليهمْ.

وخامسها- أمرهُ ﷺ أنْ يستقوا منْ بئرِ الناقةِ دليلٌ على التبركِ بآثارِ الأنبياءِ، وإنْ تقادمتْ أعصارهمْ وخفيتْ آثارهمْ، كما أنَّ في الأولِ دليلًا على بغض أهلِ الفسادِ وذمِّ ديارهمْ وآثارهمْ. هذا، وإنْ كانَ التحقيقُ أنَّ الجماداتِ غيرُ مؤاخذاتٍ، لكنَّ المقرونَ بالمحبوبِ محبوبٌ، والمقرونَ بالمكروهِ المبغوضِ مبغوضٌ، كما قال كُثَيِّرٌ:

أحبُّ لحبها السودانَ حتى … أحبُّ لحبها سودَ الكلابِ

وكما قالَ آخرُ:

أمرُّ على الديارِ ديارِ ليلى … أقبلُ ذا الجدارَ وذا الجدارا
وما تلكَ الديارُ شغفنَ قلبي … ولكنْ حبُّ منْ سكنَ الديارا

وسادسها- منعَ بعضُ العلماءِ الصلاةَ بهذا الموضعِ وقالَ: لا تجوزُ الصلاةُ فيها لأنها دارُ سخطٍ وبقعةُ غضبٍ. قالَ ابنُ العربيّ: فصارتْ هذهِ البقعةُ مستثناةً منْ قولهِ ﷺ: «جعلتْ ليَ الأرضُ مسجدًا وطهورًا» فلايجوزُ التيممُ بترابها ولا الوضوءُ منْ مائها ولا الصلاةُ فيها.

وقدْ روى الترمذيُّ عنِ ابنِ عمرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ نهى أنْ يصلى في سبعِ مواطنَ: في المزبلةِ والمجزرةِ والمقبرةِ وقارعةِ الطريقِ، وفي الحمامِ وفي معاطنِ الإبلِ وفوقَ بيتِ اللهِ.

وقدْ زادَ علماؤنا: الدارَ المغصوبةَ والكنيسةَ والبيعةَ والبيتَ الذي فيهِ تماثيلُ، والأرضَ المغصوبةَ أوْ موضعًا تستقبلُ فيهِ نائمًا أوْ وجهَ رجلٍ أوْ جدارًا عليهِ نجاسةٌ.

قالَ ابنُ العربيِّ: ومنْ هذهِ المواضعِ ما منعَ لحقِّ الغيرِ، ومنهُ ما منعَ لحقِّ اللهِ تعالى، ومنهُ ما منعَ لأجلِ النجاسةِ المحققةِ أوْ لغلبتها، فما منعَ لأجلِ النجاسةِ إنْ فرشَ فيهِ ثوبٌ طاهرٌ كالحمامِ والمقبرةِ فيها أوْ إليها فإنَّ ذلكَ جائزٌ في المدونةِ. وذكرَ أبو مصعبٍ عنهُ الكراهةَ. وفرقَ علماؤنا بينَ المقبرةِ القديمةِ والجديدةِ لأجلِ النجاسةِ، وبينَ مقبرةِ المسلمينَ والمشركينَ، لأنها دارُ عذابٍ وبقعةُ سخطٍ كالحجرِ.

وقالَ مالكٌ في المجموعةِ: لا يصلي في أعطانِ الإبلِ وإنْ فرشَ ثوبًا، كأنهُ رأى لها علتينِ: الاستتارَ بها ونفارها فتفسدُ على المصلي صلاتهُ، فإنْ كانتْ واحدةً فلا بأسَ، كما كانَ النبيُّ ﷺ يفعلُ، في الحديثِ الصحيحِ.

وقالَ مالكٌ: لا يصلى على بساطٍ فيهِ تماثيلُ إلا من ضرورة. وكره ابن القاسم الصلاةَ إلى القبلةِ فيها تماثيلُ، وفي الدارِ المغصوبةِ، فإنْ فعلَ أجزأهُ وذكرَ بعضهمْ عنْ مالكٍ أنَّ الصلاةَ في الدارِ المغصوبةِ لا تجزئُ.

قالَ ابنُ العربيِّ: وذلكَ عندي بخلافِ الأرضِ. فإنَّ الدارَ لا تدخلُ إلا بإذنٍ، والأرضُ وإنْ كانتْ ملكًا فإنَّ المسجديةَ فيها قائمةٌ لا يبطلها الملكُ.

قلتُ: الصحيحُ - إنْ شاءَ اللهُ - الذي يدلُّ عليهِ النظرُ والخبرُ أنَّ الصلاةَ بكلِّ موضعٍ طاهرٍ جائزةٌ صحيحةٌ. وما رويَ منْ قولهِ ﷺ: «إنَّ هذا وادٍ بهِ شيطانٌ» وقدْ رواهُ معمرٌ عنِ الزهريِّ فقالَ: واخرجوا عنِ الموضعِ الذي أصابتكمْ فيهِ الغفلةُ. وقولُ عليٍّ: نهاني رسولُ اللهِ ﷺ أنْ أصلي بأرضِ بابلَ فإنها ملعونةٌ. وقولهُ ﷺ حينَ مرَّ بالحجرِ منْ ثمودَ: «لا تدخلوا على هؤلاءِ المعذبينَ إلا أنْ تكونوا باكينَ» ونهيهُ عنِ الصلاةِ في معاطنِ الإبلِ إلى ذلكَ مما في هذا البابِ، فإنهُ مردودٌ إلى الأصولِ المجتمعِ عليها والدلائلِ الصحيحِ مجيئها.

قالَ الإمامُ الحافظُ أبو عمرَ: المختارُ عندنا في هذا البابِ أنَّ ذلكَ الواديَ وغيرهُ منْ بقاعِ الأرضِ جائزٌ أنْ يصلى فيها كلها ما لمْ تكنْ فيها نجاسةٌ متيقنةٌ تمنعُ منْ ذلكَ، ولا معنى لاعتلالِ منِ اعتلَّ بأنَّ موضعَ النومِ عنِ الصلاةِ موضعُ شيطانٍ، وموضعٌ ملعونٌ لا يجبُ أنْ تقامَ فيهِ الصلاةُ، وكلُّ ما رويَ في هذا البابِ منَ النهيِ عنِ الصلاةِ في المقبرةِ وبأرضِ بابلَ وأعطانِ الإبلِ وغيرِ ذلكَ مما في هذا المعنى، كلُّ ذلكَ عندنا منسوخٌ ومدفوعٌ لعمومِ قولهِ ﷺ: «جعلتْ ليَ الأرضُ كلها مسجدا وطهورا»، وقولهُ ﷺ مخبراً: إنَّ ذلك من فضائله ومما خص بهِ، وفضائلهُ عندَ أهلِ العلمِ لا يجوزُ عليها النسخُ ولا التبديلُ ولا النقصُ.

قالَ ﷺ: «أوتيتُ خمسًا - وقدْ رويَ ستًا، وقدْ رويَ ثلاثًا وأربعًا، وهيَ تنتهي إلى أزيدَ منْ تسعٍ، قالَ فيهنَّ - لمْ يؤتهنَّ أحدٌ قبلي: بعثتُ إلى الأحمرِ والأسودِ، ونصرتُ بالرعبِ وجعلتْ أمتي خيرَ الأممِ، وأحلتْ ليَ الغنائمُ، وجعلتْ لي الأرضُ مسجدًا وطهورًا، وأوتيتُ الشفاعةَ، وبعثتُ بجوامعِ الكلمِ، وبينا أنا نائم أتيت بمفاتيحِ الأرضِ فوضعتْ في يدي وأعطيتُ الكوثرَ، وختمَ بيَ النبيونَ» رواهُ جماعةٌ منَ الصحابةِ. وبعضهمْ يذكرُ بعضها، ويذكرُ بعضهمْ ما لمْ يذكرْ غيرهُ، وهيَ صحاحٌ كلها.

وجائزٌ على فضائلهِ الزيادةُ وغيرُ جائزٍ فيها النقصانُ، ألا ترى أنهُ كانَ عبدًا قبلَ أنْ يكونَ نبيًا ثمَّ كانَ نبيًا قبلَ أنْ يكونَ رسولًا، وقالَ: ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ ثمَّ نزلتْ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾. وسمع رجلا يقوله: يا خيرَ البريةِ، فقالَ: «ذاكَ إبراهيمُ» وقالَ: «لا يقولنَّ أحدكمْ أنا خيرٌ منْ يونسَ بنِ متى» وقالَ: «السيدُ يوسفُ بنِ يعقوبُ بنُ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ عليهمُ السلامُ» ثمَّ قالَ بعدَ ذلكَ كلهِ: «أنا سيدُ ولدِ آدمَ ولا فخرَ». ففضائلهُ ﷺ لم تزل تزدادُ إلى أنْ قبضهُ اللهُ، فمنْ هاهنا قلنا: إنهُ لا يجوزُ عليها النسخُ ولا الاستثناءُ ولا النقصانُ وجائزٌ فيها الزيادةُ. وبقولهِ ﷺ: «جعلتْ ليَ الأرضُ مسجدًا وطهورًا» أجزنا الصلاةَ في المقبرةِ والحمامِ وفي كلِّ موضعٍ منَ الأرضِ إذا كانَ طاهرًا منَ الأنجاسِ. وقالَ ﷺ لأبي ذرٍّ: «حيثما أدركتكَ الصلاةُ فصلِّ فإنَّ الأرضَ كلها مسجدٌ» ذكرهُ البخاريُّ ولمْ يخصَّ موضعًا منْ موضعٍ.

وأما منِ احتجَّ بحديثِ ابنِ عمرَ حديثَ الترمذيِّ الذي ذكرناهُ فهوَ حديثٌ انفردَ بهِ زيدُ

بنُ جبيرةَ وأنكروهُ عليهِ، وليسَ فيهِ تخصيصُ مقبرةِ المشركينَ منْ غيرها. وقدْ رويَ عنْ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ قالَ: نهاني حبيبي ﷺ أنْ أصليَ في المقبرةِ، ونهاني أنْ أصليَ في أرضِ بابلَ فإنها ملعونةٌ. وإسنادهُ ضعيفٌ مجتمعٌ على ضعفهِ.

وروى الترمذيُّ عنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «الأرضُ كلها مسجدٌ إلا المقبرةَ والحمامَ». قالَ الترمذيُّ: رواهُ سفيانُ الثوريُّ عنْ عمرو بنِ يحيى عنْ أبيهِ عنِ النبيِّ ﷺ مرسلًا، وكأنهُ أثبتُ وأصحُّ. قالَ أبو عمرَ: فسقطَ الاحتجاجُ بهِ عندَ منْ لا يرى المرسلَ حجةً، ولوْ ثبتَ كانَ الوجهُ ما ذكرنا. ولسنا نقولُ كما قالَ بعضُ المنتحلينَ لمذهبِ المدنيينَ: أنَّ المقبرةَ في هذا الحديثِ وغيرهِ أريدَ بها مقبرةَ المشركينَ خاصةً، فإنهُ قالَ: المقبرةُ والحمامُ بالألفِ واللامِ، فغيرُ جائزٍ أنْ يردَّ ذلكَ إلى مقبرةٍ دونَ مقبرةٍ أوْ حمامٍ دونَ حمامٍ بغيرِ توقيفٍ عليهِ، فهوَ قولٌ لا دليلَ عليهِ منْ كتابٍ ولا سنةٍ ولا خبرٍ صحيحٍ، ولا مدخلَ لهُ في القياسِ ولا في المعقولِ، ولا دلَّ عليهِ فحوى الخطابِ ولا خرجَ عليهِ الخبرُ. ولا يخلو تخصيصُ منْ خصَّ مقبرةَ المشركينَ منْ أحدِ وجهينِ: إما أنْ يكونَ منْ أجلِ اختلافِ الكفارِ إليها بأقدامهمْ فلا معنى لخصوصِ المقبرةِ بالذكرِ، لأنَّ كلَّ موضعٍ همْ فيهِ بأجسامهمْ وأقدامهمْ فهوَ كذلكَ، وقدْ جلَّ رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يتكلمَ بما لا معنى لهُ. أوْ يكونَ منْ أجلِ أنها بقعةُ سخطٍ، فلوْ كانَ كذلكَ ما كانَ رسولُ اللهِ ﷺ ليبنيَ مسجدهُ في مقبرةِ المشركينَ وينبشها ويسويها ويبني عليها، ولوْ جازَ لقائلٍ أنْ يخصَّ منَ المقامِ مقبرةً للصلاةِ فيها لكانتْ مقبرةُ المشركينَ أولى بالخصوصِ والاستثناءِ منْ أجلِ هذا الحديثِ. وكلُّ منْ كرهَ الصلاةَ في المقبرةِ لمْ يخصَّ مقبرةً منْ مقبرةٍ، لأنَّ الألفَ واللامَ إشارةٌ إلى الجنسِ لا إلى معهودٍ، ولوْ كانَ بين مقبرة المسلمين والمشركين فرق لبينه ﷺ ولمْ يهملهُ، لأنهُ بعثَ مبينًا. ولوْ ساغَ لجاهلٍ أنْ يقولَ: مقبرةُ كذا لجازَ لآخرَ أنْ يقولَ: حمامُ كذا، لأنَّ في الحديثِ المقبرةُ والحمامُ. وكذلكَ قولهُ: المزبلةُ والمجزرةُ، غيرُ جائزٍ أنْ يقالَ: مزبلةُ كذا ولا مجزرةُ كذا ولا طريقُ كذا، لأنَّ التحكمَ في دينِ اللهِ غيرُ جائزٍ.

وأجمعَ العلماءُ على أنَّ التيممَ على مقبرةِ المشركينَ إذا كانَ الموضعُ طيبًا طاهرًا نظيفًا جائزٌ. وكذلكَ أجمعوا على أنَّ منْ صلى في كنيسةٍ أوْ بيعةٍ على موضعٍ طاهرٍ، أنَّ صلاتهُ

ماضيةٌ جائزةٌ. وقدْ تقدمَ هذا في سورةِ «براءةٌ». ومعلومٌ أنَّ الكنيسةَ أقربُ إلى أنْ تكونَ بقعةَ سخطٍ منَ المقبرة، لأنها بقعةٌ يعصى اللهُ ويكفرُ بهِ فيها، وليسَ كذلكَ المقبرةُ. وقدْ وردتِ السنةُ باتخاذِ البيعِ والكنائسِ مساجدَ.

روى النسائيُّ عنْ طلقِ بنِ عليٍّ قالَ: خرجنا وفدًا إلى النبيِّ ﷺ فبايعناهُ وصلينا معهُ، وأخبرناهُ أنَّ بأرضنا بيعةً لنا، وذكرَ الحديثَ. وفيهِ: «فإذا أتيتمْ أرضكمْ فاكسروا بيعتكمْ واتخذوها مسجدًا». وذكرَ أبو داودَ عنْ عثمانَ بنِ أبي العاصِ أنَّ النبيَّ ﷺ أمرهُ أنْ يجعلَ مسجدَ الطائفِ حيثُ كانتْ طواغيتهمْ. وقدْ تقدمَ في «براءةٌ». وحسبكَ بمسجدِ النبيِّ ﷺ الذي أسسَ على التقوى مبنيًا في مقبرةِ المشركينَ، وهوَ حجةٌ على كلِّ منْ كرهَ الصلاةَ فيها.

وممنْ كرهَ الصلاةَ في المقبرةِ سواءٌ كانت لمسلمين أو مشركين أبو حنيفة والشافعي، وعند الشافعي: أجزأهُ إذا صلى في المقبرةِ في موضعٍ ليسَ فيهِ نجاسةٌ، للأحاديثِ المعلومةِ في ذلكَ، ولحديثِ أبي هريرةَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «صلوا في بيوتكمْ ولا تتخذوها قبورًا»، ولحديثِ أبي مرثدٍ الغنويِّ عنِ النبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «لا تصلوا إلى القبورِ ولا تجلسوا عليها». وهذانِ حديثانِ ثابتانِ منْ جهةِ الإسنادِ، ولا حجةَ فيهما، لأنهما محتملانِ للتأويل، ولا يجبُ أنْ يمتنعَ منَ الصلاةِ في كلِّ موضعٍ طاهرٍ إلا بدليلٍ لا يحتملُ تأويلًا. ولمْ يفرقْ أحدٌ منْ فقهاءِ المسلمينَ بينَ مقبرةِ المسلمينَ والمشركينَ إلا ما حكيناهُ منْ خطلِ القولِ الذي لا يشتغلُ بمثلهِ، ولا وجهَ لهُ في نظرٍ ولا في صحيحِ أثرٍ.

وسابعها - الحائطُ يلقى فيهِ النتنُ والعذرةُ ليُكرمَ فلا يصلى فيهِ حتى يسقى ثلاثَ مراتٍ، لما رواهُ الدارقطنيُّ عنِ ابنِ عباسٍ عنِ النبيِّ ﷺ في الحائطِ يلقى فيهِ العذرةُ والنتنُ قالَ: «إذا سقيَ ثلاثَ مراتٍ فصلِّ فيهِ».

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ أيْ بآياتنا كقولهِ: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ أي بغذائنا. والمرادُ الناقةُ، وكانَ فيها آياتٌ جمةٌ: خروجها منَ الصخرةِ، ودنوُّ نتاجها عندَ خروجها، وعِظَمها حتى لَمْ تشبهها ناقةٌ، وكثرةُ لبنها حتى تكفيهمْ جميعًا، ويحتملُ أنهُ كانَ لصالحِ آياتٌ أخر سوى الناقة، كالبئر وغيره ﴿فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ۝٨١﴾ أي لم يعتبروا.

قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢﴾ النحتُ في كلامِ العربِ: البريُ والنجرُ. نحتهُ ينحتهُ «بالكسرِ نحتًا أيْ براهُ، وفي التنزيلِ ﴿أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ﴾ أيْ تنجرونَ وتصنعونَ. فكانوا يتخذونَ منَ الجبالِ بيوتًا لأنفسهمْ بشدةِ قوتهمْ ﴿ءَامِنِينَ﴾ أيْ منْ أنْ تسقطَ عليهمْ أوْ تخربَ. وقيل: آمنينَ منَ الموتِ. وقيلُ: منَ العذابِ ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ۝٨٣﴾ أيْ في وقتِ الصبحِ، وهوَ نصبٌ على الحالِ ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٨٤﴾ منَ الأموالِ والحصونِ في الجبالِ، ولا ما أعطوهُ منَ القوةِ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾ أيْ للزوالِ والفناءِ. وقيل: أيْ لأجازيَ المحسنَ والمسيءَ، كما قالَ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾.

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ﴾ أيْ لكائنةٌ فيجزى كلٌّ بعملهِ ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ۝٨٥﴾ مثلُ ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرًا جَمِيلًا﴾ الصفحُ: الإعراضُ، أي تجاوز عنهم يا محمد، وأعفو عفوًا حسنًا، ثمَّ نسخَ بالسيفِ.

قالَ قتادةُ: نسخهُ قولهُ: ﴿فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ﴾، وقيل: ليسَ بمنسوخ، وأنه أمر بالصفح في نفسهِ فيما بينهُ وبينهمْ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٨٦﴾ أيِ المقدرُ للخلقِ والأخلاقِ. العليمُ بأهلِ الوفاقِ والنفاقِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾

اختلفَ العلماءُ في السبعِ المثاني، فقيلَ: الفاتحةُ، وروِيَ عنِ النبيِّ ﷺ منْ وجوهٍ ثابتةٍ، منْ حديثِ أبيِّ بنِ كعبٍ وأبي سعيدِ بنِ المعلى، وخرجَ الترمذيُّ منْ حديثِ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «الحمدُ للهِ أمُّ القرآنِ وأمُّ الكتابِ والسبعُ المثاني». قالَ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وهذا نصٌّ، وقدْ تقدمَ في الفاتحةِ.

وقالَ ابنُ عباسٍ: هيَ السبعُ الطولُ: البقرةُ، وآلُ عمرانَ، والنساءُ، والمائدةُ، والأنعام، والأعرافُ، والأنفالُ والتوبةُ معًا، إذْ ليس بينهما التسمية، وسميتْ مثاني لأنَّ العبرَ والأحكامَ والحدودَ ثنيتْ فيها.

وأنكرَ قومٌ هذا وقالوا: أنزلتْ هذهِ الآيةُ بمكةَ، ولم ينزل من الطوال شيء إذْ ذاكَ.

وأجيبَ بأنَّ اللهَ تعالى أنزلَ القرآن إلى السماء الدنيا ثم أنزله منها نجومًا: فما أنزلهُ إلى السماءِ الدنيا فكأنما آتاهُ محمدًا ﷺ وإنْ لمْ ينزلْ عليهِ بعدُ.

وقيل: المثاني القرآنُ كلهُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾، وقيلَ: لهُ: مثاني، لأنَّ الأنباءَ والقصصَ ثنيتْ فيهِ.

وقيل: المرادُ بالسبعِ المثاني أقسامُ القرآنِ منَ الأمرِ والنهيِ والتبشيرِ والإنذارِ وضربِ الأمثالِ وتعديدِ نعمٍ وأنباءِ قرونٍ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾، فيهِ إضمارٌ تقديرهُ: وهوَ أنَّ الفاتحةَ القرآنُ العظيمُ لاشتمالها على ما يتعلقُ بأصولِ الإسلامِ، وقيل: الواوُ مقحمةٌ، التقديرُ: ولقدْ آتيناكَ سبعًا منَ المثاني القرآنَ العظيمَ، وقدْ تقدمَ عندَ قولهِ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ المعنى: قدْ أغنيتكَ بالقرآنِ عما في أيدي الناسِ، ومعنى ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أيْ أمثالًا في النعمِ، أيِ الأغنياءِ بعضهمْ أمثالُ بعضٍ في

الغنى، فهمْ أزواجٌ.

الثانية: هذهِ الآيةُ تقتضي الزجرَ عنِ التشوفِ إلى متاعِ الدنيا على الدوامِ، وإقبالَ العبدِ على عبادةِ مولاهُ. ومثلهُ ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ الآيةَ، وليسَ كذلكَ، فإنهُ رويَ عنِ النبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «حببَ إليَّ منْ دنياكمُ النساءُ والطيبُ وجعلتْ قرةُ عيني في الصلاةِ». وكانَ ﷺ يتشاغلُ بالنساءِ، جبّلةَ الآدميةِ وتشوفَ الخلقةِ الإنسانيةِ، ويحافظُ على الطيبِ، ولا تقرُّ لهُ عينٌ إلا في الصلاةِ لدى مناجاةِ المولى، ويرى أنَّ مناجاتهُ أحرى منْ ذلكَ وأولى. ولمْ يكنْ في دينِ محمدٍ الرهبانيةُ والإقبالُ على الأعمالِ الصالحةِ بالكليةِ كما كان في دين عيسى، وإنما شرعَ اللهُ سبحانهُ حنيفيةً سمحةً خالصةً عنِ الحرجِ خفيفةً على الآدميِّ، يأخذُ منَ الآدميةِ بشهواتها ويرجعُ إلى اللهِ بقلبٍ سليمٍ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أيْ ولا تحزنْ على المشركينَ إنْ لمْ يؤمنوا. وقيل: المعنى لا تحزنْ على ما متعوا بهِ في الدنيا فلكَ في الآخرةِ أفضلُ منهُ. وقيل: لا تحزنْ عليهمْ إنْ صاروا إلى العذابِ فهمْ أهلُ العذابِ ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أيْ ألنْ جانبكَ لمنْ آمنَ بكَ وتواضعْ لهمْ. وأصلهُ أنَّ الطائرَ إذا ضمَّ فرخهُ إلى نفسهِ بسطَ جناحهُ ثمَّ قبضهُ على الفرخِ، فجعلَ ذلكَ وصفًا لتقريبِ الإنسانِ أتباعهُ، والجناحانِ منَ ابنِ آدمَ جانباهُ، ومنهُ ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ وجناحُ الطائرِ يدهُ.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

في الكلامِ حذفٌ، أيْ إني أنا النذيرُ المبينُ عذابًا، فحذفَ المفعولَ، إذْ كانَ الإنذارُ يدلُّ عليهِ، كما قالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾.

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ قيل: الكافُ زائدةٌ، أيْ أنذرتكمْ ما أنزلنا على المقتسمين، كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وقيل: المعنى كما أنزلنا على المقتسمينَ أيْ منَ العذابِ وكفيناكَ المستهزئين، فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركينَ الذينَ بغوا، فإنا كفيناكَ أولئكَ الرؤساءِ الذينَ كنتَ تلقى منهمْ ما تلقى.

واختلفَ في ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ على أقوالٍ منها: أنهمْ قومٌ منْ كفارِ قريشٍ اقتسموا كتابَ اللهِ فجعلوا بعضهُ شعرًا، وبعضهُ سحرًا، وبعضهُ كهانةً، وبعضهُ أساطيرَ الأولينَ، وقيل: همْ أهلُ الكتابِ آمنوا ببعضهِ وكفروا ببعضهِ. وقيل: المرادُ قومُ صالحٍ، تقاسموا على قتلهِ فسموا مقتسمينَ، كما قالَ تعالى: ﴿تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾.

هذهِ صفةُ المقتسمينَ. وقيل: هو مبتدأ وخبره ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾. وواحدُ العضينَ عِضةٌ، منْ عضيتُ الشيءَ تعضيةً أيْ فرقتهُ، وكلُّ فرقةٍ عضةٌ. أي آمنوا ببعضٍ وكفروا ببعضٍ. **وقيل**: فرقوا أقاويلهمْ فيهِ فجعلوهُ كذبًا وسحرًا وكهانةً وشعرًا. عَضَوتهُ أيْ فرقتهُ.

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ أيْ لنسألنَّ هؤلاءِ الذينَ جرى ذكرهمْ عما عملوا في الدنيا. وفي البخاريِّ: وقالَ عدة من أهل العلم في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ عنْ لا إلهَ إلا الله.

قالَ أبو عبدِ اللهِ: معناهُ عندنا عنْ صدقِ لا إلهَ إلا اللهُ ووفائها، وذلكَ أنَّ اللهَ تعالى ذكرَ في تنزيلهِ العملَ فقالَ: ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ولمْ يقلْ عما كانوا يقولونَ، كما قالَ الحسنُ البصريُّ: ليسَ الإيمانُ بالتحلي ولا الدينُ بالتمني ولكنْ ما وقرَ في القلوبِ وصدقتهُ الأعمالُ.

قلتُ: والآيةُ بعمومها تدلُّ على سؤالِ الجميعِ ومحاسبتهمْ كافرهمْ ومؤمنهمْ، إلا منْ دخلَ الجنةَ بغيرِ حسابٍ.

فإن قيل: وهلْ يسألُ الكافرُ ويحاسبُ؟ قلنا: فيهِ خلافٌ، والذي يظهر سؤاله، للآية وقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾، وقولهُ: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾، وقالَ: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾، وقالَ: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾؟

قلنا: القيامةُ مواطنُ، فموطنٌ يكونُ فيهِ سؤال وكلام، وموطن لا يكونُ ذلكَ فيهِ.

وقالَ ابنُ عباسٍ: لا يسألهمْ سؤالَ استخبارٍ واستعلامٍ هلْ عملتمْ كذا وكذا، لأنَّ اللهَ عالم بكل شيء، ولكنْ يسألهمْ سؤالَ تقريعِ وتوبيخِ فيقولُ لهمْ: لمَ عصيتمُ القرآنَ وما حجتكمْ فيهِ؟

وقيل: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يعني المؤمنينَ المكلفينَ، بيانهُ قولهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾. والقولُ بالعمومِ أولى كما ذكر. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أيْ بالذي تؤمرُ بهِ، أيْ بلغْ رسالةَ اللهِ جميعَ الخلقِ لتقومَ الحجةُ عليهمْ، فقدْ أمركَ اللهُ بذلكَ. والصدعُ: الشقُّ. وتصدعَ القومُ أيْ تفرقوا، ومنهُ ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أيْ يتفرقونَ. وصدعتهُ فانصدعَ أيِ انشقَّ. أصلُ الصدعِ الفرقُ والشقُّ.

فقوله: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أيْ أظهرْ دينكَ، وقيل: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أيْ فرقْ جمعهمْ وكلمتهمْ بأنْ تدعوهمْ إلى التوحيدِ فإنهمْ يتفرقونَ بأنْ يجيبَ البعضُ فيرجعُ الصدعُ على هذا إلى صدع جماعة الكفار.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ أيْ عنْ الاهتمامِ باستهزائهمْ وعنِ المبالاةِ بقولهمْ، فقدْ برأكَ اللهُ عما يقولونَ. وقالَ ابنُ عباسٍ: هوَ منسوخٌ بقولهِ: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عبيدٍ: ما زالَ النبيُّ ﷺ مستخفيًا حتى نزلَ قولهُ تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فخرجَ هوَ وأصحابهُ.

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ والمعنى: اصدعْ بما تؤمرْ ولا تخفْ غيرَ اللهِ، فإنَّ اللهَ كافيكَ منْ أذاكَ كما كفاكَ المستهزئينَ.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

هذهِ صفةُ المستهزئينَ. وقيل: هوَ ابتداءٌ وخبره ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ أيْ قلبكَ، لأنَّ الصدرَ محلُّ القلبِ ﴿بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧﴾ أيْ بما تسمعهُ منْ تكذيبكَ وردِّ قولك، وتناله ويناله أصحابك من أعدائك.

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾، فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ﴾ أيْ فافزعْ إلى الصلاةِ، فهيَ غايةُ التسبيح ونهاية التقديس. وذلك تفسير لقوله: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ولا خفاءَ أنَّ غايةَ القربِ في الصلاةِ حالُ السجودِ، كما قالَ ﷺ: «أقربُ ما يكونُ العبدُ منْ ربهِ وهوَ ساجدٌ فأخلصوا الدعاءَ». ولذلكَ خصَّ السجودَ بالذكرِ.

الثانية: قالَ ابنُ العربيِّ: ظنَّ بعضُ الناسِ أنَّ المرادَ بالأمر هنا السجودُ نفسهُ، فرأى هذا الموضع محل سجود في القرآن ولمْ يرهُ جماهيرُ العلماءِ.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾، فيهِ مسألةٌ واحدةٌ: وهوَ أنَّ اليقينَ الموتُ. أمرهُ بعبادتهِ إذْ قصرَ عبادهُ في خدمتهِ، وأنَّ ذلكَ يجبُ عليهِ.

فإن قيل: فما فائدة قول: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ وكانَ قولهُ: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ كافيًا في الأمر بالعبادةِ؟

قيلَ لهُ: الفائدةُ في هذا أنهُ لوْ قالَ: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ مطلقًا ثمَّ عبدهُ مرةً واحدةً كانَ مطيعًا، وإذا قالَ: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ كانَ معناهُ لا تفارقْ هذا حتى تموتَ.

فإن قيل: كيفَ قالَ سبحانهُ: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ ولمْ يقلْ أبدًا، فالجوابُ: أنَّ اليقينَ أبلغُ منْ قولهِ: أبدًا، لاحتمالِ لفظِ الأبدِ للحظةِ الواحدةِ ولجميعِ الأبدِ.

والمرادُ استمرارُ العبادةِ مدةَ حياتهِ، كما قالَ العبدُ الصالح: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾. ويتركبُ على هذا أنَّ الرجلَ إذا قالَ لامرأتهِ: أنتِ طالقٌ أبدًا، وقالَ: نويتُ يومًا أوْ شهرًا كانتْ عليهِ الرجعةُ. ولوْ قالَ: طلقتها حياتها لمْ يراجعها.

والدليلُ على أنَّ اليقينَ الموتُ حديثُ أمِّ العلاءِ الأنصاريةِ، وكانتْ منَ المبايعاتِ، وفيهِ: فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أما عثمانُ- أعني عثمانَ بنَ مظعونٍ- فقدْ جاءهُ اليقينُ وإني لأرجوُ لهُ الخيرَ واللهِ ما أدري وأنا رسولُ اللهِ ما يفعلُ بهِ» وذكرَ الحديثَ. انفردَ بإخراجهِ البخاريُّ رحمهُ اللهُ!

وكانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يقولُ: ما رأيتُ يقينًا أشبهَ بالشكِّ منْ يقينِ الناسِ بالموتِ ثمَّ لا يستعدونَ لهُ، يعني كأنهمْ فيهِ شاكونَ.

سورة النحل

وهيَ مكيةٌ كلها في قولٍ، وتسمى سورةُ النِعَمِ بسببِ ما عددَ اللهُ فيها منْ نعمهِ على عبادهِ. وقيل: هيَ مكيةٌ غيرَ قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ الآيةَ، نزلتْ بالمدينةِ في شأنِ التمثيل بحمزةَ وقتلى أحدٍ. وغيرَ قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾. وغيرَ قولهِ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ الآيةَ. وأما قولهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ فمكيٌّ، في شأنِ هجرةِ الحبشةِ.

وقالَ ابنُ عباسٍ: هيَ مكيةٌ إلا ثلاثَ آياتٍ منها نزلتْ بالمدينةِ بعدَ قتلِ حمزةَ، وهيَ قولهُ: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ﴾- إلى قولهِ- ﴿بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧﴾.

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم

قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ قيلَ: ﴿أَتَىٰٓ﴾ بمعنى يأتي، فهوَ كقولكَ: إنْ أكرمتني أكرمتكَ. وقدْ تقدمَ أنَّ إخبارَ اللهِ تعالى في الماضي والمستقبل سواءٌ، لأنهُ آتٍ لا محالةَ، كقولهِ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾. وَ ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ عقابهُ لمنْ أقامَ على الشركِ وتكذيبِ رسولهِ.

وقيل: إنهُ ما جاءَ بهِ القرآنُ منْ فرائضهِ وأحكامهِ. وفيهِ بعدٌ، لأنهُ لمْ ينقلْ أنَّ أحدًا منَ الصحابةِ استعجلَ فرائضَ اللهِ منْ قبلِ أنْ تفرضَ عليهمْ، وأما مستعجلو العذابِ والعقابِ فذلكَ منقولٌ عنْ كثيرٍ منْ كفارِ قريش وغيرهمْ، حتى قالَ النضرُ بنُ الحارثِ: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ﴾ الآيةَ، فاستعجلَ العذابَ.

قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أيْ تنزيهًا لهُ عما يصفونهُ بهِ منْ أنهُ لا يقدرُ على قيامِ الساعةِ، وذلكَ أنهمْ يقولونَ: لا يقدرُ أحدٌ على بعثِ الأمواتِ، فوصفوهُ بالعجزِ الذي لا يوصفُ بهِ إلا المخلوقُ، وذلكَ شركٌ. وقيل: ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أيْ عنْ إشراكهمْ. وقيل: ﴿مَا﴾ بمعنى الذي أيِ ارتفعَ عنِ الذين أشركوا به.

قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢﴾.

قرأَ المفضلُ عنْ عاصمٍ «تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ» والأصلُ تتنزلُ، فالفعلُ مسندٌ إلى الملائكةِ. وقرأ الكسائيُّ عنْ أبي بكرٍ عنْ عاصمٍ باختلافٍ عنهُ «تُنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ» غيرُ مسمى الفاعل. وقرأ الجعفيُّ عنْ أبي بكر عن عاصم «نُنْزِل الْمَلَائِكَةَ» بالنونِ مسمى الفاعلِ، الباقونَ: ﴿يُنَزِّلُ﴾ بالياءِ مسمى الفاعلِ، والضميرُ فيهِ لاسمِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

﴿بِٱلرُّوحِ﴾ أيْ بالوحيِ وهوَ النبوةُ، نظيرهُ: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾. وقيل: بكلامِ اللهِ وهوَ القرآنُ. وقيل: هوَ بيانُ الحقِّ الذي يجبُ اتباعهُ. وقيل: أرواحُ الخلقِ، وقيلَ: بالرحمةِ، وقيل: بالهدايةِ، لأنها تحيا بها القلوبُ كما تحيا بالأرواحِ الأبدانُ، وقيل: الروحُ هنا جبريلُ. والباءُ في قولِهِ: ﴿بِٱلرُّوحِ﴾ بمعنى معَ، كقولكَ: خرجَ بثيابهِ، أيْ معَ ثيابهِ ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أيْ بأمرهِ ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أيْ على الذينَ اختارهمُ اللهُ للنبوة. وهذا رد لقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ تحذيرٌ منْ عبادةِ الأوثانِ، ولذلكَ جاءَ الإنذارُ، لأنَّ أصلهُ التحذيرُ مما يخافُ منه.

ودل على ذلك قوله: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾. و ﴿أَن﴾ في موضعِ نصبٍ بنزعِ الخافضِ، أيْ بأنْ أنذروا أهلَ الكفرِ بأنهُ لا إلهَ إلا الله، ف ﴿أَن﴾ في محلِّ نصبٍ بسقوطِ الخافضِ أوْ بوقوعِ الإنذار عليه.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أيْ للزوالِ والفناءِ. وقيل: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أيْ للدلالةِ على قدرتهِ، وأنَّ لهُ أنْ يتعبدَ العبادَ بالطاعةِ وأنْ يحييَ الخلقَ بعدَ الموتِ ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٣﴾ أيْ منْ هذهِ الأصنامِ التي لا تقدر على خلق شيء.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ لما ذكرَ الدليلَ على توحيدهِ ذكرَ بعدهُ الإنسانَ ومناكدتهُ وتعديَ طورهِ. و﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ اسمٌ للجنسِ. ورويَ أنَّ المرادَ بهِ أبيُّ بنُ خلفٍ

الجمحيُّ، جاءَ إلى النبيِّ ﷺ بعظمٍ رميمٍ فقالَ: أترى يحيي اللهُ هذا بعدَ ما قدْ رمَّ. وفي هذا أيضًا نزلَ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أيْ خلقَ الإنسانَ منْ ماءٍ يخرجُ منْ بينِ الصلبِ والترائبِ، فنقلهُ أطوارًا إلى أنْ ولدَ ونشأَ بحيثُ يخاصمُ في الأمورِ. فمعنى الكلامِ التعجبُ منَ الإنسانِ ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾.

وقوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ أيْ مخاصمٌ، كالنسيبِ بمعنى المناسبِ. أيْ يخاصمُ اللهَ عزَّ وجلَّ في قدرته. و ﴿مُّبِينٌ﴾ أيْ ظاهرُ الخصومةِ. وقيل: يبينُ عنْ نفسهِ الخصومةَ بالباطلِ. والمبينُ: هوَ المفصحُ عما في ضميره بمنطقه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ﴾ لمّا ذكرَ الإنسانَ ذكرَ ما منَّ بهِ عليهِ. والأنعام: الإبلُ والبقرُ والغنمُ. وأكثرُ ما يقالُ: نعمٌ وأنعامٌ للإبلِ، ويقالُ للمجموعِ ولا يقالُ للغنمِ مفردة.

والأنعام تذكرُ وتؤنثُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ﴾. وفي موضع ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾. وانتصبَ الأنعام عطفًا على الإنسان، أو بفعل مقدر وهو أوجه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿دِفْءٌ﴾ الدفءُ: السخانةُ، وهوَ ما استدفئَ بهِ منْ أصوافها وأوبارها وأشعارها، ملابسُ ولحفٌ وقطفٌ، وعنِ ابنِ عباسٍ: دفؤها نسلها، واللهُ أعلمُ.

قوله تعالى: ﴿وَمَنَـٰفِعُ﴾ المنافعُ نسلُ كلِّ دابة، والركوبُ والحملُ والألبانُ واللحومُ والسمنُ ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أفردَ منفعةَ الأكلِ بالذكرِ لأنها معظمُ المنافعِ.

الثانية: دلتْ هذهِ الآيةُ على لباسِ الصوفِ، وقدْ لبسهُ رسولُ اللهِ ﷺ والأنبياءُ قبلهُ كموسى وغيرهِ. وفي حديثِ المغيرةِ: فغسلَ وجههُ وعليهِ جبةٌ منْ صوفٍ شاميةٍ ضيقةِ الكمينِ ... خرجهُ مسلمٌ. قالَ ابنُ العربيِّ: وهوَ شعارُ المتقينَ ولباسُ الصالحينَ وشارةُ الصحابةِ والتابعينَ، واختيارُ الزهادِ والعارفينَ، وهوَ يلبسُ لينًا وخشنًا وجيدًا ومقاربًا ورديئًا، وإليهِ نسبَ جماعةٌ منَ الناسِ الصوفيةَ، لأنهُ لباسهمْ في الغالبِ، فالياءُ للنسبِ والهاءُ للتأنيثِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾

الجمالُ ما يتجملُ بهِ ويتزينُ. والجمالُ: الحسنُ. وقدْ جمُلَ الرجلُ «بالضمِّ» جمالًا فهوَ جميلُ، والمرأةُ جميلةٌ، وجملاءُ أيضًا.

قالَ علماؤنا: فالجمالُ يكونُ في الصورةِ وتركيبِ الخلقةِ، ويكونُ في الأخلاقِ الباطنةِ، ويكونُ في الافعال، وجمالُ الأنعام والدوابِّ منْ جمالِ الخلقةِ، وهوَ مرئيٌّ بالأبصارِ موافقٌ للبصائرِ.

ومنْ جمالها كثرتها وقولُ الناسِ إذا رأوها هذهِ نعمُ فلانٍ، ولهذا المعنى قدمَ الرواحَ على السراحِ لتكاملِ درها وسرورِ النفسِ بها إذْ ذاكَ. واللهُ أعلمُ.

قوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾، فيه ثلاث مسائل:

قوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ الأثقالُ ما يثقلُ الإنسانَ حملهُ. وقيل: المرادُ أبدانهمْ، يدلُّ على ذلكَ قولهُ تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ والبلدُ مكةُ، وقيل: هوَ محمولٌ على العمومِ في كلِّ بلدٍ مسلكهُ على الظهرِ.

وَ ﴿شِقِّ الأَنفُسِ﴾: مشقتها وغايةُ جهدها. وقراءةُ العامةِ بكسرِ الشينِ، وكسرُ الشينِ وفتحها في ﴿شِقِّ﴾ متقاربانِ، وهما بمعنى المشقةِ، وهوَ منَ الشقِّ في العصا والجبل ونحوها، لأنهُ ينالُ منها كالمشقةِ منَ الإنسانِ. والشِّقُّ مشترك ومنه الشِّقُّ الشقيق فهو شق نفسي، الشِّقُّ الجانب، الشِّقُّ الناحية و الشِّقُّ النصف.

الثانية: منَّ اللهُ سبحانهُ بالأنعام عمومًا، وخصَّ الإبلَ هنا بالذكرِ في حملِ الأثقالِ على سائرِ الأنعام، فإنَّ الغنمَ للسرحِ والذبحِ، والبقرَ للحرثِ، والإبلَ للحملِ. وفي صحيح مسلمٍ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «بينما رجلٌ يسوقُ بقرةً لهُ قدْ حملَ عليها التفتتْ إليهِ البقرةُ فقالتْ إني لمْ أخلقْ لهذا ولكني إنما خلقتُ للحرثِ فقالَ الناس سبحان الله تعجبا وفزعا أبقرة تتكلم»؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «وإني أو من به وأبو بكر وعمر». فدلَّ هذا الحديثُ على أنَّ البقرَ لا يحملُ عليها ولا تركبُ، وإنما هيَ للحرثِ وللأكل والنسل والرسل.

الثالثة: في هذهِ الآيةِ دليلٌ على جوازِ السفرِ بالدوابِّ وحملِ الأثقالِ عليها. ولكنْ على قدرِ ما تحتملهُ منْ غيرِ إسرافٍ في الحملِ معَ الرفقِ في السيرِ. وقدْ أمرَ النبيُّ ﷺ بالرفقِ بها والإراحةِ لها ومراعاةَ التفقدِ لعلفها وسقيها. وروى مسلمٍ منْ حديثِ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولَ اللهِ ﷺ: «إذا سافرتمْ في الخصبِ فأعطوا الإبلَ حظها منَ الأرضِ وإذا سافرتمْ في السنةِ فبادروا بها نِقْيَها».

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ﴾ بالنصبِ معطوفٌ، أيْ وخلقَ الخيلَ، وسميتِ الخيلُ خيلًا لاختيالها في المشيةِ. وواحدُ الخيلِ خائلٌ، كضائنٍ واحدُ ضينٍ. وقيلَ: لا واحدَ لهُ.

ولمّا أفردَ سبحانهُ الخيلَ والبغال والحمير بالذكر دلَّ على أنها لمْ تدخلْ تحتَ لفظِ الأنعام. وقيل: دخلت ولكن أرادها بالذكرِ لما يتعلقُ بها منَ الركوبِ، فإنهُ يكثرُ في الخيلِ والبغالِ والحميرِ.

الثانية: قالَ العلماءُ: ملكنا اللهُ تعالى الأنعام والدوابَّ وذللها لنا، وأباحَ لنا تسخيرها والانتفاعَ بها رحمةً منهُ تعالى لنا، وما ملكهُ الإنسانُ وجازَ لهُ تسخيرهُ منَ الحيوانِ فكراؤهُ لهُ جائزٌ بإجماعِ أهلِ العلمِ، لا اختلافَ بينهمْ في ذلكَ.

الثالثة: لا خلافَ بينَ العلماءِ في اكتراء الدواب والرواحل عليها والسفرِ بها، لقولهِ تعالى: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾ الآيةَ. وأجازوا أنْ يكريَ الرجلُ الدابةَ والراحلةَ إلى مدينةٍ بعينها وإنْ لمْ يسمِّ أينَ ينزلُ منها، وكمْ منْ منهلٍ ينزلُ فيهِ، وكيفَ صفةُ سيرهِ، وكمْ ينزلُ في طريقهِ، واجتزوا بالمتعارفِ بينَ الناسِ في ذلكَ.

قالَ علماؤنا: والكراءُ يجري مجرى البيوعِ فيما يحلُّ منهُ ويحرمُ.

قالَ ابنُ المنذرِ: وأجمعَ كلُّ منْ يحفظُ عنهُ منْ أهلِ العلمِ على أنَّ منِ اكترى دابةً ليحملَ عليها عشرةَ أقفزةٍ قمحٍ فحملَ عليها ما اشترط فتلفت أنْ لا شيء عليهِ. وهكذا إنْ حملَ عليها عشرةَ أقفزةٍ شعيرٍ. واختلفوا فيمنْ اكترى دابةً ليحملَ عليها عشرةَ أقفزةٍ فحملَ

عليها أحدَ عشرَ قفيزًا، فكانَ الشافعيُّ وأبو ثورٍ يقولانِ: هوَ ضامنٌ لقيمةِ الدابةِ وعليهِ الكراءُ. وقالَ ابنُ أبي ليلى: عليهِ قيمتها ولا أجرَ عليهِ.

وفيهِ قولٌ ثالثٌ - وهوَ أنَّ عليهِ الكراءُ وعليهِ جزءٌ منْ أجرٍ وجزءٌ منْ قيمةِ الدابةِ بقدرِ ما زادَ منَ الحملِ، وهذا قولُ النعمانِ. وقالَ ابنُ القاسمِ: لا ضمانَ عليهِ في قولِ مالكٍ إذا كانَ القفيزُ الزائدُ لا يفدحُ الدابةَ، ويعلم أن مثله لا تعطبُ فيهِ الدابةُ، ولربِّ الدابةِ أجرُ القفيزِ الزائدِ معَ الكراءِ الأولِ، لأنَّ عطبها ليسَ منْ أجلِ الزيادةِ. وذلكَ بخلافِ مجاوزةِ المسافةِ، لأنَّ مجاوزةَ المسافةِ تعدٍّ كلهُ فيضمنُ إذا هلكتْ في قليلهِ وكثيرهِ. والزيادةُ على الحمل المشترطِ اجتمعَ فيهِ إذنٌ وتعدٍّ، فإذا كانتِ الزيادةُ لا تعطبُ في مثلها علمَ أنَّ هلاكها مما أذنَ لهُ فيهِ.

الرابعة: واختلفَ أهلُ العلمِ في الرجلِ يكتري الدابةَ بأجر معلوم إلى موضع مسمى، فيتعدى فيجتاز ذلكَ المكانَ ثمَّ يرجعُ إلى المكانِ المأذونِ لهُ في المصيرِ إليهِ. فقالتْ طائفةٌ: إذا جاوزَ ذلكَ المكانَ ضمنَ وليسَ عليهِ في التعدي كراءٌ، هكذا قالَ الثوريُّ. وقالَ أبو حنيفةَ: الأجرُ لهُ فيما سمَّى، ولا أجرَ لهُ فيما لمْ يسمِّ، لأنهُ خالفَ فهوَ ضامنٌ. وقالَ الشافعيُّ: عليهِ الكراءُ الذي سمى، وكراءُ المثلِ فيما جاوزَ ذلكَ، ولوْ عطبتْ لزمهُ قيمتها. ونحوهُ قالَ الفقهاءُ السبعةُ، مشيخةُ أهلِ المدينةِ قالوا: إذا بلغَ المسافةَ ثمَّ زادَ فعليهِ كراءُ الزيادةِ إنْ سلمتْ وإنْ هلكتْ ضمنَ. وقالَ أحمدُ: عليهِ الكراءُ والضمانُ. قالَ ابنُ المنذرِ: وبهِ نقولُ.

وقالَ ابنُ القاسمِ: إذا بلغَ المكتري الغايةَ التي اكترى إليها ثمَّ زادَ ميلًا ونحوهُ أوْ أميالًا أوْ زيادةً كثيرةً فعطبتِ الدابةُ، فلربها كراؤهُ الأولُ والخيارُ في أخذهِ كراءَ الزائدِ بالغًا ما بلغَ، أوْ قيمةَ الدابةِ يومَ التعدي. ابنُ الموازِ: وقدْ روى أنهُ ضامنٌ ولوْ زادَ خطوةً. وقالَ ابنُ القاسم عنْ مالكٍ في زيادةِ الميلِ ونحوهِ: وأما ما يعدلُ الناسُ إليهِ في المرحلةِ فلا يضمنُ.

الخامسة: قالَ مالكٌ: قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ فجعلها للركوبِ والزينةِ ولمْ يجعلها للأكلِ، ولهذا قالَ أصحابنا: لا يجوزُ أكلُ لحومِ الخيلِ والبغالِ والحميرِ، لأنَّ اللهَ تعالى لما نصَّ على الركوبِ والزينة دل على ما عداهُ بخلافهِ. وقالَ في الأنعامِ: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ معَ ما امتنَّ اللهُ منها منَ الدفءِ والمنافعِ، فأباحَ لنا أكلها بالذكاةِ المشروعةِ فيها، وسئل ابنُ عباسٍ عنْ لحومِ الخيلِ فكرهها، وبهِ قالَ مالكٌ وأبو حنيفةَ

وأصحابهما، واحتجوا بما أخرجه أبو داودَ والنسائيُّ والدارقطنيُّ عنْ خالدِ بنِ الوليدِ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ نهى يومَ خيبرَ عنْ أكلِ لحومِ الخيلِ والبغالِ والحميرِ، وكلِّ ذي نابٍ منَ السباعِ أوْ مخلبٍ منَ الطيرِ. لفظُ الدارقطنيِّ. وعندَ النسائيِّ أيضًا عنْ خالدِ بنِ الوليدِ أنهُ سمعَ النبيَّ ﷺ يقولُ: «لا يحلُّ أكلُ لحومِ الخيلِ والبغالِ والحميرِ».

وقالَ الجمهورُ منَ الفقهاءِ والمحدثينَ: هيَ مباحةٌ. ورويَ عنْ أبي حنيفةَ. وشذتْ طائفةٌ فقالتْ بالتحريمِ، منهمُ الحكمُ، ورويَ عنْ أبي حنيفةَ.

قلتُ: الصحيحُ الذي يدلُّ عليهِ النظرُ والخبرُ جوازُ أكلِ لحومِ الخيلِ، وأنَّ الآيةَ والحديثَ لا حجةَ فيهما لازمةً. أما الآيةُ فلا دليلَ فيها على تحريمِ الخيلِ. إذْ لوْ دلتْ عليهِ لدلتْ على تحريمِ لحومِ الحمرِ، والسورةُ مكيةٌ، وأيُّ حاجةٍ كانتْ إلى تجديدِ تحريمِ لحومِ الحمرِ عامَ خيبرَ وقدْ ثبتَ في الأخبارِ تحليلُ الخيلِ على ما يأتي. وأيضًا لما ذكرَ تعالى الأنعامَ ذكرَ الأغلبَ منْ منافعِها وأهمَّ ما فيها، وهوَ حملُ الأثقالِ والأكلُ، ولمْ يذكرِ الركوبَ ولا الحرثَ بها ولا غيرَ ذلكَ مصرحًا بهِ، وقدْ تركبُ ويحرثُ بها، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَـٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾. وقالَ في الخيلِ: ﴿لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ فذكرَ أيضًا أغلبَ منافعِها والمقصودُ منها، ولمْ يذكرْ حملَ الأثقالِ عليها، وقدْ تحملُ كما هوَ مشاهدٌ فلذلكَ لمْ يذكرِ الأكلَ. وقدْ بينهُ ﷺ الذي جعلَ إليهِ بيانَ ما أنزلَ عليهِ ما يأتي، ولا يلزمُ منْ كونِها خلقتْ للركوبِ والزينةِ ألا تؤكلَ، فهذهِ البقرةُ قدْ أنطقها خالقها الذي أنطقَ كلَّ شيءٍ فقالتْ: إنما خلقتْ للحرثِ. فيلزمُ منْ عللَ أنَّ الخيلَ لا تؤكلُ لأنها خلقتْ للركوبِ وألا تؤكلَ البقرُ لأنها خلقتْ للحرثِ. وقدْ أجمعَ المسلمونَ على جوازِ أكلِها، فكذلكَ الخيلُ بالسنةِ الثابتةِ فيها. روى مسلمٌ منْ حديثِ جابرٌ قالَ: نهى رسولُ اللهِ ﷺ يومَ خيبرَ عنْ لحومِ الحمرِ الأهليةِ وأذنَ في لحومِ الخيلِ.

وقالَ النسائيُّ عنْ جابرٍ: أطعمنا رسولُ اللهِ ﷺ يومَ خيبرَ لحومَ الخيلِ ونهانا عنْ لحومِ الحمرِ.

وفي روايةٍ عنْ جابرٍ قالَ: كنا نأكلُ لحومَ الخيلِ على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ.

فإن قيل: الروايةُ عنْ جابرٍ بأنهمْ أكلوها في خيبرَ حكايةُ حالٍ وقضيةٌ في عينٍ، فيحتملُ أنْ

يكونوا ذبحوا لضرورةٍ، ولا يحتجُّ بقضايا الأحوالِ. قلنا: الروايةُ عنْ جابرٍ وإخبارهِ بأنهمْ كانوا يأكلونَ لحومَ الخيلِ على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ يزيلُ ذلكَ الاحتمالَ، ولئن سلمناهُ فمعنا حديثُ أسماءَ قالتْ: "نحرنا فرسًا على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ ونحنُ بالمدينةِ فأكلناهُ". مسلمٌ.

وكلُّ تأويلٍ منْ غيرِ ترجيحٍ في مقابلةِ النصِّ فإنما هوَ دعوى، لا يلتفتُ إليهِ ولا يعرجُ عليهِ. وقدْ روى الدارقطنيُّ زيادةً حسنةً ترفعُ كلَّ تأويلٍ في حديثِ أسماءَ، قالتْ أسماءُ: كانَ لنا فرسٌ على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ أرادتْ أنْ تموتَ فذبحناها فأكلناها. فذبحها إنما كانَ لخوفِ الموتِ عليها لا لغيرِ ذلكَ منَ الأحوالِ. وباللهِ التوفيقُ.

فإن قيل: حيوانٌ منْ ذواتِ الحوافرِ فلا يؤكلُ كالحمارِ؟ قلنا: هذا قياسُ الشبهِ وقدِ اختلفَ أربابُ الأصولِ في القولِ به، ولين سلمناهُ فهوَ منتقضٌ بالخنزيرِ، فإنهُ ذو ظلفٍ وقدْ باينَ ذواتَ الأظلافِ، وعلى أنَّ القياسَ إذا كانَ في مقابلةِ النصِّ فهوَ فاسدُ الوضعِ لا التفاتَ إليهِ.

قالَ الطبريُّ: وفي إجماعهمْ على جوازِ ركوبِ ما ذكرَ للأكلِ دليلٌ على جوازِ أكلِ ما ذكرَ للركوبِ.

السادسة: وأما البغالُ فإنها تلحقُ بالحميرِ، إنْ قلنا إنَّ الخيلَ لا تؤكلُ، فإنها تكونُ متولدةً منْ عينينِ لا يؤكلانِ. وإنْ قلنا إنَّ الخيلَ تؤكلُ، فإنها عينٌ متولدةٌ منْ مأكولٍ وغيرِ مأكولٍ فغلبَ التحريمُ على ما يلزمُ في الأصولِ. وكذلكَ ذبحُ المولودِ بينَ كافرينِ أحدهما منْ أهلِ الذكاةِ والآخرُ ليسَ منْ أهلها، لا تكونُ ذكاةً ولا تحلُّ بهِ الذبيحةُ، وقدْ عللَ تحريمُ أكلِ الحمارِ بأنهُ أبدى جوهرهُ الخبيثَ حيثُ نزا على ذكرٍ وتلوطَ، فسميَ رجسًا.

السابعة: في الآيةِ دليلٌ على أنَّ الخيلَ لا زكاةَ فيها، لأنَّ اللهَ سبحانهُ منَّ علينا بما أباحنا منها وكرمنا بهِ منْ منافعها، فغيرُ جائزٍ أنْ يلزمَ فيها كلفةٌ إلا بدليلٍ. وقدْ روى مالكٌ عنْ أبي هريرةَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «ليسَ على المسلمِ في عبدهِ ولا فرسهِ صدقةٌ»، وروى أبو داودَ عنْ أبي هريرةَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ قال: «ليسَ في الخيلِ والرقيقِ زكاةٌ إلا زكاةَ الفطرِ في الرقيقِ». وبهِ قالَ مالكٌ والشافعيُّ، وقالَ أبو حنيفةَ: إنْ كانتْ إناثًا كلها أوْ ذكورًا وإناثًا، ففي كلِّ فرسٍ دينارٌ إذا كانتْ سائمةً، وإنْ شاءَ قومها فأخرجَ عنْ كلِّ مائتيْ درهمٍ خمسةَ دراهمَ.

واحتجَّ بأثرٍ عنِ النبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «في الخيلِ السائمةِ في كلِّ فرسٍ دينارٍ» وبقولهِ ﷺ: «الخيلُ ثلاثةٌ...» الحديثَ. وفيهِ: «ولمْ ينسَ حقَّ اللهِ في رقابها ولا ظهورها».

والجوابُ عنِ الأولِ: قالَ الدارقطنيُّ: تفردَ بهِ غوركُ عنْ جعفرٍ وهوَ ضعيفٌ جدًا، ومنْ دونهُ ضعفاءُ. وأما الحديثُ فالحقُّ المذكورُ فيهِ هوَ الخروجُ عليها إذا وقعَ النفيرُ وتعينَ بها لقتالِ العدوِّ إذا تعينَ ذلكَ عليه، ويحملُ المنقطعينَ عليها إذا احتاجوا لذلكَ، وهذا واجبٌ عليهِ إذا تعينَ، كما يتعينُ عليهِ أنْ يطعمهمْ عندَ الضرورةِ، فهذهِ حقوقُ اللهِ في رقابها.

فإن قيل: هذا هو الحقُّ الذي في ظهورها وبقيَ الحقُّ الذي في رقابها، قيلَ: قدْ رويَ «لا ينسى حقَّ اللهِ فيها» ولا فرقَ بينَ قولهِ: «حقَّ اللهِ فيها» أوْ «في رقابها وظهورها» فإن المعنى يرجع إلى شيء واحدٍ، لأنَّ الحقَّ يتعلقُ بجملتها. وقدْ قالَ جماعةٌ منَ العلماءِ: إنَّ الحقَّ هنا حسنُ ملكها وتعهدُ شبعها والإحسانُ إليها وركوبها غيرَ مشقوقٍ عليها، كما جاءَ في الحديثِ «لا تتخذوا ظهورها كراسيَّ». وإنما خصَّ رقابها بالذكرِ لأنَّ الرقابَ والأعناقَ تستعارُ كثيرًا في مواضع الحقوقِ اللازمةِ والفروضِ الواجبةِ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾، وأيضًا فإنَّ الحيوانَ الذي تجبُ فيهِ الزكاةُ لهُ نصابٌ منْ جنسهِ، ولما خرجتِ الخيلُ عنْ ذلكَ علمنا سقوطَ الزكاةِ فيها. وأيضًا فإيجابهُ الزكاةَ في إناثها منفردةً دونَ الذكورِ تناقضٌ منهُ. وليسَ في الحديثِ فصلٌ بينهما.

الثامنة: قولهُ تعالى: ﴿وَزِينَةٗ﴾ منصوبٌ بإضمارِ فعلٍ، المعنى: وجعلها زينةً. وقيل: هوَ مفعولٌ منْ أجلهِ. والزينةُ: مايتزينُ بهِ، وهذا الجمالُ والتزيينُ وإنْ كانَ منْ متاعِ الدنيا فقدْ أذنَ اللهُ سبحانهُ لعبادهِ فيهِ، قالَ ﷺ: «الإبل عز لأهلها والغنمُ بركةٌ والخيلُ في نواصيها الخيرُ». خرجهُ ابنُ ماجهْ في السننِ. وإنما جمعَ النبيُّ ﷺ العزَّ في الإبلِ، لأنَّ فيها اللباسَ والأكلَ واللبنَ والحملَ والغزوَ وإنْ نقصها الكرُّ والفرُّ. وجعلَ البركةَ في الغنمِ لما فيها منَ اللباسِ والطعامِ والشرابِ وكثرةِ الأولادِ، فإنها تلدُ في العامِ ثلاثَ مراتٍ إلى ما يتبعها منَ السكينةِ، وتحملُ صاحبها عليهِ منْ خفضِ الجناحِ ولينِ الجانبِ، بخلافِ الفدادينَ أهلِ الوبرِ. وقرنَ ﷺ الخيرُ بنواصي الخيلِ بقيةَ الدهرِ لما فيها من الغنيمة المستفادة للكسب والمعايش، وما يوصلُ إليهِ منْ قهرِ الأعداءِ وغلبِ الكفارِ وإعلاءِ كلمةِ اللهِ تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ قالَ الجمهورُ، منَ الخلقِ. وقيلَ، منْ أنواعِ الحشراتِ والهوامِّ في أسافلِ الأرضِ والبرِّ والبحرِ مما لمْ يرهُ البشرُ ولمْ يسمعوا بهِ. وقيل: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ مما أعدَّ اللهُ في الجنةِ لأهلها وفي النارِ لأهلها، مما لمْ ترهُ عينٌ ولمْ تسمعْ بهِ أذنٌ ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ أيْ على اللهِ بيانُ قصدِ السبيل، فحذف المضاف وهو البيان. والسبيل: السلام، أيْ على اللهِ بيانهُ بالرسلِ والحججِ والبراهينِ. وقصدُ السبيلِ: استعانةُ الطريقِ، يقالُ: طريقٌ قاصدٌ أيْ يؤدي إلى المطلوبِ ﴿وَمِنۡهَا جَآئِرٞ﴾ أيْ ومنَ السبيلِ جائرٌ، أيْ عادلٌ عنِ الحقِّ فلا يهتدى بهِ، وفي التنزيلِ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾. وقدْ تقدمَ. وقيل: المعنى ومنهمْ جائرٌ عنْ سبيلِ الحقِّ، أيْ عادلٌ عنهُ فلا يهتدي إليهِ. وفيهمْ قولانِ:

أحدهما- أنهمْ أهلُ الأهواءِ المختلفةِ.

الثاني- ملل الكفر من اليهودية والمجوسية والنصرانيةِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩﴾ بينَ أنَّ المشيئةَ للهِ تعالى، ويردُّ على القدريةِ ومنْ وافقها.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ١٠﴾.

الشرابُ ما يشربُ، والشجرُ معروفٌ. أيْ ينبتُ منَ الأمطارِ أشجارا وعروشا ونباتا. و﴿تُسِيمُونَ﴾ ترعونَ إبلكمْ، يقالُ: سامتِ السائمةُ تسومُ سومًا أيْ رعتْ، فهيَ سائمةٌ، وأصلُ السومِ الإبعادُ في المرعى، وقيل: أخذَ منَ السُّومةِ وهيَ العلامةُ، أيْ أنها تؤثرُ في الأرضِ علاماتٌ برعيها، أوْ لأنها تعلمُ للإرسالِ في المرعى. قلتُ: والخيلُ المسومةُ تكونُ المرعيةُ. وتكونُ المعلمةُ. وقولهُ: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ تكونُ معلمينَ وتكونُ مرسلينَ، منْ قولكَ: سوَّمَ فيها الخيلَ أيْ أرسلها، ومنهُ السائمةُ، وإنما جاءَ بالياءِ والنونِ لأن الخيل سومت وعليها ركبانها.

قوله تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ قرأَ أبو بكرٍ عنْ عاصمٍ «نُنْبِتُ» بالنونِ على التعظيمِ. العامةُ بالياءِ على معنى ينبتُ الله لكم، يقال: ينبت الأرضُ وأنبتتْ بمعنى، ونبتَ البقلُ وأنبتَ بمعنى ﴿وَٱلزَّيۡتُونَ﴾ جمعُ زيتونةٍ. ويقالُ للشجرةِ نفسها: زيتونةٌ، وللثمرةِ زيتونةٌ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الإنزالِ والإنباتِ ﴿لَأٓيَةٗ﴾ أيْ دلالةً ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أيْ للسكونِ والأعمالِ، كما قالَ: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾.

﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ﴾ أيْ مذللاتٌ لمعرفةِ الأوقاتِ ونضجِ الثمارِ والزرعِ والاهتداءِ بالنجومِ في الظلماتِ. وقرأ ابنُ عامرٍ وأهلُ الشام «وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مسخراتٌ» بالرفعِ على الابتداءِ والخبرِ. الباقونَ بالنصبِ عطفًا على ما قبلهُ. وقرأ حفصٌ عنْ عاصمٍ برفعِ ﴿وَٱلنُّجُومُ﴾، ﴿مُسَخَّرَٰتُۢ﴾ خبره. وقرئ ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ﴾ بالنصبِ، ﴿مُسَخَّرَٰتٌ﴾ بالرفعِ، وهوَ خبرُ ابتداءٍ محذوفٍ أيْ هي مسخراتٌ، وهيَ في قراءةِ منْ نصبها حالٌ مؤكدةٌ، كقولهِ: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ أي عنِ اللهِ ما نبههمْ عليهِ ووفقهمْ لهُ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٣﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ﴾ أيْ وسخرَ ما ذرأَ في الأرضِ لكمْ. ﴿ذَرَأَ﴾ أيْ خلقَ، ذرأَ اللهُ الخلقَ يذرؤهمْ ذرءًا خلقهمْ، فهوَ ذارئٌ، ومنهُ الذريةُ وهيَ نسلُ الثقلينِ، إلا أنَّ العربَ تركتْ همزها، والجمعُ الذراريُّ.

الثانية: ما ذرأهُ اللهُ سبحانهُ منهُ مسخرٌ مذللٌ كالدوابِّ والأنعامِ والأشجارِ وغيرِها، ومنهُ غيرُ ذلكَ. والدليلُ عليهِ ما رواهُ مالكٌ في الموطأِ عنْ كعبِ الأحبارِ قالَ: لو لا كلماتٌ أقولهنَّ لجعلتني يهودُ حمارًا. فقيلَ لهُ: وما هنَّ؟ فقالَ: أعوذُ بوجهِ اللهِ العظيمِ الذي ليس شيءٌ أعظمَ منهُ، وبكلماتِ اللهِ التاماتِ التي لا يجاوزهنَّ برٌّ ولا فاجرٌ، وبأسماءِ اللهِ الحسنى كلها ما

علمتُ منها وما لمْ أعلمْ، منْ شرِّ ما خلقَ وبرأَ وذرأَ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ﴾ ﴿مُخۡتَلِفًا﴾ نصبَ على الحال. و ﴿أَلۡوَٰنُهُۥٓ﴾ هيئاتهُ ومناظرهُ، يعني الدوابَّ والشجرَ وغيرها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أيْ في اختلافِ ألوانها ﴿لَأٓيَةٗ﴾ أيْ لعبرةً ﴿لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾ أيْ يتعظونَ ويعلمونَ أنَّ في تسخيرِ هذهِ المكوناتِ لعلاماتٌ على وحدانيةِ اللهِ تعالى، وأنهُ لا يقدرُ على ذلك أحد غيره.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٤﴾، فيهِ تسعُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ تسخيرُ البحرِ هوَ تمكينُ البشرِ منَ التصرفِ فيهِ وتذليلهِ بالركوبِ والإرفاءِ وغيرهِ، وهذهِ نعمةٌ منْ نعمِ اللهِ علينا، فلوْ شاءَ سلطهُ علينا وأغرقنا، واللحومُ عندَ مالكٍ ثلاثةُ أجناسٍ: فلحمُ ذواتِ الأربعِ جنسٌ، ولحمُ ذواتِ الريشِ جنسٌ، ولحمُ ذواتِ الماءِ جنسٌ. فلا يجوزُ بيعُ الجنسِ منْ جنسهِ متفاضلاً، ويجوزُ بيعُ لحمِ البقرِ والوحشِ بلحمِ الطيرِ والسمكِ متفاضلاً، وكذلكَ لحمُ الطيرِ بلحمِ البقرِ والوحشِ والسمكِ يجوزُ متفاضلاً.

وقالَ أبو حنيفةَ: اللحمُ كلها أصنافٌ مختلفةٌ كأصولها، فلحمُ البقرِ صنفٌ، ولحمُ الغنمِ صنفٌ، ولحمُ الإبلِ صنفٌ، وكذلكَ الوحشُ مختلفٌ، كذلكَ الطيرُ، وكذلكَ السمكُ، وهوَ أحد قولي الشافعيِّ.

والقولُ الآخرُ أنَّ الكلَّ منَ النعمِ والصيدِ والطيرِ والسمكِ جنسٌ واحدٌ لا يجوزُ التفاضلُ فيهِ. والقولُ الأولُ هوَ المشهورُ منْ مذهبهِ عندَ أصحابهِ.

ودليلنا هوَ أنَّ اللهَ تعالى فرقَ بينَ أسماءِ الأنعامِ في حياتها فقالَ: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾ ثمَّ قالَ: ﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾ فلما أنْ أمَّ بالجميعِ إلى اللحمِ قالَ: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ فجمعها بلحمٍ واحدٍ لتقاربِ منافعها كتقاربِ لحمِ الضأنِ والمعزِ. وقالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ وهذا

جمعُ طائرٍ الذي هوَ الواحدُ، لقولهِ تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ فجمعَ لحمَ الطيرِ كلهُ باسمٍ واحدٍ. وقالَ هنا: ﴿لَحۡمًا طَرِيًّا﴾ فجمعَ أصنافَ السمكِ بذكرٍ واحدٍ، فكانَ صغارهُ ككبارهِ في الجمعِ بينهما. وقدْ رويَ عنِ ابنِ عمرَ أنهُ سئلَ عنْ لحمِ المعزِ بلحمِ الكباشِ أشيءٌ واحدٌ؟ فقالَ لا، ولا مخالفَ لهُ فصارَ كالإجماعِ، واللهُ أعلمُ.

ولا حجةَ للمخالفِ في نهيهِ ﷺ عنْ بيعِ الطعامِ إلا مثلًا بمثلٍ، فإنَّ الطعامَ في الإطلاقِ يتناولُ الحنطةَ وغيرها منَ المأكولاتِ ولا يتناولُ اللحمَ، ألا ترى أنَّ القائلَ إذا قالَ: أكلتُ اليومَ طعامًا لمْ يسبقِ الفهمُ منهُ إلى أكلِ اللحمِ، وأيضًا فإنهُ معارضٌ بقولهِ ﷺ: «إذا اختلفَ الجنسانِ فبيعوا كيفَ شئتمْ» وهذانِ جنسانِ، وأيضًا فقدِ اتفقنا على جوازِ بيعِ اللحمِ بلحمِ الطيرِ متفاضلًا لا لعلةِ أنهُ بيعُ طعامٍ لا زكاةَ لهُ بِيعَ بلحمٍ ليسَ فيهِ الزكاةُ، وكذلكَ بيعُ السمكِ بلحمِ الطيرِ متفاضلًا.

الثانية: وأما الجرادُ فالمشهورُ عندنا جوازُ بيعِ بعضهِ ببعضٍ متفاضلًا.

الثالثة: اختلف العلماءُ فيمنْ حلفَ ألا يأكلَ لحمًا، فقالَ ابنُ القاسمِ: يحنثُ بكلِّ نوعٍ منْ هذهِ الأنواعِ الأربعة، وقال أشهب في المجموعة: لا يحنثُ إلا بأكلِ لحومِ الأنعامِ دونَ الوحشِ وغيرهِ، مراعاةً للعرفِ والعادةِ، وتقديمًا لها على إطلاقِ اللفظِ اللغويِّ، وهوَ أحسنُ.

الرابعة: قولهُ تعالى: وتستخرجوا منهُ حليةً تلبسونها يعني بهِ اللؤلؤَ والمرجانَ، لقولهِ تعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾. وإخراجُ الحليةِ إنما هيَ فيما عرفَ منَ الملحِ فقطْ. ويقال: إنَّ في الزمردِ بحريًا.

الخامسة: امتن اللهُ سبحانهُ على الرجالِ والنساءِ امتنانًا عامًا بما يخرجُ منَ البحرِ، فلا يحرمُ عليهمْ شيء منهُ، وإنما حرمَ اللهُ تعالى على الرجالِ الذهبَ والحريرَ: روى الصحيحُ عنْ عمرَ بنِ الخطابِ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا تلبسوا الحريرَ فإنهُ منْ لبسهُ في الدنيا لمْ يلبسهُ في الآخرةِ»، وروى البخاريُّ عنِ ابنِ عمرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ اتخذَ خاتمًا منْ ذهبٍ، وجعلَ فصهُ مما يلي باطنَ كفهِ، ونقشَ فيهِ محمدٌ رسولُ اللهِ، فاتخذَ الناسُ مثلهُ، فلما رآهمْ قدِ اتخذوها رمى بهِ وقالَ: «لا ألبسهُ أبدًا» ثمَّ اتخذَ خاتمًا منْ فضةٍ فاتخذَ الناسُ خواتيمَ

الفضةِ. قالَ ابنُ عمرَ: فلبسَ الخاتمَ بعدَ النبيِّ ﷺ أبو بكرٍ ثمَّ عمرُ ثمَّ عثمانُ، حتى وقعَ منْ عثمانَ في بئرِ أريسَ.

قالَ أبو داودَ: لمْ يختلفِ الناسُ على عثمانَ حتى سقطَ الخاتمُ منْ يدهِ.

وأجمعَ العلماءَ على جوازِ التختمِ بالورقِ على الجملةِ للرجالِ. قالَ الخطابيُّ. وكرهَ للنساءِ التختمُ بالفضةِ، لأنهُ منْ زيِّ الرجالِ، فإنْ لمْ يجدنَ ذهبًا فليصفرنهُ بزعفرانٍ أوْ بشبههِ.

وجمهورُ العلماءِ منَ السلفِ والخلفِ على تحريمِ اتخاذِ الرجالِ خاتمَ الذهبِ، إلا ما رويَ عنْ أبي بكرِ بنِ عبدِ الرحمنِ وخبابٍ، وهوَ خلافٌ شاذٌّ، وكلٌّ منهما لمْ يبلغهما النهيُ والنسخُ. واللهُ أعلمُ.

وأما ما رواهُ أنسُ بنُ مالكٍ أنهُ رأى في يدِ رسولِ اللهِ ﷺ خاتمًا منْ ورقٍ يومًا واحدًا، ثمَّ إنَّ الناسَ اصطنعوا الخواتمَ، منْ ورقٍ ولبسوها، فطرحَ رسولُ اللهِ ﷺ خاتمهُ فطرحَ الناسُ خواتيمهمْ - أخرجهُ الصحيحانِ واللفظ للبخاري - فهو عند العلماء وهمٌ منَ ابنِ شهابٍ، لأنَّ الذي نبذَ رسولُ اللهِ ﷺ إنما هوَ خاتمُ الذهبِ.

السادسة: إذا ثبتَ جوازُ التختمِ للرجالِ بخاتمِ الفضةِ والتحلي بهِ، فقدْ كرهَ ابنُ سيرينَ وغيرهُ منَ العلماءِ نقشهُ وأنْ يكونَ فيهِ ذكرُ اللهِ. وأجازَ نقشهُ جماعةٌ منَ العلماءِ. ثمَّ إذا نقشَ عليهِ اسمُ اللهِ أوْ كلمةُ حكمةٍ أوْ كلماتٍ منَ القرآنِ وجعلهُ في شمالهِ، فهلْ يدخلُ بهِ الخلاءَ ويستنجي بشمالهِ؟ خففهُ مالكٌ، ورويَ عنهُ الكراهةُ وهوَ الأولى وعلى المنعِ منْ ذلكَ أكثرُ أصحابهِ.

وقدْ روي عنْ أنسٍ قالَ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا دخلَ الخلاءَ وضعَ خاتمهُ. قالَ أبو داودَ: هذا حديثٌ منكرٌ.

السابعة: روى البخاريُّ عنْ أنسِ بنِ مالكٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ اتخذَ خاتمًا منْ فضةٍ ونقشَ فيهِ «محمدٌ رسولُ اللهِ» وقالَ: «إني اتخذتُ خاتمًا منْ ورقٍ ونقشتُ فيهِ محمدٌ رسولُ اللهِ فلا ينقشنَّ أحدٌ على نقشهِ». قالَ علماؤنا: فهذا دليلٌ على جوازِ نقشِ اسمِ صاحبِ الخاتمِ على خاتمهِ.

قالَ مالكٌ: ومنْ شأنِ الخلفاءِ والقضاةِ نقشُ أسمائهمْ على خواتيمهمْ، ونهيهُ ﷺ: لا ينقشنَّ أحدٌ على نقشِ خاتمهِ، منْ أجلِ أنَّ ذلكَ اسمهُ وصفتهُ برسالةِ اللهِ لهُ إلى خلقهِ. وروى أهلُ الشامِ أنهُ لا يجوزُ الخاتم لغيرِ ذي سلطان. ورووا في ذلكَ حديثًا عنْ أبي ريحانةَ، وهوَ حديثٌ لا حجةَ فيهِ لضعفهِ. وقولهُ ﷺ: «لا ينقشنَّ أحدٌ على نقشهِ» يردهُ ويدلُّ على جوازِ اتخاذِ الخاتمِ لجميعِ الناسِ، إذا لمْ ينقشْ على نقشِ خاتمهِ. وكانَ نقشُ خاتمِ الزهريِّ «محمدٌ يسألُ اللهَ العافيةَ». وكانَ نقشُ خاتمِ مالكٍ «حسبيَ اللهُ ونعمَ الوكيلُ». وذكرَ الترمذيُّ الحكيمُ في (نوادرُ الأصولِ) أنَّ نقشَ خاتمِ موسى عليه السلام ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾. وقدْ مضى في الرعدِ. وبلغَ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ أنَّ ابنهُ اشترى خاتمًا بألفِ درهمٍ فكتبَ إليهِ: إنهُ بلغني أنكَ اشتريتَ خاتمًا بألفِ درهمٍ، فبعهُ وأطعمْ منهُ ألفَ جائعٍ، واشترِ خاتمًا منْ حديدٍ بدرهمٍ، واكتبْ عليهِ «رحمَ اللهُ امرًا عرفَ قدرَ نفسهِ».

الثامنة: منْ حلفَ ألا يلبسَ حليًا فلبسَ لؤلؤًا لمْ يحنثْ، وبهِ قالَ أبو حنيفةَ. لأنَّ هذا وإنْ كانَ الاسمُ اللغويُّ يتناولهُ فلمْ يقصدهُ باليمينِ، والأيمانُ تخصُّ بالعرفِ، ألا ترى أنهُ لوْ حلفَ ألا ينامَ على فراشٍ فنامَ على الأرضِ لمْ يحنثْ، وكذلكَ لا يستضيءُ بسراجٍ فجلسَ في الشمسِ لا يحنثْ، وإنْ كانَ اللهُ تعالى قدْ سمى الأرضَ فراشًا والشمسَ سراجًا.

وقالَ الشافعيُّ وأبو يوسفَ ومحمدٌ: منْ حلفَ ألا يلبسَ حليًا ولبسَ اللؤلؤَ فإنهُ يحنثُ، لقولهِ تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ والذي يخرجُ منهُ: اللؤلؤُ والمرجانُ.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ قدْ تقدمَ ذكرُ الفلكِ وركوبُ البحرِ في «البقرةِ» وغيرها. وقولهُ: ﴿مَوَاخِرَ﴾: جواريَ، منْ جرتْ تجري. وقيل: معترضةً، وقيل: أيْ تذهبُ وتجيءُ، مقبلةً ومدبرةً بريحٍ واحدةٍ. وقيل: ﴿مَوَاخِرَ﴾ ملججةً في داخلِ البحرِ، وأصلُ المخرِ شقُّ الماءِ عنْ يمينٍ وشمالٍ. مخرتِ السفينةُ تمخرُ وتمخرُ مخرًا ومخورًا إذا جرتْ تشقُّ الماءَ معَ صوتٍ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ يعني جواريَ.

﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أيْ ولتركبوهُ للتجارةِ وطلبِ الربحِ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تقدمَ جميعُ هذا في «البقرة» والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ أيْ جبالًا ثابتةً. رسا يرسو إذا ثبتَ وأقامَ. قالَ:

فصـــبـرتُ عـارفـةً لـذلـكَ حـرةً ترســو إذا نـفـسُ الـجـبـانِ تـطـلـعُ

﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أيْ لئلا تميدَ، عندَ الكوفيينَ. وكراهيةَ أنْ تميدَ، على قولِ البصريينَ. والميدُ: الاضطرابُ يمينًا وشمالًا، مادَ الشيءُ يميدُ ميدًا إذا تحركَ، ومادتِ الأغصانُ تمايلتْ، ومادَ الرجلُ تبخترَ.

قلتُ: وفي هذهِ الآيةِ أدلُّ دليلٍ على استعمالِ الأسبابِ، وقدْ كانَ قادرًا على سكونها دونَ الجبالِ. وقدْ تقدمَ هذا المعنى ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ أيْ وجعلَ فيها أنهارًا، أوْ ألقى فيها أنهارًا ﴿وَسُبُلًا﴾ أيْ طرقًا ومسالكَ ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥﴾ أيْ إلى حيثُ تقصدونَ منَ البلادِ فلا تضلون ولا تتحيرون.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ﴾ العلاماتُ معالمُ الطرقِ بالنهارِ، أيْ جعلَ للطريقِ علاماتٍ يقعُ الاهتداءُ بها ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾ يعني بالليلِ، والنجمُ يرادُ بهِ النجومُ. وقرأ ابنُ وثابٍ «وَبِالنُّجُمِ» كسُقُفٍ وسَقفٍ.

وفي المرادِ بالاهتداءِ قولانِ:

أحدهما- في الأسفارِ، وهذا قولُ الجمهورِ.

الثاني- في القبلةِ.

الثانية: قالَ ابنُ العربيِّ: أما جميعُ النجومِ فلا يهتدي بها إلا العارفُ بمطالعها ومغاربها، والمفرق بينَ الجنوبيِّ والشماليِّ منها، وإنما الهدى لكلِ أحدٍ بالجدي والفرقدينِ، لأنها منَ النجومِ المنحصرةِ المطالعِ الظاهرةِ السمتِ الثابتةِ في المكانِ، فإنها تدورُ على القطبِ الثابتِ دورانًا محصلًا، فهيَ أبدًا هدى الخلقِ في البرِّ إذا عميتِ الطرقُ، وفي البحرِ عندَ مجرى

السفنِ، وفي القبلةِ إذا جهلَ السمتُ، وذلكَ على الجملةِ بأنْ تجعلَ القطبَ على ظهرِ منكبكَ الأيسرِ فما استقبلتَ فهوَ سمتُ الجهةِ.

الثالثة: قالَ علماؤنا: وحكمُ استقبالِ القبلةِ على وجهينِ:

أحدهما- أنْ يراها ويعاينها فيلزمهُ استقبالها وإصابتها وقصدُ جهتها بجميعِ بدنهِ.

والآخرُ- أنْ تكونَ الكعبةُ بحيثُ لا يراها فيلزمهُ التوجهُ نحوها وتلقاءها بالدلائلِ، وهيَ الشمسُ والقمرُ والنجومُ والرياحُ وكلُّ ما يمكنُ بهِ معرفةُ جهتها، ومنْ غابتْ عنهُ وصلى مجتهدًا إلى غيرِ ناحيتها وهوَ ممنْ يمكنهُ الاجتهادُ فلا صلاةَ لهُ، فإذا صلى مجتهدًا مستدلًا ثمَّ انكشفَ لهُ بعدَ الفراغِ منْ صلاتهِ أنهُ صلى إلى غيرِ القبلةِ أعادَ إنْ كانَ في وقتها، وليسَ ذلكَ بواجبٍ عليهِ، لأنهُ قدْ أدى فرضهُ على ما أمرَ به. على ما أمرَ بهِ.

قولهُ تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ﴾ هوَ اللهُ تعالى ﴿كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ يريدُ الأصنامَ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧﴾ أخبرَ عنِ الأوثانِ التي لا تخلقُ ولا تضرو ولا تنفع، كما يخبر عمن يعقل على ما تستعملهُ العربُ في ذلكَ، فإنهمْ كانوا يعبدونها فذكرتْ بلفظِ ﴿مَن﴾ كقولهِ: ﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ﴾. وقيل: لاقترانِ الضميرِ في الذكرِ بالخالقِ.

قالَ المهدويُّ: ويسألُ بـ «منْ» عنِ الباريءِ تعالى ولا يسألُ عنهُ بِ «ما»، لأنَّ «ما» إنما يسألُ بها عنِ الأجناسِ، واللهُ تعالى ليسَ بذي جنسٍ، ولذلكَ أجابَ موسى عليه السلام حين قال له: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ ولمْ يجبْ حينَ قالَ لهُ: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إلا بجوابِ «منْ» وأضربَ عنْ جوابِ «ما» حينَ كانَ السؤالُ فاسدًا.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ تقدم في إبراهيم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١٨ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ۝١٩﴾ أيْ ما تبطنونهُ وما تظهرونه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قراءةُ العامةِ «تَدْعُونَ» بالتاءِ لأنَّ ما قبلهُ خطابٌ. روى أبو بكرٍ عنْ عاصمٍ وهبيرةَ عنْ حفصٍ ﴿يَدۡعُونَ﴾ بالياءِ، وهيَ قراءةُ يعقوبَ. فأما قولهُ: ﴿مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ فكلهمْ بالتاءِ على الخطابِ، إلا ما روى هبيرةُ عنْ

حفصٍ عنْ عاصمٍ أنهُ قرأَ بالياءِ.

﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ أيْ لا يقدرونَ على خلق شيء ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ ٢٠﴾.

﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ أيْ همْ أمواتٌ، يعني الأصنامَ، لا أرواحَ فيها ولا تسمعُ ولا تبصرُ، أيْ هيَ جماداتٌ فكيفَ تعبدونها وأنتمْ أفضلُ منها بالحياةِ ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني الأصنامَ ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ٢١﴾ لا يدرونَ متى يبعثونَ. وعبرَ عنها كما عبرَ عنِ الآدميينَ، لأنهمْ زعموا أنها تعقلُ عنهمْ وتعلمُ وتشفعُ لهمْ عندَ اللهِ تعالى، فجرى خطابهمْ على ذلكَ. وقدْ قيلَ: إنَّ اللهَ يبعثُ الأصنامَ يومَ القيامةِ ولها أرواحٌ فتتبرأُ منْ عبادتهمْ.

وقيل: تمَّ الكلامُ عندَ قولهِ: ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ثمَّ ابتدأَ فوصفَ المشركينَ بأنهمْ أمواتٌ، وهذا الموتُ موتُ كفرٍ. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أيْ وما يدري الكفارُ متى يبعثونَ، أيْ وقتَ البعثِ، لأنهمْ لا يؤمنونَ بالبعثِ حتى يستعدوا للقاءِ اللهِ. **وقيل**: أيْ وما يدريهمْ متى الساعةُ، ولعلها تكونُ قريبًا.

قوله تعالى: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لما بينَ استحالةَ الإشراكِ باللهِ تعالى بينَ أنَّ المعبودَ واحدٌ لا ربَّ غيرهُ ولا معبودَ سواهُ ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ أيْ لا تقبل الوعظ ولا ينجع فيها الذكرُ، وهذا ردٌّ على القدريةِ ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ٢٢﴾ أي متكبرونَ متعظمونَ عنْ قبولِ الحقِّ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أيْ منَ القولِ والعملِ فيجازيهمْ. قالَ الخليلُ: ﴿لَا جَرَمَ﴾ كلمةُ تحقيقٍ ولا تكونُ إلا جوابًا، يقالُ: فعلوا ذلكَ، فيقالُ: لا جرمَ سيندمونَ. أيْ حقًا أنَّ لهمُ النارَ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ٢٣﴾ أيْ لا يثيبهمْ ولا يثني عليهمْ(١).

قالَ العلماءُ: وكلُّ ذنبٍ يمكنُ التسترُ منهُ وإخفاؤهُ إلا الكبرَ، فإنهُ فسقٌ يلزمهُ الإعلانُ، وهوَ أصلُ العصيانِ كلهِ. وفي الحديثِ الصحيح: «إن المتكبرين يحشرونَ أمثالَ الذرِّ يومَ القيامةِ يطؤهمُ الناسُ بأقدامهمْ لتكبرهمْ».

(١) تفسير باللازم يتضمن شيء من التأويل تقدم التنبيه عليه غير مرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ يعني وإذا قيلَ لمنْ تقدمَ ذكرهُ ممنْ لا يؤمنُ بالآخرةِ وقلوبهمْ منكرةٌ بالبعثِ ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾. فأجابوا بقولهمْ: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٢٤﴾ والأساطيرُ: الأباطيلُ والترهاتُ.

قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ﴾ قيلَ: هيَ لامُ كيْ، وهيَ متعلقةٌ بما قبلها. وقيل: لامُ العاقبةِ، كقولهِ: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾. أيْ قولهمْ في القرآنِ والنبيِّ أداهمْ إلى أن حملوا أوزارهم، أي ذنوبهم «كاملةً» لم يتركوا منها شيء لنكبة أصابتهم في الدنيا بكفرهم. **وقيل**: هي لام الأمر، والمعنى التهدد ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يحملونَ وزرَ منْ أضلوهُ ولا ينقص من إثم المضل شيء. وفي الخبرِ «أيما داعٍ دعا إلى ضلالةٍ فاتبعَ فإنَّ عليهِ مثلُ أوزارِ منِ اتبعهُ من غير أن ينقص من أوزارهم شيء وأيما داعٍ دعا إلى هدى فاتبعَ فلهُ مثلُ أجورهمْ منْ غيرِ أنْ ينقصَ منْ أجورهم شي» خرجه مسلم بمعناه. و ﴿مِنْ﴾ للجنسِ لا للتبعيضِ، فدعاةُ الضلالةِ عليهمْ مثلُ أوزار من اتبعهم. وقوله: بغيرِ علمٍ أيْ يضلونَ الخلقَ جهلًا منهمْ بما يلزمهمْ منَ الآثام، إذْ لوْ علموا لما أضلوا ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥﴾ أيْ بئسَ الوزرُ الذي يحملونهُ. ونظيرُ هذهِ الآيةِ ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أيْ سبقهمْ بالكفرِ أقوامٌ معَ الرسل المتقدمينَ فكانتِ العاقبةُ الجميلةُ للرسل ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ قالَ ابنُ عباسٍ وزيدُ بنُ أسلمَ وغيرهما: إنه النمروذ بنُ كنعانَ وقومهُ، أرادوا صعودَ السماءِ وقتالَ أهلهِ، فبنوا الصرحَ ليصعدوا منهُ بعدَ أنْ صنعَ بالنسورِ ما صنعَ، فخرَّ. ومعنى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم﴾ أيْ أتى أمرهُ البنيانَ، إما زلزلةً أوْ ريحًا فخربتهُ.

والقواعدُ: أصولُ البناءِ، وإذا اختلتِ القواعدُ سقطَ البناءُ. وقولهُ: ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ قالَ ابنُ الأعرابيِّ: وكدَ ليُعلمكَ أنهمْ كانوا حالينَ تحتهُ. والعربُ تقولُ: خرَّ علينا سقفٌ ووقعَ علينا حائطٌ إذا كانَ يملكهُ وإنْ لمْ يكنْ وقعَ عليهِ. فجاءَ بقولهِ: ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ ليخرجَ هذا الشكَّ الذي في كلامِ العربِ فقالَ: ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ أيْ عليهمْ وقعَ وكانوا تحتهُ فهلكوا وما أفلتوا.

وقيل: إنَّ المرادَ بالسقفِ السماءُ، أيْ إنَّ العذابَ أتاهمْ منَ السماءِ التي هيَ فوقهمْ، قالَ ابنُ عباسٍ. وقيل: إنَّ قولهُ: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ تمثيلٌ، والمعنى: أهلكهمْ فكانوا بمنزلةِ منْ سقطَ عليهِ بنيانهُ. وقيل: المعنى أحبطَ اللهُ أعمالهمْ فكانوا بمنزلةِ منْ سقطَ بنيانهُ. وقيل: المعنى أبطلَ مكرهمْ وتدبيرهمْ فهلكوا كما هلكَ منْ نزلَ عليهِ السقفُ منْ فوقهِ. ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أيْ منْ حيثُ ظنوا أنهمْ في أمانٍ. وقالَ ابنُ عباسٍ: يعني البعوضةَ التي أهلكَ اللهُ بها نمرودا.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أيْ يفضحهمْ بالعذابِ ويذلهمْ بهِ ويهينهمْ ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ أيْ بزعمكمْ وفي دعواكمْ، أيِ الآلهةُ التي عبدتمْ دوني، وهوَ سؤالُ توبيخ ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ﴾ أيْ تعادونَ أنبيائي بسببهمْ، فليدفعوا عنكمْ هذا العذاب. وقرأ ابنُ كثيرٍ «شُرَكَايَ» بياءٍ مفتوحةٍ منْ غير همزٍ، والباقون بالهمز. نافعٌ «تُشَاقُّونِ» بكسرِ النونِ على الإضافةِ، أيْ تعادونني فيهمْ. وفتحها الباقونَ.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ الملائكةُ. وقيلَ: المؤمنونَ ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ﴾ أيِ الهوانَ والذلَّ يوم القيامة ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾ أي العذاب. ﴿عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ﴾ هذا منْ صفةِ الكافرينَ. وَ ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ﴾ نصبٌ على الحالِ، أيْ وهمْ ظالمونَ أنفسهمْ إذْ أوردوها مواردَ الهلاكِ ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ أيْ الاستسلامَ. أيْ أقروا للهِ بالربوبيةِ وانقادوا عندَ الموتِ وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ﴾ أيْ منْ شركٍ. فقالتْ لهمُ الملائكةُ: ﴿بَلَىٰٓ ۚ﴾ قدْ كنتمْ تعملونَ الأسواءَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾. وقالَ عكرمةُ: نزلتْ هذهِ الآيةُ بالمدينةِ في قومٍ أسلموا بمكةَ ولمْ يهاجروا، فأخرجتهمْ قريشٌ إلى بدرٍ كرهًا فقتلوا بها، فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ بقبضِ أرواحهمْ ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ﴾ في مقامهمْ بمكةَ وتركهمُ الهجرةَ ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ يعني في خروجهمْ معهمْ. وفيهِ ثلاثة أوجه:

أحدها- أنه الصلح.

الثاني- الاستسلام.

الثالثُ- الخضوعُ.

﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ﴾ يعني منْ كفرٍ ﴿بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٨﴾ يعني أنَّ أعمالهمْ أعمالُ الكفارِ. وقيل: إنَّ بعضَ المسلمينَ لما رأوا قلةَ المؤمنينَ رجعوا إلى المشركينَ، فنزلتْ فيهمْ. وعلى القولِ الأولِ فلا يخرجُ كافرٌ ولا منافقٌ منَ الدنيا حتى ينقادَ ويستسلمَ، ويخضعَ ويذلَّ، ولا تنفعهمْ حينئذٍ توبةٌ ولا إيمانٌ، كما قالَ: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ﴾ وتقدمَ في «الأنفالِ» أنَّ الكفارَ يتوفونَ بالضربِ والهوانِ، وكذلكَ في الأنعام.

قوله تعالى: ﴿فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ أيْ يقالُ لهمْ ذلكَ عندَ الموتِ. وقيل: هوَ بشارةٌ لهمْ بعذابِ القبرِ، إذْ هوَ بابٌ منْ أبوابِ جهنمَ للكافرينَ. وقيل: لا تصلُ أهلُ الدركةِ الثانيةِ إليها مثلًا إلا بدخولِ الدركةِ الأولى ثمَّ الثانيةِ ثمَّ الثالثة هكذا. وقيل: لكل دركة بابٌ مفردٌ، فالبعضُ يدخلونَ منْ بابٍ والبعضُ يدخلونَ منْ بابٍ آخرَ. فاللهُ أعلمُ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ أيْ ماكثينَ فيها ﴿فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى﴾ أيْ مقامُ ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٢٩﴾ الذينَ تكبروا عنِ الإيمانِ وعنْ عبادةِ اللهِ تعالى، وقدْ بينهمْ بقولهِ الحقِّ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿۞وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ﴾ أيْ قالوا: أنزل خيرا، وتم الكلام. و ﴿مَاذَآ﴾ على هذا اسمٌ واحدٌ. وقيل: إنَّ هذا يقالُ لأهلِ الإيمانِ يومَ القيامةِ.

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ﴾ هوَ منْ كلامِ اللهِ عزَّ وجلَّ. وقيل: هوَ منْ جملةِ كلامِ الذينَ اتقوا. والحسنةُ هنا: الجنةُ، أيْ منْ أطاعَ اللهَ فلهُ الجنةُ غدًا، وقيل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ اليومَ حسنةٌ في الدنيا منَ النصرِ والفتحِ والغنيمةِ: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ﴾ أيْ ما ينالونَ في الآخرةِ منْ ثوابِ الجنةِ خيرٌ وأعظمُ منْ دارِ الدنيا، لفنائها وبقاءِ الآخرةِ.

﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ٣٠﴾، فيهِ وجهانِ:

ولنعمَ دارُ المتقينَ الدنيا، لأنهمْ نالوا بالعملِ فيها ثوابَ الآخرةِ ودخولَ الجنةِ.

وقيل: المعنى ولنعمَ دارُ المتقينَ الآخرةُ، وهذا قولُ الجمهورِ. وعلى هذا تكونُ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بدلًا منَ الدارِ فلذلكَ ارتفعَ. وقيل: ارتفعَ على تقديرِ هيَ جناتٌ، فهيَ مبينةٌ لقولهِ: ﴿دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾. أوْ تكونُ مرفوعةٌ بالابتداءِ، التقديرُ: جناتُ عدنٍ نعمَ دارُ المتقينَ.

﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ في موضعِ الصفةِ، أيْ مدخولةٌ. وقيل: ﴿جَنَّٰتُ﴾ رفعَ بالابتداءِ، وخبرهُ ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ وعليهِ يخرجُ قولُ الحسن. والله أعلم.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ تقدم معناه في البقرة ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ أيْ مما تمنوهُ وأرادوهُ ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ٣١﴾ أيْ مثلُ هذا الجزاءِ يجزي اللهُ المتقينَ.

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ قرأ حمزةُ «يَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ» في الموضعينِ بالياءِ، الباقونَ بالتاءِ، لأنَّ المرادَ به الجماعة من الملائكة. و ﴿طَيِّبِينَ﴾ فيه ستة أقوال:

الأول: طاهرينَ منَ الشركِ. **الثاني**- صالحينَ. **الثالثُ**- زاكيةٌ أفعالهمْ وأقوالهمْ. **الرابعُ**- طيبينَ الأنفسِ ثقةً بما يلقونهُ منْ ثوابِ اللهِ تعالى. **الخامسُ**- طيبةٌ نفوسهمْ بالرجوعِ إلى اللهِ. **السادسُ**- ﴿طَيِّبِينَ﴾ أنْ تكونَ وفاتهمْ طيبةً سهلةً لا صعوبةَ فيها ولا ألمَ، بخلافِ ما تقبضُ بهِ روحُ الكافرِ والمخلطِ. واللهُ أعلمُ.

﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ يحتملُ وجهينِ:

أحدهما- أنْ يكونَ السلامُ إنذارًا لهمْ بالوفاةِ.

الثاني- أنْ يكونَ تبشيرًا لهمْ بالجنةِ، لأنَّ السلامَ أمانٌ.

وقولهُ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ يحتملُ وجهينِ:

أحدهما- أنْ يكونَ معناهُ أبشروا بدخولِ الجنةِ.

الثاني- أنْ يقولوا ذلكَ لهمْ في الآخرةِ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الصالحات.

قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ هذا راجعٌ إلى الكفارِ، أيْ ما ينتظرونَ إلا أنْ تأتيهمُ الملائكةُ لقبضِ أرواحهمْ وهمْ ظالمونَ لأنفسهمْ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ «يَأْتِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ» بالياءِ. والباقونَ بالتاءِ على ما تقدم.

﴿أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ﴾ أيْ بالعذابِ منَ القتلِ كيومِ بدرٍ، أوِ الزلزلةِ والخسفِ في الدنيا. وقيل: المرادُ يومُ القيامةِ. والقومُ لمْ ينتظروا هذهِ الأشياءَ لأنهمْ ما آمنوا بها، ولكنَّ امتناعهمْ عنِ الإيمانِ أوجبَ عليهمُ العذابَ، فأضيفَ ذلك إليهم، أي عاقبتهم العذاب ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ أيْ أصروا على الكفر فأتاهم أمر الله فهلكوا. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي بتعذيبهم وإهلاكهم، ولكن ظلموا أنفسهم بالشرك.

قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ قيلَ: فيهِ تقديمٌ وتأخيرٌ، التقديرُ: كذلكَ فعلَ الذينَ منْ قبلهمْ فأصابهمْ سيئاتُ ما عملوا، وما ظلمهمُ اللهُ ولكنْ كانوا أنفسهمْ يظلمونَ، فأصابهمْ عقوبات كفرهم جزاء الخبيثِ منْ أعمالهمْ ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أيْ أحاطَ بهم ودار.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ أيْ شيئًا، وَ ﴿مِن﴾ صلةٌ. قالوهُ استهزاءً، ولوْ قالوهُ عنِ اعتقاد لكانوا مؤمنين ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ أيْ مثلَ هذا التكذيبِ والاستهزاءِ فعلَ منْ كانَ قبلهمْ بالرسلِ فأهلكوا ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾ أيْ ليسَ عليهمْ إلا التبليغُ، وأما الهداية فهي إلى الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أيْ بأنِ اعبدوا اللهَ ووحدوهُ ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ أيِ اتركوا كلَّ معبودٍ دونَ اللهِ كالشيطانِ والكاهنِ والصنمِ، وكلَّ منْ دعا إلى الضلالِ. ﴿فمنهمْ منْ هدى اللهُ﴾ أي أرشده إلى دينه وعبادته ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ أيْ بالقضاءِ السابقِ عليهِ حتى ماتَ على كفرِهِ، وهذا يردُّ على القدريةِ، لأنهمْ زعموا أنَّ اللهَ هدى الناسَ كلهمْ ووفقهمْ للهدى، واللهُ تعالى يقولُ: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾. ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ معتبرينَ ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦﴾ كيفَ صارَ آخرُ أمرهمْ إلى الخرابِ والعذابِ والهلاك.

قوله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾ أيْ إنْ تطلبْ يا محمدُ بجهدكَ هداهمْ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ أيْ لا يرشدُ منْ أضلهُ، أيْ منْ سبقَ لهُ منَ اللهِ الضلالةُ لمْ يهدهِ.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ٣٧﴾ تقدمَ معناهُ.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ هذا تعجيبٌ منْ صنعهمْ، إذْ أقسموا باللهِ وبالغوا في تغليظِ اليمينِ بأنَّ اللهَ لا يبعثُ منْ يموتُ. ووجهُ التعجيبِ أنهمْ يظهرونَ تعظيمَ اللهِ فيقسمونَ بهِ ثمَّ يعجزونهُ عنْ بعثِ الأمواتِ ﴿بَلَىٰ﴾ هذا ردٌّ عليهمْ، أيْ بلى ليبعثنهمْ ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ مصدرٌ مؤكدٌ، لأنَّ قولهُ ﴿يَبْعَثُهُمُ﴾ يدلُّ على الوعدِ، أيْ وعدَ البعثَ وعدًا حقًا ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٣٨﴾ أنهمْ مبعوثونَ. وفي البخاريِّ عنْ أبي هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ: «قالَ اللهُ تعالى كذبني ابنُ آدمَ ولمْ يكنْ لهُ ذلكَ وشتمني ولمْ يكنْ لهُ ذلكَ فأما تكذيبهُ إيايَ فقولهُ لنْ يعيدني كما بدأني وأما شتمهُ إيايَ فقولهُ اتخذَ اللهُ ولدًا وأنا الأحدُ الصمدُ لمْ يلدْ ولمْ يولدْ ولمْ يكنْ لهُ كفوًا أحدٌ. وقد تقدم، ويأتي.

قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أيْ ليظهرَ لهمْ ﴿ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أيْ منْ أمرِ البعثِ ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ بالبعثِ وأقسموا عليهِ ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ٣٩﴾.

والذي اختلفَ فيهِ المشركونَ والمسلمونَ أمورٌ: منها البعثُ، ومنها عبادةُ الأصنامِ، ومنها إقرارُ قومٍ بأنَّ محمدًا حقٌّ ولكنْ منعهمْ منَ اتباعهِ التقليدُ، كأبي طالبٍ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠﴾.

أعلمهمْ سهولةَ الخلقِ عليهِ، قراءةُ ابنِ عامرٍ والكسائيُّ «فَيَكُونَ» نصبًا عطفًا على أنْ نقولَ. وقالَ الزجاجُ: يجوزُ أنْ يكونَ نصبًا على جوابِ ﴿كُنْ﴾. الباقونَ بالرفعِ على معنى فهوَ يكونُ.

وفي الآيةِ دليلٌ على أنَّ القرآنَ غيرُ مخلوقٍ، لأنهُ لوْ كانَ قولهُ: ﴿كُن﴾ مخلوقًا لاحتاجَ إلى قولٍ ثانٍ، والثاني إلى ثالثٍ وتسلسلَ وكانَ محالًا. وفيها دليلٌ على أنَّ اللهَ سبحانهُ مريدٌ لجميعِ الحوادثِ كلها خيرها وشرها نفعها وضرها، والدليلُ على ذلكَ أنَّ منْ يرى في

سلطانهِ ما يكرههُ ولا يريدهُ فلأحدِ شيئينِ: إما لكونهِ جاهلًا لا يدري، وإما لكونهِ مغلوبًا لا يطيقُ، ولا يجوزُ ذلكَ في وصفهِ سبحانهُ، وقدْ قامَ الدليلُ على أنهُ خالقٌ لاكتسابِ العبادِ، ويستحيلُ أنْ يكونَ فاعلًا لشيءٍ وهوَ غيرُ مريدٍ لهُ، لأنَّ أكثرَ أفعالنا يحصلُ على خلافِ مقصودنا وإرادتنا، فلوْ لمْ يكنِ الحقُّ سبحانهُ مريدًا لها لكانتْ تلكَ الأفعالُ تحصلُ منْ غيرِ قصدٍ، وهذا قولُ الطبيعيينَ، وقد أجمع الموحدون على خلافه وفساده.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ الهجرة هي تركُ الأوطانِ والأهلِ والقرابةِ في اللهِ أوْ في دينِ اللهِ، وتركُ السيئاتِ. وقيل: ﴿فِي﴾ بمعنى اللامِ، أيْ للهِ ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ أيْ عذبوا في اللهِ، والمرادُ أصحابُ محمدٍ ﷺ، ظلمهمُ المشركونَ بمكةَ وأخرجوهمْ حتى لحقَ طائفةٌ منهمْ بالحبشةِ، ثمَّ بوأهمُ اللهُ تعالى دارَ الهجرةِ وجعلَ لهمْ أنصارًا منَ المؤمنينَ ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾ في الحسنةِ ستةُ أقوالٍ:

الأولُ- نزولُ المدينة.

الثاني- الرزقُ الحسنُ.

الثالثُ- النصرُ على عدوهمْ.

الرابعُ- إنهُ لسانُ صدقٍ.

الخامسُ- ما استولوا عليهِ منْ فتوحِ البلادِ وصارَ لهمْ فيها منَ الولاياتِ.

السادسُ: ما بقيَ لهمْ في الدنيا منَ الثناءِ، وما صارَ فيها لأولادهمْ منَ الشرفِ. وكلُّ ذلكَ اجتمعَ لهمْ بفضلِ اللهِ، والحمدُ للهِ.

﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾ أيْ ولأجرُ دارِ الآخرةِ أكبرُ، أيْ أكبرُ منْ أنْ يعلمهُ أحدٌ قبلَ أنْ يشاهدهُ، ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا﴾.

﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ أيْ لوْ كانَ هؤلاءِ الظالمونَ يعلمونَ ذلكَ. قيل: هوَ راجعٌ إلى

المؤمنينَ. أيْ لوْ رأوا ثوابَ الآخرةِ وعاينوهُ لعلموا أنهُ أكبرُ منْ حسنةِ الدنيا. وروِيَ أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كانَ إذا دفعَ إلى المهاجرينَ العطاءَ قالَ: هذا ما وعدكمُ اللهُ في الدنيا وما ادخرَ لكمْ في الآخرةِ أكثر، ثم تلا عليهم هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٤٢﴾.

قيلَ: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدلٌ منَ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الأولِ. وقيل: منَ الضميرِ في ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ وقيل: همُ الذينَ صبروا على دينهمْ ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في كلِّ أمورهمْ. وقالَ بعضُ أهلِ التحقيقِ: خيارُ الخلقِ منْ إذا نابهُ أمرٌ صبرَ، وإذا عجزَ عنْ أمرٍ توكلَ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ قراءةُ العامةِ «يُوحَى» بالياءِ وفتحِ الحاءِ. وقرأ حفصٌ عنْ عاصمٍ ﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ بنونِ العظمةِ وكسرِ الحاءِ نزلتْ في مشركي مكةَ حيثُ أنكروا نبوةَ محمدٍ ﷺ وقالوا: اللهَ أعظمُ منْ أنْ يكونَ رسولهُ بشرًا، فهلا بعثَ إلينا ملكًا، فردَّ اللهُ تعالى عليهمْ بقولهِ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ إلى الأممِ الماضيةِ يا محمدُ ﴿إِلَّا رِجَالٗا﴾ آدميين ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ قالَ سفيانُ: يعني مؤمني أهلِ الكتاب ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾ يخبرونكمْ أنَّ جميعَ الأنبياء كانوا بشرا.

وقيل: أهلُ الذكرِ أهلُ القرآنِ وقيل: أهل العلم، والمعنى متقارب ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ﴾ قيل: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ متعلق ب ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾. وفي الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، أيْ ما أرسلنا منْ قبلكَ بالبيناتِ والزبرِ إلا رجالًا - أيْ غير رجال، ف ﴿إِلَّا﴾ بمعنى غيرٍ، كقولهِ: لا إلهَ إلا اللهُ. وقيل: في الكلامِ حذفٌ دلَّ عليهِ ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾ أيْ أرسلناهمْ بالبينات والزبر. ولا يتعلق ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ ب ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾ الأولِ على هذا القولِ، لأنَّ ما قبلَ ﴿إِلَّا﴾ لا يعملُ فيما بعدها، وإنما يتعلقُ بأرسلنا المقدرةِ، أيْ أرسلناهمْ بالبيناتِ. وقيل: مفعولٌ بِ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ والباءُ زائدةٌ، أوْ نصبَ بإضمارِ أعني.

والزبرُ: الكتبُ ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ﴾ يعني القرآنَ ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ في

هذا الكتابِ منَ الأحكامِ والوعدِ والوعيدِ بقولكَ وفعلكَ، فالرسولُ ﷺ مبينٌ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ مرادهُ مما أجملهُ في كتابهِ منْ أحكامِ الصلاةِ والزكاةِ، وغيرِ ذلكَ مما لمْ يفصلهُ ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ فيتعظون.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أيْ بالسيئاتِ، وهذا وعيدٌ للمشركينَ الذينَ احتالوا في إبطالِ الإسلام ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما خسفَ بقارونَ، يقالُ: خسفَ المكانُ يخسفُ خسوفًا ذهبَ في الأرضِ، وخسفَ اللهُ بهِ الأرضَ خسوفًا أيْ غابَ بهِ فيها، ومنهُ قولهُ: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾، والاستفهامُ بمعنى الإنكارِ، أيْ يجبُ ألا يأمنوا عقوبةً تلحقهمْ كما لحقتِ المكذبينَ ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝٤٥﴾ كما فعلَ بقومِ لوطٍ وغيرهمْ. وقيل: يريدُ يومَ بدرٍ، فإنهمْ أهلكوا ذلكَ اليومَ، ولمْ يكنْ شيء منهُ في حسابهمْ ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾ أي في أسفارهم وتصرفهم ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ۝٤٦﴾ أي سابقين لله ولا فائتيه. وقيل: ﴿فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾ على فراشهمْ أينما كانوا. وقيل: بالليل والنهار ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أي على تنقص من أموالهم ومواشيهمْ وزروعهمْ، وقيل: هوَ منَ الخوفِ، المعنى: يأخذُ طائفةً ويدعُ طائفةً، فتخافُ الباقيةُ أنْ ينزلَ بها ما نزلَ بصاحبتها ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٤٧﴾ أي لا يعاجل بل يمهل.

قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ۝٤٨﴾.

قرأَ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ «تَرَوْا» بالتاءِ، على أنَّ الخطابَ لجميعِ الناسِ. الباقونَ بالياءِ خبرًا عنِ الذينَ يمكرونَ السيئاتِ، وهو الاختيار ﴿مِن شَيْءٍ﴾ يعني منْ جسمٍ قائمٍ لهُ ظلٌّ منْ شجرةٍ أوْ جبلٍ، وإنْ كانتِ الأشياءُ كلها سميعةً مطيعةً لله تعالى ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾ قرأَ أبو عمرو ويعقوبُ وغيرهما بالتاءِ لتأنيثِ الظلالِ. الباقونَ بالياءِ، أيْ يميلُ منْ جانبٍ إلى جانبٍ، ويكونُ أولَ النهارِ على حالٍ ويتقلصُ ثمَّ يعودُ في آخرِ النهارِ على حالةٍ أخرى، فدورانها وميلانها منْ موضعٍ إلى موضعِ سجودها، ومنهُ قيل للظل بالعشي: فيء، لأنهُ فاءَ منَ المغربِ إلى المشرقِ، أيْ رجع. والفيءُ الرجوع، ومنه: ﴿حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، ومعنى

﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ ۝٤٨﴾ أيْ خاضعونَ صاغرونَ، والدخورُ: الصغارُ والذل، يقال: دخَر الرجلُ «بالفتحِ» فهوَ داخرٌ، وأدخرهُ اللهُ.

ووحَّدَ اليمينَ في قولهِ: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ وجمعَ الشمالَ، لأنَّ معنى اليمينِ وإنْ كانَ واحدًا الجمع. ولو قال: عن الأيمان والشمائل، أو الأيمان والشمال، أو اليمين والشمالِ لجازَ، لأنَّ المعنى للكثرةِ. وأيضًا فمنْ شأن العرب إذا اجتمعت علامتان في شيء واحدٍ أنْ تجمعَ إحداهما وتفردَ الأخرى، كقوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ ولوْ قالَ على أسماعهمْ وإلى الأنوارِ لجازَ. ويجوزُ أنْ يكونَ ردَّ اليمينَ على لفظِ ﴿مَا﴾ والشمائل على معناها.

قولهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ أيْ منْ كلِّ ما يدبُّ على الأرضِ ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يعني الملائكةَ الذينَ في الأرضِ، وإنما أفردهمْ بالذكرِ لاختصاصهم بشرفِ المنزلةِ، فميزهمْ منْ صفةِ الدبيبِ بالذكرِ وإنْ دخلوا فيها، كقولهِ: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾. وقيل: لخروجهمْ منْ جملةِ ما يدبُّ لما جعلَ اللهُ لهمْ منَ الأجنحةِ، فلمْ يدخلوا في الجملةِ فلذلكَ ذكروا. وقيل: أرادَ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ منَ الملائكةِ والشمسِ والقمرِ والنجومِ والرياحِ والسحاب ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ وتسجدُ ملائكةُ الأرضِ ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عنْ عبادةِ ربهمْ. وهذا ردٌّ على قريشٍ حيثُ زعموا أنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ. ومعنى ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ أيْ عقابَ ربهمْ وعذابهُ، لأنَّ العذابَ المهلكَ إنما ينزلُ منَ السماءِ. وقيل: المعنى يخافونَ قدرةَ ربهمُ التي هيَ فوقَ قدرتهمْ، ففي الكلامِ حذفٌ. وقيل: معنى ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ يعني الملائكةَ، يخافونَ ربهمْ وهيَ منْ فوقِ ما في الأرضِ منْ دابةٍ ومعَ ذلكَ يخافونَ، فلأنْ يخافَ منْ دونهمْ أولى، دليلُ هذا القولِ قوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ يعنى الملائكة.

قوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ قيلَ: المعنى لا تتخذوا اثنينِ إلهينِ. وقيل: جاءَ قولهُ: «اثنينِ» توكيدًا. ولما كانَ الإلهُ الحقُّ لا يتعددُ وأنَّ كلَّ منْ يتعددُ فليسَ بإلهٍ، اقتصرَ على ذكرِ الاثنينِ، لأنهُ قصدَ نفي التعدد ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ يعني ذاتهُ

المقدسةَ. وقدْ قامَ الدليلُ العقليُّ والشرعيُّ على وحدانيتهِ ﴿فَإِيَّىَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١﴾ أيْ خافونِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾ الدين: الطاعة والإخلاص. و ﴿وَاصِبًاۚ﴾ معناه دائما، وصبَ الشيءُ يصبُ وصوبًا، أيْ دامَ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ﴾ أي دائم.

وقيل: الوصبُ التعبُ والإعياءُ، أيْ تجبُ طاعةُ اللهِ وإنْ تعبَ العبدُ فيها. وقيل: ﴿وَاصِبًاۚ﴾ واجبًا. وقيل: خالصًا ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ٥٢﴾ أيْ لا ينبغي أنْ تتقوا غيرَ اللهِ. «فغيرَ» نصب ب ﴿تَتَّقُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ قالَ الفراءُ. ﴿مَا﴾ بمعنى الجزاءِ. والباءُ في ﴿بِكُمْ﴾ متعلقةٌ بفعلِ مضمرٍ، تقديرهُ: وما يكنْ بكمْ. ﴿مِن نِّعۡمَةٍ﴾ أيْ صحةِ جسمٍ وسعةِ رزقٍ وولدٍ فمنَ اللهِ. وقيل: المعنى وما بكمْ منْ نعمةٍ فمنَ الله هي ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ أي السقم والبلاء والقحط. فإليهِ تجئرونَ أيْ تضجونَ بالدعاءِ. يقالُ: جأرَ يجأرُ جؤارًا. والجؤارُ مثلُ الخوارِ، وقرأ بعضهمْ: «عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ جُؤَارٞ».

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ﴾ أي البلاءَ والسقمَ ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤﴾ بعدَ إزالةِ البلاءِ وبعدَ الجؤارِ. فمعنى الكلامِ التعجيبُ منَ الإشراكِ بعدَ النجاةِ منَ الهلاكِ، وهذا المعنى مكررٌ في القرآنِ.

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ أيْ ليجحدوا نعمةَ اللهِ التي أنعمَ بها عليهمْ منْ كشفِ الضرِّ والبلاءِ. أيْ أشركوا ليجحدوا، فاللامُ لامُ كيْ. وقيلَ: لامُ العاقبةِ. وقيل: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ أيْ ليجعلوا النعمةَ سببًا للكفرِ، وكلُّ هذا فعلٌ خبيثٌ ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ أمرُ تهديدٍ ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٥٥﴾ أي عاقبة أمركم.

قوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ﴾ ذكرَ نوعًا آخرَ منْ جهالتهمْ، وأنهمْ يجعلونَ لما لا يعلمونَ أنهُ يضرُّ وينفعُ - وهيَ الأصنامُ - شيئًا من أموالهم يتقربون به إليه، فَـ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ على هذا للمشركين. وقيل هي للأوثانِ، وجرى بالواوِ

والنونِ مجرى منْ يعقلُ، فهوَ ردٌّ على ﴿مَا﴾ ومفعولُ يعلمُ محذوفٌ والتقدير: ويجعل هؤلاء الكفار للأصنام التي لا تعلمُ شيئًا نصيبًا. وقدْ مضى في «الأنعام» تفسيرُ هذا المعنى في قولِهِ: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾ ثم رجعَ منَ الخبرِ إلى الخطابِ فقالَ: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ﴾ وهذا سؤالُ توبيخٍ ﴿عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ٥٦﴾ أيْ تختلقونهُ منَ الكذبِ على اللهِ أنهُ أمركم بهذا.

قوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ﴾ زعموا أنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ نزهَ نفسهُ وعظمها عما نسبوهُ إليهِ منَ اتخاذِ الأولادِ ﴿وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ٥٧﴾ أيْ يجعلونَ لأنفسهمُ البنينَ ويأنفونَ منَ البناتِ. وموضعُ ﴿مَا﴾ رفعٌ بالابتداءِ، والخبرُ ﴿لَهُمۡ﴾ وتمَّ الكلامُ عندَ قولهِ: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ﴾ أيْ أخبرَ أحدهمْ بولادةِ بنتٍ ﴿ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا﴾ كنايةٌ عنْ غمهِ بالبنتِ ﴿وَهُوَ كَظِيمٞ ٥٨﴾ أيْ ممتلئٌ منَ الغمِّ، وقيل: حزينٌ.

قوله تعالى: ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ﴾ أيْ يختفي ويتغيبُ ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ﴾ أيْ منْ سوءِ الحزنِ والعارِ والحياءِ الذي يلحقهُ بسببِ البنتِ ﴿أَيُمۡسِكُهُۥ﴾ ذكرَ الكنايةَ لأنهُ مردودٌ على ﴿مَا﴾ ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ أيْ هوانٍ. وقيل: يرجعُ الهوانُ إلى البنتِ، أيْ أيمسكها وهيَ مهانةٌ عندهُ. وقيل: يرجعُ إلى المولودِ لهُ، أيمسكهُ على رغمِ أنفهِ أمْ يدسهُ في الترابِ، وهوَ ما كانوا يفعلونهُ منْ دفنِ البنتِ حيةً.

وقيل: دسها إخفاؤها عنِ الناسِ حتى لا تعرفَ، كالمدسوسِ في الترابِ لإخفائهِ عنِ الأبصارِ، وهذا محتملٌ.

مسألةٌ- ثبتَ في صحيحِ مسلمٌ عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: جاءتني امرأةٌ ومعها ابنتانِ لها، فسألتني فلمْ تجدْ عندي غيرَ تمرةٍ واحدةٍ، فأعطيتها إياها فأخذتها فقسمتها بينَ ابنتيها ولمْ تأكلْ منها شيئًا، ثمَّ قامتْ فخرجتْ وابنتاها، فدخلَ عليَّ النبيُّ ﷺ فحدثته حديثها، فقالَ النبيُّ ﷺ: «منْ ابتليَ منَ البناتِ بشيءٍ فأحسنَ إليهنَّ كنَّ لهُ سترًا منَ النارِ». ففي هذا الحديثِ ما يدلُّ على أنَّ البناتِ بليةٌ، ثمَّ أخبرَ أنَّ في الصبرِ عليهنَّ والإحسانِ إليهنَّ ما يقي منَ النارِ.

وعنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالتْ: جاءتني مسكينةٌ تحملُ ابنتينِ لها، فأطعمتها ثلاثَ تمراتٍ فأعطتْ كلَّ واحدةٍ منهما تمرةً، ورفعتْ إلى فيها تمرةً لتأكلها فاستطعمتها ابنتاها فشقتِ التمرةَ التي كانتْ تريدُ أنْ تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرتُ الذي صنعتْ لرسولِ اللهِ ﷺ فقالَ: «إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قدْ أوجبَ لها بها الجنةَ أوْ أعتقها بها منَ النارِ». وعنْ أنسِ بنِ مالكٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «منْ عالَ جاريتينِ حتى تبلغا جاءَ يومَ القيامةِ أنا وهوَ» وضمَّ أصابعهُ، خرجهما أيضًا مسلمٌ رحمهُ اللهُ.

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أيْ في إضافةِ البناتِ إلى خالقهمْ وإضافةِ البنينَ إليهمْ. نظيرهُ: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ أي جائرة.

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أيْ لهؤلاءِ الواصفينَ للهِ البناتِ ﴿مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ أيْ صفةُ السوءِ منَ الجهلِ والكفرِ. وقيل: هوَ وصفهمُ اللهُ تعالى بالصاحبةِ والولدِ. وقيل: أيِ العذابُ والنارُ ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ أيِ الوصفُ الأعلى منَ الإخلاصِ والتوحيدِ، وقيل: أيِ الصفةُ العليا بأنهُ خالقٌ رازقٌ قادرٌ ومجازٍ. وقالَ ابنُ عباسٍ: ﴿مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ النارُ، وَ ﴿ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ شهادةُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ. وقيل: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾. وقيل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ كقولهِ: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾.

فإنْ قيل: كيفَ أضافَ المثلَ هنا إلى نفسهِ وقدْ قالَ: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾ فالجوابُ: أنَّ قولهُ: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾ أيِ الأمثالَ التي توجبُ الأشباهَ والنقائصَ، أيْ لا تضربوا للهِ مثلًا يقتضي نقصًا وتشبيهًا بالخلقِ. والمثلُ الأعلى وصفهُ بما لا شبيهَ لهُ ولا نظيرَ، جلَّ وتعالى عما يقولُ الظالمونَ والجاحدونَ علوًا كبيرًا ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ تقدم معناه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم﴾ أيْ بكفرهمْ وافترائهمْ، وعاجلهمْ ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا﴾ أيْ على الأرضِ، فهوَ كنايةٌ عنْ غيرِ مذكورٍ، لكنْ دلَّ عليهِ قولهُ: ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾ فإنَّ الدابةَ لا تدبُّ إلا على الأرضِ. والمعنى المرادُ منْ دابةٍ كافرةٍ فهوَ خاصٌّ. وقيل: المعنى أنهُ لوْ أهلكَ الآباءَ بكفرهمْ لمْ تكنِ الأبناءُ. وقيل: المرادُ بالآيةِ العمومُ، أيْ لوْ أخذَ اللهُ الخلقَ

بما كسبوا ما ترك على ظهرِ هذهِ الأرضِ منْ دابةٍ منْ نبيٍّ ولا غيرهِ، ولكنَّ اللهَ يأخذ بالعفو والفضل، كما قال: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ أيْ أجلِ موتهمْ ومنتهى أعمارهم ﴿لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٦١﴾ وقد تقدم، فإن قيل: فكيفَ يعمُّ بالهلاكِ معَ أنَّ فيهمْ مؤمنًا ليسَ بظالمٍ؟ قيلَ: يجعلُ هلاكُ الظالمِ انتقامًا وجزاءً، وهلاكُ المؤمنِ معوضًا بثوابِ الآخرةِ.

وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ ابنِ عمرَ قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إذا أرادَ اللهُ بقومٍ عذابًا أصابَ العذابُ منْ كانَ فيهمْ ثمَّ بعثوا على نياتهمْ». وعنْ أمِّ سلمةَ وسئلتْ عنِ الجيشِ الذي يخسفُ بهِ وكانَ ذلكَ في أيامِ ابنِ الزبيرِ، فقالتْ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «يعوذُ بالبيتِ عائذٌ فيبعثُ إليهِ بعثٌ فإذا كانوا ببيداءَ منَ الأرضِ خُسفَ بهمْ» فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، فكيفَ بمنْ كانَ كارهًا؟ قالَ: «يخسفُ بهِ معهمْ ولكنهُ يبعثُ يومَ القيامةِ على نيتهِ».

وقيل: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ أيْ فإذا جاءَ يوم القيامة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ﴾ أيْ منَ البناتِ ﴿وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ هو قولهمْ إنَّ لهمُ البنينَ وللهِ البناتِ. ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾ مفعول ﴿تَصِفُ﴾ و ﴿أَنَّ﴾ في محلِّ نصبٍ بدلٌ منَ الكذبِ، لأنهُ بيان له. وقيل: ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۖ﴾ الجزاء الحسن ﴿لَا﴾ رد لقولهم، وتم الكلام، أي ليس كما تزعمون ﴿جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي حقا أن لهم النار ﴿وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ ٦٢﴾ متركونَ منسيونَ في النارِ، وقيل: مبعدونَ. وقيل: معجلونَ إلى النارِ مقدمونَ إليها. والفارطُ: الذي يتقدمُ إلى الماءِ، ومنهُ قولُ النبيِّ ﷺ: «أنا فرطكمْ على الحوضِ» أيْ متقدمكمْ.

وقرأ نافعٌ في روايةِ ورشٍ «مُفْرِطُونَ» بكسرِ الراءِ وتخفيفها، ومعناهُ مسرفونَ في الذنوبِ والمعصيةِ، أيْ أفرطوا فيها. يقالُ: أفرطَ فلانٌ على فلانٍ إذا أربى عليهِ.

قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أيْ الخبيثةَ. وهذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ بأنَّ منْ تقدمهُ منَ الأنبياءِ قدْ كفرَ بهمْ قومهمْ ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي ناصرهم في الدنيا على زعمهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ في الآخرة.

وقيل: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ أيْ قرينهمْ في النارِ. ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يعني يومَ القيامةِ، وأطلقَ عليهِ اسمَ اليومِ لشهرتهِ. وقيل: يقالُ لهمْ يومَ القيامةِ: هذا وليكلم فاستنصروا بهِ لينجيكمْ منَ العذابِ، على جهةِ التوبيخ لهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أيِ القرآنَ ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ منَ الدينِ والأحكامِ فتقومُ الحجةُ عليهمْ ببيانكَ وعطفك ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ على موضعِ قولهِ: ﴿لِتُبَيِّنَ﴾ لأنَّ محلهُ نصبٌ. ومجازُ الكلامِ: وما أنزلنا عليكَ الكتاب إلا تبيانا للناس ﴿وَهُدًى﴾ أي رشدا ﴿وَرَحْمَةً﴾ للمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أيِ السحابِ ﴿مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ عادَ الكلامُ إلى تعدادِ النعمِ وبيان كمال القدرة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي دلالة على البعث وعلى وحدانيتهِ، إذْ علموا أنَّ معبودهمْ لا يستطيعُ شيئا، فتكون هذه الدلالة ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾﴾ عنِ اللهِ تعالى بالقلوبِ لا بالآذانِ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾، فيهِ عشرُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ﴾ وهيَ هنا الأصنافُ الأربعةُ: الإبلُ والبقرُ والضأنُ والمعزُ. ﴿لَعِبْرَةً﴾ أيْ دلالةً على قدرةِ اللهِ ووحدانيتهِ وعظمتهِ. والعبرةُ أصلها تمثيلُ الشيءِ بالشيءِ لتعرفَ حقيقتهُ منْ طريقِ المشاكلةِ، ومنهُ ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟﴾ كيف تسخيرها لأربابها وطاعتها لهمْ، وتمردكَ على ربك وخلافك له في كل شيء. ومن أعظم العبر بريئ يحملُ مذنبًا.

الثانية: قوله تعالى: ﴿نُّسۡقِيكُم﴾ قراءةُ أهلِ المدينةِ وابنِ عامرٍ وعاصمٍ في روايةِ أبي بكرٍ «بفتحِ النونِ» منْ سقى يسقي. وقرأ الباقونَ وحفصٌ عنْ عاصمٍ «بضمِّ النونِ» منْ أسقى يسقي، وهيَ قراءةُ الكوفيينَ وأهلِ مكةَ. قيلَ: هما لغتانِ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ اختلفَ الناسُ في الضميرِ منْ قولهِ: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ على ماذا يعودُ. فقيلَ: هوَ عائدٌ إلى ما قبلهُ وهوَ جمعُ المؤنثِ. قالَ سيبويهِ: العربُ تخبرُ عنِ الأنعام بخبرِ الواحدِ، وقيل: لما كانَ لفظُ الجمعِ وهوَ اسمُ الجنسِ يذكرُ ويؤنثُ فيقالُ: هوَ الأنعام وهيَ الأنعام، جازَ عود الضمير بالتذكير، وقيل: معناهُ مما في بطونِ ما ذكرناهُ، فهوَ عائدٌ على المذكورِ، وقدْ قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢﴾ وقيل: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ أيْ مما في بطونِ بعضهِ، إذِ الذكورُ لا ألبانَ لها، وقيل: الأنعام والنعمُ واحدٌ، والنعمُ يذكرُ، ولهذا تقولُ العربُ: هذا نعمٌ واردٌ، فرجعَ الضميرُ إلى لفظِ النعمِ الذي هوَ بمعنى الأنعام.

الرابعة: استنبط بعضُ العلماءِ الجلةِ منْ عودِ هذا الضميرِ، أنَّ لبنَ الفحلِ يفيدُ التحريم، وقال: إنما جيءَ بهِ مذكرًا لأنهُ راجعٌ إلى ذكرِ النعمِ، لأنَّ اللبنَ للذكرِ محسوبٌ، ولذلكَ قضى النبيُّ ﷺ بأنَّ لبنَ الفحلِ يحرم حين أنكرته عائشة رضى الله عنها في حديثِ أفلحَ أخي أبي القعيسِ، فللمرأةِ السقيُ وللرجلِ اللقاحُ فجرى الاشتراكُ فيهِ بينهما.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا﴾ نبهَ سبحانهُ على عظيمِ قدرتهِ بخروجِ اللبنِ خالصًا بينَ الفرثِ والدم. والفرثُ: الزبلُ الذي ينزلُ إلى الكرشِ، فإذا خرجَ لمْ يسمَّ فرثًا. ﴿خَالِصٗا﴾ بياضهُ، يريدُ منْ حمرةِ الدمِ وقذارةِ الفرثِ وقدْ جمعهما وعاءٌ واحدٌ.

السادسة: قيل في هذا دليلٌ على أنَّ المنيَّ ليسَ بنجسٍ. فكما يخرجُ اللبنُ منْ بينِ الفرثِ والدم سائغًا خالصًا كذلكَ يجوزُ أنْ يخرجَ المنيُّ على مخرجِ البولِ طاهرًا، وقدْ قالَ تعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾، وقالَ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ﴾ وهذا غايةٌ في الامتنانِ.

فإن قيل: إنهُ يتنجسُ بخروجهِ في مجرى البولِ، قلنا: هوَ ما أردناه، فالنجاسةُ عارضةٌ وأصلهُ طاهرٌ، وقدْ قيلَ: إنَّ مخرجهُ غيرُ مخرجِ البولِ وخاصةً المرأةَ، فإنَّ مدخلَ الذكرِ منها ومخرجَ الولدِ غيرُ مخرجِ البولِ على ما قاله العلماء.

فإن قيل: أصلهُ دمٌ فهوَ نجسٌ، قلنا: ينتقضُ بالمسكِ، فإنَّ أصلهُ دمٌ وهوَ طاهرٌ.

وممنْ قالَ بطهارتهِ الشافعيُّ وأحمدُ لحديثِ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالتْ: كنتُ أفركهُ منْ ثوبِ رسولِ اللهِ ﷺ يابسًا بظفري. قالَ الشافعيُّ: فإنْ لمْ يفركْ فلا بأسَ بهِ. وقالَ ابنُ عباسٍ: هوَ كالنخامةِ أمطهُ عنكَ بإذخرةٍ وامسحهُ بخرقةٍ.

فإن قيل: فقدْ ثبتَ عنْ عائشةَ أنها قالتْ: كنتُ أغسلُ المنيَّ منْ ثوبِ رسولِ اللهِ ﷺ ثمَّ يخرجُ إلى الصلاةِ في ذلكَ الثوبِ وأنا أنظرُ إلى أثرِ الغسلِ فيهِ. قلنا: يحتملُ أنْ تكونَ غسلتهُ استقذارًا كالأشياءِ التي تزال من الثوب لا لنجاسة، ويكونُ هذا جمعًا بينَ الأحاديثِ. واللهُ أعلمُ. وقالَ مالكٌ وأصحابهُ: هوَ نجسٌ. قالَ مالكٌ: غسلُ الاحتلامِ منَ الثوبِ أمرٌ واجبٌ مجتمعٌ عليهِ عندنا، وهوَ قولُ الكوفيينَ. ويروى عنْ عمرَ وابنِ مسعودٍ وجابرِ بنِ سمرةَ أنهمْ غسلوهُ منْ ثيابهمْ. واختلفَ فيهِ عنِ ابنِ عمرَ وعائشةَ. وعلى هذينِ القولينِ في نجاسةِ المنيِّ وطهارتهِ التابعونَ.

السابعة: في هذهِ الآيةِ دليلٌ على جوازِ الانتفاعِ بالألبانِ منَ الشربِ وغيرهِ، فأما لبنُ الميتةِ فلا يجوزُ الانتفاعُ بهِ، لأنهُ مائعٌ طاهرٌ حصلَ في وعاءٍ نجسٍ، وذلكَ أنَّ ضرعَ الميتةِ نجسٌ واللبنَ طاهرٌ فإذا حلبَ صارَ مأخوذًا منْ وعاءٍ نجسٍ. فأما لبنُ المرأةِ الميتةِ فاختلفَ أصحابنا فيهِ، فمنْ قالَ: إنَّ الإنسانَ طاهرٌ حيًا وميتًا فهوَ طاهرٌ. ومنْ قالَ: ينجسُ بالموتِ فهوَ نجسٌ. وعلى القولينِ جميعًا تثبتُ الحرمةُ، لأنَّ الصبيَّ قدْ يغتذي بهِ كما يغتذي منَ الحيةِ، وذلكَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «الرضاعُ ما أنبتَ اللحمَ وأنشزَ العظمَ». ولمْ يخصَّ.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أيْ لذيذًا هينًا لا يغصُّ بهِ منْ شربهُ. يقالُ: ساغَ الشرابُ يسوغُ سوغًا أيْ سهلَ مدخلهُ في الحلقِ، وأساغهُ شاربهُ، وسغتهُ أنا أسيغهُ وأسوغهُ، يتعدى، والأجودُ أسغتهُ إساغةً. يقالُ: أسغْ لي غصتي أيْ أمهلني ولا تعجلني، وقالَ تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾. والسِواغُ «بكسرِ السينِ» ما أسغتَ بهِ غصتكَ. يقالُ: الماءُ

سِواغُ الغصصِ.

التاسعة: في هذهِ الآيةِ دليلٌ على استعمالِ الحلاوةِ والأطعمةِ اللذيذةِ وتناولها، ولا يقالُ: إنَّ ذلكَ يناقضُ الزهدَ أوْ يباعده، لكنْ إذا كانَ منْ وجههِ ومنْ غيرِ سرفٍ ولا إكثارٍ. وفي الصحيحِ عنْ أنسٍ قالَ: لقدْ سقيتُ رسولَ اللهِ ﷺ بقدحي هذا الشرابَ كلهُ: العسلَ والنبيذَ واللبنَ والماءَ. وقدْ كرهَ بعضُ القراءِ أكلَ الفالوذجِ واللبنَ منَ الطعامِ، وأباحهُ عامةُ العلماءِ. ورويَ عنِ الحسنِ أنهُ كانَ على مائدةٍ ومعهُ مالكُ بنُ دينارٍ، فأتيَ بفالوذجٍ فامتنعَ عنْ أكلهِ، فقالَ لهُ الحسنُ: كلْ! فإنَّ عليكَ في الماءِ الباردِ أكثرَ منْ هذا.

العاشرة: روى أبو داودَ وغيرهُ عنِ ابنِ عباسٍ قالَ: أتى رسولَ اللهِ ﷺ بلبنٍ فشربَ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إذا أكلَ أحدكمْ طعامًا فليقلِ اللهمَّ باركْ لنا فيهِ وأطعمنا خيرًا منهُ، وإذا سقيَ لبنًا فليقلِ اللهمَّ باركْ لنا فيه وزدنا منه فإنه ليس شيء يجزي عنِ الطعامِ والشرابِ إلا اللبنَ». قالَ علماؤنا: فكيفَ لا يكونُ ذلكَ وهوَ أولُ ما يغتذي بهِ الإنسانُ وتنمى بهِ الجثثُ والأبدانُ، فهوَ قوتٌ خليٌّ عنِ المفاسدِ بهِ قوامُ الأجسامِ، وقدْ جعلهُ اللهُ تعالى علامةً لجبريلَ على هدايةِ هذهِ الأمةِ التي هيَ خيرُ الأممِ أمةً، فقالَ في الصحيحِ: «فجاءني جبريلُ بإناءٍ منْ خمرٍ وإناءٍ منْ لبنٍ فاخترتُ اللبنَ فقالَ لي جبريلُ اخترتَ الفطرةَ أما إنكَ لوِ اخترتَ الخمرَ غوتْ أمتكَ». ثمَّ إنَّ في الدعاءِ بالزيادةِ منهُ علامةَ الخصب وظهور الخيرات وكثرة والبركات، فهو مبارك كله.

قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧﴾، فيه مسألتان:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ﴾ قالَ الطبريُّ: التقديرُ ومنْ ثمراتِ النخيلِ والأعنابِ ما تتخذونَ، فحذفَ ﴿مَا﴾ ودلَّ على حذفهِ قولهُ: ﴿مِنۡهُ﴾. وقيل: المحذوف شيء. وقيل: معنى ﴿مِنۡهُ﴾ أيْ منَ المذكورِ، فلا يكونُ في الكلامِ حذفٌ وهوَ أولى. ويجوزُ أنْ يكونَ قولهُ: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ﴾ عطفًا على ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، أيْ ولكمْ منْ ثمراتِ النخيلِ والأعنابِ عبرةٌ. ويجوزُ أنْ يكونَ معطوفًا على ﴿مِمَّا﴾ أيْ ونسقيكمْ أيضًا مشروباتٍ منْ ثمراتٍ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿سَكَرًا﴾ السكرُ ما يسكرُ، هذا هوَ المشهورُ في اللغةِ. قالَ ابنُ عباسٍ: نزلتْ هذهِ الآيةُ قبلَ تحريمِ الخمرِ. وأرادَ بالسكرِ الخمرَ، وبالرزقِ الحسنِ جميعَ ما يؤكلُ ويشربُ حلالًا منْ هاتينِ الشجرتينِ. وقيل: إنَّ السكرَ الخلُّ بلغةِ الحبشةِ، والرزقُ الحسنُ الطعامُ. وقيل: السكرُ العصيرُ الحلوُ الحلالُ، وسميَ سكرًا لأنهُ قدْ يصيرُ مسكرًا إذا بقيَ، فإذا بلغَ الإسكارَ حرمَ.

والصحيحُ قولُ ابنِ عباسٍ أنَّ ذلكَ كانَ قبلَ تحريمِ الخمرِ فتكونُ منسوخةً، فإنَّ هذهِ الآيةَ مكيةٌ باتفاقٍ منَ العلماءِ، وتحريمَ الخمرِ مدنيٌّ.

قلتُ: فعلى أن السكر الخمر أوِ العصيرُ الحلوُ لا نسخَ، وتكونُ الآيةُ محكمةٌ وهوَ حسنٌ. قالَ ابنُ عباسٍ: الحبشةُ يسمونَ الخلَّ السكرَ، إلا أنَّ الجمهورَ على أنَّ السكرَ الخمرُ.

وقالَ الحنفيونَ: المرادُ بقولهِ: ﴿سَكَرًا﴾ ما لا يسكرُ منَ الأنبذةِ، والدليلُ عليهِ أنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى امتنَّ على عبادهِ بما خلقَ لهمْ منْ ذلكَ، ولا يقعُ الامتنانُ إلا بمحللٍ لا بمحرمٍ، فيكونُ ذلكَ دليلًا على جوازِ شربِ ما دونَ المسكرِ منَ النبيذِ، فإذا انتهى إلى السكرِ لمْ يجزْ، وعضدوا هذا منَ السنةِ بما رويَ عنِ النبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «حرمَ اللهُ الخمرَ بعينها والسكرَ منْ غيرها». وبما رويَ أنهُ ﷺ كانَ ينبذُ لهُ فيشربهُ ذلكَ اليومَ، فإذا كانَ منَ اليومِ الثاني أوِ الثالثِ سقاهُ الخادمُ إذا تغيرَ، ولوْ كانَ حرامًا ما سقاهُ إياهُ.

ففي هذا الحديثِ وما كانَ مثلهُ، أنَّ غيرَ الخمرِ لمْ تحرمْ عينهُ كما حرمتِ الخمر بعينها. قالوا: والخمر شراب العنب لا خلافَ فيها.

والجوابُ أنَّ قولهمْ: إنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى امتنَّ على عبادهِ ولا يكونُ امتنانهُ إلا بما أحلَّ فصحيحٌ، بيدَ أنهُ يحتملُ أنْ يكونَ ذلكَ قبلَ تحريمِ الخمرِ كما بيناهُ فيكونُ منسوخًا.

قالَ ابنُ العربيِّ: إنْ قيلَ كيفَ ينسخُ هذا وهوَ خبرٌ والخبرُ لا يدخلهُ النسخُ، قلنا: هذا كلامُ منْ لمْ يتحققِ الشريعةَ، وقدْ بينا أنَّ الخبرَ إذا كانَ عنِ الوجودِ الحقيقيِّ أوْ عنْ إعطاءِ ثوابٍ فضلًا منَ اللهِ فهوَ الذي لا يدخلهُ النسخُ، فأما إذا تضمنَ الخبرُ حكمًا شرعيًا فالأحكامُ تتبدلُ وتنسخُ، جاءتْ بخبرٍ أوْ أمرٍ، ولا يرجعُ النسخُ إلى نفسِ اللفظِ وإنما يرجعُ إلى ما

تضمنهُ، فإذا فهمتمْ هذا خرجتمْ عنِ الصنفِ الغبيِّ الذي أخبرَ اللهُ عنِ الكفارِ فيهِ بقولهِ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. المعنى أنهمْ جهلوا أنَّ الربَّ يأمرُ بما يشاءُ ويكلفُ ما يشاءُ، ويرفع من ذلك بعدل ما يشاءُ ويثبتُ ما يشاءُ وعندهُ أمُّ الكتابِ.

قلتُ: هذا تشنيعٌ شنيعٌ حتى يلحقَ فيهِ العلماءُ الأخيارُ في قصورِ الفهمِ بالكفارِ، والمسألةُ أصوليةٌ، وهيَ أنَّ الأخبارَ عنِ الأحكامِ الشرعيةِ هلْ يجوزُ نسخها أمْ لا؟ اختلفَ في ذلكَ، والصحيحُ جوازهُ لهذهِ الآيةِ وما كانَ مثلها، ولأنَّ الخبرَ عنْ مشروعيةِ حكمٍ ما يتضمنُ طلبَ ذلكَ المشروعِ، وذلكَ الطلبُ هوَ الحكمُ الشرعيُّ الذي يستدلُّ على نسخهِ. واللهُ أعلمُ.

وأما ما ذكروا منَ الأحاديثِ فالأولُ ضعيف، لأنهُ ﷺ قدْ رويَ عنهُ بالنقلِ الثابتِ أنهُ قالَ: «كلُّ شرابٍ أسكرَ فهوَ حرامٌ» وقالَ: «كلُّ مسكرٍ خمرٌ وكلُّ مسكرٍ حرامٌ» وقالَ: «ما أسكرَ كثيرهُ فقليلهُ حرامٌ». وأما الثاني وإنْ كانَ صحيحًا فإنهُ ما كانَ يسقيهِ للخادمِ على أنهُ مسكرٌ، وإنما كانَ يسقيهِ لأنهُ متغيرُ الرائحةِ. وكانَ ﷺ يكرهُ أنْ توجدَ منهُ الرائحةُ، فلذلكَ لمْ يشربهُ، ولذلكَ تحيل عليه أزواجه في عسل زيبب بأنْ قيلَ لهُ: إنا نجدُ منكَ ريحَ مغافيرَ، يعني ريحًا منكرةً، فلمْ يشربهُ بعدُ.

وقدْ قالَ عمر في خطبتهِ على منبرِ رسولِ اللهِ ﷺ: أما بعدُ، أيها الناسُ فإنهُ نزلَ تحريمُ الخمرِ وهيَ منْ خمسةٍ: منَ العنبِ والعسلِ والتمرِ والحنطةِ والشعيرِ. والخمرُ ما خامرَ العقلَ.

فإن قيل: فقدْ أحلَّ شربهُ إبراهيمُ النخعيُّ. قلنا: هذهِ زلةٌ منْ عالمٍ وقدْ حذرنا منْ زلةِ العالمِ، ولا حجةَ في قولِ أحدٍ معَ السنةِ.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ قدْ مضى القولُ في الوحيِ وأنهُ قدْ يكونُ بمعنى الإلهامِ، وهوَ ما يخلقهُ اللهُ تعالى في القلبِ ابتداءً منْ غيرِ سببٍ ظاهرٍ، وهوَ منْ قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾. ومنْ ذلكَ البهائمُ وما يخلقُ اللهُ سبحانهُ فيها منْ دركِ منافعها واجتنابِ مضارها وتدبيرِ معاشها. وقدْ أخبرَ عزَّ وجلَّ بذلكَ عنِ المواتِ فقالَ: ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾.

وسميَ نحلًا لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ نحلهُ العسلَ الذي يخرجُ منهُ، والنحلُ والنحلةُ الدَّبَرُ يقعُ على الذكرِ والأنثى، حتى يقالَ: يعسوبٌ. والنحلُ يؤنثُ في لغةِ أهلِ الحجازِ وكلُّ جمعٍ ليسَ بينهُ وبينَ واحدهِ إلا الهاءُ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾ هذا إذا لم يكن لها مالك ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ جعل اللهُ بيوتَ النحلِ في هذهِ الثلاثةِ الأنواعِ، إما في الجبالِ وكُواها، وإما في متجوفِ الأشجارِ، وإما فيما يعرشُ ابنُ آدمَ منَ الأغصانِ والخشبِ وترتيبِ ظلالها، ومنهُ العريشُ الذي صنعَ لرسولِ اللهِ ﷺ يومَ بدرٍ، ومنْ هذا لفظةُ العرشِ. يقالُ: عرَشَ يعرِش ويعرُش بكسر الراء وضمها، وقرئ بهما، قرأَ ابنُ عامرٍ بالضمِّ وسائرهمْ بالكسرِ، واختُلفَ في ذلكَ عنْ عاصمٍ.

الثالثة: قالَ ابنُ العربيِّ: ومنْ عجيبِ ما خلقَ اللهُ في النحلِ أنْ ألهمها لاتخاذِ بيوتها مسدسةً، فبذلكَ اتصلتْ حتى صارتْ كالقطعةِ الواحدةِ، وذلكَ أنَّ الأشكالَ منَ المثلثِ إلى المعشرِ إذا جمعَ كلُّ واحدٍ منها إلى أمثالهِ لمْ يتصلْ وجاءتْ بينهما فرجٌ، إلا الشكلَ المسدسَ، فإنهُ إذا جمعَ إلى أمثالهِ اتصلَ كأنهُ كالقطعة الواحدة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وذلكَ أنها إنما تأكلُ النوَّارَ منَ الأشجارِ ﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾ أيْ طرقَ ربكِ. والسبلُ: الطرقُ، وأضافها إليهِ لأنهُ خالقها. أي ادخلي طرقَ ربكِ لطلبِ الرزقِ في الجبالِ وخلالِ الشجرِ ﴿ذُلُلًاۚ﴾ جمعُ ذلولٍ وهوَ المنقادُ، أيْ مطيعةً مسخرةً. فـ﴿ذُلُلًاۚ﴾ حالٌ منَ النحلِ. أيْ تنقادُ وتذهبُ حيثُ شاءَ صاحبها، لأنها تتبعُ أصحابها حيثُ ذهبوا، وقيل: المرادُ بقولهِ: ﴿ذُلُلًاۚ﴾ السبلِ. واليعسوبُ سيدُ النحلِ، إذا وقفَ وقفتْ وإذا سارَ سارتْ.

قولهُ تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ﴾، فيهِ تسعُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ يعني العسلَ. وجمهورُ الناسِ على أنَّ العسلَ يخرجُ منْ أفواهِ النحلِ، ووردَ عنْ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه أنهُ قالَ في تحقيرهِ للدنيا: أشرفُ لباسِ ابنِ آدمَ فيها لعابُ دودةٍ، وأشرفُ شرابهِ رجيعُ نحلةٍ. فظاهرُ هذا أنهُ منْ غيرِ الفمِ. وبالجملةِ فإنهُ يخرجُ ولا يدرى منْ فيها أوْ أسفلها، ولكنْ لا يتمُّ صلاحهُ إلا بحميِّ أنفاسها.

الثانية: قوله تعالى: ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ يريدُ أنواعهُ منَ الأحمرِ والأبيضِ والأصفرِ والجامدِ والسائلِ، والأمَّ واحدةٌ والأولادُ مختلفونَ دليلٌ على أنَّ القدرةَ نوعتهُ بحسبِ تنويعِ الغذاءِ، كما يختلفُ طعمهُ بحسبِ اختلافِ المراعي، ومنْ هذا المعنى قولُ زينبَ للنبيِّ ﷺ: «جَرَسَتْ نَحلُهُ العرفطَ» حينَ شبهتْ رائحته برائحة المغافير.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ﴾ الضميرُ للعسلِ، قالَ الجمهورُ. أيْ في العسلِ شفاءٌ للناسِ. وقيل: الضميرُ للقرآنِ، أيْ في القرآنِ شفاءٌ، وهذا قولٌ حسنٌ، أوْ فيما قصصنا عليكمْ منَ الآياتِ والبراهينِ شفاءٌ للناسِ.

الرابعة: اختلفَ العلماءُ في قولهِ تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ﴾ هلْ هوَ على عمومهِ أمْ لا، فقالتْ طائفةٌ: هوَ على العمومِ في كلِّ حالٍ ولكلِّ أحدٍ، وقالتْ طائفةٌ: إنَّ ذلكَ على الخصوصِ ولا يقتضي العمومَ في كلِّ علةٍ وفي كلِّ إنسانٍ، بلْ إنهُ خبرٌ عنْ أنهُ يشفي كما يشفي

غيرهُ منَ الأدويةِ في بعضٍ وعلى حالٍ دونَ حالٍ، ففائدةُ الآيةِ إخبارٌ منهُ في أنهُ دواءٌ لما كثُرَ الشفاءُ بهِ وصارَ خليطًا ومعينًا للأدويةِ في الأشربةِ والمعاجينِ، وليسَ هذا بأولِ لفظٍ خصصَ فالقرآنُ مملوءٌ منهُ ولغةُ العربِ يأتي فيها العامُّ كثيرًا بمعنى الخاصِّ والخاصُّ بمعنى العامِّ. ومما يدلُّ على أنهُ ليسَ على العمومِ أنَّ ﴿شِفَآءٌ﴾ نكرةٌ في سياقِ الإثباتِ، ولا عمومَ فيها باتفاقِ أهلِ اللسانِ ومحققي أهلِ العلمِ ومختلفي أهلِ الأصولِ.

لكنْ قدْ حملتهُ طائفةٌ منْ أهلِ الصدقِ والعزمِ على العمومِ. فكانوا يستشفونَ بالعسلِ منْ كلِّ الأوجاعِ والأمراضِ، وكانوا يشفونَ منْ عللهمْ ببركةِ القرآنِ وبصحةِ التصديقِ والإيقانِ.

الخامسة: إنْ قالَ قائلٌ: قدْ رأينا منْ ينفعهُ العسلُ ومنْ يضرهُ، فكيفَ يكونُ شفاءً للناسِ؟ قيلَ لهُ: الماءُ حياة كل شيء وقدْ رأينا منْ يقتلهُ الماءُ إذا أخذهُ على ما يضادهُ منْ علةٍ في البدنِ، وقدْ رأينا شفاءَ العسلِ في أكثرِ هذهِ الأشربةِ، على أنَّ النبيَّ ﷺ قدْ حسمَ داءَ الإشكالِ وأزاحَ وجهَ الاحتمالِ حينَ أمرَ الذي يشتكي بطنهُ بشربِ العسلِ، فلما أخبرهُ أخوهُ بأنهُ لمْ يزدهُ إلا استطلاقًا أمرهُ بعودِ الشرابِ لهُ فبرئَ، وقالَ: «صدقَ اللهُ وكذبَ بطنُ أخيكَ».

السادسة: اعترضَ بعضُ زنادقةِ الأطباءِ على هذا الحديثِ فقالَ: قدْ أجمعتِ الأطباءُ على أنَّ العسلَ يسهلُ فكيفَ يوصفُ لمنْ بهِ الإسهالُ، فالجوابُ: أنَّ ذلكَ القولَ حقٌّ في نفسهِ لمنْ حصلَ لهُ التصديقُ بنبيهِ ﷺ، فيستعملهُ على الوجهِ الذي عينهُ وفي المحلِّ الذي أمرهُ بعقدِ نيةٍ وحسنِ طويةٍ، فإنهُ يرى منفعتهُ ويدركُ بركتهُ، كما قدِ اتفقَ لصاحبِ هذا العسلِ وغيرهِ كما تقدمَ.

وأما ما حكيَ منَ الإجماعِ فدليلٌ على جهلهِ بالنقلِ حيثُ لمْ يقيدْ وأطلقَ. فإنَّ الإسهالَ يعرضُ منْ ضروبٍ كثيرةٍ، منها الإسهال الحادثُ عنِ التخمِ والهيضاتِ، والأطباءُ مجمعونَ في مثلِ هذا على أنَّ علاجهُ بأنْ يتركَ للطبيعةِ وفعلها، وإنِ احتاجتْ إلى معينٍ على الإسهالِ أعينتْ ما دامتِ القوةُ باقيةٌ، فأما حبسها فضررٌ، فإذا وضحَ هذا قلنا: فيمكنُ أنْ يكونَ ذلكَ الرجلُ أصابهُ الإسهالُ عنِ امتلاءٍ وهيضةٍ فأمرهُ النبيُّ ﷺ بشربِ العسلِ فزادهُ إلى أنْ فنيتِ المادةُ فوقفَ الإسهالُ فوافقهُ شربُ العسلِ.

السابعة: في قوله تعالى: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۚ﴾ دليلٌ على جوازِ التعالجِ بشربِ الدواءِ وغيرِ ذلكَ خلافًا لمنْ كرهَ ذلكَ منْ جلةِ العلماءِ، وهوَ يردُّ على الصوفيةِ الذينَ يزعمونَ أنَّ الولايةَ لا تتمُّ إلا إذا رضيَ بجميعِ ما نزلَ بهِ منَ البلاءِ، ولا يجوزُ لهُ مداواة. ولا معنى لمنْ أنكرَ ذلكَ، روى الصحيحُ عنْ جابرٍ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «لكلِّ داءٍ دواءٌ فإذا أُصيبَ دواءُ الداءِ برأَ بإذنِ اللهِ». وروى أبو داودَ والترمذيُّ عنْ أسامةَ بنِ شريكٍ قالَ قالتِ الأعرابُ: ألا نتداوى يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «نعمْ. يا عبادَ اللهِ تداووا فإنَّ اللهَ لمْ يضعْ داءً إلا وضعَ لهُ شفاء أو دواء إلا داء واحد» قالوا: يا رسولَ اللهِ وما هوَ؟ قالَ: «الهرمُ» لفظُ الترمذيِّ، وقالَ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وقالَ ﷺ: «إن كان في شيء منْ أدويتكمْ خيرٌ ففي شرطةِ محجمٍ أوْ شربةٍ منْ عسلٍ أوْ لذعةٍ بنارٍ وما أحبُّ أنْ أكتويَ» أخرجهُ الصحيحُ. والأحاديثُ في هذا البابِ أكثرُ منْ أنْ تحصى. وعلى إباحة التداوي والاسترقاء جمهورُ العلماءِ.

وقدِ احتجَّ منْ كرهَ ذلكَ بما رواهُ أبو هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «دخلتْ أمةٌ بقضها وقضيضها الجنةَ كانوا لا يسترقون ولا يكتوونَ ولا يتطيرونَ وعلى ربهمْ يتوكلونَ». قالوا: فالواجبُ على المؤمنِ أنْ يتركَ ذلكَ اعتصامًا باللهِ وتوكلًا عليهِ وثقةً بهِ وانقطاعًا إليهِ، فإنَّ اللهَ تعالى قدْ علمَ أيامَ المرضِ وأيامَ الصحةِ فلوْ حرصَ الخلقُ على تقليلِ ذلكَ أوْ زيادتهِ ما قدروا، قالَ اللهُ تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾. وممنْ ذهبَ إلى هذا جماعةٌ منْ أهلِ الفضلِ والأثرِ.

الثامنة: ذهبَ مالكٌ وجماعةُ أصحابهِ إلى أنْ لا زكاةَ في العسلِ وإنْ كانَ مطعومًا مقتاتًا. واختلفَ فيهِ قولُ الشافعيِّ، والذى قطعَ بهِ في قولهِ الجديدِ: أنهُ لا زكاةَ فيهِ. وقالَ أبو حنيفةَ بوجوبِ زكاةِ العسلِ في قليلهِ وكثيرهِ، لأنَّ النصابَ عندهُ فيهِ ليسَ بشرطٍ. وقالَ محمدُ بنُ الحسنِ: لا شيء فيهِ حتى يبلغَ ثمانيةَ أفراقٍ، والفرقُ ستةٌ وثلاثونَ رطلًا منْ أرطالِ العراقِ. وقالَ أبو يوسفَ: في كلِّ عشرةِ أزقاقٍ زقٌّ، متمسكًا بما رواهُ الترمذيُّ عنِ ابنِ عمرَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «في العسلِ في كلِّ عشرةِ أزقاقٍ زقٌّ» قالَ أبو عيسى: في إسنادهِ مقالٌ، ولا يصحُّ عنِ النبيِّ ﷺ في هذا البابِ كبير شيء، والعملُ على هذا عندَ أكثرِ أهلِ العلمِ، وبهِ يقولُ

أحمدُ، وقالَ بعضُ أهلِ العلم: ليس في العسل شيء.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أيْ يعتبرونَ، ومنَ العبرةِ في النحلِ بإنصافِ النظرِ وإلطافِ الفكرِ في عجيبِ أمرها. فيشهدُ اليقينَ بأنَّ ملهمها الصنعةَ اللطيفةَ معَ البنيةِ الضعيفةِ، وحذقها باحتيالها في تفاوتِ أحوالها هوَ اللهُ سبحانهُ وتعالى، كما قالَ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ الآيةَ. ثمَّ أنها تأكلُ الحامضَ والمرَّ والحلوَ والمالحَ والحشائشَ الضارةَ، فيجعلهُ اللهُ تعالى عسلًا حلوًا وشفاءً، وفي هذا دليل على قدرته.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ بينٌ معناهُ ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ يعني أرداهُ وأوضعهُ. وقيل: الذي ينقصُ قوتهُ وعقلهُ ويصيرهُ إلى الخرفِ ونحوِهِ، وفي صحيحِ البخاريِّ عنْ أنسِ بنِ مالكٍ قالَ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يتعوذُ يقول: «اللهمَّ إني أعوذُ بكَ منَ الكسلِ وأعوذُ بكَ منَ الجبنِ وأعوذُ بكَ منَ الهرمِ وأعوذُ بكَ منَ البخلِ». وفي حديثِ سعدِ بنِ أبي وقاصٍ «وأعوذُ بكَ أنْ أردَّ إلى أرذل العمر» الحديث. خرجه البخاري.

﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أيْ يرجعُ إلى حالةِ الطفوليةِ فلا يعلمُ ما كانَ يعلمُ قبلُ منَ الأمورِ لفرطِ الكبرِ. وقدْ قيلَ: هذا لا يكونُ للمؤمنِ، لأنَّ المؤمنَ لا ينزعُ عنهُ علمهُ. وقيل: المعنى لكيلا يعملَ بعدَ علمٍ شيئًا، فعبرَ عنِ العملِ بالعلمِ لافتقارهِ إليهِ، لأنَّ تأثيرَ الكبرِ في عملهِ أبلغُ منْ تأثيرهِ في علمهِ. والمعنى المقصودُ الاحتجاجُ على منكري البعثِ، أيِ الذي ردهُ إلى هذهِ الحالِ قادرٌ على أن يميته ثم يحييه.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ أيْ جعلَ منكمْ غنيًا وفقيرا وحرًا وعبدًا ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا﴾ أيْ في الرزقِ ﴿بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أيْ إذا لمْ يكنْ عبيدكمْ معكمْ سواءٌ فكيفَ تجعلونَ عبيدي معي سواءً، فكيفَ ترضونَ لي ما لا ترضونَ لأنفسكمْ فتجعلونَ لي ولدًا منْ عبيدي. ونظيرها: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ على ما يأتي. ودلَّ هذا على أنَّ العبدَ لا يملكُ، على ما يأتي.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ جعلَ بمعنى خلقَ وقدْ تقدمَ. ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ يعني آدمَ خلقَ منهُ حواءَ. وقيل: المعنى جعلَ لكمْ منْ أنفسكمْ، أيْ منْ جنسكمْ ونوعكمْ وعلى خلقتكمْ، كما قالَ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ أيْ منَ الآدميينَ. وفي هذا ردٌّ على العربِ التي كانتْ تعتقدُ أنها كانتْ تزوجُ الجنَّ وتباضعها ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾ زوجُ الرجلِ هيَ ثانيتهُ، فإنهُ فردٌ فإذا انضافتْ إليهِ كانا زوجينِ، وإنما جعلتِ الإضافةُ إليهِ دونها لأنهُ أصلها في الوجود كما تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ﴾ ظاهرٌ في تعديدِ النعمةِ في الأبناءِ، ووجودُ الأبناءِ يكونُ منهما معًا، ولكنهُ لما كانَ خلقُ المولودِ فيها وانفصالهُ عنها أضيفَ إليها، ولذلكَ تبعها في الرقِّ والحريةِ وصارَ مثلها في الماليةِ.

قالَ ابنُ العربيِّ: سمعتُ إمامَ الحنابلةِ بمدينةِ السلامِ أبا الوفاءِ عليَّ بنَ عقيل يقولُ: إنما تبعَ الولدُ الأمَّ في الماليةِ وصارَ بحكمها في الرقِّ والحريةِ، لأنهُ انفصلَ عنِ الأبِ نطفةً لا قيمةَ لهُ ولا ماليةَ فيهِ ولا منفعةَ، وإنما اكتسبَ ما اكتسبَ بها ومنها فلأجلِ ذلكَ تبعها. كما لوْ أكل رجل تمر في أرضِ رجلٍ وسقطتْ منهُ نواةٌ في الأرضِ منْ يدِ الآكلِ فصارتْ نخلةً فإنها ملكُ صاحبِ الأرضِ دونَ الآكلِ بإجماعٍ منَ الأمةِ لأنها انفصلتْ عنِ الآكلِ ولا قيمةَ لها.

الثانية: قولهُ تعالى: ﴿وَحَفَدَةٗ﴾ الحفدةُ الخدمُ والأعوانُ، منْ أعانكَ فقدْ حفدكَ، فكلُّ منْ عملَ عملًا أطاعَ فيهِ وسارعَ فهوَ حافدٌ، قالَ: ومنهُ قولهمْ «إليكَ نسعى ونحفدُ»، والحفدانُ السرعةُ.

وقيل: الحفدةُ أولادُ الأولادِ فالبنينَ أولادُ الرجلِ لصلبهِ والحفدةَ أولادُ ولدهِ.

الثالثة: إذا فرعنا على القولِ إنَّ الحفدةَ الخدمُ والأعوانُ، فقدْ خرجتْ خدمةُ الولدِ والزوجةِ منَ القرآنِ بأبدعِ بيانٍ، قاله ابن العربي، روى البخاريُّ وغيرهُ عنْ سهلِ بنِ سعدٍ أنَّ أبا أسيدٍ الساعديَّ دعا النبيَّ ﷺ لعرسهِ فكانتِ امرأتهُ خادمهمْ... الحديثَ، وفي الصحيح عنْ عائشةَ قالتْ: أنا فتلتُ قلائدَ بدنِ النبيِّ ﷺ بيدي. الحديثَ. ولهذا قالَ علماؤنا: عليها

أنْ تفرشَ الفراشَ وتطبخَ القدرَ وتقمَّ الدارَ، بحسبِ حالها وعادةِ مثلها، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ فكأنهُ جمعَ لنا فيها السكنَ والاستمتاعَ وضربًا منَ الخدمةِ بحسبِ جريِ العادةِ.

الرابعة: ويخدمُ الرجلُ زوجتهُ فيما خفَّ منَ الخدمةِ ويعينها، لما روتهُ عائشةَ أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يكونُ في مهنةِ أهلهِ فإذا سمعَ الأذانَ خرجَ. وهذا قولُ مالكٍ: ويعينها. وفي أخلاقِ النبيِّ ﷺ: أنهُ كانَ يخصفُ النعل ويقم البيت ويخيط الثوب.

وقالتْ عائشةُ وقدْ قيلَ لها: ما كانَ يعملُ رسولُ اللهِ ﷺ في بيتهِ؟ قالتْ: كانَ بشرًا منَ البشرِ يفلي ثوبهُ ويحلبُ شاتهُ ويخدمُ نفسهُ.

الخامسة: وينفقُ على خادمةٍ واحدةٍ، وقيل: على أكثرَ، على قدر الثروة والمنزلة. وهذا أمرٌ دائرٌ على العرفِ الذي هوَ أصلٌ منْ أصولِ الشريعةِ، فإنَّ نساءَ الأعرابِ وسكان البوادي يخدمن أزواجهن حتى في استعذابِ الماءِ وسياسةِ الدوابِّ، ونساءَ الحواضرِ يخدمُ المقلُّ منهمْ زوجتهُ فيما خفَّ ويعينها، وأما أهل الثروة فيخدمون أزواجهم ويترفهنَ معهمْ إذا كانَ لهمْ منصبُ ذلكَ، فإنْ كانَ أمرًا مشكلًا شرطتْ عليهِ الزوجةُ ذلكَ، فتشهدُ أنهُ قدْ عرفَ أنها ممنْ لا تخدم نفسها فالتزم إخدامها، فينفذُ ذلكَ وتنقطعُ الدعوى فيهِ.

قوله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ أيْ منَ الثمارِ والحبوبِ والحيوانِ ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾ يعني الأصنامَ، قالهُ ابنُ عباسٍ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ قراءةُ الجمهورِ بالياءِ، وقرأ أبو عبدِ الرحمن بالتاء ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ أي بالإسلام ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ ٧٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يعني المطرَ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني النباتَ ﴿شَيْـًٔا﴾ بدلٌ منَ الرزقِ، وقيل: هوَ منصوبٌ بإيقاعِ الرزقِ عليهِ، أيْ يعبدونَ ما لا يملكُ أنْ يرزقهمْ شيئًا ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ٧٣﴾ أيْ لا يقدرونَ على شيء، يعني الأصنامَ. ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ﴾ أيْ لا تشبهوا بهِ هذهِ الجماداتِ، لأنهُ واحدٌ قادر لا مثل له.

قوله تعالى: ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ أيْ بينَ شبهًا، فقالَ: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ أيْ كما لا يستوي عندكمْ عبدٌ مملوكٌ لا يقدرُ منْ أمره على شيء ورجلٌ حرٌّ قدْ رزقَ رزقًا حسنًا فكذلكَ أنا وهذهِ الأصنامُ.

وقيل: هذا المثلُ للمؤمنِ والكافرِ، فالعبد المملوكَ هوَ الكافرُ، لأنهُ لا ينتفعُ في الآخرةِ بشيءٍ منْ عبادتهِ، ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ المؤمنُ، والأولُ عليهِ الجمهورُ من أهل العلم والتأويل.

الثانية: فهمَ المسلمونَ منْ هذهِ الآيةِ ومما قبلها نقصانَ رتبةِ العبدِ عنِ الحرِّ في الملكِ، وأنهُ لا يملكُ شيئًا وإنْ ملكَ. قالَ أهلُ العراقِ: الرقُّ ينافي الملكَ، فلا يملكُ شيئًا ألبتةَ بحالٍ، وهوَ قولُ الشافعيِّ في الجديدِ، ومنهمْ منْ قالَ: يملكُ إلا أنهُ ناقصُ الملكِ، لأنَّ لسيدهِ أنْ ينتزعهُ منهُ أيَّ وقتٍ شاءَ، وهوَ قولُ مالكٍ ومنِ اتبعهُ، وبهِ قالَ الشافعيُّ في القديم. وهوَ قولُ أهلِ الظاهرِ، ولهذا قالَ أصحابنا: لا تجبُ عليهِ عبادةُ الأموالِ منْ زكاةٍ وكفاراتٍ، ولا منْ عباداتِ الأبدانِ ما يقطعهُ عنْ خدمةِ سيدهِ كالحجِّ والجهادِ وغيرِ ذلكَ.

وفائدةُ هذهِ المسألةِ أنَّ سيدهُ لوْ ملكهُ جاريةً جازَ لهُ أنْ يطأها بملكِ اليمينِ، ولوْ ملكهُ أربعينَ منَ الغنمِ فحالَ عليها الحولُ لمْ تجبْ على السيدِ زكاتها لأنها ملكُ غيرهِ، ولا على العبدِ لأنَّ ملكهُ غيرُ مستقرٍّ.

ودلائلُ هذهِ المسألةِ للفريقينِ في كتبِ الخلافِ. وأدلُّ دليلٍ لنا قولهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ فسوى بينَ العبدِ والحرِّ في الرزقِ والخلقِ. وقالَ ﷺ: «منْ أعتقَ عبدًا ولهُ مالٌ...» فأضافَ المالَ إليهِ. وكانَ ابنُ عمرَ يرى عبدهُ يتسرى في مالهِ فلا يعيبُ عليهِ ذلكَ. وعنِ ابنِ عباسٍ أنَّ عبدًا لهُ طلقَ امرأتهُ طلقتينِ فأمرهُ أنْ يرتجعها بملكِ اليمينِ، فهذا دليلٌ على أنهُ يملكُ ما بيدهِ ويفعلُ فيهِ ما يفعلُ المالكُ في ملكهِ ما لمْ ينتزعهُ سيده. والله أعلم.

الثالثة: وقدِ استدلَّ بعضُ العلماءِ بهذهِ الآيةِ على أنَّ طلاقَ العبدِ بيدِ سيدهِ، وعلى أنَّ بيعَ الأمةِ طلاقها، معولًا على قوله تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾. قالَ: فظاهرهُ يفيد أنه لا يقدر على شيء أصلًا، لا على الملكِ ولا على غيرهِ فهوَ على عمومهِ، إلا أنْ يدلَّ دليلٌ على خلافهِ. وفيما ذكرناهُ عنِ ابنِ عمرَ وابنِ عباسٍ ما يدلُّ على التخصيصِ. واللهُ تعالى أعلم.

الرابعة: قالَ أبو منصورٍ في عقيدتهِ: الرزقُ ما وقعَ الاغتذاءُ بهِ. وهذهِ الآيةُ تردُّ هذا التخصيصَ، وكذلكَ قولهُ تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾. وَ ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ وغيرُ ذلكَ منْ قولِ النبيِّ ﷺ: «جعلَ رزقي تحتَ ظلِّ رمحي» وقولهُ: «أرزاقُ أمتي في سنابكِ خيلها وأسنةِ رماحها». فالغنيمةُ كلها رزقٌ، وكلُّ ما صحَّ بهِ الانتفاعُ فهوَ رزقٌ، وهوَ مراتبُ: أعلاها ما يغذي. وقدْ حصرَ رسولُ اللهِ ﷺ وجوهَ الانتفاعِ في قولهِ: «يقولُ ابنُ آدمَ مالي مالي وهلْ لكَ منْ مالكَ إلا ما أكلتَ فأفنيتَ أوْ لبستَ فأبليتَ أوْ تصدقتَ فأمضيتَ». وفي معنى اللباسِ يدخلُ الركوبُ وغيرُ ذلكَ. وفي ألسنةِ المحدثينَ: السماعُ رزقٌ، يعنونَ سماعَ الحديثِ، وهوَ صحيحٌ.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ هوَ المؤمنُ، يطيعُ اللهَ في نفسهِ ومالهِ. والكافرُ ما لمْ ينفقْ في الطاعةِ صارَ كالعبدِ الذي لا يملكُ شيئًا. ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ أيْ لا يستوونَ، ولمْ يقلْ يستويانِ لمكانِ ﴿مَن﴾ لأنهُ اسمٌ مبهمٌ يصلحُ للواحدِ والاثنينِ والجمعِ والمذكرِ والمؤنثِ. وقيل: إنَّ ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾، ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ﴾ أريدَ بهما الشيوعُ في الجنسِ.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أيْ هوَ مستحقٌّ للحمدِ دونَ ما يعبدونَ منْ دونهِ، إذْ لا نعمةَ للأصنام عليهمْ منْ يدٍ ولا معروفٍ فتحمدَ عليهِ، إنما الحمدُ الكاملُ للهِ، لأنهُ المنعمُ الخالقُ. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أيْ أكثرُ المشركينَ. ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الحمدَ لي، وجميعَ النعمةِ مني. وذكرَ الأكثرُ وهوَ يريدُ الجميعَ، فهوَ خاصٌّ أريدَ بهِ التعميمَ. وقيل: أيْ بلْ أكثرُ الخلقِ لا يعلمونَ، وذلك أن أكثرهم المشركون.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ هذا مثلٌ آخرُ ضربهُ اللهُ تعالى لنفسهِ وللوثنِ، فالأبكمُ الذي لا يقدرُ على شيء هوَ الوثنُ، والذي يأمرُ بالعدلِ هوَ اللهُ تعالى ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾ أيْ ثقلٌ ووبالٌ على وليهِ وقرابتهِ، وقدْ يسمى اليتيمُ كلًا لثقلهِ على منْ يكفلهُ، والكلُّ أيضًا الذي لا ولدَ لهُ ولا والدَ ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ لأنهُ لا يعرفُ ولا يفهمُ ما يقالُ لهُ ﴿هَلْ يَسْتَوِى﴾ هذا الأبكمُ ﴿هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ متصلٌ بقولهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أيْ شرعَ التحليلِ والتحريمِ إنما يحسنُ ممنْ يحيطُ بالعواقبِ والمصالحِ وأنتمْ أيها المشركونَ لا تحيطونَ بها فلمَ تتحكمونَ ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ وتجازونَ فيها بأعمالكمْ. والساعةُ هيَ الوقتُ الذي تقومُ فيهِ القيامةُ، سميتْ ساعةً لأنها تفجأُ الناسَ في ساعةٍ فيموتُ الخلقُ بصيحةٍ. واللمحُ النظرُ بسرعةٍ، يقالُ لمحهُ لمحًا ولمحانًا. ووجهُ التأويلِ أنَّ الساعةَ لما كانتْ آتيةً ولا بدَّ جعلتْ منَ القربِ كلمحِ البصرِ. وقيل: وصفَ سرعةَ القدرةِ على الإتيانِ بها، وقيل: المعنى هوَ عندَ اللهِ كذلكَ لا عندَ المخلوقينَ، دليلهُ قولهُ: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾.

﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ ليسَ ﴿أَوْ﴾ للشكِّ بلْ للتمثيلِ بأيهما أرادَ الممثلُ. وقيل: دخلتْ لشكِّ المخاطبِ. وقيل: ﴿أَوْ﴾ بمنزلةِ بلْ و ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ ذكرَ أنَّ منْ نعمهِ أنْ أخرجكمْ منْ بطونِ أمهاتكمْ أطفالًا لا علمَ لكمْ بشيءٍ. وفيهِ ثلاثةُ أقاويلَ:

أحدها- لا تعلمونَ شيئًا مما أخذَ عليكمْ منَ الميثاقِ في أصلابِ آبائكمْ.

الثاني- لا تعلمونَ شيئًا مما قضيَ عليكمْ منَ السعادةِ والشقاءِ.

الثالثُ- لا تعلمونَ شيئًا منْ منافعكمْ، وتم الكلام، ثمَّ ابتدأَ فقالَ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ

﴿ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ﴾ أيْ وجعلَ لكمُ السمعَ لتسمعوا بهِ الأمر والنهيَ، والأبصارَ لتبصروا بها آثارَ صنعهِ، والأفئدةَ لتصلوا بها إلى معرفتهِ.

﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ﴾ جمعُ الفؤادِ نحوَ غرابٍ وأغربةٍ. وقدْ قيلَ في ضمنِ قولهِ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ﴾ إثباتُ النطقِ لأنَّ منْ لمْ يسمعْ لمْ يتكلمْ، وإذا وجدتْ حاسةُ السمعِ وجدَ النطقُ. وقرأ حمزةُ: «إِمِّهاتِكُمْ» هنا وفي النورِ والزمرِ والنجمِ، بكسرِ الهمزةِ والميمِ، وأما الكسائيُّ فكسرَ الهمزةَ وفتحَ الميمَ، وإنما كانَ هذا للإتباعِ. الباقونَ بضمِّ الهمزةِ وفتحِ الميمِ على الأصلِ. وأصلُ الأمهاتِ: أماتٌ، فزيدتِ الهاءُ تأكيدًا كما زادوا هاءً في أهرقتُ الماءَ وأصلهُ أرقتُ.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾، فيهِ تأويلانِ:

أحدهما: تشكرونَ نعمهُ.

الثاني- يعني تبصرونَ آثارَ صنعتهِ، لأنَّ إبصارها يؤدي إلى الشكرِ.

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ قرأَ ابنُ عامرٍ وحمزةُ ويعقوبُ «تَرَوْا» بالتاءِ على الخطابِ، والباقونَ بالياءِ على الخبرِ ﴿مُسَخَّرَٰتٖ﴾ مذللاتٍ لأمرِ اللهِ تعالى، وقيل: لمنافعكم ﴿فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ الجوُّ ما بينَ السماءِ والأرضِ، وأضافَ الجوَّ إلى السماءِ لارتفاعهِ عنِ الأرضِ.

وفي قولهِ: ﴿مُسَخَّرَٰتٖ﴾ دليلٌ على مسخرٍ سخرها ومدبر مكنها من التصرف ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ في حالِ القبضِ والبسطِ والاصطفافِ. بينَ لهمْ كيفَ يعتبرونَ بها على وحدانيتهِ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ أيْ علاماتٍ وعبرًا ودلالاتٍ ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٧٩﴾ باللهِ وبما جاءت به رسلهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠﴾، فيهِ تسع مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمۡ﴾ معناهُ صيرَ. وكلُّ ما علاكَ فأظلكَ فهوَ سقفٌ وسماءٌ، وكلُّ ما أقلكَ فهوَ أرضٌ، وكلُّ ما ستركَ منْ جهاتكَ الأربعِ فهوَ جدارٌ، فإذا انتظمتْ واتصلتْ فهوَ بيتٌ. وهذهِ الآيةُ فيها تعديدُ نعمِ اللهِ تعالى على الناسِ في البيوتِ، فذكرَ أولًا بيوتَ المدنِ وهيَ التي للإقامةِ الطويلةِ. وقولهُ: ﴿سَكَنٗا﴾ أيْ تسكنونَ فيها وتهدأُ جوارحكمْ منَ الحركةِ، وقدْ تتحركُ فيهِ وتسكنُ في غيرهِ، إلا أنَّ القولَ خرجَ على الغالبِ. وعدَّ هذا في جملةِ النعمِ فإنهُ لوْ شاءَ خلقَ العبدَ مضطربًا أبدًا كالأفلاكِ لكانَ ذلكَ كما خلقَ وأرادَ، ولوْ خلقهُ ساكنًا كالأرضِ لكانَ كما خلقَ وأرادَ، ولكنهُ أوجدهُ خلقًا يتصرفُ للوجهينِ، ويختلفُ حالهُ بينَ الحالتينِ، ورددهُ كيفَ وأينَ. والسكنُ مصدرٌ يوصفُ بهِ الواحدُ والجمعُ. ثمَّ ذكرَ تعالى بيوت القلة والرحلة وهي:

الثانية: فقالَ ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا﴾ أيْ منَ الأنطاعِ والأدمِ. ﴿بُيُوتٗا﴾ يعني الخيامَ والقبابَ يخفُّ عليكمْ حملها في الأسفارِ ﴿يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾ الظعنُ: سيرُ الباديةِ في الانتجاعِ والتحولِ منْ موضعٍ إلى موضعٍ، وقرئَ بإسكانِ العينِ وفتحها، وقدْ كانَ للنبيِّ ﷺ قبةٌ منْ أدمٍ، ولمْ يعدَّ ذلكَ ﷺ ترفًا ولا رآهُ سرفًا، لأنهُ مما امتنَّ اللهُ سبحانهُ منْ نعمتهِ وأذنَ فيهِ منْ متاعهِ، وظهرتْ وجوهُ منفعتهِ في الاكتنانِ والاستظلالِ الذي لا يقدرُ على الخروجِ عنهُ جنسُ الإنسانِ.

الثالثة: ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ﴾ أذنَ اللهُ سبحانهُ بالانتفاعِ بصوفِ الغنمِ ووبرِ الإبلِ وشعرِ المعزِ، كما أذنَ في الأعظمِ، وهوَ ذبحها وأكلُ لحومها، ولمْ يذكرِ القطنَ والكتانَ لأنهُ لمْ يكنْ في بلادِ العربِ المخاطبينَ بهِ، وإنما عددَ عليهمْ ما أنعمَ بهِ عليهمْ، وخوطبوا فيما عرفوا بما فهموا. وما قامَ مقامَ هذهِ ونابَ منابها فيدخلُ في الاستعمالِ والنعمةِ مدخلها، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ﴾ فخاطبهمْ بالبردِ لأنهمْ كانوا يعرفونَ نزولهُ كثيرًا عندهمْ، وسكتَ عنْ ذكرِ الثلجِ، لأنهُ لمْ يكنْ في بلادهمْ، وهوَ

مثلهُ في الصفةِ والمنفعةِ، وقدْ ذكرهما النبيُّ ﷺ معًا في التطهيرِ فقالَ: «اللهمَّ اغسلني بماءٍ وثلجٍ وبردٍ».

وَ ﴿أَثَٰثٗا﴾ قالَ الخليلُ: متاعًا منضمًا بعضهُ إلى بعضٍ، منْ أثَّ إذا كثرَ، وقيل: ﴿أَثَٰثٗا﴾ ثيابًا.

وتضمنتْ هذهِ الآيةُ جوازَ الانتفاعِ بالأصوافِ والأوبارِ والأشعارِ على كلِّ حالٍ، ولذلكَ قالَ أصحابنا: صوف الميتة وشعرها طاهر يجوز الانتفاعُ بهِ على كلِّ حالٍ، ويغسلُ مخافةَ أنْ يكونَ علقَ بهِ وسخٌ، وكذلكَ روتْ أمِّ سلمةَ عنِ النبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «لا بأسَ بجلدِ الميتةِ إذا دبغَ وصوفها وشعرها إذا غسلَ» لأنهُ مما لا يحلهُ الموتُ، سواءٌ كانَ شعرُ ما يؤكلُ لحمهُ أوْ لا، كشعرِ ابنِ آدمَ والخنزيرِ، فإنهُ طاهرٌ كلهُ، وبهِ قالَ أبو حنيفةَ، ولكنهُ زادَ علينا فقالَ: القرنُ والسنُّ والعظمُ مثلُ الشعرِ، قالَ: لأنَّ هذهِ الأشياءَ كلها لا روحَ فيها لا تنجسُ بموتِ الحيوانِ. وعنِ الشافعيِّ ثلاثُ رواياتٍ: **الأولى**: طاهرةٌ لا تنجسُ بالموتِ. **الثانية**: تنجسُ. **الثالثة**: الفرقُ بينَ شعرِ ابنِ آدمَ وغيرهِ، فشعرُ ابنِ آدمَ طاهرٌ وما عداهُ نجسٌ. ودليلنا عمومُ قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا﴾ الآيةَ. فمنَّ علينا بأنْ جعلَ لنا الانتفاعَ بها، ولمْ يخص شعرَ الميتةِ منَ المذكاةِ، فهوَ عمومٌ إلا أنْ يمنعَ منهُ دليلٌ. وأيضًا فإنَّ الأصلَ كونها طاهرةً قبلَ الموتِ بإجماعٍ، فمنْ زعمَ أنهُ انتقلَ إلى نجاسةٍ فعليهِ الدليلُ.

فإنْ قيلَ قولهُ: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ وذلكَ عبارةٌ عنِ الجملةِ. قلنا: نخصهُ بما ذكرنا، فإنهُ منصوصٌ عليهِ في ذكرِ الصوفِ، وليسَ في آيتكمْ ذكرهُ صريحًا، فكانَ دليلنا أولى.

وأما ما ذكرهُ الحنفيونَ في العظمِ والسنِّ والقرنِ أنهُ مثلُ الشعرِ، فالمشهورُ عندنا أنَّ ذلكَ نجسٌ كاللحمِ، ودليلنا قولهُ ﷺ: «لا تنتفعوا منَ الميتةِ بشيءٍ» وهذا عامٌّ فيها وفي كلِّ جزءٍ منها، إلا ما قامَ دليلهُ، ومنَ الدليلِ القاطعِ على ذلكَ قوله تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾، وقالَ تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا﴾، وقال: ﴿فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا﴾، وقال: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ﴾ فالأصلُ هيَ العظامُ، والروحُ والحياةُ فيها كما في اللحمِ والجلدِ. وفي حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عكيمٌ: «لا تنتفعوا منَ الميتةِ بإهابٍ ولا عصبٍ».

فإن قيل: قدْ ثبتَ في الصحيحِ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ في شاةِ ميمونةَ: «ألا انتفعتمْ بجلدها»؟ فقالوا: يا رسولَ اللهِ، إنها ميتةٌ. فقالَ: «إنما حرمَ أكلها» والعظمُ لا يؤكل. قلنا: العظم يؤكل، وخاصة عظم الحمل الرضيعِ والجديِ والطيرِ، وعظمُ الكبيرِ يشوى ويؤكلُ. وما ذكرناهُ قبلُ يدلُّ على وجودِ الحياةِ فيهِ، وما كانَ طاهرًا بالحياةِ ويستباحُ بالذكاةِ ينجسُ بالموتِ.

الرابعة: قولهُ تعالى - ﴿مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ عامٌّ في جلدِ الحيِّ والميتِ، فيجوزُ الانتفاعُ بجلودِ الميتةِ وإنْ لمْ تدبغْ، وبهِ الزهريُّ والليثُ بنُ سعدٍ، وهوَ قولٌ أباهُ جمهورُ أهلِ العلمِ.

الخامسة - اختلفَ العلماءُ في جلدِ الميتةِ إذا دبغَ هلْ يطهرُ أمْ لا، والظاهرُ منْ مذهبِ مالكٍ أنَّ الدباغَ لا يطهرُ جلدَ الميتةِ، ولكنْ يبيحُ الانتفاعَ بهِ في الأشياءِ اليابسةِ، ولا يصلى عليهِ ولا يؤكل فيه. وفى المدونة لابن القاسم: منِ اغتصبَ جلدَ ميتةٍ غيرَ مدبوغٍ فأتلفهُ كان عليه قيمته. وحكى أن ذلك قولُ مالكٍ.

قالَ أبو عمرَ: وكلُّ جلدٍ ذُكيّ فجائزٌ استعمالهُ للوضوءِ وغيرهِ. وكانَ مالكٌ يكرهُ الوضوءَ في إناءِ جلدِ الميتةِ بعدَ الدباغِ على اختلافٍ منْ قولهِ، ومرةً قالَ: إنهُ لمْ يكرههُ إلا في خاصةِ نفسهِ، وتكرهُ الصلاةُ عليهِ وبيعهُ، وتابعهُ على ذلكَ جماعةٌ منْ أصحابهِ. وأما أكثرُ المدنيينَ فعلى إباحةِ ذلكَ وإجازتهِ، لقولِ رسولِ اللهِ ﷺ: «أيما إهابٍ دبغَ فقدْ طهرَ». وعلى هذا أكثرُ أهلِ الحجازِ والعراقِ منْ أهلِ الفقهِ والحديثِ.

السادسة: ذهبَ الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أنهُ لا يجوز الانتفاع بجلود الميتة في شيء وإنْ دبغتْ، لأنها كلحمِ الميتةِ. والأخبارُ بالانتفاعِ بعدَ الدباغِ تردُّ قولهُ. واحتجَّ بحديثِ عبدِ اللهِ بنِ عكيمٍ - رواهُ أبو داودَ - قالَ: قرئَ علينا كتابَ رسولِ اللهِ ﷺ بأرضِ جهينةَ وأنا غلامٌ شابٌّ: «ألاّ تستمتعوا منَ الميتةِ بإهابٍ ولا عصبٍ». وفي روايةٍ: «قبلَ موتهِ بشهرٍ».

قالَ أبو عمرَ: ولوْ كانَ ثابتًا لاحتملَ أنْ يكونَ مخالفًا للأحاديثِ المرويةِ عنِ ابنِ عباسٍ وعائشةَ وسلمةَ بنِ المحبقِ وغيرهمْ، لأنهُ جائزٌ أنْ يكونَ معنى حديثِ ابنِ عكيمٍ: «ألا تنتفعوا منَ الميتةِ بإهابٍ» قبلَ الدباغِ، وإذا احتملَ ألا يكونَ مخالف أفليس لنا أنْ نجعلهُ مخالفًا، وعلينا أنْ نستعملَ الخبرينِ ما أمكنَ، وحديثُ عبدِ اللهِ بنِ عكيمٍ وإنْ كانَ قبلَ موتِ النبيِّ ﷺ بشهرٍ كما جاءَ في الخبرِ فيمكنُ أنْ تكونَ قصةُ ميمونةَ وسماعُ ابنِ عباسٍ منهُ «أيما إهابٍ

دبغَ فقدْ طهرَ» قبلَ موتهِ بجمعةٍ أوْ دونَ جمعةٍ، والله أعلم.

السابعة: المشهورُ عندنا أنَّ جلدَ الخنزيرِ لا يدخلُ في الحديثِ ولا يتناولهُ العمومُ، وكذلكَ الكلبُ عندَ الشافعيِّ. وعندَ الأوزاعيِّ وأبي ثورٍ: لا يطهرُ بالدباغ إلا جلدُ ما يؤكلُ لحمهُ. وروي عنْ مالكٍ أنهُ سئلَ عنْ جلدِ الخنزيرِ إذا دبغَ فكرههُ. قالَ ابنُ وضاحٍ: وسمعتُ سحنونًا يقولُ لا بأسَ بهِ، وكذلكَ قالَ محمدُ بنُ عبدِ الحكمِ وداودُ بنُ عليٍّ وأصحابهُ، لقولهِ ﷺ: «أيما مسكٍ دبغَ فقدْ طهرَ».

قالَ أبو عمرَ: يحتملُ أنْ يكونَ أرادَ بهذا القولِ عمومَ الجلودِ المعهودِ الانتفاعُ بها، فأما الخنزيرُ فلمْ يدخلْ في المعنى لأنهُ غيرُ معهودٍ الانتفاعُ بجلدهِ، إذْ لا تعملُ فيهِ الذكاةُ. ودليلٌ آخرُ وهوَ ما قالهُ النضرُ بنُ شميلٍ: إنَّ الإهابَ جلدُ البقرِ والغنمِ والإبلِ، وما عداهُ فإنما يقالُ لهُ: جلدٌ لا إهابٌ. قلتُ: وجلدُ الكلبِ وما لا يؤكلُ لحمهُ أيضًا غيرُ معهودٍ الانتفاعُ بهِ فلا يطهرُ، وقدْ قالَ ﷺ: «أكلُ كلِّ ذي نابٍ منَ السباعِ حرامٌ» فليستِ الذكاةُ فيها ذكاةٌ، كما أنها ليستْ في الخنزيرِ ذكاةٌ. وروى النسائيُّ عن المقدام بن معديكرب قالَ: «نهى رسولُ اللهِ ﷺ عنْ الحريرِ والذهبِ ومياثرِ النمورِ».

الثامنة: اختلفَ الفقهاءُ في الدباغِ التي تطهرُ بهِ جلودُ الميتةِ ما هوَ؟ فقالَ أصحابُ مالكٍ وهو المشهور من مذهبه: كل شيء دبغَ الجلدَ منْ ملحٍ أوْ قرظٍ أوْ شبٍّ أوْ غيرِ ذلكَ فقدْ جازَ الانتفاعُ بهِ. وكذلكَ قالَ أبو حنيفةَ وأصحابهُ، وهوَ قولُ داودَ. وللشافعيِّ في هذهِ المسألةِ قولانِ:

أحدهما- هذا، والآخرُ أنهُ لا يطهرُ إلا الشبُّ والقرظُ، لأنهُ الدباغُ المعهودُ على عهدِ النبي ﷺ، وعليهِ خرجَ الخطابيُّ - واللهُ أعلمُ- ما رواهُ النسائيُّ عنْ ميمونةَ زوجِ النبيِّ ﷺ أنهُ مرَّ برسولِ اللهِ ﷺ رجالٌ منْ قريشٍ يجرونَ شاةً لهمْ مثلَ الحصانِ، فقالَ لهمْ رسولُ اللهِ ﷺ: «لوْ أخذتمْ إهابها» قالوا: إنها ميتةٌ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «يطهرها الماء والقرظ».

التاسعة: قولهُ تعالى: ﴿أَثَثًا﴾ الأثاثُ متاعُ البيتِ، واحدها أثاثةٌ، وقيل: الأثاثُ جميعُ أنواعِ المالِ ولا واحدَ لهُ منْ لفظهِ. وقالَ الخليلُ: أصلهُ منَ الكثرةِ واجتماعِ بعضِ المتاعِ إلى بعضٍ حتى يكثرَ، ومنهُ شعرٌ أثيثٌ أيْ كثيرٌ.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١﴾، فيهِ ستُّ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ظِلَٰلٗا﴾ الظلالُ: كلُّ ما يستظلُّ بهِ منَ البيوتِ والشجرِ. وقولهُ ﴿مِّمَّا خَلَقَ﴾ يعمُّ جميعَ الأشخاصِ المظلةِ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَكۡنَٰنٗا﴾ الأكنان: جمح كِنٍّ، وهوَ الحافظُ منَ المطرِ والريحِ وغيرِ ذلكَ، وهيَ هنا الغيرانُ في الجبالِ، جعلها الله عدة للخلق يأوون إليها ويتحصنون بها ويعتزلون عنِ الخلقِ فيها. وفي الصحيحِ أنهُ ﷺ كانَ في أولِ أمرهِ يتعبدُ بغارِ حراءٍ ويمكثُ فيهِ الليالي.. الحديثَ، وفي صحيحِ البخاريِّ قالَ: خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ منْ مكةَ مهاجرًا هاربًا منْ قومهِ فارًا بدينهِ معَ صاحبهِ أبي بكرٍ حتى لحقا بغار في جبل ثور، فكمنا فيهِ ثلاثَ ليالٍ يبيتُ عندهما فيهِ عبدُ اللهِ بنُ أبي بكرٍ وهوَ غلامٌ شابٌّ ثقفٌ لقنٌ فيدلجُ منْ عندهما بسحرٍ فيصبحُ مع قريش بمكة كبائت فيسمع أمرًا يكادانِ بهِ إلا وعاهُ حتى يأتيهما بخبرِ ذلكَ حينَ يختلطُ الظلامُ، ويرعى عليهما عامرُ بنُ فهيرةَ مولى أبي بكرٍ منحةً منْ غنمٍ فيريحها عليهما حتى تذهبَ ساعةً منَ العشاءِ فيبيتانِ في رِسلٍ، وهوَ لبنُ منحتهما ورضيفهما حتى ينعقَ بهما عامرُ بنُ فهيرةَ بغلسٍ، يفعلُ ذلكَ في كلِّ ليلةٍ من تلك الليالي الثلاث... وذكر الحديث. انفراد بإخراجهِ البخاريُّ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ يعني القمصَ، واحدها سربالٌ ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ﴾ يعني الدروعَ التي تقي الناسَ في الحربِ، ومنهُ قولُ كعبِ بنِ زهيرٍ:

شمُّ العرانينِ أبطالٌ لبوسهمْ   منْ نسجِ داودَ في الهيجا سرابيلُ

الرابعة: إنْ قالَ قائلٌ: كيفَ قالَ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا﴾ ولم يذكر السهل، وقال: ﴿تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ ولم يذكر البرد؟ فالجواب أنهم كانوا أصحابَ جبالٍ ولمْ يكونوا أصحابَ سهلٍ، وكانوا أهلَ حرٍّ ولمْ يكونوا أهلَ بردٍ، فذكرَ لهمْ نعمهُ التي تختصُّ

بهِمْ كما خصهمْ بذكرِ الصوفِ وغيرهِ، ولمْ يذكرِ القطنَ والكتانَ ولا الثلجَ - كما تقدمَ- فإنهُ لمْ يكنْ ببلادهمْ، وأيضا: فذكر أحدهما يدل على الآخرِ، ومنهُ قولُ الشاعرِ:

وما أدري إذا يممتُ أرضًا أريدُ الخيرَ أيهما يليني
أألخيرُ الذي أنا أبتغيهِ أمِ الشرُّ الذي هوَ يبتغيني

الخامسة: قالَ العلماءُ: في قوله تعالى: ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ﴾ دليلٌ على اتخاذِ العبادِ عدةَ الجهادِ ليستعينوا بها على قتالِ الأعداءِ، وقدْ لبسها النبيُّ ﷺ تقاة الجراحةِ وإنْ كانَ يطلبُ الشهادةَ، وليسَ للعبدِ أنْ يطلبها بأنْ يستسلمَ للحتوفِ وللطعنِ بالسنانِ وللضربِ بالسيوفِ، ولكنهُ يلبسُ لأمةَ حربٍ لتكونَ لهُ قوةً على قتالِ عدوهِ، ويقاتلُ لتكونَ كلمةُ اللهِ هيَ العليا، ويفعلُ اللهُ بعدُ ما يشاءُ.

السادسة: قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ قراءةُ ابنِ عباسٍ وعكرمةَ «تَسْلَمُونَ» بفتحِ التاءِ واللامِ، أيْ تسلمونَ منَ الجراحِ، وإسنادهُ ضعيفٌ. الباقونَ بضمِّ التاءِ، ومعناهُ تستسلمونَ وتنقادونَ إلى معرفةِ اللهِ وطاعتهِ شكرًا على نعمهِ. قالَ أبو عبيدٍ: والاختيارُ قراءةُ العامةِ، لأنَّ ما أنعمَ اللهُ بهِ علينا منَ الإسلامِ أفضلُ مما أنعمَ بهِ من السلامة من الجراح.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أيْ أعرضوا عنِ النظرِ والاستدلال والإيمان ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٨٢﴾ أيْ ليسَ عليكَ إلا التبليغُ، وأما الهدايةُ فإلينا.

قوله تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ يعني محمدًا ﷺ، أي يعرفون نبوته ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ ويكذبونهُ. وقيل: يريدُ ما عددَ اللهُ عليهمْ في هذهِ السورةِ منَ النعمِ، أيْ يعرفونَ أنها منْ عندِ اللهِ وينكرونها بقولهمْ إنهمْ ورثوا ذلكَ عنْ آبائهمْ. وقالَ عونُ بنُ عبدِ اللهِ: هوَ قولُ الرجلِ لولا فلانٌ لكانَ كذا، ولولا فلانٌ ما أصبتُ كذا، وهمْ يعرفونَ النفعَ والضرَّ منْ عندِ اللهِ.

وقيل: يعرفونَ نعمةَ اللهِ بتقلبهمْ فيها، وينكرونها بتركِ الشكرِ عليها. ويحتملُ - يعرفونها

في الشدةِ وينكرونها في الرخاءِ. ويحتملُ: يعرفونها بأقوالهمْ وينكرونها بأفعالهمْ. ويحتملُ: يعرفونها بقلوبهمْ ويجحدونها بألسنتهمْ، نظيرها: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ٨٣﴾ يعني جميعهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ نظيرهُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ﴾ وقدْ تقدمَ ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أيْ في الاعتذارِ والكلامِ، كقولهِ: ﴿ولا يؤذنُ لهمْ فيعتذرونَ﴾ وذلكَ حينَ تطبقُ عليهمْ جهنمُ ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ٨٤﴾ يعني يسترضونَ، أيْ لا يكلفونَ أنْ يرضوا ربهمْ، لأنَّ الآخرةَ ليستْ بدارِ تكليفٍ، ولا يتركونَ إلى رجوعِ الدنيا فيتوبونَ. وأصلُ الكلمةِ منَ العتبِ وهيَ الموجدةُ، يقالُ: عتبَ عليهِ يعتبُ إذا وجدَ عليهِ، فإذا فاوضهُ ما عتبَ عليهِ فيهِ قيلَ عاتبهُ، فإذا رجعَ إلى مسرتكَ فقدْ أعتبَ، والاسمُ العتبى وهوَ رجوعُ المعتوبِ عليهِ إلى ما يرضى العاتب، قالَ النابغةُ:

فإنْ كنتُ مظلومًا فعبدًا ظلمتهُ وإنْ كنتَ ذا عتبى فمثلكَ يعتبُ

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أيْ أشركوا ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ أيْ عذابَ جهنمَ بالدخولِ فيها ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ٨٥﴾ أيْ لا يمهلونَ، إذْ لا توبةَ لهم ثم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ﴾ أيْ أصنامهمْ وأوثانهمُ التي عبدوها، وذلكَ أنَّ اللهَ يبعثُ معبوديهمْ فيتبعونهمْ حتى يوردوهمُ النارَ. وفي صحيحِ مسلمٍ: «منْ كانَ يعبدُ شيئًا فليتبعهُ فيتبعُ منْ كانَ يعبدُ الشمسَ الشمسَ ويتبعُ منْ كانَ يعبدُ القمرَ القمرَ ويتبعُ منْ كانَ يعبدُ الطواغيتَ الطواغيتَ» الحديثَ، خرجهُ منْ حديثِ أنسٍ، والترمذيُّ منْ حديثِ أبي هريرةَ، وفيهِ: «فيمثلُ لصاحبِ الصليبِ صليبهُ ولصاحبِ التصاويرِ تصاويرهُ ولصاحبِ النارِ نارهُ فيتبعونَ ما كانوا يعبدونَ» وذكرَ الحديثَ ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ﴾ أيِ الذينَ جعلناهمْ لكَ شركاءُ ﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ٨٦﴾ أيْ ألقتْ إليهمُ الآلهةُ القولَ، أيْ نطقتْ بتكذيبِ منْ عبدها بأنها لمْ تكنْ آلهةً، ولا أمرتهم بعبادتها، فينطق اللهُ الأصنامَ حتى تظهرَ عندَ ذلكَ فضيحةُ الكفارِ. وقيل: المرادُ بذلكَ الملائكةُ الذينَ عبدوهمْ.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ يعني المشركينَ، أيِ استسلموا العذابِه وخضعوا العزهِ. وقيل: استسلمَ العابدُ والمعبودُ وانقادوا الحكمهِ فيهمْ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ أيْ زالَ عنهمْ ما زينَ لهمُ الشيطانُ وما كانوا يؤملونَ منْ شفاعة آلهتهم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ قيلَ: المعنى يخرجونَ منَ النارِ إلى الزمهريرِ فيبادرونَ منْ شدةِ بردهِ إلى النارِ. وقيل: المعنى زدنا القادةَ عذابًا فوقَ السفلةِ، فأحدُ العذابينِ على كفرهمْ والعذابُ الآخرِ على صدهمْ ﴿بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ في الدنيا منَ الكفرِ والمعصية.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وهمُ الأنبياءُ شهداءُ على أممهمْ يومَ القيامةِ بأنهمْ قدْ بلغوا الرسالةَ ودعوهمْ إلى الإيمانِ، وفي كلِّ زمانٍ شهيدٌ وإنْ لمْ يكنْ نبيًا، وفيهمْ قولانِ:

أحدهما- أنهمْ أئمةُ الهدى الذينَ همْ خلفاءُ الأنبياءِ.

الثاني- أنهمُ العلماءُ الذينَ حفظَ اللهُ بهمْ شرائعَ أنبيائهِ.

قلتُ: فعلى هذا لمْ تكنْ فترةً إلا وفيها منْ يوحدُ اللهَ، كقسِّ بنِ ساعدةَ، وزيدِ بن عمرو ابن نفيلِ الذي قالَ فيهِ النبيُّ ﷺ: «يبعثُ أمةً وحدهُ»، وورقةَ ابن نوفلِ الذي قالَ فيهِ النبيُّ ﷺ: «رأيتهُ ينغمسُ في أنهارِ الجنةِ». فهؤلاءِ ومنْ كانَ مثلهمْ حجةٌ على أهلِ زمانهم وشهيد عليهم. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ نظيرهُ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ وقدْ تقدمَ، فلينظرْ هناكَ. وقالَ مجاهدٌ: تبيانا للحلال والحرام. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾، فيهِ ستُّ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ قالَ ابنُ مسعودٍ: هذهِ أجمعُ

آيةٍ في القرآنِ لخيرٍ يمتثلُ، ولشرٍّ يجتنبُ.

الثانية: اختلفَ العلماءُ في تأويلِ العدلِ والإحسانِ، فقالَ ابنُ عباسٍ: العدلُ لا إلهَ إلا اللهُ، والإحسانُ أداءُ الفرائضِ. وقيل: العدلُ الفرضُ، والإحسانُ النافلةُ. وقيل: العدلُ هوَ كلُّ مفروضٍ، منْ عقائدَ وشرائعَ في أداءِ الأماناتِ، وتركُ الظلمِ والإنصافُ، وإعطاءُ الحقِّ. والإحسانُ هوَ فعلُ كلِّ مندوبٍ إليهِ، فإنما الإحسانُ التكميلاتُ والمندوبُ إليهِ حسبما يقتضيهِ تفسيرُ النبيِّ ﷺ في حديثِ سؤالِ جبريلَ بقولهِ: «أنْ تعبدَ اللهَ كأنكَ تراهُ فإنْ لمْ تكنْ تراهُ فإنهُ يراكَ».

وقالَ ابنُ العربيِّ: العدلُ بينَ العبدِ وبينَ ربهِ إيثارُ حقهِ تعالى على حظِّ نفسهِ، وتقديمُ رضاهُ على هواهُ، والاجتنابُ للزواجرِ والامتثالُ للأوامرِ. وأما العدلُ بينهُ وبينَ نفسهِ فمنعها مما فيهِ هلاكها، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾، وأما العدلُ بينهُ وبينَ الخلقِ فبذلُ النصيحةِ، وتركُ الخيانةِ فيما قلَّ وكثرَ.

وأما الإحسانُ فقدْ قالَ علماؤنا: الإحسانُ مصدرُ أحسنَ يحسنُ إحسانًا، ويقالُ على معنيينِ:

أحدهما: متعدٍّ بنفسهِ، كقولكَ: أحسنتُ كذا، أي حسنته وكلمته، وهوَ منقولٌ بالهمزةِ منْ حسنَ الشيءَ.

وثانيهما: متعدٍّ بحرفِ جرٍّ، كقولكَ: أحسنتُ إلى فلانٍ، أيْ أوصلتُ إليهِ ما ينتفعُ بهِ.

قلتُ: وهوَ في هذهِ الآيةِ مرادٌ بالمعنيينِ معًا، فإنهُ تعالى يحبُّ منْ خلقهِ إحسانَ بعضهمْ إلى بعضٍ.

الثالثة: قولهُ تعالى: ﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي القرابةِ، يقولُ: يعطيهمُ المالَ كما قالَ: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ يعني صلتهُ. وهذا منْ بابِ عطفِ المندوبِ على الواجبِ، وبهِ استدلَّ الشافعيُّ في إيجابِ إيتاءِ المكاتبِ، وإنما خصَّ ذا القربى لأنَّ حقوقهمْ أوكدُ وصلتهمْ أوجبُ، لتأكيدِ حقِّ الرحمِ التي اشتقَّ اللهُ اسمها منَ اسمهِ، وجعلَ صلتها منْ صلتهِ، فقالَ في الصحيحِ: «أما ترضينَ أنْ أصلَ منْ وصلكِ وأقطعَ منْ قطعكِ»، ولا سيما إذا كانوا فقراءَ.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ﴾ الفحشاءُ: الفحشُ، وهوَ كلُّ قبيحٍ منْ قولٍ أوْ فعلٍ. وقيل: هو الزنى. والمنكرُ: ما أنكرهُ الشرعُ بالنهيِ عنهُ، وهوَ يعمُّ جميعَ المعاصي والرذائلِ والدناءاتِ على اختلافِ أنواعها. وقيلَ: هوَ الشركُ. والبغيُ: هوَ الكبرُ والظلمُ والحقدُ والتعدي، وحقيقتهُ تجاوزُ الحدِّ، وهوَ داخلٌ تحتَ المنكرِ، لكنهُ تعالى خصهُ بالذكرِ اهتمامًا بهِ لشدةِ ضررهِ.

الخامسة: ترجم البخاريُّ في صحيحهِ فقالَ: «بابُ قوله اللهِ تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾، وقولهِ: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾، ﴿ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾، وتركِ إثارةِ الشرِّ على مسلمٍ أوْ كافرٍ» ثمَّ ذكرَ حديثَ عائشةَ في سحرِ لبيدِ ابن الأعصمِ النبيِّ ﷺ. قالَ ابنُ بطالٍ: فتأولَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منْ هذهِ الآياتِ تركَ إثارةِ الشرِّ على مسلمٍ أوْ كافرٍ، كما دلَّ عليهِ حديثُ عائشةَ حيثُ قالَ ﷺ: «أما اللهُ فقدْ شفاني وأما أنا فأكرهُ أنْ أثيرَ على الناسِ شرًا». ووجهُ ذلكَ - واللهُ أعلمُ - أنهُ تأولَ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الندبَ بالإحسانِ إلى المسيءِ وتركَ معاقبتهِ على إساءتهِ.

فإن قيل: كيفَ يصحُّ هذا التأويلُ في آياتِ البغي.

قيلَ: وجهُ ذلكَ - واللهُ أعلمُ - أنهُ لما أعلمَ اللهُ عبادهُ بأنَّ ضررَ البغيِ ينصرفُ على الباغي بقولهِ: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ وضمنَ تعالى نصرةَ منْ بُغيَ عليهِ، كانَ الأولى بمنْ بغيَ عليهِ شكرَ اللهِ على ما ضمنَ منْ نصرهِ ومقابلةِ ذلكَ بالعفوِ عمنْ بغى عليهِ، وكذلكَ فعلَ النبيُّ ﷺ باليهوديِّ الذي سحرهُ، وقدْ كانَ لهُ الانتقامُ منهُ بقولهِ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾. ولكنْ آثرَ الصفحَ أخذًا بقولهِ: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾.

السادسة: تضمنتْ هذهِ الآيةُ الأمر بالمعروفِ والنهيَ عنِ المنكرِ.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ لفظٌ عامٌّ لجميعِ ما يعقدُ باللسانِ ويلتزمه الإنسان من بيع أو صلة أو مواثقة في أمر موافق للديانة. وهذه الآية مضمَّن قوله: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ لأنَّ المعنى فيها: افعلوا كذا، وانتهوا عنْ كذا، فعطفَ على ذلكَ التقديرِ. وقدْ قيلَ: إنها نزلتْ في بيعةِ النبيِّ ﷺ على الإسلامِ. وقيل: نزلتْ في التزامِ الحلفِ الذي كانَ في الجاهليةِ وجاءَ الإسلامُ بالوفاء به، والعمومُ يتناولُ كلَّ ذلكَ كما بيناهُ. روى الصحيحُ عنْ جبيرِ بنِ مطعمٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا حلفَ في الإسلامِ وأيما حلفٍ كانَ في الجاهليةِ لمْ يزدهُ الإسلامُ إلا شدةً» يعني في نصرةِ الحقِّ والقيامِ بهِ والمواساةِ. وهذا كنحوِ حلفِ الفضولِ الذي ذكرهُ ابنُ إسحاقَ فقالَ: اجتمعتْ قبائلُ منْ قريشٍ في دارِ عبدِ اللهِ بنِ جدعانَ لشرفهِ ونسبهِ، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكةَ مظلومًا منْ أهلها أوْ غيرهمْ إلا قاموا معهُ حتى تردَّ عليهِ مظلمتهُ، فسمتْ قريشٌ ذلكَ الحلفَ حلفَ الفضولِ، أيْ حلفَ الفضائلِ. والفضولُ هنا جمعُ فضلٍ للكثرةِ كفلسٍ وفلوسٍ.

وروى ابنُ إسحاقَ عنِ ابنِ شهابٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لقدْ شهدتُ في دارِ عبدِ اللهِ بنِ جدعانَ حلفًا ما أحبُّ أنَّ لي بهِ حمرُ النعمِ لوْ أدعى بهِ في الإسلامِ لأجبت».

قال العلماءُ: فهذا الحلفُ الذي كانَ في الجاهليةِ هوَ الذي شدهُ الإسلامُ وخصهُ النبيُّ ﷺ منْ عمومِ قولهِ: «لا حلفَ في الإسلامِ». والحكمةُ في ذلكَ أنَّ الشرعَ جاءَ بالانتصارِ منَ الظالمِ وأخذِ الحقِّ منهُ وإيصالهِ إلى المظلومِ، وأوجبَ ذلكَ بأصلِ الشريعةِ إيجابًا عامًا على منْ قدرَ منَ المكلفينَ، وجعلَ لهمُ السبيلَ على الظالمينَ فقالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وفي الصحيح من قوله: «انصرْ أخاكَ ظالمًا أوْ مظلومًا» قالوا: يا رسولَ اللهِ، هذا ننصرهُ مظلومًا فكيفَ ننصرهُ ظالمًا؟ قالَ: «تأخذُ على يديهِ - في روايةٍ: تمنعهُ منَ الظلمِ - فإنَّ ذلكَ نصرهُ».

وقدْ تقدمَ قولهُ ﷺ: «إنَّ الناسَ إذا رأوا الظالمَ ولمْ يأخذوا على يديهِ أوشكَ أنْ يعمهمُ اللهُ بعقابٍ منْ عندهِ».

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ يقولُ بعدَ تشديدها وتغليظها، يقالُ: توكيدٌ وتأكيدٌ، ووكّدَ وأكدَ، وهما لغتانِ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ يعني شهيدًا. ويقالُ: حافظًا، ويقالُ: ضامنًا. وإنما قالَ: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ فرقًا بينَ اليمينِ المؤكدةِ بالعزمِ وبينَ لغوِ اليمينِ.

وعنْ مالكٍ التوكيدُ هوَ حلفُ الإنسانِ في الشيءِ الواحدِ مرارًا، يرددُ فيهِ الأيمانَ ثلاثًا أوْ أكثرَ منْ ذلكَ، قالَ: فكفارةُ ذلكَ واحدةٌ مثلُ كفارةِ اليمينِ. وقالَ يحيى بنُ سعيدٍ: هيَ العهودُ، والعهدُ يمينٌ، ولكنَّ الفرقَ بينهما أنَّ العهدَ لا يُكفَرُ. قالَ النبيُّ ﷺ: «ينصبُ لكلِ غادرٍ لواءٌ يومَ القيامةِ عندَ استهِ بقدرِ غدرتهِ يقالُ هذهِ غدرةُ فلانٍ». وأما اليمينُ باللهِ فقدْ شرعَ اللهُ سبحانهُ فيها الكفارةَ بخصلةٍ واحدةٍ، وحلَّ ما انعقدتْ عليهِ اليمينُ.

وقالَ ابنُ عمرَ: التوكيدُ هوَ أنْ يحلفَ مرتينِ، فإنْ حلفَ واحدةً فلا كفارةَ فيه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ النقضُ والنكثُ واحدٌ، والاسمُ النكثُ والنقضُ، والجمعُ الأنكاثُ فشبهتْ هذهِ الآيةُ الذي يحلفُ ويعاهدُ ويبرمُ عهدهُ ثمَّ ينقضهُ بالمرأةِ تغزلُ غزلها وتفتلهُ محكمًا ثمَّ تحلهُ.

وأنكاثًا نصبَ على الحالِ. والدخلُ: الدغلُ والخديعةُ والغشُّ ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ المقصودُ النهيُ عنِ العودِ إلى الكفرِ بسببِ كثرةِ الكفارِ وكثرةِ أموالهمْ ﴿أَرْبَىٰ﴾ أيْ أكثرُ، من ربى الشيءُ يربو إذا كثرَ. والضميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ يحتملُ أنْ يعودَ على الوفاءِ الذي أمرَ اللهُ بهِ. ويحتملُ أنْ يعودَ على الرباءِ، أيْ أنَّ اللهَ تعالى ابتلى عبادهُ بالتحاسدِ وطلبِ بعضهمُ الظهورَ على بعضٍ، واختبرهمْ بذلكَ منْ يجاهدُ نفسهُ فيخالفها ممنْ يتبعها ويعملُ بمقتضى هواها، وهوَ معنى قولهِ: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾ من البعث وغيره.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أيْ على ملةٍ واحدةٍ ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ بخذلانهِ إياهمْ، عدلًا منهُ فيهمْ ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ بتوفيقهِ إياهمْ، فضلًا منهُ عليهمْ، ولا يسألُ عما يفعلُ بلْ تسألونَ أنتمْ. والآيةُ تردُّ على أهلِ القدرِ كما تقدمَ. ﴿وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٩٣﴾ اللامُ في ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ﴾ ﴿وَلَتُسۡـَٔلُنَّ﴾ معَ النونِ المشددةِ يدلانِ على قسمٍ مضمرٍ، أيْ واللهِ ليبينن لكم ولتسألن.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ كررَ ذلكَ تأكيدًا ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ مبالغةً في النهيِ عنهُ لعظمِ موقعهِ في الدينِ وتردده في معاشراتِ الناسِ، أيْ لا تعقدوا الأيمانَ بالانطواءِ على الخديعةِ والفسادِ فتزلَّ قدمٌ بعدَ ثبوتها، أيْ عنِ الأيمانِ بعدَ المعرفةِ باللهِ. وهذهِ استعارةٌ للمستقيمِ الحالِ يقعُ في شرٍّ عظيمٍ ويسقطُ فيهِ، لأنَّ القدمَ إذا زلتْ نقلتِ الإنسانَ منْ حالِ خيرٍ إلى حالِ شرٍّ، ومنْ هذا المعنى قولُ كثيرٍ:

فلما توافينا ثبتُّ وزلتِ

والعربُ تقولُ لكلِّ مبتلى بعدَ عافيةٍ أوْ ساقطٍ في ورطةٍ: زلتْ قدمهُ، كقولِ الشاعرِ:

سيمنعُ منكَ السبقُ إنْ كنتَ سابقًا ... وتقتلُ إنْ زلتْ بكَ القدمانِ

ويقال لمن أخطأ في شي: زلَّ فيهِ.

ثمَّ توعدَ تعالى بعدُ، بعذابٍ في الدنيا وعذابٍ عظيمٍ في الآخرةِ. وهذا الوعيدُ إنما هوَ فيمنْ نقضَ عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ، فإنَّ منْ عاهدهُ ثمَّ نقضَ عهدهُ خرجَ منَ الإيمانِ، ولهذا قالَ: ﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أيْ بصدكمْ. وذوقُ السوءِ في الدنيا هوَ ما يحلُّ بهمْ منَ المكروهِ ﴿وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٩٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩٥﴾ نهى عنِ الرشا وأخذِ الأموالِ على نقضِ العهدِ، أيْ لا تنقضوا عهودكمْ لعرضٍ قليلٍ منَ الدنيا. وإنما كانَ قليلًا وإنْ كثرَ لأنهُ مما يزولُ، فهوَ على التحقيقِ قليلٌ، وهو المراد بقوله: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾ فبينَ الفرقَ بينَ حالِ الدنيا وحالِ الآخرةِ بأنَّ هذهِ تنفدُ وتحولُ، وما عندَ اللهِ منْ مواهبِ فضلهِ ونعيمِ جنتهِ ثابتٌ لا يزولُ لمنْ وفى

بالعهدِ وثبتَ على العقدِ. ولقدْ أحسنَ منْ قالَ:

المالُ ينفدُ حلهُ وحرامهُ   يومًا وتبقى في غدٍ آثامهُ
ليسَ التقيُّ بمتقٍ لإلههِ   حتى يطيبَ شرابهُ وطعامهُ

آخرُ:

هبِ الدنيا تساقُ إليكَ عفوًا   أليسَ مصيرُ ذاكَ إلى انتقالِ
وما دنياكَ إلا مثل فيءٍ   أظلكَ ثمَّ آذنَ بالزوالِ

قوله تعالى: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ أيْ على الإسلامِ والطاعاتِ وعنِ المعاصي ﴿أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٩٦﴾ أيْ منَ الطاعاتِ، وجعلها أحسنَ لأنَّ ما عداها منَ الحسنِ مباحٌ، والجزاءُ إنما يكونُ على الطاعاتِ منْ حيثُ الوعدِ منَ اللهِ. وقرأ عاصمٌ وابنُ كثيرٍ «وَلَنَجْزِيَنَّ» بالنونِ على التعظيم. الباقون بالياء.

وقيل: إن هذه الآية ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ﴾ إلى هنا نزلت في امرئ القيس الكنديِّ وخصمهِ ابنِ أسوعَ، اختصما في أرضٍ فأرادَ امرؤُ القيسِ أنْ يحلفَ فلما سمعَ هذهِ الآيةَ نكلَ وأقرَّ لهُ بحقهِ، واللهُ أعلم.

قوله تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ﴾ شرطٌ وجوابهُ. وفي الحياةِ الطيبةِ أقوال:

الأولُ- أنهُ الرزقُ الحلالُ. **الثاني**- القناعةُ. **الثالثُ**- توفيقهُ إلى الطاعاتِ فإنها تؤديهِ إلى رضوانِ اللهِ. **وقيل**: هيَ الجنةُ، فلا تطيبُ الحياةُ لأحدٍ إلا في الجنةِ. **وقيل**: هيَ السعادةُ. **وقيل**: هيَ المعرفةُ باللهِ، وصدقُ المقامِ بينَ يدي اللهِ. **وقيل**: الاستغناءُ عنِ الخلقِ والافتقارُ إلى الحقِّ. **وقيل**: الرضا بالقضاءِ.

﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم﴾ أيْ في الآخرةِ ﴿بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٩٧﴾. وقالَ: ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ﴾ ثمَّ قالَ: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ﴾ لأنَّ ﴿مَنۡ﴾ يصلحُ للواحدِ والجمعِ، فأعادَ مرةً على اللفظِ ومرة على المعنى.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨﴾، فيهِ مسالةٌ واحدةٌ- وهيَ أنَّ هذهِ الآيةَ متصلةٌ بقولهِ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ فإذا أخذتَ في قراءتهِ فاستعذْ باللهِ منْ أنْ يعرضَ لكَ الشيطانُ فيصدكَ عن تدبرِهِ والعمل بما فيهِ، وليسَ يريدُ استعذْ بعدَ القراءةِ، بلْ هوَ كقولكَ إذا أكلتَ فقلْ بسمِ اللهِ، أيْ إذا أردتَ أنْ تأكلَ. وقدْ روى جبيرُ بنُ مطعمٍ عنْ أبيهِ قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ حينَ افتتحَ الصلاةَ قالَ: «اللهمَّ إني أعوذُ بكَ منَ الشيطانِ منْ همزهِ ونفخهِ ونفثهِ». وروى أبو سعيدٍ الخدريُّ أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يتعوذُ في صلاتهِ قبلَ القراءةِ.

قالَ ألكيا الطبريُّ: ونقلَ عنْ بعضِ السلفِ التعوذُ بعدَ القراءةِ مطلقًا، احتجاجًا بقولهِ تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ ولا شكَّ أنَّ ظاهرَ ذلكَ يقتضي أنْ تكونَ الاستعاذةُ بعدَ القراءةِ، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا﴾. إلا أنَّ غيرهُ محتملٌ، مثلُ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ وليسَ المرادُ بهِ أنْ يسألها منْ وراءِ حجابٍ بعدَ سؤالٍ. ومثلهُ قولُ القائلِ: إذا قلتَ فاصدقْ، وإذا أحرمتَ فاغتسلْ، يعني قبلَ الإحرامِ. والمعنى في جميعِ ذلكَ: إذا أردتَ ذلكَ، فكذلكَ الاستعاذةُ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أيْ بالإغواءِ والكفرِ، وقيلَ: لا حجةَ لهُ على ما يدعوهمْ إليهِ منَ المعاصي. وقيل: إنهُ ليسَ عليهمْ سلطانٌ بحالٍ، لأنَّ اللهَ تعالى صرف سلطانهُ عليهمْ حينَ قالَ عدوُّ اللهِ إبليسُ لعنهُ اللهُ: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ٤٠﴾ قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾.

قلتُ: قدْ بينا أنَّ هذا عامٌّ يدخلهُ التخصيصُ، وقدْ أغوى آدمَ وحواءَ عليهما السلام بسلطانهِ، وقدْ شوشَ على الفضلاءِ أوقاتهمْ بقولهِ: منْ خلقَ ربكَ؟

﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ أيْ يطيعونهُ. يقالُ: توليتهُ أيْ أطعتهُ، وتوليتُ عنهُ، أيْ أعرضتُ عنهُ ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ١٠٠﴾ أيْ باللهِ، وقيل: يرجعُ ﴿بِهِۦ﴾ إلى

الشيطانِ، والمعنى: والذينَ همْ منْ أجلهِ مشركونَ. يقالُ: كفرتَ بهذهِ الكلمةِ، أيْ منْ أجلها. وصارَ فلانٌ بكَ عالمًا، أيْ منْ أجلكَ. أيْ والذي تولى الشيطان مشركون بالله.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ قيلَ: المعنى بدلنا شريعةً متقدمةً بشريعةٍ مستأنفةٍ، وقالَ الجمهورُ: نسخنا آيةً بآيةٍ أشدَّ منها عليهمْ. والنسخُ والتبديلُ رفعُ الشيءِ مع وضع غير مكانهُ ﴿قَالُوٓاْ﴾ يريدُ كفارَ قريشٍ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ أيْ كاذبٌ مختلقٌ، وذلكَ لما رأوا من تبديل الحكم. فقال الله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ أنَّ اللهَ شرعَ الأحكامَ وتبديلَ البعض بالبعض. وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ يعني جبريلَ، نزلَ بالقرآنِ كلهِ ناسخهِ ومنسوخهِ ﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أيْ منْ كلامِ ربكَ ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أيْ بما فيهِ منَ الحججِ والآياتِ ﴿وَهُدًى﴾ أيْ وهو هدى ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ الذي قالوا إنما يعلمهُ، هو غلامٌ الفاكهُ بنُ المغيرةِ واسمهُ جبرٌ، كانَ نصرانيًا فأسلمَ، وكانوا إذا سمعوا منَ النبيِّ ﷺ ما مضى وما هوَ آتٍ معَ أنهُ أميٌّ لمْ يقرأْ قالوا: إنما يعلمهُ جبرٌ وهوَ أعجميٌّ، فقالَ اللهُ تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ أيْ كيفَ يعلمهُ جبرٌ وهوَ أعجميٌّ هذا الكلامَ الذي لا يستطيعُ الإنسُ والجنُّ أنْ يعارضوا منهُ سورةً واحدةً فما فوقها.

﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾ الإلحادُ: الميلُ، يقالُ: لحدَ وألحدَ، أيْ مالَ عنِ القصدِ، وقرأ حمزةُ «يَلْحَدُونَ» بفتحِ الياءِ والحاءِ، أيْ لسانُ الذي يميلونَ إليهِ ويشيرونَ أعجميٌّ. والعجمةُ: الإخفاءُ وضدُّ البيان. ورجل أعجم وامرأة عجماء، أيْ لا يفصحُ، والعجماء: البهيمةُ، لأنها لا توضحُ عنْ نفسها. وأعجمتُ الكتابَ أيْ أزلتُ عجمتهُ. والعربُ تسمي كلَّ منْ لا يعرفُ لغتهمْ ولا يتكلمُ بكلامهمْ أعجميًا.

وقيل: الأعجمُ الذي في لسانهِ عجمةٌ وإنْ كانَ منَ العربِ، والأعجميُّ أوِ العجميُّ الذي أصلهُ منَ العجمِ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أيْ هؤلاءِ المشركونَ الذينَ لا يؤمنونَ بالقرآنِ ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ هذا جوابُ وصفهمُ النبيَّ ﷺ بالافتراءِ ﴿وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ هذا مبالغةٌ في وصفهمْ بالكذبِ، أيْ كلُّ كذبٍ قليلٌ بالنسبةِ إلى كذبهمْ. ويقالُ: كذبَ فلانٌ ولا يقالُ إنهُ كاذبٌ، لأنَّ الفعلَ قدْ يكونُ لازمًا وقدْ لا يكونُ لازما. فأما النعت فيكون لازم ولهذا يقالُ: عصى آدمُ ربهُ فغوى، ولا يقالُ: إنهُ عاصٍ غاوٍ فإذا قيلَ: كذبَ فلانٌ فهوَ كاذبٌ، كانَ مبالغةً في الوصفِ بالكذب.

قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾، فيهِ إحدى وعشرونَ مسألةً:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾ هذا متصلٌ بقولهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ فكانَ مبالغةً في الوصفِ بالكذبِ، لأنَّ معناهُ لا ترتدوا عنْ بيعةِ الرسولِ ﷺ. أيْ منْ كفرَ منْ بعدِ إيمانهِ وارتدَّ فعليهِ غضبُ اللهِ. وقيل: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ﴾ بدلٌ ممنْ يفتري الكذبَ، أيْ إنما يفتري الكذبَ منْ كفرَ باللهِ منْ بعدِ إيمانهِ، لأنهُ رأى الكلامَ إلى آخرِ الاستثناءِ غيرَ تامٍّ فعلقهُ بما قبلهُ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ هذهِ الآيةُ نزلتْ في عمارِ بنِ ياسرٍ، في قولِ أهلِ التفسيرِ، لأنهُ قاربَ بعضَ ما ندبوهُ إليهِ. قالَ ابنُ عباسٍ: أخذهُ المشركونَ وأخذوا أباهُ وأمهُ سميةَ وصهيبًا وبلالًا وخبابًا وسالمًا فعذبوهمْ، وربطتْ سميةُ بينَ بعيرينِ ووجيءَ قُبُلها بحربةٍ، وقيلَ: لها إنكِ أسلمتِ منْ أجلِ الرجالِ، فقتلتْ وقتلَ زوجها ياسرٌ، وهما أولُ قتيلينِ في الإسلام. وأما عمارٌ فأعطاهمْ ما أرادوا بلسانهِ مكرهًا، فشكا ذلكَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فقالَ لهُ رسولُ اللهِ ﷺ: «كيفَ تجدُ قلبكَ»؟ قالَ: مطمئنٌّ بالإيمانِ. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «فإنْ عادوا فعدْ».

الثالثة: لما سمحَ اللهُ عزَّ وجلَّ بالكفرِ بهِ وهوَ أصلُ الشريعةِ عندَ الإكراهِ ولمْ يؤاخذْ بهِ، حملَ العلماءُ عليهِ فروعَ الشريعةِ كلها، فإذا وقعَ الإكراهُ عليها لمْ يؤاخذْ بهِ ولم يترتب عليهِ حكمٌ، وبهِ جاءَ الأثرُ المشهورُ عنِ النبيِّ ﷺ: «رفعَ عنْ أمتي الخطأُ والنسيانُ وما استكرهوا عليهِ» الحديثَ. والخبر وإن لم يصح سنده فإن معنا صحيحٌ باتفاقٍ منَ العلماءِ.

الرابعة: أجمعَ أهلُ العلمِ على أنَّ منْ أكرهَ على الكفرِ حتى خشيَ على نفسهِ القتلَ، أنهُ لا إثمَ عليهِ إنْ كفرَ وقلبهُ مطمئنٌّ بالإيمانِ، ولا تبينُ منهُ زوجتهُ ولا يحكمُ عليهِ بحكمِ الكفرِ، هذا قولُ مالكٍ والكوفيينَ والشافعيِّ، غيرَ محمدِ بنِ الحسنِ فإنهُ قالَ: إذا أظهرَ الشركَ كانَ مرتدًا في الظاهرِ، وفيما بينهُ وبينَ اللهِ تعالى على الإسلامِ، وتبينُ منهُ امرأتهُ ولا يصلى عليهِ إنْ ماتَ، ولا يرثُ أباهُ إنْ ماتَ مسلمًا. وهذا قولٌ يردهُ الكتابُ والسنةُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ الآيةَ. وقالَ: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ وقالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآيةَ. وقالَ: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ الآيةَ. فعذرَ اللهُ المستضعفينَ الذينَ يمتنعونَ منْ تركِ ما أمرَ اللهُ بهِ، والمكرهُ لا يكونُ إلا مستضعفًا غيرَ ممتنعٍ منْ فعلِ ما أمرَ بهِ، قالهُ البخاريُّ.

الخامسة: ذهبتْ طائفةٌ منَ العلماءِ إلى أنَّ الرخصةَ إنما جاءتْ في القولِ، وأما في الفعلِ فلا رخصةَ فيهِ، مثلَ أنْ يكرهوا على السجودِ لغيرِ اللهِ أوِ الصلاةِ لغيرِ القبلةِ، أوْ قتلِ مسلمٍ أوْ ضربه أو أكل ماله، أو الزنى وشربِ الخمرِ وأكلِ الربا، يروى هذا عنِ الحسنِ البصريِّ، رضي الله عنه. وهوَ قولُ الأوزاعيِّ وسحنونٍ منْ علمائنا. وقالَ محمدُ بنُ الحسنِ: إذا قيلَ للأسيرِ: اسجدْ لهذا الصنمِ وإلا قتلتكَ. فقالَ: إنْ كانَ الصنمُ مقابلَ القبلةِ فليسجدْ ويكونُ نيتهُ للهِ تعالى، وإنْ كانَ لغيرِ القبلةِ فلا يسجدْ وإنْ قتلوهُ. والصحيحُ أنهُ يسجدُ وإنْ كانَ لغيرِ القبلةِ، وما أحراهُ بالسجودِ حينئذٍ، ففي الصحيح عنِ ابنِ عمرَ قالَ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يصلي وهوَ مقبلٌ منْ مكةَ إلى المدينةِ على راحلتهِ حيثُ كانَ وجههُ، قالَ: وفيهِ نزلتْ ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ في روايةٍ: ويوترُ عليها، غيرَ أنهُ لا يصلي عليها المكتوبةَ. فإذا كانَ هذا مباحًا في السفرِ في حالةِ الأمنِ لتعبِ النزولِ عنِ الدابةِ للتنفلِ فكيفَ بهذا.

السادسة: أجمعَ العلماءُ على أنَّ منْ أكرهَ على قتلِ غيرهِ أنهُ لا يجوزُ لهُ الإقدامُ على قتلهِ

ولا انتهاكُ حرمتهِ بجلدٍ أوْ غيرهِ، ويصبرُ على البلاءِ الذي نزلَ بهِ، ولا يحلُّ لهُ أنْ يفديَ نفسهُ بغيرهِ، ويسألُ اللهُ العافيةَ في الدنيا والآخرة. واختلف في الزنى، فقيل: لا يفعلُ وإنْ قتلَ، فإنْ فعلهُ فهوَ آثمٌ ويلزمهُ الحدُّ. قالَ ابنُ العربيِّ: الصحيحُ أنهُ يجوزُ الإقدامُ على الزنى ولا حدَّ عليهِ، خلافًا لمنْ ألزمهُ ذلكَ، لأنهُ رأى أنها شهوةٌ خلقيةٌ لا يتصورُ الإكراهُ عليها، وغفلَ عن السببِ في باعثِ الشهوةِ وهوَ الإلجاءُ إلى ذلكَ، وهوَ الذي أسقطَ حكمهُ، وإنما يجبُ الحدُّ على شهوةٍ بعثَ عليها سببٌ اختياريٌّ، فقاسَ الشيءَ على ضدهِ، فلمْ يحلَّ بصوابٍ منْ عندهِ.

وقالَ ابنُ خويزِ منداد في أحكامهِ: اختلفَ أصحابنا متى أكره الرجل على الزنى، فقالَ بعضهمْ: عليهِ الحدُّ، لأنهُ إنما يفعلُ ذلكَ باختيارهِ. وقالَ بعضهمْ: لا حدَّ عليهِ. قالَ ابنُ خويزِ منداد: وهوَ الصحيحُ.

وقالَ أبو حنيفةَ: إنْ أكرههُ غيرُ السلطانِ حدَّ، وإنْ أكرههُ السلطانُ فالقياسُ أنْ يحدَّ، ولكنْ أستحسنُ ألا يحدَّ. وخالفهُ صاحباهُ فقالا: لا حدَّ عليهِ في الوجهينِ، ولمْ يراعوا الانتشارَ، وقالوا: متى علمَ أنهُ يتخلصُ منَ القتلِ بفعل الزنى جازَ أنْ ينتشرَ. قالَ ابنُ المنذرِ لا حدَّ عليهِ، ولا فرقَ بينَ السلطانِ في ذلكَ وغيرِ السلطانِ.

السابعة: اختلفَ العلماءُ في طلاقِ المكرهِ وعتاقهِ، فقالَ الشافعيُّ وأصحابهُ: لا يلزمه شيء. وذكرهُ ابنُ المنذرِ عنِ مالكٍ وأحمدَ.

وأجازتْ طائفةٌ طلاقهُ، وهوَ قولُ الكوفيينَ. قالَ أبو حنيفةَ: طلاقُ المكرهِ يلزمُ، لأنهُ لمْ يعدمَ فيهِ أكثرُ منَ الرضا، وليسَ وجودهُ بشرطٍ في الطلاقِ كالهازلِ.

وهذا قياسٌ باطلٌ، فإنَّ الهازلَ قاصدٌ إلى إيقاعِ الطلاقِ راضٍ بهِ، والمكرهُ غيرُ راضٍ ولا نيةَ لهُ في الطلاقِ، وقدْ قالَ ﷺ: «إنما الأعمالُ بالنياتِ».

الثامنة: وأما بيعُ المكرهِ والمضغوطِ فلهُ حالتانِ:

الأولى: أنْ يبيعَ مالهُ في حقٍّ وجبَ عليهِ، فذلكَ ماضٍ سائغٌ لا رجوعَ فيهِ عندَ الفقهاءِ، لأنهُ يلزمهُ أداءُ الحقِّ إلى ربهِ منْ غيرِ المبيعِ، فلما لمْ يفعلْ ذلكَ كانَ بيعهُ اختيارًا منهُ فلزمهُ. وأما بيعُ المكرهِ ظلمًا أوْ قهرًا فذلكَ بيعٌ لا يجوزُ عليهِ. وهوَ أولى بمتاعهِ يأخذهُ بلا ثمنٍ،

ويتبعُ المشتري بالثمنِ ذلكَ الظالمَ، فإنْ فاتَ المتاعُ رجعَ بثمنهِ أوْ بقيمتهِ بالأكثرِ منْ ذلكَ على الظالمِ إذا كانَ المشتري غيرَ عالمٍ بظلمهِ. قالَ مطرفٌ: ومنْ كانَ منَ المشترينَ يعلمُ حالَ المكرهِ فإنهُ ضامنٌ لما ابتاعَ منْ رقيقهِ وعروضهِ كالغاصبِ، وكلما أحدثَ المبتاعُ في ذلكَ منْ عتقٍ أوْ تدبيرٍ أوْ تحبيسٍ فلا يلزمُ المكرهَ، ولهُ أخذُ متاعهِ. قالَ سحنونٌ: أجمعَ أصحابنا وأهلُ العراقِ على أنَّ بيعَ المكرهِ على الظلمِ والجورِ لا يجوزُ. وقالَ الأبهريُّ: إنهُ إجماعٌ.

التاسعة: وأما نكاحُ المكرهِ، فقالَ سحنونَ: أجمعَ أصحابنا على إبطالِ نكاحِ المكرهِ والمكرهةِ، وقالوا: لا يجوزُ المقامُ عليهِ، لأنهُ لمْ ينعقدْ. قالَ محمدُ بنُ سحنونٍ: وأجازَ أهلُ العراقِ نكاحَ المكرهِ، وقالوا: لوْ أكرهَ على أنْ ينكحَ امرأةً بعشرةِ آلافِ درهمٍ، وصداقُ مثلها ألفُ درهمٍ، أنَّ النكاحَ جائزٌ وتلزمهُ الألفُ ويبطلُ الفضلُ. قالَ محمدٌ: فكما أبطلوا الزائدَ على الألفِ فكذلكَ يلزمهمْ إبطالُ النكاحِ بالإكراهِ. وقولهمْ خلافُ السنةِ الثابتةِ في حديثِ خنساءَ بنت حذام الأنصاريةِ، ولأمرهِ ﷺ بالاستئمارِ في أبضاعهنَّ، وقدْ تقدمَ، فلا معنى لقولهمْ.

العاشرة: فإنْ وطئها المكرهُ على النكاحِ غيرُ مكره على الوطء والرضا بالنكاحِ لزمهُ النكاحُ عندنا على المسمى منَ الصداقِ ودرئَ عنهُ الحدُّ. وإنْ قالَ: وطئتها على غيرِ رضًا مني بالنكاحِ فعليهِ الحدُّ والصداقُ المسمى، لأنهُ مدعٍ لإبطالِ الصداقِ المسمى، وتحدُّ المرأةُ إنْ أقدمتْ وهيَ عالمةٌ أنهُ مكرهٌ على النكاحِ. وأما المكرهةُ على النكاحِ وعلى الوطء فلا حدَّ عليها ولها الصداقُ، ويحدُّ الواطئُ.

الحادية عشرة: إذا استكرهتِ المرأةُ على الزنى فلا حدَّ عليها، لقولهِ ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ وقولهُ ﷺ: «إنَّ اللهَ تجاوزَ عنْ أمتي الخطأُ والنسيانُ وما استكرهوا عليهِ»، ولقولِ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ يريدُ الفتياتِ. وبهذا المعنى حكمَ عمرُ في الوليدةِ التي استكرهها العبدُ فلمْ يحدها. والعلماءُ متفقونَ على أنهُ لا حدَّ على امرأةٍ مستكرهةٍ. وقالَ مالكٌ: إذا وجدتِ المرأةُ حاملًا وليسَ لها زوجٌ فقالتِ استكرهتُ فلا يقبلُ ذلكَ منها وعليها الحدُّ، إلا أنْ تكونَ لها بينةٌ أوْ جاءتْ تدمى على أنها أتيتْ أوْ ما أشبهَ ذلكَ. واحتجَّ بحديثِ

عمرَ بنِ الخطابِ أنهُ قالَ: الرجمُ في كتابِ اللهِ حقٌّ على منْ زنى منَ الرجالِ والنساءِ إذا أحصنَّ إذا قامتِ البينةُ، أوْ كانَ الحبلُ أوْ الاعترافُ. قال ابن المنذر: وبالقول الأول أقول.

الثانية عشرة: واختلفوا في وجوبِ الصداقِ للمستكرهةِ، فقيل: لها صداقُ مثلها، وهوَ قولِ مالكٍ والشافعيِّ وأحمدَ، وقيل: إذا أقيمَ الحدُّ على الذي زنى بها بطلَ الصداقُ وبهِ قالَ أصحابُ مالكٍ وأصحابُ الرأيِ. قالَ ابنُ المنذرِ: القولُ الأولُ صحيحٌ.

الثالثة عشرة: إذا أكرهَ الإنسانُ على إسلامِ أهلهِ لِما لمْ يحلَّ أسلمها، ولمْ يقتلْ نفسهُ دونها ولا احتملَ أذيةً في تخليصها. والأصلُ في ذلكَ ما خرجهُ البخاريُّ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «هاجرَ إبراهيمُ ﷺ بسارةَ ودخلَ بها قريةً فيها ملكٌ منَ الملوكِ أوْ جبارٌ منَ الجبابرةِ فأرسلَ إليهِ أنْ أرسلْ بها إليَّ فأرسلَ بها فقامَ إليها فقامتْ تتوضأُ وتصلي فقالتِ اللهمَّ إنْ كنتُ آمنتُ بكَ وبرسولكَ فلا تسلطْ عليَّ هذا الكافرَ فغطَّ حتى ركضَ برجلهِ». ودلَّ هذا الحديثُ أيضًا على أنَّ سارةَ لمّا لمْ يكنْ عليها ملامةٌ، فكذلكَ لا يكونُ على المستكرهةِ ملامةٌ، ولا حدَّ فيما هوَ أكبرُ منَ الخلوةِ. واللهُ أعلمُ.

الرابعة عشرة: وأما يمينُ المكرهِ فغيرُ لازمةٍ عندَ مالكٍ والشافعيِّ وأكثرِ العلماءِ، وقالَ أبو حنيفةَ ومنِ اتبعهُ منَ الكوفيينَ: إنهُ إنْ حلفَ ألا يفعلَ ففعلَ حنثَ، قالوا: لأنَّ المكرهَ لهُ أنْ يوريَ في يمينهِ كلها، فلما لمْ يورِّ ولا ذهبتْ نيتهُ إلى خلافِ ما أكرهَ عليهِ فقدْ قصدَ إلى اليمينِ. احتجَّ الأولونَ بأنْ قالوا: إذا أكرهَ عليها فنيتهُ مخالفةٌ لقولهِ، لأنهُ كارهٌ لما حلف عليه.

الخامسة عشرة: قالَ ابنُ العربيِّ: ومنْ غريبِ الأمرِ أنَّ علماءنا اختلفوا في الإكراهِ على الحنثِ هلْ يقعُ بهِ أمْ لا، وهذهِ مسألةٌ عراقيةٌ سرتْ لنا منهمْ، لا كانتْ هذهِ المسألةُ ولا كانوا! وأيُّ فرقٍ يا معشرَ أصحابنا بينَ الإكراهِ على اليمينِ في أنها لا تلزمُ وبينَ الحنثِ في أنهُ لا يقعُ! فاتقوا اللهَ وراجعوا بصائركمْ، ولا تغتروا بهذه الرواية فإنها وصمةٌ في الدرايةِ.

السادسة عشرة: إذا أكرهَ الرجلُ على أنْ يحلفَ وإلا أخذَ لهُ مالٌ كأصحابِ المكسِ وظلمةِ السعاةِ وأهلِ الاعتداءِ، فقالَ مالكٌ: لا تقيةَ لهُ في ذلكَ، وإنما يدرأُ المرءُ بيمينهِ عنْ بدنهِ لا مالهِ.

وعن مالك : لا يحنثُ وإنْ درأَ عنْ مالهِ ولمْ يخفْ على بدنهِ، وهو الصحيحُ، لأنَّ المدافعةَ عنِ المالِ كالمدافعةِ عنِ النفسِ، وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ دماءكمْ وأموالكمْ وأعراضكمْ عليكمْ حرامٌ» وقالَ: «كلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ دمهُ ومالهُ وعرضهُ». وروى أبو هريرةَ قالَ: جاءَ رجلٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ: يا رسولَ اللهِ، أرأيت إن جاء رجلا يريدُ أخذَ مالي؟ قالَ: «فلا تعطهِ مالكَ». قالَ: أرأيتَ إنْ قاتلني؟ قالَ: «قاتلهُ» قالَ: أرأيتَ إنْ قتلني؟ قالَ: «فأنتَ شهيدٌ» قالَ: أرأيتَ إنْ قتلتهُ؟ قالَ: «هوَ في النارِ» خرجهُ مسلمٌ.

وقالَ مطرفٌ وابنُ الماجشونِ: وإنْ بدَرَ الحالفُ بيمينهِ للوالي الظالمِ قبلَ أنْ يسألها ليذبَّ بها عما خافَ عليهِ منْ مالهِ وبدنهِ فحلفَ لهُ فإنها تلزمهُ.

السابعة عشرة: قالَ المحققونَ منَ العلماءِ: إذا تلفظَ المكرهُ بالكفرِ فلا يجوزُ لهُ أنْ يجريهُ على لسانهِ إلا مجرى المعاريضِ، فإنَّ في المعاريضَ لمندوحةً عنِ الكذبِ. ومتى لم يكن كذلكَ كانَ كافرًا، لأنَّ المعاريضَ لا سلطانَ للإكراهِ عليها. مثالهُ- أنْ يقالَ لهُ: اكفرْ باللهِ فيقولُ باللاهي، فيزيدُ الياءَ. وكذلكَ إذا قيلَ لهُ: اكفرْ بالنبي فيقولُ هوَ كافرٌ بالنبيِّ، مشددًا وهوَ المكانُ المرتفعُ منَ الأرضِ، فإنْ قيلَ لهُ: اكفرْ بالنبيء «مهموزًا» فيقول هو كافر بالنبيء يريد بالمخبِر، أي مخبر كان كطليحة ومسلمة الكذاب.

الثامنة عشرة: أجمعَ العلماءُ على أنَّ منْ أكرهَ على الكفرِ فاختارَ القتلَ أنهُ أعظمُ أجرًا عندَ اللهِ ممنِ اختارَ الرخصةَ. واختلفوا فيمنْ أكرهَ على غيرِ القتلِ منْ فعلِ ما لا يحلُّ لهُ، فقالَ أصحابُ مالكٍ: الأخذُ بالشدةِ في ذلكَ واختيارُ القتلِ والضربِ أفضلُ عندَ اللهِ منَ الأخذِ بالرخصةِ. وذكرَ ابنُ سحنونٍ عنْ أهلِ العراقِ أنهُ إذا تهددَ بقتلٍ أوْ قطعٍ أوْ ضربٍ يخافُ منهُ التلفَ فلهُ أنْ يفعلَ ما أكرهَ عليهِ منْ شربِ خمرٍ أوْ أكلِ خنزيرٍ، فإنْ لمْ يفعلْ حتى قتلَ خفنا أنْ يكونَ آثمًا لأنهُ كالمضطرِّ.

وروى خبابُ بنُ الأرتِّ قالَ: شكونا إلى رسولِ اللهِ ﷺ وهوَ متوسدُ بردةً لهُ في ظلِّ الكعبةِ فقلتُ: ألا تستنصرُ لنا ألا تدعو لنا؟ فقالَ: «قدْ كانَ منْ قبلكمْ يؤخذُ الرجلُ فيحفرُ لهُ في الأرضِ فيجعلُ فيها فيجاءُ بالمنشارِ فيوضعُ على رأسهِ فيجعلُ نصفينِ ويمشطُ بأمشاطِ الحديدِ ما دونَ لحمهِ وعظمهِ فما يصدهُ ذلكَ عنْ دينهِ واللهِ ليتمنَّ هذا الأمر حتى يسيرَ

الراكبُ منْ صنعاءَ إلى حضرموتَ لا يخافُ إلا اللهَ والذئبَ على غنمِهِ ولكنكمْ تستعجلونَ». فوصفهُ ﷺ هذا عنِ الأممِ السالفةِ على جهةِ المدحِ لهمْ والصبرِ على المكروهِ في ذاتِ اللهِ، وأنهمْ لمْ يكفروا في الظاهرِ وتبطنوا الإيمانَ ليدفعوا العذابَ عنْ أنفسهمْ. وهذه حجة من آثر الضرب والقتلَ والهوانَ على الرخصةِ والمقامَ بدارِ الجنانِ.

وذكرَ أبو بكرٍ البغداديُّ عنِ الحسنِ أنَّ عيونًا لمسيلمةَ أخذوا رجلينِ منْ أصحابِ النبيِّ ﷺ فذهبوا بهما إلى مسيلمةَ، فقالَ لأحدهما: أتشهدُ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ؟ قالَ نعمْ. قالَ: أتشهدُ أني رسولُ اللهِ؟ قالَ نعمْ. فخلى عنهُ. وقالَ الآخر: أتشهدُ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ؟ قالَ نعمْ. قالَ: وتشهدُ أني رسولُ اللهِ؟ قالَ: أنا أصمُّ لا أسمعُ، فقدمهُ وضربَ عنقهُ. فجاءَ هذا إلى النبيِّ ﷺ فقالَ: هلكتُ! قالَ: «وما أهلككَ»؟ فذكرَ الحديثَ، قالَ: «أما صاحبكَ فأخذَ بالثقةِ وأما أنتَ فأخذتَ بالرخصةِ. على ما أنتَ عليهِ الساعةَ؟ قالَ: أشهدُ أنكَ رسولُ اللهِ. قالَ: «أنتَ على ما أنتَ عليهِ».

التاسعة عشرة: واختلفَ العلماءُ في حدِّ الإكراهِ، فقيلُ: القيدُ إكراهٌ، والسجنُ إكراهٌ. وهذا قولُ مالكٍ، إلا أنهُ قالَ: والوعيدُ المخوفُ إكراهٌ وإنْ لمْ يقعْ، إذا تحققَ ظلمَ ذلكَ المعتدي وإنفاذهُ لما يتوعدُ بهِ، وليسَ عندَ مالكٍ وأصحابهِ في الضربِ والسجنِ توقيتٌ، إنما هوَ ما كانَ يؤلمُ منَ الضربِ، وما كانَ منْ سجنٍ يدخلُ منهُ الضيقُ على المُكرَهِ. وإكراهُ السلطانِ وغيرِهِ عندَ مالكٍ إكراهٌ.

وتناقضَ الكوفيونَ فلمْ يجعلوا السجنَ والقيد إكراها على شرب الخمر وأكل الميتة، لأنه لا يخاف منهما التلف. وجعلوها إكراها في إقراره لفلان عندي ألف درهم.

قال ابن سحنون: وفي إجماعهم على أن الألم والوجع الشديد إكراه ما يدلُّ على أنَّ الإكراهَ يكونُ منْ غيرِ تلفِ نفسٍ. وذهبَ مالكٌ إلى أنَّ منْ أكرهَ على يمينٍ بوعيدٍ أوْ سجنٍ أوْ ضربٍ أنهُ يحلفُ، ولا حنثَ عليهِ، وهوَ قولُ الشافعيِّ وأحمدَ وأكثرُ العلماءِ.

الموفية عشرين: ومنْ هذا البابِ ما ثبتَ: «إنَّ منَ المعاريضِ لمندوحةً عنِ الكذبِ». وروى الأعمشُ عنْ إبراهيمَ النخعيِّ أنهُ قالَ: لا بأس إذا بلغ الرجل عنك شيء أن تقول: واللهِ، إنَّ اللهَ يعلمُ ما قلتُ فيكَ من ذلك من شيء. قالَ عبدُ الملكِ بنُ حبيبٍ: معناهُ أنَّ اللهَ

يعلمُ الذي قلت، وهوَ في ظاهرهِ انتفاءٌ منَ القولِ، ولا حنثَ على منْ قالَ ذلكَ في يمينهِ ولا كذبَ عليهِ في كلامهِ.

وقالَ النخعيُّ: كانَ لهمْ كلامٌ منْ ألغازِ الأيمانِ يدرءونَ بهِ عنْ أنفسهمْ، لا يرونَ ذلكَ منَ الكذبِ ولا يخشونَ فيهِ الحنثَ.

قالَ عبدُ الملكِ: وكانوا يسمونَ ذلكَ المعاريضَ منَ الكلامِ، إذا كانَ ذلكَ في غيرِ مكرٍ ولا خديعةٍ في حقٍّ. وقالَ الأعمشُ: كانَ إبراهيمُ النخعيُّ إذا أتاهُ أحدٌ يكرهُ الخروجَ إليهِ جلسَ في مسجدِ بيتهِ وقالَ لجاريتهِ: قولي لهُ هوَ واللهِ في المسجدِ.

وكانوا يكرهونَ أنْ يقالَ هذا في خديعةٍ وظلمٍ وجحدانِ حقٍّ فمنِ اجترأَ وفعلَ أثمَ في خديعتهِ ولمْ تجبْ عليهِ كفارةٌ في يمينهِ.

الحادية والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أيْ وسعهُ لقبولِ الكفرِ، ولا يقدرُ أحدٌ على ذلكَ إلا اللهُ، فهوَ يردٌّ على القدرية. و ﴿صَدْرًا﴾ نصبَ على المفعولِ ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠٦﴾ وهو عذاب جهنم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أيْ ذلكَ الغضبُ ﴿بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أيِ اختاروها على الآخرةِ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ ﴿أَنَّ﴾ في موضعِ خفضٍ عطفًا على ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٠٧﴾ ثم وصفهم فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أيْ عنْ فهمِ المواعظِ ﴿وَسَمْعِهِمْ﴾ عنْ كلامِ اللهِ تعالى ﴿وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ عنِ النظرِ في الآياتِ ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ١٠٨﴾ عما يرادُ بهمْ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ١٠٩﴾ تقدم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟﴾ على الجهادِ، نزلتْ في قومٍ خرجوا مهاجرينَ إلى المدينةِ بعدَ أنْ فتنهمُ المشركونَ وعذبوهمْ، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ١١٠﴾ وهوَ عبدُ اللهِ بنُ سعدِ بنِ أبي سرحٍ الذي كانَ على مصرَ، كانَ يكتبُ لرسولِ اللهِ ﷺ فأزلهُ الشيطانُ فلحقَ بالكفارِ فأمرَ بهِ أنْ يقتلَ يومَ الفتحِ، فاستجارَ لهُ عثمانُ بنُ عفانِ فأجارهُ رسولُ اللهِ ﷺ.

قوله تعالى: ﴿۞يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ أي إن الله غفور رحيم في ذلك. أو ذكّرهم. ﴿۞يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ أيْ تخاصمُ وتحاجُّ عنْ نفسها، جاءَ في الخبرِ أنَّ كلَّ أحدٍ يقولُ يومَ القيامةِ: نفسي نفسي! من شدة هول يوم القيمة سوى محمدٍ ﷺ فإنهُ يسألُ في أمتهِ.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ﴾ هذا متصلٌ بذكرِ المشركينَ. وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ دعا على مشركي قريشٍ وقالَ: «اللهمَّ اشددْ وطأتكَ على مضرٍ واجعلها عليهمْ سنينَ كسني يوسفَ». فابتلوا بالقحطِ حتى أكلوا العظامَ، ووجهَ إليهمْ رسولُ اللهِ ﷺ طعامًا ففُرقَ فيهمْ ﴿كَانَتۡ ءَامِنَةٗ﴾ لا يهاج أهلها ﴿يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ﴾ منَ البرِّ والبحرِ، نظيرهُ: ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ الآيةَ. ﴿فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ﴾ الأنعمُ: جمعُ النعمةِ، كالأشدِّ جمعُ الشدةِ. وقيل: جمعُ نعمى، مثلَ بؤسى وأبؤسٍ. وهذا الكفرانُ تكذيبٌ بمحمدٍ ﷺ ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ﴾ أيْ أذاقَ أهلها ﴿لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾ سماهُ لباسًا لأنهُ يظهرُ عليهمْ منَ الهزالِ وشحوبةِ اللونِ وسوءِ الحالِ ما هوَ كاللباسِ ﴿بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢﴾ أي من الكفر والمعاصي.

وأصلُ الذوقِ بالفمِ ثمَّ يستعارُ فيوضعُ موضعَ الابتلاءِ. وضربَ مكةَ مثلًا لغيرها منَ البلادِ، أيْ أنها معَ جوارِ بيتِ اللهِ وعمارةِ مسجدهِ لمّا كفرَ أهلها أصابهمُ القحطُ فكيفَ بغيرها منَ القرى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ﴾ هذا يدل على أنها مكةُ ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ وهوَ الجوعُ الذي وقع بمكة. وقيل: الشدائد والجوع منها.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أيْ كلوا يا معشرَ المسلمينَ منَ الغنائمِ. وقيل: الخطابُ للمشركينَ، لأنَّ النبيَّ ﷺ بعثَ إليهمْ بطعامٍ رقةً عليهمْ، وذلكَ أنهمْ لما ابتلوا بالجوعِ سبعَ سنينَ، وقطعَ العربُ عنهمُ الميرةَ بأمرِ النبيِّ ﷺ أكلوا العظامَ المحرقةَ والجيفة

والكلابَ الميتةَ والجلودَ، ثمَّ إنَّ رؤساءَ مكةَ كلّموا رسول اللهِ ﷺ حينَ جهدوا وقالوا: هذا عذابُ الرجالِ فما بالُ النساءِ والصبيانِ. وقالَ لهُ أبو سفيانَ: يا محمدُ، إنكَ جئتَ تأمرُ بصلةِ الرحمِ والعفوِ، وإنَّ قومكَ قدْ هلكوا، فادعُ اللهَ لهمْ. فدعا لهمْ رسولُ اللهِ ﷺ، وأذنَ للناسِ بحملِ الطعامِ إليهم وهم بعد مشركون.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ تقدمَ في «البقرةِ» القولُ فيها مستوفي.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَـٰذَا حَلَـٰلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لِمَا تَصِفُ﴾ ما هاهنا مصدريةٌ، أيْ لوصفِ. وقيل: اللامُ لامُ سببٍ وأجل، أي لا تقولوا لأجلِ وصفكمُ ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ بنزعِ الخافضِ، أيْ لما تصف ألسنتكم من الكذب. وقرئ «الْكُذُبُ» بضم الكاف والذال والباء، نعتًا للألسنةِ، وقرأ الحسنُ هنا خاصةً «الْكَذِبِ» بفتحِ الكافِ وخفضِ الذالِ والباءِ، نعتا ﴿لِمَا﴾، التقدير: ولا تقولوا للكذبِ الذي تصفهُ ألسنتكمْ ﴿هَـٰذَا حَلَـٰلٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ﴾. الآيةُ خطابٌ للكفارِ الذينَ حرموا البحائرَ والسوائبَ وأحلوا ما في بطونِ الأنعام وإنْ كانَ ميتة. فقوله: ﴿هَـٰذَا حَلَـٰلٌ﴾ إشارةً إلى ميتةِ بطونِ الأنعام، وكل ما أحلوه. وقوله: ﴿وَهَـٰذَا حَرَامٌ﴾ إشارةً إلى البحائرِ والسوائبِ وكلِّ ما حرموهُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ﴾ أيْ ما همْ فيهِ منْ نعيمِ الدنيا يزولُ عنْ قريبٍ. وقالَ الزجاجُ: أيْ متاعهمْ متاعٌ قليلٌ. وقيل: لهمْ متاعٌ قليلٌ ثمَّ يردونَ إلى عذابٍ أليم.

الثانية: عند الدرامى في مسنده عنِ الأعمشِ قالَ: ما سمعتُ إبراهيمَ قطُّ يقولُ حلالٌ

ولا حرامٌ، ولكنْ كانَ يقولُ: كانوا يكرهونَ وكانوا يستحبونَ. قال ابنُ وهبٍ قالَ مالكٌ: لمْ يكنْ منْ فتيا الناسِ أنْ يقولوا هذا حلالٌ وهذا حرام، ولكن يقولون إياكمْ كذا وكذا، ولمْ أكنْ لأصنعَ هذا. ومعنى هذا: إن التحليل وتحريم إنما هوَ للهِ عزَّ وجلَّ، وليسَ لأحدٍ أنْ يقولَ أوْ يصرحَ بهذا في عينٍ من الأعيان، إلا أن يكون الباري تعالى يخبرُ بذلكَ عنهُ. وما يؤدي إليهِ الاجتهادُ في أنهُ حرامٌ يقولُ: إني أكرهُ كذا وكذلكَ كانَ مالكٌ يفعلُ اقتداءً بمنْ تقدم من أهل التقوى.

فإن قيل: فقدْ قالَ فيمنْ قالَ لزوجتهِ أنتِ عليَّ حرامٌ: إنها حرامٌ ويكونُ ثلاثًا. فالجوابُ: أنَّ مالكًا لما سمعَ عليَّ بنَ ابى طالب يقول إنها حرام اقتدى بهِ.

وقدْ يقوى الدليلُ على التحريمِ عن المجتهد فلا بأس عنه ذلكَ أنْ يقولَ ذلكَ، كما يقولُ إنَّ الربا حرامٌ في غيرِ الأعيانِ الستةِ، وكثيرًا ما يطلقُ مالكٌ رحمهُ اللهُ: فذلكَ حرامٌ لا يصلحُ، في الأموالِ الربويةِ وفيما خالفَ المصالحَ وخرجَ عنْ طريقِ المقاصدِ لقوةِ الأدلةِ في ذلك.

قولهُ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ بينَ أنَّ الأنعام والحرثَ حلالٌ لهذهِ الأمةِ، فأما اليهود فحرمت عليهم منها أشياء ﴿حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أيْ في سورةِ الأنعام ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ أيْ بتحريمِ ما حرمنا عليهمْ، ولكنْ ظلموا أنفسهمْ فحرمنا عليهمْ تلكَ الأشياءَ عقوبةً لهم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ أيِ الشركَ ﴿ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ١١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٠﴾ دعا ﷺ مشركي العربِ إلى ملةِ إبراهيمَ، إذْ كانَ أباهمْ وبانيَ البيتِ الذي بهِ عزهمْ، والأمةُ: الرجلُ الجامعُ للخيرِ، وقدْ تقدمَ محامله.

قوله تعالى: ﴿شَاكِرًا﴾ أيْ كانَ شاكرًا ﴿لِّأَنْعُمِهِۚ﴾ جمعُ نعمةٍ و ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ أي اختاره ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٢١ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قيلَ: الولدُ الطيبُ. وقيلَ: الثناءُ الحسنُ. وقيل: النبوةُ. وقيل: الصلاةُ مقرونةٌ بالصلاةِ على محمدٍ ﷺ في التشهدِ. وقيل: إنهُ ليسَ أهلُ دينٍ إلا وهمْ يتولونهُ، وكلُّ ذلكَ أعطاهُ اللهُ وزادهُ ﷺ ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢﴾. ﴿مِن﴾ بمعنى معَ، أيْ معَ الصالحينَ، لأنهُ كانَ في الدنيا أيضًا مع الصالحينَ.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٣﴾

أمرَ باتباعهِ في مناسكَ الحجِّ كما علمَ إبراهيمَ جبريلُ عليه السلام. وقيل: أمرَ باتباعهِ في التبرؤِ منَ الأوثانِ والتزينِ بالإسلامِ. وقيل: أمرَ باتباعهِ في جميع ملتهِ إلا ما أمرَ بتركهِ، والصحيحُ الاتباعُ في عقائدِ الشرعِ دونَ الفروعِ، لقولهِ تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾.

مسألةٌ- في هذهِ الآيةِ دليلٌ على جوازِ اتباعِ الأفضل للمفضول لمَّا تقدَّمَ إلى الصواب والعملِ بهِ، ولا دركَ على الفاضلِ في ذلكَ، لأنَّ النبيَّ ﷺ أفضلُ الأنبياءِ عليهمُ السلامُ، وقدْ أمرَ بالاقتداءِ بهمْ فقالَ: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾. وقالَ هنا: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِۚ﴾ أيْ لمْ يكنْ في شرعِ إبراهيمَ ولا في دينهِ، بلْ كانَ سمحًا لا تغليظَ فيهِ، وكانَ السبتُ تغليظًا على اليهودِ في رفضِ الأعمالِ وتركِ التبسيطِ في المعاشِ بسببِ اختلافهمْ فيهِ، ثمَّ جاءَ عيسى عليه السلام بيومِ الجمعةِ فقالَ: تفرغوا للعبادةِ في كلِّ سبعةِ أيامٍ يومًا واحدًا. فقالوا: لا نريدُ أنْ يكونَ عيدهمْ بعدَ عيدنا، فاختاروا الأحدَ.

وقدِ اختلفَ العلماءُ في كيفيةِ ما وقعَ لهمْ منْ الاختلافِ، فقالتْ طائفةٌ: إنَّ موسى عليه السلام أمرهمْ بيومِ الجمعةِ وعينهُ لهمْ، وأخبرهمْ بفضيلتهِ على غيرهِ، فناظروهُ أنَّ السبتَ أفضلُ، فقالَ اللهُ لهُ: دعهمْ وما اختاروا لأنفسهمْ. وقيل: إنَّ اللهَ تعالى لمْ يعينهُ لهمْ، وإنما أمرهمْ بتعظيمِ يومٍ في الجمعةِ فاختلفَ اجتهادهمْ في تعيينهِ، فعينتِ اليهودُ السبتَ، لأنَّ اللهَ تعالى فرغَ

فيهِ منَ الخلقِ. وعينتِ النصارى يومَ الأحدِ، لأنَّ اللهَ تعالى بدأَ فيهِ بالخلقِ. فألزمَ كلٌّ منهمْ ما أداهُ إليهِ اجتهادهُ. وعينَ اللهُ لهذهِ الأمةِ يومَ الجمعةِ منْ غيرِ أنْ يكلهمْ إلى اجتهادهمْ فضلاً منهُ ونعمةً، فكانتْ خيرَ الأممِ أمةً. روى الصحيحُ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «نحنُ الآخرونَ الأولونَ يومَ القيامةِ ونحنُ أولُ منْ يدخلُ الجنةَ بيدَ أنهمْ أوتوا الكتابَ منْ قبلنا وأوتيناهُ منْ بعدهمْ فاختلفوا فيهِ فهدانا اللهُ لما اختلفوا فيهِ منَ الحقِّ فهذا يومهم الذي اختلفوا فيهِ فهدانا اللهُ لهُ - قالَ يومُ الجمعةِ - فاليومُ لنا وغدًا لليهودِ وبعدَ غدٍ للنصارى» فقولهُ: «فهذا يومهمُ الذي اختلفوا فيهِ» يقوي قولَ منْ قالَ: إنهُ لمْ يعينْ لهمْ، فإنهُ لوْ عينَ لهمْ وعاندوا لما قيلَ ﴿ٱخۡتَلَفُواْ﴾. وإنما كانَ ينبغي أنْ يقالَ فخالفوا فيهِ وعاندوا. ومما يقويهِ أيضًا قولهُ ﷺ: «أضلَّ اللهُ عنِ الجمعةِ منْ كانَ قبلنا». وهذا نصٌّ في المعنى.

قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ يريدُ في يوم الجمعةِ كما بيناهُ، اختلفوا على نبيهمْ موسى وعيسى. ووجهُ الاتصالِ بما قبلهُ أنَّ النبيَّ ﷺ أمرَ باتباعِ الحقِّ، وحذّرَ اللهُ الأمةَ منْ الاختلافِ عليهِ فيشددُ عليهمْ كما شددَ على اليهود.

قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾

فيهِ مسألةٌ واحدةٌ- هذهِ الآيةُ نزلتْ بمكةَ في وقتِ الأمر بمهادنةِ قريشٍ، وأمرهُ أنْ يدعوَ إلى دينِ اللهِ وشرعهِ بتلطفٍ ولينٍ دونَ مخاشنةٍ وتعنيفٍ، وهكذا ينبغي أنْ يوعظَ المسلمونَ إلى يوم القيامةِ. فهيَ محكمةٌ في جهةِ العصاةِ منَ الموحدينَ، ومنسوخةٌ بالقتالِ في حقِّ الكافرينَ. وقدْ قيلَ: إنَّ منْ أمكنتْ معهُ هذهِ الأحوالُ منَ الكفارِ ورجيَ إيمانهُ بها دونَ قتالٍ فهيَ فيهِ محكمةٌ. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: أطبقَ جمهورُ أهلِ التفسيرِ أنَّ هذهِ الآيةَ مدنيةٌ، نزلتْ في شأنِ التمثيلِ بحمزةَ في يومِ أحدٍ، ووقعَ ذلكَ في صحيحِ البخاريِّ وفي كتابِ السيرِ. وذهبَ النحاسُ إلى أنها مكيةٌ،

والمعنى متصلٌ بما قبلها منَ المكيِّ اتصالًا حسنًا، لأنها تتدرجُ الرتبُ منَ الذي يدعى ويوعظُ، إلى الذي يجادلُ، إلى الذي يجازى على فعلهِ. ولكنْ ما روى الجمهورُ أثبتُ.

وقيل: إنما نزلتْ هذهِ الآيةُ فيمنْ أصيبَ بظلامةٍ ألا ينالَ منْ ظالمهِ إذا تمكنَ إلا مثلَ ظلامتهِ لا يتعداهُ إلى غيرهِ.

الثانية: واختلفَ أهلُ العلمِ فيمنْ ظلمهُ رجلٌ في أخذِ مالٍ ثمَّ ائتمنَ الظالمُ المظلومَ على مالٍ، هلْ يجوزُ لهُ خيانتهُ في القدرِ الذي ظلمهُ، فقالتْ فرقةٌ: لهُ ذلكَ، واحتجتْ بهذهِ الآيةِ وعمومِ لفظها. وقالَ مالكٌ وفرقةٌ معهُ: لا يجوزُ لهُ ذلكَ، واحتجوا بقولِ رسولِ اللهِ ﷺ: «أدِّ الأمانةَ إلى منِ ائتمنكَ ولا تخنْ منْ خانكَ». رواهُ الدارقطنيُّ.

وعلى هذا يتقوى قولُ مالكٍ في أمرِ المالِ، لأنَّ الخيانةَ لاحقةٌ في ذلكَ، وهيَ رذيلةٌ لا انفكاكَ عنها، فينبغي أنْ يتجنبها لنفسهِ، فإنْ تمكنَ منَ الانتصافِ منْ مالٍ لمْ يأتمنهُ عليهِ فيشبهُ أنَّ ذلكَ جائزٌ وكأنَّ اللهَ حكمَ لهُ، كما لوْ تمكنَ الأخذُ بالحكمِ منَ الحاكمِ. وقدْ قيلَ: إنَّ هذهِ الآيةَ منسوخةٌ، نسختها: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾.

الثالثة: في هذهِ الآيةِ دليلٌ على جوازِ التماثلِ في القصاصِ، فمنْ قتلَ بحديدةٍ قُتلَ بها، ومنْ قتلَ بحجرٍ قُتلَ بهِ، ولا يتعدى قدر الواجبِ.

الرابعة: سمى اللهُ تعالى الإذاياتِ في هذهِ الآيةِ عقوبةً، والعقوبةُ حقيقةً إنما هيَ الثانيةُ، وإنما فعلَ ذلكَ ليستويَ اللفظانِ وتتناسبَ ديباجةُ القولِ، وهذا بعكسِ قولهِ: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾ وقولهُ: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ فإنَّ الثانيَ هنا هوَ المجازُ والأول هو الحقيقة.

قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾

فيهِ مسألةٌ واحدةٌ- قيل: هيَ منسوخةٌ بالقتالِ. وجمهورُ الناسِ على أنها محكمةٌ. أيِ اصبرْ بالعفوِ عنِ المعاقبةِ بمثلِ ما عاقبوا في المثلةِ ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ أيْ على قتلى أحدٍ فإنهمْ صاروا إلى رحمة الله ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ﴾ ضيقٍ جمعُ ضيقةٍ، وقراءةُ الجمهورِ بفتحِ الضادِ. وقرأ ابنُ كثيرٍ بكسرِ الضادِ، ورويتْ عنْ نافعٍ، وهوَ غلطٌ ممنْ رواهُ، والمعنى: لا يضيقُ صدركَ منْ كفرهمْ.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ أيِ اتقوا الفواحشَ والكبائرَ بالنصرِ والمعونةَ والفضلِ والبرِّ والتأييدِ. وتقدمَ معنى الإحسانِ.

تمتْ سورةُ النحلِ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ

سورة الإسراء

هذهِ السورةُ مكيةٌ، وقالَ ابنُ مسعودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في بني إسرائيلَ والكهفِ ومريمَ: إنهنَّ منَ العتاقِ الأولِ، وهنَّ من تلادي، يريد من قديم كسبه.

قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾، فيهِ ثمان مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ اسمٌ موضوعٌ موضعَ المصدرِ، وهوَ غيرُ متمكنٌ، لأنهُ لا يجري بوجوهِ الإعرابِ، ولا تدخلُ عليهِ الألفُ واللامُ، ولمْ يجرِ منهُ فعلٌ، ولمْ ينصرفْ لأنَّ في آخرهِ زائدتينِ، تقولُ: سبحتُ تسبيحًا وسبحانًا، مثلَ كفرتُ اليمينَ تكفيرًا وكفرانًا. ومعناهُ التنزيهُ والبراءةُ للهِ عزَّ وجلَّ منْ كلِّ نقصٍ. فهوَ ذكرٌ عظيمٌ للهِ تعالى لا يصلحُ لغيرِه، والعاملُ فيهِ على مذهبِ سيبويهِ الفعلُ الذي منْ معناهُ لا منْ لفظهِ، إذْ لمْ يجرِ منْ لفظهِ فعلٌ، وذلكَ مثلُ قعدَ القرفصاءَ، واشتملَ الصماءَ، فالتقديرُ عندهُ: أنزهُ اللهَ تنزيهًا، فوقع ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ مكان قولك تنزيها.

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَسۡرَىٰ﴾ فيهِ لغتانِ: سرى وأسرى، كسقى وأسقى، قالَ:

حي النضيرةَ ربةَ الخدرِ أسرتْ إليَّ ولمْ تكنْ تسري

فجمعَ بينَ اللغتينِ، والإسراءُ: سيرُ الليلِ، يقالُ: سريتُ مسرى وسُرى، وأسريتُ إسراءً، وقيل: أسرى سارَ منْ أولِ الليلِ، وسرى سارَ منْ آخرهِ، والأولُ أعرفُ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿بِعَبۡدِهِۦ﴾ قالَ العلماءُ: لوْ كانَ للنبيِّ ﷺ اسمٌ أشرفُ منهُ لسماهُ بهِ في تلكَ الحالةِ العليةِ.

الرابعة: ثبتَ الإسراءُ في جميع مصنفاتِ الحديث، وروي عنِ الصحابةِ في كلِّ أقطارِ الإسلام فهوَ منَ المتواترِ بهذا الوجهِ، رواهُ عشرون صحابيًا. روى الصحيحُ عنْ أنسِ بنِ مالكٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «أتيتُ بالبراقِ وهوَ دابةٌ أبيضُ طويلٌ فوقَ الحمارِ ودونَ البغلِ

يضعُ حافرهُ عندَ منتهى طرفِهِ - قالَ - فركبتهُ حتى أتيتُ بيتَ المقدسِ - قالَ - فربطتهُ بالحلقةِ التي تربطُ بها الأنبياءُ - قالَ - ثمَّ دخلتُ المسجدَ فصليتُ فيهِ ركعتينِ ثمَّ خرجتُ فجاءني جبريلُ ﷺ بإناءٍ منْ خمرٍ وإناءٍ منْ لبنٍ فاخترتُ اللبنَ فقالَ جبريلُ اخترتَ الفطرةَ - قالَ - ثمَّ عرجَ بنا إلى السماءِ...» وذكرَ الحديثَ.

ولا خلافَ بينَ أهلِ العلمِ وجماعةِ أهلِ السيرِ أنَّ الصلاةَ إنما فرضتْ على النبيِّ ﷺ بمكةَ في حينِ الإسراءِ حينَ عرجَ بهِ إلى السماءِ. واختلفوا في تاريخِ الإسراءِ وهيئةِ الصلاةِ، وهلْ كانَ إسراءً بروحهِ أوْ جسدهِ، فهذهِ ثلاثُ مسائلَ تتعلقُ بالآيةِ، وهيَ مما ينبغي الوقوفُ عليها والبحثُ عنها، وأنا أذكرُ ما وقفتُ عليهِ فيها منْ أقاويلِ العلماءِ واختلافِ الفقهاءِ بعونِ اللهِ تعالى:

فأما المسألةُ الأولى: وهيَ هلْ كانَ إسراءً بروحهِ أوْ جسدهِ، اختلفَ في ذلكَ السلفُ والخلفُ، فذهبتْ طائفةٌ إلى أنهُ إسراءٌ بالروحِ، ولمْ يفارقْ شخصهُ مضجعهُ، وأنها كانتْ رؤيا رأى فيها الحقائقَ، ورؤيا الأنبياءِ حقٌّ. ذهبَ إلى هذا معاويةُ وعائشةُ، وحكيَ عنِ الحسنِ وابنِ إسحاقَ. وقالتْ طائفةٌ: كانَ الإسراءُ بالجسدِ يقظةً إلى بيتِ المقدسِ، وإلى السماءِ بالروحِ، واحتجوا بقولهِ تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ فجعلَ المسجدَ الأقصى غايةَ الإسراءِ. قالوا: ولوْ كانَ الإسراءُ بجسدهِ إلى زائدٍ على المسجدِ الأقصى لذكرهُ، فإنهُ كانَ يكونُ أبلغُ في المدحِ.

وذهبَ معظمُ السلفِ والمسلمينَ إلى أنهُ كانَ إسراءً بالجسدِ وفي اليقظةِ، وأنهُ ركبَ البراقَ بمكةَ، ووصلَ إلى بيتِ المقدسِ وصلى فيهِ ثمَّ أسريَ بجسدهِ. وعلى هذا تدلُّ الأخبارُ التي أشرنا إليها والآيةُ، وليسَ في الإسراءِ بجسدهِ وحالِ يقظتهِ استحالةٌ، ولا يعدلُ عنِ الظاهرِ والحقيقةِ إلى التأويلِ إلا عندَ الاستحالةِ، ولوْ كانَ منامًا لقالَ بروحِ عبدهِ ولمْ يقلْ بعبدهِ. وقولهُ: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ يدلُّ على ذلكَ. ولوْ كانَ منامًا لما كانتْ فيهِ آيةٌ ولا معجزةٌ، ولما قالتْ لهُ أمُّ هانئٍ: لا تحدث الناس فيكذبوك، ولا فُضِّلَ أبو بكرٍ بالتصديقِ، ولما أمكنَ قريشًا التشنيعُ والتكذيبُ، وقدْ كذبهُ قريشٌ فيما أخبرَ بهِ حتى ارتدَّ أقوامٌ كانوا آمنوا، فلوْ كانَ بالرؤيا لمْ يستنكرْ، وقدْ قالَ لهُ المشركونَ: إن كنت صادقا فخبرنا عن عيرنا

أين لقيتها؟ قالَ: بمكانِ كذا وكذا، واستخبروا النبيَّ ﷺ عنْ صفةِ بيتِ المقدسِ فوصفهُ لهمْ ولمْ يكنْ رآهُ قبلَ ذلكَ.

روى الصحيحُ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لقدْ رأيتني في الحجرِ وقريشٌ تسألني عنْ مسرايَ فسألتني عنْ أشياءَ منْ بيتِ المقدسِ لمْ أثبتها فكربتُ كربًا ما كربتُ مثلهُ قطُّ- قالَ- فرفعهُ اللهُ لي أنظر إليه فما سألوني عن شيء إلا أنبأتهمْ بهِ» الحديثَ.

وقدِ اعترضَ قولُ عائشةَ ومعاويةَ «إنما أسريَ بنفسِ رسولِ اللهِ ﷺ»: بأنها كانتْ صغيرةً لمْ تشاهدْ، ولا حدثتْ عنِ النبيِّ ﷺ. وأما معاويةُ فكانَ كافرًا في ذلك الوقت غير مستشهد للحالِ، ولمْ يحدثْ عنِ النبيِّ ﷺ.

وقدِ احتجَّ لعائشةَ بقولهِ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ فسماها رؤيا. وهذا يردهُ قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ ولا يقالُ في النومِ أسرى. وأيضًا فقدْ يقالُ لرؤيةِ العينِ: رؤيا، على ما يأتي بيانهُ في هذهِ السورةِ. وفي نصوصِ الأخبارِ الثابتةِ دلالةٌ واضحةٌ على أنَّ الإسراءَ كانَ بالبدنِ، وإذا وردَ الخبرُ بشيءٍ هوَ مجوزٌ في العقلِ في قدرةِ اللهِ تعالى فلا طريقَ إلى الإنكارِ، لا سيما في زمنِ خرقِ العوائدِ، وقدْ كانَ للنبيِّ ﷺ معارجُ، فلا يبعدُ أنْ يكونَ البعضُ بالرؤيا، وعليهِ يحملُ قولهُ ﷺ في الصحيحِ: «بينا أنا عندَ البيتِ بينَ النائمِ واليقظانِ» الحديثَ. ويحتملُ أنْ يُردَّ منَ الاسراءِ إلى نوم. والله أعلم.

المسألةُ الثانيةُ – في تاريخِ الإسراءِ، وقدِ اختلفَ العلماءُ في ذلكَ أيضًا، فقيل أسريَ بهِ إلى بيتِ المقدسِ قبلَ خروجهِ إلى المدينةِ بسنةٍ، وعليه فقد توفيتْ خديجةُ بعدَ مبعثِ النبيِّ ﷺ بسبعةِ أعوامٍ قبلَ أنْ تفرضَ الصلاةُ. وقيل: أسريَ بهِ بعدَ مبعثهِ بخمسِ سنينَ. وعليه فقد صلتْ خديجةُ معَ النبيِّ ﷺ. قالَ أبو عمرَ: وهذا يدلكَ على أنَّ الإسراءَ كانَ قبلَ الهجرةِ بأعوامٍ، لأنَّ خديجةَ قدْ توفيتْ قبلَ الهجرةِ بخمسِ سنينَ وقيلَ: بثلاثٍ وقيلَ: بأربعٍ.

المسألةُ الثالثةُ – وأما فرضُ الصلاةِ وهيئتها حينَ فرضتْ، فلا خلافَ بينَ أهلِ العلمِ وجماعةِ أهلِ السيرِ أنَّ الصلاةَ إنما فرضتْ بمكةَ ليلةَ الإسراءِ حينَ عرجَ بهِ إلى السماءِ، وذلكَ منصوصٌ في الصحيحِ وغيرهِ. وإنما اختلفوا في هيئتها حينَ فرضتْ، فرويَ عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها فرضتْ ركعتينِ ركعتينِ، ثمَّ زيدَ في صلاةِ الحضرِ فأكملتْ أربعًا، وأقرتْ صلاةُ

السفرِ على ركعتينِ.

ولـمْ يختلفوا في أنَّ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هبطَ صبيحةَ ليلةِ الإسراءِ عندَ الزوالِ، فعلمَ النبيَّ ﷺ الصلاةَ ومواقيتها.

وقدْ أجمعَ المسلمونَ أنَّ فرضَ الصلاةِ في الحضرِ أربعٌ إلا المغربَ والصبحَ ولا يعرفونَ غيرَ ذلكَ عملًا ونقلًا مستفيضًا، ولا يضرهمْ الاختلافُ فيما كانَ أصلُ فرضها.

وقدْ مضى الكلام في الأذان في «المائدةِ» والحمدُ للهِ. ومضى في «آلِ عمرانَ» «أنَّ أولَ مسجدٍ وضعَ في الأرضِ المسجدُ الحرامُ، ثمَّ المسجدُ الأقصى. وأنَّ بينهما أربعينَ عامًا منْ حديثِ أبي ذرٍّ، وبناءُ سليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ المسجدَ الأقصى ودعاؤهُ لهُ منْ حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمرو ووجهُ الجمعِ في ذلكَ، فتأملهُ هناكَ فلا معنى للإعادةِ. ونذكرُ هنا قولهُ ﷺ: «لا تشدُّ الرحالُ إلا إلى ثلاثةِ مساجدَ إلى المسجدِ الحرامِ وإلى مسجدي هذا وإلى مسجدِ إيلياءَ أوْ بيتَ المقدسِ». خرجهُ مالكٌ منْ حديثِ أبي هريرةَ. وفيهِ ما يدلُّ على فضلِ هذهِ المساجدِ الثلاثةِ على سائرِ المساجدِ، لهذا قالَ العلماءُ: منْ نذرَ صلاةً في مسجد لا يصلُ إليهِ إلا برحلةٍ وراحلةٍ فلا يفعلُ، ويصلي في مسجدهِ، إلا في الثلاثةِ المساجدِ المذكورةِ فإنهُ منْ نذرَ صلاةً فيها خرجَ إليها. وقدْ قالَ مالكٌ وجماعةٌ منْ أهلِ العلمِ فيمنْ نذرَ رباطًا في ثغرٍ يسدهُ: فإنهُ يلزمهُ الوفاءُ حيثُ كانَ الرباطُ لأنهُ طاعةُ اللهِ عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ سميَ الأقصى لبعدِ ما بينهُ وبينَ المسجدِ الحرام، وكانَ أبعدَ مسجدٍ عنْ أهلِ مكة في الأرض يعظم بالزيارة ثم قال: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ قيلَ: بالثمارِ وبمجاري الأنهارِ. وقيل: بمنْ دفنَ حولهُ منَ الأنبياءِ والصالحينَ، وبهذا جعلهُ مقدسًا.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢﴾

أيْ كرمنا محمدًا ﷺ بالمعراجِ، وأكرمنا موسى بالكتابِ وهوَ التوراةُ. ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أيْ ذلكَ الكتابَ. وقيلَ: موسى. وقيلَ: معنى الكلامِ: سبحانَ الذي أسرى بعبدهِ ليلًا وآتى موسى الكتابَ، فخرجَ منَ الغيبةِ إلى الإخبارِ عنْ نفسهِ عز وجل. وقيل: إنَّ معنى سبحانَ الذي أسرى بعبدهِ ليلًا، معناهُ أسرينا، يدلُّ عليهِ ما بعدهُ منْ قولهِ: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ فحملَ ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ على المعنى.

﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ قرأَ أبو عمرو «يتخذوا» بالياءِ. الباقونَ بالتاءِ. فيكونُ منْ بابِ تلوينِ الخطابِ. ﴿وَكِيلًا﴾ أيْ شريكًا، وقيل: كفيلًا بأمورهمْ، وقيل: ربًّا يتوكلونَ عليهِ في أمورهمْ.

قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾.

أيْ يا ذريةَ منْ حملنا، على النداءِ، والمرادُ بالذريةِ كلُّ منِ احتجَّ عليهِ بالقرآنِ، وهمْ جميعُ منْ على الأرضِ، وقيل: يعني موسى وقومهُ منْ بني إسرائيلَ، والمعنى يا ذريةَ منْ حملنا معَ نوحٍ لا تشركوا. وذكرَ نوحًا ليذكّرهمْ نعمةَ الإنجاءِ منَ الغرقِ على آبائهمْ، ثمَّ بينَ أنَّ نوحًا كانَ عبدًا شكورًا يشكرُ اللهَ على نعمهِ ولا يرى الخيرَ إلا منْ عندهِ.

ويجوز أن يكون ﴿ذُرِّيَّةَ﴾ مفعولًا ثانيًا لِ ﴿تَتَّخِذُوا۟﴾، ويكونُ قولهُ: ﴿وَكِيلًا﴾ يرادُ بهِ الجمعُ فيسوغُ ذلكَ في القراءتينِ جميعًا أعني الياءَ والتاءَ في ﴿تَتَّخِذُوا۟﴾. ويجوزُ أيضًا في القراءتينِ جميعًا أنْ يكونَ ﴿ذُرِّيَّةَ﴾ بدلًا منْ قولهِ: ﴿وَكِيلًا﴾ لأنهُ بمعنى الجمعِ، فكأنهُ قالَ: لا تتخذوا ذريةَ منْ حملنا معَ نوحٍ. ويجوزُ نصبها بإضمارِ أعني وأمدحُ، والعربُ قدْ تنصبُ على المدحِ والذمِّ.

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ معنى ﴿قَضَيْنَا﴾ أعلمنا وأخبرنا، وقيل: حكمنا، وأصلُ القضاءِ الإحكامُ للشيءِ والفراغُ منهُ، وقيل: قضينا أوحينا، ولذلكَ قالَ: ﴿إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾. وعلى قولِ قتادةَ يكونُ ﴿إِلَىٰ﴾ بمعنى على، أيْ قضينا عليهمْ وحكمنا، والمعنيُّ بالكتابِ اللوحُ المحفوظُ ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ المرادُ بالفسادِ مخالفةُ أحكامِ

التوراةِ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يريدُ أرضَ الشامِ وبيْت المقدس وما والاها ﴿مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ﴾ اللام في ﴿لَتُفۡسِدُنَّ﴾ ﴿وَلَتَعۡلُنَّ﴾ لامُ قسمٍ مضمرٍ كما تقدمَ ﴿عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤﴾ أرادَ التكبرَ والبغيَ والطغيانَ والاستطالةَ والغلبةَ والعدوان.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أيْ أولى المرتينِ منْ فسادهمْ ﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ هم أهل بابل، وكان عليهم بخت نصر في المرة الأولى حين كذبوا إرميا وجرحوهُ وحبسوهُ، قالهُ ابنُ عباسٍ وغيرهُ. وقالَ قتادةُ: أرسلَ عليهمْ جالوتَ فقتلهمْ، فهوَ وقومهُ أولو بأسٍ شديدٍ. ﴿فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَكانَ وَعْداً مَفْعُولاً ٥﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أيِ الدولةَ والرجعةَ، وذلكَ لما تبتمْ وأطعتمْ. ثمَّ قيلَ: ذلكَ بقتلِ داودَ جالوتَ أوْ بقتلِ غيرهِ، على الخلافِ في منْ قتلهمْ ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾ حتى عادَ أمرُكمْ كما كانَ ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ٦﴾ أيْ أكثرَ عددًا ورجالًا منْ عدوكمْ. والنفيرُ منْ نفرَ معَ الرجلِ منْ عشيرتهِ، والمعنى: أنهمْ صاروا بعدَ هذهِ الوقعةِ الأولى أكثرَ انضمامًا وأصلحَ أحوالًا، جزاءً منَ اللهِ تعالى لهم على عودهم إلى الطاعة.

قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ﴾ أيْ نفعُ إحسانكمْ عائدٌ عليكمْ ﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ أيْ فعليها، نحوَ سلامٌ لكَ، أيْ سلامٌ عليكَ. كقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا﴾ أيْ إليها. وقيل: فلها الجزاءُ والعقابُ. وقيل: فلها ربٌّ يغفرُ الإساءةَ. ثمَّ يحتملُ أن يكون هذا خطابًا لبني إسرائيلَ في أولِ الأمر، أيْ أسأتمْ فحلَّ بكمُ القتلُ والسبيُ والتخريبُ ثمَّ أحسنتمْ فعادَ إليكمُ الملكُ والعلوُّ وانتظامُ الحالِ. ويحتملُ أنهُ خوطبَ بهذا بنو إسرائيلَ في زمنِ محمدٍ ﷺ، أيْ عرفتمُ استحقاقَ أسلافكمْ للعقوبةِ على العصيانِ فارتقبوا مثلهُ. أوْ يكونُ خطابًا لمشركي قريشٍ على هذا الوجهِ ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ منْ إفسادكمْ، وذلكَ أنهمْ قتلوا في المرةِ الثانيةِ يحيى بنَ زكريا عليهما السلام،

واختلفَ فيمنْ كانَ المبعوثُ عليهمْ في المرة الآخرة، فقيل: بخت نصر. قالَ السهيليُّ: وهذا لا يصحُّ، لأنَّ قتلَ يحيى كان بعد رفع عيسى، وبخت نصر كانَ قبلَ عيسى ابنِ مريمَ عليهما السلام بزمانٍ طويلٍ وقبلَ الإسكندرِ، وبينَ الإسكندرِ وعيسى نحوٌ منْ ثلاثمائةِ سنةٍ، ولكنهُ أريدَ بالمرةِ الأخرى حين قتلوا شَعْيا، فقد كان بخت نصر إذْ ذاكَ حيًا، فهوَ الذي قتلهمْ وخربَ بيتَ المقدسِ وأتبعهمْ إلى مصرَ وأخرجهمْ منها.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ أيْ منَ المرتينِ، وجوابُ ﴿إِذَا﴾ محذوفٌ، تقديرهُ بعثناهمْ، دلَّ عليه ﴿بَعَثْنَا﴾ الأول ﴿لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ أيْ بالسبيِ والقتلِ فيظهرُ أثرُ الحزنِ في وجوهكم، ف ﴿لِيَسُـۥٓـُٔوا۟﴾ متعلقٌ بمحذوفٍ، أيْ بعثنا عبادًا ليفعلوا بكمْ ما يسوءُ وجوهكمْ.

قيلَ: المرادُ بالوجوهِ السادةُ، أيْ ليذلوهمْ. وقرأ الكسائيُّ «لِنَسُوءَ» بنونٍ وفتحِ الهمزةِ، فعلُ مخبرٍ عنْ نفسهِ معظمٍ، اعتبارًا بقولهِ: «وقضينا، وبعثنا، ورددنا». وقرأ حمزةُ وابنُ عامرٍ «لِيَسُوءَ» بالياءِ على التوحيدِ وفتحِ الهمزةِ، ولها وجهانِ:

أحدهما- ليسوءَ اللهُ وجوهكمْ. **والثاني**- ليسوءَ الوعدُ وجوهكمْ.

وقرأ الباقون ﴿لِيَسُـۥٓـُٔوا۟﴾ بالياءِ وضمِّ الهمزةِ على الجمعِ، أيْ ليسوءَ العبادُ الذينَ همْ أولو بأسٍ شديدٍ وجوهَكمْ ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟﴾ أيْ ليدمروا ويهلكوا. وقالَ قطربٌ: يهدموا.

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ وهذا مما أخبروا بهِ في كتابهم. و ﴿عَسَىٰ﴾ وعد من الله أن يكشف عنهم. و ﴿عَسَىٰ﴾ منَ اللهِ واجبةٌ ﴿أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ بعدَ انتقامهِ منكمْ، وكذلكَ كانَ، فكثرَ عددهمْ وجعلَ منهمُ الملوك ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ فعادوا فبعثَ اللهُ عليهمْ محمدًا ﷺ، فهمْ يعطونَ الجزيةَ بالصغارِ، ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ أيْ محبسًا وسجنًا، منَ الحصرِ وهوَ الحبسُ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ أي أسدُّ وأعدلُ وأصوبُ، و﴿ٱلَّتِى﴾ نعتٌ لموصوفٍ محذوفٍ، أيِ الطريقةِ إلى نصٍّ أقومَ، وهيَ توحيدُ اللهِ والإيمانُ برسلهِ.

قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ﴾ أيْ بأنَّ لهمْ ﴿أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾ أيِ الجنةَ. ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠﴾ أيْ ويبشرهمْ بأنَّ لأعدائهمُ العقابَ. والقرآنُ معظمهُ وعدٌ ووعيدٌ. وقرأ حمزةُ والكسائيُ ﴿وَيَبْشُرَ﴾ مخففًا بفتحِ الياءِ وضمِ الشينِ.

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ على نفسهِ وولدهِ عندَ الضجرِ بما لا يحبُّ أنْ يستجابَ لهُ ﴿دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ أيْ كدعائهِ ربهُ أنْ يهبَ لهُ العافيةَ لكنْ اللهُ بفضلهِ لا يستجيبُ لهُ في ذلكَ. نظيرهُ: ﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ۝١١﴾ أيْ طبعهُ العجلةُ، فيعجلُ بسؤالِ الشرِّ كما يعجلُ بسؤالِ الخيرِ. وقيل: أشارَ بهِ إلى آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حينَ نهضَ قبل أن يركب فيهِ الروحُ على الكمالِ.

وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ أنسِ بنِ مالكٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «لما صورَ اللهُ تعالى آدمَ في الجنةِ تركهُ ما شاءَ اللهُ أنْ يتركهُ فجعلَ إبليسُ يطيفُ بهِ ينظرُ ما هوَ فلما رآهُ أجوفَ عرفَ أنهُ خلقَ خلقًا لا يتمالكُ».

وقيل: معنى ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ۝١١﴾ أيْ يؤثرُ العاجلَ وإنْ قلَّ، على الآجلِ وإنْ جل.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ أيْ علامتينِ على وحدانيتنا ووجودنا وكمالِ علمنا وقدرتنا ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ معناهُ طمسنا، ولمْ يقلْ: فمحونا الليلَ، فلما أضافَ الآيةَ إلى الليلِ والنهارِ دلَّ على أنَّ الآيتينِ المذكورتينِ لهما لا هما. ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أيْ جعلنا شمسهُ مضيئةً للأبصارِ ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يريدُ التصرفَ في المعاشِ. ولمْ يذكرِ السكونَ في الليلِ اكتفاءً بما ذكرَ في النهارِ. وقدْ قالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾. ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ

﴿وَٱلْحِسَابَ﴾ أيْ لوْ لمْ يفعلْ ذلكَ لما عرفَ الليلُ منَ النهارِ، ولا كانَ يعرفُ الحسابُ والعددُ ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ۝١٢﴾ أيْ منْ أحكامِ التكليفِ، وهوَ كقولهِ: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾، ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ ذكرُ العنقِ عبارةٌ عنِ اللزومِ كلزومِ القلادةِ للعنقِ، ﴿طَٰٓئِرَهُۥ﴾ عملهُ وما قدرَ عليهِ منْ خيرٍ وشرٍّ، وهوَ ملازمهُ أينما كانَ ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣﴾ يعني كتابَ طائرهِ الذي في عنقهِ، وقرأ أبو جعفرٍ ويعقوبُ «وَيَخْرُجُ» بفتحِ الياءِ وضمِّ الراءِ، على معنى ويخرجُ لهُ الطائرُ كتابًا، فَـ﴿كِتَٰبًا﴾ منصوبٌ على الحالِ. ويحتملُ أنْ يكونَ المعنى: ويخرجُ الطائرُ فيصيرُ كتابًا، الباقونَ: ﴿وَنُخْرِجُ﴾ بنونٍ مضمومةٍ وكسرِ الراءِ، أيْ ونحنُ نخرجُ. واحتجَّ أبو عمرو في هذهِ القراءةِ بقولهِ: ﴿أَلْزَمْنَٰهُ﴾.

وقرأ أبو جعفرٍ وابنُ عامرٍ «يُلَقَّاهُ» بضمِّ الياءِ وفتحِ اللامِ وتشديدِ القافِ، بمعنى يؤتاهُ. الباقونَ بفتحِ الياءِ خفيفةً، أيْ يراهُ منشورًا. وقالَ ﴿مَنشُورًا ۝١٣﴾ تعجيلًا للبشرى بالحسنة والتوبيخ بالسيئة ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ أميًا كانَ أوْ غيرَ أميٍّ ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ أيْ محاسبًا.

قوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أيْ إنما كلُّ أحدٍ يحاسبُ عنْ نفسهِ لا عنْ غيرهِ، فمنِ اهتدى فثوابُ اهتدائهِ لهُ، ومنْ ضلَّ فعقابُ كفرهِ عليهِ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ يقالُ: وزَرَ يزِرُ وزرًا، ووزرةً، أيْ أثمَ. والوِزْرُ: الثقلُ المثقلُ والجمعُ أوزارٌ، ومنهُ ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ أيْ أثقالَ ذنوبهمْ.

مسألةٌ: نزعتْ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بهذهِ الآيةِ في الردِّ على ابنِ عمرَ حيثُ قالَ: «إنَّ الميتَ ليعذبُ ببكاءِ أهلهِ». قالَ علماؤنا: وإنما حملها على ذلك أنها لمْ تسمعهُ، وأنهُ معارضٌ للآيةِ.

ولا وجهَ لإنكارها، فإنَّ الرواةَ لهذا المعنى كثيرٌ، كعمرَ وابنهِ والمغيرةِ بنِ شعبةَ وقيلةَ بنتِ مخرمةَ، وهمْ جازمونَ بالروايةِ، فلا وجهَ لتخطئتهمْ. ولا معارضةَ بينَ الآيةِ والحديثِ، فإنَّ الحديثَ محملهُ على ما إذا كانَ النوحُ منْ وصيةِ الميتِ وسنتهِ، كما كانتِ الجاهليةُ

تفعلهُ، حتى قالَ طرفةُ:

إذا متُّ فانعيني بما أنا أهلهُ وشقي عليَّ الجيبَ يا بنتَ معبدِ

وإلى هذا نحا البخاريُّ. وقدْ ذهبَ جماعةٌ منْ أهلِ العلمِ منهمْ داودُ إلى اعتقادِ ظاهرِ الحديثِ، وأنهُ إنما يعذبُ بنوحهمْ، لأنهُ أهملَ نهيهمْ عنهُ قبلَ موتهِ وتأديبهمْ بذلكَ، فيعذبُ بتفريطهِ في ذلكَ، وبتركِ ما أمرهُ اللهُ بهِ منْ قولهِ: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ لا بذنبِ غيرهِ، واللهُ أعلمُ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ أيْ لمْ نتركِ الخلقَ سدى، بلْ أرسلنا الرسلَ. وفي هذا دليلٌ على أنَّ الأحكامَ لا تثبتُ إلا بالشرعِ، خلافًا للمعتزلةِ القائلينَ بأنَّ العقلَ يقبحُ ويحسنُ ويبيحُ ويحظرُ، والجمهورُ على أنَّ هذا في حكمِ الدنيا، أيْ إنَّ اللهَ لا يهلكُ أمةً بعذابٍ إلا بعدَ الرسالةِ إليهمْ والإنذارِ. وقالت فرقة: هذا عامٌّ في الدنيا والآخرةِ، لقولهِ تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا﴾.

وهذهِ الآيةُ أيضًا يعطي احتمالُ ألفاظها نحوَ هذا في الذينَ لمْ تصلهمْ رسالةٌ، وهمْ أهلُ الفتراتِ الذينَ قدْ قدرَ وجودهمْ بعضُ أهلِ العلمِ. وأما ما رويَ منْ أنَّ اللهَ تعالى يبعثُ إليهمْ يومَ القيامةِ وإلى المجانينِ والأطفالِ فحديثٌ لمْ يصحَّ، ولا يقتضي ما تعطيهِ الشريعةُ منْ أنَّ الآخرةَ ليستْ دارَ تكليفٍ.

وقدِ استدلَّ قومٌ في أنَّ أهلَ الجزائرِ إذا سمعوا بالإسلامِ وآمنوا فلا تكليفَ عليهمْ فيما مضى، وهذا صحيحٌ، ومنْ لمْ تبلغهُ الدعوةُ فهوَ غيرُ مستحقٍّ للعذابِ منْ جهةِ العقلِ، واللهُ أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ١٦﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: أخبرَ اللهُ تعالى في الآيةِ التي قبلُ أنهُ لـمْ يهلكَ القرى قبلَ ابتعاثِ الرسلِ، لا لأنهُ يقبحُ منهُ ذلكَ إنْ فعلَ، ولكنهُ وعدٌ منهُ، ولا خُلف في وعدهِ. فإذا أرادَ إهلاكَ قريةٍ معَ تحقيقِ وعدهِ على ما قالهُ تعالى أمرَ مترفيها بالفسقِ والظلمِ فيها فحقَّ عليها القولُ بالتدمير. يعلمك أن من هلك فإنما هلكَ بإرادتهِ، فهوَ الذي يسببُ الأسبابَ ويسوقها إلى غاياتها ليحقَّ القولُ السابقُ منَ اللهِ تعالى.

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَمَرْنَآ﴾ قرأَ أبو عثمانَ النهديُّ وجماعة «أَمَّرْنَا» بالتشديدِ، وهيَ قراءةُ عليٍّ رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ، أيْ سلّطنا شرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلكَ أهلكناهمْ. وقيل: جعلناهم أمراءَ مسلطينَ، وقرأ يعقوبُ وخارجةُ عنْ نافعٍ وحمادُ بنُ سلمةَ عنِ ابنِ كثيرٍ «آمَرْنَا» بالمدِّ والتخفيفِ، أيْ أكثرنا جبابرتها وأمراءها، الباقونَ: ﴿أَمَرْنَآ﴾ منَ الأمر، أيْ أمرناهمْ بالطاعةِ إعذارًا وإنذارا وتخويفا ووعيدا. ﴿فَفَسَقُوا﴾ أي فأخرجوا عنِ الطاعةِ عاصينَ لنا. ﴿فحقَّ عليها القولُ﴾ أي وجبَ عليها الوعيدُ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا﴾ أي استأصلناها بالهلاك ﴿تَدْمِيرًا ١٦﴾ ذكر المصدرَ للمبالغةِ في العذابِ الواقعِ بهمْ.

وفي الصحيح من حديث بنتِ جحشٍ زوجِ النبيِّ ﷺ قالتْ: خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ يومًا فزعًا محمرًا وجههُ يقولُ: «لا إلهَ إلا اللهُ ويلٌ للعربِ منْ شرٍّ قدِ اقتربَ فتحَ اليومَ منْ ردمِ يأجوجَ ومأجوجَ مثلُ هذهِ» وحلقَ بإصبعهِ الإبهام والتي تليها. قالتْ: فقلتُ يا رسولَ اللهِ، انهلك وفينا الصالحونَ؟ قالَ: «نعمْ إذا كثرَ الخبثُ». وقدْ تقدمَ الكلامُ في هذا البابِ، وأنَّ المعاصيَ إذا ظهرتْ ولمْ تغيرْ كانتْ سببًا لهلاكِ الجميع، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ﴾ أيْ كمْ منْ قومٍ كفروا حلَّ بهمُ البوار. يخوف كفار مكة ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا﴾ عليمًا بهمْ ﴿بَصِيرٗا ١٧﴾ يبصرُ أعمالهمْ.

قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ يعني الدنيا، والمرادُ الدارَ العاجلةَ، فعبرَ بالنعتِ عنِ المنعوتِ ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ أيْ لمْ نعطهِ منها إلا ما نشاءُ ثمَّ نؤاخذهُ بعملهِ، وعاقبتهُ دخولُ النارِ ﴿مَذْمُومٗا مَّدْحُورٗا ١٨﴾ أيْ مطردًا مبعدًا منْ رحمةِ اللهِ. وهذهِ صفةُ المنافقينَ الفاسقينَ، والمرائينَ، يلبسونَ الإسلامَ والطاعةَ لينالوا عاجلَ الدنيا منَ الغنائمِ وغيرها، فلا يقبلُ ذلكَ العملُ منهمْ في الآخرةِ ولا يعطونَ في الدنيا إلا ما قسمَ لهمْ. وقدْ تقدمَ في «هودٍ» أنَّ هذهِ الآيةَ تقيدُ الآياتِ المطلقةِ، فتأملهُ.

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأٓخِرَةَ﴾ أي الدارَ الآخرةَ ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أيْ عملَ لها عملها منَ الطاعاتِ ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٞ﴾ لأنَّ الطاعاتِ لا تقبلُ إلا منْ مؤمنٍ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورٗا ١٩﴾ أي مقبولًا غير مردودٍ. وقيل: مضاعفًا، أيْ تضاعفُ لهمُ الحسناتُ إلى عشرٍ، وإلى سبعينَ وإلى سبعمائةِ ضعفٍ، وإلى أضعافٍ كثيرةٍ، كما رويَ عنْ أبي هريرةَ وقدْ قيلَ لهُ: أسمعتَ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إنَّ اللهَ ليجزي على الحسنةِ الواحدةِ ألفَ ألفِ حسنةٍ»؟ فقالَ سمعتهُ يقولُ: «إنَّ اللهَ ليجزي على الحسنةِ الواحدةِ ألفيْ ألفِ حسنة».

قوله تعالى: ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ﴾ أعلمَ أنهُ يرزقُ المؤمنينَ والكافرينَ ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ٢٠﴾ أيْ محبوسًا ممنوعًا، منْ حظرَ يحظرُ حظرًا وحظارًا. ثمَّ قالَ تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٖۚ﴾ في الرزقِ والعملِ، فمنْ مقلٍّ ومكثرٍ ﴿وَلَلْأٓخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلٗا ٢١﴾ أيْ للمؤمنينَ، فالكافرُ وإنْ وسعَ عليهِ في الدنيا مرةً، وقترَ على المؤمنِ مرةً فالآخرةُ لا تقسمُ إلا مرةً واحدةً بأعمالهم، فمن فاته شيء منها لمْ يستدركهُ فيها.

وقولهُ: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخطابُ للنبيِّ ﷺ والمرادُ أمتهُ. وقيل: الخطابُ للإنسانِ ﴿فَتَقْعُدَ﴾ أيْ تبقى ﴿مَذْمُومٗا مَّخْذُولٗا ٢٢﴾ لا ناصر لك ولا وليا.

قوله تعالى: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾، فيه ست عشرة مسألة:

الأولى: ﴿قَضَىٰ﴾ أيْ أمرَ وألزمَ وأوجبَ. والقضاءُ يستعملُ في اللغةِ على وجوهٍ: فالقضاءُ بمعنى الأمر، كقوله تعالى: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ معناهُ أمرَ. والقضاءُ بمعنى الخلقِ، كقولِهِ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ يعني خلقهنَّ. والقضاءُ بمعنى الحكمِ، كقوله تعالى: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ يعني احكمْ ما أنتَ تحكمُ. والقضاءُ بمعنى الفراغِ، كقولِهِ: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾. أيْ فرغَ منهُ، ومنهُ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾. وقولهُ تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾. والقضاءُ بمعنى الإرادةِ، كقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾. والقضاءُ بمعنى العهدِ، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾. فإذا كانَ القضاءُ يحتملُ هذهِ المعانيَ فلا يجوزُ إطلاقُ القولِ بأنَّ المعاصيَ بقضاءِ اللهِ، لأنهُ إنْ أريدَ بهِ الأمر فلا خلافَ أنهُ لا يجوزُ ذلكَ، لأنَّ اللهَ تعالى لمْ يأمرْ بها، فإنهُ لا يأمرُ بالفحشاءِ.

الثانية: أمرَ اللهُ سبحانهُ بعبادتهِ وتوحيدهِ، وجعلَ برَّ الوالدينِ مقرونًا بذلكَ، كما قرنَ شكرهما بشكرهِ فقالَ: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ﴾. وقالَ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾. وفي صحيحِ البخاريِّ عنْ عبدِ اللهِ قالَ: سألتُ النبيَّ ﷺ أيُّ العملِ أحبُّ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؟ قالَ: «الصلاةُ على وقتها» قالَ: ثمَّ أيٌّ؟ قالَ: «ثمَّ برُّ الوالدينِ» قالَ ثمَّ أيٌّ؟ قالَ: «الجهادُ في سبيلِ اللهِ». فأخبرَ ﷺ أنَّ برَّ الوالدينِ أفضلُ الأعمالِ بعدَ الصلاةِ التي هيَ أعظمُ دعائمِ الإسلامِ. ورتبَ ذلكَ «بثمَّ» التي تعطي الترتيبَ والمهلةَ.

الثالثة: منَ البرِّ بهما والإحسانِ إليهما ألا يتعرضَ لسبهما ولا يعقهما، فإنَّ ذلكَ منَ الكبائرِ بلا خلافٍ، وبذلكَ وردتِ السنةُ الثابتةُ، ففي صحيحِ مسلمٍ عنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرو أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «إنَّ منَ الكبائرِ شتمَ الرجلِ والديهِ» قالوا: يا رسولَ اللهِ، وهلْ يشتمُ الرجلُ والديهِ؟ قالَ: «نعمْ. يسبُّ الرجلُ أبا الرجلِ فيسبُّ أباهُ ويسبُّ أمهُ فيسبُّ أمهُ».

الرابعة: عقوقُ الوالدينِ مخالفتهما في أغراضهما الجائزةِ لهما، كما أنَّ برهما موافقتهما على أغراضهما. وعلى هذا إذا أمرا أوْ أحدهما ولدهما بأمرٍ وجبتْ طاعتهما فيهِ، إذا لمْ يكنْ ذلكَ الأمر معصيةً، وإنْ كانَ ذلكَ المأمورُ بهِ منْ قبيلِ المباحِ في أصلهِ، وكذلكَ إذا كانَ منْ قبيلِ المندوبِ. وقدْ ذهبَ بعضُ الناسِ إلى أنَّ أمرهما بالمباحِ يصيرهُ في حقِّ الولدِ مندوبًا إليهِ وأمرهما بالمندوبِ يزيدهُ تأكيدا في ندبيته.

الخامسة: روى الترمذي عن ابن عمرَ رضي الله عنهما قالَ: كانتْ تحتي امرأةٌ أحبها، وكانَ أبي يكرهها فأمرني أنْ أطلقها فأبيتُ، فذكرتْ ذلكَ للنبيِّ ﷺ فقالَ: «يا عبدَ اللهِ بنَ عمرَ طلقِ امرأتكَ». قالَ هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

السادسة: روى الصحيحُ عنْ أبي هريرةَ قالَ: جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقالَ: منْ أحقُّ الناسَ بحسنِ صحابتي؟ قالَ: «أمكَ» قالَ: ثمَّ منْ؟ قالَ: «ثمَّ أمكَ» قالَ: ثمَّ منْ؟ قالَ: «ثمَّ أمكَ» قالَ: ثمَّ منْ؟ قالَ: «ثمَّ أبوكَ». فهذا الحديثُ يدلُّ على أنَّ محبةَ الأمِّ والشفقةَ عليها ينبغي أنْ تكونَ ثلاثةَ أمثالِ محبةِ الأبِ، لذكرِ النبيِّ ﷺ الأمَّ ثلاثَ مراتٍ وذكرِ الأبِ في الرابعةِ فقطْ. وإذا تُوصِّلَ هذا المعنى شهدَ لهُ العيانُ. وذلكَ أنَّ صعوبةَ الحملِ وصعوبةَ الوضعِ وصعوبةَ الرضاعِ والتربيةِ تنفردُ بها الأمُّ دونَ الأبِ، فهذهِ ثلاثُ منازلَ يخلو منها الأبُ.

السابعة: لا يختصُّ برُّ الوالدينِ بأنْ يكونا مسلمينِ، بلْ إنْ كانا كافرينِ يبرهما ويحسنُ إليهما إذا كانَ لهما عهدٌ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾. وفي صحيح البخاريِّ عنْ أسماءَ قالتْ: قدمتْ أمي وهيَ مشركةٌ في عهدِ قريشٍ ومدتهمْ إذْ عاهدوا النبيَّ ﷺ معَ أبيها، فاستفتيتُ النبيَّ ﷺ فقلتُ: إنَّ أمي قدمتْ وهيَ راغبةٌ أفأصلها؟ قالَ: «نعمْ صلي أمك».

الثامنة: منَ الإحسانِ إليهما والبرِّ بهما إذا لمْ يتعينِ الجهادُ ألا يجاهدَ إلا بإذنهما. روى الصحيحُ عنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرو قالَ: جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ يستأذنهُ في الجهادِ فقالَ: «أحيٌّ والداكَ»؟ قالَ نعمْ. قالَ: «ففيهما فجاهدْ». لفظُ مسلمٍ، ولفظُ البخاريِّ في كتابِ برِّ الوالدينِ: عنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرو قالَ: جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ يبايعهُ على الهجرةِ، وتركَ أبويهِ يبكيانِ

فقالَ: «ارجعْ إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما».

قالَ ابنُ المنذرِ: في هذا الحديثِ النهيُ عنِ الخروجِ بغيرِ إذنِ الأبوينِ ما لمْ يقعِ النفيرُ، فإذا وقعَ وجبَ الخروجُ على الجميعِ. وذلكَ بينٌ في حديثِ أبي قتادةَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ بعثَ جيشَ الأمراءِ...، فذكرَ قصةَ زيدِ بنِ حارثةَ وجعفرِ بنِ أبي طالب وابن رواحة وأن منادي رسول اللهِ ﷺ نادى بعدَ ذلكَ: أنَّ الصلاةَ جامعةٌ، فاجتمعَ الناسُ فحمدَ اللهَ وأثنى عليهِ ثمَّ قالَ: «أيها الناسُ، اخرجوا فأمدوا إخوانكمْ ولا يتخلفنَّ أحدٌ» فخرجَ الناسُ مشاةً وركبانًا في حرٍّ شديدٍ. فدلَّ قولهُ: «اخرجوا فأمدوا إخوانكمْ» أنَّ العذرَ في التخلف عن الجهاد إنما هو ما لمْ يقعِ النفيرُ، معَ قولهِ ﷺ: «فإذا استنفرتمْ فانفروا». قلتُ: وفي هذهِ الأحاديثِ دليلٌ على أنَّ المفروضَ أوِ المندوباتِ متى اجتمعتْ قدمَ الأهمُّ منها.

التاسعة: واختلفوا في الوالدينِ المشركينِ هلْ يخرجُ بإذنهما إذا كانَ الجهادُ منْ فروضِ الكفايةِ، فكانَ الثوريُّ يقولُ: لا يغزو إلا بإذنهما. وقالَ الشافعيُّ: له أن يغزو بغيرِ إذنهما.

قالَ ابنُ المنذرِ: والأجدادُ آباءٌ، والجداتُ أمهاتٌ فلا يغزو المرءُ إلا بإذنهمْ، ولا أعلمُ دلالةً توجبُ ذلكَ لغيرهمْ منَ الأخوةِ وسائرِ القراباتِ. وكانَ طاوسٌ يرى السعيَ على الأخواتِ أفضلَ منَ الجهادِ في سبيلِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

العاشرة: منْ تمامِ برهما صلةُ أهلِ ودهما، ففي الصحيحِ عنِ ابنِ عمرَ قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إنَّ منْ أبرِ البرِ صلةُ الرجلِ أهلَ ودِّ أبيهِ بعدَ أنْ يوليَ». وروى أبو أسيدٍ وكانَ بدريًا قالَ: كنتُ معَ النبيِّ ﷺ جالسًا فجاءهُ رجلٌ منَ الأنصارِ فقالَ: يا رسولَ اللهِ، هلْ بقيَ منْ برِّ والديَّ من بعد موتهما شيء أبرهما بهِ؟ قالَ: «نعمْ. الصلاةُ عليهما والاستغفارُ لهما وإنفاذُ عهدهما بعدهما وإكرامُ صديقهما وصلةُ الرحمِ التي لا رحمَ لكَ إلا منْ قبلهما فهذا الذي بقيَ عليكَ». وكانَ ﷺ يهدي لصدائقِ خديجةَ برًا بها ووفاءً لها وهيَ زوجتهُ، فما ظنكَ بالوالدينِ.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ خصَّ حالةَ الكبرِ لأنها الحالةُ التي يحتاجانِ فيها إلى برهِ لتغيرِ الحالِ عليهما بالضعفِ والكبرِ، فألزمَ في هذهِ الحالةِ منْ مراعاةِ أحوالهما أكثرَ مما ألزمهُ منْ قبلُ، لأنهما في هذهِ الحالةِ قدْ صارا كلًا

عليهِ، فيحتاجانِ أنْ يليَ منهما في الكبرِ ما كانَ يحتاجُ في صغرهِ أنْ يليا منهُ، فلذلكَ خصَّ هذهِ الحالةَ بالذكرِ. وأيضًا فطولُ المكثِ للمرءِ يوجبُ الاستثقالَ للمرءِ عادةً ويحصلُ الملَلُ ويكثُرُ الضجرُ فيظهرُ غضبهُ على أبويهِ وتنتفخُ لهما أوداجهُ، ويستطيلُ عليهما بدالةِ البنوةِ وقلةِ الديانةِ، وأقلُّ المكروهِ ما يظهرهُ بتنفسهِ المترددِ منَ الضجرِ. وقدْ أمرَ أنْ يقابلهما بالقولِ الموصوفِ بالكرامةِ، وهوَ السالمُ عنْ كلِّ عيبٍ فقالَ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣﴾.

روى مسلمٌ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «رغمَ أنفهُ رغمَ أنفهُ رغمَ أنفهُ» قيلَ: منْ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «منْ أدركَ والديهِ عندَ الكبرِ أحدهما أوْ كليهما ثمَّ لمْ يدخلِ الجنةَ». وروى البخاريُّ في كتابِ الوالدينِ: عنْ أبي هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «رغمَ أنفُ رجلٍ ذكرتُ عندهُ فلمْ يصلِّ عليَّ. رغمَ أنفُ رجلٍ أدركَ أبويهِ عندَ الكبرِ أوْ أحدهما فلمْ يدخلاهُ الجنةَ. ورغمَ أنفُ رجلٍ دخلَ عليهِ رمضانُ ثمَّ انسلخَ قبلَ أنْ يغفرَ لهُ».

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ أيْ لا تقلْ لهما ما يكونُ فيهِ أدنى تبرمٍ، وقرئ «أُفٍّ» منونا مخفوضا، كما تخفضُ الأصواتُ وتنونُ، تقولُ: صهٍ ومهٍ، و ﴿أُفٍّ﴾ كلمة مقولة لكل شيء مرفوضٍ، ولذلكَ قالَ إبراهيمُ لقومهِ: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أيْ رفضٌ لكمْ ولهذهِ الأصنامِ معكمْ.

الثالثة عشرة:- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ النهرُ: الزجرُ والغلظةُ ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أيْ لينًا لطيفًا، مثلَ: يا أبتاهُ ويا أماهُ، منْ غيرِ أنْ يسميهما ويكنيهما.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ هذهِ استعارةٌ في الشفقةِ والرحمةِ بهما والتذللُ لهما تذللُ الرعيةِ للأميرِ والعبيدِ للسادةِ، وضربَ خفضَ الجناحِ ونصبهُ مثلًا لجناحِ الطائرِ حينَ يتنصبُ بجناحهِ لولدهِ. والذلُّ: هوَ اللينُ، فينبغي بحكمِ هذهِ الآيةِ أنْ يجعلُ الإنسانُ نفسهُ معَ أبويهِ في خيرِ ذلةٍ، في أقوالهِ وسكناتهِ ونظرهِ، ولا يحدُّ إليهما بصرهُ فإنَّ تلكَ هيَ نظرةُ الغاضبِ.

الخامسة عشرة: الخطابُ في هذهِ الآيةِ للنبيِّ ﷺ والمرادُ بهِ أمتهُ، إذْ لمْ يكنْ لهُ ﷺ في

ذلكَ الوقتِ أبوانِ. ولمْ يذكرِ الذلَّ في قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وذكرهُ هنا بحسب عظم الحق وتأكيده. و ﴿مِنَ﴾ في قولهِ: ﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ لبيانِ الجنسِ، أيْ إنَّ هذا الخفضَ يكونُ منَ الرحمةِ المستكنةِ في النفسِ، لا بأنْ يكونَ ذلكَ استعمالًا. ويصحُّ أنْ يكونَ لانتهاءِ الغايةِ، ثمَّ أمرَ تعالى عبادهُ بالترحمِ على آبائهمْ والدعاءِ لهمْ، وأن ترحهما كما رحماكَ وترفقَ بهما كما رفقا بكَ، إذْ ولياكَ صغيرًا جاهلًا محتاجًا فآثراكَ على أنفسهما، وأسهرا ليلهما، وجاعا وأشبعاكَ، وتعريا وكسواكَ، فلا تجزيهما إلا أنْ يبلغا منَ الكبرِ الحدالذي كنت فيه من الصغر، فتلي منهما ما وليا منكَ، ويكونُ لهما حينئذٍ فضلُ التقدمِ. قالَ ﷺ: «لا يجزي ولدٌ والدًا إلا أنْ يجدهُ مملوكًا فيشتريهُ فيعتقهُ».

السادسة عشرة: قولهُ تعالى ﴿كَمَا رَبَّيَانِي﴾ خصَّ التربيةَ بالذكرِ ليتذكرَ العبد شفقة الأبوين وتعبهما في التربيةِ، فيزيدهُ ذلكَ إشفاقًا لهما وحنانًا عليهما، وهذا كلهُ في الأبوينِ المؤمنينِ. وقدْ نهى القرآنُ عنْ الاستغفارِ للمشركينَ الأمواتِ ولوْ كانوا أولي قربى، وذكرَ عنِ ابنِ عباسٍ وقتادةَ أنَّ هذا كلهُ منسوخٌ بقولهِ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ - إلى قولهِ - ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ فإذا كان والدا المسلم ذميين استعمل معهما ما أمرهُ اللهُ بهِ هاهنا، إلا الترحمَ لهما بعدَ موتهما على الكفرِ، لأنَّ هذا وحدهُ نُسخَ بالآيةِ المذكورةِ.

وقيل: ليسَ هذا موضعُ نسخٍ، فهوَ دعاءٌ بالرحمةِ الدنيويةِ للأبوينِ المشركينِ ما داما حيينِ، كما تقدمَ. أوْ يكونُ عمومُ هذهِ الآيةِ خصَّ بتلكَ، لا رحمةِ الآخرةِ، لا سيما وقدْ قيلَ إنَّ قولهُ: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا﴾ نزلتْ في سعدِ بنِ أبي وقاصٍ، فإنهُ أسلمَ، فألقتْ أمهُ نفسها في الرمضاءِ متجردةً، فذكرَ ذلكَ لسعد فقال: لِتَمُتْ، فنزلتِ الآيةُ. وقيل: الآيةُ خاصةً في الدعاءِ للأبوينِ المسلمينِ، والصوابُ أنَّ ذلكَ عمومٌ كما ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ﴾ أيْ منَ اعتقادِ الرحمةِ بهما والحنوِّ عليهما، أوْ منْ غيرِ ذلكَ منَ العقوقِ، أوْ منْ جعلِ ظاهرِ برهما رياءً. وقالَ ابنُ جبيرٍ: يريدُ البادرةَ التي تبدرُ، كالفلتةِ والزلةِ، تكونُ منَ الرجلِ إلى أبويهِ أوْ أحدهما، لا يريدُ بذلك بأسا، قال الله تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ أيْ صادقينَ في نيةِ البر بالوالدين فإن الله يغفر البادرة. وقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ٢٥﴾ وعدَ بالغفرانِ معَ شرط الصلاح والأوبة إلى طاعةِ اللهِ سبحانهُ وتعالى.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ٢٧﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ أيْ كما راعيتَ حقَّ الوالدينِ فصلِ الرحمَ، ثمَّ تصدقْ على المسكينِ وابنِ السبيلِ، وقيل: همْ قرابةُ النبيِّ ﷺ، أُمرَ ﷺ بإعطائهمْ حقوقهمْ منْ بيتِ المالِ، أيْ منْ سهمِ ذوي القربى منَ الغزوِ والغنيمةِ، ويكونُ خطابًا للولاةِ أوْ منْ قامَ مقامهمْ. والحقُّ في هذهِ الآيةِ مايتعينُ منْ صلةِ الرحمِ، وسدِّ الخلةِ، والمواساةِ عندَ الحاجةِ بالمالِ، والمعونةِ بكلِّ وجهٍ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ﴾ أيْ لا تسرفُ في الإنفاقِ في غيرِ حقٍّ. قالَ الشافعيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: والتبذيرُ إنفاقُ المالِ في غيرِ حقهِ، ولا تبذيرَ في عملِ الخيرِ. وهذا قولُ الجمهورِ، وعنْ مالكٍ: التبذيرُ هوَ أخذُ المالِ منْ حقهِ ووضعهِ في غيرِ حقهِ، وهوَ الإسرافُ، وهوَ حرامٌ لقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾ وقوله: ﴿إِخۡوَٰنَ﴾ يعني أنهمْ في حكمهمْ، إذِ المبذرُ ساعٍ في إفسادٍ كالشياطينِ، أوْ أنهمْ يفعلونَ ما تسولُ لهمْ أنفسهمْ، أوْ أنهمْ يقرنونَ بهمْ غدًا في النارِ، ثلاثةُ أقوالٍ. والإخوانُ هنا جمعُ أخٍ منْ غيرِ النسبِ، ومنهُ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا﴾ أي احذروا متابعته والتشبهَ بهِ في الفسادِ. والشيطانُ اسمُ الجنسِ.

الثالثة: منْ أنفقَ مالهُ في الشهوات زائدة على قدرِ الحاجاتِ وعرضهُ بذلكَ للنفادِ فهوَ

مبذرٌ. ومنْ أنفقَ ربحَ مالهِ في شهواتهِ وحفظَ الأصلَ أوِ الرقبةَ فليسَ بمبذرٍ. ومنْ أنفقَ درهمًا في حرامٍ فهوَ مبذرٌ، ويحجرُ عليهِ في نفقتهِ الدرهمَ في الحرامِ، ولا يحجرُ عليهِ إنْ بذلهُ في الشهواتِ إلا إذا خيف عليه النفاد.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾، فيهِ ثلاثُ مسائل:

الأولى: وهو أنهُ سبحانهُ وتعالى خصَّ نبيهُ ﷺ بقولهِ: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾. وهوَ تأديبٌ عجيبٌ وقولٌ لطيفٌ بديعٌ، أيْ لا تعرضُ عنهمْ إعراضَ مستهينٍ عنْ ظهرِ الغنى والقدرةِ فتحرمهمْ. وإنما يجوزُ أنْ تعرضَ عنهمْ عندَ عجزٍ يعرضُ وعائقٍ يعوقُ، وأنتَ عندُ ذلكَ ترجو منَ اللهِ سبحانهُ وتعالى فتحَ بابِ الخيرِ لتتوصلَ بهِ إلى مواساةِ السائلِ، فإنْ قعدَ بكَ الحالُ ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾.

الثانية: في سببِ نزولها، قيل: نزلتِ الآيةُ في قوم كانوا يسألونَ رسولَ اللهِ ﷺ فيأبى أنْ يعطيهمْ، لأنهُ كانَ يعلمُ منهمْ نفقةَ المالِ في فساد، فكانَ يعرضُ عنهمْ رغبةً في الأجرِ في منعهمْ لئلا يعينهمْ على فسادهمْ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أمرهُ بالدعاءِ لهمْ، أيْ يسرْ فقرهمْ عليهمْ بدعائكَ لهمْ. وقيل: ادعُ لهمْ دعاءً يتضمنُ الفتحَ لهمْ والإصلاحَ. وقيل: المعنى ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ﴾ أيْ إنْ أعرضتَ يا محمدُ عنْ إعطائهمْ لضيقِ يدٍ فقلْ لهمْ قولًا ميسورًا، أيْ أحسنِ القولَ وابسطِ العذرَ، وادعُ لهمْ بسعةِ الرزقِ، وقلْ إذا وجدتُ فعلتُ وأكرمتُ، فإنَّ ذلكَ يعملُ في مسرةِ نفسهِ عملَ المواساةِ.

وَ ﴿قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أيْ لينًا لطيفًا طيبًا، مفعولٌ بمعنى الفاعلِ، منْ لفظِ اليسرِ كالميمونِ، أيْ وعدًا جميلًا، على ما بيناهُ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ هذا مجازٌ عبرَ بهِ عنِ البخيلِ الذي لا يقدرُ من قلبه على إخراج شيء منْ مالهِ، فضربَ لهُ مثلَ الغلِّ الذي يمنعُ منَ التصرفِ باليدِ. وفي صحيحِ البخاريِّ ومسلمٍ عنْ أبي هريرةَ رَضِّيَلِلَّهُعَنْهُ قالَ: ضربَ رسولُ اللهِ ﷺ مثلَ البخيلِ والمتصدقِ كمثلِ رجلينِ عليهما جبتانِ من حديد قدِ اضطرتْ أيديهما إلى ثديهما وتراقيهما فجعلَ المتصدقُ كلما تصدقَ بصدقةٍ انبسطتْ عنهُ حتى تغشى أناملهُ وتعفوَ أثرهُ وجعلَ البخيلُ كلما همَّ بصدقةٍ قلصتْ وأخذتْ كلُّ حلقةٍ بمكانها. قالَ أبو هريرةَ رَضِّيَلِلَّهُعَنْهُ: فأنا رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ بأصبعيهِ هكذا في جيبهِ فلوْ رأيتهُ يوسعها ولا تتوسع.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ ضربَ بسطَ اليدِ مثلًا لذهابِ المالِ، فإنَّ قبضَ الكفِّ يحبسُ ما فيها، وبسطها يذهبُ ما فيها. وهذا كلهُ خطابٌ للنبيِّ ﷺ والمرادُ أمتهُ، وكثيرًا ما جاءَ في القرآنِ، فإنَّ النبيَّ ﷺ لما كانَ سيدهمْ وواسطتهمْ إلى ربهمْ عبرَ بهِ عنهمْ على عادةِ العربِ في ذلكَ. وأيضًا فإنهُ ﷺ لمْ يكنْ يدخرُ شيئًا لغدٍ، وكانَ يجوعُ حتى يشدَّ الحجرَ على بطنهِ منَ الجوعِ. وكانَ كثيرٌ منَ الصحابةِ ينفقونَ في سبيلِ اللهِ جميعَ أموالهمْ، فلمْ يعنفهمُ النبيُّ ﷺ ولمْ ينكرْ عليهمْ لصحةِ يقينهمْ وشدةِ بصائرهمْ. وإنما نهى اللهُ سبحانهُ وتعالى عنِ الإفراطِ في الإنفاقِ، وإخراجِ ما حوتهُ يدهُ منَ المالِ منْ خيفَ عليهِ الحسرةُ على ما خرجَ منْ يدهِ، فأما منْ وثقَ بموعودِ اللهِ عزَّ وجلَّ وجزيلِ ثوابهِ فيما أنفقهُ فغيرُ مرادٍ بالآيةِ، واللهُ أعلمُ.

وقيل: إنَّ هذا الخطابُ للنبيِّ ﷺ في خاصةِ نفسهِ، علمهُ فيهِ كيفيةَ الإنفاقِ، وأمرهُ بالاقتصادِ.

الثالثة: نهتْ هذهِ الآيةُ عنِ استفراغِ الوُجْدِ فيما يطرأُ أوْ لا منْ سؤالِ المؤمنينَ، لئلا يبقى منْ يأتي بعدَ ذلكَ لا شيء لهُ، أوْ لئلا يضيعَ المنفقُ عيالهُ.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾ قالَ ابنُ عرفةَ: يقولُ لا تسرفْ ولا تتلفْ مالكَ فتبقى محسورًا منقطعًا عنِ النفقةِ والتصرفِ، كما يكونُ البعيرُ الحسيرُ، وهوَ الذي ذهبتْ قوتهُ فلا انبعاثَ بهِ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ أيْ كليلٌ منقطعٌ. وقالَ قتادةُ: أيْ نادمًا على ما سلفَ منكَ، فجعلهُ منَ الحسرةِ، وفيهِ بعدٌ، لأنَّ الفاعلَ منَ الحسرةِ حسرٌ وحسرانُ ولا يقالُ محسورٌ، والملومُ: الذي يلامُ على إتلافِ مالهِ، أوْ يلومه من لا يعطيه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ۝٣١﴾، فيه مسألتان:

الأولى: الإملاق: الفقرُ وعدمُ الملكِ. أملقَ الرجلُ أيْ لمْ يبقَ لهُ إلا الملَقاتُ، وهيَ الحجارةُ العظامُ الملسُ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿خِطۡـٔٗا﴾ قراءةُ الجمهورِ بكسرِ الخاءِ وسكونِ الطاءِ وبالهمزةِ والقصرِ، وقرأ ابنُ عامرٍ «خَطَـًٔا» بفتحِ الخاءِ والطاءِ والهمزةِ مقصورةً، وهيَ قراءةُ أبي جعفرٍ يزيدَ. وهاتانِ قراءتانِ مأخوذتانِ منْ «خطئَ» إذا أتى الذنبَ على عمدٍ. قالَ ابنُ عرفةَ: يقالُ خطئَ في ذنبِهِ خطأً إذا أثمَ فيهِ، وأخطأَ إذا سلكَ سبيلَ خطأٍ عامدًا أوْ غيرَ عامدٍ. قالَ: ويقالُ خطئَ في معنى أخطأَ.

والخطأُ الاسمُ يقومُ مقامَ الإخطاءِ، وهوَ ضدُّ الصوابِ. وفيهِ لغتانِ: القصرُ وهوَ الجيدُ، والمدُّ وهوَ قليلٌ، وقرأ ابنُ كثيرٍ بكسرِ الخاءِ وفتحِ الطاءِ ومدِّ الهمزةِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ۝٣٢﴾، فيهِ مسألةٌ واحدةٌ:

قالَ العلماءُ: قولهُ تعالى ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ﴾ أبلغُ منْ أنْ يقولَ: ولا تزنوا، فإنَّ معناه لا تدنوا من الزنى. والزنى يمدُّ ويقصرُ، لغتانِ. و ﴿سَبِيلٗا﴾ نصبَ على التمييزِ، التقديرُ: وساءَ سبيلهُ سبيلًا. أي لأنه يؤدي إلى النار. والزنى منَ الكبائرِ، ولا خلافَ فيهِ وفي قبحهِ لا سيما بحليلةِ الجارِ. وينشأُ عنهُ استخدامُ ولد الغير واتخاذهُ ابنًا وغيرُ ذلكَ منَ الميراثِ وفسادِ الأنسابِ باختلاطِ المياهِ. وفي الصحيحِ أنَّ النبيَّ ﷺ أتيَ بامرأةٍ مجحٍّ على بابِ فسطاطٍ فقالَ:

«لعلهُ يريدُ أنْ يلمَ بها» فقالوا: نعمْ. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لقدْ هممتُ أنْ ألعنهُ لعنًا يدخلُ معهُ قبرهُ كيفَ يورثهُ وهو لا يحل له كيف يستخدمونه وهو لا يحل له».

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾ قدْ مضى الكلامُ فيهِ في الأنعام.

قوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ٣٣﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا﴾ أيْ بغيرِ سببٍ يوجبُ القتلَ ﴿فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي لمستحق دمه، قيل: يجبُ أنْ يكونَ ذكرًا، لأنهُ أفردهُ بالولايةِ بلفظِ التذكيرِ. ففي قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾ ما يدلُّ على خروجِ المرأةِ عنْ مطلقِ لفظِ الوليِّ، فلا جرمَ، ليسَ للنساءِ حقٌّ في القصاص لذلك ولا أثر وليسَ لها الاستيفاءُ. وقالَ المخالفُ: إنَّ المرادَ ها هنا بالوليِّ الوارثُ، وقدْ قالَ تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾، وقالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾، وقالَ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ فاقتضى ذلكَ إثباتَ القودِ لسائرِ الورثةِ، وأما ما ذكروهُ منْ أنَّ الوليَّ في ظاهرهِ على التذكيرِ وهوَ واحدٌ، كأنَّ ما كانَ بمعنى الجنسِ يستوي المذكرُ والمؤنثُ فيهِ.

﴿سُلۡطَٰنٗا﴾ أيْ تسليطًا إنْ شاءَ قتلَ وإنْ شاءَ عفا، وإنْ شاءَ أخذَ الديةَ، قالهُ الشافعيُّ. وعنْ مالكٍ وأبي حنيفةَ: القتلُ خاصةً.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ﴾، فيهِ ثلاثةُ أقوالٍ:

الأول: لا يقتلُ غيرَ قاتلهِ.

الثاني: لا يقتلُ بدلَ وليهِ اثنينِ كما كانتِ العربُ تفعلهُ.

الثالثُ: لا يمثلُ بالقاتلِ، وكلهُ مرادٌ لأنهُ إسرافٌ منهيٌّ عنهُ.

وقرأ الجمهورُ ﴿يُسۡرِف﴾ بالياءِ، يريدُ الوليَّ، وقرأ ابنُ عامرٍ وحمزةُ والكسائيُّ

«تُسْرِفْ» بالتاءِ منْ فوقٍ،، والمعنى فلا تسرفْ أيها القاتلُ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ أيْ معانًا، يعني الوليَّ. فإن قيل: وكمْ منْ وليٍّ مخذولٍ لا يصلُ إلى حقهِ. قلنا: المعونةُ تكونُ بظهورِ الحجةِ تارةً وباستيفائها أخرى، وبمجموعهما ثالثةً، فأيها كانَ فهوَ نصرٌ منَ اللهِ سبحانهُ وتعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۚ﴾ قدْ مضى الكلامُ فيهِ في الأنعام.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ﴾ قيل: كلُّ ما أمرَ اللهُ بهِ ونهى عنهُ فهوَ منَ العهدِ ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ عنهُ، فحذفَ، كقولهِ: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ بهِ، وقيل: إنَّ العهدَ يسألُ تبكيتًا لناقضهِ فيقالُ: لم نقضت؟ كما تسأل الموؤودة تبكيتا لوائدها.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ تقتضي هذهِ الآيةُ أنَّ الكيلَ على البائعِ، والقسطاسُ «بضمِّ القافِ وكسرها»: الميزانُ بلغةِ الرومِ، وقيل: القسطاسُ: الميزانُ صغيرًا كانَ أوْ كبيرًا، وقيل: القسطاسُ العدلُ، وكانَ يقولُ: هيَ لغةٌ روميةٌ، وكأنَّ الناسَ قيلَ لهمْ: زنوا بمعْدِلةٍ في وزنكمْ، وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو ونافعٌ وابنُ عامرٍ وعاصمٌ في روايةِ أبي بكرٍ «الْقُسْطَاسُ» بضمِّ القافِ. وحمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ عنْ عاصمٍ ﴿بِٱلْقِسْطَاسِ﴾ بكسرِ القافِ وهما لغتانِ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أيْ وفاءُ الكيلِ وإقامةُ الوزنِ خيرٌ عندَ ربكَ وأبركُ ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أيْ عاقبةً.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾، فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ أيْ لا تتبعُ ما لا تعلمُ ولا يعنيكَ. قالَ قتادةُ: لا تقلْ رأيتُ وأنتَ لمْ ترَ، وسمعتَ وأنتَ لمْ تسمعْ، وعلمتَ وأنتَ لمْ تعلمْ، وقالَ محمدُ ابنُ الحنفيةِ: هيَ شهادةُ الزورِ.

وأصلُ القفوِ البَهْتُ والقذفُ بالباطلِ، ومنهُ قولهُ ﷺ: «نحنُ بنو النضرِ ابنِ كنانةَ لا نقفو أمنا ولا ننتفي منْ أبينا» أيْ لا نسبُّ أمنا.

يقالُ: قفوتهُ أقفوهُ، وقفتهُ أقوفهُ، وقفيتهُ إذا اتبعتُ أثرهُ. ومنهُ القافةُ لتتبعهم الآثارَ وقافية كل شيء آخرهُ، ومنهُ قافيةُ الشعرِ، لأنها تقفو البيتَ. ومنهُ اسمُ النبيِّ ﷺ المقفي، لأنه جاء آخر الأنبياء. ومنه القائف.

وبالجملةِ فهذهِ الآيةُ تنهى عنْ قولِ الزورِ والقذفِ، وما أشبهَ ذلكَ منَ الأقوالِ الكاذبةِ والرديئةِ.

الثانية: قالَ ابنُ خويزِ منداد: تضمنتْ هذهِ الآيةُ الحكمَ بالقافةِ، لأنهُ لما قالَ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ﴾ دلَّ على جوازِ ما لنا بهِ علمٌ، فكلُّ ما علمهُ الإنسانُ أوْ غلبَ على ظنهِ جازَ أنْ يحكمَ بهِ، وبهذا احتججنا على إثباتِ القرعةِ والخرصِ، لأنهُ ضربٌ منْ غلبةِ الظنِّ، وقدْ يسمى علمًا اتساعًا. فالقائفُ يلحقُ الولدَ بأبيهِ منْ طريقِ الشبهِ بينهما كما يلحقُ الفقيهُ الفرعَ بالأصلِ منْ طريقِ الشبهِ. وفي الصحيحِ عنْ عائشةَ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ دخلَ عليَّ مسرورًا تبرقُ أساريرُ وجهه فقال: «ألم تري أنَّ مجززًا نظرَ إلى زيدِ بنِ حارثةَ وأسامةَ بنِ زيدٍ عليهما قطيفةٌ قدْ غطيا رءوسهما وبدتْ أقدامهما فقالَ إنَّ بعضَ هذهِ الأقدامِ لمنْ بعضٍ».

الثالثة: قالَ الإمامُ أبو عبدِ اللهِ المازريُّ: كانتِ الجاهليةُ تقدحُ في نسبِ أسامةَ لكونهِ أسودُ شديدُ السوادِ، وكانَ زيدٌ أبوهُ أبيضَ من القطنِ، هكذا ذكرهُ أبو داودَ عنْ أحمدَ بنِ صالحٍ. قالَ القاضي عياضٌ: وقالَ غيرُ أحمدَ كانَ زيدٌ أزهرَ اللونِ، وكانَ أسامةُ شديدَ الأدمةِ، وزيدُ بنُ حارثةَ عربيٌّ صريحٌ منْ كلبٍ، أصابهُ سباءٌ، حسبما يأتي في سورةِ «الأحزابِ» إنْ شاءَ

اللهُ تعالى.

الرابعة: استدلَّ جمهورُ العلماءِ على الرجوعِ إلى القافةِ عندَ التنازعِ في الولدِ، بسرورِ النبيِّ ﷺ بقولِ هذا القائفِ، وما كانَ ﷺ بالذي يسرُّ بالباطلِ ولا يعجبهُ. ولمْ يأخذْ بذلكَ أبو حنيفةَ متمسك بإلغاءِ النبيِّ ﷺ الشبهَ في حديثِ اللعانِ.

الخامسة: واختلفَ الآخذونَ بأقوالِ القافةِ، هلْ يؤخذُ بذلكَ في أولادِ الحرائرِ والإماءِ أوْ يختصُّ بأولادِ الإماءِ، على قولينِ، فالأولُ: قولُ الشافعيِّ ومالكٍ رضي الله عنهما في روايةِ ابنِ وهبٍ عنهُ، ومشهورُ مذهبِهِ قصرهُ على ولدِ الأمةِ. والصحيحُ ما رواهُ ابنُ وهبٍ عنهُ وقالَه الشافعيُّ رضي الله عنه، لأنَّ الحديثَ الذي هوَ الأصلُ في البابِ إنما وقعَ في الحرائرِ، فإنَّ أسامةَ وأباهُ حرانِ فكيفَ يلغى السببُ الذي خرجَ عليهِ دليلُ الحكمِ وهوَ الباعثُ عليهِ، هذا مما لا يجوزُ عندَ الأصوليينَ.

وكذلكَ اختلفَ هؤلاءِ، هلْ يكتفى بقولِ واحدٍ منَ القافةِ أوْ لا بدَّ منَ اثنينِ لأنها شهادةٌ، وبالأولِ قالَ ابنُ القاسمِ وهوَ ظاهرُ الخبرِ بلْ نصهُ. وبالثاني قالَ مالكٌ والشافعيُّ رضي الله عنهما.

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ أيْ يسألُ كلُّ واحدٍ منهمْ عما اكتسبَ، فالفؤادُ يسألُ عما افتكرَ فيهِ واعتقدهُ، والسمعُ والبصر عما رأى منْ ذلكَ وسمعَ. وقيل: المعنى أنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى يسألُ الإنسانَ عما حواهُ سمعهُ وبصرهُ وفؤادهُ، ونظيرهُ قولهُ ﷺ: «كلكمْ راعٍ وكلكمْ مسئولٌ عنْ رعيتهِ» فالإنسانُ راعٍ على جوارحهِ، فكأنهُ قالَ كلُّ هذهِ كانَ الإنسانُ عنهُ مسئولًا، فهوَ على حذفِ مضافٍ. والمعنى الأولُ أبلغُ في الحجةِ، فإنهُ يقعُ تكذيبهُ منْ جوارحهِ، وتلكَ غايةُ الخزيِ، كما قالَ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، وقولهُ ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾. وعبرَ عنِ السمعِ والبصرِ والفؤادِ بأولئكَ لأنها حواسٌّ لها إدراكٌ، وجعلها في هذهِ الآيةِ مسئولةٌ، فهيَ حالةُ منْ يعقلُ، فلذلكَ عبرَ عنها بأولئكَ. وقالَ سيبويهِ رحمهُ اللهُ في قوله تعالى: ﴿رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾: إنما قالَ: ﴿رَأَيۡتُهُمۡ﴾ في نجومٍ، لأنهُ لما وصفها بالسجودِ وهوَ منْ فعلِ منْ يعقلُ عبرَ عنها بكنايةِ منْ يعقلُ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ۝٣٧ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝٣٨﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ﴾ هذا نهيٌ عنِ الخيلاءِ وأمرٌ بالتواضعِ. والمرحُ: شدةُ الفرحِ. وقيل: التكبرُ في المشيِ. وقيل: تجاوزُ الإنسانِ قدرهُ. وقالَ قتادةُ: هوَ الخيلاءُ في المشيِ. وقيل: هوَ البطرُ والأشرُ. وقيل: هوَ النشاطُ وهذهِ الأقوالُ متقاربةٌ ولكنها منقسمةٌ قسمينِ: أحدهما مذمومٌ والآخرُ محمودٌ، فالتكبرُ والبطرُ والخيلاءُ وتجاوزُ الإنسانِ قدرهُ مذمومٌ والفرحُ والنشاطُ محمودٌ. وقدْ وصفَ اللهُ تعالى نفسهُ بأحدهما، ففي الحديث الصحيح «لله أفرح بتوبة العبد من رجل...» الحديث. والكسل مذمومٌ شرعًا والنشاطُ ضدهُ. وقدْ يكونُ التكبرُ وما في معناهُ محمودًا، وذلكَ على أعداءِ اللهِ والظلمةِ.

الثانية: إقبالُ الإنسانِ على الصيدِ ونحوهِ ترفعًا دونَ حاجةٍ إلى ذلكَ داخلٌ في هذهِ الآيةِ، وفيهِ تعذيبُ الحيوانِ وإجراؤهُ لغيرِ معنى. وأما الرجلُ يستريحُ في اليومِ النادرِ والساعةِ منْ يومهِ، ويجمُّ فيها نفسهُ ليستعينَ بذلكَ على شغلٍ منَ البرِّ، كقراءةِ علمٍ أوْ صلاةٍ، فليسَ بداخلٍ في هذهِ الآيةِ.

قولهُ تعالى: ﴿مَرَحًاۖ﴾ قراءةُ الجمهورِ بفتحِ الراءِ. وقراءةُ فرقةٍ فيما حكى يعقوبُ بكسرِ الراءِ على بناءِ اسمِ الفاعلِ. والأولُ أبلغُ، فإنَّ قولكَ: جاءَ زيدٌ ركضًا أبلغُ منْ قولكَ: جاءَ زيدٌ راكضًا.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني لنْ تتولجَ باطنها فتعلمَ ما فيها ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ أيْ لنْ تساويَ الجبالَ بطولكَ ولا تطاولكَ. ويقالُ: خرقَ الثوبَ أيْ شقهُ، وخرقَ الأرضَ قطعها. والخرقُ: الواسعُ منَ الأرضِ. أيْ لنْ تخرقَ الأرضَ بكبركَ ومشيكَ عليها ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ بعظمتك، أي مقدرتك لا تبلغُ هذا المبلغَ، بلْ

أنتَ عبدٌ ذليلٌ، محاطٌ بكَ منْ تحتكَ ومنْ فوقكَ. والمحاط محصور ضعيف، لا يليق بك التكبرُ والمرادُ بخرقِ الأرضِ هنا نقبها لا قطعها بالمسافةِ، واللهُ أعلمُ.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى جملةِ ما تقدمَ ذكرهُ مما أمرَ بهِ ونهى عنهُ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ يصلحُ للواحدِ والجمعِ والمؤنثِ والمذكرِ.

وقرأ عاصمٌ وابنُ عامرٍ وحمزةُ والكسائيُّ ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ على إضافةِ سيئٍ إلى الضميرِ، ولذلكَ قالَ: ﴿مَكْرُوهًا﴾ نصبَ على خبرِ كانَ. والسيءُ: هوَ المكروهُ، وهوَ الذي لا يرضاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ ولا يأمرُ به. وقدْ ذكرَ اللهُ سبحانهُ وتعالى في هذهِ الآيِ منْ قولهِ: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ إلى قولهِ- كانَ ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ مأموراتٌ بها ومنهياتٌ عنها، فلا يخبرُ عنِ الجميعِ بأنهُ سيئة فيدخلُ المأمورُ بهِ في المنهيِّ عنهُ.

وقرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وأبو عمرو ﴿سَيِّئَةً﴾ بالتنوينِ، أيْ كلُّ ما نهى اللهُ ورسولهُ عنهُ سيئةٌ.

الخامسة: استدلَّ العلماءُ بهذهِ الآيةِ على ذمِّ الرقصِ وتعاطيهِ.

قالَ الإمامُ أبو الوفاءِ ابنُ عقيلٍ: قدْ نصَّ القرآنُ على النهيِ عنِ الرقصِ فقالَ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ﴾ وذمَّ المختالَ. والرقص أشد المرح والبطر. أو لسنا الذين قسنا النبيذ على الخمر لاتفاقها في الإطرابِ والسكرِ، فما بالنا لا نقيسُ القضيبَ وتلحينَ الشعرِ معهُ على الطنبورِ والمزمارِ والطبل لاجتماعهما.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا ٣٩﴾ الإشارةُ ﴿بِذَٰلِكَ﴾ إلى هذهِ الآدابِ والقصصِ والأحكامِ التي تضمنتها هذهِ الآياتُ المتقدمةُ التي نزلَ بها جبريلُ عليه السلام، ثمَّ عطفَ قولهُ: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ﴾ على ما تقدمَ منَ النواهي. والخطابُ للنبيِّ ﷺ والمرادُ كلُّ منْ سمعَ الآيةَ منَ البشرِ. والمدحورُ: المهانُ المبعدُ المقصى، ويقالُ في الدعاءِ: اللهمَّ ادحرْ عنا الشيطان، أي أبعده.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمًا ٤٠﴾

هذا يردُّ على منْ قالَ منَ العربِ: الملائكةُ بناتُ اللهِ، وكان لهم بناتٌ أيضًا معَ النبيينَ، ولكنهُ أرادَ: أفأخلصَ لكمُ البنينَ دونهُ وجعلَ البناتِ مشتركةً بينكمْ وبينهُ ﴿إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمًا﴾ أيْ في الإثم عند الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا﴾ أي بينا، وقيل كررنا ﴿فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ قيلَ: ﴿فِي﴾ زائدةٌ، والتقديرُ: ولقدْ صرفنا هذا القرآنِ، مثلَ: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ أي أصلح ذريتي. والتصريفُ: صرفُ الشيءِ منْ جهةٍ إلى جهةٍ. والمرادُ بهذا التصريفِ البيانُ والتكريرُ. وقيل: المغايرةُ، أيْ غايرنا بينَ المواعظِ ليذكروا ويعتبروا ويتعظوا. وقراءة العامة ﴿صَرَّفۡنَا﴾ حيث وقعَ. وقرأ الحسنُ بالتخفيف.

وقولهُ: ﴿فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ يعني الأمثالَ والعبرَ والحكم والمواعظ والأحكام والأعلام قالَ الثعلبيُّ: سمعتُ أبا القاسمِ الحسينَ يقولُ بحضرةِ الإمامِ الشيخِ أبي الطيبِ: لقولهِ تعالى: ﴿صَرَّفۡنَا﴾ معنيانِ:

أحدهما: لمْ يجعلهُ نوعًا واحدًا بلْ وعدًا ووعيدًا ومحكمًا ومتشابهًا ونهيًا وأمرًا وناسخًا ومنسوخًا وأخبارًا وأمثالًا.

والثاني: أنهُ لمْ ينزلْ مرةً واحدةً بلْ نجومًا، نحوَ قولهِ: ﴿وَقُرۡءَانًا فَرَقۡنَٰهُ﴾ ومعناهُ: أكثرنا صرفَ جبريلَ ﷺ إليك.

﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ «لِيَذكرُوا» مخففًا، وكذلكَ في الفرقانِ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ﴾. الباقونَ بالتشديدِ ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أي التصريفُ والتذكيرُ ﴿إِلَّا نُفُورًا ۝٤١﴾ أيْ تباعدًا عنِ الحقِّ وغفلةً عنِ النظرِ والاعتبارِ، وذلكَ لأنهمُ اعتقدوا في القرآنِ أنهُ حيلةٌ وسحرٌ وكهانة وشعر.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ﴾ هذا متصلٌ بقولهِ تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وهوَ ردٌّ على عبادِ الأصنامِ ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ قرأَ ابنُ كثيرٍ وحفصٌ ﴿يَقُولُونَ﴾ بالياءِ. الباقونَ: «تَقُولُونَ» بالتاءِ على الخطابِ ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ﴾ يعني الآلهةَ ﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢﴾ أي: لطلبوا معَ اللهِ منازعةً وقتالًا كما تفعلُ ملوكُ الدنيا بعضهمْ ببعضٍ، وقيل: المعنى إذًا لابتغتِ الآلهةُ القربةَ إلى ذي العرشِ سبيلًا، والتمستِ الزلفةَ عندهُ لأنهمْ دونهُ، والقومُ اعتقدوا أنَّ الأصنامَ تقربهمْ إلى اللهِ زلفى، فإذا اعتقدوا في الأصنامِ أنها محتاجةٌ إلى اللهِ سبحانهُ وتعالى فقدْ بطلَ أنها آلهةٌ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤٣﴾ نزهَ سبحانهُ نفسهُ وقدسهُ ومجدهُ عما لا يليقُ بهِ. والتسبيحُ: التنزيهُ.

قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ أعاد على السموات والأرضِ ضميرَ منْ يعقلُ، لما أسندَ إليها فعل العاقل وهو التسبيح. وقوله: ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ يريدُ الملائكةَ والإنسَ والجنَّ، ثمَّ عمَّ بعدَ ذلكَ الأشياءَ كلها في قولهِ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾. واختلفَ في هذا العمومِ، هلْ هوَ مخصصٌ أمْ لا، فقالتْ فرقةٌ: ليسَ مخصوصًا والمرادُ بهِ تسبيحُ الدلالةِ، وكلُّ محدثٍ يشهدُ على نفسهِ بأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ خالقٌ قادرٌ. وقالتْ طائفة: هذا التسبيح حقيقة، وكل شيء على العموم يسبحُ تسبيحًا لا يسمعهُ البشرُ ولا يفقههُ، ولوْ كانَ ما قالهُ الأولونَ منْ أنهُ أثرُ الصنعةِ والدلالةِ لكانَ أمرًا مفهومًا، والآيةُ تنطقُ بأنَّ هذا التسبيحَ لا يُفقهُ. وأجيبوا بأنَّ المرادَ بقولهِ: ﴿لَّا تَفْقَهُونَ﴾ الكفارُ الذينَ يعرضونَ عنْ الاعتبارِ فلا يفقهونَ حكمةَ اللهِ سبحانهُ وتعالى في الأشياءِ. وقالت فرقة: قولهُ ﴿مِن شَىْءٍ﴾ عمومٌ، ومعناهُ الخصوصُ في كلِّ حيٍّ ونامٍ، وليسَ ذلكَ في الجماداتِ.

قلتُ: ويستدلُّ لهذا القولِ منَ السنةِ بما ثبتَ عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ تعالى عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ مرَّ على قبرينِ فقالَ: «إنهما ليعذبانِ وما يعذبانِ في كبيرٍ أما أحدهما فكانَ يمشي

بالنميمةِ وأما الآخرُ فكانَ لا يستبرئُ منَ البولِ» قالَ: فدعا بعسيبٍ رطبٍ فشقهُ اثنينِ، ثمَّ غرسَ على هذا واحدًا وعلى هذا واحدًا ثمَّ قالَ: «لعلهُ يخففُ عنهما ما لمْ ييبسا». فقولهُ ﷺ. «ما لمْ ييبسا» إشارةٌ إلى أنهما ما داما رطبينِ يسبحانِ، فإذا يبسا صارا جمادًا. واللهُ أعلمُ.

ويستدلُّ للتأويلِ الأولِ منَ الكتابِ بقولهِ سبحانهُ وتعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾﴾، وقولهُ: ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾، وقولهِ: ﴿وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾﴾.

وخرجَ البخاريُّ عنْ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: لقدْ كنا نسمعُ تسبيحَ الطعامِ وهوَ يؤكلُ، وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ جابرِ بنِ سمرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إني لأعرفُ حجرًا بمكةَ كانَ يسلمُ عليَّ قبلَ أنْ أبعثَ إني لأعرفهُ الآنَ». قيلَ: إنهُ الحجرُ الأسودُ، واللهُ أعلمُ. والأخبارُ في هذا المعنى كثيرةٌ، وخبرُ الجذعِ أيضًا مشهورٌ في هذا البابِ خرجه البخاري في مواضع منْ كتابهِ. وإذا ثبتَ ذلكَ في جمادٍ واحدٍ جازَ في جميعِ الجماداتِ، ولا استحالةَ في شيء من ذلك، فكل شيء يسبحُ للعمومِ.

وقرأ أبو عمرو ويعقوبُ وحفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ ﴿تَفۡقَهُونَ﴾ بالتاءِ لتأنيثِ الفاعلِ. الباقونَ بالياءِ. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ عنْ ذنوبِ عبادهِ في الدنيا ﴿غَفُورٗا﴾ للمؤمنين في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ﴿٤٥﴾﴾

قيل: الحجاب المستورُ طبعُ اللهُ على قلوبهمْ حتى لا يفقهوهُ ولا يدركوا ما فيهِ منَ الحكمةِ.

وقيل: نزلتْ في قومٍ كانوا يؤذونَ رسولَ اللهِ ﷺ إذا قرأَ القرآنَ، وهمْ أبو جهلٍ وأبو سفيانَ والنضرُ بنُ الحارثِ وأمُّ جميلٍ امرأةُ أبي لهبٍ وحويطبٌ، فحجبَ اللهُ سبحانهُ وتعالى رسولهُ ﷺ عنْ أبصارهمْ عندَ قراءةِ القرآنِ، وكانوا يمرونَ بهِ ولا يرونهُ، وهوَ الأظهرُ في الآيةِ، واللهُ أعلمُ.

وقولهُ: ﴿مَّسْتُورًا﴾، فيهِ قولانِ:

أحدهما: أنَّ الحجابَ مستورٌ عنكمْ لا ترونهُ.

والثاني: أنَّ الحجابَ ساترٌ عنكمْ ما وراءهُ، ويكونُ مستورا بمعنى ساتر.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ جمع كنان، وهي ما يستر الشيءَ ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أيْ لئلا يفقهوهُ، أوْ كراهيةَ أنْ يفقهوهُ، أيْ أنْ يفهموا ما فيهِ منَ الأوامرِ والنواهي والحكمِ والمعاني. وهذا ردٌّ على القدريةِ ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أيْ صممًا وثقلًا. وفي الكلامِ إضمارٌ، أيْ أنْ يسمعوهُ ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ أيْ قلتَ: لا إلهَ إلا اللهُ وأنتَ تتلو القرآن ﴿وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ يعنى بذلك المشركين. وقيل: الشياطين. و ﴿نُفُورًا﴾ جمعُ نافرٍ، مثلُ شهودٍ جمعِ شاهدٍ، وقعودٍ جمعِ قاعدٍ، منصوبٌ على الحالِ.

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ قيلَ: الباءُ زائدةٌ في قولهِ: ﴿بِهِۦٓ﴾ أيْ يستمعونهُ. وكانوا يستمعونَ منَ النبيِّ ﷺ القرآنَ ثمَّ ينفرونَ فيقولونَ: هوَ ساحرٌ ومسحورٌ، كما أخبرَ اللهُ تعالى بهِ عنهمْ ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ أيْ متناجونَ في أمركَ، وكانتْ نجواهمْ قولهمْ إنهُ مجنونٌ وإنهُ ساحرٌ وإنهُ يأتي بأساطيرِ الأولينَ، وغيرُ ذلكَ ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أبو جهلٍ والوليدُ بنُ المغيرةِ وأمثالهما ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾ أيْ مطبوبًا قدْ خبلهُ السحرُ فاختلطَ عليهِ أمرهُ، يقولونَ ذلكَ لينفروا عنهُ الناسَ. وقيل: ﴿مَّسْحُورًا﴾ أيْ مخدوعًا، مثلُ قولهِ: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ أيْ منْ أينَ تخدعونَ.

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ عجبهُ منْ صنعهمْ كيفَ يقولونَ تارةً ساحرٌ وتارةً مجنونٌ وتارةً شاعرٌ ﴿فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ أيْ حيلةً في صدِّ الناسِ عنكَ. وقيل: ضلوا عنِ الحقِّ فلا يجدونَ سبيلًا، أيْ إلى الهدى. وقيل: مخرجًا، لتناقضِ كلامهمْ في قولهمْ: مجنونٌ، ساحرٌ، شاعرٌ.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ الرفاتُ الغبارُ. وقيل: الترابُ ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ ﴿أَءِنَّا﴾ استفهام والمراد به الجحد والإنكار. و ﴿خَلْقًا﴾ نصبَ لأنهُ مصدرٌ، أيْ بعثًا جديدًا. وكانَ هذا غاية الإنكار منهم.

قوله تعالى: ﴿۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ٥٠﴾ أيْ قلْ لهمْ يا محمدُ كونوا على جهةِ التعجيزِ حجارةً أوْ حديدًا في الشدةِ والقوةِ. وقيل: المعنى كونوا ما شئتمْ فستعادونَ ﴿أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾ يعنى السموات والأرضَ والجبالَ لعظمها في النفوسِ ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾. وفي الحديثِ أنهُ: «يؤتى بالموتِ يومَ القيامةِ في صورةِ كبشٍ أملحِ فيذبحُ بينَ الجنةِ والنارِ». وقيل: أرادَ بهِ البعثَ، لأنهُ كانَ أكبر في صدورهم ﴿فَطَرَكُمۡ﴾ خلقكم وأنشأكم ﴿فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ﴾ أي يحركون رؤوسهم استهزاء ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ﴾ أيِ البعثُ والإعادةُ وهذا الوقتُ ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ٥١﴾ أيْ هو قريب، لأن عسى واجب، نظيرهُ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾. وَ ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾. وكلٌّ، ما هوَ آت فهو قريب.

قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾ الدعاءَ: النداءُ إلى المحشرِ بكلام تسمعهُ الخلائقُ، يدعوهمُ اللهُ تعالى فيه بالخروج. وقيل: بالصيحةِ التي يسمعونها، فتكونُ داعيةً لهمْ إلى الاجتماعِ في أرضِ القيامةِ. قالَ ﷺ: «إنكمْ تدعونَ يومَ القيامةِ بأسمائكمْ وأسماءِ آبائكمْ فأحسنوا أسماءكمْ» ﴿فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾ أي باستحقاقه الحمد على الأحياء.

وقيل: يقومونَ يقولونَ سبحانكَ اللهمَّ وبحمدكَ، فيومُ القيامةِ يومٌ يبدأُ بالحمدِ ويختمُ بهِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾ وقالَ في آخرَ ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّۚ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ٥٢﴾ يعني بينَ النفختينِ، وقيل: المعنى أنَّ الدنيا تحاقرتْ في أعينهمْ وقلتْ حينَ رأوا يومَ القيامة، وقيل: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ٥٢﴾ في الدنيا لطولِ لبثكمْ في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ﴾ قيلَ: المعنى قلْ لعبادي الذينَ اعترفوا بأني خالقهمْ وهمْ يعبدونَ الأصنامَ، يقولوا التي هيَ أحسنُ منْ كلمةِ التوحيدِ والإقرارِ بالنبوةِ. وقيل: المعنى وقلْ لعبادي المؤمنينَ إذا جادلوا الكفارَ في التوحيدِ، أنْ يقولوا الكلمةَ التي هيَ أحسنُ. كما قالَ: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ﴾.

وقالتْ طائفةٌ: أمرَ اللهُ تعالى في هذهِ الآيةِ المؤمنينَ فيما بينهمْ خاصةً، بحسنِ الأدبِ وإلانةِ القولِ، وخفضِ الجناحِ وإطراحِ نزغاتِ الشيطانِ، وقدْ قالَ ﷺ: «وكونوا عبادَ اللهِ إخوانًا». وهذا أحسنُ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أيْ بالفسادِ وإلقاءِ العداوةِ والإغواءِ ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ٥٣﴾ أيْ شديدَ العداوةِ.

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ هذا خطابٌ للمشركينَ، والمعنى: إنْ يشأْ يوفقكمْ للإسلامِ فيرحمكمْ، أو يميتكم على الشرك فيعذبكم، و ﴿أَعۡلَمُ﴾ بمعنى عليمٍ، نحوَ قولهمْ: اللهُ أكبرُ، بمعنى كبيرٌ. وقيل: الخطابُ للمؤمنينَ، أيْ إنْ يشأْ يرحمكمْ بأنْ يحفظكمْ منْ كفارِ مكةَ، أوْ إنْ يشأْ يعذبكمْ بتسليطهمْ عليكمْ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ٥٤﴾ أيْ وما وكلناكَ في منعهمْ منَ الكفرِ ولا جعلنا إليكَ إيمانهمْ، وقيل: ما جعلناكَ كفيلًا لهمْ تؤخذُ بهمْ.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ﴾ أعادَ بعدَ أنْ قالَ: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ﴾ ليبينَ أنهُ خالقهمْ وأنهُ جعلهمْ مختلفينَ في أخلاقهمْ وصورهمْ وأحوالهمْ ومالهمْ ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾. وكذا النبيونَ فضّلَ بعضهمْ على بعضٍ عنْ علمٍ منهُ بحالهمْ ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ٥٥﴾ الزبورُ: كتابٌ ليسَ فيهِ حلالٌ ولا حرامٌ، ولا فرائضُ ولا حدودٌ، وإنما هوَ دعاءٌ وتحميدٌ وتمجيدٌ. أيْ كما آتينا داودَ الزبورَ فلا تنكروا أنْ يؤتى محمدٌ القرآنَ. وهو في محاجة اليهود.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ لما ابتليتْ قريشٌ بالقحطِ وشكوا إلى رسولِ اللهِ ﷺ أنزلَ اللهُ هذهِ الآيةَ، أيِ ادعوا الذينَ تعبدونَ من دونه وزعمتمْ أنهمْ آلهةً. وقيل: يعني الملائكةَ وعيسى وعزيرًا. وقيل: يعني الجنَّ ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ﴾ أيِ القحطِ سبعَ سنينَ، على قولِ مقاتلٍ ﴿وَلَا تَحۡوِيلًا ٥٦﴾ منَ الفقرِ إلى الغنى ومنَ السقمِ إلى الصحةِ.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأٌ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وضميرُ الصلةِ محذوفٌ، أيْ يدعونهمْ. يعني أولئكَ المدعوون. و ﴿يَبۡتَغُونَ﴾ خبرٌ، أوْ يكونُ حالًا، وَ ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ خبر، أي يدعون إليه عبادا إلى عبادتهِ.

وفي صحيحِ مسلمٍ منْ كتابِ التفسيرِ عنْ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ في قولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ قالَ: نفرٌ منَ الجنِّ أسلموا وكانوا يُعْبَدونَ، فبقيَ الذينَ كانوا يعبدونَ على عبادتهمْ وقدْ أسلمَ النفرُ منَ الجنِّ. وفي روايةٍ قالَ: نزلتْ في نفرٍ منَ العربِ كانوا يعبدونَ نفرًا من الجن فأسلم الجنيون والإنس الذينَ كانوا يعبدونهمْ لا يشعرونَ، فنزلتْ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾.

وعنهُ أيضًا أنهمُ الملائكةُ كانتْ تعبدهمْ قبائلُ منَ العربِ، وقيل: عزير وعيسى.

و ﴿يَبۡتَغُونَ﴾ يطلبونَ منَ اللهِ الزلفةَ والقربةَ، ويتضرعونَ إلى اللهِ تعالى في طلبِ الجنةِ، وهيَ الوسيلةُ. والهاءُ والميمُ في ﴿رَبِّهِمُ﴾ تعودُ على العابدينَ أوْ على المعبودينَ أوْ عليهمْ جميعا. وأما ﴿يَدۡعُونَ﴾ فعلى العابدين. و ﴿يَبۡتَغُونَ﴾ على المعبودينَ ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ. ويجوزُ أن يكون ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ بدلًا منَ الضميرِ في ﴿يَبۡتَغُونَ﴾. ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ أي مخوفا لا أمان لأحدٍ منهُ، فينبغي أنْ يحذرُ منهُ ويخافُ. وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ: الرجاءُ والخوفُ ميزانانِ على الإنسانِ، إذا استويا استقامتْ أحوالهُ، وإن رجح أحدهما بطل الآخر.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ أيْ مخربوها ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قالَ مقاتلٌ: أما الصالحةُ فبالموتِ، وأما الطالحةُ فبالعذاب. وقال ابن مسعود: إذا ظهر الزنى والربا في قريةٍ أذنَ اللهُ في هلاكهمْ. فقيلَ: المعنى وإنْ منْ قريةٍ ظالمةٍ، يقوي ذلكَ قولهُ: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ أيْ في اللوحِ ﴿مَسْطُورًا ۝٥٨﴾ أيْ مكتوبًا. والسطرُ: الخطُّ وجمعُ السطرِ أسطرٌ وسطورٌ، مثلُ أفلسٍ وفلوسٍ. والكتابُ هنا يرادُ بهِ اللوحُ المحفوظُ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَٰيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ في الكلامِ حذفٌ، والتقديرُ: وما منعنا أنْ نرسلَ بالآياتِ التي اقترحوها إلا أنْ يكذبوا بها فيهلكوا كما فُعلَ بمنْ كانَ قبلهمْ، واللهُ تعالى لا يكونُ ممنوعا عن شيء، فالمعنى المبالغةُ في أنهُ لا يفعلُ، فكأنهُ قدْ منعَ عنهُ. ثمَّ بينَ ما فعلَ بمنْ سألَ الآياتِ فلمْ يؤمنْ بها فقالَ: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أيْ آيةً دالةً مضيئةً نيرةً على صدقِ صالحٍ، وعلى قدرةِ اللهِ تعالى ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ أيْ ظلموا بتكذيبها. وقيل: جحدوا بها وكفروا أنها منْ عندِ اللهِ فاستأصلهمُ اللهُ بالعذابِ.

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَٰيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝٥٩﴾، فيهِ خمسةُ أقوالٍ:

الأولُ: العبرُ والمعجزاتُ التي جعلها اللهُ على أيدي الرسلِ منْ دلائلِ الإنذارِ تخويفًا للمكذبينَ.

الثاني: أنها آياتُ الانتقامِ تخويفًا منَ المعاصي.

الثالثُ: أنها تقلبُ الأحوالِ منْ صغرٍ إلى شبابٍ ثمَّ إلى تكهلٍ ثمَّ إلى مشيبٍ، لتعتبرَ بتقلبِ أحوالكَ فتخافَ عاقبةَ أمركَ.

الرابع: القرآن.

الخامس: الموت الذريع.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ قالَ ابنُ عباسٍ: الناسُ هنا أهلُ مكةَ، وإحاطتهُ بهِمْ إهلاكهُ إياهمْ، أيْ إنَّ اللهَ سيهلكهمْ. وذكرهُ بلفظِ الماضي لتحققِ كونهِ. وعنى بهذا الإهلاكِ الموعودِ ما جرى يومَ بدرٍ ويومَ الفتحِ. وقيل: معنى ﴿أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ أيْ أحاطتْ قدرتهُ بهِمْ، فهمْ في قبضتهِ لا يقدرونَ على الخروجِ منْ مشيئتهِ، وقيل: المعنى أحاطَ علمهُ بالناسِ. وقيل: المرادُ عصمتهُ منَ الناسِ أنْ يقتلوهُ حتى يبلغَ رسالةَ ربهِ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ لما بينَ أنَّ إنزالَ آياتِ القرآنِ تتضمنُ التخويفَ ضمَّ إليهِ ذكرَ آيةِ الإسراءِ، وهيَ المذكورةُ في صدرِ السورةِ. وفي البخاريِّ عنِ ابنِ عباسٍ في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قالَ: هيَ رؤيا عينٍ أريها النبيُّ ﷺ ليلةَ أسريَ بهِ إلى بيتِ المقدسِ. قالَ: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ هيَ شجرةُ الزقومِ.

وكانتِ الفتنةُ ارتدادَ قومٍ كانوا أسلموا حينَ أخبرهمُ النبيُّ ﷺ أنهُ أسريَ بهِ.

وقيل: كانتْ رؤيا نومٍ. وهذهِ الآيةُ تقضي بفسادهِ، وذلكَ أنَّ رؤيا المنامِ لا فتنةَ فيها، وما كانَ أحدٌ لينكرها.

وقيل: الرؤيا التي في هذهِ الآيةِ هيَ رؤيا رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ يدخلُ مكةَ في سنةِ الحديبيةِ، فرُدَّ فافتتنَ المسلمونَ لذلكَ، فنزلتِ الآيةُ، فلما كانَ العامُّ المقبلُ دخلها، وأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾. وفي هذا التأويلِ ضعفٌ، لأنَّ السورةَ مكيةٌ وتلكَ الرؤيا كانتْ بالمدينةِ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ فيهِ تقديمٌ وتأخيرٌ، أيْ ما جعلنا الرؤيا التي أريناكَ والشجرةَ الملعونةَ في القرآنِ إلا فتنةً للناسِ. وفتنتها أنهمْ لما خُوفوا بها قالَ أبو جهلٍ استهزاءً: هذا محمدٌ يتوعدكمْ بنارٍ تحرقُ الحجارةَ، ثمَّ يزعمُ أنها تنبتُ الشجرَ والنارُ تأكلُ الشجرَ، وما نعرفُ الزقومَ إلا التمرَ والزبدَ، ثمَّ أمرَ أبو جهلٍ جاريةً فأحضرتْ تمرًا وزبدًا وقالَ لأصحابهِ: تزقموا، فافتتنَ أيضًا لهذهِ المقالةِ بعضُ الضعفاءِ، فأخبرَ اللهُ تعالى نبيهُ ﷺ أنهُ إنما جعلَ الإسراءَ وذكرَ شجرةِ الزقومِ فتنةً واختبارًا ليكفرَ منْ سبقَ عليهِ الكفرُ ويُصدِّقَ

منْ سبقَ لهُ الإيمانُ. كما رويَ أنَّ أبا بكرٍ الصديقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قيلَ لهُ صبيحةَ الإسراءِ: إنَّ صاحبكَ يزعمُ أنهُ جاءَ البارحةَ منْ بيتِ المقدسِ فقالَ: إنْ كانَ قالَ ذلكَ فلقدْ صدقَ. فقيلَ لهُ: أتصدقهُ قبلَ أنْ تسمع منه؟ فقال: أين عقولكمْ؟ أنا أصدقهُ بخبرِ السماءِ، فكيفَ لا أصدقهُ بخبرِ بيتِ المقدسِ، والسماءُ أبعدُ منها بكثير، فيومئذٍ سماهُ الصديقُ.

قالَ الحسنُ: وأنزلَ اللهُ تعالى فيمنِ ارتدَّ عنِ الإسلامِ لذلكَ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أيْ بالزقومِ ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويف إلا الكفر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ المعنى: اذكرْ بتمادي هؤلاءِ المشركينَ وعتوهمْ على ربهمْ قصةَ إبليسَ حينَ عصى ربهُ وأبى السجودَ، وقالَ: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ أيْ منْ طينٍ. وهذا استفهامُ إنكارٍ.

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ﴾ أيْ قالَ إبليسُ. والكافُ توكيدٌ للمخاطبةِ ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ أيْ فضلتهُ عليَّ. ورأى جوهرَ النارِ خيرًا منْ جوهرِ الطينِ ولمْ يعلمْ أنَّ الجواهرَ متماثلةٌ. ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذريته﴾ لأستولينَّ عليهمْ، أو لأستأصلنَّهم بالإغواءِ والإضلالِ ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ يعني المعصومينَ، وهمُ الذينَ ذكرهمُ اللهُ في قولهِ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ وإنما قالَ إبليسُ ذلكَ ظنًا، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ أوْ علمَ منْ طبعِ البشرِ تركبَ الشهوةِ فيهمْ، أوْ بنى على قولِ الملائكةِ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾. وقالَ الحسنُ: ظنَّ ذلكَ لأنهُ وسوسَ إلى آدمَ ﷺ فلمْ يجد له عزما.

قولهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ﴾ هذا أمرُ إهانةٍ، أي اجهد جهدك فقد أنظرناك فمن أطاعكَ منْ ذريةِ آدمَ ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾ أيْ وافرًا.

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ٦٤﴾، فيهِ ستُّ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ﴾ أي استزلَّ واستخفَّ. وأصلهُ القطعُ، ومنهُ تفززَ الثوبُ إذا انقطعَ، والمعنى استزلهُ بقطعكَ إياهُ عنِ الحقِّ ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ﴾ أمرُ تعجيزٍ، أيْ أنتَ لا تقدرُ على إضلالِ أحدٍ، وليسَ لكَ على أحدٍ سلطانٌ فافعلْ ما شئتَ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿بِصَوۡتِكَ﴾ وصوتهُ كلُّ داعٍ يدعو إلى معصيةِ اللهِ تعالى، وقيل: الغناءُ والمزاميرُ واللهوُ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أصلُ الإجلابِ السَوقُ بجلبةٍ منَ السائقِ، يقالُ: أجلبَ إجلابًا. والجلبُ والجلبةُ: الأصواتُ، وقالَ أكثرُ المفسرينَ: يريدُ كلَّ راكبٍ وماشٍ في معصيةِ اللهِ تعالى.

والرجْلُ جمعُ راجلٍ، مثلُ صْحبٍ وصاحبٍ. وقرأ حفصٌ ﴿وَرَجِلِكَ﴾ بكسرِ الجيمِ وهما لغتانِ، يقالُ: رجْلٌ ورجِلٌ بمعنى راجلٍ. وقرأ عكرمة وقتادة: «ورجالك» على الجمع.

الرابعة: ﴿وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ أي اجعلْ لنفسكَ شركةً في ذلكَ. فشركتهُ في الأموالِ إنفاقها في معصيةِ اللهِ، وقيل: هيَ التي أصابوها منْ غيرِ حلها، وقيل: ما كانوا يحرمونهُ منَ البحيرةِ والسائبةِ والوصيلةِ والحامِ. وقيل: ما كانوا يذبحونهُ لآلهتهمْ.

والأولادُ قيل: هم أولادُ الزنى، وقيل: هوَ ما قتلوا منْ أولادهمْ وأتوا فيهمْ منَ الجرائمِ. وعنهُ أيضًا: هوَ تسميتهمْ عبدَ الحارثِ وعبدَ العزى وعبدَ اللاتِ وعبدَ الشمسِ ونحوهُ. وقيل: هوَ صبغةُ أولادهمْ في الكفرِ حتى هودوهمْ ونصروهمْ، كصنعِ النصارى بأولادهمْ بالغمسِ في الماءِ الذي لهمْ، قالَ قتادةُ. وقيل: إذا جامعَ الرجلُ ولمْ يسمِّ.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَعِدۡهُمۡۚ﴾ أيْ منهمُ الأمانيَّ الكاذبةَ، وأنهُ لا قيامةَ ولا حسابَ، وأنهُ إنْ كانَ حسابٌ وجنةٌ ونارٌ فأنتمْ أولى بالجنةِ منْ غيركمْ. يقويهِ قولهُ تعالى: ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أيْ باطلا. وقيل: ﴿وَعِدۡهُمۡۚ﴾ أي عدهم النصر

على منْ أرادهمْ بسوءٍ. وهذا الأمر للشيطانِ تهددٌ ووعيدٌ لهُ. وقيل: استخفافٌ بهِ وبمنِ اتبعه.

السادسة: في الآيةِ ما يدلُّ على تحريمِ المزاميرِ والغناءِ واللهوِ، لقولهِ: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾ على قولٍ، وما كانَ منْ صوتِ الشيطانِ أوْ فعلهِ وما يتحسنه فواجبٌ التنزهِ عنهُ.

وروى نافعٌ عنِ ابنِ عمرَ أنهُ سمعَ صوتَ زمارةٍ فوضعَ أصبعيهِ في أذنيه، قال علماؤنا: إذا كانَ هذا فعلهمْ في حقِّ صوتٍ لا يخرجُ عنْ الاعتدالِ، فكيفَ بغناءِ أهلِ هذا الزمانِ وزمرهمْ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ قالَ ابنُ عباسٍ: همُ المؤمنونَ. ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ أيْ عاصمًا منَ القبولِ منْ إبليسَ، وحافظا من كيده وسوء مكره.

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ الإزجاءُ: السوقُ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾، وإزجاءُ الفلكِ: سوقهُ بالريحِ اللينةِ. والفلكُ هنا جمعٌ، والبحرُ الماءُ الكثيرُ عذبًا كانَ أوْ ملحا، وقد غلب هذا الاسم على المشهور، وهذهِ الآيةُ توقيفٌ على آلاءِ اللهِ وفضلهِ عندَ عبادهِ، أيْ ربكمُ الذي أنعمَ عليكمْ بكذا وكذا فلا تشركوا بهِ شيئًا ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أيْ في التجاراتِ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ ﴿ٱلضُّرُّ﴾ لفظٌ يعمُّ خوفَ الغرقِ والإمساكَ عنِ الجري. وأهولُ حالاتهِ اضطرابهُ وتموجهُ ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ﴿ضَلَّ﴾ معناهُ تلفَ وفقدَ، وهيَ عبارةُ تحقيرٍ لمنْ يدعي إلهًا منْ دونِ اللهِ فوقفهمُ اللهُ منْ ذلكَ على حالةِ البحرِ حيثُ تنقطعُ الحيلُ ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أيْ عنِ الإخلاصِ ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ الإنسانُ هنا الكافرُ. وقيل: وطبعَ الإنسانُ كفورًا للنعمِ إلا منْ عصمه الله، فالإنسان لفظ الجنس.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ بينَ أنهُ قادرٌ على هلاكهمْ في البرِّ وإنْ سلموا منَ البحرِ. والخسفُ: أنْ تنهارَ الأرضُ بالشيءِ، وخسفتِ الشمسُ أيْ غابتْ عنِ الأرضِ، وجانبُ البرِّ: ناحيةُ الأرضِ، وسماهُ جانبًا لأنهُ يصيرُ بعدَ الخسفِ جانبًا. وأيضًا

فإنَّ البحرَ جانبٌ والبرَّ جانبٌ. وقيل: إنهمْ كانوا على ساحلِ البحرِ، وساحلهُ جانبُ البرِّ، وكانوا فيهِ آمنينَ منْ أهوالِ البحرِ، فحذرهمْ ما أمنوهُ منَ البرِّ كما حذرهمْ ما خافوهُ منَ البحرِ ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ يعني ريحًا شديدةً، وهيَ التي ترمي بالحصباءِ، وهيَ الحصى الصغارُ، وقيل: يعني حجارةً منَ السماءِ تحصبهمْ، كما فعلَ بقومِ لوطٍ ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾ أيْ حافظًا ونصيرًا يمنعكمْ منْ بأسِ اللهِ.

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ يعني في البحرِ ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ القاصفُ: الريحُ الشديدةُ التي تكسرُ بشدةٍ، منْ قصفَ الشيءَ يقصفهُ، أيْ كسرهُ بشدةٍ. والقصفُ: الكسرُ ﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أيْ بكفركمْ. وقرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو «نخسفَ بكمْ» «أوْ نرسلَ عليكمْ» «أنْ نعيدكمْ» «فنرسلَ عليكمْ» «فنغرقكمْ» بالنونِ في الخمسةِ على التعظيمِ، لقولهِ: ﴿عَلَيْنَا﴾ الباقونَ بالياءِ، لقولهِ في الآيةِ قبلُ: ﴿إِيَّاهُ﴾. وقرأ أبو جعفرٍ «فَتُغْرِقَكُمْ» بالتاءِ نعتًا للريحِ، وقرأ أبو جعفرٍ «الرِّيَاح» هنا وفي كلِّ القرآنِ. وقيل: إنَّ القاصفَ المَهلكةُ في البرِّ، والعاصفَ المغرقةُ في البحرِ ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ قالَ مجاهدٌ: ثائرًا. النحاسُ: وهوَ منَ الثأرِ.

قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾، فيهِ أربع مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ جعلنا لهمْ كرمًا أيْ شرفًا وفضلًا. وهذا هوَ كرمُ نفيِ النقصانِ لا كرمَ المالِ. وهذهِ الكرامةُ يدخلُ فيها خلقهمْ على هذهِ الهيئةِ في امتدادِ القامةِ وحسنِ الصورةِ، وحملهمْ في البرِّ والبحرِ مما لا يصحُّ لحيوانٍ سوى بني آدمَ وتخصيصهمْ بما خصهمْ بهِ منَ المطاعمِ والمشاربِ والملابسِ.

وعنْ جماعةٍ أنَّ التفضيلَ هوَ أنْ يأكلَ بيدهِ وسائرُ الحيوانِ بالفمِ، وقيل: كرمهمْ بالنطقِ والتمييزِ. وقيل: بأنْ جعلَ محمدًا ﷺ منهمْ. وقيلَ: أكرمَ الرجالَ باللحى والنساءَ بالذوائبِ، والصحيحُ الذي يعولُ عليهِ أنَّ التفضيلَ إنما كانَ بالعقلِ الذي هوَ عمدةُ التكليفِ، وبهِ يعرفُ اللهُ ويفهمُ كلامهُ، ويوصلُ إلى نعيمهِ وتصديقِ رسلهِ، إلا أنهُ لما لمْ ينهضْ بكلِّ المرادِ منَ

العبدِ بعثتِ الرسلُ وأنزلتِ الكتبُ. فمثالُ الشرعِ الشمسُ، ومثالُ العقلِ العينُ، فإذا فتحتْ وكانتْ سليمةً رأتِ الشمسَ وأدركتْ تفاصيلَ الأشياءِ. وما تقدمَ منَ الأقوالِ بعضهُ أقوى منْ بعضٍ. وقدْ جعلَ اللهُ في بعضِ الحيوانِ خصالًا يفضلُ بها ابنَ آدمَ أيضًا، كجري الفرسِ وسمعهِ وإبصارهِ، وقوةِ الفيلِ وشجاعةِ الأسدِ وكرمِ الديكِ، وإنما التكريمُ والتفضيلُ بالعقلِ كما بيناهُ. واللهُ أعلمُ.

الثانية: قالتْ فرقةٌ: هذهِ الآيةُ تقتضي تفضيلَ الملائكةِ على الإنسِ والجنِّ منْ حيثُ إنهمُ المستثنونَ في قولهِ تعالى: ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ وهذا غيرُ لازمٍ منَ الآيةِ، بلِ التفضيلُ فيها بينَ الإنسِ والجنِّ، فإنَّ هذهِ الآيةَ إنما عددَ اللهُ فيها على بني آدمَ ما خصهمْ بهِ منْ سائرِ الحيوانِ، والجنِّ هوَ الكثيرُ المفضولُ، والملائكةُ همُ الخارجونَ عنِ الكثيرِ المفضولِ، ولمْ تتعرضِ الآيةُ لذكرهمْ، بلْ يحتملُ أنَّ الملائكةَ أفضلُ، ويحتملُ العكسَ، ويحتملُ التساويَ، وعلى الجملةِ فالكلامُ لا ينتهي في هذهِ المسألةِ إلى القطعِ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يعنى لذيذ المطاعم والمشارب ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ٧٠﴾ أيْ على البهائمِ والدوابِّ والوحشِ والطيرِ بالغلبةِ والاستيلاءِ، والثوابِ والجزاءِ والحفظِ والتمييزِ وإصابةِ الفراسةِ.

الرابعة: هذهِ الآيةُ تردُّ مذهب الصوفيةِ في تركِ أكلِ الطيباتِ.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ أيْ بكتابهمْ، أيْ بكتابِ كلِّ إنسانٍ منهمُ الذي فيهِ عملهُ، دليلهُ ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾. وقيل: بالكتابِ المنزلِ عليهم. أي يدعى كل إنسان بكتابهِ الذي كانَ يتلوهُ، فيدعى أهلُ التوراةِ بالتوراة، وأهل القرآن بالقرآن، فيقال: يأهل القرآن، ماذا عملتم، هل امتثلتم أوامره هلِ اجتنبتمْ نواهيهُ! وهكذا. وقيل: ﴿بِإِمَٰمِهِمْ﴾ بنبيهمْ، والإمامُ منْ يؤتمُّ بهِ. فيقالُ: هاتوا متبعي إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، هاتوا متبعي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، هاتوا متبعي الشيطانِ، هاتوا متبعي الأصنام. فيقومُ أهلُ الحقِّ فيأخذونَ كتابهمْ بأيمانهمْ، ويقومُ أهلُ الباطلِ فيأخذونَ كتابهمْ بشمالهمْ.

وقيل: ﴿بِإِمَٰمِهِمْ﴾ أيْ بأعمالهمْ، فيدعى أهل الصداقة من باب الصدقة، وأهلُ الجهادِ

منْ بابِ الجهادِ...، وعكسهُ الدفافُ والنمامُ.

وقيل: ﴿بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾ بأمهاتهمْ. وإمامٌ جمعُ آمٍّ. قالتِ الحكماءُ: وفي ذلكَ ثلاثةُ أوجهٍ منَ الحكمةِ:

أحدها: لأجلِ عيسى.

والثاني: إظهارٌ لشرفِ الحسنِ والحسينِ.

والثالث: لئلا يفتضح أولاد الزنى.

قلتُ: وفي هذا القولِ نظرٌ، فإنَّ في الحديثِ الصحيح عنِ ابنِ عمرَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إذا جمعَ اللهُ الأولينَ والآخرينَ يومَ القيامِ يرفعُ لكلِّ غادرٍ لواءٌ فيقالُ هذهِ غدرةُ فلانِ بنِ فلانٍ» خرجهُ مسلمٌ والبخاريُّ.

قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ هذا يقوي قولَ منْ قالَ: ﴿بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾ بكتابهمْ. ويقويهِ أيضًا قولهُ: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا ٧١﴾ الفتيلُ الذي في شق النواة.

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ﴾ أيْ في الدنيا عن وإبصار الحق ﴿فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾، كما قالَ: ﴿وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ الآياتِ. وقالَ: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٧٢﴾ يعني أنهُ لا يجدُ طريقا إلى الهداية.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ﴾ أيْ يزيلونكَ، وقيلَ: يصرفونكَ، والمعنى واحدٌ ﴿عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ أيْ حكمَ القرآنِ، لأنَّ في إعطائهمْ ما سألوهُ مخالفةً لحكمِ القرآنِ ﴿لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ﴾ أيْ لتختلقَ غيرَ ما أوحينا إليكَ ﴿وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣﴾ ووالوكَ وصافوك، مأخوذ من الخُلة «بالضمِّ» وهيَ الصداقةُ لممايلتهِ لهمْ. وقيل: ﴿لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾ أيْ فقيرًا. مأخوذٌ منَ الخَلةِ بفتحِ الخاء وهي الفقر لحاجته إليهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ أيْ على الحقِّ وعصمناكَ منْ موافقتهمْ ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ أيْ تميلَ ﴿شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤﴾ أيْ ركونًا قليلًا، وقيلَ: ما كانَ منهُ همٌّ بالركونِ إليهمْ، بلِ المعنى: ولولا فضلُ اللهِ عليكَ لكانَ منكَ ميلٌ إلى موافقتهمْ، ولكنْ تمَّ فضلُ اللهِ عليكَ فلمْ تفعلْ.

وقوله تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥﴾ أيْ لوْ ركنتَ، وهذا غايةُ الوعيدِ. وكلما كانتِ الدرجةُ أعلى كانَ العذابُ عند المخالفة أعظم. قال الله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ وضعفُ الشيءِ مثلهُ مرتينِ، وقدْ يكونُ الضعفُ النصيبُ، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أيْ نصيبٌ.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٧٦﴾

هذهِ الآيةُ قيلَ إنها مدنيةٌ، حسبما تقدمَ في أولِ السورةِ. قالَ ابنُ عباسٍ: حسدتِ اليهودُ مقامَ النبيِّ ﷺ بالمدينةِ فقالوا: إنَّ الأنبياءَ إنما بعثوا بالشامِ، فإنْ كنتَ نبيًا فالحقْ بها، فإنكَ إنْ خرجتْ إليها صدقناكَ وآمنا بكَ، فوقعَ ذلكَ في قلبهِ لما يحبُّ منْ إسلامهمْ، وقيل: إنها مكيةٌ نزلتْ في همِّ أهلِ مكةَ بإخراجهِ، ولوْ أخرجوهُ لما أمهلوا ولكنَّ اللهَ أمرهُ بالهجرةِ فخرجَ، وهذا أصحُّ، لأنَّ السورةَ مكيةٌ، ولأنَّ ما قبلها خبرٌ عنْ أهلِ مكةَ، ولمْ يجرِ لليهودِ ذكرٌ.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ يريدُ أرضَ مكةَ. كقولهِ: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ أيْ أرضَ مصرَ، دليلهُ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ يعني مكةَ. معناهُ: همَّ أهلها بإخراجهِ، فلهذا أضافَ إليها وقالَ ﴿أَخْرَجَتْكَ﴾.

﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ﴾ قرأ نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو بكرٍ وأبو عمرو، «خَلْفَكَ» ومعناهُ بعدكَ، وقرأ ابنُ عامرٍ وحفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ ﴿خِلَٰفَكَ﴾ ومعناهُ أيضًا بعدكَ، قالَ، وقيل: «خَلْفَكَ» بمعنى بعدك و ﴿خِلَٰفَكَ﴾ بمعنى مخالفتكَ.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ فيهِ وجهانِ:

أحدهما: أنَّ المدةَ التي لبثوها بعدهُ ما بينَ إخراجهمْ لهُ إلى قتلهمْ يومَ بدرٍ، وهذا قولُ منْ ذكرَ أنهمْ قريشٌ.

الثاني: ما بينَ ذلكَ وقتلِ بني قريظةَ وجلاءِ بني النضيرِ، وهذا قولُ منْ ذكرَ أنهم اليهود.

قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ أيْ يعذبونَ كسنةِ منْ قدْ أرسلنا، فهوَ نصبَ بإضمارِ يعذبونَ ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ أيْ لا خلف في وعدها.

قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾، فيهِ سبعُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ لما ذكرَ مكايدَ المشركينَ أمرَ نبيهُ ﷺ بالصبرِ والمحافظةِ على الصلاةِ، وفيها طلبُ النصرِ على الأعداءِ. ومثلهُ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾، وهذا الآيةُ بإجماعِ منَ المفسرينَ إشارةٌ إلى الصلواتِ المفروضةِ، واختلفَ العلماءُ في الدلوكِ على قولينِ:

أحدهما: أنهُ زوالُ الشمسِ عنْ كبدِ السماءِ؛ لأنهُ يدلكُ عينيهِ لشدةِ شعاعها.

الثاني: أن الدلوك هو المغرب، لأنَّ الإنسانَ يدلكُ عينيهِ براحتهِ لتبينها حالةَ المغيبِ.

قالَ ابنُ عطيةَ: الدلوكُ هوَ الميلُ - في اللغةِ - فأولُ الدلوكِ هوَ الزوالُ وآخرهُ هوَ الغروبُ. ومنْ وقتِ الزوالِ إلى الغروبِ يسمى دلوكًا، لأنها في حالةِ ميلٍ. فذكرَ اللهُ تعالى الصلواتِ التي تكونُ في حالةِ الدلوكِ وعندهُ، فيدخلُ في ذلكَ الظهرُ والعصرُ والمغربُ، ويصحُّ أنْ تكونَ المغربُ داخلةً في غسقِ الليلِ. وقدْ ذهبَ قومٌ إلى أنَّ صلاةَ الظهرِ يتمادى وقتها منَ الزوالِ إلى الغروبِ، لأنهُ سبحانهُ علقَ وجوبها على الدلوكِ، وهذا دلوكٌ كلهُ، قالهُ أبو حنيفةَ في تفصيلٍ. وأشارَ إليهِ مالكٌ والشافعيُّ في حالةِ الضرورةِ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ غسقُ الليلِ اجتماعُ الليلِ وظلمتهُ، وأصلُ الكلمةِ منَ السيلانِ، يقالُ: غسقتِ العينُ إذا سالتْ، تغسقُ. وغسقَ الجرحُ غسقانًا، أيْ سالَ

منهُ ماءٌ أصفرُ.

الثالثة: اختلفَ العلماءُ في آخرِ وقتِ المغربِ، فقيلَ: وقتها وقتٌ واحدٌ لا وقتَ لها إلا حينَ تُحجبُ الشمسُ، وذلكَ بينٌ في إمامةِ جبريلَ، فإنهُ صلاها باليومينِ لوقتٍ واحدٍ وذلكَ غروبَ الشمسِ، وهوَ الظاهرُ منْ مذهبِ مالكٍ عندَ أصحابهِ. وهوَ أحدُ قولي الشافعيِّ في المشهورِ عنهُ أيضًا.

وقالَ مالكٌ في الموطأِ: إذا غابَ الشفقُ فقدْ خرجتْ منْ وقتِ المغربِ ودخلَ وقتُ العشاءِ. وبهذا قالَ أبو حنيفة وأصحابه وأحمدُ وداودُ، لأنَّ وقتَ الغروبِ إلى الشفقِ غسقٌ كلهُ. ولحديثِ أبي موسى، وفيهِ: أنَّ النبيَّ ﷺ صلى بالسائلِ المغربَ في اليوم الثاني فأخر حتى كان سقوطِ الشفقِ. خرجهُ مسلمٌ.

قالوا: وهذا أولى من أخبار إمامة جبريل، لأنه متأخر بالمدنية وإمامةُ جبريلَ بمكةَ، والمتأخرُ أولى منْ فعلهِ وأمرهِ، لأنهُ ناسخٌ لما قبلهُ. وزعمَ ابنُ العربيِّ أنَّ هذا القولَ هوَ المشهورُ منْ مذهبِ مالكٍ، وقولهُ في موطئهِ الذي أقرأهُ طولَ عمرهِ وأملاهُ في حياتهِ.

والنكتةُ في هذا أنَّ الأحكامَ المتعلقةَ بالأسماءِ هلْ تتعلقُ بأوائلها أوْ بآخرها أوْ يرتبطُ الحكمُ بجميعها؟ والأقوى في النظرِ أنْ يرتبطَ الحكمُ بأوائلها لئلا يكونَ ذكرها لغوًا فإذا ارتبطَ بأوائلها جرى بعدَ ذلكَ النظرُ في تعلقهِ بالكلِّ إلى الآخرِ.

قلتُ: القولُ بالتوسعةِ أرجحُ.

قالَ علماؤنا: تحملُ أحاديثُ جبريلَ على الأفضليةِ في وقتِ المغربِ، ولذلكَ اتفقتِ الأمةُ فيها على تعجيلها والمبادرةِ إليها في حينِ غروبِ الشمسِ. قالَ ابنُ خويزِ منداذَ: ولا نعلمُ أحدًا منَ المسلمينَ تأخرَ بإقامةِ المغربِ في مسجدِ جماعةٍ عنْ وقتِ غروبِ الشمسِ. وأحاديثُ التوسعةِ تبينُ وقتَ الجوازِ، فيرتفعُ التعارضُ ويصحُّ الجمعُ، وهوَ أولى منَ الترجيحِ باتفاقِ الأصوليينَ، لأنَّ فيهِ إعمالُ كلِّ واحدٍ منَ الدليلينِ، والقولُ بالنسخِ أوِ الترجيحِ فيهِ إسقاطُ أحدهما. واللهُ أعلمُ.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ انتصبَ ﴿قُرۡءَانَ﴾ منْ وجهينِ:

أحدهما: أنْ يكونَ معطوفًا على الصلاةِ، المعنى: وأقمْ قرآنَ الفجرَ أيْ صلاةَ الصبحِ، وقالَ أهلُ البصرةِ. انتصبَ على الإغراءِ، أيْ فعليكَ بقرآنِ الفجر، وعبرَ عنها بالقرآنِ خاصةً دونَ غيرِها منَ الصلواتِ، لأنَّ القرآنَ هوَ أعظمها، إذْ قراءتها طويلةٌ مجهورٌ بها.

قلتُ: وقدِ استقرَّ عملُ المدينةِ على استحبابِ إطالةِ القراءةِ في الصبحِ قدرًا لا يضرُّ بمنْ خلفهُ، يقرأُ فيها بطوالِ المفصلِ، ويليها في ذلكَ الظهرُ والجمعةُ وتخفيفِ القراءةِ في المغربِ وتوسطها في العصرِ والعشاءِ. وقدْ قيلَ في العصرِ: إنها تخففُ كالمغربِ. وأما ما وردَ في صحيحِ مسلمٍ وغيرهِ منَ الإطالةِ فيما استقرَّ فيهِ التقصيرُ، أوْ منَ التقصيرِ فيما استقرتْ فيهِ الإطالةُ، كقراءتهِ في الفجرِ المعوذتينِ - كما رواهُ النسائيُّ - وكقراءةِ الأعرافِ والمرسلاتِ والطورِ في المغربِ، فمتروكٌ بالعملِ. ولإنكارهِ على معاذٍ التطويلَ، حينَ أمَّ قومهُ في العشاءِ فافتتحَ سورةَ البقرةِ. خرجهُ الصحيحُ. وبأمرهِ الأئمةَ بالتخفيفِ فقالَ: «أيها الناسُ إنَّ منكمْ منفرينَ فأيكمْ أمَّ الناسَ فليخففْ فإنَّ فيهمُ الصغيرَ والكبيرَ والمريضَ والسقيمَ والضعيفَ وذا الحاجةِ». وقالَ: «فإذا صلى أحدكمْ وحدهُ فليطولْ ما شاءَ».

الخامسة: قولهُ تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ دليلٌ على أنْ لا صلاةَ إلا بقراءةٍ، لأنهُ سمى الصلاةَ قرآنًا، وقدِ اختلفَ العلماءُ في القراءةِ في الصلاةِ فذهبَ جمهورهمْ إلى وجوبِ قراءةِ أمِّ القرآنِ للإمامِ والفذ في كلِّ ركعةٍ، وهوَ مشهورُ قولِ مالكٍ. وعنهُ أيضًا أنها واجبةٌ في جلِّ الصلاةِ، وعنهُ أيضًا تجبُ في ركعةٍ واحدةٍ، وعنهُ أنَّ القراءة لا تجب في شيء منَ الصلاةِ. وهوَ أشذُّ الرواياتِ عنهُ. وحكيَ عنْ مالكٍ أيضًا أنها تجبُ في نصفِ الصلاةِ، وقيل: تجبُ على الإمامِ والفذِّ والمأمومِ على كلِّ حالٍ، وهوَ أحدُ قولي الشافعيِّ.

السادسة: قوله تعالى: ﴿كَانَ مَشْهُودًا﴾ روى الترمذيُّ عنْ أبي هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ في قولهِ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال: «تشهده ملائكةُ الليل وملائكةُ النهارِ» هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، وروى البخاريُ عنْ أبي هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «فضلُ صلاةِ الجميعِ على صلاةِ الواحدِ خمسٌ وعشرونَ درجةً وتجتمعُ ملائكةُ الليلِ وملائكةُ النهارِ في صلاةِ الصبحِ». يقولُ أبو هريرةَ: اقرءوا إنْ شئتمْ ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

ولهذا المعنى أيضًا قالَ مالكٌ والشافعيُّ: التغليسُ بالصبحِ أفضلُ. وقالَ أبو حنيفةَ: الأفضلُ الجمعُ بين التغليس والإسفار، فإنْ فاتهُ ذلكَ فالإسفارُ أولى منَ التغليسِ. وهذا مخالفٌ لمداومةِ ﷺ على التغليسِ، وأيضًا فإنَّ فيهِ تفويتُ شهودِ ملائكةِ الليلِ.

السابعة: استدلَّ بعضُ العلماءِ بقولهِ ﷺ: «تشهدهُ ملائكةُ الليلِ وملائكةُ النهارِ» على أنَّ صلاةَ الصبحِ ليستْ منْ صلاةِ الليلِ ولا منْ صلاةِ النهارِ. قلتُ: وعلى هذا فلا تكونُ صلاةُ العصرِ أيضًا لا منْ صلاةِ الليلِ ولا منْ صلاةِ النهارِ، فإنَّ في الصحيح عنِ النبيِّ ﷺ الفصيحِ ﷺ فيما رواهُ أبو هريرةَ: «يتعاقبونَ فيكمْ ملائكةٌ بالليلِ وملائكةٌ بالنهارِ فيجتمعونَ في صلاةِ العصرِ وصلاةِ الفجرِ» الحديثَ. ومعلومٌ أنَّ صلاةَ العصرِ منَ النهارِ فكذلكَ تكونُ صلاةُ الفجرِ منَ الليلِ وليسَ كذلكَ، وإنما هيَ منَ النهارِ كالعصرِ بدليلِ الصيامِ والأيمانِ.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾، فيهِ ستُّ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ ﴿مِنَ﴾ للتبعيضِ. والفاءُ في قولهِ: ﴿فَتَهَجَّدۡ﴾ ناسقةٌ على مضمرٍ، أيْ قمْ فتهجدْ ﴿بِهِۦ﴾ أيْ بالقرآنِ. والتهجدُ منَ الهجودِ وهوَ منَ الأضدادِ. يقالُ: هجدَ نامَ، وهجدَ سهرَ، على الضدِّ، وهجدَ وتهجدَ بمعنى، فالتهجدُ القيامُ إلى الصلاةِ منَ النومِ كذلكَ كانتْ صلاةِ رسولِ اللهِ ﷺ. وقيل: الهجودُ النومُ. يقالُ: تهجدَ الرجلُ إذا سهرَ، وألقى الهجودَ وهوَ النومُ. ويسمى منْ قامَ إلى الصلاةِ متهجدًا، لأنَّ المتهجدَ هوَ الذي يلقي الهجودَ الذي هوَ النومُ عنْ نفسهِ، ومثلهُ قولهُ تعالى: ﴿فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ﴾ معناهُ تندَمونَ، أيْ تطرحونَ الفكاهةَ عنْ أنفسكمْ، وهيَ انبساطُ النفوسِ وسرورها،يقالُ: رجلٌ فكهٌ إذا كانَ كثيرَ السرورِ والضحكِ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ أيْ كرامةً لكَ، واختلفَ العلماءُ في تخصيصِ النبيِّ ﷺ بالذكرِ دونَ أمتهِ، فقيلَ: كانتْ صلاةُ الليلِ فريضةٌ عليهِ لقولهِ: ﴿نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ أيْ فريضةً زائدةً على الفريضةِ الموظفةِ على الأمةِ.

قلتُ: وفي هذا التأويلِ بعدٌ لوجهينِ:

أحدهما: تسميةُ الفرضِ بالنفلِ، وذلكَ مجازٌ لا حقيقةٌ.

الثاني: قولهُ ﷺ: «خمسُ صلواتٍ فرضهنَّ اللهُ على العبادِ»، وقوله تعالى: هن خمس وهن خمسون ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ وهذا نصٌّ، فكيفَ يقالُ: افترض عليه صلاة زائدة على خمس، هذا ما لا يصحُّ، وإنْ كانَ قدْ روى عنه ﷺ: «ثلاثٌ عليَّ فريضةٌ ولأمتي تطوعٌ قيامُ الليلِ والوترُ والسواكُ». وقيل: كانتْ صلاةُ الليلِ تطوعًا منهُ وكانتْ في الابتداءِ واجبةً على الكلِّ، ثمَّ نسخَ الوجوبُ فصارَ قيامُ الليلِ تطوعًا بعدَ فريضةٍ، كما قالتْ عائشةُ، على ما يأتي مبينًا في سورةِ «المزملِ» إنْ شاءَ اللهُ تعالى. وعلى هذا يكونُ الأمر بالتنفلِ على جهةِ الندبِ ويكونُ الخطابُ للنبيِّ ﷺ، لأنهُ مغفورٌ لهُ. فهوَ إذا تطوعَ بما ليسَ بواجبٍ عليهِ كانَ ذلكَ زيادةٌ في الدرجاتِ. وغيرهُ منَ الأمةِ تطوعهمْ كفاراتٌ وتداركٌ لخللٍ يقعُ في الفرضِ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ اختلفَ في المقامِ المحمودِ على أربعةِ أقوالٍ:

الأولُ - وهوَ أصحها - الشفاعةُ للناسِ يومَ القيامةِ، وفي صحيحِ البخاريِّ عنِ ابنِ عمرَ قالَ: إنَّ الناسَ يصيرونَ يومَ القيامةِ جُثًا كلُّ أمةٍ تتبعُ نبيها تقولُ: يا فلانُ اشفعْ، حتى تنتهيَ الشفاعةُ إلى النبيِّ ﷺ، فذلكَ يومُ يبعثهُ اللهُ المقامَ المحمودَ.

وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ أنسٍ قالَ حدثنا محمدٌ ﷺ قالَ: «إذا كانَ يومُ القيامةِ ماجَ الناسُ بعضهمْ إلى بعضٍ فيأتونَ آدمَ فيقولونَ لهُ اشفعْ لذريتكَ فيقولُ لستُ لها ولكنْ عليكمْ بإبراهيمَ عليه السلام فإنهُ خليلُ اللهِ، فيأتونَ إبراهيمَ فيقولُ لستُ لها ولكنْ عليكمْ بموسى فإنهُ كليمُ اللهِ، فيؤتى موسى فيقولُ لستُ لها ولكنْ عليكمْ بعيسى ﷺ فإنهُ روحُ اللهِ وكلمتهُ، فيؤتى عيسى فيقولُ لستُ لها ولكنْ عليكمْ بمحمدٍ ﷺ فأوتى فأقولُ أنا لها» وذكرَ الحديثَ.

وروى الترمذيُّ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ في قولهِ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ سئلَ عنها قالَ: «هيَ الشفاعةُ» قالَ: هذا حديث حسن صحيح.

الثاني - أنَّ المقامَ المحمودَ إعطاؤهُ لواءَ الحمدِ يومَ القيامةِ. قلتُ: وهذا القولُ لا تنافرَ بينهُ وبينَ الأولِ، فإنهُ يكونُ بيدهِ لواءُ الحمدِ ويشفعُ. روى الترمذيُّ عنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ

قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أنا سيدُ ولدِ آدمَ يومَ القيامةِ ولا فخرَ وبيدي لواءُ الحمدِ ولا فخرَ وما منْ نبيٍّ آدمُ فمنْ سواهُ إلا تحتَ لوائي» الحديثَ.

الثالثُ- أن المقامُ المحمودُ أنْ يجلسَ الله تعالى محمدًا ﷺ معهُ على كرسيهِ.

الرابعُ- إخراجهُ منَ النارِ بشفاعتهِ منْ يخرجُ، قالهُ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ. ذكرهُ مسلمٌ.

الرابعة: إذا ثبتَ أنَّ المقامَ المحمودَ هوَ أمرُ الشفاعةِ الذي يتدافعهُ الأنبياءُ عليهمُ السلامُ، حتى ينتهيَ الأمر إلى نبينا محمدٍ ﷺ فإنه يشفعُ هذهِ الشفاعةَ لأهلِ الموقفِ ليعجل حسابهم ويراحوا من هول موقفهم، وهو الخاصةُ بهِ ﷺ، ولأجلِ ذلكَ قالَ: «أنا سيدُ ولدِ آدمَ ولا فخرَ».

والمشهورُ أن لرسولِ اللهِ ﷺ شفاعتانِ: العامةُ، وشفاعةٌ في إخراجِ المذنبينَ منَ النارِ. وهذهِ الشفاعةُ الثانيةُ لا يتدافعها الأنبياءُ بلْ يشفعونَ ويشفعُ العلماءُ، وهذهِ الشفاعةُ هيَ التي أنكرتها المبتدعةُ: الخوارجُ والمعتزلةُ، فمنعتها على أصولهمُ الفاسدةِ.

الخامسة: قالَ القاضي عياضٌ: وعرفَ بالنقلِ المستفيضِ سؤالُ السلفِ الصالح لشفاعةِ النبيِّ ﷺ ورغبتهمْ فيها، وكلُّ عاقلٍ معترفٌ بالتقصيرِ محتاجٌ إلى العفوِ غيرُ معتدٍّ بعملهِ مشفقٌ أنْ يكونَ منَ الهالكينَ.

روى البخاريُّ عنْ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «منْ قالَ حينَ يسمعُ النداءَ اللهمَّ ربِّ هذهِ الدعوةِ التامةِ والصلاة القائمة آت محمدا- ﷺ- الوسيلةَ والفضيلةَ وابعثهُ مقامًا محمودًا الذي وعدتهُ، حلتْ لهُ شفاعتي يومَ القيامةِ».

السادسة: اختلفَ العلماءُ في كونِ القيامِ بالليلِ سببًا للمقامِ المحمودِ على قولينِ:

أحدهما: أنَّ الباريَ تعالى يجعلُ ما شاءَ منْ فعلهِ سببًا لفضلهِ منْ غيرِ معرفةٍ بوجهِ الحكمةِ فيهِ، أوْ بمعرفةِ وجهِ الحكمةِ.

الثاني: أنَّ قيامَ الليلِ فيهِ الخلوةُ معَ الباريِ والمناجاةُ دونَ الناسِ، فأعطيَ الخلوةَ بهِ ومناجاتهُ في قيامهِ وهوَ المقامُ المحمودُ. ويتفاضلُ فيهِ الخلقُ بحسبِ درجاتهمْ، فأجلهمْ فيهِ درجةً محمدٌ ﷺ، فإنهُ يعطى ما لا يعطى أحدٌ ويشفعُ ما لا يشفع أحد.

و ﴿عَسَىٰ﴾ من الله عز وجل واجبة. و ﴿مَّقَامًا﴾ نصبَ على الظرفِ. أيْ في مقامٍ أوْ إلى مقامٍ.

وذكرَ الطبريُّ عنْ أبي هريرةَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «المقامُ المحمودُ هوَ المقامُ الذي أشفعُ فيهِ لأمتي». فالمقامُ الموضعُ الذي يقومُ فيهِ الإنسانُ للأمورِ الجليلةِ كالمقاماتِ بينَ يدي الملوكِ.

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾

قيلَ: المعنى أمتني إماتةَ صدقٍ، وابعثني يومَ القيامةِ مبعثَ صدقٍ، ليتصلَ بقولهِ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾.

وقيل: أدخلني في المأمورِ وأخرجني منَ المنهيِّ.

وقيل: إخراجهِ منْ بينِ المشركينَ وإدخالهِ موضعَ الأمنِ، فأخرجهُ منْ مكةَ وصيرهُ إلى المدينةِ.

وهذا المعنى رواهُ الترمذيُّ عنِ ابنِ عباسٍ قالَ: كانَ النبيُّ ﷺ بمكةَ ثمَّ أمرَ بالهجرةِ فنزلتْ ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ قالَ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وقيل: هوَ خروجهُ منْ مكةَ ودخولهُ مكةَ يومَ الفتحِ آمنًا.

وقيل: حينَ رجعَ منْ تبوكَ وقدْ قالَ المنافقونَ: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ يعني إدخالَ عزٍّ وإخراجَ نصرٍ إلى مكةَ.

وقيل: المعنى أدخلني في الأمرِ الذي أكرمتني بهِ منَ النبوةِ مدخلَ صدقٍ وأخرجني منهُ مخرجَ صدقٍ إذا أمتني.

والمُدخلُ والمُخرجُ «بضمِّ الميمِ» بمعنى الإدخالِ والإخراجِ، كقولهِ: ﴿أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ أيْ إنزالًا لا أرى فيهِ ما أكرهُ. وهيَ قراءةُ العامةِ.

وقيل: أدخلني القبرَ مدخلَ صدقٍ عندَ الموتِ وأخرجني مخرجَ صدقٍ عندَ البعثِ.

وقيل: أدخلني حيثما أدخلتني بالصدقِ وأخرجني بالصدقِ، أيْ لا تجعلني ممنْ يدخلُ بوجهٍ ويخرجُ بوجهٍ، فإنَّ ذا الوجهينِ لا يكونُ وجيهًا عندكَ.

وقيل: الآيةُ عامةٌ في كلِّ ما يتناولُ منَ الأمورِ ويحاولُ منَ الأسفارِ والأعمالِ، وينتظرُ منْ تصرفِ المقاديرِ في الموتِ والحياةِ. فهيَ دعاءٌ، ومعناهُ: ربِّ أصلحْ لي وردي في كل الأمور.

وقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ أيْ حجةً ثابتةً. وقيل العزُّ والنصرُ وإظهارُ دينهِ على الدينِ كلهِ.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: روى البخاريُّ والترمذيُّ عنِ ابنِ مسعودٍ قالَ: دخلَ النبيُّ ﷺ مكةَ عامَ الفتح وحولَ الكعبةِ ثلاثمائةٍ وستونَ نصبًا، فجعلَ النبيُّ ﷺ يطعنها بمخصرةٍ في يدهِ- وربما قالَ بعودٍ- ويقولُ: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ لفظُ الترمذيِّ. وقالَ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وكذا في حديثِ مسلمٍ «نصبًا». وفي روايةٍ صنمًا.

الثانية: في هذهِ الآيةِ دليلٌ على كسرِ نصبِ المشركينَ وجميعِ الأوثانِ إذا غلب عليهم، ويدخل بالمعنى كسرُ آلةِ الباطلِ كلهِ، وما لا يصلحُ إلا لمعصيةِ اللهِ كالطنابيرِ والعيدانِ والمزاميرِ التي لا معنى لها إلا اللهوُ بها عنْ ذكرِ اللهِ تعالى.

قالَ ابنُ المنذرِ: وفي معنى الأصنامِ الصورُ المتخذةُ منَ المدرِ والخشبِ وشبهها، وكلُّ ما يتخذهُ الناسُ مما لا منفعةَ فيهِ إلا اللهوُ المنهيُّ عنهُ. ولا يجوز بيع شيء منهُ إلا الأصنامَ التي تكونُ منَ الذهبِ والفضةِ والحديدِ والرصاصِ، إذا غيرتْ عما هيَ عليهِ وصارتْ نقرًا أوْ قطعًا فيجوزُ بيعها والشراءُ بها.

قالَ المهلبُ: وما كسرَ منَ آلاتِ الباطلِ وكانَ في حبسها بعدَ كسرها منفعةٌ فصاحبها

أولى بها مكسورةً، إلا أنْ يرى الإمامُ حرقها بالنارِ على معنى التشديدِ والعقوبةِ في المالِ، وقدْ همَّ النبيُّ ﷺ بتحريقِ دورِ منْ تخلفَ عنْ صلاةِ الجماعةِ. وهذا أصلٌ في العقوبةِ في المالِ معَ قولهِ ﷺ في الناقة التي لعنتها صاحبتها: «دعوها فإنها ملعونةٌ» فأزالَ ملكها عنها تأديبًا لصاحبتها، وقدْ أراقَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لبنًا شيبَ بماءٍ على صاحبهِ.

الثالثة: ما ذكرنا منْ تفسيرِ الآيةِ ينظرُ إلى قولهِ ﷺ: «والله لينزلن عيسى بن مريمَ حكمًا عادلًا فليكسرنَّ الصليبَ وليقتلنَّ الخنزيرَ وليضعنَّ الجزيةَ ولتتركنَّ القلاصُ فلا يسعى عليها» الحديثَ. خرجهُ الصحيحانِ. ومنْ هذا البابِ هتكُ النبيِّ ﷺ السترِ الذي فيهِ الصورُ، وذلكَ أيضًا دليلٌ على إفسادِ الصورِ وآلاتِ الملاهي كما ذكرنا. وهذا كلهُ يحظر المنعَ منَ اتخاذها ويوجبُ التغييرَ على صاحبها. وإنَّ أصحابَ هذهِ الصورِ يعذبونَ يومَ القيامةِ ويقالُ لهمْ: أحيوا ما خلقتمْ، وحسبكَ!.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي الإسلامُ. وقيل: القرآنُ، وقيل: الجهادُ ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ قيلَ الشركُ. وقيلَ: الشيطانُ، والصوابُ تعميمُ اللفظِ بالغايةِ الممكنةِ ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾: بطلَ الباطلُ. ومنْ هذا زهوقُ النفسِ وهوَ بطلانها. يقالُ زهقتْ نفسهُ تزهقُ زهوقًا، وأزهقتها ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ أيْ لا بقاء له والحق الذي يثبت.

قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾، فيهِ سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ﴾ قرأَ الجمهورُ بالنونِ. وقرأ مجاهدٌ «وَيُنْزِلُ» بالياء خفيفة، ورواها المروزي عن حفص. و﴿مِنَ﴾ لابتداءِ الغايةِ، ويصحُّ أنْ تكونَ لبيانِ الجنسِ، كأنهُ قالَ: وننزلُ ما فيهِ شفاءٌ منَ القرآنِ. وفي الخبر «منْ لمْ يستشفِ بالقرآنِ فلا شفاهُ اللهُ». وأنكرَ بعضُ المتأولينَ أنْ تكونَ «منَ» للتبعيضِ، لأنهُ يُحفظُ منْ أنْ يلزمهُ أنَّ بعضهُ لا شفاءَ فيهِ.

الثانية: اختلفَ العلماءُ في كونهِ شفاءً على قولينِ:

أحدهما: أنهُ شفاءٌ للقلوبِ بزوالِ الجهلِ عنها وإزالةِ الريبِ، ولكشفِ غطاءِ القلبِ منْ

مرضِ الجهلِ لفهمِ المعجزاتِ والأمورِ الدالةِ على اللهِ تعالى.

الثاني: شفاءٌ منَ الأمراضِ الظاهرةِ بالرقى والتعوذِ ونحوِهِ. وقدْ روى الأئمةُ- واللفظُ للدارقطنيِّ- عنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ قالَ: بعثنا رسولُ اللهِ ﷺ في سريةٍ ثلاثينَ راكبًا قالَ: فنزلنا على قومٍ منَ العربِ فسألناهمْ أنْ يضيفونا فأبوا، قالَ: فلدغَ سيدُ الحيِّ، فأتونا فقالوا: فيكمْ أحدٌ يرقي منَ العقربِ؟ قالَ: قلتُ أنا نعمْ، ولكنْ لا أفعلُ حتى تعطونا. فقالوا: فإنا نعطيكمْ ثلاثينَ شاةً. قالَ: فقرآتُ عليهِ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ سبعَ مراتٍ فبرأَ، فبعثَ إلينا بالنزلِ وبعثَ إلينا بالشاءِ، فأكلنا الطعامَ أنا وأصحابي وأبوا أنْ يأكلوا منَ الغنمِ، حتى أتينا رسولَ اللهِ ﷺ فأخبرتهُ الخبرَ فقالَ: «وما يدريكَ أنها رقيةٌ».

وروى البخاريُّ عنْ عائشةَ أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ ينفثُ على نفسهِ في المرضِ الذي ماتَ فيهِ بالمعوذاتِ فلما ثقلَ كنتُ أنفثُ عليهِ بهنَّ وأمسحُ بيدِ نفسهِ لبركتها.

قالَ اللغويونَ تفسيرُ «نفثَ» نفخَ نفخا ليسَ معهُ ريقٌ. ومعنى: «تفلَ» نفخَ نفخًا معهُ ريقٌ.

الثالثة: روى ابنُ مسعودٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يكرهُ الرقى إلا بالمعوذاتِ. قالَ الطبريُّ: وهذا حديثٌ لا يجوزُ الاحتجاجُ بمثلهِ في الدينِ، إذْ في نقلتهِ منْ لا يعرفُ. ولوْ كانَ صحيحًا لكانَ إما غلطًا وإما منسوخًا، لقولهِ ﷺ في الفاتحةِ «ما أدراكَ أنها رقيةٌ». وإذا جازَ الرقيُ بالمعوذتينِ وهما سورتانِ منَ القرآنِ كانتِ الرقيةُ بسائرِ القرآنِ مثلهما في الجوازِ إذْ كلهُ قرآنٌ. ورويَ عنه ﷺ أنه قال: «شفاء أمته في ثلاثٍ: آيةٍ منْ كتابِ اللهِ أوْ لعقةٍ منْ عسلٍ أوْ شرطةٍ منْ محجمٍ».

الرابعة: واختلفَ العلماءُ في النشرةِ، وهيَ أنْ يكتبَ شيئًا منْ أسماءِ اللهِ أوْ منَ القرآنِ ثمَّ يغسلهُ بالماءِ ثمَّ يمسحُ بهِ المريضَ أوْ يسقيهُ، فأجازها سعيدُ بنُ المسيبِ. قيلَ لهُ: الرجلُ يؤخذُ عنِ امرأتهِ أيحلُّ عنهُ وينشرُ؟ قالَ: لا بأسَ بهِ، وما ينفعُ لمْ ينهَ عنهُ.

ولمْ يرَ مجاهدٌ أنْ تكتبَ آياتٌ منَ القرآنِ ثمَّ تغسلُ ثمَّ يسقاهُ صاحبُ الفزعِ. وكانتْ عائشةُ تقرأُ بالمعوذتينِ في إناءٍ ثمَّ تأمرُ أنْ يصبَّ على المريضِ. وقالَ المازريَّ أبو عبدِ اللهِ: النشرةُ أمرٌ معروفٌ عندَ أهلِ التعزيمِ، وسميتْ بذلكَ لأنها تنشرُ عنْ صاحبها أيْ تحلُّ.

ومنعها الحسنُ وإبراهيمُ النخعيُّ، وقدْ روى أبو داودَ منْ حديثِ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ قالَ: سئلَ رسولُ اللهِ ﷺ عنِ النشرةِ فقالَ: «منْ عملِ الشيطانِ».

قالَ ابنُ عبدِ البرِّ. وهذهِ آثارٌ لينةٌ ولها وجوهٌ محتملةٌ، وقدْ قيلَ: إنَّ هذا محمولٌ على ما إذا كانتْ خارجةً عما في كتابِ اللهِ وسنة رسوله ﷺ، وعنِ المداواةِ المعروفةِ.

والنشرةُ منْ جنسِ الطبِّ فهيَ غسالة شيء لهُ فضلٌ، فهيَ كوضوءِ رسولِ اللهِ ﷺ. وقالَ ﷺ: «لا بأسَ بالرقى ما لمْ يكنْ فيهِ شركٌ ومنِ استطاعَ منكمْ أنْ ينفعَ أخاهُ فليفعلْ».

قلتُ: قدْ ذكرنا النصَّ في النشرةِ مرفوعًا وأنَّ ذلكَ لا يكونُ إلا منْ كتابِ اللهِ فليعتمدْ عليهِ.

الخامسة: قالَ مالكٌ: لا بأسَ بتعليقِ الكتبِ التي فيها أسماءُ اللهِ عزَّ وجلَّ على أعناقِ المرضى على وجهِ التبركِ بها إذا لمْ يردْ معلقها بتعليقها مدافعةَ العينِ. وهذا معناهُ قبلَ أن ينزل به شيء منَ العينِ. وعلى هذا القولِ جماعةُ أهلِ العلمِ، لا يجوزُ عندهمْ أنْ يعلقَ على الصحيح من البهائم أو بنى آدم شيء منَ العلائقِ خوفَ نزولِ العينِ، وكلُّ ما يعلقُ بعدَ نزولِ البلاءِ منْ أسماءِ اللهِ عزَّ وجلَّ وكتابهِ رجاءَ الفرجِ والبرءِ منَ اللهِ تعالى، فهوَ كالرقى المباحِ الذي وردتِ السنةُ بإباحتهِ منَ العينِ وغيرها.

فإن قيل: فقدْ رويَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «منْ علقَ شيئًا وكلَ إليهِ». ورأى ابنُ مسعودٍ على أمِّ ولدهِ تميمةً مربوطةً فجبذها جبذًا شديدًا فقطعها وقالَ: إنَّ آلَ ابنِ مسعودٍ لأغنياءُ عنِ الشركِ، ثمَّ قالَ: إنَّ التمائمَ والرقى والتولةَ منَ الشركِ. قيلَ: ما التولةُ؟ قالَ: ما تحببتْ بهِ لزوجها.

ورويَ عنْ عقبةَ بنِ عامرٍ الجهنيِّ قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «منْ علقَ تميمةً فلا أتمَّ اللهُ له ومنْ علقَ ودعةً فلا ودعَ اللهُ لهُ قلبًا».

قلنا: التميمةُ في كلامِ العربِ القلادةُ، فيها عوذٌ، والودعةُ خرزٌ. ومعناهُ عندَ أهلِ العلمِ ما علقَ في الأعناقِ منَ القلائد خشية العين أو غيرها من أنواع البلاء أن تنزلَ أوْ لا تنزلَ قبلَ أنْ تنزلَ. فلا أتمَّ اللهُ عليهِ صحتهُ وعافيتهُ، ومنْ تعلقَ ودعةً - وهيَ مثلها في المعنى - فلا ودعَ اللهُ

لهُ، أيْ فلا باركَ اللهُ لهُ ما هوَ فيهِ منَ العافيةِ. واللهُ أعلمُ.

وهذا كلهُ تحذيرٌ مما كانَ أهلُ الجاهليةِ يصنعونهُ منْ تعليقِ التمائمِ والقلائدِ، ويظنونَ أنها تقيهمْ وتصرفُ عنهمُ البلاءَ، وذلكَ لا يصرفهُ إلا اللهُ عزَّ وجلَّ، وهوَ المعافي والمبتلي، لا شريكَ لهُ. فنهاهمْ رسولُ اللهِ ﷺ عما كانوا يصنعونَ منْ ذلكَ في جاهليتهمْ.

وعنْ عائشةَ قالتْ: ما تعلقَ بعدَ نزولِ البلاءِ فليسَ منَ التمائمِ. وقدْ كرهَ بعضُ أهلِ العلمِ تعليقَ التميمةِ على كلِّ حالٍ قبلَ نزولِ البلاءِ وبعدهُ. والقولُ الأولُ أصحُّ في الأثرِ والنظرِ إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

وما رويَ عنِ ابنِ مسعودٍ يجوزُ أنْ يريدَ بما كرهَ تعليقه غير القرآن أشياء مأخوذة عن العراقيين والكهانِ، إذْ الاستشفاءُ بالقرآنِ معلقًا وغيرَ معلقٍ لا يكونُ شركًا، وقولهُ ﷺ: «منْ علقَ شيئًا وكلَ إليهِ» فمنْ علقَ القرآنَ ينبغي أنْ يتولاهُ اللهُ ولا يكلهُ إلى غيرهِ، لأنهُ تعالى هوَ المرغوبُ إليهِ والمتوكلُ عليه في الاستشفاء بالقرآن. وسئل ابنُ المسيبِ عنِ التعويذِ أيعلقُ؟ قالَ: إذا كانَ في قصبةٍ أوْ رقعةٍ يحرزُ فلا بأسَ بهِ. وهذا على أنَّ المكتوبَ قرآنٌ.

وعنِ الضحاكِ أنهُ لمْ يكنْ يرى بأسًا أنْ يعلقَ الرجلُ الشيءَ منْ كتابِ اللهِ إذا وضعهُ عندَ الجماعِ وعندَ الغائطِ. ورخصَ أبو جعفرٍ محمدُ بنُ عليٍّ في التعويذِ يعلقُ على الصبيانِ. وكانَ ابنُ سيرينَ لا يرى بأسًا بالشيءِ منَ القرآنِ يعلقهُ الإنسانُ.

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ تفريجُ الكروبِ وتطهيرُ العيوبِ وتكفيرُ الذنوبِ معَ ما تفضلَ بهِ تعالى منَ الثوابِ في تلاوتهِ، كما روى الترمذيُّ عنْ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «منْ قرأَ حرفًا منْ كتابِ اللهِ فلهُ بهِ حسنةٌ والحسنةُ بعشرِ أمثالها لا أقولُ الم حرفٌ بلْ ألفٌ حرفٌ ولامٌ حرفٌ وميمٌ حرفٌ». قالَ هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ. وقدْ تقدمَ ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٢﴾ لتكذيبهم.

ونظيرُ هذهِ الآيةِ قولهُ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ﴾. وقيل: شفاءٌ في الفرائضِ والأحكامِ لما فيهِ منَ البيان.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أيْ هؤلاءِ الذينَ يزيدهمُ القرآنُ خسارًا صفتهمُ الإعراضُ عنْ تدبرِ آياتِ اللهِ والكفرانِ لنعمهِ، ومعنى: ﴿نَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أيْ تكبرَ وتباعدَ، وقرأَ ابنُ عامرٍ في روايةِ ابنِ ذكوانَ «نَاءَ» مثلُ باعَ، الهمزةُ مؤخرةٌ، وهوَ على طريقةِ القلبِ منْ نأى، كما يقالُ: راءَ ورأى. وقيل: هوَ منَ النوءِ وهوَ النهوضُ والقيامُ. وقدْ يقالُ أيضًا للوقوعِ والجلوسِ نوءٌ، وهو من الأضداد ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ٨٣﴾ أيْ إذا نالهُ شدةٌ منْ فقرٍ أوْ سقمٍ أوْ بؤسٍ يئسَ وقنطَ، لأنهُ لا يثق بفضل الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ المعنى: أنَّ كلَّ أحدٍ يعملُ على ما يشاكلُ أصلهُ وأخلاقهُ التي ألفها، وهذا ذمٌّ للكافرِ ومدحٌ للمؤمنِ ﴿فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ٨٤﴾ أيْ بالمؤمنِ والكافرِ وما سيحصلُ منْ كلِّ واحدٍ منهمْ. وقيل: ﴿أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا﴾ أيْ أسرعُ قبولًا. وقيل: أحسنُ دينًا.

قوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾

روى البخاريُّ ومسلمٌ عنْ عبدِ اللهِ قالَ: بينا أنا معَ النبيِّ ﷺ في حرثٍ وهوَ متكئٌ على عسيبٍ إذْ مرَّ اليهودُ فقالَ بعضهمْ لبعضٍ: سلوهُ عنِ الروحِ. فقالَ: ما رابكمْ إليهِ؟ وقالَ بعضهمْ: لا يستقبلكمْ بشيءٍ تكرهونهُ. فقالوا: سلوهُ. فسألوهُ عنِ الروحِ فأمسكَ النبيُّ ﷺ فلمْ يردَّ عليهمْ شيئًا، فعلمتُ أنهُ يوحى إليهِ، فقمتُ مقامي، فلما نزلَ الوحى قال: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ لفظُ البخاريِّ.

وقدِ اختلفَ الناسُ في الروحِ المسئولِ عنهُ، أيُّ الروحِ هوَ؟ فقيلَ: هوَ جبريلُ، وقيلَ: هوَ عيسى. وقيلَ: القرآنُ، وذهبَ أكثرُ أهلِ التأويلِ إلى أنهمْ سألوهُ عنِ الروحِ الذي يكونُ بهِ حياةُ الجسدِ. وقالَ أهلُ النظرِ منهمْ: إنما سألوهُ عنْ كيفيةِ الروحِ ومسلكهِ في بدنِ الإنسانِ، وكيفَ

امتزاجهُ بالجسمِ واتصالُ الحياةِ بهِ، وهذا شيء لا يعلمهُ إلا اللهُ عزَّ وجلَّ.

﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أيْ هوَ أمرٌ عظيمٌ وشأنٌ كبيرٌ منْ أمرِ اللهِ تعالى، وإذا كانَ الإنسانُ في معرفةِ نفسهِ هكذا كانَ بعجزهِ عنْ إدراكِ حقيقةِ الحقِّ أولى. وحكمةُ ذلكَ تعجيزُ العقلِ عنْ إدراكِ معرفةِ مخلوقٍ مجاورٍ لهُ، دلالةٌ على أنهُ عنْ إدراكِ خالقهِ أعجزُ.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ اختلفَ فيمنْ خوطبَ بذلكَ، فقالتْ فرقةٌ: السائلونَ فقطْ. وقالَ قومٌ: المرادُ اليهودُ بجملتهمْ، وقالت فرقة: المرادُ العالمُ كلهُ. وهوَ الصحيحُ، وعليهِ قراءةُ الجمهورِ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾. وقدْ قالتِ اليهودُ للنبيِّ ﷺ: كيف لم نوت منَ العلمِ إلا قليلًا وقدْ أوتينا التوراةَ وهيَ الحكمةُ، ومنْ يؤتَ الحكمةَ فقدْ أوتيَ خيرًا كثيرًا؟ فعارضهمْ رسولُ اللهِ ﷺ بعلمِ اللهِ فغلبوا.

وفي هذا المعنى نزلتْ ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾.

وقدْ قيلَ: إنَّ السائلينَ عنِ الروحِ همْ قريشٌ، قالتْ لهمُ اليهودُ: سلوهُ عنْ أصحابِ الكهفِ وعنْ ذي القرنينِ وعنِ الروحِ فإنْ أخبركمْ عنِ اثنينِ وأمسكَ عنْ واحدةٍ فهوَ نبيٌّ، فأخبرهمْ خبرَ أصحابِ الكهفِ وخبرَ ذي القرنينِ على ما يأتي. وقالَ في الروحِ: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أيْ منَ الأمرِ الذي لا يعلمهُ إلا اللهُ.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يعني القرآنَ ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾﴾ أيْ ناصرًا يردهُ عليكَ ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ يعني لكن لإنشاء ذلك رحمةً منْ ربكَ، فهوَ استثناءٌ ليسَ منَ الأولِ. وقيل: إلا أنْ يرحمكَ ربكَ فلا يذهبَ بهِ ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾ إذْ جعلكَ سيدَ ولدِ آدمَ، وأعطاكَ المقامَ المحمودَ وهذا الكتابَ العزيزَ.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾

أي عوينا ونصيرا، مثل ما يتعاونُ الشعراءُ على بيتِ شعرٍ فيقيمونهُ. نزلتْ حينَ قالَ الكفارُ: لوْ نشاءُ لقلنا مثلَ هذا، فأكذبهمُ اللهُ تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أيْ وجهنا القولَ فيهِ بكلِّ مثلٍ يجبُ بهِ الاعتبارُ، منَ الآياتِ والعبرِ والترغيبِ والترهيبِ، والأوامرِ والنواهي وأقاصيصِ الأولينَ، والجنةِ والنارِ والقيامةِ ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ يريدُ أهلَ مكةَ، بينَ لهمُ الحقَّ وأمهلهمْ حتى تبينَ لهمْ أنهُ الحقُّ، فأبوا إلا الكفرَ.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ الآيةُ نزلتْ في رؤساءِ قريشٍ مثل عتبةَ وشيبةَ ابنيْ ربيعةَ، وأبي سفيانَ والنضرِ بنِ الحارثِ، وأبي جهلٍ وعبدِ اللهِ بنِ أبي أميةَ، وأميةَ بنِ خلفٍ وأبي البختريِّ، والوليدِ بنِ المغيرةِ وغيرهمْ. وذلكَ أنهمْ لما عجزوا عنْ معارضةِ القرآنِ ولمْ يرضوا بهِ معجزةً، اجتمعوا - فيما ذكرَ ابنُ إسحاقَ وغيرهُ - بعدَ غروبِ الشمسِ عندَ ظهرِ الكعبةِ، ثمَّ قالَ بعضهمْ لبعضٍ: ابعثوا إلى محمدٍ ﷺ فكلموهُ وخاصموهُ حتى تعذروا فيهِ، فبعثوا إليهِ أنَّ أشرافَ قومكَ قدِ اجتمعوا إليكَ ليكلموكَ فأتهمْ، فجاءهمْ رسولُ اللهِ ﷺ وهوَ يظنُّ أنْ قدْ بدا لهمْ فيما كلمهمْ فيهِ بدوٌ، وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ حريصًا يحبُّ رشدهمْ ويعزُّ عليهِ عنتهمْ، حتى جلسَ إليهمْ فقالوا لهُ وأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ يعني العيونَ، وقرأ عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ «تَفْجُرَ لَنَا» مخففةً، واختارهُ أبو حاتمٍ لأنَّ الينبوعَ واحدٌ. ولمْ يختلفوا في تفجرِ الأنهارَ أنهُ مشددٌ، والتشديدُ يدلُّ على التكثيرِ ﴿خِلَٰلَهَا﴾ أيْ وسطها ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ﴾ قراءةُ العامةِ. وقرأ مجاهدٌ «أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ» على إسنادِ الفعلِ إلى السماءِ «كِسَفًا» قطعًا، والكسَفُ «بفتحِ السينِ» جمعُ كسفةٍ، وهيَ قراءةُ نافعٍ وابنِ عامرٍ وعاصمٍ. الباقونَ: ﴿كِسْفًا﴾ بإسكانِ السينِ.

﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ جمعُ القبيلةِ، أيْ بأصنافِ الملائكةِ قبيلةً قبيلةً. ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ أيْ منْ ذهبٍ، والمزخرفُ المزينُ ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أيْ تصعدُ ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أيْ منْ أجلِ رقيكَ، وهوَ مصدرٌ، نحوُ مضى

يمضي مضيًا، وهوى يهوي هويًا، كذلكَ رقيَ يرقى رقيًا ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ أيْ كتابًا منَ اللهِ تعالى إلى كلِّ رجلٍ منا، كما قالَ تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾. ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ وقرأ أهلُ مكةَ والشامِ «قَالَ سُبْحَانَ رَبِّي» يعني النبيَّ ﷺ، أيْ قالَ ذلكَ تنزيهًا للهِ عزَّ وجلَّ عنْ أنْ يعجز عن شيء وعنْ أنْ يعترضَ عليهِ في فعلٍ. وقيل: هذا كلهُ تعجبٌ عنْ فرطِ كفرهمْ واقتراحاتهمْ. الباقونَ: ﴿قُلْ﴾ على الأمر، أيْ قلْ لهمْ يا محمد ﴿هَلْ كُنتُ﴾ أيْ ما أنا ﴿إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ أتبعُ ما يوحى إليَّ منْ ربي، ويفعلُ اللهُ ما يشاءُ مما ليس في قدرةِ البشرِ، فهلْ سمعتمْ أحدًا منَ البشرِ أتى بهذهِ الآياتِ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ يعني الرسلَ والكتبَ من عند الله بالدعاء إليه ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ جهلا منهم ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ أي الله أجل من أن يكون رسوله من البشر. فبين الله تعالى فرط عنادهم لأنهم قالوا: أنت مثلنا فلا يلزمنا الانقياد، وغفلوا عن المعجزة. فـ ﴿أن﴾ الأولى في محلِّ نصبٍ بإسقاطِ حرفِ الخفضِ. وَ﴿أن﴾ الثانيةُ في محلِّ رفعٍ بـ ﴿مَنَعَ﴾ أيْ وما منعَ الناسَ منْ أنْ يؤمنوا إذْ جاءهمُ الهدى إلا قولهمْ أبعثَ اللهُ بشر رسولا.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾

أعلم أن اللهُ تعالى أنَّ الملكَ إنما يرسلُ إلى الملائكةِ، لأنهُ لوْ أرسلَ ملكًا إلى الآدميينَ لمْ يقدروا أنْ يروهُ على الهيئةِ التي خلقَ عليها، وإنما أقدرَ الأنبياءَ على ذلكَ وخلقَ فيهمْ ما يقدرونَ بهِ، ليكونَ ذلكَ آيةً لهمْ ومعجزةً، نظير هذه الآية، وهو قوله: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾

يروى أنَّ كفارَ قريشٍ قالوا حينَ سمعوا قولهُ ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾: فمنْ يشهدُ

لكَ أنكَ رسولُ اللهِ. فنزلَت.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ﴾ فلوْ هداهمُ اللهُ لاهتدوا ﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ﴾ فلا يهديهمْ أحدٌ.

قوله تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾، فيهِ وجهانِ:

أحدهما- أنَّ ذلكَ عبارةٌ عنِ الإسراعِ بهمْ إلى جهنمَ، منْ قولِ العربِ: قدمَ القومُ على وجوههمْ إذا أسرعوا.

الثاني- أنهمْ يسحبونَ يومَ القيامةِ على وجوههمْ إلى جهنمَ كما يفعلُ في الدنيا بمنْ يبالغُ في هوانهِ وتعذيبهِ. وهذا هوَ الصحيحُ، لحديثِ أنسٍ أنَّ رجلًا قالَ: يا رسولَ اللهِ، الذينَ يحشرونَ على وجوههمْ، أيحشرُ الكافرُ على وجههِ؟ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أليسَ الذي أمشاهُ على الرجلينِ قادرًا على أنْ يمشيهُ على وجههِ يومَ القيامةِ» : قالَ قتادةُ حينَ بلغهُ: بلى وعزةِ ربنا. أخرجهُ البخاريُّ ومسلمٌ وحسبكَ.

﴿عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ﴾ عميٌ عما يسرهمْ، بكمٌ عنِ التكلمِ بحجةٍ، صمٌّ عما ينفعهمْ، وعلى هذا القولِ حواسهمْ باقيةٌ على ما كانتْ عليهِ. وقيل: إنهمْ يحشرونَ على الصفةِ التي وصفهمُ اللهُ بها، ليكونَ ذلكَ زيادةٌ في عذابهمْ، ثمَّ يخلقُ ذلكَ لهمْ في النارِ، فأبصروا، لقولهِ تعاليْ: ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾، وتكلموا، لقولهِ تعالى: ﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾، وسمعوا، لقولهِ تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا﴾.

وقيل: إذا قيل لهم ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ صاروا عميًا لا يبصرونَ صمًا لا يسمعونَ بكمًا لا يفقهونَ. **وقيل**: عموا حينَ دخلوا النارَ لشدةِ سوادها، وانقطعَ كلامهمْ حينَ قيلَ لهمْ: اخسئوا فيها ولا تكلمونِ. وذهبَ الزفيرُ والشهيقُ بسمعهمْ فلمْ يسمعوا شيئًا.

قوله تعالى: ﴿مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ أيْ مستقرهمْ ومقامهمْ ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ﴾ أي سكنت. ﴿زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ٩٧﴾ أي نار تتلهبُ. وسكونُ التهابها منْ غيرِ نقصانٍ في آلامهمْ ولا تخفيفٍ عنهمْ منْ عذابهمْ. وقيل: إذا أرادتْ أنْ تخبوَ. كقولهِ: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي ذلك العذاب جزاء كفرهم ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ أي ترابا ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ٩٨﴾ فأنكروا البعثَ فأجابهمُ اللهُ تعالى فقالَ: ﴿۞أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾، وقيل: هوَ جوابُ قولهمْ: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾. وقيل: وهوَ يومُ القيامةِ.

﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ٩٩﴾ أي المشركونَ إلا جحودًا بذلكَ الأجلِ وبآياتِ اللهِ. وقيل: ذلكَ الأجلُ هوَ وقتُ البعثِ، ولا ينبغي أنْ يشك فيه.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾ أيْ خزائنَ الأرزاقِ. وقيل: خزائنَ النعم، وهذا أعمُّ ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ منَ البخلِ، وهوَ جوابُ قولهمْ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ حتى نتوسعَ في المعيشةِ. أيْ لوْ توسعتمْ لبخلتمْ أيضًا. وقيل: المعنى لوْ ملكَ أحدُ المخلوقينَ خزائنَ اللهِ لما جادَ بها كجودِ اللهِ تعالى، لأمرينِ:

أحدهما- أنهُ لا بدَّ أنْ يمسكَ منها لنفقتهِ وما يعودُ بمنفعتهِ.

الثاني- أنهُ يخافُ الفقرَ ويخشى العدمَ. واللهُ تعالى يتعالى في جودهِ عنْ هاتينِ الحالتينِ.

والإنفاقُ في هذهِ الآيةِ بمعنى الفقرِ، وحكى أهلُ اللغةِ أنفقَ وأصرمَ وأعدمَ وأقترَ إذا قلَّ مالهُ ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ١٠٠﴾ أيْ بخيلًا مضيقًا. يقالُ: قترَ على عيالهِ يقترُ ويقترُ قترًا وقتورًا إذا ضيقَ عليهمْ في النفقةِ، وكذلكَ التقتيرُ والإقتارُ، ثلاثُ لغاتٍ. واختلفَ في هذهِ الآيةِ على قولينِ:

أحدهما- أنها نزلتْ في المشركينَ خاصةً.

و**الثاني**- أنها عامةٌ، وهوَ قولُ الجمهورِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ اختلفَ في هذهِ الآياتِ، فقيلَ: الآياتُ التسعُ: العصا واليدُ واللسانُ والبحرُ والطوفانُ والجرادُ والقملُ والضفادعُ والدمُ، آياتٌ مفصلاتٌ. وقيل: الخمس المذكورة في «الأعراف»، أي الطوفانَ وما عطفَ عليهِ، واليدَ والعصا والسنينَ والنقصَ منَ الثمراتِ،وقيل: هيَ الخمسُ التي في الأعرافِ والبحرُ والعصا والحجرُ والطمسُ على أموالهِمْ.

﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ أيْ سلهمْ يا محمدُ إذْ جاءهمْ موسى بهذهِ الآياتِ، وهذا سؤالُ استفهامٍ ليعرفَ اليهودُ صحةَ ما يقولُ محمدٌ ﷺ ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ أيْ ساحرًا بغرائبِ أفعالك، وقيلَ: مخدوعًا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعنى الآيات التسع. و ﴿أَنزَلَ﴾ بمعنى أوجدَ ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ أيْ دلالاتٍ يستدلُّ بها على قدرتهِ ووحدانيتهِ.

وقراءةُ العامةِ ﴿عَلِمْتَ﴾ بفتحِ التاءِ خطابًا لفرعونَ. وقرأ الكسائيُّ بضمِّ التاءِ، واحتُجَّ للأولى بقولهِ تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾. ونسبَ فرعونَ إلى العنادِ، ولأنَّ موسى لا يحتجُّ بقولهِ: علمتُ أنا، وهوَ الرسولُ الداعي ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ الظنُّ هنا بمعنى التحقيقِ. والثبورُ: الهلاكُ والخسرانُ أيضًا.

قوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أيْ أرادَ فرعونُ أنْ يخرجَ موسى وبنى إسرائيل من أرض مصر بالقتلِ أوِ الإبعادِ، ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أيْ منْ بعدِ إغراقهِ ﴿لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ أيْ أرضَ الشامِ ومصرَ ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أيِ القيامةِ ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ أيْ منْ قبوركمْ مختلطينَ منْ كلِّ موضعٍ، قدِ اختلطَ المؤمنُ بالكافرِ لا يتعارفونَ ولا ينحازُ أحدٌ منكمْ إلى قبيلتهِ وحيهِ.

وقيل: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يعني مجيء عيسى عليه السلام من السماء.

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ الكنايةُ ترجعُ إلى القرآنِ. ووجهُ التكريرِ في قولهِ: ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ معنى الأولِ: أوجبنا إنزالهُ بالحقِّ. ومعنى **الثاني**: ونزلَ وفيهِ الحقُّ، كقوله خرجَ بثيابهِ، أيْ وعليهِ ثيابهُ. وقيلَ: الباءُ في ﴿وَبِٱلْحَقِّ﴾ الأولُ بمعنى معَ، أيْ معَ الحقِّ، كقولكَ ركبَ الأميرُ بسيفهِ أيْ معَ سيفهِ. ﴿وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ أيْ بمحمدٍ ﷺ، أيْ نزلَ عليهِ، كما تقولُ نزلتُ بزيدٍ. وقيل: يجوزُ أنْ يكونَ المعنى وبالحقِّ قدرنا أن ينزل، وكذلك نزل. ﴿وما أَرْسَلْناكَ إلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً ١٠٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ مذهبُ سيبويهِ أنَّ ﴿قُرْءَانًا﴾ منصوبٌ بفعلٍ مضمرٍ يفسرهُ الظاهرُ. وقرأ جمهورُ الناسِ ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾ بتخفيفِ الراءِ، ومعناهُ بيناهُ وأوضحناهُ، وفرقنا فيهِ بينَ الحقِّ والباطلِ، واختلفَ في كمْ نزلَ القرآنُ منَ المدةِ، فقيلَ: في خمسٍ وعشرينَ سنةً، وقيل: في ثلاثٍ وعشرينَ. وقيل: في عشرينَ. وهذا بحسبِ الخلافِ في سنِّ رسولُ اللهِ ﷺ، ولا خلافَ أنهُ نزلَ إلى السماءِ الدنيا جملةً واحدةً.

﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أيْ تطاولٍ في المدةِ شيئا بعد شيء آيةً آيةً وسورةً سورةً.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ١٠٦﴾ مبالغةٌ وتأكيدٌ بالمصدرِ للمعنى المتقدمِ، أيْ أنزلناهُ نجمًا بعدَ نجمٍ، ولوْ أخذوا بجميعِ الفرائضِ في وقت واحد لنفروا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ يعني القرآنَ. وهذا منَ اللهِ عزَّ وجلَّ على وجهِ التبكيتِ لهمْ والتهديدِ لا على وجهِ التخييرِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أيْ منْ قبلِ نزولِ القرآنِ وخروجِ النبيِّ ﷺ، وهمْ مؤمنو أهلِ الكتابِ ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ كتابهمْ. وقيلَ: القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ١٠٧﴾ قيل: همْ قومٌ منْ ولدِ إسماعيلَ تمسكوا بدينهمْ إلى أنْ بعثَ اللهُ تعالى النبيَّ ﷺ، منهمْ زيدُ بنُ عمرو بنِ نفيلٍ وورقةُ بنُ نوفل. وعلى هذا ليسَ يريدُ أوتوا الكتابَ بلْ يريدُ أوتوا علمَ الدينِ. وقيل: الذينَ أوتوا العلمَ أمةُ محمدٍ ﷺ. وقيل: إنهمْ ناسٌ منَ اليهودِ، وهوَ أظهرُ لقولهِ ﴿مِن قَبْلِهِ﴾.

﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يعني القرآنَ. كانوا إذا سمعوا ما أنزلَ اللهُ تعالى منَ القرآنِ سجدوا وقالوا: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ١٠٨﴾. وقيل: كانوا إذا تلوا كتابهمْ وما أنزلَ

عليهِ منَ القرآنِ خشعوا وسجدوا وسبحوا، وقالوا: هذا هوَ المذكورُ في التوراةِ، وهذهِ صفتهُ، ووعدُ اللهِ بهِ واقعٌ لا محالةَ، وجنحوا إلى الإسلامِ، فنزلتِ الآيةُ فيهمْ. وقالت فرقة: المرادُ بالذين أوتوا العلم من قبله محمدٌ ﷺ، والضميرُ في ﴿قَبْلِهِۦٓ﴾ عائدٌ على القرآنِ حسبَ الضميرِ في قولهِ: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ﴾. وقيل: الضميرانِ لمحمدٍ ﷺ، واستأنفَ ذكرَ القرآنِ في قوله: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ١٠٨﴾

دليلٌ على جوازِ التسبيحِ في السجودِ. وفي مسلمٍ عنْ عائشةَ رضي الله عنها قالتْ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يكثرُ أنْ يقولَ في سجوده وركوعه «سبحانكَ اللهمَّ ربنا وبحمدكَ اللهمَّ اغفرْ لي».

قوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ١٠٩﴾، فيهِ أربعُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ هذهِ مبالغةٌ في صفتهمْ ومدحٌ لهمْ. وحقَّ لكلِّ منْ توسمَ بالعلمِ وحصلَ منهُ شيئًا أنْ يجريَ إلى هذهِ المرتبةِ، فيخشعَ عندَ استماعِ القرآنِ ويتواضعَ ويذلَّ، والأذقانُ جمعُ ذقنٍ، وهوَ مجتمعُ اللحيينِ. وقيل: الأذقانُ عبارةٌ عنِ اللحى. أيْ يضعونها على الأرضِ في حالِ السجودِ، وهوَ غايةُ التواضعِ. واللامُ بمعنى على، تقولُ: سقطَ لفيهِ أيْ على فيهِ. وقالَ ابنُ عباسٍ: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ أيْ للوجوهِ. وإنما خصَّ الأذقانَ بالذكرِ لأنَّ الذقن أقرب شيء من وجه الإنسان.

الثانية: قوله تعالى: ﴿يَبْكُونَ﴾ دليلٌ على جوازِ البكاءِ في الصلاةِ منْ خوفِ اللهِ تعالى، أوْ على معصيتهِ في دينِ اللهِ، وأنَّ ذلكَ لا يقطعها ولا يضرها. عن عبدِ اللهِ بنِ الشخيرِ قالَ: أتيتُ النبيَّ ﷺ وهوَ يصلي ولجوفهِ أزيزٌ كأزيزِ المرجلِ منَ البكاءِ. وفي كتابِ أبي داودَ: وفي صدرهِ أزيزٌ كأزيزِ الرحى منَ البكاءِ.

الثالثة: واختلفَ الفقهاءُ في الأنينِ، فقالَ مالكٌ: الأنينُ لا يقطعُ الصلاةَ للمريضِ، وأكرههُ للصحيحِ، وقالَ الشافعيُّ: إنْ كانَ لهُ حروفٌ تسمعُ وتفهمُ يقطعُ الصلاةَ. وقالَ أبو حنيفةَ: إنْ كانَ منْ خوفِ اللهِ لمْ يقطعْ، وإنْ كانَ منْ وجعٍ قطعَ.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ١٠٩﴾ تقدمَ القولُ في الخشوعِ في «البقرة».

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ سببُ نزولِ هذهِ الآيةِ أنَّ المشركينَ سمعوا رسولَ اللهِ ﷺ يدعوا «يا الله يا رحمان»، وكان باليمامة رجل يسمى الرحمن، فقالَ ذلكَ السامعُ: ما بالُ محمدٍ يدعو رحمانَ اليمامةِ. فنزلتِ الآيةُ مبينةً أنهما اسمانِ لمسمى واحدٍ، وقيل: كانوا يكتبونَ في صدرِ الكتبِ: باسمكَ اللهمَّ، فكتبَ رسولُ اللهِ ﷺ: «بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ» فقالَ المشركونَ: هذا الرحيمُ نعرفهُ فما الرحمنُ، فنزلتِ الآيةُ.

﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي التي تقتضي أفضلَ الأوصافِ وأشرفَ المعاني. وحسنُ الأسماءِ إنما يتوجهُ بتحسينِ الشرعِ، لإطلاقها والنصِّ عليها. وانضافَ إلى ذلك أنها تقتضي معاني حسانًا شريفةً، وهيَ بتوقيفٍ لا يصحُّ وضعُ اسم لله ينظر إلا بتوقيفٍ منَ القرآنِ أوِ الحديثِ أوِ الإجماعِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ فيه مسألتان:

الأولى: اختلفوا في سببِ نزولها على خمسةِ أقوالٍ:

الأولُ– نزلتْ ورسولُ اللهِ ﷺ متوارٍ بمكةَ، وكانَ إذا صلى بأصحابهِ رفعَ صوتهُ بالقرآنِ، فإذا سمعَ ذلكَ المشركونَ سبوا القرآنَ ومنْ أنزلهُ ومنْ جاءَ بهِ، فقالَ اللهُ تعالى ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ فيسمعَ المشركونَ قراءتكَ. ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عنْ أصحابكَ. أسمعهمُ القرآنَ ولا تجهرْ ذلكَ الجهرَ ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ قالَ: يقولُ بينَ الجهرِ والمخافتةِ، أخرجهُ البخاريُّ ومسلمٌ عن ابن عباس. واللفظُ لمسلمٍ. والمخافتةُ: خفضُ الصوتِ والسكونُ، يقالُ للميتِ إذا بردَ: خفتَ.

الثاني– ما رواهُ مسلمٌ أيضًا عنْ عائشةَ في قولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قالتْ: أنزلَ هذا في الدعاءِ.

الثالثِ– قالَ ابنُ سيرينَ: كانَ الأعرابُ يجهرونَ بتشهدهمْ فنزلتِ الآيةُ في ذلكَ. قلتُ: وعلى هذا فتكونُ الآيةُ متضمنةٌ لإخفاءِ التشهدِ، وقدْ قالَ ابنُ مسعودٍ: منَ السنةِ أنْ تخفيَ التشهدَ، ذكرهُ ابنُ المنذرِ.

الرابعُ - ما رويَ عن ابنِ سيرينَ أيضًا أنَّ أبا بكرٍ ﵁ كانَ يسرُّ قراءتهُ، وكانَ عمرُ يجهرُ بها، فقيلَ لهما في ذلكَ، فقالَ أبو بكرٍ: إنما أناجي ربي، وهوَ يعلمُ حاجتي إليهِ. وقالَ عمرُ: أنا أطردُ الشيطانَ وأوقظُ الوسنانَ، فلما نزلتْ هذهِ الآيةُ قيلَ لأبي بكرٍ: ارفعْ قليلًا، وقيلَ: لعمرَ اخفضْ أنتَ قليلًا.

الخامسُ - ما رويَ عنِ ابنِ عباسٍ أيضًا أنَّ معناها ولا تجهرْ بصلاةِ النهارِ، ولا تخافتْ بصلاةِ الليلِ، فتضمنتْ أحكامَ الجهرِ والإسرارَ بالقراءةِ في النوافلِ والفرائضِ، فأما النوافلُ فالمصلي مخيرٌ في الجهرِ والسرِّ في الليلِ والنهارِ، وكذلكَ رويَ عنِ النبيِّ ﷺ أنهُ كانَ يفعلُ الأمرينِ جميعًا. وأما الفرائضُ فحكمها في القراءةِ معلومٌ ليلًا ونهارًا.

وقولٌ سادسٌ - قالَ الحسنُ: يقولُ اللهُ لا ترائي بصلاتكَ تحسنها في العلانيةِ ولا تسيئها في السرِّ. وقالَ ابنُ عباسٍ: لا تصلِّ مرائيًا للناسِ ولا تدعها مخافةَ الناسِ.

الثانية: عبرَ تعالى بالصلاةِ هنا عنِ القراءةِ كما عبرَ بالقراءةِ عنِ الصلاةِ في قولهِ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما مرتبطٌ بالآخرِ، لأنَّ الصلاةَ تشتملُ على قراءةٍ وركوعٍ وسجودٍ فهيَ منْ جملةِ أجزائها، فعبرَ بالجزءِ عنِ الجملةِ وبالجملةِ عنِ الجزءِ على عادةِ العربِ في المجازِ وهوَ كثيرٌ، ومنهُ الحديثُ الصحيحُ: «قسمتُ الصلاةَ بيني وبينَ عبدي» أيْ قراءةَ الفاتحةِ على ما تقدمَ.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ هذهِ الآيةُ رادةٌ على اليهودِ والنصارى والعربِ في قولهم أفذاذا: عزيز وعيسى والملائكةُ ذريةُ اللهِ سبحانهُ، تعالى اللهُ عنْ أقوالهمْ! ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ لأنهُ واحدٌ لا شريكَ لهُ في ملكهِ ولا في عبادتهِ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ﴾ قالَ مجاهدٌ: المعنى لمْ يحالفْ أحدًا ولا ابتغى نصرَ أحدٍ ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ أيْ عظمهُ عظمةً تامةً.

تمتْ سورةُ الإسراءِ. والحمدُ للهِ وحدهُ، والصلاةُ والسلام على من لا نبي بعده.

سورة الكهف

وهيَ مكيةٌ في قولِ جميعِ المفسرينَ.

وفي مسندِ الدارميِّ عنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ قالَ: منْ قرأَ سورةَ الكهفِ ليلةَ الجمعةِ أضاءَ لهُ منَ النورِ فيما بينهُ وبينَ البيتِ العتيقِ. وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ أبي الدرداءِ أنَّ نبيَّ اللهِ ﷺ قالَ: «منْ حفظَ عشرَ آياتٍ منْ أولِ سورةِ الكهفِ عصمَ منَ الدجالِ». وفي روايةٍ «منْ آخرِ الكهفِ». وفي مسلمٍ أيضًا منْ حديثِ النواسِ بنِ سمعانَ «فمنْ أدركهُ- يعني الدجالَ- فليقرأْ عليهِ فواتحَ سورةِ الكهفِ».

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ١ قَيِّمًا﴾

ذكرَ ابنُ إسحاقَ أنَّ قريشًا بعثوا النضرَ بنَ الحارثِ وعقبةَ بنَ أبي معيطٍ إلى أحبارِ يهودَ وقالوا لهما: سلاهمْ عنْ محمدٍ وصفا لهمْ صفتهُ وأخبراهمْ بقولهِ، فإنهمْ أهلُ الكتابِ الأولِ، وعندهمْ علمٌ ليس عندنا من علم أنبياء، فخرجا حتى قدما المدينةَ، فسألا أحبارَ يهودَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ، ووصفا لهمْ أمرهُ، وأخبراهمْ ببعضِ قولهِ، وقالا لهمْ: إنكمْ أهلُ التوراةِ وقدْ جئناكمْ لتخبرونا عنْ صاحبنا هذا. فقالتْ لهما أحبارُ يهودَ: سلوهُ عنْ ثلاثٍ نأمركمْ بهنَّ، فإنْ أخبركمْ بهنَّ فهوَ نبيٌّ مرسلٌ، وإنْ لمْ يفعلْ فالرجلُ متقولٌ، فروا فيهِ رأيكمْ، سلوهُ عنْ فتيةٍ ذهبوا في الدهرِ الأولِ ما كانَ أمرهمْ، فإنهُ قدْ كانَ لهمْ حديثٌ عجبٌ. سلوهُ عنْ رجلٍ طوافٍ قدْ بلغَ مشارقَ الأرضِ ومغاربها، ما كانَ نبؤهُ. وسلوهُ عنِ الروحِ، ما هيَ، فإذا أخبركمْ بذلكَ فاتبعوهُ فإنهُ نبيٌّ، وإنْ لمْ يفعلْ فهوَ رجلٌ متقولٌ فاصنعوا في أمرهِ ما بدا لكمْ. فأقبلَ النضرُ بنُ الحارثِ وعقبةُ بنُ أبي معيط قدما مكةَ على قريشٍ فقالا: يا معشرَ قريشٍ،! قدْ جئناكمْ بفصلِ ما بينكمْ وبينَ محمدٍ- ﷺ- قدْ أمرنا أحبارُ يهودَ أنْ نسألهُ عنْ أشياءَ أمرونا بها، فإنْ أخبركمْ عنها فهوَ نبيٌّ، وإنْ لمْ يفعلْ فالرجلُ متقولٌ، فروا فيهِ رأيكمْ. فجاءوا رسولَ اللهِ ﷺ فقالوا: يا محمدُ، أخبرنا عنْ فتيةٍ ذهبوا في الدهرِ الأولِ، قدْ كانتْ لهمْ قصةٌ عجبٌ، وعنْ رجلٍ كانَ طوافًا قدْ بلغَ مشارقَ الأرضِ ومغاربها، وأخبرنا عنِ الروحِ ما هيَ؟ قالَ فقالَ لهمْ رسولُ اللهِ ﷺ: «أخبركمْ بما سألتمْ عنهُ غدًا» ولمْ يستثنِ فانصرفوا عنهُ، فمكثَ رسولُ اللهِ ﷺ فيما

يزعمونَ خمسَ عشرةَ ليلةً، لا يحدثُ اللهُ إليهِ في ذلكَ وحيًا ولا يأتيهِ جبريلُ، حتى أرجفَ أهلُ مكةَ وقالوا: وعدنا محمدٌ غدًا، واليومَ خمسَ عشرةَ ليلةً، وقدْ أصبحنا منها لا يخبرنا بشيءٍ مما سألناهُ عنهُ، وحتى أحزنَ رسولَ اللهِ ﷺ مكثُ الوحيِ عنهُ، وشقَّ عليهِ ما يتكلمُ بهِ أهلُ مكةَ، ثمَّ جاءهُ جبريلُ عليه السلام منْ عندِ اللهِ عزَّ وجلَّ بسورةِ أصحابِ الكهفِ فيها معاتبتهُ إياهُ على حزنهِ عليهمْ، وخبرُ ما سألوهُ عنهُ منْ أمرِ الفتيةِ، والرجلِ الطوافِ والروحِ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: فذكرَ لي إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ لجبريلَ: «لقدِ احتبستَ عني يا جبريلُ حتى سؤتُ ظنًا» فقالَ لهُ جبريلُ: ﴿وما نتنزلُ إلا بأمرِ ربكَ لهُ ما بينَ أيدينا وما خلفنا وما بينَ ذلكَ وما كانَ ربكَ نسيًا﴾.

ثمَّ نعودُ إلى أولِ السورةِ فنقولُ: قدْ تقدمَ معنى الحمدُ للهِ و ﴿قَيِّمًا﴾ نصبَ على الحالِ، وقيل: ﴿قَيِّمًا﴾ على الكتبِ السابقةِ يصدقها. وقيل: ﴿قَيِّمًا﴾ بالحججِ أبدًا.

﴿عِوَجَا ۝١﴾ مفعولٌ بهِ، والعوجُ بكسرِ العينِ في الدينِ والرأيِ والأمرِ والطريقِ. وبفتحها في الأجسامِ كالخشبِ والجدارِ، وقدْ تقدمَ، وليسَ في القرآنِ عوجٌ، أيْ عيبٌ، أيْ ليسَ متناقضًا مختلفا، كما قالَ تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ وقيل: أيْ لمْ يجعلهُ مخلوقًا.

﴿لينذرَ بأسًا شديدًا﴾ أيْ لينذرَ محمدٌ أوِ القرآنُ. وفيهِ إضمارٌ، أيْ لينذرَ الكافرينَ عقابَ اللهِ. وهذا العذابُ الشديدُ قدْ يكونُ في الدنيا وقدْ يكونُ في الآخرةِ.

﴿منْ لدنهُ﴾ أيْ منْ عندهِ وقرأَ أبو بكرٍ عنْ عاصمٍ «مِنْ لَدْنِه» بإسكانِ الدالِ وإشمامها الضمَّ وكسرِ النونِ، والهاءُ موصولةٌ بياءٍ. والباقونَ ﴿لَّدُنْهُ﴾ بضمِّ الدالِّ وإسكانِ النونِ وضمِّ الهاءِ.

قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ﴾ أيْ بأنَّ لهمْ ﴿أَجْرًا حَسَنًا ۝٢﴾ وهي الجنة ﴿مَّٰكِثِينَ﴾ دائمينَ ﴿فِيهِ أَبَدًا ۝٣﴾ لا إلى غايةٍ، والأجرُ الحسنُ: الثوابُ العظيمُ الذي يؤدي إلى الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾ هم اليهودُ، قالوا عزيرٌ ابنُ اللهِ، والنصارى قالوا المسيحُ ابنُ اللهِ، وقريشٌ قالتِ الملائكةُ بناتُ اللهِ. فالإنذارُ في أولِ السورةِ عامٌّ، وهذا خاصٌّ فيمنْ قالَ للهِ ولدٌ ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ ﴿مِن﴾ صلةٌ، أيْ ما لهمْ بذلك القولِ علمٌ، لأنهمْ مقلدةٌ قالوهُ بغيرِ دليلٍ ﴿وَلَا لِآبَآئِهِمْ﴾ أيْ أسلافهمْ ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ ﴿كَلِمَةً﴾ نصبَ على البيانِ، أيْ كبرتْ تلكَ الكلمةُ كلمةً. يقالُ: كبرَ الشيءُ إذا عظمَ. وكبرَ الرجلُ إذا أسنَّ ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ في موضعِ الصفةِ ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ أيْ ما يقولون إلا كذبا.

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ ﴿بَٰخِعٌ﴾ أيْ مهلكٌ وقاتلٌ ﴿ءَاثَٰرِهِم﴾ جمعُ أثرٍ، ويقالُ إثرٌ. والمعنى: على أثرِ توليهمْ وإعراضهمْ عنكَ ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أيِ القرآنِ ﴿أَسَفًا ۝٦﴾ أيْ حزنًا وغضبًا على كفرهمْ، وانتصبَ على التفسيرِ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾، فيهِ مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ ﴿مَا﴾ و ﴿زِينَةً﴾ مفعولانِ. والزينةُ كلُّ ما على وجهِ الأرضِ، فهوَ عمومٌ لأنهُ دالٌّ على بارئهِ. وقيل: أرادَ بالزينةِ الرجالَ، وقيل: الزينةَ الخلفاءُ والأمراءُ. وقيل: العلماءُ زينةُ الأرضِ. وقالت فرقة: أرادَ النعمَ والملابسَ والثمارَ والخضرةَ والمياهَ، ونحوَ هذا مما فيهِ زينةٌ، ولمْ يدخلْ فيهِ الجبالُ الصمُّ وكلُّ ما لا زينةَ فيهِ كالحياتِ والعقاربِ. والقولُ بالعمومِ أولى، وأنَّ كلَّ ما على الأرضِ فيهِ زينةٌ منْ جهةِ خلقهِ وصنعهِ وإحكامهِ. والآيةُ بسطٌ في التسليةِ، أيْ لا تهتمَّ يا محمدُ للدنيا وأهلها فإنا إنما جعلنا ذلكَ امتحانًا واختبارًا لأهلها، فمنهمْ منْ يتدبرُ ويؤمنُ، ومنهمْ منْ يكفرُ، ثمَّ يومَ القيامةِ بينَ أيديهمْ فلا يعظمنَّ عليكَ كفرهمْ فإنا نجازيهمْ.

الثانية: معنى هذهِ الآيةِ ينظرُ إلى قولُ النبيِّ ﷺ: «إنَّ الدنيا خضرةٌ حلوةٌ واللهُ مستخلفكمْ فيها فينظرُ كيفَ تعملونَ». وقولهُ ﷺ: «إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكمْ ما يخرجُ اللهُ لكمْ منْ زهرةِ الدنيا» قالَ: وما زهرةُ الدنيا؟ قالَ: «بركاتُ الأرضِ» خرجهما مسلم منْ حديثِ أبي

سعيدٍ الخدريِّ. والمعنى: أنَّ الدنيا مستطابةٌ في ذوقها معجبةٌ في منظرها كالثمرِ المستحلى المعجبِ المرأى، فابتلى اللهُ بها عبادهُ لينظرَ أيهمْ أحسنُ عملًا.

وكانَ أبي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقولُ في قولهِ: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: أحسنُ العملِ أخذٌ بحقٍّ وإنفاقٌ في حقٍّ معَ الإيمانِ وأداءِ الفرائضِ واجتنابِ المحارمِ والإكثارِ منَ المندوبِ إليهِ.

قلتُ: هذا قولٌ حسنٌ، وجيزٌ في ألفاظهِ بليغٌ في معناهُ، وقدْ جمعهُ النبيُّ ﷺ في لفظٍ واحدٍ وهوَ قولهُ لسفيانَ بنِ عبدِ اللهِ الثقفيِّ لما قالَ: يا رسولَ اللهِ، قلْ لي في الإسلامِ قولًا لا أسألُ عنهُ أحدًا بعدكَ - في روايةٍ: غيركَ. قالَ: «قلْ آمنتُ باللهِ ثمَّ استقمْ» خرجهُ مسلمٌ.

وقدِ اختلفتْ عباراتُ العلماءِ في الزهدِ، فقالَ قومٌ: قصرُ الأملِ وليسَ بأكلِ الخشنِ ولبسِ العباءِ، قالهُ سفيانُ الثوريُّ. قالَ علماؤنا: وصدقَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لأن منْ قصرَ أملهُ لمْ يتأنقْ في المطعوماتِ ولا يتفننْ في الملبوساتِ، وأخذَ منَ الدنيا ما تيسرَ، واجتزأَ منها بما يبلغُ.

وقالَ قومٌ: بغضُ المحمدةِ وحبُّ الثناءِ. وهوَ قولُ الأوزاعيِّ ومنْ ذهبَ إليهِ.

وقالَ قومٌ: تركُ الدنيا كلها هوَ الزهدُ، أحبَّ تركها أمْ كرهَ. وهوَ قولُ فضيلٍ.

وعنْ بشرِ بنِ الحارثِ قالَ: حبُّ الدنيا حبُّ لقاءِ الناسِ، والزهدُ في الدنيا الزهدُ في لقاءِ الناسِ. وعنِ الفضيلِ أيضًا: علامةُ الزهدِ في الدنيا الزهدُ في الناسِ. وقالَ قومٌ: لا يكونُ الزاهدُ زاهدًا حتى يكونَ تركُ الدنيا أحبَّ إليه من أخذها.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾

ترابًا لا نباتَ بهِ، كأنهُ قطعَ نباتهُ. والجرزُ: القطعُ، ومنهُ سنةٌ جرزٌ، يعني يومَ القيامةِ، فإنَّ الأرضَ تكونُ مستويةً لا مستترَ فيها.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾

بلْ في آياتنا ما هوَ أعجب من خبرهم: خلق السموات والأرضِ أعجبُ منْ خبرهمْ. وقيل: ما أطلعتكَ عليه منَ الغيبِ أعجبُ. وقيل: شأنكَ في الإسراءِ أعجبُ.

والكهفُ: النقبُ المتسعُ في الجبلِ، وما لمْ يتسعْ فهوَ غارٌ.

واختلفَ الناسُ في الرقيمِ، فقيل: قرية خرجوا منها. وقيل: الرقيمُ وادٍ. وقيل: الرقيمُ الصخرةُ التي كانتْ على الكهفِ، وقيل: الرقيمُ كتابٌ في لوحٍ منْ رصاصٍ كتبَ فيهِ القومُ الكفارُ الذي فرَّ الفتيةُ منهمْ قصتهمْ وجعلوها تاريخًا لهمْ، ذكروا وقتَ فقدهمْ، وكمْ كانوا، وبينَ منْ كانوا. وهذهِ الأقوالُ مأخوذةٌ منَ الرقمِ، ومنهُ ﴿كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ﴾. ومنهُ الأرقمُ لتخطيطهِ.

وعنِ ابنِ عباسٍ أيضًا: الرقيمُ كتابٌ مرقومٌ كانَ عندهمْ فيهِ الشرعُ الذي تمسكوا بهِ منْ دينِ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ. وقيل: الرقيمُ دراهمهمْ. وقيل: الرقيمُ كلبهمْ، وقيل: الرقيمُ أصحابُ الغارِ الذي انطبقَ عليهمْ، فذكرَ كلُّ واحدٍ منهمْ أصلحَ عملهِ. قلتُ: وفي هذا خبر معروفٌ أخرجهُ الصحيحانِ، وإليهِ نحا البخاريُّ.

وقالَ قومٌ: أخبرَ اللهُ عنْ أصحابِ الكهفِ، ولمْ يخبرْ عنْ أصحابِ الرقيمِ بشيءٍ. وقيل: الرقيمُ بلدةٌ بالروم فيها غارٌ فيهِ أحدٌ وعشرونَ نفسًا كأنهمْ نيامٌ على هيئةِ أصحابِ الكهف، فعلى هذا هم فتيةٌ آخرونَ جرى لهمْ ما جرى لأصحابِ الكهفِ. واللهُ أعلمُ.

قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ١٠﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ يقال همْ منَ الرومِ واتبعوا دينَ عيسى. وقيل: كانوا قبلَ عيسى، واللهُ أعلمُ.

الثانية: هذهِ الآيةُ صريحةٌ في الفرارِ بالدينِ وهجرةِ الأهلِ والبنينَ والقراباتِ والأصدقاءِ والأوطانِ والأموالِ خوفَ الفتنةِ وما يلقاهُ الإنسانُ منَ المحنةِ. وقدْ خرجَ النبيُّ ﷺ فارًا بدينهِ، وكذلكَ أصحابهُ، وجلسَ في الغارِ حسبما تقدمَ في سورةِ «النحلِ». وقدْ نصَّ اللهُ تعالى على ذلكَ في «براءةٌ»، وهجروا أوطانهمْ وتركوا أرضهمْ وديارهمْ وأهاليهمْ وأولادهمْ وقراباتهمْ وإخوانهمْ، رجاءَ السلامةِ بالدينِ والنجاةِ منْ فتنةِ الكافرينَ. فسكنى الجبالِ ودخولُ الغيرانِ، والعزلةُ عنِ الخلقِ والانفرادُ بالخالقِ، وجوازُ الفرارِ منَ الظالمِ هيَ سنةُ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهمْ والأولياءِ. وقدْ فضلَ رسولُ اللهِ ﷺ العزلةَ، وفضلها جماعةُ

العلماءِ لا سيما عندَ ظهورِ الفتنِ وفسادِ الناسِ، وقدْ نصَّ اللهُ تعالى عليها في كتابهِ فقالَ: ﴿فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾، وقال العلماءُ الاعتزالُ عنِ الناسِ يكونُ مرةً في الجبالِ والشعابِ، ومرةً في السواحلِ والرباطِ، ومرةً في البيوتِ، وقدْ جاءَ في الخبرِ: «إذا كانتِ الفتنةُ فأخفِ مكانكَ وكفَّ لسانكَ». ولمْ يخصَّ موضعًا منْ موضعٍ.

وقدْ جعلتْ طائفةٌ منَ العلماءِ العزلةَ اعتزالَ الشرِّ وأهلهِ بقلبكَ وعملكَ، إنْ كنتَ بينَ أظهرهمْ. وقالَ ابنُ المباركِ في تفسيرِ العزلةِ: أنْ تكونَ معَ القومِ فإذا خاضوا في ذكرِ اللهِ فخضْ معهمْ، وإنْ خاضوا في غيرِ ذلكَ فاسكتْ. وروى البغويُّ عنِ ابنِ عمرَ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «المؤمنُ الذي يخالطُ الناسَ ويصبرُ على أذاهمْ أفضلُ منَ المؤمنِ الذي لا يخالطهمْ ولا يصبرُ على أذاهمْ». وقالَ عقبةُ بنُ عامرٍ لرسولِ اللهِ ﷺ: ما النجاةُ يا رسولَ اللهِ؟ فقالَ: «يا عقبةُ أمسكْ عليكَ لسانكَ وليسعكَ بيتكَ وابكِ على خطيئتكَ». وقالَ ﷺ: «يأتي على الناسِ زمانٌ خيرُ مالِ الرجلِ المسلمِ الغنمُ يتبعُ بها شعفَ الجبالِ ومواقعَ القطرِ يفرُّ بدينهِ منَ الفتنِ». خرجهُ البخاريُّ.

قلتُ: أحوالُ الناسِ في هذا البابِ تختلفُ، فربَّ رجلٍ تكونُ لهُ قوةٌ على سكنى الكهوفِ والغيرانِ في الجبالِ، وهيَ أرفعُ الأحوالِ لأنها الحالةُ التي اختارها اللهُ لنبيهِ ﷺ في بدايةِ أمرهِ، ونصَّ عليها في كتابهِ مخبرًا عنِ الفتيةِ، فقالَ: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾. وربَّ رجلٍ تكونُ العزلةُ لهُ في بيتهِ أخفَّ عليهِ وأسهلَ، وقدِ اعتزلَ رجالٌ منْ أهلِ بدرٍ فلزموا بيوتهمْ بعدَ قتلِ عثمانَ فلمْ يخرجوا إلا إلى قبورهمْ. وربَّ رجلٍ متوسطٍ بينهما فيكونُ لهُ منَ القوةِ ما يصبرُ بها على مخالطةِ الناسِ وأذاهم، فهوَ معهمْ في الظاهرِ ومخالفٌ لهمْ في الباطنِ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ لما فروا ممنْ يطلبهمُ اشتغلوا بالدعاءِ ولجئوا إلى اللهِ تعالى فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي مغفرة ورزقًا ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ توفيقًا للرشادِ. وقالَ ابنُ عباسٍ: مخرجًا منَ الغارِ في سلامةٍ. وقيلَ: صوابًا. ومنْ هذا المعنى أنهُ ﷺ كانَ إذا حزبهُ أمرٌ فزع إلى الصلاة.

قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾

عبارةٌ عنْ إلقاءِ اللهِ تعالى النومَ عليهمْ. وهذهِ منْ فصيحاتِ القرآنِ التي أقرتِ العربُ بالقصورِ عنِ الإتيانِ بمثلهِ. أيْ سددنا آذانهمْ عنْ نفوذِ الأصواتِ إليها. وأما تخصيصُ الآذانِ بالذكرِ فلأنها الجارحةُ التي منها عِظم فساد النومِ، وقلما ينقطعُ نومُ نائمٍ إلا منْ جهةِ أذنهِ، ولا يستحكمُ نومٌ إلا منْ تعطلِ السمعِ. ومنْ ذكرِ الأذنِ في النومِ قولهُ ﷺ: «ذاكَ رجلٌ بالَ الشيطانُ في أذنهِ» خرجهُ الصحيحُ. أشارَ ﷺ إلى رجلٍ طويلِ النومِ، لا يقوم الليل.

و ﴿عَدَدًا﴾ نعتٌ للسنينَ، أيْ معدودةً، والقصدُ بهِ العبارةُ عنِ التكثيرِ، لأنَّ القليلَ لا يحتاجُ إلى عددٍ لأنهُ قدْ عرفَ. ثمَّ قالَ قومٌ: بينَ اللهُ تعالى عددَ تلكَ السنينَ منْ بعدُ فقالَ: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أيْ منْ بعدِ نومهمْ. ويقالُ لمنْ أحييَ أوْ أقيمَ منْ نومهِ: مبعوثٌ، لأنهُ كانَ ممنوعًا من الانبعاث والتصرف.

قوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ﴾ ﴿لِنَعْلَمَ﴾ عبارةٌ عنْ خروجِ ذلكَ الشيءِ إلى الوجودِ ومشاهدتهِ، وهذا على نحوِ كلامِ العربِ، أي نعلم ذلك موجودا، إلا فقدْ كانَ اللهُ تعالى علمَ أيَّ الحزبينِ أحصى الأمدَ. والحزبانِ الفريقانِ، والظاهرُ منَ الآيةِ أنَّ الحزبَ الواحدَ همُ الفتيةُ إذْ ظنوا لبثهمْ قليلًا، والحزبُ الثاني أهلُ المدينةِ الذينَ بُعثَ الفتيةُ على عهدهمْ، وكانَ عندهمُ التاريخُ لأمرِ الفتيةِ. وهو قولُ الجمهورِ منَ المفسرينَ. وقالت فرقة: هما حزبانِ منَ الكافرينَ، اختلفا في مدةِ أصحابِ الكهفِ. وقيل: هما حزبانِ منَ المؤمنينَ.

و ﴿أَحْصَىٰ﴾ فعل ماض. و ﴿أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ نصبَ على المفعولِ بهِ، وقيل: نصبَ على التمييزِ. وقيل: نصبَ على الظرفِ، أيْ أيُّ الحزبينِ أحصى للبثهمْ في الأمدِ، والأمدُ الغايةُ.

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ أيْ شبابٌ وأحداثٌ حكمَ لهمْ بالفتوةِ حينَ آمنوا بلا واسطةٍ. ﴿آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ أيْ يسرناهمْ للعملِ الصالحِ، منَ الانقطاعِ إلى اللهِ تعالى، ومباعدةِ الناسِ، والزهدِ في الدنيا. وهذهِ زيادةٌ على الإيمانِ.

قوله تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ عبارةٌ عنْ شدةِ عزمٍ وقوةِ صبرٍ، أعطاها اللهُ لهمْ حتى قالوا بينَ يدي الكفارِ: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾، ومنهُ يقالُ: فلانٌ رابطُ الجأشِ، إذا كانَ لا تفرقُ نفسهُ عندَ الفزعِ والحربِ وغيرها. ومنهُ الربطُ على قلبِ أمِّ موسى. وقولهُ تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟﴾ يحتملُ ثلاثةَ معانٍ:

أحدها- أنْ يكونَ هذا وصفَ مقامهمْ بينَ يدي الملكِ الكافرِ، وهوَ مقامٌ يحتاجُ إلى الربطِ على القلبِ حيثُ خالفوا دينهُ، ورفضوا في ذاتِ اللهِ هيبتهُ.

والمعنى الثاني فيما قيلَ: إنهمْ أولادُ عظماءِ تلكَ المدينةِ، فخرجوا واجتمعوا وراءَ تلكَ المدينةِ منْ غيرِ ميعادٍ، فقالَ أسنهمْ: إني أجدُ في نفسي أن ربي رب السموات والأرضِ، فقالوا ونحنُ كذلكَ نجدُّ في أنفسنا. فقاموا جميعًا فقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾.

والمعنى الثالثُ: أنْ يعبرَ بالقيامِ، عنِ انبعاثهمْ بالعزمِ إلى الهروبِ إلى اللهِ تعالى ومنابذةِ الناسِ، كما تقولُ: قامَ فلانٌ إلى أمرِ كذا إذا عزمَ عليهِ بغايةِ الجدِّ.

الثانية: قالَ ابنُ عطيةَ: تعلقتِ الصوفيةُ في القيامِ والقول بقول: ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

قلتُ: وهذا تعلقٌ غيرُ صحيحٍ هؤلاءِ قاموا فذكروا اللهَ على هدايتهِ، وشكروا لما أولاهمْ منْ نعمهِ ونعمتهِ، ثمَّ هاموا على وجوههمْ منقطعينَ إلى ربهمْ خائفينَ منْ قومهمْ، وهذهِ سنةُ اللهِ في الرسلِ والأنبياءِ والفضلاءِ الأولياءِ. أينَ هذا منْ ضربِ الأرضِ بالأقدامِ والرقصِ بالأكمامِ عندَ سماعِ الأصواتِ الحسانِ منَ المردِ والنسوانِ، هيهاتَ بينهما واللهِ ما بينَ الأرضِ والسماءِ. ثمَّ هذا حرامٌ عندَ جماعةِ العلماءِ، على ما يأتي بيانهُ في سورةِ لقمانَ إنْ شاءَ اللهُ تعالى وقدْ تقدمَ في ﴿سُبْحَٰنَ﴾ عندَ قولهِ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ﴾ ما فيهِ كفاية.

وقال الإمام أبو بكر الطرسوسي وسئل عنْ مذهبِ الصوفيةِ فقالَ: وأما الرقصُ والتواجدُ فأولُ منْ أحدثهُ أصحابُ السامريِّ، لمّا اتخذَ لهمْ عجلًا جسدًا لهُ خوارٌ قاموا يرقصونَ حواليهِ ويتواجدونَ، فهوَ دينُ الكفارِ وعبّادِ العجل.

قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ﴾ أيْ قالَ بعضهمْ لبعضٍ: هؤلاءِ قومنا أيْ أهلُ عصرنا وبلدنا، عبدوا الأصنامَ تقليدًا منْ غيرِ حجةٍ ﴿لَّوۡلَا﴾ أيْ هلا ﴿يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖ﴾ أيْ بحجةٍ على عبادتهمُ الصنمَ. وقيل: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ راجعٌ إلى الآلهةِ، أيْ هلا أقاموا بينةً على الأصنام في كونها آلهة، فقولهم ﴿لَّوۡلَآ﴾ تحضيضٌ بمعنى التعجيزِ، وإذا لمْ يمكنهمْ ذلكَ لم يجب أن يلتفت إلى دعواهم: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴿١٦﴾﴾ قيلَ: هوَ منْ قولِ اللهِ لهم. أي وإذ اعتزلتموهم فأووا إلى الكهفِ. وقيل: هوَ منْ قولِ رئيسهمْ، ثمَّ استثنى وقالَ ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أيْ إنكمْ لمْ تتركوا عبادتهُ، فهوَ استثناءٌ منقطعٌ.

قالَ ابنُ عطيةَ: وهذا على تقديرِ أنَّ الذينَ فرَّ أهلُ الكهفِ منهمْ لا يعرفونَ اللهَ، ولا علمَ لهمْ بهِ، وإنما يعتقدونَ الأصنامَ في ألوهيتهمْ فقطْ. وإنْ فرضنا أنهمْ يعرفونَ اللهَ كما كانتِ العربُ تفعلُ لكنهمْ يشركونَ أصنامهمْ معهُ في العبادةِ فالاستثناءُ متصلٌ، لأنَّ الاعتزالَ وقعَ في كلِّ ما يعبدُ الكفارُ إلا في جهةِ اللهِ.

﴿مِّرۡفَقٗا﴾ قرئَ بكسرِ الميمِ وفتحها، وهوَ ما يرتفقُ بهِ وكذلكَ مرفقُ الإنسانِ ومرفقهُ، ومنهمْ منْ يجعل «المَرفق» بفتحِ الميمِ الموضعَ كالمسجدِ وهما لغتانِ.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾ أيْ ترى أيها المخاطبُ الشمسَ عندَ طلوعها تميلُ عنْ كهفهمْ. والمعنى: إنكَ لوْ رأيتهمْ لرأيتهمْ كذا، لا أن المخاطب رآهم على التحقيق. «تزاورُ» تتنحى وتميلُ، منْ الازورارِ. والزورُ الميلُ. والأزورُ في العينِ المائلُ النظرِ إلى ناحيةٍ، ويستعملُ في غيرِ العينِ، وفي حديثِ غزوةِ موتة أن

رسول الله ﷺ رأى في سريرِ عبدِ اللهِ بنِ رواحةَ ازورارًا عنْ سريرِ جعفرٍ وزيدِ بنِ حارثةَ. وقرأَ أهلُ الحرمينِ وأبو عمرو «تَزَّاوَرُ» بإدغامِ التاءِ في الزاي، والأصلُ «تَتَزَاوَرُ». وقرأَ عاصمٌ وحمزة والكسائي «تَزَاوَرُ» مخففة الزاي. وقرأَ ابنُ عامرٍ «تَزْوَرُّ» مثلَ تحمرُّ ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾ قرأَ الجمهورُ بالتاءِ على معنى تتركهمْ، يعني أنَّ الشمسَ إذا طلعتْ مالتْ عنْ كهفهمْ ذاتَ اليمينِ، أيْ يمينَ الكهفِ، وإذا غربتْ تمرُّ بهمْ ذاتَ الشمالِ، أيْ شمالَ الكهفِ، فلا تصيبهمْ في ابتداءِ النهارِ ولا في آخرِ النهارِ لا تبلغهمْ لتؤذيهمْ بحرها، وتغيرَ ألوانهمْ وتبليَ ثيابهمْ.

والمقصودُ بيانُ حفظهمْ عنْ تطرقِ البلا وتغيرِ الأبدانِ والألوانِ إليهمْ، والتأذي بحرٍّ أوْ بردٍ ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أيْ منَ الكهفِ والفجوةُ المتسعُ، وجمعها فجواتٌ وفجاءٌ، مثلُ ركوةٍ وركاءٍ وركواتٍ ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لطفٌ بهمْ. ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ قالَ أهلُ التفسيرِ: كانتْ أعينهمْ مفتوحةٌ وهمْ نائمونَ، فكذلكَ كانَ الرائي يحسبهمْ أيقاظًا. وقيل: ﴿تَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ لكثرةِ تقلبهمْ كالمستيقظِ في مضجعه. و ﴿أَيْقَاظًا﴾ جمعُ يقظٍ ويقظانَ، وهوَ المنتبهُ ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ كقولهمْ: وهمْ قومٌ ركوعٌ وسجودٌ وقعودٌ، فوصفَ الجمعَ بالمصدرِ ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ قالَ ابنُ عباسٍ: لئلا تأكلَ الأرضُ لحومهمْ، وظاهرُ كلامِ المفسرينَ أنَّ التقليبَ كانَ منْ فعلِ اللهِ، ويجوزُ أنْ يكونَ منْ ملكٍ بأمرِ اللهِ، فيضافُ إلى اللهِ تعالى.

﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم﴾ أكثرُ المفسرينَ على أنهُ كلبٌ حقيقةً، وكانَ لصيدِ أحدهمْ أوْ لزرعهِ أوْ غنمهِ، وكانَ اقتناءُ الكلبِ جائزًا في وقتهمْ، كما هوَ عندنا اليومَ جائزٌ في شرعنا.

الثانية: وردَ في الصحيحِ عنِ ابنِ عمرَ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «منِ اقتنى كلبًا إلا كلبَ صيدٍ

أوْ ماشيةٍ نقصَ منْ أجرهِ كلَّ يومٍ قيراطانِ». وروى الصحيح أيضا عن أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «منِ اتخذَ كلبًا إلا كلب ماشية أو صيد أو زرع انتقص منْ أجرهِ كلَّ يومٍ قيراطٌ». قالَ الزهريُّ: وذكرَ لابنِ عمرَ قولُ أبي هريرةَ فقالَ: يرحمُ اللهُ أبا هريرةَ كانَ صاحبَ زرعٍ. فقدْ دلتِ السنةُ الثابتةُ على اقتناءِ الكلبِ للصيدِ والزرعِ والماشيةِ. وجعلَ النقصَ في أجرِ منِ اقتناها على غيرِ ذلكَ منَ المنفعةِ، إما لترويعِ الكلبِ المسلمينَ وتشويشهِ عليهمْ بنباحهِ، أوْ لمنعِ دخولِ الملائكةِ البيتَ، أوْ لنجاستهِ، على ما يراهُ الشافعيُّ، أوْ لاقتحامِ النهيِ عنِ اتخاذِ ما لا منفعةَ فيهِ، واللهُ أعلمُ. وقالَ في إحدى الروايتينِ «قيراطانِ» وفي الأخرى «قيراطٌ». وذلكَ يحتملُ أنْ يكونَ في نوعينِ منَ الكلابِ أحدهما أشدُّ أذى منَ الآخرِ، كالأسودِ الذي أمرَ ﷺ بقتلهِ، ولمْ يدخلهُ في الاستثناءِ حينَ نهى عنْ قتلها كما هوَ منصوصٌ في حديثِ جابرٍ، أخرجهُ الصحيحُ. وقالَ: «عليكمْ بالأسودِ البهيمِ ذي النقطتينِ فإنهُ شيطانٌ». ويحتملُ أنْ يكونَ ذلكَ لاختلافِ المواضعِ، فيكونُ ممسكهُ بالمدينةِ مثلًا أوْ بمكةَ ينقصُ قيراطانِ وبغيرها قيراطٌ. وأما المباحُ اتخاذهُ فلا ينقصُ، كالفرسِ والهرةِ. واللهُ أعلمُ.

الثالثة: وكلبُ الماشيةِ المباحُ اتخاذهُ عندَ مالكٍ هوَ الذي يسرحُ معها، لا الذي يحفظها في الدارِ منَ السراقِ. وكلبُ الزرعِ هوَ الذي يحفظها منَ الوحوشِ بالليلِ أوْ بالنهارِ لا منَ السراقِ. وقدْ أجازَ غيرُ مالكٍ اتخاذها لسراقِ الماشيةِ والزرعِ.

الرابعة: إذ كانَ بعضُ الكلابِ قدْ نالَ هذهِ الدرجةَ العليا بصحبتهِ ومخالطتهِ الصلحاءَ والأولياءَ حتى أخبرَ اللهُ تعالى بذلكَ في كتابهِ جلَّ وعلا فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين المحبينَ للأولياءِ والصالحينَ بلْ في هذا تسليةٌ وأنسٌ للمؤمنينَ المقصرينَ عنْ درجاتِ الكمالِ، المحبينَ للنبيِّ ﷺ وآلهِ خيرِ آلٍ. روى الصحيحُ عنْ أنسِ بنِ مالكٍ قالَ: بينا أنا ورسولُ اللهِ ﷺ خارجانِ منَ المسجدِ فلقينا رجلٌ عندَ سدةِ المسجدِ فقالَ: يا رسولَ اللهِ، متى الساعةُ؟ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «ما أعددتَ لها» قالَ فكأنَّ الرجل استكان، ثم قال: ويا رسول الله، ما أعددت بها كثيرَ صلاةٍ ولا صيامٍ ولا صدقةٍ، ولكني أحبُّ اللهَ ورسولهُ.

قالَ: «فأنتَ معَ منْ أحببتَ». في روايةٍ قالَ أنسُ بنُ مالكٍ: فما فرحنا بعدَ الإسلامِ فرحًا أشدَّ منْ قولِ النبيِّ ﷺ: «فأنتَ معَ منْ أحببتَ». قالَ أنسٌ: فأنا أحبُّ اللهَ ورسولهُ وأبا بكرٍ وعمرَ، فأرجو أنْ أكونَ معهمْ وإنْ لمْ أعملْ بأعمالهمْ.

وقالت فرقة: لم يكن كلبا حقيقة، وإنما كانَ أحدهمْ، وكانَ قدْ قعدَ عندَ بابِ الغارِ طليعةً لهمْ، ... وهذا القولَ يضعفهُ ذكرُ بسطِ الذراعينِ فإنها في العرفِ منْ صفةِ الكلبِ حقيقةً، ومنهُ قولُ النبيِّ ﷺ: «ولا يبسطُ أحدكمْ ذراعيهِ انبساطَ الكلبِ».

قوله تعالى: ﴿بَسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِۚ﴾ أعملَ اسمُ الفاعلِ وهوَ بمعنى المضيِّ، لأنها حكاية حال ولم يقصد الأخبار عن فعل الكلب. والذراع من طرف المرفق إلى طرف الأصبعِ الوسطى. قيلَ: بسطَ ذراعيهِ لطولِ المدةِ. وقيل: نامَ الكلبُ مفتوح العين، وكانَ ذلكَ منَ الآيات. **والوصيد**: الفناء، أيْ فناءُ الكهفِ، والجمعُ وصائدُ ووصدٌ.

قوله تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ أيْ لوْ أشرفتَ عليهمْ لهربتَ منهمْ ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾ أيْ لِما حفهمُ اللهُ تعالى منَ الرعبِ واكتنفهمْ منَ الهيبةِ. وقيل: لوحشةِ مكانهمْ، وكأنهمْ آواهمُ اللهُ إلى هذا المكانِ الوحشِ في الظاهر لينفر الناسَ عنهمْ. وقيل: الفرارُ منهمْ لطولِ شعورهمْ وأظفارهمْ، وقيل: وهذا بعيدٌ، لأنهمْ لما استيقظوا قالَ بعضهمْ لبعضٍ: لبثنا يومًا أوْ بعضَ يومٍ. ودلَّ هذا على أنَّ شعورهمْ وأظفارهمْ كانتْ بحالها، إلا أنْ يقالَ: إنما قالوا ذلكَ قبلَ أنْ ينظروا إلى أظفارهمْ وشعورهمْ.

قالَ ابنُ عطيةَ: والصحيحُ في أمرهمْ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ حفظَ لهمُ الحالةَ التي ناموا عليها لتكونَ لهمْ ولغيرهمْ فيهم آيةً، فلمْ يبلَ لهمْ ثوبٌ ولمْ تغيرْ صفةٌ، ولمْ ينكرِ الناهضُ إلى المدينةِ إلا معالمَ الأرضِ والبناءِ، ولوْ كانتْ في نفسهِ حالةٌ ينكرها لكانتْ عليهِ أهمَّ. وقرأَ نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأهلُ مكةَ والمدينةِ «لَمُلِّئْتَ مِنْهُمْ» بتشديدِ اللامِ على تضعيفِ المبالغةِ، أيْ ملئتَ ثمَّ ملئتَ. وقرأَ الباقونَ: ﴿لَمُلِئْتَ﴾ بالتخفيفِ، والتخفيفُ أشهرُ في اللغةِ.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ﴾ البعثُ: التحريكُ عنْ سكونٍ. والمعنى: كما ضربنا على آذانهمْ وزدناهمْ هدى وقلبناهمْ بعثناهمْ أيضًا، أيْ أيقظناهمْ منْ نومهمْ على ما كانوا عليهمْ منْ هيئتهمْ في ثيابهمْ وأحوالهمْ، واللام في قوله ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ﴾ لامُ الصيرورةِ وهيَ لامُ العاقبةِ، كقولهِ ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًاۗ﴾ فبعثهم لم يكن لأجل تساؤلهم.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ﴾ وذلكَ أنهمْ دخلوهُ غدوةً وبعثهمُ اللهُ في آخرِ النهارِ.

قوله تعالى: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾، فيهِ سبعُ مسائلَ:

الأولى: قرأَ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وابنُ عامرٍ والكسائيُّ وحفصٌ عنْ عاصمٍ ﴿بِوَرِقِكُمْ﴾ بكسرِ الراءِ. وقرأَ أبو عمرو وحمزةُ وأبو بكرٍ عنْ عاصمٍ «بِوَرْقِكُمْ» بسكونِ الراءِ، حذفوا الكسرةَ لثقلها، وهما لغتانِ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أيْ أكثرَ بركةً، وقيل: ﴿أَزْكَىٰ﴾ أطيبُ. وقيل: أرخصُ ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ أيْ بقوتٍ ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أيْ في دخولِ المدينةِ وشراءِ الطعامِ ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ١٩﴾ أيْ لا يخبرنَّ. وقيل: إنْ ظهرَ عليهِ فلا يوقعنَّ إخوانهُ فيما وقعَ فيه ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ بالحجارة، وهو أخبث القتلِ. وقيل: يرموكمْ بالسبِّ والشتمِ، والأولُ أصحُّ، لأنهُ كانَ عازمًا على قتلهمْ كما تقدمَ في قصصهمْ.

الثالثة: في هذهِ البعثةِ بالورقِ دليلٌ على الوكالةِ وصحتها. وقدْ وكلَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ أخاهُ عقيلًا عندَ عثمانَ رضي الله عنه، ولا خلافَ فيها في الجملةِ. والوكالةُ معروفةٌ في الجاهليةِ والإسلامِ، ألا ترى إلى عبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ كيفَ وكلَ أميةَ بنَ خلفٍ بأهلهِ وحاشيتهِ بمكةَ، أيْ يحفظهمْ، وأميةُ مشركٌ، والتزمَ عبدُ الرحمنِ لأميةَ منْ حفظِ حاشيتهِ بالمدينةِ مثلَ ذلكَ مجازاةً لصنعهِ.

روى البخاريُّ عنْ عبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ قالَ: كاتبتُ أميةَ بنَ خلفٍ كتابًا بأنْ يحفظني

في صاغيتي بمكةَ وأحفظهُ في صاغيتهِ بالمدينةِ، فلما ذكرتُ الرحمنَ، قالَ: لا أعرفُ الرحمنَ كاتبني باسمكَ الذي كانَ في الجاهليةِ، فكاتبتهُ عبدَ عمرو... وذكرَ الحديثَ.

قالَ الأصمعيُّ: صاغيةُ الرجلِ الذينَ يميلونَ إليهِ ويأتونهُ، وهوَ مأخوذٌ منْ صغا يصغو ويصغي إذا مالَ، وكلُّ مائلٍ إلى الشيءِ أوْ معهُ فقدْ صغا إليهِ وأصغى.

الرابعة: الوكالةُ عقدُ نيابةٍ، أذنَ اللهُ سبحانهُ فيهِ للحاجةِ إليهِ وقيامِ المصلحةِ في ذلكَ، إذْ ليسَ كلَّ أحدٍ يقدرُ على تناولِ أمورهِ إلا بمعونة من غيره أو يترفه فيستنيبُ منْ يريحهُ. وقدِ استدلَّ علماؤنا على صحتها بآياتٍ منَ الكتابِ، منها هذهِ الآيةُ، وقولهُ تعالى: ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ وقولهُ ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾. وأما منَ السنةِ فأحاديثُ كثيرةٌ، منها حديثُ عروةَ البارقيِّ، وفي إجماعِ الأمةِ على جوازها كفايةٌ.

الخامسة: الوكالةُ جائزةٌ في كلِّ حقٍّ تجوزُ النيابةُ فيهِ، فلوْ وكلَ الغاصب لمْ يجزْ، لأنَّ كلَّ محرمٍ فعلهُ لا تجوزُ النيابةُ فيهِ.

السادسة: في هذهِ الآيةِ نكتةٌ بديعةٌ، وهيَ أنَّ الوكالةَ إنما كانت مع التقية خوف أن يشعر بهم أحدٌ لما كانوا عليهِ منَ الخوفِ على أنفسهم. وجواز توكيل ذوى العذر متفق عليهِ، فأما منْ لا عذرَ لهُ فالجمهورُ على جوازها. وقالَ أبو حنيفةَ: لا تجوزُ.

والدليلُ على صحةِ جوازِ الوكالةِ للشاهدِ الصحيحِ ما خرجهُ الصحيحانِ وغيرهما عنْ أبي هريرةَ قالَ: كانَ لرجلٍ على النبيِّ ﷺ سنٌّ منَ الإبلِ فجاءَ يتقاضاهُ فقالَ: «أعطوهُ» فطلبوا لهُ سنهُ فلمْ يجدوا إلا سنًّا فوقها، فقالَ: «أعطوهُ» فقالَ: أوفيتني أوفى اللهُ لكَ. قالَ النبيُّ ﷺ: «إنَّ خيركمْ أحسنكمْ قضاءً». لفظُ البخاريِّ. فدلَّ هذا الحديثُ معَ صحتهِ على جوازِ توكيلِ الحاضرِ الصحيحِ البدنِ، فإنَّ النبيَّ ﷺ أمرَ أصحابهُ أنْ يعطوا عنهُ السنَّ التي كانتْ عليهِ، وذلكَ توكيدٌ منهُ لهمْ على ذلكَ، ولمْ يكنِ النبيُّ ﷺ مريضًا ولا مسافرًا. وهذا يردُّ قولَ أبي حنيفةَ في قولهِ: إنهُ لا يجوزُ توكيلُ الحاضرِ الصحيحِ البدنِ إلا برضا خصمهِ، وهذا الحديثُ خلافُ قولهِ.

السابعة: تضمنتْ هذهِ الآيةُ جوازَ الشركةِ لأنَّ الوَرِقَ كانَ لجميعهمْ وتضمنتْ جوازَ

الوكالةِ لأنهمْ بعثوا منْ وكلوهُ بالشراءِ. وتضمنتْ جوازَ أكلِ الرفقاءِ وخلطهمْ طعامهمْ معًا، وإنْ كانَ بعضهمْ أكثرُ أكلًا منَ الآخرِ، ومثلهُ قولهُ تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾، ولهذا قالَ أصحابنا في المسكينِ يتصدقُ عليهِ فيخلطهُ بطعام لغنيٍّ ثمَّ يأكلُ معهُ: إنَّ ذلكَ جائزٌ. وقدْ قالوا في المضاربِ يخلطُ طعامهُ بطعامِ غيرهِ ثمَّ يأكلُ معهُ: إنَّ ذلكَ جائزٌ. وقدْ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ وكلَ منِ اشترى لهُ أضحيةً.

قالَ ابنُ العربيِّ: ليسَ في الآيةِ دليلٌ على ذلكَ، لأنهُ يحتملُ أنْ يكونَ كلُّ واحدٍ منهمْ قدْ أعطاهُ منفردًا فلا يكونُ فيهِ اشتراكٌ. ولا معولَ في هذهِ المسألةِ إلا على حديثينِ:

أحدهما: أنَّ ابنَ عمرَ مرَ بقومٍ يأكلونَ تمرًا فقالَ: نهى رسولُ اللهِ ﷺ عنْ الاقترانِ إلا أنْ يستأذنَ الرجلُ أخاهُ.

الثاني- حديثُ أبي عبيدةَ في جيشِ الخبطِ وهذا دونَ الأولِ في الظهورِ، لأنهُ يحتملُ أنْ يكونَ أبو عبيدةَ يعطيهمْ كفافًا منْ ذلكَ القوتِ ولا يجمعهمْ عليهِ.

قلتُ: ومما يدلُّ على خلافِ هذا منَ الكتابِ قولهُ تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ وقولهُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ على ما يأتي إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أيْ أطلعنا عليهمْ وأظهرناهمْ. وَ «أعثرَ» تعديةُ عثرَ بالهمزةِ، وأصلُ العثارِ في القدمِ ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني الأمةَ المسلمةَ الذينَ بعثَ أهلُ الكهفِ على عهدهمْ، وقيل ليعلمَ الملكُ ورعيتهُ أنَّ القيامةَ حقٌّ والبعثَ حقٌّ ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾. وإنما استدلوا بذلكَ الواحدِ على خبرهمْ وهابوا الدخولَ عليهمْ. فقالَ الملكُ: ﴿ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾، فقالَ الذينَ همْ على دينِ الفتيةِ: اتخذوا عليهمْ مسجدًا. ورويَ أنَّ طائفةً كافرةً قالتْ: نبني بيعةً أوْ مصنعًا، فمانعهمُ المسلمونَ وقالوا ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾.

وتنشأُ هنا مسائلُ ممنوعةٌ وجائزةٌ، فاتخاذُ المساجدِ على القبورِ والصلاةُ فيها والبناءُ عليها، إلى غيرِ ذلكَ مما تضمنتهُ السنةُ منَ النهيِ عنهُ ممنوعٌ لا يجوزُ، لما روى الترمذيُّ عنِ

ابنِ عباسٍ قالَ: لعنَ رسولُ اللهِ ﷺ زواراتِ القبورِ والمتخذينَ عليها المساجدَ والسرجَ. قالَ الترمذيُّ: وفي البابِ عنْ أبي هريرةَ وعائشةَ وحديثُ ابنِ عباسٍ حديثٌ حسنٌ. وروى الصحيحانِ عنْ عائشةَ أنَّ أمَّ حبيبةَ وأمَّ سلمةَ ذكرتا كنيسةً رأينها بالحبشةِ فيها تصاويرُ لرسولِ اللهِ ﷺ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إن أولئك إذا كان فيهم الرجلُ الصالحُ فماتَ بنوا على قبرِهِ مسجدًا وصوروا فيهِ تلكَ الصورَ أولئكَ شرارُ الخلقِ عندَ اللهِ تعالى يومَ القيامةِ». لفظُ مسلمٍ.

قالَ علماؤنا: وهذا يحرمُ على المسلمينَ أنْ يتخذوا قبورَ الأنبياءِ والعلماءِ مساجدَ. وروى الأئمةُ عنْ أبي مرثدٍ الغنويِّ قالَ سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «لا تصلوا إلى القبورِ ولا تجلسوا عليها» لفظُ مسلمٍ. أيْ لا تتخذوها قبلةً فتصلوا عليها أوْ إليها كما فعلَ اليهودُ والنصارى، فيؤدي إلى عبادةِ منْ فيها كما كانَ السببُ في عبادةِ الأصنامِ. فحذرَ النبيُّ ﷺ عنْ مثلِ ذلكَ، وسدَّ الذرائعَ المؤديةَ إلى ذلكَ فقالَ: «اشتدَّ غضبُ اللهِ على قومٍ اتخذوا قبورَ أنبيائهمْ وصالحيهمْ مساجدَ». وروى الصحيحانِ عنْ عائشةَ وابنِ عباسٍ قالا: لما نزلَ برسولِ اللهِ ﷺ طفقَ يطرحُ خميصةً لهُ على وجهِهِ فإذا اغتمَّ بها كشفها عنْ وجهِهِ فقالَ وهوَ كذلكَ «لعنةُ اللهِ على اليهودِ والنصارى اتخذوا قبورَ أنبيائهمْ مساجدَ» يحذرُ ما صنعوا. وروى مسلمٌ عنْ جابرٌ قالَ: نهى رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يجصصَ القبرُ وأنْ يقعدَ عليهِ وأنْ يبنى عليهِ. وخرجهُ أبو داودَ والترمذيُّ أيضًا عنْ جابرٌ قالَ: نهى رسولُ اللهِ ﷺ أنْ تجصصَ القبورُ وأنْ يكتبَ عليها وأنْ يبنى عليها وأنْ توطأَ. قالَ الترمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

وروى الصحيحُ عنْ أبي الهياجِ الأسديِّ قالَ: قالَ لي عليُّ بنُ أبي طالبٍ: ألا أبعثكَ على ما بعثني عليهِ رسولُ اللهِ ﷺ: ألا تدعَ تمثالًا إلا طمستهُ ولا قبرًا مشرفًا إلا سويتهُ- في روايةٍ- ولا صورةً إلا طمستها.

قالَ علماؤنا: ظاهرهُ منعُ تسنيمِ القبورِ ورفعها وأنْ تكونَ لاطئةً، وقدْ قالَ بهِ بعضُ أهلِ العلمِ. وذهبَ الجمهورُ إلى أنَّ هذا الارتفاعَ المأمورَ بإزالتهِ هوَ ما زادَ على التسنيمِ، ويبقى للقبرِ ما يعرفُ بهِ ويحترمُ، وذلكَ صفةُ قبرِ نبينا محمدٍ ﷺ وقبرِ صاحبيهِ رضي الله عنهما - على ما ذكرَ مالكٌ في الموطإِ- وقبرِ أبينا آدمَ عليه السلام، على ما رواه الدارقطني من حديث ابن عباس. وأما تعليةُ البناءِ الكثيرِ على نحوِ ما كانتِ الجاهليةُ تفعلهُ تفخيمًا وتعظيمًا فذلكَ يهدمُ ويزالُ، فإنَّ

فيهِ استعمالُ زينةِ الدنيا في أولِ منازلِ الآخرةِ، وتشبهًا بمنْ كانَ يعظمُ القبورَ ويعبدها. وباعتبارِ هذهِ المعاني وظاهرِ النهيِ أنْ ينبغيَ أنْ يقالَ: هوَ حرامٌ.

والتسنيمُ في القبرِ: ارتفاعهُ قدرَ شبرٍ، مأخوذٌ منْ سنامِ البعيرِ. ويرشُّ عليهِ بالماءِ لئلا ينتشرَ بالريحِ. وقالَ الشافعيُّ لا بأسَ أنْ يطينَ القبرُ. وقالَ أبو حنيفةَ: لا يجصصُ القبرُ ولا يطينُ ولا يرفعُ عليهِ بناءٌ فيسقطَ. ولا بأسَ بوضعِ الأحجارِ لتكونَ علامةً، لما رواهُ أبو بكرٍ الأثرمُ عنْ جعفرِ بنِ محمدٍ قالَ: كانتْ فاطمةُ بنتِ رسولِ اللهِ ﷺ تزورُ قبرَ حمزةَ بنِ عبدِ المطلبِ كلَّ جمعةٍ وعلمتهُ بصخرةٍ، ذكرهُ أبو عمرَ.

وأما الجائزةُ- فالدفنُ في التابوتِ، وهوَ جائزٌ لا سيما في الأرضِ الرخوةِ. رويَ أنَّ دانيالَ صلواتُ اللهِ عليهِ كانَ في تابوتٍ منْ حجرٍ، وأنَّ يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أوصى بأنْ يتخذَ لهُ تابوتٌ منْ زجاجٍ ويلقى في ركيةٍ مخافةَ أنْ يعبدَ، وبقيَ كذلكَ إلى زمانِ موسى صلواتُ اللهِ عليهمْ أجمعينَ، فدلتهُ عليهِ عجوزٌ فرفعهُ ووضعهُ في حظيرةِ إسحاقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وفي الصحيح عن سعد ابن أبي وقاصٍ أنهُ قالَ في مرضهِ الذي هلكَ فيهِ: اتخذوا لي لحدًا وانصبوا عليَّ اللبنَ نصبًا، كما صنعَ برسولِ اللهِ ﷺ.

اللحدُ: هوَ أنْ يشقَّ في الأرضِ ثمَّ يحفرُ قبرٌ آخرُ في جانبِ الشقِّ منْ جانبِ القبلةِ إنْ كانتِ الأرضُ صلبةً يدخلُ فيهِ الميتُ ويسدُّ عليهِ باللبنِ. وهوَ أفضلُ عندنا منَ الشقِّ، لأنهُ الذي اختارهُ اللهُ تعالى لرسولهِ ﷺ. وبهِ قالَ أبو حنيفةَ قالَ: السنةُ اللحدُ. وقالَ الشافعيُّ: الشقُّ. ويكرهُ الآجرُّ في اللحدِ. وقالَ الشافعيُّ: لا بأسَ بهِ لأنهُ نوعٌ منَ الحجرِ. وكرههُ أبو حنيفةَ وأصحابهُ، لأنَّ الآجرَّ لإحكامِ البناءِ، والقبرُ وما فيهِ للبلى، فلا يليقُ بهِ الإحكامُ. وعلى هذا يسوى بينَ الحجرِ والآجرِّ. وقيلَ: إنَّ الآجرَّ أثرُ النارِ فيكرهُ تفاؤلًا، فعلى هذا يفرقُ بينَ الحجرِ والآجرِّ. قالوا: ويستحبُّ اللبنُ والقصبُ لما رويَ أنهُ وضعَ على قبرِ النبيِّ ﷺ حزمةً منْ قصبٍ. وحكى عن الشيخ الامام أبو بكرٍ محمدِ بنِ الفضلِ الحنفيِّ رحمهُ اللهُ أنهُ جوزَ اتخاذَ التابوتِ في بلادهمْ لرخاوةِ الأرضِ. وقالَ: لو اتخذَ تابوتٌ منْ حديدٍ فلا بأسَ بهِ، لكنْ ينبغي أنْ يفرشَ فيهِ الترابُ وتطينَ الطبقةُ العليا مما يلي الميتَ، ويجعلُ اللبنُ الخفيفُ على

يمينِ الميتِ ويسارِهِ ليصيرَ بمنزلةِ اللحدِ. قلتُ: ومنْ هذا المعنى جعلُ القطيفةِ في قبرِ النبيِّ ﷺ، فإنَّ المدينةَ سبخةٌ، قالَ شقرانُ: أنا واللهِ طرحتُ القطيفةَ تحتَ رسولِ اللهِ ﷺ في القبرِ. قالَ أبو عيسى الترمذيُّ: حديثُ شقرانَ حديثٌ حسن صحيح غريب.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ الضميرُ في ﴿سَيَقُولُونَ﴾ يرادُ بِهِ أهلُ التوراةِ ومعاصري محمدٍ ﷺ، وقيل: هوَ إخبارٌ عنِ اليهودِ الذينَ أمروا المشركينَ بمسألةِ النبيِّ ﷺ عن أصحاب الكهف. والواو في قول ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ طريق النحويين أنها واوُ عطفٍ دخلتْ في آخرِ إخبارٍ عنْ عددهمْ، لتفصلَ أمرهمْ، وتدلَّ على أنَّ هذا غايةُ ما قيلَ، ولوْ سقطتْ لصحَّ الكلامُ. وقالت فرقة: هيَ واوُ الثمانيةِ كقولهِ ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ ثمَّ قالَ- ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ﴾. يدلُّ عليهِ أنهُ لما ذكرَ أبوابَ جهنمَ قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ بلا واوٍ، ولما ذكرَ الجنةَ قالَ: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ بالواوِ. وقالَ ﴿خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ﴾ ثمَّ قالَ: ﴿وَأَبْكَارًا﴾ فالسبعةُ نهايةُ العددِ عندهمْ كالعشرةِ الآنَ عندنا.

وقيل: هوَ منقوضٌ بقولهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ ولمْ يذكرِ الاسمَ الثامنَ بالواوِ.

وقالَ قومٌ ممنْ صارَ إلى أنَّ عددهمْ سبعةٌ: إنما ذكرَ الواوَ في قولهِ: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ﴾ لينبهَ على أنَّ هذا العددَ هوَ الحقُّ، وأنهُ مباينٌ للأعدادِ الأخرِ التي قالَ فيها أهلُ الكتابِ، ولهذا قالَ تعالى في الجملتينِ المتقدمتينِ ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ ولمْ يذكرهُ في الجملةِ الثالثةِ ولمْ يقدحْ فيها بشيءٍ، فكأنهُ قالَ لنبيهِ همْ سبعةٌ وثامنهمْ كلبهمْ.

والرجمُ: القولُ بالظنِّ، يقالُ لكلِّ ما يخرصُ: رجمَ فيهِ ومرجومٌ ومُرجَمٌ.

قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ أمرَ اللهُ تعالى نبيهُ ﷺ في هذهِ الآيةِ أنْ يردَّ علمَ عدتهمْ إليهِ عزَّ وجلَّ. ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أخبرَ أنَّ عالمَ ذلكَ منَ البشرِ قليل. والمراد به قوم من أهلِ الكتابِ، وكانَ ابنُ عباسٍ يقولُ: أنا منْ ذلكَ القليلِ.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أيْ لا تجادلْ في أصحابِ الكهفِ إلا

بما أوحيناهُ إليكَ، وهوَ ردُّ علمِ عدتهمْ إلى اللهِ تعالى. وقيل: معنى المراءِ الظاهرِ أنْ تقولَ: ليسَ كما تقولونَ، ونحوُ هذا، ولا تحتجَّ على أمرٍ مقدرٍ في ذلكَ. وفي هذا دليلٌ على أنَّ اللهَ تعالى لمْ يبينْ لأحدٍ عددهمْ فلهذا قالَ: ﴿إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أيْ ذاهبًا، كما قالَ:

وتلكَ شكاةٌ ظاهرٌ عنكَ عارها

والضميرُ في قولهِ: ﴿فِيهِمْ﴾ عائدٌ على أهلِ الكهف. وفي قولهِ: ﴿مِنْهُمْ﴾ عائدٌ على أهلِ الكتابِ المعارضينَ. وقولهُ: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ يعني في عدتهمْ، وحذفت العدةُ لدلالةِ ظاهرِ القولِ عليها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ رويَ أنهُ ﷺ سألَ نصارى نجرانَ عنهمْ فنهيَ عن السؤال، وفي هذا دليلٌ على منعِ المسلمينَ منْ مراجعةِ أهلِ الكتابِ في شيءٍ من العلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قالَ العلماءُ: عاتبَ اللهُ تعالى نبيهُ ﷺ على قولهِ للكفارِ حينَ سألوهُ عنِ الروحِ والفتيةِ وذي القرنينِ: غدًا أخبركمْ بجوابِ أسئلتكمْ، ولمْ يستثنِ في ذلكَ. فاحتبسَ الوحيُ عنهُ خمسةَ عشرَ يومًا حتى شقَّ ذلكَ عليهِ وأرجفَ الكفارُ بهِ، فنزلتْ عليهِ هذهِ السورةُ مفرجةً. وأُمرَ في هذهِ الآيةِ ألا يقولَ في أمرٍ منَ الأمورِ إني أفعلُ غدًا كذا وكذا، إلا أنْ يعلقَ ذلكَ بمشيئةِ اللهِ عزَّ وجلَّ حتى لا يكونَ محققًا لحكمِ الخبرِ، فإنهُ إذا قالَ: لأفعلنَّ ذلكَ ولمْ يفعلْ كانَ كاذبًا، وإذا قالَ لأفعلنَّ ذلكَ إنْ شاء الله خرج عن أن يكون محققا للمخبر عنه. واللام في قوله ﴿لَشَيْءٍ﴾ بمنزلة في، أو كأنه قال لأجل شيء.

الثانية: وتكلمَ الناسُ في هذهِ الآيةِ في الاستثناءِ في اليمينِ، والآيةُ ليستْ في الأيمانِ وإنما هيَ في سنةِ الاستثناءِ في غيرِ اليمينِ. وقولهُ: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ في الكلامِ حذفٌ يقتضيهِ الظاهرُ ويحسنهُ الإيجازُ، تقديرهُ: إلا أنْ تقولَ إلا أنْ يشاءَ اللهُ، أوْ إلا أنْ تقولَ إن شاء الله. فالمعنى: إلا أن يذكر مشيئةَ اللهِ، فليسَ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ منَ القولِ الذي نهيَ عنهُ.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فيه مسألة واحدة، وهو الأمرُ بالذكرِ بعدَ النسيانِ واختلفَ في الذكرِ المأمورِ بهِ، فقيلَ: هوَ قولهُ ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ يقولها كل منْ لمْ يستثنِ، وإنها كفارةٌ لنسيانِ الاستثناءِ.

وقالَ الجمهورُ: هوَ دعاءٌ مأمورٌ بهِ دونَ هذا التخصيصِ. وقيل: هوَ قولهُ ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ الذي كانَ نسيهُ عندَ يمينهِ. حكيَ عنِ ابنِ عباسٍ أنهُ إنْ نسيَ الاستثناءَ ثمَّ ذكرَ ولوْ بعدَ سنةٍ لمْ يحنثْ إنْ كانَ حالفًا. وقيل: مادامَ في مجلسِ الذكرِ. وقيل: يحملُ على تداركِ التبركِ بالاستثناءِ للتخلصِ عنِ الإثمِ. فأما الاستثناءُ المفيدُ حكمًا فلا يصحُّ إلا متصلًا. وقيل: أيْ كلُّ صلاةٍ نسيها إذا ذكرها، وقيل: استثنِ باسمهِ لئلا تنسى. وقيل: اذكرهُ متى ما نسيتهُ. وقيل: إذا نسيتَ شيئًا فاذكرهُ يذكركهُ. وقيل: اذكرهُ إذا نسيتَ غيرهُ أوْ نسيتْ نفسكَ، فذلكَ حقيقةُ الذكرِ.

وهذهِ الآيةُ مخاطبةٌ للنبيِّ ﷺ، وهيَ استفتاحُ كلامٍ على الأصح، ولست من الاستثناء في اليمين بشيءٍ، وهيَ بعدُ تعمُّ جميعَ أمتهِ، لأنهُ حكمٌ يترددُ في الناسِ لكثرةِ وقوعهِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾

هذا خبرٌ منَ اللهِ تعالى عنْ مدةِ لبثهمْ. أخبرَ اللهُ تعالى نبيهُ أنَّ هذهِ المدةَ في كونهمْ نيامًا، وأنَّ ما بعدَ ذلكَ مجهولٌ للبشرِ. فأمرَ اللهُ تعالى أنْ يردَّ علمَ ذلكَ إليهِ. قالَ ابنُ عطيةَ: فقولهُ على هذا ﴿لَبِثُواْ﴾ الأولُ يريدُ في نوم الكهف، و ﴿لَبِثُواْ﴾ الثاني يريدُ بعدَ الإعثارِ إلى مدةِ محمدٍ ﷺ، أوْ إلى وقتِ عدمهمْ بالبلى. أو: إلى وقتِ نزولِ القرآنِ. وقيل: إلى أنْ ماتوا.

وقالَ بعضهمْ: إنهُ لما قالَ: ﴿وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ لمْ يدرِ الناسُ أهيَ ساعاتٌ أمْ أيامٌ أمْ جُمعٌ أمْ شهورٌ أمْ أعوامٌ. واختلفَ بنو إسرائيلَ بحسبِ ذلكَ، فأمرَ اللهُ تعالى بردِّ العلمِ إليهِ في التسعِ، فهيَ على هذا مبهمةٌ. وظاهرُ كلامِ العربِ المفهومُ منهُ أنها أعوامٌ، والظاهرُ منْ أمرهمْ أنهمْ قاموا ودخلوا الكهفَ بعدَ عيسى بيسيرٍ وقدْ بقيتْ منَ الحواريينَ بقيةٌ. وقيلَ: غيرُ هذا على ما يأتي. قالَ القشيريُّ: لا يفهمُ منَ التسعِ تسعُ ليالٍ وتسعُ ساعاتٍ لسبقِ ذكرِ السنينَ.

وقيل: معناهُ أنهمْ لبثوا ثلاثمائةِ سنةٍ شمسيةٍ بحسابِ الأيامِ، فلما كانَ الأخبار هنا للنبيِّ

العربيِّ ذكرتِ التسعُ، إذِ المفهومُ عندهُ منَ السنينِ القمريةِ، وهذهِ الزيادةُ هيَ ما بينَ الحسابينِ.

وقرأَ الجمهورُ ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ﴾ بتنوينِ مائةٍ ونصبِ سنينَ، على التقديمِ والتأخيرِ، أيْ سنينَ ثلاثمائةٍ فقدمَ الصفةَ على الموصوفِ، فتكونُ ﴿سِنِينَ﴾ على هذا بدلًا أوْ عطفَ بيان.

وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ بإضافةِ مائةٍ إلى سنينَ وتركِ التنوينِ، كأنهمْ جعلوا سنينَ بمنزلةِ سنةٍ إذِ المعنيُّ بهما واحدٌ.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ۖ﴾ قيلَ بعدَ موتهمْ إلى نزولِ القرآنِ فيهمْ، أوْ إلى أنْ ماتوا، أوْ إلى وقتِ تغيرهمْ بالبلى، على ما تقدمَ. وقيل: بما لبثوا في الكهفِ، وهيَ المدةُ التي ذكرها اللهُ تعالى عنِ اليهودِ وإنْ ذكروا زيادةً ونقصانًا. أيْ لا يعلمُ علمَ ذلكَ إلا اللهُ أوْ منْ علمهُ ذلكَ ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْۚ﴾ أيْ ما أبصرهُ وأسمعهُ. قالَ قتادةُ: لا أحدٌ أبصرُ منَ اللهِ ولا أسمعُ، ويحتملُ أنْ يكونَ المعنى ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ﴾ أيْ بوحيهِ وإرشادهِ هُداكَ وحُججكَ والحقَّ منَ الأمورِ، وأسمعْ بهِ العالمَ، فيكونانِ أمرينِ لا على وجهِ التعجبِ. وقيلَ. المعنى أبصرهمْ وأسمعهمْ ما قالَ اللهُ فيهمْ.

﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾ أيْ لمْ يكنْ لأصحابِ الكهفِ وليٌّ يتولى حفظهمْ دونَ اللهِ. ويحتملُ أنْ يعودَ الضميرُ في ﴿لَهُمْ﴾ على معاصري محمدٍ ﷺ منَ الكفارِ. والمعنى: ما لهؤلاءِ المختلفينَ في مدةِ لبثهمْ وليٌّ دونَ اللهِ يتولى تدبيرَ أمرهمْ، فكيفَ يكونونَ أعلمَ منهُ، أوْ كيفَ يتعلمونَ منْ غيرِ إعلامهِ إياهمْ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ قرئَ بالياءِ ورفعِ الكافِ، على معنى الخبرِ عنِ اللهِ تعالى. وقرأَ ابنُ عامرٍ «ولا تشركْ» بالتاءِ منْ فوقٍ وإسكانِ الكافِ على جهةِ النبيِّ ﷺ، ويكونُ قولهُ «ولا تشرك» عطفًا على قولهِ: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْۚ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ قيلَ: هوَ منْ

تمامِ قصةِ أصحابِ الكهفِ، أي اتبعِ القرآنَ فلا مبدلَ لكلماتِ اللهِ ولا خلفَ فيما أخبرَ بهِ منْ قصةِ أصحابِ الكهفِ. وقالَ الطبريُّ: لا مغيرَ لما أوعدَ بكلماتهِ أهلَ معاصيهِ والمخالفينَ لكتابهِ ﴿وَلَن تَجِدَ﴾ أنتَ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ إنْ لمْ تتبعِ القرآنَ وخالفتهُ ﴿مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾ أيْ ملجًا. وقيلَ: موئلًا وأصلهُ الميلُ ومنْ لجأتَ إليهِ فقدْ ملتَ إليهِ. وهذا آخرُ قصةِ أصحابِ الكهفِ.

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ هذا مثلُ قولِهِ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ وقدْ مضى الكلامُ فيهِ. وقالَ سلمانُ الفارسي ﷺ: جاءت المؤلفة قلوبهمْ إلى رسولِ اللهِ ﷺ: عيينة بن حصن والأقرع بنُ حابسٍ فقالوا: يا رسولَ اللهِ، إنكَ لوْ جلستَ في صدرِ المجلسِ ونحيتَ عنا هؤلاءِ وأرواحَ جبابهمْ - يعنونَ سلمانَ وأبا ذرٍّ وفقراءَ المسلمينَ، وكانتْ عليهمْ جبابُ الصوفِ لمْ يكنْ عليهمْ غيرها - جلسنا إليكَ وحادثناكَ وأخذنا عنكَ، فأنزلَ اللهُ تعالى ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ﴾ - حتى بلغَ - ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ﴾. يتهددهمْ بالنارِ. فقامَ النبيُّ ﷺ يلتمسهمْ حتى إذا أصابهمْ في مؤخرِ المسجدِ يذكرونَ اللهَ قالَ: «الحمدُ للهِ الذي لمْ يمتني حتى أمرني أنْ أصبرَ نفسي معَ رجالٍ منْ أمتي، معكم المحيا ومعكم الممات».

﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ﴾ أي طاعته. ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أيْ لا تتجاوزْ عيناكَ إلى غيرهمْ منْ أبناءِ الدنيا طلبًا لزينتها، وقيل: لا تحتقرهمْ عيناكَ، كما يقالُ فلانٌ تنبو عنهُ العينُ، أيْ مستحقرًا ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ أي تزيين بمجالسةِ هؤلاءِ الرؤساءِ الذينَ اقترحوا إبعادَ الفقراءِ منْ مجلسكَ، ولمْ يردِ النبيُّ ﷺ أنْ يفعلَ ذلكَ، ولكنَّ اللهَ نهاهُ عنْ أنْ يفعلهُ، وليسَ هذا بأكثرَ منْ قولهِ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾. وإنْ كان اللهُ أعاذه من الشرك. و ﴿تُرِيدُ﴾ فعلٌ مضارعٌ في موضعِ الحالِ، أيْ لا تعدُ عينا مريدًا، كقولِ امرئِ القيسِ:

فقلتُ لهُ لا تبكِ عينكَ إنما نحاولُ ملكًا أوْ نموتُ فنعذرا

والفعلُ مسندٌ إلى العينينِ وهوَ في الحقيقةِ موجهٌ إلى النبيِّ ﷺ، كما قالَ تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾ فأسندَ الإعجابَ إلى الأموالِ، والمعنى: لا تعجبكَ يا محمدُ أموالهمْ. ويزيدكَ وضوحًا قولُ الزجاجِ: إنَّ المعنى لا تصرفْ بصركَ عنهمْ إلى غيرهمْ منْ ذوي الهيئاتِ والزينةِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ يعني منْ ختمنا على قلبهِ عنِ التوحيدِ ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ يعني الشركَ ﴿وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾ قيلَ: هوَ منَ التفريطِ الذي هوَ التقصيرُ وتقديمُ العجزِ بتركِ الإيمانِ. وقيل: منَ الإفراطِ ومجاوزةِ الحدِّ، وكأنَّ القومَ قالوا: نحنُ أشرافُ مضرٍ إنْ أسلمنا أسلمَ الناسُ، وكانَ هذا منَ التكبرِ والإفراطِ في القولِ. وقيل: ﴿فُرُطٗا ٢٨﴾ أيْ قدمًا في الشرِّ، منْ قولهمْ: فرطَ منهُ أمرٌ أيْ سبقَ.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ ليسَ هذا بترخيصٍ وتخييرٍ بينَ الإيمانِ والكفرِ، وإنما هوَ وعيدٌ وتهديدٌ. أيْ إنْ كفرتمْ فقدْ أعدَّ لكمُ النار، وإن آمنتم فلكم الجنة. قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا﴾ أيْ أعددنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أيْ للكافرينَ الجاحدينَ ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾ السرادقُ واحدُ السرادقاتِ التي تمدُّ فوقَ صحنِ الدارِ. وقيل: ﴿سُرَادِقُهَاۚ﴾ سورها. وعنِ ابنِ عباسٍ: حائطٌ منْ نارٍ، وقيل: هوَ دخانٌ يحيطُ بالكفارِ يومَ القيامةِ، وهوَ الذي ذكرهُ اللهُ تعالى في سورةِ «والمرسلاتِ». حيثُ يقولُ: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾ وقولهُ: ﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ﴾ المهلُ ماءٌ غليظٌ مثلُ درديِّ الزيتِ، وقيل: القيحُ والدمُ. والمهلُ ضربٌ منَ القطرانِ، وفي الصحاحِ ﴿ٱلۡمُهۡلِ﴾ النحاس المذاب. ﴿مُرۡتَفَقًا ٢٩﴾ منزلًا أو مقرًا. وقيلَ: مهادًا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسۡتَبۡرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا ٣١﴾

لما ذكرَ ما أعدَّ للكافرينَ منَ الهوانِ ذكرَ أيضًا ما للمؤمنينَ منَ الثوابِ. فأما منْ أحسنَ عملًا منْ غيرِ المؤمنينَ فعملهُ محبط. ﴿عَمَلًا﴾ نصبَ على التمييزِ.

و ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٍ﴾ سرةُ الجنةِ، أيْ وسطها وسائرُ الجناتِ محدقةٌ بها وذكرتْ بلفظِ الجمعِ لسعتها، لأنَّ كلَّ بقعةٍ منها تصلحُ أنْ تكونَ جنةً وقيل: العدنُ الإقامةُ، يقالُ: عدنَ بالمكانِ إذا أقامَ بهِ، ومنهُ سميَ المعدنُ «بكسرِ الدالِّ»، لأنَّ الناسَ يقيمونَ فيه بالصيف والشتاء، وعدنُ بلدٌ.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ تقدم في غير موضع ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ وهوَ جمعُ سوارٍ. قالَ سعيدُ بنُ جبيرٍ: على كلِّ واحدٍ منهمْ ثلاثةُ أسورةٍ: واحدٌ منْ ذهبٍ، وواحدٌ منْ ورقٍ، وواحدٌ منْ لؤلؤٍ. قلتُ: هذا منصوصٌ في القرآنِ، قالَ هنا ﴿مِّن ذَهَبٍ﴾ وقالَ في الحجِّ وفاطرَ ﴿مِن ذَهَبٍ وَلُؤۡلُؤٗاۖ﴾ وفي الإنسانِ ﴿مِن فِضَّةٍ﴾.

وقالَ أبو هريرةَ: سمعتُ خليلي ﷺ يقولُ: «تبلغُ الحليةُ منَ المؤمنِ حيثُ يبلغُ الوضوءُ» خرجهُ مسلمٌ.

والسوارُ سوارُ المرأةِ، والجمعُ أسورةٌ، وجمعُ الجمعِ أساورة، وهوَ الذي يلبسُ في الذراعِ منْ ذهبٍ، فإنْ كانَ منْ فضةٍ فهوَ قُلْبٌ وجمعهُ قِلَبَةٌ، فإنْ كانَ منْ قرنٍ أوْ عاجٍ فهيَ مَسكةٌ وجمعهُ مسكٌ.

وقالَ المفسرونَ: لما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساورَ والتيجانَ جعلَ اللهُ تعالى ذلكَ لأهلِ الجنةِ.

قوله تعالى: ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسۡتَبۡرَقٍ﴾ السندس: الرقيق، واحدهُ سندسةٌ، والإستبرقُ: ما ثخنَ منهُ- وهوَ الحريرُ. والإستبرقُ الديباجُ المنسوجُ بالذهبِ

فارسيٌّ معربٌ، وقيل: هوَ استفعلَ منَ البريقِ. والصحيحُ أنهُ وفاقٌ بينَ اللغتينِ، إذْ ليسَ في القرآنِ ما ليسَ منْ لغةِ العربِ، على ما تقدمَ، واللهُ أعلمُ.

وخصَّ الأخضرُ بالذكرِ لأنهُ الموافقُ للبصرِ، لأنَّ البياضَ يبددُ النظرَ ويؤلمُ، والسوادَ يذمُّ، والخضرةُ بينَ البياضِ والسوادِ، وذلكَ يجمعُ الشعاعَ. واللهُ أعلمُ.

قوله تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ﴾ جمعُ أريكةٍ، وهيَ الأسرةُ منْ ذهبٍ، وهيَ مكللةٌ بالدرِّ والياقوتِ عليها الحجالُ ﴿نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا ٣١﴾ يعني الجناتِ، عكسُ ﴿وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾.

قوله تعالى: ﴿۞وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيۡنِ﴾ هذا مثلٌ لمنْ يتعززُ بالدنيا ويستنكفُ عنْ مجالسةِ المؤمنينَ، وهوَ متصلٌ بقولهِ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ﴾ أيْ أطفناهما منْ جوانبهما بنخلٍ، ويقالُ: حفَّ القومُ بفلانٍ يحفونَ حفًا، أيْ طافوا بهِ، ومنهُ ﴿حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾.

﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢﴾ أيْ جعلنا حولَ الأعنابِ النخلَ، ووسطَ الأعنابِ الزرعَ ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ﴾ أيْ كلُّ واحدةٍ منَ الجنتينِ ﴿ءَاتَتۡ أُكُلَهَا﴾ تامًا، ولذلكَ لمْ يقلْ آتتا، والمعنى كل شيء منَ الجنتينِ آتى أكلهُ. والأُكلُ بضمِّ الهمزةِ ثمرُ النخلِ والشجرِ. وكلُّ ما يؤكلُ فهوَ أكلٌ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ﴾ ﴿وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ أيْ لمْ تنقصْ. قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣﴾ أيْ أجرينا وشققنا وسطَ الجنتينِ بنهرٍ.

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ﴾ قرأَ أبو جعفرٍ وعاصمٌ ويعقوبُ ﴿ثَمَرٞ﴾ بفتحِ الثاءِ والميمِ، وكذلكَ قولهُ ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ جمع ثمرة. والثمرةُ واحدةُ الثمرِ والثمراتِ، وجمعُ الثمرِ ثمارٌ، مثلُ جبلٍ وجبالٍ، وقرأَ أبو عمرو «وَكَانَ لَهُ ثُمْرٌ» بضمِّ الثاءِ وإسكانِ الميمِ، وفسرهُ بأنواعِ المالِ، والباقونَ بضمها في الحرفينِ.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ أيْ يراجعهُ في الكلامِ ويجاوبهُ. والمحاورةُ المجاوبةُ، والتحاورُ التجاوبُ ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾ النفرُ:

الرهطُ وهوَ ما دونَ العشرة. وأراد ها هنا الاتباع والخدم والولد.

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ قيلَ: أخذَ بيدِ أخيهِ المؤمنِ يطيفُ بهِ فيها ويريهِ إياها ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أيْ بكفرهِ، وهوَ جملةٌ في موضعِ الحالِ. ومنْ أدخلَ نفسهُ النارَ بكفرهِ فهوَ ظالمٌ لنفسهِ ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥﴾ أنكرَ فناءَ الدارِ ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أيْ لا أحسبُ البعثَ كائنًا ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾ أيْ وإنْ كانَ بعثٌ فكما أعطاني هذهِ النعمَ في الدنيا فسيعطيني أفضل منه لكرامتي عليه، وهو معنى قوله: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝٣٦﴾ وإنما قالَ ذلكَ لمّا دعاهُ أخوهُ إلى الإيمانِ بالحشرِ والنشرِ. وفي مصاحفِ مكةَ والمدينةِ والشامِ «مِنْهُمَا». وفي مصاحفِ أهلِ البصرةِ والكوفةِ ﴿مِنْهَا﴾ على التوحيدِ، والتثنيةُ أولى، لأنَّ الضميرَ أقربُ إلى الجنتينِ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝٣٧﴾ وعظهُ وبينَ لهُ أنَّ ما اعترفَ بهِ منْ هذهِ الأشياءِ التي لا ينكرها أحدٌ أبدع من الإعادة. و ﴿سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ أيْ جعلكَ معتدلَ القامةِ والخلقِ، صحيحَ الأعضاءِ ذكرًا ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ قالَ الكسائيُّ: فيهِ تقديمٌ وتأخيرٌ تقديرهُ: لكنَّ اللهَ هوَ ربي أنا ﴿هُوَ﴾ ضميرُ القصةِ والشأنِ والأمرِ، كقولهِ ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وقولهُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝٣٨﴾ دلَّ مفهومهُ على أنَّ الأخَ الآخرَ كانَ مشركًا باللهِ تعالى يعبدُ غيرهُ. ويحتملُ أنهُ أرادَ لا أرى الغنى والفقرَ إلا منهُ، وأعلمُ أنهُ لوْ أرادَ أنْ يسلبَ صاحبَ الدنيا دنياهُ قدرَ عليهِ، وهوَ الذي آتاني الفقرَ.

ويحتملُ أنهُ أرادَ جحودكَ البعثَ مصيرهُ إلى أنَّ اللهَ تعالى لا يقدرُ عليهِ، وهوَ تعجيزُ الربِّ سبحانهُ وتعالى، ومنْ عجزهُ سبحانه وتعالى شبهه بخلقه، فهو إشراك.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ توبيخٌ ووصيةٌ منَ المؤمنِ للكافرِ وردٌّ عليهِ، إذْ قالَ: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ و ﴿مَا﴾ في موضعِ رفعٍ، تقديرُهُ: هذهِ الجنةُ هيَ ما شاءَ اللهُ ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أيْ ما اجتمعَ لكَ منَ المالِ فهوَ بقدرةِ اللهِ تعالى وقوتهِ لا بقدرتكَ وقوتكَ، ولوْ شاءَ لنزعَ البركةَ منهُ فلمْ يجتمعْ.

الثانية: قالَ مالكٌ: ينبغي لكلِّ منْ دخلَ منزلهُ أنْ يقولَ هذا، وروى مسلمٌ في صحيحهِ منْ حديثِ أبي موسى أنه ﷺ قالَ: «يا أبا موسى أوْ يا عبدَ اللهِ بنَ قيسٍ ألا أدلكَ على كلمةٍ منْ كنزِ الجنةِ- في روايةٍ على كنزٍ منْ كنوزِ الجنةِ» قلتُ: ما هيَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ».

وخرجَ الترمذيُّ منْ حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «من قالَ -يعني إذا خرجَ منْ بيتهِ- باسمِ اللهِ توكلتُ على اللهِ لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ يقالُ كفيتَ ووقيتَ وتنحى عنهُ الشيطانُ» هذا حديثٌ غريبٌ لا نعرفهُ إلا منْ هذا الوجهِ. خرجهُ أبو داودَ أيضًا وزادَ فيهِ- فقالَ لهُ: «هديتَ وكفيتَ ووقيتَ».

وأخرجهُ ابنُ ماجهْ منْ حديثِ أبي هريرةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «إذا خرجَ الرجلُ منْ بابِ بيتهِ أوْ بابِ دارهِ كانَ معهُ ملكانِ موكلانِ بهِ فإذا قالَ باسمِ اللهِ قالا هديتَ وإذا قالَ لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ قالا وقيتَ، وإذا قالَ توكلتُ على اللهِ قالا كفيتَ، قالَ فيلقاهُ قريناهُ فيقولانِ ماذا تريدانِ منْ رجلٍ قدْ هديَ ووقيَ وكفيَ».

قوله تعالى: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ٣٩﴾ ﴿إِن﴾ شرطٌ ﴿تَرَنِ﴾ مجزومٌ بهِ، والجواب ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ﴾ و ﴿أَنَا۠﴾ فاصلةٌ لا موضعَ لها منَ الإعرابِ. ويجوزُ أنْ تكونَ في موضعِ نصبٍ توكيدًا للنونِ والياءِ و ﴿فَعَسَىٰ﴾ بمعنى لعلَّ أيْ فلعلَّ ربي ﴿أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ أيْ في الآخرةِ. وقيلَ: في الدنيا ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أيْ على جنتكَ ﴿حُسْبَانًا﴾ أيْ مرامي منَ السماءِ، واحدها حسبانةٌ، وقيل: الحُسبانُ «بالضمِّ»: العذابُ، والحسبانُ أيضًا

الحسابُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ وقدْ فسرَ الحسبانُ هنا بهذا.

﴿فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ۝٤٠﴾ يعني أرضًا بيضاءَ لا ينبتُ فيها نباتٌ ولا يثبتُ عليها قدمٌ، وهيَ أضرُّ أرضٍ بعدَ أنْ كانت جنة أنفع أرض، و ﴿زَلَقًا﴾ تأكيد لوصف الصعيد، أي وتزل عنها الأقدامُ لملاستها.

﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا﴾ أيْ غائرًا ذاهبًا، فتكونُ أعدمَ أرضٍ للماءِ بعدَ أنْ كانتْ أوجدَ أرضٍ للماءِ. والغورُ مصدرٌ وضعَ موضعَ الاسمِ، كما يقالُ: رجلٌ صومٌ وفطرٌ وعدلٌ، وقيل: أوْ يصبحَ ماؤها ذا غور، فحذف المضاف، مثل ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾

﴿فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ۝٤١﴾ أيْ لنْ تستطيعَ ردَّ الماءِ الغائرِ، ولا تقدرُ عليهِ بحيلةٍ. وقيل: فلنْ تستطيعَ طلبَ غيرهِ بدلًا منهُ. وإلى هذا الحديثِ انتهت مناظرة أخيه وإنذاره.

قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ اسمُ ما لمْ يسمَّ فاعلهُ مضمرٌ، وهوَ المصدرُ. ويجوزُ أنْ يكونَ المخفوضُ في موضعِ رفعٍ. ومعنى: ﴿أُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أيْ أُهلكُ مالهُ كلهُ. وهذا أولُ ما حققَ اللهُ تعالى به إنذار أخيه ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ﴾ أي فأصبح الكافر يضرب إحدى يديهِ على الأخرى ندمًا، لأنَّ هذا يصدرُ منَ النادمِ. وقيل: يقلبُ ملكهُ فلا يرى فيهِ عوضَ ما أنفقَ، وهذا لأنَّ الملكَ قدْ يعبرُ عنهُ باليدِ، منْ قولهمْ: في يده مال، أي في ملكه مالٌ. ودلَّ قولهُ ﴿فَأَصۡبَحَ﴾ على أنَّ هذا الإهلاكَ جرى بالليلِ، كقولهِ ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠﴾.

﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أيْ خاليةٌ قدْ سقطَ بعضها على بعضٍ، مأخوذٌ منْ خوتِ النجومُ تخوي، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾ أيْ ساقطةٌ على سقوفها، فجمعَ عليهِ بينَ هلاكِ الثمرِ والأصلِ، وهذا منْ أعظمِ الجوائح، مقابلةً على بغيهِ ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ۝٤٢﴾ أيْ يا ليتني عرفتُ نعمَ اللهِ عليَّ، وعرفتُ أنها

كانتْ بقدرةِ اللهِ ولمْ أكفرْ بهِ. وهذا ندمٌ منهُ حينَ لا ينفعهُ الندم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ﴿فِئَةٞ﴾ اسم ﴿تَكُن﴾ و ﴿لَّهُۥ﴾ الخبرُ. ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ في موضعِ الصفةِ، أيْ فئةٌ ناصرةٌ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ الخبرُ. أيْ فرقةٌ وجماعةٌ يلتجئُ إليهمْ ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾ أيْ ممتنعًا، أيْ لمْ تكنْ لهُ عشيرةٌ يمنعونهُ منْ عذابِ اللهِ، وضلَّ عنهُ من افتخر بهم من الخدم والولد.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ﴾ اختلفَ في العاملِ في قولهِ: ﴿هُنَالِكَ﴾ وهوَ ظرفٌ، فقيلَ: العاملُ فيهِ ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ﴾ ولا كانَ هنالكَ، أيْ ما نصرَ ولا انتصرَ هنالكَ، أيْ لما أصابهُ منَ العذابِ. وقيل: تمَّ الكلامُ عندَ قولهِ: ﴿مُنتَصِرًا﴾. والعاملُ في قولهِ: ﴿هُنَالِكَ﴾ : ﴿ٱلۡوَلَٰيَةُ﴾. وتقديرهُ على التقديمِ والتأخيرِ: الولايةُ للهِ الحقِّ هنالكَ، أيْ في القيامةِ.

وقرأَ أبو عمرو والكسائيُّ «الْحَقُّ» بالرفعِ نعتًا للولايةِ، وقرأَ أهلُ المدينةِ وحمزةُ ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ بالخفضِ نعتًا للهِ عزَّ وجلَّ، والتقديرُ: للهِ ذي الحقِّ.

وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ «الْوِلَايَةُ» بكسرِ الواوِ، الباقونَ بفتحها، وهما بمعنى واحدٍ كالرضاعةِ والرَّضاعةِ. وقيل: الولايةُ بالفتحِ منَ الموالاةِ، كقولهِ ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وبالكسرِ يعني السلطانَ والقدرةَ والإمارةَ، كقولهِ ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ أيْ لهُ الملكُ والحكمُ يومئذٍ، أيْ لا يردُّ أمرهُ إلى أحدٍ، والملكُ في كلِّ وقتٍ للهِ ولكنْ تزولُ الدعاوى والتوهماتُ يومَ القيامةِ. وقالَ أبو عبيدٍ: إنها بفتحِ الواوِ للخالقِ، وبكسرها للمخلوقِ.

﴿هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا﴾ أيِ اللهُ خيرٌ ثوابًا في الدنيا والآخرةِ لمنْ آمنَ بهِ، وليسَ ثمَّ غيرٌ يرجى منهُ، ولكنهُ أرادَ في ظنِّ الجهالِ، أيْ هوَ خيرٌ منْ يرجى ﴿وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ﴿٤٤﴾﴾ قرأَ عاصمٌ وحمزةُ

﴿عُقْبًا﴾ ساكنةُ القافِ، الباقونَ بضمها، وهما بمعنى واحدٍ، أيْ هوَ خيرٌ عاقبة لمنْ رجاهُ وآمنَ بهِ. يقالُ: هذا عاقبةُ أمر فلان وعقباه وعقبه، أي آخره.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أيْ صفْ لهؤلاءِ المتكبرينَ الذينَ سألوك طرد فقراء المؤمنينَ مثلَ الحياةِ الدنيا، أيْ شبهها ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ﴾ أيْ بالماءِ ﴿نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ حتى استوى. وقيل: إنَّ النباتَ اختلطَ بعضهُ ببعضٍ حينَ نزلَ عليهِ الماءُ، لأنَّ النباتَ إنما يختلطُ ويكثرُ بالمطرِ.

قالتِ الحكماءُ: إنما شبهَ تعالى الدنيا بالماءِ لأنَّ الماءَ لا يستقرُّ في موضع، كذلكَ الدنيا لا تبقى على واحدٍ، ولأنَّ الماءَ لا يستقيمُ على حالةٍ واحدةٍ كذلكَ الدنيا، ولأنَّ الماءَ لا يبقى ويذهبُ كذلكَ الدنيا تفنى، ولأنَّ الماءَ لا يقدرُ أحدٌ أنْ يدخلهُ ولا يبتلَّ كذلكَ الدنيا لا يسلمُ أحدٌ دخلها منْ فتنتها وآفتها، ولأنَّ الماءَ إذا كانَ بقدرٍ كانَ نافعًا منبتًا، وإذا جاوزَ المقدارَ كانَ ضارًا مهلكًا، وكذلكَ الدنيا الكفافُ منها ينفعُ وفضولها يضرُّ. وفي صحيح مسلمٍ عنِ النبيِّ ﷺ: «قدْ أفلحَ منْ أسلمَ ورزقَ كفافًا وقنعهُ اللهُ بما أتاهُ» ﴿فَأَصْبَحَ﴾ أيِ النباتُ ﴿هَشِيمًا﴾ أيْ متكسرًا منَ اليبسِ متفتتًا، يعني بانقطاعِ الماءِ عنهُ، فحذفَ ذلكَ إيجازًا لدلالةِ الكلامِ عليهِ. والهشمُ: كسرُ الشيءِ اليابسِ. والهشيمُ منَ النباتِ اليابسُ المتكسرُ، والشجرةُ الباليةُ يأخذها الحاطبُ كيفَ يشاءُ. ومنهُ سميَ هاشمُ بنُ عبدِ منافٍ واسمهُ عمرو، وفيهِ يقولُ عبدُ اللهِ بنُ الزبعرى:

عمرو العلا هشمَ الثريدَ لقومهِ ورجالُ مكةَ مسنتونَ عجافُ

﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ﴾ أيْ تفرقهُ.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝٤٥﴾ منَ الإنشاء والإفناء والإحياء سبحانه.

قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ويجوزُ «زينتَا» وهوَ خبرُ الابتداءِ في التثنيةِ والإفرادِ. وإنما كانَ المالُ والبنونَ زينةَ الحياةِ الدنيا لأنَّ في المالِ جمالًا ونفعًا، وفي البنينَ قوةً ودفعًا، فصارا زينةَ الحياةِ الدنيا، وما كانَ منْ زينةِ الحياةِ الدنيا فهوَ غرورٌ يمرُّ ولا

يبقى، كالهشيمِ حينَ ذرتهُ الريحُ، إنما يبقى ما كانَ منْ زادِ القبرِ وعددِ الآخرةِ.

ويكفى في هذا قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، وقالَ تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ أيْ ما يأتي بهِ سلمانُ وصهيبٌ وفقراءُ المسلمين من الطاعات ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أيْ أفضلُ ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا ۝٤٦﴾ أي أفضل منْ ذي المالِ والبنينَ دونَ عملِ صالحٍ، وليسَ في زينةِ الدنيا خيرٌ، ولكنهُ خرجَ مخرجَ قولهِ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾. وقيل: خيرٌ في التحقيقِ مما يظنهُ الجهالُ أنه خير في ظنهم.

واختلف العلماء في ﴿ٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾، فقيل: هيَ الصلواتُ الخمسُ. وقيل: إنها كلُّ عملِ صالحٍ منْ قولٍ أوْ فعلٍ يبقى للآخرةِ، وهوَ الصحيحُ إنْ شاءَ اللهُ، لأنَّ كلَّ ما بقيَ ثوابهُ جاز أن يقال له هذا.

وقال علي رضي الله عنه: الحرثُ حرثانِ فحرثُ الدنيا المالُ والبنونَ، وحرثُ الآخرةِ الباقياتُ الصالحاتُ، وقدْ يجمعهنَّ اللهُ تعالى لأقوامٍ.

وقالَ الجمهورُ: هيَ الكلماتُ المأثورُ فضلها: سبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ ولا إلهَ إلا اللهُ واللهُ أكبرُ ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ العليِّ العظيم. خرجهُ مالكٌ في موطئهِ عنْ سعيدِ بنِ المسيبِ، وأسندهُ النسائيُّ عنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «استكثروا منَ الباقياتِ الصالحاتِ» قيلَ: وما هيَ يا رسولَ الله؟ قال: «التكبيرُ والتهليلُ والتسبيحُ والحمدُ للهِ ولا حولَ ولا قوة إلا بالله». صححهُ أبو محمدٍ عبدُ الحقِّ رحمهُ اللهُ.

وخرجَ الترمذيُّ عنِ ابنِ مسعودٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لقيتُ إبراهيمَ عليه السلام ليلةَ أسريَ بي فقالَ يا محمدُ أقرئْ أمتكَ مني السلامَ وأخبرهمْ أنَّ الجنةَ طيبةُ التربةِ عذبةُ الماءِ وأنها قيعانٌ وأنَّ غراسها سبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ ولا إلهَ إلا اللهُ واللهُ أكبرُ» قالَ: حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

وقيل: هنَّ البناتُ، يدلُّ عليهِ أوائلُ الآيةِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ثمَّ قالَ: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ يعني البناتِ الصالحاتِ هنَّ عندَ اللهِ لآبائهن خير

ثوابا، وخيرٌ أملًا في الآخرةِ لمنْ أحسنَ إليهنَّ. يدلُّ عليهِ ما روتهُ عائشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: دخلتْ عليَّ امرأةٌ مسكينةٌ... الحديث، وقالَ قتادةُ في قوله تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ قالَ: أبدلهما منهُ ابنةً فتزوجها نبيٌّ فولدتْ لهُ اثنيْ عشرَ غلامًا كلهم أنبياء.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ قالَ بعضُ النحويينَ: التقديرُ والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عندَ ربكَ يومَ نسيرُ الجبالَ. قالَ النحاسُ: وهذا غلطٌ منْ أجلِ الواوِ وقيل: المعنى واذكرْ يومَ نسيرُ الجبالَ، أيْ نزيلها منْ أماكنها منْ على وجهِ الأرضِ، ونسيرها كما نسيرُ السحابَ، كما قالَ في آيةٍ أخرى ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ ثمَّ تكسرُ فتعودُ إلى الأرضِ، كما قالَ: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو وابنُ عامرٍ «وَيَوْمَ تُسَيَّرُ» بتاءٍ مضمومةٍ وفتح الياءِ. وَ «الْجِبالُ» رفعًا على الفعلِ المجهولِ. وقرأَ ابنُ محيصنٍ ومجاهدٌ «وَيَوْمَ تَسِيرُ الْجِبَالُ» بفتحِ التاءِ مخففًا منْ سارَ. «الْجِبَالُ» رفعًا. دليلُ قراءةِ أبي عمرو ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾. ودليلُ قراءةِ ابنِ محيصنٍ ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾. واختارَ أبو عبيدٍ القراءةَ الأولى ﴿نُسَيِّرُ﴾ بالنونِ لقولهِ ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾.

ومعنى: ﴿بَارِزَةً﴾ ظاهرةٌ، وليسَ عليها ما يسترها منْ جبلٍ ولا شجرٍ ولا بنيانٍ، أيْ قدِ اجتثتْ ثمارها وقلعتْ جبالها، وهدمَ بنيانها، فهيَ بارزةٌ ظاهرةٌ. وعلى هذا القولِ أهلُ التفسيرِ. وقيل: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أيْ برزَ ما فيها منَ الكنوزِ والأمواتِ، كما قال ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ وقالَ ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾.

﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ أيْ إلى الموقفِ ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۝٤٧﴾ أيْ لمْ نتركْ، يقالُ: غادرتُ كذا أيْ تركتهُ، ومنهُ الغدرُ، لأنه ترك الوفاءِ، وإنما سميَ الغديرُ منَ الماءِ غديرًا لأنَّ الماءَ ذهبَ وتركهُ.

قوله تعالى: - ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ صفًا بعدَ صفٍّ كالصفوفِ في الصلاةِ، كلُّ أمةٍ وزمرةٍ صفًا، لا أنهمْ صفٌّ واحدٌ. وقيل: جميعًا، كقولهِ ﴿ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا﴾ أيْ جميعًا.

وقيلَ: قيامًا.

﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ أيْ يقالُ لهمْ: لقدْ جئتمونا حفاةً عراةً، لا مالَ معكمْ ولا ولدًا. وقيلَ: فرادى، دليلهُ قولهُ ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

وفي صحيح مسلمٌ عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «يحشرُ الناسُ يومَ القيامةِ حفاةً عراةً غرلًا» قلتُ: يا رسولَ اللهِ! الرجالُ والنساءُ ينظرُ بعضهمْ إلى بعضٍ؟ قالَ: «يا عائشةُ، الأمر أشدُّ منْ أنْ ينظرَ بعضهمْ إلى بعضٍ». «غرلًا» أيْ غيرَ مختونينَ.

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ اسمُ جنسٍ، وفيهِ وجهانِ:

أحدهما- أنها كتبُ الأعمالِ في أيدي العبادِ.

الثاني- أنهُ وضعَ الحسابُ، لأنهمْ يحاسبونَ على أعمالهمُ المكتوبةِ. والقولُ الأولُ أظهرُ.

قولهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾ الصغيرةُ ما دونَ الشركِ، والكبيرةُ الشركُ، وقيل: الصغيرةُ التبسمُ، والكبيرةُ الضحكُ، يعني ما كانَ منْ ذلكَ في معصيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وقيل: إنَّ الصغائرَ اللممُ كالمسيس والقبل، والكبيرة المواقعة والزنى.

اشتكى القومُ الإحصاءَ، وما اشتكى أحدٌ ظلمًا، فإياكمْ ومحقراتِ الذنوبِ فإنها تجتمعُ على صاحبها حتى تهلكهُ.

ومعنى: ﴿أَحْصَىٰهَاۚ﴾ عدها وأحاطَ بها، وأضيفَ الإحصاءُ إلى الكتابِ توسعا ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًاۗ﴾ أيْ وجدوا إحصاءَ ما عملوا حاضرًا. وقيل: وجدوا جزاء ما عملوا حاضرًا ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ أيْ لا يأخذُ أحدًا بجرمِ أحدٍ، ولا يأخذوه بما لم يعمله، وقيل: لا ينقصُ طائعًا منْ ثوابهِ ولا يزيد عاصيا في عقابه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ

﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ تقدمَ في «البقرةِ» هذا مستوفى ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ وقفَ عزَّ وجلَّ الكفرةَ على جهةِ التوبيخِ بقولِهِ: أفتتخذونهُ يا بنى آدم وذريتهُ أولياءَ منْ دوني وهمْ لكمْ عدوٌّ أيْ أعداءً، فهوَ اسمُ جنسٍ ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾ أيْ بئسَ عبادةُ الشيطانِ بدلًا عنْ عبادةِ اللهِ. أوْ بئسَ إبليسُ بدلًا عنِ اللهِ.

واختلفَ هلْ لإبليسَ ذريةٌ منْ صلبهِ، فقالَ الشعبيُّ: سألني رجلٌ فقالَ هلْ لإبليسَ زوجةٌ؟ فقلتُ: إنَّ ذلكَ عرسٌ لمْ أشهدهُ، ثمَّ ذكرتُ قولهُ ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ﴾ فعلمتُ أنه لا تكون ذريةٌ إلا منْ زوجةٍ فقلتُ نعمْ.

والجملةُ أنَّ اللهَ تعالى أخبرَ أنَّ لإبليسَ أتباعًا وذريةً، وأنهمْ يوسوسونَ إلى بني آدمَ وهمْ أعداؤهمْ، ولا يثبتُ عندنا كيفيةٌ في كيفيةِ التوالدِ منهمْ وحدوثِ الذريةِ عنْ إبليسَ، فيتوقفُ الأمرُ فيهِ على نقلٍ صحيحٍ.

وقوله ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ ظاهرُ اللفظِ يقتضي الموسوسينَ منَ الشياطينِ، الذينَ يأتونَ بالمنكرِ ويحملونَ على الباطلِ. وعن مجاهد قالَ: ذريةُ إبليسَ الشياطينُ، وفي مسلم أنَّ للصلاةِ شيطانًا يسمى خنزبُ. وذكرَ الترمذيُّ أنَّ للوضوءِ شيطانًا يسمى الولهانُ.

وفي صحيح مسلمٍ عنْ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ: إنَّ الشيطانَ ليتمثلُ في صورةِ الرجلِ فيأتي القومَ فيحدثهمْ بالحديثِ منَ الكذبِ فيتفرقونَ فيقولُ الرجلُ منهمْ سمعتُ رجلًا أعرفُ وجههُ ولا أدري ما اسمهُ يحدثُ.

وفي صحيح مسلمٍ عنْ جابرٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إن إبليسَ يضعُ عرشهُ على الماءِ ثمَّ يبعثُ سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيءُ أحدهمْ فيقولُ فعلتُ كذا وكذا فيقولُ ما صنعت شيئا قال ثم يجيءُ أحدهمْ فيقولُ ما تركتهُ حتى فرقتُ بينهُ وبينَ أهلهِ قالَ فيدنيهِ أوْ قالَ فيلتزمهُ ويقولُ نعمْ أنتَ.

قوله تعالى: ﴿۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ قيلَ: الضميرُ عائدٌ على إبليسَ وذريتِهِ، أيْ لمْ أشاورهمْ في خلق السموات والأرضِ ولا خلقِ أنفسهمْ، بلْ خلقتهمْ على ما أردتُ، وقيل: الكنايةُ في قولهِ: ﴿۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ﴾ ترجعُ إلى المشركينَ، وإلى الناس بالجملة، فتضمن الآيةُ الردَّ على طوائفَ منَ المنجمينَ وأهلِ الطبائعِ والمتحكمينَ منَ الأطباءِ وسواهمْ منْ كلِّ من يتخوض في هذهِ الأشياءِ.

وقرأَ أبو جعفرٍ: «مَا أَشْهَدْنَاهُمْ» بالنونِ والألفِ على التعظيمِ. الباقونَ بالتاءِ بدليلِ قولهِ: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ﴾ يعني ما استعنتهمْ على خلق السموات والأرضِ ولا شاورتهمْ ﴿ٱلۡمُضِلِّينَ﴾ يعني الشياطينَ. وقيل: الكفارُ ﴿عَضُدٗا ٥١﴾ أيْ أعوانًا يقالُ: اعتضدتُ بفلانٍ إذا استعنتُ بهِ وتقويتُ. والأصلُ فيهِ عضدُ اليدِ، ثمَّ يوضعُ موضعَ العونِ، لأنَّ اليدَ قوامها العضدَ، ومنهُ قوله تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أيْ سنعينكَ بأخيكَ. ولفظُ العضدِ على جهةِ المثلِ، واللهُ سبحانهُ وتعالى لا يحتاجُ إلى عونِ أحدٍ. وخصَّ المضلينَ بالذكرِ لزيادةِ الذمِّ والتوبيخِ. وقرأَ أبو جعفرٍ الجحدريُّ: «وَما كُنْتَ» بفتحِ التاءِ أيْ وما كنتَ يا محمدُ متخذَ المضلينَ عضدًا.

قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ﴾ أيِ اذكروا يومَ يقولُ اللهُ: أينَ شركائي؟ أيِ ادعوا الذينَ أشركتموهمْ بي فليمنعوكمْ منْ عذابي. وإنما يقولُ ذلكَ لعبدةِ الأوثانِ. وقرأَ حمزةُ «نَقُولُ» بنونٍ. الباقونَ بالياءِ، لقولهِ: ﴿شُرَكَآءِيَ﴾ ولمْ يقل: شركاءنا ﴿فَدَعَوۡهُمۡ﴾ أيْ فعلوا ذلكَ ﴿فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ أيْ لمْ يجيبوهمْ إلى نصرهمْ ولمْ يكفوا عنهمْ شيئًا ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا ٥٢﴾ قالَ أنسُ ابن مالكٍ: هوَ وادٍ في جهنمَ منْ قيحٍ ودمٍ. وقالَ ابنُ عباسٍ: أيْ وجعلنا بينَ المؤمنينَ والكافرينَ حاجزًا. وقيل: بينَ الأوثانِ وعبدتها، نحو قوله: ﴿فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ ﴿فَظَنُّوٓاْ﴾ هنا بمعنى اليقينِ والعلمِ أيْ أيقنوا «أيقنوا أنهمْ مواقعوها» وقيل: رأوها منْ مكانٍ بعيدٍ فتوهموا أنهمْ مواقعوها، وظنوا أنها تأخذهمْ في الحالِ ﴿وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ٥٣﴾ أيْ مهربًا لإحاطتها بهمْ منْ كلِّ جانبٍ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتملُ وجهينِ:

أحدهما: ما ذكرهُ لهمْ منَ العبرِ والقرونِ الخاليةِ.

الثاني: ما أوضحهُ لهمْ منْ دلائلِ الربوبيةِ، فهوَ على الوجهِ الأولِ زجرٌ، وعلى الثاني بيانٌ.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾ أيْ جدالًا ومجادلةً أيِ الكافرُ أكثرُ شيءٍ جدلًا، والدليلُ على أنهُ أرادَ الكافرَ قولهُ: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾.

وروى أنسٌ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «يؤتى بالرجلِ يومَ القيامةِ منَ الكفارِ فيقولُ اللهُ لهُ ما صنعتَ فيما أرسلتُ إليكَ فيقولُ ربِّ آمنتُ بكَ وصدقتُ برسلكَ وعملتُ بكتابكَ فيقولُ اللهُ لهُ هذهِ صحيفتكَ ليسَ فيها شيء منْ ذلكَ فيقولُ يا ربِّ إني لا أقبلُ ما في هذهِ الصحيفةِ فيقالُ لهُ هذهِ الملائكةُ الحفظةُ يشهدونَ عليكَ فيقولُ ولا أقبلهمْ يا ربِّ وكيفَ أقبلهمْ ولا همْ منْ عندي ولا منْ جهتي فيقولُ اللهُ تعالى هذا اللوحُ المحفوظُ أمُّ الكتابِ قدْ شهدَ بذلكَ فقالَ يا ربِّ ألمْ تجرني منَ الظلمِ قالَ بلى فقالَ يا ربِّ لا أقبل إلا شاهدا علي منْ نفسي فيقولُ اللهُ تعالى الآنَ نبعثُ عليكَ شاهدًا منْ نفسكَ فيتفكرُ منْ ذا الذي يشهدُ عليهِ منْ نفسهِ فيختمُ على فيهِ ثمَّ تنطقُ جوارحهُ بالشركِ ثمَّ يخلى بينهُ وبينَ الكلامِ فيدخلُ النارَ وإنَّ بعضهُ ليلعنُ بعضًا يقولُ لأعضائهِ لعنكنَّ اللهُ فعنكنَّ كنتُ أناضلُ فتقولُ أعضاؤهُ لعنكَ اللهُ أفتعلمُ أنَّ اللهَ تعالى يكتمُ حديثًا فذلكَ قولهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾ أخرجهُ مسلمٌ بمعناهُ منْ حديثِ أنسٍ أيضًا.

وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ عليٍّ أنَّ النبيَّ ﷺ طرقه وفاطمة فقالَ: «ألا تصلونَ» فقلتُ: يا رسولَ اللهِ إنما أنفسنا بيدِ اللهِ فإذا شاءَ أنْ يبعثنا بعثنا، فانصرفَ رسولُ اللهِ ﷺ حينَ قلتُ لهُ ذلكَ، ثمَّ سمعتهُ وهوَ مدبرٌ يضربُ فخذهُ ويقولُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾.

قولهُ تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أيِ القرآنُ والإسلامُ ومحمدٌ ﷺ ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي سنتنا في إهلاكهم أيْ ما منعهمْ عنِ الإيمانِ إلا حكمي عليهمْ بذلكَ، ولوْ حكمتُ عليهمْ بالإيمانِ آمنوا. وسنةُ الأولينَ عادةُ الأولينَ في عذابِ الاستئصالِ ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥﴾ نصبَ على

الحالِ، ومعناهُ عيانًا، وقيل: فجأةً.

وقرأَ أبو جعفرٍ وعاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ ﴿قُبُلًا﴾ بضمتينِ أرادوا بهِ أصنافَ العذابِ كلهِ، جمعُ قبيلٍ نحوُ سبيلٍ وسبلٍ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ بالجنةِ لمنْ آمنَ ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ أيْ مخوفينَ بالعذابِ منَ الكفرِ ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ قيلَ: نزلتْ في المقتسمينَ كانوا يجادلونَ في الرسولِ ﷺ فيقولونَ: ساحرٌ ومجنونٌ وشاعرٌ وكاهنٌ، ومعنى: ﴿يُدْحِضُواْ﴾ يزيلوا ويبطلوا وأصلُ الدحضِ الزلقُ. يقالُ: دحضتْ رجلهُ أيْ زلقتْ، تدحضُ دحضًا ودحضتِ الشمسُ عنْ كبدِ السماءِ زالتْ ودحضتْ حجتهُ دحوضًا بطلتْ، وأدحضها اللهُ ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى﴾ يعني القرآنَ ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ منَ الوعيدِ ﴿هُزُوًا﴾ وَ ﴿مَا﴾ بمعنى المصدرِ أيْ والإنذارُ وقيل: بمعنى الذي، أيِ اتخذوا القرآنَ والذي أنذروا بهِ منَ الوعيدِ هزوًا أيْ لعبًا وباطلًا.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أيْ لا أحدَ أظلمُ لنفسهِ ممنْ وعظَ بآياتِ ربهِ، فتهاونَ بها وأعرضَ عنْ قبولها ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أيْ تركَ كفرهُ ومعاصيهُ فلمْ يتبْ منها، فالنسيان هنا بمعنى الترك قيل: المعنى نسيَ ما قدمَ لنفسهِ وحصلَ منَ العذابِ، والمعنى متقاربٌ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ بسببِ كفرهمْ، أيْ نحنُ منعنا الإيمانَ منْ أنْ يدخلَ قلوبهمْ وأسماعهمْ ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أيْ إلى الإيمانِ ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ٥٧﴾ نزلَ في قومٍ معينينَ.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أيْ للذنوبِ. وهذا يختصُّ بهِ أهلُ الإيمانِ دونَ الكفرةِ بدليلِ قولهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾. ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ فيهِ أربعُ تأويلاتٍ: أحدها- ذو العفوِ. **الثاني**- ذو الثوابِ، وهوَ على هذينِ الوجهينِ مختصٌّ بأهلِ الإيمانِ دونَ الكفرِ. **الثالثُ**: ذو النعمةِ. **الرابعُ**: ذو الهدى، وهوَ على هذينِ الوجهينِ يعمُّ أهلَ الإيمانِ والكفرِ، لأنهُ ينعمُ في الدنيا على الكافرِ، كإنعامهِ على المؤمنِ. وقدْ أوضحَ هداهُ للكافرِ كما أوضحهُ للمؤمنِ وإنِ اهتدى بهِ المؤمنُ دونَ الكافرِ.

ومعنى قولهِ: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ﴾ أيْ منَ الكفرِ والمعاصي ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ ولكنهُ يمهلُ ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ أيْ أجلٌ مقدرٌ يؤخرون إليه، نظيره: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أيْ إذا حلَّ لمْ يتأخرْ عنهمْ إما في الدنيا وإما في الآخرةِ ﴿لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ أيْ ملجًا، وقيل: منجى. وقيل: محيصًا، والمعنى واحدٌ.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ ﴿تِلْكَ﴾ في موضعِ رفعٍ بالابتداءِ. ﴿ٱلْقُرَىٰٓ﴾ نعتٌ أو بدل. و ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ في موضعِ الخبرِ محمولٌ على المعنى، لأنَّ المعنيَّ أهلُ القرى، أيْ وتلكَ القرى التي قصصنا عليكَ نبأهمْ، نحوَ قرى عادٍ وثمودَ ومدينَ وقوم لوطٍ أهلكناهمْ لما ظلموا وكفروا ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ أيْ وقتًا معلومًا لمْ تعدهُ. وَ ﴿مَهْلِكِ﴾ منْ أُهْلِكوا. وفي قرءاة لعاصمٌ: ﴿مَهْلَكُهُمْ﴾ بفتحِ الميمِ واللامِ وهوَ مصدرُ هلكَ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾، فيه أربع مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ﴾ الجمهورُ منَ العلماءِ وأهلِ التاريخِ أنهُ موسى بنُ عمرانَ المذكورُ في القرآنِ ليسَ فيهِ موسى غيرهُ. وقالت فرقة: إنهُ ليسَ ابنَ عمرانَ وإنما هوَ موسى بنُ منشا بنِ يوسفَ بنِ يعقوبَ وكانَ نبيا قبل موسى ابن عمرانَ. وقدْ ردَّ هذا القولَ ابنُ عباسٍ في صحيحِ البخاريِّ وغيرهِ. وفتاهُ: هوَ يوشعُ بنُ نونٍ ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ أيْ لا أزالُ أسيرُ، وقيل: ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ لا أفارقكَ ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أيْ ملتقاهما. قيل: هوَ بحرُ فارسَ والرومِ، وقيل: هوَ ذراعٌ يخرجُ منَ البحرِ المحيطِ منْ شمالٍ إلى جنوبٍ في أرضِ فارسَ منْ وراءِ أذربيجانَ، فالركنُ الذي لاجتماعِ البحرينِ مما يلي برَّ الشامِ هوَ مجمعُ البحرينِ على هذا القولِ. وقيل: هما بحرُ الأردنِّ وبحرُ القلزمِ. وقيل: مجمعُ البحرينِ عندَ طنجة.

وسببُ هذهِ القصةِ ما خرجهُ الصحيحانُ عنْ أبيِّ بنِ كعبٍ أنهُ سمعَ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إنَّ موسى ﷺ قام خطيبا في بني إسرائيلَ فسُئِلَ أيُّ الناسِ أعلمُ؟ فقالَ: أنا، فعتبَ

اللهُ عليهِ إذْ لمْ يردَّ العلمَ إليهِ فأوحى اللهُ إليهِ إنَّ لي عبدًا بمجمعِ البحرينِ هوَ أعلمُ منكَ. قالَ موسى: يا ربِّ فكيفَ لي بهِ؟ قالَ: تأخذُ معكَ حوتًا فتجعلهُ في مكتلٍ فحيثما فقدتَ الحوتَ فهوَ ثمَّ» وذكرَ الحديثَ، واللفظُ للبخاريِّ.

قالَ علماؤنا: وقوله في الحديثِ: «هوَ أعلمُ منكَ» أيْ بأحكامِ وقائعِ مفصلةٍ، وحكمِ نوازلٍ معينةٍ، لا مطلقًا بدليلِ قولِ الخضرِ لموسى: إنكَ على علمٍ علمكهُ اللهُ لا أعلمهُ أنا، وأنا على علمٍ علمنيهِ لا تعلمهُ أنتَ.

الثانية: في هذا منَ الفقهِ رحلةُ العالمِ في طلبِ الازديادِ منَ العلمِ والاستعانةِ على ذلكَ بالخادمِ والصاحبِ، واغتنام لقاءِ الفضلاءِ والعلماءِ وإن بعدت أقطارهم وذلك كان دأبِ السلفِ الصالحِ وبسببِ ذلكَ وصلَ المرتحلونَ إلى الحظِّ الراجحِ وحصلوا على السعيِ الناجحِ، فرسختْ لهمْ في العلومِ أقدامٌ وصحَّ لهمْ منَ الذكرِ والأجرِ والفضلِ أفضلُ الأقسامِ. قالَ البخاريُّ: ورحلَ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ مسيرةَ شهرٍ إلى عبدِ اللهِ بنِ أنيسٍ في حديث.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ للعلماءِ فيهِ ثلاثةُ أقوال:

أحدهما- أنهُ كانَ معهُ يخدمهُ والفتى في كلامِ العربِ الشابُّ ولما كانَ الخَدَمَةُ أكثرَ ما يكونونَ فتيانًا قيلَ للخادمِ: فتى على جهةِ حسنِ الأدبِ وندبتِ الشريعةُ إلى ذلكَ في قولِ النبيِّ ﷺ: «لا يقلْ أحدكمْ عبدي ولا أمتي وليقلْ فتايَ وفتاتي» فهذا ندبٌ إلى التواضعِ، والفتى في الآيةِ هوَ الخادمُ وهوَ يوشع بن نون بن إفراثيم ابن يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. ويقالُ: هوَ ابنُ أختِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ. وقيل: إنما سميَ فتى موسى لأنهُ لزمهُ ليتعلمَ منهُ وإنْ كانَ حرًا، وهذا معنى الأولِ.

وقيل: إنما سماهُ فتى لأنهُ قامَ مقامَ الفتى وهوَ العبدُ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾ وقالَ: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ قالَ ابنُ العربيِّ: فظاهرُ القرآنِ يقتضي أنهُ عبدٌ، وفي الحديثِ: أنهُ كانَ يوشعُ بنُ نونٍ. وفي التفسيرِ أنهُ ابنُ أختهِ وهذا كلهُ مما لا يقطعُ بهِ والتوقفُ فيهِ أسلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ٦٠﴾ بضمِّ الحاءِ والقافِ وهوَ الدهرُ وقدْ تسكنُ قافهُ فيقالُ حقبٌ قالَ ابنُ عمرَ: الحقبُ ثمانونَ سنةً. وقيل: سبعونَ خريفًا. وعند أهلُ اللغةِ أنَّ الحقبَ والحقبةُ زمانٌ منَ الدهرِ مبهمٌ غيرُ محدودٍ، كما أنَّ رهطًا وقومًا مبهمٌ غيرُ محدودٍ: وجمعهُ أحقاب وحقابٌ. والحقبةُ بكسرِ الحاءِ واحدةُ الحقب وهي السنون.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ٦١﴾ الضميرُ في قولهِ: ﴿بَيۡنَهُمَا﴾ للبحرينِ، والسَرب المسلك، وظاهرُ الرواياتِ والكتابِ أنهُ إنما وجدَ الخضرَ في ضفةِ البحرِ وقولهُ: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ وإنما كانَ النسيانُ منَ الفتى وحدهُ فنسبَ النسيانَ إليهما للصحبةِ، كقوله تعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ وإنما يخرج من الملح، وقوله: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ وإنما الرسلُ منَ الإنسِ لا منَ الجنِّ.

وفي البخاريِّ: فقالَ لفتاهُ لا أكلفكَ إلا أنْ تخبرني بحيثُ يفارقكَ الحوتُ، قالَ: ما كلفتَ كبيرا، فذلكَ قولهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾، فيهِ مسألةٌ واحدةٌ، وهوَ اتخاذُ الزادِ في الأسفارِ، وهوَ ردٌّ على الصوفيةِ الجهلةِ الأغمارِ، الذينَ يقتحمونَ المهامةَ والقفارَ، زعمًا منهمْ أنَّ ذلكَ هوَ التوكلُ على اللهِ الواحدِ القهارِ، هذا موسى نبيُّ اللهِ وكليمهُ منْ أهلِ الأرضِ قدِ اتخذَ الزادَ معَ معرفتهِ بربهِ، وتوكلهِ على ربِّ العبادِ. وفي البخاريِّ: إنَّ ناسًا منْ أهلِ اليمنِ كانوا يحجونَ ولا يتزودونَ، ويقولونَ: نحنُ المتوكلونَ، فإذا قدموا سألوا الناسَ، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾.

وقوله: ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ٦٢﴾ أيْ تعبًا، والنصبُ التعبُ والمشقةُ. وقيل: عنى بهِ هنا الجوعَ، وفي هذا دليلٌ على جوازِ الإخبار بما يجدهُ الإنسانُ منَ الألمِ والأمراضِ، وأنَّ ذلكَ لا يقدحُ في الرضا، ولا في التسليمِ للقضاءِ لكنْ إذا لمْ يصدرْ ذلكَ عنْ ضجرٍ ولا سخطٍ.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ٦٣﴾ يحتملُ أنْ يكونَ منْ قولِ يوشعَ

لموسى، أي اتخذَ الحوتُ سبيلهُ عجبًا للناسِ. ويحتملُ أنْ يكونَ قولهُ: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ تمامُ الخبرِ، ثمَّ استأنفَ التعجيبَ فقالَ منْ نفسهِ: ﴿عَجَبًا﴾ لهذا الأمرِ. وموضعُ العجبِ أنْ يكونَ حوتٌ قدْ ماتَ فأكل شقه الأيسر ثم حي بعدَ ذلكَ.

ويحتملُ أنْ يكونَ قولهُ: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ﴾ إخبارًا منَ اللهِ تعالى، وذلكَ على وجهينِ: إما أنْ يخبرَ عنْ موسى أنهُ اتخذَ سبيلَ الحوتِ منَ البحرِ عجبًا، أيْ تعجبَ منهُ. وإما أن يخبر عنِ الحوتِ أنهُ اتخذَ سبيلهُ عجبًا للناسِ. ومنْ غريبِ ما رويَ في البخاريِّ عنِ ابنِ عباسٍ منْ قصصِ هذهِ الآيةِ: أنَّ الحوتَ إنما حييَ لأنهُ مسهُ ماءُ عينٍ هناكَ تدعى عينُ الحياةِ، ما مستْ قطُّ شيئًا إلا حييَ.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ﴾ أيْ قالَ موسى لفتاهُ أمرُ الحوتِ وفقدهِ هوَ الذي كنا نطلبُ، فإنَّ الرجلَ الذي جئنا لهُ ثمَّ، فرجعا يقصانِ آثارهما لئلا يخطئا طريقهما.

وفي البخاريِّ: فوجدا خضرًا على طنفسةٍ خضراءَ على كبدِ البحرِ مسجى بثوبهِ، قدْ جعلَ طرفهُ تحتَ رجليهِ، وطرفهِ تحتَ رأسهِ، فسلمَ عليهِ موسى، فكشفَ عنْ وجههِ وقالَ: هلْ بأرضكَ منْ سلامٍ؟! منْ أنتَ؟ قالَ: أنا موسى. قالَ: موسى بني إسرائيلَ؟ قالَ: نعمْ. قالَ: فما شأنكَ؟ قالَ جئتُ لتعلمني مما علمتَ رشدًا.. الحديثَ.

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ العبدُ هوَ الخضرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ في قولِ الجمهورِ، وبمقتضى الأحاديثِ الثابتةِ. وخالفَ منْ لا يعتدُّ بقولهِ، فقالَ: ليسَ صاحبُ موسى بالخضرِ بلْ هوَ عالمٌ آخرُ، والصحيحُ أنهُ كانَ الخضرَ، بذلكَ وردَ الخبرَ عنِ النبيِّ ﷺ.

قالَ مجاهدٌ: سميَ الخضرُ لأنهُ كانَ إذا صلى اخضرَّ ما حولهُ، وروى الترمذيُّ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنما سميَ الخضرُ لأنهُ جلسَ على فروةٍ بيضاءَ فإذا هيَ تهتزُّ تحتهُ خضراءَ» هذا حديثٌ صحيحٌ غريبٌ. الفروةُ هنا وجهُ الأرضِ.

والخضرُ نبيٌّ عندَ الجمهورِ. وقيل: هوَ عبدٌ صالحٌ غيرُ نبيٍّ، والآيةُ تشهدُ بنبوتهِ لأنَّ بواطنَ أفعالهِ لا تكونُ إلا بوحيٍ. وأيضًا فإنَّ الإنسانَ لا يتعلمُ ولا يتبعُ إلا منْ فوقهُ، وليسَ

يجوزُ أنْ يكونَ فوقَ النبيِّ منْ ليس بنبي. وقيل: كانَ ملكًا أمرَ اللهُ موسى أنْ يأخذَ عنهُ مما حملهُ منْ علمِ الباطنِ. والأولُ الصحيحُ، واللهُ أعلمُ.

قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ الرحمةُ في هذهِ الآيةِ النبوةُ. وقيل: النعمةُ ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ أيْ علمَ الغيبِ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾، فيهِ مسألتان:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ هذا سؤالُ الملاطفِ، والمخاطبِ المستنزلِ المبالغِ في حسنِ الأدبِ، المعنى: هلْ يتفقُ لكَ ويخفُّ عليكَ؟ وعلى بعضِ التأويلاتِ يجيءُ كذلكَ قولهُ تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

الثانية: في هذهِ الآيةِ دليلٌ على أنَّ المتعلمَ تبعٌ للعالمِ وإنْ تفاوتتِ المراتبُ، ولا يظنُّ أنَّ في تعلمِ موسى منَ الخضرِ ما يدلُّ على أنَّ الخضرَ كانَ أفضلَ منهُ، فقدْ يشذُّ عنِ الفاضلِ ما يعلمهُ المفضولُ، والفضلُ لمنْ فضلهُ اللهُ، فالخضرُ إنْ كانَ وليًا فموسى أفضلُ منهُ، لأنهُ نبيٌّ والنبيُّ أفضلُ منَ الوليِّ، وإنْ كانَ نبيًا فموسى فضله بالرسالة. و ﴿رُشْدًا﴾ مفعول ثان بـ ﴿تُعَلِّمَنِ﴾. ﴿قَالَ﴾ الخضرُ: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾ أيْ إنكَ يا موسى لا تطيقُ أنْ تصبرَ على ما تراهُ منْ علمي، لأنَّ الظواهرَ التي هيَ علمكَ لا تعطيهِ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ أيْ سأصبرُ بمشيئةِ اللهِ ﴿وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾ قدْ ألزمتُ نفسي طاعتكَ، وقدِ اختلفَ في الاستثناءِ، هلْ هوَ يشملُ قولهُ: ﴿وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ أمْ لا؟ فقيلَ: يشملهُ كقوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾. وقيل: استثنى في الصبرِ فصبرَ، وما استثنى في قولهِ: ﴿وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ فاعترضَ وسألَ، قالَ علماؤنا: إنما كانَ ذلكَ منهُ، لأنَّ الصبرَ أمرٌ مستقبلٌ ولا يدرى كيفَ يكونُ حالهُ فيهِ، ونفيُ المعصيةِ معزومٌ عليهِ حاصلٌ في الحالِ، فالاستثناءُ فيهِ ينافي العزمَ عليهِ. ويمكنُ أنْ يفرقَ بينهما بأنَّ الصبرَ ليس مكتسبا لنا بخلاف فعل المعصية وتركها، فإنَّ ذلكَ كلهُ مكتسبٌ لنا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ٧٠﴾ أيْ حتى أكونَ أنا الذي أفسرهُ لكَ، وهذا منْ الخضرِ تأديبٌ وإرشادٌ لما يقتضي دوامَ الصحبةِ، فلوْ صبرَ ودأبَ لرأى العجبَ، لكنهُ أكثرَ منْ الاعتراضِ فتعينَ الفراقُ والإعراضُ.

قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: في صحيح مسلمٍ والبخاريِّ: «فانطلقا يمشيانِ على ساحلِ البحرِ، فمرتْ سفينةٌ فكلموهمْ أنْ يحملوهمْ، فعرفوا الخضرَ فحملوهُ بغيرِ نولٍ، فلما ركبا في السفينةِ لمْ يفجأْ موسى إلا والخضر قد قلع لوحًا منْ ألواحِ السفينةِ بالقدومِ، فقالَ لهُ موسى: قومٌ حملونا بغيرِ نولٍ عمدتَ إلى سفينتهمْ فخرقتها لتغرقَ أهلها ﴿لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ٧١ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ٧٣﴾. قالَ: وقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: وكانتِ الأولى: منْ موسى نسيانًا قالَ: وجاءَ عصفورٌ فوقع على حرف السفينة فنقر نقر في البحرِ، فقالَ لهُ الخضرُ: ما علمي وعلمكَ منْ علمِ اللهِ إلا مثلُ ما نقصَ هذا العصفورِ منْ هذا البحرِ.

قالَ علماؤنا: حرف السفينة طرفها وحرف كل شيء طرفهُ، ومنهُ حرفُ الجبلِ وهوَ أعلاهُ المحددُ. والعلم هنا بمعنى المعلوم، كما قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ﴾ أيْ منْ معلوماتهِ، وهذا منَ الخضرِ تمثيلٌ، أيْ معلوماتي ومعلوماتكَ لا أثرَ لها في علمِ اللهِ، كما أنَّ ما أخذَ هذا العصفورُ منْ هذا البحرِ لا أثرَ لهُ بالنسبةِ إلى ماءِ البحرِ، وإنما مثلَ لهُ ذلكَ بالبحرِ لأنهُ أكثرُ ما يشاهدهُ مما بينَ أيدينا، وإطلاقُ لفظِ النقصِ هنا تجوزٌ قصدَ بهِ التمثيلُ والتفهيمُ، إذْ لا نقصَ في علمِ اللهِ، ولا نهايةَ لمعلوماتهِ. وقدْ أوضحَ هذا المعنى البخاريُّ فقالَ: واللهِ ما علمي وما علمكَ في جنبِ علمِ اللهِ إلا كما أخذَ هذا الطيرُ بمنقارهِ منَ البحرِ.

الثانية: في خرقِ السفينةِ دليلٌ على أنَّ للوليِّ أنْ ينقصَ مالَ اليتيمِ إذا رآهُ صلاحًا، مثلَ أنْ يخافَ على ريعهِ ظالمًا فيخربُ بعضهُ. وقالَ أبو يوسفَ: يجوزُ للوليِّ أنْ يصانعَ السلطانَ ببعضِ مالِ اليتيمِ عنِ البعضِ. وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ: «لِيَغۡرَقَ» بالياءِ ﴿أَهۡلُهَا﴾ بالرفعِ فاعلُ

يغرقُ، فاللامُ على قراءةِ الجماعةِ في ﴿لِتُغْرِقَ﴾ لامُ المآلِ مثلُ ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾، وعلى قراءةِ حمزةَ لامُ كيْ، ولمْ يقلْ لتغرقني، لأنَّ الذي غلبَ عليهِ في الحالِ فرطُ الشفقةِ عليهِمْ، ومراعاةُ حقهمْ. ﴿إِمْرًا﴾ معناهُ عجبًا، وقيل: منكرًا، وقيل: الإمرُ الداهيةُ العظيمةُ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ في معناهُ قولانِ:

أحدهما- يروى عنِ ابنِ عباسٍ، قالَ: هذا منْ معاريضِ الكلامِ.

والآخرُ- أنهُ نسيَ فاعتذرَ، ففيهِ ما يدلُّ على أنَّ النسيانَ لا يقتضي المؤاخذةَ، وأنهُ لا يدخلُ تحتَ التكليفِ، ولا يتعلقُ بهِ حكمُ طلاقٍ ولا غيرهُ، وقدْ تقدمَ، ولوْ نسيَ في الثانية لاعتذر.

قوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ في البخاريِّ قالَ يعلى قالَ سعيدٌ: وجدَ غلمانًا يلعبونَ فأخذَ غلامًا كافرًا فأضجعهُ ثمَّ ذبحهُ بالسكينِ، ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ لمْ تعملْ بالحنثِ، وفي الصحيحينِ وصحيحِ الترمذيِّ: ثمَّ خرجا منَ السفينةِ فبينما هما يمشيانِ على الساحلِ إذْ أبصرَ الخضر غلامًا يلعبُ معَ الغلمانِ، فأخذَ الخضرُ رأسهُ بيدهِ فاقتلعهُ بيدهِ فقتلهُ، قالَ لهُ موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ قالَ وهذهِ أشدُّ منَ الأولى. ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾. لفظُ البخاريِّ. وفي التفسيرِ: إنَّ الخضرَ مرَّ بغلمانٍ يلعبونَ فأخذَ بيدهِ غلامًا ليسَ فيهمْ أضوأُ منهُ، وأخذَ حجرًا فضربَ بهِ رأسهُ حتى دمغهُ، فقتلهُ.

قالَ أبو العاليةِ: لمْ يرهُ إلا موسى، ولوْ رأوهُ لحالوا بينهُ وبين الغلام.

قلت: ولا اختلافَ بينَ هذهِ الأحوالِ الثلاثةِ، فإنهُ يحتملُ أنْ يكونَ دمغهُ أولًا بالحجرِ، ثمَّ أضجعهُ فذبحهُ، ثمَّ اقتلعَ رأسهُ، واللهُ أعلمُ بما كانَ منْ ذلكَ وحسبكَ بما جاءَ في الصحيحِ.

وقرأَ الجمهورُ: ﴿زاكيةً﴾ بالألفِ. والكوفيونَ وابنُ عامرٍ: ﴿زَكِيَّةً﴾ بغيرِ ألفٍ وتشديدِ الياءِ، قيلَ: المعنى واحدٌ، وقيل: الزاكيةُ التي لمْ تذنبْ قطُّ والزكيةُ التي أذنبتْ ثمَّ تابتْ.

قولهُ تعالى: ﴿غُلَٰمٗا﴾ اختلفَ العلماءُ في الغلامِ هلْ كانَ بالغًا أمْ لا؟ فقيل: كانَ بالغًا يقطعُ الطريقَ بينَ قريتينِ، وقالَ الجمهورُ: لمْ يكنْ بالغًا، ولذلكَ قالَ موسى زاكيةً لمْ تذنبْ، وهوَ الذي يقتضيهِ لفظُ الغلامِ، فإنَّ الغلامَ في الرجالِ يقالُ على منْ لمْ يبلغْ، وتقابلهُ الجاريةُ في النساءِ. وكانَ الخضرُ قتلهُ لما علم من سيره، وأنهُ طبعَ كافرًا كما في صحيحِ الحديثِ، وأنه لو أدرك لأرهق أبويهِ كفرًا، وقتلُ الصغيرِ غيرُ مستحيلٍ إذا أذنَ اللهُ في ذلكَ، فإنَّ اللهَ تعالى الفعالُ لما يريدُ، القادرُ على ما يشاءُ، وقيل: إنَّ هذا الغلامَ كانَ يفسدُ في الأرضِ، ويقسمُ لأبويهِ أنهُ ما فعلَ، فيقسمانِ على قسمهِ، ويحميانهِ ممنْ يطلبهُ، قالوا وقولهُ: ﴿بِغَيۡرِ نَفۡسٖ﴾ يقتضي أنهُ لوْ كانَ عنْ قتلِ نفسٍ لمْ يكنْ بهِ بأسٌ، وهذا يدلُّ على كبرِ الغلامِ، وإلا فلوْ كانَ لمْ يحتلمْ لمْ يجبْ قتلهُ بنفسٍ، وإنما جازَ قتلهُ لأنهُ كانَ بالغًا عاصيًا.

والغلامُ منْ الاغتلامِ وهوَ شدةُ الشبقِ.

قولهُ تعالى: ﴿نُّكۡرٗا﴾ اختلفَ الناسُ أيهما أبلغُ ﴿إِمۡرٗا﴾ أوْ قولهُ: ﴿نُّكۡرٗا﴾ فقالتْ فرقةٌ: هذا قتلٌ بينٌ، وهناكَ مترقبٌ، فَـ ﴿نُّكۡرٗا﴾ أبلغُ. وقالت فرقة: هذا قتلُ واحدٍ وذاكَ قتلُ جماعةٍ فَـ ﴿إِمۡرٗا﴾ أبلغُ.

قوله: ﴿إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ﴾ شرطٌ وهوَ لازمٌ، والمسلمونَ عندَ شروطهمْ، وأحقُّ الشروطِ أنْ يوفى بهِ ما التزمهُ الأنبياءُ، والتُزِمَ للأنبياءِ. وقولهُ: ﴿قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ٧٦﴾ يدلُّ على قيامِ الاعتذارِ بالمرةِ الواحدةِ مطلقًا، وقيامِ الحجةِ منَ المرةِ الثانيةِ بالقطعِ، ويشبهُ أنْ تكونَ هذهِ القصةُ أيضًا أصلًا للآجالِ في الأحكامِ التي هيَ ثلاثةٌ، وأيامُ المتلومِ ثلاثةٌ، فتأملهُ.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ﴾ كذا قرأَ الجمهورُ أيْ تتابعني، وقرأَ يعقوبُ: «تُصْحِبني» بضمِّ التاءِ وكسرِ الحاءِ، معناهُ فلا تتركني أصحبكَ. ﴿قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾ أيْ بلغتَ مبلغًا تعذرُ بهِ في تركِ مصاحبتي، وقرأَ الجمهورُ: ﴿مِن لَّدُنِّي﴾ بضمِّ الدالِ، إلا أنَّ نافعًا وعاصمًا خففا النونَ، فهيَ ﴿لَّدُنۡ﴾ اتصلتْ بها ياء المتكلم التي في غلامي وفرسي، وكسرَ ما قبلَ الياءِ كما كسرَ في هذهِ. وقرأَ أبو بكرٍ عنْ عاصمٍ ﴿لَّدْنِي﴾ بفتحِ اللامِ وسكونِ الدالِ

وتخفيفِ النونِ. ورويَ عنْ عاصمٍ ﴿لُدْنِي﴾ بضمِّ اللامِ وسكونِ الدالِ.

مسألةٌ: في صحيحِ مسلمٍ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «رحمةُ اللهِ علينا وعلى موسى لولا أنهُ عجلَ لرأى العجبَ ولكنهُ أخذتهُ منْ صاحبهِ ذَمَامةٌ ولوْ صبرَ لرأى العجبَ» قالَ: وكانَ إذا ذكرَ أحدًا منَ الأنبياءِ بدأَ بنفسهِ: رحمةُ اللهِ علينا وعلى أخي كذا.

وفي البخاريِّ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «يرحمُ اللهُ موسى لوددنا أنهُ صبرَ حتى يقصَّ علينا منْ أمرهما».

قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨﴾، فيهِ ثلاثَ عشرةَ مسألةً:

الأولى: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ﴾ في صحيحِ مسلمٍ عنْ أبيِّ بنِ كعبٍ عنِ النبيِّ ﷺ: «أهل قرية لئامًا فطافا في المجلس فاستطعما أهلها فأبوا أنْ يضيفوهما فوجدا فيها جدارًا يريدُ أنْ ينقضَّ» يقولُ: مائلٌ قالَ: ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ الخضرُ بيدهِ قالَ لهُ موسى: قومٌ أتيناهمْ فلمْ يضيفونا، ولمْ يطعمونا، ﴿لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨﴾ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «يرحمُ اللهُ موسى لوددتُ أنهُ كانَ صبرَ حتى يقصَّ علينا منْ أخبارهما».

الثانية: واختلفَ العلماءُ في القريةِ فقيلَ: هيَ أيلة، قيل: وهيَ أبخلُ قريةٍ وأبعدها منَ السماءِ. وقيل: أنطاكيةُ وقيل: بجزيرةِ الأندلسِ، رويَ ذلكَ عنْ أبي هريرةَ وغيرِهِ، ويذكرُ أنها الجزيرةُ الخضراءُ. وقالت فرقة: هيَ باجروانُ وهيَ بناحيةِ أذربيجانَ. وحكى السهيليُّ وقالَ: إنها برقةُ. وقيل: هيَ قريةٌ منْ قرى الرومِ يقالُ لها ناصرةُ، وإليها تنسبُ النصارى، وهذا كلهُ بحسبِ الخلافِ في أيِّ ناحيةٍ منَ الأرضِ كانتْ قصةُ موسى. واللهُ أعلمُ بحقيقةِ ذلكَ.

الثالثة: كانَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حينَ سقى لبنتيْ شعيبٍ أحوجَ منهُ حينَ أتى القريةَ معَ الخضرِ، ولمْ يسألْ قوتًا بلْ سقى ابتداءً، وفي القريةِ سألا القوتَ، وفي ذلكَ للعلماءِ انفصالاتٌ كثيرةٌ، منها أنَّ موسى كانَ في حديثِ مدينَ منفردًا وفي قصةِ الخضرِ تبعًا لغيرهِ. قلتُ: وعلى هذا

المعنى يتمشى قولهُ في أولِ الآيةِ لفتاهُ: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ٦٢﴾ فأصابهُ الجوعُ مراعاةً لصاحبهِ يوشعَ، واللهُ أعلمُ. وقيل: لما كانَ هذا سفرَ تأديبٍ وكِلَ إلى تكلفِ المشقةِ، وكانَ ذلكَ سفرَ هجرةٍ فوكلَ إلى العونِ والنصرةِ بالقوتِ.

الرابعة: في هذهِ الآيةِ دليلٌ على سؤالِ القوتِ، وأنَّ منْ جاعَ وجبَ عليهِ أنْ يطلبَ ما يردُّ جوعهُ خلافًا لجهالِ المتصوفةِ. والاستطعامُ سؤالُ الطعامِ، والمرادُ بهِ هنا سؤالُ الضيافة،بدليلِ قولهِ: ﴿فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ فاستحقَّ أهلُ القريةِ لذلكَ أنْ يذموا، وينسبوا إلى اللؤمِ والبخلِ، كما وصفهمْ بذلكَ نبينا ﷺ.

ويظهرُ منْ ذلكَ أنَّ الضيافةَ كانتْ عليهمْ واجبةً، وأنَّ الخضرَ وموسى إنما سألا ما وجبَ لهما منَ الضيافةِ، وهذا هوَ الأليقُ بحالِ الأنبياءِ، ومنصبِ الفضلاءِ والأولياءِ.

وقدْ تقدمَ القولُ في الضيافةِ في هود والحمدُ للهِ، ويعفو اللهُ عنِ الحريريِّ حيثُ استخفَّ في هذهِ الآيةِ وتمجنَ، وأتى بخطلٍ منَ القولِ وزلَّ، فاستدلَّ بها على الكُديةِ والإلحاحِ فيها، وأنَّ ذلكَ ليسَ بمعيبٍ على فاعلهِ، ولا منقصةَ عليهِ، فقالَ:

وإنْ رددتُ فما في الردِّ منقصةٌ عليكَ قدْ ردَّ موسى قبلُ والخضرُ

قلتُ: وهذا لعبٌ بالدينِ، وانسلالٌ عنِ احترامِ النبيينَ، وهيَ شنشنةٌ أدبيةٌ، وهفوةٌ سخافيةٌ، ويرحمُ اللهُ السلفَ الصالحَ، فلقدْ بالغوا في وصيةِ كلِّ ذي عقلٍ راجحٍ، فقالوا: مهما كنتَ لاعبًا بشيءٍ فإياكَ أنْ تلعبَ بدينكَ.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿جِدَارٗا﴾ الجدار والجدر بمعنى، وفي الخبرِ: «حتى يبلغَ الماءُ الجدرَ».

السادسة: قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أيْ قربَ أنْ يسقطَ، وهذا مجازٌ وتوسعٌ وقدْ فسرهُ في الحديثِ بقولهِ: «مائلٍ» فكانَ فيهِ دليلٌ على وجودِ المجازِ في القرآنِ، وهوَ مذهبُ الجمهورِ. وجميعُ الأفعالِ التي حقها أنْ تكونَ للحيِّ الناطقِ متى أسندتْ إلى جمادٍ أوْ بهيمةٍ فإنما هيَ استعارةٌ، أيْ لوْ كانَ مكانهما إنسانٌ لكان ممتثلا لذلكَ الفعلِ، وهذا في كلامِ العربِ وأشعارها كثير، فمن ذلك قول حسانُ بنُ ثابتٍ:

لوْ أنَّ اللؤمَ ينسبُ كانَ عبدًا   قبيحَ الوجهِ أعورَ منْ ثقيفِ

وفي الحديثِ: «اشتكتِ النارُ إلى ربها».

وذهبَ قومٌ إلى منعِ المجازِ في القرآنِ، فإنَّ كلامَ اللهِ عزَّ وجلَّ وكلامَ رسولِهِ حملهُ على الحقيقةِ أولى بذي الفضلِ والدينِ، لأنهُ يقصُّ الحقَّ كما أخبرَ اللهُ تعالى في كتابهِ. ومما احتجوا بهِ أنْ قالوا: لوْ خاطبنا اللهُ تعالى بالمجازِ لزمَ وصفهُ بأنه متجوز أيضًا، فإنَّ العدولَ عنِ الحقيقةِ إلى المجازِ يقتضي العجزَ عنِ الحقيقةِ، وهوَ على اللهِ تعالى محالٌ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، وقالَ تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾، وقال تعالى: ﴿تدعوا منْ أدبرَ وتولى﴾ وَقال ﷺ: «اشتكتِ النارُ إلى ربها» «واحتجتِ النارُ والجنةُ» وما كانَ مثلها حقيقةً، وأنَّ خالقها الذي أنطق كل شيء أنطقها. وفي صحيحِ مسلمٍ منْ حديثِ أنسٍ عنِ النبيِّ ﷺ «فيختمُ على فيهِ ويقالُ لفخذهِ انطقي فتنطقُ فخذهُ ولحمهُ وعظامهُ بعملهِ وذلكَ ليعذرَ منْ نفسهِ وذلكَ المنافقُ وذلكَ الذي يسخطُ اللهُ عليهِ». هذا في الآخرةِ. وأما في الدنيا، ففي الترمذي عنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «والذي نفسي بيدهِ لا تقومُ الساعةُ حتى تكلمَ السباع الإنس وحتى تكلمَ الرجلَ عذبةُ سوطهِ وشراكُ نعلهِ وتخبرهُ فخذهُ بما أحدثَ أهلهُ منْ بعدهِ» قالَ أبو عيسى: وفي البابِ عنْ أبي هريرةَ، وهذا حديثٌ حسن غريب.

السابعة: قوله تعالى: ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ قيلَ: هدمهُ ثمَّ قعدَ يبنيه. فقالَ موسى للخضرِ: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۝٧٧﴾ لأنهُ فعلٌ يستحقُّ أجرًا. وقيل: مسحهُ بيدهِ وأقامهُ فقامَ، وهذا القولُ هوَ الصحيحُ، وهوَ الأشبهُ بأفعالِ الأنبياءِ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ، بلْ والأولياءِ، ففي هذا دليلٌ على كراماتِ الأولياءِ، وكذلكَ ما وصفَ منْ أحوالِ الخضرِ عليه السلام في هذا البابِ كلها أمورٌ خارقةٌ للعادةِ، هذا إذا تنزلنا على أنهُ وليٌّ لا نبي. وقول تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ يدلُّ عليَّ نبوتهِ وأنهُ يوحى إليهِ بالتكليفِ والأحكامِ، كما أوحيَ للأنبياءِ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ غيرَ أنهُ ليسَ برسولٍ، واللهُ أعلمُ.

الثامنة: واجب على الإنسان ألا يتعرض للجلوس تحت جدارٍ مائلٍ يخافُ سقوطهُ،

بلْ يسرعُ في المشيِ إذا كانَ مارًا عليهِ.

التاسعة: كراماتُ الأولياءِ ثابتةٌ، على ما دلتْ عليهِ الأخبار الثابتةُ، والآياتُ المتواترةُ ولا ينكرها إلا المبتدع الجاحدُ، أوِ الفاسقُ الحائدُ، فالآياتُ: ما أخبرَ اللهُ تعالى في حقِّ مريمَ منْ ظهورِ الفواكهِ الشتويةِ في الصيفِ، والصيفيةِ في الشتاءِ وما ظهرَ على يدها حيثُ أمرتِ النخلةَ وكانتْ يابسةً فأثمرتْ، وهيَ ليستْ بنبيةٍ، على الخلافِ. ويدلُّ عليها ما ظهرَ على يدِ الخضرِ ﷺ منْ خرقِ السفينةِ، وقتلِ الغلامِ، وإقامةِ الجدارِ. قالَ بعضُ العلماءِ: ولا يجوزُ أنْ يقالَ كانَ نبيًا، لأنَّ إثباتَ النبوةِ لا يجوزُ بأخبارِ الآحادِ، لا سيما وقدْ رويَ منْ طريقِ التواترِ- منْ غيرِ أنْ يحتملَ تأويلًا- بإجماعِ الأمةِ قولهُ ﷺ: «لا نبيَّ بعدي»، وقال تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ والخضر وإلياس جميعًا باقيانِ معَ هذهِ الكرامةِ، فوجبَ أنْ يكونا غيرَ نبيينِ، لأنهما لوْ كانا نبيينِ لوجبَ أنْ يكونَ بعدَ نبينا ﷺ نبيٌّ، إلا ما قامتِ الدلالةُ في حديث عيسى أنه ينزل بعده.

قلت: الجمهور أن الخضر كانَ نبيًا- على ما تقدمَ- وليسَ بعدَ نبينا ﷺ نبيٌّ، أيْ يدعي النبوة بعده ابتداء، والله أعلمُ.

العاشرة: اختلفَ الناسُ هلْ يجوزُ أنْ يعلمَ الوليُّ أنهُ وليٌّ أمْ لا؟ على قولينِ:

أحدهما- أنهُ لا يجوزُ، وأنَّ ما يظهرُ على يديهِ يجبُ أنْ يلاحظهُ بعينِ خوفِ المكرِ، لأنهُ لا يأمنُ أنْ يكونَ مكرًا واستدراجًا لهُ، ومنْ شرطِ الوليِّ أنْ يستديمَ الخوفُ إلى أنْ تتنزلَ عليهِ الملائكةُ، كما قالَ عزَّ وجلَّ: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ ولأنَّ الوليَّ منْ كانَ مختومًا لهُ بالسعادةِ، والعواقبُ مستورةٌ ولا يدري أحدٌ ما يختمُ لهُ بهِ، ولهذا قالَ ﷺ: «إنما الأعمالُ بالخواتيم».

القولُ الثاني- أنهُ يجوزُ للوليِّ أنْ يعلمَ أنهُ وليٌّ، ألا ترى أنَّ النبيَّ ﷺ يجوزُ أنْ يعلمَ أنهُ وليٌّ، ولا خلافَ أنهُ يجوزُ لغيرهِ أنْ يعلمَ أنهُ وليُّ اللهِ تعالى، فجاز له أنْ يعلمَ ذلكَ. وقدْ أخبرَ النبيُّ ﷺ منْ حالِ العشرةِ منْ أصحابهِ أنهمْ منْ أهلِ الجنةِ، ثمَّ لمْ يكنْ في ذلكَ زوالُ خوفهمْ، بلْ كانوا أكثرَ تعظيما لله سبحانه وتعالى، وأشدَّ خوفًا وهيبةً، فإذا جازَ للعشرةِ ذلكَ ولمْ

يخرجهمْ عنِ الخوفِ فكذلكَ غيرهمْ، ولا يقالُ: إنهُ يحتمل أن يكون ذلك استدراجا لأنه لوْ جازَ ذلكَ لجازَ ألا يعرفَ النبيُّ أنهُ نبيٌّ ووليُّ اللهِ، لجوازِ أنْ يكونَ ذلكَ استدراجًا، فلما لمْ يجزْ ذلكَ لأنَّ فيهِ إبطالُ المعجزاتِ لمْ يجزْ هذا، لأنَّ فيهِ إبطالُ الكراماتِ. وما رويَ منْ ظهورِ الكراماتِ على يديْ بلعامَ وانسلاخهِ عنِ الدينِ بعدها لقوله: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ فليسَ في الآيةِ أنهُ كانَ وليًا ثمَّ انسلختْ عنهُ الولايةُ. وما نقلَ أنهُ ظهرَ على يديهِ ما يجري مجرى الكراماتِ هوَ أخبارُ آحادٍ لا توجبُ العلمَ، واللهُ أعلمُ.

والفرقُ بينَ المعجزةِ والكرامةِ أنَّ الكرامةَ منْ شرطها الاستتارُ، والمعجزةُ منْ شرطها الإظهارُ. وقيل: الكرامةُ ما تظهرُ منْ غيرِ دعوى والمعجزةُ ما تظهرُ عندَ دعوى الأنبياءِ فيطالبونَ بالبرهانِ فيظهرُ أثرُ ذلكَ.

وأما الأحاديثُ الواردةُ في الدلالةِ على ثبوتِ الكراماتِ: فمنْ ذلكَ ما خرجهُ البخاريُّ منْ حديثِ أبي هريرةَ قالَ: بعثَ رسولُ اللهِ ﷺ عشرة رهط سرية عينا وأمرَ عليهمْ عاصمَ بنَ ثابتٍ الأنصاريَّ وهوَ جدُّ عاصمِ بنِ عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه، فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهدأةِ وهيَ بينَ عسفانَ ومكةَ ذُكروا لحيٍّ منْ هذيلٍ يقالُ لهمْ: بنو لحيانَ فنفروا إليهمْ قريبًا منْ مائتيْ راجلٍ كلهمْ رامٍ، فاقتصوا آثارهمْ حتى وجدوا مأكلهمْ تمرًا تزودوهُ منَ المدينةِ، فقالوا: هذا تمرُ يثربَ، فاقتصوا آثارهمْ، فلما رآهم عاصم وأصحابه لجوا إلى فدفدٍ، وأحاطَ بهمُ القومُ، فقالوا لهمْ: انزلوا فأعطونا أيديكمْ ولكمُ العهدُ والميثاقُ ألا نقتلَ منكمْ أحدًا، فقالَ عاصمُ بنُ ثابتٍ أمير السرية: أما فو الله لا أنزلُ اليومَ في ذمةِ الكافرِ، اللهمَّ أخبرْ عنا نبيكَ، فرموا بالنبلِ فقتلوا عاصمًا في سبعةٍ، فنزلَ إليهمْ ثلاثةُ رهطٍ بالعهدِ والميثاقِ، وهمْ خبيبٌ الأنصاريُّ وابنُ الدثنةِ ورجلٌ آخرا، فلما استمكنوا منهمْ أطلقوا أوتارَ قسيهمْ فأوثقوهمْ، فقالَ الرجلُ الثالثُ: هذا أولُ الغدرِ! واللهِ لا أصحبكمْ، إنَّ لي في هؤلاءِ لأسوةٌ - يريد القتلى - فجزروه وعالجوهُ على أنْ يصحبهمْ فلمْ يفعلْ فقتلوهُ، فانطلقوا بخبيبٍ وابنِ الدثنةِ حتى باعوهما بمكةَ بعدوقعة بدر، فابتاع خبيبا بنو الحارث بنِ عامرِ بنِ نوفلِ بنِ عبدِ منافٍ، وكان خبيب هو الذي قتل الحارث بن عامرٍ يومَ بدرٍ، فلبثَ خبيبٌ عندهمْ أسيرًا، فأخبرَ عبيدُ اللهِ بنُ عياضٍ أنَّ بنتَ الحارث أخبرتهُ أنهمْ حينَ اجتمعوا استعارَ منها موسى يستحدَّ بها

فأعارتهُ، فأخذَ ابنٌ لي وأنا غافلةٌ حتى أتاهُ، قالتْ: فوجدتهُ مجلسهُ على فخذهِ والموسى بيده، قالت: ففزعتُ فزعةً عرفها خبيبٌ في وجهي، فقالَ: أتخشينَ أنْ أقتلهُ؟ ما كنتُ لأفعلَ ذلكَ. قالتْ: واللهِ ما رأيتُ أسيرًا قطُّ خيرًا منْ خبيبٍ، واللهِ لقدْ وجدتهُ يومًا يأكلُ من قطفَ عنبٍ في يدهِ، وإنهُ لموثقٌ بالحديدِ وما بمكةَ منْ ثمرٍ، وكانتْ تقولُ: إنهُ لرزقٌ رزقهُ اللهُ تعالى خبيبًا، فلما خرجوا بهِ منَ الحرمِ ليقتلوهُ في الحلِّ قالَ لهمْ خبيبٌ: دعوني أركعْ ركعتينِ، فتركوهُ فركعَ ركعتينِ ثمَّ قالَ: لولا أنْ تظنوا أنَّ ما بي جزعٌ منَ الموتِ لزدتُ، ثمَّ قالَ: اللهمَّ أحصهمْ عددًا، واقتلهمْ بددًا، ولا تبقِ منهمْ أحدًا، ثمَّ قالَ:

ولستُ أبالي حينَ أقتلُ مسلمًا ... على أيِّ شقٍّ كانَ للهِ مصرعي
وذلكَ في ذاتِ الإلهِ وإنْ يشأْ ... يباركْ على أوصالِ شلوٍ ممزعِ

فقتلهُ بنو الحارث، وكانَ خبيبٌ هوَ الذي سنَّ الركعتينِ لكلِّ امرئٍ مسلمٍ قتلَ صبرًا، فاستجابَ اللهُ تعالى لعاصمٍ يومَ أصيبَ، فأخبرَ النبيُّ ﷺ وأصحابهُ خبرهمْ وما أصيبوا. وبعثَ ناسٌ منْ كفارِ قريشٍ إلى عاصمٍ حينَ حدثوا أنهُ قتلَ ليؤتوا بشيءٍ منهُ يعرفونهُ، وكانَ قدْ قتلَ رجلًا منْ عظمائهمْ يومَ بدرٍ، فبعثَ اللهُ على عاصمٍ مثلَ الظلةِ منَ الدبرِ فحمتهُ منْ رسلهمْ، فلمْ يقدروا على أنْ يقطعوا منْ لحمهِ شيئًا.

الحادية عشرة: ولا ينكرُ أنْ يكونَ للوليِّ مالٌ وضيعةٌ يصونُ بها وجههُ وعيالهُ، وحسبكَ بالصحابةِ وأموالهمْ معَ ولايتهمْ وفضلهمْ، وهمُ الحجةُ على غيرهمْ. وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ أبي هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «بينما رجلٌ بفلاةٍ منَ الأرضِ فسمعَ صوتًا في سحابةٍ اسقِ حديقةَ فلانٍ فتنحى ذلكَ السحابُ فأفرغَ ماءهُ في حرةٍ فإذا شرجةٌ منْ تلكَ الشراجِ قدِ استوعبتْ ذلكَ الماءَ كلهُ فتتبعَ الماءَ فإذا رجلٌ قائمٌ في حديقتهِ يحولُ الماءَ بمسحاتهِ فقالَ يا عبدَ اللهِ ما اسمكَ قالَ فلانٌ الاسمَ الذي سمعهُ في السحابةِ، فقالَ لهُ يا عبدَ اللهِ لمَ سألتني عنِ اسمي؟ قالَ: إني سمعتُ صوتًا في السحابِ الذي هذا ماؤهُ يقولُ اسقِ حديقةَ فلانٍ لاسمكَ فما تصنعُ فيها؟ قالَ: أما إذْ قلتَ هذا فإني أنظرُ إلى ما يخرجُ منها فأتصدقُ بثلثهِ وآكلُ أنا وعيالي ثلثًا وأردُّ فيها ثلثهُ» وفي روايةٍ «وأجعلُ ثلثهُ في المساكينِ والسائلينَ وابنِ السبيلِ».

قلتُ: وهذا الحديثُ لا يناقضهُ قولهُ ﷺ: «لا تتخذوا الضيعةَ فتركنوا إلى الدنيا» خرجهُ

الترمذيُّ منْ حديثِ ابنِ مسعودٍ وقالَ فيهِ حديثٌ حسنٌ، فإنهُ محمولٌ على منِ اتخذها مستكثرًا أوْ متنعمًا ومتمتعًا بزهرتها، وأما منِ اتخذها معاشًا يصونُ بها دينهُ وعيالهُ فاتخاذها بهذهِ النيةِ منْ أفضلِ الأعمالِ، وهيَ منْ أفضلِ الأموالِ، قالَ ﷺ: «نعمَ المالُ الصالحُ للرجلِ الصالحِ». وقدْ أكثرَ الناسُ في كراماتِ الأولياءِ وما ذكرناهُ فيهِ كفايةٌ، واللهُ الموفقُ للهدايةِ.

الثانية عشرة: قولهُ تعالى: ﴿لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ فيهِ دليلٌ على صحةِ جوازِ الإجارةِ، وهيَ سنةُ الأنبياءِ والأولياءِ على ما يأتي بيانهُ في سورةِ «القصصِ» إنْ شاءَ اللهُ تعالى. وقرأَ الجمهورُ ﴿لَا تَّخَذْتَ﴾ وأبو عمرو «لَتَّخِذْتَ» لغتانِ بمعنى واحدٍ منَ الأخذِ، مثلُ قولكَ: تبعَ واتّبعَ، وتقى واتقى. وأدغمَ بعضُ القراءِ الذالَ في التاءِ، ولمْ يدغمها بعضهمْ، وهذهِ صدرتْ منْ موسى سؤالًا على جهةِ العرضِ لا الاعتراضِ، فعندَ ذلكَ قالَ لهُ الخضرُ: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ بحكمِ ما شرطتَ على نفسكَ. وتكريرهُ ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ وعدولهُ عنْ بيننا لمعنى التأكيدِ.

الثالثة عشرة: – قوله تعالى: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ تأويلُ الشيءِ مآلهُ أيْ قالَ لهُ: إني أخبركَ لمَ فعلتُ ما فعلتُ.

وقيلَ: في تفسيرِ هذهِ الآياتِ التي وقعتْ لموسى معَ الخضرِ: إنها حجة على موسى لا عجبا لهُ. وذلكَ أنهُ لما أنكرَ أمرَ خرقِ السفينةِ نوديَ: يا موسى أينَ كانَ تدبيركَ هذا وأنتَ في التابوتِ مطروحًا في اليمِّ! فلما أنكرَ أمرَ الغلامِ قيلَ لهُ: أينَ إنكاركَ هذا منْ وكزكَ القبطيَّ وقضائكَ عليهِ! فلما أنكرَ إقامةَ الجدارِ نوديَ: أينَ هذا منْ رفعكَ حجرَ البئرِ لبناتِ شعيبٍ دونَ أجرٍ!

قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ استدلَّ بهذا منْ قالَ: إنَّ المسكينَ أحسنُ حالًا منَ الفقيرِ، وقد وقيل: إنهمْ كانوا تجارًا ولكنْ منْ حيثُ همْ مسافرون على قلة في لجةِ بحرٍ، وبحالِ ضعفٍ عنْ مدافعةِ خطبٍ عبرَ عنهمْ بمساكينَ، إذْ همْ في حالةٍ يشفقُ عليهمْ بسببها، وهذا كما تقولُ لرجلٍ غنيٍّ وقعَ في وهلةٍ أوْ خطبٍ: مسكينٌ.

قوله تعالى: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أيْ أجعلها ذاتَ عيبٍ، يقالُ: عبتُ الشيءَ فعابَ إذا

صارَ ذا عيبٍ، فهوَ معيبٌ وعائبٌ. وقولهُ: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ قرأَ ابنُ عباسٍ وابنُ جبيرٍ: «صحيحةٍ» وقرأَ أيضًا ابنُ عباسٍ وعثمانُ بنُ عفانَ «صالحةٍ». وَ﴿وَرَآءَ﴾ أصلها بمعنى خلفَ، فقالَ بعضُ المفسرينَ: إنهُ كانَ خلفهُ وكانَ رجوعهمْ عليهِ. والأكثرُ على أنَّ معنى ﴿وَرَآءَ﴾ هنا أمامَ، يعضدهُ قراءةُ ابنِ عباسٍ وابنِ جبيرٍ «وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَحِيحَةٍ غَصْبًا».

قالَ الماورديُّ: اختلفَ أهلُ العربيةِ في استعمالِ وراءَ موضعَ أمامَ على ثلاثةِ أقوالٍ:

أحدها- يجوزُ استعمالها بكلِّ حالٍ وفي كلِّ مكانٍ وهوَ منَ الأضدادِ قالَ الله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أيْ منْ أمامهمْ.

و**الثاني**- أنَّ وراءَ تستعملُ في موضعِ أمامَ في المواقيتِ والأزمانِ لأنَّ الإنسانَ قد يجوزها فتصيرُ وراءهُ ولا يجوزُ في غيرها.

الثالثُ- أنهُ يجوزُ في الأجسامِ التي لا وجهَ لها كحجرينِ متقابلينِ كلٌّ واحدٍ منهما وراءَ الآخرِ ولا يجوزُ في غيرهما.

واختلفَ في اسمِ هذا الملكِ، وكانَ يأخذُ كلَّ سفينةٍ جيدةٍ غصبًا فلذلكَ عابها الخضرُ وخرقها، ففي هذا منَ الفقهِ العملُ بالمصالحِ إذا تحققَ وجهها، وجوازُ إصلاحِ كلِّ المالِ بإفسادِ بعضهِ، وفي صحيحِ مسلمٍ وجهُ الحكمةِ بخرقِ السفينةِ وذلكَ قولهُ: فإذا جاءَ الذي يسخرها وجدها منخرقةً فتجاوزها، فأصلحوها بخشبةٍ، الحديثَ.

وتحصلَ منْ هذا الحضُّ على الصبرِ في الشدائدِ، فكمْ في ضمنِ ذلكَ المكروهِ منَ الفوائدِ، وهذا معنى قولهِ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ جاءَ في صحيحِ الحديثِ: «أنهُ طبعَ يومَ طبعَ كافرًا» وهذا يؤيدُ ظاهرهُ أنهُ غيرُ بالغٍ، ويحتملُ أنْ يكونَ خبرًا عنهُ معَ كونه بالغا، وقد تقدم هذا المعنى.

قوله تعالى: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ قيلَ: هوَ منْ كلامِ الخضرِ عليه السلام، وهوَ الذي يشهدُ

لهُ سياقُ الكلامِ، وهوَ قولُ كثيرٍ منَ المفسرينَ، أيْ خفنا ﴿أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۝٨٠﴾، وكانَ اللهُ قدْ أباحَ لهُ الاجتهادَ في قتلِ النفوسِ على هذهِ الجهةِ. وقيل: هوَ منْ كلامِ اللهِ تعالى وعنهُ عبرَ الخضرُ. قالَ الطبريُّ: معناهُ فعلمنا، وكذا قالَ ابنُ عباسٍ أيْ فعلمنا، وهذا كما كنى عنِ العلمِ بالخوفِ في قولهِ: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾، وقيل: الخشيةُ بمعنى الكراهةِ، يقالُ: فرقتُ بينهما خشيةَ أن يقتتلا، أيْ كراهةَ ذلكَ.

قالَ ابنُ عطيةَ: والأظهرُ عندي في توجيهِ هذا التأويلِ وإنْ كانَ اللفظُ يدافعهُ أنها استعارةٌ، أيْ على ظنِّ المخلوقينَ والمخاطبينَ لوْ علموا حالهُ لوقعتْ منهمْ خشيةُ الرهقِ للأبوينِ، وهذا نظيرُ ما وقعَ في القرآنِ في جهةِ اللهِ تعالى منْ لعلَّ وعسى وأنَّ جميعَ ما في هذا كلهِ منْ ترجٍّ وتوقعٍ وخوفٍ وخشيةٍ إنما هوَ بحسبكمْ أيها المخاطبون.

و ﴿يُرْهِقَهُمَا﴾ يجشمهما ويكلفهما، والمعنى أنْ يلقيهما حبهُ في اتباعهِ فيضلا ويتدينا بدينهِ.

قوله تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ قرأَ الجمهورُ بفتحِ الباءِ وشدِّ الدالِّ، وقرأَ عاصمٌ بسكونِ الباءِ وتخفيفِ الدالِ، أيْ أنْ يرزقهما اللهُ ولدًا ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ أيْ دينًا وصلاحًا، ﴿وأقرب رُحْمًا﴾ معطوفٌ على ﴿زَكَوٰةً﴾ أيْ رحمةً، يقالُ: رحمهُ رحمةً ورحمًا، وألفهُ للتأنيثِ، ومذكرهُ رحمٌ. وقيل: إن الرُحمُ هنا بمعنى الرَحمِ.

وقرأ ابن عامر: ﴿رُحُما﴾ بالضم، والباقون بسكونها.

ويستفادُ منْ هذهِ الآيةِ تهوينُ المصائبِ بفقدِ الأولادِ وإنْ كانوا قطعًا منَ الأكبادِ، ومنْ سلمَ للقضاءِ أسفرتْ عاقبتهُ عنِ اليدِ البيضاءِ. قالَ قتادةُ: لقدْ فرحَ بهِ أبواهُ حينَ ولدَ وحزنا عليهِ حينَ قتلَ، ولوْ بقيَ كانَ فيهِ هلاكهما، فالواجبُ على كلِّ امرئٍ الرضا بقضاءِ اللهِ تعالى، فإنَّ قضاءَ اللهِ للمؤمنِ فيما يكرهُ خيرٌ لهُ منْ قضائهِ لهُ فيما يحبُّ.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ﴾ هذانِ الغلامانِ صغيرانِ بقرينةِ وصفهما باليتمِ، وقدْ قالَ ﷺ: «لا يتمَ بعدَ بلوغ» هذا هوَ الظاهرُ. وقدْ يحتملُ أنْ يبقى عليهما اسمُ اليتمِ بعدَ البلوغِ إنْ كانا يتيمينِ، على معنى الشفقةِ عليهما. وقدْ تقدمَ أنَّ اليتمَ في الناسِ

منْ قِبلِ فقدِ الأبِ، وفي غيرهمْ منَ الحيوانِ منْ قبلِ فقدِ الأمِّ.

ودلَّ قولهُ: ﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ على أنَّ القريةَ تسمى مدينةً، ومنهُ الحديثُ: «أمرتُ بقريةٍ تأكلُ القرى» وفي حديثِ الهجرةِ «لمنْ أنتَ» فقالَ الرجلُ: منْ أهلِ المدينةِ، يعني مكةَ.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ اختلفَ الناسُ في الكنزِ، فقيل: كانَ مالًا جسيمًا وهوَ الظاهرُ منِ اسمِ الكنزِ إذْ هوَ في اللغةِ المالُ المجموعُ، وقدْ مضى القولُ فيهِ. وقيل: كانَ علمًا في صحفٍ مدفونةٍ.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ ظاهرُ اللفظِ والسابقُ منهُ أنهُ والدهما دِنْيةً وقيل: هوَ الأبُ السابعُ، ففيهِ ما يدلُّ على أنَّ اللهَ تعالى يحفظُ الصالحَ في نفسهِ وفي ولدهِ وإنْ بعدوا عنهُ. وقدْ رويَ أنَّ اللهَ تعالى يحفظُ الصالحَ في سبعةٍ منْ ذريتهِ، وعلى هذا يدلُّ قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِيۚ﴾ يقتضي أنَّ الخضرَ نبيٌّ، وقدْ تقدمَ الخلافُ في ذلكَ ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ﴾ أيْ تفسيرُ ﴿مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ قرأت فرقة: «تستطيع». وقرأَ الجمهورُ: ﴿تَسْطِع﴾ قالَ أبو حاتمٍ: كذا نقرأُ كما في خطِّ المصحفِ.

وهنا خمسُ مسائلَ:

الأولى: لمْ يُسمعْ لفتى موسى ذكرٌ في أولِ الآيةِ ولا في آخرها، والأظهرُ أنَّ موسى صرفَ فتاهُ لما لقيَ الخضرَ، ويحتملُ أنْ يكونَ اكتفيَ بذكرِ المتبوعِ عنِ التابعِ واللهُ أعلمُ.

الثانية: إنْ قالَ قائلٌ: كيفَ أضافَ الخضرُ قصةَ استخراجِ كنزِ الغلامينِ للهِ تعالى، وقال في خرقِ السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ فأضافَ العيبَ إلى نفسهِ؟ قيلَ لهُ: إنما أسندَ الإرادةَ في الجدارِ إلى اللهِ تعالى لأنها في أمرٍ مستأنفٍ في زمنٍ طويلٍ غيبٍ منَ الغيوبِ، فحسنَ إفرادُ هذا الموضعِ بذكرِ اللهِ تعالى، وإنْ كانَ الخضرُ قدْ أرادَ ذلكَ فالذي أعلمهُ اللهُ تعالى أنْ يريدهُ.

وقيل: لما كانَ ذلكَ خيرًا كلهُ أضافهُ إلى اللهِ تعالى وأضافَ عيبَ السفينةِ إلى نفسهِ رعايةً للأدبِ لأنها لفظةُ عيبٍ فتأدبَ بأنْ لمْ يسندِ الإرادةَ فيها إلا إلى نفسهِ، كما تأدبَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ في قولهِ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ فأسندَ الفعلَ قبلُ وبعدُ إلى اللهِ تعالى، وأسندَ إلى نفسهِ

المرضَ، إذْ هوَ معنى نقصٍ ومصيبةٍ، فلا يضافُ إليهِ سبحانهُ وتعالى منَ الألفاظِ إلا ما يستحسنُ منها دون ما يستقبح، وهذا كما قال تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ واقتصرَ عليهِ فلمْ ينسبِ الشرَّ إليهِ، وإنْ كانَ بيدهِ الخيرُ والشرُّ والضرُّ والنفعُ، إذْ هو على كل شيء قدير، وهو بكل شيء خبيرٌ. ولا اعتراضَ بما حكاهُ ﷺ عنْ ربهِ عزَّ وجلَّ أنهُ يقولُ يومَ القيامةِ: «يا ابنَ آدمَ مرضتُ فلمْ تعدني واستطعمك فلمْ تطعمني واستسقيتكَ فلمْ تسقني» فإنَّ ذلكَ تنزلٌ في الخطابِ وتلطفٌ في العتابِ مقتضاهُ التعريفُ بفضلِ ذي الجلالِ وبمقاديرِ ثوابِ هذهِ الأعمالِ، وللهِ تعالى أنْ يطلقَ على نفسهِ ما يشاءُ، ولا نطلقُ نحنُ إلا ما أذنَ لنا فيهِ منَ الأوصافِ الجميلةِ والأفعالِ الشريفةِ جلَّ وتعالى عنِ النقائصِ والآفاتِ علوًا كبيرًا. وقالَ في الغلامِ: ﴿فَأَرَدْنَآ﴾ فكأنهُ أضافَ القتلَ إلى نفسهِ، والتبديلَ إلى اللهِ تعالى.

والأشدُّ: كمالُ الخلقِ والعقلِ.

الثالثة: قالَ شيخنا الإمامُ أبو العباسِ: ذهبَ قومٌ منْ زنادقةِ الباطنيةِ إلى سلوكِ طريقٍ تلزمُ منهُ هذهِ الأحكامُ الشرعيةُ، فقالوا: هذهِ الأحكامُ الشرعيةُ العامةُ إنما يحكمُ بها على الأنبياءِ والعامةِ، وأما الأولياءُ وأهلُ الخصوصِ فلا يحتاجونَ إلى تلك النصوص، بل إنما يراد منهمْ ما يقعُ في قلوبهمْ، ويحكمُ عليهمْ بما يغلبُ عليهمْ منْ خواطرهمْ. وقالوا: وذلكَ لصفاء قلوبهم عن الأكدار، فتتجلى لهمُ العلومُ الإلهيةُ، والحقائقُ الربانيةُ، فيقفونَ على أسرارِ الكائناتِ، ويعلمونَ أحكامَ الجزئياتِ، فيستغنونَ بها عنْ أحكامِ الشرائعِ الكلياتِ، كما اتفقَ للخضرِ، فإنهُ استغنى بما تجلى لهُ منَ العلومِ، عما كانَ عندَ موسى منْ تلكَ الفهومِ. وقدْ جاءَ فيما ينقلونَ: استفتِ قلبكَ وإنْ أفتاكَ المفتونَ.

قالَ شيخنا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهذا القولُ زندقةٌ وكفرٌ يقتلُ قائلهُ ولا يستتابُ، لأنهُ إنكارُ ما علمَ منَ الشرائعِ، فإنَّ اللهَ تعالى قدْ أجرى سنتهُ، وأنفذَ حكمتهُ، بأنَّ أحكامهُ لا تعلمُ إلا بواسطةِ رسلهِ السفراءِ بينهُ وبينَ خلقهِ، وهمُ المبلغونَ عنهُ رسالتهُ وكلامهُ المبينونَ شرائعهُ وأحكامهُ، اختارهمْ لذلكَ، وخصهمْ بما هنالكَ، كما قالَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾، وقالَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾، وقالَ تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ إلى غيرِ ذلكَ منَ

الآياتِ.

وعلى الجملةِ فقدْ حصلَ العلمُ القطعيُّ، واليقينُ الضروريُّ واجتماعُ السلفِ والخلفِ على أنْ لا طريقَ لمعرفةِ أحكامِ اللهِ تعالى التي هيَ راجعةٌ إلى أمره ونهيه، ولا يعرف شيء منها إلا منْ جهةِ الرسلِ، فمنْ قالَ: إنَّ هناكَ طريقًا آخرَ يعرفُ بها أمرهُ ونهيهُ غيرُ الرسلِ بحيثُ يستغنى عنِ الرسلِ فهوَ كافرٌ يقتلُ ولا يستتابُ، ولا يحتاجُ معهُ إلى سؤالٍ ولا جوابٍ، ثمَّ هوَ قولٌ بإثباتِ أنبياءَ بعدَ نبينا ﷺ، الذي قدْ جعلهُ اللهُ خاتمَ أنبيائهِ ورسلهِ، فلا نبيَّ بعدهُ ولا رسولَ. وبيانُ ذلكَ أنَّ منْ قالَ يأخذُ عنْ قلبهِ وأن ما يقع فيه هو حكمُ اللهِ تعالى وأنهُ يعملُ بمقتضاهُ، وأنهُ لا يحتاجُ معَ ذلكَ إلى كتابٍ ولا سنةٍ، فقدْ أثبتَ لنفسهِ خاصةَ النبوةِ، فإنَّ هذا نحو ما قاله رسول الله ﷺ: «إنَّ روحَ القدسِ نفثَ في روعي» الحديثَ.

الرابعة: ذهبَ الجمهورُ منَ الناسِ إلى أنَّ الخضرَ ماتَ عليه السلام. وقالت فرقة إنه حيٌّ لأنهُ شربَ منْ عينِ الحياةِ، وأنهُ باقٍ في الأرضِ وأنهُ يحجُّ البيتَ، قال ابن عطية: وكلها لا تقومُ على ساقٍ. ولوْ كانَ الخضرُ عليه السلام حيًا يحجُّ لكانَ لهُ في ملةِ الإسلام ظهورٌ، واللهُ العليمُ بتفاصيلِ الأشياءِ لا ربَّ غيرهُ. ومما يقضي بموتِ الخضرِ عليه السلام الآنَ قولهُ ﷺ: «أرأيتكم ليلتكم هذه فإنه لا يبقى ممنْ هوَ اليومَ على ظهرِ الأرضِ أحدٌ».

قلتُ: إلى هذا ذهبَ البخاريُّ واختارهُ القاضي أبو بكرِ بنُ العربيِّ، والصحيحُ القولُ الثاني وهوَ أنهُ حيٌّ على ما نذكره والحديثُ خرجهُ مسلمٌ في صحيحهِ عنْ عبدِ الله ابن عمرَ قالَ صلى بنا رسولُ اللهِ ﷺ ذاتَ ليلةٍ صلاةَ العشاءِ في آخرِ حياتهِ فلما سلمَ قامَ فقالَ: «أرأيتكمْ ليلتكمْ هذهِ فإنَّ على رأسِ مائةِ سنةٍ منها لا يبقى ممنْ هوَ على ظهرِ الأرضِ أحدٌ» قالَ ابنُ عمرَ: فوهلَ الناسُ في مقالةِ رسولُ اللهِ ﷺ تلكَ فيما يتحدثونَ منْ هذهِ الأحاديث عن مائة سنة، وإنما قال رسول الله ﷺ: «لا يبقى ممنْ هوَ اليومَ على ظهرِ الأرضِ أحدٌ» يريدُ بذلكَ أنْ ينخرمَ ذلكَ القرنُ.

ورواهُ أيضًا منْ حديثِ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ قالَ سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول قبلَ أنْ يموتَ بشهرٍ: «تسألوني عنِ الساعةِ وإنما علمها عندَ اللهِ وأقسمُ باللهِ ما على الأرضِ منْ نفسٍ منفوسةٍ تأتي عليها مائةُ سنةٍ» وفي أخرى قالَ سالمٌ: تذاكرنا أنها «هيَ مخلوقةٌ يومئذٍ». وفي

أخرى: «ما منْ نفسٍ منفوسةٍ اليومَ يأتي عليها مائةُ سنةٍ وهيَ حيةٌ يومئذٍ».

وعنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ نحوُ هذا الحديثِ قالَ علماؤنا: وحاصلُ ما تضمنهُ هذا الحديثُ أنهُ ﷺ أخبرَ قبلَ موتهِ بشهرٍ أنَّ كلَّ منْ كانَ منْ بني آدمَ موجودًا في ذلكَ لا يزيدُ عمرهُ على مائةِ سنةٍ، لقولهِ ﷺ: «ما منْ نفسٍ منفوسةٍ» وهذا اللفظُ لا يتناولُ الملائكةَ ولا الجنَّ إذْ لمْ يصحَّ عنهمْ أنهمْ كذلكَ، ولا الحيوانَ غيرَ العاقلِ، لقولهِ: «ممنْ هوَ على ظهرِ الأرضِ أحدٌ» وهذا إنما يقالُ بأصلِ وضعهِ على منْ يعقلُ، فتعينَ أنَّ المرادَ بنو آدمَ. وقدْ بينَ ابنُ عمرَ هذا المعنى، فقالَ: يريدُ بذلكَ أنْ ينخرمَ ذلكَ القرنُ.

ولا حجةَ لمنِ استدلَّ بهِ على بطلانِ قولِ منْ يقولُ: إنَّ الخضرَ حيٌّ لعمومِ قولهِ: «ما منْ نفسٍ منفوسةٍ» لأنَّ العمومَ وإنْ كانَ مؤكدَ الاستغراقِ فليسَ نصًا فيهِ، بلْ هوَ قابلٌ للتخصيصِ. فكما لمْ يتناولْ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنهُ لمْ يمتْ ولمْ يقتلْ فهوَ حيٌّ بنصِّ القرآنِ ومعناهُ، ولا يتناولُ الدجالَ معَ أنهُ حيٌّ بدليلِ حديثِ الجساسةِ، فكذلكَ لمْ يتناولِ الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ وليس مشاهد للناسِ، ولا ممنْ يخالطهمْ حتى يخطرَ ببالهمْ حالةَ مخاطبةِ بعضهمْ بعضًا، فمثلُ هذا العمومِ لا يتناولهُ. وقدْ قيلَ: إنَّ أصحابَ الكهفِ أحياء ويحجونَ معَ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما تقدمَ.

وقدْ جاءَ في صحيحِ مسلم: «أنَّ الدجالَ ينتهي إلى بعضِ السباخِ التي تلي المدينةَ فيخرجُ إليهِ يومئذٍ رجلٌ هوَ خيرُ الناس- أو من خيرِ الناسِ» الحديثَ، وفي آخرهِ قالَ أبو إسحاقَ: يعني أنَّ هذا الرجلَ هوَ الخضرُ.

والألف واللامُ في قولهِ: ﴿عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ للعهدِ لا للجنسِ وهيَ أرضُ العربِ، بدليلِ تصرفهمْ فيها وإليها غالبًا دونَ أرضِ يأجوجَ ومأجوجَ، وأقاصي جزرِ الهندِ والسندِ مما لا يقرعُ السمعَ اسمهُ، ولا يعلمُ علمهُ. ولا جوابَ عنِ الدجالِ.

الخامسة: قيلَ إنَّ الخضرَ لما ذهبَ يفارقُ موسى قالَ لهُ موسى: أوصني، قالَ: كنْ بسامًا ولا تكنْ ضحاكًا، ودعِ اللجاجةَ، ولا تمشِ في غيرِ حاجةٍ، ولا تعبْ على الخطائينَ خطاياهمْ وابكِ على خطيئتكَ يا ابنَ عمرانَ.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ قالَ ابنُ إسحاقَ: كانَ منْ خبرِ ذي القرنينِ أنهُ أوتيَ ما لمْ يؤتَ غيرهُ، فمدتْ لهُ الأسبابُ حتى انتهى منَ البلادِ إلى مشارقِ الأرضِ ومغاربها، لا يطأُ أرضًا إلا سُلطَ على أهلها، حتى انتهى منَ المشرقِ والمغربِ إلى ما ليس وراءه شيء منَ الخلقِ.

قالَ ابنُ إسحاقَ: حدثني منْ يسوقُ الأحاديثَ عنِ الأعاجمِ فيما توارثوا منْ علمِ ذي القرنينِ أنَّ ذا القرنينِ كانَ رجلا من أهل مصر اسمه مرزبان ابن مردبةَ اليونانيُّ منْ ولدِ يونانَ بنِ يافثَ بنِ نوحٍ. قالَ ابنُ هشامٍ: واسمهُ الإسكندرُ وهوَ الذي بنى الإسكندريةَ فنسبتْ إليهِ.

وقيل هو ملك من الملائكة، وقيل إنهُ عبدُ ملِكٍ بكسرِ اللامِ صالحِ نصحَ اللهَ فأيّدهُ. وقيل: هوَ نبيٌّ مبعوثٌ فتحَ اللهُ تعالى على يديهِ الأرضَ.

واختلفَ في اسمِ ذي القرنينِ وفي السببِ الذي سميَ بهِ بذلكَ اختلافًا كثيرًا، فأما اسمهُ فقيلَ: هوَ الإسكندرُ الملكُ اليونانيُّ المقدونيُّ، وقدْ تشددُ قافهُ فيقالُ: المقّدونيُّ. وقيل: اسمهُ هرمسُ. ويقالُ: اسمهُ هرديس، وقالَ وهبُ بنُ منبهٍ: هوَ روميٌّ.

وأما الاختلاف في السبب الذي سمي به فقيل إنه كان ذا ضفيرتين من شعر فسمي بهما، والضفائر قرون الرأس، وقيل: إنهُ رأى في أولِ ملكهِ كأنهُ قابضٌ على قرنيِ الشمسِ، فقصَّ ذلكَ، ففسرَ أنهُ سيغلبُ ما ذرتْ عليهِ الشمسُ، فسميَ بذلكَ ذا القرنينِ. وقيل: إنما سميَ بذلكَ لأنهُ بلغَ المغربَ والمشرقَ فكأنهُ حازَ قرنيِ الدنيا. وقالتْ طائفةٌ: إنهُ لما بلغَ مطلعَ الشمسِ كشفَ بالرؤيةِ قرونها فسميَ بذلكَ ذا القرنينِ، أوْ قرنيِ الشيطانِ بها. وقالَ وهبُ بنُ منبهٍ: كانَ لهُ قرنانِ تحتَ عمامتهِ.

واختلفوا أيضًا في وقتِ زمانهِ، فقالَ قومٌ: كانَ بعدَ موسى. وقالَ قومٌ: كانَ في الفترةِ بعدَ عيسى وقيل: كانَ في وقتِ إبراهيمَ وإسماعيلَ. وكانَ الخضرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ صاحبَ لوائهِ الأعظمِ، وبالجملةِ فإنَّ اللهَ تعالى مكنهُ وملكهُ ودانتْ لهُ الملوكُ، فرويَ أنَّ جميعَ ملوكِ الدنيا كلها أربعةٌ: مؤمنانِ وكافرانِ، فالمؤمنانِ سليمانُ بنُ داودَ وإسكندر، والكافران نمروذ وبخت

نصر، وسيملكها منْ هذهِ الأمةِ خامسٌ لقولهِ تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ وهوَ المهديُّ.

وقدْ قيلَ: إنما سميَ ذا القرنينِ لأنهُ كانَ كريمَ الطرفينِ منْ أهلِ بيتٍ شريفٍ منْ قبلِ أبيهِ وأمهِ. وقيل: لأنهُ انقرضَ في وقتهِ قرنانِ منَ الناسِ وهوَ حيٌّ. وقيل: لأنهُ كانَ إذا قاتلَ قاتلَ بيديهِ وركابيهِ جميعًا. وقيل: لأنهُ أعطيَ علمَ الظاهرِ والباطنِ. وقيل: لأنهُ دخلَ الظلمةَ والنورَ. وقيل: لأنهُ ملكَ فارسَ والرومَ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ قالَ ابنُ عباس: من كل شيء علمًا يتسببُ بهِ إلى ما يريدُ، وأصلُ السببِ الحبلُ فاستعيرَ لكلِ ما يتوصل به إلى شي ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ قرأَ ابنُ عامرٍ وعاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ مقطوعةُ الألفِ. وقرأَ أهلُ المدينةِ وأبو عمرو: «فَاتَّبَعَ سَبَبًا» بوصلها، أيِ اتبعَ سببًا منَ الأسبابِ التي أوتيها، تبعتهُ وأتبعتهُ بمعنى، مثلُ ردفتهُ وأردفتهُ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾، ويقالُ: تبعهُ واتبعهُ إذا سارَ ولمْ يلحقهُ، وأتبعهُ إذا لحقهُ، ويشكل عليه قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ فليسَ في الحديثِ أنهمْ لحقوهمْ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ قرأَ ابنُ عامرٍ وعاصمٍ وحمزةُ والكسائيُّ: «حَامِيَةٍ» أيْ حارةٍ. الباقونَ: ﴿حَمِئَةٍ﴾ أيْ كثيرةِ الحمأةِ وهيَ الطينةُ السوداءُ، وقدْ يجمعُ بينَ القراءتينِ فيقالُ: كانتْ حارةً وذاتَ حمأةٍ.

قالَ بعضُ العلماءِ: ليسَ المرادُ أنه انتهى إلى الشمس مغربا ومشرقا حتى وصل إلى جرمها ومسها، لأنها تدور معَ السماءِ حولَ الأرضِ منْ غيرِ أنْ تلتصقْ بالأرضِ، وهيَ أعظمُ منْ أنْ تدخلَ في عينٍ منْ عيونِ الأرضِ، بلْ هيَ أكبرُ منَ الأرضِ أضعافًا مضاعفةً، بلِ المرادُ أنهُ انتهى إلى آخرِ العمارةِ منْ جهةِ المغربِ ومنْ جهةِ المشرقِ، فوجدها في رأيِ العينِ تغربُ في عينٍ حمئةٍ، كما أنا نشاهدها في الأرضِ الملساءِ كأنها تدخلُ في الأرضِ، ولهذا قالَ:

﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ ولمْ يردْ أنها تطلعُ عليهمْ بأنْ تماسهمْ وتلاصقهمْ، بلْ أرادَ أنهمْ أولُ منْ تطلعُ عليهمْ.

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ أيْ عندَ العينِ، أوْ عندَ نهايةِ العينِ.

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ إنْ كانَ نبيًا فهوَ وحيٌ، وإنْ لمْ يكنْ نبيًا فهوَ إلهامٌ منَ اللهِ تعالى ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾ خيّرهُ بينَ هذينِ كما خيرَ محمدًا ﷺ فقالَ: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ونحوهُ، ويجوزُ أنْ يكونَ اللهُ عزَّ وجلَّ خاطبهُ على لسانِ نبيٍّ في وقتهِ، ويجوزُ أنْ يكونَ قالَ لهُ هذا كما قالَ لنبيه: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾، وتقديره أن الله تعالى خيرهُ بينَ القتلِ في قوله تعالى: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ وبين الاستبقاء في قوله عزوجل: ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾. فقالَ لأولئكَ القوم: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي أقامَ على الكفرِ منكمْ ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ أيْ بالقتلِ ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ أيْ يومَ القيامةِ ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾ أيْ شديدًا في جهنم ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ أي تاب من الكفر ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ قراءةُ أهلِ المدينةِ وأبي عمرو وعاصمٍ: ﴿فَلَهُۥ جَزَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بالرفع على الابتداءِ أوْ بالاستقرارِ. وَ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ في موضعِ خفضٍ بالإضافةِ ويحذفُ التنوينُ للإضافةِ، أيْ لهُ جزاءُ الحسنى عندَ اللهِ تعالى في الآخرةِ وهيَ الجنةُ، فأضافَ الجزاءَ إلى الجنةِ، كقولهِ: ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾، ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ﴾، ويحتملُ أنْ يريدَ بِـ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الأعمالَ الصالحةَ. ويمكنُ أنْ يكونَ الجزاءُ منْ ذي القرنين، أي أعطيته وأتفضلُ عليهِ.

وقرأَ سائرُ الكوفيينَ ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ منصوبًا منونًا، أيْ فلهُ الحسنى جزاءً.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾ أي سلك طريقا ومنازل ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ المعنى: أنهُ انتهى إلى موضعِ قومٍ لمْ يكنْ بينهمْ وبينَ مطلعِ الشمسِ أحدٌ منَ الناسِ. والشمسُ تطلعُ وراءَ ذلكَ بمسافةٍ بعيدةٍ فهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾ أيْ حجابًا يستترونَ منها عندَ طلوعها.

قالَ قتادةُ: لمْ يكنْ بينهمْ وبين الشمس ستر، كانوا في مكانٍ لا يستقرُّ عليهِ بناءٌ، وهمْ يكونونَ في أسرابٍ لهمْ، حتى إذا زالتِ الشمسُ عنهمْ رجعوا إلى معايشهمْ وحروثهمْ، يعني لا يستترونَ منها بكهفِ جبلٍ ولا بيتٍ يكنهمْ منها.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ وهما جبلانِ منْ قبل أرمينيةَ وأذربيجانَ ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ أيْ منْ ورائهما ﴿قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾. وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ: «يُفْقِهُونَ» بضمِّ الياءِ وكسرِ القافِ منْ أفقهَ إذا أبانَ أيْ لا يفقهونَ غيرهمْ كلامًا. الباقونَ بفتحِ الياءِ والقافِ، أيْ يعلمونَ. والقراءتانِ صحيحتانِ، فلا همْ يفقهون من غيرهم ولا يفقهون غيرهم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ أيْ قالتْ لهُ أمةٌ منَ الإنسِ صالحةٍ ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قالَ الأخفشُ: منْ همزَ ﴿يَأْجُوجُ﴾ فجعلَ الألفينِ منَ الأصل يقولُ: يأجوجَ يفعولَ ومأجوجَ مفعولَ كأنهُ منْ أجيجِ النارِ. قالَ: ومنْ لا يهمزُ ويجعلُ الألفينِ زائدتينِ يقولُ: «يَاجُوجَ» منْ يججتُ وماجوجَ منْ مججتَ وهما غيرُ مصروفينِ، وقيل: إنما لمْ ينصرفا لأنهما اسمانِ أعجميانِ، مثلُ طالوتَ وجالوتَ غيرَ مشتقينِ، علتاهما في منعِ الصرفِ العجمةُ والتعريفُ والتأنيثُ. وقالت فرقة: هوَ معربٌ منْ أَجَّ وأججَ علتاه في منعِ الصرفِ التعريفُ والتأنيثُ.

واختلف في إفسادهم، فقيل: إفسادهمْ أكلُ بني آدمَ. وقالت فرقة: إفسادهمْ إنما كانَ متوقعًا، أيْ سيفسدونَ، فطلبوا وجهَ التحرزِ منهمْ. وقالت فرقة: إفسادهمْ هوَ الظلمُ والغشمُ والقتلُ وسائرُ وجوهُ الإفسادِ المعلومِ منَ البشرِ، واللهُ أعلمُ.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ استفهامٌ على جهةِ حسنِ الأدبِ. ﴿خَرْجًا﴾ أيْ جعلا. وقرِيء: «خَرَاجًا» والخرجُ أخصُّ منَ الخراجِ. يقالُ: أدِّ خرجَ رأسكَ وخراجَ مدينتكَ. وقالَ الأزهريُّ: الخراجُ يقعُ على الضريبةِ، ويقعُ على الفيءِ، ويقعُ على الجزيةِ وعلى الغلةِ. والخراجُ اسمٌ لما يخرجُ منَ الفرائضِ في الأموالِ. والخرجُ: المصدرُ.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا﴾ أيْ ردمًا، والردمُ ما جعلَ بعضهُ على بعضٍ حتى يتصلَ.

وقريء ﴿سَدًّا﴾ بالفتحِ والضمِ في السينِ، قالَ الخليلُ وسيبويهِ: الضمُّ هوَ الاسمُ والفتحُ المصدرُ. وقالَ الكسائيُّ: الفتحُ والضمُّ لغتانِ بمعنى واحدٍ.

الثانية: في هذهِ الآيةِ دليلٌ على اتخاذِ السجونِ، وحبسِ أهلِ الفسادِ فيها، ومنعهمْ منَ التصرفِ لما يريدونهُ، ولا يتركونَ وما همْ عليهِ، بلْ يوجعونَ ضربًا ويحبسونَ أوْ يكلفونَ ويطلقونَ كما فعلَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ﴾ المعنى قالَ لهمْ ذو القرنينِ ما بسطهُ اللهُ تعالى لي منَ القدرةِ والملكِ خيرٌ منْ خرجكمْ وأموالكمْ ولكنْ أعينوني بقوةِ الأبدانِ، أيْ برجالٍ وعملٍ منكمْ بالأبدانِ، والآلةِ التي أبني بها الردمَ وهوَ السدُّ. وهذا تأييدٌ منَ اللهِ تعالى لذي القرنينِ في هذهِ المحاورةِ فإنَّ القومَ لوْ جمعوا لهُ خرجًا لمْ يعنهُ أحد ومعونتهُ بأنفسهمْ أجملُ بهِ وأسرعُ في انقضاءِ هذا العملِ وربما أربى ما ذكروهُ لهُ على الخرجِ. وقرأَ ابنُ كثيرٍ وحدهُ: «مَا مَكَّنَنِي» بنونينِ، وقرأَ الباقونَ: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾.

الثانية: في هذهِ الآيةِ دليلٌ على أنَّ الملكَ فرضٌ عليهِ أنْ يقومَ بحمايةِ الخلقِ في حفظِ بيضتهمْ، وسدِّ فرجتهم، وإصلاح ثغورهم، من أموالهم التي تفي عليهمْ، وحقوقهمُ التي تجمعها خزانتهمْ تحتَ يدهِ ونظرهِ، حتى لوْ أكلتها الحقوقُ، وأنفذتها المؤنُ، لكانَ عليهمْ جبرُ ذلكَ منْ أموالهمْ، وعليهِ حسنُ النظرِ لهمْ، وذلكَ بثلاثةِ شروطٍ:

الأولُ: ألا يستأثرَ عليهمْ بشيءٍ.

الثاني- أنْ يبدأَ بأهلِ الحاجةِ فيعينهمُ.

الثالثُ- أنْ يسويَ في العطاءِ بينهمْ على قدرِ منازلهمْ، فإذا فنيتْ بعدَ هذا وبقيتْ صفرًا فأطلعتِ الحوادثُ أمرًا بذلوا أنفسهمْ قبلَ أموالهمْ، فإنْ لمْ يغنِ ذلكَ فأموالهمْ تؤخذُ منهمْ على تقديرٍ، وتصريفٍ بتدبيرٍ، فهذا ذو القرنينِ لما عرضوا عليهِ المالَ في أنْ يكفَّ عنهمْ ما

يحذرونهُ منْ عاديةِ يأجوجَ ومأجوجَ قالَ: لستُ أحتاجُ إليهِ وإنما أحتاجُ إليكمْ. ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي اخدموا بأنفسكمْ معي، فإنَّ الأموالَ عندي والرجالَ عندكمْ، ورأى أنَّ الأموالَ لا تغني عنهمْ، فإنهُ إنْ أخذها أجرةً نقصَ ذلكَ مما يحتاجُ إليهِ، فيعودُ بالأجرِ عليهمْ، فكانَ التطوعُ بخدمة الأبدان أولى.

وضابط الأمور لا يحلُّ مالُ أحدٍ إلا لضرورةٍ تعرضُ، فيؤخذُ ذلكَ المالُ جهرًا لا سرًا، وينفقُ بالعدل لا بالاستيثار، وبرأيِ الجماعةِ لا بالاستبدادِ بالأمرِ، واللهُ تعالى الموفقُ للصوابِ.

قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ أيْ أعطوني زبرَ الحديدِ وناولونيها، أمرهمْ بنقلِ الآلةِ، وَ ﴿زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ قطعُ الحديدِ. وأصلُ الكلمةِ الاجتماعُ، ومنهُ زُبرةُ الأسدِ لما اجتمعَ منَ الشعرِ على كاهلِهِ. وزبرتُ الكتابَ أيْ كتبتهُ وجمعتُ حروفهُ.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ﴾ يعني البناءَ فحذفَ لقوةِ الكلامِ عليهِ ﴿بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ هما جانبا الجبلِ، وسميا بذلكَ لتصادفهما أيْ لتلاقيهما.

قرأَ نافعٌ وحمزةُ والكسائيُّ ﴿ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ بفتحِ الصادِ وشدها وفتحِ الدالِ، وقرأَ ابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ وأبو عمرو: «الصُّدُفَيْنِ» بضمِّ الصادِ والدالِ، وقرأَ عاصمٌ في روايةِ أبي بكرٍ: «الصُّدْفَيْنِ» بضمِّ الصادِ وسكونِ الدالِ، نحوَ الجُرُفِ والجُرْفِ، فهوَ تخفيفٌ.

قولهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱنفُخُوا۟﴾ إلى آخرَ الآيةِ أيْ على زبرِ الحديدِ بالأكيارِ، وذلكَ أنهُ كانَ يأمرُ بوضعِ طاقةٍ منَ الزبرِ والحجارةِ، ثمَّ يوقدُ عليها الحطبَ والفحمَ بالمنافخِ حتى تحمى، والحديدُ إذا أوقدَ عليهِ صارَ كالنارِ، فذلكَ قولهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ ثمَّ يؤتى بالنحاسِ المذابِ أوْ بالرصاصِ أوْ بالحديدِ بحسبِ الخلافِ في القطرِ، فيفرغهُ على تلكَ الطاقةِ المنضدةِ، فإذا التأمَ واشتدَّ ولصقَ البعضُ بالبعضِ استأنفَ وضعَ طاقةٍ أخرى، إلى أنِ استوى العملُ فصارَ جبلًا صلدًا. ومعنى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ أيْ كالنارِ. ومعنى: ﴿ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۝٩٦﴾ أيْ أعطوني قطرًا أفرغُ عليهِ، على التقديمِ والتأخيرِ.

والقطرُ عندَ أكثرِ المفسرينَ النحاسُ المذابُ، وأصلهُ منَ القَطْرِ، لأنهُ إذا أذيبَ قَطَرَ كما

يقطرُ الماءُ. وقالت فرقة: القِطرُ الحديدُ المذابُ. وقالت فرقة: الرصاصُ المذابُ. وهوَ مشتقٌّ منْ قَطَرَ يَقْطرُ قَطْرًا. ومنهُ: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أيْ ما استطاعَ يأجوجُ ومأجوجُ أنْ يعلوهُ ويصعدوا فيهِ، لأنهُ أملسُ مستوٍ معَ الجبلِ والجبلُ عالٍ لا يرامُ.

﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ۝٩٧﴾ لبعدِ عرضهِ وقوتهِ. ورويَ في الصحيحِ عنْ أبي هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «فُتِحَ اليومَ منْ ردمِ يأجوجَ ومأجوجَ مثلُ هذهِ» وعقدَ وهبُ بنُ منبهٍ بيدهِ تسعينَ- وفي روايةٍ- وحلقَ بإصبعهِ الإبهامِ والتي تليها، وذكرَ الحديثَ.

قولهُ تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ﴾ بتخفيفِ الطاءِ على قراءةِ الجمهورِ. وقيل: هيَ لغةٌ بمعنى استطاعوا. وقيل: بلِ استطاعوا بعينهِ كثرَ في كلامِ العربِ حتى حذفَ بعضهمْ منهُ التاءَ فقالوا: اسطاعوا. وحذفَ بعضهمْ منهُ الطاءَ فقالَ: استاعَ يستيعُ بمعنى استطاعَ يستطيعُ، وهيَ لغةٌ مشهورةٌ. وقرأَ حمزةُ وحدهُ: «فَمَا اسْطَّاعُوا» بتشديدِ الطاءِ كأنهُ أرادَ استطاعوا، ثمَّ أدغمَ التاءَ في الطاءِ فشددها، وهيَ قراءةٌ ضعيفةُ الوجهِ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ القائلُ ذو القرنينِ، وأشارَ بهذا إلى الردمِ والقوةِ عليهِ، والانتفاعِ بهِ في دفعِ ضررِ يأجوجَ ومأجوجَ.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أيْ يومُ القيامةِ. وقيل: وقتُ خروجهمْ «جعله دكًا» أيْ مستويًا بالأرضِ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا﴾ قالَ ابنُ عرفةَ: أيْ جعلتْ مستويةً لا أكمةَ فيها.

ومنْ قرأَ ﴿دَكَّآءَ﴾ أرادَ جعلَ الجبلَ أرضًا دكاءَ، وهيَ الرابيةُ التي لا تبلغُ أنْ تكونَ جبلًا وجمعها دكاواتٌ. قرأَ حمزةُ وعاصمٌ والكسائيُّ ﴿دَكَّآءَ﴾ بالمدِّ على التشبيهِ بالناقةِ الدكّاءِ وهيَ التي لا سنامَ لها، وفي الكلامِ حذفٌ تقديره: جعله في مثلَ دكاءَ، ولا بدَّ منْ تقديرِ هذا

الحذفِ. لأنَّ السدَّ مذكرٌ فلا يوصفُ بدكاءَ. ومنْ قرأَ: «دَكًّا» فهوَ مصدرُ دكَّ يدكُّ إذا هدمَ ورضَّ، ويحتملُ أنْ يكونَ «جعلَ» بمعنى خلق. وينصب ﴿دَكَّآءَ﴾ على الحالِ.

قوله تعالى: ﴿۞ وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾ الضميرُ في ﴿تَرَكۡنَا﴾ للهِ تعالى، أيْ تركنا الجنَّ والإنسَ يومَ القيامةِ يموجُ بعضهمْ في بعضٍ. وقيل: تركنا يأجوجَ ومأجوجَ ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ أيْ وقتَ كمالِ السدِّ يموجُ بعضهمْ في بعضٍ. واستعارةُ الموجِ لهمْ عبارةٌ عنِ الحيرةِ وترددِ بعضهمْ في بعضٍ، فشبههمْ بموجِ البحرِ الذي يضطربُ بعضهُ في بعضٍ. وقيل: تركنا يأجوجَ ومأجوجَ يومَ انفتاحِ السدِّ يموجونَ في الدنيا مختلطينَ لكثرتهمْ.

قلتُ: فهذهِ ثلاثةُ أقوالٍ أظهرها أوسطها، وأبعدها آخرها، وحسنَ الأولُ، لأنهُ تقدمَ ذكرُ القيامةِ في تأويلِ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي﴾. واللهُ أعلمُ.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا ٩٩﴾ يعني الجنَّ والإنسَ في عرصاتِ القيامةِ ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ﴾ أيْ أبرزناها لهمْ ﴿يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ١٠٠ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ﴾ في موضعِ خفضِ نعتٍ ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾. ﴿فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾ أيْ هم بمنزلةِ منْ عينهُ مغطاةٌ فلا ينظرُ إلى دلائلِ اللهِ تعالى ﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ١٠١﴾ أيْ لا يطيقونَ أنْ يسمعوا كلامَ اللهِ تعالى، فهمْ بمنزلةِ منْ صمَّ.

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أيْ ظنَّ ﴿أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي﴾ يعني عيسى والملائكةَ وعزيرًا ﴿مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ﴾ ولا أعاقبهمْ، ففي الكلامِ حذفٌ. أو حسبوا أنْ ينفعهمْ ذلكَ ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ١٠٢﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣﴾ إلى قوله: ﴿وَزۡنٗا ١٠٥﴾، فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣﴾ - الآيةَ- فيهِ دلالةٌ على أنَّ منَ الناسِ منْ يعملُ العملَ وهوَ يظنُّ أنهُ محسنٌ وقدْ حبطَ سعيهُ، والذي يوجبُ إحباطَ السعيِ إما فسادُ الاعتقادِ أوِ المراءاةُ، والمرادُ هنا الكفر. روى البخاري عن مصعب قال: سألت أبي: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ أهمُ الحروريةُ؟ قالَ: لا، همُ

اليهودُ والنصارى. وأما اليهودُ فكذبوا محمدًا ﷺ، وأما النصارى فكفروا بالجنةِ، فقالوا: لا طعامَ فيها ولا شرابَ، والحروريةُ الذينَ ينقضونَ عهدَ اللهِ منْ بعدِ ميثاقهِ، وكانَ سعدٌ يسميهمُ الفاسقينَ.

والآيةُ معناها التوبيخُ، أيْ قلْ لهؤلاءِ الكفرةِ الذينَ عبدوا غيري: يخيبُ سعيهمْ وآمالهمْ غدًا، فهمُ الأخسرونَ أعمالًا، وهمُ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ في عبادةِ منْ سوايَ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ قراءةُ الجمهورِ ﴿نُقِيمُ﴾ بنونِ العظمةِ، وقد ثبت معناه مرفوعا في صحيحي البخاريِّ ومسلمٍ عنْ أبي هريرةَ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «إنهُ ليأتي الرجلُ العظيمُ السمينُ يومَ القيامةِ لا يزنُ عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ اقرءوا إنْ شئتمْ ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾». والمعنى أنهمْ لا ثوابَ لهمْ، وأعمالهمْ مقابلةٌ بالعذابِ، فلا حسنةَ لهمْ توزنُ في موازينِ القيامةِ ومنْ لا حسنةَ لهُ فهوَ في النارِ.

وفي هذا الحديثِ منَ الفقهِ ذمُّ السِمَنِ لمنْ تكلفهُ، لما في ذلكَ منْ تكلفِ المطاعمِ والاشتغالِ بها عنِ المكارمِ، بلْ يدلُّ على تحريمِ الأكلِ الزائدِ على قدرِ الكفايةِ المبتغى بهِ الترفهُ والسمنُ. وقدْ قالَ ﷺ: «إنَّ أبغضَ الرجالِ إلى اللهِ تعالى الحبرُ السمينُ». ومنْ حديثِ عمرانَ بنِ حصينٍ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «خيركمْ قرني ثمَّ الذينَ يلونهمْ - قالَ عمرانُ فلا أدري أذكرَ بعدَ قرنهِ قرنينِ أوْ ثلاثةً - ثمَّ إنَّ منْ بعدكمْ قومًا يشهدونَ ولا يستشهدونَ ويخونونَ ولا يؤتمونَ وينذرونَ ولا يوفونَ ويظهرُ فيهمُ السمنُ» وهذا ذمٌّ.

وسببُ ذلكَ أنَّ السمنَ المكتسبَ إنما هوَ منْ كثرةِ الأكلِ والشرهِ، والدعةِ والراحةِ والأمنِ والاسترسالِ معَ النفسِ على شهواتها، فهوَ عبدُ نفسهِ لا عبدُ ربهِ، ومنْ كانَ هذا حالهُ وقعَ لا محالةَ في الحرامِ، وكلُّ لحمٍ تولدَ عنْ سحتٍ فالنارُ أولى بهِ، وقدْ ذمَّ اللهُ تعالى الكفارَ بكثرةِ الأكلِ فقالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ فإذا كانَ المؤمنُ يتشبهُ بهمْ، ويتنعمُ بتنعمهمْ في كلِّ أحوالهِ وأزمانهِ، فأينَ حقيقةُ الإيمانِ، والقيامُ بوظائفِ الإسلامِ؟! ومنْ كثرَ أكلهُ وشربهُ كثرَ نهمهُ وحرصهُ، وزادَ بالليلِ كسلهُ ونومهُ، فكانَ نهارهُ هائمًا، وليلهُ نائمًا.

وقدْ مضى في «الأعرافِ» هذا المعنى، وتقدمَ فيها ذكرُ الميزانِ، وأنَّ لهُ كفتينِ توزنُ فيهما صحائفُ الأعمالِ فلا معنى للإعادةِ. وقالَ ﷺ حينَ ضحكوا منْ حمشِ ساقِ ابنِ مسعودٍ وهوَ يصعدُ النخلةَ: «تضحكونَ منْ ساقٍ توزنُ بعملِ أهلِ الأرضِ» فدلَّ هذا على أنَّ الأشخاصَ توزنُ.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى تركِ الوزنِ، وهوَ في موضعِ رفعٍ بالابتداءِ ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ خبرهُ و ﴿جَهَنَّمُ﴾ بدلٌ منَ المبتدإِ الذي هوَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ و «ما» في قولِهِ: ﴿بِمَا كَفَرُوا﴾ مصدريةٌ، والهزءُ الاستخفافُ والسخريةُ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ الفردوسُ ربوةُ الجنةِ وأوسطها وأعلاها وأفضلها وأرفعها، وفي صحيحِ البخاريِّ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «منْ آمنَ باللهِ وبرسولهِ وأقامَ الصلاةَ وصامَ رمضانَ كانَ حقًا على اللهِ أنْ يدخلهُ الجنةَ جاهدَ في سبيلِ اللهِ أوْ جلسَ في أرضهِ التي ولدَ فيها» قالوا: يا رسولَ اللهِ أفلا نبشرَ الناسَ؟ قالَ: «إنَّ في الجنةِ مائةَ درجةٍ أعدها اللهُ للمجاهدينَ في سبيلِ اللهِ ما بينَ الدرجتينِ كما بينَ السماءِ والأرضِ فإذا سألتمُ اللهَ تعالى فاسألوهُ الفردوسَ فإنهُ أوسطُ الجنةِ وأعلى الجنةِ- أراهُ قالَ- وفوقهُ عرشُ الرحمنِ ومنهُ تفجرُ أنهارُ الجنةِ».

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ أيْ دائمينَ ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ أيْ لا يطلبونَ تحويلًا عنها إلى غيرها. والحولُ بمعنى التحويلِ، ويجوزُ أنْ يكونَ منَ الحيلةِ، أيْ لا يحتالون منزلا غيرها. وقال الجوهري: التحول التنقل من موضع إلى وضع، والاسمُ الحِولُ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ نفدَ الشيءُ إذا تمَّ وفرغَ ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ أيْ زيادةً على البحرِ عددًا أوْ وزنًا، ونظيرُ هذهِ الآيةِ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾. وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ: «قَبْلَ أَنْ يَنْفَدَ» بالياءِ لتقدمِ الفعلِ.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أيْ لا أعلمُ إلا مايعلمني اللهُ تعالى، وعلمُ اللهِ تعالى لا يحصى، وإنما أمرتُ بأنْ أبلغكمْ بأنهُ لا إلهَ إلا اللهُ ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أيْ يرجو رؤيتهُ وثوابهُ ويخشى عقابهُ ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ تقدمَ في سورةِ «هودٍ» حديثُ أبي هريرةَ الصحيحُ في الثلاثةِ الذينَ يقضى عليهمْ أولَ الناسِ، وقدْ تقدمَ في سورةِ «النساءِ» الكلامُ على الرياءِ، وذكرنا منَ الأخبارِ هناكَ ما فيهِ كفايةٌ.

قالَ علماؤنا رضيَ اللهُ تعالى عنهمْ: وقدْ يفضي الرياءُ بصاحبهِ إلى استهزاءِ الناسِ بهِ.

سورة مريم عليها السلام

وهيَ مكيةٌ بإجماعٍ. وهيَ تسعونَ وثمانِ آياتٍ

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ

قوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ ١﴾ تقدمَ الكلامُ في أوائلِ السورِ، وقرأ أبو جعفرٍ هذهِ الحروفَ متقطعةً، ووصلها الباقونَ، وأمالَ أبو عمرو الهاءَ وفتحَ الياءَ، وابنُ عامرٍ وحمزةُ بالعكسِ، وأمالهما جميعًا الكسائيُّ وخلفٌ، وقرأهما بينَ اللفظينِ أهلُ المدينةِ نافعٌ وغيرُه، وفتحهما الباقونَ، وأظهرَ الدالَّ منْ هجاءِ «ص» نافعٌ وابنُ كثيرٍ وعاصمٌ ويعقوبُ، وأدغمها الباقونَ.

قوله تعالى: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ٣﴾. فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ﴾ رفعَ بإضمارِ مبتدأٍ، أيْ هذا ذكرُ رحمة ربك، «وَرَحۡمَة» تكتبُ ويوقفُ عليها بالهاءِ وكذلكَ كلُّ ما كانَ مثلها، لا اختلافَ فيها بينَ النحويينَ. واعتلوا في ذلكَ أنَّ هذهِ الهاءَ لتأنيثِ الأسماءِ فرقًا بينها وبينَ الأفعالِ.

الثانية: قولهُ تعالى: ﴿عَبۡدَهُۥ﴾ قالَ الأخفش: هو منصوب بـ ﴿رَحۡمَتِ﴾. ﴿زَكَرِيَّآ ٢﴾ بدلٌ منهُ، كما تقولُ: هذا ذكرُ ضربِ زيدٍ عمرًا، فعمرًا منصوبٌ بالضربِ، كما أنَّ ﴿عَبۡدَهُۥ﴾ منصوبٌ بالرحمةِ. وقيل: هوَ على التقديمِ والتأخيرِ، معناهُ: ذكرُ ربكَ عبدهُ زكريا برحمةٍ، فَـ ﴿عَبۡدَهُۥ﴾ منصوبٌ بالذكرِ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ٣﴾ مثلَ قولهِ: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾، والنداءُ الدعاءُ والرغبةُ، أيْ ناجى ربهُ بذلكَ في محرابهِ. دليلهُ قولهُ: ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ﴾ فبينَ أنهُ استجابَ لهُ في صلاتهِ، كما نادى في الصلاةِ.

واختلفَ في إخفائهِ هذا النداءَ:

فقيلَ: أخفاهُ منْ قومهِ لئلا يلامَ على مسألةِ الولدِ عندَ كبرِ السنِّ، ولأنهُ أمرٌ دنيويٌّ، فإنْ أجيبَ فيهِ نالَ بغيتهُ، وإنْ لمْ يجبْ لمْ يعرفْ بذلكَ أحدٌ.

وقيل: مخلصًا فيهِ لمْ يطلعْ عليهِ إلا اللهُ تعالى.

وقيل: لما كانتِ الأعمالُ الخفيةُ أفضلَ وأبعدَ منَ الرياءِ أخفاهُ. والكلُّ محتملٌ والأولُ أظهرُ، واللهُ أعلمُ.

وقدْ تقدمَ أنَّ المستحبَّ منَ الدعاءِ الإخفاءُ في سورةِ «الأعرافِ» وهذهِ الآيةُ نصٌّ في ذلكَ، لأنهُ سبحانهُ أثنى بذلكَ على زكريا. قالَ يونسُ بنُ عبيدٍ: كانَ الحسنُ يرى أنْ يدعوَ الإمامُ في القنوتِ ويؤمنَ منْ خلفهُ منْ غيرِ رفعِ صوتٍ، وتلا يونسُ: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾. قالَ ابنُ العربيِّ: وقدْ أسرَّ مالكٌ القنوتَ وجهرَ بهِ الشافعيُّ، والجهرُ بهِ أفضلُ، لأنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يدعو بهِ جهرًا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾، فيهِ ثلاث مسائل:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ﴾ قرئَ ﴿وَهَنَ﴾ بالحركاتِ الثلاثِ أيْ ضعفَ. يقالُ: وهنَ يهنُ وهنًا إذا ضعفَ فهوَ واهنٌ.

وإنما ذكرَ العظمَ لأنهُ عمودُ البدنِ، وبهِ قوامهُ، وهوَ أصلُ بنائهِ، فإذا وهنَ تداعى وتساقطَ سائرُ قوتهِ، ولأنهُ أشدُّ ما فيهِ وأصلبهُ، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن منهُ. ووحدهُ لأنَّ الواحدَ هوَ الدالُّ على معنى الجنسيةِ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أدغمَ السينَ في الشينِ أبو عمرو. وهذا منْ أحسنِ الاستعارةِ في كلامِ العربِ. والاشتعالُ انتشارُ شعاعِ النارِ، شبهَ بهِ انتشارَ الشيبِ في الرأسِ، يقولُ: شختُ وضعفتُ، وأضافَ الاشتعالَ إلى مكانِ الشعرِ ومنبتهِ وهوَ الرأسُ. ولمْ يضف الرأسَ اكتفاءً بعلمِ المخاطبِ أنهُ رأسُ زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَ ﴿شيبًا﴾ منصوبٌ على التمييز.

الثالثة: قالَ العلماءُ: يستحبُّ للمرءِ أنْ يذكرَ في دعائهِ نعمَ اللهِ تعالى عليهِ وما يليقُ بالخضوعِ، لأنَّ قوله تعالى: ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ إظهارٌ للخضوعِ. وقولهُ: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ

بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ إظهارٌ لعاداتِ تفضلهِ في إجابتهِ أدعيتهُ، أيْ لمْ أكنْ بدعائي إياكَ شقيًا، أيْ لمْ تكنْ تخيبُ دعائي إذا دعوتكَ، أيْ إنكَ عودتني الإجابةَ فيما مضى.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥﴾، فيهِ سبعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ﴾، ﴿ٱلْمَوَٰلِيَ﴾ هنا الأقارب بنو العمِّ والعصبةُ الذينَ يلونهُ في النسبِ. والعربُ تسمي بني العمِّ الموالِيَ. قالَ الشاعرُ:

مهلًا بني عمنا مهلًا موالينا   لا تنبشوا بيننا ما كانَ مدفونا

قيل: خافَ أنْ يرثوا مالهُ وأنْ ترثهُ الكلالةُ فأشفقَ أنْ يرثهُ غيرُ الولدِ.

وقالتْ طائفةٌ: إنما كانَ مواليهِ مهملينَ للدينِ فخافَ بموتهِ أنْ يضيعَ الدينُ، فطلبَ وليًا يقومُ بالدينِ بعدهُ، وعليهِ فلمْ يسلْ منْ يرثُ مالهُ، لأنَّ الأنبياءَ لا تورثُ. وهذا هوَ الصحيحُ منَ القولينِ في تأويلِ الآيةِ، وأنهُ ﷺ أرادَ وراثةَ العلمِ والنبوةِ لا وراثةَ المالِ، لما ثبتَ عنِ النبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «إنا معشرَ الأنبياءِ لا نورثُ ما تركنا صدقةٌ» وفي كتابِ أبي داودَ: «إنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ وإنَّ الأنبياءَ لمْ يورثوا دينارًا ولا درهمًا ورثوا العلمَ».

الثانية: هذا الحديثُ يدخلُ في التفسيرِ المسندِ، لقولهِ تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ وعبارةٌ عنْ قولِ زكريا: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ وتخصيصٌ للعمومِ في ذلكَ، وأنَّ سليمانَ لمْ يرثْ منْ داودَ مالًا خلفهُ داودُ بعدهُ، وإنما ورثَ منهُ الحكمةَ والعلمَ، وكذلكَ ورثَ يحيى منْ آلِ يعقوبَ.

الثالثة: قولهُ تعالى: ﴿مِن وَرَآءِى﴾ قرأَ ابنُ كثيرٍ بالمدِّ والهمزِ وفتحِ الياءِ، وعنهُ أنهُ قرأَ أيضًا مقصورًا مفتوحَ الياءِ مثلَ عصايَ. الباقونَ بالهمزِ والمدِّ وسكونِ الياءِ. و ﴿مِن وَرَآءِى﴾ منْ بعدي في الزمنِ، فهوَ الوراءُ على ما تقدمَ في «الكهفِ».

الرابعة: قولهُ تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ امرأته هي إيشاع أختُ حنةَ بنتِ فاقوذا، وهيَ أمُّ مريمَ، وعلى هذا القولِ يكونُ يحيى ابنَ خالةِ عيسى عليه السلام على الحقيقةِ، وفي حديثِ الإسراءِ قالَ ﷺ: «فلقيتُ ابني الخالةِ يحيى وعيسى».

والعاقرُ التي لا تلدُ لكبرِ سنها، وقدْ مضى بيانهُ في «آلِ عمرانَ». والعاقرُ منَ النساءِ أيضًا التي لا تلدُ منْ غيرِ كبرٍ. ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾. وكذلكَ العاقرُ منَ الرجالِ.

الخامسة: قولهُ تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ سؤالٌ ودعاءٌ. ولمْ يصرحْ بولدٍ لما علمَ منْ حالهِ وبعدِهِ عنهُ بسببِ المرأةِ. وقدْ كانَ غلبَ على ظنهِ أنهُ لا يولدُ لهُ لكبرِهِ، ولذلكَ قالَ: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾.

وقالتْ طائفة: بل طلب الولد، ثمَّ طلبَ أنْ تكونَ الإجابةُ في أنْ يعيشَ حتى يرثهُ، تحفظًا منْ أنْ تقعَ الإجابة في الولد ولكن يخترم، ولا يتحصلُ منهُ الغرضُ.

السادسة: قالَ العلماءُ: دعاءُ زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ في الولدِ إنما كانَ لإظهارِ دينهِ، وإحياءِ نبوتهِ، ومضاعفةِ لأجرِهِ لا للدنيا، وكانَ ربهُ قدْ عودهُ الإجابةَ، ولذلكَ قالَ: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أيْ بدعائي إياكَ. وهذهِ وسيلةٌ حسنةٌ، أنْ يتشفع إليه بنعمه، ويستدر فضلهُ بفضلهِ، يروى أنَّ حاتمَ الجودِ لقيهُ رجلٌ فسألهُ، فقالَ لهُ حاتمٌ: منْ أنتَ؟ قالَ: أنا الذي أحسنتَ إليهِ عامَ أولٍ، فقالَ: مرحبًا بمنْ تشفعَ إلينا بنا.

فإنْ قيلَ: كيفَ أقدمَ زكريا على مسألةِ ما يخرقُ العادةَ دونَ إذنٍ؟ فالجوابُ: أنَّ ذلكَ جائزٌ في زمانِ الأنبياءِ وفي القرآنِ ما يكشفُ عنْ هذا المعنى، فإنهُ تعالى قالَ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فلما رأى خارقَ العادةِ استحكمَ طمعهُ في إجابةِ دعوتهِ، فقالَ تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ الآيةَ.

السابعة: إنْ قالَ قائلٌ: هذهِ الآيةُ تدلُّ على جوازِ الدعاءِ بالولدِ، واللهُ سبحانهُ وتعالى قدْ حذرنا منْ آفاتِ الأموالِ والأولادِ، ونبهَ على المفاسدِ الناشئةِ منْ ذلكَ، فقالَ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾. ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾.

فالجوابُ: أنَّ الدعاءَ بالولدِ معلومٌ منَ الكتابِ والسنةِ حسبَ ما تقدمَ في «آلِ عمرانَ» بيانهُ. ثمَّ إنَّ زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ تحرزَ فقالَ: ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ وقالَ: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾. والولدُ

إذا كانَ بهذهِ الصفةِ نفعَ أبويهِ في الدنيا والآخرةِ، وخرجَ منْ حدِّ العداوةِ والفتنةِ إلى حدِّ المسرةِ والنعمةِ، وقدْ دعا النبيُّ ﷺ لأنسٍ خادمهِ فقالَ: «اللهمَّ أكثرْ مالهُ وولدهُ وباركْ لهُ فيما أعطيتهُ» فدعا لهُ بالبركةِ تحرزًا مما يؤدي إليهِ الإكثارُ منَ الهلكةِ.

قوله تعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿يَرِثُنِي﴾ قرأَ أهلُ الحرمينِ وعاصمٌ وحمزةُ: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ﴾ بالرفعِ فيهما. وقرأَ أبو عمرو والكسائيُّ: بالجزمِ فيهما، تقديرهُ إنْ تهبهُ يرثني ويرثْ، والأولُ أصوبُ في المعنى لأنهُ طلبَ وارثًا موصوفًا، لأنَّ الأولياءَ منهمْ منْ لا يرثُ.

الثانية: قوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ للعلماءِ فيهِ ثلاثةُ أجوبةٍ، قيل: هي وراثة نبوة. وقيل: هي وراثةُ حكمةٍ. وقيل: هيَ وراثةُ مالٍ. فأما قولهمْ وراثةُ نبوةٍ فمحالٌ، لأنَّ النبوةَ لا تورثُ، ووراثةُ العلمِ والحكمةِ مذهبٌ حسنٌ، وفي الحديثِ «العلماءُ ورثةُ الأنبياءِ». وأما وراثةُ المالِ فلا يمتنعُ، وإنْ كانَ قومٌ قدْ أنكروهُ لقولِ النبيِّ ﷺ: «لا نورثُ ما تركنا صدقةٌ» فهذا لا حجةَ فيهِ، لأنَّ الواحدَ يخبرُ عنْ نفسهِ بإخبارِ الجمعِ.

قالَ أبو عمرَ: واختلفَ العلماءُ في تأويلِ قولهِ ﷺ: «لا نورثُ ما تركنا صدقةٌ» على قولين:

أحدهما- وهو الأكثرُ وعليهِ الجمهورُ- أنَّ النبيَّ ﷺ لا يورثُ وما تركَ صدقةٌ.

والآخرُ- أنَّ نبينا ﷺ لمْ يورثْ، لأنَّ اللهَ تعالى خصهُ بأنْ جعلَ مالهُ كلهُ صدقةً زيادةً في فضيلتهِ، كما خصَّ في النكاحِ بأشياءَ أباحها لهُ وحرمها على غيرهِ، وهذا القولُ قالهُ بعضُ أهلِ البصرةِ منهمُ ابنُ عليةَ، وسائرُ علماءِ المسلمينَ على القولِ الأولِ.

الثالثة: قولهُ تعالى: ﴿مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ قيلَ: هوَ يعقوبُ بنُ إسرائيلَ، وكانَ زكريا متزوجًا بأختِ مريمَ بنتِ عمرانَ، ويرجعُ نسبها إلى يعقوبَ، لأنها منْ ولدِ سليمانَ بنِ داودَ وهوَ منْ ولدِ يهوذا بن يعقوب، وزكريا من ولد هرون أخي موسى، وهرون وموسى منْ ولدِ لاوي بنِ يعقوبَ، وكانتِ النبوةُ في سبطِ يعقوبَ بنِ إسحاقَ. وقيل: المعني بيعقوب ها هنا يعقوب بن ما ثان أخو عمران بن ما ثان أبي مريمَ أخوانِ منْ نسلِ سليمانَ بنِ داودَ عليهما السلام،

لأنَّ يعقوبَ وعمرانَ ابنا ما ثان، وبنو ما ثان رؤساءُ بني إسرائيلَ.

الرابعة: قولهُ تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾ أيْ مرضيًا في أخلاقهِ وأفعالهِ. وقيل: راضيًا بقضائكَ وقدركَ. وقيل: رجلًا صالحًا ترضى عنهُ. وقالَ أبو صالحٍ: نبيًا كما جعلتَ أباهُ نبيًا.

قولهُ تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ﴾ في الكلامِ حذفٌ، أيْ فاستجابَ اللهُ دعاءهُ فقالَ: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ فتضمنتْ هذهِ البشرى ثلاثةَ أشياءَ:

أحدها- إجابةُ دعائهِ، وهيَ كرامةٌ. **الثاني**- إعطاؤهُ الولدَ وهوَ قوةٌ. **الثالثُ**- أنْ يفرد بتسميته، وقد تقدم معنى تسميته بيحيى في «آلِ عمرانَ» وقالَ مقاتلٌ: سماهُ يحيى لأنهُ حييَ بينَ أبٍ شيخٍ وأمٍّ عجوزٍ، وهذا فيهِ نظرٌ، لما تقدمَ منْ أنَّ امرأتهُ كانتْ عقيمًا لا تلدُ. واللهُ أعلمُ.

قوله تعالى: ﴿لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧﴾ أيْ لمْ نسمِّ أحدًا قبلَ يحيى بهذا الاسمِ، وقيل: ﴿سَمِيّٗا﴾ معناهُ مثلًا ونظيرًا، وهوَ مثلُ قولهِ تعالى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ معناه مثلا ونظيرا وهذا كأنه من المساماة والسمو، هذا فيهِ بعدٌ، لأنهُ لا يفضلُ على إبراهيمَ وموسى، اللهمَّ إلا أنْ يفضلَ في خاصٍّ كالسؤددِ والحصرِ.

وقيل: إنَّ اللهَ تعالى اشترطَ القبلَ، لأنهُ أرادَ أنْ يخلقَ بعدهُ أفضلَ منهُ وهوَ محمدٌ ﷺ.

وفي هذهِ الآيةِ دليلٌ وشاهدٌ على أنَّ الأساميَ السنعَ جديرةٌ بالأثرةِ، وإياها كانتِ العربُ تنتحي في التسميةِ لكونها أنبهَ وأنزهَ عنِ النبزِ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾ ليسَ على معنى الإنكارِ لما أخبرَ اللهُ تعالى بهِ، بلْ على سبيلِ التعجبِ منْ قدرةِ اللهِ تعالى أنْ يخرجَ ولدًا منَ امرأةٍ عاقرٍ وشيخٍ كبيرٍ.

﴿وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ۝٨﴾ يعني النهايةَ في الكبرِ واليبسِ والجفافِ.

وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ: ﴿عِتِيّٗا﴾ بكسرِ العينِ وكذلكَ ﴿جِثِيّٗا﴾ وَ ﴿صِلِيّٗا﴾ حيثُ كنَّ. وضمَّ حفصٌ ﴿بُكِيّٗا﴾ خاصةً، وكذلكَ الباقونَ في الجميعِ، وهما لغتانِ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أيْ قالَ لهُ الملكُ ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ والكافُ في موضعِ رفعٍ، أيِ الأمرُ كذلكَ، أيْ كما قيلَ لكَ: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾. قالَ الفراءُ: خلقهُ عليَّ هينٌ ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ﴾ أيْ منْ قبلِ يحيى. وهذهِ قراءةُ أهلِ المدينةِ والبصرةِ وعاصمٍ. وقرأ سائرُ الكوفيينَ «وَقَدْ خَلَقْنَاكَ» بنونٍ وألفٍ بالجمعِ على التعظيمِ.

﴿وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾ أيْ كما خلقكَ اللهُ تعالى بعدَ العدمِ ولمْ تكُ شيئًا موجودًا، فهوَ القادرُ على خلقِ يحيى وإيجادهِ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ طلبَ آيةً على حملها بعدَ بشارةِ الملائكةِ إياه، وبعد قول الله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ زيادةَ طمأنينةٍ، أيْ تممِ النعمةَ بأنْ تجعلَ لي آيةً، وتكونُ تلكَ الآيةُ زيادةَ نعمةٍ وكرامةٍ. وقيل: طلبَ آيةً تدلهُ على أنَّ البشرى منهُ بيحيى لا منَ الشيطانِ، لأن إبليس أوهمه ذلكَ، وهذا فيهِ نظرٌ لإخبارِ اللهِ تعالى بأنَّ الملائكةَ نادتهُ حسبَ ما تقدمَ في آلِ عمرانَ.

قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ أيْ أشرفَ عليهمْ منَ المصلى. والمحرابُ أرفعُ المواضعِ، وأشرفُ المجالسِ، وكانوا يتخذونَ المحاريبَ فيما ارتفعَ منَ الأرضِ، دليلهُ محرابُ داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ على ما يأتي. واختلفَ الناسُ في اشتقاقهِ، فقالت فرقة: هو مأخوذ من الحرب كأن من يلازمه يحاربُ الشيطانَ والشهواتِ.

وقالت فرقة: هوَ مأخوذٌ منَ الحرَبِ «بفتحِ الراءِ» كأنَّ ملازمهُ يلقى منهُ حربًا وتعبًا ونصبًا.

الثانية: هذهِ الآيةُ تدلُّ على أنَّ ارتفاعَ إمامهمْ على المأمومينَ كانَ مشروعًا عندهمْ في صلاتهمْ. وقدِ اختلفَ في هذهِ المسألةِ فقهاءُ الأمصارِ، فأجازَ ذلكَ الإمام أحمد وغيرهُ متمسكًا بقصةِ المنبرِ. ومنعَ مالكٌ ذلكَ في الارتفاعِ الكثيرِ دونَ اليسيرِ، وعللَ أصحابهُ المنعَ بخوفِ الكبرِ على الإمامِ.

قلتُ: وهذا فيهِ نظرٌ، وأحسنُ ما فيهِ ما رواهُ أبو داودَ أنَّ حذيفةَ أمَّ الناسَ بالمدائنِ على دكانٍ، فأخذَ أبو مسعودٍ بقميصهِ فجبذهُ، فلما فرغَ منْ صلاتهِ قالَ: ألمْ تعلمْ أنهمْ كانوا ينهونَ عنْ هذا- أو ينهى عنْ ذلكَ! قالَ: بلى، قدْ ذكرتُ حينَ مددتني. ورويَ أيضًا عنْ عديٍّ بنِ ثابتٍ الأنصاريِّ قالَ: حدثني رجلٌ أنهُ كانَ معَ عمارِ بنِ ياسرٍ بالمدائنِ، فأقيمتِ الصلاةُ فتقدمَ عمارُ بنُ ياسرٍ، وقامَ على دكانٍ يصلي والناسُ أسفلَ منهُ، فتقدمَ حذيفةُ فأخذَ على يديهِ فاتبعهُ عمارٌ حتى أنزلهُ حذيفةُ، فلما فرغَ عمارٌ منْ صلاتهِ، قالَ لهُ حذيفةُ: ألمْ تسمعْ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إذا أمَّ الرجلُ القومَ فلا يقمْ في مكانٍ أرفعَ منْ مقامهمْ» أوْ نحوَ ذلكَ، فقالَ عمارٌ: لذلكَ اتبعتكَ حينَ أخذتَ على يدي.

قلتُ: فهؤلاءِ ثلاثةٌ منَ الصحابةِ قدْ أخبروا بالنهي عنْ ذلكَ، ولمْ يحتجَّ أحدٌ منهمْ على صاحبهِ بحديثِ المنبرِ فدلَّ على أنهُ منسوخٌ، ومما يدلُّ على نسخهِ أنَّ فيهِ عملًا زائدًا في الصلاةِ، وهوَ النزولُ والصعودُ، فنسخَ كما نسخَ الكلامُ والسلامُ. وهذا أولى مما اعتذرَ بهِ أصحابنا منْ أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ معصومًا منَ الكبرِ، لأنَّ كثيرًا منَ الأئمةِ يوجدُ لا كبرَ عندهمْ، ومنهمْ منْ عللهُ بأنَّ ارتفاعَ المنبرِ كانَ يسيرًا، واللهُ أعلمُ.

الثالثة: قولهُ تعالى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ أوحى إليهمْ أشارَ. وقيل: كتبَ على الأرضِ. أو في كتابٍ. والوحيُ في كلامِ العربِ الكتابةُ.

الرابعة: قدْ تقدمَ الحكمُ في الإشارةِ في «آلِ عمرانَ» واختلفَ علماؤنا فيمنْ حلفَ ألا يكلمَ إنسانًا فكتبَ إليهِ كتابًا، أوْ أرسلَ إليهِ رسولًا، فقالَ مالكٌ: إنهُ يحنثُ إلا أنْ ينويَ مشافهتهُ، ثمَّ رجعَ فقالَ: لا ينوي في الكتابِ ويحنثُ إلا أنْ يرتجعَ الكتابَ قبلَ وصولهِ. قالَ ابنُ القاسمِ: إذا قرأَ كتابهُ حنثَ، وكذلكَ لوْ قرأَ الحالفُ كتابَ المحلوفِ عليهِ. وقالَ أشهبُ: لا يحنثُ إذا قرأهُ الحالفُ، وهذا بينٌ، لأنهُ لمْ يكلمهُ ولا ابتدأهُ بكلامٍ إلا أنْ يريدَ ألا يعلمَ معنى كلامهِ فإنهُ يحنثُ وعليهِ يخرج قولُ ابنِ القاسمِ. فإنْ حلفَ ليكلمنهُ لمْ يبرَّ إلا بمشافهتهِ، وقالَ ابنُ الماجشونِ: وإنْ حلفَ لئنْ علم كذا ليعلمنه أو ليخبرنه فكتب إليهِ أوْ أرسلَ إليهِ رسولًا برَّ، ولوْ علماهُ جميعًا لمْ يبرَّ، حتى يعلمهُ لأنَّ علمهما مختلفٌ.

الخامسة: واتفقَ مالكٌ والشافعيُّ والكوفيونَ أنَّ الأخرسَ إذا كتبَ الطلاقَ بيدهِ لزمهُ،

قالَ الكوفيونَ: إلا أنْ يكونَ رجلٌ أصمتَ أياما فكتب لم يجز من ذلك شيء. قالَ الطحاويُّ: الخرسُ مخالفٌ للصمتِ العارضِ، كما أنَّ العجزَ عنِ الجماعِ العارضِ لمرضٍ ونحوهِ يوما أو نحوه مخالف للعجز المأيوس منهُ الجماعُ، نحوَ الجنونِ في بابِ خيارِ المرأةِ في الفرقةِ.

قوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ في الكلامِ حذفٌ، المعنى فولدَ لهُ ولدٌ وقالَ اللهُ تعالى للمولودِ: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾. وهذا اختصارٌ يدل الكلام عليه. و ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ التوراةُ بلا خلافٍ. ﴿بِقُوَّةٖ﴾ أيْ بجدٍّ واجتهادٍ، وقيلَ: العلمُ بهِ، والحفظُ لهُ والعملُ بهِ، وهوَ الالتزامُ لأوامرهِ، والكفُّ عنْ نواهيهِ.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾ قيلَ: الأحكامُ والمعرفةُ بها. وروى معمرٌ أنَّ الصبيانَ قالوا ليحيى: اذهبْ بنا نلعبْ، فقالَ: ما للعبٍ خلقتُ. فأنزلَ اللهُ تعالى ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾، وَ ﴿صَبِيّٗا﴾ نصبَ على الحالِ.

وقالَ ابنُ عباسٍ: منْ قرأَ القرآنَ قبلَ أنْ يحتلمَ فهوَ ممنْ أوتيَ الحكمَ صبيًا.

وقدْ مضى الكلامُ في معنى قولهِ: ﴿وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا﴾ في «آل عمران».

قوله تعالى: ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا﴾ ﴿حَنَانٗا﴾ عطفٌ على ﴿ٱلۡحُكۡمُ﴾. قالَ جمهورُ المفسرينَ: الحنانُ الشفقةُ والرحمةُ والمحبةُ، وهوَ فعلٌ منْ أفعالِ النفسِ، وفي معنى الحنانِ عنِ ابنِ عباسٍ قولانِ:

أحدهما- قالَ: تعطفَ اللهُ عزَّ وجلَّ عليهِ بالرحمةِ.

والقولُ الآخرُ: ما أعطيهِ منْ رحمةِ الناسِ حتى يخلصهمْ منَ الكفرِ والشركِ وأصلهُ منْ حنينِ الناقةِ على ولدها. ويقالُ: حنانكَ وحنانيكَ، قيلَ: هما لغتانِ بمعنى واحدٍ. وقالَ الزمخشريُّ: ﴿حَنَانٗا﴾ رحمةً لأبويهِ وغيرهما وتعطفًا وشفقةً.

قالَ ابنُ الأعرابيِّ: الحنّانُ منْ صفةِ اللهِ تعالى مشددًا الرحيمُ. والحنانُ مخففٌ: العطفُ والرحمةُ. والحنانُ: الرزقُ والبركةُ.

وكذا قالَ مجاهدٌ. وَ ﴿حَنَانٗا﴾ أيْ تعطفًا منا عليهِ أوْ منهُ على الخلقِ، قالَ الحطيئةُ:

تحننْ عليَّ هداكَ المليكُ فإنَّ لكلِّ مقامٍ مقالًا

قوله تعالى: ﴿وَزَكَوٰةٗ﴾ «الزكاةُ» التطهيرُ والبركةُ والتنميةُ في وجوهِ الخيرِ والبرِّ، أيْ جعلناهُ مباركًا للناسِ يهديهمْ. وقيل: المعنى زكيناهُ بحسنِ الثناءِ عليهِ كما تزكي الشهودُ إنسانًا. وقيل: ﴿زَكَوٰةٗ﴾ صدقةً بهِ على أبويهِ.

﴿وَكَانَ تَقِيّٗا﴾ أيْ مطيعًا للهِ تعالى، ولهذا لمْ يعملْ خطيئةً ولمْ يلمَّ بها.

قوله تعالى: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ البرُّ بمعنى البارُّ وهوَ الكثيرُ البرِّ. وَ﴿جَبَّارًا﴾ متكبرًا وهذا وصفٌ ليحيى عليه السلام بلينِ الجانبِ وخفضِ الجناحِ.

قولُه تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ﴾ قالَ الطبريُّ وغيرهُ: معناهُ أمانٌ. ابنُ عطيةَ: والأظهرُ عندي أنها التحيةُ المتعارفةُ فهيَ أشرفُ وأنبهُ منَ الأمانِ، لأنَّ الأمانَ متحصلٌ لهُ بنفيِ العصيانِ عنهُ وهيَ أقلُّ درجاتهِ، وإنما الشرف في أن سلم الله تعالى عليهِ.

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ القصةَ إلى آخرها. هذا ابتداءُ قصةٍ ليستْ منَ الأولى. والخطابُ لمحمدٍ ﷺ، أيْ عرفهمْ قصتها ليعرفوا كمالَ قدرتنا.

﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ﴾ أيْ تنحتْ وتباعدتْ. والنبذُ الطرحُ والرميُ، قال الله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾.

﴿مِنۡ أَهۡلِهَا﴾ أي ممن كان معها. ﴿إِذِ﴾ بدلٌ منْ ﴿مَرۡيَمَ﴾ بدلُ اشتمالٍ، لأنَّ الأحيانَ مشتملةٌ على ما فيها. والانتباذُ الاعتزالُ والانفرادُ.

واختلفَ الناسُ لمَ انتبذتْ، فقيل: انتبذتْ لتطهرَ منْ حيضٍ أوْ نفاسٍ. وقيل: لتعبدَ اللهَ، وهذا حسنٌ.

وقولهُ: ﴿مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦﴾ أيْ مكانًا منْ جانبِ الشرقِ. والشرْقُ بسكونِ الراءِ المكانُ الذي تشرقُ فيهِ الشمسُ، والشرَقُ بفتحِ الراءِ الشمسُ، وإنما خصَّ المكانَ بالشرقِ لأنهمْ كانوا يعظمونَ جهةَ المشرقِ ومنْ حيثُ تطلعُ الأنوارُ، وكانتِ الجهاتُ الشرقيةُ من كل شيء أفضلَ منْ سواها.

واختلفَ الناسُ في نبوةِ مريمَ، فقيلَ: كانتْ نبيةً بهذا الإرسالِ والمحاورةِ للملكِ. وقيل: لمْ تكنْ نبيةً وإنما كلمها مثال بشر، ورؤيتها للملك كما رؤي جبريلُ عليه السلام في صفةِ دحيةَ الكلبيِّ حينَ سؤالهِ عنِ الإيمانِ والإسلامِ، والأولُ أظهرُ.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ قيلَ: هوَ روحُ عيسى عليه السلام، لأنَّ اللهَ تعالى خلقَ الأرواحَ قبلَ الأجسادِ، فركبَ الروحَ في جسدِ عيسى عليه السلام الذي خلقهُ في بطنها. وقيل: هوَ جبريلُ وأضيفَ الروحُ إلى اللهِ تعالى تخصيصا وكرامة. والظاهر أنه جبريل عليه السلام، لقولهِ: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾ أيْ تمثلَ الملكُ لها ﴿بَشَرًا﴾ تفسيرٌ أوْ حالٌ ﴿سَوِيًّا ١٧﴾ أيْ مستوي الخلقةِ، لأنها لمْ تكنْ لتطيقَ أن تنظرَ جبريلَ في صورتهِ. ولما رأتْ رجلًا حسنَ الصورةِ في صورةِ البشرِ قدْ خرقَ عليها الحجابَ ظنتْ أنهُ يريدها بسوءٍ فـ ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ١٨﴾ أيْ ممنْ يتقي اللهَ، وقيل: تقيٌّ فعيلٌ بمعنى مفعولٍ أيْ كنتَ ممنْ يتقى منهُ. في البخاريِّ قالَ أبو وائلٍ: علمتْ مريمُ أنَّ التقيَّ ذو نُهيةٍ حينَ قالتْ: ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾. وقيل: تقيٌّ اسمُ فاجرٍ معروفٍ في ذلكَ الوقتِ وهوَ ضعيفٌ ذاهبٌ معَ التخرصِ.

فقالَ لها جبريلُ عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ١٩﴾ جعلَ الهبةَ منْ قبلهِ لما كانَ الإعلامُ بها منْ قبلهِ. وقرأَ ورشٌ عنْ نافعٍ «ليهبَ لكِ» على معنى أرسلني اللهُ ليهبَ لكِ.

فلما سمعتْ مريمُ ذلكَ منْ قولهِ استفهمتْ عنْ طريقهِ فـ ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ أيْ بنكاحٍ ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ٢٠﴾ أيْ زانيةً. وذكرتْ هذا تأكيدًا، لأنَّ قولها لمْ يمسسني بشرٌ يشملُ الحلالَ والحرامَ. وقيل: ما استبعدتْ منْ قدرةِ اللهِ تعالى شيئًا ولكنْ أرادتْ كيفَ يكونُ هذا الولدُ؟ منْ قبلِ الزوجِ في المستقبلِ أمْ يخلقهُ اللهُ ابتداءً؟

وقولهُ: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ﴾ متعلقٌ بمحذوفٍ، أيْ ونخلقهُ لنجعلهُ: ﴿ءَايَةً﴾ دلالةً على قدرتنا عجيبة ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي لمنْ آمنَ بهِ ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ٢١﴾ مقدرًا في اللوح مسطورا.

قوله تعالى: ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ٢٢﴾ أيْ تنحتْ بالحملِ إلى أقصى الوادي، وهوَ وادي بيتِ لحمٍ بينهُ وبينَ إيلياءَ أربعةُ أميالٍ، وإنما بعدتْ فرارًا منْ تعييرِ قومها إياها

بالولادةِ منْ غيرِ زوجٍ.

قالَ ابنُ عباسٍ: ما هوَ إلا أنْ حملتْ فوضعتْ في الحالِ وهذا هوَ الظاهرُ، لأنَّ اللهَ تعالى ذكرَ الانتباذَ عقبَ الحملِ.

قوله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ ﴿أَجَآءَهَا﴾ بمعنى اضطرها، وهو تعدية جاء بالهمز. يقال: جاءه بهِ وأجاءهُ إلى موضعِ كذا، كما يقالُ: ذهبَ بهِ وأذهبهُ. وقرأَ شبيلٌ ورويتْ عنْ عاصم «فَاجأهَا» منَ المفاجأةِ.

وقرأَ الجمهورُ ﴿ٱلۡمَخَاضُ﴾ بفتحِ الميمِ، وابنُ كثيرٍ فيما رويَ عنهُ بكسرها وهوَ الطلقُ وشدةُ الولادةِ وأوجاعها، وناقةٌ ماخضٌ أيْ دنا ولادها.

﴿إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ كأنها طلبتْ شيئًا تستندُ إليهِ وتتعلقُ بهِ، كما تتعلقُ الحاملُ لشدةِ وجعِ الطلقِ. والجذعُ ساقُ النخلةِ اليابسةِ في الصحراءِ الذي لا سعفَ عليهِ ولا غصنَ ولهذا لمْ يقلْ إلى النخلةِ.

﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾ تمنتْ مريمُ عليها السلام الموتَ منْ جهةِ الدينِ لوجهينِ:

أحدهما- أنها خافتْ أنْ يظنَّ بها الشرُّ في دينها وتعيرَ فيفتنها ذلكَ.

الثاني- لئلا يقعَ قومٌ بسببها في البهتانِ والنسبةِ إلى الزنى وذلكَ مهلكٌ. وعلى هذا الحدِّ يكونُ تمني الموتِ جائزًا، وقدْ مضى هذا المعنى مبينًا في سورةِ «يوسفَ» عليه السلام.

﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣﴾. النسيُ في كلامِ العربِ الشيءُ الحقيرُ الذي شأنهُ أنْ ينسى ولا يتألمُ لفقده كالوتد والحبل للمسافر ونحوه.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ﴾ قرئَ بفتحِ الميمِ وكسرها. قالَ ابنُ عباسٍ: المرادُ بـ ﴿مَنۡ﴾ جبريلُ، ولمْ يتكلمْ عيسى حتى أتتْ بهِ قومها.

وقوله: ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي﴾ تفسير النداء، و «أن» مفسرةٌ بمعنى أيْ، المعنى: فلا تحزني بولادتكِ ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤﴾ يعني عيسى. والسريُّ منَ الرجالِ العظيمُ الخصالِ السيدُ.

وقالَ الجمهورُ: أشارَ لها إلى الجدولِ الذي كانَ قريبَ جذعِ النخلةِ، والنهرُ يسمى سريًا لأنَّ الماءَ يسري فيهِ.

قوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ﴾ أمرها بهزِّ الجذعِ اليابسِ لترى آيةً أخرى في إحياءِ مواتِ الجذعِ. والباءُ في قولهِ: ﴿بِجِذۡعِ﴾ زائدةٌ مؤكدةٌ كما يقالُ: خذْ بالزمامِ، وأعطِ بيدكَ قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أيْ فليمددْ سببًا. وقيل: المعنى وهزي إليكِ رطبًا على جذعِ النخلةِ. وَ ﴿تُسَٰقِطۡ﴾ أيْ تتساقطْ فأدغمَ التاءَ في السينِ. وقرأَ حمزةُ «تَسَاقَطْ» مخففًا فحذفَ التي أدغمها غيرهُ. وقرأَ عاصمٌ في روايةِ حفصٍ ﴿تُسَٰقِطۡ﴾ بضمِّ التاء مخففا وكسر القاف.

﴿رُطَبٗا﴾ نصبَ بالهزِّ، أيْ إذا هززتِ الجذعَ هززتِ بهزهِ ﴿رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ قدْ طابتْ وصلحتْ للاجتناءِ، وهيَ منْ جنيتُ الثمرةَ.

الثانية: استدلَّ بعضُ الناسِ منْ هذهِ الآيةِ على أنَّ الرزقَ وإنْ كانَ محتومًا، فإنَّ اللهَ تعالى قدْ وكلَ ابنَ آدمَ إلى سعيٍ ما فيهِ، لأنهُ أمرَ مريمَ بهزِّ النخلةِ لترى آيةً، وكانتِ الآيةُ تكونُ بألا تهزَّ.

الثالثة: الأمرُ بتكليفِ الكسبِ في الرزقِ سنةُ اللهِ تعالى في عبادهِ، وأنَّ ذلكَ لا يقدحُ في التوكلِ، خلافًا لما تقولهُ جهالُ المتزهدةِ، وقدْ تقدمَ هذا المعنى والخلافُ فيهِ. وقدْ كانتْ قبلَ ذلكَ يأتيها رزقها منْ غيرِ تكسبٍ كما قالَ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ﴾ الآية. فلما ولدتْ أمرتْ بهزِّ الجذعِ.

الرابعة: قالَ الربيعُ بنُ خيثمٍ: ما للنفساءِ عندي خيرٌ منَ الرطبِ لهذهِ الآيةِ، ولوْ علمَ اللهُ شيئًا هوَ أفضلُ منَ الرطبِ للنفساءِ لأطعمهُ مريمَ، ولذلكَ قالوا: التمرُ عادةٌ للنفساءِ منْ ذلكَ الوقتِ وكذلكَ التحنيكُ. وقيل: إذا عسرَ ولادها لمْ يكنْ لها خيرٌ منَ الرطبِ ولا للمريضِ خيرٌ منَ العسلِ.

قوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أيْ فكلي منَ الجنيِّ، واشربي منَ السريِّ، ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ برؤية الولد النبي، وهوَ مأخوذٌ منَ القُرِّ والقِرةِ وهما البردُ. ودمعةُ السرورِ باردة ودمعة الحزن حارة. وضعف فرقةٌ هذا وقالتِ: الدمعُ كلهُ حارٌّ، فمعنى أقرَّ اللهُ عينهُ أيْ سكنَ اللهُ عينهُ بالنظرِ إلى منْ يحبهُ حتى تقرَّ وتسكنَ، وفلان قرة عيني، أي نفسي تسكنُ بقربهِ.

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ﴾ الأصلُ في ترينَّ ترأيينَ، وقرأَ طلحةُ وأبو جعفرٍ وشيبةُ «تَرَيْنَ» بسكونِ الياءِ وفتحِ النونِ خفيفةً، قالَ أبو الفتحِ: وهيَ شاذةٌ.

الثانية: قولهُ تعالى: ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ﴾ هذا جوابُ الشرطِ وفيهِ إضمارٌ، أيْ فسألكِ عنْ ولدكِ ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أيْ صمتًا، والذي تتابعتْ بهِ الأخبارُ عنْ أهلِ الحديثِ ورواةِ اللغةِ أنَّ الصومَ هوَ الصمتُ، لأنَّ الصومَ إمساكٌ والصمتَ إمساكٌ عنِ الكلامِ. وقيل: هو الصوم المعروف، وكانَ يلزمهمُ الصمتُ يومَ الصومِ إلا بالإشارةِ، ومعنى هذهِ الآيةِ أنَّ اللهَ تعالى أمرها على لسانِ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ -أوِ ابنها على الخلافِ المتقدم- بأنْ تمسكَ عنْ مخاطبةِ البشرِ، وتحيلَ على ابنها في ذلكَ ليرتفعَ عنها خجلها، وتتبينَ الآيةُ فيقومُ عذرها. وظاهرُ الآيةِ أنها أبيحَ لها أنْ تقولَ هذهِ الألفاظَ التي في الآيةِ، وهوَ قولُ الجمهورِ. وقالت فرقة: معنى ﴿قُولِي﴾ بالإشارةِ لا بالكلامِ، وفيهِ أنَّ السكوتَ عنِ السفيهِ واجبٌ، ومنْ أذلِّ الناسِ: سفيهٌ لمْ يجدْ مسافهًا.

الثالثة: منِ التزمَ بالنذرِ ألا يكلمَ أحدًا منَ الآدميينَ فيحتملُ أنْ يقالَ إنهُ قربةٌ فيلزمُ بالنذرِ، ويحتملُ أنْ يقالَ: ذلكَ لا يجوزُ في شرعنا لما فيهِ منَ التضييقِ وتعذيبِ النفسِ، كنذرِ القيامِ في الشمسِ ونحوهُ. وعلى هذا كانَ نذرُ الصمتِ في تلكَ الشريعةِ لا في شريعتنا، وقدْ تقدمَ. وقدْ أمرَ ابنُ مسعودٍ منْ فعلَ ذلكَ بالنطقِ بالكلامِ. وهذا هوَ الصحيحُ لحديثِ أبي

إسرائيلَ(١)، وقيل: كانتْ سنةُ الصيامِ عندهمُ الإمساكَ عنِ الأكلِ والكلامِ. قلتُ: ومنْ سنتنا نحنُ في الصيامِ الإمساكُ عنِ الكلامِ القبيحِ، قالَ ﷺ: «إذا كانَ أحدكمْ صائمًا فلا يرفثْ ولا يجهلْ فإنِ امرؤٌ قاتلهُ أوْ شاتمهُ فليقلْ إني صائمٌ». وقالَ ﷺ: «منْ لمْ يدعْ قولَ الزورِ والعملَ بهِ فليسَ للهِ حاجةٌ في أنْ يدعَ طعامهُ وشرابه».

قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ منَ المكانِ القصيِّ الذي كانتِ انتبذتْ فيهِ. قالَ ابنُ عباسٍ: خرجتْ منْ عندهمْ حينَ أشرقتِ الشمسُ، فجاءتهمْ عندَ الظهرِ ومعها صبيٌّ تحملهُ، فكانَ الحملُ والولادةُ في ثلاثِ ساعاتٍ منَ النهارِ، فقالوا منكرينَ: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ عظيمًا، وقيل: مختلقًا مفتعلًا، والولدُ منَ الزنى كالشيءِ المفترى. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ أي بولد يقصد إلحاقهِ بالزوج وليسَ منهُ، وقيل: الفريُّ العجيبُ النادرُ، وقيل: الفريُّ الجديدُ، أيْ جئتِ بأمرٍ جديدٍ بديعٍ لمْ تسبقي إليهِ.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ اختلفَ الناسُ في معنى هذهِ الأخوةِ ومنْ هارونُ؟ فقيلَ: هوَ هارونُ أخو موسى، والمرادُ منْ كنا نظنها مثل هرون في العبادة تأتي بمثل هذا!

قيل: على هذا كانت مريم من ولد هرون أخي موسى فنسبتْ إليهِ بالأخوةِ لأنها منْ ولدهِ، كما يقالُ للتميميِّ: يا أخا تميمٍ وللعربيِّ يا أخا العربِ. وقيلَ: كانَ لها أخ من أبيها اسمه هرون، لأنَّ هذا الاسمَ كانَ كثيرًا في بني إسرائيل تبركا باسم هرون أخي موسى، وكانَ أمثلَ رجلٍ في بني إسرائيل. وقيل: هرون هذا رجلٌ صالحٌ في ذلكَ الزمانِ، وفي صحيح مسلمٍ عنِ المغيرةِ بنِ شعبةَ قالَ: لما قدمتُ نجرانَ سألوني فقالَ إنكمْ تقرءونَ ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ وموسى قبلَ عيسى بكذا وكذا، فلما قدمتُ على رسولِ اللهِ ﷺ سألتهُ عنْ ذلكَ، فقالَ: «إنهمْ كانوا يسمونَ بأنبيائهمْ والصالحينَ قبلهمْ».

ويستفادُ منْ هذا جواز التسمية بأسماء الأنبياء، والله أعلم.

---

(١) الحديث كما في البخاري عن ابن عباس قال: بينا النبي ﷺ يخطبُ إذا هوَ برجلٍ قائم فسأل عنه فقالوا: أبو إسرائيلَ نذرَ أنْ يقومَ ولا يقعدَ ولا يستظلَّ ولا يتكلمَ ويصومَ فقالَ النبيُّ ﷺ: «مره فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه».

وقالتْ فرقةٌ: بلْ كانَ في ذلك الزمان رجل فاجر اسمه هرون فنسبوها إليهِ على جهةِ التعييرِ والتوبيخِ، وهذا منَ التعريضِ الذي يقومُ مقامَ التصريحِ. وذلكَ يوجبُ عندنا الحدَّ وسيأتي في سورةِ «النورِ» القولُ فيهِ إنْ شاءَ اللهُ تعالى، وهذا القولُ الأخيرُ يردهُ الحديثُ الصحيحُ، وهوَ نصٌّ صريحٌ فلا كلامَ لأحدٍ معهُ، ولا غبارَ عليهِ. والحمدُ للهِ.

قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِ﴾ التزمتْ مريمُ عليها السلام ما أمرتْ بهِ منْ تركِ الكلامِ، ولمْ يردْ في هذهِ الآيةِ أنها نطقتْ بـ ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾ وإنما وردَ بأنها أشارتْ، فيقوى بهذا قولُ منْ قالَ: إنَّ أمرها بِـ ﴿قَوۡلِي﴾ إنما أريدَ بهِ الإشارةُ.

و ﴿كَانَ﴾ هنا ليسَ يرادُ بها الماضي، لأنَّ كلَّ واحدٍ قدْ كانَ في المهدِ صبيًا، وإنما هيَ في معنى هوَ الآنَ، وقالَ أبو عبيدة: ﴿كَانَ﴾ هنا لغو، كما قال: وجيران لنا كانوا كرام، وقيل: هيَ بمعنى الوجودِ والحدوثِ كقولهِ: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٍ﴾ وقدْ تقدمَ، والصحيحُ أنَّ ﴿مَنۡ﴾ في معنى الجزاء و ﴿كَانَ﴾ بمعنى يكن، والتقدير: منْ يكنْ في المهدِ صبيًا فكيفَ نكلمهُ؟! والماضي قدْ يذكرُ بمعنى المستقبلِ في الجزاءِ، كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أيْ إنْ يشأْ يجعلْ.

و ﴿ٱلۡمَهۡدِ﴾ قيلَ: كانَ سريرًا كالمهدِ. وقيلَ: ﴿ٱلۡمَهۡدِ﴾ هاهنا حجرُ الأمِّ. وقيل: المعنى كيفَ نكلمُ منْ كانَ سبيلهُ أنْ ينومَ في المهدِ لصغرهِ، فلما سمعَ عيسى عليه السلام كلامهمْ قالَ لهمْ منْ مرقدهِ: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ وهيَ:

الثانية: فقيلَ: كانَ عيسى عليه السلام يرضعُ فلما سمعَ كلامهمْ تركَ الرضاعةَ وأقبلَ عليهمْ

بوجههِ، فكانَ أولَ ما نطقَ بهِ الاعترافُ بعبوديتهِ للهِ تعالى وبربوبيته، ردًا على منْ غلا منْ بعدهِ في شأنهِ. والكتابُ الإنجيلُ، قيلَ: آتاهُ في تلكَ الحالةِ الكتابَ، وفهمهُ وعلمهُ، وآتاهُ النبوةَ كما علم آدم الأسماءَ كلها، وكانَ يصومُ ويصلي. وهذا في غايةِ الضعفِ على ما نبينهُ في المسألةِ بعدَ هذا. وقيل: أيْ حكمَ لي بإيتاءِ الكتابِ والنبوةِ في الأزلِ، وإنْ لمْ يكنِ الكتابُ منزلًا في الحالِ، وهذا أصحُّ ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ أيْ ذا بركاتٍ ومنافعَ في الدينِ والدعاءِ إليهِ ومعلمًا لهُ ﴿وَأَوْصَـٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ أيْ لأؤديهما إذا أدركني التكليفُ، وأمكنني أداؤهما، على القول الأخير الصحيح ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ ما في موضعِ نصبٍ على الظرفِ أيْ دوامَ حياتي.

قوله تعالى: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ قالَ ابنُ عباسٍ: لما قالَ: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ ولمْ يقلْ بوالديَّ علمَ أنهُ شيء منْ جهةِ اللهِ تعالى ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ أيْ متعظمًا متكبرًا يقتلُ ويضربُ على الغضبِ ﴿شَقِيًّا﴾ أيْ خائبًا منَ الخيرِ. وقيل: عاقًا، وقيل: لمْ يجعلني تاركًا لأمرهِ فأشقى كما شقيَ إبليسُ لما تركَ أمرهُ.

الثالثة: قالَ مالكُ بنُ أنسٍ رحمهُ اللهُ تعالى في هذهِ الآيةِ: ما أشدها على أهلِ القدرِ! أخبرَ عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بما قضيَ منْ أمرهِ، وبما هوَ كائنٌ إلى أنْ يموتَ.

ورويَ أنَّ عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إنما تكلمَ في طفولتهِ بهذهِ الآيةِ، ثمَّ عادَ إلى حالةِ الأطفالِ، فكانَ نطقهُ إظهارَ براءةِ أمهِ لا أنهُ كانَ ممنْ يعقلُ في تلكَ الحالةِ، وهوَ كما ينطقُ اللهُ تعالى الجوارحَ يومَ القيامةِ. ولمْ ينقلْ أنهُ دامَ نطقهُ، ولا أنهُ كانَ يصلي وهوَ ابنُ يومٍ أوْ شهرٍ، ولوْ كانَ يدومُ نطقهُ وتسبيحهُ ووعظهُ وصلاتهُ في صغرهِ منْ وقت الولادة لكانَ مثلهُ مما لا ينكتمُ، وهذا كلهُ مما يدلُّ على فسادِ القولِ الأولِ، ويصرحُ بجهالةِ قائلهِ. ويدلُّ أيضًا على أنهُ تكلمَ في المهدِ خلافًا لليهودِ والنصارى. والدليلُ على ذلكَ إجماعُ الفرقِ على أنها لمْ تُحدَّ. وإنما صح براءتها من الزنى بكلامهِ في المهدِ.

ودلتْ هذهِ الآيةُ على أنَّ الصلاةَ والزكاةَ وبرَّ الوالدينِ كانَ واجبًا على الأمم السالفةِ.

الرابعة: الإشارةُ بمنزلةِ الكلامِ وتُفهِمُ ما يفهمُ القولُ. كيفَ لا وقدْ أخبرَ اللهُ تعالى عنْ مريمَ فقالَ: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ وفهمَ منها القومُ مقصودها وغرضها فقالوا: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ﴾ وقدْ مضى هذا في «آلِ عمرانَ» مستوفى.

الخامسة: قالَ الكوفيونَ: لا يصحُّ قذفُ الأخرسِ ولا لعانُهُ، وبهِ قالَ أحمدُ، وإنما يصح القذف عندهم بصريح الزنى دونَ معناهُ، وهذا لا يصحُّ منَ الأخرسِ ضرورة، فلم يكن قاذفا، ولا يتميز بالإشارة بالزنى من الوطء الحلالِ والشبهةِ. قالوا: واللعانُ عندنا شهاداتٌ، وشهادةُ الأخرسِ لا تقبلُ بالإجماعِ.

قالَ ابنُ القصارِ: قولهمْ إنَّ القذفَ لا يصحُّ إلا بالتصريحِ فهوَ باطلٌ بسائرِ الألسنةِ ماعدا العربيةَ، فكذلكَ إشارةُ الأخرسِ. وما ذكروهُ منَ الإجماعِ في شهادةِ الأخرسِ فغلطٌ. وقدْ نصَّ مالكٌ أنَّ شهادتهُ مقبولةٌ إذا فهمتْ إشارتهُ، وأنها تقومُ مقامَ اللفظِ بالشهادةِ، وأما معَ القدرةِ باللفظِ فلا تقعُ منهُ إلا باللفظِ. قالَ ابنُ المنذرِ: والمخالفونَ يلزمونَ الأخرسَ الطلاقَ والبيوعَ وسائرَ الأحكامِ، فينبغي أنْ يكونَ القذفُ مثلَ ذلكَ.

قالَ المهلبُ: وقدْ تكونُ الإشارةُ في كثيرٍ منْ أبوابِ الفقهِ أقوى منَ الكلامِ مثلَ قولهِ ﷺ: «بعثتُ أنا والساعةُ كهاتينِ» نعرفُ قربَ ما بينهما بمقدارِ زيادةِ الوسطى على السبابةِ. وفي إجماعِ العقولِ على أنَّ العيانَ أقوى منَ الخبرِ دليلٌ على أنَّ الإشارةَ قدْ تكونُ في بعضِ المواضعِ أقوى منَ الكلامِ.

﴿وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَيَّ﴾ أيِ السلامةُ عليَّ منَ اللهِ تعالى. قالَ الزجاجُ: ذكرَ السلامُ قبلَ هذا بغيرِ ألفٍ ولامٍ فحسن في الثانية ذكر الألف واللام.

وقوله: ﴿يَوْمَ وُلِدتُّ﴾ يعني في الدنيا. وقيل: منْ همزِ الشيطانِ كما تقدمَ في «آلِ عمرانَ» ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ يعني في القبرِ ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝٣٣﴾ يعني في الآخرةِ. لأنَّ لهُ أحوالًا ثلاثةً: في الدنيا حيًا، وفي القبرِ ميتًا، وفي الآخرةِ مبعوثًا، فسلم في أحواله كلها.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾ أيْ ذلكَ الذي ذكرناه عيسى بن مريمَ فكذلكَ اعتقدوهُ، لا كما تقولُ اليهودُ إنهُ ابنُ يوسفَ النجارِ، ولا كما قالتِ النصارى: إنهُ الإلهُ أوِ ابنُ الإلهِ ﴿قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ﴾ نعتٌ لعيسى أيْ ذلكَ عيسى ابنُ مريمَ قول الحقِّ. وسميَ قولَ الحقَّ كما سميَ كلمةَ اللهِ، والحقُّ هوَ اللهُ عزَّ وجلَّ، وقيل: التقديرُ هذا الكلامُ قولُ الحقِّ، وأضيفَ القولُ إلى الحقِّ كما قالَ: ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ أي الوعد والصدق.

وقرأَ عاصمٌ وابنُ عامرٍ ﴿قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ﴾ بالنصبِ على الحالِ، أيْ أقولُ قولًا حقًا ﴿ٱلَّذِي﴾ منْ نعتِ عيسى ﴿فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤﴾ أي يشكون، وقيل: ﴿يَمۡتَرُونَ﴾ يختلفونَ.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ﴾ أيْ ما ينبغي لهُ ولا يجوزُ: ﴿أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ﴾ ثمَّ نزهَ نفسهُ تعالى عنْ مقالتهمْ فقالَ: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ﴾ أنْ يكونَ لهُ ولدٌ ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٣٥﴾ تقدمَ في البقرة مستوفى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾ قرأَ أهلُ المدينةِ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرو: بفتحِ «أَنَّ» وأهلُ الكوفةِ ﴿إِنَّ﴾ بكسرِ الهمزةِ على أنهُ مستأنفٌ، وكذا: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾.

﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ أيْ دينٌ قويمٌ لا اعوجاجَ فيهِ.

قوله تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ﴾ ﴿مِن﴾ زائدةٌ أيِ اختلفَ الأحزابُ بينهمْ، فاليهودُ بالقدحِ والسحرِ، والنصارى قالتِ النسطوريةُ منهمْ: هوَ ابنُ اللهِ. والملكانيةُ: ثالثُ ثلاثةٍ. وقالتِ اليعقوبيةُ: هوَ اللهُ، فأفرطتِ النصارى وغلتْ.

﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ٣٧﴾ أيْ منْ شهودِ يوم القيامةِ، والمشهدُ بمعنى المصدرِ، والشهودُ الحضورُ، وقيل: المشهدُ بمعنى الموضعِ الذي يشهدهُ الخلائقُ، كالمحشرِ للموضعِ الذي يحشرُ إليهِ الخلقُ. وقيل: فويلٌ للذينَ كفروا منْ حضورهمُ المشهدَ العظيمَ الذي اجتمعوا فيهِ للتشاورِ، فأجمعوا على الكفرِ باللهِ، وقولهمْ: إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ.

قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ قالَ أبو العباسِ: العربُ تقولُ هذا في موضعِ التعجبِ، فتقولُ: أسمعْ بزيدٍ وأبصرْ بزيدٍ أيْ ما أسمعهُ وأبصرهُ. وذلك حينَ يقولُ اللهُ تباركَ وتعالى لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. وقيل: ﴿أَسْمِعْ﴾ بمعنى الطاعةِ، أيْ ما أطوعهمْ للهِ في ذلك اليوم. و ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ﴾ يعني في الدنيا ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٣٨﴾ وأيُّ ضلالٍ أبينُ منْ أنْ يعتقدَ المرءُ في شخصٍ مثلهِ حملتهُ الأرحامُ، وأكلَ وشربَ، وأحدثَ واحتاجَ أنهُ إلهٌ؟!

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ تقعُ الحسرةُ إذا أعطيَ كتابهُ بشمالهِ ﴿إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أيْ فرغَ منَ الحسابِ، وأدخلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ وأهلُ النارِ النارَ. وفي صحيحِ مسلمٍ منْ حديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه. قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إذا دخلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ وأهلُ النارِ النارَ يجاءُ بالموتِ يومَ القيامةِ كأنهُ كبشٌ أملحُ فيوقف بين الجنة والنار فيقال يا أهل الجنةِ هلْ تعرفونَ هذا فيشرئبونَ وينظرونَ ويقولونَ نعم هذا الموت- قال- ثم يقال يا أهل النارِ هلْ تعرفونَ هذا فيشرئبونَ وينظرونَ ويقولونَ نعمْ هذا الموتُ- قالَ- فيؤمرُ بهِ فيذبحُ ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النارِ خلودٌ فلا موتَ- ثمَّ قرأَ رسولُ اللهِ ﷺ- ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٣٩﴾ خرجهُ البخاريُّ بمعناهُ عنِ ابنِ عمرَ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ أيْ نميتُ سكانها فنرثها ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ٤٠﴾ يومَ القيامةِ فنجازي كلًا بعملهِ.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ٤١﴾ المعنى: واذكرْ في الكتابِ الذي أنزلَ عليكَ وهوَ القرآنُ قصةَ إبراهيمَ وخبرهُ.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ وهوَ آزرُ وقدْ تقدمَ ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ قدْ تقدمَ القولُ فيهِ في «يوسفَ» ﴿لِمَ تَعْبُدُ﴾ أيْ لأيِّ شيءٍ تعبدُ: ﴿مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ٤٢﴾ يريدُ الأصنامَ. ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ أيْ منَ اليقينِ والمعرفةِ باللهِ وما يكونُ بعدَ الموتِ، وأن من عبد غير الله عذب إلى ما أدعوكَ إليهِ ﴿أَهْدِكَ صِرَٰطًا

سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ أيْ أرشدكَ إلى دينٍ مستقيمٍ فيهِ النجاةُ ﴿يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ أيْ لا تطعهُ فيما يأمركَ بهِ منَ الكفرِ، ومنْ أطاعَ شيئًا في معصيةٍ فقدْ عبدهُ ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ ﴿كَانَ﴾ صلةٌ زائدةٌ وقيل: كان بمعنى صارَ. وقيلَ: بمعنى الحالِ أيْ هوَ للرحمنِ. وعصيًا وعاصٍ بمعنى واحدٍ ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ أيْ إنْ متَّ على ما أنتَ عليهِ. ويكونُ ﴿أَخَافُ﴾ بمعنى أعلمُ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿أَخَافُ﴾ على بابها فيكونُ المعنى: إني أخافُ أنْ تموتَ على كفركَ فيمسكَ العذابُ ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ أيْ قرينًا في النارِ ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ أيْ أترغبُ عنها إلى غيرها ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ يعني بالحجارةِ. وقيل: بالقولِ، أيْ لأشتمنكَ ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾. أيِ اعتزلني سالمَ العرضِ لا يصيبنك مني معرةٌ، ﴿مَلِيًّا﴾ دهرًا طويلًا، وهوَ بمعنى الملاوةِ منَ الزمانِ، وهوَ الطويلُ منهُ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ﴾ لمْ يعارضهُ إبراهيمُ ﷺ بسوءِ الردِّ، لأنهُ لمْ يؤمرْ بقتالهِ على كفرهِ. والجمهورُ على أنَّ المرادَ بسلامهِ المسالمةُ التي هيَ المتاركةُ لا التحيةُ، وعلى هذا لا يبدأُ الكافرُ بالسلامِ. وقالَ النقاشُ: حليمٌ خاطبَ سفيهًا، كما قالَ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾. وقالَ بعضهمْ في معنى تسليمهِ: هوَ تحيةُ مفارقٍ، وجوزَ تحيةَ الكافرِ وأنْ يبدأَ بها. قيلَ لابنِ عيينةَ: هلْ يجوزُ السلامُ على الكافرِ؟ قال: نعم، قال الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ وقالَ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الآيةَ، وقالَ إبراهيمُ لأبيهِ ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ﴾.

قلتُ: الأظهرُ منَ الآيةِ ما قالهُ سفيانُ بنُ عيينةَ، وفي البابِ حديثانِ صحيحانِ: روى أبو هريرةَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «لا تبدءوا اليهودَ والنصارى بالسلامِ فإذا لقيتمْ أحدهمْ في الطريقِ فاضطروهُ إلى أضيقهِ» خرجهُ البخاريُّ ومسلمٌ. وفي الصحيحينِ عنْ أسامة ابن زيدٍ أنَّ النبيَّ ﷺ ركبَ حمارًا عليهِ إكافٌ تحتهُ قطيفةٌ فدكيةٌ، وأردفَ وراءهُ أسامةَ بنَ زيدٍ، وهوَ يعودُ سعد بن عبادة في بني الحارث بنِ الخزرجِ، وذلكَ قبلَ وقعةِ بدرٍ، حتى مرَّ في مجلسٍ فيهِ أخلاطٌ منَ المسلمينَ والمشركينَ عبدةِ الأوثانِ واليهودِ، وفيهمْ عبدُ اللهِ بن أبي بن

سلولَ، وفي المجلسِ عبدُ اللهِ بنُ رواحةَ، فلما غشيتِ المجلسَ عجاجةُ الدابةِ، خمرَ عبدُ اللهِ بنُ أبيٍّ أنفهُ بردائهِ، ثمَّ قالَ: لا تغبروا علينا، فسلمَ عليهمُ النبيُّ ﷺ، الحديثَ. فالأولُ يفيدُ تركَ السلامِ عليهمُ ابتداءً لأنَّ ذلكَ إكرامٌ، والكافرُ ليسَ أهلهُ. والحديثُ الثاني يجوزُ ذلكَ.

قالَ الطبريُّ: ولا يعارضُ ما رواهُ أسامةُ بحديثِ أبي هريرةَ فإنهُ ليسَ في أحدهما خلافٌ للآخرِ وذلكَ أنَّ حديثَ أبي هريرةَ مخرجهُ العمومُ، وخبرَ أسامةَ يبينُ أنَّ معناهُ الخصوصُ.

وقالَ النخعيُّ: إذا كانتْ لكَ حاجةٌ عندَ يهوديٍّ أوْ نصرانيٍّ فابدأْهُ بالسلامِ. فبانَ بهذا أنَّ حديثَ أبي هريرةَ «لا تبدؤوهمْ بالسلامِ» إذا كانَ لغيرِ سببٍ يدعوكمْ إلى أنْ تبدؤوهمْ بالسلامِ، منْ قضاءِ ذمامٍ أوْ حاجةٍ تعرضُ لكمْ قبلهمْ، أوْ حقِّ صحبةٍ أوْ جوارٍ أوْ سفرٍ.

قالَ الطبريُّ: وقدْ رويَ عنِ السلفِ أنهمْ كانوا يسلمونَ على أهلِ الكتابِ. وفعلهُ ابنُ مسعودٍ بدهقانٍ صحبهُ في طريقهِ، قالَ علقمةُ: فقلتُ لهُ يا أبا عبدِ الرحمنِ أليسَ يكرهُ أنْ يبدؤوا بالسلامِ؟! قالَ: نعمْ، ولكنْ حقُّ الصحبةِ.

وكانَ أبو أمامة لا يمرُّ بمسلمٍ ولا نصرانيٍّ ولا صغيرٍ ولا كبيرٍ إلا سلم عليه، فقيل لهُ في ذلكَ فقالَ: أُمرنا أنْ نفشيَ السلامَ. وسئلَ الأوزاعيُّ عنْ مسلمٍ مرَّ بكافرٍ فسلمَ عليهِ، فقالَ: إنْ سلمتَ فقدْ سلمَ الصالحونَ قبلكَ، وإنْ تركتَ فقدْ تركَ الصالحونَ قبلكَ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ٤٧﴾: الحفيُّ المبالغُ في البرِّ والإلطافِ.

قوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ﴾: العزلةُ المفارقةُ وقدْ تقدمَ في «الكهفِ» بيانها. وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ٤٨﴾ قيلَ: أرادَ بهذا الدعاءِ أنْ يهبَ اللهُ تعالى لهُ أهلًا وولدًا يتقوى بهمْ حتى لا يستوحشَ بالاعتزالِ عنْ قومهِ. ولهذا قالَ: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ﴾ أيْ آنسنا وحشتهُ بولدٍ، وقيل: ﴿عَسَىٰٓ﴾ يدلُّ على أنَّ العبدَ لا يقطعُ بأنهُ يبقى على المعرفةِ أمْ لا في المستقبلِ. وقيل: دعا لأبيهِ بالهدايةِ. فَـ﴿عَسَىٰٓ﴾ شكٌّ لأنهُ كانَ لا يدري هلْ يستجابُ لهُ فيهِ أمْ لا؟ والأولُ أظهرُ.

وقولهُ: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيًّا ٥٠﴾ أيْ أثنينا عليهمْ ثناءً حسنًا، لأنَّ جميعَ المللِ تحسنُ الثناءَ عليهم. واللسان يذكر ويؤنث، وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ﴾ أيْ واقرأْ عليهمْ منَ القرآنِ قصةَ موسى ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا﴾ في عبادته غير مرائي، وقرأَ أهلُ الكوفةِ بفتحِ اللامِ، أيْ أخلصناهُ فجعلناهُ مختارًا ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ أيْ كلمناهُ ليلةَ الجمعةِ ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ أيْ يمينَ موسى حينَ أقبلَ منْ مدينَ إلى مصرَ، فإنَّ الجبالَ لا يمينَ لها ولا شمالَ ﴿وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢﴾ نصبَ على الحالِ، أيْ كلمناهُ منْ غيرِ وحيٍ، وقيل: أدني حتى سمع صريف الأقلام ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ٥٣﴾ وذلكَ حينَ سألَ فقالَ: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦﴾، فيهِ ستُّ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ﴾ خصهُ اللهُ تعالى بصدقِ الوعدِ وإنْ كانَ موجودًا في غيرهِ منَ الأنبياءِ تشريفًا لهُ وإكرامًا، كالتلقيبِ بنحوِ الحليمِ والأواهِ والصديقِ، ولأنهُ المشهور المتواصف من خصاله.

الثانية: صدقُ الوعدِ محمودٌ وهوَ منْ خلقِ النبيينَ والمرسلينَ، وضدهُ وهوَ الخلفُ مذمومٌ، وذلكَ منْ أخلاقِ الفاسقينَ والمنافقينَ على ما تقدمَ بيانهُ في «براءةٍ»، وقدْ أثنى اللهُ تعالى على نبيهِ إسماعيلَ فوصفهُ بصدقِ الوعدِ، واختلفَ في ذلكَ، فقيلَ: إنهُ وعدَ منْ نفسهِ بالصبرِ على الذبحِ فصبرَ حتى فديَ. هذا في قولِ منْ يرى أنهُ الذبيحُ. وقيل: وعدَ رجلًا أنْ يلقاهُ في موضع فجاءَ إسماعيلُ وانتظرَ الرجلَ يومهُ وليلتهُ، وقدْ قيلَ: إنَّ إسماعيلَ لمْ يعدْ شيئًا إلا وفّى بهِ، وهذا قولٌ صحيحٌ، وهوَ الذي يقتضيهِ ظاهرُ الآيةِ، واللهُ أعلمُ.

الثالثة: إنما قلنا إنَّ ذلكَ ليسَ بواجبٍ فرضًا لإجماعِ العلماءِ على ما حكاهُ أبو عمرَ أنَّ منْ وعدَ بمالٍ ما كانَ ليضربَ بهِ معَ الغرماءِ فلذلكَ قلنا إيجابُ الوفاءِ بهِ حسنٌ معَ المروءةِ، ولا يقضى بهِ. والعربُ تمتدحُ بالوفاءِ، وتذمُّ بالخلفِ والغدرِ، وكذلكَ سائرُ الأممِ، ولا خلافَ أنَّ الوفاءَ يستحقُّ صاحبهُ الحمدَ والشكرَ، وعلى الخلفِ الذمَّ. وقدْ أثنى اللهُ تباركَ

وتعالى على منْ صدقَ وعدهُ، ووفى بنذرهِ، وكفى بهذا مدحًا وثناءً، وبما خالفهُ ذمًا.

الرابعة: قالَ مالكٌ: إذا سألَ الرجلُ الرجلَ أنْ يهبَ لهُ الهبةَ فيقولُ لهُ نعمْ، ثمَّ يبدو لهُ ألا يفعلَ فما أرى يلزمهُ، قالَ مالكٌ: ولوْ كانَ ذلكَ في قضاءِ دينٍ فسألهُ أنْ يقضيهُ عنهُ فقالَ نعمْ، وثمَّ رجالٌ يشهدونَ عليهِ فما أحراهُ أنْ يلزمهُ إذا شهدَ عليهِ اثنانِ. وقالَ أبو حنيفةَ وأصحابهُ والشافعيُّ وسائرُ الفقهاء: إن العِدة لا يلزم منها شيء لأنها منافعُ لمْ يقبضها في العاريةِ لأنها طارئةٌ، وفي غيرِ العاريةِ هيَ أشخاصٌ وأعيانٌ موهوبةٌ لمْ تقبضْ فلصاحبها الرجوعُ فيها. وفي البخاريِّ ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾، وقضى ابنُ أشوعَ بالوعدِ وذكرَ ذلكَ عنْ سمرةَ بنِ جندبٍ. قالَ البخاريُّ ورأيتُ إسحاقَ بنَ إبراهيمَ يحتجُّ بحديثِ ابنِ أشوعَ.

الخامسة: ﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤﴾ قيلَ: أرسلَ إسماعيلُ إلى جرهمَ. وكلُّ الأنبياءِ كانوا إذا وعدوا صدقوا، وخصَّ إسماعيلَ بالذكرِ تشريفًا لهُ. واللهُ أعلمُ.

السادسة: ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ﴾ يعني أمتهُ ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥﴾ أيْ رضيًا زاكيًا.

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦﴾ إدريسُ عليه السلام أولُ منْ خطَّ بالقلمِ وأولُ منْ خاطَ الثيابَ ولبسَ المخيطَ، وأولُ منْ نظرَ في علمِ النجومِ والحسابِ وسيرها. وسميَ إدريسُ لكثرةِ درسهِ لكتابِ اللهِ تعالى. لكنِ امتناعهُ منَ الصرفِ دليلٌ على العجمةِ، وكذلكَ إبليسُ أعجميٌّ وليسَ منَ الإبلاسِ كما يزعمونَ، ولا يعقوبُ منَ العقبِ، يجوزُ أنْ يكونَ معنى إدريسَ عليه السلام في تلكَ اللغةِ قريبًا منْ ذلكَ.

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ يعني السماءَ الرابعةَ، ووقعَ في البخاريِّ عنْ شريكِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ أبي نمرٍ قالَ سمعتُ أنسَ بنَ مالكٍ يقولُ: ليلةَ أسريَ برسولِ اللهِ ﷺ منْ مسجدِ الكعبةِ، الحديثَ وفيهِ: كلُّ سماءٍ فيها أنبياءُ - قدْ سماهمْ - منهمْ إدريسُ في الثانيةِ. وهوَ وهمٌ، والصحيحُ أنهُ في السماءِ الرابعةِ، كذلكَ رواهُ ثابتٌ البنانيُّ عنْ أنسِ بنِ مالكٍ عنِ النبيِّ ﷺ، ذكرهُ مسلمٌ في الصحيحِ. وروى مالكُ بنُ صعصعةَ قالَ: قالَ النبيُّ ﷺ: «لما عرجَ بي إلى السماءِ أتيتُ على إدريسَ في السماءِ الرابعةِ». خرجهُ مسلمٌ أيضًا.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا۩ ٥٨﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ يريدُ إدريسَ وحدهُ ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٖ﴾ يريدُ إبراهيمَ وحدهُ ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ يريد إسماعيل وإسحاق ويعقوب «وَ» من ذرية ﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى. فكانَ لإدريسَ ونوحٍ شرفُ القربِ منْ آدمَ، ولإبراهيمَ شرفُ القربِ منْ نوح ولإسمعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ شرفُ القربِ منْ إبراهيمَ ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾ أيْ إلى الإسلامِ: ﴿وَٱجْتَبَيْنَآۚ﴾ بالإيمانِ ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا۩ ٥٨﴾ وصفهمْ بالخشوعِ للهِ والبكاءِ.

الثانية: في هذهِ الآيةِ دلالةٌ على أنَّ لآياتِ الرحمنِ تأثيرًا في القلوبِ، وفي هذه الآية دلالةٌ منْ قولهِ على أنَّ القرآنَ هوَ الذي كانَ يتلى على جميعِ الأنبياءِ، ولوْ كانَ كذلكَ لما كانَ الرسولُ ﷺ مختصًا بإنزالهِ إليهِ.

الثالثة: احتجَّ الرازيُّ بهذهِ الآيةِ على وجوبِ سجودِ القرآنِ على المستمعِ والقارئ. قالَ إلكيا: وهذا بعيدٌ فإنَّ هذا الوصفَ شاملٌ لكلِّ آياتِ اللهِ تعالى. وضمَّ السجودَ إلى البكاءِ، وأبانَ بهِ عنْ طريقةِ الأنبياءِ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ في تعظيمهمْ للهِ تعالى وآياتهِ، وليسَ فيهِ دلالةٌ على وجوبِ ذلكَ عندَ آيةٍ مخصوصةٍ.

الرابعة: قالَ العلماءُ: ينبغي لمنْ قرأَ سجدةً أنْ يدعوَ فيها بما يليقُ بآياتها، فإنْ قرأَ سورةَ السجدةِ ﴿الٓمٓ ١ تَنزِيلُ﴾ قالَ: اللهمَّ اجعلني منَ الساجدينَ لوجهكَ، المسبحينَ بحمدكَ، وأعوذُ بكَ أنْ أكونَ منَ المستكبرينَ عنْ أمركَ. وإنْ قرأَ سجدةَ «سبحانَ» قالَ: اللهمَّ اجعلني منَ الباكينَ إليكَ، الخاشعينَ لكَ. وإنْ قرأَ هذهِ قالَ: اللهمَّ اجعلني منْ عبادكَ المنعمِ عليهمْ، المهديينَ الساجدينَ لكَ، الباكينَ عندَ تلاوةِ آياتك.

قوله تعالى: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ٦٠ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ٦١ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ٦٢ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ٦٣﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ﴾ أيْ أولادُ سوءٍ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهوَ ذمٌّ ونصٌّ في أنَّ إضاعةَ الصلاةِ منَ الكبائرِ التي يوبقُ بها صاحبها ولا خلافَ في ذلكَ، وقدْ قالَ عمرُ: ومنْ ضيعها فهوَ لما سواها أضيعُ. واختلفوا فيمنِ المرادُ بهذهِ الآيةِ، فقيل: النصارى خلفوا بعدَ اليهودِ. وقيل: همْ قومٌ منْ أمةِ محمدٍ ﷺ في آخرِ الزمانِ، أيْ يكونُ في هذهِ الأمةِ منْ هذهِ صفتهُ لا أنهمُ المرادُ بهذهِ الآيةِ.

واختلفوا أيضًا في معنى إضاعتها، فقيل: هيَ إضاعةُ كفرٍ وجحدٍ بها. وقيل: هيَ إضاعةُ أوقاتها، وعدمُ القيامِ بحقوقها وهوَ الصحيحُ، وأنها إذا صليتْ مخلى بها لا تصحُّ ولا تجزئُ، لقولهِ ﷺ للرجلِ الذي صلى وجاءَ فسلمَ عليهِ «ارجعْ فصلِّ فإنكَ لمْ تصلِّ» ثلاثَ مراتٍ خرجهُ مسلمٌ، وقالَ حذيفةُ لرجلٍ يصلي فطففَ منذُ كمْ تصلي هذهِ الصلاةَ؟ قالَ منذُ أربعينَ عامًا. قالَ: ما صليتَ، ولوْ متَّ وأنتَ تصلي هذهِ الصلاةَ لمتَّ على غيرِ فطرةِ محمدٍ ﷺ. ثمَّ قالَ: إنَّ الرجلَ ليخففُ الصلاةَ ويتمُّ ويحسنُ. خرجهُ البخاريُّ واللفظُ للنسائيِّ، وفي الترمذيِّ عنْ أبي مسعودٍ الأنصاريِّ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا تجزئُ صلاةٌ لا يقيمُ فيها الرجلُ» يعني صلبهُ في الركوعِ والسجودِ، قالَ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، والعملُ على هذا عندَ أهلِ العلمِ منْ أصحابِ النبيِّ ﷺ ومنْ بعدهمْ، يرونَ أنْ يقيمَ الرجلُ صلبهُ في الركوعِ والسجودِ، قالَ الشافعيُّ وأحمدُ: منْ لمْ يقمْ صلبهُ في الركوعِ والسجودِ فصلاتهُ فاسدةٌ، قالَ ﷺ: «تلكَ الصلاةُ صلاةُ المنافقِ يجلسُ يرقبُ الشمسَ حتى إذا كانتْ بينَ قرني الشيطانِ قامَ فنقرها أربعًا لا يذكرُ اللهَ فيها إلا قليلًا». وهذا ذمٌّ لمنْ يفعلُ ذلكَ.

وجملة القول هذا البابِ أنَّ منْ لمْ يحافظْ على كمالِ وضوئها وركوعها وسجودها فليسَ بمحافظٍ عليها، ومنْ لمْ يحافظْ عليها فقدْ ضيعها، ومنْ ضيعها فهوَ لما سواها أضيعُ،

كما أنَّ منْ حافظَ عليها حفظَ اللهُ عليهِ دينهُ، ولا دينَ لمنْ لا صلاةَ لهُ. وقالَ الحسنُ: عطلوا المساجدَ، واشتغلوا بالصنائعِ والأسبابِ. ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ أيِ اللذاتِ والمعاصيَ.

الثالثة: روى الترمذيُّ وأبو داودَ عنْ أنسِ بنِ حكيمٍ الضبيِّ أنهُ أتى المدينةَ فلقيَ أبا هريرةَ فقالَ لهُ: يا فتى ألا أحدثكَ حديثًا لعلَّ اللهَ تعالى أنْ ينفعكَ بهِ، قلتُ بلى. قالَ: «إنَّ أولَ ما يحاسبُ بهِ الناسُ يومَ القيامةِ منْ أعمالهمُ الصلاةَ فيقولُ اللهُ تباركَ وتعالى لملائكتهِ وهوَ أعلمُ: انظروا في صلاة عبدي أتمها أم نقصها فإنْ كانتْ تامةً كتبتْ لهُ تامةً وإنْ كانَ انتقصَ منها شيئًا قالَ انظروا هلْ لعبدي منْ تطوعٍ فإنْ كانَ لهُ تطوعٌ قالَ أكملوا لعبدي فريضتهُ منْ تطوعهِ ثمَّ تؤخذُ الأعمالُ على ذلكَ». قالَ يونسُ: وأحسبهُ عنِ النبيِّ ﷺ، لفظُ أبي داودَ.

قالَ أبو عمرَ بنُ عبدِ البرِّ في كتابِ (التمهيدِ): أما إكمالُ الفريضةِ منَ التطوعِ فإنما يكونُ -واللهُ أعلمُ- فيمنْ سها عنْ فريضةٍ فلمْ يأتِ بها، أوْ لمْ يحسنْ ركوعها وسجودها ولمْ يدرِ قدرَ ذلكَ وأما منْ تركها، أوْ نسيَ ثمَّ ذكرها فلمْ يأتِ بها عامدًا واشتغلَ بالتطوعِ عنْ أداءِ فرضها وهو ذاكر له فلا يكمل لهُ فريضةٌ منْ تطوعهِ واللهُ أعلمُ.

قلتُ: فينبغي للإنسانِ أنْ يحسنَ فرضهُ ونفلهُ حتى يكونَ لهُ نفلٌ يجدهُ زائدًا على فرضهِ يقربهُ منْ ربهِ كما قالَ سبحانهُ وتعالى: «وما يزالُ عبدي يتقربُ إليَّ بالنوافلِ حتى أحبهُ» الحديثَ. فأما إذا كانَ نفلٌ يكملُ بهِ الفرضُ فحكمهُ في المعنى حكمُ الفرضِ.

ومنْ لا يحسنُ أنْ يصليَ الفرضَ فأحرى وأولى ألا يحسنَ التنفلَ لا جرمَ تنفلُ الناسِ في أشدِّ ما يكونُ منَ النقصانِ والخللِ لخفتهِ عندهمْ وتهاونهمْ بهِ حتى كأنهُ غيرُ معتدٍّ بهِ. ولعمرُ اللهِ لقدْ يشاهدُ في الوجودِ منْ يشارُ إليهِ ويظنُّ بهِ العلمَ تنفلهُ كذلكَ بلْ فرضهُ إذْ ينقرهُ نقرَ الديكِ لعدمِ معرفتهِ بالحديثِ فكيفَ بالجهالِ الذينَ لا يعلمونَ.

وقدْ قالَ العلماءُ: ولا يجزئُ ركوعٌ ولا سجودٌ ولا وقوفٌ بعدَ الركوعِ ولا جلوسٌ بينَ السجدتينِ حتى يعتدلَ راكعًا وواقفا وساجدًا وجالسًا. وهذا هوَ الصحيحُ في الأثرِ وعليهِ جمهورُ العلماءِ وأهلُ النظرِ.

الرابعة – قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ﴾ الشهواتُ عبارةٌ عما يوافقُ الإنسانَ ويشتهيهِ

ويلائمهُ ولا يتقيهِ. وفي الصحيحِ: «حفتِ الجنةُ بالمكارهِ وحفتِ النارُ بالشهواتِ».

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩﴾ شرًا أوْ ضلالًا أوْ خيبةً، وقالَ ابنُ مسعودٍ: هوَ وادٍ في جهنمَ.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ أيْ منْ تضييعِ الصلاةِ واتباعِ الشهواتِ فرجعَ إلى طاعةِ ربهِ ﴿وَءَامَنَ﴾ بهِ ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾. قرأَ أبو جعفرٍ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرو ويعقوبُ: ﴿يُدْخَلُونَ﴾ بفتحِ الخاءِ، وفتحَ الياءَ الباقونَ ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ۝٦٠﴾ أيْ لا ينقصُ منْ أعمالهمُ الصالحة شيء ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ بدلًا منَ الجنةِ فانتصبتْ.

قالَ أبو إسحاقَ الزجاجُ: ويجوزُ «جَنَّاتُ عَدْنٍ» على الابتداءِ. قالَ أبو حاتمٍ: ولولا الخطُّ لكانَ «جَنَّةِ عَدْنٍ» لأنَّ قبلهُ ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾.

﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي من عبده وحفظ عهده بالغيب وقيل: آمنوا بالجنة ولم يروها. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ۝٦١﴾ مفعولٌ منَ الإتيانِ ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أيْ في الجنةِ. واللغوُ معناهُ الباطلُ منَ الكلامِ والفحشُ منهُ والفضولُ وما لا ينتفعُ بهِ. ومنهُ الحديثُ: «إذا قلتَ لصاحبكَ يومَ الجمعةِ أنصتْ والإمامُ يخطبُ فقدْ لغوتَ» قالَ ابنُ عباسٍ: اللغوُ كلُّ ما لمْ يكنْ فيهِ ذكرُ اللهِ تعالى أيْ كلامهمْ في الجنةِ حمدُ اللهِ وتسبيحهُ.

﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ أيْ لكنْ يسمعونَ سلامًا فهوَ منَ الاستثناءِ المنقطعِ يعني سلامَ بعضهمْ على بعضٍ وسلامَ الملكَ عليهمْ، والسلامُ اسمٌ جامعٌ للخيرِ والمعنى أنهمْ لا يسمعونَ فيها إلا ما يحبونَ.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝٦٢﴾ أيْ لهمْ ما يشتهونَ منَ المطاعمِ والمشاربِ بكرةً وعشيًا أيْ في قدرَ هذينَ الوقتينِ إذْ لا بكرةَ ثمَّ ولا عشيا كقوله تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أيْ قدرَ شهرٍ، وقيل: أيْ رزقهمْ فيها غيرُ منقطعٍ كما قالَ: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣﴾، ويحتملُ أنْ تكونَ البكرةُ قبلَ تشاغلهمْ بلذاتهمْ والعشيُّ بعدَ فراغهمْ منْ لذاتهمْ لأنهُ يتخللها فتراتُ انتقالٍ منْ حالٍ إلى حالٍ.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي﴾ أيْ هذهِ الجنةُ التي وصفنا أحوالَ أهلها ﴿نُورِثُ﴾

بالتخفيفِ. وقرأ يعقوبُ: «نوَرِّثُ» بفتحِ الواوِ وتشديدِ الراءِ، والاختيار التخفيف، لقوله تعالى: ﴿أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ﴾.

﴿مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ٦٣﴾ قالَ ابنُ عباسٍ: «أيْ منِ اتقاني وعملَ بطاعتي». وقيلَ: هوَ على التقديمِ والتأخيرِ تقديرهُ نورثُ منْ كان تقيا من عبادنا.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ٦٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾.

روى البخاريُّ عنِ ابنِ عباسٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ لجبريلَ: «ما يمنعكَ أنْ تزورنا أكثر مما تزورنا» فنزلتْ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ﴾ الآيةَ، قالَ كانَ هذا الجوابُ لمحمدٍ ﷺ.

قيل: احتبسَ جبريلُ عنِ النبيِّ ﷺ حينَ سألهُ قومهُ عنْ قصةِ أصحابِ الكهفِ وذي القرنينِ والروحِ ولمْ يدرِ ما يجيبهمْ ورجا أنْ يأتيهُ جبريلُ بجوابِ ما سألوهُ عنهه، قيل: فأبطأَ عليهِ خمسةَ عشرَ يومًا.

وقيل: هوَ إخبارٌ منْ أهلِ الجنةِ أنهمْ يقولونَ عندَ دخولها وما نتنزلُ هذهِ الجنانَ إلا بأمرِ ربكَ وعلى هذا تكونُ الآيةُ متصلةً بما قبلُ.

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ﴾ أيْ للهِ ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا﴾ منَ الثوابِ والعقابِ وأمورِ الآخرةِ ﴿وَمَا خَلۡفَنَا﴾ ما مضى منْ أعمالنا في الدنيا ﴿وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ﴾ أيْ ما يكونُ منْ هذا الوقتِ إلى يومِ القيامةِ.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ٦٤﴾ أيْ ناسيًا إذا شاءَ أنْ يرسلَ إليكَ أرسلَ وقيل: المعنى لمْ ينسكَ وإنْ تأخرَ عنكَ الوحيُ. وقيل: المعنى أنهُ عالمٌ بجميعِ الأشياءِ متقدمها ومتأخرها ولا ينسى شيئًا منها.

قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ أيْ ربهما وخالقهما وخالقُ ما بينهما ومالكهما ومالكُ ما بينهما، فكما إليهِ تدبيرُ الأزمانِ كذلكَ إليهِ تدبيرُ الأعيانِ ﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾ أيْ

وحدهُ لذلكَ. وفي هذا دلالةٌ على أنَّ اكتساباتِ الخلقِ مفعولةٌ للهِ تعالى كما يقولهُ أهلُ الحقِّ، وإذا ثبتَ أنهُ مالكُ ما بينَ السماءِ والأرضِ دخلَ في ذلكَ اكتسابُ الخلقِ ووجبتْ عبادتهُ لما ثبتَ أنهُ المالكُ على الإطلاقِ وحقيقةُ العبادةِ الطاعةُ بغايةِ الخضوعِ ولا يستحقها أحدٌ سوى المالكِ المعبودِ ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ أيْ لطاعتهِ ولا تحزنْ لتأخيرِ الوحيِ عنكَ بلِ اشتغلْ بما أمرتَ بهِ. وأصلُ اصطبرِ اصتبرْ فثقلَ الجمعُ بينَ التاءِ والصادِ لاختلافهما فأبدلَ منَ التاءِ طاءٌ كما تقولُ منَ الصومِ: اصطامَ ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ قالَ ابنُ عباسٍ: يريدُ هلْ تعلمُ لهُ ولدًا أيْ نظيرًا، أوْ مثلًا أوْ شبيهًا يستحقُّ مثلَ اسمهِ الذي هوَ الرحمنُ.

وعنِ ابنِ عباسٍ قالَ: هلْ تعلمُ لهُ أحدًا سميَ الرحمنُ.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ الإنسانُ هنا أبي ابن خلفٍ وجدَ عظامًا باليةً ففتتها بيدهِ وقالَ: زعمَ محمدٌ أنا نبعثُ بعدَ الموتِ، وقيل: نزلتْ في الوليدِ بنِ المغيرةِ، واللامُ في ﴿لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ للتأكد. قالهُ استهزاءً لأنهمْ لا يصدقونَ بالبعثِ. والإنسانُ هاهنا الكافرُ.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي أو لا يذكرُ هذا القائلُ ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل سؤاله وقول هذا القولَ ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ فالإعادةُ مثلُ الابتداءِ فلمَ يناقضُ. وقرأَ أهلُ الكوفةِ إلا عاصمًا وأهلُ مكةَ وأبو عمرَ وأبو جعفرٍ «أَوَلَا يَذَّكَّرُ» وقرأَ ونافعٌ وعاصمٌ: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ﴾ بالتخفيفِ. والاختيارُ التشديدُ وأصلهُ يتذكرُ لقولهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾، ومعنى: ﴿يَذَّكَّرُ﴾ يتنبهُ ويعلم.

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أقسمَ بنفسهِ بعدَ إقامةِ الحجةِ بأنهُ يحشرهمْ منْ قبورهمْ إلى المعادِ كما يحشرُ المؤمنينَ ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ أيْ ولنحشرنَّ الشياطينَ قرناءَ لهمْ. قيلَ: يحشرُ كلُّ كافرٍ معَ شيطانٍ في سلسلةٍ كما قالَ: ﴿۞ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾، والواوُ في ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ للعطفِ وبمعنى معَ وهيَ بمعنى معَ أوقعُ.

وَ ﴿حَوْلَ جَهَنَّمَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ داخلها، وعلى هذا يجوزُ أنْ يكونَ بعدَ الدخولِ. ويجوزُ أنْ يكونَ قبلَ الدخولِ. وَ ﴿جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾ جمعُ جاثٍ. يقالُ: جثا على ركبتيهِ يجثو

ويجثي جثوًا وجثيًا على فعولٍ فيهما، وقالَ ابنُ عباسٍ: ﴿جِثِيًّا﴾ جماعاتٍ. وقالَ مقاتلٌ: جمعًا جمعًا وهوَ على هذا التأويلِ جمعُ جِثوةٍ وجَثوةٍ وجُثوةٍ ثلاثُ لغاتٍ وهيَ الحجارةُ المجموعةُ والترابُ المجموع فأهل الخمر على حدة وأهل الزنى على حدةٍ.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ أيْ لنستخرجنَّ منْ كلِّ أمةٍ وأهلِ دينٍ ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ ﴿أَيُّهُم﴾ مرفوعٌ على الحكايةِ والمعنى ثمَّ لننزعنَّ منْ كلِّ شيعةِ الذي يقالُ منْ أجلِ عتوهِ أيهمْ أشدَّ على الرحمنِ عتيًا.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾ أيْ أحقُّ بدخولِ النارِ.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ﴾ هذا قسمٌ والواوُ يتضمنهُ. ويفسرهُ حديثُ النبيِّ ﷺ «لا يموتُ لأحدٍ منَ المسلمينَ ثلاثةٌ منَ الولدِ فتمسهُ النار إلا تحلة القسم».

الثانية: واختلفَ الناسُ في الورودِ فقيلَ: الورودُ الدخولُ، وقدْ أشفقَ كثيرٌ منَ العلماءِ منْ تحققِ الورودِ والجهلِ بالصدرِ، وقالت فرقة: الورودُ الممرُّ على الصراطِ، تقولُ: وردتُ البصرةَ ولمْ أدخلها، احتجوا بقولِ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾، واحتجَّ عليهمُ الآخرونَ أهلُ المقالةِ الأولى بأنَّ معنى قولهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ عنِ العذابِ فيها والإحراقِ بها. قالوا: فمنْ دخلها وهوَ لا يشعرُ بها ولا يحسُّ منها وجعًا ولا ألمًا فهوَ مبعدٌ عنها في الحقيقةِ. ويستدلونَ بقولهِ تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ بضمِّ الثاءِ فـ ﴿ثُمَّ﴾ تدلُّ على نجاءٍ بعدَ الدخولِ.

قلتُ: وفي صحيح مسلم «ثمَّ يضربُ الجسرُ على جهنمَ وتحلُّ الشفاعةُ فيقولون اللهمَّ سلمْ سلمْ» قيلَ: يا رسولَ اللهِ وما الجسرُ؟ قالَ: «دحضٌ مزلةٌ فيهِ خطاطيفُ وكلاليبُ وحسكٌ تكونُ بنجدٍ فيها شويكةٌ يقالُ لها السعدانُ فيمرُّ المؤمنونَ كطرفِ العينِ وكالبرقِ وكالريحِ وكالطيرِ وكأجاويدِ الخيلِ والركابِ فناجٍ مسلمٌ ومخدوشٌ مرسلٌ ومكدوسٌ في نارِ جهنمَ» الحديثَ. وبهِ احتجَّ منْ قالَ إنَّ الجوازَ على الصراطِ هوَ الورودُ الذي تضمنتهُ هذهِ

الآيةُ لا الدخولُ فيها.

وقالت فرقة: بلْ هوَ ورودُ إشرافٍ وأطلاعٍ وقرب. وذلك أنهم يحضرونَ موضعَ الحسابِ وهوَ بقربِ جهنمَ فيرونها وينظرونَ إليها في حالةِ الحسابِ ثمَّ ينجي اللهُ الذينَ اتقوا مما نظروا إليهِ ويصارُ بهمْ إلى الجنةِ ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أيْ يؤمرُ بهمْ إلى النارِ قالَ اللهُ تعالى ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ﴾ أيْ أشرفَ عليهِ لا أنهُ دخلهُ، وروتْ حفصةُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ «لا يدخلُ النارَ أحدٌ منْ أهلِ بدرٍ والحديبيةِ» قالتْ فقلتُ: يا رسولَ اللهِ وأينَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «فمهْ». ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾. أخرجهُ مسلمٌ منْ حديثِ أمِّ مبشرٍ قالتْ: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقولُ عند حفصة.

ورجحَ الزجاجُ هذا القولَ بقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾.

وقالت فرقة: الورودُ النظرُ إليها في القبرِ فينجى منها الفائزُ ويصلاها منْ قدرَ عليهِ دخولها، ثمَّ يخرجُ منها بالشفاعةِ أوْ بغيرها منْ رحمةِ اللهِ تعالى. واحتجوا بحديثِ ابنِ عمرَ: «إذا ماتَ أحدكمْ عرضَ عليهِ مقعدهُ بالغداةِ والعشيِّ» الحديثَ.

وعنِ ابنِ عباسٍ أنهُ قالَ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ قالَ: هذا خطابٌ للكفارِ. ورويَ عنهُ أنهُ كانَ يقرأُ: «وَإِنْ مِنْهُمْ» ردًا على الآياتِ التي قبلها في الكفار في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝٦٨ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيًّا ۝٦٩ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۝٧٠ وإن منهم﴾.

وقالت فرقة: المرادُ بِ ﴿مِنكُمۡ﴾ الكفرةُ والمعنى: قلْ لهمْ يا محمدُ. وهذا التأويلُ أيضًا سهلُ التناولِ والكافُ في ﴿مِنكُمۡ﴾ راجعةٌ إلى الهاءِ في ﴿لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ فلا ينكرُ رجوعُ الكافِ إلى الهاءِ، فقدْ عرفَ ذلكَ في قولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءً وَكَانَ سَعۡيُكُم

مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ معناهُ كانَ لهمْ فرجعتِ الكافُ إلى الهاءِ.

الثالثة: الاستثناءُ في قولهِ ﷺ «إلا تحلةَ القسمِ» يحتملُ أنْ يكونَ استثناءً منقطعًا: لكنْ تحلةَ القسمِ وهذا معروفٌ في كلامِ العربِ والمعنى ألا تمسهُ النارُ أصلًا وتمَّ الكلامُ هنا ثمَّ ابتدأَ «إلا تحلةَ القسمِ» أيْ لكنْ تحلةَ القسمِ لا بد منها في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ وهوَ الجوازُ على الصراطِ أوِ الرؤيةُ أوِ الدخولُ دخولُ سلامةٍ، فلا يكونُ في ذلك شيء منْ مسيسٍ لقولهِ ﷺ: «لا يموتُ لأحدكمْ ثلاثةٌ منَ الولدِ فيحتسبهمْ إلا كانوا لهُ جنةً منَ النارِ» والجُنةُ الوقايةُ والسترُ ومنْ وقيَ النارَ وسترَ عنها فلنْ تمسهُ ولوْ مستهُ لما كانَ موقى.

الرابعة: هذا الحديثُ يفسرُ الأولَ لأنَّ فيهِ ذكرَ الحسبةِ، ولذلكَ جعلهُ مالكٌ بأثرهِ مفسرًا لهُ. ويقيدُ هذا الحديثَ الثاني أيضًا ما رواهُ البخاريُّ عنْ أبي هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ «منْ ماتَ لهُ ثلاثةٌ منَ الولدِ لمْ يبلغوا الحنثَ كانَ له حجابا من النار- أو- دخلَ الجنةَ» فقولهُ ﷺ «لمْ يبلغوا الحنثَ» - ومعناهُ عندَ أهلِ العلمِ لمْ يبلغوا الحلمَ ولمْ يبلغوا أنْ يلزمهمْ حنثٌ- دليلٌ على أنَّ أطفالَ المسلمينَ في الجنةِ- واللهُ أعلمُ- لأنَّ الرحمةَ إذا نزلتْ بآبائهمُ استحالَ أنْ يرحموا منْ أجلِ منْ ليسَ بمرحومٍ. وهذا إجماعٌ منَ العلماءِ في أنَّ أطفالَ المسلمينَ في الجنةِ ولمْ يخالفْ في ذلكَ إلا فرقةٌ شذتْ منَ الجبريةِ فجعلتهمْ في المشيئةِ وهوَ قولٌ مهجورٌ مردودٌ بإجماعِ الحجةِ الذينَ لا تجوزُ مخالفتهمْ، ولا يجوزُ على مثلهمُ الغلطُ، إلى ما رويَ عنِ النبيِّ ﷺ منْ أخبارِ الآحادِ الثقاتِ العدولِ، وأنَّ قولهُ ﷺ «الشقيُّ منْ شقيَ في بطنِ أمهِ والسعيدُ منْ سعدَ في بطنِ أمهِ وأنَّ الملكَ ينزلُ فيكتبُ أجلهُ وعملهُ ورزقهُ» الحديثُ مخصوصٌ، وأنَّ منْ ماتَ منْ أطفالِ المسلمينَ قبلَ الاكتسابِ فهوَ ممنْ سعدَ في بطنِ أمهِ ولمْ يشقَ بدليلِ الأحاديثِ والإجماعِ.

وذكرَ النقاشُ عنْ بعضهمْ أنهُ قالَ: نسخَ قولهُ تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قولهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ وهذا ضعيفٌ، وهذا ليسَ موضعَ نسخٍ.

الخامسة: قولهُ تعالى: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ الحتمُ إيجابُ القضاءِ ﴿مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ أيْ قضاهُ اللهُ تعالى عليكمْ.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ أيْ نخلصهمْ ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ٧٢﴾ وهذا مما يدلُّ على أنَّ الورودَ الدخولُ لأنهُ لمْ يقلْ: وندخلُ الظالمينَ. وقدْ مضى هذا المعنى مستوفى.

والمذهبُ أنَّ صاحبَ الكبيرةِ وإنْ دخلها فإنهُ يعاقبُ بقدرِ ذنبهِ ثمَّ ينجو. وقالتِ المرجئةُ: لا يدخلُ. وقالتِ الوعيديةُ: يخلدُ. وقدْ مضى بيانُ هذا في غيرِ موضعٍ. وقرأ يعقوبَ والكسائيّ: «ثُمَّ نُنْجِي» مخففةً منْ أنجى، وثقّلَ الباقونَ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أيْ على الكفارِ الذينَ سبقَ ذكرهمْ في قولهِ تعالى: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾. وقالَ فيهمْ: ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ أيْ هؤلاءِ إذا قرئَ عليهمُ القرآنُ تعززوا بالدنيا، وقالوا: فما بالنا- إنْ كنا على باطلٍ- أكثرُ أموالًا وأعزُّ نفرًا. وغرضهمْ إدخالُ الشبهةِ على المستضعفينَ وإيهامهمْ أنَّ منْ كثرَ مالهُ دلَّ ذلكَ على أنهُ المحقُّ في دينهِ، وكأنهمْ لمْ يروا في الكفارِ فقيرًا ولا في المسلمينَ غنيًا ولمْ يعلموا أنَّ اللهَ تعالى نحى أولياءهُ عنِ الاغترار بالدنيا وفرط الميل إليها.

و ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ معناهُ مرتلاتُ الألفاظِ ملخصةُ المعاني، مبيناتُ المقاصدِ، إما محاكمات، أوْ متشابهاتٌ قدْ تبعها البيانُ بالمحكماتِ، أوْ تبيينُ الرسولِ ﷺ قولًا أوْ فعلًا. أوْ ظاهراتُ الإعجازِ تحديَ بها فلمْ يقدرْ على معارضتها. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يريد مشركي قريش النضر بن الحارث وأصحابهُ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يعني فقراءَ أصحابِ النبيِّ ﷺ، وكانتْ فيهمْ قشافةٌ، وفي عيشهمْ خشونةٌ وفي ثيابهمْ رثاثةٌ وكانَ المشركون يرجلون شعورهم ويدهنون رؤوسهم ويلبسونَ خيرَ ثيابهمْ، فقالوا للمؤمنينَ ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ٧٣﴾. قرأ ابنُ كثيرٍ «مُقَامًا» بضمِّ الميمِ وهوَ موضعُ الإقامةِ. ويجوزُ أنْ يكونَ مصدرًا بمعنى الإقامةِ. الباقونَ: ﴿مَقَامًا﴾ بالفتحِ، أيْ منزلًا ومسكنًا، وقيل: المَقامُ الموضعُ الذي يقامُ فيهِ بالأمورِ الجليلةِ، أيْ أيُّ الفريقينِ أكثرُ جاهًا وأنصارًا.

﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ٧٣﴾ أيْ مجلسًا.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أيْ منْ أمةٍ وجماعةٍ ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا﴾ أي متاعا كثيرا، والأثاث متاع البيت. ﴿وَرِءْيًا﴾ أيْ منظرًا حسنًا. وقرأَ أهلُ المدينةِ: «وَرِيًّا» بغيرِ همزٍ. وقرأَ أهلُ الكوفةِ: «وَرِئْيًا» بالهمزِ.

وقراءةُ أهلِ المدينةِ في هذا حسنةٌ وفيها تقريرانِ:

أحدهما- أنْ تكونَ منْ رأيتُ ثمَّ خففتِ الهمزةُ فأبدلَ منها ياءٌ وأدغمتِ الياءُ في الياءِ.

والوجهُ الثاني- أنَّ جلودهمْ مرتويةٌ منْ النعمةِ، فلا يجوزُ الهمزُ على هذا.

وفي روايةِ ورشٍ عنْ نافعٍ وابنِ ذكوانَ عن ابن عامر ﴿وَرِءْيًا﴾ بالهمزِ تكونُ على الوجهِ الأولِ. وهيَ قراءةُ أهلِ الكوفةِ وأبي عمرو منْ رأيتُ على الأصلِ.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ﴾ أيْ في الكفرِ ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ أيْ فليدعهُ في طغيانِ جهلهِ وكفرِه، فلفظهُ لفظُ الأمرِ ومعناهُ الخبرُ أي من كان الضلالةِ مدّهُ الرحمنُ مدًا حتى يطولَ اغترارهُ فيكونَ ذلكَ أشدَّ لعقابهِ. نظيرهُ: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾، وقوله : ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ومثلهُ كثيرٌ، أيْ فليعشْ ما شاءَ، وليوسعْ لنفسهِ في العمرِ، فمصيرهُ إلى الموتِ والعقابِ. وهذا غايةٌ في التهديدِ والوعيدِ. وقيل: هذا دعاءٌ أمرَ بهِ النبيُّ ﷺ.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ قال: ﴿رَأَوْاْ﴾ لأن لفظ «من» يصلح للواحد والجمع. و «إذا» معَ الماضي بمعنى المستقبلِ، أيْ حتى يروا ما يوعدونَ والعذابُ هنا إما أنْ يكونَ بنصرِ المؤمنينَ عليهمْ فيعذبونهمْ بالسيفِ والأسرِ، وإما أنْ تقومَ الساعةُ فيصيرونَ إلى النارِ ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ۝٧٥﴾ أيْ تنكشفُ حينئذٍ الحقائقُ وهذا ردٌّ لقولهمْ: ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ أيْ ويثبتُ اللهُ المؤمنينَ على الهدى ويزيدهمْ في النصرةِ وينزلُ منَ الآياتِ ما يكونُ سببَ زيادةِ اليقينِ مجازاةً لهمْ ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ تقدمَ في الكهف القولُ فيها ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أيْ جزاءً: ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ۝٧٦﴾ أيْ في الآخرةِ مما افتخرَ بهِ الكفارُ في الدنيا. وَ «المردُّ» مصدرٌ كالردِّ، أيْ وخيرٌ ردًا على

عاملها بالثوابِ، يقالُ: هذا أردُّ عليكَ أيْ أنفعُ لكَ. وقيلَ: ﴿خَيۡرٌ مَّرَدًّا﴾ أيْ مرجعًا فكلُّ أحدٍ يردُّ إلى عمله الذي عمله.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ روى الأئمةُ- واللفظُ لمسلمٍ- عنْ خبابٍ قالَ: كانَ لي على العاصِ بنِ وائلٍ دَينٌ فأتيتهُ أتقاضاهُ فقالَ لي: لنْ أقضيكَ حتى تكفر بمحمد. قال: فقلت لهُ لنْ أكفرَ بهِ حتى تموتَ ثمَّ تبعثَ. قالَ: وإني لمبعوثٌ منْ بعدِ الموتِ؟! فسوفَ أقضيكَ إذا رجعتُ إلى مالٍ وولدٍ، فنزلتْ هذهِ الآيةُ: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا ٧٧﴾ إلى قولهِ: ﴿وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا﴾.

﴿أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ﴾ قالَ ابنُ عباسٍ: أنظرَ في اللوحِ المحفوظِ؟!. ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٧٨﴾ أيْ عملًا صالحًا. وقيل: هوَ التوحيدُ. وقيل: هوَ منَ الوعدِ. ﴿كَلَّاۚ﴾ ردٌّ عليهِ أيْ لمْ يكنْ ذلكَ لمْ يطلعِ الغيبَ ولمْ يتخذْ عندَ الرحمنِ عهدًا وتم الكلام عند قوله: ﴿كَلَّاۚ﴾.

وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ: «وَوُلْدًا» بضمِّ الواوِ، والباقونَ بفتحها. واختلفَ في الضمِّ والفتحِ على وجهينِ:

أحدهما: أنهما لغتانِ معناهما واحدٌ يقالُ وَلَدٌ ووُلْدٌ كما يقالُ عدمٌ وعُدْمٌ.

والثاني- أنَّ قيسًا تجعلُ الوُلْدَ بالضمِّ جمعًا والوَلدَ بالفتحِ واحدًا.

قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ﴾ ألفهُ ألفُ استفهامٍ لمجيءِ ﴿أَمِ﴾ بعدها ومعناهُ التوبيخُ وأصلهُ أاطلعَ فحذفتِ الألفُ الثانيةُ لأنها ألفُ وصلٍ.

قوله تعالى: ﴿كَلَّاۚ﴾ ليسَ في النصفِ الأولِ ذكرُ ﴿كَلَّاۚ﴾ وإنما جاءَ ذكرهُ في النصفِ الثاني. وهوَ يكونُ بمعنيينِ: **أحدهما:** بمعنى حقًا. **والثاني:** بمعنى لا. فإذا كانتْ بمعنى حقًا جازَ الوقفُ على ما قبلهُ ثمَّ تبتدئُ ﴿كَلَّاۚ﴾ أيْ حقًا. وإذا كانتْ بمعنى لا كانَ الوقفُ على ﴿كَلَّاۚ﴾ جائزا كما في هذهِ الآيةِ لأنَّ المعنى: لا ليسَ الأمرُ كذا.

ويجوزُ أنْ تقفَ على قولهِ: ﴿عَهۡدٗا﴾ وتبتدئَ ﴿كَلَّاۚ﴾ أيْ حقًا ﴿سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ﴾ وكذا قولهُ تعالى: ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ﴾ يجوزُ الوقفُ على ﴿كَلَّاۚ﴾ وعلى

﴿تَرَكْتُۚ﴾. وقولهُ: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ١٤ قَالَ كَلَّاۖ﴾ الوقفُ على ﴿كَلَّاۖ﴾ لأنَّ المعنى لا- وليسَ الأمرُ كما تظنُّ. ﴿فَٱذْهَبَا﴾. فليسَ للحقِّ في هذا المعنى موضعٌ.

قوله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أيْ سنحفظُ عليهِ قولهُ فنجازيهِ بهِ في الآخرةِ ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ٧٩﴾ أيْ سنزيدهُ عذابًا فوقَ عذابٍ ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ أيْ نسلبهُ ما أعطيناهُ في الدنيا منْ مالٍ وولدٍ ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا ٨٠﴾ أيْ منفردًا لا مالَ لهُ ولا ولدَ ولا عشيرة تنصره.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ٨١﴾ يعني مشركي قريشٍ. وَ ﴿عِزًّا﴾ معناهُ أعوانًا ومنعةً يعني أولادًا، وظاهرُ الكلامِ أنَّ ﴿عِزًّا﴾ راجعٌ إلى الآلهةِ التي عبدوها منْ دونِ اللهِ. ووحدَ لأنهُ بمعنى المصدرِ أيْ لينالوا بها العزَّ ويمتنعونَ بها منْ عذابِ اللهِ فقالَ اللهُ تعالى: ﴿كَلَّاۚ﴾ أيْ ليسَ الأمرُ كما ظنوا وتوهموا بلْ يكفرونَ بعبادتهمْ أيْ ينكرونَ أنهمْ عبدوا الأصنامَ أوْ تجحدُ الآلهةُ عبادةَ المشركينَ لها كما قالَ ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ وذلكَ أنَّ الأصنامَ جماداتٌ لا تعلمُ العبادةَ ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ٨٢﴾ أيْ أعداءً، أو بلاءً فتحشرُ آلهتهمْ وتركبُ لهمْ عقولٌ فتنطقُ وتقولُ: يا ربِّ عذب هؤلاء الذين عبدونا من دونك و ﴿كَلَّاۚ﴾ هنا يحتملُ أنْ تكونَ بمعنى لا ويحتملُ أنْ تكونَ بمعنى حقًّا أيْ حقًّا ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أيْ سلطناهمْ عليهمْ بالإغواءِ وذلكَ حينَ قالَ لإبليسَ: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾. وقيلَ: ﴿أَرْسَلْنَآ﴾ أيْ خلينا يقالُ: أرسلتُ البعيرَ أيْ خليتهُ، أيْ خلينا الشياطينَ وإياهمْ ولمْ نعصمهمْ منَ القبولِ منهمْ ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ٨٣﴾ تغريهمْ إغراءً بالشرِّ.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْۖ﴾ أيْ تطلبِ العذابَ لهمْ ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ٨٤﴾ يعني الأنفاسُ، وقيلَ: الخطواتُ، وقيل: اللذاتُ. وقيل: اللحظاتُ وقيلَ: الساعاتُ.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ في الكلامِ حذفٌ أيْ إلى جنةِ الرحمنِ، ودارِ كرامتهِ، كقولهِ: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ وكما في الخبرِ «منْ كانتْ هجرتهُ إلى اللهِ ورسولهِ فهجرتهُ إلى اللهِ ورسولهِ». والوفدُ اسمٌ للوافدينَ مثلُ ركبٍ وراكبٍ وصحبٍ وصاحبٍ وهوَ منْ وفدَ يفدُ وفدًا ووفودًا ووفادةً، وفي التفسيرِ: ﴿وَفْدًا﴾ أيْ ركبانًا على نجائبِ طاعتهمْ. وهذا لأنَّ الوافدَ في الغالبِ يكونُ راكبًا والوفدُ الركبانُ ووحدَ لأنهُ مصدرٌ.

لكنهم لا يركبونَ ولا يلبسونَ إلا منَ الموقفِ وأما إذا خرجوا منَ القبورِ فمشاةٌ حفاةٌ عراةٌ غرلًا إلى الموقفِ بدليلِ حديثِ ابنِ عباسٍ قالَ: قامَ فينا رسولُ اللهِ ﷺ بموعظةٍ فقالَ: «يا أيها الناسُ إنكمْ تحشرونَ إلى اللهِ- تعالى- حفاةً عراةً غرلًا» الحديثَ. خرجهُ البخاريُّ ومسلمٌ.

﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ السوقُ الحثُّ على السيرِ. وَ ﴿وِرْدًا﴾ عطاشًا، وقيل: حفاة مشاة. وقيل: أفرادا، وقولهُ: ﴿وِرْدًا﴾ يدلُّ على العطشِ لأنَّ الماءَ إنما يوردُ في الغالبِ للعطشِ. قلتُ: ولا تناقضَ بينَ هذهِ الأقوال فيساقون عطاشا حفاة مشاة أفرادا.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أيْ هؤلاءِ الكفارُ لا يملكونَ الشفاعةَ لأحدٍ ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾ وهمُ المسلمونَ فيملكونَ الشفاعةَ فهوَ استثناءُ الشيءِ منْ غيرِ جنسهِ أيْ لكنْ ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ يشفعُ.

و ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ في قولهِ: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ يعمُّ الكفرةَ والعصاةَ، ثمَّ أخبرَ أنهمْ لا يملكونَ الشفاعةَ إلا العصاةُ المؤمنونَ فإنهمْ يملكونها بأنْ يشفعَ فيهمْ. قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا أزالُ أشفعُ حتى أقولَ يا ربِّ شفعني فيمنْ قالَ لا إلهَ إلا اللهُ محمدٌ رسولُ اللهِ فيقولُ يا محمدُ إنها ليستْ لكَ ولكنها لي» خرجهُ مسلمٌ بمعناهُ. وقدْ تقدمَ.

وتظاهرتِ الأخبارُ بأنَّ أهلَ الفضلِ والعلمِ والصلاحِ يشفعونَ فيُشَفَّعونَ ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ أيْ إذا أذنَ لهُ اللهُ في الشفاعةِ. كما قالَ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا

بِإِذْنِهِۦ﴾. وهذا العهدُ هوَ الذي قالَ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ وهوَ لفظٌ جامعٌ للإيمانِ وجميع الأعمال الصالحاتِ التي يصلُ بها صاحبها إلى حيزِ منْ يشفعُ. وقالَ ابنُ عباسٍ: العهدُ لا إلهَ إلا اللهُ.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ يعني اليهودَ والنصارى، ومنْ زعمَ أنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ. وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ وعاصمٌ وخلفٌ: «وُلْدًا» بضمِّ الواوِ وإسكانِ اللامِ، في أربعةِ مواضعَ: منْ هذهِ السورة قوله تعالى: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ وقد تقدم، وقولهُ: ﴿أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢﴾. وفي سورةِ نوح ﴿مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ﴾، ووافقهمْ في «نوح» خاصةً ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو ويعقوبُ، والباقونَ في الكلِّ بالفتحِ في الواوِ واللامِ وهما لغتانِ مثلَ والعَرَب والعُرْبِ، وقيسٌ يجعلونَ الوُلْدَ بالضمِّ جمعًا والوَلَدَ بالفتحِ واحدًا.

قولهُ تعالى ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩﴾ أيْ منكرًا عظيمًا، والإدُّ والإدةُ الداهيةُ والأمرُ الفظيعُ.

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ قراءةُ العامةِ هنا وفي «الشورى» بالتاءِ. وقراءةُ نافعٍ والكسائيُّ «يَكَادُ» بالياءِ لتقدمِ الفعل ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ أيْ يتشققنَ. وقرأَ نافعٌ وابنُ كثيرٍ وحفصٌ وغيرهمْ: بتاءٍ بعدَ الياءِ وشدِّ الطاءِ منَ التفطرِ هنا وفي «الشورى»، ووافقهمْ حمزةُ وابنُ عامرٍ في «الشورى». وقرأَ هنا «يَنْفَطِرْنَ» منَ الانفطارِ: وكذلكَ قرأها أبو عمرو في السورتينِ. وهيَ اختيارُ أبي عبيدٍ، لقولهِ تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، وقوله: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾، وقوله: ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ أيْ تتصدعُ ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠﴾ قالَ ابنُ عباسٍ: هدمًا أيْ تسقطُ بصوتٍ شديدٍ.

﴿أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١﴾ قالَ محمدُ بنُ كعبٍ: لقدْ كادَ أعداءُ اللهِ أنْ يقيموا علينا الساعةَ لقولهِ تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١﴾.

قالَ ابنُ العربيِّ: وصدقَ فإنهُ قولٌ عظيمٌ سبقَ بهِ القضاءُ والقدرُ ولولا أنَّ الباريَ تباركَ

وتعالى لا يضعهُ كفرُ الكافرِ ولا يرفعهُ إيمانُ المؤمنِ ولا يزيدُ هذا في ملكهِ كما لا ينقصُ ذلكَ منْ ملكه لما جرى شيء منْ هذا على الألسنةِ ولكنهُ القدوسُ الحكيمُ الحليمُ فلمْ يبالِ بعدَ ذلكَ بما يقولُ المبطلونَ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ نفى عنْ نفسهِ سبحانهُ وتعالى الولدُ لأنَّ الولدَ يقتضي الجنسيةَ والحدوثَ على ما بيناهُ في «البقرةِ» أيْ لا يليقُ بهِ ذلكَ ولا يوصفُ بهِ ولا يجوزُ في حقهِ لأنهُ لا يكونُ ولدٌ إلا منْ والدٍ يكونُ لهُ والدٌ وأصلٌ واللهُ سبحانهُ يتعالى عنْ ذلكَ ويتقدسُ.

﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ۝٩٣﴾ ﴿إِن﴾ نافيةٌ بمعنى ما، كما قالَ: ﴿وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ﴾ أيْ صاغرينَ أذلاءَ أيِ الخلقُ كلهمْ عبيدهُ فكيفَ يكونُ واحدٌ منهمْ ولدًا لهُ عزَّ وجلَّ تعالى عما يقولُ الظالمونَ والجاحدونَ علوًا كبيرًا. و ﴿ءَاتِى﴾ بالياءِ في الخطِّ والأصلُ التنوينُ فحذفَ استخفافًا وأضيف.

الثانية: في هذهِ الآيةِ دليلٌ على أنهُ لا يجوزُ أنْ يكونَ الولدُ مملوكًا للوالدِ خلافًا لمنْ قالَ إنهُ يشتريهِ فيملكهُ ولا يعتقُ عليهِ إلا إذا أعتقهُ. وقدْ أبانَ اللهُ تعالى المنافاةَ بينَ الأولادِ والملكِ فإذا ملكَ الوالدُ ولدهُ بنوعٍ منَ التصرفاتِ عتقَ عليهِ. ووجهُ الدليل عليهِ منْ هذهِ الآيةِ أنَّ اللهَ تعالى جعلَ الولديةَ والعبديةَ في طرفيْ تقابلٍ فنفى أحدهما وأثبتَ الآخرَ ولوِ اجتمعا لما كانَ لهذا القولِ فائدةٌ يقعُ الاحتجاجُ بها، وفي الحديثِ الصحيح: «لا يجزي ولدٌ والدًا إلا أنْ يجدهُ مملوكا فيشتريه فيعتقه» خرجه مسلمٌ. فإذا لمْ يملكِ الأبُ ابنهُ معَ مرتبتهِ عليهِ فالابنُ بعدمِ ملكِ الأبِ أولى لقصورهِ عنهُ.

الثالثة: ذهبَ إسحاقُ بنُ راهويهِ في تأويل قولهِ ﷺ: «منْ أعتقَ شركًا لهُ في عبدٍ» أنَّ المرادَ بهِ ذكورُ العبيدِ دونَ إناثهمْ فلا يكملُ على منْ أعتقَ شركًا في أنثى وهوَ على خلافِ ما ذهبَ إليهِ الجمهورُ منَ السلفِ ومنْ بعدهمْ فإنهمْ لمْ يفرقوا بينَ الذكرِ والأنثى لأنَّ لفظَ العبدِ يرادُ بهِ الجنسُ كما قالَ تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا﴾ فإنه

قد يتناول الذكر والأنثى من العبيد قطعا. وتمسك إسحاق بأنه قد حكيَ عبدةٌ في المؤنثِ.

الرابعة: روى البخاريُّ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ «يقولُ اللهُ تباركَ وتعالى كذّبني ابنُ آدمَ ولمْ يكنْ لهُ ذلكَ وشتمني ولمْ يكنْ لهُ ذلكَ فأما تكذيبهُ إيايَ فقولهُ ليسَ يعيدني كما بدأني وليسَ أولُ الخلقِ بأهونَ عليَّ منْ إعادتهِ وأما شتمهُ إيايَ فقولهُ اتخذَ اللهُ ولدًا وأنا الأحدُ الصمدُ لمْ يلدْ ولمْ يولدْ ولمْ يكنْ لي كفوًا أحدٌ» وقدْ تقدمَ في البقرةِ وغيرها وإعادتهُ في مثلِ هذا الموضع حسن جدا.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ﴾ أيْ علمَ عددهمْ ﴿وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ٩٤﴾ تأكيدٌ أيْ فلا يخفى عليهِ أحدٌ منهمْ.

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ٩٥﴾ أيْ واحدًا لا ناصرَ لهُ ولا مال معه لينفعه كما قالَ تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾ فلا ينفعهُ إلا ما قدمَ منْ عمل وقال: ﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ﴾ على لفظ وعلى المعنى آتوهُ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أيْ صدقوا. ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾ أيْ حبًا في قلوبِ عبادهِ، وكانَ هرمُ بنُ حيانَ يقولُ: ما أقبلَ أحدٌ بقلبهِ على اللهِ تعالى إلا أقبلَ اللهُ تعالى بقلوبِ أهلِ الإيمانِ إليهِ حتى يرزقهُ مودتهمْ ورحمتهمْ.

وقيل: يجعلُ اللهُ تعالى لهمْ مودةً في قلوبِ المؤمنينَ والملائكةِ يومَ القيامةِ.

قلتُ: إذا كانَ محبوبًا في الدنيا فهوَ كذلكَ في الآخرةِ فإنَّ اللهَ تعالى لا يحبُّ إلا مؤمنًا تقيًا ولا يرضى إلا خالصًا نقيًا جعلنا اللهُ تعالى منهمْ بمنهِ وكرمهِ.

روى مسلمٌ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ تعالى إذا أحبَّ عبدًا دعا جبريلَ عليه السلام فقالَ إني أحبُّ فلانًا فأحبهُ فيحبهُ جبريلُ ثمَّ ينادي في السماءِ فيقولُ إنَّ اللهَ يحبُّ فلانًا فأحبوهُ فيحبهُ أهلُ السماءِ- قالَ- ثمَّ يوضعُ لهُ القبولُ في الأرضِ وإذا أبغضَ عبدًا دعا جبريلَ عليه السلام فيقولُ إني أبغضُ فلانًا فأبغضهُ قالَ فيبغضهُ جبريلُ ثمَّ ينادي في أهلِ السماءِ إنَّ اللهَ يبغضُ فلانًا فأبغضوهُ- قالَ- فيبغضونهُ ثمَّ توضع له البغضاء في الأرض».

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ أيِ القرآنَ يعني بيناهُ بلسانكَ العربيِّ وجعلناهُ سهلًا على منْ تدبرهُ وتأملهُ ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي المؤمنين ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ٩٧﴾ اللدُّ جمعُ الألدِّ وهوَ الشديدُ الخصومةِ ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾ أيْ منْ أمةٍ وجماعةٍ منَ الناسِ يخوفُ أهلَ مكةَ ﴿هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ٩٨﴾ في موضعِ نصبٍ أي هل ترى منهم أحدو تجدُ. ﴿أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ٩٨﴾ أيْ صوتًا أيْ قدْماتوا وحصلوا أعمالهمْ. وقيل: حسًا، وقيل: الركزُ ما لا يفهمُ منْ صوتٍ أوْ حركةٍ.

سورة طه

مكيةٌ في قولِ الجميعِ. نزلتْ قبلَ إسلامِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. روى الدارقطنيُّ في سننهِ عنْ أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ خرجَ عمرُ متقلدًا بسيفٍ فقيلَ لهُ إن ختنك وأختك قدْ صبوا فأتاهما عمرُ وعندهما رجلٌ منَ المهاجرينَ يقالُ لهُ: خبابٌ وكانوا يقرءونَ: ﴿طه﴾. فقال: أعطوني الكتاب الذي عندكم فأقرؤه- وكانَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقرأُ الكتبَ- فقالت له أخته: إنك رجس ولا يمسهُ إلا المطهرونَ فقمْ فاغتسلْ أوْ توضأْ فقامَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وتوضأَ وأخذَ الكتابَ فقرأَ: ﴿طه﴾. وذكرهُ ابنُ إسحاقَ مطولًا.

بسم الله الرحمن الرحيم

قولهُ تعالى: ﴿طه ۝١﴾ اختلفَ العلماءُ في معناهُ فقالَ ابنُ عباسٍ معناهُ يا رجلُ ذكرهُ البيهقيُّ. وقيل: إنها لغةٌ معروفةٌ.

وقيل: هوَ اسمٌ منْ أسماءِ اللهِ تعالى وقسمٌ أقسمَ بهِ، وقيل: هوَ اسمٌ للنبيِّ ﷺ سماهُ اللهُ تعالى بهِ كما سماهُ محمدًا. وقيل: هوَ اسمٌ للسورةِ ومفتاحٌ لها. وقيل: إنهُ اختصارٌ منْ كلامِ اللهِ خصَّ اللهُ تعالى رسولهُ بعلمهِ. وقيل: إنها حروفٌ مقطعةٌ يدلُّ كلُّ حرفٍ منها على معنى.

وأمالَ أبو عمرو الهاءَ وفتحَ الطاءَ، وأمالهما جميعًا حمزةُ والكسائيُّ، وقرأهما أبو جعفرٍ ونافعٌ بينَ اللفظينِ والباقونَ بالتفخيمِ. قالَ الثعلبيُّ: وهيَ كلها لغات صحيحة فصيحة.

قولهُ تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾ أي: «لتتعبَ» بفرطِ تأسفكَ عليهمْ وعلى كفرهمْ وتحسركَ على أنْ يؤمنوا كقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣﴾ أيْ ما أنزلناهُ إلا تذكرةً. ﴿تَنزِيلٗا﴾ مصدرٌ أيْ نزلناهُ تنزيلًا ﴿مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝٤﴾ أي العالية الرفيعة وهي جمع العليا، ثم قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ ويجوزُ النصبُ على المدحِ. والرفعُ بمعنى هوَ الرحمنُ ويجوزُ الرفعُ بالابتداءِ، والخبرِ: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾

فلا يوقفُ على ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾، وقدْ تقدمَ القولُ في معنى الاستواءِ في «الأعرافِ» والذي ذهبَ إليهِ الشيخُ أبو الحسنِ وغيرهُ أنهُ مستوٍ على عرشهِ بغيرِ حدٍّ ولا كيفٍ، وقالَ ابنُ عباسٍ يريدُ خلقَ ما كانَ وما هوَ كائنٌ إلى يومِ القيامةِ وبعدَ القيامةِ ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾ يريدُ ما تحتَ الصخرةِ التي لا يعلمُ ما تحتها إلا اللهُ تعالى، وهيَ التي قالَ اللهُ تعالى فيها: ﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ قالَ ابنُ عباسٍ: السرُّ ما حدثَ بهِ الإنسانُ غيرهُ في خفاءٍ وأخفى منهُ ما أضمرَ في نفسهِ مما لمْ يحدثْ بهِ غيرهُ. وعنهُ أيضًا السرُّ حديثُ نفسكَ وأخفى منَ السرِّ ما ستحدثُ بهِ نفسكَ مما لمْ يكنْ وهوَ كائنٌ أنتَ تعلمُ ما تسرُّ بهِ نفسكَ اليومَ ولا تعلمُ ما تسرُّ بهِ غدًا واللهُ يعلمُ ما أسررتَ اليومَ وما تسرهُ غدًا.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾ ﴿ٱللَّهُ﴾ رفعَ بالابتداءِ أوْ على إضمارِ مبتدإٍ أوْ على البدلِ منَ الضميرِ في ﴿يَعْلَمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩﴾ قالَ أهلُ المعاني: هوَ استفهامٌ وإثباتٌ ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾ كانتْ عندَ موسى نارًا: وكانتْ عندَ اللهِ تعالى نورًا، وقالَ: ﴿ٱمْكُثُوٓا۟﴾ ولمْ يقلْ أقيموا، لأنَّ الإقامةَ تقتضي الدوامَ، والمكثُ ليسَ كذلك. و ﴿ءَانَسْتُ﴾ أبصرتُ، ومنهُ قولهُ: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ أيْ علمتمْ. وآنستُ الصوتَ سمعتهُ، والقبسُ شعلةٌ من نار، ﴿هُدًى﴾ أي هاديًا.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ يعني النارَ ﴿نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾. قرأَ العامةُ: ﴿إِنِّى﴾ بالكسرِ، أيْ نوديَ فقيلَ لهُ يا موسى إني، وقرأَ أبو عمرو وابنُ كثيرٍ «أَنِّي» بفتحِ الألفِ بإعمالِ النداءِ.

قوله تعالى: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: اختلفَ العلماءُ في السببِ الذي منْ أجلهِ أمرَ بخلعِ النعلينِ. والخلعُ النزعُ. والنعلُ ما جعلتهُ وقايةً لقدميكَ منَ الأرضِ. فقيلَ: أمرَ بطرحِ النعلينِ لأنها نجسةٌ إذْ هيَ من

جلدٍ غيرِ مذكى، وقيل: أمرَ بذلكَ لينالَ بركةَ الوادي المقدسِ، وتمسَّ قدماهُ تربةَ الوادي، وقيل: أمرَ بخلعِ النعلينِ للخشوعِ والتواضعِ عندَ مناجاةِ اللهِ تعالى، وكذلكَ فعلَ السلفُ حينَ طافوا بالبيتِ. وقيل: إعظامًا لذلكَ الموضعِ كما أنَّ الحرمَ لا يدخلُ بنعلينِ إعظامًا لهُ.

والعرفُ عندَ الملوكِ أنْ تخلعَ النعالُ ويبلغَ الإنسانُ إلى غايةِ التواضعِ، فكأنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أمرَ بذلكَ على هذا الوجهِ.

الثانية: في صحيحِ مسلمٍ عنْ سعيدِ بن يزيد قال: قلت لأنسٍ أكانَ رسولَ اللهِ ﷺ يصلي في نعلينِ قالَ: نعمْ. ورواهُ النسائي عن عبد الله ابن السائبِ: أنَّ النبيَّ ﷺ يومَ الفتحِ فوضعَ نعليهِ عنْ يسارهِ. وروى أبو داودَ منْ حديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: بينما رسولُ اللهِ ﷺ يصلي بأصحابهِ، إذْ خلعَ نعليهِ فوضعهما عنْ يسارهِ، فلما رأى ذلكَ القومُ ألقوا نعالهمْ، فلما قضى رسولُ اللهِ ﷺ الصلاة قالَ: «ما حملكمْ على إلقائكمْ نعالكمْ» قالوا: رأيناكَ ألقيتَ نعليكَ فألقينا نعالنا. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ جبريلَ أتاني فأخبرني أنَّ فيهما قذرًا» وقالَ: «إذا جاءَ أحدكمُ المسجدَ فلينظرْ فإنْ رأى في نعليهِ قذرًا أوْ أذى فليمسحهُ وليصلِّ فيهما». صححهُ أبو محمدٍ عبدُ الحقِّ. وهوَ يجمعُ بينَ الحديثينِ قبلهُ، ويرفعُ بينهما التعارضَ.

ولمْ يختلفِ العلماءُ في جوازِ الصلاةِ في النعلِ إذا كانتْ طاهرةً منْ ذكيٍّ، حتى لقدْ قالَ بعضُ العلماءِ: إنَّ الصلاةَ فيهما أفضلُ، وهوَ معنى قوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٍ﴾ على ما تقدمَ.

الثالثة: فإنْ خلعتهما فاخلعهما بينَ رجليكَ، فإنَّ أبا هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إذا صلى أحدكمْ فليخلع نعليه بين رجليه». وقال أبو هريرةَ للمقبريِّ: اخلعهما بينَ رجليكَ ولا تؤذِ بهما مسلمًا. وما رواهُ عبدُ اللهِ بنُ السائبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنهُ ﷺ خلعهما عنْ يسارهِ فإنهُ كانَ إمامًا، فإنْ كنتَ إمامًا أوْ وحدكَ فافعلْ ذلكَ إنْ أحببتَ، وإنْ كنتَ مأمومًا في الصفِّ فلا تؤذِ بهما منْ على يساركَ، ولا تضعهما بينَ قدميكَ فتشغلاكَ، ولكنْ قدامَ قدميكَ.

الرابعة: فإنْ تحققَ فيهما نجاسةٌ مجمعٌ على تنجيسها كالدمِ والعذرةِ منْ بولِ بني آدمَ لمْ يطهرها إلا الغسلُ بالماءِ، عندَ مالكٍ والشافعيِّ وأكثرِ العلماءِ، وإنْ كانتِ النجاسةُ مختلفًا فيها كبولِ الدوابِ وأرواثها الرطبةِ فهلْ يطهرها المسحُ بالترابِ منَ النعلِ والخفِّ أوْ لا؟

قولانِ عندنا. وقال أبو حنيفةَ: يزيلهُ إذا يبسَ الحكُّ والفركُ، ولا يزيلُ رطبهُ إلا الغسلُ ما عدا البولَ فلا يجزئُ فيهِ عندهُ إلا الغسلُ. وقالَ الشافعيُّ: لا يطهرُ شيئًا منْ ذلكَ كله إلا الماءُ. والصحيحُ قولُ منْ قالَ: إنَّ المسحَ يطهرهُ منَ الخفِّ والنعلِ، لحديثِ أبي سعيدٍ. فأما لوْ كانتِ النعلُ والخفُّ منْ جلدِ ميتةٍ فإنْ كانَ غيرَ مدبوغٍ فهوَ نجسٌ باتفاقٍ.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ المقدسُ: المطهرُ. والقدسُ: الطهارةُ، والأرضُ المقدسةُ أيِ المطهرةُ، سميتْ بذلكَ لأنَّ اللهَ تعالى أخرجَ منها الكافرينَ وعمرها بالمؤمنينَ. وقدْ جعلَ اللهُ تعالى لبعضِ الأماكنِ زيادةَ فضلٍ على بعضٍ، كما قدْ جعلَ لبعضِ الأزمانِ زيادةَ فضلٍ على بعضٍ، ولبعضِ الحيوانِ كذلكَ. وللهِ أنْ يفضلَ ما شاءَ. وعلى هذا فلا اعتبارَ بكونهِ مقدسًا بإخراجِ الكافرينَ وإسكانِ المؤمنينَ، فقدْ شاركهُ في ذلكَ غيرهُ. وَ ﴿طُوًى﴾ اسمُ الوادي، وقيل: وادٍ عميقٌ مستديرٌ مثلُ الطويِّ.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ أيِ اصطفيتكَ للرسالةِ. وقرأَ أهلُ المدينةِ وأبو عمرو وعاصمٌ والكسائيُّ ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾. وقرأَ حمزةُ «وَأَنَّا اخْتَرْنَاكَ». والمعنى واحد إلا أن ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ ها هنا أولى منْ جهتينِ:

إحداهما: أنها أشبهُ بالخطِّ، والثانيةُ: أنها أولى بنسقِ الكلامِ، لقولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ ١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ وعلى هذا النسقِ جرتِ المخاطبةُ.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣﴾، فيهِ مسألةٌ واحدةٌ- حسنُ الاستماعِ كما يجبُ وقدْ مدحَ اللهُ عليهِ فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ وذمَّ على خلافِ هذا الوصفِ فقالَ: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ الآيةَ. فمدحَ المنصتَ لاستماعِ كلامهِ معَ حضورِ العقلِ، وأمرَ عبادهُ بذلكَ أدبًا لهمْ، فقالَ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾، فيهِ سبعُ مسائلَ:

الأولى: اختلفَ في تأويلِ قولهِ: ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾ فقيلَ: يحتملُ أنْ يريدَ لتذكرني فيها، أوْ يريدَ لأذكركَ بالمدحِ في عليينَ بها، فالمصدرُ على هذا يحتملُ الإضافةَ إلى الفاعلِ وإلى المفعولِ. وقيل: المعنى، أيْ حافظْ بعدَ التوحيدِ على الصلاةِ. وهذا تنبيهٌ على عظمِ قدرِ الصلاةِ إذْ هيَ تضرعٌ إلى اللهِ تعالى، وقيامٌ بينَ يديهِ، وعلى هذا فالصلاةُ هيَ الذكرُ. وقدْ سمى اللهُ تعالى الصلاةَ ذكرًا في قولهِ: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾. وقيل: المرادُ إذا نسيتَ فتذكرتَ فصلِّ كما في الخبرِ «فليصلها إذا ذكرها». أيْ لا تسقطِ الصلاةَ بالنسيانِ.

الثانية: روى مالكٌ وغيرهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «منْ نامَ عنْ صلاةٍ أوْ نسيها فليصلها إذا ذكرها فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾، فقولهُ: «فليصلها إذا ذكرها» دليلٌ على وجوبِ القضاءِ على النائمِ والغافلِ، كثرتِ الصلاةُ أوْ قلتْ، وهوَ مذهبُ عامةِ العلماءِ وقدْ حكيَ خلافٌ شاذٌّ لا يعتدُّ بهِ، لأنهُ مخالفٌ لنصِّ الحديثِ عنْ بعضِ الناسِ فيما زادَ على خمسِ صلواتٍ أنهُ لا يلزمهُ قضاءٌ.

قلتُ: أمرَ اللهُ تعالى بإقامةِ الصلاةِ، ونصَّ على أوقاتٍ معينةٍ، فقالَ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ الآيةَ وغيرها منَ الآيِ. ومنْ أقامَ بالليلِ ما أمرَ بإقامتهِ بالنهارِ، أوْ بالعكسِ لمْ يكنْ فعلهُ مطابقًا لما أمرَ بهِ، ولا ثوابَ لهُ على فعلهِ وهوَ عاصٍ، وعلى هذا الحدِّ كانَ لا يجبُ عليهِ قضاءُ ما فاتَ وقتهُ. ولولا قولهُ ﷺ: «منْ نامَ عنْ صلاةٍ أوْ نسيها فليصلها إذا ذكرها» لمْ ينتفعْ أحدٌ بصلاةٍ وقعتْ في غيرِ وقتها، وبهذا الاعتبارِ كانَ قضاءً لا أداءً، لأنَّ القضاءَ بأمرٍ متجددٍ وليسَ بالأمرِ الأولِ.

الثالثة: فأما منْ تركَ الصلاةَ متعمدًا، فالجمهورُ أيضًا على وجوبِ القضاءِ عليهِ، وإنْ كانَ عاصيًا إلا داودَ، والفرقُ بينَ المتعمدِ والناسي والنائمِ، حطُّ المأثمِ، فالمتعمدُ مأثومٌ وجميعهمْ قاضونَ. والحجةُ للجمهورِ قولهُ تعالى: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ولمْ يفرقْ بينَ أنْ يكونَ في وقتها أو بعدها. هو أمرٌ يقتضي الوجوبَ. وأيضًا فقدْ ثبتَ الأمرُ بقضاءِ النائمِ والناسي، معَ أنهما غيرُ مأثومينِ، فالعامدُ أولى. وأيضًا قولهُ: «منْ نامَ عنْ صلاةٍ أوْ نسيها»

والنسيانُ التركُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ﴾، و ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ﴾ سواءٌ كانَ معَ ذهولٍ أوْ لمْ يكنْ، لأنَّ اللهَ تعالى لا ينسى. وإنما معناهُ تركهمْ. وَ ﴿۞مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ أيْ نتركها. وكذلكَ الذكرُ يكونُ بعدَ نسيانٍ وبعدَ غيرهِ. قالَ اللهُ تعالى: «منْ ذكرني في نفسهِ ذكرتهُ في نفسي» وهوَ تعالى لا ينسى فيكون ذكره بعد نسيان وإنما معناهُ علمتُ. فكذلكَ يكونُ معنى قولهِ: «إذا ذكرها» أيْ علمها. وأيضًا فإنَّ الديونَ التي للآدمين إذا كانتْ متعلقةً بوقتٍ، ثمَّ جاءَ الوقتُ لمْ يسقطْ قضاؤها بعدَ وجوبها، وهيَ مما يسقطها الإبراءُ كانَ في ديونِ اللهِ تعالى ألا يصحُّ فيها الإبراءُ أولى ألا يسقطَ قضاؤها إلا بإذنٍ منهُ. وأيضًا فقدِ اتفقنا أنهُ لوْ تركَ يومًا منْ رمضانَ متعمدًا بغيرِ عذرٍ لوجبَ قضاؤهُ فكذلكَ الصلاةُ.

الرابعة: قولهُ ﷺ: «منْ نامَ عنْ صلاةٍ أوْ نسيها» الحديثُ يخصصُ عمومَ قولهِ ﷺ: «رفعَ القلمُ عنْ ثلاثةٍ عن النائم حتى يستيقظ»، والمرادُ بالرفعِ هنا رفعُ المأثمِ لا رفعُ الفرضِ عنهُ، وليسَ هذا منْ بابِ قولهِ: «وعنِ الصبيِّ حتى يحتلمَ» وإنْ كانَ ذلكَ جاءَ في أثرٍ واحدٍ، فقفْ على هذا الأصلِ.

الخامسة: اختلفَ العلماءُ في هذا المعنى فيمنْ ذكرَ صلاةً فائتةً وهوَ في آخرِ وقتِ صلاةٍ، أوْ ذكرَ صلاةً وهوَ في صلاةٍ، فجملةُ مذهبِ مالكٍ: أنَّ منْ ذكرَ صلاةً وقدْ حضرَ وقتُ صلاةٍ أخرى، بدأَ بالتي نسيَ إذا كانَ خمسُ صلواتٍ فأدنى، وإنْ فاتَ وقتُ هذهِ. وإنْ كانَ أكثرَ منْ ذلكَ بدأَ بالتي حضرَ وقتها، وعلى نحوِ هذا مذهبُ أبي حنيفةَ إلا أنَّ أبا حنيفةَ وأصحابهُ قالوا: الترتيبُ عندنا واجبٌ في اليومِ والليلةِ إذا كانَ في الوقتِ سعةٌ للفائتةِ ولصلاةِ الوقتِ. فإنْ خشيَ فواتَ الوقتِ بدأَ بها، فإنْ زادَ على صلاةِ يومٍ وليلةٍ لمْ يجبِ الترتيبُ عندهمْ. وقالَ الشافعيُّ: الاختيارُ أنْ يبدأَ بالفائتةِ ما لمْ يخفْ فواتَ هذهِ، فإنْ لمْ يفعلْ وبدأَ بصلاةِ الوقتِ أجزأهُ. وذكرَ الأثرمُ أنَّ الترتيبَ عندَ أحمدَ واجبٌ في صلاةِ ستينَ سنةً فأكثرُ. وقالَ: لا ينبغي لأحدٍ أنْ يصليَ صلاةً وهوَ ذاكرٌ لما قبلها لأنها تفسدُ عليهِ.

والصحيحُ ما رواهُ أهلُ الصحيحِ عنْ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ: أنَّ عمرَ يومَ الخندقِ جعلَ يسبُّ كفارَ قريشٍ، وقالَ: يا رسولَ اللهِ واللهِ ما كدتُ أنْ أصليَ العصرَ حتى كادتِ الشمسُ تغربُ،

فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «فواللهِ إنْ صليتها» فنزلنا البطحانَ فتوضأَ رسولُ اللهِ ﷺ. وتوضأنا فصلى رسولُ اللهِ ﷺ العصرَ بعدَ ما غربتِ الشمسُ، ثمَّ صلى بعدها المغربَ. وهذا نصٌّ في البداءةِ بالفائتةِ قبلَ الحاضرةِ، ولا سيما والمغربُ وقتها واحدٌ مضيقٌ غيرُ ممتدٍّ في الأشهرِ عندنا وعندَ الشافعيِّ كما تقدمَ.

وروى الترمذيُّ عنْ أبي عبيدةَ بن عبد الله ابن مسعود عن أبيهِ: أنَّ المشركينَ شغلوا رسولَ اللهِ ﷺ عنْ أربعِ صلواتٍ يومَ الخندقِ، حتى ذهبَ منَ الليلِ ما شاءَ اللهُ تعالى، فأمرَ بالأذانِ بلالًا فقامَ فأذنَ، ثمَّ أقامَ فصلى الظهرَ، ثمَّ أقامَ فصلى العصرَ، ثمَّ أقامَ فصلى المغربَ، ثمَّ أقامَ فصلى العشاءَ. وبهذا استدلَّ العلماءُ على أنَّ من فاتته صلوات، قضاها مرتبةً كما فاتتهُ إذا ذكرها في وقتٍ واحدٍ. واختلفوا إذا ذكرَ فائتةً في مضيقِ وقتِ حاضرةٍ على ثلاثةِ أقوالٍ:

الأول: يبدأُ بالفائتةِ وإنْ خرجَ وقتَ الحاضرةِ، وبهِ قالَ مالكٌ.

الثاني- يبدأُ بالحاضرةِ وبهِ قال الشافعيُّ.

الثالثُ- يتخيرُ فيقدمُ أيتهما شاءَ، وبهِ قالَ أشهبُ.

وجهُ الأولِ: كثرةُ الصلواتِ ولا خلافَ أنهُ يبدأُ بالحاضرةِ معَ الكثرةِ. واختلفوا في مقدارِ اليسيرِ، فعنْ مالكٍ: الخمسُ فدونَ، وقدْ قيلَ: الأربعُ فدونَ لحديثِ جابرٍ، ولمْ يختلفِ المذهبُ أنَّ الستَّ كثيرٌ.

السادسة: وأما منْ ذكرَ صلاةً وهوَ في صلاةٍ، فإنْ كانَ وراءَ الإمام فكلُّ منْ قالَ بوجوبِ الترتيبِ ومنْ لمْ يقلْ بهِ يقول يتمادى معَ الإمام حتى يكملَ صلاتهُ. والأصلُ في هذا ما رواهُ مالكٌ والدارقطنيُّ عنِ ابنِ عمرَ قالَ: «إذا نسيَ أحدكمْ صلاةً فلمْ يذكرها إلا وهوَ معَ الإمامِ فليصلِّ معَ الإمامِ فإذا فرغَ منْ صلاتهِ فليصلِّ الصلاةَ التي نسيَ ثمَّ ليعدْ صلاتهُ التي صلى معَ الإمامِ» لفظُ الدارقطنيِّ.

ثمَّ اختلفوا، فقالَ أبو حنيفةَ وأحمدُ بنُ حنبلٍ: يصلي التي ذكرَ، ثمَّ يصلي التي صلى معَ الإمامِ إلا أنْ يكونَ بينهما أكثرُ منْ خمسِ صلواتٍ، على ما قدمنا ذكرهُ عنِ الكوفيينَ. وهوَ

مذهبُ جماعةٍ منْ أصحابِ مالك المدنيين. وذكر الخرقي عن أحمدَ بنِ حنبلٍ أنهُ قالَ: منْ ذكرَ صلاةً وهوَ في أخرى فإنهُ يتمها ويقضي المذكورةَ، وأعادَ التي كانَ فيها إذا كانَ الوقتُ واسعًا فإنْ خشيَ خروجَ الوقتِ وهوَ فيها أعتقدُ ألا يعيدها، وقدْ أجزأتهُ ويقضي التي عليهِ.

وقالَ مالكٌ: منْ ذكرَ صلاةً وهوَ في صلاةٍ قدْ صلى منها ركعتينِ سلم من ركعتين، فإنْ كانَ إمامًا انهدمتْ عليهِ وعلى منْ خلفهُ وبطلتْ. هذا هوَ الظاهرُ منْ مذهبِ مالكٍ، وليسَ عندَ أهلِ النظرِ منْ أصحابهِ كذلكَ، لأنَّ قولهُ فيمنْ ذكرَ صلاةً في صلاةٍ قدْ صلى منها ركعةً أنهُ يضيفُ إليها أخرى ويسلمُ. ولوْ ذكرها في صلاةٍ قدْ صلى منها ثلاثَ ركعاتٍ أضافَ إليها رابعةً وسلمَ، وصارتْ نافلةً غيرَ فاسدةٍ ولوِ انهدمتْ عليهِ كما ذكرَ وبطلتْ لمْ يؤمرْ أنْ يضيفَ إليها أخرى، كما لوْ أحدثَ بعدَ ركعةٍ لمْ يضفْ إليها أخرى.

السابعة: روى مسلمٌ عنْ أبي قتادةَ قالَ: خطبنا رسولِ اللهِ ﷺ فذكرَ حديثَ الميضأةِ بطولهِ، وقالَ فيهِ ثمَّ قالَ: «أما لكمْ فيَّ أسوةٌ» ثمَّ قالَ: «أما إنهُ ليسَ في النومِ تفريطٌ إنما التفريطُ على من لم يصل الصلاة حتى يجيءَ وقتُ الصلاةِ الأخرى فمنْ فعلَ ذلكَ فليصلها حينَ يتنبهُ لها فإذا كانَ الغدُ فليصلها عندَ وقتها»، فظاهرهُ يقتضي إعادةَ المقضيةِ مرتينِ عندَ ذكرها وحضورِ مثلها منَ الوقتِ الآتي، ويعضدُ هذا الظاهر ما أخرجه أبو داودَ منْ حديثِ عمرانَ بنِ حصينٍ، وذكرَ القصةَ وقالَ في آخرها: «فمنْ أدركَ منكمْ صلاةَ الغداةِ منْ غدٍ صالحًا فليقضِ معها مثلها».

قلتُ: وهذا ليسَ على ظاهرهِ، ولا تعادُ غيرَ مرةٍ واحدةٍ، لما رواهُ الدارقطني عن عمران ابن حصينٍ قالَ: سرينا معَ رسولِ اللهِ ﷺ في غزاةٍ - أوْ قالَ في سريةٍ - فلما كانَ وقتُ السحرِ عرسنا، فما استيقظنا حتى أيقظنا حرُّ الشمسِ، فجعلَ الرجلُ منا يثبُ فزعًا دهشًا، فلما استيقظَ رسولُ اللهِ ﷺ أمرنا فارتحلنا، ثمَّ سرنا حتى ارتفعتِ الشمسُ، فقضى القومُ حوائجهمْ، ثمَّ أمرَ بلالًا فأذنَ فصلينا ركعتينِ، ثمَّ أمرهُ فأقامَ فصلينا الغداةَ، فقلنا: يا نبيَّ اللهِ ألا نقضيها لوقتها منَ الغدِ؟ فقالَ لهمْ رسولُ اللهِ ﷺ «أينهاكمُ اللهُ عنِ الربا ويقبلهُ منكمْ».

وقالَ الخطابيُّ: لا أعلمُ أحدًا قالَ بهذا وجوبًا، ويشبهُ أنْ يكونَ الأمرُ بهِ استحبابًا ليحرزَ فضيلةَ الوقتِ في القضاءِ. والصحيحُ تركُ العملِ لقولهِ ﷺ: «أينهاكمُ اللهُ عنِ الربا ويقبلهُ

منكمْ» ولأنَّ الطرقَ الصحاحَ منْ حديثِ عمرانَ بنِ حصينٍ ليسَ فيها منْ تلكَ الزيادةِ شيء، إلا ما ذكرَ منْ حديثِ أبي قتادةَ وهوَ محتملٌ كما بيناهُ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥﴾ آية مشكلة، فروي عنْ سعيدِ بنِ جبيرٍ أنهُ قرأَ: ﴿أَكَادُ أَخۡفِيهَا﴾ بفتحِ الهمزةِ، قالَ: أظهرها. ﴿لِتُجۡزَىٰ﴾ أي الإظهارُ للجزاءِ، وتفسيرٌ للآيةِ آخرُ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ﴾ انقطعَ الكلامُ على ﴿أَكَادُ﴾ وبعدهُ مضمرٌ أكادُ آتي بها، والابتداءُ ﴿أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ﴾. وقالَ ابنُ عباسٍ وأكثرُ المفسرينَ: أنَّ المعنى أكادُ أخفيها منْ نفسي، وهذا محمولٌ على أنهُ جاءَ على ما جرتْ بهِ عادةُ العربِ في كلامها، منْ أنَّ أحدهمْ إذا بالغَ في كتمانِ الشيءِ قالَ: كدتُ أخفيهِ منْ نفسي، واللهُ تعالى لا يخفي عليه شيء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ١٨﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ﴾ قيلَ: كانَ هذا الخطابُ منَ اللهِ تعالى لموسى وحيًا، لأنهُ قالَ: ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾، ولا بدَّ للنبيِّ في نفسهِ منْ معجزةٍ يعلمُ بها صحةَ نبوةِ نفسهِ، فأراهُ في العصا وفي نفسهِ ما أراهُ لذلكَ. ويجوزُ أنْ يكونَ ما أراهُ في الشجرةِ آيةً كافيةً لهُ في نفسهِ، ثمَّ تكونُ اليدُ والعصا زيادةَ توكيدٍ، وبرهانًا يلقى بهِ قومهُ، ومقصودُ السؤالِ تقريرُ الأمرِ حتى يقولَ موسى: هيَ عصاي، لتثبت الحجةَ عليهِ بعدَ ما اعترفَ، وإلا فقدْ علمَ اللهُ ما هيَ في الأزلِ.

الثانية: في هذهِ الآيةِ دليلٌ على جوابِ السؤالِ بأكثرَ مما سئلَ، لأنهُ لما قالَ: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ ذكرَ معانيَ أربعةً: وهيَ: إضافةُ العصا إليهِ، وكانَ حقهُ أنْ يقولَ عصًا، والتوكؤَ، والهشَّ والمآربَ المطلقةَ. فذكرَ موسى منْ منافعِ عصاهُ عظمها وجمهورها وأجملَ سائرَ ذلكَ. وفي الحديثِ سئلَ النبيُّ ﷺ عنْ ماءِ البحرِ فقالَ: «هوَ الطهورُ ماؤهُ الحلُّ ميتتهُ». وسألتهُ امرأةٌ عنِ الصغيرِ حينَ رفعتهُ إليهِ فقالتْ: ألهذا حجٌّ؟ قالَ «نعمْ ولكِ أجرٌ». ومثلهُ في الحديث كثير.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا﴾ أيْ أتحاملُ عليها في المشي والوقوفِ، ومنهُ الاتكاءُ ﴿وَأَهُشُّ بِهَا﴾ أيْ أخبطُ بها الورقَ، أيْ أضربُ أغصانَ الشجرِ ليسقطَ ورقها، فيسهلُ على غنمي تناولهُ فتأكله، والأصلُ في الكلمةِ الرخاوةُ. يقالُ رجلٌ هشٌّ وزوجٌ هشٌّ.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ أيْ حوائجُ. واحدها مأرُبةٌ ومأرَبةٌ ومأرِبةٌ. وقالَ: ﴿أُخْرَىٰ﴾ على صيغةِ الواحدِ، لأنَّ مآربَ في معنى الجماعةِ، لكنَّ المهيعَ في توابعِ جمعِ ما لا يعقلُ الإفرادُ والكنايةُ عنهُ بذلكَ.

الخامسة: تعرّضَ قومٌ لتعديدِ منافعِ العصا قالَ الحسنُ البصريُّ: فيها ستُّ خصالٍ: سنةٌ للأنبياءِ، وزينةُ الصلحاءِ، وسلاحٌ على الأعداءِ، وعونٌ للضعفاءِ، وغمُّ المنافقينَ، وزيادةٌ في الطاعاتِ. ولقيَ الحجاجُ أعرابيًا فقالَ: منْ أينَ أقبلتَ يا أعرابيُّ؟ قالَ: منَ الباديةِ. قالَ: وما في يدكَ؟ قالَ: عصايَ أركزها لصلاتي، وأعدها لعداتي، وأسوقُ بها دابتي، وأقوى بها على سفري، وأعتمدُ بها في مشيتي لتتسعَ خطوتي، وأثبُ بها النهرَ، وتؤمنني منَ العثرِ، وألقي عليها كسائي فيقيني الحرَّ، ويدفئني منَ القرِّ، وتدني إليَّ ما بعدَ مني، وهيَ محملُ سفرتي، وعلاقةُ إداوتي، أعصي بها عندَ الضرابِ، وأقرعُ بها الأبوابَ، وأتقي بها عقورَ الكلابِ، وتنوبُ عنِ الرمحِ في الطعانِ، وعنِ السيفِ عندَ منازلةِ الأقرانِ، ورثتها عنْ أبي، وأورثها بعدي ابني، وأهشُّ بها على غنمي، وليَ فيها مآربُ أخرى، كثيرةٌ لا تحصى.

قلتُ: منافعُ العصا كثيرةٌ، ولها مدخلٌ في مواضعَ منَ الشريعةِ: منها أنها تتخذُ قبلةً في الصحراءِ، وقدْ كانَ للنبيِّ ﷺ عنزةٌ تركزُ لهُ فيصلي إليها، وكان إذا خرج يوم العيد أمر بالحربةِ فتوضعُ بينَ يديهِ فيصلي إليها، وذلكَ ثابتٌ في الصحيح. والحربةُ والعنزةُ والنيزكُ والآلةُ أسماء لمسمى واحدٍ. وكانَ لهُ محجنٌ وهوَ عصا معوجةُ الطرفِ يشيرُ بهِ إلى الحجرِ إذا لمْ يستطعْ أنْ يقبلهُ، ثابتٌ في الصحيحِ أيضًا. وفي الموطأِ عنِ السائبِ بنِ يزيدَ أنهُ قالَ: أمرَ عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه أبيَّ بنَ كعبٍ وتميمًا الداريَّ أنْ يقوما للناسِ بإحدى عشرةَ ركعةً، وكانَ القارئُ يقرأُ بالمئينَ حتى كنا نعتمدُ على العصيِّ منْ طولِ القيامِ، وما كنا ننصرفُ إلا في بزوغِ الفجرِ. وفي الصحيحينِ: أنهُ ﷺ كانَ لهُ مخصرةٌ والإجماعُ منعقدٌ على أنَّ الخطيبَ يخطبُ متوكئًا على سيفٍ أوْ عصًا، وكانَ ابنُ مسعودٍ صاحبَ عصا النبيِّ ﷺ وعنزتهِ، وكانَ يخطبُ

بالقضيبِ- وكفى بذلكَ فضلًا على شرفِ حالِ العصا- وعلى ذلكَ الخلفاءُ وكبراءُ الخطباءِ، وعادةُ العربِ العرباءِ، الفصحاءِ اللسنِ البلغاءِ أخذُ المخصرةِ والعصا والاعتمادُ عليها عندَ الكلامِ، وفي المحافلِ والخطبِ.

قالَ بعضهمْ:

قدْ كنتُ أمشــي على رجلينِ معتمدًا فصرتُ أمشي على أخرى منَ الخشبِ

ومنْ فوائدها التنبيهُ على الانتقالِ منْ هذهِ الدارِ، كما قيلَ لبعضِ الزهادِ: مالك تمشي على عصًا ولستَ بكبيرٍ ولا مريضٍ؟ قالَ: إني أعلمُ أني مسافرٌ، وأنها دارُ قلعةٍ، وأنَّ العصا منْ آلةِ السفرِ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ١٩﴾ لما أرادَ اللهُ تعالى أنْ يدربهُ في تلقي النبوةِ وتكاليفها أمرهُ بإلقاءِ العصا، فألقاها موسى فقلبَ اللهُ أوصافها وأعراضها. وكانتْ عصًا ذاتَ شعبتينِ فصارتِ الشعبتانِ لها فمًا وصارتْ حيةً تسعى أيْ تنتقلُ، وتمشي وتلتقمُ الحجارةَ فلما رآها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ رأى عبرةً ف﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾. فقالَ اللهُ لهُ: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ وذلكَ أنه ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً﴾ أيْ لحقهُ ما يلحقُ البشرَ، وإنما أظهرَ لهُ هذهِ الآيةَ لئلا يفزعَ منها إذا ألقاها عندَ فرعونَ.

قولهُ تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ٢٠﴾ السعيُ المشيُ بسرعةٍ وخفةٍ. ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ٢١﴾ سمعتُ عليَّ بنَ سليمانَ يقولُ: التقديرُ إلى سيرتها، مثلَ: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ الجناحُ العضدُ، وَ ﴿إِلَىٰ﴾ بمعنى تحتَ، وقيل: إلى جنبكَ فعبرَ عنِ الجنبِ بالجناحِ. لأنهُ مائلٌ في محلِّ الجناحِ. وقيلَ: إلى عندكَ. وقيل: ﴿إِلَىٰ﴾ بمعنى معَ أيْ معَ جناحكَ ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ من غير برص نورا ساطعا، يضئ بالليلِ والنهارِ كضوءِ الشمسِ والقمرِ ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ ٢٢﴾ سوى العصا ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ٢٣﴾ يريدُ العظمى. وكانَ حقهُ أنْ يقولَ الكبيرةَ وإنما قالَ: ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾ لوفاقِ رءوسِ الآيِ. وقيل: فيهِ إضمارٌ، معناهُ لنريكَ منْ آياتنا الآيةَ الكبرى دليلهُ

قولُ ابنِ عباس يد موسى أكبر آياته.

قوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ لما آنسهُ بالعصا واليدِ، وأراهُ ما يدلُّ على أنهُ رسولٌ، أمرهُ بالذهابِ إلى فرعونَ، وأن يدعوه. و ﴿طَغَىٰ﴾ معناهُ عصى وتكبرَ وكفرَ وتجبرَ وجاوزَ الحدَّ. ثم طلبَ الإعانةَ لتبليغِ الرسالةِ.

﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾﴾ أيْ وسعهُ ونورهُ بالإيمانِ والنبوةِ ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾﴾ أيْ سهلْ عليَّ ما أمرتني بهِ منْ تبليغِ الرسالةِ إلى فرعونَ ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾﴾ يعني العجمةَ التي كانتْ فيهِ منْ جمرةِ النارِ التي أطفأها في فيهِ وهوَ طفلٌ، ثمَّ اختلفَ هلْ زالتْ تلكَ الرتةُ، فقيلَ: زالتْ بدليلِ قولهِ: ﴿قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾، وقيل: لمْ تزلْ كلها، بدليلِ قولهِ حكايةً عن فرعون: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾. ولأنهُ لمْ يقلْ: احللْ كلَّ لساني، فدلَّ على أنه بقي في لسانه شيء، وقيل: زالتْ بالكليةِ بدليلِ قولهِ: ﴿أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ﴾، وإنما قال فرعون: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾؛ لأنهُ عرفَ منهُ تلكَ العقدةَ في التربيةِ، وما ثبت عنده أن الآفة زالت.

﴿يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾﴾ أي يعلموا ما أقولهُ لهمْ ويفهموهُ، والفقهُ في كلامِ العربِ الفهمُ، ثمَّ خصَّ بهِ علمُ الشريعةِ، والعالمُ بهِ فقيهٌ، وفاقهتهُ إذا باحثتهُ في العلمِ، والوزيرُ المؤازرُ كالأكيل المؤاكل، لأنهُ يحملُ عنِ السلطانِ وزرهُ أيْ ثقلهُ، ومنْ هذا المعنى قولهُ ﷺ: «ما بعثَ اللهُ منْ نبيٍّ ولا استخلفَ منْ خليفةٍ إلا كانتْ لهُ بطانتانِ بطانةٌ تأمرهُ بالمعروفِ وتحضهُ عليهِ وبطانةٌ تأمرهُ بالشرِّ وتحضهُ عليهِ فالمعصومُ منْ عصمهُ اللهُ» رواهُ البخاريُّ. فسألَ موسى اللهَ تعالى أنْ يجعلَ لهُ وزيرًا، إلا أنهُ لمْ يردْ أنْ يكونَ مقصورًا على الوزارةِ حتى لا يكونَ شريكًا لهُ في النبوةِ، ولولا ذلكَ لجازَ أنْ يستوزرهُ منْ غيرِ مسألةٍ. وعينَ فقالَ ﴿هَٰرُونَ﴾ وانتصبَ على البدلِ منْ قولهِ: ﴿وَزِيرٗا﴾، أو يكون منصوبًا ب ﴿اجْعَلْ﴾ على التقديمِ والتأخيرِ، والتقديرُ: واجعل لي هرون أخي وزيرا. وكان هرون أكبرَ منْ موسى بسنةٍ، وقيل: بثلاثٍ

﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١﴾ أيْ ظهري. والأزرُ الظهرُ منْ موضعِ الحقوينِ، ومعناهُ تقوى بهِ نفسي، والأزرُ القوةُ وآزرهُ قواهُ. ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾.

وكان هرون أكثرَ لحمًا منْ موسى، وأتمَّ طولًا، وأبيضَ جسمًا، وأفصحَ لسانًا. وماتَ قبلَ موسى بثلاثِ سنين. ﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾ أيْ في النبوةِ وتبليغِ الرسالةِ.

وقرأَ العامةُ: «أَخِي اشْدُدْ» بوصلِ الألفِ ﴿وَأَشۡرِكۡهُ﴾ بفتحِ الهمزةِ على الدعاءِ، أيِ اشددْ يا ربِّ أزري وأشركهُ معي في أمري. وقرأَ ابنُ عامر «أشدد» بقطع الألف «وأُشركه» بضم الألف أي أنا أفعل ذلك أشدد أنا به أزري ﴿وَأُشۡرِكۡهُ﴾ أنا يا ربِّ ﴿فِيٓ أَمۡرِي﴾.

قالَ النحاسُ: جعلوا الفعلينِ في موضعِ جزمٍ جوابًا لقولهِ: ﴿ٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا﴾ وهذهِ القراءةُ شاذةٌ بعيدةٌ، لأنَّ جوابَ مثلِ هذا إنما يتخرجُ بمعنى الشرطِ والمجازاةِ، فيكونُ المعنى: إنْ تجعلْ لي وزيرًا منْ أهلي أشددْ بهِ أزري، وأشركهُ في أمري. وأمرهُ النبوةُ والرسالةُ، وليسَ هذا إليهِ عليه السلام فيخبرُ بهِ، إنما سألَ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يشركهُ معهُ في النبوةِ.

وفتحَ الياءَ منْ ﴿أَخِي﴾ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرَ.

﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣﴾ نصلي لكَ. ويحتملُ أنْ يكونَ التسبيحُ باللسانِ. أيْ ننزهكَ عما لا يليق بجلالك. و ﴿كَثِيرٗا﴾ نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ. ويجوزُ أنْ يكونَ نعتًا لوقتٍ. والإدغامُ حسنٌ. وكذا ﴿وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤﴾ ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ٣٥﴾ قالَ الخطابيُّ: البصيرُ المبصرُ، والبصيرُ العالمُ بخفياتِ الأمورِ، فالمعنى، أيْ عالمًا بنا، ومدركًا لنا في صغرنا فأحسنتَ إلينا، فأحسن إلينا أيضا كذلك يا رب.

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ٣٦﴾ لما سألهُ شرحَ الصدرِ، وتيسيرَ الأمرِ إلى ما ذكرَ، أجابَ سؤلهُ، وأتاهُ طلبتهُ ومرغوبهُ. والسؤلُ الطلبةُ، فعلٌ بمعنى مفعولٍ، كقولكَ خبزٌ بمعنى مخبوزٍ وأكلٌ بمعنى مأكولٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ٣٧﴾ أيْ قبلَ هذهِ، وهيَ حفظهُ سبحانهُ لهُ منْ شرِّ الأعداءِ في الابتداءِ، وذلكَ حينَ الذبحِ. واللهُ أعلمُ. والمنُّ الإحسانُ والإفضالُ. وقولهُ: ﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ٣٨﴾ قيلَ: ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾ ألهمنا. وقيل: أوحى إليها في النوم. وقالَ ابن عباس: أوحى إليها كما أوحى إلى النبيينَ ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ أي اطرحيهِ في البحرِ: نهرِ النيل ﴿فَلۡيُلۡقِهِ﴾ أمرٌ وفيهِ معنى المجازاةِ. أي اقذفيهِ يلقهِ اليمُّ. وكذا قوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ ﴿يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ﴾ يعني فرعونَ، فأحبهُ عدوُّ اللهِ حبًا شديدًا لا يتمالكُ أنْ يصبرَ عنهُ فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي﴾ قالَ ابنُ عباسٍ: أحبهُ اللهُ وحببهُ إلى خلقهِ.

وقيل: المعنى جعلتُ فيكَ حسنًا وملاحةً فلا يراكَ أحدٌ إلا أحبكَ ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾ أيْ تربى وتغذى على مرأى مني، ﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ﴾ اسمها مريمُ ﴿فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ﴾ وذلكَ أنها خرجتْ متعرفةً خبرهُ، فذلك قوله تعالى: ﴿فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ﴾ وروى عبدُ الحميدِ عنِ ابنِ عامرٍ ﴿كَيۡ تقِرَّ عَيۡنُهَا﴾ بكسرِ القافِ، أقرَّ اللهُ عينهُ أيْ أعطاهُ حتى تقرَّ فلا تطمحُ إلى منْ هوَ فوقهُ، ويقالُ: حتى تبردَ ولا تسخنَ. وللسرورِ دمعةٌ باردةٌ، وللحزنِ دمعةٌ حارةٌ. ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ﴾ أيْ على فقدكَ ﴿وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا﴾ قتلَ قبطيًا كافرًا، في صحيح مسلمٍ: وكانَ قتلهُ خطأً، على ما يأتي ﴿فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ﴾ أيْ آمناكَ منَ الخوفِ والقتلِ والحبسِ ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ﴾ أي اختبرناكَ اختبارًا حتى صلحتَ للرسالةِ.

قوله تعالى: ﴿فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ عشرَ سنينَ أتمَّ الأجلينِ. وقوله: ﴿ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ٤٠﴾ موافقًا للنبوةِ والرسالةِ، لأنَّ الأنبياءَ لا يبعثونَ إلا أبناءَ أربعينَ سنةً. وقيل: على وعدٍ. أو على القدرِ الذي قدرت لك أنك تجيءُ فيهِ.

قوله تعالى: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ۝٤١﴾ اصطفيتك لوحي ورسالتي ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي﴾ يريدُ التسعَ الآياتِ التي أنزلتْ عليهِ ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ۝٤٢﴾ لا تضعفا في أمرِ الرسالةِ، والونى الضعف والفتور.

قوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۝٤٤﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱذۡهَبَآ﴾ قالَ في أولِ الآيةِ: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي﴾ فخاطبَ أولًا موسى وحدهُ تشريفًا لهُ، ثمَّ كررَ للتأكيدِ. وقيل: بينَ بهذا أنهُ لا يكفي ذهابُ أحدهما. وقيل: الأولُ أمرٌ بالذهابِ إلى كلِّ الناسِ، والثاني بالذهابِ إلى فرعونَ.

الثانية: في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ دليلٌ على جوازِ الأمرِ بالمعروفِ والنهي عنِ المنكرِ، وأنَّ ذلكَ يكونُ باللينِ منَ القولِ لمنْ معهُ القوةُ، وضمنتْ لهُ العصمةُ، ألا تراهُ قالَ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ وقالَ: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ فكيفَ بنا فنحنُ أولى بذلكَ. وحينئذٍ يحصلُ الآمرُ أو الناهي على مرغوبهِ، ويظفر بمطلوبه، وهذا واضح.

الثالثة: قولِهِ: ﴿لَّيِّنٗا﴾ قالتْ فرقةٌ: معناهُ كنِّياهُ، فعلى هذا القولِ تكنيةُ الكافرِ جائزةٌ إذا كانَ وجيهًا ذا شرفٍ وطمعَ بإسلامهِ. وقدْ يجوزُ ذلكَ وإنْ لمْ يطمعْ بإسلامهِ، لأنَّ الطمعَ ليسَ بحقيقةٍ توجبُ عملًا. وقدْ قالَ ﷺ: «إذا أتاكمْ كريمُ قومٍ فأكرموهُ» ولمْ يقلْ وإنْ طمعتمْ في إسلامهِ، ومنَ الإكرامِ دعاؤهُ بالكنيةِ. وقدْ قالَ ﷺ لصفوانَ بنِ أميةَ: «انزلْ أبا وهبٍ» فكناهُ. وقالَ لسعد: «ألم تسمع ما يقوله أبو حبابٍ» يعني عبدَ اللهِ بنَ أبيٍّ.

قلتُ: القولُ اللينُ هوَ القولُ الذي لا خشونةَ فيهِ،فإذا كانَ موسى أمرَ بأنْ يقولَ لفرعونَ قولًا لينًا، فمنْ دونهُ أحرى بأنْ يقتديَ بذلكَ في خطابهِ، وأمرهِ بالمعروفِ في كلامهِ. وقدْ قالَ الله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۝٤٤﴾ معناهُ: على رجائكما وطمعكما، فالتوقعُ فيها إنما هوَ راجعٌ إلى جهةِ البشرِ، وقيلَ: «لعلَّ» هاهنا بمعنى الاستفهام. والمعنى فانظر هل يتذكر. وقيل: هي بمعنى كيْ، وقدْ تذكرَ فرعونُ حينَ أدركهُ الغرقُ وخشيَ فقالَ:

﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾. ولكنْ لمْ ينفعهُ ذلكَ.

قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ۝٤٥﴾ ﴿يَفۡرُطَ﴾ يعجل، و ﴿يَطۡغَىٰ﴾ يعتدي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: لحقهما مايلحقُ البشرَ منَ الخوفِ على أنفسهما عرفهما اللهُ سبحانهُ أنَّ فرعونَ لا يصلُ إليهما ولا قومهُ، والخوفُ منَ الأعداءِ سنةُ اللهِ في أنبيائهِ وأوليائهِ معَ معرفتهمْ بهِ وثقتهمْ، وحينَ قالَ لهُ: الرجل: ﴿إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢٠ فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢١﴾، وقال: ﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ وقالَ حينَ ألقى السحرةُ حبالهمْ وعصيهمْ: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٦٨﴾.

قلتُ: ومنهُ حفرُ النبيِّ ﷺ الخندقَ حولَ المدينةِ تحصينًا للمسلمينَ وأموالهمْ، معَ كونهِ منَ التوكلِ والثقةِ بربهِ بمحلٍّ لم يبلغه أحدا، ثمَّ كانَ منْ أصحابهِ ما لا يجهلهُ أحدٌ منْ تحولهمْ عنْ منازلهمْ، مرةً إلى الحبشةِ، ومرةً إلى المدينةِ، تخوفًا على أنفسهمْ منْ مشركي مكةَ، وهربًا بدينهمْ أنْ يفتنوهمْ عنهُ بتعذيبهمْ.

وقدْ قالتْ أسماءُ بنتُ عميسٍ لعمرَ لما قالَ لها سبقناكمْ بالهجرةِ، فنحنُ أحقُّ برسولِ اللهِ ﷺ منكمْ: كذبتَ يا عمرُ، كلا واللهِ كنتمْ معَ رسولِ اللهِ ﷺ، يطعمُ جائعكمْ ويعظُ جاهلكمْ، وكنا في دارِ - أوْ أرضِ - البعداءِ البغضاءِ في الحبشةِ، وذلكَ في اللهِ وفي رسوله، وأيمُ اللهِ لا أطعمُ طعامًا ولا أشربُ شرابًا حتى أذكرَ ما قلتَ لرسولِ اللهِ ﷺ ونحنُ كنا نؤذى ونخافُ. الحديثُ بطولهِ خرجهُ مسلمٌ.

الثانية: قولهُ تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ يريدُ بالنصرِ والمعونةِ والقدرةِ على فرعونَ، وقولهُ:

﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ عبارةٌ عنِ الإدراكِ الذي لا تخفى معهُ خافيةٌ، تباركَ اللهُ ربُّ العالمينَ(١).

قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ في الكلامِ حذفٌ، والمعنى: فأتياهُ فقالا لهُ ذلكَ ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أيْ خلِّ عنهمْ ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ يذبحُ أبناءهمْ، ويستخدم نساءهمْ، ويكلفهمْ منَ العملِ ما لا يطيقونهُ ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ يريدُ العصا واليدَ ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾﴾ أيْ منِ اتبعَ الهدى سلمَ منْ سخطِ اللهِ عزَّ وجلَّ وعذابهِ وليس بتحية، والدليلُ على ذلكَ أنهُ ليسَ بابتداءِ لقاءٍ ولا خطاب.

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ﴾ الهلاكَ والدمارَ في الدنيا والخلودَ في جهنمَ في الآخرةِ ﴿عَلَىٰ مَن كَذَّبَ﴾ أنبياءَ اللهِ ﴿وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ أعرضَ عنِ الإيمانِ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ ذكرَ فرعونُ موسى دون هرون لرؤوسِ الآيِ. وقيل: خصصهُ بالذكرِ لأنهُ صاحبُ الرسالةِ والكلامِ والآيةِ، وصارَ لنا في هذا البناءِ فائدةُ علمٍ، أنَّ الاثنينِ إذا قُلدا أمرًا فقامَ بهِ أحدهما، والآخرُ شخصهُ هناكَ موجودٌ مستغنى عنهُ في وقتٍ دونَ وقتٍ أنهما أديا الأمرَ الذي قلدا وقاما بهِ واستوجبا الثوابَ، لأنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ وقالَ: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾ وقالَ: ﴿فَقُولَا لَهُۥ﴾ فأمرهما جميعًا بالذهابِ وبالقولِ، ثمَّ أعلمنا في وقتِ الخطابِ بقولهِ: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ أنهُ كانَ حاضرًا معَ موسى ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ أيْ أنهُ يعرفُ بصفاتهِ، فهو خالقُ العالمِ، وهو الذي خصَّ كلَّ مخلوقٍ بهيئةٍ وصورةٍ ﴿ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ هداهُ لما يصلحهُ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ﴾ البالُ الحالُ، فأعلمهُ أنَّ علمها عندَ اللهِ تعالى، أيْ إنَّ هذا منْ علمِ الغيبِ الذي سألتُ عنهُ، وهوَ مما استأثرَ اللهُ تعالى بهِ لا يعلمهُ إلا هوَ، وقيل:

---

(١) هو كذلك سبحانه ومن كمال علمه أنه يسمع ويرى حقيقة لا تخفى عليه خافية لا يشبهه سمع المخلوقين ولا رؤيتهم، كما أخبر عن نفسه بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾.

المعنى فما بالُ القرونِ الأولى لمْ يقروا بذلكَ.

الثانية: هذهِ الآيةُ ونظائرها مما تقدمَ ويأتي تدلُّ على تدوينِ العلوم وكتبها لئلا تنسى. فإنَّ الحفظَ قدْ تعتريهِ الآفاتُ منَ الغلطِ والنسيانِ. وقدْ لا يحفظُ الإنسانُ ما يسمعُ فيقيدهُ لئلا يذهبَ عنهُ. ورويناً بالإسنادِ المتصل عنْ قتادةَ أنهُ قيلَ لهُ: أنكتبُ ما نسمعُ منكَ؟ قالَ: وما يمنعكَ أنْ تكتبَ وقدْ أخبركَ اللطيفُ الخبيرُ أنهُ يكتبُ، فقالَ: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾. وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ أبي هريرةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لما قضى اللهُ الخلقَ كتبَ في كتابٍ على نفسهِ فهوَ موضوعٌ عندهُ أنَّ رحمتي تغلبُ غضبي». وعلى جوازِ كتبِ العلمِ وتدوينهِ جمهورُ الصحابةِ والتابعينَ، وقدْ أمرَ ﷺ بكتبِ الخطبةِ التي خطبَ بها في الحجِّ لأبي شاهٍ- رجلٌ منَ اليمنِ- لما سألهُ كتْبها. أخرجهُ مسلمٌ. وروى عمرو بنِ شعيبٍ عنْ أبيهِ عنْ جدهِ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «قيدوا العلمَ بالكتابةِ». وقالَ معاويةُ بنُ قرةَ: منْ لمْ يكتبِ العلمَ لمْ يُعَدْ علمهُ علمًا.

وقدْ ذهبَ قومٌ إلى المنعِ منَ الكتبِ، فروى أبو نصرةَ قالَ قيلَ لأبي سعيدٍ: أنكتبُ حديثكمْ هذا؟ قالَ: لمَ تجعلونهُ قرآنًا؟ ولكنِ احفظوا كما حفظنا. وممنْ كانَ لا يكتبُ الشعبيُّ ويونسُ بنُ عبيدٍ وخالدٌ الحذاءُ، وهذا احتياطٌ على الحفظِ. والكتبُ أولى على الجملةِ، وبهِ وردتِ الآيُ والأحاديثُ، قالَ اللهُ تعالى ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾. وقالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾. وقالَ تعالى: ﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ الآيةَ. وقالَ تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾. وقال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ﴾ إلى غيرِ هذا منَ الآيِ. وأيضًا فإنَّ العلمَ لا يضبطُ إلا بالكتابِ، ثمَّ بالمقابلةِ والمدارسةِ والتعهدِ والتحفظِ والمذاكرةِ والسؤالِ والفحصِ عنِ الناقلينَ والثقةِ بما نقلوا، وإنما كرهَ الكتبَ منْ كرهَ منَ الصدرِ الأولِ لقربِ العهدِ، وتقاربِ الإسنادِ لئلا يعتمدهُ الكاتبُ فيهملهُ، أوْ يرغبَ عنْ حفظهِ والعملِ بهِ، فأما والوقتُ متباعدٌ، والإسنادُ غيرُ متقاربٍ، والطرقُ مختلفةٌ، والنقلةُ متشابهونَ، وآفةُ النسيانِ معترضةٌ، والوهمُ غيرُ مأمونٍ، فإنَّ تقييدَ العلمِ بالكتابِ أولى وأشفى، والدليلُ على وجوبهِ أقوى، فإنِ احتجَّ محتجٌّ بحديثِ أبي سعيدٍ عنِ النبيِّ ﷺ أنهُ

قالَ: «لا تكتبوا عني ومنْ كتبَ غيرَ القرآنِ فليمحهُ» خرجهُ مسلمٌ.

فالجوابُ: أنَّ ذلكَ كان متقدما، فهو منسوخ بأمره بالكتابة، وإباحتها لأبي شاهٍ وغيرهِ. وأيضًا كانَ ذلكَ لئلا يخلطَ بالقرآنِ ما ليسَ منهُ.

الثالثة: قالَ أبو بكرٍ الخطيبُ: ينبغي أنْ يكتبَ الحديثُ بالسوادِ، ثمَّ الحبرُ خاصةً دونَ المدادِ لأنَّ السوادَ أصبغُ الألوانِ، والحبرَ أبقاها على مرِّ الدهورِ. وهوَ آلةُ ذوي العلمِ، وعدةُ أهلِ المعرفةِ. ذكرَ عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ بنِ حنبلٍ حدثني أبي قالَ: رآني الشافعيُّ وأنا في مجلسهِ وعلى قميصي حبرٌ وأنا أخفيهِ، فقالَ: لمَ تخفيهِ وتسترهُ؟ إنَّ الحبرَ على الثوبِ منَ المروءةِ، وقالَ خالدُ بنُ زيدٍ: الحبرُ في ثوبِ صاحبِ الحديثِ مثلُ الخلوقِ في ثوبِ العروسِ، وأخذَ هذا المعنى أبو عبدِ اللهِ البلويُّ فقالَ:

مدادُ المحابرِ طيبُ الرجالِ … وطيبُ النساءِ منَ الزعفرانْ
فهذا يليقُ بأثوابِ ذا … وهذا يليق بثوب الحَصان

الرابعة: قوله تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ أخبرَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنهُ لا يحتاجُ إلى كتابٍ، والمعنى لا يضلُّ عنه علم شيء منَ الأشياءِ ولا معرفتها، ولا ينسى ما علمهُ منها.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدًا﴾ ﴿ٱلَّذِى﴾ في موضع رفع نعت لـ ﴿رَبِّي﴾ أيْ لا يضلُّ ربي الذي جعلَ. ويجوزُ أنْ يكونَ خبرَ ابتداءٍ مضمرٍ أيْ هوَ ﴿ٱلَّذِى﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ منصوبًا بإضمارِ أعني. وقرأَ الكوفيونَ: ﴿مَهۡدًا﴾ هنا وفي «الزخرفِ» بفتح الميمِ وإسكانِ الهاءِ. الباقونَ: «مِهادًا» واختارهُ أبو عبيدٍ وأبو حاتمٍ لاتفاقهمْ على قراءةِ: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدًا﴾، ومعنى: ﴿مِهَٰدًا﴾ أيْ فراشًا وقرارًا تستقرونَ عليها ﴿وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلًا﴾ أيْ طرقًا. نظيرهُ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدًا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ تقدم معناه. وهذا آخرُ كلامِ موسى، ثمَّ قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ﴾. وقيل: كلهُ منْ كلامِ موسى. والمعنى ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ﴾ أيْ بالحرثِ

والمعالجةِ، لأنَّ الماءَ المنزل سبب خروج النبات. ومعنى ﴿أَزْوَٰجًا﴾ ضروبًا وأشباهًا، أيْ أصنافًا منَ النباتِ المختلفةِ الأزواجِ والألوانِ. و ﴿شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ مأخوذٌ منْ شتَّ الشيءُ أيْ تفرقَ. يقالُ: أمرٌ شتٌّ أيْ متفرقٌ، وكذلكَ التشتتُ. وشتتهُ تشتيتًا فرقهُ.

قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ﴾ أمرُ إباحةٍ. ﴿وَٱرْعَوْا۟﴾ منْ رعتِ الماشيةُ الكلأَ، ورعاها صاحبها رعاية، أي أسامها وسرحها، لازم ومتعد ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ أيِ العقولِ. الواحدةُ نهيةٌ. قالَ لهمْ ذلكَ لأنهمُ الذينَ ينتهى إلى رأيهمْ. وقيل: لأنهمْ ينهونَ النفسَ عنِ القبائحِ. وهذا كلهُ منْ موسى احتجاجٌ على فرعونَ في إثباتِ الصانعِ جوابًا لقولهِ: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ﴾. وبينَ أنهُ إنما يستدلُّ على الصانعِ اليومَ بأفعالهِ.

قوله تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ﴾ يعني آدمَ عليه السلام لأنهُ خلقَ منَ الأرضِ، وقيل: كلُّ نطفةٍ مخلوقةٍ منَ الترابِ، على هذا يدلُّ ظاهرُ القرآنِ.

ومعنى: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أيْ بعدَ الموتِ ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ أيْ للبعثِ والحسابِ ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ يرجعُ هذا إلى قولهِ: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ﴾ لا إلى ﴿نُعِيدُكُمْ﴾، فالمعنى: منَ الأرضِ أخرجناكمْ ونخرجكمْ بعد الموت من الأرض تارة أخرى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا كُلَّهَا﴾ أيِ المعجزاتِ الدالةَ على نبوةِ موسى ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ وكفرَ عنادًا لأنهُ رأى الآياتِ عيانًا لا خبرًا. نظيرهُ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾ لما رأى الآياتِ التي أتاهُ بها موسى قالَ: إنها سحرٌ ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ أيْ لنعارضنكَ بمثلِ ما جئتَ بهِ ليتبينَ للناسِ أنَّ ما أتيتَ بهِ ليسَ منْ عندِ اللهِ ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ هوَ مصدرٌ، أيْ وعدًا. وقيل: الموعدُ اسمٌ لمكانِ الوعدِ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فالموعد ها هنا مكانٌ. وقيل: الموعدُ اسمٌ لزمانِ الوعدِ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ فالمعنى: اجعلْ لنا يومًا معلومًا، أوْ مكانًا معروفًا ﴿مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾ قرأَ

ابنُ عامرٍ وعاصمٌ وحمزةُ ﴿سُوًى﴾ بضمِّ السينِ. الباقونَ بكسرها، وهما لغتانِ مثلَ طُوًى وطِوًى، واختلفَ في معناهُ فقيلَ: سوى هذا المكانِ، وقيل: مكانًا مستويًا يتبين للناس ما بيناه فيه، وأهلُ التفسيرِ على أنَّ معنى ﴿سُوًى﴾ نصفٌ وعدلٌ وهوَ قولٌ حسنٌ، قالَ سيبويهِ يقالُ: سِوًى وسُوًى أيْ عدلٌ، يعني مكانًا عدل، بينَ المكانينِ فيهِ النصفةُ.

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾. واختلفَ في يومِ الزينةِ، فقيلَ هوَ يومُ عيدٍ كانَ لهمْ يتزينونَ ويجتمعونَ فيهِ، وقيل: كانَ يومَ عاشوراءَ. وقيل: يومُ سوقٍ كانَ لهمْ يتزينونَ فيها، وقيل: يومُ السبتِ. وقيل: يومُ النيروزِ ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۝٥٩﴾ الضحى عندَ ارتفاعِ النهارِ الأعلى. وخص الضحا لأنهُ أولُ النهارِ، فلوِ امتدَّ الأمرُ فيما بينهمْ كانَ في النهارِ متسعٌ.

وإنما واعدهمْ ذلكَ اليومَ ليكونَ علوُّ كلمةِ اللهِ، وظهورُ دينهِ، وكبتُ الكافرِ، وزهوقُ الباطلِ على رءوسِ الأشهادِ.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ أيْ حيلهُ وسحرهُ، والمرادُ جمعُ السحرةِ ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾ لفرعونَ والسحرةِ ﴿وَيْلَكُمْ﴾ دعاءٌ عليهمْ بالويلِ ﴿لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أيْ لا تختلقوا عليهِ الكذبَ، ولا تشركوا بهِ، ولا تقولوا للمعجزاتِ إنها سحرٌ ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ منْ عنده أي يستأصلكم بالإهلاك، يقالُ فيهِ: سحتَ وأسحتَ بمعنى. وأصلهُ منَ استقصاءِ الشعرِ. وقرأَ الكوفيونَ ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ منْ أسحتَ، الباقونَ: «فَيَسْحَتَكُمْ» منْ سحتَ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١﴾ أيْ خسرَ وهلكَ، وخابَ منَ الرحمةِ والثوابِ منِ ادعى على اللهِ ما لمْ يأذنْ به.

قوله تعالى: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أيْ تشاوروا، يريدُ السحرةَ ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ۝٦٢﴾ قالوا: إنْ كانَ ما جاءَ بِهِ سحرًا فسنغلبهُ، وإنْ كانَ منْ عندِ اللهِ فسيكونُ لهُ أمرٌ، وهذا الذي أسروهُ. وقيلَ: أسروا قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ الآيات، وقيلَ: الذي أسروا قولهمْ: إن غلبنا اتبعناه.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ قرأ أبو عمرو: «إِنَّ هَذَيْنَ لَسَاحِرَانِ»، وهذهِ القراءةُ موافقةٌ للإعرابِ مخالفةٌ للمصحفِ. وقرأَ ابنُ كثيرٍ وعاصمٌ: في روايةِ حفصٍ عنهُ:

«إِنْ هذانِ» بتخفيفِ «إِنْ» ﴿لَسَٰحِرَٰنِ﴾ وابنُ كثيرٍ يشددُ نونَ ﴿*هَٰذَانّ﴾. وهذهِ القراءةُ سلمتْ منْ مخالفةِ المصحفِ ومنْ فسادِ الإعرابِ، ويكونُ معناها ما هذان إلا ساحرانِ. وقرأَ المدنيونَ والكوفيونَ: «إِنَّ هَذَانِ» بتشديدِ «إِنَّ» ﴿لَسَٰحِرَٰنِ﴾ فوافقوا المصحفَ وخالفوا الإعرابَ، فهذهِ ثلاثُ قراءاتٍ قدْ رواها الجماعةُ عنِ الأئمةِ.

قلتُ: وللعلماءِ في قراءةِ أهلِ المدينةِ أقوالٍ منها:

أنها لغةُ بنى الحرث بنِ كعبٍ وزبيدٍ وخثعمَ وكنانةَ بنِ زيدٍ يجعلون رفع الاثنين ونصبه وخفضه بالألف، يقولونَ: جاءَ الزيدانِ ورأيتُ الزيدانِ ومررتُ بالزيدانِ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾، ومنه قول القائل:

إنَّ أباها وأبا أباها قدْ بلغا في المجدِ غايتاها

القولُ الآخر: أنْ يكونَ ﴿إِنَّ﴾ بمعنى نعمْ، فالعربُ تأتي بِ ﴿إِنَّ﴾ بمعنى نعم.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ٦٣﴾ هذا منْ قولِ فرعونَ للسحرةِ، كما قالَ لقومه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾. ويقالُ فلانٌ حسنُ الطريقةِ أيْ حسنُ المذهبِ، وَ ﴿ٱلۡمُثۡلَىٰ ٦٣﴾ تأنيثُ الأمثلِ، كما يقالُ الأفضلُ والفضلى.

قوله تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ﴾ الإجماعُ الإحكامُ والعزمُ على الشيءِ، وقراءةُ كلِّ الأمصارِ ﴿فَأَجۡمِعُواْ﴾ إلا أبا عمرو فإنهُ قرأَ: «فَاجْمَعُوا» بالوصلِ وفتحَ الميم، واحتج بقولهِ تعالى: ﴿فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾.

﴿ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ﴾ جميعًا. وقيل: صفوفًا ليكونَ أشدَّ لهيبتكمْ، ويجوزُ أنْ يكونَ المعنى ثمَّ ائتوا والناسُ مصطفونَ، فيكونُ على هذا مصدرًا في موضع الحال. ولذلك لم يجمع.

﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ٦٤﴾ أيْ منْ غلبَ. وهذا كلهُ منْ قولِ السحرةِ بعضهم

لبعضٍ. وقيل: من قول فرعون لهم.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ يريدُ السحرةَ ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾ عصاكَ منْ يدكَ ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ٦٥﴾ تأدبوا معَ موسى فكانَ ذلكَ سببَ إيمانهمْ ﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ﴾ في الكلامِ حذفٌ، أيْ فألقوا، دلَّ عليهِ المعنى ﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦﴾ وذلكَ أنهمْ لطخوا العصيَّ بالزئبقِ، فلما أصابها حرُّ الشمسِ ارتهشتْ واهتزتْ.

قوله تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧﴾ أيْ أضمرَ. وقيل: وجدَ. وقيل: أحسَّ. أيْ منَ الحياتِ وذلكَ على ما يعرضُ منْ طباعِ البشرِ على ما تقدمَ. وقيل: خافَ أنْ يفتتنَ الناسُ قبلَ أنْ يلقيَ عصاهُ فلما علمَ اللهُ ما في قلبهِ أوحى إليهِ: ﴿لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٦٨﴾ أيِ الغالبُ لهمْ في الدنيا، وفي الدرجاتِ العلا في الجنةِ، للنبوةِ والاصطفاءِ الذي آتاكَ اللهُ بهِ.

قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ﴾ ولمْ يقلْ وألقِ عصاكَ تعظيمًا لها أيْ لا تحفلْ بهذهِ الأجرامِ الكثيرةِ الكبيرةِ فإنَّ في يمينكَ شيئًا أعظمَ منها كلها، و﴿تَلۡقَفۡ﴾ بالجزمِ جوابُ الأمرِ، وقرأَ حفصٌ: «تَلْقَفُ» ساكنةَ اللامِ منْ لقفَ يلقفُ لقفًا ﴿مَا صَنَعُوٓاْۖ﴾ أيِ الذي صنعوهُ. وكذا ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ﴾ أيْ إنَّ الذي صنعوهُ ﴿كَيۡدُ﴾ بالرفعِ «سِحْرٍ» بكسرِ السينِ وإسكانِ الحاءِ، وهيَ قراءةُ الكوفيينَ إلا عاصمًا. وفيهِ وجهانِ:

أحدهما- أنْ يكونَ الكيد مضافا إلى السحر على الإتباعِ منْ غيرِ تقديرِ حذفٍ.

والثاني- أنْ يكونَ في الكلامِ حذفٌ أيْ كيدُ ذي سحرٍ. وقرأَ الباقونَ: «كَيْدَ» بالنصبِ بوقوعِ الصنعِ عليه و«ما» كافةٌ ولا تضمرُ هاء ﴿سَٰحِرٖۖ﴾ بالإضافةِ. والكيدُ في الحقيقةِ على هذهِ القراءةِ مضافٌ للساحرِ لا للسحرِ ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ٦٩﴾ حيثُ أتى منَ

الأرضِ. وقيل: حيثُ احتالَ. وقدْ مضى في البقرةِ حكمُ الساحرِ ومعنى السحرِ فتأملهُ هناكَ.

قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ لما رأوا منْ عظيمِ الأمرِ وخرقِ العادةِ في العصا، فإنها ابتلعتْ جميعَ ما احتالوا بهِ منَ الحبالِ والعصيِّ ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ٧٠ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ أيْ بهِ، يقالُ: آمنَ لهُ وآمنَ بهِ، ومنه ﴿۞فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ﴾، وفي الأعراف: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ﴾. إنكارٌ منهُ عليهمْ، أيْ تعديتمْ وفعلتمْ ما لمْ آمركمْ بهِ ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾. أيْ رئيسكمْ في التعليمِ، وإنما غلبكمْ لأنهُ أحذقُ بهِ منكم. وإنما أراد فرعون بقول هذا ليشبهَ على الناسِ حتى لا يتبعوهمْ فيؤمنوا كإيمانهمْ، وإلا فقدْ علمَ فرعونُ أنهمْ لمْ يتعلموا منْ موسى، بلْ قدْ علموا السحرَ قبلَ قدومِ موسى وولادتهِ ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أيْ على جذوعِ النخلِ ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ٧١﴾ أنا أمْ رب موسى.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟﴾ يعني السحرةَ ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ أيْ لنْ نختاركَ ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ منَ اليقينِ والعلمِ ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَاۖ﴾ قيلَ: هوَ معطوفٌ على ﴿مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أيْ لنْ نؤثركَ على ما جاءنا منَ البيناتِ ولا على الذي فطرنا أيْ خلقنا. وقيل: هوَ قسمٌ أيْ واللهِ لنْ نؤثركَ ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾ التقديرُ: ما أنتَ قاضيهِ ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ٧٢﴾ أيْ إنما ينفذُ أمركَ فيها ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا﴾ أيْ صدقنا باللهِ وحدهُ لا شريكَ لهُ وما جاءنا بهِ موسى ﴿لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ يريدونَ الشركَ الذي كانوا عليهِ ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِۗ﴾ ﴿مَا﴾ في موضعِ نصبٍ معطوفةً على الخطايا وفيهِ بعدٌ، لقولهمْ: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ وليسَ هذا بقولِ مكرهينَ، ولأنَّ الإكراهَ ليسَ بذنبٍ، وإنْ كانَ يجوزُ أنْ يكونوا أكرهوا على تعليمهِ صغارًا ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ٧٣﴾ أيْ ثوابهُ خيرٌ وأبقى فحذفَ المضافَ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ قيلَ: هوَ منْ قولِ السحرةِ لما آمنوا. وقيل: ابتداءُ كلامٍ منَ اللهِ عزَّ وجلَّ ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ لا ينتفعُ بحياتهِ ولا يستريحُ بموتهِ ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾ أيْ يمتْ عليهِ ويوافيهِ مصدقا به ﴿قَدْ عَمِلَ﴾ أيْ وقدْ عملَ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أيِ الطاعاتِ وما أمرَ بهِ ونهيَ عنهُ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ أيِ الرفيعةُ التي قصرتْ دونها الصفاتُ. ودلَّ قولهُ: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾ على أنَّ المرادَ بالمجرمِ المشركُ.

قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بيانٌ للدرجاتِ وبدلٌ منها، والعدنُ الإقامةُ. وقدْ تقدمَ بيانهُ ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾ أيْ منْ تحتِ غرفها وسررها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ منَ الخمرِ والعسلِ واللبنِ والماءِ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ دائمينَ ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ تطهرَ منَ الكفرِ والمعاصي. ومنْ قالَ هذا منْ قولِ السحرةِ قالَ: لعلَّ السحرةَ سمعوهُ منْ موسى أوْ منْ بني إسرائيلَ إذْ كانَ فيهمْ بمصرَ أقوامٌ، وكانَ فيهمْ أيضًا المؤمنُ منْ آلِ فرعونَ. قلتُ: ويحتملُ أنْ يكونَ ذلكَ إلهامًا منَ اللهِ لهمْ أنطقهمْ بذلك لما آمنوا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ أيْ يابسًا لا طينَ فيهِ ولا ماء ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾ أيْ لحاقًا منْ فرعونَ وجنودهِ. ﴿وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ غرقًا منَ البحرِ، وقرأَ حمزةُ «لَا تَخَفْ» على أنهُ جوابُ الأمرِ. التقديرُ إنْ تضربْ لهم طريقا في البحر لا تخف. و ﴿لَا تَخْشَىٰ﴾ مستأنفٌ على تقديرِ: ولا أنتَ تخشى، أوْ يكونُ مجزومًا والألفُ مشبعةٌ منْ فتحةٍ، كقوله: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾، والقراءةُ الأولى أبينُ لأنَّ بعدهُ ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ مجمعٌ عليهِ بلا جزمٍ.

قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ أيِ اتبعهمْ ومعه جنوده، وقرئ «فَاتَّبَعَهُمْ» بالتشديدِ فتكونُ الباءُ في ﴿بِجُنُودِهِۦ﴾ عدتِ الفعلَ إلى المفعولِ الثاني، لأنَّ اتبعَ يتعدى إلى مفعولٍ واحدٍ، ومنْ قطعَ ﴿فَأَتْبَعَ﴾ يتعدى إلى مفعولينِ: فيجوزُ أنْ تكونَ الباءُ زائدةً، ويجوزُ أنْ يكونَ اقتصرَ على مفعولٍ واحدٍ، وقولهُ: ﴿بِجُنُودِهِۦ﴾ في موضعِ الحالِ، كأنهُ قالَ: فأتبعهمْ سائقًا جنودهُ ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾ كررَ على معنى التعظيمِ والمعرفةِ بالأمرِ

قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ۝٧٩﴾ جوابُ قولِ فرعونَ: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ فكذبهُ اللهُ تعالى. وقيل: أضل قومه وما هدى نفسهُ.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ قالَ لهم هذا ليشكروه ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ الوعدُ كانَ لموسى ولكنْ خوطبوا بهِ لأنَّ الوعدَ كانَ لأجلهمْ. وقرأَ أبو عمرو «وَوَعَدْنَاكُمْ» بغيرِ ألفٍ لأنَّ الوعدَ إنما هوَ منَ اللهِ تعالى لموسى خاصةً، والمواعدةُ لا تكونُ إلا منَ اثنينِ، و ﴿ٱلْأَيْمَنَ﴾ نصبَ، لأنهُ نعتٌ للجانبِ وليسَ للجبلِ يمينٌ ولا شمالٌ، وكانَ الجبلُ على يمينِ موسى إذْ أتاهُ ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۝٨٠﴾ أيْ في التيهِ ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أيْ منْ لذيذِ الرزقِ. وقيل: منْ حلالهِ إذْ لا صنعَ فيهِ لآدميٍّ فتدخله شبهة ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ لا تكفروا النعمةَ ولا تنسوا شكر المنعمِ ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ أيْ يجبَ وينزلَ، وهوَ منصوبٌ بالفاءِ في جوابِ النهي منْ قولهِ: ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟﴾. ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ۝٨١﴾: قرأَ الكسائي: «فَيَحُلَّ» بضم الحاء «وَمَنْ يَحْلُلْ» بضمِّ اللامِ الأولى. والباقونَ بالكسرِ وهما لغتانِ إلا أنَّ الكسرَ أولى، لأنهمْ قدْ أجمعوا على قولهِ: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾. وغضبُ اللهِ عقابهُ ونقمتهُ وعذابهُ[1]. ﴿فَقَدْ هَوَىٰ ۝٨١﴾ صارَ إلى الهاويةِ وهيَ قعرُ النارِ.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ منَ الشركِ ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ۝٨٢﴾ أيْ أقامَ على إيمانهِ حتى ماتَ عليهِ.

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣﴾ قيلَ: عنى بالقومِ جميعَ بني إسرائيلَ، فعلى هذا قيل: استخلف هرون على بني إسرائيلَ، وخرجَ معهُ بسبعينَ رجلًا للميقاتِ. فقولهُ: ﴿هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ ليسَ يريدُ أنهمْ يسيرونَ خلفهُ متوجهينَ إليهِ، بلْ

---

(١) هذا من جنس التأويل الذى نُبه عليه غير مرة، فصفة الغضب لله ثابتة بأدلة كثيرة كقوله: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ ﴿أن غَضِبَ اللهُ عليه﴾ ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فيغضب غضبا لا يشبه غضب المخلوقين، والقول فيها كالقول فى الذات وسائر الصفات ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

أرادَ أنهمْ بالقربِ مني ينتظرونَ عودي إليهمْ، وقالَ قومٌ: أرادَ بالقومِ السبعينَ الذينَ اختارهمْ، وكانَ موسى لما قربَ منَ الطورِ سبقهم شوقا إلى سماع كلام الله عز وجل، وقال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾

وقال ابنُ عباسٍ: كانَ اللهُ عالمًا ولكنْ قالَ: ﴿۞وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ﴾ رحمةً لموسى، وإكرامًا لهُ بهذا القولِ، وتسكينًا لقلبهِ، ورقةً عليهِ، فقالَ مجيبًا لربهِ: ﴿هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾، وقرأَ رويسٌ عنْ يعقوبَ ﴿عَلَىٰٓ إِثْرِى﴾ بكسرِ الهمزةِ وإسكانِ الثاءِ وهوَ بمعنى أَثَرٍ.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ ألقيناهمْ في الفتنةِ: أيْ زينا لهمْ عبادةَ العجلِ ولهذا قالَ موسى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾﴾ أيْ دعاهمْ إلى الضلالةِ أوْ هوَ سببها.

قوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ﴾ حالٌ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ﴾ وعدهمْ عزَّ وجلَّ الجنةَ إذا أقاموا على طاعتهِ، ووعدهمْ أنهُ يسمعهمْ كلامهُ في التوراةِ على لسانِ موسى، ليعملوا بما فيها فيستحقوا ثوابَ عملهمْ. وقيل: وعدهمُ النصرَ والظفرَ. وقيل: وعدهُ قولهُ: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ الآيةَ ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ أيْ أفنسيتمْ كما قيلَ، والشيءُ قدْ ينسى لطولِ العهدِ ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ﴿يَحِلَّ﴾ أيْ يجبُ وينزلُ ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾﴾ لأنهمْ وعدوهُ أنْ يقيموا على طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ إلى أنْ يرجعَ إليهمْ منَ الطورِ ﴿قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ بفتحِ الميمِ، وهيَ قراءةُ نافعٍ وعاصمٍ، أي بطاقتنا. وقرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو وابنُ عامرٍ «بِمِلْكِنا» بكسرِ الميمِ، وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ: «بِمُلْكِنَا» بضمِّ الميمِ والمعنى بسلطاننا ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ﴾ بضمِّ الحاءِ وتشديدِ الميمِ مكسورةً، قرأهُ نافعٌ وابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ وحفصٌ ورويسٌ. الباقونَ بفتحِ الحرفينِ خفيفةً، واختارهُ أبو عبيدٍ وأبو حاتمٍ، لأنهمْ حملوا حلي القومِ معهمْ وما حملوهُ كرهًا ﴿أَوْزَارًا﴾ أيْ أثقالًا ﴿مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ أيْ منْ حليهمْ، وكانوا استعاروهُ حينَ أرادوا الخروجَ معَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأوهموهمْ أنهمْ يجتمعونَ في عيدٍ لهمْ أوْ

وليمةٍ. وقيل: هوَ ما أخذوهُ منْ آلِ فرعونَ، لما قذفهمُ البحرُ إلى الساحلِ. وسميتْ أوزارًا بسببِ أنها كانتْ آثامًا. أيْ لمْ يحلَّ لهمْ أخذها ولمْ تحلَّ لهمُ الغنائمُ، وأيضًا فالأوزارُ هيَ الأثقالُ في اللغةِ ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ أيْ ثقلَ علينا حملُ ما كانَ معنا منَ الحليِّ فقذفناهُ في النارِ ليذوبَ، وقيل: طرحناهُ إلى السامريِّ لترجعَ فترى فيها رأيكَ، فرمى بهِ في النارِ وصاغَ لهمْ منهُ عجلًا، ثمَّ ألقى عليهِ قبضةً منْ أثرِ فرسِ الرسولِ وهوَ جبريلُ عليه السلام. والخوارُ صوتُ البقرِ ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ أيْ قالَ السامريُّ ومنْ تبعهُ وكانوا ميالينَ إلى التشبيه، إذ قالوا: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ ﴿فَنَسِيَ﴾ أي أخطأَ الطريقَ إلى ربهِ، وقيل: الخطابُ خبرٌ عنِ السامريِّ. أيْ تركَ السامريُّ ما أمرهُ بهِ موسى منَ الإيمانِ فضلَّ، فقالَ اللهُ تعالى محتجًا عليهمْ: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ﴾ أي يعتبرون ويتفكرون. في أنه لا ﴿يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا﴾ أيْ لا يكلمهمْ. وقيل: لا يعودُ إلى الخوارِ والصوتِ ﴿وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ٨٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ﴾ أيْ منْ قبلِ أنْ يأتيَ موسى ويرجعَ إليهمْ ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ﴾ أي ابتليتمْ وأضللتمْ بهِ، أيْ بالعجلِ ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ لا العجلُ ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ في عبادتهِ ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ٩٠﴾ لا أمرَ السامريِّ. أوْ فاتبعوني في مسيري إلى موسى ودعوا العجل. فعصوه و ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ﴾ مقيمينَ على عبادةِ العجلِ ﴿حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ٩١﴾ ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ٩٢﴾ كفروا ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾ ﴿لَآ﴾ زائدةٌ أيْ أنْ تتبعَ أمري، وقيل: ما منعكَ منَ اللحوقِ بي لما فتنوا ﴿أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ٩٣﴾ يريدُ أنَّ مقامكَ بينهمْ وقدْ عبدوا غيرَ اللهِ تعالى عصيانٌ منكَ لي، يعني ما حكاهُ اللهُ تعالى عنهُ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

مسألةٌ– وهذا كلهُ أصلٌ في الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ، وتغييرهِ ومفارقةِ أهلهِ، وأنَّ المقيمَ بينهمْ لا سيما إذا كانَ راضيًا حكمهُ كحكمهمْ.

قوله تعالى: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ لأنَّ الغيرةَ في اللهِ ملكتهُ، وقدْ قيلَ: إنَّ موسى عليه السلام إنما فعلَ هذا على غيرِ استخفافٍ ولا عقوبةٍ كما يأخذُ الإنسانُ بلحيةِ نفسهِ ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ خشيتُ أنْ أخرجَ فيتبعني قومٌ ويتخلفُ معَ العجلِ قومٌ، أو خشيتُ إنْ زجرتهمْ أنْ يقعَ قتالٌ فتلومني على ذلكَ. وهذا جوابُ هرون لموسى السلامُ عنْ قولهِ: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ وفي الأعرافِ ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾، ومعنىَ: ﴿لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ لم تعمل بوصيتي، فتركهُ موسى ثُمَّ أقبلَ على السامريِّ فَـ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾﴾ ما الذي حملكَ على ما صنعتَ؟ وكان عظيمًا في بني إسرائيلَ منْ قبيلةٍ يقالُ لها سامرةُ ولكنَّ عدوَّ اللهِ نافقَ بعدَ ما قطعَ البحرَ معَ موسى، وقالَ مجيبًا لموسى: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ يعني: رأيتُ ما لمْ يروا، رأيتُ جبريلَ عليه السلام على فرسِ الحياةِ، فألقيَ في نفسي أنْ أقبضَ منْ أثرهِ قبضةً، فما ألقيتهُ على شيءٍ إلا صارَ لهُ روحٌ ولحمٌ ودمٌ فلما سألوكَ أنْ تجعلَ لهمْ إلهًا زينتْ لي نفسي ذلكَ.

وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ: «بِمَا لَمْ تَبْصُرُوا» بالتاءِ على الخطابِ. الباقونَ بالياءِ على الخبرِ ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أيْ طرحتها في العجلِ ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾﴾ أيْ زينتهُ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ﴾ أيْ قالَ لهُ موسى فاذهبْ أيْ منْ بيننا ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أيْ لا أمسُّ ولا أُمسُّ طولَ الحياةِ. فنفاهُ موسى عنْ قومهِ وأمرَ بني إسرائيلَ ألا يخالطوهُ ولا يقربوهُ ولا يكلموهُ عقوبةً لهُ.

مسألةٌ: هذهِ الآيةُ أصلٌ في نفيِ أهلِ البدعِ والمعاصي وهجرانهمْ وألا يخالطوا، وقدْ فعلَ النبيُّ ﷺ ذلكَ بكعبِ بنِ مالكٍ والثلاثةِ الذينَ خلفوا. ومنِ التجأَ إلى الحرمِ وعليهِ قتلٌ لا يقتلُ عندَ بعضِ الفقهاءِ، ولكنْ لا يعاملُ ولا يبايعُ ولا يشارى، وهوَ إرهاقٌ إلى الخروجِ. ومنْ هذا القبيل التغريب في حد الزنى، وقدْ تقدمَ جميعُ هذا كلهِ في موضعهِ، فلا معنى لإعادتهِ. والحمدُ للهِ وحدهُ.

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ يعني يومَ القيامةِ. والموعدُ مصدرٌ، أيْ إنَّ لكَ وعدًا

لعذابكَ. وقرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو: «تُخْلِفَهُ» بكسرِ اللامِ على التهديدِ أيْ لا بدَّ لكَ منْ أنْ تصيرَ إليه، و الباقون بفتحِ اللامِ، بمعنى: إنَّ اللهَ لنْ يخلفكَ إياهُ.

قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ﴾ أقمتَ عليهِ ﴿عَاكِفٗاۖ﴾ ملازمًا ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ منْ حرّقَ يحرقُ. ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ النسفُ نفضُ الشيءِ ليذهبَ بهِ الريحُ وهوَ التذريةُ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ٩٨﴾ لا العجل.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَۚ﴾ ليكونَ تسليةً لكَ، وليدلَّ على صدقكَ ﴿وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ٩٩﴾ يعني القرآنَ. وسميَ القرآنُ ذكرًا، لما فيهِ من الذكر كما سمي الرسول ذكرا، لأن الذكرُ كانَ ينزلُ عليهِ. وقيل: ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ٩٩﴾ أيْ شرفًا، كما قالَ تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ﴾ أي شرف وتنويه باسمك.

قوله تعالى: ﴿مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ﴾ :أيِ القرآنِ فلمْ يؤمنْ بهِ، ولمْ يعملْ بما فيهِ ﴿فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ١٠٠﴾ أيْ إثمًا عظيمًا وحملًا ثقيلًا ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ﴾ مقيمين ﴿وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ١٠١﴾ يريدُ بئسَ الحملُ حملوه يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ قراءةُ العامةِ ﴿يُنفَخُ﴾ بضمِّ الياءِ على الفعلِ المجهولِ، وقرأَ أبو عمرو بنونِ مسمى الفاعلِ، واستدلَّ بقولهِ تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُ﴾ بنونٍ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أيِ المشركينَ ﴿زُرۡقٗا﴾ تشوهُ خلقتهمْ بزرقةِ عيونهمْ وسوادِ وجوههمْ.

وقالَ سعيدُ بنُ جبيرٍ: قيلَ لابنِ عباسٍ في قولهِ: ﴿وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ١٠٢﴾ وقالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ﴾ فقالَ: إنَّ ليومِ القيامةِ حالاتٍ، فحالةٌ يكونونَ فيها زرقًا، وحالةٌ عميًا ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ﴾ :أصلُ الخفتِ في اللغةِ السكونُ، والمعنى يتسارون ﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ﴾ أيْ ما لبثتمْ يعني في الدنيا، وقيل: في القبورِ ﴿إِلَّا عَشۡرٗا ١٠٣﴾ يريدُ عشرَ ليالٍ. وقيل: أرادَ ما بينَ النفختينِ وهوَ أربعونَ سنةً، أوْ مدةَ مقامهمْ في الدنيا لشدةِ ما يرونَ منْ أهوالِ يومِ القيامةِ، ويخيلُ إلى أمثلهمْ أيْ أعدلهمْ

قولًا وأعقلهمْ وأعلمهمْ عندَ نفسهِ أنهمْ ما لبثوا إلا يومًا واحدًا يعني لبثهمْ في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ أيْ عنْ حالها يومَ القيامة ﴿فَقُلْ﴾ كلُّ سؤالٍ في القرآنِ ﴿قُلْ﴾ بغيرِ فاءٍ إلا هذا، لأنَّ المعنى إنْ سألوكَ عنِ الجبالِ فقلْ، فتضمنَ الكلامُ معنى الشرطِ. وقدْ علمَ اللهُ أنهمْ يسألونهُ عنها، فأجابهمْ قبلَ السؤالِ، وتلكَ أسئلةٌ تقدمتْ سألوا عنها النبيَّ ﷺ فجاءَ الجوابُ عقبَ السؤالِ، فلذلكَ كانَ بغيرِ فاءٍ، وهذا سؤالٌ لمْ يسألوهُ عنهُ بعدُ، فتفهمهُ ﴿يَنسِفُهَا﴾ يطيرها. ﴿نَسْفًا ۝١٠٥﴾ يقلعها قلعًا منْ أصولها ثمَّ يصيرها رملًا يسيلُ سيلًا، ثمَّ يصيرها كالصوفِ المنفوشِ تطيرها الرياحُ هكذا وهكذا. قالَ: ولا يكونُ العهنُ منَ الصوفِ إلا المصبوغَ، ثمَّ كالهباءِ المنثورِ ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أيْ يذرُ مواضعها ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦﴾ القاع الأرض الملساء بلا نباتٍ ولا بناءٍ ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ العوجُ التعوجُ في الفجاجِ والأمتُ النباكُ وهيَ التلالُ الصغارُ واحدها نبَكةٌ، أيْ هيَ أرضٌ مستويةٌ لا انخفاضَ فيها ولا ارتفاعَ. والأمتُ في اللغةِ المكانُ المرتفعُ.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ يريدُ إسرافيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا نفخَ في الصورِ ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أيْ لا معدلَ لهمْ عنهُ ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ﴾ أيْ ذلتْ وسكنتْ ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أيْ منْ أجلهِ ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝١٠٨﴾ صوتٌ خفيٌّ، قيل: هوَ صوتُ وقعِ الأقدامِ بعضها على بعضٍ إلى المحشرِ.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ﴿مَنْ﴾ في موضعِ نصبٍ على الاستثناءِ الخارجِ منَ الأولِ، أيْ لا تنفعُ الشفاعةُ أحدًا إلا شفاعةُ منْ أذنَ لهُ الرحمنُ ﴿وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ۝١٠٩﴾ أيْ رضيَ قولهُ في الشفاعةِ. وقيل: المعنى، أيْ إنما تنفعُ الشفاعةُ لمنْ أذنَ لهُ الرحمنُ في أنْ يشفعَ لهُ، وكانَ لهُ قولٌ يرضى. قالَ ابنُ عباسٍ: هوَ قولُ لا إله إلا الله.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أيْ منْ أمرِ الساعةِ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ منْ أمرِ الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝١١٠﴾ الهاءُ في ﴿بِهِۦ﴾ للهِ تعالى، أيُّ أحدٍ لا يحيطُ بهِ علمًا، إذِ الإحاطةُ مشعرةٌ بالحدِّ ويتعالى اللهُ عنِ التحديدِ. وقيل: تعودُ على العلمِ، أيُّ أحدٍ

لا يحيطُ علمًا بما يعلمهُ اللهُ.

قوله تعالى: ﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾ أيْ ذلتْ وخضعت، ومنهُ قيلَ للأسيرِ عانٍ وقومٌ عناةٌ ونسوةٌ عوانٍ، والفرقُ بينَ الذلِّ والخشوعِ - وإنْ تقاربَ معناهما- أنَّ الذلَّ أنْ يكونَ ذليلَ النفسِ، والخشوعَ أنْ يتذللَ لذي طاعةٍ.

﴿لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ﴾ في القيوم ثلاث تأويلات، **أحدها**: أنهُ القائمُ بتدبيرِ الخلقِ. **الثاني**- أنهُ القائمُ على كلِّ نفسٍ بما كسبتْ. **الثالثُ**- أنهُ الدائمُ الذي لا يزولُ ولا يبيدُ.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾ أيْ خسرَ منْ حملَ شركًا.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لأنَّ العملَ لا يقبلُ منْ غيرِ إيمان. و ﴿مِنَ﴾ في قولهِ: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ للتبعيضِ، أيْ شيئًا منَ الصالحاتِ. وقيل: للجنسِ ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ قرأَ ابنُ كثيرٍ: «يَخَفْ» بالجزمِ جوابًا لقولهِ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ﴾. الباقونَ: ﴿يَخَافُ﴾ رفعًا على الخبرِ، أيْ فهوَ لا يخافُ، أوْ فإنهُ لا يخافُ ﴿ظُلْمًا﴾ زيادةً عليهِ في سيئاتهِ ﴿وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ بالانتقاصِ منْ حقهِ.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أيْ بلغةِ العربِ ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ أيْ بينا ما فيهِ منَ التخويفِ والتهديدِ والثوابِ والعقابِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أيْ يخافونَ اللهَ فيجتنبونَ معاصيهِ، ويحذرونَ عقابهُ ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ أيْ موعظةً، وقيل: شرفًا كقوله : ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ أيْ جلَّ اللهُ، نزهَ نفسهُ عنِ الأولادِ والأندادِ ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ﴾، أيْ ذو الحقِّ ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ﴾ علمَ نبيهُ كيفَ يتلقى القرآنَ. قالَ ابنُ عباسٍ: كانَ ﷺ يبادرُ جبريلَ فيقرأُ قبلَ أنْ يفرغَ جبريلُ منَ الوحي حرصًا على الحفظِ، وشفقةً على القرآنِ مخافةَ النسيانِ، فنهاهُ اللهُ عنْ ذلكَ وأنزلَ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾. وهذا كقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾، وقيل: المعنى لا تلقهِ إلى الناسِ قبلَ أنْ يأتيكَ بيانُ تأويلهِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ لهُ معنيانِ:

أحدهما- تركَ، أيْ تركَ الأمرَ والعهدَ، وهذا قولُ أكثرُ المفسرينَ، ومنهُ ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ﴾.

وثانيهما: ﴿نَسِيَ﴾ هنا منَ السهوِ والنسيانِ، وإنما أخذ الإنسان من أنه عُهِدَ إليهِ فنسيَ.

ومعنى: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أيْ منْ قبلِ أنْ يأكلَ منَ الشجرةِ، لأنهُ نهيَ عنها.

قولِهِ: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ صبرًا عنْ أكلِ الشجرةِ، يقالُ: لفلانٍ عزمٌ أيْ صبرٌ وثباتٌ على التحفظِ منَ المعاصي حتى يسلمَ منها، ومنهُ. ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾، ولهذا قالَ قومٌ: آدمُ لمْ يكنْ منْ أولي العزمِ منَ الرسلِ، لأنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾. وقالَ المُعظم: كل الرسلِ أولو العزمِ، وفي الخبرِ: «ما منْ نبيٍّ إلا وقدْ أخطأَ أوْ همَّ بخطيئةٍ ما خلا يحيى بنَ زكريا» فلوْ خرجَ آدمُ بسببِ خطيئتهِ منْ جملةِ أولي العزمِ لخرجَ جميعُ الأنبياءِ سوى يحيى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا﴾ نهي، ومجازه لا تقبلا منهُ فيكونَ ذلكَ سببًا لخروجكما ﴿مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ يعني أنتَ وزوجكَ لأنهما في استواءِ العلةِ واحدٌ، ولمْ يقلْ: فتشقيا لأنَّ المعنى معروفٌ، وآدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هوَ المخاطبُ، وهوَ المقصودُ، وأيضًا لما كانَ الكادَّ عليها والكاسبَ لها كانَ بالشقاءِ أخصُّ. وقيل: الإخراج واقعٌ عليهما والشقاوةُ على آدمَ وحدهُ، وهوَ شقاوةُ البدنِ، ألا ترى أنهُ عقبهُ بقولهِ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾ أي في الجنة ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ فأعلمهُ أنَّ لهُ في الجنةِ هذا كلهُ: الكسوةُ والطعامُ والشرابُ والمسكنُ، وأنكَ إنْ ضيعتَ الوصيةَ، وأطعتَ العدوَّ أخرجكما منَ الجنةِ فشقيتَ تعبًا ونصبًا، أيْ جعتَ وعريتَ وظمئتَ وأصابتكَ الشمسُ.

وإنما خصهُ بذكرِ الشقاءِ ولمْ يقلْ فتشقيانِ: ليفهمهما أنَّ نفقةَ الزوجةِ على الزوجِ، فمنْ يومئذٍ جرتْ نفقةُ النساءِ على الأزواجِ، فلما كانتْ نفقةُ حواءَ على آدمَ كذلكَ نفقاتُ بناتها على بني آدمَ بحقِّ الزوجيةِ.

وأعلمنا في هذهِ الآيةِ أنَّ النفقةَ التي تجبُ للمرأةِ على زوجها هذهِ الأربعةُ: الطعامُ والشرابُ والكسوةُ والمسكنُ، فإذا أعطاها هذهِ الأربعةَ فقدْ خرجَ إليها منْ نفقتها، فإنْ تفضلَ بعدَ ذلكَ فهوَ مأجورٌ، فأما هذهِ الأربعةُ فلا بدَّ لها منها، لأنَّ بها إقامةَ المهجةِ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝١١٩﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾ أيْ في الجنةِ ﴿وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا﴾ أيْ لا تعطشُ، والظمأُ العطشُ ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾ أيْ تبرزُ للشمسِ فتجدُ حرها. إذْ ليسَ في الجنةِ شمسٌ، إنما هوَ ظلٌّ ممدودٌ، كما بينَ طلوعِ الفجرِ إلى طلوعِ الشمسِ.

وقرأَ أبو عمرو والكوفيونَ إلا عاصمًا في رواية أبي بكرٍ عنهُ: ﴿وَأَنَّكَ﴾ بفتح الهمزةِ عطفًا على ﴿أَلَّا تَجُوعَ﴾ والباقون بالكسر على الاستئناف، أو على العطف على ﴿إِنَّ لَكَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝١٢٠﴾ وهذا يدلُّ على المشافهةِ ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ تقدم في الأعراف مستوفى.

قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١﴾، فيهِ ستُّ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ﴾ تقدمَ في البقرة القول في ذنوب الأنبياء، وكلُّ ذلكَ مما لا يزري بمناصبهمْ، وإنما تلكَ الأمورُ التي وقعتْ منهمْ على جهةِ الندورِ، وعلى جهةِ الخطأِ والنسيانِ، أوْ تأويلِ دعا إلى ذلكَ، فهيَ بالنسبةِ إلى غيرهمْ حسناتٌ، وفي حقهمْ سيئاتٌ بالنسبةِ إلى مناصبهمْ، وعلوِّ أقدارهمْ، إذْ قدْ يؤاخذُ الوزيرُ بما يثابُ عليهِ السائسُ، فأشفقوا منْ ذلكَ في موقفِ القيامةِ، معَ علمهمْ بالأمنِ والأمانِ والسلامةِ. قالَ: وهذا هوَ الحقُّ. ولقدْ أحسنَ الجنيدُ حيثُ قالَ: حسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المقربينَ.

الثانية: قالَ القاضي أبو بكرِ بنُ العربيِّ: لا يجوزُ لأحدٍ منا اليومَ أنْ يخبرَ بذلكَ عنْ آدمَ إلا إذا ذكرناهُ في أثناءِ قولهِ تعالى عنهُ، أوْ قولِ نبيهِ، فأما أنْ يبتدئَ ذلكَ منْ قبلِ نفسهِ فليسَ بجائزٍ لنا في آبائنا الأدنينَ إلينا، المماثلينَ لنا، فكيفَ في أبينا الأقدمِ الأعظمِ الأكرمِ النبيِّ

المقدمِ، الذي عذرهُ اللهُ سبحانهُ وتعالى وتابَ عليهِ وغفرَ لهُ.

الثالثة: روى الأئمةُ واللفظ لمسلم عنْ أبي هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «احتجَّ آدمُ وموسى فقالَ موسى: يا آدمُ أنتَ أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة فقال له آدمُ: يا موسى اصطفاكَ اللهُ عزَّ وجلَّ بكلامهِ وخطَّ لكَ بيدهِ يا موسى: أتلومني على أمرٍ قدرهُ اللهُ عليَّ قبلَ أنْ يخلقني بأربعينَ سنةً فحجَّ آدمُ موسى ثلاثًا» أيْ غلبهُ بالحجةِ.

قالَ الليثُ بنُ سعدٍ: إنما صحتِ الحجةُ في هذهِ القصةِ لآدمَ على موسى عليهما السلام منْ أجلِ أنَّ اللهَ تعالى قدْ غفرَ لآدمَ خطيئتهُ وتابَ عليهِ، فلمْ يكنْ لموسى أنْ يعيرهُ بخطيئةٍ قدْ غفرها اللهُ تعالى لهُ، وقدْ قيلَ: إنَّ آدمَ عليه السلام أبٌ وليسَ تعييرهُ منْ برهِ أنْ لوْ كانَ مما يعيرُ بهِ غيرهُ، فإنَّ اللهَ تباركَ وتعالى يقولُ في الأبوينِ الكافرينِ: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾، ولهذا إنَّ إبراهيمَ عليه السلام لما قالَ لهُ أبوهُ وهوَ كافرٌ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ فكيفَ بأبٍ هوَ نبيٌّ قدِ اجتباهُ ربهُ وتاب عليه وهدى.

الرابعة: وأما منْ عملَ الخطايا ولمْ تأتهِ المغفرةُ، فإنَّ العلماءَ مجمعونَ على أنهُ لا يجوزُ لهُ أنْ يحتجَّ بمثلِ حجةِ آدمَ، فيقولُ تلومني على أنْ قتلتُ أوْ زنيتُ أوْ سرقتُ وقدْ قدرَ اللهُ عليَّ ذلكَ، والأمةُ مجمعةٌ على جوازِ حمدِ المحسنِ على إحسانهِ، ولومِ المسيءِ على إساءتهِ، وتعديدِ ذنوبهِ عليهِ.

الخامسة: قولهُ تعالى: ﴿فَغَوَىٰ﴾ أيْ ففسدَ عليهِ عيشهُ، وهوَ تأويلٌ حسنٌ وهوَ أولى منْ تأويلِ منْ يقولُ: ﴿فَغَوَىٰ﴾ معناهُ ضلَّ، منَ الغيِّ الذي هوَ ضدُّ الرشدِ. وقيل: معناهُ جهلَ موضعَ رشدهِ، أيْ جهلَ أنَّ تلكَ الشجرةَ هيَ التي نهيَ عنها، والغيُّ الجهلُ.

السادسة: يقالُ: عصى آدمُ وغوى ولا يقالُ لهُ عاصٍ ولا غاوٍ كما أنَّ منْ خاطَ مرةً يقالُ لهُ: خاطٌ ولا يقالُ لهُ خياطٌ ما لمْ يتكررْ منهُ الخياطةُ. وقيل: يجوزُ للسيدِ أنْ يطلقَ في عبدهِ عندَ معصيتهِ ما لا يجوزُ لغيرهِ أنْ يطلقهُ، وهذا تكلفٌ، وما أضيفَ منْ هذا إلى الأنبياءِ فإما أنْ تكونَ صغائرَ، أوْ تركَ الأولى، أوْ قبلَ النبوةِ.

قلتُ: هذا حسنٌ. قالَ الإمامُ أبو بكرِ بنِ فوركٍ رحمهُ اللهُ تعالى: كانَ هذا منْ آدمَ قبلَ

النبوةِ، ودليلُ ذلكَ قولهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ فذكرَ أنَّ الاجتباءَ والهدايةَ كانا بعدَ العصيانِ، وإذا كانَ هذا قبلَ النبوةِ فجائزٌ عليهمُ الذنوبَ وجهًا واحدًا، لأنَّ قبلَ النبوةِ لا شرعٌ علينا في تصديقهمْ، فإذا بعثهمُ اللهُ تعالى إلى خلقهِ وكانوا مأمونينَ في الأداءِ معصومينَ لمْ يضرَّ ما قدْ سلفَ منهمْ منَ الذنوبِ. وهذا نفيس والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ خطابُ آدمَ وإبليسَ ﴿مِنْهَا﴾ أيْ منَ الجنةِ. وقدْ قال لإبليس: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ فلعلهُ أخرجَ منَ الجنةِ إلى موضعٍ منَ السماءِ، ثمَّ أهبطَ إلى الأرضِ ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، وهذا يدلُّ على أنَّ قولهُ: ﴿ٱهْبِطَا﴾ ليسَ خطابًا لآدمَ وحواءَ، لأنهما ما كانا متعاديينِ، وتضمنَ هبوطُ آدمَ هبوطَ حواءَ ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ أيْ رشدًا وقولًا حقًا يعني الرسلَ والكتبَ ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ لا يضلَّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرةِ ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أيْ ديني، وتلاوةِ كتابي، ويحتملُ أنْ يحملَ الذكرُ على الرسولِ، لأنهُ كانَ منهُ الذكرُ ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أيْ عيشًا ضيقًا، وقال في المؤمن: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾.

وقالَ أبو هريرةَ: يضيقُ على الكافرِ قبرهُ حتى تختلفَ فيهِ أضلاعهُ، وهوَ المعيشةُ الضنكُ ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ عنِ الحيلةِ في دفعِ العذابِ عنْ نفسهِ، كالأعمى الذي لا حيلةَ لهُ فيما لا يراهُ ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ﴾ أيْ بأيِّ ذنبٍ عاقبتني بالعمى ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾ أيْ في الدنيا، وكأنهُ يظنُّ أنهُ لا ذنبَ لهُ، وقيل: أيْ: ﴿لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ﴾ عنْ حجتي ﴿وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ أيْ عالمًا بحجتي، وهوَ بعيدٌ إذْ ما كانَ للكافرِ حجةٌ في الدنيا ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا﴾ أيْ دلالاتنا على وحدانيتنا وقدرتنا ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ أيْ تركتها ولمْ تنظرْ فيها، وأعرضتَ عنها ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ أيْ تتركُ في العذابِ، يريدُ جهنمَ ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ أيْ وكما جزينا منْ أعرضَ عنِ القرآنِ، وعنِ النظرِ في المصنوعاتِ، والتفكيرِ فيها، وجاوزَ الحدَّ في المعصيةِ ﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ أيْ لمْ يصدقْ بها ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ﴾ أيْ أفظعُ منَ المعيشةِ الضنكِ، وعذابِ القبرِ ﴿وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ أيْ أدومُ وأثبتُ، لأنهُ لا ينقطعُ ولا ينقضي.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ يريدُ أهلَ مكةَ، أيْ أفلمْ يتبينْ لهمْ خبرُ منْ أهلكنا قبلهمْ منَ القرونِ يمشونَ في مساكنهمْ إذا سافروا وخرجوا في التجارةِ أفلا يخافونَ أنْ يحلَّ بهمْ مثلُ ما حلَّ بالكفارِ قبلهمْ.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا﴾، فيهِ تقديمٌ وتأخيرٌ، أيْ ولولا كلمةٌ سبقتْ منْ ربكَ وأجلٌ مسمى لكانَ لزامًا، واللزامُ الملازمةُ، أيْ لكانَ العذابُ لازمًا لهمْ ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ عطفٌ على ﴿كَلِمَةٌ﴾، والمرادُ القيامةُ.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ إنه ساحرٌ، إنهُ كاهنٌ، إنهُ كذابٌ، إلى غيرِ ذلكَ. والمعنى: لا تحفلْ بهمْ، فإنَّ لعذابهمْ وقتًا مضروبًا لا يتقدمُ ولا يتأخرُ. ثمَّ قيلَ: هذا منسوخٌ بآيةِ القتالِ. وقيل: ليسَ منسوخًا، إذْ لمْ يستأصلِ الكفارُ بعدَ آيةِ القتالِ بلْ بقيَ المعظم منهم.

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ قالَ أكثرُ المتأولينَ: هذا إشارةٌ إلى الصلواتِ الخمسِ ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ صلاةِ الصبحِ ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ صلاةِ العصرِ ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾ العتمةِ ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ المغربَ والظهرَ، لأنَّ الظهرَ في آخرِ طرفِ النهارِ الأولِ، وأولُ طرفِ النهارِ الآخرِ، فهيَ في طرفينِ منهُ، والطرفُ الثالثُ غروبُ الشمسِ وهوَ وقتُ المغربِ.

وَ ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ ساعاتهُ وواحدُ الآناءِ إنيٌ وإنى وأنى.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ بفتحِ التاءِ، أيْ لعلكَ تثابُ على هذهِ الأعمالِ بما ترضى بهِ. وقرأَ الكسائيُّ وأبو بكرٍ عنْ عاصمٍ: «تُرْضَى» بضمِّ التاءِ، أي لعلك تعطى ما يرضيك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾ وقدْ تقدمَ معناهُ في «الحجرِ» ﴿أَزْوَاجًا﴾ مفعولٌ بـ ﴿مَتَّعْنَا﴾. وَ ﴿زَهْرَةَ﴾ نصبَ على الحالِ. يعني زينتها بالنباتِ. والزهرةُ، بالفتحِ في الزاي والهاءِ نورُ النباتِ. والزُهَرةُ بضمِّ الزاي وفتح الهاءِ النجمُ ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أيْ لنبتليهمْ. وقيل: لنجعلَ ذلكَ فتنةً لهمْ وضلالًا، ومعنى الآيةِ: لا تجعلْ يا محمدُ لزهرةِ الدنيا وزنًا، فإنهُ لا بقاءَ لها. ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ﴾ أبلغُ منْ لا تنظرنَّ، لأنَّ الذي يمدُّ بصرهُ،

إنما يحملهُ على ذلكَ حرصٌ مقترنٌ، والذي ينظرُ قدْ لا يكونُ ذلكَ معهُ. ثمَّ سلّاهُ فقالَ: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ أيْ ثوابُ اللهِ على الصبرِ وقلةِ المبالاةِ بالدنيا أولى، لأنهُ يبقى والدنيا تفنى. وقيل: يعني بهذا الرزقِ ما يفتحُ اللهُ على المؤمنينَ منَ البلادِ والغنائمِ.

قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ الخطاب للنبيِّ ﷺ ويدخلُ في عمومِهِ جميعُ أمتِهِ، وأهلُ بيتِهِ على التخصيصِ.

قوله تعالى: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ نحنُ نتكفلُ برزقكَ وإياهمْ، وقدْ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ أيِ الجنةُ لأهلِ التقوى، يعني العاقبةُ المحمودةُ وقدْ تكونُ لغيرِ التقوى عاقبة ولكنها مذمومة فهي كالمعدومة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ يريدُ كفارَ مكةَ، أيْ لولا يأتينا محمدٌ بآيةٍ توجبُ العلمَ الضروريَّ. أوْ بآيةٍ ظاهرةٍ كالناقةِ والعصا، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾ يريدُ التوراةَ والإنجيلَ والكتبَ المتقدمةَ، وقيل: أو لم يأتِهمْ إهلاكنا الأممَ الذينَ كفروا واقترحوا الآياتِ، فما يؤمنهمْ إنْ أتتهمُ الآياتُ أنْ يكونَ حالُهمْ حالَ أولئكَ. وقرأَ أبو جعفرٍ ونافعٌ وأبو عمرو ويعقوبُ وحفص: «أولم تأتِهم» بالتاءِ لتأنيثِ البينةِ. الباقونَ بالياءِ لتقدمِ الفعلِ ولأنَّ البينةَ هيَ البيانُ والبرهانُ فردوهُ إلى المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أيْ منْ قبلِ بعثةِ محمدٍ ﷺ ونزولِ القرآنِ ﴿لَقَالُوا۟﴾ أيْ يومَ القيامة ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ أيْ هلا أرسلتَ إلينا رسولًا ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾ في الدنيا ﴿وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ في الآخرةِ.

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾ أيْ كلُّ المؤمنينَ والكافرينَ منتظرٌ دوائرَ الزمانِ ولمن يكون النصر ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾ يريدُ الدينَ المستقيمَ والهدى، وفي هذا ضربٌ منَ الوعيدِ والتخويفِ والتهديد ختم به السورة.

سورة الأنبياء

مكيةٌ في قولِ الجميعِ وهيَ مائة واثنتا عشرة آية

قالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ: الكهفُ ومريمُ وطه والأنبياءُ من العتاق الأول، وهن من تلادي يريد منْ قديمِ ما كسبَ وحفظَ منَ القرآنِ كالمالِ التلادِ.

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ

قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ أي قرب الوقت الذي يحاسبونَ فيهِ على أعمالِهمْ. ﴿لِلنَّاسِ﴾ قالَ ابنُ عباسٍ: المرادُ بالناسِ هنا المشركونَ بدليلِ قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ إلى قولهِ: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾. وقيل: الناسُ عمومٌ وإنْ كانَ المشارُ إليهِ في ذلكَ الوقتِ كفارَ قريشٍ، يدلُّ على ذلكَ ما بعدُ منَ الآياتِ، ومنْ علمَ اقترابَ الساعةِ قصرَ أملهُ، وطابتْ نفسهُ بالتوبةِ، ولمْ يركنْ إلى الدنيا، فكأنَّ ما كانَ لمْ يكنْ إذا ذهبَ، وكلُّ آتٍ قريبٌ، والموتُ لا محالةَ آتٍ، وموتُ كلِّ إنسانٍ قيامُ ساعتهِ، والقيامةُ أيضًا قريبةٌ بالإضافةِ إلى ما مضى منَ الزمانِ، فما بقيَ منَ الدنيا أقلُّ مما مضى.

﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ بالدنيا عنِ الآخرةِ، أو عنِ التأهبِ للحسابِ وعما جاءَ بهِ محمدٌ ﷺ.

قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ ﴿مُّحْدَثٍ﴾ نعتٌ لِـ ﴿ذِكْرٍ﴾ يريدُ في النزولِ وتلاوةِ جبريلَ على النبيِّ ﷺ، فإنهُ كانَ ينزلُ سورةً بعدَ سورةٍ، وآيةً بعدَ آيةٍ، كما كانَ ينزلهُ اللهُ تعالى عليهِ في وقتٍ بعدَ وقتٍ، لا أنَّ القرآنَ مخلوقٌ. وقيل: الذكرُ ما يذكرهمْ بهِ النبيُّ ﷺ ويعظهمْ بهِ. وقالَ: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ لأنَّ النبيَّ ﷺ لا ينطقُ إلا بالوحي، فوعظُ النبيِّ ﷺ وتحذيرهُ ذكرٌ، وهوَ محدثٌ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾، وقيل: الذكرُ الرسولُ نفسهُ بدليلِ ما في سياقِ الآيةِ: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، ولوْ أرادَ بالذكرِ القرآنَ لقالَ: هلْ هذا إلا أساطيرُ الأولينَ، ودليلُ هذا التأويلِ قولهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني محمدًا ﷺ. وقالَ: ﴿قدْ أنزلَ اللهُ إليكمْ ذكرًا

رسولًا﴾.

﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ﴾ يعني محمدًا ﷺ، أوِ القرآنَ منَ النبيِّ ﷺ أوْ منْ أمتهِ. ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾ الواو واو الحال يدل عليه: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ ومعنى. ﴿يَلْعَبُونَ﴾ أيْ يلهونَ بلذاتهمْ أو بالدنيا لأنها لعبٌ، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ معرضةً عنْ ذكرِ اللهِ ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾ أيْ تناجوا فيما بينهمْ بالتكذيبِ، ثمَّ بينَ منْ همْ فقالَ: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أيِ الذينَ أشركوا.

قوله تعالى: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ يأكلُ الطعامَ، ويمشي في الأسواقِ ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ﴾ أيْ إنَّ الذي جاءَ بهِ محمدٌ ﷺ سحرٌ ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣﴾. أنه إنسان مثلكم.

قوله تعالى: ﴿قُل رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا يخفي عليه شيء مما يقالُ في السماءِ والأرضِ. وفي مصاحفِ أهلِ الكوفةِ: ﴿قَالَ رَبِّي﴾ أيْ قالَ محمدٌ ربي يعلمُ القولَ، أيْ هوَ عالمٌ بما تناجيتمْ بهِ، والقراءتانِ صحيحتانِ وهما بمنزلةِ الآيتينِ، وفيهما منَ الفائدةِ أنَّ النبيَّ ﷺ أُمرَ وأنه قال كما أمر.

قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أخلاطٌ كالأحلام المختلطةِ، أيْ أهاويلُ رآها في المنامِ، والأضغاثُ ما لمْ يكنْ لهُ تأويلٌ، فلما رأوا أنَّ الأمرَ ليسَ كما قالوا انتقلوا عنْ ذلك فقالوا: ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ ثمَّ انتقلوا عنْ ذلكَ فقالوا: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ أيْ همْ متحيرونَ لا يستقرونَ على شيء: قالوا مرةً سحرٌ، ومرةً أضغاثُ أحلامٍ، ومرةً افتراهُ، ومرةً شاعرٌ. وقيل: أيْ قالَ فريقٌ إنهُ ساحرٌ: وفريقٌ إنهُ أضغاثُ أحلامٍ، وفريقٌ إنهُ افتراهُ، وفريقٌ إنهُ شاعرٌ. والافتراءُ الاختلاقُ.

﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥﴾ كعصا موسى أو ناقةِ صالح، إنما كانَ سؤالهمْ تعنتًا إذْ كانَ اللهُ أعطاهمْ منَ الآياتِ ما فيهِ كفايةٌ. وبينَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنهمْ لوْ كانوا يؤمنونَ لأعطاهمْ ما سألوهُ لقولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ﴾ كقوم صالح وقوم فرعونَ ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾ يريدُ كانَ في علمنا هلاكها ﴿أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ٦﴾ يريدُ يصدقونَ.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ﴾ هذا ردٌّ عليهمْ في قولهمْ: ﴿هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ﴾ وتأنيسٌ لنبيهِ ﷺ، أيْ لم يرسل قبلك إلا رجالا.

﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧﴾ يريدُ أهلَ التوراةِ والإنجيلِ الذينَ آمنوا بالنبيِّ ﷺ، وسماهمْ أهلَ الذكرِ، لأنهمْ كانوا يذكرونَ خبرَ الأنبياءِ مما لمْ تعرفهُ العربُ، وكانَ كفارُ قريشٍ يراجعونَ أهلَ الكتابِ في أمرِ محمدٍ ﷺ، وقيل: أرادَ بالذكرِ القرآنَ، أيْ فاسألوا المؤمنينَ العالمينَ منْ أهلِ القرآنِ.

مسألةٌ- لمْ يختلفِ العلماءُ أنَّ العامةَ عليها تقليدُ علمائها، وأنهمُ المرادُ بقولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ وأجمعوا على أن الأعمى لا بد لهُ منْ تقليدِ غيرهِ ممنْ يثقُ بميزهِ بالقبلةِ إذا أشكلتْ عليهِ، فكذلكَ منْ لا علمَ لهُ ولا بصرَ بمعنى ما يدينُ بهِ لا بدَّ لهُ منْ تقليدِ عالمهِ، وكذلكَ لمْ يختلفِ العلماءُ أنَّ العامةَ لا يجوزُ لها الفتيا، لجهلها بالمعاني التي منها يجوزُ التحليلُ والتحريمُ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ الضميرُ في ﴿جَعَلۡنَٰهُمۡ﴾ للأنبياءِ ﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ٨﴾ جوابٌ لقولهمْ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾، وقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾. وَ ﴿جَسَدٗا﴾ اسمُ جنسٍ، ولهذا لمْ يقلْ أجسادًا، وقيل: لمْ يقلْ أجسادًا لأنهُ أرادَ وما جعلنا كلَّ واحدٍ منهمْ جسدًا. والجسدُ البدنُ، تقولُ منهُ: تجسدَ كما تقولُ منَ الجسمِ تجسمَ.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ﴾ يعني الأنبياءَ بإنجائهمْ ونصرهم وإهلاك مكذبيهم ﴿وَمَن نَّشَآءُ﴾ أي الذينَ صدقوا الأنبياءَ ﴿وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٩﴾ أي المشركينَ.

قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا﴾ يعني القرآنَ ﴿فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ﴾ أي شرفكم، مثل ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾، وقيل: فيهِ ذكركمْ أيْ ذكرُ أمرِ دينكمْ.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ القصمُ الكسرُ، وهو الإهلاكُ. وأما الفصمُ بالفاءِ فهوَ الصدعُ في الشيءِ منْ غيرِ بينونة ومنهُ الحديثُ «فيفصمُ عنهُ وإنَّ جبينهُ ليتفصدُ عرقًا».

وقولهُ: ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أيْ كافرةً، يعني أهلها. والظلمُ وضعُ الشيءِ في غيرِ موضعهِ، وهمْ وضعوا الكفرَ موضعَ الإيمانِ ﴿وَأَنشَأْنَا﴾ أيْ أوجدنا وأحدثنا بعدَ إهلاكهمْ ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾ ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ﴾ أيْ رأوا عذابنا، وقيل: خافوا وتوقعوا ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾﴾ أيْ يهربونَ ويفرونَ. والركضُ العدو بشدة الوطي. والركض تحريكُ الرجلِ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾. ﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾ أيْ لا تفروا. وقيل: إنَّ الملائكةَ نادتهمْ لما انهزموا استهزاءً بهمْ وقالتْ: ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ أيْ إلى نعمكمُ التي كانتْ سببَ بطركمْ، والمترفُ المتنعمُ وسعَ عليهِ في معاشهِ. وإنما أترفهمُ اللهُ عزَّ وجلَّ كما قالَ: ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾ شيئًا منْ دنياكمْ، استهزاءً بهم، وقيل: المعنى ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ عما نزلَ بكمْ منَ العقوبةِ فتخبرونَ بهِ قيلَ لهمْ ذلكَ استهزاءً وتقريعًا وتوبيخًا ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ﴾ اعترفوا بأنهمْ ظلموا حينَ لا ينفعُ الاعترافُ ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أيْ لمْ يزالوا يقولونَ: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا﴾ أيْ بالسيوفِ كما يحصدُ الزرعُ بالمنجلِ، أو بالعذابِ ﴿خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ أيْ ميتينَ، والخمودُ الهمودُ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ أيْ عبثًا وباطلًا، بلْ للتنبيهِ على أنَّ لها خالقًا قادرًا يجازي المسيءَ.

قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ امرأةً أو ولدًا ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ أيْ منْ عندنا لا منْ عندكمْ منْ أهلِ السماءِ لا منْ أهلِ الأرضِ. قيلَ: أرادَ الردَّ على منْ قالَ إنَّ الأصنامَ بناتُ اللهِ، أيْ كيفَ يكونُ منحوتكمْ ولدًا لنا، أو هي ردٌّ على النصارى ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ ما كنا فاعلينَ، مثلَ ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي ما أنت إلا نذير. وقيل: إنهُ على معنى الشرطِ، أيْ إنْ كنا فاعلينَ ذلكَ ولكنْ لسنا بفاعلينَ ذلكَ لاستحالةِ أنْ يكونَ لنا ولدٌ.

قوله تعالى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ﴾ القذفُ الرميُ ﴿فَيَدۡمَغُهُۥ﴾ أيْ يقهرهُ، وأصلُ الدمغِ شجُّ الرأسِ حتى يبلغَ الدماغَ، ومنهُ الدامغةُ. والحقُّ هنا القرآنُ، والباطلُ الشيطانُ أو كذبهمْ ووصفهمُ اللهَ عزَّ وجلَّ بغيرِ صفاتهِ منَ الولدِ وغيرهِ ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾ أيْ هالكٌ وتالفٌ ﴿وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ﴾ أيِ العذابُ في الآخرة أو وادٍ في جهنمَ، ﴿مِمَّا تَصِفُونَ ١٨﴾ أيْ مما تكذبونَ، نظيره: ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ﴾ أيْ بكذبهمْ.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أيْ مُلكًا وخلقًا فكيفَ يجوزُ أنْ يشركَ بهِ ما هوَ عبدهُ وخلقهُ ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ﴾ يعني الملائكةَ الذينَ ذكرتمْ أنهمْ بناتُ اللهِ ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ أيْ لا يأنفونَ ﴿عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ والتذللِ لهُ ﴿وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩﴾ أيْ يعيونَ، مأخوذٌ منَ الحسيرِ وهو البعيرُ المنقطعُ بالإعياءِ والتعبِ، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يصلونَ ويذكرونَ اللهَ وينزهونهُ ﴿لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ أيْ لا يضعفونَ ولا يسأمونَ، يلهمونَ التسبيحَ والتقديسَ كما يلهمونَ النفسَ.

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١﴾ الاستفهام للجحد، أيْ لمْ يتخذوا آلهةً تقدرُ على الإحياءِ. وقيل: ﴿أَمِ﴾ بمعنى «هلْ» ولا تكونُ ﴿أَمِ﴾ هنا بمعنى بلْ.

قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ بوقوعِ التنازعِ بالاختلافِ الواقعِ بينَ الشركاءِ ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢﴾ نزهَ نفسهُ وأمرَ العبادَ أنْ ينزهوهُ عنْ أنْ يكونَ لهُ شريكٌ أوْ ولدٌ.

قوله تعالى: ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣﴾ قاصمةٌ للقدريةِ وغيرهمْ. والمعنى: لا يسأله الخلقُ عنْ قضائهِ في خلقهِ وهوَ يسألُ الخلقَ عنْ عملهمْ.

ورويَ عنْ عليٍّ رضي عنهُ أنَّ رجلًا قالَ لهُ يا أميرَ المؤمنينَ: أيحبُّ ربنا أنْ يعصى؟ قالَ: أفيعصى ربنا قهرًا؟ قالَ: أرأيتَ إنْ منعني الهدى ومنحني الردى أأحسنَ إليَّ أمْ أساءَ؟ قالَ: إنْ منعكَ حقكَ فقدْ أساءَ، وإنْ منعكَ فضله فهو يؤتيهِ منْ يشاءُ. ثمَّ تلا الآيةَ: ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ أعادَ التعجبَ في اتخاذِ الآلهةِ منْ دونِ اللهِ مبالغةً في التوبيخِ ﴿هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ﴾ بإخلاصِ التوحيدِ في القرآنِ ﴿وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ﴾ في التوراةِ والإنجيلِ، وما أنزلَ اللهُ منَ الكتبِ، فانظروا هلْ في كتابٍ منْ هذهِ الكتبِ أنَّ اللهَ أمرَ باتخاذِ آلهةٍ سواهُ؟ فالشرائعُ لمْ تختلفْ فيما يتعلقُ بالتوحيدِ، وإنما اختلفتْ في الأوامرِ والنواهي.

﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٤﴾ أيْ عنِ الحقِّ وهوَ القرآنُ، فلا يتأملون حجة التوحيد.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا يُوحِىٓ إِلَيۡهِ﴾ وقرأَ حفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿نُوحِىٓ إِلَيۡهِ﴾ بالنونِ، لقولهِ: ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾ ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾ أيْ قلنا للجميعِ لا إلهَ إلا الله، فأدلة العقلِ شاهدةٌ أنهُ لا شريكَ لهُ، والنقلُ عنْ جميعِ الأنبياءِ موجودٌ، والدليلُ إما معقولٌ وإما منقولٌ. وقالَ قتادةُ: لمْ يرسلْ نبيٌّ إلا بالتوحيدِ، والشرائعُ مختلفةٌ في التوراةِ والإنجيلِ والقرآن، وكل ذلك على الإخلاص والتوحيد.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ﴾ حيثُ قالوا: الملائكةُ بناتُ اللهِ، وكانوا يعبدونهمْ طمعًا في شفاعتهمْ لهمْ. ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهًا لهُ ﴿بَلۡ عِبَادٞ﴾ أيْ بلْ همْ عبادٌ ﴿مُّكۡرَمُونَ ٢٦﴾ أيْ ليسَ كما زعمَ هؤلاءِ الكفارُ ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ أيْ لا يقولونَ حتى يقولَ، ولا يتكلمونَ إلا بما يأمرهمْ ﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧﴾ أيْ بطاعتهِ وأوامرهِ. ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أيْ يعلمُ ما عملوا وما همْ عاملونَ ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ وهمْ أهلُ شهادةِ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، والملائكةُ يشفعونَ غدًا في الآخرةِ كما في صحيح مسلمٍ وغيرهِ، وفي الدنيا أيضًا، فإنهمْ يستغفرونَ للمؤمنينَ ولمنْ في الأرضِ، كما نصَّ عليهِ التنزيلُ على ما يأتي ﴿وَهُم﴾ يعني الملائكةَ ﴿مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ﴾ يعني منْ خوفهِ ﴿مُشۡفِقُونَ ٢٨﴾ أيْ خائفونَ لا يأمنونَ مكرهُ.

قوله تعالى: ﴿۞وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ﴾. وهذا دليلٌ على أنهمْ وإنْ أكرموا بالعصمةِ فهمْ متعبدونَ، وليسوا مضطرينَ إلى العبادةِ كما ظنهُ بعضُ الجهالِ، وقدِ استدلَّ ابنُ عباسٍ بهذهِ الآيةِ على أنَّ محمدًا ﷺ أفضلُ أهلِ السماءِ ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾ الواضعينَ الألوهيةَ والعبادةَ في غيرِ موضعهما.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ قراءةُ العامةِ ﴿أَوَلَمْ﴾ بالواوِ. وقرأ ابنُ كثيرٍ «أَلَمْ يَرَ» بغيرِ واوٍ وكذلكَ هوَ في مصحفِ مكةَ. و﴿يَرَ﴾ بمعنى يعلمْ. ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ الرتقُ السدُّ ضدُّ الفتقِ، وقدْ رتقتُ الفتقَ أرتقهُ فارتتقَ أي التأمَ، ومنهُ الرتقاءُ للمنضمةِ الفرجِ، يعني أنها كانتْ شيئًا واحدًا ملتزقتينِ ففصلَ اللهُ بينهما بالهواءِ، وقولٌ ثانٍ: كانت السموات مؤتلفة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع سموات، وكذلكَ الأرضينَ كانتْ مرتتقةً طبقةً واحدةً ففتقها فجعلها سبعًا، وقولٌ ثالثٌ: فتقَ السماءَ بالمطرِ، والأرضَ بالنباتِ، نظيرهُ قولهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ١١ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾. واختارَ هذا القولَ الطبريُّ،، لأنَّ بعدهُ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ٣٠﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۚ﴾ ثلاثُ تأويلاتٍ:

أحدها: أنه خلق كل شيء منَ الماءِ.

الثاني- حفظُ حياةِ كل شيء بالماءِ.

الثالثُ- وجعلنا منْ ماءِ الصلبِ كلَّ شيء حيٍّ.

وقيل: الكلُّ قدْ يذكرُ بمعنى البعض كقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، وقوله: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾، والصحيح العموم، لقوله ﷺ: «كل شيء خلقَ منَ الماءِ» واللهُ أعلمُ ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ٣٠﴾ أيْ أفلا يصدقونَ بما يشاهدونَ، وأنَّ ذلكَ لمْ يكنْ بنفسهِ، بلْ لمكونٍ كونهُ، ومدبرٍ أوجدهُ، ولا يجوزُ أنْ يكونَ ذلكَ المكونُ محدثًا.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ أيْ جبالًا ثوابتَ ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أيْ لئلا

تميدَ بهمْ، ولا تتحركَ ليتمَّ القرارُ عليها ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا﴾ يعني في الرواسي، والفجاجُ المسالكُ. والفجُّ الطريقُ الواسعُ بينَ الجبلينِ. وقيل: وجعلنا في الأرضِ فجاجًا أي مسالك ﴿سُبُلًا﴾ تفسيرُ الفجاجِ، لأنَّ الفجَّ قدْ يكونُ طريقًا نافذًا مسلوكًا وقدْ لا يكونُ.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ منْ أنْ يقعَ ويسقطَ على الأرضِ، دليلهُ قولهُ تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾. وقيل: محفوظًا بالنجومِ منَ الشياطينِ، دليلهُ قولهُ تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾، وقيل: محفوظًا فلا يحتاجُ إلى عمادٍ، وقيل: محفوظًا منَ الشركِ والمعاصي ﴿وَهُمْ﴾ يعني الكفارَ ﴿عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ يعني الشمسَ والقمرَ. وأضافَ الآياتِ إلى السماءِ لأنها مجعولةٌ فيها، وقدْ أضافَ الآياتِ إلى نفسهِ في مواضعَ، لأنهُ الفاعلُ لها.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ ذكرهمْ نعمةً أخرى أن جعل الليل ليسكنوا فيه، والنهار ليتصرفوا فيه لمعايشهم ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ الشمسَ آيةَ النهارِ، والقمرَ آيةَ الليلِ، لتُعلمَ الشهورُ والسنونَ والحسابُ، كما تقدمَ في «سبحانَ» بيانهُ.

﴿كُلٌّ﴾ يعني منَ الشمسِ والقمرِ والنجومِ والكواكبِ والليلِ والنهارِ ﴿فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ يجرونَ بسرعةٍ كالسابحِ في الماءِ. قالَ اللهُ تعالى وهوَ أصدقُ القائلينَ: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا﴾، وفيهِ منَ النحوِ أنهُ لمْ يقلْ: يسبحنَ ولا تسبحُ، لأنهُ أخبرَ عنهنَّ بفعلِ منْ يعقلُ فجعلهنَّ في الطاعةِ بمنزلةِ منْ يعقلُ، وقيل: إنما قالَ: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ لأنهُ رأسُ آيةٍ، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ ولمْ يقلْ منتصرونَ.

والفلكُ أصلها منَ الدورانِ، ومنهُ فلكةُ المغزلِ، لاستدارتها، والأفلاكُ مجاري النجومِ والشمسِ والقمرِ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ في الدنيا، نزلتْ حينَ قالوا: شاعرٌ نتربصُ بهِ ريبَ المنونِ، ولعلهُ يموتُ كما ماتَ شاعرُ بني فلانٍ ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ قرئ «مُت» و «مِتَّ» بكسرِ الميمِ وضمها لغتانِ.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ نختبركمْ بالشدةِ

والرخاءِ والحلالِ والحرامِ، فننظرَ كيفَ شكركمْ وصبركم ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي للجزاء بالأعمال.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أيْ ما يتخذونكَ. والهزءُ السخرية، وهم المستهزءون المتقدمو الذكرِ في آخرِ سورةِ «الحجرِ» في قوله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾. كانوا يعيبونَ منْ جحدَ إلهيةَ أصنامهمْ وهمْ جاحدونَ لإلهيةِ الرحمنِ، وهذا غايةُ الجهلِ ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى﴾ أيْ يقولونَ: أهذا الذي؟ فأضمرَ القولَ وهوَ جوابُ ﴿إِذَا﴾ وقولهُ: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ كلامٌ معترضٌ بينَ ﴿إِذَا﴾ وجوابِهِ ﴿يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أيْ بالسوءِ والعيبِ ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أيْ بالقرآنِ ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ ﴿هُمْ﴾ الثانيةُ توكيدُ كفرهمْ، أيْ همُ الكافرونَ مبالغة في وصفهم بالكفر.

قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أيْ ركبَ على العجلةِ فخلقَ عجولًا، فيستعجلُ كثيرًا منَ الأشياءِ وإنْ كانتْ مضرةً. ثمَّ قيلَ: المرادُ بالإنسانِ آدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقيل: المرادُ بالإنسانِ الناسُ كلهمْ.

﴿سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾ هذا يقوي أنَّ طبعَ الإنسانِ العجلةُ، وأنهُ خلقَ خلقًا لا يتمالكُ، والمرادُ بالآياتِ ما دلَّ على صدقِ محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منَ المعجزاتِ، وما جعلهُ لهُ منَ العاقبةِ المحمودةِ. وقيل: ما طلبوهُ منَ العذابِ، فأرادوا الاستعجال وقالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؟ وما علموا أن لكل شيء أجلا مضروبا.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أيِ الموعودُ، كما يقالُ: اللهُ رجاؤنا أيْ مرجونا. وقيل: معنى ﴿ٱلْوَعْدُ﴾ هنا الوعيدُ، أيِ الذي يعدنا منَ العذابِ. وقيل: القيامةُ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ يا معشر المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ جوابُ ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ، أيْ لوْ علموا الوقتَ الذي ﴿لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ وعرفوهُ، لَمَا استعجلوا الوعيدَ، وقيل: أيْ لعلموا صدقَ الوعدِ. وقيل: المعنى لوْ علموهُ لما أقاموا على الكفرِ ولآمنوا. وقيل: هوَ تنبيهٌ على تحقيقِ وقوعِ الساعةِ، أيْ لوْ علموهُ علمَ يقينٍ لعلموا

أنَّ الساعةَ آتيةٌ. ودلَّ عليهِ ﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ﴾ أيْ فجأةً يعني القيامةَ. وقيل العقوبة. وقيل: النار فلا يتمكنون حيلةٍ ﴿فَتَبۡهَتُهُمۡ﴾. تحيرهمْ أو فتفجأهمْ ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أيْ صرفها عنْ ظهورهمْ ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٤٠﴾ أيْ لا يمهلونَ ويؤخرون لتوبة واعتذار.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ هذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ وتعزيةٌ لهُ ثمَّ وعدهُ النصرَ فقالَ: ﴿فَحَاقَ﴾ أيْ أحاطَ ودارَ ﴿بِٱلَّذِينَ﴾ كفروا وَ ﴿سَخِرُواْ مِنۡهُم﴾ وهزءوا بهم ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٤١﴾ أي جزاء استهزائهم.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم﴾ يحرسكمْ ويحفظكمْ ﴿بِٱلَّيۡلِ﴾ إذا نمتم «وَ» ب ﴿ٱلنَّهَارِ﴾ إذا قمتمْ وتصرفتمْ في أموركمْ ﴿مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أيْ منْ عذابهِ وبأسهِ، كقوله تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ أيْ منْ عذابِ اللهِ. والخطابُ لمنِ اعترفَ منهمْ بالصانعِ، أيْ إذا أقررتمْ بأنهُ الخالقُ، فهوَ القادرُ على إحلالِ العذابِ الذي تستعجلونهُ ﴿بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم﴾ أيْ عنِ القرآنِ. وقيل: عنْ مواعظِ ربهمْ وقيل: عنْ معرفتهِ ﴿مُّعۡرِضُونَ ٤٢﴾ لاهونَ غافلونَ.

قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ المعنى: ألهمْ والميمُ صلةٌ ﴿تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ﴾ أيْ منْ عذابنا ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ يعني الذينَ زعمَ هؤلاءِ الكفارُ أنهمْ ينصرونهمْ لا يستطيعونَ ﴿نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ﴾ فكيفَ ينصرونَ عابديهمْ ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ٤٣﴾ يجارونَ.

قوله تعالى: ﴿بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ﴾ يريدُ أهلَ مكةَ ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ﴾ في النعمةِ فظنوا أنها لا تزول عنهم، فاغتروا ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ﴾ أيْ بالظهورِ عليها لكَ يا محمدُ أرضًا بعدَ أرضٍ، وفتحها بلدًا بعدَ بلدٍ مما حولَ مكةَ ﴿أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٤٤﴾ يعني كفارَ مكةَ بعدَ أنْ نقصنا منْ أطرافهم، بل أنت تغلبهم وتظهر عليهم.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ﴾ أيْ بالقرآنِ ﴿وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ أيْ منْ أصمَّ اللهُ قلبهُ، وختمَ على سمعهِ، وجعلَ على بصرهِ غشاوةً، عنْ فهمِ الآياتِ وسماعِ الحقِّ. قرأَ ابنُ عامرٍ «وَلَا تُسْمِعُ» بتاءٍ مضمومةٍ وكسرِ الميمِ ﴿ٱلصُّمَّ﴾ نصبًا، أيْ إنكَ يا محمدُ

«لَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ»، فالخطابُ للنبيِّ ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ طرفٌ مأخوذة من نفح المسك ﴿لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٤٦﴾ أيْ متعدينَ. فيعترفونَ حينَ لا ينفعهمُ الاعتراف.

قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ﴾ الموازينُ جمعُ ميزانٍ. فقيلَ: إنهُ يدلُّ بظاهرِهِ على أنَّ لكلِّ مكلفٍ ميزانًا توزنُ بهِ أعمالهُ، فتوضعُ الحسناتُ في كفةٍ، والسيئاتُ في كفةٍ. وقيل: يجوزُ أنْ يكونَ هناكَ موازينُ للعاملِ الواحدِ، يوزنُ بكلِ ميزانٍ منها صنفٌ منْ أعمالهِ، و ﴿ٱلْقِسْطَ﴾ العدلُ أيْ ليسَ فيها بخسٌ ولا ظلمٌ كما يكونُ في وزن الدنيا. و ﴿ٱلْقِسْطَ﴾ صفةُ الموازين، ووحّدَ لأنهُ مصدرٌ، ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أيْ لأهلِ يومِ القيامةِ. وقيل: المعنى في يومِ القيامةِ. ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ﴾ أيْ لا ينقصُ منْ إحسانِ محسنٍ ولا يزاد في إساءة مسيء ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ قرأَ نافعٌ وأبو جعفرٍ «مِثْقَالُ حَبَّةٍ» بالرفعِ هنا وفي «لقمانَ» على معنى إنْ وقعَ أوْ حضرَ، فتكونُ كانَ تامةً ولا تحتاجُ إلى خبرِ الباقونَ: ﴿مِثْقَالَ﴾ بالنصبِ على معنى وإنْ كانَ العملُ أوْ ذلكَ الشيءُ مثقالَ. ومثقالُ الشيءِ ميزانهُ منْ مثلهِ ﴿أَتَيْنَا بِهَا ۗ﴾ مقصورة الالف قراءة الجمهور أي أحضرناها للمجازاةِ عليها ولها، وقيل: مثقالُ الحبةِ ليسَ شيئًا غيرَ الحبةِ فلهذا قالَ: ﴿أَتَيْنَا بِهَا ۗ﴾. وقرأَ مجاهدٌ وعكرمةُ: «آتَيْنَا» بالمدِّ على معنى جازينا بها. يقالُ: آتى يؤاتي مؤاتاة ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾ أي مجازين على ما قدموهُ منْ خيرٍ وشرٍّ. وقيل: ﴿حَٰسِبِينَ﴾ أي لا أحدَ أسرعُ حسابًا منا. والحسابُ العدُّ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً﴾ ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ التوراةُ، لأنَّ فيها الفرقَ بينَ الحرامِ والحلالِ. قالَ: ﴿وَضِيَآءً﴾ مثلَ ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ وقيل: هنا هوَ النصرُ على الأعداءِ، دليلهُ قولهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ يعني يومَ بدرٍ ﴿لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ يخشونهُ في سرائرهمْ، وخلواتهمُ التي يغيبونَ فيها عنِ الناسِ ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ﴾ أيْ منْ قيامها قبلَ التوبةِ ﴿مُشْفِقُونَ ۝٤٩﴾ أيْ خائفونَ وجلونَ ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ﴾ يعني القرآنَ ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ﴾ يا معشرَ العربِ ﴿مُنكِرُونَ

﴿٥٠﴾ وهوَ معجزٌ لا تقدرونَ على الإتيانِ بمثلِهِ.

قوله تعالى: ﴿۞وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ أعطيناهُ هداهُ ﴿مِن قَبْلُ﴾ منْ قبلِ النبوةِ، أيْ وفقناهُ للنظرِ والاستدلالِ، لما جنَّ عليهِ الليلُ فرأى النجمَ والشمسَ والقمرَ. وقيل: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أيْ منْ قبلِ موسى وهرون. والرشدُ على هذا النبوةُ. وعلى الأولِ أكثرُ أهلِ التفسيرِ، كما قالَ ليحيى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ أيْ أنهُ أهلٌ.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ قيلَ: المعنى أيِ اذكرْ حينَ قالَ لأبيهِ، فيكونُ الكلامُ قدْ تمَّ عندَ قولهِ: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾. وقيل: المعنى وكنا بهِ عالمينَ إذْ قالَ: فيكونُ الكلامُ متصلًا ولا يوقفُ على قولهِ: ﴿عَٰلِمِينَ﴾. ﴿لِأَبِيهِ﴾ وهوَ آزرُ ﴿وَقَوْمِهِۦ﴾ نمرودُ ومنِ اتبعهُ ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ أيِ الأصنامُ. والتمثالُ اسمٌ موضوعٌ للشيءِ المصنوعِ مشبهًا بخلقٍ منْ خلقِ اللهِ تعالى. يقالُ: مثلتُ الشيءَ بالشيءِ أيْ شبهتهُ بهِ. واسمُ ذلكَ الممثلِ تمثالٌ ﴿ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ أيْ مقيمونَ على عبادتها ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ نعبدها تقليدًا لأسلافنا ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ أيْ في خسرانٍ بعبادتها، إذْ هيَ جماداتٌ لا تنفعُ ولا تضرُّ ولا تعلمُ ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أيْ أجاءٍ أنتَ بحقٍّ فيما تقولُ؟ ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾ أيْ لاعبٌ مازحٌ ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أيْ لستُ بلاعبٍ، بل ربكم والقائم بتدبيركم خالق السموات والأرضِ ﴿ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ أيْ خلقهنَّ وأبدعهنَّ ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ أيْ على أنهُ رب السموات والأرضِ. والشاهدُ يبينُ الحكمَ، ومنهُ ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ بينَ اللهُ، فالمعنى: وأنا أبينُ بالدليلِ ما أقول.

قوله تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ أخبرَ أنهُ لمْ يكتفِ بالمحاجةِ باللسانِ بلْ كسرَ أصنامهمْ فعلَ واثقٍ باللهِ تعالى، موطنٍ نفسهُ على مقاساةِ المكروهِ في الذبِّ عنِ الدينِ. والتاءُ في ﴿تَٱللَّهِ﴾ تختصُّ في القسمِ باسمِ اللهِ وحدهُ، والواوُ تختصُّ بكلِّ مظهرٍ، والباءُ بكلِّ مضمر ومظهر ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ أيْ منطلقينَ ذاهبينَ. وقيل: إنما قالَ ذلكَ إبراهيمُ في سرٍّ منْ قومهِ، ولمْ يسمعهُ إلا رجلٌ واحدٌ وهوَ الذي أفشاهُ عليهِ. والواحدُ يخبرُ

عنهُ بخبرِ الجمعِ إذا كانَ ما أخبرَ بهِ مما يرضى بهِ غيرهُ. ومثلهُ ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾، وقيل: إنما قالهُ بعدَ خروجِ القومِ، ولمْ يبقَ منهمْ إلا الضعفاءُ فهمُ الذينَ سمعوهُ. وكانَ إبراهيمُ احتالَ في التخلفِ عنهمْ بقولهِ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أيْ ضعيفٌ عنِ الحركةِ ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾ أيْ فتاتًا. والجذُّ الكسرُ والقطعُ، وقرأَ الكسائيُّ: «جِذَاذًا» بكسرِ الجيمِ، أيْ كسرًا وقطعًا جمعُ جذيذٍ وهوَ الهشيمُ، مثلَ خفيفٍ وخِفافٍ وظريفٍ وظِرافٍ. والباقونَ بالضمِّ، مثل الحُطامِ والرُفاتُ الواحدةُ جُذاذةٌ. وهذا هوَ الكيدُ الذي أقسمَ بهِ ليفعلنهُ بها. وقالَ: ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾، لأنَّ القومَ اعتقدوا في أصنامهمُ الإلهيةَ ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ أيْ عظيمَ الآلهةِ في الخلقِ فإنهُ لمْ يكسرهُ. وقيل: تركَ الصنمَ الأكبرَ وعلقَ الفأسَ الذي كسرَ بهِ الأصنامَ في عنقهِ، ليحتجَّ بهِ عليهم ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي إلى إبراهيم دينه ﴿يَرْجِعُونَ ۝٥٨﴾ إذا قامتِ الحجةُ عليهمْ. وقيل: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ أيْ إلى الصنمِ الأكبرِ ﴿يَرْجِعُونَ﴾ في تكسيرها.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩﴾ لما رجعوا منْ عيدهمْ ورأوا ما أحدثَ بآلهتهمْ، قالوا على جهةِ البحثِ والإنكارِ: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وقيل: ﴿مَن﴾ ليسَ استفهامًا، بلْ هوَ ابتداءٌ وخبرهُ ﴿لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أيْ فاعلُ هذا ظالمٌ. والأولُ أصحُّ لقولهِ: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ وهذا هوَ جوابُ ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا﴾. والضميرُ في ﴿قَالُوا۟﴾ للقومِ الضعفاءِ الذينَ سمعوا إبراهيمَ، أوِ الواحدِ على ما تقدمَ. ومعنى: ﴿يَذْكُرُهُمْ﴾ يعيبهمْ ويسبهمْ فلعلهُ الذي صنعَ هذا.

والفتى الشابُّ والفتاةُ الشابةُ. وقالَ ابنُ عباسٍ: ما أرسلَ اللهُ نبيًا إلا شابًا. ثمَّ قرأَ: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾، فيهِ مسألةٌ واحدةٌ، وهيَ: أنهُ لما بلغَ الخبرُ نمروذ وأشرافَ قومهِ، كرهوا أنْ يأخذوهُ بغيرِ بينةٍ، فقالوا: ائتوا بهِ ظاهرًا بمرأى منَ الناسِ حتى يروهُ ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١﴾ عليهِ بما قالَ، ليكونَ ذلكَ حجةً عليهِ. وقيل: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ عقابهُ فلا يقدمُ أحدٌ على مثلِ ما أقدمَ عليهِ. أوْ لعلَّ قومًا ﴿يَشْهَدُونَ﴾

بأنهمْ رأوهُ يكسرُ الأصنامَ، أوْ ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ طعنهُ على آلهتهمْ ليعلموا أنهُ يستحقُّ العقابَ.

قلتُ: وفي هذا دليلٌ على أنهُ كانَ لا يؤاخذُ أحدٌ بدعوى أحدٍ فيما تقدمَ، لقولهِ تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ وهكذا الأمرُ في شرعنا ولا خلافَ فيه.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: لما لمْ يكنِ السماعُ عامًا ولا ثبتتِ الشهادةُ استفهموهُ هلْ فعلَ أمْ لا؟ وفي الكلامِ حذفٌ فجاءَ إبراهيمُ حينَ أُتِي بهِ فقالوا: أأنتَ فعلتَ هذا بالآلهةِ؟ فقالَ إبراهيمُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ ليقولوا إنهمْ لا ينطقونَ ولا ينفعونَ ولا يضرونَ، فيقولُ لهمْ فلمَ تعبدونهمْ؟ فتقومُ عليهمُ الحجةُ منهمْ، ولهذا يجوزُ عندَ الأمةِ فرضُ الباطلِ معَ الخصمِ حتى يرجعَ إلى الحقِّ منْ ذاتِ نفسهِ، فإنهُ أقربُ في الحجةِ وأقطعُ للشبهةِ، كما قالَ لقومهِ: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ وهذه أختي و ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ وَ ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾.

الثانية: روى البخاريُّ ومسلمٌ والترمذيُّ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لمْ يكذبْ إبراهيمُ النبي في شيء قط إلا في ثلاث: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾، وقولهُ: لسارةَ أختي، وقولهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾» لفظُ الترمذيِّ. وقالَ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. ووقعَ في الإسراءِ في صحيح مسلمٍ، منْ حديثِ أبي هريرةَ ﵁ في قصةِ إبراهيمَ قالَ: وذكرَ قولهُ في الكوكبِ ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾. فعلى هذا تكونُ الكذباتُ أربعًا إلا أن الرسول ﷺ قدْ نفى تلكَ بقولهِ: «لمْ يكذبْ إبراهيمُ النبيُّ قطُّ إلا في ثلاثِ كذباتٍ ثنتينِ في ذات الله قوله: «إني سقيمٌ»، وقولهُ: «بلْ فعلهُ كبيرهمْ» وواحدةٌ في شأنِ سارة الحديث لفظ مسلم، وإنما لم يعدّ عليهِ قولهُ في الكوكبِ: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ كذبةً وهيَ داخلةٌ في الكذبِ، لأنهُ -واللهُ أعلمُ- كانَ حينَ قالَ ذلكَ في حالِ الطفولية، وليستْ حالةَ تكليفٍ. أوْ قالَ لقومهِ مستفهمًا لهم على جهة التوبيخ الإنكار، وحذفتْ همزةُ الاستفهام. أوْ على طريقِ الاحتجاجِ على قومهِ: تنبيهًا على أنَّ ما يتغيرُ لا يصلحُ للربوبيةِ.

الثالثة: قالَ القاضي أبو بكرِ بنُ العربيِّ: في هذا الحديثِ نكتةٌ عظمى تقصمُ الظهرَ، وهيَ

أنهُ ﷺ قالَ: «لمْ يكذبْ إبراهيمُ إلا في ثلاثِ كذباتٍ ثنتينِ ماحلَّ بهما عنْ دينِ اللهِ وهما قولهُ ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ ولم يَعُدّ قوله هذهِ أختي في ذاتِ اللهِ تعالى وإنْ كانَ دفعَ بها مكروهًا، ولكنهُ لما كانَ لإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فيها حظٌّ منْ صيانةِ فراشهِ وحمايةِ أهلهِ، لمْ يجعلها في ذاتِ اللهِ، وذلكَ لأنهُ لا يجعلُ في جنبِ اللهِ وذاتهِ إلا العملُ الخالصُ منْ شوائبِ الدنيا، والمعاريضُ التي ترجعُ إلى النفسِ إذا خلصتْ للدينِ كانتْ للهِ سبحانهُ، كما قالَ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾. وهذا لوْ صدرَ منا لكانَ للهِ، لكنْ منزلةُ إبراهيمَ اقتضتْ هذا. واللهُ أعلمُ.

الرابعة: قالَ علماؤنا: الكذبُ هوَ الإخبارعنِ الشيءِ بخلافِ ما هوَ عليهِ. والأظهرُ أنَّ قولَ إبراهيمَ فيما أخبرَ عنهُ ﷺ كانَ منَ المعاريضِ، وإنْ كانتْ معاريضَ وحسناتٍ وحججًا في الخلقِ ودلالاتٍ، لكنها أثَّرتْ في الرتبةِ، وخفضتْ عنْ مَحمدِ المنزلةِ، واستحيا منها قائلها، على ما وردَ في حديثِ الشفاعةِ، ويستفادُ منْ هذا أنَّ الخلةَ لمْ تصحَّ بكمالها إلا لمنْ صحَّ لهُ في ذلكَ اليومِ المقامُ المحمودُ وهوَ نبينا محمدٌ ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أيْ رجعَ بعضهمْ إلى بعضٍ رجوعَ المنقطعِ عنْ حجتهِ، المتفطنِ لصحةِ حجةِ خصمهِ ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أيْ بعبادةِ منْ لا ينطقُ بلفظةٍ، ولا يملكُ لنفسهِ لحظةً، وكيفَ ينفعُ عابديهِ ويدفعُ عنهمُ البأسَ، منْ لا يردُّ عنْ رأسهِ الفأسَ.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أيْ عادوا إلى جهلهمْ وعبادتهمْ فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ ف﴿قَالَ﴾ قاطعًا لما بهِ يهذونَ، ومفحمًا لهمْ فيما يتقولونَ ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ﴾ أي النتنُ لكمْ ﴿وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾. وقيل ﴿نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي طأطأوا رؤوسهم خجلًا منْ إبراهيمَ وفيهِ نظرٌ لأنهُ لمْ يقل نكَسوا رؤوسهم بفتح الكاف بل قال ﴿نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أيْ ردوا على ما كانوا عليهِ في أولِ الأمرِ.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ﴾ لمّا انقطعوا بالحجةِ أخذتهمْ عزةٌ بإثمٍ وانصرفوا إلى طريقِ

الغشمِ والغلبةِ وقالوا ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ بتحريقِ إبراهيمَ لأنهُ يسبها ويعيبها، فقال اللهُ تعالى وهوَ أصدقُ القائلينَ: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ قالَ أبو العاليةِ: ولوْ لمْ يقلْ ﴿بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا﴾ لكانَ بردها أشدَّ عليهِ منْ حرها، ولوْ لمْ يقلْ ﴿عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ لكانَ بردها باقيًا على الأبدِ.

قوله تعالى: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا﴾ أيْ أرادَ نمروذ وأصحابه أن يمكروا به ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ٧٠﴾ أي في أعمالهم، ورددنا مكرهم عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١﴾ أرض الشام وكانا بالعراق. وكان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عمه، وقيل: لها مباركةٌ لكثرةِ خصبها وثمارها وأنهارها، ولأنها معادنُ الأنبياءِ. والبركةُ ثبوتُ الخيرِ، ومنهُ بركَ البعيرُ إذا لزمَ مكانهُ فلمْ يبرحْ. وقيل: الأرضُ المباركةُ مكةُ. وقيل: بيتُ المقدسِ، لأنَّ منها بعثَ اللهُ أكثرَ الأنبياءِ، وهيَ أيضًا كثيرةُ الخصبِ والنموِّ، عذبةُ الماءِ.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ﴾ أيْ زيادةً، لأنهُ دعا في إسحاقَ وزيدَ يعقوبَ منْ غيرِ دعاءٍ فكانَ ذلكَ نافلةً، أيْ زيادةً على ما سألَ، إذْ قالَ: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. ويقالُ لولدِ الولدِ نافلةٌ، لأنهُ زيادةٌ على الولدِ ﴿وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢﴾ أيْ وكلًا منْ إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ جعلناهُ صالحًا عاملًا بطاعةِ اللهِ.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ﴾ يقتدى بهمْ في الخيراتِ وأعمالِ الطاعاتِ. ﴿يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ أيْ بما أنزلنا عليهمْ منَ الوحيِ والأمرِ والنهيِ ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أيْ أنْ يفعلوا الطاعاتِ ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣﴾ أي مطيعين.

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ ﴿لُوطًا﴾ منصوبٌ بفعلٍ مضمرٍ دلَّ عليهِ الثاني، أيْ وآتينا لوطا، وقيل: أيْ واذكرْ لوطًا. والحكمُ النبوةُ، والعلمُ المعرفةُ بأمرِ الدينِ وما يقعُ بِهِ الحكمُ بينَ الخصوم ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ﴾ يريدُ سدومَ، ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ٧٤﴾ خارجينَ عنْ طاعةِ اللهِ، والفسوقُ الخروجُ ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ﴾ أيْ في النبوةِ. وقيل: في الإسلامِ. وقيل: الجنةِ. وقيل: عنى بالرحمةِ إنجاءهُ منْ

قومِهِ ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥﴾.

قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أيْ واذكرْ نوحًا إذْ نادى، أيْ دعا. ﴿مِن قَبْلُ﴾ أيْ منْ قبلِ إبراهيمَ ولوطٍ على قومِهِ، وهوَ قولهُ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾، وقال لما كذبوه: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ٧٦﴾ أيْ منَ الغرقِ. والكربُ الغمُّ الشديدُ ﴿وَأَهْلَهُۥٓ﴾ أيِ المؤمنينَ منهمْ ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ من بمعنى على، ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الصغير منهم والكبير.

قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩﴾، فيهِ ستٌّ وعشرونَ مسألةً:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ أيْ واذكرهما إذْ يحكمانِ، ولمْ يردْ بقولهِ: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ الاجتماعَ في الحكمِ وإنْ جمعهما في القولِ، فإنَّ حكمينِ على حكمٍ واحدٍ لا يجوزُ. وإنما حكم كل واحد منهما على انفرادهُ، وكانَ سليمانُ الفاهمَ لها بتفهيمِ اللهِ تعالى إياهُ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ النفشُ الرعيُ بالليلِ. يقالُ: نفشتْ بالليلِ، وهملتْ بالنهارِ، إذا رعتْ بلا راعٍ..

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ أقلَّ الجمعِ اثنانِ وقيل: المرادُ الحاكمانِ والمحكومُ عليهِ، فلذلكَ قالَ: ﴿لِحُكْمِهِمْ﴾.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ أيْ فهمناهُ القضيةَ والحكومةَ، فكنى عنها إذْ سبقَ ما يدلُّ عليها. وفضلَ حكمُ سليمانَ حكمَ أبيهِ في أنه أحرز أن يبقي ملك كلِّ واحدٍ منهما على متاعهِ وتبقى نفسهُ طيبةً بذلكَ، وذلكَ أنَّ داودَ عليه السلام رأى أنْ يدفعَ الغنمَ إلى صاحبِ الحرثِ. وقضى سليمان أنْ تدفعَ الغنمَ إلى صاحبِ الحرثِ فينتفعَ بألبانها وسمونها وأصوافها، وتدفعَ الحرثَ إلى صاحبِ الغنمِ ليقومَ عليهِ، فإذا عادَ الزرعُ إلى حالهِ التي أصابتهُ

الغنم فيه في السنةِ المقبلةِ، ردَّ كلُّ واحدٍ منهما مالهُ إلى صاحبهِ.

وإنما قضى داود بالغنم لصاحبِ الحرثِ، لأنَّ ثمنها كانَ قريبًا منهُ. وأما في حكمِ سليمانَ فقدْ قيلَ: كانتْ قيمةُ ما نالَ منَ الغنمِ وقيمةُ ما أفسدتِ الغنمُ سواءً أيضًا.

الخامسة: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ تأولَ قومٌ أنَّ داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يخطئْ في هذهِ النازلةِ، بلْ فيها أوتيَ الحكمَ والعلمَ. وحملوا قولهُ: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ على أنهُ فضيلةٌ لهُ على داودَ وفضيلتهُ راجعةٌ إلى داودَ، والوالدُ تسرهُ زيادةُ ولدهِ عليهِ. وقالت فرقة: بلْ لأنهُ لمْ يصبِ العينَ المطلوبةَ في هذهِ النازلةِ، وإنما مدحهُ اللهُ بأنَّ لهُ حكمًا وعلمًا يرجعُ إليهِ في غيرِ هذهِ النازلةِ. وأما في هذهِ فأصابَ سليمانُ وأخطأَ داودُ عليهما الصلاةُ والسلامُ، ولا يمتنعُ وجودُ الغلطِ والخطأِ منَ الأنبياءِ كوجودهِ منْ غيرهمْ، لكنْ لا يقرونَ عليهِ، وإنْ أقرَّ عليهِ غيرهمْ.

السادسة: واختلفَ العلماءُ في جوازِ الاجتهادِ على الأنبياءِ فمنعهُ قومٌ، وجوّزهُ المحققونَ، لأنهُ ليسَ فيهِ استحالةٌ عقليةٌ، فإن قيل: إنما يكونُ دليلًا إذا عُدمَ النصُّ وهمْ لا يعدمونهُ. قلنا: إذا لمْ ينزلِ الملكُ فقدْ عُدمَ النصُّ عندهمْ، والفرقُ بينهمْ وبينَ غيرهمْ منَ المجتهدينَ أنهمْ معصومونَ عنِ الخطأِ، وعنِ الغلطِ، وعنِ التقصيرِ في اجتهادهمْ، وغيرهمْ ليسَ كذلكَ. وهذا رسولُ اللهِ ﷺ وقدْ سألتهُ امرأةٌ عنِ العدةِ فقالَ لها: «اعتدي حيثُ شئتِ» ثمَّ قالَ لها: «امكثي في بيتكِ حتى يبلغَ الكتابُ أجلهُ». وقال له رجل: أرأيت لو قتلت صبرا محتسبا أيحجزني عن الجنة شي؟ فقالَ: لا، ثمَّ دعاهُ فقالَ: «إلا الدينَ كذا أخبرني جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ».

السابعة: قالَ الحسن: لولا هذه الآية لرأيت أن القضاةَ هلكوا، ولكنهُ تعالى أثنى على سليمانَ بصوابهِ، وعذرَ داودَ باجتهادهِ. فمنْ صادفَ العينَ المطلوبةَ في المسألةِ فهوَ المصيبُ على الإطلاقِ، وله أجران أجر في الاجتهادِ وأجرٌ في الإصابةِ، ومنْ لمْ يصادفها فهوَ مصيبٌ في اجتهادهِ مخطئٌ في أنهُ لمْ يصبِ العينَ فلهُ أجرٌ واحد.

الثامنة: روى مسلمٌ وغيرهُ عنْ عمرو بنِ العاصِ أنهُ سمعَ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «إذا حكمَ الحاكمُ فاجتهدَ ثمَّ أصابَ فلهُ أجرانِ وإذا حكمَ فاجتهدَ ثمَّ أخطأَ فلهُ أجرٌ» هكذا لفظُ

الحديثِ في كتابِ مسلمٍ «إذا حكمَ فاجتهدَ» فبدأَ بالحكمِ قبلَ الاجتهادِ، والأمرُ بالعكسِ، فإنَّ الاجتهادَ مقدمٌ على الحكمِ، فلا يجوزُ الحكمُ قبلَ الاجتهادِ بالإجماعِ. وإنما معنى هذا الحديثِ: إذا أرادَ أنْ يحكمَ، كما قال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ﴾ فعند ذلكَ أرادَ أنْ يجتهدَ في النازلةِ. ويفيدُ هذا صحةَ ما قالهُ الأصوليونَ: إنَّ المجتهدَ يجبُ عليهِ أنْ يجددَ نظرًا عندَ وقوعِ النازلةِ، ولا يعتمدَ على اجتهادهِ المتقدمِ لإمكانِ أنْ يظهرَ لهُ ثانيًا خلافُ ما ظهرَ لهُ أولًا، اللهمَّ إلا أنْ يكونَ ذاكرًا لأركانِ اجتهادهِ، مائلًا إليهِ، فلا يحتاجُ إلى استئنافِ نظرٍ في أمارةٍ أخرى.

التاسعة: إنما يكونُ الأجرُ للحاكمِ المخطئِ إذا كانَ عالمًا بالاجتهادِ والسننِ والقياسِ وقضاءِ منْ مضى؛ لأنَّ اجتهادهُ عبادةٌ ولا يؤجرُ على الخطأِ بلْ يوضعُ عنهُ الإثمُ فقطْ، فأما منْ لمْ يكنْ محلًا للاجتهادِ فهوَ متكلفٌ لا يعذرُ بالخطأِ في الحكمِ، بلْ يخافُ عليهِ أعظمُ الوزرِ. يدلُّ على ذلكَ حديثهُ الآخرُ، رواهُ أبو داودَ: «القضاةُ ثلاثةٌ» الحديثَ.

العاشرة: حكى ابنُ القاسمِ أنهُ سألَ مالكًا عنِ اختلافِ الصحابةِ، فقالَ: مخطئٌ ومصيبٌ، وليسَ الحقُّ في جميعِ أقاويلهمْ. وهذا القولُ قيلَ: هوَ المشهورُ عنْ مالكٍ وإليهِ ذهبَ محمدُ بنُ الحسنِ. واحتجَّ منْ قالَ هذا بحديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمرو، قالوا: وهوَ نصٌّ على أنَّ في المجتهدينَ وفي الحاكمينَ مخطئًا ومصيبًا، قالوا: والقولُ بأنَّ كلَّ مجتهدٍ مصيبٌ يؤدي إلى كونِ الشيءِ حلالًا حرامًا، وواجبًا ندبًا. واحتجَّ أهلُ المقالةِ الأولى بحديثِ ابنِ عمرَ. قالَ: نادى فينا رسولُ اللهِ ﷺ يومَ انصرفَ منَ الأحزابِ «ألا لا يصلينَّ أحدٌ العصرَ إلا في بني قريظةَ» فتخوفَ ناسٌ فوتَ الوقتِ فصلوا دونَ بني قريظةَ، وقالَ الآخرونَ: لا نصلي إلا حيثُ أمرنا رسولُ اللهِ ﷺ وإنْ فاتنا الوقتُ، قالَ: فما عنّفَ واحدًا منَ الفريقينِ، قالوا: فلوْ كانَ أحدُ الفريقينِ مخطئًا لعينهُ النبيُّ ﷺ. ويمكنُ أنْ يقالَ: لعلهُ إنما سكتَ عنْ تعيينِ المخطئينَ لأنهُ غيرُ آثمٍ بلْ مأجورٌ، فاستغنى عنْ تعيينهِ. واللهُ أعلمُ. ومسألةُ الاجتهادِ طويلةٌ متشعبةٌ، وهذهِ النبذةُ التي ذكرناها كافيةٌ في معنى الآيةِ، واللهُ الموفقُ للهدايةِ.

الحادية عشرة: ويتعلقُ بالآيةِ فصلٌ آخرُ: وهوَ رجوعُ الحاكمِ بعدَ قضائهِ منَ اجتهادهِ إلى اجتهادٍ آخرَ أرجحَ منَ الأولِ، فإنَّ داودَ عليه السلام فعلَ ذلكَ، ويستأنفُ الحكمَ بما قويَ عندهُ.

وقيل: إنْ حكمَ بحكمٍ هوَ الأقوى عندهُ في ذلكَ الوقتِ ثمَّ قويَ عندهُ غيرهُ بعدَ ذلكَ فلا سبيلَ إلى نقضِ الأولِ، وقيل: إنْ كانَ رجوعهُ إلى الأصوبِ في مالٍ فلهُ نقضُ الأولِ، وإنْ كانَ في طلاقٍ أوْ نكاحٍ أوْ عتقٍ فليسَ لهُ نقضهُ.

قلت: رجوع القاضي عما حكم القاضي إذا تبينَ لهُ أنَّ الحقَّ في غيرهِ ما دامَ في ولايتهِ أولى. وهكذا في رسالةِ عمرَ إلى أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، رواها الدارقطنيُّ.

ولمْ يختلفِ العلماءُ أنَّ القاضيَ إذا قضى تجوزًا وبخلافِ أهلِ العلمِ فهوَ مردودٌ، إنْ كانَ على وجهِ الاجتهادِ، فأما أنْ يتعقبَ قاضٍ حكمَ قاضٍ آخرَ فلا يجوزُ ذلكَ لهُ لأنَّ فيهِ مضرةً عظمى منْ جهةِ نقضِ الأحكام، وتبديلِ الحلالِ بالحرام، وعدمِ ضبطِ قوانينِ الإسلامِ، ولمْ يتعرضْ أحدٌ منَ العلماءِ لنقضِ ما رواهُ الآخرُ، وإنما كانَ يحكمُ بما ظهر له.

الثانية عشرة: قالَ بعضُ الناسِ: إنَّ داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لمْ يكنْ أنفذَ الحكمَ وظهرَ لهُ ما قالَ غيرهُ. وقالَ آخرونَ: لمْ يكنْ حكمًا وإنما كانت فتيا.

قلت: وهكذا تؤول فيما رواهُ أبو هريرةَ عنهُ ﷺ أنهُ قالَ: «بينما امرأتانِ معهما ابناهما جاءَ الذئبُ فذهبَ بابنِ إحداهما، فقالتْ هذهِ لصاحبتها: إنما ذهبَ بابنكِ أنتِ. وقالتِ الأخرى: إنما ذهبَ بابنكِ، فتحاكمتا إلى داودَ، فقضى بهِ للكبرى فخرجتا على سليمانَ بنِ داودَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فأخبرتاهُ، فقالَ: ائتوني بالسكينِ أشقهُ بينكما، فقالتِ الصغرى: لا - يرحمكَ اللهُ - هوَ ابنها، فقضى بهِ للصغرى، قالَ أبو هريرةَ: إنْ سمعتُ بالسكينِ قطُّ إلا يومئذٍ، ما كنا نقولُ إلا المديةَ»، أخرجهُ مسلمٌ.

فأما القولُ بأنَّ ذلكَ منْ داودَ فتيا فهوَ ضعيفٌ، لأنهُ كانَ النبيُّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وفتياهُ حكمٌ. وأما القولُ الآخرُ فيبعدُ، لأنهُ تعالى قالَ: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ﴾ فبينَ أنَّ كلَّ واحدٍ منهما كانَ قدْ حكمَ. وكذا قولهُ في الحديثِ: فقضى بهِ للكبرى، يدلُّ على إنفاذِ القضاءِ وإنجازهِ.

ولقدْ أبعدَ منْ قالَ: إنهُ كانَ منْ شرعِ داودَ أنْ يحكمَ بهِ للكبرى منْ حيثُ هيَ كبرى، لأنَّ الكبرَ والصغرَ طردٌ محضٌ عندَ الدعاوى كالطولِ والقصرِ والسوادِ والبياضِ وذلكَ لا يوجبُ ترجيحَ أحدِ المتداعيينِ حتى يحكمَ لهُ أوْ عليهِ لأجلِ ذلكَ. وهوَ مما يقطعُ بهِ منْ فهمَ

ما جاءتْ بهِ الشرائعُ. والذي ينبغي أنْ يقالَ: إنَّ داودَ عليه السلام إنما قضى بهِ للكبرى لسببٍ اقتضى عندهُ ترجيحَ قولها. ولمْ يذكرْ في الحديثِ تعيينهُ إذْ لمْ تدعُ حاجةٌ إليهِ، فيمكنُ أنَّ الولدَ كانَ بيدها، وعلمَ عجزَ الأخرى عنْ إقامةِ البينةِ، فقضى بهِ لها إبقاءً لما كانَ على ما كانَ. وهذا التأويلُ أحسنُ ما قيلَ في هذا الحديثِ. وهوَ الذي تشهدُ لهُ قاعدةُ الدعاوى الشرعيةِ التي يبعدُ اختلافُ الشرائعِ فيها. لا يقالُ: فإنْ كانَ داودُ قضى بسببٍ شرعيٍّ فكيفَ ساغَ لسليمانَ نقضُ حكمهِ، فالجوابُ: أنَّ سليمانَ عليه السلام لمْ يتعرضْ لحكمِ أبيهِ بالنقضِ، وإنما احتالَ حيلةً لطيفةً ظهرَ لهُ بسببها صدقُ الصغرى، وهيَ أنهُ لما قالَ: هاتِ السكينَ أشقهُ بينكما، قالتِ الصغرى: لا، فظهرَ لهُ منْ قرينةِ الشفقةِ في الصغرى، وعدمِ ذلكَ في الكبرى، معَ ما عساهُ انضافَ إلى ذلكَ منَ القرائنِ ما حصلَ لهُ العلمُ بصدقها فحكمَ لها. ولعلهُ كانَ ممنْ سُوِّغَ لهُ أنْ يحكمَ بعلمهِ. وقدْ ترجمَ النسائيُّ على هذا الحديثِ «حكمُ الحاكمِ بعلمهِ». وترجمَ لهُ أيضًا «السعةُ للحاكمِ أنْ يقولَ للشيءِ الذي لا يفعلهُ أفعلُ ليستبينَ الحقُّ». وترجمَ لهُ أيضًا «نقضُ الحاكمِ لا يحكمُ بهِ غيرهُ ممنْ هوَ مثلهُ أوْ أجلُّ منهُ». ولعلَّ الكبرى اعترفتْ بأنَّ الولدَ للصغرى عند ما رأتْ منْ سليمانَ الحزمَ والجدَّ في ذلكَ، فقضى بالولدِ للصغرى، ويكونُ هذا كما إذا حكمَ الحاكمُ باليمينِ، فلما مضى ليحلفَ حضرَ منِ استخرجَ منَ المنكرِ ما أوجبَ إقرارهُ، فإنهُ يحكمُ عليهِ بذلكَ الإقرارِ قبلَ اليمينِ وبعدها، ولا يكونُ ذلكَ منْ بابِ نقضِ الحكمِ الأولِ، لكنْ منْ بابِ تبدلِ الأحكامِ بحسبِ تبدلِ الأسبابِ. واللهُ أعلمُ.

وفي هذا الحديثِ منَ الفقهِ أنَّ الأنبياءَ سُوِّغَ لهمُ الحكمُ بالاجتهادِ، وقدْ ذكرناهُ.

وفيهِ منَ الفقهِ استعمالُ الحكامِ الحيلَ التي تستخرجُ بها الحقوقُ، وذلكَ يكونُ عنْ قوةِ الذكاءِ والفطنةِ، وممارسةِ أحوالِ الخلقِ، وقدْ يكونُ في أهلِ التقوى فراسةٌ دينيةٌ، وتوسماتٌ نوريةٌ، وذلكَ فضلُ اللهِ يؤتيهِ منْ يشاءُ.

وفيهِ الحجةُ لمنْ يقولُ: إنَّ الأمَّ تستلحقُ.

الثالثة عشرة:- قدْ تقدمَ القولُ في الحرثِ والحكمِ في هذهِ الواقعةِ في شرعنا: أنَّ على أصحابِ الحوائطِ حفظَ حيطانهمْ وزروعهمْ بالنهارِ، ثمَّ الضمانُ في المثلِ بالمثلياتِ، وبالقيمةِ في ذواتِ القيمِ. والأصلُ في هذهِ المسألةِ في شرعنا ما رواهُ مالكٌ: أنَّ ناقةً للبراءِ

دخلتْ حائطَ رجلٍ فأفسدتْ فيهِ فقضى رسولُ اللهِ ﷺ أنَّ على أهلِ الحوائطِ حفظها بالليلِ، وأنَّ ما أفسدتِ المواشي بالليلِ ضامنٌ على أهلها. هكذا رواهُ جميعُ الرواةِ مرسلًا.

قالَ أبو عمرَ: وهذا الحديثُ وإنْ كانَ مرسلًا فهوَ حديثٌ مشهورٌ أرسلهُ الأئمةُ، وحدث بهِ الثقاتُ، واستعملهُ فقهاءُ الحجازِ وتلقوهُ بالقبولِ، وجرى في المدينةِ العملُ بهِ، وحسبكَ باستعمالِ أهلِ المدينةِ وسائرِ أهلِ الحجازِ لهذا الحديث.

الرابعة عشرة: ذهبَ مالكٌ وجمهورُ الأئمةِ إلى القولِ بحديثِ البراءِ، وذهبَ أبو حنيفةَ وأصحابهُ وجماعةٌ منَ الكوفيينَ إلى أنَّ هذا الحكمَ منسوخٌ، وأنَّ البهائمَ إذا أفسدتْ زرعًا في ليلٍ أوْ نهار أنه لا يلزم صاحبها شيء وأدخلَ فسادها في عموم قولهِ ﷺ: «جرحُ العجماءِ جبارٌ» فقاسَ جميعَ أعمالها على جرحها. ويقالُ: إنهُ ما تقدمَ أبا حنيفةَ أحدٌ بهذا القولِ، ولا حجةَ لهُ ولا لمنِ اتبعهُ في حديثِ العجماءِ وكونهِ ناسخًا لحديثِ البراءِ ومعارضًا لهُ، فإنَّ النسخ شروطه معدومة، والتعارض إنما يصح إذا لم يمكن استعماله أحدهما إلا بنفي الآخرِ، وحديثُ «العجماءِ جرحها جبارٌ» عمومٌ متفقٌ عليهِ، ثمَّ خصَّ منهُ الزرعُ والحوائطُ بحديثِ البراءِ، لأنَّ النبيَّ ﷺ لوْ جاءَ عنهُ في حديثٍ واحدٍ: العجماءُ جرحها جبارٌ نهارًا لا ليلًا وفي الزرعِ والحوائطِ والحرثِ، لمْ يكنْ هذا مستحيلًا منَ القولِ، فكيفَ يجوزُ أنْ يقالَ في هذا متعارضٌ؟! وإنما هذا منْ بابِ العمومِ والخصوصِ على ما هوَ مذكورٌ في الأصول.

الخامشة عشرة- إنْ قيلَ: ما الحكمةُ في تفريقِ الشارعِ بينَ الليلِ والنهارِ؟ قلنا: الفرقُ بينهما واضحٌ وذلكَ أنَّ أهلَ المواشي لهم ضرورة إلى إرسال مواشيهمْ ترعى بالنهارِ، والأغلبُ عندهمْ أنَّ منْ عندهُ زرعٌ يتعاهدهُ بالنهارِ ويحفظهُ، فجعلَ حفظَ ذلكَ بالنهارِ على أهلِ الزروعِ، لأنهُ وقتُ التصرفِ في المعاشِ، كما قالَ سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ فإذا جاءَ الليلُ فقدْ جاءَ الوقتُ الذي يرجع كل شيء إلى سكنهِ، كما قالَ تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾، وقال: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾، ويردُّ أهلُ المواشي مواشيهمْ إلى مواضعهمْ ليحفظوها، فإذا فرّطَ صاحبُ الماشيةِ في ردها إلى منزلهِ، أوْ فرّطَ في ضبطها وحبسها عنِ الانتشارِ بالليلِ حتى أتلفتْ شيئًا فعليهِ ضمانُ ذلكَ، فجرى الحكمُ على الأوفقِ الأسمحِ، وكانَ ذلكَ أرفقَ بالفريقينِ وأسهلَ على الطائفتينِ، وأحفظَ للمالينِ.

السادسة عشرة: قالَ مالكٌ: ويقوَّمُ الزرعُ الذي أفسدتِ المواشي بالليلِ على الرجاءِ والخوفِ. قالَ: والحوائطُ التي تحرسُ والتي لا تحرسُ، والمحظَّر عليها وغيرُ المحظَّرِ سواءٌ، يغرمُ أهلها ما أصابتْ بالليلِ بالغًا ما بلغَ، وإنْ كانَ أكثرَ منْ قيمتها. قال: وإذا انفلتتْ دابةٌ بالليلِ فوطئتْ على رجلٍ نائمٍ لمْ يغرمْ صاحبها شيئًا، وإنما هذا في الحائطِ والزرعِ والحرثِ.

السابعة عشرة: ولا يستأنى بالزرعِ أنْ ينبتَ أوْ لا ينبتَ كما يفعلُ في سنِّ الصغيرِ، فتقومُ كما يقومُ كل متلف على صفته.

الثامنة عشرة: لوْ لمْ يقضَ للمفسدِ لهُ بشيءٍ حتى نبتَ وانجبرَ فإنْ كانَ فيهِ قبلَ ذلكَ منفعةُ رعي أوْ شيءٌ ضمنَ تلكَ المنفعةَ، وإنْ لمْ تكنْ فيهِ منفعةٌ فلا ضمانَ. وقالَ أصبغُ: يضمنُ، لأنَّ التلفَ قدْ تحققَ والجبرُ ليسَ منْ جهتهِ فلا يعتدُّ لهُ به.

التاسعة عشرة: وقعَ في كتابِ ابنِ سحنونٍ أنَّ الحديثَ إنما جاءَ في أمثالِ المدينةِ التي هيَ حيطانٌ محدقةٌ، وأما البلادُ التي هيَ زروعٌ متصلةٌ غيرُ محظَّرةٍ وبساتينُ كذلكَ، فيضمنُ أربابُ النعمِ ما أفسدتْ منْ ليلٍ أوْ نهارٍ، كأنهُ ذهبَ إلى أنَّ تركَ تثقيفِ الحيوانِ في مثلِ هذهِ البلادِ تعدٍّ، لأنها ولا بدَّ تفسدُ.

الموفية عشرين: قالَ أصبغُ في المدينةِ: ليسَ لأهلِ المواشي أنْ يُخرجوا مواشيهمْ إلى قرى الزرعِ بغيرِ ذُوَّادٍ، فركَّبَ العلماءُ على هذا أنَّ البقعةَ لا تخلو أنْ تكونَ بقعةَ زرعٍ، أوْ بقعةَ سرحٍ، فإنْ كانتْ بقعةَ زرعٍ فلا تدخلها ماشية إلا ماشية تحتاج، وعلى أربابها حفظها، وما أفسدتْ فصاحبها ضامنٌ ليلًا أوْ نهارًا، وإنْ كانتْ بقعةَ سرحٍ فعلى صاحبِ الذي حرثهُ فيها حفظهُ، ولا شيء على أربابِ المواشي.

الحادية والعشرون: المواشي على قسمينِ: ضواري وحريسةٌ وعليهما قسَّمها مالكٌ. فالضواري هيَ المعتادةُ للزرعِ والثمارِ، فقالَ مالكٌ: تُغرَّبُ وتباعُ في بلدٍ لا زرعَ فيهِ، وإنْ كرهَ ذلكَ ربها، وكذلكَ قالَ مالكٌ في الدابةِ التي ضريتْ في إفسادِ الزرعِ: تُغرَّبُ وتباعُ. وأما ما يستطاعُ الاحتراسُ منه فلا يؤمر صاحبه بإخراجه.

الثانية والعشرون: قالَ أصبغُ: النحلُ والحمامُ والإوزُّ والدجاجُ كالماشيةِ، لا يمنعُ صاحبها منَ اتخاذها وإنْ أضرتْ، وعلى أهلِ القريةِ حفظُ زروعهمْ. قالَ ابنُ العربيِّ: وهذهِ روايةٌ ضعيفةٌ لا يلتفت إليها. من أراد أن يتخذ ما ينتفعُ بهِ مما لا يضرُّ بغيرهِ مكنَ منهُ، وأما انتفاعهُ بما يتخذهُ بإضرارهِ بأحدٍ فلا سبيلَ إليهِ. قالَ ﷺ: «لا ضررَ ولا ضرارَ».

الثالثة والعشرون: عند عبدُ الرزاقِ عنْ الشعبيِّ أنَّ شاةً وقعتْ في غزل حائكٍ فاختصموا إلى شُريحٍ، فقالَ الشعبيُّ: انظروهُ فإنهُ سيسألهمْ ليلًا وقعتْ فيهِ أوْ نهارًا، ففعلَ. ثمَّ قالَ: إنْ كانَ بالليلِ ضمنَ وإنْ كانَ بالنهارِ لمْ يضمنْ، ثمَّ قرأَ شُريحٌ ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ قالَ: والنفشُ بالليلِ والهملُ بالنهارِ.

قلتُ: ومنْ هذا البابِ قولهُ ﷺ «العجماءُ جرحها جبارٌ» الحديثَ. وقالَ ابنُ شهابٍ: والجبارُ الهدرُ، والعجماءُ البهيمةُ، قالَ علماؤنا: ظاهرُ قولهِ: «العجماءُ جرحها جبارٌ» أنَّ ما انفردت البهيمة بإتلافه لم يكن فيه شيء، وهذا مجمعٌ عليهِ. فلوْ كانَ معها قائدٌ أوْ سائقٌ أوْ راكبٌ فحملها أحدهمْ على شيء فأتلفتهُ لزمهُ حكمُ المتلفِ، فإنْ كانتْ جنايةً مضمونةً بالقصاصِ وكانَ الحملُ عمدًا كانَ فيهِ القصاصُ ولا يختلفُ فيهِ، لأنَّ الدابةَ كالآلةِ. وإنْ كانَ عنْ غيرِ قصدٍ كانتْ فيهِ الديةُ على العاقلةِ. وفي الأموالِ الغرامةُ في مالِ الجاني.

الرابعة والعشرون: واختلفوا فيمنْ أصابتهُ برجلها أوْ ذنبها، فلمْ يضّمنْ مالكٌ صاحبها، وضّمنهُ الشافعيُّ، واختلفوا في الضاريةِ فجمهورهمْ أنها كغيرها، ومالكٌ وبعضُ أصحابهِ يضمنونهُ.

الخامسة والعشرون: عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «الرِّجل جبار» قال الدارقطني: لم يروه غيرُ سفيانَ بنِ حسينٍ ولمْ يتابعْ عليهِ، وخالفهُ الحفاظُ عنِ الزهريِّ منهمْ ولمْ يذكروا فيهِ «والرِّجلُ جبارٌ» وهوَ المحفوظُ عنْ أبي هريرةَ.

السادسة والعشرون: قولهُ: «والبئرُ جبارٌ» قدْ رويَ موضعهُ «والنارُ جبار» قالَ أحمدَ بنَ حنبلٍ: حديثُ أبي هريرةَ «والنارُ جبارٌ» ليسَ بشيءٍ، أهلُ اليمنِ يكتبونَ النارَ النيرَ ويكتبون البير، يعني مثلَ ذلكَ.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ تجاوبهُ بالتسبيحِ، وكذلكَ الطيرُ. وقيل: كانَ داودُ إذا وجد فترةً أمر الجبال فسبحت حتى يشتاقَ، ولهذا قالَ: ﴿وَسَخَّرْنَا﴾ أيْ جعلناها بحيثُ تطيعهُ إذا أمرها بالتسبيح. وقيل: إنَّ سيرها معهُ تسبيحها، والتسبيحُ مأخوذٌ منَ السباحةِ، دليلهُ قولهُ تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾. وقالَ قتادةُ: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ يصلينَ معهُ إذا صلى، والتسبيحُ الصلاةُ. وكلٌّ محتملٌ. وذلكَ فعلُ اللهِ تعالى بها، ذلكَ لأنَّ الجبالَ لا تعقلُ فتسبيحها دلالةٌ على تنزيهِ اللهِ تعالى عنْ صفات العاجزين والمحدثين.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ يعني اتخاذَ الدروعِ بإلانةِ الحديدِ لهُ، واللبوسُ عندَ العربِ السلاحُ كلهُ، درعًا كانَ أوْ جوشنًا أوْ سيفًا أوْ رمحًا، وأرادَ اللهُ تعالى هنا الدرعَ، وهوَ بمعنى الملبوسِ نحوَ الركوبِ والحلوبِ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿لِيُحْصِنَكُم﴾ ليحرزكمْ ﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ أيْ منْ آلةِ بأسكمْ فحذفَ المضافُ، أو منْ حربِ أعدائكمْ. والمعنى واحد، وقرأ أبو جعفرٍ وابنُ عامرٍ وحفصٌ وروحٌ ﴿لِتُحْصِنَكُم﴾ بالتاء ردا على الصنعة، وقيل: على اللبوسِ والمنعةِ التي هيَ الدروعُ، وقرأَ الباقونَ بالياءِ جعلوا الفعلَ للبوسِ، أوْ يكونُ المعنى ليحصنكمُ اللهُ ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ أيْ على تيسير نعمة الدروع لكم. وقيل: ﴿هَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ بأنْ تطيعوا رسولي.

الثالثة: هذهِ الآيةُ أصلٌ في اتخاذِ الصنائعِ والأسبابِ، وهوَ قولُ أهلِ العقولِ والألبابِ، لا قولُ الجهلةِ الأغبياءِ القائلينَ بأنَّ ذلكَ إنما شرعَ للضعفاءِ، فالسببُ سنةُ اللهِ في خلقهِ فمنْ طعنَ في ذلكَ فقدْ طعنَ في الكتابِ والسنةِ، وقدْ أخبرَ اللهُ تعالى عنْ نبيهِ داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنهُ كانَ يصنعُ الدروعَ، وكانَ أيضًا يأكلُ منْ عملِ يدهِ، وكانَ آدمُ حرّاثًا، ونوحٌ نجّارًا ولقمانُ خياطًا، وطالوتُ دبّاغًا. وقيل: سقّاءً، فالصنعةُ يكفُّ بها الإنسانُ نفسهُ عنِ الناسِ، ويدفعُ بها عنْ نفسهِ الضررَ والبأسَ.

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ أيْ وسخرنا لسليمانَ الريحَ شديدةَ الهبوب ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ حيثُ أرادَ، ثمَّ تردهُ إلى الشام، وهوَ معنى قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾، والرخاءُ اللّيِّنةُ ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ٨١﴾ أيْ بكل شيء عملنا عالمينَ بتدبيرهِ.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ تحتَ الماءِ يستخرجونَ لهُ الجواهرَ واللؤلؤ ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي المحاريبُ والتماثيلُ وغيرُ ذلكَ مما يسخرهمْ فيهِ ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ٨٢﴾ أيْ لأعمالهمْ، وقيل: ﴿حَٰفِظِينَ﴾ منْ أنْ يهربوا أوْ يمتنعوا. أوْ حفظناهمْ منْ أنْ يخرجوا عنْ أمرهِ.

قوله تعالى: ﴿۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ أيْ واذكرْ أيوبَ إذْ نادى ربهُ ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ أيْ في بدني ومالي وأهلي، وكانَ رجلًا منَ الرومِ ذا مالٍ عظيمٍ، فامتحنهُ اللهُ بذهابِ مالهِ وأهلهِ، وبالضرِّ في جسمهِ حتى تناثرَ لحمهُ وتدّودَ جسمهُ، حتى أخرجهُ أهلُ قريتهِ إلى خارجِ القريةِ، وكانتِ امرأتهُ تخدمهُ. قالَ الحسنُ: مكثَ بذلكَ تسعَ سنينَ وستةَ أشهرٍ. فلما أرادَ اللهُ أنْ يفرِّجَ عنهُ قالَ اللهُ تعالى لهُ: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فيهِ شفاؤكَ.

قوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ﴾ في الآخرةِ ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ في الدنيا ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أيْ فعلنا ذلكَ بهِ رحمةً منْ عندنا. وقيل: ابتليناهُ ليعظمَ ثوابهُ غدًا ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ٨٤﴾ أيْ وتذكيرًا للعبادِ على إدامةِ العبادةِ، واحتمالِ الضررِ.

قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ أيْ واذكرهمْ، وقيل: كانَ ذو الكفل رجلًا عفيفًا يتكفلُ بشأنِ كلِّ إنسانٍ وقعَ في بلاءٍ أوْ تهمةٍ أوْ مطالبةٍ فينجيهِ اللهُ على يديهِ. وقيل: سميَ ذا الكفلِ لأنَّ اللهَ تعالى تكفَّلَ لهُ في سعيهِ وعملهِ بضعفِ عمل غيرهِ منَ الأنبياءِ الذينَ كانوا في زمانهِ. والجمهورُ على أنهُ ليسَ بنبيٍّ. وقالَ الحسنُ: هوَ نبيٌّ قبلَ إلياسَ. وقيل: هوَ زكريا بكفالةِ مريمَ ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٨٥﴾ أيْ على أمرِ اللهِ والقيامِ بطاعتهِ واجتنابِ معاصيهِ ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ﴾ أي في الجنة ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٦﴾.

قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ أيْ واذكرْ ﴿ذَا ٱلنُّونِ﴾ وهوَ لقبٌ ليونسَ بنِ متى لابتلاعِ النونِ إياهُ. والنونُ الحوتُ ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ منْ أجلِ ربهِ، قيلَ: إنهُ غاضبَ قومهُ حينَ طالَ عليهِ أمرهمْ وتعنتهمْ فذهبَ فارًا بنفسهِ، ولمْ يصبرْ على أذاهمْ وقدْ كانَ اللهُ أمرهُ بملازمتهمْ والدعاءِ، فكانَ ذنبهُ خروجهُ منْ بينهمْ منْ غيرِ إذن من الله ولهذا قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ والمليمُ منْ فعلَ ما يلامُ عليهِ. وكانَ ما فعلهُ إما صغيرةً أوْ تركَ الأولى، وقيل: خرجَ ولمْ يكنْ نبيًا في ذلكَ الوقتِ.

قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ معناهُ: فظنَّ أنْ لنْ نضيّقَ عليهِ منْ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أيْ يضيقُ. وقولهُ ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾. وقيل: هوَ منَ التقديرِ ليسَ منَ القدرةِ، يقالُ منهُ: قدّرَ اللهُ لكَ الخيرَ يقدرهُ قدرًا، وعلى هذينَ التأويلينِ العلماءُ، وقرأَ يعقوبُ «يُقْدَرَ عَلَيْهِ» بياءٍ مضمومةٍ وفتحِ الدالِ مخففًا على الفعلِ المجهولِ، الباقونَ: «نَقْدِرَ» بفتحِ النونِ وكسرِ الدالِ وكلهُ بمعنى التقديرِ.

قلتُ: وهذانَ التأويلانِ تأولهما العلماءُ في قولِ الرجلِ الذي لمْ يعملْ خيرًا قطُّ لأهلهِ إذا ماتَ فحرِّقوهُ «فواللهِ لئنْ قدرَ اللهُ عليَّ» الحديثَ فعلى التأويلِ الأولِ يكونُ تقديرهُ: واللهِ لئنْ ضيقَ اللهُ عليَّ وبالغَ في محاسبتي وجزاني على ذنوبي ليكوننَّ ذلكَ، ثمَّ أمرَ أنْ يحرقَ بإفراطِ خوفهِ. وعلى التأويلِ الثاني: أيْ لئنْ كانَ سبقَ في قدرِ اللهِ وقضائهِ أنْ يعذبَ كلَّ ذي جرمٍ على جرمهِ ليعذبني اللهُ على إجرامي وذنوبي عذابًا لا يعذبهُ أحدًا منَ العالمينَ غيري. وحديثهُ خرجهُ الأئمةُ في الموطأِ وغيرهِ. والرجلُ كانَ مؤمنًا موحدًا. وقدْ جاءَ في بعضِ طرقهِ «لمْ يعملْ خيرًا إلا التوحيدَ» وقدْ قالَ حينَ قالَ اللهُ تعالى: لمَ فعلتَ هذا؟ قالَ: منْ خشيتكَ يا ربِّ. والخشيةُ لا تكونُ إلا لمؤمنٍ مصدقٍ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾.

وقدْ قيلَ: إنَّ معنى ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ الاستفهامُ وتقديرهُ: أفظنَّ.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ظلمةُ الليلِ، وظلمةُ البحرِ، وظلمةُ الحوتِ، ويصحُّ أنْ يعبرَ بالظلماتِ عنْ جوفِ الحوتِ كما قال: «في غيابات الجب»، وفي كلِّ جهاتهِ ظلمةٌ فجمعها سائغٌ، وذكرَ الماورديُّ: أنهُ يحتملُ أنْ يعبرَ بالظلماتِ عنْ ظلمةِ الخطيئةِ، وظلمةِ الشدةِ، وظلمةِ الوحدةِ.

﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يريدُ فيما خالفَ فيهِ منْ تركِ مداومةِ قومهِ والصبرِ عليهمْ. وقيل: في الخروجِ منْ غيرِ أنْ يؤذنَ لهُ. ولمْ يكنْ ذلكَ منَ اللهِ عقوبةً، لأنَّ الأنبياءَ لا يجوزُ أنْ يعاقبوا، وإنما كانَ ذلكَ تمحيصًا.

الثانية: روى أبو داودَ عنْ سعدِ بنِ أبي وقاصٍ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «دعاءُ ذي النونِ في بطنِ الحوتِ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لمْ يدعُ بهِ رجلٌ مسلمٌ في شيء قطُّ إلا استجيبَ لهُ» وقدْ قيلَ: إنهُ اسمُ اللهِ الأعظمُ.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٨٨﴾ أيْ نخلصهمْ منْ همهمْ بما سبقَ منْ عملهمْ. وذلكَ قولهُ: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾، وهذا حفظٌ منَ اللهِ عزَّ وجلَّ لعبدهِ يونس رعى له حق تعبده، وحفظ ذمام ما سلفَ لهُ منَ الطاعةِ.

﴿مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾ أيْ منْ بطنِ الحوتِ. قولهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قراءةُ العامةِ بنونينِ منْ أنجى ينجي. وقرأ ابنُ عامرٍ «نُجِّيْ» بنونٍ واحدةٍ وجيمٍ مشددةٍ وتسكينِ الياءِ على الفعلِ الماضي وإضمارِ المصدرِ أيْ وكذلكَ نجيَ النجاءُ المؤمنينَ.

قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ أيْ واذكرْ زكريا ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾ لا ولدَ لي ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩﴾ أيْ خيرُ منْ يبقى بعدَ كلِّ منْ يموتُ، وإنما قالَ: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ لما تقدم من قوله: ﴿يَرِثُنِي﴾ أيْ أعلمُ أنكَ لا تضيعُ دينكَ ولكنْ لا تقطعْ هذهِ الفضيلةَ التي هيَ القيامُ بأمرِ الدينِ عنْ عقبي.

قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ أي أجبنا دعاءه ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ﴾. تقدم ذكره مستوفى: ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ﴾ كانتْ عاقرًا فجعلتْ ولودًا. وقيل: كانتْ سيئةَ الخلق، طويلة اللسان، فأصلحها الله تعالى فجعلها حسنةَ الخلقِ. قلتُ: ويحتملُ أنْ تكونَ جمعتِ المعنيينِ، ﴿إِنَّهُمۡ﴾ يعني الأنبياء المسمين في هذه السورة ﴿كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾. وقيل: الكنايةُ راجعةٌ إلى زكريا وامرأتهِ ويحيى.

قوله تعالى: ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾ حال الرخاءِ وحال الشدةِ. وقيل: يدعونَ برغبةٍ ورجاءٍ ورهبةٍ وخوفٍ، لأنَّ الرغبةَ والرهبةَ متلازمانِ. وقيل: الرغبُ رفعُ بطونِ الأكفِّ إلى السماءِ، والرهبُ رفعُ ظهورها.

الثانية: روى الترمذيُّ عنْ عمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا رفعَ يديهِ في الدعاء لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه. وتختلف أحوالِ الدعاءِ كما قالَ ابنُ عباسٍ: إذا أشارَ أحدكمْ بإصبعٍ واحدٍ فهوَ الإخلاصُ وإذا رفعَ يديهِ حذوَ صدرهِ فهوَ الدعاءُ، وإذا رفعهما حتى يجاوزَ بهما رأسهُ وظاهرهما مما يلي وجههُ فهوَ الابتهالُ.

﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ أي متواضعين خاضعين.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ أيْ واذكرْ مريمَ التي أحصنتْ فرجها. وإنما ذكرها وليستْ منَ الأنبياءِ ليتمَّ ذكرُ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولهذا قالَ: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١﴾ ولمْ يقلْ آيتينِ لأنَّ معنى الكلامِ: وجعلنا شأنهما وأمرهما وقصتهما آيةً للعالمينَ. وَ ﴿أَحۡصَنَتۡ﴾ يعني عفتْ فامتنعتْ منَ الفاحشةِ ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ يعني أمرْنا جبريلَ حتى نفخَ في درعها، و ﴿ءَايَةٗ﴾ أيْ علامةً وأعجوبةً للخلقِ، وعلمًا لنبوةِ

عيسى، ودلالةً على نفوذ قدرتنا فيما نشاء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ كلهمْ مجتمعونَ على التوحيدِ، فالأمةُ هنا بمعنى الدينِ الذي هوَ الإسلامُ، وأما المشركونَ فقدْ خالفوا الكلَّ ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ﴾ أي إلهكم وحدي ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ أي أفردوني بالعبادة.

قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾ أي تفرقوا في الدين، والمرادُ المشركونَ، ذمهمْ لمخالفتهم الحقِّ، واتخاذهمْ آلهةً منْ دونِ اللهِ ﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ٩٣﴾ أيْ إلى حكمنا فنجازيهمْ.

قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ ﴿مِنَ﴾ للتبعيضِ لا للجنسِ إذْ لا قدرةَ للمكلفِ أنْ يأتيَ بجميع الطاعات وهوَ موحدٌ مصدق بمحمدٍ ﷺ ﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾ أيْ لا جحودَ لعملهِ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ٩٤﴾ لعملهِ حافظونَ. نظيرهُ: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ﴾ أي كل ذلك محفوظ ليجازي به.

قوله تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٩٥﴾ قراءةُ أهلِ المدينةِ: ﴿وَحَرَٰمٌ﴾، وأهلُ الكوفةِ «وَحِرْمٌ»، وهما لغتان مثلُ حلٍّ وحلالٍ، أيْ وحرامٌ على قريةٍ أهلكناها أنْ يرجعوا بعدَ الهلاكِ.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾ في الكلامِ حذفٌ، أيْ حتى إذا فُتحَ سدُّ يأجوجَ ومأجوجَ، مثلَ ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾.

﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦﴾ منْ كلِّ شرفٍ يقبلونَ، أيْ لكثرتهمْ ينسلونَ منْ كلِّ ناحيةٍ. والحدبُ ما ارتفعَ منَ الأرضِ، والجمعُ الحِدابُ مأخوذٌ منْ حدبةِ الظهرِ.

قوله تعالى: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ يعني القيامةَ. والواو زائدة مقحمة، والمعنى: ﴿حتى إذا فُتحَت يأجوجُ ومأجوجُ﴾ ﴿اقتربَ الوعدُ الحقُّ﴾ فاقترب" جواب" إذا". وقيل: الواو زائدة، ومنه قوله تعالى: ﴿وتلَّهُ للجَبِينِ ونَادينَاه﴾ أي للجبين ناديناه. وقال البصريون:

الجواب محذوف والتقدير: ﴿قَالُوا يَا وَيلَنَا﴾. قال الله تعالى: ﴿والذينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَولِياءَ مَا نَعبُدهُم إلا لِيقَرِبُونَا إلى اللهِ زُلفَى﴾ المعنى: قالوا ما نعبدهم، وحذف القول كثير.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ﴾ فإذا أبصار الذين كفروا شخصت من هذا اليوم، أي من هوله لا تكاد تطرف، يقولون: ﴿يا ويلنا إنا كنا ظالمين بمعصيتنا﴾، ووضعنا العبادة في غير موضعها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: لما أنزلتْ شقَّ على كفارِ قريشٍ، وقالوا: شتمَ آلهتنا، وأتوا ابنَ الزِّبعَرى وأخبروهُ، فقالَ: لوْ حضرتهُ لرددتُ عليهِ. قالوا: وما كنتَ تقولُ لهُ؟ قالَ: كنتُ أقولُ لهُ: هذا المسيحُ تعبدهُ النصارى واليهودُ تعبدُ عزيرًا أفهما منْ حصبِ جهنمَ؟ فعجبتْ قريشٌ منْ مقالتهِ، ورأوا أنَّ محمدًا قدْ خُصمَ، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ وفيهِ نزلَ ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ يعني ابنَ لزِّبعَرى ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ بكسرِ الصادِ، أيْ يضجونَ.

الثانية: هذهِ الآية أصل في القولِ بالعمومِ وأنَّ لهُ صيغًا مخصوصةً، خلافًا لمنْ قالَ ليستْ لهُ صيغةٌ موضوعةٌ للدلالةِ عليهِ، وهوَ باطلٌ بما دلتْ عليهِ هذهِ الآيةُ وغيرها، فهذا ابنُ الزِّبعَرى قدْ فهمَ ﴿مَا﴾ في جاهليتهِ جميعَ منْ عُبدَ، ووافقهُ على ذلكَ قريشٌ وهمُ العربُ الفصحاءُ، واللسنُ البلغاءُ، ولوْ لمْ تكنْ للعمومِ لما صحَّ أنْ يستثنى منها، وقدْ وجدَ ذلكَ فهيَ للعمومِ وهذا واضحٌ.

الثالثة: قراءةُ العامةِ بالصادِ المهملةِ أيْ إنكمْ يا معشرَ الكفارِ والأوثانَ التي تعبدونها منْ دونِ اللهِ وقودُ جهنمَ، وكلُّ ما ألقيتهُ في النارِ فقدْ حصبتها بهِ، ونظيرُ هذهِ الآيةِ قولهُ تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾.

الرابعة: قولهُ تعالى: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ أيْ فيها داخلونَ. والخطابُ للمشركينَ عبدةِ الأصنامِ، أيْ أنتم وأردوها معَ الأصنامِ. ويجوزُ أنْ يقالَ: الخطابُ للأصنامِ وعبدتها، لأنَّ الأصنامَ وإنْ كانتْ جماداتٍ فقدْ يخبرُ عنها بكناياتِ الآدميينَ. وقالَ العلماءُ: لا يدخلُ في هذا عيسى ولا عزيرٌ ولا الملائكةُ صلواتُ اللهِ عليهمْ، لأنَّ ﴿مَا﴾ لغيرِ الآدميينَ. فلوْ أرادَ ذلكَ لقالَ: «ومنْ». قالَ الزجاجُ: ولأنَّ المخاطبينَ بهذهِ الآيةِ مشركو مكةَ دون غيرهم.

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَاۖ﴾ أيْ لوْ كانتِ الأصنامُ آلهةً لما وردَ عابدوها النارَ. وقيل: ماوردها العابدونَ والمعبودونَ، ولهذا قالَ: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٩٩﴾.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أيْ لهؤلاءِ الذينَ وردوا النارَ منَ الكفارِ والشياطينِ، فأما الأصنامُ فعلى الخلافِ فيها، هلْ يحييها اللهُ تعالى ويعذبها حتى يكونَ لها زفيرٌ أوْ لا؟ قولانِ: والزفيرُ صوتُ نفسِ المغمومِ يخرجُ منَ القلبِ ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ١٠٠﴾ في الكلامِ حذفٌ، والمعنى وهمْ فيها لا يسمعونَ شيئًا، لأنهمْ يحشرونَ صمًا، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّاۖ﴾. وفي سماعِ الأشياءِ روحٌ وأنسٌ، فمنعَ اللهُ الكفارَ ذلكَ في النارِ. وقيل: لا يسمعونَ ما يسرهمْ، بلْ يسمعونَ صوتَ منْ يتولى تعذيبهمْ منَ الزبانيةِ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ أيِ الجنةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا﴾ أيْ عنِ النارِ ﴿مُبْعَدُونَ ١٠١﴾ فمعنى الكلامِ الاستثناءُ، ولهذا قالَ بعضُ أهلِ العلمِ: ﴿إِنَّ﴾ هاهنا بمعنى «إلا» وليسَ في القرآنِ غيرهُ.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾ أيْ حسَّ النارِ وحركةَ لهبها. والحسيسُ والحسُّ الحركةُ ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ١٠٢﴾ أيْ دائمونَ وهمْ فيما تشتهيهِ الأنفسُ وتلذُّ الأعينُ، وقالَ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ وقرأَ أبو جعفرٍ ﴿لَا يُحْزِنُهُمُ﴾ بضمِّ الياءِ وكسرِ الزاي. الباقونَ بفتحِ الياءِ وضمِّ الزاي. حَزَنهُ لغةُ قريشٍ، وأحزَنهُ لغةُ تميمٍ، وقدْ قرئَ بهما. والفزعُ الأكبرُ أهوالُ يومِ القيامةِ والبعث ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ أيْ تستقبلهمُ يهنئونهمْ ويقولونَ لهمْ: ﴿هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ فيه الكرامة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ قرأَ أبو جعفرِ بنُ القعقاعِ «تُطْوَى» بتاءٍ مضمومةٍ «السَّمَاءُ» رفعًا على ما لم يسم فاعله. وأرادَ بالسماءِ الجنسَ، دليلهُ: ﴿وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾.

﴿كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أيْ كطيِّ الصحيفةِ على ما فيها، فاللامُ بمعنى «على». وقيل: ﴿ٱلسِّجِلِّ﴾ ملكٌ، وهوَ الذي يطوي كتبَ بني آدمَ إذا رفعتْ إليهِ، والطيُّ في هذهِ الآيةِ يحتملُ معنيينِ:

أحدهما: الدرجُ الذي هوَ ضدُّ النشرِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾.

والثاني: الإخفاءُ والتعميةُ والمحوُ، لأنَّ اللهَ تعالى يمحو ويطمس رسومها ويكدر نجومها، قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾.

«لِلْكِتَابِ» وتمَّ الكلامُ. وقراءةُ حفصٍ وحمزةَ والكسائيِّ وخلفٍ: ﴿لِلْكُتُبِ﴾ جمعًا ثمَّ استأنفَ الكلامَ فقالَ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾، وروى مسلمٌ عنِ ابنِ عباسٍ قالَ: قامَ فينا رسولُ اللهِ ﷺ بموعظةٍ فقالَ: «يا أيها الناسُ إنكمْ تحشرونَ إلى اللهِ حفاةً عراةً غرلًا» ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وعدًا علينا إنا كنا فاعلينَ﴾ ألا وإنَّ أولَ الخلائقِ يكسى يومَ القيامةِ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ» وذكرَ الحديثَ، وهوَ نظيرُ قولهِ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا

خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾، وقوله عز وجل: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾.

﴿وَعْدًا﴾ نصبَ على المصدرِ، أيْ وعدنا وعدًا ﴿عَلَيْنَا﴾ إنجازهُ والوفاءُ بهِ أيْ منَ البعثِ والإعادةِ ففي الكلامِ حذفٌ: ثمَّ أكدَ ذلكَ بقولهِ جلَّ ثناؤهُ: ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾ قادرينَ على ما نشاءُ. وقيلَ: ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾ أيْ ما وعدناكمْ وهوَ كما قال: ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾. وقيل: ﴿كَانَ﴾ للإخبارِ بما سبقَ منْ قضائهِ. وقيل: صلة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾ الزبورُ والكتابُ واحدٌ، ولذلكَ جازَ أنْ يقالَ للتوراةِ والإنجيلِ زبورٌ. زبرتُ أيْ كتبتُ وجمعهُ زبرٌ ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ الذي في السماءِ، وقيل: ﴿ٱلزَّبُورِ﴾ زبور داود، و ﴿ٱلذِّكر﴾ توراةُ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقيل: الزبور كتب الأنبياء عليهم السلام، و ﴿ٱلذِّكر﴾ أمُّ الكتابِ الذي عندَ اللهِ في السماءِ.

وقرأَ حمزةُ «الزُّبُورِ» بضمِّ الزاي جمعُ زِبْرٍ.

﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ أرضُ الجنةِ لقولهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾، وقيل: أنها الأرضُ المقدسةُ. وعنهُ أيضًا: أنها أرضُ الأممِ الكافرةِ ترثها أمةُ محمدٍ ﷺ بالفتوحِ.

وقرأَ حمزةُ «عِبَادِيْ الصَّالِحُونَ» بتسكينِ الياءِ.

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ أيْ فيما جرى ذكرهُ في هذهِ السورةِ منَ الوعظِ والتنبيهِ. وقيل: إنَّ في القرآنِ ﴿لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦﴾ أهلُ الصلواتِ الخمسِ.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ لجميعِ الناسِ فمنْ آمنَ بهِ وصدقَ بهِ سعدَ، ومنْ لمْ يؤمنْ بهِ سلمَ مما لحقَ الأممَ منَ الخسفِ والغرقِ، وقيل: أرادَ بالعالمينَ المؤمنينَ خاصةً.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ فلا يجوزُ الإشراكُ بهِ ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٠٨﴾ أيْ منقادونَ لتوحيدِ اللهِ تعالى، أيْ فأسلموا، كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ أيِ انتهوا.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ وأعرضوا عنِ الإسلامِ ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أيْ أعلمتكمْ على بيانٍ أنّا وإياكمْ حربٌ لا صلحَ بيننا، كقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أيْ أعلمهمْ أنكَ نقضتَ العهدَ نقضًا، أيِ استويتَ أنتَ وهمْ فليسَ لفريقٍ عهدٌ ملتزمٌ في حقِّ الفريقِ الآخرِ ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ﴾ ﴿إِنْ﴾ نافيةٌ بمعنى «ما» أيْ وما أدري ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩﴾ يعني أجلَ يومِ القيامةِ لا يدريهِ أحدٌ لا نبيٌّ مرسلٌ ولا ملكٌ مقربٌ، وقيل: آذنتكمْ بالحربِ ولكني لا أدري متى يؤذنُ لي في محاربتكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ١١٠﴾ أيْ منَ الشركِ وهوَ المجازي عليهِ ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ﴾ أيْ لعلَّ الإمهالَ ﴿فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ أيِ اختبارٌ ليرى كيفَ صنيعكم وهوَ أعلمُ ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ١١١﴾ قيلَ: إلى انقضاءِ المدةِ.

قوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ ختمَ السورةَ بأنْ أمرَ النبيَّ ﷺ بتفويضِ الأمرِ إليهِ وتوقعِ الفرجِ منْ عندهِ، أيِ احكمْ بيني وبينَ هؤلاءِ المكذبينَ وانصرني عليهمْ، وقرأَ يعقوبُ: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ بقطعِ الألفِ مفتوحةَ الكافِ والميمُ مضمومةٌ. أيْ قالَ محمدٌ ربي أحكمُ بالحقِّ منْ كلِّ حاكمٍ.

﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾ أيْ تصفونهُ منَ الكفرِ والتكذيبِ، واللهُ أعلم.

سورة الحج

وهي مكية، سوى قوله تعالى: ﴿۞هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ إلى تمامِ ثلاثِ آياتٍ.

وقالَ الجمهورُ: السورةُ مختلطةٌ، منها مكيٌّ ومنها مدنيٌّ. وهذا هوَ الأصحُّ، لأنَّ الآياتِ تقتضي ذلكَ، لأنَّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ مكيٌّ، وَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مدنيٌّ. وهيَ منْ أعاجيبِ السورِ، نزلتْ ليلًا ونهارًا، سفرًا وحضرًا، مكيًا ومدنيًا، سلميًا وحربيًا، ناسخًا ومنسوخًا، محكمًا ومتشابهًا، مختلفَ العددِ.

قلتُ: وجاءَ في فضلها ما رواهُ الترمذيُّ عنْ عقبةَ بنِ عامرٍ قالَ قلتُ: يا رسولَ اللهِ، فضلتْ سورةُ الحجِّ بأنَّ فيها سجدتينِ؟ قالَ: «نعمْ، ومنْ لمْ يسجدهما فلا يقرأهما». قالَ الترمذيُّ: هذا حديثٌ حسنٌ ليسَ إسنادهُ بالقويِّ.

واختلفَ أهلُ العلمِ في هذا، فقال الشافعيُّ وأحمدُ بذلك، ورأى بعضهمْ أنَّ فيها سجدةً واحدةً، وهوَ قولُ سفيانَ الثوريِّ.

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ١﴾

روى الترمذيُّ عنْ عمرانَ بنِ حصينٍ أنَّ النبيَّ ﷺ لما نزلتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ١﴾ -إلى قولِهِ- ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾ قال: أنزلت عليه هذا الآيةُ وهوَ في سفرٍ فقالَ: «أتدرونَ أيُّ يوم ذلكَ»؟ فقالوا: اللهُ ورسولهُ أعلمُ، قالَ: «ذاكَ يومُ يقولُ اللهُ لآدمَ ابعثْ بعثَ النارِ قالَ يا ربِّ وما بعثُ النارِ قالَ تسعمائةٍ وتسعةٌ وتسعونَ إلى النارِ وواحدٌ إلى الجنةِ». فأنشأَ المسلمونَ يبكونَ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «قاربوا وسددوا فإنهُ لمْ تكنْ نبوةٌ قطُّ إلا كانَ بينَ يديها جاهليةٌ- قالَ- فيؤخذُ العددُ منَ الجاهليةِ فإنْ تمتْ وإلا كملتْ منَ المنافقينَ وما مثلكمْ والأممِ إلا كمثلِ الرقمةِ في ذراعِ الدابةِ أوْ كالشامةِ في جنبِ البعيرِ- ثمَّ قالَ- إني لأرجو أنْ تكونوا ربعَ أهلِ الجنةِ- فكبروا، ثمَّ قالَ- إني لأرجو أنْ تكونوا ثلثَ أهلِ الجنةِ- فكبروا، ثمَّ قالَ- إني لأرجو أنْ تكونوا نصفَ

أهلِ الجنةِ» فكبروا. قالَ: لا أدري قالَ الثلثينِ أمْ لا. قالَ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

قولهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ﴾ المرادُ بهذا النداءِ المكلفونَ، والاتقاءُ: الاحتراسُ منَ المكروهِ. والمعنى: احترسوا بطاعتهِ عنْ عقوبتهِ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ الزلزلةُ شدةُ الحركةِ، ومنهُ ﴿وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾، وأصلُ الكلمةِ منْ زلَّ عنِ الموضعِ، أيْ زالَ عنهُ وتحركَ. وزلزلَ اللهُ قدمهُ، أيْ حركها. وهذهِ اللفظةُ تستعملُ في تهويلِ الشيءِ. وقيل: هيَ الزلزلةُ المعروفةُ التي هيَ إحدى شرائطِ الساعةِ، التي تكونُ في الدنيا قبلَ يومِ القيامةِ، هذا قولُ الجمهورِ. وقدْ قيلَ: إنَّ هذهِ الزلزلةَ تكونُ في النصفِ منْ شهرِ رمضانَ، ومنْ بعدها طلوعُ الشمسِ منْ مغربها، فالله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ الهاءُ في ﴿تَرَوْنَهَا﴾ عائدةٌ عندَ الجمهورِ على الزلزلةِ، ويقوي هذا قوله عزوجل. ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾. والرضاعُ والحملُ إنما هوَ في الدنيا.

وقالت فرقة: الزلزلةُ في يومِ القيامةِ، واحتجوا بحديثِ عمرانَ بنِ حصينٍ الذي ذكرناهُ،

قولهُ: ﴿تَذْهَلُ﴾ أيْ تشتغلُ، وقيل: تنسى ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ أيْ عنِ الإرضاعِ، وهذا يدلُّ على أنَّ هذهِ الزلزلةَ في الدنيا، إذْ ليسَ بعدَ البعثِ حملٌ وإرضاعٌ. إلا أنْ يقالَ: من ماتتْ حاملًا تبعثُ حاملًا فتضعُ حملها للهولِ. ومنْ ماتتْ مرضعةً بعثتْ كذلكَ. ويقالُ: هذا كما قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾.

وقيل: تكونُ معَ النفخةِ الأولى وقيل: تكونُ معَ قيامِ الساعةِ، حتى يتحركَ الناسُ منْ قبورهمْ في النفخةِ الثانيةِ، ويحتملُ أنْ تكونَ الزلزلةُ في الآيةِ عبارةً عنْ أهوالِ يومِ القيامةِ، كما قالَ تعالى: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ﴾، وكما قالَ ﷺ: «اللهمَّ اهزمهمْ وزلزلهمْ».

وفائدةُ ذكرِ هولِ ذلكَ اليومِ التحريضُ على التأهبِ لهُ والاستعدادِ بالعملِ الصالحِ. وتسميةُ الزلزلةِ بـ ﴿شَىْءٍ﴾ إما لأنها حاصلةٌ متيقنٌ وقوعها، فيستسهلُ لذلكَ أنْ تسمى شيئًا وهيَ معدومةٌ، إذِ اليقينُ يشبهُ الموجوداتِ. وإما على المآلِ، أيْ هيَ إذا وقعتْ شيء عظيمٌ

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ أيْ منْ هولها ومما يدركهمْ منَ الخوفِ والفزعِ ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ منَ الخمرِ، وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ «سَكْرَى» بغيرِ ألفٍ. الباقونَ: ﴿سُكَٰرَىٰ﴾ وهما لغتانِ لجمعِ سكرانَ، مثلُ كسلى وكسالى.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قيلَ: المرادُ النضرُ بنُ الحارثِ، قالَ: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ غيرُ قادرٍ على إحياءِ منْ قدْ بليَ وعادَ ترابًا ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ أيْ في قولهِ ذلكَ ﴿كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ٣﴾ متمردٍ ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ أيْ منْ تولى الشيطانَ ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ -إلى قولهِ- ﴿مُّسَمًّى﴾، فيهِ اثنتا عشرةَ مسألةً:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ أي في شكٍّ منَ الإعادةِ ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾ أيْ خلقنا أباكمُ آدمَ عليه السلام ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ ذريتهُ ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهوَ المنيُّ، سميَ نطفةً لقلتهِ ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وهوَ الدمُ الجامدُ ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ وهيَ لحمةٌ قليلةٌ قدرَ ما يمضغُ، ومنهُ الحديثُ «ألا وإنَّ في الجسدِ مضغةً». وهذهِ الأطوارُ أربعةُ أشهرٍ. قالَ ابنُ عباسٍ: وفي العشرِ بعدَ الأشهرِ الأربعةِ ينفخُ فيهِ الروحُ، فذلكَ عدةُ المتوفى عنها زوجها، أربعةُ أشهرٍ وعشرٌ.

الثانية: في الصحيحِ عنْ أنسِ بنِ مالكٍ -ورفعَ الحديثَ- قالَ: «إنَّ اللهَ قدْ وكلَ بالرحمِ ملكًا فيقولُ أيْ ربِّ نطفةٌ. أيْ ربِّ علقةٌ. أيْ ربِّ مضغةٌ. فإذا أرادَ اللهُ أنْ يقضيَ خلقًا -قالَ- قالَ الملكُ أيْ ربِّ ذكرٌ أوْ أنثى شقيٌّ أوْ سعيدٌ. فما الرزقُ فما الأجلُ. فيكتبُ كذلكَ في بطنِ أمهِ». وفي الصحيحِ أيضًا عنْ حذيفةَ بنِ أسيدٍ الغفاريِّ قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إذا مرَّ بالنطفةِ ثنتانِ وأربعونَ ليلةً بعثَ اللهُ إليها ملكًا فصورها وخلقَ سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثمَّ يقولُ أيْ ربِّ أذكرٌ أمْ أنثى...» وذكرَ الحديثَ.

وفي الصحيحِ عنْ ابنِ مسعودٍ قالَ: حدثنا رسولُ اللهِ ﷺ وهوَ الصادقُ المصدوقُ «إنَّ أحدكمْ يجمعُ خلقهُ في بطنِ أمهِ أربعينَ يومًا ثمَّ يكونُ في ذلكَ علقةً مثلَ ذلكَ ثمَّ يكونُ مضغةً

مثلَ ذلكَ ثمَّ يرسلُ الملكَ فينفخُ فيهِ الروحَ ويؤمرُ بأربعِ كلماتٍ بكتبِ رزقهِ وأجلهِ وعملهِ وشقيٌّ أوْ سعيدٌ...» الحديثَ. فهذا الحديث مفسر للأحاديث الأول.

الثالثة: نسبةُ الخلقِ والتصويرِ للملكِ نسبةٌ مجازيةٌ لا حقيقيةٌ، ألا تراهُ سبحانهُ قدْ أضافَ إليهِ الخلقةَ الحقيقيةَ فقالَ: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾، وقالَ: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ﴾، وقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾. وقالَ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞ﴾، ثم قال: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾، وقالَ: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾، وقال: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾. إلى غيرِ ذلكَ منَ الآياتِ، فتأملْ هذا الأصلَ وتمسكْ بهِ، ففيهِ النجاةُ منْ مذاهب أهل الضلال الطبيعيين وغيرهمْ.

الرابعة: لمْ يختلفِ العلماءُ أنَّ نفخَ الروحِ فيهِ يكونُ بعدَ مائةٍ وعشرينَ يومًا، وذلكَ تمامُ أربعةِ أشهرٍ ودخولهُ في الخامسِ، كما بيناهُ بالأحاديثِ. وعليهِ يعولُ فيما يحتاجُ إليهِ منَ الأحكامِ في الاستلحاقِ عندَ التنازعِ، وفي وجوبِ النفقاتِ على حملِ المطلقاتِ، وذلكَ لتيقنهِ بحركةِ الجنينِ في الجوفِ. وقدْ قيلَ: إنهُ الحكمةُ في عدةِ المرأةِ منَ الوفاةِ بأربعةِ أشهرٍ وعشرٍ، وهذا الدخولُ في الخامسِ يحققُ براءةَ الرحمِ ببلوغِ هذهِ المدةِ إذا لمْ يظهرْ حملٌ.

الخامسة: النطفةُ ليستْ بشيءٍ يقينًا، ولا يتعلقُ بها حكمٌ إذا ألقتها المرأةُ إذا لمْ تجتمعْ في الرحمِ، فهيَ كما لوْ كانتْ في صلبِ الرجلِ، فإذا طرحتهُ علقةً فقدْ تحققنا أنَّ النطفةَ قدِ استقرتْ واجتمعتْ واستحالتْ إلى أولِ أحوالٍ يتحققُ بهِ أنهُ ولدٌ. وعلى هذا فيكونُ وضعُ العلقةِ فما فوقها منَ المضغةِ وضعَ حملٍ، تبرأُ بهِ الرحمُ، وتنقضي بهِ العدةُ، ويثبتُ بهِ لها حكمُ أمِّ الولدِ. وهذا مذهبُ مالكٍ ﵁ وأصحابهِ. وقالَ الشافعيُّ ﵁: لا اعتبارَ بإسقاطِ العلقةِ، وإنما الاعتبارُ بظهورِ الصورةِ والتخطيطِ، فإنْ خفيَ التخطيطُ وكانَ لحمًا فقولانِ بالنقلِ والتخريجِ، والمنصوصُ أنهُ تنقضي بهِ العدةُ ولا تكونُ أمَّ ولدٍ. قالوا: لأنَّ العدةَ تنقضي بالدمِ الجاري، فبغيرهِ أولى.

السادسة: قوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٖ﴾ تامةُ الخلقِ، ﴿وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ السقطُ. وقيل:

﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾ قدْ بدأَ خلقها، ﴿وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ لمْ تصورْ بعدُ.

السابعة: أجمعَ العلماءُ على أنَّ الأمةَ تكونُ أمَّ ولدٍ بما تسقطهُ منْ ولدٍ تامِّ الخلقِ. وعندَ مالكٍ بالمضغةِ كانتْ مخلقةً أوْ غيرَ مخلقةٍ، وقالَ الشافعيُّ وأبو حنيفةَ: إنْ كانَ قدْ تبين له شيء منْ خلقِ بني آدمَ أصبعٌ أوْ عينٌ أوْ غيرُ ذلكَ فهيَ لهُ أمُّ ولدٍ.

وأجمعوا على أنَّ المولودَ إذا استهلَّ صارخًا يصلى عليهِ، فإنْ لمْ يستهلَّ صارخًا لمْ يصلَّ عليهِ عندَ مالكٍ وأبي حنيفةَ والشافعيِّ وغيرهما. ورويَ عنِ ابنِ عمرَ أنهُ يصلى عليهِ، وقالَ بعضُ السلفِ: يصلى عليهِ متى نفخَ فيهِ الروحُ وتمتْ لهُ أربعةُ أشهرٍ. وروى أبو داودَ عنْ أبي هريرةَ رَضِوَاللَّهُعَنهُ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «إذا استهلَّ المولودُ ورثَ». والاستهلالُ: رفعُ الصوتِ، فكلُّ مولودٍ كانَ ذلكَ منهُ أوْ حركةٌ أوْ عطاسٌ أوْ تنفسٌ فإنهُ يورثُ لوجودِ ما فيهِ منْ دلالةِ الحياةِ. وإلى هذا ذهبَ الشافعيُّ. قالَ الخطابيُّ: وأحسنهُ قولُ أصحابِ الرأيِ. وقالَ مالكٌ: لا ميراثَ لهُ وإنْ تحركَ أوْ عطسَ ما لم يستهل صارخا.

الثامنة: قالَ مالكٌ رَضِوَاللَّهُعَنهُ: ما طرحتهُ المرأةُ منْ مضغةٍ أوْ علقةٍ أوْ ما يعلمُ أنهُ ولدٌ إذا ضربَ بطنها ففيهِ الغرةُ. وقالَ الشافعي: لا شيء فيه حتى يتبين من خلقه شيء. قالَ مالكٌ: إذا سقطَ الجنينُ فلمْ يستهلَّ صارخًا ففيهِ الغرةُ. وسواءٌ تحركَ أوْ عطسَ فيهِ الغرةُ أبدًا، حتى يستهلَّ صارخًا ففيهِ الديةُ كاملةً. وقالَ الشافعيُّ رَضِوَاللَّهُعَنهُ وسائرُ فقهاءِ الأمصارِ: إذا علمتْ حياتهُ بحركةٍ أوْ بعطاسٍ أوْ باستهلالٍ أوْ بغيرِ ذلكَ مما تستيقنُ بِهِ حياتهُ ففيهِ الديةُ.

التاسعة: ذكرَ القاضي إسماعيلُ أنَّ عدةَ المرأةِ تنقضي بالسقطِ الموضوعِ، واحتجَّ عليهِ بأنهُ حملٌ، وقالَ قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ قالَ: والدليلُ على ذلكَ أنهُ يرثُ أباهُ، فدلَّ على وجودهِ خلقًا وكونهِ ولدًا وحملًا. قالَ ابنُ العربيِّ: ولا يرتبط به شيء منْ هذهِ الأحكامِ إلا أنْ يكونَ مخلقًا.

قلت: ما ذكرناه من الاشتقاق وقول ﷺ: «إنَّ أحدكمْ يجمعُ خلقهُ في بطنِ أمهِ «يدلُّ على صحةِ ما قلناهُ، ولأنَّ مسقطةَ العلقةِ والمضغةِ يصدقُ على المرأةِ إذا ألقتهُ أنها كانتْ حاملًا وضعتْ ما استقرَّ في رحمها، فيشملها قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن

﴿يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾، ولأنها وضعتْ مبدأَ الولدِ عنْ نطفةٍ متجسدًا كالمخططِ، وهذا بينٌ.

العاشرة: روى ابنِ ماجهْ: عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لَسَقْطٌ أقدمهُ بينَ يديَّ أحب إلي من فارس أخلفه خلفي».

الحادية عشرة: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ﴾ كمالَ قدرتنا بتصريفنا أطوارَ خلقكمْ ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ قرئَ بنصبِ «نُقِرَّ» وَ «نُخْرِجَ»، على العطفِ. وقالَ الزجاجُ: ﴿نُقِرُّ﴾ بالرفعِ لا غيرَ، لأنهُ ليسَ المعنى: فعلنا ذلكَ لنقرَّ في الأرحامِ ما نشاءُ، وإنما خلقهمْ عزَّ وجلَّ ليدلهمْ على الرشدِ والصلاحِ. وقيلَ: المعنى لنبينَ لهمْ أمرَ البعثِ، فهوَ اعتراضٌ بينَ الكلامينِ. وقرأتْ هذهِ الفرقةُ بالرفعِ. ﴿وَنُقِرُّ﴾ المعنى: ونحنُ نقرُّ. وهيَ قراءةُ الجمهورِ.

وقالَ: ﴿مَا نَشَآءُ﴾ ولمْ يقلْ منْ نشاءُ لأنهُ يرجعُ إلى الحملِ، أيْ نقر في الأرحام ما نشاء منَ الحملِ ومنَ المضغةِ وهيَ جمادٌ فكنى عنها بلفظِ ما.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ أيْ أطفالًا، فهوَ اسمُ جنسٍ. وأيضًا فإنَّ العربَ قدْ تسمي الجمعَ باسمِ الواحدِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ﴾.

وقيل: المعنى ثمَّ نخرجُ كلَّ واحدٍ منكمْ طفلًا.

والطفلُ يطلقُ منْ وقتِ انفصالِ الولدِ إلى البلوغِ.

﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾ قيلَ: إنَّ ﴿ثُمَّ﴾ زائدة كالواو في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾، لأنَّ ثمَّ منْ حروفِ النسقِ كالواوِ. ﴿أَشُدَّكُمۡ﴾ كمالَ عقولكمْ ونهايةَ قواكمْ ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ وهوَ الهرمُ والخرفُ حتى لا يعقلَ، ولهذا قالَ: ﴿لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾ كما قالَ: ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ﴾. وكانَ النبيُّ ﷺ. يدعو فيقولُ: «اللهمَّ إني أعوذُ بكَ منَ البخلِ وأعوذُ بكَ منَ الجبنِ وأعوذُ بكَ أنْ أردَّ إلى أرذلِ العمرِ وأعوذُ بكَ منْ فتنةِ الدنيا وعذابِ القبرِ». أخرجهُ النسائيُّ عنْ سعدٍ.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ﴾ ذكرَ دلالةً أقوى على البعثِ فقالَ في الأولِ: ﴿فَإِنَّا

﴿خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾ فخاطبَ جمعًا. وقالَ في الثاني: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ﴾ فخاطبَ واحدًا، فانفصلَ اللفظُ عنِ اللفظِ، ولكنَّ المعنى متصلٌ منْ حيثُ الاحتجاجُ على منكري البعثِ. ﴿هَامِدَةٗ﴾ يابسةً لا تنبتُ شيئًا.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ﴾ أيْ تحركتْ، فالأرضُ تهتزُّ بالنباتِ، لأنَّ النباتَ لا يخرجُ منها حتى يزيلَ بعضها منْ بعضٍ إزالةً خفيةً، فسماهُ اهتزازًا مجازًا. وقيل: اهتزَّ نباتها، فحذفَ المضافُ ﴿وَرَبَتۡ﴾ أيِ ارتفعتْ وزادتْ ﴿وَأَنۢبَتَتۡ﴾ أيْ أخرجتْ ﴿مِن كُلِّ زَوۡجِۭ﴾ أيْ لونٍ ﴿بَهِيجٖ ۝٥﴾ أيْ حسنٍ، يبهجُ منْ يراهُ.

قولهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ الحقُّ الحقيقيُّ الموجودُ المطلقُ الغنيُّ المطلقُ، ووجودَ كلِّ ذي وجودٍ عنْ وجوبِ وجودهِ، ولهذا قالَ في آخرِ السورةِ: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾، والحقُّ الموجودُ الثابتُ الذي لا يتغيرُ ولا يزولُ، وهوَ اللهُ تعالى. وقيل: ذو الحقِّ على عبادهِ ﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أيْ بأنهُ ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦﴾ أيْ وبأنهُ قادرٌ على ما أرادَ ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ﴾ عطفٌ على قولهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ منْ حيثُ اللفظُ، وليسَ عطفًا في المعنى، إذْ لا يقالُ فعلَ اللهُ ما ذكرَ بأنَّ الساعةَ آتيةٌ، بل لا بد منْ إضمارِ فعلٍ يتضمنهُ، أيْ وليعلموا أنَّ الساعةَ آتيةٌ ﴿لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ أيْ لا شكَّ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧﴾ للثواب والعقاب.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨﴾ أيْ نيِّرٍ بيِّنِ الحجةِ. نزلتْ في النضرِ بنِ الحارثِ. وقيل: في أبي جهلِ بنِ هشام، والتكريرُ للمبالغةِ في الذمِّ، والمرادُ بالآيةِ الأولى إنكارهُ البعثَ، وبالثانيةِ إنكارهُ النبوةَ، وأنَّ القرآنَ منزلٌ منْ جهةِ اللهِ ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾ نصبَ على الحالِ أي لوى عنقهُ مرحًا وتعظمًا. أو معرضًا عنِ الذكرِ وعما يدعى إليهِ كفرًا. والمعنى واحدٌ، وهوَ كقوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ﴾، وقوله: ﴿أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾، وقوله: ﴿ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾. و العِطفُ ما انثنى منَ العنقِ. وقيل: العطفُ الجانبُ، ومنهُ قولهمْ: فلانٌ ينظرُ في أعطافهِ، أيْ في جوانبهِ ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أيْ عنْ طاعةِ اللهِ

تعالى، واللامُ لامُ العاقبةِ، أيْ يجادلُ فيضلُّ، كقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ أيْ فكانَ لهمْ كذلكَ. ونظيرهُ ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝٥٤ لِيَكْفُرُواْ﴾.

﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أيْ هوانٌ وذلٌّ بما يجري لهُ منَ الذكرِ القبيحِ على ألسنةِ المؤمنينَ إلى يومِ القيامةِ، كما قالَ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ الآيةَ. وقولهُ تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، وقيل: الخزيُ هاهنا القتلُ، فإنَّ النبيَّ ﷺ قتلَ النضرَ بنَ الحارثِ يومَ بدرٍ صبرًا، كما تقدمَ في آخرِ الأنفالِ ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩﴾ أيْ نارَ جهنمَ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أيْ يقالُ لهُ في الآخرةِ إذا دخلَ النارَ: ذلكَ العذابُ بما قدمتْ يداكَ منَ المعاصي والكفرِ. وعبرَ باليدِ عنِ الجملةِ، لأنَّ اليدَ التي تفعلُ وتبطشُ للجملةِ. وَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ بمعنى هذا. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ هذهِ الآيةُ خبرٌ عنِ المنافقينَ إنْ نالوا رخاءً أقاموا، وإنْ نالتهمْ شدةٌ ارتدوا، ومعنى: ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ على شكٍّ، وحقيقتهُ أنهُ على ضعفٍ في عبادتهِ، كضعفِ القائمِ على حرف مضطرب فيه، وقيل: ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أيْ على وجهٍ واحدٍ، وهوَ أنْ يعبدهُ على السراءِ دونَ الضراءِ، وقيل: ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ على شرط، وبين هذا بقوله ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ﴾ صحةُ جسمٍ ورخاءُ معيشةٍ رضيَ وأقامَ على دينهِ ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ أيْ خلافُ ذلكَ مما يختبرُ بهِ ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ الذي كانَ عليهِ منَ الكفرِ ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١١﴾.

قوله تعالى: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أيْ هذا الذي يرجعُ إلى الكفرِ يعبد الصنم الذي لا ينفعُ ولا يضرُّ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ۝١٢﴾.

قوله تعالى: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ أيْ هذا الذي انقلبَ على وجههِ يدعو منْ ضرهُ أدنى منْ نفعهِ، لأنهُ بعبادتهِ دخلَ النارَ، ولمْ يرَ منهُ نفعًا أصلًا، ولكنهُ قالَ: ضرهُ أقربُ منْ نفعهِ ترفيعًا للكلامِ، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ أيْ في التناصرِ ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ۝١٣﴾ أيِ المعاشرُ والصاحبُ والخليلُ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ لما ذكرَ حالَ المشركينَ وحالَ المنافقينَ والشياطينِ ذكرَ حالَ المؤمنينَ في الآخرةِ أيضًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾ أيْ يثيبُ منْ يشاءُ ويعذبُ منْ يشاءُ، فللمؤمنينَ الجنةُ بحكمِ وعدهِ الصدقِ وبفضلهِ، وللكافرينَ النارُ بما سبقَ منْ عدلهِ، لا أنَّ فعل الرب معلل بفعل العبيد.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ المعنى منْ كانَ يظنُّ أنْ لنْ ينصرَ اللهُ محمدًا ﷺ ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أيْ فليطلبْ حيلةً يصلُ بها إلى السماءِ ﴿ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ﴾ أيْ ثمَّ ليقطعِ النصرَ إنْ تهيأَ لهُ ﴿فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ﴾ وحيلتهُ ﴿مَا يَغِيظُ ١٥﴾ أي ما يغيظهُ منْ نصرِ النبيِّ ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ يعني القرآنَ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أيْ وكذلكَ أنَّ اللهَ ﴿يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦﴾، علقَ وجودَ الهدايةِ بإرادتهِ، فهوَ الهادي لا هاديَ سواهُ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أيْ باللهِ وبمحمدٍ ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ اليهودُ، وهمُ المنتسبونَ إلى ملةِ موسى عليه السلام ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ همْ قومٌ يعبدونَ النجومَ ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ همُ المنتسبونَ إلى ملةِ عيسى ﴿وَٱلۡمَجُوسَ﴾ هم عبدة النيرانِ القائلينَ أنَّ للعالمِ أصلينِ: نورٌ وظلمةٌ ﴿وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ همُ العربُ عبدةُ الأوثانِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ أيْ يقضي ويحكمُ، فللكافرينَ النارُ، وللمؤمنينَ الجنةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧﴾ أيْ منْ أعمالِ خلقهِ وحركاتهمْ وأقوالهم، فلا يعزب عنه شيء منها، سبحانهُ!

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذهِ رؤيةُ القلبِ، أيْ ألمْ ترَ بقلبكَ وعقلكَ ﴿وَٱلشَّمْسُ﴾ معطوفةٌ على ﴿مَن﴾. وكذا ﴿وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾. ثمَّ قالَ: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ وهذا مشكلٌ منَ الإعرابِ، كيفَ لمْ ينصبْ ليعطفَ ما عملَ فيهِ الفعلُ على ما عملَ فيهِ الفعلُ، مثلُ: ﴿وَٱلظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ فزعمَ الكسائيُّ والفراءُ أنهُ لوْ نصبَ لكانَ حسنًا، ولكنِ اختيرَ الرفعُ لأنَّ المعنى وكثيرٌ أبى السجودَ، فيكونُ ابتداءً وخبراً، وتمَّ الكلامُ عندَ قولهِ: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ أيْ منْ أهانهُ بالشقاءِ والكفرِ لا يقدرُ أحدٌ على دفعِ الهوانِ عنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ ولا اعتراضَ لأحدٍ عليهِ.

قوله تعالى: ﴿۞ هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ خرجَ مسلمٌ عنْ قيسِ بنِ عبادٍ قالَ: سمعتُ أبا ذرٍّ يقسمُ قسمًا إنَّ ﴿۞ هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ إنها نزلتْ في الذينَ برزوا يومَ بدرٍ: حمزةُ وعليٌّ وعبيدةُ بنُ الحارثِ رضي الله عنهم وعتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعةَ والوليدُ بنُ عتبةَ. وبهذا الحديثِ ختمَ مسلمٌ رحمهُ اللهُ كتابهُ.

وقالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه: إني لأولُ منْ يجثو للخصومةِ بينَ يدي اللهِ يومَ القيامةِ، يريدُ قصتهُ في مبارزتهِ هوَ وصاحباهُ، ذكرهُ البخاريُّ.

وقيل: المرادُ بالخصمينِ الجنةُ والنارُ، اختصمتا فقالتِ النارُ: خلقني لعقوبتهِ. وقالتِ الجنةُ: خلقني لرحمتهِ. قلتُ: وقدْ وردَ بتخاصمِ الجنةِ والنارِ حديثٌ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «احتجتِ الجنةُ والنارُ فقالتْ هذهِ يدخلني الجبارونَ والمتكبرونَ وقالتْ هذهِ يدخلني الضعفاءُ والمساكينُ فقالَ اللهُ تعالى لهذهِ أنتِ عذابي أعذبُ بكِ منْ أشاءُ وقالَ لهذهِ أنتِ رحمتي أرحمُ بكِ منْ أشاءُ ولكلِّ واحدةٍ منكما ملؤها». خرجهُ البخاريُّ ومسلمٌ.

وقيل: همْ أهلُ الكتابِ قالوا للمؤمنينَ: نحنُ أولى باللهِ منكمْ، وأقدمُ منكمْ كتابًا، ونبينا قبلَ نبيكمْ. وقالَ المؤمنونَ: نحنُ أحقُّ باللهِ منكمْ، آمنا بمحمدٍ وآمنا بنبيكمْ وبما أنزلَ إليهِ منْ كتابٍ، وأنتمْ تعرفونَ نبينا وتركتموهُ وكفرتمْ بهِ حسدًا، فكانتْ هذهِ خصومتهمْ، وأنزلتْ فيهمْ

هذهِ الآيةُ، والقولُ الأولُ أصحُّ.

وفيهِ قولُ رابعٍ: أنهمُ المؤمنونَ كلهمْ والكافرونَ كلهمْ منْ أيِّ ملةٍ كانوا ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني منَ الفرقِ الذينَ تقدمَ ذكرهمْ ﴿قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾ شبهتِ النارُ بالثيابِ لأنها لباسٌ لهمْ كالثيابِ. وقولهُ: ﴿قُطِّعَتۡ﴾ أيْ تقطعُ لهمْ في الآخرةِ ثيابٌ منْ نارٍ، وذكرَ بلفظِ الماضي لأنَّ ما كانَ منْ أخبارِ الآخرةِ فالموعودُ منهُ كالواقعِ المحققِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ﴾ أيْ يقولُ اللهُ تعالى.

ويحتملُ أنْ يقالَ قدْ أعدتِ الآنَ تلكَ الثيابُ لهمْ ليلبسوها إذا صاروا إلى النارِ.

﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾ أيِ الماءُ الحارُّ المغلى بنارِ جهنمَ ﴿يُصۡهَرُ﴾ يذابُ ﴿بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ﴾ والصهرُ إذابةُ الشحمِ ﴿وَٱلۡجُلُودُ ٢٠﴾ أيْ تشوى الجلودُ، فإنَّ الجلودَ لا تذاب ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١﴾ أيْ يضربونَ بها.

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ أيْ منَ النارِ ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ بالضربِ بالمقامعِ، ويقولونَ لهمْ: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢﴾ أيِ المحرقِ، مثلُ الأليمِ والوجيعِ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ لما ذكرَ أحدَ الخصمينِ وهوَ الكافرُ ذكرَ حالَ الخصمِ الآخرِ وهوَ المؤمنُ ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ ﴿مِن﴾ صلةٌ. والأساورُ جمعُ أسورةٍ، وأسورةٌ واحدها سوارٌ، وفي فاطر: ﴿مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗا﴾، وقالَ في سورةِ الإنسانِ: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ﴾، وفي صحيحِ مسلمٍ منْ حديثِ أبي هريرةَ سمعتُ خليلي ﷺ يقولُ: «تبلغُ الحليةُ منَ المؤمنِ حيثُ يبلغُ الوضوءُ».

﴿وَلُؤۡلُؤٗا﴾ قرأَ نافعٌ وعاصمٌ هنا وفي سورةِ الملائكةِ: ﴿لُؤۡلُؤٗا﴾ بالنصبِ، على معنى ويحلونَ لؤلؤًا، واستدلوا بأنها مكتوبةٌ في جميعِ المصاحفِ هنا بألفٍ، الباقونَ بالخفضِ في الموضعينِ. و «اللؤلؤُ» ما يستخرجُ منَ البحرِ منْ جوفِ الصدفِ.

قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ أيْ وجميعُ ما يلبسونهُ منْ فرشهمْ ولباسهمْ وستورهمْ حريرٌ، وهوَ أعلى مما في الدنيا بكثيرٍ. وروى النسائيُّ عنْ أبي هريرةَ أنَّ النبيَّ ﷺ

قال: «منْ لبسَ الحريرَ في الدنيا لمْ يلبسهُ في الآخرةِ ومنْ شربَ الخمرَ في الدنيا لمْ يشربها في الآخرةِ ومنْ شربَ في آنيةِ الذهبِ والفضةِ لمْ يشربْ فيها في الآخرةِ- ثمَّ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ لباسُ أهلِ الجنةِ وشرابُ أهلِ الجنةِ وآنيةُ أهلِ الجنةِ».

قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ يريدُ لا إلهَ إلا اللهُ والحمدُ للهِ. وقيل: القرآنُ ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ أيْ إلى صراطِ اللهِ وهو دينهُ الإسلامُ. وقيل: هدوا في الآخرةِ إلى الطيبِ منَ القولِ، وهوَ الحمدُ للهِ، لأنهمْ يقولونَ غدًا الحمدُ للهِ الذي هدانا لهذا، الحمدُ للهِ الذي أذهبَ عنا الحزن، فليسَ في الجنةِ لغوٌ ولا كذبٌ فما يقولونهُ فهوَ طيبُ القولِ. وقدْ هدوا في الجنةِ إلى صراط الله، إذ ليس في الجنة شيء منْ مخالفةِ أمرِ اللهِ. وقيل: الطيبُ منَ القولِ ما يأتيهمْ منَ اللهِ منَ البشاراتِ الحسنةِ. ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴿٢٤﴾﴾ أيْ إلى طريق الجنة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾، فيهِ سبعُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ﴾ أعادَ الكلامَ إلى مشركي العربِ صدوا رسولَ اللهِ ﷺ عنِ المسجدِ الحرام عامَ الحديبيةِ، وجاءَ ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ مستقبلًا إذْ هوَ فعلٌ يديمونهُ، كما جاءَ قولهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قيلَ: إنهُ المسجدُ نفسهُ، وهوَ ظاهرُ القرآنِ، لأنهُ لمْ يذكرْ غيرهُ. وقيل: الحرمُ كلهُ، لأنَّ المشركينَ صدوا رسولَ اللهِ ﷺ وأصحابهُ عنهُ عامَ الحديبيةِ، فنزلَ خارجًا عنهُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، وقالَ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، وهذا صحيحٌ، لكنهُ قصدَ هنا بالذكرِ المهمَّ المقصودَ منْ ذلكَ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ﴾ أيْ للصلاةِ والطوافِ والعبادةِ، وهوَ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ سواءٌ في تعظيمِ

حرمتهِ وقضاءِ النسكِ، والعاكفُ: المقيمُ الملازمُ. والبادي: أهلُ الباديةِ ومنْ يقدمُ عليهمْ، وقيل: إنَّ المساواةَ إنما هيَ في دورهِ ومنازلهِ، ليسَ المقيمُ فيها أولى منَ الطارئِ عليها. وهذا على أنَّ المسجدَ الحرامَ الحرمُ كلهُ، وهذا قول مالكٍ، وكذلكَ كانَ الأمرُ في الصدرِ الأولِ، كانتْ دورهمْ بغيرِ أبوابٍ حتى كثرتِ السرقةُ، فاتخذَ رجلٌ بابًا فأنكرَ عليهِ عمرُ وقالَ: أتغلقُ بابًا في وجه حاج بيت الله تعالى:؟ فقالَ: إنما أردتُ حفظَ متاعهمْ منَ السرقةِ، فتركهُ فاتخذَ الناسُ الأبوابَ، ورويَ عنْ مالكٍ أنَّ الدورَ ليستْ كالمسجدِ ولأهلها الامتناعُ منها والاستبدادُ، وهذا هوَ العملُ اليومَ. وقال بهذا جمهور من الامة.

وهذا الخلافُ يبنى على أصلينِ: أحدهما أنَّ دورَ مكةَ هلْ هيَ ملكٌ لأربابها أمْ للناسِ. وللخلافِ سببانِ:

أحدهما: هلْ فتحُ مكةَ كانَ عنوةً فتكونُ مغنومةً، لكنَّ النبيَّ ﷺ لمْ يقسمها وأقرها لأهلها ولمنْ جاءَ بعدهمْ، كما فعلَ عمرُ رضي الله عنه بأرضِ السوادِ وعفا لهمْ عنِ الخراجِ كما عفا عنْ سبيهمْ واسترقاقهمْ إحسانًا إليهمْ دونَ سائرِ الكفارِ فتبقى على ذلكَ لا تباع ولا تكرى، ومنْ سبقَ إلى موضعٍ كانَ أولى بهِ. وبهذا قالَ مالكٌ وأبو حنيفةَ.

أوْ كانَ فتحها صلحًا - وإليهِ ذهبَ الشافعيُّ - فتبقى ديارهمْ بأيديهمْ، وفي أملاكهمْ يتصرفونَ كيفَ شاءوا. ورويَ عنْ عمرَ أنهُ اشترى دارَ صفوانَ بنِ أميةَ بأربعةِ آلافٍ وجعلها سجنًا، وهوَ أولُ منْ حبسَ في السجنِ في الإسلامِ.

قلتُ: الصحيحُ ما قالهُ مالكٌ، وعليهِ تدلُّ ظواهرُ الأخبار الثابتةِ بأنها فتحتْ عنوةً، وروى الدارقطنيُّ عنْ علقمةَ بنِ نضلةَ قالَ: توفيَ رسولُ اللهِ ﷺ وأبو بكرٍ وعمرُ رضي الله عنهما وما تدعى رباعُ مكةَ إلا السوائبُ، منْ احتاجَ سكنَ ومنِ استغنى أسكنَ.

وروى أبو داودَ عنْ عائشةَ رضي الله عنها قالتْ: قلتُ يا رسولَ اللهِ، ألا أبني لكَ بمنى بيتًا أوْ بناءً يظلكَ منَ الشمسِ؟ فقالَ: «لا، إنما هوَ مناخُ منْ سبقَ إليهِ».

وتمسكَ الشافعيُّ رضي الله عنه بقولهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ فأضافها إليهمْ. وقالَ ﷺ يومَ الفتحِ: «منْ أغلقَ بابهُ فهوَ آمنٌ ومنْ دخلَ دارَ أبي سفيانَ فهوَ آمنٌ».

الرابعة: قرأَ جمهورُ الناسِ: «سَوَاءٌ» بالرفعِ، وهوَ على الابتداءِ، وَ ﴿ٱلۡعَٰكِفُ﴾ خبرهُ. وقيل: الخبرُ «سَوَاءٌ» وهوَ مقدمٌ، أي العاكفُ فيهِ والبادي سواءٌ، وقرأَ حفصٌ عنْ عاصمٍ: ﴿سَوَآءً﴾ بالنصبِ، وذلكَ يحتملُ أيضًا وجهينِ:

أحدهما- أنْ يكونَ مفعولًا ثانيًا لجعلَ، ويرتفعُ ﴿ٱلۡعَٰكِفُ﴾ بهِ لأنهُ مصدرٌ، فأعملَ عملَ اسمِ الفاعلِ لأنهُ في معنى مستوٍ.

والوجهُ الثاني- أنْ يكونَ حالًا منَ الضميرِ في جعلناهُ.

﴿وَٱلۡبَادِۚ﴾ قراءةُ ابنِ كثيرٍ في الوقفِ والوصلِ بالياءِ، ووقفَ أبو عمرو بغيرِ ياءٍ ووصلَ بالياءِ. وقرأَ نافعٌ بغيرِ ياءٍ في الوصلِ والوقفِ. وأجمعَ الناسُ على الاستواءِ في نفسِ المسجدِ الحرامِ، واختلفوا في مكةَ، وقدْ ذكرناهُ.

الخامسة: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ﴾ شرطٌ، وجوابهُ ﴿نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥﴾. والإلحادُ في اللغةِ: الميلُ، إلا أنَّ اللهَ تعالى بينَ أنَّ الميلَ بالظلمِ هوَ المرادُ. واختلفَ في الظلمِ، فقيل: الشركُ. وقيل: الشركُ والقتلُ، وقيل: معناهُ صيد حمامه، وقطع شجره، ودخوله غيرِ محرمٍ.

وروى أبو داودَ عنْ يعلى بنِ أميةَ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «احتكارُ الطعامِ في الحرمِ إلحادٌ فيهِ»، والعمومُ يأتي على هذا كلهِ.

السادسة: ذهبَ قومٌ منْ أهلِ التأويلِ إلى أنَّ هذهِ الآيةَ تدلُّ على أنَّ الإنسانَ يعاقبُ على ما ينويهِ منَ المعاصي بمكةَ وإنْ لمْ يعملهُ.

السابعة: الباءُ في ﴿بِإِلۡحَادِۭ﴾ زائدةٌ كزيادتها في قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾، والمعنى: ومنْ يردْ فيهِ إلحادًا بظلم. وقالَ الكوفيونَ: دخلتِ الباءُ لأنَّ المعنى بأنْ يلحدَ، والباءُ معَ أنْ تدخلُ وتحذفُ، وهذا الإلحادُ والظلمُ يجمعُ جميع المعاصيَ منَ الكفرِ إلى الصغائرِ، فلعظمِ حرمةِ المكانِ توعدَ اللهُ تعالى على نيةِ السيئةِ فيهِ.

ومنْ نوى سيئةً ولمْ يعملها لمْ يحاسبْ عليها إلا في مكةَ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ أيْ واذكرْ إذْ بوأنا لإبراهيمَ، يقالُ: بوأتهُ منزلًا وبوأتُ لهُ. كما يقالُ: مكنتكَ ومكنتُ لكَ، فاللامُ في قولهِ: ﴿لِإِبْرَٰهِيمَ﴾ صلةٌ للتأكيدِ، كقولهِ: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾، وقيل: ﴿بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ أيْ أريناهُ أساسِ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فرتبَ قواعدهُ عليهِ.

الثانية: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ﴾ هيَ مخاطبةٌ لإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقيل: الخطاب من قوله: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ﴾ لمحمدٍ ﷺ، وأمرَ بتطهيرِ البيتِ والأذانِ بالحجِّ. والجمهورُ على أنَّ ذلكَ لإبراهيمَ، وهوَ الأصحُّ.

وتطهيرُ البيتِ عامٌّ في الكفرِ والبدعِ وجميعِ الأنجاسِ والدماءِ. وقيل: عنى بهِ التطهيرَ عنِ الأوثانِ، كما قالَ تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾، والقائمونَ همُ المصلونَ. وذكرَ تعالى منْ أركانِ الصلاةِ أعظمها، وهو القيام والركوع والسجود.

قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾، فيهِ سبعُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ قرأَ جمهورُ الناسِ: ﴿وَأَذِّن﴾ بتشديدِ الذالِ. وقرأَ الحسنُ بنُ أبي الحسنِ وابنُ محيصنٍ: «وَآذِنْ» بتخفيفِ الذالِ ومدِّ الألفِ، والأذانُ الإعلامُ.

الثانية: لما فرغَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ منْ بناءِ البيتِ، وقيلَ: لهُ: أذنْ في الناسِ بالحجِّ، قالَ: يا ربِّ! وما يبلغُ صوتي؟ قالَ: أذنْ وعليَّ الإبلاغُ، فصعدَ خليلُ اللهِ جبلَ أبي قبيسٍ وصاحَ: يا أيها الناسُ! إنَّ اللهَ قدْ أمركمْ بحجِّ هذا البيتِ ليثيبكمْ بهِ الجنةَ ويجيركمْ منْ عذابِ النارِ، فحجوا، فأجابهُ منْ كانَ في أصلابِ الرجالِ وأرحامِ النساءِ: لبيكَ اللهمَّ لبيكَ!

الثالثة: قوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ وعدهُ إجابةَ الناسِ إلى حجِّ البيتِ ما بينَ راجلٍ وراكبٍ، وإنما قالَ: ﴿يَأْتُوكَ﴾ وإنْ كانوا يأتونَ الكعبةَ لأنَّ المناديَ إبراهيمُ،

وفيهِ تشريف إبراهيم.

والضامرُ: البعيرُ المهزولُ الذي أتعبهُ السفرُ، يقالُ: ضمرَ يضمرُ ضمورًا، فوصفها اللهُ تعالى بالمآلِ الذي انتهتْ عليهِ إلى مكةَ. وذكرَ سببَ الضمورِ فقالَ: ﴿يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾ أيْ أثرَ فيها طولُ السفرِ. وردَّ الضميرَ إلى الإبلِ تكرمةً لها لقصدها الحجَّ معَ أربابها، كما قال: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا﴾ في خيلِ الجهادِ تكرمةً لها حينَ سعتْ في سبيلِ اللهِ.

الرابعة: لما قالَ تعالى: ﴿رِجَالٗا﴾ وبدأَ بهِمْ دلَّ ذلكَ على أنَّ حجَّ الراجلِ أفضلُ منْ حجِّ الراكبِ.

الخامسة: لا خلافَ في جوازِ الركوبِ والمشيِ، واختلفوا في الأفضلِ منهما، فذهبَ مالكٌ والشافعيُّ في آخرينِ إلى أنَّ الركوبَ أفضلُ، اقتداءً بالنبيِّ ﷺ ولكثرة النفقةِ ولتعظيمِ شعائرِ الحجِّ بأهبةِ الركوبِ. وذهبَ غيرهمْ إلى أنَّ المشيَ أفضلُ لما فيهِ منَ المشقةِ على النفسِ.

السادسة: استدلَّ بعضُ العلماءِ بسقوطِ ذكرِ البحرِ منْ هذهِ الآيةِ على أنَّ فرضَ الحجِّ بالبحرِ ساقطٌ. ولا يلزمُ منْ سقوطِ ذكرهِ سقوطُ الفرضِ فيهِ، وذلكَ أنَّ مكةَ ليستْ في ضفةِ بحرٍ فيأتيها الناسُ في السفنِ، ولا بدَّ لمنْ ركبَ البحرَ أنْ يصيرَ في إتيانِ مكةَ إما راجلًا وإما على ضامرٍ، فإنما ذكرتْ حالتا الوصولِ، وإسقاطُ فرضِ الحجِّ بمجردِ البحرِ ليسَ بالكثيرِ ولا بالقويِّ. فأما إذا اقترنَ بهِ عدوٌّ وخوفٌ أوْ هولٌ شديدٌ أوْ مرضٌ يلحقُ شخصًا، فمالكٌ والشافعيُّ وجمهورُ الناسِ على سقوطِ الوجوبِ بهذهِ الأعذارِ، وأنهُ ليسَ بسبيلٍ يستطاعُ.

وقراءةُ الجماعةِ ﴿يَأۡتِينَ﴾ للجمالِ، وقرأَ أصحابُ عبد الله «يأتون» وهذا للركبان ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾ الفجُّ: الطريقُ الواسعةُ، والجمعُ فجاجٌ، والعميقُ معناهُ البعيدُ أيْ بعيدٍ، ومنهُ بئر عميقة أي بعيدة القعر.

السابعة: واختلفوا في الواصلِ إلى البيتِ، هلْ يرفعُ يديهِ عندَ رؤيتهِ أمْ لا، فروى أبو داودَ قالَ، سئلَ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ عنِ الرجلِ يرى البيتَ ويرفعُ يديهِ فقالَ: ما كنتُ أرى أنَّ أحدًا يفعلُ هذا إلا اليهودَ، وقدْ حججنا معَ رسولِ اللهِ ﷺ فلمْ نكنْ نفعلهُ. وروى ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما

عنِ النبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «ترفعُ الأيدي في سبعِ مواطنَ افتتاحِ الصلاةِ واستقبالِ البيتِ والصفا والمروةِ والموقفينِ والجمرتينِ». وإلى حديثِ ابنِ عباسٍ هذا ذهبَ أحمدُ وغيره وضعفوا حديثَ جابرٍ، لأنَّ مهاجرًا المكيَّ راويهُ مجهولٌ. وكانَ ابنُ عمرَ يرفعُ يديهِ عندَ رؤيةِ البيتِ. وعنِ ابن عباس مثله.

قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾، فيهِ ثلاثٌ وعشرونَ مسألةً:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُواْ﴾ أيْ ليحضروا. والشهودُ الحضورُ ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ أي المناسكَ، كعرفاتٍ والمشعرِ الحرامِ. وقيلَ: المغفرةُ. وقيلَ: التجارةُ. وقيلَ: هوَ عمومٌ منْ أمرِ الدنيا والآخرةِ، ولا خلافَ في أنَّ المرادَ بقولهِ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ التجارةُ.

الثانية: ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ عند الذبح والنحر، مثل قولكَ: باسمِ اللهِ واللهُ أكبرُ، اللهمَّ منكَ ولكَ. ومثلُ قولكَ عندَ الذبحِ ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾ الآيةَ. وكانَ الكفارُ يذبحونَ على أسماءِ أصنامهمْ، فبينَ الربُّ أنَّ الواجبَ الذبحُ على اسمِ اللهِ.

الثالثة: واختلفَ العلماءُ في وقتِ الذبحِ يومَ النحرِ، فقالَ مالكٌ رضي الله عنه: بعدَ صلاةِ الإمامِ وذبحهِ، إلا أنْ يؤخرَ تأخيرًا يتعدى فيهِ فيسقطَ الاقتداءُ بهِ. وراعى أبو حنيفةَ الفراغَ منَ الصلاةِ دونَ ذبحٍ، والشافعيُّ دخولَ وقتِ الصلاة ومقدار ما توقع فيه الخطبتينِ فاعتبرَ الوقتُ دونَ الصلاةِ. وعنه: لا يذبحُ أحدٌ حتى يذبحَ الإمامُ إلا أنْ يكونَ ممنْ لا يذبحُ، فإذا صلى وفرغَ منَ الخطبةِ حلَّ الذبحُ. وهذا كقولِ مالكٍ. وقالَ أحمدُ: إذا انصرفَ الإمامُ فاذبحْ، وأصحُّ هذهِ الأقوالِ قولُ مالكٍ، لحديثِ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ قالَ: صلى بنا رسولُ اللهِ ﷺ يومَ النحرِ بالمدينة، فتقدم رجال ونحروا وظنوا أنَّ النبيَّ ﷺ قدْ نحرَ، فأمرَ النبيُّ ﷺ منْ كانَ نحرَ أنْ يعيدَ بنحرٍ آخرَ، ولا ينحروا حتى ينحرَ النبيُّ ﷺ خرجهُ مسلمٌ، وقدِ احتجَّ أبو حنيفةَ بحديثِ البراءِ، وفيهِ: «ومنْ ذبحَ بعدَ الصلاةِ فقدْ تمَّ نسكهُ وأصابَ سنةَ المسلمينَ». خرجهُ مسلمٌ أيضًا. فعلقَ الذبحَ على الصلاةِ ولمْ يذكرِ الذبحَ، وحديثُ جابرٍ يقيدهُ. وكذلكَ حديثُ البراءِ

أيضًا، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أولُ ما نبدأُ بهِ في يومنا هذا أنْ نصليَ ثمَّ نرجعُ فننحرُ فمنْ فعلَ ذلكَ فقدْ أصابَ سنتنا» الحديثَ. وقالَ أبو عمرَ بنُ عبدِ البرِّ: لا أعلمُ خلافًا بينَ العلماءِ أنَّ منْ ذبحَ قبلَ الصلاةِ وكانَ منْ أهلِ المصرِ أنهُ غيرُ مضحٍّ، لقولهِ ﷺ: «منْ ذبحَ قبلَ الصلاة فتلك شاة لحم».

الرابعة: وأما أهلُ البوادي ومنْ لا إمامَ له فمشهور مذهب مالك أنه يتحرى وقتَ ذبحِ الإمام، أوْ أقربِ الأئمةِ إليه، وقالَ أهلُ الرأي يجزيهمْ منْ بعدِ الفجر، وتمسكوا بقولهِ تعالى: ﴿وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾. فأضافَ النحرَ إلى اليوم. وهلِ اليومُ منْ طلوعِ الفجرِ أوْ منْ طلوعِ الشمسِ، قولانِ. ولا خلافَ أنهُ لا يجزي ذبحُ الأضحيةِ قبلَ طلوعِ الفجرِ منْ يومِ النحرِ.

الخامسة: واختلفوا كمْ أيامُ النحرِ؟ فقالَ مالكٌ: ثلاثةٌ، يومُ النحرِ ويومانِ بعدهُ. وبهِ قالَ أبو حنيفةَ وأحمدُ، وقالَ الشافعيُّ: أربعةٌ، يومُ النحرِ وثلاثةٌ بعده، ودليلنا قولهُ تعالى: ﴿فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾ الآيةَ، وهذا جمعُ قلةٍ، لكنَّ المتيقنَ منهُ الثلاثةُ، وما بعدَ الثلاثةِ غيرُ متيقنٍ فلا يعملُ بهِ. قالَ أبو عمرَ بنُ عبدِ البرِّ: أجمعَ العلماءُ على أنَّ يومَ النحرِ يومُ أضحى، وأجمعوا على أنْ لا أضحى بعدَ انسلاخِ ذي الحجةِ، ولا يصح عندي في هذا إلا قولانِ:

أحدهما- قولُ مالكٍ والكوفيينَ.

والآخرُ- قول الشافعي والشاميين، وهذان القولان مرويان عنِ الصحابةِ فلا معنى للاشتغالِ بما خالفهما، لأنَّ ما خالفهما لا أصلَ لهُ في السنةِ ولا في قولِ الصحابةِ، وما خرجَ عنْ هذينَ فمتروكٌ لهما.

السادسة: واختلفوا في ليالي النحرِ هلْ تدخلُ معَ الأيام فيجوز فيها الذبح أو لا، فرويَ عنْ مالكٍ في المشهورِ أنها لا تدخل فلا يجوز الذبحُ بالليلِ. وعليهِ جمهورُ أصحابهِ وأصحابُ الرأي، لقولهِ تعالى: ﴿وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ﴾ فذكرَ الأيامَ، وذكرُ الأيام دليلٌ على أنَّ الذبحَ في الليلِ لا يجوزُ. وقالَ أبو حنيفةَ والشافعيُّ وأحمدُ: الليالي داخلةٌ في الأيامِ ويجزي الذبحُ فيها. ورويَ عنْ مالكٍ.

السابعة: قولهُ تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾ أيْ على ذبحِ ما رزقهمْ ﴿مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ والأنعامُ هنا الإبلُ والبقرُ والغنمُ.

الثامنة: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ أمرٌ معناهُ الندبُ عندَ الجمهورِ. ويستحبُّ للرجلِ أنْ يأكلَ منْ هديِهِ وأضحيتِهِ وأنْ يتصدقَ بالأكثرِ، معَ تجويزهمُ الصدقةَ بالكلِّ وأكلِ الكلِّ. وشذتْ طائفةٌ فأوجبتِ الأكلَ والإطعامَ بظاهرِ الآيةِ، ولقولهِ ﷺ: «فكلوا وادخروا وتصدقوا». قالَ الكيا: قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ﴾ يدلُّ على أنهُ لا يجوزُ بيعُ جميعهِ ولا التصدقُ بجميعهِ.

التاسعة: دماءُ الكفاراتِ لا يأكلُ منها أصحابها. ومشهورُ مذهبِ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنهُ لا يأكلُ منْ ثلاثٍ: جزاءِ الصيدِ، ونذرِ المساكينِ وفديةِ الأذى، ويأكلُ مما سوى ذلكَ إذا بلغَ محلهُ، واجبًا كانَ أوْ تطوعًا. ووافقهُ على ذلكَ جماعةٌ منَ السلفِ وفقهاءِ الأمصارِ.

العاشرة: فإنْ أكلَ مما منعَ منهُ فهلْ يغرمُ قدرَ ما أكلَ أوْ يغرمُ هديًا كاملًا؟ قولانِ في مذهبنا، والأول هوَ الحق، لا شيء عليه غيره، وكذلكَ لوْ نذرَ هديًا للمساكينِ فيأكلُ منهُ بعدَ أنْ بلغَ محلهُ لا يغرمُ إلا ما أكلَ؛ لأنَّ النحرَ قدْ وقعَ، والتعديَ إنما هوَ على اللحمِ، فيغرمُ قدرَ ما تعدى فيهِ. وقوله تعالى: ﴿وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ﴾ يدلُّ على وجوبِ إخراجِ النذرِ إنْ كانَ دمًا أوْ هديًا أوْ غيرهُ، ويدلُّ ذلكَ على أنَّ النذرَ لا يجوزُ أنْ يأكلَ منهُ وفاءً بالنذرِ، وكذلكَ جزاءُ الصيدِ وفديةُ الأذى، لأنَّ المطلوبَ أنْ يأتيَ بهِ كاملًا منْ غيرِ نقصِ لحمٍ ولا غيرهِ، فإنْ أكلَ منْ ذلكَ كانَ عليهِ هديٌ كاملٌ. واللهُ أعلمُ.

الحادية عشرة: هلْ يغرمُ قيمةَ اللحمِ أوْ يغرمُ طعامًا، الأولُ أصحُّ، لأنَّ الطعامَ إنما هوَ في مقابلةِ الهديِ كلهِ عندَ تعذرهِ عبادةً، وليسَ حكم التعدي حكم العبادة.

الثانية عشرة: فإنْ عطبَ منْ هذا الهديِ المضمونِ الذي هوَ جزاءُ الصيدِ وفديةُ الأذى ونذرُ المساكينِ شيء قبلَ محلهِ أكلَ منهُ صاحبهُ وأطعمَ منهُ الأغنياءَ والفقراءَ ومنْ أحبَّ، ولا يبيعُ منْ لحمهِ ولا جلدهِ ولا منْ قلائدهِ شيئًا؛ لأنَّ الهديَ المضمونَ إذا عطبَ قبلَ أنْ يبلغَ محلهُ كانَ عليه بدله، لذلك جازَ أنْ يأكلَ منهُ صاحبهُ ويطعمَ. فإذا عطبَ الهديُ التطوعُ قبلَ أنْ يبلغَ محلهُ لمْ يجزْ أنْ يأكلَ منهُ ولا يطعمَ، لأنهُ لما لمْ يكنْ عليهِ بدلهُ خيفَ أنْ يفعلَ

ذلكَ بالهدي وينحرَ منْ غيرِ أنْ يعطبَ، فاحتيطَ على الناسِ، وبذلكَ مضى العملُ. وروى أبو داودَ عنْ ناجيةَ الأسلميِّ أن رسول الله ﷺ بعثَ معهُ بهديٍ وقالَ: «إنْ عطبَ منها شيء فانحرهُ ثمَّ اصبغْ نعلهُ في دمهِ ثمَّ خلِّ بينهُ وبينَ الناسِ». وبهذا الحديثِ قالَ مالكٌ والشافعيُّ في أحدِ قوليهِ، وأحمدُ وأصحابُ الرأيِ ومنِ اتبعهمْ في الهديِ التطوعِ: لا يأكلُ منها سائقها شيئًا، ويخلى بينها وبينَ الناسِ يأكلونها.

وفي صحيحِ مسلم: «ولا تأكلُ منها أنتَ ولا أحدٌ منْ أهلِ رفقتكَ». وبظاهرِ هذا النهي قال الشافعيُّ في قولهِ الآخرِ، واختارهُ ابن المنذر، فقالا: لا يأكل منها سائقها ولا أحدٌ منْ أهلِ رفقتهِ. قالَ أبو عمرَ قولهُ ﷺ: «ولا أحدٌ منْ أهلِ رفقتكَ» لا يوجد إلا في حديث ابن عباس وليس ذلك في حديثِ هشامِ بنِ عروةَ عنْ أبيهِ عنْ ناجيةَ وهوَ عندنا أصحُّ منْ حديثِ ابنِ عباسٍ، وعليهِ العملُ عندَ الفقهاءِ. ويدخلُ في قولهِ ﷺ: «خلِّ بينها وبينَ الناسِ» أهلُ رفقتهِ وغيرهمْ.

وقالَ الشافعيُّ: ما كانَ منَ الهدي أصلهُ واجبًا فلا يأكلُ منهُ، وما كانَ تطوعًا ونسكًا أكلَ منهُ وأهدى وادخرَ وتصدقَ. والمتعةُ والقرانُ عندهُ نسكٌ، وقالَ أبو حنيفةَ وأصحابهُ: يأكلُ منْ هديِ المتعةِ والتطوعِ، ولا يأكلُ مما سوى ذلكَ مما وجبَ بحكمِ الإحرامِ. وحكيَ عنْ مالكٍ: لا يأكلُ منْ دمِ الفسادِ. وعلى قياسِ هذا لا يأكلُ منْ دمِ الجبرِ، كقولِ الشافعيِّ.

تمسكَ مالكٌ بأنَّ جزاءَ الصيدِ جعلهُ اللهُ للمساكينِ بقولهِ تعالى: ﴿أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾، وقالَ في فديةِ الأذى: ﴿فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ﴾، وقالَ ﷺ لكعبِ بنِ عجرةَ: «أطعمْ ستةَ مساكينَ مدينِ لكلِّ مسكينٍ أوْ صمْ ثلاثةَ أيام أوِ انسكْ شاةً». ونذرُ المساكينِ مصرحٌ بهِ، وأما غيرُ ذلكَ منَ الهدايا فهوَ باقٍ على أصلِ قولهِ: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله- ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾، وقدْ أكلَ النبيُّ ﷺ وعليٌّ رضي الله عنه منَ الهديِ الذي جاءَ بهِ وشربا منْ مرقهِ، وكانَ ﷺ قارنًا في أصحِّ الأقوالِ والرواياتِ، فكانَ هديهُ على هذا واجبًا، فما تعلقَ بهِ أبو حنيفةَ غيرُ صحيحٍ. واللهُ أعلمُ.

الثالثة عشرة:- ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ قالَ بعضُ العلماءِ: قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ ناسخٌ لفعلِ العربِ، لأنهمْ كانوا يحرمونَ لحومَ الضحايا على أنفسهمْ ولا يأكلونَ منها- كما فعلوه

في الهدايا- فنسخَ اللهُ ذلكَ بقولِهِ: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ وبقولِ النبيِّ ﷺ: «منْ ضحى فليأكلْ منْ أضحيتهِ» ولأنهُ ﷺ أكلَ منْ أضحيتهِ وهديهِ.

الرابعة عشرة: ذهبَ أكثرُ العلماءِ إلى أنهُ يستحبُّ أنْ يتصدقَ بالثلثِ ويطعمَ الثلثَ ويأكلَ هوَ وأهلهُ الثلثَ. وقالَ ابنُ القاسمِ عنْ مالكٍ: ليسَ عندنا في الضحايا قسمٌ معلومٌ موصوفٌ، واختلفَ قولُ الشافعيِّ، فمرةً قالَ: يأكلُ النصفَ ويتصدقُ بالنصفِ لقولهِ تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾ فذكرَ شخصينِ. وقالَ مرةً: يأكلُ ثلثًا ويهدي ثلثًا ويطعمُ ثلثًا، لقولهِ تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾ فذكرَ ثلاثةً.

الخامسة عشرة: المسافرُ يخاطبُ بالأضحيةِ كما يخاطبُ بها الحاضرُ، إذِ الأصلُ عمومُ الخطابِ بها، وهوَ قولُ كافةِ العلماءِ. وخالفَ في ذلكَ أبو حنيفةَ، والحديثُ حجةٌ عليهِ. واستثنى مالكٌ منَ المسافرينَ الحاجَّ بمنى، فلمْ يرَ عليهِ أضحيةً، لأنَّ الحاجَّ إنما هوَ مخاطبٌ في الأصلِ بالهدي. فإذا أرادَ أنْ يضحيَ جعلهُ هديًا، والناسُ غيرُ الحاجِّ إنما أمروا بالأضحيةِ ليتشبهوا بأهلِ منى فيحصلُ لهمْ حظٌّ منْ أجرهمْ.

السادسة عشرة: اختلفَ العلماءُ في الادخارِ على أربعةِ أقوالٍ: فقيل: لا يدخرُ منَ الضحايا بعدَ ثلاثٍ، وقالتْ جماعةٌ: ما رويَ منَ النهيِ عنِ الادخارِ منسوخٌ، فيدخرُ إلى أيِّ وقتٍ أحبَّ، وقالت فرقة: يجوزُ الأكلُ منها مطلقًا. وقالتْ طائفةٌ: إنْ كانتْ بالناسِ حاجةٌ إليها فلا يدخرُ، لأنَّ النهيَ إنما كانَ لعلةٍ وهيَ قولهُ ﷺ: «إنما نهيتكمْ منْ أجلِ الدافةِ التي دفتْ» ولما ارتفعتِ ارتفعَ المنعُ المتقدمُ لارتفاعِ موجبهِ، لا لأنهُ منسوخ. وتنشأ هنا مسألة أصولية وهي:

السابعة عشرة: وهيَ الفرقُ بينَ رفعِ الحكمِ بالنسخِ ورفعهِ لارتفاعِ علتهِ. اعلمْ أنَّ المرفوعَ بالنسخِ لا يحكمُ بهِ أبدًا، والمرفوعَ لارتفاعِ علتهِ يعودُ الحكمُ لعودِ العلةِ، فلوْ قدمَ على أهلِ بلدةٍ ناسٌ محتاجونَ في زمانِ الأضحى، ولمْ يكنْ عندَ أهلِ ذلكَ البلدِ سعةٌ يسدونَ بها فاقتهمْ إلا الضحايا لتعينَ عليهمْ ألا يدخروها فوقَ ثلاثٍ كما فعلَ النبيُّ ﷺ.

الثامنة عشرة: الأحاديثُ الواردةُ في هذا البابِ بالمنعِ والإباحةِ صحاحٌ ثابتةٌ. وقدْ جاءَ

المنعُ والإباحةُ معًا، كما هوَ منصوصٌ في حديثِ عائشةَ وسلمةَ بنِ الأكوعِ وأبي سعيدٍ الخدريِّ رواها الصحيحُ. وروى الصحيحُ عنْ أبي عبيدٍ مولى ابنِ أزهر أنه شهد العيد مع عمر ابن الخطابِ قالَ: ثمَّ صليتُ العيدَ معَ عليِّ بنِ أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قالَ: فصلى لنا قبلَ الخطبةِ ثمَّ خطبَ الناسَ فقالَ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قدْ نهاكمْ أنْ تأكلوا لحومَ نسككمْ فوقَ ثلاثِ ليالٍ فلا تأكلوها.

ورويَ عنِ ابنِ عمرَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قدْ نهى أنْ تؤكلَ لحومُ الأضاحي فوقَ ثلاثٍ. قالَ سالمٌ: فكانَ ابنُ عمرَ لا يأكلُ لحومَ الأضاحي فوقَ ثلاثٍ.

وروى أبو داودَ عنْ نُبيشةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنا كنا نهيناكمْ عنْ لحومها فوقَ ثلاثٍ لكيْ تسعكمْ جاءَ اللهُ بالسعةِ فكلوا وادخروا واتجروا ألا وإن هذهِ الأيامَ أيامُ أكلٍ وشربٍ وذكرٍ للهِ عزَّ وجلَّ».

وهذا القولُ أحسنُ ما قيلَ في هذا حتى تتفقَ الأحاديثُ ولا تتضادَّ، قالَ الشافعيُّ: منْ قالَ بالنهيِ عنِ الادخارِ بعدَ ثلاثٍ لمْ يسمعِ الرخصةَ. ومنْ قالَ بالرخصةِ مطلقًا لمْ يسمعِ النهيَ عنْ الادخارِ، ومنْ قالَ بالنهيِ والرخصةِ سمعهما جميعًا فعملَ بمقتضاهما. واللهُ أعلمُ.

التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾ ﴿ٱلْفَقِيرَ﴾ منْ صفةِ البائسِ، وهوَ الذي نالهُ البؤسُ وشدةُ الفقرِ، وقدْ يستعملُ فيمنْ نزلتْ بهِ نازلةُ دهرٍ وإنْ لمْ يكنْ فقيرًا، ومنهُ قولهُ ﷺ: «لكنِ البائسُ سعدُ بنُ خولةَ»، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ أيْ شديدٍ. وكلما كانَ التصدقُ بلحمِ الأضحيةِ أكثرَ كانَ الأجرُ أوفرَ.

وفي القدرِ الذي يجوزُ أكلهُ خلافٌ قدْ ذكرناهُ، فقيلَ. النصفُ، لقوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟﴾ وقيل: الثلثان، لقوله: «ألا فكلوا وادخروا واتجروا» أيِ اطلبوا الأجرَ بالإطعامِ. واختلفَ في الأكلِ والإطعامِ، فقيلَ: واجبانِ. وقيلَ: مستحبانِ. وقيل: بالفرقِ بينَ الأكلِ والإطعامِ، فالأكلُ مستحبٌّ والإطعامُ واجبٌ، وهوَ قولُ الشافعيِّ.

الموفية عشرين: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ﴾ أيْ ثمَّ ليقضوا بعدَ نحرِ الضحايا

والهدايا ما بقيَ عليهمْ منْ أمرِ الحجِّ، كالحلقِ ورمِي الجمارِ وإزالةِ شعثٍ ونحوهِ. قالَ ابنُ عرفةَ: أيْ ليزيلوا عنهمْ أدرانهمْ. وقالَ الأزهريُّ: التفثُ الأخذُ منَ الشاربِ وقصُّ الأظفارِ ونتفُ الإبطِ وحلقُ العانةِ، وهذا عندَ الخروجِ منَ الإحرامِ، وقالَ: وهذهِ اللفظةُ غريبةٌ لمْ يجدْ أهلُ العربيةِ فيها شعرًا ولا أحاطوا بها خبرًا، وهو في كلامِ العربِ لا يعرفُ إلا منْ قولِ ابنِ عباسٍ وأهلِ التفسيرِ.

وأما حقيقتهُ الشرعيةُ فإذا نحرَ الحاجُّ أوِ المعتمرُ هديهُ وحلقَ رأسهُ وأزالَ وسخهُ وتطهرَ وتنقى ولبسَ فقدْ أزالَ تفثهُ ووفّى نذرهُ، والنذرُ ما لزمَ الإنسانَ والتزمهُ.

الحادية والعشرون: ﴿وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ﴾ أمروا بوفاءِ النذرِ مطلقًا إلا ما كانَ معصيةً، لقولهِ ﷺ: «لا وفاءَ لنذرٍ في معصيةِ اللهِ»، وقولهُ: «منْ نذرَ أنْ يطيعَ اللهَ فليطعهُ ومنْ نذرَ أنْ يعصيهُ فلا يعصهِ».

﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩﴾ الطوافُ المذكورُ في هذهِ الآيةِ هوَ طوافُ الإفاضةِ الذي هوَ منْ واجباتِ الحجِّ. قالَ الطبريُّ: لا خلافَ بينِ المتأولين في ذلك.

الثانية والعشرون: للحجِّ ثلاثةُ أطوافٍ: طوافُ القدومِ، وطوافُ الإفاضةِ، وطوافُ الوداعِ، والطوافُ الواجبُ الذي لا يسقطُ بوجهٍ منَ الوجوهِ هوَ طوافُ الإفاضةِ الذي يكونُ بعدَ عرفةَ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ فهذا هوَ الطوافُ المفترضُ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وهوَ الذي يحلُّ بهِ الحاجُّ منْ إحرامهِ كلهِ. وهوَ قولُ مالكٍ عندَ أهلِ المدينةِ، وهوَ قولُ جمهورِ أهلِ العلمِ منْ فقهاءِ أهلِ الحجازِ والعراقِ. وعنْ مالكٍ أنَّ الطوافَ الواجبُ طوافُ القادمِ مكةَ. وقالَ: منْ نسيَ الطوافَ في حينِ دخولهِ مكةَ أوْ نسيَ شوطًا منهُ، أوْ نسيَ السعيَ أوْ شوطًا منهُ حتى رجعَ إلى بلدهِ ثمَّ ذكرهُ، فإنْ لمْ يكنْ أصابَ النساءَ رجعَ إلى مكةَ حتى يطوفَ بالبيتِ ويركعَ ويسعى بينَ الصفا والمروةِ، ثمَّ يهدي. وإنْ أصابَ النساءَ رجعَ فطافَ وسعى، ثمَّ اعتمرَ وأهدى. وهذا كقوله فيمنْ نسيَ طوافَ الإفاضةِ سواءً. فعلى هذهِ الروايةِ الطوافانِ جميعًا واجبانِ، والسعيُ أيضًا. وأما طوافُ الصدرِ وهوَ المسمى بطوافِ الوداعِ فروي عن مالك أنه تطوع، وقيل هو واجبٌ، وهوَ أحدُ قولي الشافعيِّ، لأنهُ ﷺ رخصَ للحائضِ أنْ تنفرَ دونَ أنْ تطوفهُ، ولا يرخصُ إلا

في الواجبِ.

الثالثة والعشرون: اختلفَ المتأولونَ في وجهِ صفةِ البيتِ بالعتيقِ، فقيل: العتيقُ القديمُ، وهذا قولٌ يعضدهُ النظرُ. وفي الصحيحِ «أنهُ أولُ مسجدٍ وضعَ في الأرضِ». وقيل: عتيقًا لأنَّ اللهَ أعتقهُ منْ أنْ يتسلطَ عليهِ جبارٌ بالهوانِ إلى انقضاءِ الزمانِ، وفي الترمذيِّ عنْ عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنما سميَ البيتُ العتيقَ لأنهُ لمْ يظهرْ عليهِ جبارٌ» قالَ: هذا حديثٌ حسنٌ غريب، وقالتْ طائفةٌ: سميَ عتيقًا لأنهُ لمْ يُملكْ موضعهُ قطُّ. وقالت فرقة: سميَ عتيقًا لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يعتقُ فيهِ رقابَ المذنبينَ منَ العذابِ، والقولُ الأولُ أصحُّ للنظرِ والحديثِ الصحيح.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾، فيه ثمان مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يحتملُ أنْ يكونَ في موضعِ رفعٍ بتقديرِ: فرضكمْ ذلكَ، أوِ الواجبُ ذلكَ. ويحتملُ أنْ يكونَ في موضعِ نصبٍ بتقديرِ: امتثلوا ذلكَ، والحرماتُ المقصودةُ هنا هيَ أفعالُ الحجِّ المشارُ إليها في قولهِ: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾، ويدخلُ في ذلكَ تعظيمُ المواضعِ، وقوله: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ منَ التهاونِ بشيءٍ منها.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ أنْ تأكلوها: وهيَ الإبلُ والبقرُ والغنمُ ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أيْ في الكتابِ منَ المحرماتِ، وهيَ الميتةُ والموقوذةُ وأخواتها. ولهذا اتصالٌ بأمرِ الحجِّ، فإنَّ في الحجِّ الذبحَ، فبينَ ما يحلُّ ذبحهُ وأكلُ لحمهِ. وقيل: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ الرجسُ: الشيءُ القذرُ. والوثنُ: التمثالُ منْ خشبٍ أوْ حديدٍ أوْ ذهبٍ أوْ فضةٍ ونحوها، وكانتِ العربُ تنصبها وتعبدها.

والنصارى تنصبُ الصليبَ وتعبدهُ وتعظمهُ فهوَ كالتمثالِ أيضًا. وقالَ عدى ابن حاتمٍ: أتيتُ النبيَّ ﷺ وفي عنقي صليبٌ منْ ذهبٍ فقالَ: «ألقِ هذا الوثنَ عنكَ» أيِ الصليبَ، وأصلهُ منْ وثنَ الشيءَ أيْ أقامَ في مقامهِ. وسميَ الصنمُ وثنًا لأنهُ ينصبُ ويركزُ في مكانٍ فلا يبرحُ عنهُ، وسماها رجسًا لأنها سببُ الرجزِ وهوَ العذابُ. وقيل: وصفها بالرجسِ، والرجسُ النجسُ فهيَ نجسةٌ حكمًا. وليستِ النجاسةُ وصفًا ذاتيًا للأعيانِ وإنما هيَ وصفٌ شرعيٌّ منْ أحكامِ الإيمانِ، فلا تُزالُ إلا بالإيمانِ كما لا تجوزُ الطهارةُ إلا بالماءِ.

الرابعة: ﴿مِنَ﴾ في قولهِ: ﴿مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ قيلَ: إنها لبيانِ الجنسِ، فيقعُ نهيهُ عنْ رجسِ الأوثانِ فقطْ، ويبقى سائرُ الأرجاسِ نهيها في غيرِ هذا الموضعِ. ويحتملُ أنْ تكونَ لابتداء الغاية، فكأنهم نهاهمْ عنِ الرجسِ عامًا ثمَّ عينَ لهمْ مبدأهُ الذي منهُ يلحقهمْ، إذْ عبادةُ الوثنِ جامعةٌ لكلِّ فسادٍ ورجسٍ. ومنْ قالَ إنَّ ﴿مِنَ﴾ للتبعيض، قلب معنى الآية وأفسده.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ والزورُ: الباطلُ والكذبُ. وسميَ زورًا لأنهُ أميلُ عنِ الحق، ومنه ﴿تزاورُ عنْ كهفهمْ﴾، ومدينةٌ زوراءُ، أيْ مائلةٌ. وكلُّ ما عدا الحقَّ فهوَ كذبٌ وباطلٌ وزورٌ. وفي الخبرِ أنهُ ﷺ قامَ خطيبًا فقالَ: «عدلتْ شهادةُ الزورِ الشركَ باللهِ» قالها مرتينِ أوْ ثلاثًا. يعني أنها قدْ جمعتْ معَ عبادةِ الوثنِ في النهيِ عنها.

السادسة: هذهِ الآيةُ تضمنتِ الوعيدَ على الشهادةِ بالزورِ، وينبغي للحاكمِ إذا عثر على الشاهد بالزور أن يعزره وينادِيَ عليهِ ليعرفَ لئلا يغترَّ بشهادتهِ أحدٌ. ويختلفُ الحكمُ في شهادتهِ إذا تابَ، فإنْ كانَ منْ أهلِ العدالةِ المشهورِ بها المبرزِ فيها لمْ تقبلْ، لأنهُ لا سبيلَ إلى علمِ حالهِ في التوبةِ، إذْ لا يستطيعُ أنْ يفعلَ منَ القرباتِ أكثرَ مما هوَ عليهِ. وإنْ كانَ دونَ ذلكَ فشمرَ في العبادة وزادت حاله في التقى قبلت شهادتهُ. وفي الصحيح عنِ النبيِّ ﷺ أنهُ قال: «إن أكبرِ الكبائرِ الإشراكَ باللهِ وعقوقَ الوالدينِ وشهادةَ الزورِ وقولَ الزورِ». وكانَ رسولُ اللهِ ﷺ متكئًا فجلسَ فما زالَ يكررها حتى قلنا ليتهُ سكتَ.

السابعة: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ معناهُ مستقيمينَ أوْ مسلمينَ مائلينَ إلى الحقِّ. ولفظةُ ﴿حُنَفَآءَ﴾ منَ الأضدادِ تقعُ على الاستقامةِ وتقعُ على الميلِ. وَ ﴿حُنَفَآءَ﴾ نصبَ على الحالِ.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أيْ هوَ يومَ القيامةِ بمنزلةِ منْ لا يملكُ لنفسهِ نفعًا ولا يدفعُ عنْ نفسهِ ضرًا ولا عذابًا، فهوَ بمنزلةِ منْ خرَّ منَ السماءِ، فهوَ لا يقدرُ أنْ يدفعَ عنْ نفسه. ومعنى ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ أيْ تقطعهُ بمخالبها. وقيل: هذا عندَ خروجِ روحهِ وصعودِ الملائكةِ بها إلى سماءِ الدنيا، فلا يفتحُ لها فيرمى بها إلى الأرضِ، كما في حديثِ البراءِ، والسحيقُ: البعيدُ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، وقوله ﷺ: «فسحقًا فسحقًا».

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾، فيهِ سبعُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾، فيهِ ثلاثةُ أوجهٍ. قيلَ: يكونُ في موضعِ رفعٍ بالابتداءِ، أيْ ذلكَ أمرُ اللهَ. ويجوزُ أنْ يكونَ في موضعِ رفعٍ على خبرِ ابتداءٍ محذوفٍ. ويجوزُ أنْ يكونَ في موضعِ نصبٍ، أيْ اتبعوا ذلكَ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ الشعائرُ جمعُ شعيرةٍ، وهوَ كل شيء للهِ تعالى فيهِ أمرٌ أشعرَ بهِ وأعلمَ، ومنهُ شعارُ القومِ في الحربِ، أيْ علامتهمِ التي يتعارفونَ بها. ومنهُ إشعارُ البدنةِ وهوَ الطعنُ في جانبها الأيمنِ حتى يسيلَ الدمُ فيكونَ علامةً، فهيَ تسمى شعيرةً بمعنى المشعورةِ. فشعائرُ اللهِ أعلامُ دينهِ لا سيما ما يتعلقُ بالمناسكِ. وقالَ قومٌ: المرادُ هنا تسمينُ البدن والاهتمام بأمرها والمغالاة بها.

الثالثة: الضميرُ في ﴿إِنَّهَا﴾ عائدٌ على الفعلةِ التي يتضمنها الكلامُ: ولوْ قالَ فإنهُ لجازَ. وقيل: إنها راجعةٌ إلى الشعائرِ، أيْ فإنَّ تعظيمَ الشعائرِ، فحذفَ المضافُ لدلالةِ الكلامِ عليهِ، فرجعتِ الكنايةُ إلى الشعائرِ.

الرابعة: قولهُ تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ أضافَ التقوى إلى القلوبِ لأنَّ حقيقةَ التقوى في القلبِ، ولهذا قالَ ﷺ في صحيحِ الحديثِ: «التقوى هاهنا» وأشارَ إلى صدرهِ.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ يعني البدنَ منَ الركوبِ والدرِّ والنسلِ

والصوفِ وغيرِ ذلكَ، إذا لمْ يبعثها ربها هديا، فإذا بعثها فهو الأجل المسمى، فإذا صارتْ بدنًا هديًا فالمنافعُ فيها أيضًا ركوبها عندَ الحاجةِ، وشربُ لبنها بعدَ ريِّ فصيلها. وفي الصحيح عنْ أبي هريرةَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ رأى رجلًا يسوقُ بدنةً فقالَ: «اركبها» فقالَ: إنها بدنةٌ. فقالَ: «اركبها» قالَ: إنها بدنةٌ. قالَ: «اركبها ويلكَ» في الثانيةِ أوِ الثالثة. ورويَ عن جابر بن عبد الله وسئل عنْ ركوبِ الهدي فقالَ: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقولُ: «اركبها بالمعروفِ إذا ألجئتَ إليها حتى تجدَ ظهرًا»، والأجلُ المسمى على هذا القولِ نحرها.

السادسة: ذهبَ بعضُ العلماءِ إلى وجوبِ ركوبِ البدنةِ لقولهِ ﷺ: «اركبها». وممنْ أخذَ بظاهرهِ أحمدُ وأهلُ الظاهرِ. وعنْ مالكٍ: لا بأسَ بركوبِ البدنةِ ركوبًا غيرَ فادحٍ. والمشهورُ أنهُ لا يركبها إلا إنِ اضطرَّ إليها لحديثِ جابرٍ فإنهُ مقيدٌ والمقيدُ يقضي على المطلقِ. وبنحوِ ذلكَ قالَ الشافعيُّ وأبو حنيفةَ. ثم إذا ركبها عنده الحاجة نزل، وقال أبو حنيفةَ والشافعيُّ: إنْ نقصها الركوبُ المباحُ فعليهِ قيمةُ ذلكَ ويتصدقُ بهِ.

السابعة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٣٣﴾ يريدُ أنها تنتهي إلى البيتِ، وهوَ الطوافُ. فقولهُ: ﴿مَحِلُّهَآ﴾ مأخوذٌ منْ إحلالِ المحرمِ. والمعنى أنَّ شعائرَ الحجِّ كلها منَ الوقوفِ بعرفةَ ورمي الجمارِ والسعيِ ينتهي إلى طوافِ الإفاضةِ بالبيتِ العتيقِ. فالبيتُ على هذا التأويلِ مرادٌ بنفسهِ، قالهُ مالكٌ في الموطإِ. وقالَ عطاءٌ: ينتهي إلى مكةَ. وقالَ الشافعيُّ: إلى الحرمِ. وهذا بناءً على أنَّ الشعائرَ هيَ البدنُ، ولا وجهَ لتخصيصِ الشعائرِ معَ عمومها وإلغاءِ خصوصيةِ ذكرِ البيتِ. واللهُ أعلمُ.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا﴾ بيّنَ أنهُ لمْ يخلُ منها أمةٌ، والأمةُ القومُ المجتمعونَ على مذهبٍ واحدٍ، أيْ ولكلِّ جماعةٍ مؤمنةٍ جعلنا منسكًا. والمنسكُ الذبحُ وإراقةُ الدم، والذبيحةُ نسيكةٌ، وجمعها نسكٌ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖ﴾، والنسكُ أيضًا الطاعةُ، وقيل: أرادَ مكان نسك.

ويقال: مَنْسَك ومَنْسِك، لغتان، وقرئ بهما. قرأَ الكوفيونَ إلا عاصمًا بكسرِ السينِ، الباقونَ بفتحها.

وقيل: منسكًا عيدًا، والقولُ الأولُ أظهرُ، لقوله تعالى: ﴿لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أيْ على ذبحِ ما رزقهمْ. فأمرَ تعالى عندَ الذبحِ بذكرهِ وأنْ يكونَ الذبحُ لهُ، لأنهُ رازقُ ذلكَ.

قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ﴾ معناهُ لحقهِ ولوجههِ وإنعامهِ آمنوا وأسلموا. ويحتملُ أنْ يريدَ الاستسلامَ، أيْ لهُ أطيعوا وانقادوا.

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ المخبتُ: المتواضعُ الخاشعُ منَ المؤمنينَ. والخبتُ ما انخفضَ منَ الأرضِ، أيْ بشرهمْ بالثوابِ الجزيلِ.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أيْ خافتْ وحذرتْ مخالفتهُ. فوصفهمْ بالخوفِ والوجلِ عندَ ذكرهِ، وذلكَ لقوةِ يقينهمْ ومراعاتهمْ لربهمْ، وكأنهمْ بينَ يديهِ، ووصفهمْ بالصبرِ وإقامةِ الصلاةِ وإدامتها. ورويَ أنَّ هذهِ الآيةَ قولهُ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ نزلتْ في أبي بكرٍ وعمرَ وعليٍّ رضوانُ اللهِ عليهمْ. وقرأَ الجمهورُ: ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾ بالخفضِ على الإضافةِ، وقرأَ أبو عمرو: «الصَّلَاةَ» بالنصبِ على توهمِ النونِ، وأنَّ حذفها للتخفيفِ لطولِ الاسمِ.

الثانية: هذهِ الآيةُ نظيرُ قولهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، وقولهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ هذهِ حالةُ العارفينَ باللهِ، الخائفينَ منْ سطوتهِ وعقوبتهِ، لا كما يفعلهُ جهالُ العوامِّ والمبتدعةُ الطغامُ منَ الزعيقِ والزئيرِ، ومنَ النهاقِ الذي يشبهُ نهاقَ الحميرِ، فيقالُ لمنْ تعاطى ذلكَ وزعمَ أنَّ ذلكَ وجدٌ وخشوعٌ: إنكَ لمْ تبلغْ أنْ تساويَ حالَ رسولِ اللهِ ﷺ ولا حالَ أصحابهِ في المعرفةِ باللهِ تعالى والخوفِ منهُ والتعظيمِ لجلالهِ، ومعَ ذلكَ فكانتْ حالهمْ عندَ المواعظِ الفهمُ عنِ اللهِ والبكاءُ خوفًا منَ اللهِ. وكذلكَ وصفَ اللهُ

تعالى أحوالَ أهلِ المعرفةِ عندَ سماعِ ذكرِهِ وتلاوةِ كتابِهِ، ومنْ لمْ يكنْ كذلكَ فليسَ على هديهمْ ولا على طريقتهمْ، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾. فهذا وصفُ حالهمْ وحكايةُ مقالهمْ، فمنْ كانَ مستنًا فليستنَّ، ومنْ تعاطى أحوالَ المجانينِ والجنونِ فهوَ منْ أخسهمْ حالًا، والجنونُ فنونٌ. روى الصحيحُ عنْ أنسِ بنِ مالكٍ أنَّ الناسَ سألوا النبيَّ ﷺ حتى أحفوهُ في المسألةِ، فخرجَ ذاتَ يومٍ فصعدَ المنبرَ فقال: «سلوني لا تسألوني عن شيء إلا بينتهُ لكمْ ما دمتُ في مقامي هذا» فلما سمعَ ذلكَ القومُ أَرَمّوا ورهبوا أنْ يكونَ بينَ يديْ أمرٍ قدْ حضرَ. قالَ أنسٌ: فجعلتُ ألتفتُ يمينًا وشمالًا فإذا كلُّ إنسانٍ لافٌّ رأسهُ في ثوبهِ يبكي. وذكرَ الحديثَ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦﴾، فيهِ عشرُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ﴾ "وَٱلۡبُدُنَ" لغتانِ، واحدتها بدنةٌ. كما يقالُ: ثمرةٌ وثَمَرٌ وثُمُرٌ، وخشبةٌ وخشَبٌ وخُشُب. وفي التنزيل: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ﴾ وقرئ: «ثُمْرٌ» لغتانِ. وسميتْ بدنةً لأنها تبدنُ، والبدانةُ السمنُ. وقيل: إنَّ هذا الاسمَ خاصٌّ بالإبلِ، وفي الحديثِ «إني قدْ بَدَّنْتُ» أيْ كبرتُ وأسننتُ. ورويَ «بَدُنْتُ» وليسَ لهُ معنى، لأنهُ خلافُ صفتهِ ﷺ، ومعناهُ كثرةُ اللحمِ. يقالُ: بدنَ الرجلُ يبدنُ بدنًا وبدانةً فهوَ بادن، أي ضخم.

الثانية: اختلفَ العلماءُ في البُدْنِ هلْ تطلقُ على غيرِ الإبلِ منَ البقرِ أمْ لا، فقالَ الشافعيُّ: لا. وقالَ مالكٌ وأبو حنيفةَ: نعمْ. وفائدةُ الخلافِ فيمنْ نذرَ بدنةً فلمْ يجدِ البدنةَ أوْ لمْ يقدرْ عليها وقدرَ على البقرةِ، فهلْ تجزيهِ أمْ لا، فعلى مذهبِ الشافعيّ لا تجزيهِ. وعلى مذهبِ مالكٍ تجزيهِ. والصحيحُ ما ذهبَ إليهِ الشافعيُّ، لقولهِ ﷺ في الحديثِ الصحيحِ في يوم الجمعةِ: «منْ راحَ في الساعةِ الأولى فكأنما قربَ بدنةً ومنْ راحَ في الساعةِ الثانيةِ فكأنما قربَ بقرةً» الحديثَ. فتفريقهُ ﷺ بينَ البقرةِ والبدنةِ يدلُّ على أنَّ البقرةَ لا يقالُ عليها بدنةٌ، والله أعلمُ. وأيضًا قولهُ تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا﴾ يدلُّ على ذلكَ، فإنَّ الوصفَ خاصٌّ

بالإبلِ. والبقرُ يضجعُ ويذبحُ كالغنمِ، على ما يأتي.

ودليلنا أنَّ البدنةَ مأخوذةٌ منَ البدانةِ وهوَ الضخامةُ، والضخامةُ توجدُ فيهما جميعًا. وأيضًا فإنَّ البقرةَ في التقربِ إلى اللهِ تعالى بإراقةِ الدم بمنزلةِ الإبلِ، حتى تجوزَ البقرةُ في الضحايا عن سبعةٍ كالإبلِ. وهذا حجةٌ لأبي حنيفةَ حيثُ وافقهُ الشافعيُّ على ذلكَ، وليسَ ذلكَ في مذهبنا. والبدنُ هيَ الإبلُ التي تهدى إلى الكعبةِ. والهديُ عامٌّ في الإبلِ والبقرِ والغنمِ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ نص في أنها بعض الشعائر. وقوله: ﴿لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞ﴾ يريدُ بهِ المنافعَ التي تقدمَ ذكرها. والصوابُ عمومهُ في خيرِ الدنيا والآخرةِ.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّ﴾ أي انحروها على اسمِ اللهِ. وَ﴿صَوَآفَّ﴾ أيْ قدْ صفتْ قوائمها. والإبلُ تنحرُ قيامًا معقولةً. وأصلُ هذا الوصفِ في الخيلِ، يقالُ: صَفَنَ الفرسُ فهوَ صافنٌ إذا قام على ثلاث قوائمَ وثنى سنبكَ الرابعة، والسنبكُ طرفُ الحافرِ. والبعيرُ إذا أرادوا نحرهُ تعقلُ إحدى يديهِ فيقومُ على ثلاثِ قوائمَ.

وَ ﴿صَوَآفَّ﴾ قراءةُ الجمهورِ بفتحِ الفاءِ وشدها، والصافنةُ هيَ التي قدْ رفعتْ إحدى يديها بالعقلِ لئلا تضطربَ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾.

الخامسة: قالَ ابنُ وهبٍ: أخبرني ابنُ أبي ذئبٍ أنهُ سألَ ابنَ شهابٍ عنِ الصوافِّ فقالَ: تقيدها ثمَّ تصفها. وقالَ لي مالك بن أنس مثله. وكان العلماءِ على استحبابِ ذلكَ، إلا أبا حنيفةَ فإنه أجاز أنْ تنحرَ باركةً وقيامًا. وشذَّ عطاءٌ فخالفَ واستحبَّ نحرها باركةً. والصحيحُ ما عليهِ الجمهورُ، لقولهِ تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا﴾ معناهُ سقطتْ بعدَ نحرها، ومنهُ وجبتِ الشمسُ. وفي صحيح مسلمٍ: أنَّ ابنَ عمرَ أتى على رجلٍ وهوَ ينحرُ بدنتهُ باركةً فقالَ: ابعثها قائمةً مقيدةً سنةَ نبيكمْ ﷺ.

السادسة: قالَ مالكٌ: فإنْ ضعفَ إنسانٌ أوْ تخوفَ أنْ تنفلتَ بدنتهُ فلا أرى بأسًا أنْ ينحرها معقولةً. والاختيارُ أنْ تنحرَ الإبلُ قائمةً غيرَ معقولةٍ، إلا أنْ يتعذرَ ذلكَ فتعقلُ ولا تعرقبُ إلا أنْ يخافَ أنْ يضعفَ عنها ولا يقوى عليها. ونحرها باركةً أفضلُ منْ أنْ تعرقبَ. وكانَ ابنُ عمرَ يأخذُ الحربةَ بيدهِ في عنفوانِ أيدهِ فينحرها في صدرها ويخرجها على سنامها،

فلما أسنَّ كانَ ينحرها باركةً لضعفهِ، ويمسكُ معهُ الحربةَ رجلٌ آخرُ، وآخرُ بخطامها. وتضجعُ البقرُ والغنمُ.

السابعة: ولا يجوزُ النحرُ قبلَ الفجرِ منْ يومِ النحرِ بإجماعٍ. وكذلكَ الأضحيةُ لا تجوزُ قبلَ الفجرِ. فإذا طلعَ الفجرُ حلَّ النحرُ بمنى، وليسَ عليهمُ انتظارُ نحرِ إمامهمْ، بخلافِ الأضحيةِ في سائرِ البلادِ. والمنحرُ منى لكلِّ حاجٍّ، ومكةُ لكلِّ معتمرٍ. ولوْ نحرَ الحاجُّ بمكةَ والمعتمرُ بمنى لمْ يحرجْ واحدٌ منهما، إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يريدُ إذا سقطتْ على جنوبها ميتةً. يقالُ: وجبتِ الشمسُ إذا سقطتْ، ووجبَ الحائطُ إذا سقطَ. كنى عنِ الموتِ بالسقوطِ على الجنبِ كما كنى عنِ النحرِ والذبحِ بقولهِ تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾. والكناياتُ في أكثرِ المواضع أبلغ من التصريح، والوجوبُ للجنبِ بعدَ النحرِ علامةُ نزفِ الدمِ وخروجِ الروحِ منها، وهوَ وقتُ الأكلِ، أيْ وقتُ قربِ الأكلِ، لأنها إنما تبتدأُ بالسلخ وقطع شيء منَ الذبيحةِ ثمَّ يطبخُ. ولا تسلخُ حتى تبردَ لأنَّ ذلكَ منْ بابِ التعذيبِ، ولهذا قالَ عمرُ رضي الله عنه: لا تعجلوا الأنفسَ أنْ تزهقَ.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ أمرٌ معناهُ الندبُ. وكلُّ العلماءِ يستحبُّ أنْ يأكلَ الإنسانُ منْ هديهِ، وفيهِ أجرٌ وامتثال، إذ كانَ أهلُ الجاهليةِ لا يأكلونَ منْ هديهمْ كما تقدمَ، وقالَ الشافعيُّ: الأكلُ مستحبٌّ والإطعامُ واجبٌ، فإنْ أطعمَ جميعها أجزاهُ وإنْ أكلَ جميعها لمْ يجزهِ، وهذا فيما كانَ تطوعًا، فأما واجباتُ الدماءِ فلا يجوزُ أنْ يأكلَ منها شيئًا حسبما تقدمَ بيانهُ.

العاشرة: قوله تعالى: ﴿وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ أمرُ إباحةٍ. وَ ﴿ٱلْقَانِعَ﴾ السائلُ. يقالُ: قنَعَ الرجلُ يقنِعُ قنوعًا إذا سألَ، بفتحِ النونِ في الماضي وكسرها في المستقبلِ، ومنَ العربِ منْ ذكرَ القنوعَ بمعنى القناعةِ، وهيَ الرضا والتعففُ وتركُ المسألةِ.

وأما المعترُّ فهوَ الذي يطيفُ بكَ يطلبُ ما عندك، سائلا كان أو ساكتا، المعترضُ منْ غيرِ سؤالٍ.

قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا﴾ المعنى: لنْ يصلَ إليهِ، وقيل: لنْ يصعدَ إليهِ، ولكنْ يصلُ إليهِ التقوى منكمْ، أيْ ما أريدَ بهِ وجههُ، فذلكَ الذي يقبلهُ ويرفعُ إليهِ ويسمعهُ ويثيبُ عليهِ، ومنهُ الحديثُ «إنما الأعمالُ بالنياتِ». والقراءةُ ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ﴾ وَ ﴿يَنَالُهُ﴾ بالياءِ فيهما. وعنْ يعقوبَ بالتاءِ فيهما، نظرًا إلى اللحوم.

الثانية: قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ منَّ سبحانهُ علينا بتذليلها وتمكيننا منْ تصريفها وهيَ أعظمُ منا أبدانا وأقوى منا أعضاءً، ذلكَ ليعلمَ العبدُ أنَّ الأمورَ ليستْ على ما يظهر إلى العبدِ منَ التدبيرِ، وإنما هيَ بحسبِ ما يريدها العزيزُ القديرُ، فيغلبُ الصغيرُ الكبيرَ ليعلمَ الخلقُ أنَّ الغالبَ هوَ اللهُ الواحدُ القهار فوق عباده.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ﴾ ذكرَ سبحانهُ ذكرَ اسمهِ عليها منَ الآيةِ قبلها فقالَ عزَّ منْ قائلٍ: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ وذكرَ هنا التكبيرَ. وكانَ ابنُ عمرَ رضي الله عنهما يجمعُ بينهما إذا نحر هديه فيقول: بسم اللهِ واللهُ أكبرُ، وهذا منْ فقههِ رضي الله عنه. وفي الصحيحِ عنْ أنسٍ قالَ: ضحى رسولُ اللهِ ﷺ بكبشينِ أملحين أقرنين. قال: ورأيته يذبحهما بيدهِ، ورأيتهُ واضعًا قدمهُ على صفاحهما، وسمى وكبرَ.

وقدِ اختلفَ العلماءُ في هذا، فقالَ أبو ثورٍ: التسميةُ متعينةٌ كالتكبيرِ في الصلاةِ، وكافةُ العلماءِ على استحبابِ ذلكَ. فلوْ قالَ ذكرًا آخرَ فيهِ اسمٌ منْ أسماءِ اللهِ تعالى وأرادَ بهِ التسميةَ جازَ. وكذلكَ لوْ قال: اللهُ أكبر فقط، أو لا إله إلا الله، فلوْ لمْ يردِ التسميةَ لمْ يجز عن التسمية ولا تؤكل قاله الشافعيُّ، وكرهَ كافةُ العلماءِ منْ أصحابنا وغيرهمُ الصلاةَ على النبيِّ ﷺ عندَ التسميةِ في الذبحِ أوْ ذكرهُ، وقالوا: لا يذكرُ هنا إلا اللهُ وحدهُ. وأجازَ الشافعيُّ الصلاةَ على النبيِّ ﷺ عندَ الذبحِ.

الرابعة: ذهبَ الجمهورُ إلى أنَّ قولَ المضحي: اللهمَّ تقبلْ مني، جائزٌ. وكرهَ ذلكَ أبو حنيفةَ، والحجةُ عليهِ ما رواهُ الصحيحُ عنْ عائشةَ رضي الله عنها، وفيهِ: ثمَّ قالَ «باسمِ اللهِ اللهمَّ تقبلْ منْ محمدٍ وآلِ محمدٍ ومنْ أمةِ محمدٍ» ثمَّ ضحى بهِ. واستحبَّ بعضهمْ أنْ يقولَ ذلكَ بنصِّ الآيةِ ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾. وكرهَ مالكٌ قولهمْ: اللهمَّ منكَ وإليكَ، وقالَ: هذهِ بدعةٌ. وأجازَ ذلكَ ابنُ حبيبٍ منْ أصحابنا والحسنُ، والحجةُ لهما ما رواهُ أبو داودَ عنْ جابرٍ قالَ: ذبحَ النبيُّ ﷺ يومَ الذبحِ كبشينِ أقرنينِ موجوءينِ أملحينِ، فلما وجههما قالَ: ﴿إني وجهتُ وجهيَ للذى فطرَ السماواتِ والأرضَ حنيفًا- وقرأَ إلى قولهِ: وأنا أولُ المسلمينَ﴾ اللهمَّ منكَ ولكَ عنْ محمدٍ وأمتهِ باسمِ اللهِ واللهُ أكبرُ» ثمَّ ذبحَ. فلعلَّ مالكًا لمْ يبلغهُ هذا الخبرُ، أوْ لمْ يصحَّ عندهُ، أوْ رأى العملَ يخالفهُ. وعلى هذا يدلُّ قولهُ: إنهُ بدعةٌ.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ رويَ أنها نزلتْ في الخلفاءِ الأربعةِ، حسبما تقدمَ في الآيةِ التي قبلها. فأما ظاهرُ اللفظِ فيقتضي العموم في كل محسن.

قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾

وعدَ فيها سبحانهُ بالمدافعةِ ونهى أفصحَ نهيٍ عنْ الخيانةِ والغدرِ. وقدْ مضى في «الأنفالِ» التشديدُ في الغدرِ، وأنهُ «ينصبُ للغادرِ لواءٌ عندَ استهِ بقدرِ غدرتهِ يقالُ هذهِ غدرةُ فلانٍ».

وقيل: المعنى يدفعُ عنِ المؤمنينَ بأنْ يديمَ توفيقهمْ حتى يتمكنَ الإيمانُ منْ قلوبهمْ، فلا تقدرَ الكفارُ على إمالتهمْ عنْ دينهمْ، وإنْ جرى إكراهٌ فيعصمهمْ حتى لا يرتدوا بقلوبهمْ.

وقرأَ نافعٌ ﴿يُدَٰفِعُ﴾ «وَلَوْلَا دِفَاعُ». وقرأَ أبو عمرو وابن كثير «يدفع» ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ﴾. وقرأَ عاصم وحمزة والكسائي ﴿يُدَٰفِعُ﴾ ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ﴾. ويدافعُ بمعنى يدفعُ.

قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ قيلَ: هذا بيانُ قولهِ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ أيْ يدفعُ عنهمْ غوائلَ الكفارِ بأنْ يبيحَ لهم القتال وينصرهم، وهذا ناسخٌ لكلِّ ما في القرآنِ منْ إعراضٍ وتركٍ وصفحٍ. وهيَ أولُ آيةٍ نزلتْ في القتالِ. قالَ ابنُ عباسٍ وابنُ جبيرٍ: نزلتْ عندَ هجرةِ رسولُ اللهِ ﷺ إلى المدينةِ. وروى الترمذيُّ عنِ ابنِ عباسٍ قالَ: لما أخرجَ النبيِّ ﷺ منْ مكةَ قالَ أبو بكرٍ: أخرجوا نبيهمْ ليَهْلِكُنَّ، فأنزلَ اللهُ تعالى ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ فقالَ أبو بكرٍ: لقدْ علمتُ أنهُ سيكونُ قتالٌ. قالَ: هذا حديثٌ حسنٌ.

الثانية: في هذهِ الآيةِ دليلٌ على أنَّ الإباحةَ منَ الشرعِ، خلافًا للمعتزلةِ، لأنَّ قولهُ: ﴿أُذِنَ﴾ معناهُ أبيحَ، وهوَ لفظٌ موضوعٌ في اللغةِ لإباحةِ كلِّ ممنوعٍ. وقدْ تقدمَ هذا المعنى في «البقرةِ» وغير موضع.

وقرئَ «أَذِنَ» بفتحِ الهمزةِ، أيْ أذنَ اللهُ. «يُقَاتِلُونَ» بكسرِ التاءِ أي يقاتلون عدوهم، وقرئَ ﴿يُقَٰتَلُونَ﴾ بفتحِ التاءِ، أيْ يقاتلهمُ المشركونَ وهمُ المؤمنونَ، ولهذا قالَ: ﴿بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾ أيْ أخرجوا من ديارهم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾، فيه ثمان مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ هذا أحدُ ما ظلموا بهِ، وإنما أخرجوا لقولهم: ربنا الله وحده. فقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ استثناءٌ منقطعٌ، أي لكن لقولهم ربنا الله.

الثانية: قالَ ابنُ العربيِّ: قالَ علماؤنا كانَ رسولُ اللهِ ﷺ قبلَ بيعةِ العقبةِ لمْ يؤذنْ لهُ في الحربِ ولمْ تحلَّ لهُ الدماءُ، إنما يؤمرُ بالدعاءِ إلى اللهِ والصبرِ على الأذى والصفحِ عنِ

الجاهلِ مدةَ عشرةِ أعوامٍ، لإقامةِ حجةِ اللهِ تعالى عليهمْ، فلما عتتْ قريشٌ على اللهِ تعالى وردوا أمرهُ وكذبوا نبيهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعذبوا منْ آمنَ بهِ ووحدهُ وعبدهُ، وصدقَ نبيهُ ﷺ واعتصمَ بدينهِ، أذنَ اللهُ لرسولهِ في القتالِ والامتناعِ والانتصارِ ممنْ ظلمهمْ.

الثالثة: في هذهِ الآيةِ دليلٌ على أنَّ نسبةَ الفعلِ الموجودِ منَ المُلجأِ المُكرَهِ منسوبٌ إلى الذي ألجأهُ وأكرههُ، لأنَّ اللهَ تعالى نسبَ الإخراجَ إلى الكفارِ، لأنَّ الكلامَ في معنى تقديرِ الذنبِ وإلزامهِ. وهذهِ الآيةُ مثلُ قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ والكلامُ فيهما واحدٌ، وقدْ تقدمَ في «براءةٌ»، والحمد لله.

الرابعة: قوله تعالى : ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ﴾ أيْ لولا ما شرعهُ اللهُ تعالى للأنبياءِ والمؤمنينَ منْ قتالِ الأعداءِ، لاستولى أهلُ الشركِ وعطلوا ما بينتهُ أربابُ الدياناتِ منْ مواضعِ العباداتِ، ولكنهُ دفعَ بأنْ أوجبَ القتالَ ليتفرغَ أهلُ الدينِ للعبادةِ. فالجهادُ أمرٌ متقدمٌ في الأممِ، وبهِ صلحتِ الشرائعُ واجتمعتِ المتعبَّداتُ، فمنِ استبشعَ منَ النصارى والصابئينَ الجهادَ فهوَ مناقضٌ لمذهبهِ، فلولا هذا الدفعُ لهدمَ في زمنِ موسى الكنائسُ، وفي زمنِ عيسى الصوامعُ والبيعُ، وفي زمنِ محمدٍ ﷺ المساجدُ.

وقالت فرقة: ولولا دفعُ اللهِ ظلمَ الظلمةِ بعدلِ الولاةِ. وقالَ أبو الدرداءِ: لولا أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يدفعُ بمنْ في المساجدِ عمنْ ليسَ في المساجدِ، وبمنْ يغزو عمنْ لا يغزو، لأتاهمُ العذابُ. وقالت فرقة: ولولا دفعُ اللهِ العذابَ بدعاءِ الفضلاءِ والأخيارِ.

الخامسة: تضمنتْ هذهِ الآيةُ المنعَ منْ هدمِ كنائسِ أهلِ الذمةِ وبِيَعهمْ وبيوتِ نيرانهمْ، ولا يتركونَ أنْ يحدثوا ما لمْ يكنْ، ولا يزيدونَ في البنيانِ لا سعةً ولا ارتفاعًا، ولا ينبغي للمسلمينَ أنْ يدخلوها ولا يصلوا فيها، ومتى أحدثوا زيادةً وجبَ نقضها. وينقضُ ما وجدَ في بلادِ الحربِ منَ البيعِ والكنائس. وإنما لم ينقض ما في بلادِ الإسلام لأهلِ الذمةِ لأنها جرتْ مجرى بيوتهمْ وأموالهمُ التي عاهدوا عليها في الصيانةِ. ولا يجوزُ أنْ يمكنوا منَ الزيادةِ لأنَّ في ذلكَ إظهارَ أسبابِ الكفرِ. وجائزٌ أنْ ينقضَ المسجدُ ليعادَ بنيانهُ، وقدْ فعلَ ذلكَ عثمانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمسجدِ النبيِّ ﷺ.

السادسة: قرئَ «لَهُدِمَتْ» بتخفيفِ الدالِ وتشديدِها ﴿صَوَامِعُ﴾ جمعُ صومعةٍ، وزنها فوعلةٌ، وهيَ بناءٌ مرتفعٌ حديدُ الأعلى، والأصمعُ منَ الرجالِ الحديدُ القولِ. وقيل: هوَ الصغيرُ الأذنِ منَ الناسِ وغيرهِمْ. وكانتْ قبلَ الإسلامِ مختصة برهبان النصارى وبعباد الصابئين ثمَّ استعملَ في مئذنةِ المسلمينَ. والبِيَعُ. جمعُ بِيعةٍ، وهيَ كنيسةُ النصارى ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ هيَ كنائسُ اليهودِ، وهيَ بالعبرانيةِ صلوتا. وقيل: هيَ صلواتُ المسلمينَ تنقطعُ إذا دخلَ عليهمُ العدوُّ وتُهدمُ المساجدُ، فعلى هذا استعيرَ الهدمُ للصلواتِ منْ حيثُ تعطلُ، أوْ أرادَ موضعَ صلواتٍ فحذفَ المضافُ.

ولمْ يذكرْ في هذهِ الآيةِ المجوسُ ولا أهلُ الإشراكِ، لأنَّ هؤلاءِ ليسَ لهمْ ما يجبُ حمايتهُ، ولا يوجدُ ذكرُ اللهِ إلا عندَ أهلِ الشرائعِ.

السابعة: فإن قيل: لمَ قدمتْ مساجدُ أهلِ الذمةِ ومصلياتهمْ على مساجدِ المسلمينَ؟ قيلَ: لأنها أقدمُ بناءً. وقيل: لقربها منَ الهدمِ وقربِ المساجدِ منَ الذكرِ، كما أخرَ السابقُ في قولهِ: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ أيْ منْ ينصرُ دينهُ ونبيهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ أيْ قادرٌ ﴿عَزِيزٌ﴾ أيْ جليلٌ شريفٌ ممتنعٌ لا يرامُ.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾

همْ هذهِ الأمةُ إذا فتحَ اللهُ عليهمْ أقاموا الصلاةَ، وهوَ شرطٌ شرطهُ اللهُ عزَّ وجلَّ على منْ آتاهُ الملكَ، قالَ سهلُ بنُ عبدِ اللهِ: الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عنِ المنكرِ واجبٌ على السلطانِ وعلى العلماءِ الذينَ يأتونهُ.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾:

هذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ وتعزيةٌ فاقتدِ بهمْ واصبرْ ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ أيْ كذبهُ فرعونُ وقومهُ.

فأما بنو إسرائيلَ فما كذبوهُ، فلهذا لمْ يعطفهُ على ما قبلهُ فيكونَ وقومُ موسى ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ أيْ أخرتُ عنهمُ العقوبةَ ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ فعاقبتهمْ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ استفهامٌ بمعنى التغييرِ، أيْ فانظرْ كيفَ كانَ تغييري ما كانوا فيهِ منَ النعمِ بالعذابِ والهلاكِ، فكذلكَ أفعلُ بالمكذبينَ منْ قريشٍ.

قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ أيْ أهلكنا أهلها ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ أيْ بالكفرِ ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ خاليةٌ منْ أهلها لهلاكهمْ. وقيل: غائرةُ الماءِ. وقيل: معطلةٌ منْ دلائها وأرشيتها، والمعنى متقاربٌ ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ رفيع طويل. وقيل: مجصصٌ، من الشيد وهو الجص. وقيل: ﴿مَّشِيدٍ﴾ أي حصين، والشِيدُ «بالكسر»: كل شيء طليتَ بهِ الحائطَ منْ جصٍّ أوْ بلاطٍ، والمشيَّدُ «بالتشديدِ» المطولُ. وقالَ الكسائيُّ: «المشيدُ» للواحدِ، منْ قوله تعالى: ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾، والمُشيَّدُ للجمعِ، من قوله تعالى: ﴿فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني كفارَ مكةَ فيشاهدوا هذهِ القرى فيتعظوا، ويحذروا عقابَ اللهِ أنْ ينزلَ بهمْ كما نزلَ بمنْ قبلهمْ ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ أضافَ العقلَ إلى القلبِ لأنهُ محلهُ كما أنَّ السمعَ محلهُ الأذنُ. وقدْ قيلَ: إنَّ العقلَ محلهُ الدماغُ، ورويَ عنْ أبي حنيفةَ، وما أراها عنهُ صحيحةً ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أيْ أبصارُ العيونِ ثابتةٌ لهمْ ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ أيْ عنْ دَركِ الحقِّ والاعتبارِ.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ نزلتْ في النضرِ بنِ الحارثِ، وهوَ قولهُ: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. وقيل: نزلتْ في أبي جهلِ بنِ هشامٍ، وهوَ قولهُ: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾.

﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ أيْ في إنزالِ العذابِ. قالَ الزجاجُ: استعجلوا العذابَ فأعلمهمُ اللهُ أنه لا يفوته شيء، وقدْ نزلَ بهمْ في الدنيا يومَ بدرٍ.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ يعني منْ أيامِ الآخرةِ،

أعلمهمُ اللهُ إذِ استعجلوهُ بالعذابِ في أيامٍ قصيرةٍ أنهُ يأتيهمْ بهِ في أيامٍ طويلةٍ، وهذا وعيدٌ لهمْ بامتدادِ عذابهمْ في الآخرة، أي يوم من الأيام عذابهمْ في الآخرةِ ألفُ سنةٍ.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ وحمزةُ والكسائيُّ: «مِمَّا يَعُدُّونَ» بالياءِ المثناةِ تحتُ، والباقونَ بالتاء على الخطاب.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا﴾ أيْ أمهلتها معَ عتوها ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُهَا﴾ أيْ بالعذابِ ﴿وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يعني أهلَ مكةَ ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٌ﴾ أيْ منذرٌ مخوفٌ ﴿مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾ أيْ أبينُ لكمْ ما تحتاجونَ إليهِ منْ أمرِ دينكمْ ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٌ وَرِزۡقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ يعني الجنةَ ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أيْ في إبطالِ آياتنا ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي مغالبين مشاقين، وظنوا أنَّ اللهَ لا يقدرُ عليهمْ، وكذلكَ معنى قراءةِ ابنِ كثيرٍ وأبي عمرو «مُعَجِّزِينَ» بلا ألفٍ مشددًا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾﴾، فيهِ ثلاثَ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ أيْ قرأَ وتلا. وَ ﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ أيْ قراءتهِ وتلاوتهِ.

الثانية: الصحيحُ والذي عليهِ الجمُّ الغفيرُ أنَّ كلَّ رسولٍ نبيٌّ وليسَ كلُّ نبيٍّ رسولًا.

الثالثة: الأحاديثُ المرويةُ في نزول هذه الآية، وليس منها شيء يصحُّ. فروى أبو بكرِ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ الحارثِ بنِ هشام قالَ: قرأَ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ فلما بلغَ ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ سها فقالَ: «إنَّ شفاعتهمْ ترتجى» فلقيهُ المشركونَ والذينَ في قلوبهمْ مرضٌ فسلموا عليهِ وفرحوا، فقالَ: «إنَّ ذلكَ منَ الشيطانِ» فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ الآيةَ. قالَ النحاسُ: وهذا حديثٌ منقطعٌ وفيهِ هذا الأمرُ العظيمُ. وكذا حديثُ قتادةَ وزادَ فيهِ «وإنهنَّ لهنَّ الغرانيقُ

العلا». وأفظع منْ هذا ما ذكرهُ الواقديُّ عنْ كثيرِ بنِ زيدٍ عنِ المطلبِ بنِ عبدِ اللهِ قالَ: سجدَ المشركونَ كلهمْ إلا الوليدَ بنَ المغيرةِ فإنهُ أخذَ ترابًا منَ الأرضِ فرفعهُ إلى جبهتهِ وسجدَ عليهِ، وكانَ شيخًا كبيرًا. ويقالُ: إنهُ أبو أحيحةَ سعيدُ بنُ العاصِ، حتى نزلَ جبريلُ ﷺ فقرأَ عليهِ النبيِّ ﷺ، فقالَ لهُ: «ما جئتكَ بهِ»! وأنزلَ اللهُ: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾. قالَ النحاسُ: وهذا حديثٌ منكرٌ منقطعٌ ولا سيما منْ حديثِ الواقديِّ. وفي البخاريِّ أنَّ الذي أخذَ قبضةً منْ ترابٍ ورفعها إلى جبهتهِ هوَ أميةُ بنُ خلفٍ.

قالَ ابنُ عطيةَ: وهذا الحديثُ الذي فيهِ: هيَ الغرانيقُ العلا وقعَ في كتبِ التفسيرِ ونحوها، ولمْ يدخلهُ البخاريُّ ولا مسلمٌ، ولا ذكرهُ في علمي مُصنفٌ مشهورٌ.

قالَ القاضي عياضٌ في كتابِ الشفا بعدَ أنْ ذكرَ الدليلَ على صدقِ النبيِّ ﷺ، وأنَّ الأمةَ أجمعتْ فيما طريقهُ البلاغُ أنهُ معصومٌ فيهِ منَ الأخبارِ عن شيءٍ بخلافِ ما هوَ عليهِ، لا قصدًا ولا عمدًا ولا سهوا أو غلطا: اعلمْ أكرمكَ اللهُ أنَّ لنا في الكلامِ على مشكلِ هذا الحديثِ مأخذينِ:

أحدهما- في توهينِ أصلهِ.

والثاني: على تسليمهِ.

أما المأخذُ الأولُ: فيكفيكَ أنَّ هذا حديثٌ لمْ يخرجهُ أحدٌ منْ أهلِ الصحةِ، ولا رواهُ بسندٍ صحيحٍ سليمٍ متصلٍ ثقةٌ، وإنما أولعَ بهِ وبمثلهِ المفسرونَ والمؤرخونَ المولعونَ بكلِّ غريبٍ، المتلقفونَ منَ الصحفِ كلَّ صحيحٍ وسقيمٍ.

وأما المأخذُ الثاني: فهوَ مبنيٌّ على تسليمِ الحديثِ لوْ صحَّ. وقدْ أعاذنا اللهُ منْ صحتهِ، ولكنْ على كلِّ حالٍ فقدْ أجابَ أئمةُ المسلمينَ عنهُ بأجوبةٍ، منها الغثُّ والسمينُ. والذي يظهرُ ويترجحُ في تأويلهِ على تسليمهِ أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ كما أمرهُ ربهُ يرتلُ القرآنَ ترتيلًا، ويفصِّلُ الآيَ تفصيلًا في قراءتهِ، كما رواهُ الثقاتُ عنهُ، فيمكنُ ترصَّدُ الشيطانِ لتلكَ السكتاتِ ودس فيها ما اختلقهُ منْ تلكَ الكلماتِ، محاكيًا نغمةَ النبيِّ ﷺ بحيثُ يسمعهُ منْ دنا إليهِ منَ الكفارِ، فظنوها منْ قولِ النبيِّ ﷺ وأشاعوها.

وأما غيره من التأويلات مما حكاهُ قومٌ أنَّ الشيطانَ أكرههُ حتى قالَ كذا فهوَ محالٌ، إذْ ليسَ للشيطانِ قدرةٌ على سلبِ الإنسانِ الاختيارَ، قالَ اللهُ تعالى مخبرًا عنهُ: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾، ولوْ كانَ للشيطانِ هذهِ القدرةُ لما بقيَ لأحد منْ بني آدمَ قوةٌ في طاعةٍ.

ومنهم منْ قالَ جرى ذلكَ على لسانهِ سهوًا، ويجوزُ السهوُ عليهمْ ولا يقرونَ عليهِ، وأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ هذهِ الآيةَ تمهيدًا لعذرهِ وتسليةً لهُ، لئلا يقالَ: إنهُ رجعَ عنْ بعضِ قراءتهِ، وبينَ أنَّ مثلَ هذا جرى على الأنبياءِ سهوًا، والسهوُ إنما ينتفي عنِ اللهِ تعالى، وهذا التأويلُ وإنْ كانَ أشبهَ مما قبلهُ فالتأويلُ الأولُ عليهِ المعولُ، فلا يعدلُ عنهُ إلى غيرهِ لاختيارِ العلماءِ المحققينَ إياهُ، وضعفُ الحديثِ مغنٍ عنْ كلِّ تأويلٍ، والحمدُ للهِ.

ومما يدلُّ على ضعفهِ أيضًا وتوهينهِ منَ الكتابِ قولهُ تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ الآيتينِ، فإنهما تردانِ الخبرَ الذي رووهُ، لأنَّ اللهَ تعالى ذكرَ أنهمْ كادوا يفتنونهُ حتى يفتريَ، وأنهُ لولا أنْ ثبتهُ لكانَ يركنُ إليهمْ. فمضمونُ هذا ومفهومهُ أنَّ اللهَ تعالى عصمهُ منْ أنْ يفتريَ وثبتهُ حتى لمْ يركنْ إليهمْ قليلًا فكيفَ كثيرًا، وهمْ يروونَ في أخبارهمُ الواهيةِ أنهُ زادَ على الركونِ والافتراءِ بمدحِ آلهتهمْ، وأنهُ قالَ ﷺ: افتريتُ على اللهِ وقلتُ ما لمْ يقلْ. وهذا ضدُّ مفهومِ الآيةِ، وهيَ تضعفُ الحديثَ لوْ صحَّ، فكيفَ ولا صحةَ لهُ. وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً﴾ أيْ ضلالةً ﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أيْ شركٌ ونفاقٌ ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ فلا تلينُ لأمرِ اللهِ تعالى.

قالَ الثعلبيُّ: وفي الآيةِ دليلٌ على أنَّ الأنبياءَ يجوزُ عليهمُ السهوُ والنسيانُ والغلطُ بوسواسِ الشيطانِ أوْ عندَ شغلِ القلبِ حتى يغلطَ، ثمَّ ينبهَ ويرجعَ إلى الصحيحِ، وهوَ معنى قولهِ: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾. ولكنْ إنما يكونُ الغلطُ على حسبِ ما يغلطُ أحدنا، فأما ما يضافُ إليهِ منْ قولهمْ: تلكَ الغرانيقُ العلا، فكذبٌ على النبيِّ ﷺ، لأنَّ فيهِ تعظيمَ الأصنامِ، ولا يجوزُ ذلكَ على الأنبياءِ، كما لا يجوزُ أنْ يقرأَ بعضَ

القرآنِ ثمَّ ينشدَ شعرًا ويقولَ: غلطتُ وظننتهُ قرآنًا ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾ أيِ الكافرينَ لفي خلافٍ وعصيانٍ ومشاقةٍ للهِ عزَّ وجلَّ ولرسولهِ ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أيْ منَ المؤمنينَ. وقيل: أهلُ الكتابِ ﴿أَنَّهُ﴾ أيْ أنَّ الذي أحكمَ منْ آياتِ القرآنِ هوَ ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ أيْ تخشعَ وتسكنَ. وقيل: تخلصَ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٤﴾ أي يثبتهم على الهداية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ يعني في شكٍّ من القرآن أو منَ الدينِ، وهوَ الصراطُ المستقيمُ ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أيِ القيامةُ ﴿بَغْتَةً﴾ فجأةً ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥﴾ ليسَ يعقبُ بعدهُ يومًا مثلهُ، وقيل عقيم: لأنهمْ لمْ ينظروا فيهِ إلى الليلِ، بلْ قتلوا قبلَ المساءِ فصارَ يومًا لا ليلةَ لهُ. وقيل هو يومُ القيامةِ، لأنهُ لا ليلةَ لهُ. وقيل: لأنهُ لمْ يكنْ فيهِ رأفةٌ ولا رحمةٌ، وكانَ عقيمًا منْ كلِّ خيرٍ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ أيِ التي لا خيرَ فيها ولا تأتي بمطرٍ ولا رحمة.

قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني يومَ القيامةِ هوَ للهِ وحدهُ لا منازعَ لهُ فيهِ ولا مدافعَ، ثمَّ بينَ حكمهُ فقالَ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٥٦ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥٧﴾.

قلتُ: وقدْ يحتملُ أنْ تكونَ الإشارةُ بـ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ليوم بدرٍ، وقدْ حكمَ فيهِ بإهلاكِ الكافرِ وسعادةِ المؤمنِ، وقدْ قالَ ﷺ لعمرَ: «وما يدريكَ لعلَّ اللهُ اطلعَ على أهلِ بدرٍ فقالَ اعملوا ما شئتمْ فقدْ غفرتُ لكم».

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩﴾

أفردَ ذكرَ المهاجرينَ الذينَ ماتوا وقتلوا تفضيلًا لهمْ وتشريفًا على سائرِ الموتى. وسببُ نزولِ هذهِ الآيةِ أنهُ لما ماتَ بالمدينةِ عثمانُ بنُ مظعونٍ وأبو سلمةَ بنُ عبدِ الأسدِ قالَ بعضُ الناسِ: منْ قتلَ في سبيلِ اللهِ أفضلُ ممنْ ماتَ حتفَ أنفهِ، فنزلتْ هذهِ الآيةُ مسويةً بينهمْ، وأنَّ

اللهَ يرزقُ جميعهمْ رزقًا حسنًا. وظاهرُ الشريعةِ يدلُّ على أنَّ المقتولَ أفضلُ. وقدْ قالَ بعضُ أهلِ العلمِ: إنَّ المقتولَ في سبيلِ اللهِ والميتَ في سبيلِ اللهِ شهيدٌ، ولكنْ للمقتولِ مزيةٌ ما أصابهُ في ذاتِ اللهِ. وقالَ بعضهمْ: هما سواءٌ، واحتجَّ بالآيةِ، وبقولهِ تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، وبحديثِ أمِّ حرام، فإنها صرعتْ عنْ دابتها فماتتْ ولمْ تقتلْ فقالَ لها النبيُّ ﷺ: «أنتِ منَ الأولينَ»، وبقولِ النبيِّ ﷺ في حديثِ عبد الله ابن عتيكٍ: «منْ خرجَ منْ بيتهِ مهاجرًا في سبيلِ اللهِ فخرَّ عنْ دابتهِ فماتَ أوْ لدغتهُ حيةٌ فماتَ أوْ ماتَ حتفَ أنفهِ فقدْ وقعَ أجرهُ على اللهِ ومنْ ماتَ قَعْصًا فقدِ استوجبَ المآبَ».

وقرأَ ابنُ عامرٍ وأهلُ الشامِ: «قُتِّلُوا» بالتشديدِ على التكثيرِ. الباقونَ بالتخفيفِ ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ أيِ الجنانَ. قراءةُ أهلِ المدينةِ «مَدْخَلًا» بفتحِ الميمِ، أيْ دخولًا، وضمها الباقونَ، وقدْ مضى في «سبحانَ» ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩﴾ عليم بنياتهم، حليم عن عقابهم.

قوله تعالى: ﴿۞ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ في موضعِ رفعٍ، أيْ ذلكَ الأمرُ الذي قصصنا عليكَ. قيل: نزلتْ في قومٍ منَ المسلمينَ قوتلوا في الشهرِ الحرامِ فحصلَ في أنفسِ المسلمينَ منَ القتالِ في الشهرِ الحرام شيء، فنزلتْ، فمعنى ﴿مَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ أيْ منْ جازى الظالمَ بمثلِ ما ظلمهُ، فسمى جزاءَ العقوبةِ عقوبةً لاستواءِ الفعلينِ في الصورةِ، فهوَ مثلُ: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، ومثلُ: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ أيْ بالكلامِ والإزعاجِ منْ وطنهِ، وذلكَ أنَّ المشركينَ كذبوا نبيهمْ وآذوا منْ آمنَ بهِ وأخرجوهُ وأخرجوهمْ منْ مكةَ، وظاهروا على إخراجهمْ ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ أيْ لينصرنَّ اللهُ محمدًا ﷺ وأصحابهُ، فإنَّ الكفارَ بغوا عليهمْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠﴾ أيْ عفا عنِ المؤمنينَ ذنوبهم وقتالهم في الشهر الحرام وستر.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٦١﴾

فلا يقدرُ أحدٌ على ما أقدرُ عليهِ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ يسمعُ الأقوالَ ويبصرُ الأفعالَ، فلا يعزبُ عنهُ مثقالُ ذرةٍ ولا دبيبُ نملةٍ إلا يعلمها ويسمعها ويبصرها.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ أيْ ذو الحقِّ، فدينهُ الحقُّ وعبادتهُ حقٌّ. والمؤمنونَ يستحقونَ منهُ النصرَ بحكمِ وعدهِ الحقُّ ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ أي الأصنامُ التي لا استحقاقَ لها في العباداتِ. وقرأ نافعٌ وابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ وأبو بكرٍ «وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ» بالتاءِ على الخطابِ، الباقونَ بالياءِ على الخبرِ هنا وفي لقمانَ.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ أي العالي على كل شيء بقدرتهِ، والعالي عنِ الأشباهِ والأندادِ، المقدسِ عما يقولُ الظالمونَ منَ الصفاتِ التي لا تليقُ بجلالهِ ﴿ٱلۡكَبِيرُ ٦٢﴾ أي الموصوفُ بالعظمةِ والجلالِ وكبرِ الشأنِ. وقيل: الكبيرُ ذو الكبرياءِ والكبرياءُ عبارةٌ عنْ كمالِ الذاتِ، أيْ لهُ الوجودُ المطلقُ أبدًا وأزلًا، فهوَ الأولُ القديمُ، والآخرُ الباقي بعد فناء خلقه.

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ﴾ دليلٌ على كمالِ قدرتهِ، أيْ منْ قدرَ على هذا قدرَ على إعادةِ الحياةِ بعدَ الموتِ، كما قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾، ومثلهُ كثيرٌ. ﴿فَتُصۡبِحُ﴾ ليسَ بجوابٍ فيكونَ منصوبًا، وإنما هوَ خبرٌ، أيْ ذاتَ خضرةٍ، كما تقولُ: مَبْقَلَةٌ ومَسْبَعَةٌ، أيْ ذاتُ بقلٍ وسباعٍ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ٦٣﴾ ﴿لَطِيفٌ﴾ بأرزاقِ عبادهِ ﴿خَبِيرٞ﴾ بحاجتهم وفاقتهم.

قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ خلقًا وملكًا ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤﴾ فلا يحتاجُ إلى شيء، وهو المحمود في كل حال.

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ منَ الدوابِّ والشجرِ والأنهارِ ﴿وَٱلۡفُلۡكَ﴾ أيْ وسخرَ لكمُ الفلكَ في حالِ جريها ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أيْ كراهيةَ أنْ تقعَ ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ﴾ بالوقوعِ، فتقعُ بإذنهِ، أيْ بإرادتهِ وتخليته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٦٥﴾ أيْ في هذهِ الأشياءِ التي سخرها لهم.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ﴾ أيْ بعدَ أنْ كنتمْ نطفًا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾ عندَ انقضاءِ آجالكمْ ﴿ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ﴾ أيْ للحسابِ والثوابِ والعقابِ ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦﴾ أيْ لجحودٌ لما ظهرَ منَ الآياتِ الدالةِ على قدرتهِ ووحدانيتهِ، والغالبُ على الإنسانِ كفرُ النعمِ، كما قالَ تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا﴾ أيْ شرعًا ﴿هُمۡ نَاسِكُوهُۖ﴾ أيْ عاملونَ بهِ ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾ أيْ لا ينازعنكَ أحدٌ منهمْ فيما يشرعُ لأمتكَ، أو هي في جدالِ الكفارِ في أمرِ الذبائحِ، وقولهمْ للمؤمنينَ: تأكلونَ ما ذبحتمْ ولا تأكلونَ ما ذبحَ اللهُ منَ الميتةِ ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾ أيْ إلى توحيدهِ ودينهِ والإيمانِ بهِ ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى﴾ أيْ دينٍ ﴿مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧﴾ أيْ قويم لا اعوجاج فيه.

قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ أيْ خاصموكَ يا محمدُ، يريدُ مشركي مكةَ ﴿فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨﴾ منَ الكفرِ والتكذيبِ، فأمرهُ اللهُ تعالى بالإعراضِ عنْ مماراتهمْ صيانةً لهُ عنْ الاشتغالِ بتعنتهمْ، ولا جوابَ لصاحبِ العنادِ ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ يريدُ بينَ النبيِّ ﷺ وقومهِ ﴿فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٦٩﴾ فتعرفونَ حينئذٍ الحقَّ منَ الباطلِ.

مسألةٌ - في هذهِ الآيةِ أدبٌ حسنٌ علمهُ اللهُ عبادهُ في الردِّ على منْ جادلَ تعنتًا ومراءً ألا يجابَ ولا يناظرَ ويدفعَ بهذا القولِ الذي علمهُ اللهُ لنبيهِ ﷺ. وقدْ قيلَ: إنَّ هذهِ الآيةَ منسوخةٌ بالسيفِ، يعني السكوتَ عنْ مخالفهِ والاكتفاءَ بقولهِ: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ﴾ أي ما يجري في العالمِ فهوَ مكتوبٌ عندَ اللهِ في أمِّ الكتابِ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧٠﴾ أيْ إنَّ الفصلَ بينَ المختلفينَ، أو إنَّ كتابَ القلمِ الذي أمرهُ أنْ يكتبَ ما هوَ كائنٌ إلى يومِ القيامةِ على اللهِ يسيرٌ.

قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾ يريدُ كفارَ قريشٍ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ أيْ حجةً وبرهانًا ﴿وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ٧١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ يعني القرآنَ ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ

﴿كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ أي الغضبَ والعبوسَ ﴿يَكَادُونَ يَسۡطُونَ﴾ أيْ يبطشونَ ﴿بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ﴾ فكأنهمْ قالوا: ما الذي هوَ شرٌّ، فقيلَ هوَ النارُ ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾ في القيامةِ ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٢﴾ أيِ الموضعُ الذي يصيرونَ إليهِ وهوَ النارُ.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ﴾ أيْ بينَ اللهُ لكمْ شبها ولمعبودكمْ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قراءةُ العامةِ ﴿تَدۡعُونَ﴾ بالتاءِ. وقرأَ يعقوبُ: «يَدْعُونَ» بالياءِ على الخبرِ. والمرادُ الأوثانُ الذينَ عبدوهمْ منْ دونِ اللهِ، وكانتْ حولَ الكعبةِ، وهيَ ثلاثمائةٍ وستونَ صنمًا ﴿لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا﴾ الذبابُ اسمٌ واحدٌ للذكرِ والأنثى، والجمعُ القليلُ أذبةٌ والكثيرُ ذبانٌ، على مثلِ غرابٍ وأغربةٍ وغربانٍ، وسميَ بهِ لكثرةِ حركتهِ ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾ كانوا يجعلونَ للأصنامِ طعامًا فيقعُ عليهِ الذبابُ فيأكلهُ ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ قيلَ: الطالبُ الآلهةُ والمطلوبُ الذبابُ. وقيلَ: بالعكسِ. وقيل: الطالبُ عابدُ الصنمِ والمطلوبُ الصنمُ، فالطالبُ يطلبُ إلى هذا الصنمِ بالتقربِ إليهِ، والصنمُ المطلوبُ إليهِ.

وخصَّ الذبابُ لأربعةِ أمورٍ تخصهُ: لمهانتهِ وضعفهِ ولاستقذارهِ وكثرتهِ، وهذا من أقوى حجة وأوضح برهان.

قوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ﴾ أيْ ما عظموهُ حقَّ عظمتهِ، حيثُ جعلوا هذهِ الأصنامَ شركاءَ لهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤﴾ تقدم.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ ختمَ السورةَ بأنَّ اللهَ اصطفى محمدًا ﷺ لتبليغِ الرسالةِ، أيْ ليسَ بعثهُ محمدًا أمرًا بدعيًا، وأخبرَ أنَّ الاختيارَ إليهِ سبحانهُ وتعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ﴾ لأقوالِ عبادهِ ﴿بَصِيرٞ ٧٥﴾ بمنْ يختارهُ منْ خلقهِ لرسالتهِ ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ يريدُ ما قدموا ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ يريدُ ما خلَّفوا، مثل قوله في يس: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾ يريدُ ما بينَ أيديهمْ ﴿وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾ يريدُ ما خلَّفوا ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ فضلتْ هذه السورة بسجدتين، وهذهِ السجدةُ الثانيةُ لَمْ يرها مالكٌ وأبو حنيفةَ منَ العزائمِ، لأنهُ قرَنَ الركوعَ بالسجودِ، وأنَّ المرادَ بها الصلاةُ المفروضةُ، وخصَّ الركوعَ والسجودَ تشريفًا للصلاةِ.

قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ أيِ امتثلوا أمرهُ ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ ندبَ فيما عدا الواجباتِ التي صح وجوبها من غير هذا الموضع.

قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ عنى بهِ جهادَ الكفارِ. وقيل: جاهدوا أنفسكمْ في طاعةِ اللهِ وردوها عنِ الهوى، وجاهدوا الشيطانَ في ردِّ وسوستهِ، والظلمةَ في ردِّ ظلمهمْ، والكافرينَ في ردِّ كفرهمْ.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ أيِ اختاركمْ للذبِّ عنْ دينهِ والتزام أمرهِ، وهذا تأكيدٌ للأمرِ بالمجاهدةِ، أيْ وجبَ عليكمْ أنْ تجاهدوا لأنَّ اللهَ اختاركمْ لهُ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مِنۡ حَرَجٖ﴾ أيْ منْ ضيقٍ، وهذهِ الآيةُ تدخلُ في كثيرٍ منَ الأحكامِ، وهيَ مما خصَّ اللهُ بها هذهِ الأمةَ.

الثانية: واختلفَ العلماءُ في هذا الحرجِ الذي رفعهُ اللهُ تعالى، فقالَ عكرمةُ: هوَ ما أحلَّ منَ النساءِ مثنى وثلاثَ ورباعَ، وما ملكتْ يمينكَ. وقيل: المرادُ قصرُ الصلاةِ، والإفطارُ للمسافرِ، وصلاةُ الإيماءِ لمنْ لا يقدرُ على غيرهِ، وحطُّ الجهادِ عنِ الأعمى والأعرجِ والمريضِ والعديمِ الذي لا يجدُ ما ينفقُ في غزوهِ، والغريمِ، ومنْ لهُ والدانِ، وحطُّ الإصرِ الذي كانَ على بني إسرائيلَ، وإذا أخطأتِ الجماعةُ هلالَ ذي الحجةِ فوقفوا قبلَ يوم عرفةَ بيومٍ أوْ وقفوا يومَ النحرِ أجزأهمْ، وكذلكَ الفطرُ والأضحى، لحديث أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «فطركمْ يومُ تفطرونَ وأضحاكمْ يومُ تضحونَ». خرجهُ أبو داودَ والمعنى: باجتهادكمْ منْ غيرِ حرجٍ يلحقكمْ. وقدْ روى الأئمةُ أنهُ ﷺ سئلَ يومَ النحرِ عن أشياء، فما يسأل عن أمرٍ مما ينسى المرءُ أوْ يجهلُ منْ تقديمِ الأمورِ بعضها قبلَ بعضٍ وأشباهها إلا قالَ فيها: «افعلْ ولا حرجَ».

الثالثة: قالَ العلماءُ: رفعُ الحرجِ إنما هوَ لمنِ استقامَ على منهاجِ الشرعِ، وأما السَّلَّابةُ والسُّراقُ وأصحابُ الحدودِ فعليهمُ الحرجُ، وهمْ جاعلوهُ على أنفسهمْ بمفارقتهمُ الدينَ، وليسَ في الشرعِ أعظمُ حرجًا منْ إلزامِ ثبوتِ رجلٍ لاثنينِ في سبيلِ اللهِ تعالى، ومعَ صحةِ اليقينِ وجودةِ العزمِ ليسَ بحرجٍ.

قوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ﴾ المعنى اتبعوا ملةَ أبيكمْ، وقيل: انتصبَ على تقديرِ حذفِ الكافِ، كأنهُ قالَ كملَّةِ، وإبراهيمُ هوَ أبو العربِ قاطبةً. وقيل: الخطابُ لجميعِ المسلمينَ، وإنْ لمْ يكنِ الكلُّ منْ ولدهِ، لأنَّ حرمةَ إبراهيمَ على المسلمينَ كحرمةِ الوالدِ على الولدِ ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ ﴿هُوَ﴾ راجعٌ إلى إبراهيمَ، والمعنى: هوَ سماكمُ المسلمينَ منْ قبلِ النبيِّ ﷺ ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ أيْ وفي حكمهِ أنَّ منِ اتبعَ محمدًا ﷺ فهوَ مسلمٌ، وهوَ معنى قولهِ: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾، وقيل: سماكمُ اللهُ عزَّ وجلَّ المسلمينَ منْ قبلُ، أيْ في الكتبِ المتقدمةِ وفي هذا القرآن ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ أيْ بتبليغهِ إياكمْ ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أنَّ رسلهمْ قدْ بلغتهمْ ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٧٨﴾ تقدم مستوفى، والحمد لله.

سورة المؤمنون

مكيةٌ كلها في قولِ الجميع

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾، فيهِ تسعُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ روى البيهقيُّ منْ حديثِ أنسٍ عنِ النبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «لما خلقَ اللهُ جنةَ عدنٍ وغرسَ أشجارها بيدهِ قالَ لها تكلمي فقالتْ قدْ أفلحَ المؤمنونَ». وروى النسائيُّ عنْ عبدِ اللهِ بنِ السائبِ قالَ: حضرتُ رسولَ اللهِ ﷺ صلى يومَ الفتحِ فصلى في قُبُلِ الكعبةِ، فخلعَ نعليه فوضعهما عن يساره فافتتح سورة المؤمنون، فلما جاءَ ذكرُ موسى أوْ عيسى عليهما السلام أخذته سلعة فركعَ. خرجهُ مسلمٌ بمعناهُ.

وفي الترمذيِّ عنْ عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه قالَ: كانَ النبيُّ ﷺ إذا أنزلَ عليهِ الوحيُ سمعَ عندَ وجههِ كدويِّ النحل، وأنزل عليه يوما فمكثنا عنده ساعةً فسريَ عنهُ فاستقبلَ القبلةَ فرفعَ يديهِ وقالَ: «اللهمَّ زدنا ولا تنقصنا وأرضنا وارضَ عنا- ثم قال- أنزلَ عليَّ عشرُ آياتٍ منْ أقامهنَّ دخلَ الجنةَ- ثمَّ قرأَ- قدْ أفلحَ المؤمنونَ» حتى ختمَ عشرَ آياتٍ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿خَٰشِعُونَ﴾ تقدمَ ما للعلماءِ في حكمِ المصلي إلى حيثُ ينظرُ عندَ قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، وتقدمَ أيضًا معنى الخشوعِ لغةً ومعنى في البقرةِ أيضًا عندَ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾.

والخشوعُ محلهُ القلبُ، فإذا خشعَ خشعتِ الجوارحُ كلها لخشوعهِ، إذْ هوَ ملكها، وكانَ الرجلُ منَ العلماءِ إذا أقامَ الصلاةَ وقامَ إليها يهابُ الرحمنَ أنْ يمد بصره إلى شيء وأنْ

يحدثَ نفسهُ بشيءٍ منَ الدنيا، وأبصرَ النبيُّ ﷺ رجلًا يعبثُ بلحيتهِ في الصلاةِ فقالَ: «لوْ خشعَ قلبُ هذا لخشعتْ جوارحهُ». وقالَ أبو ذرٍّ قالَ النبيُّ ﷺ: «إذا قامَ أحدكمْ إلى الصلاةِ فإنَّ الرحمةَ تواجههُ فلا يحركنَّ الحصى». رواهُ الترمذيُّ.

الثالثة: اختلفَ الناسُ في الخشوعِ، هلْ هوَ منْ فرائضِ الصلاةِ أوْ منْ فضائلها ومكملاتها على قولينِ. والصحيحُ الأولُ، ومحلهُ القلبُ، وهوَ أولُ عمل يرفعُ منَ الناسِ، قالهُ عبادةُ بنُ الصامتِ، رواهُ الترمذيُّ منْ حديثِ جبيرِ بنِ نفيرٍ عنْ أبي الدرداءِ، وقالَ: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

وتقدمَ في «البقرةِ» معنى اللغو والزكاة فلا معنى للإعادة، وقيل: إنَّ اللغوَ هنا الشركُ، وقيل: إنهُ المعاصي كلها. فهذا قولٌ جامعٌ يدخلُ فيهِ قولُ منْ قالَ هوَ: الشركُ، وقولُ منْ قالَ هوَ الغناءُ.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾ قالَ ابنُ العربيِّ: «منْ غريب القرآنِ أنَّ هذهِ الآياتِ العشرَ عامةٌ في الرجالِ والنساءِ، كسائرِ ألفاظِ القرآنِ التي هيَ محتملةٌ لهمْ فإنها عامةٌ فيهمْ، إلا قوله ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾ فإنما خاطبَ بها الرجال خاصة دون الزوجات، بدليل قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾. وإنما عرفَ حفظُ المرأةِ فرجها منْ أدلةٍ أخرى كآياتِ الإحصانِ عمومًا وخصوصًا وغيرِ ذلكَ منَ الأدلةِ».

قلتُ: وعلى هذا التأويل في الآيةِ فلا يحلُّ لامرأةٍ أنْ يطأها منْ تملكهُ إجماعًا منَ العلماءِ، لأنها غيرُ داخلةٍ في الآيةِ، ولكنها لوْ أعتقتهُ بعدَ ملكها لهُ جازَ لهُ أنْ يتزوجها كما يجوزُ لغيرهِ عندَ الجمهورِ.

الخامسة: سئل مالكٌ عنِ الرجلِ يجلدُ عُمَيرةَ، فتلا هذهِ الآيةَ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾ إلى قولهِ- ﴿ٱلۡعَادُونَ﴾. وهذا لأنهمْ يكنونَ عنِ الذكرِ بعُميرةَ، وفيهِ يقولُ الشاعرُ:

إذا حللتَ بوادٍ لا أنيسَ بهِ فاجلدْ عُمَيرةَ لا داءٌ ولا حرجُ

ويسميهِ أهلُ العراقِ الاستمناءَ، وهوَ استفعالٌ منَ المنيِّ. وأحمدُ بنُ حنبل على ورعهِ يجوزهُ، ويحتجُّ بأنهُ إخراجُ فضلةٍ منَ البدنِ فجازَ عندَ الحاجةِ، أصلهُ الفصدُ والحجامةُ، وعامة العلماءِ على تحريمهِ، ولوْ قامَ الدليلُ على جوازها لكانَ ذو المروءةِ يعرضُ عنها لدناءتها.

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ وهذا يقتضي تحريمَ الزنى، وما قلناهُ منَ الاستمناءِ، ونكاحِ المتعةِ، لأنَّ المُتمتعَ بها لا تجري مجرى الزوجاتِ، لا ترثُ ولا تورثُ، ولا يُلحقُ بهِ ولدها، ولا يخرجُ منْ نكاحها بطلاقٍ يستأنفُ لها، وإنما يخرجُ بانقضاءِ المدةِ التي عقدتْ عليها وصارتْ كالمستأجرةِ.

قال ابنُ العربيِّ: إنْ قلنا إنَّ نكاحَ المتعةِ جائزٌ فهيَ زوجةٌ إلى أجلٍ ينطلقُ عليها اسمُ الزوجيةِ. وإنْ قلنا بالحقِّ الذي أجمعتْ عليهِ الأمةُ منْ تحريمِ نكاحِ المتعةِ لما كانتْ زوجةً فلمْ تدخلْ في الآيةِ.

قلتُ: وفائدةُ هذا الخلافِ هلْ يجبُ الحدُّ ولا يلحقُ الولدُ كالزنى الصريحِ، أوْ يدفعُ الحدُّ للشبهةِ ويلحقُ الولدُ؟ قولانِ لأصحابنا. وقدْ كانَ للمتعةِ في التحليلِ والتحريمِ أحوالٌ، فمنْ ذلكَ أنها كانتْ مباحةً ثمَّ حرمها رسولُ اللهِ ﷺ زمنَ خيبرَ، ثمَّ حللها في غزاةِ الفتحِ، ثمَّ حرمها بعدُ.

السابعة: قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ فسمى منْ نكحَ ما لا يحلُّ عاديًا، وأوجبَ عليهِ الحدَّ لعدوانهِ، واللائطُ عادٍ قرآنًا ولغةً، بدليلِ قوله تعالى: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾، فوجبَ أنْ يقامَ الحدُّ عليهمْ، وهذا ظاهرٌ لا غبارَ عليهِ.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ قرأَ الجمهورُ: ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ﴾ بالجمعِ. وابنُ كثيرٍ بالإفرادِ. والأمانةُ والعهدُ يجمعُ كلَّ ما يحملهُ الإنسان من أمر دينه ودنياه قولا وفعلا. وهذا يعمُّ معاشرةَ الناسِ والمواعيدَ وغيرَ ذلكَ، وغايةُ ذلكَ حفظهُ والقيامُ بهِ. والأمانةُ أعمُّ منَ العهدِ، وكلُّ عهدٍ فهوَ أمانةٌ فيما تقدمَ فيهِ قولٌ أوْ فعلٌ أوْ معتقدٌ.

التاسعة: قرأَ الجمهورُ: ﴿صَلَوَٰتِهِمْ﴾ وحمزةُ والكسائيُّ «صَلَاتِهِمْ» بالإفرادِ، وهذا الإفرادُ اسمُ جنسٍ فهوَ في معنى الجمع. والمحافظةُ على الصلاةِ إقامتها والمبادرةُ إليها أوائل أوقاتها، وإتمامُ ركوعها وسجودها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ أيْ منْ عملَ بما ذكرَ في هذهِ الآياتِ فهمُ الوارثونَ، أيْ يرثونَ منازلَ أهلِ النارِ منَ الجنةِ، ويحتملُ أنْ يسمى الحصولُ على الجنةِ وراثةً منْ حيثُ حصَّلوها دونَ غيرهمْ، فهوَ اسمٌ مستعارٌ على الوجهينِ.

والفردوسُ ربوةُ الجنةِ وأوسطها وأفضلها. خرجهُ الترمذيُّ منْ حديثِ الربيع بنتِ النضرِ أمِّ حارثةَ، وقالَ: حديث حسن صحيح. وفي صحيح مسلمٍ «فإذا سألتمُ اللهَ فسلوهُ الفردوسَ فإنهُ أوسطُ الجنةِ وأعلى الجنةِ ومنهُ تفجرُ أنهارُ الجنةِ». قالَ أبو حاتمٍ محمدُ بنُ حبانَ: قولهُ ﷺ «فإنهُ أوسطُ الجنةِ» يريدُ أنَّ الفردوسَ في وسطِ الجنانِ في العرضِ وهوَ أعلى الجنةِ، يريدُ في الارتفاعِ.

واللفظةُ: روميةٌ عربتْ. وقيل: هيَ فارسيةٌ عربتْ. وقيل: حبشيةٌ، وإنْ ثبتَ ذلكَ فهوَ وفاقٌ بينَ اللغاتِ. وقالَ الضحاكُ: هوَ عربيٌّ وهوَ الكَرْمُ، والعربُ تقولُ للكرومِ فراديسُ ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فأنثَ على معنى الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الإنسانُ هنا آدمُ عليه السلام، لأنهُ استلَّ منَ الطينِ. ويجيءُ الضميرُ في قولهِ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ﴾ عائدًا على ابنِ آدمَ، وإنْ كانَ لمْ يذكرْ لشهرةِ الأمرِ، فإنَّ المعنى لا يصلحُ إلا لهُ. نظيرُ ذلكَ ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾.

الثانية: قوله تعالى: ﴿نُّطْفَةٍ﴾ قدْ مضى القولُ في النطفةِ والعلقةِ والمضغةِ وما في ذلكَ منَ الأحكامِ في أولِ الحجِّ، والحمدُ للهِ على ذلكَ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ﴾ اختلفَ الناسُ في الخلقِ الآخرِ، فقيل:

هوَ نفخُ الروحِ فيهِ بعدَ أنْ كانَ جمادا، وعن ابن عباس: خروجه إلى الدنيا، وقيل: خروجُ الأسنانِ ونباتُ الشعرِ، وقيل: كمالُ شبابهِ، والصحيحُ أنهُ عامٌّ في هذا وفي غيرهِ منَ النطقِ والإدراكِ وحسنِ المحاولةِ وتحصيلِ المعقولاتِ إلى أنْ يموتَ.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ يروى أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ لما سمعَ صدرَ الآيةِ إلى قولهِ: ﴿خَلۡقًا ءَاخَرَۚ﴾ قالَ فتباركَ اللهُ أحسنُ الخالقينَ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: هكذا أنزلتْ، ورويَ أنَّ قائلَ ذلكَ عبدُ اللهِ بنُ أبي سرحٍ، وبهذا السببِ ارتدَّ وقالَ: آتي بمثلِ ما يأتي محمدٌ، وفيهِ نزلَ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ﴾.

وقولهُ تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ﴾ تفاعلَ منَ البركةِ ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ أتقنُ الصانعينَ. يقالُ لمنْ صنعَ شيئًا خلقهُ، ومنه قول الشاعرُ:

ولأنتَ تفري ما خلقتَ وبعْـ ـضُ القومِ يخلقُ ثمَّ لا يفري

وذهبَ بعضُ الناسِ إلى نفيِ هذهِ اللفظةِ عنِ الناسِ، وإنما يضافُ الخلقُ إلى اللهِ تعالى. وقالَ ابنُ جريجٍ: إنما قالَ: ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ لأنهُ تعالى قدْ أذنَ لعيسى عليه السلام أنْ يخلقَ، واضطربَ بعضهمْ في ذلكَ. ولا تنفى اللفظةُ عنِ البشرِ في معنى الصنعِ، وإنما هيَ منفيةٌ بمعنى الاختراعِ والإيجادِ منَ العدمِ.

الخامسة: منْ هذهِ الآيةِ قالَ ابنُ عباسٍ لعمرَ حينَ سألَ مشيخةَ الصحابةِ عنْ ليلةِ القدرِ فقالوا: اللهُ أعلمُ، فقالَ عمرُ: ما تقولُ يا ابنَ عباسٍ؟ فقالَ: يا أميرَ المؤمنينَ إنَّ الله تعالى خلق السموات سبعًا والأرضينَ سبعًا، وخلقَ ابنَ آدمَ منْ سبع وجعل رزقه في سبع، فأراه في ليلةِ سبعٍ وعشرينَ. فقالَ عمرُ رضي الله عنه: أعجزتم أنْ تأتوا بمثلِ ما أتى هذا الغلامُ الذي لمْ تجتمعْ شؤونُ رأسهِ. وهذا الحديثُ بطولهِ في مسندِ ابنِ أبي شيبةَ. فأرادَ ابنُ عباسٍ «خلقَ ابنُ آدمَ منْ سبعٍ» بهذهِ الآيةِ، وبقولهِ: «وجعلَ رزقهُ في سبعٍ» قولهُ: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١﴾ الآيةَ. السبعُ منها لابنِ آدمَ، والأبُّ للأنعامِ.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾﴾ أيْ بعدَ الخلقِ والحياةِ، ثمَّ أخبرَ بالبعثِ بعدَ الموتِ فقالَ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ أيْ سبع سموات. يقالُ: طارقتُ الشيءَ، أيْ جعلت بعضه فوق بعض، فقيل للسموات طرائقُ لأنَّ بعضها فوقَ بعضٍ، وقيل: لأنها طرائقُ الملائكةِ ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ قال بعض العلماء: أي عنْ خلقِ السماءِ. وقالَ أكثرُ المفسرينَ: أيْ عنِ الخلقِ كلهمْ منْ أنْ تسقطَ عليهمْ فتهلكهمْ. قلتُ: ويحتملُ أنْ يكونَ المعنى ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ﴾ أيْ في القيامِ بمصالحهم وحفظهم، وهوَ معنى الحيُّ القيومُ، على ما تقدمَ.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾، فيهِ ثلاث مسائلَ:

الأولى: هذهِ الآيةُ منْ نعمِ اللهِ تعالى على خلقهِ ومما امتنَّ بهِ عليهمْ، ومنْ أعظمِ المننِ الماءُ الذي هوَ حياةُ الأبدانِ ونماءُ الحيوانِ. والماءُ المنزلُ منَ السماءِ الذي ذكرَ اللهُ سبحانهُ وتعالى أخبرَ بأنهُ استودعهُ في الأرضِ، وجعلهُ فيها مختزنًا لسقيِ الناسِ يجدونهُ عندَ الحاجةِ إليهِ، وهوَ ماءُ الأنهارِ والعيونِ وما يستخرجُ منَ الآبارِ.

وقدْ قيلَ: إنَّ قولهُ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ إشارةٌ إلى الماءِ العذبِ، وأنَّ أصلهُ منَ البحرِ، رفعهُ اللهُ تعالى بلطفهِ وحسنِ تقديرهِ منَ البحرِ إلى السماءِ، حتى طابَ بذلكَ الرفعِ والتصعيدِ، ثمَّ أنزلهُ إلى الأرضِ لينتفعَ بهِ، ولوْ كانَ الأمرُ إلى ماءِ البحرِ لما انتفعَ بهِ منْ ملوحتهِ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿بِقَدَرٍ﴾ أيْ على مقدارٍ مصلحٍ، لأنهُ لوْ كثرَ أهلكَ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ﴾ يعني الماءَ المختزنَ. وهذا تهديدٌ ووعيدٌ، أيْ في قدرتنا إذهابهُ وتغويرهُ، ويهلكُ الناسُ بالعطشِ وتهلكُ مواشيهمْ، وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أيْ غائرًا- ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾.

الثالثة: كلُّ ما نزلَ منَ السماءِ مختزنًا كانَ أوْ غيرَ مختزنٍ فهوَ طاهرٌ مطهرٌ يغتسلُ بهِ ويتوضأُ منهُ، على ما يأتي في «الفرقان» بيانه.

قوله تعالى: ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ١٩﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَأَنشَأۡنَا﴾ أيْ جعلنا ذلكَ سببَ النباتِ، وأوجدناهُ بهِ وخلقناهُ. وذكرَ تعالى النخيلَ والأعنابَ، لأنها ثمرةُ الحجازِ بالطائفِ والمدينةِ وغيرهما، ولأنها أيضًا أشرفُ الثمارِ ﴿لَكُمۡ فِيهَا﴾ أيْ في الجناتِ ﴿فَوَٰكِهُ﴾ منْ غيرِ الرطبِ والعنبِ. ويحتملُ أنْ يعودَ على النخيلِ والأعنابِ خاصةً إذْ فيها مراتبُ وأنواعُ، والأولُ أعمُّ لسائرِ الثمراتِ.

الثانية: منْ حلفَ ألا يأكل فاكهة، ففي الروايةِ عندنا يحنثُ بالباقلاءِ الخضراءِ وما أشبهها. وقالَ أبو حنيفةَ: لا يحنثُ بأكلِ القثاءِ والخيار والجزر، لأنها من البقول لا منَ الفاكهةِ. وكذلكَ الجوزُ واللوزُ والفستقُ، لأنَّ هذهِ الأشياءَ لا تعدُّ منَ الفاكهةِ، وإنْ أكلَ تفاحًا أوْ خوخًا أوْ مشمشًا أوْ تينًا يحنثُ. وكذلكَ البطيخُ، لأنَّ هذهِ الأشياءَ كلها تؤكلُ على جهةِ التفكهِ قبلَ الطعامِ وبعدهُ، فكانتْ فاكهةً، وإنْ أكلَ عنبًا أوْ رمانًا أوْ رطبًا لا يحنثُ، وخالفهُ صاحباهُ فقالا يحنثُ، لأنَّ هذهِ الأشياءَ منْ أعزِّ الفواكهِ، وتؤكلُ على وجهِ التنعمِ. والإفرادُ لها بالذكر في كتاب الله عز جلَّ لكمالِ معانيها، كتخصيصِ جبريلَ وميكائيلَ منَ الملائكةِ. واحتجَّ أبو حنيفةَ بأنْ قالَ: عطفَ هذهِ الأشياءَ على الفاكهةِ مرةً فقالَ: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ﴾ ومرةً عطفَ الفاكهةَ على هذهِ الأشياءِ فقالَ: ﴿وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا﴾ والمعطوفُ غيرُ المعطوفِ عليهِ، ولا يليقُ بالحكمةِ ذكرُ الشيءِ الواحدِ بلفظينِ مختلفينِ في موضعِ المنةِ. والعنبُ والرمانُ يكتفى بهما في بعضِ البلدانِ فلا يكونُ فاكهةً، ولأنَّ ما كانَ فاكهةً لا فرقَ بينَ رطبهِ ويابسهِ، ويابسُ هذهِ الأشياءِ لا يعدُّ فاكهةً فكذلكَ رطبها.

قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنْبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾، فيهِ ستُّ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً﴾ شجرةً عطفَ على جناتٍ، ويريدُ بها شجرةَ الزيتونِ. وأفردها بالذكرِ لعظيمِ منافعها في أرضِ الشامِ والحجازِ وغيرهما منَ البلادِ، وقلةِ تعاهدها بالسقيِ والحفرِ وغيرِ ذلكَ منَ المراعاةِ في سائرِ الأشجارِ ﴿تَخْرُجُ﴾ في موضعِ الصفةِ ﴿مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ أيْ أنبتها اللهُ في الأصلِ منْ هذا الجبلِ الذي باركَ اللهُ فيهِ. وطور سيناءَ منْ أرضِ الشامِ وهوَ الجبلُ الذي كلمَ اللهُ عليهِ موسى عليه السلام، والطورُ الجبلُ في كلامِ العربِ. وقيل: هوَ مما عرِّبَ منْ كلامِ العجمِ، واختلفَ في سيناءَ، فقالَ قتادةُ: معناهُ الحسنُ، ويلزمُ على هذا التأويلِ أنْ ينونَ الطورُ على النعتِ، وقالَ الجمهورُ: هوَ اسمُ الجبلِ، كما تقولُ جبلُ أحدٍ. وعنْ مجاهدٍ أيضًا: سيناءُ حَجرٌ بعينهِ أضيفَ الجبلُ إليهِ لوجودهِ عندهُ. وقالَ مقاتلٌ: كلُّ جبلٍ يحملُ الثمارَ فهوَ سيناءُ، أيْ حسنٌ.

وقرأَ الكوفيونَ بفتحِ السينِ على وزنِ فعلاءَ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿تَنْبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ قرأَ الجمهورُ ﴿تَنْبُتُ﴾ بفتحِ التاءِ وضمِّ الباءِ، والتقديرُ: تنبتُ ومعها الدهنُ، كما تقولُ: خرجَ زيدٌ بسلاحهِ، وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو بضم التاءِ وكسرِ الباءِ. واختلفَ في التقديرِ على هذهِ القراءةِ، فقيل: التقديرُ تنبتُ جناها ومعهُ الدهنُ، فالمفعولُ محذوفٌ، وقيل: الباءُ زائدةٌ، مثلُ: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾.

والمرادُ منَ الآيةِ تعديدُ نعمةِ الزيتِ على الإنسانِ، وهيَ منْ أركانِ النعمُ التي لا غنى بالصحةِ عنها. ويدخلُ في معنى الزيتونِ شجرُ الزيتِ كلهُ على اختلافهِ بحسبِ الأقطارِ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ كلُّ إدامٍ يؤتدمُ بهِ فهوَ صبغٌ، وأصلُ الصبغ ما يلونُ بهِ الثوبُ، وشبِّهَ الإدامُ بهِ لأنَّ الخبزَ يلونُ بالصبغِ إذا غمسَ فيهِ. وقيل: الأدمُ الزيتونُ، والدهنُ الزيتُ. وقدْ جعلَ اللهُ تعالى في هذهِ الشجرةِ أدمًا ودهنًا، فالصبغُ على هذا الزيتونُ.

الرابعة: لا خلافَ أنَّ كلَّ ما يصطبغُ فيهِ منَ المائعاتِ كالزيتِ والسمنِ والعسلِ والربِّ والخلِّ وغيرِ ذلكَ منَ الأمراقِ أنهُ إدامٌ. وقدْ نصَّ رسولُ اللهِ ﷺ على الخلِّ فقالَ: «نعمَ الإدامُ

الخلُّ» رواهُ تسعةٌ منَ الصحابةِ، سبعةُ رجالٍ وامرأتانِ. وممنْ رواهُ في الصحيحِ جابرٌ وعائشةُ وخارجةُ وعمرُ وابنهُ عبيدُ اللهِ وابنُ عباسٍ وأبو هريرة وسمرة ابن جندبٍ وأنسٌ وأمُّ هانيءٍ.

الخامسة: واختلفَ فيما كانَ جامدًا كاللحمِ والتمرِ والزيتونِ وغيرِ ذلكَ منَ الجوامدِ، فالجمهورُ أنَّ ذلكَ كلهُ إدامٌ، فمنْ حلفَ ألا يأكلَ إدامًا فأكلَ لحمًا أوْ جبنًا حنثَ. وقالَ أبو حنيفةَ: لا يحنثُ، وخالفهُ صاحباهُ. وقدْ رويَ عنْ أبي يوسفَ مثلُ قولِ أبي حنيفةَ. والبقلُ ليسَ بإدامٍ في قولهمْ جميعًا. وعنِ الشافعيِّ في التمرِ وجهانِ، والمشهورُ أنهُ ليسَ بإدامٍ.

السادسة: قالَ مقاتلٌ: خصَّ الطورُ بالزيتونِ لأنَّ أولَ الزيتونِ نبتَ منها. وقيل: إنَّ الزيتونَ أولُ شجرةٍ نبتتْ في الدنيا بعدَ الطوفان، واللهُ أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى:- ﴿عَلَيْهَا﴾ أي وعلى الأنعام في البر، وعلى ﴿ٱلْفُلْكُ﴾ في البحر ﴿تُحْمَلُونَ﴾، وإنما يحملُ في البرِّ على الإبلِ فيجوزُ أن ترجع الكناية إلى بعض الأنعام. ورويَ أنَّ رجلًا ركبَ بقرةً في الزمانِ الأولِ فأنطقها اللهُ تعالى معهُ فقالتْ: إنا لمْ نخلقْ لهذا! وإنما خلقتُ للحرثِ.

قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أيْ يسودكمْ ويشرفَ عليكمْ بأنْ يكونَ متبوعًا ونحنُ لهُ تبعٌ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أيْ لوْ شاءَ اللهُ ألا يعبد شيء سواهُ لجعلَ رسولهُ ملكًا ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أيْ بمثلِ دعوتهِ. وقيل: ما سمعنا بمثلهِ بشرا، أتى برسالةِ ربهِ ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أيْ في الأممِ الماضيةِ.

﴿إِنْ هُوَ﴾ يعنونَ نوحًا ﴿إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ أيْ جنونٌ لا يدري ما يقولُ ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أيْ انتظروا موتهُ ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أيْ انتقمْ ممنْ لمْ يطعني ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أيْ أرسلنا إليهِ رسلًا منَ السماءِ ﴿أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ على ما تقدمَ بيانهُ.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾ أيْ أدخلْ فيها واجعلْ فيها، يقالُ: سلكتهُ في كذا وأسلكتهُ فيهِ إذا أدخلتهُ ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ قرأَ حفصٌ: ﴿مِّن كُلٍّ﴾ بالتنوينِ، الباقونَ بالإضافةِ.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ﴾ أيْ علوتَ ﴿أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ راكبينَ ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي احمدوا اللهَ على تخليصهِ إياكم ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ومنَ الغرقِ. والحمدُ للهِ كلمةُ كلِّ شاكرٍ للهِ. وقدْ مضى في الفاتحة بيانه.

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ قراءةُ العامةِ: ﴿مُنزَلًا﴾ بضمِّ الميمِ وفتحِ الزاي، على المصدرِ الذي هوَ الإنزالُ، أيْ أنزلني إنزالًا مباركًا، وقرأَ أبو بكر عنْ عاصمٍ: «مَنْزِلًا» بفتحِ الميمِ وكسرِ الزاي على الموضعِ، أيْ أنزلني موضعًا مباركًا.

قيل: هذا حينَ خرجَ منَ السفينةِ، مثلُ قوله تعالى: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾، وقيل: حينَ دخلها، فعلى هذا يكونُ قولهُ: ﴿مُّبَٰرَكًا﴾ يعني بالسلامةِ والنجاةِ.

قلتُ: وبالجملةِ فالآيةُ تعليمٌ منَ اللهِ عزَّ وجلَّ لعبادهِ إذا ركبوا وإذا نزلوا أنْ يقولوا هذا، بلْ وإذا دخلوا بيوتهمْ وسلموا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾ أيْ في أمرِ نوحٍ والسفينةِ وإهلاكِ الكافرينَ. ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ أيْ دلالاتٍ على كمالِ قدرةِ اللهِ تعالى، وأنهُ ينصرُ أنبياءهُ ويهلكُ أعداءهمْ ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾ أيْ ما كنا إلا مبتلينَ الأممَ قبلكمْ، أيْ مختبرينَ لهمْ بإرسالِ الرسلِ إليهمْ ليظهرَ المطيعُ والعاصي فيتبينَ للملائكةِ حالهمْ، لا أنْ يستجدَّ الربُّ علمًا. وقيلَ: أيْ نعاملهمْ معاملةَ المختبرينَ.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أيْ منْ بعدِ هلاكِ قومِ نوحٍ ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾ قيلَ: همْ قومُ عادٍ ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ يعني هودًا، لأنهُ ما كانتْ أمةٌ أنشئتْ في إثرِ قومِ نوحٍ إلا عادٌ. وقيل: همْ قومُ ثمودَ ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا﴾ يعني صالحًا. قالوا: والدليلُ عليهِ قولهُ تعالى آخرَ الآية: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾، نظيرها: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾.

قلتُ: وممنْ أخذَ بالصيحةِ أيضًا أصحابُ مدينَ قومُ شعيبٍ، فلا يبعدُ أنْ يكونوا همْ، واللهُ أعلمُ. ﴿مِنْهُمْ﴾ أيْ منْ عشيرتهمْ، يعرفونَ مولده ومنشؤه ليكون سكونهم إلى قوله

أكثر.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ أي الأشرافُ والقادةُ ﴿مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ﴾ يريدُ بالبعثِ والحسابِ ﴿وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أيْ وسعنا عليهمْ نعمَ الدنيا حتى بطروا ﴿مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾ فلا فضلَ لهُ عليكمْ لأنهُ محتاجٌ إلى الطعامِ والشرابِ كأنتمْ ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ يريدُ لمغبونونَ بتركِكمْ آلهتكمْ واتباعكمْ إياه منْ غيرِ فضيلةٍ لهُ عليكمْ ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أيْ مبعوثونَ منْ قبوركمْ ﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ وهيَ كلمةٌ للبعدِ، كأنهمْ قالوا بعيدٌ ما توعدونَ.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ ﴿هِىَ﴾ كنايةٌ عنِ الدنيا ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ قالوا نموتُ ونحيا وهمْ لا يقرونَ بالبعثِ؟ وفي هذا أجوبةٌ: منها أنْ يكونَ المعنى: نكونُ مواتًا، أيْ نطفًا ثمَّ نحيا في الدنيا. وقيل: فيهِ تقديمٌ وتأخيرٌ، أيْ إنْ هيَ إلا حياتنا الدنيا نحيا فيها ونموت، كما قال: ﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى﴾، وقيل: ﴿نَمُوتُ﴾ يعني الآباءَ، ﴿وَنَحْيَا﴾ يعني الأولادَ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ أي بعد الموت.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ﴾ يعنون الرسول إلا رجل ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾ أيِ اختلقَ ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾﴾ تقدمَ ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ﴾ أيْ عنْ قليلٍ، وَ ﴿مَا﴾ زائدةٌ مؤكدةٌ ﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَـٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ على كفرهمْ، واللامُ لامُ القسمِ، أيْ واللهِ ليصبحنَّ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ صاحَ بهمْ جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ صيحةً واحدةً معَ الريحِ التي أهلكهمُ اللهُ تعالى بها فماتوا عنْ آخرهمْ ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً﴾ أيْ هلكى هامدينَ كغثاءِ السيلِ، وهوَ ما يحملهُ منْ بالي الشجرِ منَ الحشيشِ والقصبِ مما يبسَ وتفتتَ ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ أيْ هلاكًا لهمْ. وقيلَ: بعدًا لهمْ منْ رحمةِ اللهِ، وهوَ منصوبٌ على المصدرِ.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أيْ منْ بعدِ هلاكِ هؤلاءِ ﴿قُرُونًا﴾ أيْ أممًا ﴿ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ يريدُ بني إسرائيلَ ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ﴿مِن﴾ صلةٌ، أيْ ما تسبقُ أمةٌ الوقتَ المؤقتَ لها ولا تتأخرهُ، مثلُ قولهُ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾. ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ معنى ﴿تَتْرَا﴾ تواترُ، ويتبعُ بعضهمْ بعضًا، وقرأَ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو: «تَتْرًى» بالتنوينِ على أنهُ مصدرٌ أدخلَ فيهِ التنوينُ على فتحِ الراءِ ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ أيْ بالهلاكِ ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ جمعُ أحدوثةٍ وهيَ ما يتحدثُ بهِ، كأعاجيبَ جمعُ أعجوبةٍ، وهيَ ما يتعجبُ منهُ، كما قالَ في آيةٍ أخرى: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾. ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ تقدمَ. ومعنى ﴿عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾ متكبرينَ قاهرينَ لغيرهمْ بالظلمِ، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ الآيةَ، تقدمَ أيضًا. ومعنى ﴿مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾ أيْ بالغرقِ في البحرِ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ﴾ يعني التوراةَ، وخصَّ موسى بالذكرِ لأنَّ التوراةَ أنزلتْ عليهِ في الطورِ، وهارونُ خليفةٌ في قومهِ. ولوْ قالَ: «ولقدْ آتيناهما» جازَ كما قالَ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ الربوةُ المكانُ المرتفعُ منَ الأرضِ، والمرادُ بيتُ المقدسِ ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أيْ مستويةٍ يستقرُّ عليها. وقيلَ: ذاتُ ثمارٍ، ولأجلِ الثمارِ يستقرُّ فيها الساكنونَ ﴿وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ ماءٍ جارٍ ظاهرٍ للعيونِ.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾، فيهِ ثلاثُ مسائلَ:

الأولى: روى الصحيحُ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أيها الناسُ إنَّ اللهَ طيبٌ لا يقبلُ إلا طيبًا وإنَّ اللهَ أمرَ المؤمنينَ بما أمرَ بهِ المرسلينَ فقالَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وقالَ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ ثمَّ ذكرَ الرجلَ يطيلُ السفرَ أشعثَ أغبرَ يمدُّ يديهِ إلى السماءِ يا ربِّ يا ربِّ ومطعمهُ حرامٌ ومشربهُ حرامٌ وملبسهُ حرامٌ وغذيَ بالحرامِ فأنَّى يستجابُ لذلكَ.

الثانية: قالَ بعضُ العلماءِ: والخطابُ في هذهِ الآيةِ للنبيِّ ﷺ، وأنهُ أقامهُ مقامَ الرسلِ، كما قالَ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ يعني نعيم بن مسعود، وقيل: إنَّ هذهِ المقالةَ خوطبَ بها كلُّ نبيٍّ، لأنَّ هذهِ طريقتهمُ التي ينبغي لهمُ الكونُ عليها.

الثالثة: سوى اللهُ تعالى بينَ النبيينَ والمؤمنينَ في الخطابِ بوجوبِ أكلِ الحلالِ وتجنبِ الحرامِ، ثمَّ شملَ الكلَّ في الوعيدِ الذي تضمنهُ قولهُ تعالى: ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ صلى اللهُ على رسلهِ وأنبيائهِ. وإذا كانَ هذا معهمْ فما ظنُّ كلِّ الناسِ بأنفسهمْ.

وفي قولهِ ﷺ «يمدُّ يديهِ» دليلٌ على مشروعيةِ مدِّ اليدينِ عندَ الدعاءِ إلى السماءِ، وقدْ مضى الخلافُ في هذا والكلامُ فيهِ والحمدُ للهِ. وقولهُ ﷺ «فأنى يستجابُ لذلكَ» على جهةِ الاستبعادِ، أيْ أنهُ ليسَ أهلًا لإجابةِ دعائهِ لكنْ يجوزُ أنْ يستجيبَ اللهُ لهُ تفضلًا ولطفًا وكرما.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ هذا دينكمْ وملتكمْ فالتزموهُ. والأمةُ هنا الدينُ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أيْ على دينٍ.

الثانية: قرئَ ﴿وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ﴾ بكسرِ «إنَّ» على القطعِ، وبفتحها وتشديدِ النونِ، متعلقةٌ بفعلٍ مضمرٍ تقديرهُ: واعلموا أنَّ هذهِ أمتكمْ.

الثالثة: وهذهِ الآيةُ تقوي أنَّ قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ إنما هوَ مخاطبةٌ لجميعهمْ، وأنهُ بتقديرِ حضورهمْ. وإذا قدرتْ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ مخاطبةً لمحمدٍ ﷺ قلِقَ اتصالَ هذهِ الآيةِ واتصالَ قولهِ: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾. أما أنَّ قولهُ: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ وإنْ كانَ قيلَ للأنبياءِ فأممهمْ داخلونَ فيهِ بالمعنى، فيحسنُ بعدَ ذلكَ اتصالُ ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ أيِ افترقوا، يعني الأممَ، أيْ جعلوا دينهمْ أديانًا بعدَ ما أمروا بالاجتماع

الرابعة: هذهِ الآيةُ تنظرُ إلى قولهِ ﷺ: «ألا إنَّ منْ قبلكمْ منْ أهلِ الكتابِ افترقوا على ثنتينِ وسبعينَ ملةً وإنَّ هذهِ الأمةَ ستفترقُ على ثلاثٍ وسبعينَ ثنتانِ وسبعونَ في النارِ وواحدةٌ في الجنةِ وهيَ الجماعةُ» الحديثُ. خرجهُ أبو داود، ورواه الترمذيُّ وزادَ: قالوا ومنْ هيَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «ما أنا عليهِ وأصحابي» خرجهُ منْ حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمرو. وهذا يبينُ أنَّ الافتراقَ المحذرَ منهُ في الآيةِ والحديثِ إنما هوَ في أصولِ الدينِ وقواعده، لأنهُ قدْ أطلقَ عليها مللًا، وأخبرَ أنَّ التمسكَ بشيءٍ منْ تلكَ المللِ موجبٌ لدخولِ النارِ. ومثلُ هذا لا يقالُ في الفروعِ، فإنهُ لا يوجبُ تعديدَ المللِ ولا عذابَ النارِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿زُبُرٗاۖ﴾ يعني كتبًا وضعوها وضلالاتٍ ألفوها، وقيل: أخذَ كلُّ فريقٍ منهمْ كتابًا آمنَ بهِ وكفرَ بما سواهُ. وَ﴿زُبُرٗاۖ﴾ بضمِّ الباءِ قراءةُ نافعٍ، جمعُ زبورٍ، وأبو عمرو بخلافٍ عنهُ «زُبَرًا» بفتحِ الباءِ، أيْ قطعًا كقطعِ الحديدِ، كقوله تعالى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ﴾.

﴿كُلُّ حِزۡبِۭ﴾ أيْ فريقٍ وملةٍ ﴿بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ أيْ عندهمْ منَ الدينِ ﴿فَرِحُونَ﴾ أيْ معجبونَ بهِ، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ قالَ مجاهدٌ: حتى الموتِ، فهوَ تهديدٌ لا توقيتٌ، كما يقالُ: سيأتي لك يوم.

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥﴾ «ما» بمعنى الذي، أيْ أيحسبونَ يا محمدُ أنَّ الذي نعطيهمْ في الدنيا منَ المالِ والأولادِ هوَ ثوابٌ لهمْ، إنما هوَ استدراجٌ وإملاءٌ، ليسَ إسراعًا في الخيراتِ ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ أن ذلك فتنة لهم واستدراج.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧﴾ لما فرغَ منْ ذكرِ الكفرةِ وتوعدهمْ عقبَ ذلكَ بذكرِ المؤمنينَ المسارعينَ في الخيراتِ ووعدهمْ، وذكرَ ذلكَ بأبلغِ صفاتهمْ. وَ ﴿مُّشْفِقُونَ﴾ خائفونَ وجلونَ مما خوفهمُ اللهُ تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، روى الترمذيُّ عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زوجِ النبيِّ ﷺ قالتْ: سألتُ رسولَ اللهِ ﷺ عنْ هذهِ الآيةِ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قالتْ عائشةُ: أهمُ الذينَ يشربونَ الخمرَ ويسرقونَ؟ قالَ: «لا يا بنتَ الصديقِ ولكنهمُ الذينَ يصومونَ ويصلونَ ويتصدقونَ وهمْ يخافونَ ألا يقبلَ منهمْ أولئكَ الذينَ يسارعونَ في الخيراتِ».

وفي قولِهِ: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠﴾ تنبيهٌ على الخاتمةِ. وفي صحيحِ البخاريِّ: «وإنما الأعمالُ بالخواتيمِ». وأما المخلِّطُ فينبغي لهُ أنْ يكونَ تحتَ خوفٍ منْ أنْ ينفذَ عليهِ الوعيدُ بتخليطِهِ. وقالَ أصحابُ الخواطرِ: وجلُ العارفِ منْ طاعتهِ أكثرُ منْ وجلهِ منْ مخالفتهِ، لأنَّ المخالفة تمحوها التوبة، والطاعة تطلب بتصحيح الغرض ﴿أَنَّهُمْ﴾ أيْ لأنهمْ، أوْ منْ أجلِ ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أيْ في الطاعاتِ، كيْ ينالوا بذلكَ أعلى الدرجاتِ والغرفات. وقريء: «يُسْرِعُونَ» في الخيراتِ، أيْ يكونوا سراعًا إليها. ويسارعونَ على معنى يسابقونَ أبلغُ منْ يسرعونَ ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾ أحسنُ ما قيلَ فيهِ: أنهمْ يسبقونَ إلى أوقاتها. ودلَّ بهذا أنَّ الصلاةَ في أولِ الوقتِ أفضلُ، فاللامُ في ﴿لَهَا﴾ على هذا القولِ بمعنى إلى، كما قالَ: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي أوحى إليها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ قدْ مضى في «البقرةِ» وأنهُ ناسخٌ لجميع ما وردَ في الشرعِ منْ تكليفِ ما لا يطاقُ ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ أظهرُ ما قيلَ فيهِ: أنهُ أرادَ كتابَ إحصاءِ الأعمالِ الذي ترفعهُ الملائكةُ، وأضافهُ إلى نفسهِ لأنَّ الملائكةَ كتبتْ فيهِ أعمالَ العبادِ بأمرهِ، فهوَ ينطقُ بالحقِّ. وفي هذا تهديدٌ وتأييسٌ منَ الحيفِ والظلمِ. ولفظُ النطقِ يجوزُ في الكتابِ، والمرادُ أنَّ النبيينَ تنطقُ بما فيهِ. واللهُ أعلمُ. وقيل: عنى اللوحَ المحفوظَ، وقدْ أثبتَ فيهِ كل شيء، فهمْ لا يجاوزونَ ذلكَ. وقيل: الإشارةُ بقولهِ: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ﴾ القرآنُ، فاللهُ أعلمُ، وكلٌّ محتملٌ والأول أظهر.

قوله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ في غطاءٍ وغفلةٍ وعمايةٍ عنِ القرآنِ، وقيل: في حيرةٍ وعمى ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ۝٦٣﴾ أيْ لهمْ خطايا لا بدَّ أنْ يعملوها فيدخلونَ بها النارَ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ﴾ يعني بالسيفِ يومَ بدرٍ، وقيل: بالقحطِ والجوعِ حينَ قالَ النبيُّ ﷺ: «اللهمَّ اشددْ وطأتك على مضر اللهُ اجعلها عليهمْ سنينَ كسني يوسفَ» ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ۝٦٤﴾ أيْ يضجونَ ويستغيثونَ. وأصلُ الجؤارِ رفعُ الصوتِ بالتضرعِ كما يفعلُ الثورُ، والجؤارُ مثلُ الخوارِ، يقالُ: جأرَ الثورُ يجأرُ أيْ صاحَ. وقرأَ بعضهمْ: «عِجْلًا جَسَدًا لَهُ جُؤَارٌ»، وجأرَ الرجلُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ تضرعَ بالدعاءِ. قتادةُ: يصرخونَ بالتوبةِ فلا تقبلُ منهمْ، وقيل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ﴾ همُ الذينَ قتلوا ببدرٍ ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ همُ الذينَ بمكةَ، فجمعَ بينَ القولينِ المتقدمينَ، وهوَ حسنٌ ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا﴾ أيْ منْ عذابنا ﴿لَا تُنصَرُونَ ۝٦٥﴾ لا تمنعونَ ولا ينفعكمْ جزعكمْ.

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ۝٦٦﴾ الآياتُ يريدُ بها القرآنَ. ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أيْ تقرأُ. قالَ الضحاكُ: قبلَ أنْ تعذبوا بالقتل وَ ﴿تَنكِصُونَ﴾ ترجعونَ وراءكمْ، وهوَ هنا استعارة للإعراض عن الحق ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ حالٌ، والضميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ قالَ الجمهورُ: هوَ عائدٌ على الحرمِ أوِ المسجدِ أوِ البلدِ الذي هوَ مكةُ، وإنْ لمْ يتقدمْ لهُ ذكرٌ لشهرتهِ في الأمرِ، أيْ يقولونَ نحنُ أهلُ الحرمِ فلا نخافُ.

قوله تعالى: ﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ ﴿سَٰمِرًا﴾ نصبَ على الحال، ومعناه سمَّارا، وهم الجماعةُ يتحدثونَ بالليلِ، مأخوذٌ منَ السَمَرِ وهوَ ظلُّ القمرِ، ومنهُ سمرةُ اللونِ. وكانوا يتحدثونَ حولَ الكعبةِ في سمرِ القمرِ، فسميَ التحدثُ بهِ.

وَ ﴿تَهْجُرُونَ﴾ قرئَ بضمِّ التاءِ وكسرِ الجيمِ منْ أهجرَ، إذا نطقَ بالفحشِ، وبنصبِ التاءِ وضمِّ الجيمِ منْ هجرَ المريضُ إذا هذى، ومعناه: يتكلمون بهوس وسيء منَ القولِ في النبيِّ ﷺ وفي القرآنِ.

الثانية: روى سعيدُ بنُ جبيرٍ عنِ ابنِ عباسٍ قالَ: إنما كرهَ السمرُ حينَ نزلتْ هذهِ الآيةُ: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾، يعني أنَّ اللهَ تعالى ذمَّ أقوامًا يسمرونَ في غير طاعةِ اللهِ تعالى، إما في هذيانٍ وإما في إذاية. وكانَ الأعمشُ يقولُ: إذا رأيتَ الشيخَ ولمْ يكتبِ الحديثَ فاصفعهُ فإنهُ منْ شيوخِ القمرِ، يعني يجتمعونَ في ليالي القمرِ فيتحدثونَ بأيامِ الخلفاءِ والأمراءِ ولا يحسنُ أحدهمْ يتوضأُ للصلاةِ.

الثالثة: روى مسلمٌ عنْ أبي برزةَ قالَ: كانَ النبيُّ ﷺ يؤخرُ العشاءَ إلى ثلثِ الليلِ ويكرهُ النومَ قبلها والحديثَ بعدها. قالَ العلماءُ: أما الكراهيةُ للنوم قبلها فلئلا يعرضها للفواتِ عنْ كلِّ وقتها أوْ أفضلِ وقتها، وكراهية النومَ قبلها هوَ مذهبُ مالكٍ. ورخصَ فيهِ بعضهم وهوَ مذهبُ الكوفيينَ. وشرطَ بعضهمْ أنْ يجعلَ معهُ منْ يوقظهُ للصلاةِ، وأما كراهيةُ الحديثِ بعدها فلأنَّ الصلاةَ قدْ كفرتْ خطاياهُ فينامُ على سلامةٍ، وقدْ ختمَ الكتابُ صحيفتهُ بالعبادةِ، فإنْ هوَ سمرَ وتحدثَ فيملؤها بالهوسِ ويجعلُ خاتمتها اللغوَ والباطلَ، وليسَ هذا منْ فعلِ المؤمنينَ.

وأيضًا فإنَّ السمرَ في الحديثِ مظنةُ غلبةِ النومِ آخرَ الليلِ فينامُ عنْ قيامِ آخرِ الليلِ، وربما ينامُ عنْ صلاةِ الصبحِ. وقدْ قيلَ: إنَّ الحكمةَ في كراهيةِ الحديثِ بعدها إنما هوَ لما أنَّ اللهَ تعالى جعلَ الليلَ سكنًا، أيْ يسكنُ فيهِ، فإذا تحدثَ الإنسانُ فيهِ فقدْ جعلهُ في النهارِ الذي هوَ متصرفُ المعاشِ، فكأنهُ قصدَ إلى مخالفةِ حكمةِ اللهِ تعالى التي أجرى عليها وجودهُ فقالَ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾.

الرابعة: هذهِ الكراهةُ إنما تختصُّ بما لا يكونُ منْ قبيلِ القربِ والأذكارِ وتعليمِ العلمِ، ومسامرةِ الأهلِ بالعلمِ وبتعليمِ المصالحِ وما شابهَ ذلكَ، فقدْ وردَ عنِ النبيِّ ﷺ وعنْ السلفِ ما يدلُّ على جوازِ ذلكَ، بلْ على ندبيتهِ. وقدْ قالَ البخاريُّ: «بابُ السمرِ في الفقهِ والخيرِ بعدَ العشاءِ» وقالَ أنسٌ: انتظرنا رسولُ اللهِ ﷺ ذاتَ ليلةٍ حتى كانَ شطرُ الليلِ فجاءَ فصلى ثمَّ خطبنا فقالَ: «إنَّ الناسَ قدْ صلوا وإنكمْ لمْ تزالوا في صلاةٍ ما انتظرتمُ الصلاةَ». قالَ الحسنُ: فإنَّ القومَ لا يزالونَ في خيرٍ ما انتظروا الخيرَ.

وقالَ: «بابُ السمرِ معَ الضيفِ والأهلِ» وذكرَ حديثَ أبي بكرِ بنِ عبدِ الرحمنِ أنَّ أصحابَ الصفةِ كانوا فقراءَ... الحديثَ. أخرجهُ مسلمٌ أيضًا. وقدْ جاءَ في حراسةِ الثغورِ وحفظِ العساكرِ بالليلِ منَ الثوابِ الجزيلِ والأجرِ العظيمِ ما هوَ مشهورٌ في الأخبارِ.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ يعني القرآنَ كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، وسميَ القرآنُ قولًا لأنهمْ خوطبوا بهِ ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ فأنكروهُ وأعرضوا عنهُ. وقيل: ﴿أَمْ﴾ بمعنى بلْ، أيْ بلْ جاءهمْ ما لا عهدَ لآبائهمْ بهِ، فلذلك أنكروه وتركوا التدبر له، وقيل: المعنى أمْ جاءهمْ أمانٌ من العذاب، وهو شيء لم يأت آباءهم الأولين فتركوا الأعز.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

هذا تستعملهُ العربُ على معنى التوقيفِ والتقبيحِ، قالَ سفيانُ: بلى! قدعرفوه ولكنهم حسدوه!

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ وليسَ هوَ هكذا! لزوالِ أماراتِ الجنونِ عنهُ ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ يعني القرآنَ والتوحيدَ الحقَّ والدينَ الحقَّ ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ أيْ كلهمْ ﴿لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾ حسدًا وبغيًا وتقليدًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ﴾ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ هنا هوَ اللهُ سبحانهُ وتعالى، قالهُ الأكثرونَ، وتقديرهُ في العربيةِ: ولوِ اتبعَ صاحبُ الحقِّ، وقدْ قيلَ: هوَ مجازٌ، أيْ لوْ وافقَ الحقُّ أهواءهمْ، لفسدت السموات والأرضُ؛ لأنَّ شهواتِ الناسِ تختلفُ وتتضادُّ، وقيل: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ القرآنُ، أيْ لوْ نزلَ القرآنُ بما يحبونَ لفسدت السموات والأرضُ ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ إشارةٌ إلى منْ يعقلُ من ملائكة السموات وإنسِ الأرضِ وجنها، فعلى هذا ما يكونُ منَ الفساد يعود على من في السموات منَ الملائكةِ بأنْ جعلتْ أربابًا وهيَ مربوبةٌ، وعبدتْ وهيَ مستعبدةٌ. وفسادُ الإنسِ يكونُ على وجهينِ: **أحدهما**- باتباعِ الهوى، وذلكَ مهلكٌ. **الثاني**- بعبادةِ غيرِ اللهِ، وذلكَ كفرٌ. وأما فسادُ ما عدا ذلكَ فيكونُ على وجهِ التبعِ، لأنهمْ مدبرونَ بذوي العقولِ فعادَ فسادُ المدبِرينَ عليهمْ.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ أيْ بما فيهِ شرفهمْ وعزهمْ، وقيل: ببيانِ الحقِّ وذكرِ ما لهمْ بهِ حاجةٌ منْ أمرِ الدين ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾ أي أجرا على ما جئتهم به ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ: «خَرَاجًا» بألفٍ. الباقونَ بغيرِ ألفٍ. وكلهمْ قدْ قرأوا ﴿فَخَرَاجُ﴾ بالألفِ إلا ابنَ عامرٍ قرأ بغيرِ الألفِ. والمعنى: أمْ تسألهمْ رزقًا فرزقُ ربكَ خيرٌ ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾ ليسَ يقدرُ أحدٌ أنْ يرزقَ مثلَ رزقهِ، ولا يُنعمَ مثلَ إنعامهِ. وقيل: أيْ ما يؤتيكَ اللهُ منَ الأجرِ على طاعتكَ لهُ والدعاءِ إليهِ خيرٌ منْ عرضِ الدنيا، وقدْ عرضوا عليكَ أموالهمْ حتى تكونَ كأغنى رجلٍ منْ قريشٍ فلمْ تجبهمْ إلى ذلكَ، والخرجُ والخراجُ واحدٌ، إلا أنَّ اختلافَ الكلامِ أحسنُ، وقيل: الخرجُ الجعلُ، والخراجُ العطاءُ.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ أيْ إلى دينٍ قويمٍ، سميَ الدينُ طريقًا لأنهُ يؤدي إلى الجنةِ ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أيْ بالبعثِ ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ حتى يصيروا إلى النارِ.

قوله تعالى: ﴿۞وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ أيْ لوْ رددناهمْ إلى الدنيا ولمْ ندخلهمُ النارَ وامتحناهمْ ﴿لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾ في معصيتهم ﴿يَعْمَهُونَ ٧٥﴾ يترددون. وقيل: ﴿۞وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ﴾ يعني في الدنيا ﴿وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ أيْ منْ قحطٍ وجوعٍ ﴿لَّلَجُّواْ﴾ أيْ لتمادوا ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾ وضلالتهم وتجاوزهم الحد ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتذبذبون ويخبطون.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ بالقتلِ والجوعِ ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ﴾ أيْ ما خضعوا ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ٧٦﴾ أيْ ما يخشعونَ للهِ عزَّ وجلَّ في الشدائدِ تصيبهمْ.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ منْ أبوابِ جهنمَ، وقيل: هوَ قتلهمْ بالسيفِ يومَ بدرٍ. وقيل: هوَ القحطُ الذي أصابهمْ ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ٧٧﴾ أي يأيسون متحيرون لا يدرون ما يصنعون.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ عرّفهمْ كثرةَ نعمهِ وكمالَ قدرتهِ ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ٧٨﴾ أيْ ما تشكرونَ إلا شكرًا قليلا. وقيل: أي لا تشكرون البتة.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أنشأ كم وبثكمْ وخلقكمْ ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ٧٩﴾ أيْ تجمعونَ للجزاءِ.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ تكررهما يومًا بعدَ ليلةٍ وليلةً بعدَ يوم، وقيل: نقصانُ أحدهما وزيادةُ الآخرِ. وقيل: اختلافهما في النورِ والظلمةِ، ويحتملُ: اختلافُ ما مضى فيهما منْ سعادةٍ وشقاءٍ وضلالٍ وهدى ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٨٠﴾ كنهَ قدرتهِ وربوبيتهِ ووحدانيتهِ، ثمَّ عيَّرهمْ بقولهمْ وأخبرَ عنهمْ أنهمْ ﴿قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ٨١ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ٨٢﴾ هذا لا يكونُ ولا يتصورُ ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ﴾ أيْ منْ قبلِ مجيءِ محمدٍ ﷺ، فلمْ نرَ لهُ حقيقةً ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أيْ ما هذا ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٨٣﴾ أيْ أباطيلهمْ وترهاتهمْ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿قُل﴾ يا محمدُ جوابًا لهمْ عما قالوهُ ﴿لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ يخبرُ بربوبيتهِ ووحدانيتهِ وملكهِ الذي لا يزولُ، وقدرتهِ التي لا تحولُ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾، فَ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ ولا بدَّ لهمْ منْ ذلكَ. فَ ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ أيْ أفلا تتعظونَ وتعلمونَ أنَّ منْ قدرَ على خلقِ ذلكَ ابتداءً فهوَ على إحياءِ الموتى بعدَ موتهمْ قادرٌ ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ يريدُ أفلا تخافونَ حيثُ تجعلونَ لي ما تكرهونَ، زعمتمْ أنَّ الملائكةَ بناتي، وكرهتمْ لأنفسكمُ البناتَ ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ خزائنُ كل شيء ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أيْ يمنعُ ولا يمنعُ منهُ. قيلَ: هذا في الدنيا، وقيل: هذا في الآخرةِ ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ تصرفونَ عنْ طاعتهِ وتوحيدهِ، والسحرُ هوَ التخييلُ. وكلُّ هذا احتجاجٌ على العربِ المقرينَ بالصانعِ.

وقرأَ أبو عمرو: «سيقولون الله» في الموضعينِ الأخيرينِ، الباقونَ: ﴿لِلَّهِ﴾، ولا خلافَ في الأولِ أنهُ ﴿لِلَّهِ﴾، لأنهُ جوابٌ لِ ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ فلما تقدمتِ اللامُ في ﴿لِمَنِ﴾ رجعت في الجواب. ولا خلاف أنه مكتوبٌ في جميع المصاحفِ بغيرِ ألفٍ. وأما من قرأ: «سيقولون الله» فلأنَّ السؤالَ بغيرِ لامٍ فجاءَ الجوابُ على لفظهِ، وجاءَ في الأولِ ﴿لِلَّهِ﴾ لما كانَ السؤالُ باللامِ. وأما منْ قرأَ: ﴿لِلَّهِ﴾ باللامِ في الأخيرينِ وليسَ في السؤالِ لامٌ فلأنَّ معنى ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾: قل لمن السموات السبعُ وربُّ العرشِ العظيمِ. فكانَ الجوابُ ﴿لِلَّهِ﴾، حينَ قدرتِ اللامُ في السؤالِ. وعلةُ الثالثة كعلةِ الثانيةِ.

ودلتْ هذهِ الآياتُ على جوازِ جدالِ الكفارِ وإقامةِ الحجةِ عليهمْ، ونبهت على أنَّ منِ ابتدأَ بالخلقِ والاختراعِ والإيجادِ والإبداعِ هو المستحق للألوهية والعبادة.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أيْ بالقولِ الصدقِ، لا ما تقولهُ الكفارُ منْ إثباتِ الشريكِ ونفيِ البعثِ ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾ أنَّ الملائكةَ بنات الله. فقال الله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ ﴿مِن﴾ صلةٍ ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ﴾ ﴿مِن﴾ زائدةٌ، والتقديرُ: ما اتخذَ اللهُ ولدًا كما زعمتمْ، ولا كانَ معهُ إلهٌ فيما خلقَ. وفي الكلامِ حذفٌ، والمعنى: لوْ كانتْ

معهُ آلهةٌ لا نفرد كلُّ إلهٍ بخلقهِ ﴿وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ أيْ ولغالبَ وطلبَ القويُّ الضعيفَ كالعادةِ بينَ الملوكِ، وكانَ الضعيفُ المغلوبُ لا يستحقُّ الإلهيةَ. وهذا الذي يدلُّ على نفيِ الشريكِ يدلُّ على نفيِ الولدِ أيضًا، لأنَّ الولدَ ينازعُ الأبَ في الملكِ منازعةَ الشريكِ.

﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ٩١﴾ تنزيهًا لهُ عنِ الولدِ والشريكِ ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٩٢﴾ تنزيهٌ وتقديسٌ. وقرأَ نافعٌ وأبو بكرٍ وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿عَٰلِمُ﴾ بالرفعِ على الاستئنافِ، أيْ هوَ عالمُ الغيبِ. الباقونَ بالجرِّ على الصفةِ للهِ. وروى رويسٌ عنْ يعقوبَ: «عالِمِ» إذا وصلَ خفضًا. وَ ﴿عَٰلِمُ﴾ إذا ابتدأَ رفعًا.

قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ٩٣ رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٩٤﴾

علّمهُ ما يدعو بهِ، أيْ قلْ ربِّ، أيْ يا ربِّ إنْ أريتني ما يوعدونَ منَ العذابِ ﴿فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٩٤﴾ أيْ في نزولِ العذابِ بهمْ، بلْ أخرجني منهمْ.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَٰدِرُونَ ٩٥﴾

نبهَ على أنَّ خلافَ المعلومِ مقدورٌ، وقدْ أراهُ اللهُ تعالى ذلكَ فيهمْ بالجوعِ والسيفِ، ونجاهُ اللهُ ومنْ آمنَ بهِ منْ ذلكَ.

قوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ﴾ أمرٌ بالصفحِ ومكارمِ الأخلاقِ، فما كانَ منها لهذهِ الأمةِ فيما بينهمْ فهوَ محكمٌ باقٍ في الأمةِ أبدًا. وما كانَ فيها من معنى موادعةِ الكفارِ وتركِ التعرضِ لهمْ والصفحِ عنْ أمورهمْ فمنسوخٌ بالقتالِ ﴿نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ٩٦﴾ أيْ منَ الشركِ والتكذيبِ. وهذا يقتضي أنها آية موادعة، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ٩٨﴾. فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧﴾ نزغاتِ الشياطينِ الشاغلةِ عنْ ذكرِ

اللهِ تعالى. وفي الحديث: كان يتعوذ من همز الشيطان ولمزهِ وهمسهِ، قيل: الهمزُ كلامٌ منْ وراءِ القفا، واللمزُ مواجهةً.

الثانية: أمرَ اللهُ تعالى نبيهُ ﷺ والمؤمنينَ بالتعوذِ منَ الشيطانِ في همزاتهِ، وهيَ سوراتُ الغضبِ التي لا يملكُ الإنسان فيها نفسه، وكأنها هيَ التي كانتْ تصيبُ المؤمنينَ معَ الكفارِ فتقعُ المحادةُ فلذلكَ اتصلتْ بهذهِ الآيةِ.

وفي صحيح مسلمٍ عنْ جابرٍ قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إنَّ الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه حتى يحضر عندَ طعامهِ فإذا سقطتْ منْ أحدكمُ اللقمةُ فليمطْ ما كانَ بها منْ أذى ثمَّ ليأكلها ولا يدعها للشيطانِ فإذا فرغَ فليلعقْ أصابعهُ فإنهُ لا يدري في أيِّ طعامهِ البركة».

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾ عادَ الكلامُ إلى ذكرِ المشركينَ، كيْ يعملَ صالحًا فيما تركَ. وقدْ يكونُ القولُ في النفسِ، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾. فأما قولهُ ﴿ٱرْجِعُونِ﴾ وهوَ مخاطبُ ربهِ عزَّ وجلَّ ولمْ يقلْ: «ارجعني» جاءَ على تعظيمِ الذكرِ للمخاطبِ. وقيل: استغاثوا باللهِ عزَّ وجلَّ أولا، فقال قائلهم: رب، ثمَّ رجعَ إلى مخاطبةِ الملائكةِ فقالَ: ارجعونِ إلى الدنيا.

قلتُ: ليسَ سؤالُ الرجعةِ مختصًا بالكافرِ فقدْ يسألها المؤمنُ كما في آخرِ سورةِ المنافقينَ على ما يأتي.

ودلتِ الآيةُ على أنَّ أحدًا لا يموتُ حتى يعرف اضطرارا أهو من أولياء اللهِ أمْ منْ أعداءِ اللهِ، ولولا ذلكَ لما سألَ الرجعةَ، فيعلموا ذلكَ قبلَ نزولِ الموتِ وذواقهِ ﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾ يريدُ أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ أيْ فيما ضيعتُ وتركتُ العملَ بهِ منَ الطاعاتِ. وقيل: ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ منَ المالِ فأتصدقَ. وَ «لعلَّ» تتضمنُ ترددًا، وهذا الذي يسألُ الرجعةَ قدِ استيقنَ العذابَ، وهوَ يوطنُ نفسهُ على العمل الصالح قطعًا منْ غيرِ ترددٍ. فالترددُ يرجعُ إما إلى ردهِ إلى الدنيا، وإما إلى التوفيقِ، أيْ أعملُ صالحًا إنْ وفقتني، إذْ ليسَ على قطعٍ منْ وجودِ القدرةِ والتوفيقِ لوْ ردَّ إلى الدنيا ﴿كَلَّآ﴾ فلا يجابُ إلى الرجوعِ إلى

الدنيا، بلْ هوَ كلامٌ يطيحُ في أدراجِ الريحِ. وقيل: لوْ أجيبَ إلى ما يطلبُ لما وفّى بما يقولُ، كما قالَ: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾. وقيل: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾ ترجعُ إلى اللهِ تعالى، أيْ لا خُلفَ في خبرهِ، وقدْ أخبرَ أنهُ لنْ يؤخرَ نفسًا إذا جاءَ أجلها، وأخبرَ بأنَّ هذا الكافرَ لا يؤمنُ ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ﴾ أيْ بينَ أيديهمْ حاجزٌ بينَ الموتِ والبعثِ، وقيل: بينَ الموتِ والرجوعِ إلى الدنيا. وقيل: هوَ الأجلُ ما بينَ النفختينِ، وبينهما أربعونَ سنةً. وهذهِ الأقوالُ متقاربةٌ. وكلُّ حاجزٍ بينَ شيئينِ فهوَ برزخٌ.

وأضيفَ ﴿يَوۡمَ﴾ إلى ﴿يُبۡعَثُونَ ١٠٠﴾ لأنهُ ظرفُ زمانٍ، والمرادُ بالإضافةِ المصدر.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ النفخةُ الثانيةُ ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾ لا يفتخرونَ بالأنسابِ في الآخرةِ كما يفتخرونَ بها في الدنيا، ولا يتساءلونَ فيها كما يتساءلونَ في الدنيا، منْ أيِّ قبيلةٍ أنتَ ولا منْ أيِّ نسبٍ، ولا يتعارفونَ لهولِ ما أذهلهمْ.

وأما قولهُ: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ فإنهمْ إذا دخلوا الجنةَ تساءلوا.

قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٢ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣﴾ تقدم الكلام فيهما.

قوله تعالى: ﴿تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ لفحتهُ النارُ أحرقتهُ ﴿وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤﴾ عابسونَ.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾ قراءةُ أهلِ المدينةِ وأبي عمرو وعاصمٍ ﴿شِقۡوَتُنَا﴾ وقرأَ الكوفيونَ إلا عاصمًا: «شَقَاوَتُنَا» أي: غلبتْ علينا لذاتنا وأهواؤنا، فسمى اللذاتِ والأهواءَ شقوةً، لأنهما يؤديانِ إليها، كما قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ﴾، لأنَّ ذلكَ يؤديهمْ إلى النارِ. وقيل: ما سبقَ في علمكَ وكتبَ علينا في أمِّ الكتابِ منَ الشقاوةِ ﴿وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ١٠٦﴾ عنِ الهدى. وليسَ هذا اعتذارٌ منهمْ إنما هوَ إقرارٌ، ويدلُّ على ذلكَ قولهمْ: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا

﴿فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧﴾ طلبوا الرجعةَ إلى الدنيا كما طلبوها عندَ الموتِ. ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى الكفرِ ﴿فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ لأنفسنا بالعودِ إليهِ ﴿اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾ أيِ ابعدوا في جهنمَ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ الآيةَ. بلالٌ وخبابٌ وصهيبٌ، وغيرهم منْ ضعفاءِ المسلمينَ، كانَ أبو جهلٍ وأصحابهُ يهزءونَ بهمْ ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا﴾ بالضمِّ قراءة نافع وحمزة والكسائي ها هنا وفي «ص». وكسرَ الباقونَ، لغتانِ بمعنى واحدٍ، وقيل: بالكسرَ سخرية بالقول، وبالضم بمعنى التسخير والاستبعاد بالفعلِ ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ اشتغلتمْ بالاستهزاءِ بهمْ عنْ ذكري ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ١١٠﴾ استهزاءً بهمْ، وأضافَ الإنساءَ إلى المؤمنينَ لأنهمْ كانوا سببًا لاشتغالهمْ عنْ ذكرهِ، وتعدي شؤم استهزائهمْ بالمؤمنينَ إلى استيلاءِ الكفرِ على قلوبهمْ ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ على أذاكمْ، وعلى طاعتي ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ١١١﴾ قرأ حمزةُ والكسائيُّ بكسرِ الهمزةِ على ابتداءِ المدحِ منَ اللهِ تعالى لهمْ، وفتحَ الباقونَ، أيْ لأنهمْ همُ الفائزونَ.

قلتُ: وينظرُ إلى معنى هذا قولهُ تعالى في آخرِ المطففينَ: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ إلى آخرِ السورةِ.

ويستفادُ منْ هذا: التحذيرُ منَ السخريةِ والاستهزاءِ بالضعفاءِ والمساكينِ والاحتقارِ لهمْ، والإزراءِ عليهمْ والاشتغالِ بهمْ فيما لا يغني، وأنَّ ذلكَ مبعدٌ منَ اللهِ عز وجل.

قوله تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني في القبورِ. وقيل: هوَ سؤالٌ لهمْ عنْ مدةِ حياتهمْ في الدنيا. وهذا السؤالُ للمشركينَ في عرصاتِ القيامةِ أوْ في النارِ ﴿عَدَدَ سِنِينَ ١١٢﴾ بفتحِ النونِ على أنهُ جمعٌ مسلمٌ ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أنساهمْ شدةَ العذابِ مدةَ مكثهمْ في القبورِ.

﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ١١٣﴾ أيْ سلِ الحُسّابَ الذينَ يعرفونَ ذلكَ فإنا قدْ نسيناهُ، أوْ فاسألِ الملائكةَ الذينَ كانوا معنا في الدنيا، وقرأ ابنُ كثيرٍ وحمزةُ والكسائيُّ: «قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ» على الأمرِ للملكِ ليسألهمْ يومَ البعثِ عنْ قدرِ مكثهمْ في الدنيا، الباقونَ: ﴿قَٰلَ

كَمْ﴾ على الخبرِ، أيْ قالَ اللهُ تعالى لهمْ، أوْ قالتِ الملائكةُ لهمْ كمْ لبثتم.

وقرأ حمزة والكسائي أيضًا: ﴿قل إنْ لبثتمْ إلا قليلًا﴾ الباقونَ: ﴿قَالَ﴾ على الخبرِ، على ما ذكر من التأويل الأولِ، أيْ ما لبثتمْ في الأرضِ إلا قليلًا، وذلكَ أنَّ مكثهمْ في القبورِ وإنْ طالَ كانَ متناهيًا. وقيل: هوَ قليلٌ بالنسبةِ إلى مكثهمْ في النارِ، لأنهُ لا نهايةَ له ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ ذلك.

قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ أيْ مهملينَ كما خلقتِ البهائمُ لا ثوابَ لها ولا عقابَ عليها، مثلُ قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ فتجازونَ بأعمالكمْ. قرأ حمزةُ والكسائيُّ «تَرْجِعُونَ» بفتحِ التاءِ وكسرِ الجيمِ من الرجوع.

قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أيْ تنزهَ وتقدسَ اللهُ الملكُ الحقُّ عنِ الأولادِ والشركاءِ والأندادِ، وعنْ أنْ يخلقَ شيئًا عبثًا أوْ سفهًا، لأنهُ الحكيمُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ ليسَ في القرآنِ غيرها، ورويَ عنِ ابنِ كثيرٍ «الْكَرِيمُ» بالرفعِ نعتا لله.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ أيْ لا حجةَ لهُ عليهِ ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ أيْ هوَ يعاقبهُ ويحاسبه. ﴿إِنَّهُۥ﴾ الهاءُ ضميرُ الأمرِ والشأنِ ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ منْ كذبَ وجحدَ ما جئتُ بهِ وكفرَ نعمتي.

ثمَّ أمرَ نبيهُ ﷺ بالاستغفارِ لتقتديَ بهِ الأمةُ. وقيل: أمرهُ بالاستغفارِ لأمتهِ. ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴿١١٨﴾﴾.

تم تفسير سورة المؤمنون والحمد لله.

سورة النور

مدنيةٌ بالإجماعِ

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ

قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ①﴾

مقصودُ هذهِ السورةِ ذكرُ أحكامِ العفافِ والسترِ. وكتبَ عمرُ رضي الله عنه إلى أهلِ الكوفةِ: علموا نساءكمْ سورةَ النورِ.

﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ قرئَ بتخفيفِ الراءِ، أيْ فرضنا عليكمْ وعلى منْ بعدكمْ ما فيها منَ الأحكامِ. وبالتشديدِ: أيْ أنزلنا فيها فرائضَ مختلفةً. وقرأَ أبو عمرو: «وَفَرَّضْنَاهَا» بالتشديدِ أيْ قطعناها في الإنزالِ نجمًا نجمًا. والفرضُ القطعُ، ومنهُ فرائضُ الميراثِ وفرضُ النفقةِ. والسورةُ في اللغةِ اسمٌ للمنزلةِ الشريفةِ، ولذلكَ سميتِ السورةُ منَ القرآنِ سورةً. قالَ زهيرٌ:

ألَمْ تَرَ أنَّ اللهَ أعطاكَ سورةً ... ترى كلَّ ملكٍ دونها يتذبذبُ

وقرئَ: ﴿سُورَةٌ﴾ بالرفعِ على أنها مبتدأٌ وخبرها ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾. وقيل: خبرٌ أيْ هذهِ سورةٌ لأنها نكرةٌ ولا يبتدأُ بالنكرةِ في كلِّ موضعٍ، وقرئَ «سُورَةً» بالنصبِ، على تقديرِ أنزلنا سورةً أنزلناها...

قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ②﴾، فيهِ إحدى وعشرونَ مسألةً:

الأولى: قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ الزنى وطء الرجلِ امرأةً في فرجها منْ غيرِ نكاحٍ ولا شبهةِ نكاحٍ بمطاوعتها، وقدْ مضى الكلامُ في حدِّ الزنى وحقيقتهِ وما للعلماءِ في ذلكَ. وهذهِ الآيةُ ناسخةٌ لآيةِ الحبسِ وآيةِ الأذى اللتينِ في سورةِ النساءِ باتفاقٍ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿مِاْئَةَ جَلْدَةٍۖ﴾ هذا حدُّ الزاني الحرِّ البالغِ البكرِ، وكذلكَ الزانيةُ البالغةُ البكرُ الحرةُ. وثبتَ بالسنةِ تغريبُ عامٍّ، على الخلافِ في ذلكَ. وأما المملوكاتُ فالواجبُ خمسونَ جلدةً، لقولِهِ تعالى: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِۚ﴾ وهذا في الأمةِ، ثمَّ العبدُ في معناها. وأما المحصنُ منَ الأحرارِ فعليهِ الرجمُ دونَ الجلدِ. ومنَ العلماءِ منْ يقولُ: يجلدُ مائةً ثمَّ يرجمُ.

الثالثة: قرأَ الجمهورُ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ بالرفعِ، والخبرُ في قولِهِ: ﴿فَٱجْلِدُواْ﴾.

الرابعة: ذكرَ اللهُ سبحانهُ وتعالى الذكرَ والأنثى، والزاني كانَ يكفي منهما، فقيلَ: ذكرهما للتأكيدِ كما قالَ تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾. ويحتملُ أنْ يكونَ ذكرهما هنا لئلا يظنَّ ظانٌّ أنَّ الرجلَ لما كانَ هوَ الواطئَ والمرأةُ محلٌّ ليستْ بواطئةٍ فلا يجبُ عليها حدٌّ، فذكرها رفعًا لهذا الإشكالِ الذي أوقعَ جماعةً منَ العلماءِ منهمُ الشافعيُّ. فقالوا: لا كفارة على المرأة في الوطء في رمضانَ، لأنهُ قالَ: جامعتُ أهلي في نهارِ رمضانَ، فقالَ لهُ النبيُّ ﷺ: كفِّر. فأمره بالكفارة، والمرأة ليس بمجامعةٍ ولا واطئةٍ.

الخامسة: قدمتِ ﴿ٱلزَّانِيَةُ﴾ في الآيةِ منْ حيثُ كانَ في ذلكَ الزمانِ زنى النساء فاش، وقيل: لأن الزنى في النساءِ أعرُّ وهوَ لأجلِ الحبلِ أضرُّ، وقيل: لأنَّ الشهوةَ في المرأةِ أكثرُ وعليها أغلبُ، فصدرها تغليظًا لتردعَ شهوتها، وإنْ كانَ قدْ رُكِّبَ فيها حياءٌ لكنها إذا زنتْ ذهبَ الحياءُ كلهُ.

السادسة: الألفُ واللامُ في قولِهِ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ للجنسِ، وذلكَ يعطي أنها عامةٌ في جميعِ الزناةِ. ومنْ قالَ بالجلدِ معَ الرجمِ قالَ: السنةُ جاءتْ بزيادةِ حكمٍ فيقامُ معَ الجلدِ، وقالَ الجمهورُ: هيَ خاصةٌ في البكرينِ، واستدلوا على أنها غيرُ عامة بخروج العبيد والإماء منها.

السابعة: نص الله سبحانه وتعالى على ما يجبُ على الزانيينِ إذا شهدَ بذلكَ عليهما على ما يأتي، وأجمعَ العلماءُ على القولِ بهِ. واختلفوا فيما يجبُ على الرجلِ يوجدُ معَ المرأةِ في ثوبٍ واحدٍ، فقيل: يؤدبانِ. وبهِ قالَ مالكٌ وأحمدُ، على قدرِ مذاهبهمْ في الأدبِ. قالَ ابنُ

المنذرِ: والأكثرُ ممنْ رأيناهُ يرى على منْ وجدَ على هذهِ الحالِ الأدبَ.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿فَٱجۡلِدُواْ﴾ دخلتِ الفاءُ لأنهُ موضعُ أمرٍ والأمرُ مضارعٌ للشرطِ. وقيل: فيهِ معنى الجزاءِ، أيْ إنْ زنى زانٍ فافعلوا بهِ كذا، ولهذا دخلتِ الفاءُ، وهكذا ﴿ٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾.

التاسعة: لا خلافَ أنَّ المخاطبَ بهذا الأمرِ الإمامُ ومنْ نابَ منابهُ. وزادَ مالكٌ والشافعيُّ: السادةُ في العبيدِ. قالَ الشافعيُّ: في كلّ جلد وقطع. وقالَ مالكٌ: في الجلدِ دونَ القطعِ. **وقيل**: الخطابُ للمسلمينَ، لأنَّ إقامةَ مراسمِ الدينِ واجبةٌ على المسلمينَ، ثمَّ الإمامُ ينوبُ عنهمْ، إذْ لا يمكنهمُ الاجتماعُ على إقامةِ الحدودِ.

العاشرة: أجمعَ العلماءُ على أنَّ الجلدَ بالسوطِ يجبُ، والسوطُ الذي يجبُ أنْ يجلدَ بهِ يكونُ سوطًا بينَ سوطينِ. لا شديدًا ولا لينًا.

الحادية عشرة: اختلفَ العلماءُ في تجريد المجلود في الزنى، فقالَ مالكٌ وأبو حنيفةَ وغيرهما: يجردُ، ويتركُ على المرأةِ ما يسترها دونَ ما يقيها الضربَ. وقالَ الأوزاعيُّ: الإمامُ مخيرٌ إنْ شاءَ جردَ وإنْ شاءَ تركَ.

الثانية عشرة: اختلفَ العلماءُ في كيفيةِ ضربِ الرجالِ والنساءِ، فقالَ مالكٌ: الرجلُ والمرأةُ في الحدودِ كلها سواءٌ، لا يقامُ واحدٌ منهما ولا يجزي عندهُ إلا في الظهرِ. وأصحابُ الرأيِ والشافعيُّ يرونَ أنْ يجلدَ الرجلُ وهوَ واقفٌ، وقال أبو حنيفةَ والشافعيُّ: الضربُ في الحدودِ كلها وفي التعزيرِ مجردًا قائمًا غيرَ ممدودٍ، إلا حدَّ القذفِ فإنهُ يضربُ وعليهِ ثيابهُ. وحكي عنْ مالكٍ. وينزعُ عنهُ الحشوُ والفروُ. وقالَ الشافعيُّ: إنْ كانَ مَدُّهُ صلاحًا مُدَّ.

الثالثة عشرة: - واختلفوا في المواضعِ التي تضربُ منَ الإنسانِ في الحدودِ، فقالَ مالكٌ: الحدودُ كلها لا تضربُ إلا في الظهرِ، وكذلكَ التعزيرُ. وقالَ الشافعيُّ وأصحابهُ: يتقى الوجهُ والفرجُ وتضربُ سائرُ الأعضاءِ، قالَ ابنُ عطيةَ: والإجماعُ في تسليمِ الوجهِ والعورةِ والمقاتلِ. واختلفوا في ضربِ الرأسِ فقالَ الجمهورُ: يتقى الرأسُ. وقالَ أبو يوسفَ: يضربُ الرأسُ. ورويَ عنْ عمرَ وابنهِ فقالا: يضربُ الرأس. وضرب عمر رضى الله عنه صبيغا في

رأسِهِ وكانَ تعزيرًا لا حدًا. ومنْ حجةِ مالكٍ: ما أدركَ عليهِ الناسَ، وقولهُ ﷺ: «البينةُ وإلا حدٌّ في ظهركَ» وسيأتي.

الرابعة عشرة: الضربُ الذي يجبُ هوَ أنْ يكونَ مؤلمًا لا يجرحُ ولا يبضعُ، ولا يخرجُ الضاربُ يدهُ منْ تحتِ إبطهِ. وبهِ قالَ الجمهورُ.

الخامسة عشرة: اختلفَ العلماءُ في أشدِّ الحدودِ ضربًا فقال مالك: الضربُ في الحدودِ كلها سواءٌ ضرب غير مبرح، ضرب بين ضربين. وهو قولُ الشافعيِّ رضي الله عنه. وقالَ أبو حنيفة: التعزير أشد الضرب، وضرب الزنى أشدُّ منَ الضربِ في الخمرِ، وضربُ الشاربِ أشدُّ منْ ضربِ القذفِ. احتجَّ مالكٌ بورودِ التوقيفِ على عدد الجلدات، ولم يرد في شيء منها تخفيفٌ ولا تثقيلٌ عمنْ يجبُ التسليمُ لهُ. احتجَّ أبو حنيفةَ بفعلِ عمرَ، فإنهُ ضربَ في التعزيرِ ضربًا أشدَّ منهُ في الزنى.

السادسة عشرة: الحدُّ الذي أوجب الله في الزنى والخمرِ والقذفِ وغيرِ ذلكَ ينبغي أنْ يقامَ بينَ أيدي الحكامِ، ولا يقيمهُ إلا فضلاءُ الناسِ وخيارهمْ يختارهمُ الإمامُ لذلكَ. وكذلكَ كانتِ الصحابة تفعل كلما وقع لهم شيء منْ ذلكَ، رضي الله عنهم. وسببُ ذلكَ أنه قيامٌ بقاعدةٍ شرعيةٍ وقربةٍ تعبديةٍ، تجبُ المحافظةُ على فعلها وقدرها ومحلها وحالها، بحيثُ لا يتعدى شيء منْ شروطها ولا أحكامها، فإنَّ دمَ المسلمِ وحرمتهُ عظيمةٌ، فيجبُ مراعاتهُ بكلِّ ما أمكنَ. روى الصحيحُ عنْ حُضينِ بنِ المنذرِ أبي ساسان قال: شهدت عثمان ابن عفانَ وأتيَ بالوليدِ قدْ صلى الصبحَ ركعتينِ ثمَّ قالَ: أزيدكمْ؟ فشهدَ عليهِ رجلانِ، أحدهما حمرانُ أنهُ شربَ الخمرَ، وشهدَ آخرُ أنهُ رآهُ يتقيأُ، فقالَ عثمانُ: إنهُ لمْ يتقيأْ حتى شربها، فقالَ: يا عليُّ قمْ فاجلدهُ، فقالَ عليٌّ: قمْ يا حسنُ فاجلدهُ. فقالَ الحسنُ: ولِّ حارها منْ تولى قارها فكأنهُ وجدَ عليهِ فقالَ: يا عبدَ اللهِ بنَ جعفرٍ، قمْ فاجلدهُ، فجلدهُ وعليٌّ يعدُّ... الحديثَ. وقدْ تقدمَ في المائدةِ. فانظرْ قولَ عثمانَ للإمامِ عليٍّ: قمْ فاجلدهُ.

السابعة عشرة: نصَّ الله تعالى على عدد الجلد في الزنى والقذفِ، وثبتَ التوقيفُ في الخمرِ على ثمانينَ منْ فعلِ عمرَ في جميعِ الصحابةِ- على ما تقدمَ في المائدةِ- فلا يجوزُ أنْ يتعدى الحدُّ في ذلكَ كلهِ.

التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ أيْ في حكمِ اللهِ، كما قالَ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ أيْ في حكمهِ. وقيل: ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ أيْ في طاعةِ اللهِ وشرعهِ فيما أمركمْ به من إقامة الحدود.

الموفية عشرين: قوله تعالى: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾ قيلَ: لا يشهدُ التعذيبَ إلا منْ لا يستحقُّ التأديبَ. قيل: لا بدَّ منْ حضور أربعة قياسا على الشهادة على الزنى، وأنَّ هذا بابٌ منهُ، وهوَ قولُ مالكٍ والشافعيِّ. وقيل: لا بدَّ منَ اثنينِ، وهذا مشهورُ قولِ مالكٍ، فرآها موضعَ شهادةٍ.

الحادية والعشرون: اختلفَ في المرادِ بحضورِ الجماعةِ. هلِ المقصودُ بها الإغلاظُ على الزناةِ والتوبيخُ بحضرةِ الناسِ، وأنَّ ذلكَ يردعُ المحدودَ، ومنْ شهدهُ وحضرهُ يتعظُ بهِ ويزدجرُ لأجلهِ، ويشيعُ حديثهُ فيعتبرُ بهِ منْ بعدهُ، أوِ الدعاءُ لهما بالتوبةِ والرحمةِ، قولانِ.

قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾، فيهِ سبعُ مسائلَ:

الأولى: اختلفَ العلماءُ في معنى هذهِ الآيةِ على أوجهٍ منَ التأويلِ منها:

الأولُ- أنْ يكون مقصد الآية تشنيع الزنى وتبشيعَ أمرِهِ، وأنهُ محرمٌ على المؤمنينَ. واتصالُ هذا المعنى بما قبلُ حسنٌ بليغٌ. ويريدُ بقولهِ: ﴿لَا يَنكِحُ﴾ أيْ لا يطأُ، فيكونُ النكاحُ بمعنى الجماعِ، فالمعنى: الزاني لا يطأُ في وقتِ زناهُ إلا زانيةً منَ المسلمينَ، أوْ منْ هيَ أخس منها منَ المشركاتِ. وقدْ رويَ عنِ ابنِ عباسٍ وأصحابهِ أنَّ النكاحَ في هذهِ الآيةِ الوطء. وأنكرَ ذلكَ الزجاجُ وقالَ: لا يعرفُ النكاحُ في كتابِ الله تعالى إلا بمعنى التزويجِ. وليسَ كما قالَ، وفي القرآنِ ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ﴾، وقدْ بينهُ النبيُّ ﷺ أنه بمعنى الوطء، وقدْ تقدمَ في البقرةِ، أيْ لا يكونُ زنى إلا بزانيةٍ، ويفيدُ أنه زنى في الجهتينِ، فهذا قولٌ.

الثاني- ما رواهُ أبو داودَ والترمذيُّ عنْ عمرو بنِ شعيبٍ عنْ أبيهِ عنْ جدهِ أن مرثد ابن أبي مرثدٍ كانَ يحملُ الأسارى بمكةَ، وكانَ بمكةَ بغيٌّ يقالُ لها «عناقُ» وكانتْ صديقتهُ، قالَ: فجئتُ النبيَّ ﷺ فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، أنكحُ عناقَ؟ قالَ: فسكتَ عني، فنزلتْ: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا

﴿يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ﴾، فدعاني فقرأها عليَّ وقالَ: «لا تنكحها». لفظُ أبي داودَ، وحديثُ الترمذيِّ أكملُ. قالَ الخطابيُّ: هذا خاصٌّ بهذهِ المرأةِ إذْ كانتْ كافرةً، فأما الزانيةُ المسلمةُ فإنَّ العقدَ عليها لا يفسخُ.

الثالثُ- المرادُ الزاني المحدودُ والزانيةُ المحدودةُ، فلا يجوزُ لزان محدود أن يتزوج إلا محدودة، وأنَّ الزانيَ إذا تزوجَ غيرَ زانيةٍ فرقَ بينهما لظاهرِ الآيةِ، وفي مصنفِ أبي داودَ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا ينكحُ الزاني المحدودُ إلا مثلهُ»، وروى أنَّ محدودًا تزوجَ غيرَ محدودةٍ ففرقَ عليٌّ رضي الله عنه بينهما. قالَ ابنُ العربيِّ: وهذا معنى لا يصحُّ نظرًا كما لمْ يثبتْ نقلًا.

ويلزمُ منه أنْ يجوزَ للزاني التزوجُ بالمشركةِ، ويجوزَ للزانيةِ أنْ تزوجَ نفسها منْ مشركٍ، وهذا في غايةِ البعدِ، وربما قالَ هؤلاءِ إن الآية منسوخة في المشرك خاص دونَ الزانيةِ.

الرابع- أنها منسوخةٌ، نسختْ هذهِ الآيةَ التي بعدها ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾، ودخلتِ الزانيةُ في أيامى المسلمينَ، وهذا القولُ عليهِ أكثرُ العلماءِ. وأهلُ الفتيا يقولونَ: إنَّ منْ زنى بامرأةٍ فلهُ أنْ يتزوجها ولغيرهِ أنْ يتزوجها.

قالَ ابنُ العربيِّ: والذي عندي أنَّ النكاحَ لا يخلو أنْ يراد به الوطء كما قالَ ابنُ عباسٍ أوِ العقدُ، فإنْ أريد به الوطء فإن معناه: لا يكون زنى إلا بزانيةٍ، وذلكَ عبارةٌ عنْ أنَّ الوطأين من الرجل والمرأة من الجهتين، ويكون تقدير الآية: وطئ الزانيةِ لا يقعُ إلا منْ زانٍ أوْ مشركٍ، وهذا يؤثرُ عنِ ابنِ عباسٍ، وهوَ معنى صحيح.

فإن قيل: فإذا زنى بالغٌ بصبيةٍ، أوْ عاقلٌ بمجنونةٍ، أوْ مستيقظٌ بنائمةٍ فإنَّ ذلكَ منْ جهةِ الرجلِ زنى، فهذا زانٍ نكحَ غيرَ زانيةٍ، فيخرجُ المرادُ عنْ بابهِ الذي تقدمَ.

قلنا: هوَ زنى منْ كلِّ جهةٍ، إلا أنَّ أحدهما سقطَ فيهِ الحدُّ والآخرُ ثبتَ فيهِ.

وإنْ أريدَ بهِ العقدُ كانَ معناهُ: أنَّ متزوجَ الزانيةِ التي قدْ زنتْ ودخلَ بها ولمْ يستبرئها يكونُ بمنزلةِ الزاني، إلا أنهُ لا حدَّ عليهِ لاختلافِ العلماءِ في ذلكَ. وأما إذا عقدَ عليها ولمْ يدخلْ بها حتى يستبرئها فذلكَ جائزٌ إجماعًا.

الثانية: في هذهِ الآيةِ دليلٌ على أنَّ التزوجَ بالزانيةِ صحيحٌ. وإذا زنتْ زوجةُ الرجلِ لمْ يفسدِ النكاحُ، وإذا زنى الزوجُ لمْ يفسدْ نكاحهُ معَ زوجتهِ، وهذا على أنَّ الآيةَ منسوخةٌ. وقيلَ: إنها محكمةٌ. وسيأتي.

الثالثة: رويَ أنَّ رجلًا زنى بامرأةٍ في زمنِ أبي بكرٍ ﵁ فجلدهما مائةَ جلدةٍ، ثمَّ زوجَ أحدهما منَ الآخرِ مكانهُ، ونفاهما سنةً. ورويَ مثلُ ذلكَ عنْ عمرَ وابنِ مسعودٍ وجابرٍ ﵃. وقالَ ابنُ عباسٍ: أولهُ سفاحٌ وآخرهُ نكاحٌ، وبهذا أخذَ الشافعيُّ وأبو حنيفةَ، ورأوا أنَّ الماءَ لا حرمةَ لهُ. ورويَ عنِ ابنِ مسعودٍ ﵁ أنهُ قالَ: إذا زنى الرجلُ بالمرأةِ ثمَّ نكحها بعدَ ذلكَ فهما زانيانِ أبدًا. وبهذا أخذَ مالكٌ ﵁، فرأى أنهُ لا ينكحها حتى يستبرئها منْ مائهِ الفاسدِ، لأنَّ النكاحَ لهُ حرمةٌ، ومنْ حرمتهِ ألا يصبَّ على ماءِ السفاحِ، فيختلطَ الحرامُ بالحلالِ، ويمتزج ماء المهانة بماء العزة.

الرابعة: قالَ ابنُ خويزِ منداد: منْ كانَ معروفًا بالزنى أوْ بغيرهِ منَ الفسوقِ معلنًا بهِ فتزوجَ إلى أهلِ بيتِ سترٍ وغرهمْ منْ نفسهِ فلهمُ الخيارُ في البقاءِ معهُ أوْ فراقهِ، وذلكَ كعيبٍ منَ العيوبِ، واحتجَّ بقولهِ ﷺ: «لا ينكحُ الزاني المجلودُ إلا مثلهُ»، وإنما ذكرَ المجلودَ لاشتهارهِ بالفسقِ، وهوَ الذي يجبُ أنْ يفرقَ بينهُ وبينَ غيرهِ، فأما منْ لمْ يشتهرْ بالفسقِ فلا.

الخامسة: قالَ قومٌ منَ المتقدمينَ: الآيةُ محكمةٌ غيرُ منسوخةٍ، وعندَ هؤلاءِ: منْ زنى فسدَ النكاحُ بينهُ وبينَ زوجتهِ، وإذا زنتِ الزوجةُ فسدَ النكاحُ بينها وبينَ زوجها. وقالَ قومٌ منْ هؤلاءِ: لا ينفسخُ النكاحُ بذلكَ، ولكنْ يؤمرُ الرجلُ بطلاقها إذا زنتْ، ولوْ أمسكها أثمَ، ولا يجوزُ التزوجُ بالزانيةِ ولا منَ الزاني، بلْ لوْ ظهرتِ التوبةُ فحينئذٍ يجوزُ النكاحُ.

السادسة: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣﴾ أيْ نكاحُ أولئكَ البغايا.

السابعة: حرمَ اللهُ تعالى الزنى في كتابهِ، فحيثما زنى الرجلُ فعليهِ الحدُّ. وهذا قولُ مالكٍ، وقالَ أصحابُ الرأيِ في الرجلِ المسلمِ إذا كانَ في دارِ الحربِ بأمانٍ وزنى هنالكَ ثمَّ خرجَ لمْ يحدَّ. قالَ ابنُ المنذرِ: دارُ الحربِ ودارُ الإسلامِ سواءٌ، ومنْ زنى فعليهِ الحدُّ على ظاهرِ قولهِ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾، فيه خمسٌ وعشرونَ مسألةً:

الأولى: هذهِ الآيةُ سببها ما قيلَ في عائشةَ أمِّ المؤمنينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وقيل: بلْ نزلتْ بسببِ القذفةِ عامًا لا في تلكَ النازلةِ.

الثانية: قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ﴾ استعيرَ لهُ اسم الرمي لأنه إذاية بالقولِ.

الثالثة: ذكرَ اللهُ تعالى في الآيةِ النساءَ منْ حيثُ هنَّ أهمُّ، ورميهنَّ بالفاحشةِ أشنعُ وأنكى للنفوسِ. وقذفُ الرجالِ داخلٌ في حكمِ الآيةِ بالمعنى، وإجماعُ الأمةِ على ذلكَ. وهذا نحوُ نصهِ على تحريم لحمِ الخنزيرِ ودخلَ شحمهُ وغضاريفهُ، ونحوُ ذلكَ بالمعنى والإجماعِ. وقيل المعنى: والأنفسُ المحصناتُ، فهيَ بلفظها تعمُّ الرجالَ والنساءَ، ويدلُّ على ذلكَ قولهُ: ﴿۞ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾. وقالَ قومٌ: أرادَ بالمحصناتِ الفروجَ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ فيدخلُ فيهِ فروجُ الرجالِ والنساءِ. وقيل: إنما ذكرَ المرأةَ الأجنبيةَ إذا قذفتْ ليعطفَ عليها قذفَ الرجلِ زوجتهُ، واللهُ أعلمُ، والمحصناتُ العفائفُ في هذا الموضعِ. وقدْ مضى في «النساءِ» ذكرُ الإحصانِ ومراتبهِ. والحمدُ للهِ.

الرابعة: للقذفِ شروطٌ عندَ العلماءِ تسعةٌ: شرطانِ في القاذفِ، وهما العقلُ والبلوغُ، لأنهما أصلا التكليفِ، وشرطانِ في الشيءِ المقذوفِ به، وهو أن يقذف بوطء يلزمه فيه الحد، وهو الزنى واللواطُ أوْ بنفيهِ منْ أبيهِ دونَ سائرِ المعاصي. وخمسة في المقذوفِ، وهيَ العقلُ والبلوغُ والإسلامُ والحريةُ والعفةُ عنِ الفاحشةِ التي رميَ بها، كانَ عفيفًا منْ غيرها أمْ لا. وإنما شرطنا في المقذوف العقل والبلوغ كما شرطناهما في القاذفِ وإنْ لمْ يكونا منْ معاني الإحصانِ لأجلِ أنَّ الحدَّ إنما وضعَ للزجرِ عنِ الإذايةِ بالمضرةِ الداخلةِ على المقذوفِ، ولا مضرةَ على منْ عدمَ العقلَ والبلوغَ، إذْ لا يوصفُ الوطء فيهما ولا منهما بأنهُ زنى.

الخامسة: اتفقَ العلماءُ على أنهُ إذا صرّح بالزنى كانَ قذفًا ورميًا موجبًا للحدِّ، فإنْ

عرّضَ ولمْ يصرّحْ فقالَ مالكٌ: هوَ قذفٌ. وقالَ الشافعيُّ وأبو حنيفةَ: لا يكونُ قذفًا حتى يقولَ أردتُ بهِ القذفَ. والدليلُ لما قالهُ مالكٌ هوَ أنَّ موضوعَ الحدِّ في القذفِ إنما هوَ لإزالةِ المعرةِ التي أوقعها القاذفُ بالمقذوفِ، فإذا حصلت المعرة بالتعريض وجبَ أنْ يكونَ قذفًا كالتصريحِ، والمعولُ على الفهمِ، وقدْ قالَ تعالى مخبرًا عنْ شعيبٍ: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ أي السفيهُ الضالُّ، فعرَّضوا لهُ بالسبِّ بكلامٍ ظاهرِ المدحُ في أحدِ التأويلاتِ. وقالَ تعالى في أبي جهل: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾. وقالَ حكايةً عنْ مريمَ: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾، فمدحوا أباها ونفوا عنْ أمها البغاءَ أي الزنى، وعرّضوا لمريمَ بذلكَ، ولذلكَ قالَ تعالى: ﴿وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا﴾، وكفرهمْ معروفٌ، والبهتانُ العظيمُ هوَ التعريضُ لها، أيْ ما كانَ أبوكِ امرأ سوءٍ وما كانتْ أمكِ بغيًا، أيْ أنتَ بخلافهما وقدْ أتيتِ بهذا الولدِ. وقالَ تعالى: ﴿۞قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، فهذا اللفظُ قدْ فهمَ منهُ أنَّ المرادَ بهِ أنَّ الكفارَ على غيرِ هدى، وأنَّ اللهَ تعالى ورسولهُ على الهدى، ففهمَ منْ هذا التعريضِ مايفهمُ منْ صريحهِ. وقدْ حبسَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الحطيئةَ لما قال:

دعِ المكارمَ لا ترحلُ لبغيتها واقعدْ فإنكَ أنتَ الطاعمُ الكاسي

لأنهُ شبههُ بالنساءِ في أنهنَّ يطعمنَ ويسقينَ ويكسونَ.

السادسةُ - الجمهورُ منَ العلماءِ على أنهُ لا حدَّ على منْ قذفَ رجلًا منْ أهلِ الكتابِ أوِ امرأةً منهمْ. وقالَ الزهريُّ وسعيدُ بنُ المسيبِ وابنُ أبي ليلى: عليهِ الحدُّ إذا كانَ لها ولدٌ منْ مسلمٍ. وفيهِ قولٌ ثالثٌ - وهوَ أنهُ إذا قذفَ النصرانيةَ تحتَ المسلمِ جلدَ الحدَّ. قالَ ابنُ المنذرِ: وجلُّ العلماءِ مجمعونَ وقائلونَ بالقولِ الأولِ، ولمْ أدركْ أحدًا ولا لقيتهُ يخالفُ في ذلكَ. وإذا قذفَ النصرانيُّ المسلمَ الحرَّ فعليهِ ما على المسلمِ ثمانونَ جلدةً، لا أعلمُ في ذلك خلافًا.

السابعة: والجمهورُ منَ العلماءِ على أنَّ العبدَ إذا قذفَ حرًا يجلدُ أربعينَ: لأنه حد يتشطر بالرق كحد الزنى. ورويَ عنِ ابنِ مسعودٍ يجلدُ ثمانينَ، وبهِ قالَ الأوزاعيُّ. احتجَّ الجمهورُ بقولِ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ

ٱلْعَذَابِۚ﴾. وقال الآخرون: فهمنا هناك أن حد الزنى للهِ تعالى، وأنهُ ربما كانَ أخفَّ فيمنْ قلتْ نعمُ اللهِ عليهِ، وأفحشَ فيمنْ عظمتْ نعمُ اللهِ عليهِ. وأما حدُّ القذفِ فحقٌّ للآدميِّ وجبَ.

الثامنة: وأجمعَ العلماءُ على أنَّ الحرَّ لا يجلدُ للعبدِ إذا افترى عليهِ، لتباينِ مرتبتهما، ولقولهِ ﷺ: «من قذف مملوكه بالزنى أقيمَ عليهِ الحدُّ يومَ القيامةِ إلا أنْ يكونَ كما قالَ» خرجهُ البخاريُّ ومسلمٌ.

قالَ العلماءُ: وإنما كانَ ذلكَ في الآخرةِ لارتفاعِ الملكِ واستواءِ الشريفِ والوضيعِ والحرِّ والعبدِ.

التاسعة: قالَ مالكٌ والشافعيُّ: منْ قذفَ منْ يحسبهُ عبدًا فإذا هوَ حرٌّ فعليهِ الحدُّ، قالَ مالكٌ: ومنْ قذفَ أمَّ الولدِ حدَّ وهوَ قياسُ قولِ الشافعيِّ.

العاشرة: واختلفَ العلماءُ فيمنْ قالَ لرجلٍ: يا منْ وطئَ بينَ الفخذينِ، فقالَ ابنُ القاسمِ: عليهِ الحدُّ، لأنهُ تعريضٌ. وقالَ أشهبُ: لا حدَّ فيهِ، لأنهُ نسبه إلى فعلٍ لا يعدُّ زنى إجماعًا.

الحادية عشرة: إذا رمى صبية يمكن وطؤها قبل البلوغ بالزنى كانَ قذفًا عندَ مالكٍ. وقالَ أبو حنيفةَ والشافعيُّ: ليسَ بقذفٍ، لأنهُ ليسَ بزنى إذْ لا حدَّ عليها، ويعزرُ، وقالَ أحمدُ في الجاريةِ بنتِ تسعٍ: يجلدُ قاذفها، وكذلكَ الصبيُّ إذا بلغَ عشرًا ضربَ قاذفهُ.

الثانية عشرة: منْ قذفَ زوجةً منْ أزواجِ النبيِّ ﷺ حدَّ حدينِ، قالهُ مسروق. قال ابنُ العربيِّ: والصحيحُ أنهُ حدٌّ واحدٌ، لعموم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ الآيةَ، ولا يقتضي شرفهنَّ زيادةً في حدِّ منْ قذفهنَّ، لأنَّ شرفَ المنزلةِ لا يؤثرُ في الحدودِ، ولا نقصها يؤثرُ في الحدِّ بتنقيصٍ. واللهُ أعلمُ. وسيأتي الكلامُ فيمنْ قذفَ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، هلْ يقتلُ أمْ لا.

الثالثة عشرة: - قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ الذي يفتقرُ إلى أربعةِ شهداءَ دونَ سائر الحقوق هو الزنى، رحمةً بعبادهِ وسترًا لهمْ.

الرابعة عشرة: منْ شرطِ أداءِ الشهودِ الشهادةَ عندَ مالكٍ رحمهُ اللهُ أنْ يكونَ ذلكَ في

مجلسٍ واحدٍ، فإنِ افترقتْ لمْ تكنْ شهادةً. وقالَ عبدُ الملكِ: تقبلُ شهادتهمْ مجتمعينَ ومفترقينَ، وهوَ قولُ أبي ثورٍ واختارهُ ابنُ المنذرِ لقولهِ تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ وقوله: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾ ولمْ يذكرْ مفترقينَ ولا مجتمعينَ.

الخامسة عشرة: فإنْ تمتِ الشهادةُ إلا أنهمْ لمْ يعدلوا، فقيل: لا حدَّ على الشهودِ ولا على المشهودِ، وبهِ قالَ أحمدُ والنعمانُ، وقالَ مالك: إذا شهد عليه أربعة بالزنى فإن كان أحدهم مسخوطا عليهِ أوْ عبدًا يجلدونَ جميعًا. وقالَ أحمدُ في أربعةِ عميانٍ يشهدونَ على امرأة بالزنى: يضربون.

السادسة عشرة: فإنْ رجعَ أحدُ الشهودِ وقدْ رجمَ المشهودُ عليه في الزنى، فقالت طائفة: يغرم ربع الدية ولا شيء على الآخرينَ. وكذلكَ قالَ مالكٌ وأحمدُ وأصحابُ الرأي. وقالَ الشافعي: إن قال تعمدت ليُقتلَ فالأولياءُ بالخيارِ إنْ شاءوا قتلوا وإنْ شاءوا عفوا وأخذوا ربعَ الديةِ، وعليهِ الحدُّ، وإذا قالَ أخطأتُ وأردتُ غيرهُ فعليهِ الديةُ كاملةً.

السابعةَ عشرةَ: واختلفَ العلماءُ في حدِّ القذفِ هلْ هوَ منْ حقوقِ اللهِ أوْ منْ حقوقِ الآدميينَ أوْ فيهِ شائبةٌ منهما، **الأولُ**- قولُ أبي حنيفةَ. و**الثاني**- قولُ مالكٍ والشافعيِّ. و**الثالثُ**- قالهُ بعضُ المتأخرينَ. وفائدةُ الخلافِ أنهُ إنْ كانَ حقًّا له تعالى وبلغَ الإمامَ أقامهُ وإنْ لمْ يطلبْ ذلكَ المقذوفُ، ونفعتِ القاذفَ التوبةُ فيما بينهُ وبينَ اللهِ تعالى، ويتشطرُ فيهِ الحدُّ بالرقِّ كالزنى. وإنْ كانَ حقًّا للآدميِّ فلا يقيمهُ الإمامُ إلا بمطالبةِ المقذوفِ، ويسقطُ بعفوهِ، ولمْ تنفعِ القاذفَ التوبة حتى يحلله المقذوف.

الثامنة عشرة: حكمُ شهادةِ الأربعةِ أنْ تكونَ على معاينةٍ يرونَ ذلكَ كالمرودِ في المكحلةِ على ما تقدمَ في «النساءِ» في نصِّ الحديثِ. وأنْ تكونَ في موطنٍ واحدٍ، على قولِ مالكٍ. وإنِ اضطربَ واحدٌ منهمْ جُلدَ الثلاثةُ، كما فعلَ عمرُ في أمرِ المغيرةِ بنِ شعبةَ، وذلكَ أنهُ شهدَ عليهِ بالزنى أبو بكرةَ نفيعُ بنُ الحارثِ وأخوهُ نافعٌ وزيادٌ أخوهما لأمٍّ وهوَ مستلحقُ معاويةَ، وشبلُ بنُ معبدٍ البجليُّ، فلما جاءوا لأداءِ الشهادةِ وتوقفَ زيادٌ ولمْ يؤدها، جلدَ عمرُ الثلاثةَ المذكورينَ.

التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ﴾ الجلدُ الضربُ. والمجالدة: المضاربة في الجلودِ أوْ بالجلودِ، ﴿ثَمَٰنِينَ﴾ نصبَ على المصدرِ ﴿جَلۡدَةٗ﴾ تمييزٌ ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ﴾ هذا يقتضي مدةَ أعمارهمْ، ثمَّ حكمَ عليهمْ بأنهمْ فاسقونَ، أيْ خارجونَ عنْ طاعةِ اللهِ عز وجل.

الموفية عشرين: قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ في موضعِ نصبٍ على الاستثناءِ. ويجوزُ أنْ يكونَ في موضعِ خفضٍ على البدلِ. المعنى ولا تقبلوا لهمْ شهادةً أبدًا إلا الذينَ تابوا وأصلحوا منْ بعدِ القذفِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، فتضمنت الآية ثلاثة أحكام في القاذف:جلدهُ، وردُّ شهادتِهِ أبدًا، وفسقهُ. فالاستثناءُ غيرُ عاملٍ في جلدهِ بإجماعٍ، وعاملٌ في فسقهِ بإجماعٍ. واختلفَ الناسُ في عملهِ في ردِّ الشهادةِ، فقالَ أبو حنيفةَ: لا يعملُ الاستثناءُ في ردِّ شهادتهِ، وإنما يزولُ فسقهُ عندَ اللهِ تعالى. وأما شهادةُ القاذفِ فلا تقبلُ البتةَ ولوْ تابَ وأكذبَ نفسهُ ولا بحالٍ منَ الأحوالِ. وقالَ الجمهورُ: الاستثناءُ عاملٌ في ردِّ الشهادةِ، فإذا تابَ القاذفُ قبلتْ شهادتهُ، وإنما كانَ ردها لعلةِ الفسقِ فإذا زالَ بالتوبةِ قبلتْ شهادتهُ مطلقًا قبلَ الحدِّ وبعدهُ، وهوَ قولُ عامةِ الفقهاءِ.

ثمَّ اختلفوا في صورةِ توبتهِ، فقيل: توبتهُ لا تكونُ إلا بأنْ يكذبَ نفسهُ في ذلكَ القذفِ الذي حدَّ فيهِ. وهكذا فعلَ عمرُ في الذينَ شهدوا على المغيرةِ، وقالتْ فرقةٌ- منها مالكٌ رحمهُ اللهُ تعالى وغيرهُ-: توبتهُ أنْ يصلحَ ويحسنَ حالهُ وإنْ لمْ يرجعْ عنْ قولهِ بتكذيبٍ، وحسبهُ الندمُ على قذفهِ والاستغفارُ منهُ.

الحادية والعشرون: اختلفَ علماؤنا رحمهمُ اللهُ تعالى متى تسقطُ شهادةُ القاذفِ، فقيل: بنفسِ قذفهِ. وقيل: لا تسقطُ حتى يجلدَ، فإنْ منعَ منْ جلدهِ مانعُ عفو أوْ غيره لمْ تردَّ شهادتهُ.

الثانية والعشرون: واختلفوا أيضًا على القولِ بجوازِ شهادته بعد التوبة في أي شيء تجوزُ، فقالَ مالكٌ رحمهُ اللهُ تعالى: تجوزُ في كل شيء مطلقا، وكذلك كل من حُدّ في شيء منَ الأشياءِ، وعنه لا تقبلُ شهادتهُ فيما حدَّ فيهِ خاصةً، وتقبلُ فيما سوى ذلكَ.

الثالثة والعشرون: الاستثناءُ إذا تعقبَ جملًا معطوفةً عادَ إلى جميعها عندَ مالكٍ والشافعيِّ وأصحابهما. وعندَ أبي حنيفةَ وجُلِّ أصحابهِ يرجعُ الاستثناءَ إلى أقربِ مذكورٍ وهوَ الفسقُ، ولهذا لا تقبلُ شهادتهُ، فإنَّ الاستثناءَ راجعٌ إلى الفسقِ خاصةً لا إلى قبولِ الشهادةِ. وقدْ جاءَ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ كلا الأمرينِ، فإنَّ آيةَ المحاربةِ فيها عودُ الضميرِ إلى الجميعِ باتفاقٍ، وآيةُ قتلِ المؤمنِ خطأً فيها ردُّ الاستثناءِ إلى الأخيرةِ باتفاقٍ، وآيةُ القذفِ محتملةٌ للوجهينِ، ويترجحُ قولُ مالكٍ والشافعيِّ رحمهما اللهُ منْ جهةِ نظرِ الفقهِ الجزئيِّ فقد أجمعتِ الأمةُ على أنَّ التوبةَ تمحو الكفرَ، فيجبُ أنْ يكونَ ما دونَ ذلكَ أولى، وليس من نسب إلى الزنى بأعظم جرما من مرتكب الزنى، ثمَّ الزاني إذا تابَ قبلتْ شهادتهُ، وليسَ القاذفُ بأشدَّ جرمًا منَ الكافرِ، فحقهُ إذا تابَ وأصلحَ أنْ تقبلَ شهادتهُ.

وقولهُ: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤﴾ تعليلٌ لا جملةٌ مستقلةٌ بنفسها، أيْ لا تقبلوا شهادتهمْ لفسقهمْ، فإذا زالَ الفسقُ فلمَ لا تقبلُ شهادتهمْ؟.

الرابعة والعشرون: قال القشيري: لا خلافَ أنهُ إذا لمْ يجلدِ القاذفُ بأنْ ماتَ المقذوفُ قبلَ أنْ يطالبَ القاذفَ بالحدِّ، أوْ لمْ يرفعْ إلى السلطانِ، أوْ عفا المقذوفُ، فالشهادةُ مقبولةٌ، لأنَّ عندَ الخصمِ في المسألةِ النهيَ عنْ قبولِ الشهادةِ معطوفٌ على الجلدِ، قال الله تعالى: ﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ﴾. وعندَ هذا قالَ الشافعيُّ: هوَ قبلَ أنْ يحدَّ شرٌّ منهُ حينَ حدَّ، لأنَّ الحدودَ كفاراتٌ فكيفَ تردُّ شهادتهُ في أحسنِ حاليهِ دونَ أخسهما.

قلتُ: هكذا قالَ ولا خلافَ وقيل: بنفسِ القذفِ تردُّ شهادتهُ. وهوَ قولُ الشافعيِّ: تردُّ شهادتهُ وإنْ لمْ يحدَّ، لأنهُ بالقذفِ يفسقُ، لأنهُ منَ الكبائرِ فلا تقبلُ شهادتهُ حتى تصحَّ براءتهُ بإقرارِ المقذوفِ له بالزنى أو بقيام البينة عليه.

الخامسة والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ يريدُ إظهارَ التوبةِ. وقيل: وأصلحوا العملَ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ حيثُ تابوا وقبلَ توبتهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٧ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٩ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ١٠﴾، فيهِ ثلاثونَ مسألةً:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾ ﴿أَنفُسُهُمۡ﴾ بالرفع على البدلِ. ويجوزُ النصبُ على الاستثناءِ: وعلى خبرِ ﴿يَكُن﴾ ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ﴾ بالرفعِ قراءةُ الكوفيينَ على الابتداءِ والخبرِ، أيْ فشهادةُ أحدهمُ التي تزيلُ عنهُ حدَّ القذفِ أربعُ شهاداتٍ. وقرأَ أهلُ المدينةِ وأبو عمرو: ﴿أَرۡبَعَ﴾ بالنصبِ، لأنَّ معنى ﴿فَشَهَٰدَةُ﴾ أنْ يشهدَ، ولا خلافَ في الثاني أنهُ منصوبٌ بالشهادةِ. والخامسة رفع بالابتداء والخبرُ ﴿أَنَّ﴾ وصلتها، ومعنى المخففةِ كمعنى المثقلةِ لأنَّ معناها أنهُ. وقرأَ عاصمٌ في روايةِ حفصٍ: ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةَ﴾ بالنصبِ، بمعنى وتشهدُ الشهادةَ الخامسة. الباقونَ بالرفعِ على الابتداء، والخبر في ﴿أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾، أيْ والشهادةُ الخامسة قولهُ: لعنةُ اللهِ عليهِ.

الثانية: في سببِ نزولها، وهوَ ما رواهُ البخاري عنِ ابنِ عباسٍ أنَّ هلالَ بنَ أميةَ قذفَ امرأتهُ عندَ النبيِّ ﷺ بشريكِ بنِ سحماءَ فقالَ النبيُّ ﷺ: «البينةُ أوْ حدٌّ في ظهركَ». قالَ: يا رسولَ اللهِ، إذا رأى أحدنا رجلًا على امرأتهِ يلتمسُ البينةَ! فجعلَ النبيُّ ﷺ يقولُ: «البينةُ وإلا حدٌّ في ظهركَ». فقالَ هلالٌ: والذي بعثكَ بالحقِّ إني لصادقٌ، ولينزلنَّ اللهُ في أمري ما يبرئُ ظهري منَ الحدِّ، فنزلتْ ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾ فقرأَ حتى بلغَ ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ الحديثَ بكمالهِ.

وقيل: لما نزلتِ الآيةُ المتقدمةُ في الذينَ يرمونَ المحصناتِ وتناولَ ظاهرها الأزواجَ وغيرهمْ قالَ سعدُ بنُ معاذٍ: يا رسولَ اللهِ، إنْ وجدتُ معَ امرأتي رجلًا أمهلهُ حتى آتيَ بأربعةٍ! واللهُ لأضربنهُ بالسيفِ غيرَ مصفحٍ عنهُ. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أتعجبونَ منْ غيرةِ سعدٍ لأنا أغيرُ منهُ واللهُ أغيرُ مني»، ثمَّ جاءَ منْ بعدِ ذلكَ هلالُ بنُ أميةَ الواقفيُّ فرمى زوجتهُ بشريكِ بن سحماء البلوى على ما ذكرناه، وعزمَ النبيُّ ﷺ على ضربهِ حدَّ القذفِ، فنزلتْ هذهِ الآيةُ عندَ

ذلكَ، فجمعهما رسولُ اللهِ ﷺ في المسجدِ وتلاعنا، فتلكأتِ المرأةُ عندَ الخامسة لما وعظتْ وقيل: إنها موجبةٌ، ثمَّ قالتْ: لا أفضحُ قومي سائرَ اليوم، فالتعنتْ، وفرقَ رسولُ اللهِ ﷺ بينهما، وولدتْ غلامًا كأنهُ جملٌ أورقُ - على النعتِ المكروهِ- ثمَّ كانَ الغلامُ بعدَ ذلك أميرًا بمصرَ، وهوَ لا يعرفُ لنفسهِ أبًا.

وجاءَ أيضًا عويمرٌ العجلانيُّ فرمى امرأتهُ ولاعنَ. والمشهورُ أنَّ نازلةَ هلالٍ كانتْ قبلُ، وأنها سببُ الآيةِ، وقيلَ: نازلةُ عويمرِ بنِ أشقرَ كانتْ قبلُ، وهوَ حديثٌ صحيحٌ مشهورٌ خرجهُ الأئمة.

واتفقوا على أنَّ هذا الزانيَ هوَ شريكُ ابن عبدةَ وأمهُ السحماءُ، وكانَ عويمرٌ وخولةُ بنتُ قيسٍ وشريكٌ بني عمِّ عاصمٍ، وكانتْ هذهِ القصةُ في شعبانَ سنةَ تسعٍ منَ الهجرةِ، منصرفَ رسولِ اللهِ ﷺ من تبوك إلى المدينة.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ عامٌّ في كلِّ رمي، سواءٌ قالَ: زنيتِ أوْ يا زانيةُ أوْ رأيتها تزني، أوْ هذا الولدُ ليسَ مني، فإنَّ الآيةَ مشتملةٌ عليهِ. ويجبُ اللعانُ إنْ لمْ يأتِ بأربعةِ شهداءَ، وهذا قولُ جمهورِ العلماءِ وعامةِ الفقهاءِ وجماعةِ أهلِ الحديثِ. وقدْ رويَ عنْ مالكٍ مثلُ ذلكَ. وكانَ مالكٌ يقولُ: لا يلاعنُ إلا أنْ يقولَ: رأيتكِ تزني، أوْ ينفي حملًا أوْ ولدًا منها، فالملاعنةَ لا تجبُ بالقذفِ وإنما تجبُ بالرؤيةِ أوْ نفي الحملِ معَ دعوى الاستبراءِ، والصحيحُ الأولُ لعمومِ قولهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾، وفي الحديثِ الصحيحِ: أرأيتَ رجلًا وجدَ معَ امرأتهِ رجلًا؟ فقالَ النبيُّ ﷺ: «فاذهبْ فأتِ بها» ولمْ يكلفهُ ذكرَ الرؤيةِ. وأجمعوا أنَّ الأعمى يلاعنُ إذا قذفَ امرأتهُ. ولوْ كانتِ الرؤيةُ منْ شرطِ اللعانِ ما لاعنَ الأعمى.

الرابعة: إذا نفى الحملَ فإنهُ يلتعنُ، لأنهُ أقوى منَ الرؤيةِ ولا بد من ذكر عدم الوطء والاستبراءِ بعدهُ، واختلفَ علماؤنا في الاستبراءِ، فقالَ مالكٌ في أحدِ قوليهِ:

يجزي في ذلكَ حيضةٌ. وقالَ مالكٌ أيضًا: لا ينفيهِ إلا بثلاثِ حيضٍ. والصحيحُ الأولُ، لأنَّ براءةَ الرحمِ منَ الشغلِ يقعُ بها كما في استبراءِ الأمةِ.

الخامسة: اللعانُ عندنا يكونُ في كلِّ زوجينِ حرينِ كانا أوْ عبدينِ، مؤمنينِ أوْ كافرينِ، فاسقينِ أوْ عدلينِ. وبهِ قالَ الشافعيُّ. ولا لعانَ بينَ الرجلِ وأمتهِ، ولا بينهُ وبينَ أمِّ ولدهِ. وقيل: لا ينتفي ولدُ الأمةِ عنهُ إلا بيمينٍ واحدةٍ، بخلافِ اللعانِ. وقدْ قيلَ: إنهُ إذا نفى ولدَ أمِّ الولدِ لاعنَ. والأولُ تحصيلُ مذهبِ مالكٍ، وهوَ الصوابُ.

وقالَ أبو حنيفةَ: لا يصحُّ اللعانُ إلا منْ زوجينِ حرينِ مسلمينِ، وذلكَ لأنَّ اللعانَ عندهُ شهادةٌ، وعندنا وعندَ الشافعيِّ يمينٌ، فكلُّ منْ صحتْ يمينهُ صحَّ قذفهُ ولعانهُ. واتفقوا على أنهُ لا بدَّ أنْ يكونا مكلفينِ. وفي قوله: «وجدَ معَ امرأتهِ رجلًا». دليلٌ على أنَّ الملاعنةَ تجبُ على كلِّ زوجينِ، لأنهُ لمْ يخصَّ رجلًا منْ رجلٍ ولا امرأةً منَ امرأةٍ، ونزلتْ آيةُ اللعانِ على هذا الجوابِ فقالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ ولمْ يخصَّ زوجًا منْ زوجٍ. وإلى هذا ذهبَ مالكٌ وأهلُ المدينةِ، وهوَ قولُ الشافعيِّ وأحمدَ، وأيضًا فإنَّ اللعانَ يوجبُ فسخَ النكاحِ فأشبهَ الطلاقَ، فكلُّ منْ يجوزُ طلاقهُ يجوزُ لعانهُ، واللعانُ أيمانٌ لا شهاداتٌ، قالَ اللهُ تعالى وهوَ أصدقُ القائلينَ: ﴿لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ أيْ أيماننا. وقالَ تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾، ثم قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً﴾، وقالَ ﷺ: «لولا الأيمانُ لكانَ لي ولها شأنٌ».

وأما ما احتجَّ به أبو حنيفةَ فهيَ حججٌ لا تقومُ على ساقٍ، منها حديثُ عمرو بنِ شعيبٍ عنْ أبيهِ عنْ جدهِ عبدِ اللهِ بنِ عمرو قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أربعةٌ ليسَ بينهمْ لعانٌ ليسَ بينَ الحرِّ والأمةِ لعانٌ وليسَ بينَ الحرةِ والعبدِ لعانٌ وليسَ بينَ المسلمِ واليهوديةِ لعانٌ وليسَ بينَ المسلمِ والنصرانيةِ لعانٌ». أخرجهُ الدارقطنيُّ منْ طرقٍ ضعفها كلها، واحتجوا منْ جهةِ النظرِ أنَّ الأزواجَ لما استثنوا منْ جملةِ الشهداءِ بقولهِ: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾ وجبَ ألا يلاعنَ إلا منْ تجوزُ شهادتهُ. وأيضًا فلوْ كانتْ يمينًا ما رُدِّدتْ، والحكمةُ في ترديدها قيامها في الأعداد مقام الشهود في الزنى. قلنا: هذا يبطلُ بيمينِ القسامةِ فإنها تكررُ وليستْ بشهادةٍ إجماعًا، والحكمةُ في تكرارها التغليظُ في الفروجِ والدماءِ.

السادسة: واختلفَ العلماءُ في ملاعنةِ الأخرسِ، فقالَ مالكٌ والشافعيُّ: يلاعنُ، لأنهُ ممنْ يصحُّ طلاقهُ وظهارهُ وإيلاؤهُ، إذا فهمَ ذلكَ عنهُ. وقالَ أبو حنيفةَ: لا يلاعنُ، لأنهُ ليسَ

منْ أهلِ الشهادةِ، ولأنهُ قدْ ينطقُ بلسانهِ فينكرُ اللعانَ، فلا يمكننا إقامةُ الحدِّ عليهِ.

السابعة: قالَ ابنُ العربيِّ: رأى أبو حنيفةَ عمومَ الآيةِ فقالَ: إنَّ الرجلَ إذا قذفَ زوجتهُ بالزنى قبلَ أنْ يتزوجها فإنهُ يلاعنُ، ونسيَ أنَّ ذلكَ قدْ تضمنهُ قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ وهذا رماها محصنةً غيرَ زوجةٍ، وإنما يكونُ اللعانُ في قذفٍ يلحقُ فيهِ النسبُ، وهذا قذفٌ لا يلحقُ فيهِ نسبٌ فلا يوجب لعانا، كما لو قذف أجنبية.

الثامنة: إذا قذفها بعدَ الطلاقِ نظرتَ، فإنْ كانَ هنالكَ نسبٌ يريدُ أنْ ينفيهُ أوْ حملٌ يتبرأُ منهُ لاعنَ وإلا لمْ يلاعنْ، وقالَ أبو حنيفةَ: لا يلاعنُ في الوجهينِ، لأنها ليستْ بزوجةٍ. وهذا ينتقضُ عليهِ بالقذفِ قبلَ الزوجيةِ كما ذكرناهُ آنفًا، بلْ هذا أولى، لأنَّ النكاحَ قدْ تقدمَ وهوَ يريدُ الانتفاءَ منَ النسبِ وتبرئتهُ منْ ولدٍ يلحقُ بهِ فلا بدَّ منَ اللعانِ. وإذا لمْ يكنْ هنالكَ حملٌ يرجى ولا نسبٌ يخافُ تعلقهُ لمْ يكنْ للعانِ فائدةٌ فلمْ يحكمْ بهِ وكانَ قذفًا مطلقًا داخلًا تحتَ عمومِ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ الآيةَ، فوجبَ عليهِ الحدُّ.

التاسعة: لا ملاعنةَ بينَ الرجلِ وزوجتهِ بعدَ انقضاءِ العدةِ إلا في مسألةٍ واحدةٍ، وهيَ أنْ يكونَ الرجلُ غائبًا فتأتي امرأتهُ بولدٍ في مغيبهِ وهوَ لا يعلمُ فيطلقها فتنقضي عدتها، ثمَّ يقدمُ فينفيهِ فله أن يلاعنها ها هنا بعدَ العدةِ، وكذلكَ لوْ قدمَ بعدَ وفاتها ونفى الولدَ لاعنَ لنفسهِ وهيَ ميتةٌ بعدَ مدةٍ منَ العدةِ، ويرثها لأنها ماتتْ قبلَ وقوعِ الفرقةِ بينهما.

العاشرة: إذا انتفى منَ الحملِ ووقعَ ذلكَ بشرطهِ لاعنَ قبلَ الوضعِ، وبهِ قالَ الشافعيُّ، وقالَ أبو حنيفةَ: لا يلاعنُ إلا بعدَ أنْ تضعَ، لأنهُ يحتملُ أنْ يكونَ ريحًا أوْ داءً منَ الأدواءِ. ودليلنا النصُّ الصريحُ بأنَّ النبيَّ ﷺ لاعنَ قبلَ الوضعِ، وقالَ: «إنْ جاءتْ بهِ كذا فهوَ لأبيهِ وإنْ جاءتْ بهِ كذا فهوَ لفلانٍ» فجاءتْ بهِ على النعت المكروه.

الحادية عشرة: إذا قذف بالوطءِ في الدبرِ لزوجهِ لاعنَ. وقالَ أبو حنيفةَ: لا يلاعنُ، وبناهُ على أصلهِ في أنَّ اللواطَ لا يوجبُ الحدَّ. وهذا فاسدٌ، لأنَّ الرمي به معرةٌ وقدْ دخلَ تحتَ عمومِ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ وقدْ تقدمَ في «الأعرافِ» و «المؤمنون» أنه يجب به الحد.

الثانية عشرة: قالَ ابنُ العربيِّ: منْ غريبِ أمرِ هذا الرجلِ أنهُ قالَ إذا قذفَ زوجته وأمها بالزنى: إنهُ إنْ حدَّ للأمِّ سقطَ حدُّ البنتِ، وإنْ لاعنَ للبنتِ لمْ يسقطْ حدُّ الأمِّ، وهذا لا وجهَ لهُ، وما رأيتُ لهمْ فيهِ شيئًا يحكى، وهذا باطلٌ جدًا، فإنهُ خصَّ عمومَ الآيةِ في البنتِ وهيَ زوجةٌ بحدِّ الأمِّ منْ غيرِ أثرٍ ولا أصلٍ قاسهُ عليهِ.

الثالثة عشرة:- إذا قذفَ زوجتهُ ثمَّ زنتْ قبلَ التعانهِ فلا حدَّ ولا لعانَ. وبهذا قالَ أبو حنيفةَ والشافعيُّ وأكثرُ أهلِ العلمِ.

الرابعة عشرة: منْ قذفَ امرأتهُ وهيَ كبيرةٌ لا تحملُ تلاعنا، هوَ لدفعِ الحدِّ، وهيَ لدرءِ العذابِ. فإنْ كانتْ صغيرة لا تحمل لاعن هوَ لدفعِ الحدِّ ولمْ تلاعنْ هيَ لأنها لو أقرت لم يلزمها شيء.

الخامسة عشرة: إذا شهدَ أربعةٌ على امرأة بالزنى أحدهمْ زوجها فإنَّ الزوجَ يلاعنُ وتحدُّ الشهودُ الثلاثةُ، وهوَ أحدُ قولي الشافعيِّ. والقولُ الثاني أنهمْ لا يحدونَ. وقالَ أبو حنيفةَ: إذا شهدَ الزوجُ والثلاثةُ ابتداءً قبلتْ شهادتهمْ وحدتِ المرأة. ودليلنا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ الآيةَ. فأخبرَ أنَّ منْ قذفَ محصنًا ولمْ يأتِ بأربعةِ شهداءَ حدَّ، فظاهرهُ يقتضي أنْ يأتيَ بأربعةِ شهداءَ سوى الرامي، والزوجُ رامٍ لزوجتهِ فخرجَ عنْ أنْ يكونَ أحدَ الشهودِ، واللهُ أعلمُ.

السادسة عشرة: إذا ظهرَ بامرأتهِ حملٌ فتركَ أنْ ينفيهُ لمْ يكنْ لهُ نفيهُ بعدَ سكوتهِ. وقالَ شريحٌ ومجاهدٌ: لهُ أنْ ينفيهُ أبدًا. وهذا خطأٌ، لأنَّ سكوتهُ بعدَ العلمِ بهِ رضى بهِ، كما لوْ أقرَّ بهِ ثمَّ ينفيهِ فإنهُ لا يقبلُ منهُ، واللهُ أعلمُ.

السابعة عشرة: فإنْ أخرَ ذلكَ إلى أنْ وضعتْ وقال: رجوت أن يكون ريحا ينفش أوْ تسقطهُ فأستريحُ منَ القذفِ، فهلْ لنفيهِ بعدَ وضعهِ مدةٌ إذا تجاوزها لمْ يكنْ لهُ ذلكَ؟ اختلفَ في ذلكَ، فنحنُ نقولُ: إذا لمْ يكنْ لهُ عذرٌ في سكوتهِ حتى مضتْ ثلاثةُ أيام فهوَ راضٍ بهِ ليسَ لهُ نفيهُ، وبهذا قالَ الشافعيُّ. وقالَ أيضًا: متى أمكنهُ نفيهُ على ما جرتْ بهِ العادةُ منْ تمكنهِ منَ الحاكم فلمْ يفعلْ لمْ يكنْ لهُ نفيهُ منْ بعدِ ذلكَ. وقالَ أبو حنيفةَ: لا أعتبرُ مدةً. وقالَ أبو يوسفَ ومحمدٌ: يعتبرُ فيهِ أربعونَ يومًا، مدةُ النفاسِ. قالَ ابنُ القصارِ: والدليلُ لقولنا هوَ أنَّ نفيَ ولدهِ

محرمٌ عليهِ، واستلحاقَ ولدٍ ليسَ منهُ محرمٌ عليهِ، فلا بدَّ أنْ يوسعَ عليهِ لكيْ ينظرَ فيهِ ويفكرَ، هلْ يجوزُ لهُ نفيهُ أو لا. وإنما جعلنا الحدَّ ثلاثةً لأنهُ أولُ حدِّ الكثرةِ وآخرُ حدِّ القلةِ، وقدْ جعلتْ ثلاثةُ أيامٍ يختبرُ بها حالُ المصراةِ، فكذلكَ ينبغي أنْ يكونَ هنا. وأما أبو يوسفَ ومحمدٌ فليسَ اعتبارهمْ بأولى منَ اعتبارِ مدةِ الولادةِ والرضاعِ، إذْ لا شاهدَ لهمْ في الشريعةِ، وقدْ ذكرنا نحنُ شاهدًا في الشريعةِ منْ مدةِ المصراةِ.

الثامنة عشرة: قالَ ابنُ القصارِ إذا قالتِ امرأةٌ لزوجها أوْ لأجنبيٍّ يا زانيهْ- بالهاءِ- وكذلكَ الأجنبيُّ لأجنبيٍّ، فلستُ أعرفُ فيهِ نصًا لأصحابنا، ولكنهُ عندي يكونُ قذفًا وعلى قائلهِ الحدُّ، وقدْ زادَ حرفًا، وبهِ قالَ الشافعيُّ، وقالَ أبو حنيفة: لا يكونُ قذفًا. واتفقوا أنهُ إذا قالَ لامرأتهِ يا زانٍ أنهُ قذفٌ. والدليلُ على أنهُ يكونُ في الرجلِ قذفًا هوَ أنَّ الخطابَ إذا فهمَ منهُ معناهُ ثبتَ حكمهُ، سواءٌ كانَ بلفظٍ أعجميٍّ أوْ عربيٍّ، ولأبي حنيفةَ أنهُ لما جازَ أنْ يخاطبَ المؤنثُ بخطابِ المذكرِ لقولهِ تعالى: ﴿۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ﴾ صلحَ أنْ يكونَ قولهُ يا زانٍ للمؤنثِ قذفًا. ولما لمْ يجزْ أنْ يؤنثَ فعلُ المذكرِ إذا تقدمَ عليهِ لمْ يكنْ لخطابهِ بالمؤنثِ حكمٌ.

التاسعة عشرة: يلاعنُ في النكاحِ الفاسدِ زوجتهُ لأنها صارتْ فراشًا ويلحقُ النسبُ فيهِ فجرى اللعانُ عليهِ.

الموفية عشرين: اختلفوا في الزوجِ إذا أبى منْ الالتعانِ، فقالَ أبو حنيفةَ: لا حدَّ عليهِ، لأنَّ اللهَ تعالى جعلَ على الأجنبيِّ الحدَّ وعلى الزوجِ اللعانَ، فلما لمْ يتنقلِ اللعانُ إلى الأجنبيِّ لمْ ينتقلِ الحدُّ إلى الزوجِ ويسجنُ أبدًا حتى يلاعنَ لأنَّ الحدودَ لا تؤخذ قياسًا. وقالَ مالكٌ والشافعيُّ وجمهورُ الفقهاءِ: إنْ لمْ يلتعنِ الزوجُ حدَّ، لأنَّ اللعانَ لهُ براءةٌ كالشهودِ للأجنبيِّ، فإنْ لمْ يأتِ الأجنبيُّ بأربعةِ شهداءَ حدَّ، فكذلكَ الزوجُ إنْ لمْ يلتعنْ. وفي حديثِ العجلانيِّ ما يدلُّ على هذا، لقولهِ: إنْ سكتُّ سكتُّ على غيظٍ وإنْ قتلتُ قتلتُ وإنْ نطقتُ جلدتُ.

الحادية والعشرون: واختلفوا أيضًا هلْ للزوجِ أنْ يلاعنَ معَ شهودهِ، فقالَ مالكٌ والشافعيُّ: يلاعنُ كانَ لهُ شهودٌ أوْ لمْ يكنْ، لأنَّ الشهودَ ليسَ لهمْ عملٌ في غيرِ درءِ الحدِّ، وأما رفعُ الفراشِ ونفيُ الولدِ فلا بدَّ فيهِ منَ اللعانِ، وقالَ أبو حنيفةَ: إنما جعلَ اللعانُ للزوجِ

إذا لمْ يكنْ لهُ شهودٌ غيرَ نفسهِ، لقولهِ تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾.

الثانية والعشرون: البداءةُ في اللعانِ بما بدأَ اللهُ بهِ، وهوَ الزوجُ، وفائدتهُ درءُ الحدِّ عنهُ ونفيُ النسبِ منهُ، لقولهِ ﷺ: «البينةُ وإلا حدٌّ في ظهركَ». ولوْ بدئَ بالمرأةِ قبلهُ لمْ يجزْ لأنهُ عكسُ ما رتبهُ اللهُ تعالى. وقالَ أبو حنيفةَ: يجزيء. وهذا باطل، لأنه خلافُ القرآنِ، وليسَ لهُ أصلٌ يردهُ إليهِ ولا معنى يقوى بهِ، بلِ المعنى لنا، لأنَّ المرأةَ إذا بدأتْ باللعانِ فتنفي ما لمْ يثبتْ وهذا لا وجهَ لهُ.

الثالثة والعشرون: وكيفيةُ اللعانِ أنْ يقولَ الحاكمُ للملاعنِ: قلْ أشهدُ باللهِ لرأيتها تزني ورأيتُ فرجَ الزاني في فرجها كالمرودِ في المكحلةِ وما وطئتها بعدَ رؤيتي. وإنْ شئتَ قلتَ: لقدْ زنتْ وما وطئتها بعدَ زناها. يرددُ ما شاءَ منْ هذينَ اللفظينِ أربعَ مراتٍ، فإنْ نكل عن هذه الأيمان أو عن شيء منها حدَّ. وإذا نفى حملًا قالَ: أشهدُ باللهِ لقدِ استبرأتها وما وطئتها بعدُ، وما هذا الحملُ مني، ويشيرُ إليهِ، فيحلفُ بذلكَ أربعَ مراتٍ ويقولُ في كلِّ يمينٍ منها: وإني لمنَ الصادقينَ في قولي هذا عليها. ثمَّ يقولُ في الخامسة عليَّ لعنةُ اللهِ إنْ كنتُ منَ الكاذبينَ، وإنْ شاءَ قالَ: إنْ كنتُ كاذبًا فيما ذكرتُ عنها. فإذا قالَ ذلكَ سقطَ عنهُ الحدُّ وانتفى عنهُ الولدُ. فإذا فرغَ الرجلُ منَ التعانهِ قامتِ المرأةُ بعدهُ فحلفتْ باللهِ أربعةَ أيمانٍ، تقولُ فيها: أشهدُ باللهِ إنهُ لكاذبٌ، أوْ إنهُ لمنَ الكاذبينَ فيما ادعاهُ عليَّ وذكرَ عني. وإنْ كانتْ حاملًا قالتْ: وإنَّ حملي هذا منهُ. ثمَّ تقولُ في الخامسة وعليَّ غضبُ اللهِ إنْ كانَ صادقًا، أوْ إنْ كانَ منَ الصادقينَ في قولهِ ذلكَ.

ومنْ أوجبَ اللعانَ بالقذفِ يقولُ في كلِّ شهادةٍ منَ الأربعِ: أشهدُ باللهِ إني لمنَ الصادقينَ فيما رميت به فلانة من الزنى. ويقولُ في الخامسة عليَّ لعنةُ اللهِ إنْ كنت كاذبا فيما رميتها به من الزنى. وتقولُ هيَ: أشهدُ باللهِ إنهُ لكاذبٌ فيما رماني به من الزنى. وتقولُ في الخامسة عليَّ غضبُ اللهِ إنْ كان صادقا فيما رماني به من الزنى.

وقالَ الشافعيُّ: يقولُ الملاعنُ أشهدُ باللهِ إني لمنَ الصادقينَ فيما رميتُ بهِ زوجي فلانةَ بنتَ فلانٍ، ويشيرُ إليها إنْ كانتْ حاضرةً، يقولُ ذلكَ أربعَ مراتٍ، ثمَّ يوعظهُ الإمامُ ويذكرهُ اللهَ تعالى ويقولُ: إني أخافُ إنْ لمْ تكنْ صدقتَ أنْ تبوءَ بلعنةِ اللهِ، فإنْ رآهُ يريدُ أنْ يمضيَ

على ذلكَ أمرَ منْ يضعُ يدهُ على فيهِ، ويقولُ: إنَّ قولكَ وعليَّ لعنةُ اللهِ إنْ كنتُ منَ الكاذبينَ موجبًا، فإنْ أبى تركهُ يقولُ ذلكَ: لعنةُ اللهِ عليَّ إنْ كنتُ منَ الكاذبين فيما رميت به فلانة من الزنى. احتجَّ بما رواهُ أبو داودَ عنِ ابنِ عباسٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أمرَ رجلًا حيثُ أمرَ المتلاعنينِ أنْ يضعَ يدهُ على فيهِ عندَ الخامسة يقولُ: إنها موجبة.

الرابعة والعشرون: اختلفَ العلماءُ في حكمِ منْ قذفَ امرأتهُ برجلٍ سماهُ، هلْ يحدُّ أمْ لا، فقالَ مالكٌ: عليهِ اللعانُ لزوجتهِ، وحدٌّ للمرميِّ. وبهِ قالَ أبو حنيفةَ، لأنهُ قاذفٌ لمنْ لمْ يكنْ لهُ ضرورةٌ إلى قذفهِ. وقالَ الشافعيُّ: لا حدَّ عليهِ، لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لمْ يجعلْ على منْ رمى زوجته بالزنى إلا حدًا واحدًا بقولهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾، ولمْ يفرقْ بينَ منْ ذكرَ رجلًا بعينهِ وبينَ منْ لمْ يذكرْ، وقدْ رمى العجلانيُّ زوجته بشريك وكذلك هلال ابن أميةَ، فلمْ يحدَّ واحدٌ منهما. قالَ ابنُ العربيِّ: وظاهرُ القرآنِ لنا، لأنَّ اللهَ تعالى وضعَ الحدَّ في قذفِ الأجنبيِّ والزوجةِ مطلقينِ، ثمَّ خصَّ حدُّ الزوجةِ بالخلاصِ باللعانِ وبقيَ الأجنبيُّ على مطلقِ الآيةِ. وإنما لمْ يحدَّ العجلانيُّ لشريكٍ ولا هلالٍ لأنهُ لمْ يطلبهُ، وحدُّ القذفِ لا يقيمهُ الإمامُ إلا بعدَ المطالبةِ إجماعًا منا ومنهُ.

الخامسة والعشرون: إذا فرغَ المتلاعنانِ منْ تلاعنهما جميعًا تفرقا، ولا خلافَ في أنهُ لا يكونُ اللعانُ إلا في مسجدٍ جامعٍ تجمعُ فيهِ الجمعةُ بحضرةِ السلطانِ أوْ منْ يقومُ مقامهُ. وقدِ استحبَّ جماعةٌ منْ أهلِ العلمِ أنْ يكونَ اللعانُ في الجامعِ بعدَ العصرِ. وتلتعنُ النصرانيةُ منْ زوجها المسلمِ في الموضع الذي تعظمه من كنيستها بمثل ما تلتعنُ بهِ المسلمةُ.

السادسة والعشرون: قالَ مالكٌ وأصحابهُ: وبتمامِ اللعانِ تقعُ الفرقةُ بينَ المتلاعنينِ، فلا يجتمعانِ أبدًا ولا يتوارثانِ، ولا يحلُّ لهُ مراجعتها أبدًا لا قبلَ زوجٍ ولا بعدهُ، وقالَ أبو حنيفةَ: لا تقعُ الفرقةُ بعدَ فراغهما منَ اللعانِ حتى يفرقَ الحاكمُ بينهما؛ لقولِ ابنِ عمرَ: فرقَ رسولُ اللهِ ﷺ بينَ المتلاعنينِ، فأضافَ الفرقةَ إليهِ، ولقولهِ ﷺ: «لا سبيلَ لكَ عليها». وقالَ الشافعيُّ: إذا أكملَ الزوجُ الشهادةَ والالتعانَ فقدْ زالَ فراشُ امرأتهِ، التعنتْ أوْ لمْ تلتعنْ. قالَ: وأما التعانُ المرأةِ فإنما هوَ لدرءِ الحدِّ عنها لا غيرَ، وليسَ لالتعانها في زوالِ الفراشِ معنى.

والحجةُ لمالكٍ في المشهورِ ومنْ وافقهُ قولهُ ﷺ: «لا سبيلَ لكَ عليها». وهذا إعلامٌ

منهُ أنَّ تمامَ اللعان رفع سبيله عليها وليسَ تفريقهُ بينهما باستئنافِ حكمٍ، وإنما كانَ تنفيذًا لما أوجبَ اللهُ تعالى بينهما منَ المباعدةِ، وهوَ معنى اللعانِ في اللغةِ.

السابعة والعشرون: ذهبَ الجمهورُ منَ العلماءِ أنَّ المتلاعنينِ لا يتناكحانِ أبدًا، فإنْ أكذبَ نفسهُ جلدَ الحدَّ ولحقَ بهِ الولدُ، ولمْ ترجعْ إليهِ أبدًا. وعلى هذا السنةُ التي لا شكَّ فيها ولا اختلافَ، وقالَ أبو حنيفةَ: إذا أكذبَ نفسهُ جلدَ الحدَّ ولحقَ بهِ الولدُ، وكانَ خاطبًا منَ الخطابِ إنْ شاءَ، وقالوا: يعودُ النكاحُ حلالًا كما لحقَ بهِ الولدُ، وحجةُ الجماعةِ قولهُ ﷺ: «لا سبيلَ لكَ عليها»، ولمْ يقلْ إلا أنْ تكذبَ نفسكَ. وروى ابنُ إسحاقَ وجماعةٌ عنِ الزهريِّ قالَ: فمضتِ السنةُ أنهما إذا تلاعنا فرقَ بينهما فلا يجتمعانِ أبدًا. ورواهُ الدارقطنيُّ، ورواهُ مرفوعًا منْ حديثِ سعيدِ بنِ جبيرٍ عنِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «المتلاعنانِ إذا افترقا لا يجتمعانِ أبدًا».

الثامنة والعشرون: اللعانُ يفتقرُ إلى أربعةِ أشياءَ: عدد الألفاظ -وهو أربع شهادات على ما تقدم. والمكان- وهوَ أنْ يقصدَ بهِ أشرفَ البقاعِ بالبلدانِ، إنْ كانَ بمكةَ فعندَ الركنِ والمقام، وإنْ كانَ بالمدينةِ فعندَ المنبرِ، وإنْ كانَ ببيتِ المقدسِ فعندَ الصخرةِ، وإنْ كانَ في سائرِ البلدانِ ففي مساجدها، وإنْ كانا كافرينِ بعثَ بهما إلى الموضعِ الذي يعتقدانِ تعظيمهُ، إنْ كانا يهوديينِ فالكنيسةُ، وإنْ كانا مجوسيينِ ففي بيتِ النارِ، وإنْ كانا لا دينَ لهما مثلُ الوثنيينَ فإنهُ يلاعنُ بينهما في مجلسِ حكمه. والوقت- وذلكَ بعدَ صلاةِ العصرِ. وجمعُ الناسِ- وذلكَ أنْ يكونَ هناكَ أربعةُ أنفسٍ فصاعدًا، فاللفظُ وجمعُ الناسِ مشروطانِ، والزمانُ والمكانُ مستحبانِ.

التاسعة والعشرون: منْ قالَ: إنَّ الفراقَ لا يقعُ إلا بتمامِ التعانهما، فعليهِ لوْ ماتَ أحدهما قبلَ تمامهِ ورثهُ الآخرُ. ومنْ قالَ: لا يقعُ إلا بتفريقِ الإمامِ فماتَ أحدهما قبلَ ذلكَ وتمامِ اللعانِ ورثهُ الآخرُ. وعلى قولِ الشافعيِّ: إنْ ماتَ أحدهما قبلَ أنْ تلتعنَ المرأةُ لمْ يتوارثا.

الموفية ثلاثين: تفريقُ اللعانِ عندنا ليسَ بفسخٍ وهوَ مذهب المدونة، فحكم تفريقه حكمُ تفريقِ الطلاقِ، ويعطى لغيرِ المدخولِ بها نصفُ الصداقِ. وفي مختصرِ ابنِ الجلابِ: لا شيء لها، وهذا على أنَّ تفريقَ اللعانِ فسخٌ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١١﴾..... الآيات إلى قوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾، وفيه سبعٌ وعشرونَ مسألةً:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ﴾ ﴿عُصْبَةٌ﴾ خبرُ ﴿إِنَّ﴾. ويجوزُ نصبها على الحالِ، ويكونُ الخبرُ ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ﴾.

وسببُ نزولها ما رواهُ الأئمةُ منْ حديثِ الإفكِ الطويلِ في قصةِ عائشةَ رضوانُ اللهِ عليها، وهوَ خبرٌ صحيحٌ مشهورٌ، أغنى اشتهارهُ عنْ ذكرهِ، وكانَ حديثُ الإفكِ في غزوةِ المريسيعِ. قيل: سنةَ ستٍّ. وقيل: سنةَ أربعٍ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿بِٱلْإِفْكِ﴾ بالكذب، والعصبةُ في اللغةِ وكلامِ العربِ الجماعةُ الذينَ يتعصبُ بعضهمْ لبعضٍ، قيل ثلاثةُ رجالٍ، وقيل منَ الثلاثةِ إلى العشرةِ، وفي مصحفِ حفصةَ: «عصبةٌ أربعةٌ».

فنبهَ اللهُ تعالى عائشةَ وأهلها وصفوانَ، إذِ الخطابُ لهمْ في قولهِ: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ﴾، لرجحانِ النفعِ والخيرِ على جانبِ الشرِّ، والخيرُ ما زادَ نفعهُ على ضرهُ، والشرُّ: ما زادَ ضرهُ على نفعهِ، والخير الذي لا شرَّ فيهِ هوَ الجنةُ، والشر الذي لا خيرَ فيهِ هوَ جهنمُ، فأما البلاءُ النازلُ على الأولياءِ فهوَ خيرٌ، لأنَّ ضررهُ منَ الألمِ قليلٌ في الدنيا، وخيرهُ هوَ الثوابُ الكثيرُ في الأخرى.

الثالثة: لما خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ بعائشةَ معهُ في غزوةِ بني المصطلقِ وهيَ غزوةُ المريسيعِ، وقفلَ ودنا منَ المدينةِ آذنَ ليلةً بالرحيلِ قامتْ حينَ آذنوا بالرحيل فمشتْ حتى جاوزتِ الجيشَ، فلما فرغتْ منْ شأنها أقبلتْ إلى الرحلِ فلمستْ صدرها فإذا عقدٌ منْ جزعِ ظفارٍ قدِ انقطعَ، فرجعتْ فالتمسته فحبسها ابتغاؤه، فوجدته وانصرفت فلم تجدْ أحدًا، وكانتْ شابةً قليلةَ اللحمِ، فرفعَ الرجال هودجها ولم يشعروا بزوالها منهُ، فلما لمْ تجدْ أحدًا

اضطجعتْ في مكانها رجاءَ أنْ تفتقدَ فيرجعَ إليها، فنامتْ في الموضعِ ولمْ يوقظها إلا قولُ صفوانَ بنِ المعطلِ: إنا للهِ وإنا إليهِ راجعونَ، وذلكَ أنهُ كانَ تخلفَ وراءَ الجيشِ لحفظِ الساقةِ، ونزلَ عنْ ناقتهِ وتنحى عنها حتى ركبتْ عائشةُ، وأخذَ يقودها حتى بلغَ بها الجيشَ في نحرِ الظهيرةِ، فوقعَ أهلُ الإفكِ في مقالتهمْ، وكانَ الذي يجتمعُ إليهِ فيهِ ويستوشيهِ ويشعلهُ عبدُ اللهِ بنُ أبيِّ بنِ سلولٍ المنافقُ، وهوَ الذي رأى صفوانَ آخذًا بزمامِ ناقةِ عائشةَ فقالَ: واللهِ ما نجتْ منهُ ولا نجا منها، وكانَ منْ قالتهِ حسانُ بنُ ثابتٍ ومسطحُ بنُ أثاثةَ وحمنةُ بنتُ جحشٍ. هذا اختصارُ الحديثِ، وهوَ بكمالهِ وإتقانهِ في البخاريِّ ومسلمٍ، وهوَ في مسلمٍ أكملُ. ولما بلغَ صفوانَ قولُ حسانَ في الإفكِ جاءَ فضربهُ بالسيفِ ضربةً على رأسهِ وقالَ:

تلقَّ ذبابَ السيفِ عني فإنني ... غلامٌ إذا هوجيتُ ليسَ بشاعرِ

فأخذَ جماعةٌ حسانَ ولببوهُ وجاءوا بهِ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فأهدرَ رسولُ اللهِ ﷺ جرحَ حسانَ واستوهبهُ إياهُ، وهذا يدلُّ على أنَّ حسانَ ممنْ تولى الكبرَ، على ما يأتي واللهُ أعلمُ.

وكانَ صفوانُ هذا صاحبَ ساقةِ رسول الله ﷺ في غزواته لشجاعته، وكان من خيار الصحابة رضى الله عنه وعنهم، وقيل: كانَ حصورًا لا يأتي النساءَ، وقيل: كانَ لهُ ابنانِ، يدلُّ على ذلكَ حديثهُ المرويُّ معَ امرأتهِ، وقولُ النبيِّ ﷺ في ابنيهِ: «لهما أشبهُ بهِ منَ الغرابِ بالغرابِ».

وقولهُ في الحديثِ: واللهِ ما كشف كنف أنثى قط، يريد بزنى، وقتلَ شهيدًا رضي الله عنه في غزوةِ أرمينيةَ سنةَ تسعَ عشرةَ في زمانِ عمرَ، وقيل: ببلادِ الرومِ سنةَ ثمانٍ وخمسينَ في زمان معاوية.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ لمْ يسمَّ منْ أهلِ الإفكِ. إلا حسانُ ومسطحٌ وحمنةُ وعبدُ اللهِ: وجهلَ الغيرُ إلا أنهمْ كانوا عصبةً، كما قالَ اللهُ تعالى.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾ وقرأَ يعقوبُ: «كُبْرَهُ» بضمِّ الكافِ. رويَ عنْ عائشةَ أنهُ حسانُ، وأنها قالتْ حينَ عميَ: لعلَّ العذابَ العظيمَ الذي أوعدهُ اللهُ بهِ ذهابُ بصرهِ، ورويَ عنها أنهُ عبدُ اللهِ بنُ أبيٍّ، وهوَ الصحيحُ، فقد أخرجَ البخاريُّ منْ حديثِ

الزهريِّ عنْ عروةَ عنْ عائشةَ أن الذي تولى كبرهُ منهمْ عبد اللهِ بن أبيٍّ.

وأخرجهُ الإسماعيليُّ في كتابهِ المخرجِ على الصحيح منْ وجهٍ آخرَ منْ حديثِ معمرٍ عنِ الزهريِّ، وفيهِ: قالَ كنتُ عندَ الوليدِ بنِ عبدِ الملكِ فقالَ: الذي تولى كبرهُ منهمْ عليُّ بنُ أبي طالبٍ؟ فقلتُ لا، حدثني سعيدُ بنُ المسيبِ وعروةُ وعلقمةُ وعبيدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عتبةَ كلهمْ يقولُ سمعتُ عائشةَ تقولُ: والذي تولى كبرهُ عبد الله بن أبى بن سلول.

وحكى أبو عمرَ بنُ عبدِ البرِّ أنَّ عائشةَ برأتْ حسانَ منَ الفريةِ، وقالتْ: إنهُ لمْ يقلْ شيئًا. وقدْ أنكرَ حسانُ أنْ يكونَ قالَ شيئًا منْ ذلكَ في قولهِ:

حصانٌ رزانٌ ما تزنَّ بريبةٍ ... وتصبحُ غرثى منْ لحومِ الغوافلِ
حليلةُ خيرِ الناسِ دينًا ومنصبًا ... نبيِّ الهدى والمكرماتِ الفواضلِ
مهذبةٌ قدْ طيبَ اللهُ خيمها ... وطهرها منْ كلِّ شينٍ وباطلِ
فإنْ كانَ ما بلغتِ أني قلتهُ ... فلا رفعتْ سوطي إليَّ أناملي
فكيفَ وودي ما حييتُ ونصرتي ... لآلِ رسولِ اللهِ زينِ المحافلِ

وقدْ رويَ أنهُ لما أنشدها: حصانٌ رزانٌ، قالتْ لهُ: لستَ كذلكَ، تريدُ أنكَ وقعتَ في الغوافلِ. وهذا تعارضٌ، ويمكنُ الجمعُ بأنْ يقالَ: إن حسانا لمْ يقلْ ذلكَ نصًا وتصريحًا، ويكونُ عرضَ بذلكَ وأومأَ إليهِ فنسبَ ذلكَ إليهِ، واللهُ أعلم.

السادسة: اختلفوا هلْ حدَّ النبيُّ ﷺ أصحابَ الإفكِ، على قولينِ:

أحدهما: أنهُ لمْ يحدَّ أحدًا منْ أصحابِ الإفكِ لأنَّ الحدودَ إنما تقامُ بإقرارٍ أوْ ببينةٍ، ولمْ يتعبدهُ اللهُ أنْ يقيمها بإخبارهِ عنها، كما لمْ يتعبدهُ بقتلِ المنافقينَ، وقدْ أخبرهُ بكفرهمْ.

وهذا فاسدٌ مخالفٌ لنصِّ القرآنِ، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ أيْ على صدقِ قولهمْ: ﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾.

والقولُ الثاني - أنَّ النبيَّ ﷺ حدَّ أهلَ الإفكِ عبدَ الله بن أبى ومسطح ابن أثاثةَ وحسانَ بنَ ثابتٍ وحمنةَ بنتَ جحشٍ، وفي ذلكَ قالَ شاعرٌ منَ المسلمينَ:

لقدْ ذاقَ حسانُ الذي كانَ أهلهُ   وحمنةُ إذْ قالوا هجيرًا ومسطحُ
وابنُ سلولٍ ذاقَ في الحدِّ خزيةً   كما خاضَ في إفكٍ منَ القولِ يفصحُ

قلتُ: المشهورُ منَ الأخبار والمعروفُ عندَ العلماءِ أنَّ الذي حدَّ حسانُ ومسطحٌ وحمنةُ، ولمْ يسمعْ بحدٍّ لعبدِ اللهِ بنِ أبيٍّ. روى أبو داودَ عنْ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالتْ: لما نزلَ عذري قامَ النبيُّ ﷺ فذكرَ ذلكَ، وتلا القرآنَ، فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأةِ فضربوا حدهمْ، وسماهمْ: حسانُ بنُ ثابتٍ ومسطحُ بنُ أثاثةَ وحمنةُ بنتُ جحشٍ.

قالَ علماؤنا: وإنما لمْ يحدَّ ابنُ أبيٍّ لأنَّ اللهَ تعالى قدْ أعدَّ لهُ في الآخرةِ عذابًا عظيمًا، فلوْ حدَّ في الدنيا لكانَ ذلكَ نقصًا منْ عذابِهِ في الآخرةِ وتخفيفًا عنهُ معَ أنَّ اللهَ تعالى قدْ شهدَ ببراءةِ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وبكذبِ كلِّ منْ رماها، فقدْ حصلتْ فائدةُ الحدِّ، إذْ مقصودهُ إظهارُ كذبِ القاذفِ وبراءةِ المقذوفِ، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

وإنما حدَّ هؤلاءِ المسلمونَ ليكفرَ عنهمْ إثمُ ما صدرَ عنهمْ منَ القذفِ حتى لا يبقى عليهمْ تبعةٌ منْ ذلكَ في الآخرةِ، وقدْ قالَ ﷺ في الحدودِ «إنها كفارةٌ لمنْ أقيمتْ عليهِ»، كما في حديثِ عبادةَ بنِ الصامتِ. ويحتملُ أنْ يقالَ: إنما تركَ حدُّ ابنِ أبيٍّ استئلافًا لقومهِ واحترامًا لابنهِ، وإطفاءً لثائرةِ الفتنةِ المتوقعةِ منْ ذلكَ، وقدْ كانَ ظهرَ مبادئها منْ سعدِ بنِ عبادةَ ومنْ قومهِ، كما في صحيح مسلمٍ. واللهُ أعلم.

السابعة: قوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ عتابٌ منَ اللهِ سبحانهُ وتعالى للمؤمنينَ، وَ﴿لَّوْلَآ﴾ بمعنى هلا. وقيل: المعنى أنهُ كانَ ينبغي أنْ يقيسَ فضلاءُ المؤمنينَ والمؤمناتِ الأمرَ على أنفسهمْ، فإنْ كانَ ذلكَ يبعدُ فيهمْ فذلكَ في عائشةَ وصفوانَ أبعدُ، ورويَ أنَّ هذا النظرَ السديدَ وقعَ منْ أبي أيوبِ الأنصاريِّ وامرأتهِ، وذلكَ أنهُ دخلَ عليها فقالتْ لهُ: يا أبا أيوبَ، أسمعتَ ما قيلَ! فقالَ نعمْ! وذلكَ الكذبُ! أكنتِ أنتِ يا أمَّ أيوبَ تفعلينَ ذلكَ! قالتْ: لا واللهِ! قالَ: فعائشةُ واللهِ أفضلُ منكِ، قالتْ أمُّ أيوبَ نعمْ.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿بِأَنفُسِهِمۡ﴾ بإخوانهمْ؛ فأوجبَ اللهُ على المسلمينَ إذا سمعوا رجلًا يقذفُ أحدًا ويذكرهُ بقبيحٍ لا يعرفونهُ بهِ أنْ ينكروا عليهِ ويكذبوهُ.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿لَوْلَا جَآؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء﴾ توبيخٌ لأهلِ الإفكِ، وهذا إحالةٌ على الآيةِ السابقةِ في آيةِ القذفِ.

العاشرة: قوله تعالى: ﴿فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ أيْ همْ في حكمِ اللهِ كاذبونَ. وقدْ يعجزُ الرجلُ عنْ إقامةِ البينةِ وهوَ صادقٌ في قذفهِ، ولكنهُ في حكمِ الشرعِ وظاهرِ الأمرِ كاذبٌ لا في علمِ اللهِ تعالى، وهوَ سبحانهُ إنما رتبَ الحدودَ على حكمِهِ الذي شرعهُ في الدنيا لا على مقتضى علمِهِ الذي تعلقَ بالإنسانِ على ما هوَ عليهِ، فإنما يبنى على ذلكَ حكمُ الآخرةِ.

قلتُ: ومما يقوي هذا المعنى ويعضدهُ ما خرجهُ البخاريُّ عنْ عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه أنهُ قالَ: أيها الناسُ إنَّ الوحيَ قدِ انقطعَ وإنما نأخذكمُ الآنَ بما ظهرَ لنا منْ أعمالكمْ، فمنْ أظهرَ لنا خيرًا أمناهُ وقربناهُ، وليسَ لنا منْ سريرته شيء اللهُ يحاسبهُ في سريرتهِ، ومنْ أظهرَ لنا سوءًا لمْ نؤمنهُ ولمْ نصدقهُ، وإنْ قالَ إنَّ سريرتهُ حسنةٌ.

وأجمعَ العلماءُ أنَّ أحكامَ الدنيا على الظاهرِ، وأنَّ السرائرَ إلى اللهِ عز وجل.

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ عتابٌ بليغٌ، ولكنهُ برحمتهِ سترَ عليكمْ في الدنيا ويرحمُ في الآخرةِ منْ أتاهُ تائبًا، والإفاضةُ: الأخذُ في الحديثِ، وهوَ الذي وقعَ عليهِ العتابُ، يقالُ: أفاضَ القومُ في الحديثِ أيْ أخذوا فيه.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ﴾ قرأَ جمهورُ السبعةِ: بحرفِ التاءِ الواحدةِ وإظهارِ الذالِ دونَ إدغامٍ، وهذا منَ التلقي. وقرأَ أبو عمرو وحمزةُ والكسائيُّ: بإدغامِ الذالِ في التاءِ. وقرأَ ابنُ كثيرٍ: بإظهارِ الذالِ وإدغامِ التاءِ في التاءِ.

وللبخاريِّ منْ حديثِ ابنِ أبي مليكةَ أنَّ عائشةَ كانتْ تقرأُ: «إِذْ تَلِقُونه بِأَلْسِنَتِكُمْ» -بفتحِ التاءِ وكسرِ اللامِ وضمِّ القافِ- وتقولُ: الولْقُ الكذبُ. قالَ ابنُ أبي مليكةَ: وكانتْ أعلمَ بذلكَ منْ غيرها لأنهُ نزلَ فيها.

ومعنى هذهِ القراءةِ منْ قولِ العربِ: ولقَ الرجلُ يلقُ ولقًا إذا كذبَ واستمرَّ عليهِ، فجاءوا بالمتعدي شاهدًا على غيرِ المتعدي.

الثالثة عشرة:- قوله تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم﴾ مبالغةٌ وإلزامٌ وتأكيدٌ، والضمير في ﴿تَحْسَبُونَهُۥ﴾ عائدٌ على الحديثِ والخوضِ فيهِ والإذاعة له، و ﴿هَيِّنًا﴾ يسيرًا لا يلحقكمْ فيهِ إثمٌ ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ في الوزرِ ﴿عَظِيمٌ﴾. وهذا مثلُ قولهِ ﷺ في حديثِ القبرينِ: «إنهما ليعذبانِ وما يعذبانِ في كبيرٍ» أيْ بالنسبةِ إليكمْ.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ عتابٌ لجميعِ المؤمنينَ، وحقيقةُ البهتانِ أنْ يقالَ في الإنسانِ ما ليسَ فيهِ، والغيبةُ أنْ يقالَ في الإنسانِ ما فيهِ. وهذا المعنى قدْ جاءَ في صحيحِ الحديثِ عنِ النبيِّ ﷺ.

الخامسة عشرة: قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ توقيفٌ وتوكيدٌ، كما تقولُ: ينبغي لكَ أنْ تفعلَ كذا وكذا إنْ كنتَ رجلًا.

السادسة عشرة: قولهُ تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ يعني في عائشةَ أوْ فيمنْ كانَ في مرتبتها منْ أزواجِ النبيِّ ﷺ، لما في ذلكَ منْ إذاية رسول الله ﷺ في عرضهِ وأهلهِ، وذلكَ كفرٌ منْ فاعلهِ.

السابعة عشرة: قالَ هشامُ بنُ عمارٍ سمعتُ مالكًا يقولُ: منْ سبَّ أبا بكرٍ وعمرَ أدبَ، ومنْ سبَّ عائشةَ قتلَ، لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فمنْ سبَّ عائشةَ فقدْ خالفَ القرآنَ، ومنْ خالفَ القرآنَ قتلَ.

قالَ ابنُ العربيِّ: «قالَ أصحابُ الشافعيِّ منْ سبَّ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أدبَ كما في سائرِ المؤمنينَ، وليسَ قولهُ: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ في عائشةَ لأنَّ ذلكَ كفرٌ، وإنما هوَ كما قالَ ﷺ: «لا يؤمنُ منْ لا يأمنُ جارهُ بوائقهُ»، ولوْ كانَ سلبُ الإيمانِ في سبِّ منْ سبَّ عائشةَ حقيقةٌ لكان سلبه في قوله: «لا يزني الزاني حينَ يزني وهوَ مؤمنٌ» حقيقة.

قلنا: ليس كما زعمتم، فإن أهلَ الإفكِ رموا عائشةَ المطهرةَ بالفاحشةِ فبرأها اللهُ تعالى فكلُّ منْ سبها بما برأها اللهُ منهُ مكذبٌ للهِ، ومنْ كذبَ اللهَ فهوَ كافرٌ، فهذا طريقُ قولِ مالكٍ، وهيَ سبيلٌ لائحةٌ لأهلِ البصائرِ. ولوْ أنَّ رجلًا سبَّ عائشةَ بغيرِ ما برأها اللهُ منهُ لكان جزاؤه الأدب.

الثامنة عشر: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ أيْ تفشو ﴿فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أيْ في المحصنينَ والمحصناتِ، والمرادُ بهذا اللفظِ العامِّ عائشةُ وصفوانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. والفاحشةُ: الفعلُ القبيحُ المفرطُ القبحِ، وقيل: الفاحشةُ في هذهِ الآيةِ القولُ السيئُ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ أيِ الحدُّ ﴿وَٱلْأَٰخِرَةِ﴾ عذابُ النارِ، أيْ للمنافقينَ، فهوَ مخصوصٌ. وقدْ بينا أنَّ الحدَّ للمؤمنينَ كفارةٌ. وقالَ الطبريُّ: معناهُ إنْ ماتَ مصرًا غيرَ تائبٍ.

التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ أيْ يعلمُ مقدارَ عظمِ هذا الذنب والمجازاة عليه، ويعلم كل شيء ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

الموفية عشرين: قوله تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ﴾ يعني مسالكهُ ومذاهبهُ، وواحدُ الخطواتِ خطوةٌ، وهي ما بينَ القدمينِ. والخطوةُ بالفتح المصدرُ، يقالُ: خطوتُ خطوةً، وجمعها خطواتٌ. وتخطى إلينا فلانٌ، ومنهُ الحديثُ أنهُ رأى رجلًا يتخطى رقابَ الناسِ يومَ الجمعةِ.وقرأَ الجمهورُ ﴿خُطُوَٰتِ﴾ بضمِّ الطاءِ. وسكّنها عاصمٌ، وقرأَ الجمهورُ: ﴿مَا زَكَىٰ﴾ بتخفيفِ الكافِ، أيْ ما اهتدى ولا أسلمَ ولا عرفَ رشدًا.

الحادية والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ الآيةَ. المشهورُ منَ الرواياتِ أنَّ هذهِ الآيةَ نزلتْ في قصةِ أبي بكرِ بنِ أبي قحافةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومسطح بن أثاثةَ، وروى الصحيح أنَّ اللهَ تباركَ وتعالى لما أنزلَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ﴾ العشرَ آياتٍ، قالَ أبو بكرٍ وكانَ ينفقُ على مسطح لقرابتهِ وفقرهِ: واللهِ لا أنفقُ عليهِ شيئًا أبدًا بعدَ الذي قالَ لعائشةَ، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ إلى قولهِ- ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ﴾.

قالَ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ: هذهِ أرجى آيةٍ في كتابِ اللهِ تعالى، فقالَ أبو بكرٍ رضي الله عنه: واللهِ إني لأحبُّ أنْ يغفرَ اللهُ لي، فرجعَ إلى مسطحِ النفقةَ التي كانَ ينفقُ عليهِ وقالَ: لا أنزعها منهُ أبدًا. والآيةَ تتناولُ الأمةَ إلى يومِ القيامةِ.

الثانية والعشرون: في هذهِ الآيةِ دليلٌ على أنَّ القذفَ وإنْ كانَ كبيرًا لا يحبطُ الأعمالَ، لأنَّ اللهَ تعالى وصفَ مسطحًا بعدَ قولهِ بالهجرةِ والإيمانِ، وكذلكَ سائرُ الكبائرِ، ولا يحبطُ الأعمالَ غيرُ الشركِ باللهِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾.

الثالثة والعشرون: من حلف على شيء لا يفعلهُ فرأى فعلهُ أولى منهُ أتاهُ وكفرَ عنْ يمينهِ، أوْ كفرَ عنْ يمينهِ وأتاهُ، كما تقدمَ في «المائدةِ».

الرابعة والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ﴾ ﴿يَأْتَلِ﴾ معناهُ يحلفُ، وزنها يفتعلُ، منَ الأليةِ وهيَ اليمينُ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾، وقالت فرقة: معناهُ يقصرُ، منْ قولكَ: ألوتُ في كذا إذا قصرتُ فيهِ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾.

الخامسة والعشرون: قوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ تمثيلٌ وحجةٌ أيْ كما تحبونَ عفوَ اللهِ عنْ ذنوبكمْ فكذلكَ اغفروا لمنْ دونكمْ، وينظرُ إلى هذا المعنى قولهُ ﷺ: «منْ لا يرحمُ لا يرحمُ».

السادسة والعشرون: قالَ بعضُ العلماءِ: هذهِ أرجى آيةٍ في كتابِ اللهِ تعالى، منْ حيثُ لطفُ اللهِ بالقذفةِ العصاةِ بهذا اللفظِ، وقيل: أرجى آيةٍ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ قولهُ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾. وقدْ قالَ تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾، فشرحَ الفضلَ الكبيرَ في هذهِ الآيةِ، وبشرَ بهِ المؤمنينَ في تلكَ. ومنْ آياتِ الرجاءِ قولهُ تعالى: ﴿۞قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾. وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾. وقالَ بعضهمْ: أرجى آيةٍ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾، وذلكَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لا يرضى ببقاءِ أحدٍ منْ أمتهِ في النارِ.

السابعة والعشرون: قوله تعالى: ﴿أَن يُؤۡتُوٓاْ﴾ أيْ ألا يؤتوا، فحذفَ «لا» ﴿وَلۡيَعۡفُواْ﴾ منْ عفا الرَّبْعُ أيْ درسَ.

قولهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ تقدمَ في «النساءِ» وأجمعَ العلماءُ على أنَّ حكمَ المحصنينَ في القذفِ كحكمِ المحصناتِ قياسًا واستدلالًا، واختلفَ فيمنِ المرادُ بهذِهِ الآيةِ، فقيل: هيَ في رماةِ عائشةَ رضوانُ اللهِ عليها خاصةً. وقالَ قومٌ: هيَ في عائشةَ وسائرِ أزواجِ النبيِّ ﷺ، ولا تنفعُ التوبةُ. ومنْ قذفَ غيرهنَّ منَ المحصناتِ فقدْ جعلَ اللهُ لهُ توبةً، لأنهُ قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ إلى قولِهِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ فجعلَ اللهُ لهؤلاءِ توبةً، ولمْ يجعلْها لأولئكَ، وقيل: هذا الوعيدُ لمنْ أصرَّ ولمْ يتبْ.

الثانية: ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ قالَ العلماءُ: إنْ كانَ المرادُ بهذِهِ الآيةِ المؤمنينَ منَ القذفةِ فالمرادُ باللعنةِ الإبعادُ وضربُ الحدِّ واستيحاشُ المؤمنينَ منهمْ وهجرهمْ لهمْ، وزوالهمْ عنْ رتبةِ العدالةِ والبعدُ عنِ الثناءِ الحسنِ على ألسنةِ المؤمنينَ. وعلى قولِ منْ قالَ: هيَ خاصةٌ لعائشةَ تترتبُ هذهِ الشدائدُ في جانبِ عبدِ اللهِ بنِ أبيٍّ وأشباههِ.

قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾

قراءة العامة بالتاء، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ: «يَشْهَدُ» بالياءِ، والمعنى: يومَ تشهدُ ألسنةُ بعضهمْ على بعضٍ بما كانوا يعملونَ منَ القذفِ والبهتانِ وتتكلمُ الجوارحُ بما عملوا في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾ أيْ حسابهمْ وجزاؤهمْ ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ٢٥﴾ اسمانِ منْ أسمائه سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٢٦﴾.

الخبيثاتُ منَ النساءِ للخبيثينَ منَ الرجالِ، وكذا الخبيثونَ للخبيثاتِ، وكذا الطيباتُ للطيبينَ والطيبونَ للطيباتِ، وقالَ أكثرُ المفسرينَ: المعنى الكلماتُ الخبيثاتُ منَ القولِ للخبيثينَ منَ الرجالِ، وكذا الخبيثونَ منَ الناسِ للخبيثاتِ منَ القولِ، وكذا الكلماتُ الطيباتُ منَ القولِ للطيبينَ منَ الناسِ، والطيبونَ منَ الناسِ للطيباتِ منَ القولِ، ودلَّ على صحة هذا القول ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾ أيْ عائشةُ وصفوانُ مما يقولُ الخبيثونَ والخبيثاتُ. قيل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾ يعني بهِ الجنسَ. وقيل: عائشةَ وصفوانَ فجمعَ، كما قالَ: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ﴾ والمراد أخوان، و ﴿مُبَرَّءُونَ﴾ يعني منزهينَ مما رموا بهِ.

قالَ بعضُ أهلِ التحقيقِ: إنَّ يوسفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لما رميَ بالفاحشةِ برأهُ اللهُ على لسانِ صبيٍّ في المهدِ، وإنَّ مريمَ لما رميتْ بالفاحشةِ برأها اللهُ على لسانِ ابنها عيسى صلواتُ اللهِ عليهِ، وإنَّ عائشةَ لما رميتْ بالفاحشةِ برأها اللهُ تعالى بالقرآنِ، فما رضيَ لها ببراءةِ صبيٍّ ولا نبيٍّ حتى برأها اللهُ بكلامهِ منَ القذفِ والبهتانِ.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧﴾، فيهِ سبعَ عشرةَ مسألةً:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا﴾ أدبهمْ بما يرجعُ إلى السترِ عليهمْ لئلا يطلعَ أحدٌ منهمْ على عورةٍ. وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ أبي هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «منِ اطلعَ في بيتِ قوم منْ غيرِ إذنهمْ حلَّ لهمْ أنْ يفقئوا عينهُ». وقدِ اختلفَ في تأويلهِ، فقالَ بعضُ العلماءِ: ليس هذا على ظاهره، فإنْ فقأَ فعليهِ الضمانُ، والخبرُ منسوخٌ، وكانَ قبلَ نزولِ قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ﴾. ويحتملُ أنْ يكونَ خرجَ على وجهِ الوعيدِ لا على وجهِ الحتمِ، وقالَ بعضهمْ: لا ضمانَ عليهِ ولا قصاصَ، وهوَ الصحيحُ إنْ شاءَ اللهُ تعالى، لحديثِ أنسٍ، على ما يأتي.

الثانية: سببُ نزولِ هذهِ الآيةِ ما رواهُ الطبريُّ وغيرهُ عنْ عديِّ بنِ ثابتٍ أنَّ امرأةً منَ الأنصارِ قالتْ: يا رسولَ اللهِ، إني أكونُ في بيتي على حالٍ لا أحبُّ أنْ يراني عليها أحدٌ، لا والدٌ ولا ولدٌ فيأتي الأبُ فيدخلُ عليَّ وإنهُ لا يزالُ يدخلُ عليَّ رجلٌ منْ أهلي وأنا على تلكَ

الحالِ، فكيفَ أصنعُ؟ فنزلتِ الآيةُ. فقالَ أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسولَ اللهِ، أفرأيتَ الخاناتِ والمساكنَ في طرقِ الشامِ ليسَ فيها ساكنٌ، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾.

الثالثة: مدَّ اللهُ سبحانهُ وتعالى التحريمَ في دخولِ بيتٍ ليسَ هوَ بيتكَ إلى غايةٍ هيَ الاستئناسُ، وهوَ الاستئذانُ، قالَ مالكٌ: الاستئناسُ فيما نرى واللهُ أعلمُ الاستئذانُ، وقيل: إنَّ معنى: ﴿تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ تستعلموا، أيْ تستعلموا منْ في البيتِ بالتنحنحِ أوْ بأيِّ وجهٍ أمكنَ، ويتأنى قدرَ ما يعلمُ أنهُ قدْ شعرَ بهِ، ويدخلُ إثرَ ذلكَ. ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ أيْ علمتمْ.

قلتُ: وفي سننِ ابنِ ماجهْ عنْ أبي أيوبَ الأنصاريِّ قالَ قلنا: يا رسولَ اللهِ، هذا السلام، فما الاستئناس؟ قالَ: «يتكلمُ الرجلُ بتسبيحةٍ وتكبيرةٍ وتحميدةٍ ويتنحنحُ ويؤذنُ أهلَ البيتِ». قلتُ: وهذا نصٌّ في أنَّ الاستئناسَ غيرُ الاستئذانِ.

الرابعة: رويَ عنِ ابنِ عباسٍ أنَّ في الكلامِ تقديمًا وتأخيرًا، والمعنى: حتى تسلموا على أهلها وتستأنسوا، وفي حديثِ أبي أيوبَ أنَّ الاستئناسَ إنما يكونُ قبلَ السلامِ، وتكونُ الآيةُ على بابها لا تقديمَ فيها ولا تأخيرَ، وأنهُ إذا دخلَ سلمَ. واللهُ أعلمُ.

الخامسة: السنةُ في الاستئذانِ ثلاثُ مراتٍ لا يزادُ عليها إلا منْ علمَ أنهُ لمْ يسمعْ، وصورةُ الاستئذانِ أنْ يقولَ الرجلُ: السلامُ عليكمْ أأدخلُ، فإنْ أذنَ لهُ دخلَ، وإنْ أمرَ بالرجوعِ انصرفَ، لحديثِ أبي موسى الأشعريِّ، الذي استعملهُ معَ عمرَ بنِ الخطابِ وشهدَ بهِ لأبي موسى أبو سعيدٍ الخدريُّ، ثمَّ أُبيُّ بنُ كعبٍ. وهوَ حديثٌ مشهورٌ أخرجهُ الصحيحُ، وهوَ نصٌّ صريحٌ، فإنَّ فيهِ: فقالَ - يعني عمرَ - ما منعكَ أنْ تأتينا؟ فقلتُ: أتيتُ فسلمتُ على بابكَ ثلاثَ مراتٍ فلمْ تردَّ عليَّ فرجعتُ، وقدْ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إذا استأذنَ أحدكمْ ثلاثًا فلمْ يؤذنْ لهُ فليرجعْ».

السادسة: إنما خصَّ الاستئذانُ بثلاثٍ لأنَّ الغالبَ منَ الكلامِ إذا كررَ ثلاثًا سمعَ وفهمَ؟، ولذلكَ كانَ النبيُّ ﷺ إذا تكلمَ بكلمةٍ أعادها ثلاثًا حتى يفهمَ عنهُ، وإذا سلمَ على

قومٍ سلمَ عليهمْ ثلاثًا. والزيادةَ على ذلكَ قدْ تقلقُ ربَّ المنزلِ، وربما يضرهُ الإلحاحُ حتى ينقطعَ عما كانَ مشغولًا بهِ، كما قالَ النبيُّ ﷺ لأبي أيوبَ حينَ استأذنَ عليهِ فخرجَ مستعجلًا فقالَ: «لعلنا أعجلناكَ...» الحديثَ.

السابعة: رويَ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنَّ الاستئذانَ تركَ العملَ بهِ الناسُ. قالَ علماؤنا رحمةُ اللهِ عليهمْ: وذلكَ لاتخاذِ الناسِ الأبوابَ وقرعها، واللهُ أعلمُ. روى أبو داودَ عنْ عبدِ اللهِ بنِ بسرٍ قالَ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا أتى بابَ قومٍ لمْ يستقبلِ البابَ منْ تلقاءِ وجههِ ولكنْ منْ ركنهِ الأيمنِ أوِ الأيسرِ فيقولُ: «السلامُ عليكمْ السلامُ عليكمْ» وذلكَ أنَّ الدورَ لمْ يكنْ عليها يومئذٍ ستورٌ.

الثامنة: فإنْ كانَ البابُ مردودًا فلهُ أنْ يقفَ حيثُ شاءَ منهُ ويستأذنَ، وإنْ شاءَ دقَّ البابَ، لما رواهُ أبو موسى الأشعريِّ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان في حائطٍ بالمدينةِ على قفِّ البئرِ فمدَّ رجليهِ في البئرِ فدقَّ البابَ أبو بكرٍ فقالَ لهُ رسولُ اللهِ ﷺ: «ائذن لهُ وبشرهُ بالجنةِ».

التاسعةُ: وصفةُ الدقِّ أنْ يكونَ خفيفًا بحيثُ يسمعُ، ولا يعنفُ في ذلكَ، فقدْ روى أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه قالَ: كانتْ أبوابُ النبيِّ ﷺ تقرعُ بالأظافيرِ، ذكرهُ أبو بكرٍ الخطيبُ في جامعهِ.

العاشرة: روى الصحيحانِ وغيرهما عنْ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضي الله عنهما قالَ: استأذنتُ على النبيِّ ﷺ فقالَ: من هذا؟ فقلتُ أنا، فقالَ النبيُّ ﷺ: «أنا أنا»! كأنهُ كرهَ ذلكَ. قالَ علماؤنا: إنما كرهَ النبيُّ ﷺ ذلكَ لأنَّ قولهُ أنا لا يحصلُ بها تعريفٌ، وإنما الحكمُ في ذلكَ أنْ يذكرَ اسمهُ كما فعلَ عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه وأبو موسى، لأنَّ في ذكرِ الاسمِ إسقاطُ كلفةِ السؤالِ والجوابِ. ثبتَ عنْ عمرَ بنِ الخطابِ أنهُ أتى النبيَّ ﷺ وهوَ في مشربةٍ لهُ فقالَ: السلامُ عليكَ يا رسولَ اللهِ، السلامُ عليكمْ أيدخلُ عمرُ؟ وفي صحيحِ مسلمٍ أنَّ أبا موسى جاءَ إلى عمرَ ابنِ الخطابِ فقالَ: السلامُ عليكمْ، هذا أبو موسى، السلامُ عليكمْ، هذا الأشعريُّ... الحديثَ.

الحادية عشرة: ذكرَ الخطيبُ في جامعهِ عنْ عليِّ بنِ عاصمٍ الواسطيِّ قالَ: قدمتُ البصرةَ فأتيتُ منزلَ شعبةَ فدققتُ عليهِ البابَ فقالَ: منْ هذا؟ قلتُ أنا، فقالَ: يا هذا! ما لي صديقٌ يقالُ لهُ أنا، ثمَّ خرجَ إليَّ فقالَ: حدثني محمدِ بنِ المنكدرِ عنْ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ قالَ: أتيتُ النبيَّ ﷺ في حاجةٍ لي فطرقتُ عليهِ البابَ فقالَ: من هذا؟ فقلتُ أنا، فقالَ: «أنا أنا» كانَ

رسولُ اللهِ ﷺ كرهَ قولي هذا، أوْ قولهُ هذا.

الثانية عشرة: ثمَّ لكلِّ قومٍ في الاستئذانِ عرفهمْ في العبارةِ، كما رواهُ أبو بكرٍ الخطيبُ مسندًا عنْ أبي عبدِ الملكِ مولى أمِّ مسكينٍ بنتِ عاصمٍ بنِ عمرَ بنِ الخطابِ قالَ: أرسلتني مولاتي إلى أبي هريرةَ فجاءَ معي، فلما قامَ بالبابِ قالَ: أندر؟ قالتْ أندرون. وترجمَ عليهِ «بابُ الاستئذانِ بالفارسيةِ». وذكرَ عنْ أحمدَ بنِ صالحٍ قالَ: كانَ الدراورديُّ منْ أهلِ أصبهانَ نزلَ المدينةَ، فكانَ يقولُ للرجلِ إذا أرادَ أنْ يدخلَ: أندرون، فلقبهُ أهلُ المدينةِ الدراورديَّ.

الثالثة عشرة:- روى أبو داودَ أنَّ صفوانَ بنَ أميةَ بعثهُ إلى رسولِ اللهِ ﷺ بلبن وجداية وضغابيس والنبيُّ ﷺ بأعلى مكةَ، فدخلتُ ولمْ أسلمْ فقالَ: «ارجعْ فقلِ السلامُ عليكم» وذلك بعد ما أسلمَ صفوانُ بنُ أميةَ. وروى أبو الزبيرِ عنْ جابرٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «منْ لمْ يبدأْ بالسلام فلا تأذنوا لهُ». وذكرَ ابنُ جريجٍ أخبرني عطاءٌ قالَ: سمعتُ أبا هريرةَ يقولُ: إذا قالَ الرجلُ أدخلُ؟ ولمْ يسلمْ فقلْ لا حتى تأتيَ بالمفتاحِ، فقلتُ: السلامُ عليكمْ؟ قالَ نعمْ.

الرابعة عشرة: ومما يدخلُ في هذا البابِ ما رواهُ أبو داودَ عنْ أبي هريرةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «رسولُ الرجلِ إلى الرجلِ إذنهُ»، أيْ إذا أرسلَ إليهِ فقدْ أذنَ لهُ في الدخولِ، يبينهُ قولهُ ﷺ: «إذا دعيَ أحدكمْ إلى طعامٍ فجاءَ معَ الرسولِ فإنَّ ذلكَ لهُ إذنٌ». أخرجهُ أبو داودَ أيضًا عنْ أبي هريرةَ.

الخامسة عشرة: فإنْ وقعتِ العينُ على العينِ فالسلامُ قدْ تعينَ، ولا تعدُّ رؤيتهُ إذنًا لكَ في دخولكَ عليهِ، فإذا قضيتَ حقَّ السلامِ لأنكَ الواردُ عليهِ تقولُ: أدخلُ؟ فإنْ أذنَ لكَ وإلا رجعت.

السادسة عشرة: هذهِ الأحكامُ كلها إنما هيَ في بيتٍ ليسَ لكَ، فأما بيتكَ الذي تسكنهُ فإنْ كانَ فيهِ أهلكَ فلا إذنَ عليها، إلا أنكَ تسلمُ إذا دخلتَ. قالَ قتادةُ: إذا دخلتَ بيتكَ فسلمْ على أهلكَ، فهمْ أحقُّ منْ سلمتَ عليهمْ. فإنْ كانَ فيهِ معكَ أمكَ أوْ أختكَ فقالوا: تنحنحْ واضربْ برجلكَ حتى ينتبها لدخولكَ، لأنَّ الأهلَ لا حشمةَ بينكَ وبينها. وأما الأمُّ والأختُ فقدْ يكونا على حالةٍ لا تحبُّ أنْ تراهما فيها.

السابعة عشرة: فإنْ دخلَ بيتَ نفسهِ وليسَ فيهِ أحدٌ، فقالَ علماؤنا: يقولُ السلامُ علينا منْ ربنا التحياتُ الطيباتُ المباركاتُ، للهِ السلامُ. رواهُ ابنُ وهبٍ عنِ النبيِّ ﷺ، وسندهُ ضعيفٌ. وقالَ قتادةُ: إذا دخلتَ بيتًا ليسَ فيهِ أحدٌ فقلِ السلامُ علينا وعلى عبادِ اللهِ الصالحينَ، فإنهُ يؤمرُ بذلكَ. قالَ: وذكرَ لنا أنَّ الملائكةَ تردُّ عليهمْ. قالَ ابنُ العربيِّ: والصحيحُ تركُ السلامِ والاستئذانِ، واللهُ أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: الضميرُ في ﴿تَجِدُوا۟ فِيهَآ﴾ لبيوت الغيرِ.

الثانية: ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ سواءٌ كانَ البابُ مغلقًا أوْ مفتوحًا، لأنَّ الشرعَ قدْ أغلقهُ بالتحريمِ للدخولِ حتى يفتحهُ الإذنُ منْ ربهِ، وروى الصحيح عنْ سهلِ بنِ سعدٍ أنَّ رجلًا اطلعَ في جحرٍ في بابَ رسولِ اللهِ ﷺ ومعَ رسولِ اللهِ ﷺ مدرى يرجلُ بهِ رأسهُ، فقالَ لهُ رسولُ اللهِ ﷺ: «لوْ أعلمُ أنكَ تنظرُ لطعنتُ بهِ في عينكَ إنما جعلَ اللهُ الإذنَ منْ أجلِ البصرِ». وروِيَ عنْ أنسٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «لوْ أنَّ رجلًا اطلعَ عليكَ بغيرِ إذنٍ فحذفتهُ بحصاةٍ ففقأتَ عينهُ ما كانَ عليكَ منْ جناحٍ».

الثالثة: إذا ثبتَ أنَّ الإذنَ شرط في دخوله المنزلِ فإنهُ يجوزُ منَ الصغيرِ والكبيرِ، وقدْ كانَ أنسُ بنُ مالكٍ دونَ البلوغِ يستأذنُ على رسولِ اللهِ ﷺ، وكذلكَ الصحابةُ معَ أبنائهمْ وغلمانهمْ رضي الله عنهم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ توعدٌ لأهلِ التجسسِ على البيوتِ وطلبِ الدخولِ على غفلةٍ للمعاصي والنظرِ إلى ما لا يحلُّ ولا يجوزُ، ولغيرهم ممن يقع في محظور.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: أباحَ اللهُ تعالى فيها رفعَ الاستئذانِ في كلِّ بيتٍ لا يسكنهُ أحدٌ، لأنَّ العلةَ في الاستئذانِ إنما هيَ لأجلِ خوفِ الكشف على الحرماتِ، فإذا زالتِ العلةُ زالَ الحكمُ.

الثانية: ﴿فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْۚ﴾ ليسَ يعني بالمتاعِ الجهازَ فقط، ولكنْ ما سواهُ منَ الحاجةِ، إما منزلٌ ينزلهُ قومٌ منْ ليلٍ أوْ نهارٍ، أوْ خربةٌ يدخلها لقضاءِ حاجةٍ، أوْ دارٌ ينظرُ إليها فهذا متاعٌ وكلُّ منافعِ الدنيا متاعٌ، والمتاعُ في كلامِ العربِ: المنفعةُ، ومنهُ أمتع الله بك. ومنه ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾، فتدخل فيها المدارسُ لطلبِ العلمِ، والساكنُ يدخلُ الخاناتِ وهيَ الفنادقُ، والزبونُ يدخلُ الدكانَ للابتياعِ، والحاقنُ يدخلُ الخلاءَ للحاجةِ، وكلٌّ يؤتى على وجههِ منْ بابهِ.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾، فيهِ سبعُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ وصلَ تعالى بذكرِ السترِ ما يتعلقُ بهِ منْ أمرِ النظرِ، يقالُ: غضَّ بصرهُ يغضهُ غضًا، قالَ الشاعرُ:

فغضَّ الطرفَ إنكَ منْ نميرٍ فلا كعبًا بلغتَ ولا كلابًا

وقالَ عنترةُ:

وأغضَّ طرفي ما بدتْ لي جارتي حتى يواريَ جارتي مأواها

ولمْ يذكرِ اللهُ تعالى ما يغضُّ البصرُ عنهُ ويحفظُ الفرجُ، غيرَ أنَّ ذلكَ معلومٌ بالعادةِ، وأنَّ المرادَ منهُ المحرمُ دونَ المحللِ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ ﴿مِن﴾ زائدةٌ، كقولهِ: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ﴾، وقيل: ﴿مِن﴾ للتبعيضِ، لأنَّ منَ النظرِ ما يباحُ. وقيل: الغضُّ النقصانُ،

يقالُ: غضَّ فلانٌ منْ فلانٍ أيْ وضعَ منهُ، فالبصرُ إذا لمْ يمكنْ منْ عملِهِ فهوَ موضوعٌ منهُ ومنقوص. ف ﴿مِن﴾ من صلة الغض، وليست للتبعيض ولا للزيادة.

البصرُ هوَ البابُ الأكبرُ إلى القلبِ، وأعمرُ طرقِ الحواسِّ إليهِ، وبحسبِ ذلكَ كثرَ السقوطُ منْ جهتِهِ. ووجبَ التحذيرُ منهُ، وغضهُ واجبٌ عنْ جميعِ المحرماتِ، وكلِّ ما يخشى الفتنةُ منْ أجلِهِ، وقدْ قالَ ﷺ: «إياكمْ والجلوسَ على الطرقاتِ» فقالوا: يا رسولَ اللهِ، ما لنا منْ مجالسنا بدٌّ نتحدثُ فيها. فقالَ: «فإذا أبيتمْ إلا المجلسَ فأعطوا الطريقَ حقهُ» قالوا: وما حقُّ الطريقِ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «غضُّ البصرِ وكفُّ الأذى وردُّ السلامِ والأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عنِ المنكرِ». رواهُ أبو سعيدٍ الخدريُّ، خرجهُ البخاريُّ ومسلمٌ. وقالَ ﷺ لعليٍّ: «لا تتبعِ النظرةَ النظرةَ فإنما لكَ الأولى وليستْ لكَ الثانيةُ».

وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ جريرِ بنِ عبدِ اللهِ قالَ: سألتُ رسولَ اللهِ ﷺ عنْ نظرةِ الفجاءةِ، فأمرني أنْ أصرفَ بصري. وهذا يقوي قولَ منْ يقولُ: إنَّ «منْ» للتبعيضِ، لأنَّ النظرةَ الأولى لا تملكُ فلا تدخلُ تحتَ خطابِ تكليفٍ، ولمْ يقلْ ذلكَ في الفرجِ، لأنها تملكُ. ولقدْ كرهَ الشعبيُّ أنْ يديمَ الرجلُ النظرَ إلى ابنتِهِ أوْ أمِهِ أوْ أختِهِ، وزمانهُ خيرٌ منْ زماننا هذا! وحرامٌ على الرجلِ أنْ ينظرَ إلى ذاتٍ محرمةٍ نظرَ شهوةٍ يرددها.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾ أيْ يستروها عنْ أنْ يراها منْ لا يحلُّ. وقيل: ﴿وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾ أيْ عنِ الزنى، وعلى هذا القولِ لوْ قالَ: «منْ فروجهمْ» لجازَ. والصحيحُ أنَّ الجميعَ مرادٌ واللفظَ عامٌّ. وروى بهزُ بنُ حكيمِ بنِ معاويةَ القشيريُّ عنْ أبيهِ عنْ جدهِ قالَ: قلتُ يا رسولَ اللهِ، عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ قال: «احفظ عورتكَ إلا منْ زوجتكَ أوْ ما ملكتْ يمينكَ».

الخامسة: بهذهِ الآيةِ حرّمَ العلماءُ نصًا دخولَ الحمامِ بغيرِ مئزرٍ، ودخولهُ جائزٌ للرجالِ بالمآزرِ، وكذلكَ النساءُ للضرورةِ كغسلهنَّ منَ الحيضِ أوِ النفاسِ أوْ مرضٍ يلحقهنَّ، والأولى بهنَّ والأفضلُ لهنَّ غسلهنَّ إنْ أمكنَ ذلكَ في بيوتهنَّ.

السادسة: قالَ العلماءُ: فإنِ استترَ فليدخلْ بشروطٍ: فيعتمدَ أوقاتَ الخلوةِ أوْ قلةَ الناسِ.

وأنْ يكونَ نظرهُ إلى الأرضِ أوْ يستقبلَ الحائطَ لئلا يقعَ بصرهُ على محظورٍ، وأنْ يغيرَ ما يرى منْ منكرٍ برفقٍ، وأنْ يدخلهُ بأجرةٍ معلومةٍ بشرطٍ أوْ بعادةِ الناسِ، وأنْ يصبَّ الماءَ على قدرِ الحاجةِ.

السابعة: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أيْ غضُّ البصرِ وحفظُ الفرجِ أطهرُ في الدينِ وأبعدُ منْ دنسِ الآثام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ﴾ أيْ عالمٌ ﴿بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ تهديدٌ ووعيدٌ.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿مِن زِينَتِهِنَّ﴾، فيهِ ثلاثٌ وعشرونَ مسألةً:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ خصَّ اللهُ سبحانهُ وتعالى الإناثَ هنا بالخطابِ على طريقِ التأكيدِ، فإنَّ قولهُ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يكفي، لأنهُ قولٌ عامٌّ يتناولُ الذكر والأنثى منَ المؤمنينَ، حسبَ كلِّ خطابٍ عامٍّ في القرآنِ، وبدأَ بالغضِّ قبلَ الفرجِ لأنَّ البصرَ رائدٌ للقلبِ، كما أنَّ الحمى رائدُ الموتِ، وفي الخبرِ «النظرُ سهمٌ منْ سهامِ إبليسَ مسمومٌ فمنْ غضَّ بصرهُ أورثهُ اللهُ الحلاوةَ في قلبهِ»، فأمرَ اللهُ سبحانهُ وتعالى المؤمنينَ والمؤمناتِ بغضِّ الأبصارِ عما لا يحلُّ، فلا يحلُّ للرجلِ أنْ ينظرَ إلى المرأةِ ولا المرأةُ إلى الرجلِ، فإنَّ علاقتها بهِ كعلاقتهِ بها، وقصدها منهُ كقصدهِ منها. وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ أبي هريرةَ قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إنَّ اللهَ كتبَ على ابنِ آدمَ حظهُ منَ الزنى أدركَ ذلكَ لا محالةَ فالعينانِ تزنيانِ وزناهما النظرُ...» الحديثَ، وفي الصحيحينِ عنهُ ﷺ أنهُ صرفَ وجهَ الفضلِ عنْ الخثعميةِ حينَ سألتهُ، وطفقَ الفضلُ ينظرُ إليها، فلا يحلُّ لامرأةٍ تؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ أنْ تبديَ زينتها إلا لمنْ تحلُّ لهُ، أوْ لمنْ هيَ محرمةٌ عليهِ على التأبيدِ، فهوَ آمنٌ أنْ يتحركَ طبعهُ إليها لوقوعِ اليأسِ لهُ منها.

الثانية: روى الترمذيُّ عنْ نبهانَ مولى أمِّ سلمةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ لها ولميمونةَ وقدْ دخلَ عليها ابنُ أمِّ مكتومٍ: «احتجبا» فقالتا: إنهُ أعمى، قالَ: «أفعمياوانِ أنتما ألستما تبصرانهِ».

فإنْ قيل: هذا الحديثُ لا يصحُّ عندَ أهلِ النقلِ لأنَّ راويهُ عنْ أمِّ سلمةَ نبهانُ مولاها وهوَ ممنْ لا يحتجُّ بحديثهِ. وعلى تقديرِ صحتهِ فإنَّ ذلكَ منهُ ﷺ تغليظٌ على أزواجهِ

لحرمتهنَّ كما غُلِّظَ عليهنَّ أمرُ الحجاب، كما أشارَ إليهِ أبو داودَ وغيرهُ منَ الأئمةِ. ويبقى معنى الحديثِ الصحيحِ الثابتِ وهوَ أنَّ النبيَّ ﷺ أمرَ فاطمةَ بنتَ قيسٍ أنْ تعتدَّ في بيتِ أمِّ شريكٍ، ثمَّ قالَ: «تلكَ امرأةٌ يغشاها أصحابي اعتدي عندَ ابنِ أمِّ مكتومٍ فإنهُ رجلٌ أعمى تضعينَ ثيابكِ ولا يراكِ».

قلنا: قدِ استدلَّ بعضُ العلماءِ بهذا الحديثِ على أنَّ المرأةَ يجوزُ لها أنْ تطلعَ منَ الرجلِ على ما لا يجوزُ للرجلِ أنْ يطلعَ منَ المرأةِ كالرأسِ ومعلقِ القرطِ، وأما العورةُ فلا. فعلى هذا يكونُ مخصصًا لعمومِ قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾، وتكونُ ﴿مِن﴾ للتبعيضِ كما هيَ في الآيةِ قبلها. قالَ ابنُ العربيِّ: وإنما أمرها بالانتقالِ منْ بيتِ أمِّ شريكٍ إلى بيتِ ابنِ أمِّ مكتومٍ لأنَّ ذلكَ أولى بها منْ بقائها في بيت أم شريكٍ، إذْ كانتْ أمُّ شريكٍ مؤثرةً بكثرةِ الداخلِ إليها، فيكثرُ الرائي لها، وفي بيتِ ابنِ أمِّ مكتومٍ لا يراها أحدٌ، فكانَ إمساكُ بصرها عنهُ أقربُ منْ ذلكَ وأولى، فرخصَ لها في ذلكَ، واللهُ أعلمُ.

الثالثة: أمرَ اللهُ سبحانهُ وتعالى النساءَ بألا يبدينَ زينتهنَّ للناظرينَ ثمَّ استثنى ما يظهرُ منَ الزينةِ، واختلفَ الناسُ في قدرِ ذلكَ، فقالَ ابنُ مسعودٍ: ظاهرُ الزينةِ هوَ الثيابُ، وقالَ ابنُ جبيرٍ وعطاءٌ والأوزاعيُّ: الوجهُ والكفانِ والثيابُ. وقالَ ابنُ عباسٍ وقتادةُ والمسورُ بنُ مخرمةَ: ظاهرُ الزينةِ هوَ الكحلُ والسوارُ والخضابُ إلى نصفِ الذراعِ والقرطةُ والفتخُ، ونحوُ هذا فمباحٌ أنْ تبديهُ المرأةُ لكلِّ منْ دخلَ عليها منَ الناسِ، وذكر الطبري عن قتادةَ في معنى نصفِ الذراعِ حديثًا عنِ النبيِّ ﷺ، وذكرُ آخرَ عنْ عائشةَ رضي الله عنها عنِ النبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «لا يحلُّ لامرأةٍ تؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ إذا عركتْ أنْ تظهرَ إلا وجهها ويديها إلى ها هنا» وقبضَ على نصفِ الذراعِ.

قالَ ابنُ عطيةَ: ويظهرُ لي بحكمِ ألفاظِ الآيةِ أنَّ المرأةَ مأمورةٌ بألا تبديَ وأنْ تجتهدَ في الإخفاءِ لكلِّ ما هوَ زينةٌ، ووقعَ الاستثناءُ فيما يظهرُ بحكمِ ضرورةِ حركةٍ فيما لا بدَّ منهُ، أوْ إصلاحِ شأنٍ ونحوِ ذلكَ. فَـ«ما ظهرَ» على هذا الوجهِ مما تؤدي إليهِ الضرورةُ في النساءِ فهوَ المعفوُّ عنهُ.

قلتُ: هذا قولٌ حسنٌ، إلا أنهُ لما كانَ الغالبُ منَ الوجهِ والكفينِ ظهورهما عادةً وعبادةً

وذلكَ في الصلاةِ والحجِّ، فيصلحُ أنْ يكونَ الاستثناءُ راجعًا إليهما. يدلُّ على ذلكَ ما رواهُ أبو داودَ عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنَّ أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا دخلت على رسولِ اللهِ ﷺ وعليها ثيابٌ رقاقٌ، فأعرضَ عنها رسولَ اللهِ ﷺ وقالَ لها: «يا أسماءُ إنَّ المرأةَ إذا بلغتِ المحيضَ لمْ يصلحْ أنْ يرى منها إلا هذا» وأشارَ إلى وجههِ وكفيهِ. فهذا أقوى منْ جانبِ الاحتياطِ، ولمراعاةِ فسادِ الناسِ فلا تبدي المرأةُ منْ زينتها إلا ما ظهرَ منْ وجهها وكفيها.

وقدْ قالَ ابنُ خويزِ منداد منْ علمائنا: إنَّ المرأةَ إذا كانتْ جميلةً وخيفَ منْ وجهها وكفيها الفتنةُ فعليها سترُ ذلكَ، وإنْ كانتْ عجوزًا أوْ مقبحةً جازَ أنْ تكشفَ وجهها وكفيها.

الرابعة: الزينةُ على قسمينِ: خلقيةٌ ومكتسبةٌ، فالخلقيةُ وجهها فإنهُ أصلُ الزينةِ وجمالُ الخلقةِ ومعنى الحيوانيةِ، لما فيهِ منَ المنافعِ وطرقِ العلومِ. وأما الزينةُ المكتسبةُ فهيَ ما تحاولهُ المرأةُ في تحسينِ خلقتها، كالثيابِ والحليِّ والكحلِ والخضابِ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾.

الخامسة: منَ الزينةِ ظاهرٌ وباطنٌ، فما ظهرَ فمباحٌ أبدًا لكلِّ الناسِ منَ المحارمِ والأجانبِ، وقدْ ذكرنا ما للعلماءِ فيهِ. وأما ما بطنَ فلا يحلُّ إبداؤهُ إلا لمنْ سماهمُ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ، أوْ حلَّ محلهمْ. واختلفَ في السوارِ، فقالت عائشة: هي من الزينة الظاهرة لأنه في اليدين. وقال مجاهد: هو منَ الزينةِ الباطنةِ، لأنها خارجٌ عنِ الكفينِ وإنما يكون في الذراعِ. قالَ ابنُ العربيِّ: وأما الخضابُ فهوَ منَ الزينةِ الباطنةِ إذا كانَ في القدمينِ.

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ سببُ هذهِ الآيةِ أنَّ النساءَ كنَّ في ذلكَ الزمانِ إذا غطينَ رؤوسهنَّ بالأخمرةِ وهيَ المقانعُ سدلنها منْ وراءِ الظهرِ، فيبقى النحرُ والعنقُ والأذنانِ لا سترَ على ذلكَ، فأمرَ اللهُ تعالى بليِّ الخمارِ على الجيوبِ، وهيئةُ ذلكَ أنْ تضربَ المرأةُ بخمارها على جيبها لتسترَ صدرها. روى البخاريُّ عنْ عائشةَ أنها قالتْ: رحمَ اللهُ نساءَ المهاجراتِ الأولِ، لما نزلَ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققنَ أزرهنَّ فاختمرنَ بها.

السابعة: الخمرُ: جمعُ الخمارِ، وهوَ ما تغطي بهِ رأسها، ومنهُ اختمرتِ المرأةُ

وتخمرتْ، والجيوبُ: جمعُ الجيبِ، وهوَ موضعُ القطعِ منَ الدرعِ والقميصِ، وهوَ منَ الجوبِ وهوَ القطعُ. ومشهورُ القراءةِ ضمُّ الجيمِ منْ ﴿جُيُوبِهِنَّ﴾. وقرأَ بعضُ الكوفيينَ: بكسرِها بسببِ الياءِ، كقراءتِهمْ ذلكَ في: بيوتٍ وشيوخٍ.

الثامنة: في هذهِ الآيةِ دليلٌ على أنَّ الجيبَ إنما يكونُ في الثوبِ موضعَ الصدرِ، وقدْ ترجمَ البخاريُّ رحمةُ اللهِ تعالى عليهِ «بابَ جيبِ القميصِ منْ عندِ الصدرِ وغيرِهِ» وساقَ حديثَ أبي هريرةَ قالَ: «ضربَ رسولُ اللهِ ﷺ مثلَ البخيلِ والمتصدقِ كمثلِ رجلينِ عليهما جبتانِ منْ حديدٍ قدِ اضطرتْ أيديهما إلى ثديهما وتراقيهما...» الحديثَ. وفيهِ: قالَ أبو هريرةَ: فأنا رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ بأصبعيهِ هكذا في جيبِهِ، فلوْ رأيتَهُ يوسعها ولا تتوسعُ. فهذا يبينُ لكَ أنَّ جيبَهُ ﷺ كانَ في صدرِهِ، لأنهُ لوْ كانَ في منكبِهِ لمْ تكنْ يداهُ مضطرةً إلى ثدييهِ وتراقيهِ. وهذا استدلالٌ حسنٌ.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ البعل هوَ الزوجُ والسيدُ في كلامِ العربِ، ومنهُ قولُ النبيِّ ﷺ في حديثِ جبريلَ: «إذا ولدتِ الأمةُ بعلها» يعني سيدها، إشارةٌ إلى كثرةِ السراريِّ بكثرةِ الفتوحاتِ، فيأتي الأولادُ منَ الإماءِ فتعتقُ كلُّ أمٍّ بولدها وكأنهُ سيدها الذي منَّ عليها بالعتقِ، إذْ كانَ العتقُ حاصلًا لها منْ سببهِ.

مسألةٌ- فالزوجُ والسيدُ يرى الزينةَ منَ المرأةِ وأكثرَ منَ الزينةِ إذْ كلُّ محلٍّ منْ بدنها حلالٌ لهُ لذةً ونظرًا. ولهذا المعنى بدأَ بالبعولةِ، لأنَّ اطلاعهمْ يقعُ على أعظمِ منْ هذا، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾.

العاشرة: اختلفَ الناسُ في جوازِ نظرِ الرجلِ إلى فرجِ المرأةِ، على قولينِ:

أحدهما- يجوزُ، لأنهُ إذا جازَ لهُ التلذذُ بهِ فالنظرُ أولى. وقيل: لا يجوز، لقول عائشة رضي الله عنها في ذكرِ حالها معَ رسولِ اللهِ ﷺ: «ما رأيتُ ذلكَ منهُ ولا رأى ذلكَ مني» والأولُ أصحُّ، وهذا محمولٌ على الأدبِ.

الحادية عشرة: لما ذكرَ اللهُ تعالى الأزواجَ وبدأَ بهمْ ثنى بذوي المحارمِ وسوى بينهمْ في

إبداءِ الزينةِ، ولكنْ تختلفُ مراتبهمْ بحسبِ ما في نفوسِ البشرِ. فلا مريةَ أنَّ كشفَ الأبِ والأخِ على المرأةِ أحوطُ منْ كشفِ ولدِ زوجها. وتختلفُ مراتبُ ما يبدى لهمْ، فيبدى للأبِ ما لا يجوزُ إبداؤهُ لولدِ الزوجِ.

وقدْ ذكرَ القاضي إسماعيلُ عنِ الحسنِ والحسينِ رضي الله عنهما أنهما كانا لا يريانِ أمهاتِ المؤمنينَ. وقالَ ابنُ عباسٍ: إنَّ رؤيتهما لهنَّ تحلُّ. قالَ إسماعيلُ: أحسبُ أنَّ الحسنَ والحسينَ ذهبا في ذلكَ إلى أنَّ أبناءَ البعولةِ لمْ يذكروا في الآيةِ التي في أزواجِ النبيِّ ﷺ، وهيَ قولهُ تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾، وقالَ في سورةِ النورِ: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ الآيةَ. فذهبَ ابنُ عباسٍ إلى هذهِ الآيةِ، وذهبَ الحسنُ والحسينُ إلى الآيةِ أخرى.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ يريدُ ذكورَ أولادِ الأزواجِ، ويدخلُ فيهِ أولادُ الأولادِ وإنْ سفلوا، منْ ذكرانٍ كانوا أوْ إناثٍ، كبني البنينَ وبني البناتِ. وكذلكَ آباءُ البعولةِ والأجدادُ وإنْ علوا منْ جهةِ الذكرانِ لآباءِ الآباءِ وآباءِ الأمهاتِ، وكذلكَ أبناؤهنَّ وإنْ سفلوا. وكذلكَ أبناءُ البناتِ وإنْ سفلنَ، فيستوي فيهِ أولادُ البنينَ وأولادُ البناتِ. وكذلكَ أخواتهنَّ، وهم من ولده الآباءِ والأمهاتِ أوْ أحدِ الصنفينِ. وكذلكَ بنو الإخوة وبنو الأخواتِ وإنْ سفلوا منْ ذكرانٍ كانوا أوْ إناثٍ كبني بني الأخواتِ وبني بناتِ الأخواتِ.

والجمهورُ على أنَّ العمَّ والخالَ كسائرِ المحارمِ في جوازِ النظرِ لهما إلى ما يجوزُ لهمْ. وليسَ في الآيةِ ذكرُ الرضاعِ، وهوَ كالنسبِ على ما تقدمَ. وعندَ الشعبيِّ وعكرمةَ ليسَ العمُّ والخالُ منَ المحارمِ. وقالَ عكرمةُ: لمْ يذكرهما في الآيةِ لأنهما تبعانِ لأبنائهما.

الثالثة عشرة:- قوله تعالى: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني المسلماتِ، ويدخلُ في هذا الإماءُ المؤمناتُ، ويخرجُ منهُ نساءُ المشركينَ منْ أهلِ الذمةِ وغيرهمْ، فلا يحلُّ لامرأةٍ مؤمنةٍ أنْ تكشفَ شيئًا منْ بدنها بينَ يدي امرأةٍ مشركةٍ إلا أنْ تكونَ أمةً لها، فذلكَ قولهُ تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾، وفي هذهِ المسألةِ خلافٌ للفقهاءِ. فإنْ كانتِ الكافرةُ أمةً لمسلمةٍ جازَ أنْ تنظرَ إلى سيدتها، وأما غيرها فلا، لانقطاعِ الولايةِ بينَ أهلِ الإسلامِ وأهلِ الكفرِ، واللهُ أعلمُ.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾ ظاهرُ الآيةِ يشملُ العبيدَ والإماءَ المسلماتِ والكتابياتِ. وهوَ قولُ جماعةٍ منْ أهلِ العلمِ، وهوَ الظاهرُ منْ مذهبِ عائشةَ وأمِّ سلمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وقالَ ابنُ عباسٍ: لا بأسَ أنْ ينظرَ المملوكُ إلى شعرِ مولاتِهِ، وقالَ سعيدُ بنُ المسيبِ: لا تغرنكمْ هذهِ الآيةُ ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾ إنما عنيَ بها الإماءُ ولمْ يعنَ بها العبيدُ. وكانَ الشعبيُّ يكرهُ أنْ ينظرَ المملوكُ إلى شعرِ مولاتِهِ. وهوَ قولُ مجاهدٍ وعطاءٍ، وروى أبو داودَ عنْ أنسٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أتى فاطمةَ بعبدٍ قدْ وهبهُ لها، قالَ: وعلى فاطمةَ ثوبٌ إذا غطتْ بهِ رأسها لمْ يبلغْ إلى رجليها، وإذا غطتْ بهِ رجليها لمْ يبلغْ إلى رأسها، فلما رأى النبيُّ ﷺ ما تلقى منْ ذلكَ قالَ: «إنهُ لا بأسَ عليكِ إنما هوَ أبوكِ وغلامكِ».

الخامسة عشرة: قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ أيْ غيرِ أولي الحاجةِ والإربةُ الحاجةُ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾، واختلفَ الناسُ في معنى قولهِ: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ﴾ فقيلَ: هوَ الأحمقُ الذي لا حاجةَ بهِ إلى النساءِ. وقيلَ: الأبلهُ، وقيلَ: العنينُ. وقيلَ: الخصيُّ. وقيلَ: المخنثُ. وقيلَ: الشيخُ الكبيرُ، والصبيُّ الذي لمْ يدركْ. وهذا الاختلافُ كلهُ متقاربُ المعنى، ويجتمعُ فيمنْ لا فهمَ لهُ ولا همةَ ينتبهُ بها إلى أمرِ النساءِ.

وبهذهِ الصفةِ كانَ هِيت المخنثُ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ، فلما سمعَ منهُ ما سمعَ منْ وصفِ محاسنِ المرأة: بادية بنت غيلانَ، أمرَ بالاحتجابِ منهُ. أخرجَ حديثهُ مسلمٌ عنْ هشامِ بنِ عروةَ عنْ عروةَ عنْ عائشةَ.

وذكرَ الواقديُّ والكلبيُّ أنَّ هيتًا المخنثَ قالَ لعبدِ اللهِ بنِ أميةَ المخزوميِّ وهوَ أخو أمِّ سلمةَ لأبيها، وأمهُ عاتكةَ عمةِ رسولِ اللهِ ﷺ، قال لهُ وهوَ في بيتِ أختهِ أمِّ سلمةَ ورسولُ اللهِ ﷺ يسمعُ: إنْ فتحَ اللهُ عليكمُ الطائفَ فعليكَ ببادية بنتِ غيلانَ بنِ سلمةَ الثقفيِّ، فإنها تقبلُ بأربعٍ وتدبرُ بثمانٍ، معَ ثغرٍ كالأقحوانِ، إنْ جلستْ تبنتْ وإنْ تكلمتْ تغنتْ، بينَ رجليها كالإناءِ المكفوءِ.

فقالَ لهُ النبيُّ ﷺ: «لقدْ غلغلتَ النظرَ إليها يا عدوَّ اللهِ». ثمَّ أجلاهُ عنِ المدينةِ إلى الحمى.

السادسة عشرة: وصفَ التابعينَ بـ ﴿غَيۡرِ﴾ لأنَّ التابعينَ غيرُ مقصودينَ بأعيانهِمْ، فصارَ اللفظُ كالنكرةِ. وَ ﴿غَيۡرِ﴾ لا يتمحضُ نكرةً فجازَ أنْ يجريَ وصفًا على المعرفةِ. وإنْ شئتَ قلتَ هوَ بدلٌ. والقولُ فيها كالقولِ في ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾. وقرأَ عاصمٌ وابنُ عامرٍ «غَيْرَ» بالنصبِ فيكونُ استثناءً، أيْ يبدينَ زينتهنَّ للتابعينَ إلا ذا الإربةِ منهمْ.

السابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ﴾ اسمُ جنسٍ بمعنى الجمعِ، والدليلُ على ذلكَ نعتهُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، ويقالُ: طفلٌ ما لمْ يراهقِ الحلم. و ﴿يَظۡهَرُواْ﴾ معناه يطلعوا بالوطء، أيْ لمْ يكشفوا عنْ عوراتهنَّ للجماعِ لصغرهنَّ.

الثامنة عشرة: اختلفَ العلماءُ في وجوبِ سترِ ما سوى الوجهِ والكفينِ منهُ على قولينِ:

أحدهما- لا يلزمُ، لأنهُ لا تكليفَ عليهِ، وهوَ الصحيحُ.

والآخرُ- يلزمهُ، لأنهُ قدْ يشتهي وقدْ تشتهي أيضًا هيَ، فإنْ راهقَ فحكمهُ حكمُ البالغِ في وجوبَ السترِ. ومثلهُ الشيخُ الذي سقطتْ شهوتهُ اختلفَ فيهِ أيضًا على قولينِ كما في الصبيِّ، والصحيحُ بقاءُ الحرمةِ.

التاسعة عشرة: أجمعَ المسلمونَ على أن السوأتين عورةٌ منَ الرجلِ والمرأةِ، وأنَّ المرأةَ كلها عورةٌ، إلا وجهها ويديها فإنهمُ اختلفوا فيهما. وقالَ أكثرُ العلماءِ في الرجلِ: منْ سرتهِ إلى ركبتهِ عورةٌ، لا يجوزُ أنْ ترى.

الموفية عشرين: قالَ أصحابُ الرأيِ: عورةُ المرأةِ معَ عبدها منَ السرةِ إلى الركبةِ. وكأنهمْ ظنوها رجلًا أوْ ظنوهُ امرأةً، واللهُ تعالى قدْ حرمَ المرأةَ على الإطلاقِ لنظرٍ أوْ لذةٍ، ثمَّ استثنى اللذةَ للأزواجِ وملكِ اليمينِ، ثمَّ استثنى الزينةَ لاثنيْ عشرَ شخصًا العبدُ منهمْ، وقدْ تأولَ بعضُ الناسِ قولهُ: ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾ على الإماءِ دونَ العبيدِ، منهمْ سعيدُ بنُ المسيبِ، فكيفَ يحملونَ على العبيدِ ثم يلحقون بالنساء هذا بعيد جدا!

الحادية والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ﴾ الآية، أيْ لا تضربُ المرأةُ برجلها إذا مشتْ لتسمعَ صوتَ خلخالها، فإسماعُ صوتِ الزينةِ كإبداءِ الزينة وأشد، والغرضُ التسترُ. وسماعُ هذهِ الزينةِ أشدُّ تحريكًا للشهوةِ منْ إبدائها.

الثانية والعشرون: منْ فعلَ ذلكَ منهنَّ فرحًا بحليهنَّ فهوَ مكروهٌ. ومنْ فعلَ ذلكَ منهنَّ تبرجًا وتعرضًا للرجالِ فهوَ حرامٌ مذمومٌ. وكذلكَ منْ ضربَ بنعلهِ منَ الرجالِ، إنْ فعلَ ذلكَ تعجبًا حرمَ، فإنَّ العجبَ كبيرةٌ. وإنْ فعلَ ذلكَ تبرجًا لمْ يجزْ.

الثالثة والعشرون: قالَ مكيٌّ رحمهُ اللهُ تعالى: ليسَ في كتابِ اللهِ تعالى آيةٌ أكثرَ ضمائرَ منْ هذهِ، جمعتْ خمسةً وعشرينَ ضميرًا للمؤمناتِ منْ مخفوضٍ ومرفوعٍ.

قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ﴾ أمرٌ. ولا خلافَ بينِ الأمةِ في وجوبِ التوبةِ، وأنها فرضٌ متعينٌ، والمعنى: وتوبوا إلى اللهِ فإنكمْ لا تخلونَ منْ سهوٍ وتقصيرٍ في أداءِ حقوقِ اللهِ تعالى، فلا تتركوا التوبةَ في كلِّ حالٍ.

الثانية: قرأَ الجمهورُ ﴿أَيُّهَ﴾ بفتحِ الهاءِ، وقرأَ ابنُ عامرٍ بضمها، ووجههُ أنْ تجعلَ الهاءُ منْ نفسِ الكلمةِ، فيكونَ إعرابُ المنادى فيها.

قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٣٢﴾﴾، فيهِ سبعُ مسائلَ:

الأولى: هذهِ المخاطبةُ تدخلُ في بابِ السترِ والصلاحِ، أيْ زوجوا منْ لا زوجَ لهُ منكمْ فإنهُ طريقُ التعففِ، والخطابُ للأولياءِ. وقيلَ: للأزواجِ. والصحيحُ الأولُ، إذْ لوْ أرادَ الأزواجَ لقالَ «وانكحوا» بغيرِ همزٍ، وكانتِ الألفُ للوصلِ. وفي هذا دليلٌ على أنَّ المرأةَ ليسَ لها أنْ تنكحَ نفسها بغيرِ وليٍّ، وهوَ قولُ أكثرِ العلماءِ. وقالَ أبو حنيفةَ: إذا زوجتِ الثيب أو البكر نفسها بغير ولى كفؤًا لها جازَ.

الثانية: اختلفَ العلماءُ في هذا الأمرِ على ثلاثةِ أقوالٍ، فقالَ علماؤنا: يختلفُ الحكمُ في ذلكَ باختلافِ حالِ المؤمنِ منْ خوفِ العنتِ، ومنْ عدمِ صبرهِ، ومنْ قوتهِ على الصبرِ وزوالِ خشيةِ العنتِ عنهُ. وإذا خافَ الهلاكَ في الدينِ أوِ الدنيا أوْ فيهما فالنكاحُ حتمٌ. وإنْ لمْ يخشَ شيئًا وكانتِ الحالُ مطلقةً فقالَ الشافعيُّ: النكاحُ مباحٌ. وقالَ مالكٌ وأبو حنيفةَ: هوَ

مستحبٌّ. تعلقَ الشافعيُّ بأنهُ قضاءُ لذةٍ فكانَ مباحًا كالأكلِ والشربِ. وتعلقَ علماؤنا بالحديثِ الصحيحِ: «منْ رغبَ عنْ سنتي فليسَ مني».

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾ أيِ الذينَ لا أزواجَ لهمْ منَ الرجالِ والنساءِ، واحدهمْ أيمٌ، واتفقَ أهلُ اللغةِ على أن الأيم في الأصل هيَ المرأةُ التي لا زوجَ لها، بكرًا كانتْ أوْ ثيبًا، يقالُ رجلٌ أيمٌ وامرأةٌ أيمٌ، وأكثرُ ما يكونُ ذلكَ في النساءِ، وهوَ كالمستعارِ في الرجالِ.

وقالَ قومٌ: هذهِ الآيةُ ناسخةٌ لحكمِ قوله تعالى: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. وقدْ بيناهُ في أولِ السورةِ والحمدُ للهِ.

الرابعة: المقصودُ منْ قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾ الحرائرَ والأحرارَ، ثمَّ بينَ حكمَ المماليكِ فقالَ: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾، والصلاحُ الإيمانُ. وقيل: المعنى ينبغي أنْ تكونَ الرغبةُ في تزويجِ الإماءِ والعبيدِ إذا كانوا صالحينَ فيجوزُ تزويجهمْ، ولكنْ لا ترغيبَ فيهِ ولا استحبابَ، كما قالَ: ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ﴾. ثمَّ قدْ تجوزُ الكتابةُ وإنْ لمْ يعلمْ أنَّ في العبدِ خيرًا، ولكنَّ الخطابَ وردَ في الترغيبِ والاستحبابِ، وإنما يستحبُّ كتابةُ منْ فيهِ خيرٌ.

الخامسة: أكثرُ العلماءِ على أنَّ للسيدِ أنْ يُكرِهَ عبدهُ وأمتهُ على النكاحِ، وهوَ قولُ مالكٍ وأبي حنيفةَ وغيرهما. قالَ مالكٌ: ولا يجوزُ ذلكَ إذا كانَ ضررًا. وروي نحوه عن الشافعيِّ، ثمَّ قالَ: ليسَ للسيدِ أنْ يكرهَ العبدَ على النكاحِ.

تمسكَ أصحابُ الشافعيِّ فقالوا: العبدُ مكلفٌ فلا يجبرُ على النكاحِ، لأنَّ التكليفَ يدلُّ على أنَّ العبدَ كاملٌ منْ جهةِ الآدميةِ، وإنما تتعلقُ بهِ المملوكيةُ فيما كانَ حظًا للسيدِ منْ ملكِ الرقبةِ والمنفعةِ، بخلافِ الأمةِ فإن لهُ حقُّ المملوكيةِ في بضعها ليستوفيهُ، فأما بضعُ العبدِ فلا حقَّ لهُ فيهِ، ولأجلِ ذلكَ لا تباحُ السيدةُ لعبدها. هذهِ عمدةُ أهلِ خراسانَ والعراقِ، وعمدتهمْ أيضًا الطلاقُ، فإنهُ يملكهُ العبدُ بتملكِ عقدهِ. ولعلمائنا النكتةُ العظمى في أنَّ مالكيةَ العبدِ استغرقتها مالكيةُ السيدِ، ولذلكَ لا يتزوجُ إلا بإذنهِ بإجماعٍ. والنكاحُ وبابهُ إنما هوَ منَ

المصالحِ، ومصلحةُ العبدِ موكولةٌ إلى السيدِ، هوَ يراها ويقيمها للعبدِ.

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ﴾ هذا وعدٌ بالغنى للمتزوجينَ طلبَ رضا اللهِ واعتصامًا منْ معاصيهِ. وقالَ ابنُ مسعودٍ: التمسوا الغنى في النكاحِ، وتلا هذهِ الآيةَ. وقالَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عجبي ممنْ لا يطلبُ الغنى في النكاحِ، وقدْ قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ﴾. وروِيَ هذا المعنى عنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أيضًا. ومنْ حديثِ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «ثلاثةٌ كلهمْ حقٌّ على اللهِ عونهُ المجاهدُ في سبيلِ اللهِ والناكحُ يريدُ العفافَ والمكاتبُ يريدُ الأداءَ». أخرجهُ ابنُ ماجهْ في سننهِ.

فإن قيل: فقدْ نجدُ الناكحَ لا يستغني، قلنا: لا يلزمُ أنْ يكونَ هذا على الدوامِ، بلْ لوْ كانَ في لحظةٍ واحدةٍ لصدقَ الوعدُ. وقدْ قيلَ: يغنيهُ، أيْ يغني النفسَ. وفي الصحيح «ليسَ الغنى عنْ كثرةِ العرضِ إنما الغنى غنى النفسِ». وقدْ قيلَ: ليسَ وعدا لا يقعُ فيهِ خلفٌ، بلِ المعنى أنَّ المالَ غادٍ ورائحٌ، فارجوا الغنى. وقيل: المعنى يغنيهم اللهُ منْ فضلهِ إنْ شاءَ، كقوله تعالى: ﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾. وقيل: المعنى إنْ يكونوا فقراءَ إلى النكاحِ يغنهم الله بالحلال ليتعففوا عن الزنى.

السابعة: هذهِ الآيةُ دليلٌ على تزويجِ الفقيرِ، ولا يقولُ كيفَ أتزوجُ وليسَ لي مالٌ، فإنَّ رزقهُ على اللهِ. وقدْ زوجَ النبيُّ ﷺ المرأةَ التي أتتهُ تهبُ لهُ نفسها لمنْ ليسَ لهُ إلا إزارٌ واحدٌ، وليسَ لها بعدَ ذلكَ فسخُ النكاحِ بالإعسارِ لأنها دخلتْ عليهِ، وإنما يكونُ ذلكَ إذا دخلتْ على اليسارِ فخرجَ معسرًا، أوْ طرأَ الإعسارُ بعدَ ذلكَ، لأنَّ الجوعَ لا صبرَ عليهِ.

قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ﴾ الخطابُ لمنْ يملكُ أمرَ نفسهِ، لا لمنْ زمامهُ بيدِ غيرهِ فإنهُ يقودهُ إلى ما يراهُ، كالمحجورِ عليه - قولًا واحدًا - والأمةُ والعبدُ على أحدِ قولي العلماء.

الثانية: «استعفف» وزنهُ استفعلَ، ومعناهُ طلبَ أنْ يكونَ عفيفًا، فأمرَ اللهُ تعالى بهذهِ الآيةِ كلَّ منْ تعذرَ عليهِ النكاحُ ولا يجدهُ بأيِّ وجهٍ تعذرَ أنْ يستعففَ. ثمَّ لما كانَ أغلبُ الموانعِ على النكاحِ عدمَ المالِ وعدَ بالإغناءِ منْ فضلهِ، فيرزقهُ ما يتزوجُ بهِ، أوْ يجدُ امرأةً ترضى باليسيرِ منَ الصداقِ، أوْ تزولُ عنهُ شهوةُ النساءِ. وروى النسائيُّ عنْ أبي هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «ثلاثةٌ كلهمْ حقٌّ على اللهِ عزَّ وجلَّ عونهمُ المجاهدُ في سبيلِ اللهِ والناكحُ الذي يريدُ العفافَ والمكاتبُ الذي يريدُ الأداءَ».

الثالثة: قوله تعالى: ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أيْ طولَ نكاحٍ، فحذفَ المضافُ. وقيل: النكاحُ ها هنا ما تنكحُ بهِ المرأةُ منَ المهرِ والنفقةِ، كاللحافِ اسمٌ لما يلتحفُ بهِ. واللباسُ اسمٌ لما يلبسُ، فعلى هذا لا حذفَ في الآيةِ، قالهُ جماعةٌ منَ المفسرينَ، وحملهمْ على هذا قولهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فظنوا أنَّ المأمورَ بالاستعفافِ إنما هوَ منْ عدمَ المالَ الذي يتزوجُ بهِ. وفي هذا القولِ تخصيصُ المأمورينَ بالاستعفافِ، وذلكَ ضعيفٌ، بلِ الأمرُ بالاستعفافِ متوجهٌ لكلِّ منْ تعذرَ عليهِ النكاحُ بأيِ وجهٍ تعذرَ.

الرابعة: منْ تاقتْ نفسهُ إلى النكاحِ ووجدَ طولا فالمستحبُّ لهُ أنْ يتزوجَ، وإنْ لمْ يجدِ استعفف ولوْ بالصومِ فإنَّ الصومَ لهُ وجاءٌ، كما جاءَ في الصحيحِ. ومنْ لمْ تتقْ نفسهُ فالأولى لهُ التخلي للعبادةِ. وفي الخبرِ: «خيركمُ الخفيفُ الحاذِ الذي لا أهلَ لهُ ولا ولدَ». وقدْ تقدمَ جوازُ نكاحِ الإماءِ عندَ عدمِ الطولِ للحرةِ في «النساءِ»، ولما لم يجعل الله له بين العفةِ والنكاحِ درجةً دلَّ على أنَّ ما عداهما محرمٌ ولا يدخلُ فيهِ ملكُ اليمينِ لأنهُ بنصٍّ آخرَ مباحٌ، وهوَ قولهُ تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ فجاءتْ فيهِ زيادةٌ، ويبقى على التحريمِ الاستمناءُ ردًا على أحمدَ، وكذلكَ يخرجُ عنهُ نكاحُ المتعةِ بنسخهِ، وتقدمَ هذا في أول «المؤمنونَ».

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ﴾، فيهِ ستَّ عشرةَ مسألةً:

الأولى: لما جرى ذكرُ العبيدِ والإماءِ فيما سبقَ وصلَ بهِ أنَّ العبدَ إنْ طلبَ الكتابَ فالمستحبُّ كتابتهُ، فربما يقصدُ بالكتابةِ أنْ يستقلَّ ويكتسبَ ويتزوجَ إذا أرادَ، فيكونَ أعفَّ لهُ.

الثانية: المكاتبةُ مفاعلةٌ مما لا تكونُ إلا بينَ اثنينِ، لأنها معاقدةٌ بينَ السيدِ وعبدهِ، يقالُ: كاتبَ يكاتبُ كتابًا ومكاتبةً، كما يقالُ: قاتلَ قتالًا ومقاتلةً. فالكتابُ في الآيةِ مصدر كالقتال والجلاد والدفاع. وقيل: الكتاب ها هنا هوَ الكتابُ المعروفُ الذي يكتبُ فيهِ الشيءُ، وذلكَ أنهمْ كانوا إذا كاتبوا العبدَ كتبوا عليهِ وعلى أنفسهمْ بذلكَ كتابًا. فالمعنى يطلبونَ العتقَ الذي يكتبُ بهِ الكتابُ فيدفعُ إليهمْ.

الثالثة: معنى المكاتبةِ في الشرعِ: هوَ أنْ يكاتبَ الرجلُ عبدهُ على مالٍ يؤديهِ منجمًا عليهِ، فإذا أداهُ فهوَ حرٌّ، ولها حالتانِ:

الأولى: أنْ يطلبها العبدُ ويجيبهُ السيدُ، فهذا مطلقُ الآيةِ وظاهرها.

الثانية: أنْ يطلبها العبدُ ويأباها السيدُ، وفيها قولانِ:

الأولُ: أنَّ ذلكَ واجبٌ على السيدِ وهو قول جماعةِ أهلِ الظاهرِ.

وقالَ علماءُ الأمصارِ: لا يجبُ ذلكَ.

وتعلقَ منْ أوجبها بمطلقِ الأمرِ، وأفعلَ بمطلقهِ على الوجوبِ حتى يأتيَ الدليلُ بغيرهِ، واحتجَّ داودُ أيضًا بأنَّ سيرينَ أبا محمدِ بنِ سيرينَ سألَ أنسَ بنَ مالكٍ الكتابةَ وهوَ مولاهُ فأبى أنسٌ، فرفعَ عمرُ عليهِ الدرةَ، وتلا: ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ﴾، فكاتبهُ أنسٌ.

قالَ داودُ: وما كانَ عمرُ ليرفعَ الدرةَ على أنسٍ فيما لهُ مباحٌ ألا يفعلهُ.

وتمسكَ الجمهورُ بأنَّ الإجماعَ منعقدٌ على أنهُ لوْ سألهُ أنْ يبيعهُ منْ غيرهِ لمْ يلزمهُ ذلكَ، ولمْ يجبرْ عليهِ وإنْ ضوعفَ لهُ في الثمنِ. وكذلكَ لوْ قالَ لهُ أعتقني أوْ دبرني أوْ زوجني لمْ

يلزمهُ ذلكَ بإجماعٍ، فكذلكَ الكتابةُ، لأنها معاوضةٌ فلا تصحُّ إلا عنْ تراضٍ. وقولهمْ: مطلقُ الأمرِ يقتضي الوجوبَ صحيحٌ، لكنْ إذا عريَ عنْ قرينةٍ تقتضي صرفهُ عنِ الوجوبِ، وتعليقهُ هنا بشرطِ علمِ الخيرِ فيهِ، فعلقَ الوجوبُ على أمرٍ باطنٍ وهوَ علمُ السيدِ بالخيريةِ.

الرابعة: واختلفَ العلماءُ في قوله تعالى: ﴿خَيْرًا﴾ فقيل: المالُ، وقيل: المالُ والأداءُ. وقيل: الدينُ والأمانةُ. وقالَ مالكٌ: سمعتُ بعضَ أهلِ العلمِ يقولونَ هوَ القوةُ على الاكتسابِ والأداءُ. وهوَ قولُ الشافعيِّ.

قالَ الطحاويُّ: وقولُ منْ قالَ إنهُ المالُ لا يصحُّ عندنا، لأنَّ العبدَ مالٌ لمولاهُ، فكيفَ يكونُ لهُ مالٌ. والمعنى عندنا: إنْ علمتمْ فيهمُ الدينَ والصدقَ، وعلمتمْ أنهمْ يعاملونكمْ على أنهمْ متعبدونَ بالوفاءِ لكمْ بما عليهمْ منَ الكتابةِ والصدقِ في المعاملةِ فكاتبوهمْ. وقالَ أبو عمرَ: منْ لمْ يقلْ إنَّ الخيرَ هنا المالُ أنكرَ أنْ يقالَ إنْ علمتمْ فيهمْ مالًا، وإنما يقالُ: علمتُ فيهِ الخيرَ والصلاحَ والأمانةَ، ولا يقالُ: علمتُ فيهِ المالَ، وإنما يقالُ علمت عنده المال.

قلتُ: وحديثُ بريرةَ يردُّ قولَ منْ قالَ: إنَّ الخيرَ المالُ، على ما يأتي.

الخامسة: اختلفَ العلماءُ في كتابةِ منْ لا حرفةَ لهُ، فكرههُ أحمدُ، ورخصَ في ذلكَ مالكٌ وأبو حنيفةَ والشافعيُّ، وقدْ رويَ عنْ مالكٍ كراهةُ ذلكَ، وأنَّ الأمةَ التي لا حرفةَ لها يكرهُ مكاتبتها لما يؤدي إليهِ منْ فسادها. والحجةُ في السنةِ لا فيما خالفها. روى الأئمةُ عنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ: دخلتْ عليَّ بريرةُ فقالتْ: إنَّ أهلي كاتبوني على تسعِ أواقٍ في تسعِ سنينَ، كلَّ سنةٍ أوقيةٌ، فأعينيني... الحديثَ. وفي هذا دليلٌ على جوازِ كتابةِ الأمةِ، وهيَ غيرُ ذاتِ صنعةٍ ولا حرفةٍ ولا مالٍ، ولمْ يسألِ النبيُّ ﷺ هلْ لها كسبٌ أوْ عملٌ واصبٌ أوْ مالٌ، ولوْ كانَ هذا واجبًا لسألَ عنهُ ليقعَ حكمهُ عليهِ، لأنهُ بعثَ مبينًا معلمًا ﷺ. وفي هذا الحديثِ ما يدلُّ على أنَّ منْ تأولَ في قوله تعالى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أنَّ المالَ الخيرُ، ليسَ بالتأويلِ الجيدِ، وأنَّ الخيرَ المذكورَ هوَ القوةُ على الاكتسابِ معَ الأمانةِ. واللهُ أعلمُ.

السادسة: الكتابةُ تكونُ بقليلِ المالِ وكثيرهِ، وتكونُ على أنجمٍ، لحديثِ بريرةَ. وهذا ما لا خلافَ فيهِ بينَ العلماءِ والحمدُ للهِ. فلوْ كاتبهُ على ألفِ درهمٍ ولمْ يذكرْ أجلًا نجمت عليهِ بقدرِ سعايتهِ وإنْ كرهَ السيدُ. قالَ الشافعيُّ: لا بدَّ فيها منْ أجلٍ، وأقلها ثلاثةُ أنجمٍ. واختلفوا

إذا وقعتْ على نجمٍ واحدٍ فأكثرُ أهلِ العلمِ يجيزونها على نجمٍ واحدٍ. وقالَ الشافعيُّ: لا تجوزُ على نجمٍ واحدٍ، ولا تجوزُ حالَّةً البتةَ، وإنما ذلكَ عتقٌ على صفةٍ، كأنهُ قالَ: إذا أديت كذا وكذا فأنتَ حرٌّ وليستْ كتابةً.

قالَ ابنُ العربيِّ: اختلفَ العلماءُ والسلفُ في الكتابةِ إذا كانتْ حالةً على قولينِ، واختلفَ قولُ علمائنا كاختلافهمْ. والصحيحُ في النظرِ أنَّ الكتابةَ مؤجلةٌ، كما وردَ بها الأثرُ في حديثِ بريرةَ حينَ كاتبتْ أهلها على تسعِ أواقٍ في كلِّ عامٍ أوقيةٌ، وكما فعلتِ الصحابةُ، ولذلكَ سميتْ كتابةً لأنها تكتبُ ويشهدُ عليها، فقدِ استوسقَ الاسمَ والأثرَ، وعضدهُ المعنى، فإنَّ المالَ إنْ جعلهُ حالًا وكانَ عندَ العبدِ شيء فهوَ مالُ مقاطعةٍ وعقدُ مقاطعةٍ لا عقدُ كتابةٍ.

وقالَ ابنُ خويزِ منداد: إذا كاتبهُ على مالٍ معجلٍ كانَ عتقًا على مالٍ، ولمْ تكنْ كتابةً. وأجازَ غيرهُ منْ أصحابنا الكتابةَ الحالةَ وسماها قطاعةً، وهوَ القياسُ، لأنَّ الأجلَ فيها إنما هوَ فسحةٌ للعبدِ في التكسبِ. ألا ترى أنهُ لوْ جاءَ بالمنجمِ عليهِ قبلَ محلهِ لوجبَ على السيدِ أنْ يأخذه ويتعجل للمكاتب عتقه. وبجواز الكتابة الحالة، قال الكوفيونَ.

قلتُ: لمْ يردْ عنْ مالكٍ نصٌّ في الكتابةِ الحالةِ، والأصحابُ يقولونَ: إنها جائزةٌ، ويسمونها قطاعةً. وأما قولُ الشافعيِّ إنها لا تجوزُ على أقلِّ منْ ثلاثةِ أنجمٍ فليسَ بصحيحٍ، لأنهُ لوْ كانَ صحيحًا لجازَ لغيرهِ أنْ يقولَ: لا يجوزُ على أقلِّ منْ خمسةِ نجومٍ، لأنها أقلُّ النجومِ التي كانتْ على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ في بريرةَ، وعلمَ بها النبيُّ ﷺ وقضى فيها، فكانَ بصوابِ الحجةِ أولى. روى البخاريُّ عنْ عائشةَ أنَّ بريرةَ دخلتْ عليها تستعينها في كتابتها وعليها خمسةُ أواقٍ نجمتْ عليها في خمسِ سنينَ... الحديثَ.

السابعة: المكاتبُ عبدٌ ما بقيَ عليهِ منْ مالِ الكتابة شيء، لقولهِ ﷺ: «المكاتبُ عبدٌ ما بقيَ عليه من مكاتبته درهم». أخرجه أبو داودَ عنْ عمرو بنِ شعيبٍ عنْ أبيهِ عنْ جدهِ، وهذا قولُ مالكٍ والشافعيِّ وأبي حنيفةَ وأصحابهمْ وأحمدَ. قالَ مالكٌ: وكلُّ منْ أدركنا ببلدنا يقولُ ذلكَ. وفيها قولٌ آخرُ رويَ عنْ عليٍّ أنهُ إذا أدى الشطرَ فهوَ غريمٌ، وعنه أيضًا يعتقُ منهُ بقدر ما أدى، وعن ابنُ مسعودٍ: إذا أدى ثلثَ الكتابةِ فهوَ عتيقٌ غريمٌ، وقيل: إذا أدى الثلاثةَ الأرباعَ وبقيَ الربعُ فهوَ غريمٌ ولا يعودُ عبدًا، وحكيَ عنْ بعضِ السلفِ أنهُ بنفسِ عقدِ الكتابةِ حرٌّ،

وهوَ غريمٌ بالكتابةِ ولا يرجعُ إلى الرقِّ أبدًا. وهذا القولُ يردهُ حديثُ بريرةَ لصحتهِ عنِ النبيِّ ﷺ. وفيهِ دليلٌ واضحٌ على أنَّ المكاتبَ عبدٌ، ولو لا ذلكَ ما بيعت بريرة، ولو كان فيها شيء منَ العتقِ ما أجازَ بيعَ ذلكَ، إذْ منْ سنتهِ المجمعِ عليها ألا يباعَ الحرُّ. وكذلكَ كتابةُ سلمانَ وجويريةَ، فإنَّ النبيَّ ﷺ حكمَ لجميعهمْ بالرقِّ حتى أدوا الكتابةَ. وهيَ حجةٌ للجمهورِ في أنَّ المكاتب عبد ما بقي عليه شيء. وقدْ ناظرَ عليَّ بنَ أبي طالبٍ زيدُ بنُ ثابتٍ في المكاتبِ، فقالَ لعليٍّ: أكنتَ راجمهُ لوْ زنى، أوْ مجيزًا شهادتهُ لوْ شهدَ؟ فقالَ عليٌّ: لا. فقالَ زيدٌ: هوَ عبد ما بقي عليه شيء.

وقدْ روى النسائيُّ عنْ عليٍّ وابنِ عباسٍ رضي الله عنهم عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: «المكاتبُ يعتقُ منهُ بقدرِ ما أدى ويقامُ عليهِ الحدُّ بقدرِ ما أدى ويرثُ بقدرِ ما عتقَ منهُ». وإسنادهُ صحيحٌ. وهوَ حجةٌ لما رويَ عنْ عليٍّ، ويعتضدُ بما رواهُ أبو داودَ عنْ أمِّ سلمةَ تقولُ: قالَ لنا رسولُ اللهِ ﷺ: «إذا كانَ لإحداكنَّ مكاتبٌ وكانَ عندهُ ما يؤدي فلتحتجبْ منهُ». وأخرجهُ الترمذيُّ وقالَ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. إلا أنهُ يحتملُ أنْ يكونَ خطابًا معَ زوجاتهِ، أخذًا بالاحتياطِ والورعِ في حقهنَّ، كما قالَ لسودةَ: «احتجبي منهُ» معَ أنهُ قدْ حكمَ بأخوتها لهُ، وبقولهِ لعائشةَ وحفصةَ: «أفعمياوانِ أنتما ألستما تبصرانهِ» يعني ابنَ أمِّ مكتومٍ، معَ أنهُ قالَ لفاطمةَ بنتِ قيسٍ: «اعتدي عندَ ابنِ أمِّ مكتومٍ» وقدْ تقدمَ هذا المعنى.

الثامنة: أجمع العلماء على أنَّ المكاتبَ إذا حلَّ عليهِ نجمٌ منْ نجومهِ أوْ نجمانِ أوْ نجومهُ كلها فوقفَ السيدُ عنْ مطالبتهِ وتركهُ بحالهِ أنَّ الكتابةَ لا تنفسخُ ما داما على ذلكَ ثابتينِ.

التاسعة: قالَ مالكٌ: ليسَ للعبدِ أنْ يعجزَ نفسهُ إذا كانَ لهُ مالٌ ظاهرٌ، وإنْ لمْ يظهرْ لهُ مالٌ فذلكَ إليهِ. وقالَ الأوزاعيُّ: لا يمكنُ منْ تعجيزِ نفسهِ إذا كانَ قويًا على الأداءِ. وقالَ الشافعيُّ: لهُ أنْ يعجزَ نفسهُ، علمَ لهُ مالٌ أوْ قوةٌ على الكتابةِ أوْ لمْ يعلمْ.

وقالَ مالكٌ: إذا عجزَ المكاتبُ فكلُّ ما قبضهُ منهُ سيدهُ قبلَ العجزِ حلٌّ لهُ، كانَ منْ كسبهِ أوْ منْ صدقةٍ عليهِ. وأما ما أعينَ بهِ على فكاكِ رقبتهِ فلمْ يفِ ذلكَ بكتابتهِ كانَ لكلِّ منْ أعانهُ الرجوعُ بما أعطى أوْ تحللَ منهُ المكاتبُ، وقالَ أكثرُ أهلِ العلمِ: إنَّ ما قبضهُ السيدُ منهُ منْ

كتابتِهِ، وما فضلَ بيدِهِ بعدَ عجزِهِ منْ صدقةٍ أوْ غيرِها فهوَ لسيدِهِ، يطيبُ لهُ أخذُ ذلكَ كلِهِ. هذا قولُ الشافعيِّ وأبي حنيفةَ وأصحابِهما وأحمدَ.

العاشرة: ترجمَ البخاريُّ «بابَ بيعِ المكاتبِ إذا رضيَ». وإلى جوازِ بيعِهِ للعتقِ إذا رضيَ المكاتبُ بالبيعِ ولوْ لمْ يكنْ عاجزًا -ذهبَ ابنُ المنذرِ وجماعة؛ لأنَّ رضاهُ بالبيعِ عجزٌ منهُ. وقالَ مالكٌ وأبو حنيفةَ وأصحابهما: لا يجوزُ بيعُ المكاتبِ ما دامَ مكاتبًا حتى يعجزَ، ولا يجوزَ بيعُ كتابتِهِ بحالٍ، وهوَ قولُ الشافعيِّ بمصرَ، وكانَ بالعراقِ يقولُ: بيعهُ جائزٌ، وأما بيعُ كتابتِهِ فغيرُ جائزةٍ. وأجازَ مالكٌ بيعَ الكتابةِ، فإنْ أداها عتقَ، وإلا كانَ رقيقًا لمشتري الكتابةِ. ومنعَ منْ ذلكَ أبو حنيفةَ، لأنهُ بيعُ غررٍ. واختلفَ قولُ الشافعيِّ في ذلكَ بالمنعِ والإجازةِ. وقالتْ طائفةٌ: يجوزُ بيعُ المكاتبِ على أنْ يمضيَ في كتابتِهِ، فإنْ أدى عتقَ وكانَ ولاؤهُ للذي ابتاعهُ ولوْ عجزَ فهوَ عبدٌ لهُ، وبهِ قالَ أحمدُ، وقالَ الأوزاعيُّ: لا يباعُ المكاتبُ إلا للعتقِ، ويكرهُ أنْ يباعَ قبلَ عجزِهِ، وهوَ قولُ أحمدَ.

قالَ أبو عمرَ: في حديثِ بريرةَ إجازةُ بيعِ المكاتبِ إذا رضيَ بالبيعِ ولمْ يكنْ عاجزًا عنْ أداءِ نجمٍ قدْ حلَّ عليهِ، بخلافِ قولِ منْ زعمَ أنَّ بيعَ المكاتبِ غيرُ جائزٍ إلا بالعجزِ، لأنَّ بريرةَ لمْ تذكرْ أنها عجزتْ عنْ أداءِ نجمٍ، ولا أخبرتْ بأنَّ النجمَ قدْ حلَّ عليها، ولا قالَ لها النبيُّ ﷺ أعاجزةٌ أنتِ؟

استدلَّ منْ منعَ منْ بيعِ المكاتبِ بأمورٍ: منها أنْ قالوا إنَّ الكتابةَ المذكورةَ لمْ تكنِ انعقدتْ، وأنَّ قولها كاتبتُ أهلي معناهُ أنها راوضتهمْ عليها، وقدّروا مبلغها وأجلها ولمْ يعقدوها. وظاهرُ الأحاديثِ خلافُ هذا إذا تؤملَ مساقها. وقيل: إنَّ بريرةَ عجزتْ عنِ الأداءِ فاتفقتْ هيَ وأهلها على فسخِ الكتابةِ، وحينئذٍ صحَّ البيعُ، إلا أنَّ هذا إنما يتمشى على قولِ منْ يقولُ: إنَّ تعجيزَ المكاتبِ غيرُ مفتقرٍ إلى حكمِ حاكمٍ إذا اتفقَ العبدُ والسيدُ عليهِ، لأنَّ الحقَّ لا يعدوهما، وهوَ المذهبُ المعروفُ. ويدلُّ على صحةِ أنها عجزتْ ما رويَ أنَّ بريرةَ جاءتْ عائشةَ تستعينها في كتابتها ولمْ تكنْ قضتْ منْ كتابتها شيئًا، فقالتْ لها عائشةُ: ارجعي إلى أهلكِ فإنْ أحبوا أنْ أقضيَ عنكِ كتابتكِ فعلتُ. فظاهرُ هذا أنَّ جميعَ كتابتها أوْ بعضها استحقَّ عليها، لأنهُ لا يقضى منَ الحقوقِ إلا ما وجبتِ المطالبةُ بهِ، واللهُ أعلمُ.

الحادية عشرة: المكاتبُ إذا أدى كتابتهُ عتقَ ولا يحتاجُ إلى ابتداءِ عتقٍ من السيد. كذلك ولدهُ الذينَ ولدوا في كتابتهِ منْ أمتهِ، يعتقونَ بعتقهِ ويرقونَ برقهِ، لأنَّ ولدَ الإنسانِ منْ أمتهِ بمثابتهِ اعتبارًا بالحرِّ وكذلكَ ولدُ المكاتبةِ، فإنْ كانَ لهما ولدٌ قبلَ الكتابةِ لمْ يدخلْ في الكتابةِ إلا بشرطٍ.

الثانية عشرة: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ هذا أمرٌ للسادةِ بإعانتهمْ في مالِ الكتابةِ، إما بأنْ يعطوهمْ شيئًا مما في أيديهمْ- أعني أيديَ السادة- أو يحطوا عنهم شيئا منْ مالِ الكتابةِ.

قالَ مالكٌ: يوضعُ عنِ المكاتبِ منْ آخرِ كتابتهِ، واستحسنَ عليٌّ رضي الله عنه أنْ يكونَ ذلكَ ربعَ الكتابةِ، واستحسنَ ابنُ مسعودٍ ثلثها، وقيل: يسقطُ عنهُ شيئًا، ولمْ يحدهُ، وهوَ قولُ الشافعيِّ، ويجبرُ عليهِ السيدُ ويحكمُ بهِ الحاكمُ على الورثةِ إنْ ماتَ السيدُ، واحتجَّ بمطلقِ الأمر في قوله: ﴿وَءَاتُوهُم﴾، ورأى أنَّ عطفَ الواجبِ على الندبِ معلومٌ في القرآنِ ولسانِ العربِ كما قالَ تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ وما كانَ مثلهُ.

ورأى مالكٌ رحمهُ اللهُ تعالى هذا الأمرَ على الندبِ، ولمْ يرَ لقدرِ الوضيعةِ حدًا.

قالَ ابنُ العربيِّ: جعلَ الشافعيُّ الإيتاءَ واجبًا، والكتابةَ غيرَ واجبةٍ، فجعلَ الأصلَ غيرَ واجبٍ والفرعَ واجبًا، وهذا لا نظيرَ لهُ، فصارتْ دعوى محضةً.

فإن قيل: يكونُ ذلكَ كالنكاحِ لا يجبُ فإذا انعقدَ وجبتْ أحكامهُ، منها المتعةُ. قلنا: عندنا لا تجبُ المتعةُ فلا معنى لأصحابِ الشافعيِّ. وقدْ كاتبَ عثمانُ بنُ عفانَ عبدهُ وحلفَ ألا يحطهُ...، في حديثٍ طويلٍ.

قلتُ: وقدْ قالَ الحسنُ وجماعة إنما الخطابُ بقولهِ: ﴿وَءَاتُوهُم﴾ للناسِ أجمعينَ أنْ يعينوهمْ في فكاكِ رقابهمْ، وقيل: إنما الخطابُ للولاةِ بأنْ يعطوا المكاتبينَ منْ مالِ الصدقةِ حظهمْ، وهوَ الذي تضمنهُ قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾، ودليلُ هذا أنهُ لوْ أرادَ حطَّ شيء منْ نجومِ الكتابةِ لقالَ وضعوا عنهمْ كذا.

الثالثة عشرة:- إذا قلنا: إنَّ المرادَ بالخطابِ السادةُ فرأى عمرُ بنُ الخطابِ أنْ يكونَ ذلكَ منْ أولِ نجومهِ، مبادرةً إلى الخيرِ خوفًا ألا يدركَ آخرها. ورأى مالكٌ رحمهُ اللهُ تعالى وغيرهُ أنْ يكونَ الوضعُ منْ آخرِ نجمٍ. وعلةُ ذلكَ أنهُ إذا وضعَ من أول نجم ربما عجز العبد فرجعَ هوَ ومالهُ إلى السيدِ، فعادتْ إليهِ وضيعتهُ وهيَ شبهُ الصدقةِ. وهذا قولُ ابن عمرَ وعليٍّ. وقالَ مجاهدٌ: يتركُ لهُ منْ كلِّ نجمٍ. قالَ ابنُ العربيِّ: والأقوى عندي أنْ يكونَ في آخرها، لأنَّ الإسقاطَ أبدًا إنما يكونُ في أخرياتِ الديونِ.

الرابعة عشرة: المكاتبُ إذا بيعَ للعتقِ رضًا منهُ بعدَ الكتابةِ وقبضَ بائعهُ ثمنهُ لمْ يجبْ عليهِ أنْ يعطيهُ منْ ثمنهِ شيئًا، سواءٌ باعهُ لعتقٍ أوْ لغيرِ عتقٍ، وليسَ ذلكَ كالسيدِ يؤدي إليهِ مكاتبٌ كتابتهُ فيؤتيهِ منها، أوْ يضع عنه من آخره نجمًا أوْ ما شاءَ، على ما أمرَ اللهُ بهِ في كتابهِ لأنَّ النبيَّ ﷺ لمْ يأمرْ مواليَ بريرةَ بإعطائها مما قبضوا شيئًا، وإنْ كانوا قدْ باعوها للعتقِ.

الخامسة عشرة: صفةِ عقدِ الكتابةِ، أنْ يقولَ السيدُ لعبدهِ كاتبتكَ على كذا وكذا منَ المالِ، في كذا وكذا نجمًا، إذا أديتهُ فأنتَ حرٌّ. أوْ يقولَ لهُ أدِّ إليَّ ألفًا في عشرةِ أنجمٍ وأنتَ حرٌّ. فيقولُ العبدُ قدْ قبلتُ ونحوَ ذلكَ منَ الألفاظِ فمتى أداها عتقَ. وكذلكَ لوْ قالَ العبدُ كاتبني، فقالَ السيدُ قدْ فعلتُ، أوْ قدْ كاتبتكَ. قالَ ابنُ العربيِّ: وهذا لا يلزمُ، لأنَّ لفظَ القرآنِ لا يقتضيهِ والحالُ يشهدُ لهُ، فإنْ ذكرهُ فحسنٌ، وإنْ تركهُ فهوَ معلومٌ لا يحتاجُ إليهِ.

السادسة عشرة: اختلفَ العلماءُ في ميراثِ المكاتبِ على ثلاثةِ أقوال:

فمذهب مالك أنَّ المكاتبَ إذا هلكَ وتركَ مالًا أكثرَ مما بقيَ عليهِ منْ كتابتهِ ولهُ ولدٌ ولدوا في كتابتهِ أوْ كاتبَ عليهمْ، ورثوا ما بقيَ منَ المالِ بعدَ قضاءِ كتابتهِ، لأنَّ حكمهمْ كحكمهِ، وعليهمُ السعيُ فيما بقيَ منْ كتابتهِ لوْ لمْ يخلفْ مالًا، ولا يعتقونَ إلا بعتقهِ، ولوْ أدى عنهمْ ما رجعَ بذلكَ عليهمْ، لأنهمْ يعتقونَ عليهِ، فهمْ أولى بميراثهِ لأنهمْ مساوونَ لهُ في جميعِ حالهِ.

والقولُ الثاني- أنهُ يؤدى عنهُ منْ مالهِ جميعَ كتابتهِ، وجعلَ كأنهُ قدْ ماتَ حرًا، ويرثهُ جميعُ ولدهِ، وسواءٌ في ذلكَ منْ كانَ حرًا قبلَ موتهِ منْ ولدهِ ومن كاتب عليهم أو ولدوا في كتابتهِ لأنهمْ قدِ استووا في الحريةِ كلهمْ حينَ تأدتْ عنهمْ كتابتهمْ وبهِ قالَ أبو حنيفةَ وأصحابهُ.

والقولُ الثالثُ- أنَّ المكاتبَ إذا ماتَ قبلَ أنْ يؤديَ جميعَ كتابتهِ فقدْ ماتَ عبدًا، وكلُّ ما يخلفهُ منَ المالِ فهوَ لسيدهِ، ولا يرثهُ أحدٌ منْ أولادهِ، لا الأحرارُ ولا الذينَ معهُ في كتابتهِ، لأنهُ لما ماتَ قبلَ أنْ يؤديَ جميعَ كتابتهِ فقدْ ماتَ عبدًا ومالهُ لسيدهِ، فلا يصحُّ عتقهُ بعدَ موتهِ، لأنهُ محالٌ أنْ يعتقَ عبدٌ بعدَ موتهِ، وعلى ولدهِ الذينَ كاتبَ عليهمْ أوْ ولدوا في كتابتهِ أنْ يسعوا في باقي الكتابةِ، ويسقطَ عنهمْ منها قدرَ حصتهِ، فإنْ أدوا عتقوا لأنهمْ كانوا فيها تبعًا لأبيهمْ، وإنْ لمْ يؤدوا ذلكَ رقوا. هذا قول الشافعي وأحمد.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ في صحيحِ مسلمٍ عنْ جابرٍ أنَّ جاريةً لعبدِ اللهِ بنِ أبيٍّ يقالُ لها مسيكةُ وأخرى يقالُ لها أميمةُ فكانَ يكرههما على الزنى، فشكتا ذلكَ إلى النبيِّ ﷺ فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ إلى قولهِ- ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ راجعٌ إلى الفتياتِ، وذلكَ أنَّ الفتاةَ إذا أرادتِ التحصنَ فحينئذٍ يمكنُ ويتصورُ أنْ يكونَ السيدُ مكرهًا، فأما إذا كانتْ هيَ راغبةً في الزنى لمْ يتصورْ إكراهٌ، وقيل: في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، أيْ وأنكحوا الأيامى والصالحينَ منْ عبادكمْ إنْ أردنَ تحصنًا.

قوله تعالى: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي الشيءَ الذي تكسبهُ الأمةُ بفرجها والولدُ يسترقُّ فيباعُ. ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ﴾ لهنَّ ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهنَّ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

عدد تعالى على المؤمنين نعمه فيما أنزل إليهم من الآيات المنيرات وفيها ضرب لهم من أمثال الماضين من الأمم ليقع التحفظ مما وقع أولئك فيه.

قوله تعالى: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٖ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيْتُونَةٖ لَّا شَرْقِيَّةٖ وَلَا غَرْبِيَّةٖ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٞ ٣٥﴾.

اختلفَ العلماءُ في تأويلِ هذهِ الآيةِ، فقيلَ: المعنى: بهِ وبقدرتهِ أنارتْ أضواؤها، واستقامتْ أمورها، وقامتْ مصنوعاتها. فالكلامُ على التقريبِ للذهنِ، كما يقالُ: الملكُ نورُ أهلِ البلدِ، أيْ بهِ قوامُ أمرها وصلاحُ جملتها، وقيل: أي منور السموات والأرضِ. وقيل: مزين السموات بالشمسِ والقمرِ والنجومِ، ومزينُ الأرضِ بالأنبياءِ والعلماءِ والمؤمنينَ. وقالَ ابنُ عباسٍ وأنسٌ: المعنى اللهُ هادي أهل السموات والأرضِ. والأولُ أعمُّ للمعاني وأصحُّ معَ التأويلِ. أيْ صفةُ دلائلهِ التي يقذفها في قلبِ المؤمنِ، والدلائلُ تسمى نورًا. وقدْ سمى اللهُ تعالى كتابهُ نورًا فقالَ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورٗا مُّبِينٗا﴾، وسمى نبيهُ نورًا فقالَ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥﴾[1].

ومثلَ نورِ اللهِ الذي هوَ هداهُ وإتقانهُ صنعةَ كلِّ مخلوقٍ وبراهينهُ الساطعةُ على الجملةِ، كهذهِ الجملةِ منَ النورِ الذي تتخذونهُ أنتمْ على هذهِ الصفةِ، التي هيَ أبلغُ صفاتِ النورِ الذي بينَ أيدي الناسِ، فمثلُ نورِ اللهِ في الوضوحِ كهذا الذي هوَ منتهاكمْ أيها البشرُ.

والمشكاة: الكوة في الحائط غير النافذة، والمصباحُ فيها أكثرُ إنارةً منهُ في غيرها والمصباحُ: الفتيلُ بنارهِ أيْ في الإنارةِ والضوءِ.

والكوكبُ الدريُّ هوَ الزهرة.

واختلفَ المتأولونَ في عودِ الضميرِ في ﴿نُورِهِۦ﴾ على منْ يعودُ، فقالَ كعبُ الأحبارِ

(١) هذه التفاسير المروية عن السلف كلها صحية المعنى لكنها لا تقتضى نفى وصفه سبحانه بالنور، كما دلت عليه هذه الآية مع قوله ﷺ فى المعراج: «رأيت نورا» وقوله ﷺ: «حجابه النور - وفى رواية أبى بكر: النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» رواهما مسلم، ونوره سبحانه لا يشبه الأنوار المخلوقة كما أن سمعه وبصره لا يشبه الأسماع ولا الأبصار المخلوقة، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، فالله نور، وصفاته نور، وآياته المنزلة نور كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورٗا مُّبِينٗا﴾.

وابنُ جبيرٍ: هوَ عائدٌ على محمد ﷺ، أيْ مثلُ نورِ محمدٍ ﷺ. قالَ ابنُ الأنباريِّ: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ وقفٌ حسنٌ، ثمَّ تبتدئُ ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ على معنى نورِ محمدٍ ﷺ، وقالَ الحسنُ: هوَ عائدٌ على القرآنِ والإيمانِ، وعلى هذهِ الأقوالِ يوقفُ على قولهِ: ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾. قالَ ابنُ عطيةَ: وهذهِ الأقوالُ فيها عودُ الضميرِ على منْ لمْ يجرِ لهُ ذكرٌ.

وقالتْ طائفةٌ: الضميرُ في ﴿نُورِهِۦ﴾ عائدٌ على اللهِ تعالى، ولا يوقفُ على هذا القولِ على ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾، مثلُ هداهُ في قلوبِ المؤمنينَ كمشكاةٍ، وتصديقهُ في آيةٍ أخرى يقولُ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾.

وأمالَ الكسائيُّ فيما روى عنهُ أبو عمرَ الدوريُّ الألفَ منْ «مِشْكِاةٍ» وكسرَ الكافَ التي قبلها.

وقرأَ ابنُ عامرٍ وحفصٌ عنْ عاصمٍ: «دُرِّيٌّ» بضمِّ الدالِ وشدِّ الياءِ، نسبَ الكوكب إلى الدرِّ لبياضهِ وصفائهِ، وقرأَ حمزة وأبو بكر عن عاصم: «دُرّيء» بالهمزِ والمدِّ، وهوَ فعيلٌ منَ الدرءِ، بمعنى أنها يدفعُ بعضها بعضًا. وقرأَ الكسائيُّ وأبو عمرو: «دِرِّيء» بكسرِ الدالِ والهمزِ منَ الدرءِ والدفعِ، مثلُ السكيرِ والفسيقِ. قالَ سيبويهِ: أيْ يدفعُ بعضُ ضوئهِ بعضًا منْ لمعانهِ.

قولهِ تعالى: ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ ليستْ خالصةً للشرقِ فتسمى شرقيةً ولا للغربِ فتسمى غربيةً، قيل: إنها منْ شجرِ الشامِ، فإنَّ شجرَ الشامِ لا شرقيٌّ ولا غربيٌّ، وشجرُ الشامِ هوَ أفضلُ الشجرِ، وهيَ الأرضُ المباركةُ.

قوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ﴾ مبالغةٌ في حسنهِ وصفائهِ وجودتهِ ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ﴾ أي اجتمعَ في المشكاةِ ضوءُ المصباحِ إلى ضوءِ الزجاجةِ وإلى ضوءِ الزيتِ فصارَ لذلكَ نورٌ على نورٍ. واعتقلتْ هذهِ الأنوارُ في المشكاةِ فصارتْ كأنورِ ما يكونُ، فكذلكَ براهينُ اللهِ تعالى واضحةٌ، وهيَ برهانٌ بعدَ برهانٍ، وتنبيهٌ بعدَ تنبيهٍ، كإرسالهِ الرسلَ وإنزالهِ الكتبَ، ومواعظُ تتكررُ فيها لمنْ لهُ عقلٌ معتبرٌ.

﴿يُوقَدُ﴾ بياءٍ مضمومةٍ وتخفيفِ القافِ وضمِّ الدالِ قرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ وأهلُ الشامِ

وحفصٌ. وقرأَ أبو جعفرٍ وأبو عمرو بنُ العلاءِ البصريُّ: «تَوَقَّدَ» مفتوحةَ الحروفِ كلها مشددةَ القافِ، وهاتانِ القراءتانِ متقاربتانِ، لأنهما جميعًا للمصباحِ، وقرأَ الكوفيونَ: «تُوقَدُ» بالتاءِ يعنونَ الزجاجةَ.

ومنْ قالَ إنَّ هذا مثلٌ للقرآنِ في قلبِ المؤمنِ قالَ: كما أنَّ هذا المصباحَ يستضاءُ بهِ ولا ينقصُ فكذلكَ القرآنُ يهتدى بهِ ولا ينقصُ، فالمصباحُ القرآنُ، والزجاجةُ قلبُ المؤمنِ، والمشكاةُ لسانهُ وفهمهُ، والشجرةُ المباركةُ شجرةُ الوحي.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ﴾ تكادُ حججُ القرآنِ تتضحُ ولوْ لمْ يُقرأْ ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ﴾ يعني أنَّ القرآنَ نورٌ منَ اللهِ تعالى لخلقهِ، معَ ما أقامَ لهمْ منَ الدلائلِ والإعلامِ قبلَ نزولِ القرآنِ، فازدادوا بذلكَ نورًا على نور. ثمَّ أخبرَ أنَّ هذا النورَ المذكورَ عزيزٌ، وأنهُ لا ينالهُ إلا منْ أرادَ اللهُ هداهُ فقالَ: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ﴾ أيْ يبينُ الأشباهَ تقريبًا إلى الأفهامِ ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أيْ بالمهديِّ والضالِّ.

قوله تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾، فيهِ تسعَ عشرةَ مسألةً:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ الباءُ في ﴿بُيُوتَ﴾ تضمُّ وتكسرُ، واختلفَ في الفاءِ منْ قولهِ: ﴿فِى﴾ فقيلَ: هيَ متعلقةٌ بـ ﴿مِصْبَاحٌۖ﴾. وقيل: بـ ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾، فعلى هذا التأويلِ يوقفُ على ﴿عَلِيمٌ﴾. وقيل: هيَ متعلقةٌ بِـ ﴿يُوقَدُ﴾ وعليهِ فلا يوقفُ على ﴿عَلِيمٌ﴾. فإن قيل: فما الوجهُ إذا كانَ البيوتُ متعلقةً بـ ﴿يُوقَدُ﴾ في توحيدِ المصباحِ والمشكاةِ وجمعِ البيوتِ؟ ولا يكونُ مشكاةً واحدةً إلا في بيتٍ واحدٍ. قيلَ: هذا منَ الخطابِ المتلونِ الذي يفتحُ بالتوحيدِ ويختمُ بالجمعِ، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ ونحوهِ. وقيل: رجعَ إلى كلِّ واحدٍ منَ البيوتِ. وقيل: هوَ كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ وإنما هوَ في واحدةٍ منها.

واختلفَ الناسُ في البيوتِ هنا على خمسةِ أقوالٍ:

الأولُ- أنها المساجدُ.

الثاني- هيَ بيوتُ بيتِ المقدسِ.

الثالثُ- بيوتُ النبيِّ ﷺ.

الرابع- هيَ البيوتُ كلها.

وقولٌ خامسٌ- أنها المساجد الأربعة التي لـمْ يبنها إلا نبيٌّ: الكعبةُ وبيتُ أريحا ومسجدُ المدينةِ ومسجدُ قباءَ.

وقولهُ: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦﴾ يقوي أنها المساجدُ.

الثانية: قولهُ تعالى ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾ ﴿أَذِنَ﴾ معناهُ أمرَ وقضى، وَ ﴿تُرۡفَعَ﴾ قيلَ: معناهُ تبنى وتعلى، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ﴾، وقالَ ﷺ: «منْ بنى مسجدًا منْ مالهِ بنى اللهُ لهُ بيتًا في الجنةِ». وفي هذا المعنى أحاديثُ كثيرةٌ تحضُّ على بنيانِ المساجدِ.

وقيل: ﴿تُرۡفَعَ﴾ تعظمَ، ويرفعَ شأنها، وتطهرَ منَ الأنجاسِ والأقذارِ، ورويَ عنْ عائشةَ قالتْ: أمرنا رسولُ اللهِ ﷺ أنْ نتخذَ المساجدَ في الدورِ وأنْ تطهرَ وتطيبَ.

الثالثة: إذا قلنا: إنَّ المرادَ بنيانها فهلْ تزينُ وتنقشُ؟ اختلفَ في ذلكَ، فكرههُ قومٌ وأباحهُ آخرونَ. فعنْ أنسٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «لا تقومُ الساعة حتى يتباهى الناسُ في المساجدِ». أخرجهُ أبو داودَ. وفي البخاريِّ- وقالَ أنسٌ: «يتباهونَ بها ثمَّ لا يعمرونها إلا قليلا». وقال ابنُ عباسٍ: لتزخرفنها كما زخرفتِ اليهودُ والنصارى.

واحتجَّ منْ أباحَ ذلكَ بأنَّ فيهِ تعظيمَ المساجدِ واللهُ تعالى أمرَ بتعظيمها في قولهِ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾ يعني تعظّمَ. ورويَ عنْ عثمانَ أنهُ بنى مسجدَ النبيِّ ﷺ بالساج وحسنهُ. قالَ أبو حنيفةَ: لا بأسَ بنقشِ المساجدِ بماءِ الذهبِ. ورويَ عنْ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ أنهُ نقشَ مسجدَ النبيِّ ﷺ وبالغَ في عمارتهِ وتزيينهِ، وذلكَ في زمنِ ولايتهِ قبلَ خلافتهِ، ولمْ ينكرْ عليهِ أحدٌ ذلكَ.

الرابعة: ومما تصانُ عنهُ المساجدُ وتنزهُ عنهُ الروائحُ الكريهةُ والأقوالُ السيئةُ، وقدْ صحَّ منْ حديثِ ابنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ في غزوةِ تبوكَ: «منْ أكلَ منْ هذهِ الشجرةِ -يعني الثومَ- فلا يأتينَّ المساجدَ». وفي حديثِ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «منْ أكلَ منْ هذهِ البقلةِ الثومِ» وقالَ مرةً: «منْ أكلَ البصلَ والثومَ والكراثَ فلا يقربنَّ مسجدنا فإنَّ الملائكةَ تتأذى مما يتأذى منهُ بنو آدمَ». وقالَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خطبتهِ: «ثمَّ إنكمْ أيها الناسُ تأكلونَ شجرتينِ ولا أراهما إلا خبيثتينِ، هذا البصلُ والثومُ، لقدْ رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ إذا وجدَ ريحهما منْ رجلٍ في المسجدِ أمرَ بهِ فأخرجَ إلى البقيعِ، فمنْ أكلهما فليمتهما طبخًا». خرجهُ مسلمٌ في صحيحهِ.

قالَ العلماءُ: وإذا كانتِ العلةُ في إخراجهِ منَ المسجدِ أنهُ يتأذى بهِ ففي القياسِ أنَّ كلَّ منْ تأذى بهِ جيرانهُ في المسجدِ بأنْ يكونَ ذربَ اللسانِ سفيهًا عليهمْ كان لهم إخراجه.

الخامسة: أكثرُ العلماءِ على أنَّ المساجدَ كلها سواءٌ، لحديثِ ابنِ عمرَ. وقالَ بعضهمْ: إنما خرجَ النهيُ على مسجدِ رسولِ اللهِ ﷺ منْ أجل جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ونزولهِ فيهِ، ولقولهِ في حديثِ جابرٍ: «فلا يقربنَّ مسجدنا». والأولُ أصحُّ، لأنهُ ذكرَ الصفةَ في الحكمِ وهيَ المسجديةُ، وذكرُ الصفةِ في الحكمِ تعليلٌ.

السادسةُ: وتصانُ المساجدُ أيضًا عنِ البيعِ والشراءِ وجميعِ الاشتغالِ، لقولهِ ﷺ للرجلِ الذي دعا إلى الجملِ الأحمرِ: «لا وجدتَ، إنما بنيتِ المساجدُ لما بنيتْ لهُ». أخرجهُ مسلمٌ منْ حديثِ سليمانَ بنِ بريدةَ عنْ أبيهِ، وهذا يدلُّ على أنَّ الأصلَ ألا يعملَ في المسجدِ غيرُ الصلواتِ والأذكارِ وقراءةِ القرآنِ. وكذا جاءَ مفسرًا منْ حديثِ أنسٍ قالَ: بينما نحنُ في المسجدِ معَ رسولِ اللهِ ﷺ إذْ جاءَ أعرابيٌّ فقامَ يبولُ في المسجدِ، فقالَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ: مهْ مهْ، فقالَ النبيُّ ﷺ: «لا تزرموهُ دعوهُ». فتركوهُ حتى بالَ، ثمَّ إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ دعاهُ فقالَ لهُ: «إنَّ هذهِ المساجدَ لا تصلحُ لشيءٍ منَ هذا البولِ ولا القذرِ إنما هيَ لذكرِ اللهِ والصلاةِ وقراءةِ القرآنِ». أوْ كما قالَ رسولُ اللهِ ﷺ. قالَ: فأمرَ رجلًا منَ القومِ فجاءَ بدلوٍ منْ ماءٍ فشنهُ عليهِ. خرجهُ مسلمٌ. ومما يدل على هذا من الكتاب قول الحقِّ: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾. وقولهُ ﷺ لمعاويةَ بنِ الحكمِ السلميِّ: «إنَّ هذه المساجد لا يصلح فيها شيء منْ

كلامِ الناسِ إنما هوَ التسبيحُ والتكبيرُ وقراءة القرآن» خرجهُ مسلمٌ في صحيحهِ.

السابعةُ: روى الترمذيُّ منْ حديثِ عمرو بنِ شعيبٍ عنْ أبيهِ عنْ جدهِ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ نهى عنْ تناشدِ الأشعارِ في المسجدِ، وعنِ البيعِ والشراءِ فيهِ، وأنْ يتحلقَ الناسُ يومَ الجمعةِ قبلَ الصلاةِ.

وقدْ كرهَ قومٌ منْ أهلِ العلمِ البيعَ والشراءَ في المسجدِ، وبهِ يقولُ أحمدُ.

قلتُ: وقدْ كرهَ بعضُ أصحابنا تعليمَ الصبيانِ في المساجدِ، ورأى أنهُ منْ بابِ البيعِ. وهذا إذا كانَ بأجرةٍ، فلوْ كانَ بغيرِ أجرةٍ لمُنعَ أيضًا منْ وجهٍ آخرَ، وهوَ أنَّ الصبيانَ لا يتحرزونَ عنِ الأقذارِ والوسخِ، فيؤدي ذلكَ إلى عدمِ تنظيفِ المساجدِ.

قالَ الترمذيُّ: وقدْ رويَ عنْ بعض أهل العلم من التابعين رخصة في البيع والشراءِ في المسجدِ. وقدْ رويَ عنِ النبيِّ ﷺ في غيرِ حديثٍ رخصةٌ في إنشادِ الشعرِ في المسجدِ.

قلتُ: أما تناشدُ الأشعارِ فاختلفَ في ذلكَ، فمنْ مانعٍ مطلقًا، ومنْ مجيزٍ مطلقًا، والأولى التفصيلُ، وهوَ أنْ ينظرَ إلى الشعرِ فإنْ كانَ مما يقتضي الثناءَ على اللهِ عزَّ وجلَّ أوْ على رسولهِ ﷺ أوِ الذبَّ عنهما كما كانَ شعرُ حسانَ، أوْ يتضمنُ الحضَّ على الخيرِ والوعظَ والزهدَ في الدنيا والتقللَ منها، فهوَ حسنٌ في المساجدِ وغيرها، وما لمْ يكنْ كذلكَ لمْ يجزْ، لأنَّ الشعرَ في الغالبِ لا يخلو عنِ الفواحشِ والكذبِ والتزينِ بالباطلِ، ولوْ سلمَ منْ ذلكَ فأقلُّ ما فيهِ اللغوُ والهذرُ، والمساجدُ منزهةٌ عنْ ذلكَ، لقولهِ تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾.

وسيأتي ذكرُ الأشعارِ الجائزةِ وغيرها بما فيهِ كفايةٌ في «الشعراءِ» إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

الثامنة: وأما رفعُ الصوتِ فإنْ كانَ مما يقتضي مصلحةً للرافعِ صوتهِ دعيَ عليهِ بنقيضِ قصدهِ، لحديثِ بريرةَ المتقدمِ، وحديثِ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «منْ سمعَ رجلًا ينشدُ ضالةً في المسجدِ فليقلْ لا ردها اللهُ عليكَ فإنَّ المساجدَ لمْ تبنَ لهذا». وإلى هذا ذهبَ مالكٌ وجماعةٌ، حتى كرهوا رفعَ الصوتِ في المسجدِ في العلمِ وغيرهِ. وأجازَ أبو حنيفةَ وأصحابهُ رفعَ الصوتِ في الخصومةِ والعلمِ، قالوا: لأنهمْ لا بدَّ لهمْ منْ ذلكَ. وهذا مخالفٌ لظاهرِ الحديثِ، وقولهمْ: «لا بدَّ لهمْ منْ ذلكَ» ممنوعٌ، بلْ لهمْ بدٌّ منْ ذلكَ لوجهينِ:

أحدهما: بملازمةِ الوقارِ والحرمةِ، وبإحضارِ ذلكَ بالبالِ والتحرزِ منْ نقيضهِ.

و**الثاني**: أنهُ إذا لمْ يتمكنْ منْ ذلكَ فليتخذْ لذلكَ موضعًا يخصهُ، كما فعلَ عمرُ حيثُ بنى رحبةً تسمى البُطيحاءَ، وقالَ: منْ أرادَ أنْ يلغطَ أوْ ينشدَ شعرًا - يعني في مسجدِ رسولِ اللهِ ﷺ - فليخرجْ إلى هذهِ الرحبةِ. وهذا يدلُّ على أنَّ عمرَ كانَ يكرهُ إنشادَ الشعرِ في المسجدِ، ولذلكَ بنى البطيحاءَ خارجهُ.

التاسعة: وأما النومُ في المسجدِ لمنِ احتاجَ إلى ذلكَ منْ رجلٍ أوِ امرأةٍ منَ الغرباءِ ومنْ لا بيتَ لهُ فجائزٌ، لأنَّ في البخاريِّ - وقالَ أبو قلابةَ عنْ أنسٍ: قدمَ رهطٌ منْ عكلٍ على النبيِّ ﷺ فكانوا في الصفةِ، وقالَ عبدُ الرحمنِ بنُ أبي بكرٍ: كانَ أصحابُ الصفةِ فقراءَ. وفي الصحيحينِ عنِ ابنِ عمرَ أنهُ كانَ ينامُ وهوَ شابٌّ أعزبُ لا أهلَ لهُ في مسجدِ النبيِّ ﷺ. لفظُ البخاريِّ: وترجمَ «بابَ نومِ المرأةِ في المسجدِ» وأدخلَ حديثَ عائشةَ في قصةِ السوداءِ، التي اتهمها أهلها بالوشاحِ، قالتْ عائشةُ: وكانَ لها خباءٌ في المسجد أو حفش... الحديثَ.

العاشرة: روى مسلم عن أبي حميد أوْ عنْ أبي أُسيدٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إذا دخلَ أحدكمُ المسجدَ فليقلِ اللهمَّ افتحْ لي أبوابَ رحمتكَ وإذا خرجَ فليقلِ اللهمَّ إني أسألكَ منْ فضلكَ». خرجهُ أبو داودَ كذلكَ، إلا أنهُ زادَ بعدَ قولهِ: «إذا دخلَ أحدكمُ المسجدَ: فليسلمْ وليصلِّ على النبيِّ ﷺ ثمَّ ليقلِ اللهمَّ افتحْ لي...» الحديثَ.

وروى ابنُ ماجهْ عنْ فاطمة بنتِ رسولِ اللهِ ﷺ قالتْ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا دخلَ المسجدَ قالَ: «باسمِ اللهِ والسلامُ على رسولِ اللهِ اللهمَّ اغفرْ لي ذنوبي وافتحْ لي أبوابَ رحمتكَ وإذا خرجَ قالَ باسمِ اللهِ والصلاةُ على رسولِ اللهِ اللهمَّ اغفرْ لي ذنوبي وافتحْ لي أبوابَ رحمتكَ وفضلكَ».

الحادية عشرة: روى مسلمٌ عنْ أبي قتادةَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «إذا دخلَ أحدكمُ المسجدَ فليركعْ ركعتينِ قبلَ أنْ يجلسَ».

قالَ العلماءُ: فجعلَ ﷺ للمسجدِ مزيةً يتميزُ بها عنْ سائرِ البيوتِ، وهوَ ألا يجلسَ حتى يركعَ. وعامةُ العلماءِ على أنَّ الأمرَ بالركوعِ على الندبِ والترغيبِ.

وقدْ ذهبَ داودُ وأصحابهُ إلى أنَّ ذلكَ على الوجوبِ، وهذا باطلٌ، ولوْ كانَ الأمرُ على ما قالوهُ لحرمَ دخولُ المسجدِ على المحدثِ الحدثَ الأصغرَ حتى يتوضأَ، ولا قائلَ بهِ فيما أعلمُ، واللهُ أعلمُ.

الثانية عشرة: روى ابنُ ماجهْ عنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ قالَ: أولُ منْ أسرجَ في المساجدِ تميمٌ الداريُّ.

قالَ العلماءُ: ويستحبُّ أنْ ينورَ البيتُ الذي يقرأُ فيهِ القرآنُ بتعليقِ القناديلِ ونصبِ الشموعِ فيهِ، ويزادَ في شهرِ رمضانَ في أنوارِ المساجدِ.

الثالثة عشرة:- قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ﴾ اختلفَ العلماءُ في وصفِ اللهِ تعالى المسبحينَ، فقيلَ: همُ المراقبونَ أمرَ اللهِ، الطالبونَ رضاءهُ، الذينَ لا يشغلهمْ عنِ الصلاةِ وذكرِ اللهِ شيءٌ منْ أمورِ الدنيا. وقالَ كثيرٌ منَ الصحابةِ: نزلتْ هذهِ الآيةُ في أهلِ الأسواقِ الذينَ إذا سمعوا النداءَ بالصلاةِ تركوا كلَّ شغل وبادروا.

وقرأَ عبدُ اللهِ بنُ عامرٍ وعاصمٌ في روايةِ أبي بكرٍ عنهُ «يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا» بفتحِ الباءِ على ما لمْ يسمَّ فاعلهُ، وكانَ نافعٌ وأبو عمرو وحمزةُ يقرءونَ «يُسَبِّحُ» بكسرِ الباءِ، وكذلكَ روى أبو عمرو عنْ عاصمٍ. فمنْ قرأَ «يُسَبَّحُ» بفتحِ الباءِ كانَ على معنيينِ: أحدهما: أنْ يرتفعَ ﴿رِجَالٌ﴾ بفعلٍ مضمرٍ دلَّ عليهِ الظاهرُ، بمعنى يسبحهُ رجالٌ، فيوقفُ على هذا على ﴿ٱلْءَاصَالِ﴾، والوجه الآخر: يرتفع ﴿رِجَالٌ﴾ بالابتداء والخبر.

﴿فِى بُيُوتٍ﴾ أي في بيوت أذن الله أن ترفع رجالٌ، و﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾ حال من الضمير في ترفع.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾ قيلَ: معناهُ يصلي. وقالَ ابنُ عباسٍ: كلُّ تسبيحٍ في القرآنِ صلاةٌ، ويدلُّ عليهِ قولهُ: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾، أيْ بالغداةِ والعشيِّ. وقالَ أكثرُ المفسرينَ: أرادَ الصلاةَ المفروضةَ، فالغدوُّ صلاةُ الصبحِ، والآصالُ صلاةُ الظهرِ والعصرِ والعشاءين، لأنَّ اسمَ الآصالِ يجمعها.

الخامسة عشرة: في صحيحِ مسلمٍ عنْ أبي هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «منْ غدا إلى

المسجدِ أوْ راحَ أعدَّ اللهُ لهُ نزلًا في الجنةِ كلما غدا أوْ راحَ»، وخرجَ مسلمٍ منْ حديثِ أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «منْ تطهرَ في بيتهِ ثمَّ مشى إلى بيتٍ منْ بيوتِ اللهِ ليقضيَ فريضةً منْ فرائضِ اللهِ كانتْ خطوتاهُ إحداهما تحطُّ خطيئةً والأخرى ترفعُ درجةً». وعنهُ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «صلاةُ الرجلِ في جماعةٍ تزيدُ على صلاتهِ في بيتهِ وصلاتهِ في سوقهِ بضعًا وعشرينَ درجةً وذلكَ أنَّ أحدهمْ إذا توضأَ فأحسنَ الوضوءَ ثمَّ أتى المسجدَ لا ينهزهُ إلا الصلاةُ لا يريدُ إلا الصلاةَ فلمْ يخطُ خطوةً إلا رفعَ لهُ بها درجةٌ وحطَّ عنهُ بها خطيئةٌ حتى يدخلَ المسجدَ فإذا دخلَ المسجدَ كانَ في الصلاةِ ما كانتِ الصلاةُ هي تحبسه والملائكة يصلون على أحدكمْ ما دامَ في مجلسهِ الذي صلى فيهِ يقولونَ اللهمَّ ارحمهُ اللهمَّ اغفرْ لهُ اللهمَّ تبْ عليهِ ما لمْ يؤذِ فيهِ ما لمْ يحدثْ فيهِ».

وقدْ جمعَ بعضُ العلماءِ من حرمة المسجد خمسَ عشرةَ خصلةً، فقالَ: منْ حرمةِ المسجدِ أنْ يسلمَ وقتَ الدخولِ إنْ كانَ القومُ جلوسًا، وإنْ لمْ يكنْ في المسجدِ أحدٌ قالَ: السلامُ علينا وعلى عبادِ اللهِ الصالحينَ، وأنْ يركعَ ركعتينِ قبلَ أنْ يجلسَ، وألا يشتريَ فيهِ ولا يبيعَ، ولا يسلَّ فيهِ سهمًا ولا سيفًا، ولا يطلبَ فيهِ ضالة، ولا يرفع فيه صوتا بغيرِ ذكرِ اللهِ تعالى، ولا يتكلمَ فيهِ بأحاديثِ الدنيا، ولا يتخطى رقابَ الناسِ، ولا ينازعَ في المكانِ، ولا يضيقَ على أحدٍ في الصفِّ، ولا يمرَّ بينَ يديْ مصلٍّ، ولا يبصقَ، ولا يتنخمَ، ولا يتمخطَ فيهِ، ولا يفرقعَ أصابعهُ، ولا يعبثَ بشيءٍ منْ جسدهِ، وأنْ ينزهَ عنِ النجاساتِ والصبيانِ والمجانينِ، وإقامةِ الحدودِ، وأنْ يكثرَ ذكرَ اللهِ تعالى ولا يغفلَ عنهُ. فإذا فعلَ هذهِ الخصالَ فقدْ أدى حقَّ المسجدِ، وكانَ المسجدُ حرزًا لهُ وحصنًا منَ الشيطانِ الرجيمِ.

وفي البخاريِّ عنْ أبي موسى عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «من مر في شيء منْ مساجدنا أوْ أسواقنا بنبلٍ فليأخذْ على نصالها لا يَعقر بكفهِ مسلمًا». وخرجَ مسلمٌ عن أنس قال قال وسول اللهِ ﷺ: «البزاقُ في المسجدِ خطيئةٌ وكفارتها دفنها». وعنْ أبي ذرٍّ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «عرضتْ عليَّ أعمالُ أمتي حسنها وسيئها فوجدتُ في محاسنِ أعمالها الأذى يماطُ عنِ الطريقِ ووجدتُ في مساوي أعمالها النخاعةَ تكونُ في المسجدِ لا تدفنُ».

السادسة عشرة: لما قالَ تعالى: ﴿رِجَالٌ﴾ وخصهمْ بالذكرِ دلَّ على أنَّ النساءَ لا حظَّ

لهنَّ في المساجدِ، إذْ لا جمعةَ عليهنَّ ولا جماعةَ، وأنَّ صلاتهنَّ في بيوتهنَّ أفضلُ. روى أبو داودَ عنْ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «صلاةُ المرأةِ في بيتها أفضلُ منْ صلاتها في حجرتها وصلاتها في مخدعها أفضلُ منْ صلاتها في بيتها».

السابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ﴾ أيْ لا تشغلهمْ ﴿تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ خصَّ التجارةَ بالذكرِ لأنها أعظم ما يشتغل به الإنسانُ عنِ الصلاةِ. فإن قيل: فلمَ كررَ ذكر البيعِ والتجارةُ تشملهُ؟ قيلَ لهُ: أرادَ بالتجارة الشراء لقوله: ﴿وَلَا بَيۡعٌ﴾. نظيره قول تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾، وقيل: التجارُ همُ الجلابُ المسافرونَ، والباعةُ همُ المقيمونَ.

﴿عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ اختلفَ في تأويلِه، فقيل: يعني حضورَ الصلاة، وقال ابنُ عباسٍ: المكتوبةُ. وقيل: عنِ الأذانِ، وقيل: عنْ ذكرِهِ بأسمائهِ الحسنى، أيْ يوحدونهُ ويمجدونهُ.

الثامنة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ هذا يدلُّ على أنَّ المرادَ بقولهِ: ﴿عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ غيرُ الصلاةِ، لأنهُ يكونُ تكرارًا.

التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ قيلَ: الزكاةُ المفروضةُ، وقيل: الزكاةُ هنا طاعةُ اللهِ تعالى والإخلاصُ، إذْ ليسَ لكلِّ مؤمنٍ مالٌ.

﴿يَخَافُونَ يَوۡمٗا﴾ يعني يومَ القيامةِ ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧﴾ يعني منْ هولهِ وحذرِ الهلاكِ. والتقلبُ التحولُ، والمرادُ قلوبُ الكفارِ وأبصارهمْ. فتقلبُ القلوبِ انتزاعها منْ أماكنها إلى الحناجرِ، فلا هيَ ترجعُ إلى أماكنها ولا هي تخرجُ. وأما تقلبُ الأبصارِ فالزَّرَقُ بعدَ الكحلِ والعمى بعدَ البصرِ. وقيل: تتقلبُ القلوبُ بينَ الطمعِ في النجاةِ والخوفِ منَ الهلاكِ، والأبصارُ تنظرُ منْ أيِّ ناحيةٍ يعطونَ كتبهمْ، وإلى أيِّ ناحيةٍ يؤخذُ بهمْ. وقيل: إنَّ قلوبَ الشاكينَ تتحولُ عما كانتْ عليهِ منَ الشكِّ، وكذلكَ أبصارهمْ لرؤيتهمُ اليقينَ، وذلكَ مثل قول تعالى: ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ فما كانَ يراهُ في الدنيا غيًا يراهُ رشدًا، إلا أنَّ ذلكَ لا ينفعهمْ في الآخرةِ. وقيل: تقلبُ على جمرِ جهنمَ كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ في قولِ منْ جعلَ المعنى

تقلبها على لهبِ النارِ.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ فذكرَ الجزاءَ على الحسناتِ، ولمْ يذكرِ الجزاءَ على السيئاتِ وإنْ كانَ يجازي عليها لأمرينِ:

أحدهما- أنهُ ترغيبٌ، فاقتصرَ على ذكرِ الرغبةِ.

الثاني- أنهُ في صفةِ قومٍ لا تكونُ منهمُ الكبائرُ، فكانتْ صغائرهمْ مغفورةً.

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۗ﴾ يحتملُ وجهينِ:

أحدهما- ما يضاعفهُ منَ الحسنةِ بعشرِ أمثالها.

الثاني- ما يتفضلُ بهِ منْ غيرِ جزاءٍ.

﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٨﴾ أيْ منْ غيرِ أنْ يحاسبهُ على ما أعطاهُ، إذْ لا نهايةَ لعطائهِ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ﴾ أعمالِ الخيرِ للكافرِ، كصلةِ الرحمِ ونفعِ الجيرانِ. والسرابُ: ما يرى نصفَ النهارِ في اشتدادِ الحرِّ، كالماءِ في المفاوزِ يلتصقُ بالأرضِ، وسميَ السرابُ سرابًا لأنهُ يَسرُبُ أيْ يجري كالماءِ. والقيعةُ جمعُ القاعِ، مثلَ جيرةٍ وجارٍ، وقيل: قيعةٌ وقاعٌ واحدٌ، والقاعُ ما انبسطَ منَ الأرضِ واتسعَ ولمْ يكنْ فيهِ نبتٌ، وفيهِ يكونُ السرابُ. وأصلُ القاعِ الموضعُ المنخفضُ الذي يستقرُّ فيهِ الماءُ، وجمعهُ قيعانٌ ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ﴾ العطشانُ ﴿مَآءً﴾ أيْ يحسبُ السرابَ ماءً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ وهذا مثلٌ ضربهُ اللهُ تعالى للكفارِ، إذا قدموا على اللهِ تعالى وجدوا ثوابَ أعمالهمْ محبطةً بالكفرِ ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ أيْ وجدَ اللهَ بالمرصادِ ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ﴾ أيْ جزاءَ عملهِ.

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ مثلُ آخر للكفارِ، وقدْ قالَ تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ أي من الكفر إلى الإيمانِ. وقيل: هذا مثلُ قلبِ الكافرِ ﴿فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ منسوبُ إلى اللجةِ، وهوَ الذي لا يدركُ قعرهُ، وقولهُ تعالى: ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ أي ماله

عمقٌ، أما اللَّجةُ «بفتحِ اللامِ» فأصواتُ الناسِ وصخبهمْ ﴿يَغْشَٰهُ مَوْجٌ﴾ أيْ يعلوه موجٌ ﴿مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ أيْ منْ فوقِ الموجِ موجٌ، ومنْ فوقِ هذا الموجِ الثاني سحابٌ ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ وعنِ ابنِ كثيرٍ «سَحَابُ ظُلُمَاتٍ» بالإضافةِ والخفضِ، والباقونَ بالرفعِ والتنوينِ ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ﴾ يعني الناظرَ ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ أيْ منْ شدةِ الظلماتِ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾ يهتدي به أظلمتْ عليهِ الأمورُ، أو منْ لمْ يجعلِ اللهُ لهُ نورًا يمشي بهِ يومَ القيامةِ لمْ يهتدِ إلى الجنةِ، كقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ الخطابُ في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للنبيِّ ﷺ، ومعناهُ: ألمْ تعلمْ، والمرادُ الكلُّ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ منَ الملائكةِ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ منَ الجنِّ والإنسِ ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ مصطفاتِ الأجنحةِ في الهواءِ. وقرأَ الجماعةُ «والطيرُ» بالرفعِ عطفًا على ﴿مَن﴾ ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ علمَ صلاةَ المصلي وتسبيحَ المسبحِ، وقيل: الصلاةُ هنا بمعنى التسبيحِ، وكررَ تأكيدًا، كقولِهِ: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ . والصلاةُ قدْ تسمى تسبيحًا.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ تقدمَ في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ يسوقه إلى حيثُ يشاءُ ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ أيْ يجمعهُ عندَ انتشائهِ، ليقوى ويتصلَ ويكثفَ، والسحابُ واحدٌ في اللفظِ، ولكنَّ معناه جمع، ولهذا قال: ﴿يُنْشِىءُ السَّحَابَ﴾.

وَ «بينَ» لا يقعُ إلا لاثنينِ فصاعدًا، فكيفَ جازَ بينهُ؟

فالجوابُ: أنَّ ﴿بَيْنَهُۥ﴾ هنا لجماعةِ السحابِ، كما تقولُ: الشجرُ قدْ جلستُ بينهُ لأنهُ جمعٌ.

وجوابٌ آخرُ – وهوَ أنْ يكونَ السحابُ واحدًا فجازَ أنْ يقالَ بينهُ لأنهُ مشتملٌ على قطعٍ كثيرةٍ.

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ أيْ مجتمعًا، يركبُ بعضهُ بعضًا، كقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾، والركمُ جمعُ الشيءِ ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ في ﴿ٱلْوَدْقَ﴾ قولانِ:

أحدهما- أنهُ البرقُ.

الثاني- أنهُ المطرُ، وخِلالُ جمعُ خَلَل، مثلُ الجبلِ والجبالِ، وهيَ فُرَجُهُ ومخارجُ القطرِ منهُ. وقدْ تقدمَ في «البقرةِ» أنَّ كعبًا قالَ: إنَّ السحابُ غربالُ المطرِ، لولا السحابُ حينَ ينزلُ الماءُ منَ السماءِ لأفسدَ ما يقعُ عليهِ منَ الأرضِ ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ قيلَ: خلقَ اللهُ في السماءِ جبالًا منْ بردٍ، فهوَ ينزلُ منها بردًا، وفيهِ إضمارٌ، أيْ ينزلُ منْ جبالِ البردِ بردًا، فالمفعولُ محذوفٌ ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ فتكون إصابتهُ نقمةً، وصرفهُ نعمةً ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ أيْ ضوءُ ذلكَ البرقِ الذي في السحابِ ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ منْ شدةِ بريقهِ وضوئهِ. والسنا «مقصورٌ» ضوءُ البرقِ. والسنا أيضًا نبتٌ يتداوى بهِ. والسناءُ منَ الرفعةِ ممدودٌ، والبرقُ دليلٌ على تكاثفِ السحابِ، وبشيرٌ بقوةِ المطرِ، ومحذرٌ منْ نزولِ الصواعقِ.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ فيأتيَ بأحدهما بعدَ الآخرِ. وقيل: تقليبهما نقصهما وزيادتهما، وقيل: هوَ تغييرُ النهارِ بظلمةِ السحابِ مرةً وبضوءِ الشمسِ أخرى، وكذا الليلُ مرةً بظلمةِ السحابِ ومرةً بضوءِ القمرِ، وقيل: تقليبهما باختلافِ ما يقدرُ فيهما منْ خيرٍ وشرٍّ ونفعٍ وضرٍّ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أيْ في الذي ذكرناهُ منْ تقلبِ الليلِ والنهارِ، وأحوالِ المطرِ والصيفِ والشتاءِ ﴿لَعِبْرَةً﴾ أيِ اعتبارًا ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ أي لأهل البصائر من خلقي.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ قرأَ حمزةُ والكسائيُّ «وَاللهُ خَالِقُ كُلِّ» بالإضافةِ. الباقونَ: ﴿خَلَقَ﴾ على الفعلِ. قيلَ: إنَّ المعنيينِ في القراءتينِ صحيحانِ، وقيل: إنَّ ﴿خَلَقَ﴾ لشيءٍ مخصوصٍ، وإنما يقالُ خالقٌ على العمومِ، كما قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ﴾. وفي الخصوصِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وكذا: ﴿۞هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾. فكذا يجبُ أنْ يكونَ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾. والدابةُ كلُّ ما دبَّ على وجهِ الأرضِ منَ الحيوانِ ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ لمْ يدخلْ في هذا الجنُّ والملائكةُ، لأنا لمْ نشاهدهمْ، ولمْ يثبتْ أنهمْ خلقوا منْ ماءٍ، بلْ في الصحيحِ «أنَّ الملائكةَ خلقوا منْ نورٍ والجنَّ خلقوا منْ نارٍ». وقدْ تقدمَ.

وقالَ المفسرونَ: ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ أيْ منْ نطفةٍ، وقالَ جمهورُ النَّظَرَةِ: أرادَ أنَّ خلقةَ كلِّ حيوانٍ فيها ماءٌ كما خلقَ آدمُ منَ الماءِ والطينِ، وعلى هذا يتخرجُ قولُ النبيِّ ﷺ للشيخِ الذي سألهُ في غزاةِ بدرٍ: ممنْ أنتما؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «نحنُ منْ ماءٍ». الحديثَ. وقالَ قومٌ: لا يستثنى الجنُّ والملائكةُ، بلْ كلُّ حيوانٍ خلقَ منَ الماءِ، وخلقَ النارُ منَ الماءِ، وخلقَ الريحُ منَ الماءِ، إذْ أولُ ما خلقَ اللهُ تعالى منَ العالمِ الماءُ، ثمَّ خلقَ منه كل شيء.

قلتُ: ويدلُّ على صحةِ هذا قولهُ تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ المشيُ على البطنِ للحياتِ والحوتِ، ونحوهِ منَ الدودِ وغيرهِ. وعلى الرجلينِ للإنسانِ والطيرِ إذا مشى. والأربعُ لسائرِ الحيوانِ. وفي مصحفِ أبيٍّ «ومنهمْ منْ يمشي على أكثرَ»، فعمَّ بهذهِ الزيادةِ جميعَ الحيوانِ كالسرطانِ والخشاشِ، ولكنهُ قرآنٌ لمْ يثبتهُ إجماعٌ، لكنْ قالَ النقاشُ: إنما اكتفى في القولِ بذكرِ ما يمشي على أربعٍ لأنَّ جميعَ الحيوانِ إنما اعتمادهُ على أربعٍ، وهيَ قوامُ مشيهِ، وكثرةُ الأرجلِ في بعضهِ زيادةٌ في خلقتهِ، لا يحتاجُ ذلكَ الحيوانُ في مشيهِ إلى جميعها. قالَ ابنُ عطيةَ: والظاهرُ أنَّ تلكَ الأرجلَ الكثيرةَ ليستْ باطلًا بلْ هيَ محتاجٌ إليها في تنقلِ الحيوانِ، وهيَ كلها تتحركُ في تصرفهِ.

وَ ﴿دَآبَّةٍ﴾ تشملُ منْ يعقلُ وما لا يعقلُ، فغلبَ منْ يعقلُ فقالَ ﴿فَمِنْهُم﴾. وقالَ: ﴿مَّن يَمْشِي﴾ فأشارَ بالاختلافِ إلى ثبوتِ الصانعِ، أيْ لولا أنَّ للجميعِ صانعًا مختارًا لما اختلفوا، بلْ كانوا منْ جنسٍ واحدٍ، وهوَ كقولهِ: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾.

﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما يريدُ خلقهُ ﴿قَدِيرٌ﴾.

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾ تقدمَ بيانهُ في غيرِ موضعٍ.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾ يعني المنافقينَ، يقولونَ بألسنتهمْ آمنا باللهِ وبالرسولِ منْ غيرِ يقينٍ ولا إخلاصٍ ﴿وَأَطَعْنَا﴾ وكذبوا ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ نزلت في رجل منَ المنافقينَ اسمهُ بشرٌ كانتْ بينهُ وبينَ رجلٍ منَ اليهودِ خصومةٌ في أرضٍ، فدعاهُ اليهوديُّ إلى التحاكمِ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ، وكانَ المنافقُ مبطلًا، فأبى منْ ذلكَ وقالَ: إنَّ محمدًا يحيفُ علينا، فلنحكمْ كعبَ بنَ الأشرفِ، فنزلتِ الآيةُ فيهِ.

وقالَ: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ ولمْ يقلْ ليحكما لأنَّ المعنيَّ بهِ الرسولُ ﷺ، وإنما بدأَ بذكرِ اللهِ إعظامًا للهِ واستفتاحَ كلامٍ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أيْ طائعينَ منقادينَ، وقيل: مسرعينَ ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ نفاق ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ﴾ أمْ حدثَ لهمْ شكٌّ في

نبوتهِ وعدلهِ ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ أيْ يجورُ في الحكمِ. وأتيَ بلفظِ الاستفهامِ لأنهُ أشدُّ في التوبيخِ وأبلغُ في الذم ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أيِ المعاندونَ الكافرونَ، لإعراضهمْ عنْ حكمِ اللهِ تعالى.

الثالثة: القضاءُ يكونُ للمسلمينَ إذا كانَ الحكمُ بينَ المعاهدِ والمسلمِ ولا حقَّ لأهلِ الذمةِ فيهِ. وإذا كانَ بينَ ذميينِ فذلكَ إليهما. فإنْ جاءا قاضيَ الإسلامِ فإنْ شاءَ حكمَ وإنْ شاءَ أعرضَ، كما تقدمَ في «المائدةِ».

الرابعة: هذهِ الآيةُ دليلٌ على وجوبِ إجابةِ الداعي إلى الحاكمِ لأنَّ اللهَ سبحانهُ ذمَّ منْ دعيَ إلى رسولهِ ليحكمَ بينهُ وبينَ خصمهِ بأقبحِ الذمِّ فقالَ: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الآيةَ. ما لمْ يعلمْ أنَّ الحاكمَ فاسقٌ، أوْ عداوةً بينَ المدعي والمدعى عليهِ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي إلى كتاب الله وحكم رسوله ﴿أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ قالَ ابنُ عباسٍ: أخبرَ بطاعةِ المهاجرينَ والأنصارِ، وإنْ كانَ ذلكَ فيما يكرهونَ، أيْ هذا قولهمْ. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما أمر به وحكم ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾ قرأَ حفصٌ: ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ بإسكانِ القافِ على نيةِ الجزمِ، وكسرها الباقونَ، لأنَّ جزمهُ بحذفِ آخرهِ. وأسكنَ الهاءَ أبو عمرو وأبو بكرٍ. واختلسَ الكسرةَ يعقوبُ وقالونُ عنْ نافعٍ والبستيِّ عنْ أبي عمرو وحفصٍ. وأشبعَ كسرةَ الهاءِ الباقونَ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾.

وقيل: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ في الفرائضِ ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ في السننِ ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ فيما مضى منْ عمرهِ ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما بقيَ منْ عمرهِ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾ والفائزُ منْ نجا منَ النارِ وأدخلَ الجنةَ.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ عادَ إلى ذكرِ المنافقينَ، أيْ وأقسموا باللهِ أنهمْ يخرجونَ معكَ في المستأنفِ ويطيعونَ إقسامًا بليغًا ﴿قُل لَّا تُقْسِمُواْ﴾ وتمَّ الكلامُ ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ أولى بكمْ منْ أيمَانكمْ، أوْ ليكنْ منكمْ طاعةٌ معروفةٌ، وقولٌ معروفٌ

بإخلاصِ القلبِ، ولا حاجةَ إلى اليمينِ، وقيل: المعنى قدْ عرفتُ طاعتكمْ وهيَ الكذبُ والتكذيبُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٥٣﴾ من طاعتكم بالقول ومخالفتكم بالفعل.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ﴾ بإخلاصِ الطاعةِ وتركِ النفاقِ ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أيْ فإنْ تتولوا، فحذفَ إحدى التاءينِ. ودلَّ على هذا أنَّ بعدهُ ﴿وَعَلَيۡكُم﴾ ولمْ يقلْ وعليهمْ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ﴾ أيْ منْ تبليغِ الرسالةِ ﴿وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾ أيْ منَ الطاعةِ لهُ ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾ جعلَ الاهتداءَ مقرونًا بطاعتهِ ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ أي التبليغ ﴿ٱلۡمُبِينُ ۝٥٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٥٥﴾ هذهِ الآيةِ دلالةٌ على نبوةِ رسولِ اللهِ ﷺ، لأنَّ اللهَ عز وجل أنجزَ ذلكَ الوعدَ، بخلافةِ الخلفاءِ الأربعةِ رضي الله عنهم، وأنَّ اللهَ استخلفهمْ ورضيَ أمانتهمْ، وكانوا على الدينِ الذي ارتضى لهمْ، لأنهمْ لمْ يتقدمهمْ أحدٌ في الفضيلةِ إلى يومنا هذا، وليسَ بعدهمْ مثلهمْ إلى يومنا هذا، واحتجوا بما رواهُ سفينةُ مولى رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «الخلافةُ بعدي ثلاثونَ سنةً ثمَّ تكونُ ملكًا».

وقالَ قومٌ: هذا وعدٌ لجميعِ الأمةِ في ملكِ الأرضِ كلها تحتَ كلمةِ الإسلامِ، كما قالَ ﷺ: «زويتْ لي الأرضُ فرأيتُ مشارقها ومغاربها وسيبلغُ ملكُ أمتي ما زويَ لي منها»، وهوَ المرادُ بقولهِ: ﴿لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

وقولهُ: ﴿كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ يعني بني إسرائيلَ، إذْ أهلكَ اللهُ الجبابرةَ بمصرَ، وأورثهمْ أرضهمْ وديارهمْ فقالَ: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾. وهكذا كانَ الصحابةُ مستضعفينَ خائفينَ، ثمَّ إنَّ اللهَ تعالى أمَّنهمْ ومكَّنهمْ وملكهمْ، فصحَّ أنَّ الآيةَ عامةٌ لأمةِ محمدٍ ﷺ غيرُ مخصوصةٍ، ومنَ الأصلِ المعلومِ التمسكُ بالعمومِ.

وجاءَ في معنى تبديلِ خوفهمْ بالأمنِ قوله ﷺ: «واللهِ ليتمنَّ اللهُ هذا الأمرُ حتى يسيرَ الراكبُ منْ صنعاءَ إلى حضرموتَ لا يخافُ إلا اللهَ والذئبَ على غنمهِ ولكنكمْ تستعجلونَ». خرجهُ مسلمٌ في صحيحهِ، فكانَ كما أخبرَ ﷺ. فالآيةُ معجزةُ النبوةِ، لأنها إخبارٌ عما سيكونُ فكانَ.

قوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بلادُ العربِ والعجمِ، واللامُ في ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ جوابُ قسمٍ مضمرٍ، وقرأَ أبو بكرٍ والمفضلُ عنْ عاصمٍ: «استُخلِف» بضم التاءِ وكسرِ اللامِ على الفعلِ المجهولِ ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ وهوَ الإسلامُ، كما قالَ تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ وقدْ تقدمَ.

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ قرأَ ابنُ كثيرٍ ويعقوبُ منْ أبدلَ، والباقونَ بالتشديدِ، منْ بدّلَ، وهي أكثرُ ما في القرآن، قال الله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾. وقال: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً﴾، وقريء: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا﴾ مخففًا ومثقلًا.

﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ هوَ في موضعِ الحالِ، أيْ في حالِ عبادتهمُ اللهَ بالإخلاصِ. ويجوزُ أنْ يكونَ استئنافًا على طريقِ الثناءِ عليهمْ ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ لا يعبدون ولا يراؤون ولا يخافون ولا يحبونَ غيري ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أيْ بهذهِ النعمِ. والمرادُ كفرانُ النعمةِ لأنهُ، قالَ تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ والكافر بالله فاسق بعد هذا الإنعام وقبله.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٥٦﴾ أعاد الأمر بالعبادة تأكيدا.

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ ووعدٌ بالنصرةِ. وقراءةُ العامةِ ﴿تَحْسَبَنَّ﴾ بالتاءِ خطابًا. وقرأَ ابنُ عامرٍ وحمزةُ «يَحْسَبَنَّ» بالياءِ، بمعنى لا يحسبنَّ الذينَ كفروا أنفسهمْ معجزينَ اللهَ في الأرضِ، لأنَّ الحسبانَ يتعدى إلى مفعولينِ، ويجوزُ أنْ يكونَ الفعلُ للنبيِّ ﷺ، أيْ لا يحسبنَّ محمدٌ الذينَ كفروا معجزينَ في الأرضِ و ﴿مُعْجِزِينَ﴾ معناهُ فائتينَ. ﴿وَمَأْواهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٥٧﴾ أي المرجع.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَـٰثُ عَوۡرَٰتٍ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٨﴾، فيه ثمان مسائلَ:

الأولى: خصَّ في هذهِ الآيةِ بعضَ المستأذنينَ وبعضُ الأوقاتِ، والتي قبلها عامةٌ فيهما، لأنهُ قالَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾.

الثانية: الآية محكمةٌ واجبةٌ ثابتةٌ على الرجالِ والنساءِ، وهوَ قولُ أكثرِ أهلِ العلمِ، قالَ ابنُ عباسٍ: إنَّ اللهَ حليمٌ رحيمٌ بالمؤمنينَ يحبُّ السترَ، فأمرهمُ اللهُ بالاستئذانِ في تلكَ العوراتِ.

الثالثة: قولهِ: ﴿ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍۚ﴾ أيْ في ثلاثِ أوقاتٍ.

الرابعة: هذهِ الأوقاتِ الثلاثةِ، هيَ الأوقاتُ التي تقتضي عادةُ الناسِ الانكشافَ فيها وملازمةَ التعري غالبا.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ﴾ أيِ الذينَ لمْ يحتلموا منْ أحراركمْ، ويحتمل الذينَ لمْ يبلغوا الحلمَ مما ملكتْ أيمانكمْ، على التقديمِ والتأخيرِ، وأنَّ الآيةَ في الإماءِ، وَ ﴿ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍۚ﴾ نصبَ على الظرفِ، لأنهمْ لمْ يؤمروا بالاستئذانِ ثلاثًا، إنما أمروا بالاستئذانِ في ثلاثةِ مواطنَ، والظرفيةُ في ﴿ثَلَـٰث﴾ بينةٌ: منْ قبلِ صلاةِ الفجرِ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة، ومن صلاةِ العشاءِ، ولا يجبُ أنْ يستأذنَ ثلاثَ مراتٍ في كلِّ وقتٍ.

﴿ثَلَـٰثُ عَوۡرَٰتٍ لَّكُمۡۚ﴾ قرأَ جمهورُ السبعةِ ﴿ثَلَـٰثُ عَوۡرَٰتٍ﴾ برفعِ ﴿ثَلَـٰث﴾. وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ وأبو بكرٍ عنْ عاصمٍ «ثَلَاثَ» بالنصبِ على البدلِ منَ الظرفِ في قولهِ: ﴿ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍۚ﴾.

السادسة: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ أيْ في الدخولِ منْ غيرِ أنْ يستأذنوا وإنْ كنتمْ متبذلينَ ﴿طَوَّافُونَ﴾ بمعنى همْ طوافونَ. يطوفونَ عليكمْ وتطوفونَ عليهمْ، ومنهُ الحديثُ في الهرةِ «إنما هيَ منَ الطوافينَ عليكمْ أوِ الطوافاتِ».

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ يريدُ العتمةَ. وفي صحيحِ مسلمٍ عنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال سمعت رسول الله صلى يقولُ: «لا تغلبنكمُ الأعرابُ على اسمِ صلاتكمْ ألا إنها العشاءُ وهمْ يعتمونَ بالإبلِ».

وفي البخاريِّ عنْ أبي برزةَ: كانَ النبيُّ ﷺ يؤخرُ العشاءَ. وقالَ أنسٌ: أخرَ النبيُّ ﷺ العشاءَ. ونهيهُ ﷺ عنْ تسميةِ المغربِ عشاءً وعنْ تسميةِ العشاءِ عتمةً ثابتٌ، فأحبَّ النبيُّ ﷺ أنْ تسمى بما سماها اللهُ تعالى بهِ، وقدْ قيلَ: إنَّ هذا النهيَ عنِ اتباعِ الأعرابِ في تسميتهمُ العشاءَ عتمةً، إنما كانَ لئلا يعدلَ بها عما سماها اللهُ تعالى في كتابهِ إذْ قالَ: ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾، فكأنهُ نهيةُ إرشادٍ إلى ما هوَ الأولى وليسَ على جهة التحريم، وقيل: إنما نهى عنْ ذلكَ تنزيهًا لهذهِ العبادةِ الشريفةِ الدينيةِ عنْ أنْ يطلقَ عليها ما هوَ اسمٌ لفعلةٍ دنيويةٍ، وهي الحلبة التي كانوا يحتلبونها في ذلكَ الوقتِ ويسمونها العتمةَ، ويشهدُ لهذا قولهُ: «فإنها تعتمُ بحلابِ الإبلِ».

الثامنة: في فضل صلاة العشاء، وفيه حديث مسلمٍ عنْ عثمانَ بنِ عفانَ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «منْ صلى العشاءَ في جماعةٍ فكأنما قامَ نصفَ الليلِ ومنْ صلى الفجرَ في جماعةٍ فكأنما قامَ الليلَ كلهُ».

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

أمر الله تعالى في هذهِ الآيةِ أنْ يكونوا إذا بلغوا الحلمَ على حكمِ الرجالِ في الاستئذانِ في كلِّ وقتٍ، وقالَ: ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ ولمْ يقلْ فليستأذنوكمْ. وقالَ في الأولى ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ﴾ لأنَّ الأطفالَ غيرُ مخاطبينَ ولا متعبدينَ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝٦٠﴾، فيهِ خمسُ مسائلَ:

الأولى: القواعدُ واحدتها قاعدٌ، بلا هاءٍ، ليدلَّ حذفها على أنهُ قعودُ الكِبرِ، كما قالوا: امرأةٌ حاملٌ، ليدلَّ بحذفِ الهاءِ أنهُ حملُ حبلٍ.

الثانية: القواعدُ: العُجَّزُ اللواتي قعدنَ عنِ التصرفِ منَ السنِّ، وقعدنَ عنِ الولدِ والمحيضِ، هذا قولُ أكثرِ العلماءِ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ﴾ إنما خصَّ القواعدُ بذلكَ لانصرافِ الأنفسِ عنهنَّ، إذ لا مذهب للرجالِ فيهنَّ، فأبيحَ لهنَّ ما لَمْ يبحْ لغيرهنَّ، وأزيلَ عنهمْ كلفةُ التحفظِ المتعبِ لهنَّ.

الرابعة: ﴿أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ تضعُ الجلبابَ الذي يكونُ فوقَ الدرعِ والخمارِ.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ﴾ أيْ غيرَ مظهراتٍ ولا متعرضاتٍ بالزينةِ لينظرَ إليهنَّ، والتبرجُ: التكشفُ والظهورُ للعيونِ، ومنهُ: بروجٌ مشيدةٌ. وبروجُ السماءِ والأسوارِ، أيْ لا حائلَ دونها يسترها.

ومنَ التبرجِ أنْ تلبسَ المرأةُ ثوبينِ رقيقينِ يصفانها. روى الصحيحُ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «صنفانِ منْ أهلِ النارِ لمْ أرهما قومٌ معهمْ سياطٌ كأذنابِ البقرِ يضربونَ بها الناسَ ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ مميلاتٌ مائلاتٌ رؤوسهنَّ كأسنمةِ البختِ المائلةِ لا يدخلنَ الجنةَ ولا يجدنَ ريحها وإنَّ ريحها ليوجدُ منْ مسيرةِ كذا وكذا».

قالَ ابنُ العربيِّ: كاسياتٍ لأنَّ الثيابَ عليهنَّ، عاريات لأن الثوب إذا رقَّ يصفهنَّ، ويبدي محاسنهنَّ، وذلكَ حرامٌ، وقيل: كاسياتٌ منَ الثيابِ عارياتٌ منْ لباسِ التقوى الذي قالَ اللهُ تعالى فيهِ: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ وأنشدوا:

إذا المرء لم يلبس ثياب منَ التقى ... تقلبَ عريانًا وإنْ كانَ كاسيًا

وفي صحيح مسلمٌ عنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «بينا أنا نائمٌ رأيتُ الناسَ يعرضونَ عليَّ وعليهمْ قمصٌ منها ما يبلغُ الثديَّ ومنها ما دونَ ذلك ومر عمر ابن الخطابِ وعليهِ قميصٌ يجرهُ» قالوا: ماذا أولتَ ذلكَ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: الدِّين. فتأويلهُ ﷺ القميصَ بالدينِ مأخوذٌ منْ قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾.

قلتُ: هذا التأويلُ أصحُّ التأويلينِ، وهوَ اللائقُ بهنَّ في هذهِ الأزمانِ، وخاصةً الشباب، فإنهنَّ يتزينَّ ويخرجنَ متبرجاتٍ، فهنَّ كاسياتٌ بالثيابِ عارياتٌ منَ التقوى حقيقةً، فلوْ كانَ عندهنَّ شيء منَ التقوى لما فعلنَ ذلكَ، قالَ ﷺ: «ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجالِ منَ النساءِ». خرجهُ البخاري.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾، فيهِ إحدى عشرةَ مسألةً:

الأولى: المختارَ أنْ يقالَ: إنَّ اللهَ رفعَ الحرجَ عنِ الأعمى فيما يتعلقُ بالتكليفِ الذي يشترطُ فيهِ البصرُ، وعنِ الأعرجِ فيما يتعذرُ منَ الأفعالِ معَ وجودِ العرجِ، وعنِ المريضِ فيما يؤثرُ المرضُ في إسقاطهِ، كالصوم وشروطِ الصلاةِ وأركانها، والجهادِ ونحوِ ذلكَ. ثمَّ قالَ بعدَ ذلكَ مبينًا: وليسَ عليكمْ حرجٌ في أنْ تأكلوا منْ بيوتكمْ....

فظاهرُ الآيةِ وأمرُ الشريعةِ يدلُّ على أنَّ الحرجَ عنهمْ مرفوعٌ في كلِّ ما يضطرهمْ إليهِ العذرُ، وتقتضي نيتهمْ فيهِ الإتيانَ بالأكملِ، ويقتضي العذرُ أنْ يقعَ منهمُ الأنقصُ، فالحرجُ مرفوعٌ عنهمْ في هذا.

الثانية: وقالت فرقة: الآيةُ كلها في معنى المطاعمِ. قالتْ: وكانتِ العربُ ومَنْ بالمدينةِ قبلَ المبعثِ تتجنبُ الأكلَ معَ أهلِ الأعذارِ تقذرًا أو تحرجًا منْ غيرِ أهلِ الأعذارِ، إذْ هم مقصرونَ عنْ درجةِ الأصحاءِ في الأكلِ، لعدمِ الرؤيةِ في الأعمى، وللعجزِ عنِ المزاحمةِ في

الأعرجِ، ولضعفِ المريضِ، فنزلتِ الآيةُ في إباحةِ الأكل معهمْ. وقيل: إنَّ أهلَ الأعذارِ تحرجوا في الأكلِ معَ الناسِ منْ أجلِ عذرهمْ، فنزلتِ الآيةُ مبيحةً لهمْ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ وذكرَ بيوت القربات وسقطَ منها بيوتُ الأبناءِ، لأنها داخلةٌ في قولهِ: ﴿فِي بُيُوتِكُمْ﴾ لأنَّ بيتَ ابنِ الرجل بيتهُ وفي الخبرِ: «أنتَ ومالك لأبيك»، وقد يكون في بيوتكمْ للزوجةِ والولدِ شيء منْ ملكهمْ فليسَ عليكم في ذلكَ حرجٌ.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ قالَ بعضُ العلماءِ: هذا إذا أذنوا لهُ في ذلكَ. وقالَ آخرونَ: أذنوا لهُ أوْ لمْ يأذنوا فلهُ أنْ يأكلَ، لأنَّ القرابةَ التي بينهمْ هيَ إذنٌ منهمْ.

قال ابنُ العربيِّ: أباحَ لنا الأكلَ منْ جهةِ النسبِ منْ غيرِ استئذانٍ إذا كان الطعام مبذولا، فإذا كان محوزا دونهمْ لمْ يكنْ لهمْ أخذهُ، ولا يجوزُ أنْ يجاوزوا إلى الادخارِ، ولا إلى ما ليس بمأكول إلا بإذنٍ منهمْ.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ وعُظْمُ ذلكَ ما ملكهُ الرجلُ في بيتهِ وتحتَ غلقهِ ويدخلُ في الآيةِ الوكلاءُ والعبيدُ والأجراءُ لا بأسَ أنْ يطعموا الشيءَ اليسيرَ.

قال ابنُ العربيِّ: وللخازنِ أنْ يأكلَ مما يخزنُ إجماعًا، وهذا إذا لمْ تكنْ لهُ أجرةٌ، فأما إذا كانتْ لهُ أجرةٌ على الخزنِ حرمَ عليهِ الأكلُ.

السادسة: قوله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ الصديقُ بمعنى الجمع، وكذلكَ العدوُّ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾، والصديقُ منْ يصدقكَ في مودتهِ وتصدقهُ في مودتكَ. ثمَّ قيلَ: إنَّ هذا منسوخٌ بقولهِ: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾، وقولهِ تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ الآيةَ، وقولهِ ﷺ: «لا يحلُّ مالُ امرئٍ مسلمٍ إلا بطيبةِ نفسٍ منهُ». وقيل: هيَ محكمةٌ، وهوَ أصحُّ، وكانَ ﷺ يدخلُ حائطَ أبي طلحةَ المسمى ببيرحا ويشربُ منْ ماءٍ فيها طيبٍ بغيرِ إذنهِ، على ما قالهُ علماؤنا، قالوا: والماءُ متملكٌ لأهلهِ.

وإذا جازَ الشربُ منْ ماءِ الصديقِ بغيرِ إذنهِ جازَ الأكلُ منْ ثمارهِ وطعامهِ إذا علمَ أنَّ نفسَ صاحبهِ تطيبُ بهِ لتفاهتهِ ويسيرِ مؤنتهِ، أوْ لما بينهما منَ المودةِ. ومنْ هذا المعنى إطعامُ أمِّ حرام له ﷺ إذا نامَ عندها، لأنَّ الأغلبَ أنَّ ما في البيتِ منَ الطعامِ هوَ للرجلِ، وأنَّ يدَ زوجتهِ في ذلكَ عاريةٌ. وهذا كلهُ ما لمْ يتخذِ الأكلُ خبنةً، ولمْ يقصدْ بذلكَ وقايةَ مالهِ، وكانَ تافهًا يسيرًا.

السابعة: قرنَ اللهُ عزَّ وجلَّ في هذهِ الآيةِ الصديقَ بالقرابةِ المحضةِ الوكيدةِ، لأنَّ قربَ المودةِ لصيقٌ. قالَ ابنُ عباسٍ: الصديقُ أوكدُ منَ القرابةِ، ألا ترى استغاثةَ الجهنميينَ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ١٠١﴾.

قلتُ: ولهذا لا تجوزُ عندنا شهادةُ الصديقِ لصديقهِ، كما لا تجوزُ شهادةُ قريبٍ لقريبهِ.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ قيلَ: إنها نزلتْ في بني ليثِ بنِ بكرٍ، وهمْ حيٌّ منْ بني كنانةَ، وكانَ الرجلُ منهمْ لا يأكلُ وحدهُ ويمكثُ أيامًا جائعًا حتى يجدَ منْ يؤاكلهُ. ومنهُ قولُ بعضِ الشعراءِ:

إذا ما صنعتِ الزادَ فالتمسي لهُ أكيلًا فإني لستُ آكلهُ وحدي

قالَ ابنُ عطيةَ: وكانتْ هذهِ السيرةُ موروثةً عندهمْ عنْ إبراهيمَ عليه السلام، فإنهُ كانَ لا يأكلُ وحدهُ. وكانَ بعضُ العربِ إذا كانَ لهُ ضيفٌ لا يأكلُ إلا أنْ يأكلَ معَ ضيفهِ، فنزلتِ الآيةُ مبينةً سنةَ الأكلِ، ومذهبةً كلَّ ما خالفها منْ سيرةِ العربِ، ومبيحةً منْ أكلِ المنفردِ ما كانَ عندَ العربِ محرمًا، نحتْ بهِ نحوَ كرمِ الخُلقِ، فأفرطتْ في إلزامهِ، وإنَّ إحضارَ الأكيلِ لحسنٌ، ولكنْ بألا يحرمَ الانفرادُ.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ ﴿جَمِيعًا﴾ نصبَ على الحالِ. وَ ﴿أَشْتَاتًا﴾ جمعُ شتٍّ، والشتُّ المصدرُ بمعنى التفرقِ، يقالُ: شتَّ القومُ أيْ تفرقوا. وقدْ ترجمَ البخاريُّ في صحيحهِ «بابٌ- ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ الآية. والنِّهدُ والاجتماعُ. ومقصودهُ فيما قالهُ علماؤنا في هذا البابِ: إباحةُ الأكلِ جميعًا وإنِ اختلفتْ أحوالهمْ في الأكلِ، وقدْ سوغَ النبيُّ ﷺ ذلكَ، فصارتْ تلكَ سنةً

في الجماعاتِ التي تدعى إلى الطعامِ في النهدِ والولائمِ وفي الإملاقِ في السفرِ، والنِّهدُ: ما يجمعهُ الرفقاءُ منْ مالٍ أوْ طعامٍ على قدرٍ في النفقةِ ينفقونهُ بينهمْ.

العاشرة: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

قالَ ابنُ العربيِّ: القولُ بالعمومِ في البيوتِ هوَ الصحيحُ، ولا دليلَ على التخصيصِ، فإذا دخلَ بيتًا لغيرهِ استأذنَ كما تقدمَ، فإذا دخلَ بيتًا لنفسهِ سلمَ كما وردَ في الخبرِ، يقولُ: السلامُ علينا وعلى عبادِ اللهِ الصالحينَ، وهذا إذا كانَ فارغًا، فإنْ كانَ فيهِ أهله وخدمه فليقلْ: السلامُ عليكمْ. وإنْ كانَ مسجدًا فليقلْ: السلامُ علينا وعلى عبادِ اللهِ الصالحينَ.

وعند الحاكم عنْ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهو في مسلم بمعناه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «إذا دخلتمْ بيوتكمْ فسلموا على أهلها، وإذا طعمتمْ فاذكروا اسمَ اللهِ، وإذا سلمَ أحدكمْ حينَ يدخلُ بيتهُ وذكرَ اسمَ اللهِ على طعامهِ يقولُ الشيطانُ لأصحابهِ: لا مبيتَ لكمْ ولا عشاءَ وإذا لمْ يسلمْ أحدكمْ ولمْ يسمِّ يقولُ الشيطانُ لأصحابهِ: أدركتمُ المبيتَ والعشاءَ».

وفي كتابِ أبي داودَ عنْ أبي مالكٍ الأشجعيِّ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إذا ولجَ الرجلُ بيتهُ فليقلِ اللهمَّ إني أسألكَ خيرَ الولوجِ وخيرَ الخروجِ باسمِ اللهِ ولجنا وباسمِ اللهِ خرجنا وعلى اللهِ ربنا توكلنا ثم ليسلمْ على أهلهِ».

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿تَحِيَّةً﴾ مصدرٌ، لأنَّ قولهُ: ﴿فَسَلِّمُوا۟﴾ معناهُ فحيوا، ووصفها بالبركةِ لأنَّ فيها الدعاءَ واستجلابَ مودةِ المسلمِ عليهِ. ووصفها أيضًا بالطيبِ لأنَّ سامعها يستطيبها. والكافُ منْ قولهِ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كافُ تشبيهٍ. وَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى هذهِ السننِ، أيْ كما بينَ لكمْ سنةَ دينكمْ في هذهِ الأشياءِ يبينُ لكمْ سائرَ ما بكمْ حاجةٌ إليه في دينكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿إِنَّمَآ﴾ في هذهِ الآيةِ للحصرِ، المعنى: لا يتمُّ ولا يكملُ إيمانُ منْ آمنَ باللهِ ورسوله إلا بأنْ يكونَ منَ الرسولِ سامعًا غيرَ معنتٍ، وبينَ تعالى في أولِ السورةِ أنهُ أنزلَ آياتٍ بيناتٍ، وإنما النزولُ على محمدٍ ﷺ، فختمَ السورةَ بتأكيدِ الأمرِ في متابعتهِ ﷺ، ليعلمَ أنَّ أوامرهُ كأوامرِ القرآنِ.

الثانية: الأمرِ الجامعِ المرادُ بهِ ما للإمامِ منْ حاجةٍ إلى تجمع الناسِ فيهِ لإذاعةِ مصلحةٍ، منْ إقامةِ سنةٍ في الدينِ كالجمعة، أوْ لترهيبِ عدوٍّ باجتماعهمْ وللحروبِ، قال الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾. فإذا كانَ أمرٌ يشملهمْ نفعهُ وضرهُ جمعهمْ للتشاورِ في ذلكَ.

ورويَ أنَّ هذهِ الآيةَ نزلتْ في حفرِ الخندقِ في شوالٍ سنةَ خمسٍ منَ الهجرةِ، فكانَ المنافقونَ يتسللونَ لواذًا منَ العملِ ويعتذرونَ بأعذارٍ كاذبةٍ.

﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فكانَ النبيُّ ﷺ بالخيارِ إنْ شاءَ أنْ يأذنَ وإنْ شاءَ منعَ. وقالَ قتادةُ: قولهُ: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ منسوخةٌ بقولهِ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ أيْ لخروجهمْ عنِ الجماعةِ إنْ علمتَ لهمْ عذرا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ بصياحٍ ورفعِ صوتٍ بلْ عظموهُ كما قالَ في الحجراتِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ الآيةَ. وقيل: أمرهمْ أنْ يشرفوهُ ويفخموهُ. وعن ابنُ عباسٍ: لا تتعرضوا الدعاءِ الرسولِ عليكمْ بإسخاطهِ فإنَّ دعوتهُ موجبةٌ.

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ التسللُ والانسلالُ: الخروجُ. واللواذُ منَ الملاوذةِ، وهيَ أنْ تستترَ بشيءٍ مخافةَ منْ يراكَ، فكانَ المنافقونَ يتسللونَ عنْ صلاةِ الجمعةِ ﴿لِوَاذًا﴾ مصدرٌ في موضعِ الحالِ، أيْ متلاوذينَ، أيْ يلوذُ بعضهمْ ببعضٍ، ينضمُّ إليهِ

استتارًا منْ رسولِ اللهِ ﷺ، لأنه لمْ يكنْ على المنافقينَ أثقلُ منْ يومِ الجمعةِ وحضورِ الخطبةِ، وقيل: كانوا يتسللونَ في الجهادِ رجوعا عنه يلوذ بعضهم ببعضٍ.

قوله تعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ﴾ بهذهِ الآيةِ احتجَّ الفقهاءُ على أنَّ الأمرَ على الوجوبِ. ووجهها أنَّ اللهَ تباركَ وتعالى قدْ حذر من مخالفة أمره، وتوعد بالعقاب عليها بقولهِ: ﴿أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣﴾ فتحرمُ مخالفتهُ، فيجبُ امتثالُ أمرهِ. والفتنةُ هنا القتلُ، وقيل: الزلازلُ والأهوال، وقيل: سلطانٌ جائرٌ يسلطُ عليهمْ، وقيل: الطبعُ على القلوبِ بشؤمِ مخالفةِ الرسولِ. والضميرُ في ﴿أَمۡرِهِۦٓ﴾ عائدٌ إلى أمرِ اللهِ تعالى، وقيل: إلى أمر رسوله ﷺ، و﴿عَنۡ﴾ في هذا الموضعِ زائدةٌ. وقالَ الخليلُ وسيبويهِ: ليستْ بزائدةٍ، والمعنى: يخالفونَ بعد أمره، ومنهُ قولهُ: ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ أيْ بعدَ أمرِ ربهِ.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ خلقًا وملكًا ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ فهوَ يجازيكمْ بهِ. وَ﴿يَعۡلَمُ﴾ هنا بمعنى علمَ ﴿وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ بعدَ ما كانَ في خطابٍ رجعَ في خبرٍ، وهذا يقالُ لهُ: خطابُ التلوينِ ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ﴾ أيْ يخبرهمْ بأعمالهمْ ويجازيهمْ بها ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٦٤﴾ منْ أعمالهمْ وأحوالهمْ.

سورة الفرقان

مكيةٌ كلها في قولِ الجمهورِ. وقالَ ابنُ عباسٍ وقتادةُ: إلا ثلاثَ آياتٍ منها نزلتْ بالمدينةِ، وهيَ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إلى قولهِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾.

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ ﴿تَبَارَكَ﴾ تعالى عطاؤهُ، ودامَ وثبتَ إنعامهُ، في اللغةِ والاشتقاقِ، منْ بركَ الشيءُ إذا ثبتَ ومنهُ بركَ الجملُ والطيرُ على الماءِ، أي دام وثبتَ.

وَ ﴿ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ القرآنُ. وقيل: إنهُ اسمٌ لكلِّ منزلٍ، كما قالَ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾. وفي تسميتهِ فرقانًا وجهانِ:

أحدهما- لأنهُ فرّقَ بينَ الحقِّ والباطلِ، والمؤمنِ والكافرِ.

الثاني- لأنَّ فيهِ بيانَ ما شرعَ منْ حلالٍ وحرامٍ.

﴿عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ يريدُ محمدًا ﷺ ﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١﴾ اسمُ ﴿يَكُونَ﴾ مضمرٌ يعودُ على ﴿عَبۡدِهِۦ﴾ وهوَ أولى لأنهُ أقربُ إليهِ. ويجوزُ أنْ يكونَ يعودُ على ﴿ٱلۡفُرۡقَانَ﴾. والنذيرُ: المحذرُ منَ الهلاكِ، والمرادُ بـ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هنا الإنسُ والجنُّ، لأنَّ النبيَّ ﷺ قدْ كانَ رسولًا إليهما، ونذيرًا لهما، وأنهُ خاتمُ الأنبياءِ، ولمْ يكنْ غيرهُ عامَّ الرسالةِ إلا نوحٌ فإنهُ عمَّ برسالتهِ جميعَ الإنسِ بعدَ الطوفانِ، لأنهُ بدأَ بهِ الخلقَ.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ عظمَ تعالى نفسهُ ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ نزهَ سبحانهُ وتعالى نفسهُ عما قالهُ المشركونَ منْ أنَّ الملائكةَ أولادُ اللهِ، يعني بناتِ اللهِ سبحانهُ وتعالى. وعما قالتِ اليهودُ: عزيرٌ ابنُ اللهِ، جلَّ اللهُ تعالى. وعما قالتِ النصارى: المسيحُ ابنُ اللهِ ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ كما قال عبدة الأوثان ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ

﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ٢﴾ أي قدر كل شيء مما خلقَ بحكمتهِ على ما أرادَ، لا عنْ سهوةٍ وغفلةٍ، بلْ جرتِ المقاديرُ على ما خلقَ اللهُ إلى يومِ القيامةِ، وبعدَ القيامةِ، فهوَ الخالقُ المقدرُ، فإياهُ فاعبدوهُ.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ﴾ ذكرَ ما صنعَ المشركونَ على جهةِ التعجيبِ في اتخاذهمُ الآلهةَ، معَ ما أظهرَ منَ الدلالةِ على وحدانيته وقدرته ﴿لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا﴾ يعني الآلهةَ ﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ لما اعتقدَ المشركونَ فيها أنها تضرُّ وتنفعُ، عبرَ عنها كما يعبرُ عما يعقلُ ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ أيْ لا دفعَ ضرٍّ وجلبَ نفعٍ، فحذفَ المضافُ ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ٣﴾ أيْ لا يميتونَ أحدًا، ولا يحيونهُ.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ يعني مشركي قريشٍ ﴿إِنۡ هَٰذَآ﴾ يعني القرآنَ ﴿إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ أيْ كذبٌ اختلقهُ ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ﴾ يعني اليهودَ ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا﴾ أيْ بظلمٍ. وقيل: المعنى فقدْ أتوا ظلمًا ﴿وَزُورٗا ٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ واحدُ الأساطيرِ أسطورةٌ، مثلُ أحاديثَ وأحدوثةٍ ﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾ يعني محمدا ﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾ أي تلقى عليه وتقرأ ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥﴾ حتى تحفظَ.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ذكرَ ﴿ٱلسِّرَّ﴾ دونَ الجهرِ، لأنهُ منْ علمَ السرَّ فهوَ في الجهرِ أعلمُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٦﴾ يريدُ غفورًا لأوليائهِ رحيما بهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: ذكرَ شيئًا آخرَ منْ مطاعنهمْ. والضميرُ في ﴿قَالُوٓاْ﴾ لقريشٍ.

الثانية: دخولُ الأسواقِ مباحٌ للتجارةِ وطلبِ المعاشِ. وكانَ ﷺ يدخلها لحاجتهِ، ولتذكرةِ الخلقِ بأمرِ اللهِ ودعوتهِ، ويعرضُ نفسهُ فيها على القبائلِ، لعلَّ اللهَ أنْ يرجعَ بهمْ إلى الحقِّ. وفي البخاريِّ في صفتهِ ﷺ: «ليسَ بفظٍّ ولا غليظٍ ولا سخابٍ في الأسواقِ»، وتجارةُ الصحابةِ فيها معروفةٌ، وخاصةً المهاجرينَ، كما قالَ أبو هريرةَ: وإنَّ إخواننا منَ المهاجرينَ

كانَ يشغلهمُ الصفقُ بالأسواقِ، خرجهُ البخاريُّ.

قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أيْ هلا ﴿فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧﴾ جواب الاستفهام ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ﴾ في موضعِ رفع، والمعنى: أوْ هلا يلقى ﴿إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ ﴿أَوْ﴾ هلا ﴿تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ ﴿يَأْكُلُ﴾ بالياءِ قرأَ المدنيونَ وأبو عمرو وعاصمٌ. وقرأَ سائرُ الكوفيينَ بالنونِ، والقراءتانِ حسنتانِ تؤديانِ عنْ معنى، وإنْ كانتِ القراءةُ بالياء أبين، لأنه قدْ تقدمَ ذكرُ النبيِّ ﷺ وحدهُ فأنْ يعودَ الضميرُ عليهِ أبينُ ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ ليتوصلوا إلى تكذيبكَ ﴿فَضَلُّوا۟﴾ عنْ سبيلِ الحقِّ وعنْ بلوغِ ما أرادوا ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩﴾ إلى تصحيحِ ما قالوهُ فيكَ.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ﴾ شرطٌ ومجازاةٌ، ولمْ يدغمْ ﴿جَعَل لَكَ﴾ لأنَّ الكلمتينِ منفصلتانِ، ويجوزُ الإدغامُ لاجتماعِ المثلينِ ﴿وَيَجْعَل لَّكَ﴾ في موضوعِ جزمٍ عطفًا على موضعِ ﴿جَعَلَ﴾ ﴿قُصُورًۢا ۝١٠﴾. قالَ مجاهدٌ: كانتْ قريشٌ ترى البيتَ منْ حجارةٍ قصرًا كائنًا ما كانَ. والقصرُ في اللغةِ الحبسُ، وسميَ القصرُ قصرًا لأنَّ منْ فيهِ مقصورٌ عنْ أنْ يوصلَ إليهِ. وقيل: العربُ تسمي بيوتَ الطينِ القصرَ. وما يتخذُ منَ الصوفِ والشعرِ البيتَ.

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ﴾ يريدُ يومَ القيامةِ ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١١﴾ يريدُ جهنمَ تتلظى عليهمْ ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أيْ منْ مسيرةِ خمسمائةِ عامٍ ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۝١٢﴾ سمعوا صوتَ تغيظها عليهمْ. وقيل: المعنى إذا رأتهمْ خزانها سمعوا لهمْ تغيظًا وزفيرًا حرصًا على عذابهمْ، وقيل: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا﴾ أيْ فيها، أيْ سمعوا فيها تغيظًا وزفيرًا للمعذبينَ. كما قالَ تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ وَ «في واللامُ» يتقاربانِ، تقولُ: أفعلُ هذا في اللهِ وللهِ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ﴾ مكتفينَ، وقيل: مصفدينَ قدْ قرنتْ أيديهمْ إلى أعناقهمْ في الأغلالِ. وقيل: قرنوا معَ الشياطينِ، أيْ قرنَ كلُّ واحدٍ منهمْ إلى

شيطانه. ﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣﴾ أيْ هلاكًا، أو ويلًا.

قوله تعالى: ﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدۡعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ۝١٤﴾ فإنَّ هلاككمْ أكثرُ منْ أنْ تدعوا مرةً واحدةً.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ﴾. قالَ: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ﴾ ولا خيرَ في النارِ لأنهمْ لما كانوا يعملونَ عملَ أهلِ النارِ صاروا كأنهمْ يقولونَ إنَّ في النارِ خيرًا.

قوله تعالى: ﴿لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ منَ النعيم ﴿خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدًا مَّسۡـُٔولًا ۝١٦﴾ وعدَ اللهُ المؤمنينَ الجنةَ جزاءً على أعمالهمْ فسألوهُ ذلكَ الوعدَ فقالوا: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾، وقيل: إنَّ الملائكةَ تسألُ لهم الجنةَ، دليلهُ قولهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾ الآيةَ.

قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾ قرأَ ابنُ كثيرٍ وحفصٌ ويعقوبُ وأبو عمرو في روايةِ الدوريِّ ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾ بالياءِ، والباقونَ بالنونِ على التعظيم ﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ منَ الملائكةِ والإنسِ والجنِّ والمسيحِ وعزيرٍ، وقيل: الأصنامُ ﴿فَيَقُولُ﴾ قراءةُ العامةِ بالياءِ، وقرأَ ابنُ عامرٍ بالنونِ على التعظيم ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ۝١٧﴾ استفهامُ توبيخٍ للكفارِ ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ﴾ أيْ قالَ المعبودونَ منْ دونَ اللهِ سبحانكَ، أيْ تنزيهًا لكَ ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾. فإن قيل: فإنْ كانتِ الأصنامُ التي تعبدُ تحشرُ فكيفَ تنطقُ وهيَ جمادٌ؟ قيلَ لهُ: ينطقها اللهُ تعالى يومَ القيامةِ كما ينطقُ الأيديَ والأرجلَ. وقرأَ أبو جعفرٍ: «أَنْ نُتَّخَذَ» بضمِّ النونِ وفتحِ الخاءِ على الفعلِ المجهولِ، وتكون ﴿مِن﴾ الثانيةَ صلةٌ.

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ﴾ أيْ في الدنيا بالصحةِ والغنى وطولِ العمرِ بعدَ موتِ الرسلِ صلواتُ اللهِ عليهمْ ﴿حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ أي القرآنُ المنزلُ على الرسلِ، تركوا العملَ بهِ، وقيل: نسوا الشكرُ على الإحسانِ إليهمْ والإنعامِ عليهمْ ﴿وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورًا ۝١٨﴾ أيْ هلكى، والبوارِ هوَ الهلاكُ، وقيل: ﴿بُورًا﴾ لا خيرَ فيهمْ. مأخوذٌ منْ بوارِ الأرضِ، وهوَ تعطيلها منَ الزرعِ، وقيل: البوارُ. الفسادُ والكسادُ، منْ قولهمْ: بارتِ السلعةُ إذا كسدتْ

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ منَ الحقِّ فما يستطيعونَ لكمْ صرفًا عنِ الحقِّ الذي هداكمُ اللهُ إليهِ، ولا نصرًا لأنفسهمْ مما ينزلُ بهمْ منَ العذابِ بتكذيبهمْ إياكمْ.

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ قالَ ابنُ عباسٍ: منْ يشركْ منكمْ ثمَّ ماتَ عليهِ ﴿نُذِقْهُ﴾ أيْ في الآخرةِ ﴿عَذَابًا كَبِيرًا ١٩﴾ أيْ شديدًا، كقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أي شديدا.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ٢٠﴾، فيهِ تسعُ مسائلَ:

الأولى: نزلتْ جوابًا للمشركينَ حيثُ قالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾.

الثانية: قولهُ تعالى: ﴿إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ﴾ كالذي تأكل أنت وتمشي، فليس لهم عليك بما قالوا من ذلك حجة، وذهبتْ فرقةٌ إلى أنَّ قولهُ: ﴿لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ كنايةٌ عنِ الحدثِ. قلتُ: وهذا بليغٌ في معناهُ، ومثلهُ ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾.

الثالثة: هذه الآية أصل فتناول الأسبابِ وطلبِ المعاشِ بالتجارةِ والصناعةِ وغيرِ ذلكَ، وقدْ أخبرَ اللهُ تعالى في كتابهِ عنْ أصفيائهِ ورسلهِ وأنبيائهِ بالأسبابِ والاحترافِ فقالَ وقولهُ الحقُّ: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾، وقالَ ﷺ: «جُعلَ رزقي تحتَ ظلِّ رمحي» وقالَ تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ﴾ وكانَ الصحابةُ ﵃ يتجرونَ ويحترفونَ وفي أموالهمْ يعملونَ.

وفي التنزيلِ حيثُ خاطبَ موسى الكليمَ ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ﴾ وقدْ كانَ قادرًا على فلقِ البحرِ دونَ ضربِ عصًا. وكذلكَ مريم ﵍ ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾، وقالَ ﷺ: «لأنْ يأخذَ أحدكمْ حبلهُ فيحتطبَ على ظهرهِ خير له من أن يسأل أحدا أعطاهُ أوْ منعهُ».

فالعجبَ العجبَ ممنْ يدعي التجريدَ والتوكلَ على التحقيقِ، ويقعدُ على ثنياتِ الطريقِ، ويدعُ الطريقَ المستقيمَ، والمنهجَ الواضحَ القويمَ. ثبتَ في البخاريِّ عنِ ابنِ عباسٍ

قالَ: كانَ أهلُ اليمنِ يحجونَ ولا يتزودونَ ويقولونَ نحنُ المتوكلونَ، فإذا قدموا سألوا الناسَ، فأنزلَ اللهُ تعالى ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾. ولمْ ينقلْ عنِ النبيِّ ﷺ وأصحابهِ رضوانُ اللهِ عليهمْ أنهمْ خرجوا إلى أسفارهمْ بغيرِ زادٍ، وكانوا المتوكلينَ حقًا. والتوكلُ اعتمادُ القلبِ على الربِّ في أنْ يلمَّ شعثهُ ويجمعَ عليهِ أَرَبَهُ، ثمَّ يتناولُ الأسبابَ بمجردِ الأمرِ. وهذا هوَ الحقُّ. سألَ رجلٌ الإمامَ أحمدَ بنَ حنبلٍ فقالَ: إني أريدُ الحجَّ على قدمِ التوكلِ. فقالَ: اخرجْ وحدكَ، فقالَ: لا، إلا معَ الناسِ. فقالَ لهُ: أنتَ إذنْ متكلٌ على أجربتهمْ.

الرابعة: خرّجَ مسلمٍ عنْ أبي هريرةَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «أحبُّ البلادِ إلى اللهِ مساجدها وأبغضُ البلادِ إلى اللهِ أسواقها». وخرج البزاز عنْ سلمانَ الفارسيِّ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لا تكوننَ إنِ استطعتَ أولَ منْ يدخلُ السوقَ. ولا آخرَ منْ يخرجُ منها فإنها معركةُ الشيطانِ وبها ينصبُ رايتهُ». ففيهما ما يدلُّ على كراهةِ دخولِ الأسواقِ، لا سيما في هذهِ الأزمانِ التي يخالطُ فيها الرجالُ النسوانَ. وهكذا قالَ علماؤنا لما كثرَ الباطلُ في الأسواقِ وظهرتْ فيها المناكرُ: كرهَ دخولها لأربابِ الفضلِ والمقتدى بهمْ في الدينِ تنزيهًا لهمْ عنِ البقاعِ التي يعصى اللهُ فيها. فحقٌّ على منِ ابتلاهُ اللهُ بالسوقِ أنْ يخطرَ ببالهِ أنهُ قدْ دخلَ محلَّ الشيطانِ ومحلَّ جنودهِ، وإنهُ إنْ أقامَ هناكَ هلكَ، ومنْ كانتْ هذهِ حالهُ اقتصرَ منهُ على قدرِ ضرورتهِ، وتحرزَ منْ سوءِ عاقبتهِ وبليته.

الخامسة: تشبيهُ النبيِّ ﷺ السوقَ بالمعركةِ تشبيهٌ حسنٌ، فشبهَ السوقَ وفعلَ الشيطانِ بها ونيلهُ منهمْ مما يحملهمْ منَ المكرِ والخديعةِ والتساهلِ في البيوعِ الفاسدةِ والكذبِ والأيمانِ الكاذبةِ، واختلاطِ الأصواتِ وغيرِ ذلكَ بمعركةِ الحربِ ومنْ يصرعُ فيها.

السادسة: قالَ ابنُ العربيِّ: أما أكلُ الطعامِ فضرورةُ الخلقِ لا عارَ ولا دركَ فيهِ، وأما الأسواقُ فسمعتُ مشيخةَ أهلِ العلمِ يقولونَ: لا يدخلُ إلا سوقَ الكتبِ والسلاحِ، وعندي أنهُ يدخلُ كلَّ سوقٍ للحاجةِ إليهِ ولا يأكلُ فيها، لأنَّ ذلكَ إسقاطٌ للمروءةِ وهدمٌ للحشمةِ،

ومنَ الأحاديثِ الموضوعةِ «الأكلُ في السوقِ دناءةٌ».

قلتُ: ما ذكرتهُ مشيخةُ أهلِ العلمِ فنعما هوَ، فإنَّ ذلكَ خالٍ عنِ النظرِ إلى النسوانِ ومخالطتهنَّ، إذْ ليس بذلك منْ حاجتهنَّ. وأما غيرهما منَ الأسواقِ فمشحونةٌ منهنَّ، وقلةُ الحياءِ قدْ غلبتْ عليهنَّ، حتى ترى المرأةَ قاعدةً متبرجةً بزينتها، وهذا منَ المنكرِ الفاشي في زماننا هذا. نعوذُ باللهِ منْ سخطهِ.

السابعة: خرجَ أبو داودَ الطيالسيُّ في مسندهِ عنْ عمرَ بنِ الخطابِ قالَ: «منْ دخلَ سوقًا منْ هذهِ الأسواقِ فقالَ لا إلهَ إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ له لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ يحيي ويميتُ وهوَ حيٌّ لا يموتُ بيدهِ الخيرُ وهوَ على كل شيء قديرٌ كتبَ اللهُ لهُ ألفَ ألفَ حسنةٍ ومحا عنهُ ألفَ ألفَ سيئةٍ وبنى لهُ قصرًا في الجنةِ» خرجهُ الترمذيُّ أيضًا وزادَ بعدَ «ومحا عنهُ ألفَ ألفَ سيئةٍ»: «ورفعَ لهُ ألفَ ألفَ درجةٍ وبنى لهُ بيتًا في الجنةِ». وقالَ: هذا حديثٌ غريبٌ. قالَ ابنُ العربيِّ: وهذا إذا لمْ يقصدْ في تلكَ البقعةِ سواهُ ليعمرها بالطاعةِ إذْ عمرتْ بالمعصيةِ، وليحليها بالذكرِ إذْ عطلتْ بالغفلةِ، وليعلمَ الجهلة ويذكر الناسين.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٍ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ أيْ إنَّ الدنيا دارُ بلاءٍ وامتحانٍ، فأرادَ سبحانهُ أنْ يجعلَ بعضَ العبيدِ فتنةً لبعضٍ على العمومِ في جميعِ الناسِ مؤمنٍ وكافرٍ، فالصحيحُ فتنةٌ للمريضِ، والغنيُّ فتنةٌ للفقيرِ، والفقيرُ الصابرُ فتنةٌ للغنيِّ. ومعنى هذا أنَّ كلَّ واحدٍ مختبرٌ بصاحبهِ، ومعنى ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾: أيْ على الحقِّ، محذوفُ الجوابِ، يعني أمْ لا تصبرونَ. ولما صبرَ المسلمونَ أنزلَ اللهُ فيهمْ ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾.

التاسعة: قولهُ تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾ أيْ بكلِّ امرئٍ. وبمنْ يصبرُ أوْ يجزعُ، ومنْ يؤمنُ ومنْ لا يؤمنُ، وبمنْ أدى ما عليهِ منَ الحقِّ ومنْ لا يؤدي. وقيل: ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ أي اصبروا. مثلُ ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ أيِ انتهوا، فهوَ أمرٌ للنبيِّ ﷺ. بالصبر.

قوله تعالى: ﴿۞وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ يريدُ لا يخافونَ البعثَ ولقاءَ الله، أي لا يؤمنون بذلك ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ﴾ أيْ هلا أنزلَ ﴿عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فيخبروا أنَّ محمدًا صادقٌ ﴿أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾ عيانًا فيخبرنا برسالتهِ. نظيرهُ قولهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾ إلى قولهِ: ﴿أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾. قالَ اللهُ تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ٢١﴾ حيثُ سألوا اللهَ الشططَ، لأنَّ الملائكةَ لا ترى إلا عندَ الموتِ أوْ عندَ نزولِ العذابِ، واللهُ تعالى لا تدركهُ الأبصارُ وهوَ يدركُ الأبصارَ، والعتوُّ: أشدُّ الكفرِ وأفحشُ الظلمِ. وإذا لمْ يكتفوا بالمعجزاتِ وهذا القرآنِ فكيفَ يكتفونَ بالملائكةِ؟ ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ يريدُ أنَّ الملائكةَ لا يراها أحدٌ إلا عندَ الموتِ، فتبشرُ المؤمنينَ بالجنةِ، وتضربُ المشركينَ والكفارَ بمقامعِ الحديدِ حتى تخرجَ أنفسهمْ ﴿وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ٢٢﴾ يريدُ تقولُ الملائكةُ حرامًا مُحَرَّمًا أنْ يدخلَ الجنةَ إلا منْ قالَ لا إلهَ إلا اللهُ، وأقامَ شرائعها. وقيل: إنَّ ذلكَ يومَ القيامةِ، وقيل: هو من قولُ الكفارِ للملائكةِ إذا رأواهم يلقونهمْ في النارِ قالوا: نعوذُ باللهِ منكمْ، وقيل: ﴿حِجۡرٗا﴾ منْ قولِ المجرمينَ. ﴿مَّحۡجُورٗا﴾ منْ قولِ الملائكةِ، أيْ قالوا للملائكةِ نعوذ بالله منكم أن تتعرضوا لنا، فتقول الملائكةُ: ﴿مَّحۡجُورٗا﴾ أنْ تعاذوا منْ شرِّ هذا اليوم.

قوله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ﴾ هذا تنبيهٌ على عظمِ قدرِ يومِ القيامةِ، أيْ قصدنا في ذلكَ إلى ما كان يعمله المجرمين منْ عملٍ برٍّ عندَ أنفسهمْ ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾ أيْ لا ينتفع بهِ، أيْ أبطلناهُ بالكفرِ، والهباءُ المنثورُ شعاعُ الشمسِ الذي يدخلُ منَ الكوةِ، أو ما يخرجُ منَ الكوةِ في ضوءِ الشمسِ شبيهٌ بالغبارِ، والهباءُ المنبثُّ ما تثيرهُ الخيلُ بسنابكها منَ الغبارِ. والمنبثُّ المتفرقُ.

قوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾. تقدمَ القولُ فيهِ عندَ قولهِ تعالى ﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ﴾ ولا خيرَ في النار. وَ﴿مُّسۡتَقَرّٗا﴾ نصبَ على الظرفِ إذا قدرَ على غيرِ بابِ «أفعلُ منكَ» والمعنى لهمْ خيرٌ في مستقرٍّ. وإذا كانَ منْ بابِ «أفعلُ منك» فانتصابه على البيان.

﴿وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾ منزلًا ومأوى، وقيلَ: هوَ على ما تعرفهُ العربُ منْ مقيل نصفِ النهارِ. قالَ ابنُ مسعودٍ: لا ينتصفُ النهارُ يومَ القيامة من النهار حتى يقبل هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار.

قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ أيْ واذكرْ يومَ تشققَ السماءُ بالغمام، وقرأهُ عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ وأبو عمرو «تَشَقَّقُ» بتخفيفِ الشينِ وأصلهُ تتشققُ بتاءينِ فحذفوا الأولى تخفيفًا. الباقونَ: «تَشَّقَّقُ» بتشديدِ الشينِ على الإدغام، وكذلكَ في «ق». ﴿بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ أيْ عنِ الغمامِ. والباء وعن يتعاقبانِ، كما تقولُ: رميتُ بالقوسِ، وعنِ القوسِ. روي أن السماء تتشقق عن سحاب أبيضَ رقيقٍ مثلِ الضبابةِ، وهوَ الذي قالَ تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾.

﴿وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ من السموات، ويأتي الرب عز وجل في الثمانيةِ الذينَ يحملونَ العرشَ لفصلِ القضاءِ، على ما يجوز أن يحمل عليه اتيانه، لا على ما تحملُ عليهِ صفاتُ المخلوقينَ منَ الحركةِ والانتقالِ.

وقرأَ ابنُ كثيرٍ «وَنُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ» بالنصبِ منَ الإنزالِ الباقونَ: ﴿وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بالرفعِ. دليلهُ ﴿تَنزِيلًا﴾ ولوْ كانَ على الأولِ لقالَ إنزالا.

قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾ مبتدأٌ وَ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ صفةٌ لهُ وَ ﴿لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ الخبرُ، لأنَّ الملكَ الذي يزولُ وينقطعُ ليسَ بملكٍ، فبطلتْ يومئذٍ أملاكُ المالكينَ وانقطعتْ دعاويهمْ، وزالَ كلُّ ملكٍ وملكهُ، وبقيَ الملكُ الحقُّ للهِ وحدهُ ﴿وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ٢٦﴾ أيْ لما ينالهمْ منَ الأهوالِ ويلحقهمْ منَ الخزيِ والهوانِ، وهوَ على المؤمنينَ أخفُّ منْ صلاةٍ مكتوبةٍ، وهذهِ الآيةُ دالةٌ عليهِ، لأنهُ إذا كانَ على الكافرينَ عسيرًا فهوَ على المؤمنينَ يسير.

قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾ الظالمَ هاهنا يرادُ بهِ عقبةُ بنُ أبي معيطٍ، وخليلهُ أميةُ بنُ خلفٍ، وكانَ عقبةُ قدْ همَّ بالإسلام فمنعهُ منهُ أبيٍّ بنُ خلفٍ وكانا خِدنينِ، وأنَّ النبيَّ ﷺ قتلهما جميعًا: قتلَ عقبةَ يومَ بدرٍ صبرًا، وأبيَّ بنَ خلفٍ في المبارزةِ يومَ أحدٍ،

وعضُهُ يديهِ فعلُ النادمِ الحزينِ لأجلِ طاعتهِ خليلهُ ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧﴾ في الدنيا، يعني طريقًا إلى الجنةِ ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾ دعاءٌ بالويلِ والثبورِ على محالفةِ الكافرِ ومتابعته ﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨﴾ يعني أمية، وكنّى عنهُ ولمْ يصرحْ باسمهِ لئلا يكونَ هذا الوعدُ مخصوصًا بهِ ولا مقصورًا، بلْ يتناولَ جميعَ منْ فعلَ مثلَ فعلهما.

وقيل: الظالمُ عامٌّ في كلِّ ظالمٍ، وفلانٌ: الشيطانُ. واحتجَّ لصاحبِ هذا القولِ بأنَّ بعدهُ ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩﴾.

﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ﴾ عنِ القرآنِ والإيمانِ بهِ. وقيل: عنِ الرسولِ ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾ قيلَ: هذا منْ قولِ اللهِ لا منْ قولِ الظالمِ. وتمامُ الكلامِ على هذا عندَ قولهِ: ﴿بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾. والخذلُ التركُ منَ الإعانةِ، ومنهُ خذلانُ إبليس للمشركين لمّا ظهر سراقةَ بنِ مالكٍ، فلما رأى الملائكةَ تبرأَ منهمْ. وكلُّ منْ صدَّ عنْ سبيلِ اللهِ وأطيعَ في معصيةِ اللهِ فهوَ شيطانٌ للإنسانِ، خذولًا عندَ نزولِ العذابِ والبلاءِ. ولقدْ أحسنَ منْ قالَ:

تجنبْ قرينَ السوءِ واصرمْ حبالهُ — فإنْ لمْ تجدْ عنهُ محيصًا فدارهِ
وأحببْ حبيبَ الصدقِ واحذرْ مِراءهُ — تنلْ منهُ صفوَ الودِّ ما لمْ تمارهِ
وفي الشيبِ ما ينهى الحليمَ عنِ الصبا — إذا اشتعلتْ نيرانهُ في عِذارهِ

آخرُ:

اصحبْ خيارَ الناسِ حيثُ لقيتهمْ — خيرُ الصحابةِ منْ يكونُ عفيفا
والناسُ مثلُ دراهمَ ميزتها — فوجدت منها فضةً وزيوفا

وفي الصحيحِ منْ حديثِ أبي موسى عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «إنما مثلُ الجليسِ الصالحِ والجليسِ السوءِ كحاملِ المسكِ ونافخِ الكيرِ فحاملُ المسكِ إما أنْ يحذيكَ وإما أنْ تبتاعَ منهُ وإما أنْ تجدَ ريحًا طيبةً ونافخُ الكيرِ إما أنْ يحرقَ ثيابكَ وإما أنْ تجدَ ريحًا خبيثةً» لفظُ مسلمٍ. وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ: إنكَ إنْ تنقلِ الأحجارَ معَ الأبرارِ خيرٌ لكَ منْ أنْ تأكلَ الخبيصَ معَ الفجارِ.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ﴾ يريدُ محمدًا ﷺ، يشكوهمْ إلى اللهِ تعالى ﴿إِنَّ قَوۡمِی ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ۝٣٠﴾ أيْ قالوا فيهِ غيرَ الحقِّ منْ أنهُ سحرٌ وشعرٌ، وقيل: معنى ﴿مَهۡجُورٗا﴾ أيْ متروكًا، فعزاهُ اللهُ تباركَ وتعالى وسلاهُ بقولهِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِیٍّ عَدُوࣰّا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِینَۗ﴾ أيْ كما جعلنا لكَ يا محمدُ عدوًا منْ مشركي قومكَ فكذلكَ جعلنا لكلِّ نبيٍّ عدوًا منْ مشركي قومهِ، فاصبرْ لأمري كما صبروا، فإني هاديكَ وناصركَ على كلِّ منْ ناوأكَ.

وقدْ قيلَ: إنَّ قولَ الرسولِ ﴿يَٰرَبِّ﴾ إنما يقولهُ يومَ القيامةِ، أيْ هجروا القرآنَ وهجروني وكذبوني.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِیࣰا وَنَصِیرࣰا ۝٣١﴾ نصبَ على الحالِ أوِ التمييزِ، أيْ يهديكَ وينصركَ فلا تبالِ بمنْ عاداكَ. وقالَ ابنُ عباسٍ: عدوُّ النبيِّ ﷺ أبو جهل لعنه الله.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِینَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَیۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةࣰ وَٰحِدَةࣰۚ﴾ اختلفَ في قائلِ ذلكَ على قولينِ:

أحدهما- أنهمْ كفارُ قريشٍ.

و**الثاني**- أنهمُ اليهودُ حينَ رأوا نزولَ القرآنِ مفرّقًا قالوا: هلا أنزلَ عليهِ جملةً واحدةً كما أنزلتِ التوراةُ على موسى والإنجيلُ على عيسى والزبورُ على داودَ فقالَ اللهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أيْ فعلنا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ نقوي بهِ قلبكَ فتعيهِ وتحملهُ، لأنَّ الكتبَ المتقدمةَ أنزلتْ على أنبياءَ يكتبونَ ويقرؤونَ، والقرآنُ أنزلَ على نبيٍّ أميٍّ، ولأنَّ منَ القرآنِ الناسخَ والمنسوخَ، ومنهُ ما هوَ جوابٌ لمنْ سألَ عنْ أمورٍ، ففرقناهُ ليكونَ أوعى للنبيِّ ﷺ، وأيسرَ على العاملِ بهِ، فكانَ كلما نزلَ وحيٌ جديدٌ زادهُ قوةَ قلبٍ.

وقد قيل في قولهُ: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ يعني نجومَ القرآنِ ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمࣱ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِیمٌ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانࣱ كَرِیمࣱ﴾. فلما لمْ ينزلُ على النبيِّ ﷺ جملةً واحدةً، قالَ الذينَ كفروا لولا نزلَ عليهِ القرآنُ جملةً واحدةً، فقالَ اللهُ تباركَ وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ يا محمدُ ﴿وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِیلࣰا ۝٣٢﴾ يقولُ: ورسلناه ترسيلًا، يقول: شيئا بعد شيء

﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣﴾ وكانَ ذلكَ منْ علاماتِ النبوة، لأنهم لا يسألون عن شيء إلا أجيبوا عنهُ، وهذا لا يكونُ إلا منْ نبيٍّ، فكانَ ذلكَ تثبيتًا لفؤادِهِ وأفئدتهمْ، ولوْ نزلَ جملةً واحدةً لزالَ معنى التنبيهِ وفيهِ ناسخٌ ومنسوخٌ، فكانوا يتعبدونَ بالشيءِ إلى وقتٍ بعينهِ قدْ علمَ اللهُ عزَّ وجلَّ فيهِ الصلاحَ، ثمَّ ينزلُ النسخُ بعدَ ذلكَ، فمحالٌ أنْ ينزلَ جملةً واحدةً: افعلوا كذا ولا تفعلوا.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ لأنهمْ في جهنمَ ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا ٣٤﴾ أيْ دينًا وطريقًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ التوراةَ ﴿وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ٣٥﴾ تقدمَ في «طه» ﴿فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ﴾ الخطابُ لهما، وقولهُ في موضعٍ آخرَ: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ لا ينافي هذا، لأنهما إذا كان مأمورينِ فكلٌّ واحدٍ مأمورٌ. ويجوزُ أنْ يقالَ: أمرَ موسى أولًا، ثمَّ لما قالَ: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرًا مِّنۡ أَهۡلِي﴾ قالَ: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾.

﴿إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يريدُ فرعونَ وهامانَ والقبطَ ﴿فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾ في الكلامِ إضمارٌ، أيْ فكذبوهما ﴿فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرًا ٣٦﴾ أيْ أهلكناهمْ إهلاكًا.

قوله تعالى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٍ﴾ نصب ﴿قَوۡمَ﴾ بالعطف على الهاءِ والميمِ في دمرناهم ﴿لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾ ذكرُ الجنسِ والمرادُ نوحٌ وحدهُ، لأنهُ لمْ يكنْ في ذلكَ الوقتِ رسولٌ إليهمْ إلا نوحٌ وحدهُ، فلما كذبوهُ كانَ في ذلكَ تكذيبٌ لكلِّ منْ بعثَ بعدهُ بهذهِ الكلمةِ لأنهمْ لا يفرقُ بينهمْ في الإيمانِ، ولأنهُ ما منْ نبيٍّ إلا يصدقُ سائرَ أنبياءِ اللهِ، فمنْ كذبَ منهمْ نبيًا فقدْ كذبَ كلَّ منْ صدقهُ منَ النبيينَ ﴿أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾ أيْ بالطوفانِ ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ﴾ أيْ علامةً ظاهرةً على قدرتنا ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي المشركين منْ قومِ نوحٍ ﴿عَذَابًا أَلِيمٗا ٣٧﴾ أيْ في الآخرةِ. وقيل: أيْ هذهِ سبيلي في كلِّ ظالم.

قوله تعالى: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا ٣٨﴾ معطوفٌ على المضمرِ في ﴿فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾ أوْ على المضمرِ في ﴿جَعَلۡنَٰهُمۡ﴾ لأنهُ أقربُ إليهِ.

و ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ الرسُّ في كلامِ العربِ البئرُ التي تكونُ غيرَ مطويةٍ، والجمعُ

رساسٍ. قالَ ابنُ عباسٍ: سألتُ كعبًا عنْ أصحابِ الرسِّ قالَ: صاحبُ «يس» الذي قالَ: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ قتلهُ قومهُ ورسوهُ في بئرٍ لهمْ يقالُ لها الرسُّ طرحوهُ فيها، وكذا قالَ مقاتلٌ. وقيل: همْ أصحابُ قصةِ «يس» أهلُ أنطاكيةَ، والرسُّ بئرٌ بأنطاكيةَ قتلوا فيها حبيبًا النجارَ مؤمنَ آلِ «يس» فنسبوا إليها.

﴿وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا﴾ أيْ أممًا لا يعلمهمْ إلا اللهُ بينَ قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وأصحابِ الرسِّ.

قوله تعالى: ﴿وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ﴾ أيْ وأنذرنا ﴿وَكُلّٗا تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا ٣٩﴾ أيْ أهلكنا بالعذابِ. وتبرتُ الشيءَ كسرتهُ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ يعني مشركي مكةَ. والقريةُ قريةُ قومِ لوطٍ. وَ ﴿مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ الحجارةُ التي أمطروا بها ﴿أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ﴾ أيْ في أسفارهمْ ليعتبروا. قالَ ابنُ عباسٍ: كانتْ قريشٌ في تجارتها إلى الشامِ تمرُّ بمدائنِ قومِ لوطٍ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ﴾، وقالَ: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ﴾.

﴿بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا ٤٠﴾ أيْ لا يصدقونَ بالبعثِ. ويجوزُ أنْ يكونَ معنى ﴿يَرۡجُونَ﴾ يخافونَ. ويجوزُ أنْ يكونَ على بابهِ ويكونُ معناهُ: بل كانوا لا يرجون ثواب الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ جوابُ ﴿إِذَا﴾ ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ لأنَّ معناهُ يتخذونكَ. وقيل: الجوابُ محذوفٌ وهوَ قالوا أوْ يقولونَ: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي﴾ وقولهُ: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ كلامٌ معترضٌ. ونزلتْ في أبي جهلٍ كانَ يقولُ للنبيِّ ﷺ مستهزئًا: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ٤١﴾ والعائدُ محذوفٌ، أيْ بعثهُ اللهُ ﴿رَسُولًا﴾ نصبَ على الحالِ والتقديرُ: أهذا الذي بعثهُ اللهُ مرسلًا ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ يصرفنا ﴿عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ﴾ أيْ حبسنا أنفسنا على عبادتها. قال الله تعالى: ﴿وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٢﴾ وقد رأوه في يوم بدر.

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ يعبد شيئًا منْ دونِ اللهِ، فإذا رأى أحسنَ منهُ تركَ الأولَ وعبدَ الأحسنَ، وقالَ ابنُ عباسٍ: الهوى إلهٌ يعبدُ منْ دونِ اللهِ، ثمَّ تلا هذه الآية، وقيل: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أيْ أطاعَ هواهُ ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ أيْ حفيظًا وكفيلًا حتى تردهُ إلى الإيمانِ إنما عليكَ التبليغُ. وهذا ردٌّ على القدريةِ.

ثمَّ قيلَ: إنها منسوخةٌ بآيةِ القتالِ. وقيل: لمْ تنسخْ، لأنَّ الآيةُ تسليةٌ للنبيِّ ﷺ.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ ولمْ يقلْ أنهمْ لأنَّ منهمْ منْ قدْ علمَ أنهُ يؤمنُ. وذمهمْ عز وجل بهذا. ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ سماعَ قبولٍ بل هم بمنزلةِ منْ لا يعقلُ ولا يسمعُ، والمرادُ أهلُ مكةَ، وقيل: ﴿أَمْ﴾ بمعنى بلْ في مثلِ هذا الموضعِ ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أيْ في الأكلِ والشربِ لا يفكرونَ في الآخرةِ ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ إذْ لا حسابَ ولا عقابَ على الأنعامِ.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ هذهِ الرؤيةُ من رؤية العين، ويجوز أن تكون من العلم. ومدَّ الظلَّ منْ طلوعِ الفجرِ إلى طلوعِ الشمسِ، والظلُّ بالغداةِ والفيءُ بالعشيِّ، لأنهُ يرجعُ بعدَ زوالِ الشمسِ، سميَ فيئًا لأنهُ فاءَ منَ المشرقِ إلى جانبِ المغربِ ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أيْ دائمًا مستقرًا لا تنسخهُ الشمسُ. وقيل: المعنى لوْ شاءَ لمنعَ الشمسَ الطلوعَ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ فلولا الشمسُ ما عرفَ الظلُّ، ولولا النورُ ما عرفتِ الظلمةُ، ولمْ يؤنثِ الدليلُ وهوَ صفةُ الشمسِ لأنهُ في معنى الاسمِ، كما يقالُ: الشمسُ برهانٌ والشمسُ حقٌّ ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ يريدُ ذلكَ الظلَّ الممدودَ ﴿إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ علينا. وكلُّ أمرِ ربنا عليهِ يسيرٌ، فإذا طلعتِ الشمسُ صارَ الظلُّ مقبوضًا، وخلفهُ في هذا الجوِّ شعاعُ الشمسِ فأشرقَ على الأرضِ وعلى الأشياءِ إلى وقتِ غروبها، فإذا غربتْ فليسَ هناكَ ظلٌّ، إنما ذلكَ بقيةُ نورِ النهارِ.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾، فيه أربعُ مسائلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ يعني سترًا للخلقِ يقومُ مقامَ اللباسِ في سترِ البدنِ.

الثانية: قالَ ابنُ العربيِّ: ظنَّ بعضُ الغفلةِ أنَّ منْ صلى عريانًا في الظلامِ أنهُ يجزئهُ، لأنَّ الليلَ لباسٌ. وهذا يوجبُ أنْ يصليَ في بيتهِ عريانًا إذا أغلقَ عليهِ بابهُ. والسترُ في الصلاةِ عبادةٌ تختصُّ بها ليستْ لأجلِ نظرِ الناسِ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أيْ راحةً لأبدانكمْ بانقطاعكمْ عنِ الأشغالِ. وأصلُ السباتِ منَ التمددِ، وفي التمددِ معنى الراحة. وقيل: السبتُ القطعُ، فالنومُ انقطاعٌ عنِ الاشتغالِ، ومنهُ سبتُ اليهودِ لانقطاعهمْ عنِ الأعمالِ فيهِ.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ منْ الانتشارِ للمعاشِ، أيِ النهارُ سببُ الإحياءِ للانتشارِ. شبهَ اليقظةَ فيهِ بتطابقِ الإحياءِ معَ الإماتةِ. وكانَ ﷺ إذا أصبحَ قالَ: «الحمدُ للهِ الذي أحيانا بعدَ ما أماتنا وإليه النشور».

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ تقدمَ في «الأعرافِ» مستوفى.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾. فيهِ خمسَ عشرةَ مسألةً:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ يتطهرُ بهِ، كما يقالُ: وضوءٌ للماءِ الذي يتوضأُ بهِ. وكلُّ طهورٍ طاهرٌ وليسَ كلُّ طاهرٍ طهورًا. فالطَهورُ بفتحِ الطاءِ الاسمُ، وكذلكَ الوضوءُ والوَقودُ، وبالضمِّ المصدرُ، وهذا هوَ المعروفُ في اللغةِ.

فبينَ أنَّ الماءَ المنزلَ منَ السماءِ طاهرٌ في نفسهِ مطهرٌ لغيرهِ، فإنَّ الطهورَ بناءُ مبالغةٍ في طاهرٍ، وهذهِ المبالغةُ اقتضتْ أنْ يكونَ طاهرا مطهرا. وإلى هذا ذهب الجمهور. وقيل: إنَّ ﴿طَهُورًا﴾ بمعنى طاهرٍ، وهوَ قولُ أبي حنيفةَ، وتعلقَ بقولهِ تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا

طَهُورًا﴾ يعنى طاهرا.

ويقولُ الشاعرُ:

خليليَّ هلْ في نظرةٍ بعدَ توبةٍ أداوي بها قلبي عليَّ فجورُ
إلى رجحِ الأكفالِ غيدٍ منَ الظبا عِذابِ الثنايا ريقهنَّ طهورُ

فوصفَ الريقَ بأنهُ طهورٌ وليسَ بمطهر. وتقول العرب: رجل نؤوم وليسَ ذلكَ بمعنى أنهُ منيمٌ لغيرهِ، وإنما يرجعُ ذلكَ إلى فعلِ نفسهِ.

ولقدْ أجابَ علماؤنا عنْ هذا فقالوا: وصفُ شرابِ الجنةِ بأنهُ طهورٌ يفيدُ التطهيرَ عنْ أوضارِ الذنوبِ وعنْ خسائسِ الصفاتِ كالغلِّ والحسدِ، فإذا شربوا هذا الشرابَ يطهرهمُ اللهُ منْ رحضِ الذنوبِ وأوضارِ الاعتقاداتِ الذميمةِ، فجاءوا اللهَ بقلبٍ سليمٍ، وقيلَ: لهمْ حينئذٍ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

وأما قولُ الشاعرِ: ... ريقهنَّ طهورُ فإنهُ قصدَ بذلكَ المبالغةَ في وصفِ الريقِ بالطهوريةِ لعذوبتهِ وتعلقهِ بالقلوبِ، وطيبهِ في النفوسِ، وسكونِ غليلِ المحبِّ برشفهِ حتى كأنهُ الماءُ الطهورُ، وبالجملة فإن الأحكام الشرعية لا تثبت بالمجازات الشعريةِ، فإنَّ الشعراءَ يتجاوزونَ في الاستغراقِ حدَّ الصدقِ إلى الكذبِ، ويسترسلونَ في القولِ حتى يخرجهمْ ذلكَ إلى البدعةِ والمعصيةِ، وربما وقعوا في الكفرِ منْ حيثُ لا يشعرونَ. ألا ترى إلى قولِ بعضهمْ:

ولوْ لمْ تلامسْ صفحةُ الأرضِ رجلها لما كنتُ أدري علةً للتيممِ

وهذا كفرٌ صراحٌ، نعوذُ باللهِ منهُ، وأجمعتِ الأمةُ لغةً وشريعةً على أنَّ وصفَ طهورٍ يختص بالماءِ ولا يتعدى إلى سائرِ المائعاتِ وهيَ طاهرةٌ، فكانَ اقتصارهمْ بذلكَ على الماءِ أدلَّ دليل على أنَّ الطهورَ هوَ المطهرُ، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾. وقولهُ ﷺ: «جعلتْ ليَ الأرضُ مسجدًا وطهورًا» يحتملُ المبالغةَ ويحتملُ العبارةَ بهِ عنِ الآلةِ لكنْ يبقى قول: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ نصا في أنَّ فعلهُ يتعدى إلى غيرهِ.

الثانية: المياهُ المنزلةُ منَ السماءِ والمودعةُ في الأرضِ طاهرةٌ مطهرةٌ على اختلافِ

ألوانها وطعومها وأرياحها حتى يخالطها غيرها، والمخالطُ للماءِ على ثلاثةِ أضرب:

ضرب: يوافقه في صفتيهِ جميعًا، فإذا خالطهُ فغيرهُ لمْ يسلبهُ وصفًا منهما لموافقتهِ لهما وهوَ الترابُ.

والضربُ الثاني: يوافقهُ في إحدى صفتيهِ وهيَ الطهارةُ، فإذا خالطهُ فغيّرهُ سلبهُ ما خالفهُ فيهِ وهوَ التطهيرُ، كماءِ الوردِ وسائرِ الطاهراتِ.

والضربُ الثالثُ: يخالفهُ في الصفتينِ جميعًا، فإذا خالطهُ فغيّرهُ سلبهُ الصفتينِ جميعًا لمخالفتهِ لهُ فيهما وهوَ النجسُ.

الثالثة: ذهبَ المصريونَ منْ أصحابِ مالكٍ إلى أنَّ قليلَ الماءِ يفسدهُ قليلُ النجاسةِ، وأنَّ الكثيرَ لا يفسدهُ إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه منَ المحرماتِ. ولمْ يحدوا بينَ القليلِ والكثيرِ حدًّا يوقفُ عندهُ، إلا ابنَ وهبٍ فإنهُ يقولُ في الماءِ بقولِ المدنيينَ منْ أصحابِ مالكٍ: أنَّ الماءَ لا تفسدهُ النجاسةُ الحالةُ فيهِ قليلًا كانَ أوْ كثيرًا إلا أنْ تظهرَ فيه النجاسة وتغيرَ منهُ طعمًا أوْ ريحًا أوْ لونًا، وإلى هذا ذهبَ سائرُ المنتحلينَ لمذهبِ مالكٍ منَ البغداديينَ، وهوَ الصحيحُ في النظرِ وجيدِ الأثرِ.

وقالَ أبو حنيفةَ: إذا وقعتْ نجاسةٌ في الماءِ أفسدتهُ كثيرًا كانَ أوْ قليلًا إذا تحققتْ عمومُ النجاسةِ فيهِ. ووجهُ تحققها عندهُ أنْ تقعَ مثلًا نقطةُ بولٍ في بركةٍ، فإنْ كانتِ البركةُ يتحركُ طرفاها بتحركِ أحدهما فالكلُّ نجسٌ، وإنْ كانتْ حركةُ أحدِ الطرفينِ لا تحركُ الآخرَ لمْ ينجسْ.

وقالَ الشافعيُّ بحديثِ القلتينِ، وهوَ حديثٌ مطعونٌ فيهِ، اختلفَ في إسنادهِ ومتنهِ، أخرجهُ أبو داودَ والترمذيُّ وصدّرَ بهِ الدارقطنيَّ كتابهُ وجمعَ طرقهُ. قالَ ابنُ العربيِّ: وقدْ رامَ الدارقطنيُّ على إمامتهِ أنْ يصححَ حديثَ القلتينِ فلمْ يقدرْ.

وقالَ أبو عمرَ بنُ عبدِ البرِّ: وأما ما ذهبَ إليهِ الشافعيُّ منْ حديثِ القلتينِ فمذهبٌ ضعيفٌ منْ جهةِ النظرِ، غيرُ ثابتٍ في الأثرِ، لأنهُ قدْ تكلمَ فيهِ جماعةٌ منْ أهلِ العلمِ بالنقلِ، ولأنَّ القلتينِ لا يوقفُ على حقيقةِ مبلغهما في أثرٍ ثابتٍ ولا إجماعٍ، فلوْ كانَ ذلكَ حدًّا لازمًا

لوجبَ على العلماءِ البحثُ عنهُ ليقفوا على حدِّ ما حدهُ النبيُّ ﷺ، لأنهُ منْ أصل دينهمْ وفرضهمْ، ولوْ كانَ ذلكَ كذلكَ ما ضيعوهُ، فلقدْ بحثوا عما هوَ أدونُ منْ ذلكَ وألطفُ.

قلتُ: وفيما ذكرَ ابنُ المنذرِ في القلتينِ منَ الخلاف يدلُّ على عدمِ التوقيفِ فيهما والتحديدِ.

وتعلقَ علماؤنا بحديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ في بئرِ بضاعةَ، رواهُ النسائيُّ والترمذيُّ وأبو داودَ وغيرهمْ. وهوَ أيضًا حديثٌ ضعيفٌ لا قدمَ لهُ في الصحةِ فلا تعويلَ عليهِ، وإنما المعول على ظاهرُ القرآنِ وهوَ قولهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ وهو ماء بصفاته، فإذا تغير عن شيء منها خرجَ عنْ الاسمِ لخروجهِ عنِ الصفةِ، ولذلكَ لما لمْ يجدِ البخاريُّ إمامُ الحديثِ والفقهِ في البابِ خبرًا يعولُ عليهِ قالَ: «بابٌ إذا تغيرَ وصفُ الماءِ» وأدخلَ الحديثَ الصحيحَ: «ما منْ أحدٍ يكلمُ في سبيلِ اللهِ واللهُ أعلمُ بمنْ يكلمُ في سبيلهِ إلا جاءَ يومَ القيامةِ وجرحهُ يثعبُ دمًا اللونُ لونُ الدمِ والريحُ ريحُ المسكِ». فأخبرَ ﷺ أنَّ الدمَ بحالهِ وعليهِ رائحةُ المسكِ، ولمْ تخرجهُ الرائحةُ عنْ صفةِ الدمويةِ.

ولذلكَ قالَ علماؤنا: إذا تغيرَ الماءُ بريحِ جيفةٍ على طرفهِ وساحلهِ لمْ يمنعْ ذلكَ الوضوءَ منهُ. ولوْ تغيرَ بها وقدْ وضعتْ فيهِ لكانَ ذلكَ تنجيسًا لهُ للمخالطة والأولى مجاورة لا تعويل عليها.

قالَ أبو عمرَ: والماءُ لا يخلو تغيرهُ بنجاسةٍ أوْ بغيرِ نجاسةٍ، فإنْ كانَ بنجاسةٍ وتغيرَ فقدْ أجمعَ العلماءُ على أنهُ غيرُ طاهرٍ ولا مطهرٍ، وكذلكَ أجمعوا أنهُ إذا تغيرَ بغيرِ نجاسةٍ أنهُ طاهرٌ على أصلهِ. وقالَ الجمهورُ: إنهُ غيرُ مطهرٍ إلا أنْ يكونَ تغيرهُ من تربة وحمأة. وما أجمعوا عليهِ فهوَ الحقُّ الذي لا إشكالَ فيهِ، ولا التباسَ معهُ.

الرابعة: الماءُ المتغيرُ بقرارهِ كزرنيخٍ أوْ جيرٍ يجري عليهِ، أوْ تغيرَ بطحلبٍ أوْ ورقِ شجرٍ ينبتُ عليهِ لا يمكنُ الاحترازُ عنهُ فاتفقَ العلماءُ أنَّ ذلكَ لا يمنعُ منَ الوضوءِ بهِ، لعدمِ الاحترازِ منهُ والانفكاكِ عنهُ، وقدْ روى ابنُ وهبٍ عنْ مالكٍ أنَّ غيرهُ أولى منهُ.

الخامسة: قالَ علماؤنا رحمةُ اللهِ عليهمْ: ويكرهُ سؤرُ النصرانيِّ وسائرِ الكفارِ والمدمنِ

الخمرَ، وما أكلَ الجيفَ، كالكلابِ وغيرِها. ومنْ توضأَ بسؤرِهم فلا شيءَ عليهِ حتى يستيقنَ النجاسةَ. قالَ البخاريُّ: وتوضأَ عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منْ بيتِ نصرانيةٍ.

السادسة: فأما الكلبُ إذا ولغَ في الماءِ فقالَ مالكٌ: يغسلُ الإناءُ سبعًا ولا يتوضأُ منهُ وهوَ طاهرٌ، وقالَ أبو حنيفةَ والشافعيُّ وأحمدُ: الكلبُ نجسٌ ويغسلُ الإناءُ منهُ لأنهُ نجسٌ، وقدْ كانَ مالكٌ يفرقُ بينَ ما يجوزُ اتخاذُه منَ الكلابِ وبينَ ما لا يجوزُ اتخاذُه منها في غسلِ الإناءِ منْ ولوغهِ. وتحصيلُ مذهبِهِ أنهُ طاهرٌ عندهُ لا ينجسُ ولوغهُ شيئًا، ولغَ فيهِ طعامًا ولا غيرَهُ، إلا أنهُ استحبَّ هراقةَ ما ولغَ فيهِ منَ الماءِ ليسارةِ مؤنتهِ. وكلبُ الباديةِ والحاضرةِ سواءٌ. ويغسلُ الإناءُ منهُ على كلِّ حالٍ سبعًا تعبدًا. هذا ما استقرَّ عليهِ مذهبهُ عندَ المناظرين من أصحابه.

وعنْ أبي هريرةَ قالَ: سئلَ رسولُ اللهِ ﷺ عنِ الحياضِ التي تكونُ فيما بينَ مكةَ والمدينةِ، فقيلَ لهُ: إنَّ الكلابَ والسباعَ تردُ عليها. فقال: «لها ما أخذتْ في بطونها ولنا ما بقيَ شرابٌ وطهورٌ» أخرجهُ الدارقطنيُّ. وهذا نصٌّ في طهارةِ الكلابِ وطهارةِ ما تلغُ فيهِ، وفي البخاريِّ عنِ ابنِ عمرَ أنَّ الكلابَ كانتْ تقبلُ وتدبرُ في مسجدِ رسولِ اللهِ ﷺ ولا يرشونَ شيئًا منْ ذلكَ. وقالَ عمرُ بحضرةِ الصحابةِ لصاحبِ الحوضِ الذي سألهُ عمرو بنُ العاصِ: هلْ تردُ حوضكَ السباعُ. فقالَ عمرُ: يا صاحبَ الحوضِ، لا تخبرنا فإنا نردُ على السباعِ وتردُ علينا. أخرجهُ مالكٌ والدارقطنيُّ. ولمْ يفرقْ بينَ السباعِ، والكلبُ منْ جملتها، ولا حجةَ للمخالفِ في الأمرِ بإراقةِ ما ولغَ فيهِ وأنَّ ذلكَ للنجاسةِ، وإنما أمرَ بإراقتهِ لأنَّ النفسَ تعافهُ لا لنجاستهِ، لأنَّ التنزهَ منَ الأقذارِ مندوبٌ إليهِ، أوْ تغليظًا عليهمْ لأنهمْ نهوا عن اقتنائها فلما لم ينتهوا ذلكَ غلظَ عليهمْ في الماءِ لقلتهِ عندهمْ في الباديةِ، حتى يشتدَّ عليهمْ فيمتنعوا منَ اقتنائها. وأما الأمرُ بغسلِ الإناءِ فعبادةٌ لا لنجاستهِ كما ذكرناهُ بدليلينِ:

أحدهما- أنَّ الغسلَ قد دخله العدد.

الثاني- أنه قد جعلَ للترابِ فيهِ مدخلٌ لقولهِ ﷺ: «وعفروهُ الثامنةَ بالترابِ». ولوْ كانَ للنجاسةِ لما كانَ للعددِ ولا للترابِ فيهِ مدخلٌ كالبولِ.

وقدْ جعلَ ﷺ الهرَّ وما ولغَ فيهِ طاهرًا، والهرُّ سبعٌ لا خلافَ في ذلكَ، لأنهُ يفترسُ

ويأكلُ الميتةَ، فكذلكَ الكلبُ وما كانَ مثلهُ منَ السباعِ، لأنهُ إذا جاءَ نصٌّ ذلكَ في أحدهما كانَ نصًا في الآخرِ. وهذا منْ أقوى أنواعِ القياسِ. هذا لوْ لمْ يكنْ هناكَ دليلٌ، وقدْ ذكرنا النصَّ على طهارتهِ فسقطَ قولُ المخالفِ. والحمدُ للهِ.

السابعة: ما ماتَ في الماءِ مما لا دمَ لهُ فلا يضرُّ الماءَ إنْ لمْ يغيرْ ريحهُ، فإنْ أنتنَ لمْ يتوضأْ بهِ. وكذلكَ ما كانَ لهُ دمٌ سائلٌ منْ دوابِّ الماءِ كالحوتِ والضفدعِ لمْ يفسدْ ذلكَ الماءَ موتهُ فيهِ، إلا أنْ تتغيرَ رائحتهُ، فإنْ تغيرتْ رائحتهُ وأنتنَ لمْ يجزِ التطهرُ بهِ ولا الوضوءُ منهُ، وليسَ بنجسٍ عندَ مالكٍ.

وأما ما لهُ نفسٌ سائلةٌ فماتَ في الماءِ ونزحَ مكانهُ ولمْ يغيرْ لونهُ ولا طعمهُ ولا ريحهُ فهوَ طاهرٌ مطهرٌ سواءٌ كانَ الماءُ قليلًا أوْ كثيرًا عندَ المدنيينَ. واستحبَّ بعضهمْ أنْ ينزحَ منْ ذلكَ الماءِ دلاءٌ لتطيبَ النفسُ بهِ، ولا يحدونَ في ذلكَ حدًا لا يتعدى. ويكرهونَ استعمالَ ذلكَ الماءِ قبلَ نزحِ الدلاءِ، فإنِ استعملهُ أحدٌ في غسلٍ أوْ وضوءٍ جازَ إذا كانتْ حالهُ ما وصفنا. وقدْ كانَ بعضُ أصحابِ مالكٍ يرى لمنْ توضأَ بهذا الماءِ وإنْ لمْ يتغيرْ أنْ يتيممَ، فيجمعَ بينَ الطهارتينِ احتياطًا، فإنْ لمْ يفعلْ وصلى بذلكَ الماءِ أجزأهُ.

الثامنة: ذهبَ الجمهورُ منَ الصحابةِ وفقهاءُ الأمصارِ وسائرُ التابعينَ بالحجازِ والعراقِ أنَّ ما ولغَ فيهِ الهرُّ منَ الماءِ طاهرٌ، وأنهُ لا بأسَ بالوضوءِ بسؤرهِ، لحديثِ أبي قتادةَ، أخرجهُ مالكٌ وغيرهُ.

قالَ الترمذيُّ لما ذكرَ حديثَ مالكٍ: «وفي البابِ عنْ عائشةَ وأبي هريرةَ، هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، وهوَ قولُ أكثرِ أهلِ العلمِ منْ أصحابِ النبيِّ ﷺ والتابعينَ ومنْ بعدهمْ، مثلُ الشافعيِّ وأحمدَ، لمْ يروا بسؤرِ الهرةِ بأسًا. وهذا أحسن شيء في البابِ.

قالَ الحافظُ أبو عمرَ: الحجةُ عندَ التنازعِ والاختلافِ سنةِ رسولِ اللهِ ﷺ، وقدْ صحَّ منْ حديثِ أبي قتادةَ أنهُ أصغى لها الإناءَ حتى شربتْ. الحديثَ. وعليهِ اعتمادُ الفقهاءِ في كلِّ مصرَ إلا أبا حنيفةَ ومنْ قالَ بقولهِ، فإنهُ كانَ يكرهُ سؤرهُ. وقالَ: إنْ توضأَ بهِ أحدٌ أجزأهُ، ولا أعلمُ حجةً لمنْ كرهَ الوضوءَ بسؤرِ الهرةِ أحسنَ منْ أنهُ لمْ يبلغهُ حديثُ أبي قتادةَ، وبلغهُ حديثُ أبي هريرةَ في الكلبِ فقاسَ الهرَّ عليهِ، وقدْ فرقت السنةِ بينهما في باب التعبدِ في غسلِ

الإناءِ، ومنْ حجتهُ السنةُ خاصمتهُ.

ومنْ حجتهمْ أيضًا ما رواهُ أبو هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «طهورُ الإناءِ إذا ولغَ فيهِ الهرُّ أنْ يغسلَ مرةً أوْ مرتينِ» شكَّ قرةُ.

قالَ الدارقطنيُّ: لا يثبتُ هذا مرفوعًا والمحفوظُ منْ قولِ أبي هريرةَ واختلفَ عنهُ.

التاسعة: الماءُ المستعملُ طاهرٌ إذا كانتْ أعضاءُ المتوضئِ بهِ طاهرةً، إلا أنَّ مالكًا وجماعةً منَ الفقهاءِ الجلةُ كانوا يكرهونَ الوضوءَ بهِ. وقالَ مالكٌ: لا خيرَ فيهِ، ولا أحبُّ لأحدٍ أنْ يتوضأَ بهِ، فإنْ فعلَ وصلى لمْ أرَ عليهِ إعادةَ الصلاةِ ويتوضأُ لما يستقبلُ. وقالَ أبو حنيفةَ والشافعيُّ وأصحابهما: لا يجوزُ استعمالهُ في رفعِ الحدثِ، ومنْ توضأَ بهِ أعادَ، لأنهُ ليسَ بماءٍ مطلقٍ، ويتيمم واجدهُ لأنهُ ليسَ بواجدٍ ماءً، واحتجوا بحديثِ الصنابحيِّ خرجهُ مالكٌ وحديثِ عمرو بنِ عنبسةَ أخرجهُ مسلمٌ، وغيرِ ذلكَ منَ الآثارِ. وقالوا: الماءُ إذا توضئَ بهِ خرجتِ الخطايا معهُ، فوجبَ التنزهُ عنهُ لأنهُ ماءُ الذنوبِ.

قالَ أبو عمرَ: وهذا عندي لا وجهَ لهُ، لأنَّ الذنوبَ لا تنجسُ الماءَ لأنها لا أشخاصَ لها ولا أجسامَ تمازج الماء فتفسد، وإنما معنى قولهِ: «خرجتِ الخطايا معَ الماءِ» إعلامٌ منهُ بأنَّ الوضوءَ للصلاةِ عملٌ يكفرُ اللهُ بهِ السيئاتِ عنْ عبادهِ المؤمنينَ رحمةً منهُ بهمْ وتفضلًا عليهمْ.

وقالَ أبو ثورٍ وداودُ مثلَ قولِ مالكٍ، وأنَّ الوضوءَ بالماءِ المستعملِ جائزٌ، لأنهُ ماءٌ طاهرٌ لا ينضاف إليه شيء وهوَ ماءٌ مطلقٌ. واحتجوا بإجماعِ الأمةِ على طهارتهِ إذا لمْ يكنْ في أعضاءِ المتوضئِ نجاسةٌ.

قالَ ابنُ العربي: مسألة الماء المستعمل إنما تنبني على أصل آخر، وهو أن الآلة إذا أديَ بها فرضٌ هلْ يؤدى بها فرضٌ آخرُ أمْ لا، فمنعَ ذلكَ المخالفُ قياسًا على الرقبةِ إذا أديَ بها فرضُ عتقٍ لمْ يصلحْ أنْ يتكررَ في أداءِ فرضٍ آخرَ، وهذا باطلٌ منَ القولِ، فإنَّ العتقَ إذا أتى على الرقِّ أتلفهُ فلا يبقى محلٌّ لأداءِ الفرضِ بعتقٍ آخرَ. ونظيرهُ منَ الماءِ ما تلفَ على الأعضاءِ فإنهُ لا يصحُّ أنْ يؤدى بهِ فرضٌ آخرُ لتلفِ عينهِ حسًا كما تلفَ الرقُّ في الرقبة بالعتق حكما، وهذا نفيس فتأملوه».

العاشرة: لمْ يفرقْ مالكٌ وأصحابهُ بينَ الماءِ تقع فيه النجاسة وبين النجاسة يرد عليها الماءُ، راكدًا كانَ الماءُ أوْ غيرَ راكدٍ، لقولِ رسولِ اللهِ ﷺ: «الماء لا ينجسه شيء إلا ما غلبَ عليهِ فغيرَ طعمهُ أوْ لونهُ أوْ ريحهُ».

وفرقتِ الشافعيةُ فقالوا: إذا وردتِ النجاسةُ على الماءِ تنجس؛ لقولِ النبيِّ ﷺ: «إذا استيقظَ أحدكمْ منْ نومهِ فلا يغمسْ يدهُ في الإناءِ حتى يغسلها ثلاثًا فإنَّ أحدكمْ لا يدري أينَ باتتْ يدهُ». فمنعَ منْ ورودِ اليدِ على الماءِ، وأمرَ بإيرادِ الماءِ عليها، وهذا أصلٌ بديعٌ في البابِ، ولولا ورودهُ على النجاسةِ- قليلًا كانَ أوْ كثيرًا- لما طهرتْ. وقدْ ثبتَ عنِ النبيِّ ﷺ أنهُ قالَ في بولِ الأعرابيِّ في المسجدِ: «صبوا عليهِ ذنوبًا منْ ماءٍ».

واستدلوا أيضًا بحديثِ القلتينِ، فقالوا: إذا كانَ الماءُ دونَ القلتينِ فحلتهُ نجاسةٌ تنجسَ وإنْ لمْ تغيرهُ، وإنْ وردَ ذلكَ القدرُ فأقبل على النجاسةِ فأذهبَ عينها بقيَ الماءُ على طهارتهِ وأزالَ النجاسةَ.

هذا كلهُ منهمْ يردهُ قولهُ ﷺ: «الماءُ طهورٌ لا ينجسهُ شيء إلا ما غيرَ لونهُ أوْ طعمهُ أوْ ريحهُ». أخرجهُ الدارقطنيُّ، وأحسنُ منهُ في الاستدلالِ حديث أبي سعيدٍ الخدريِّ قالَ قيل: يا رسول الله أنتوضأُ منْ بئرِ بضاعةَ؟ وهيَ بئرٌ تلقى فيها الحيضُ ولحومُ الكلابِ والتنُ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ الماءَ طهور لا ينجسه شي» أخرجهُ أبو داودَ والترمذيُّ، وقالَ أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ.

فهذا الحديث نص في ورودِ النجاسةِ على الماءِ، وقدْ حكمَ ﷺ بطهارتهِ وطهورهِ.

الحادية عشرة: الماءُ الطاهرُ المطهرُ الذي يجوزُ بهِ الوضوءُ وغسلُ النجاساتِ هوَ الماءُ القراحُ الصافي منْ ماءِ السماءِ والأنهارِ والبحارِ والعيونِ والآبارِ، وما عرفهُ الناسُ ماء مطلقا غير مضاف إلى شيء خالطهُ كما خلقهُ اللهُ عزَّ وجلَّ صافيًا ولا يضرهُ لونُ أرضهِ على ما بيناهُ. وخالفَ في هذهِ الجملةِ أبو حنيفةَ فأجازَ الوضوءَ بالنبيذِ في السفرِ، وجوزَ إزالةَ النجاسةِ بكلِّ مائعٍ طاهرٍ وكذلك عنده النارُ والشمسُ، حتى إنَّ جلدَ الميتةِ إذا جفَّ في الشمسِ طهرَ منْ غيرِ دباغٍ. وكذلكَ النجاسةُ على الأرضِ إذا جفتْ بالشمسِ فإنهُ يطهرُ ذلكَ الموضعُ، بحيثُ تجوزُ الصلاةُ عليهِ، ولكنْ لا يجوزُ التيممُ بذلكَ الترابِ.

قالَ ابنُ العربيِّ: لما وصفَ اللهُ سبحانهُ الماءَ بأنهُ طهورٌ وامتنَّ بإنزالهِ منَ السماءِ ليطهرنا بهِ دلَّ على اختصاصهِ بذلكَ، وكذلكَ قال ﷺ لأسماءَ بنتِ الصديقِ حينَ سألتهُ عنْ دم الحيضِ يصيبُ الثوبَ: «حتيهِ ثمَّ اقرصيهِ ثمَّ اغسليهِ بالماءِ». فلذلكَ لمْ يلحقْ غيرُ الماءِ بالماءِ لما في ذلكَ منْ إبطالِ الامتنانِ، وليستِ النجاسةُ معنى محسوسًا حتى يقالَ كلُّ ما أزالها فقدْ قامَ بهِ الغرضُ، وإنما النجاسةُ حكمٌ شرعيٌّ عينَ لهُ صاحبُ الشرعِ الماءَ فلا يلحقُ بهِ غيرهُ، إذْ ليسَ في معناهُ، ولأنهُ لوْ لحقَ بهِ لأسقطه، والفرعُ إذا عادَ إلحاقهُ بالأصلِ في إسقاطهِ سقطَ في نفسهِ.

قلتُ: وأما ما استدلَّ بهِ على استعمالِ النبيذِ فأحاديثُ واهية، ضعاف لا يقوم شيء منها على ساقٍ، ذكرها الدارقطنيُّ وضعفها ونصَّ عليها.

وأخرجَ الترمذيُّ حديثَ أبي زيد عن ابنِ مسعودٍ قالَ: سألني النبيُّ ﷺ: «ما في إداوتك» فقلت: نبيذ. فقال: «تمرة طيبةٌ وماءٌ طهورٌ» قالَ: فتوضأَ منهُ.

قالَ أبو عيسى: أبو زيدٍ رجلٌ مجهولٌ عندَ أهلِ الحديثِ لا نعرفُ لهُ روايةً غيرَ هذا الحديثِ، وقدْ رأى بعضُ أهلِ العلمِ الوضوءَ بالنبيذِ، منهمْ سفيانُ وغيرهُ، وقالَ بعضُ أهلِ العلمِ: لا يتوضأُ بالنبيذِ، وهوَ قولُ الشافعيِّ وأحمدَ وإسحاقَ، وقالَ إسحاقُ: إنِ ابتليَ رجلٌ بهذا فتوضأَ بالنبيذِ وتيممَ أحبُّ إليَّ.

قالَ أبو عيسى: وقولُ منْ يقولُ لا يتوضأُ بالنبيذِ أقربُ إلى الكتابِ والسنةِ وأشبهُ، لأنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.

الثانية عشرة: لما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ وقالَ: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ توقفَ جماعةٌ في ماءِ البحرِ، لأنهُ ليسَ بمنزلٍ منَ السماءِ، حتى رووا عنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ وابنِ عمرو معًا أنهُ لا يتوضأُ بهِ، لأنهُ نارٌ ولأنهُ طبقُ جهنمَ، ولكنَّ النبيَّ ﷺ بينَ حكمهُ حينَ قالَ لمنْ سألهُ: «هوَ الطهورُ ماؤهُ الحلُّ ميتتهُ» أخرجهُ مالكٌ. وقالَ فيهِ أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وهوَ قولُ أكثرِ الفقهاءِ منْ أصحابِ النبيِّ ﷺ.

قالَ أبو عمرَ: هذا الحديثُ لا يحتجُّ أهلُ الحديثِ بمثلِ إسنادهِ، وهوَ عندي صحيحٌ

لأنَّ العلماءَ تلقوهُ بالقبولِ لهُ والعملِ بهِ، ولا يخالفُ في جملتِهِ أحدٌ منَ الفقهاءِ، وإنما الخلافُ بينهمْ في بعضِ معانيهِ. وقدْ أجمعَ جمهورٌ منَ العلماءِ وجماعةُ أئمةِ الفتوى بالأمصارِ منَ الفقهاءِ: أنَّ البحرَ طهورٌ ماؤهُ، وأنَّ الوضوءَ بهِ جائزٌ، إلا ما رويَ عنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ بنِ الخطابِ وعبدِ اللهِ بن عمرو بن العاصي أنهما كرها الوضوءَ بماءِ البحرِ، ولمْ يتابعهما أحدٌ منْ فقهاءِ الأمصارِ على ذلكَ ولا عُرِّجَ عليهِ، ولا التفتَ إليهِ لحديثِ هذا البابِ. وهذا يدلكَ على اشتهارِ الحديثِ عندهمْ، وعملهمْ بهِ وقبولهمْ لهُ، وهوَ أولى عندهمْ منَ الإسنادِ الظاهرِ الصحةِ لمعنى تردهُ الأصولُ. وبالله التوفيق.

وروى الدارقطنيُّ منْ غيرِ طريقِ مالكٍ عنْ أبي هريرةَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «منْ لمْ يطهرهُ ماءُ البحرِ فلا طهرهُ اللهُ». قال إسناد حسنٌ.

الثالثة عشرة:- قالَ أبو عمرَ: وردتْ آثارٌ في هذا البابِ مرفوعةٌ في النهيِ عنْ أنْ يتوضأَ الرجلُ بفضلِ المرأةِ. وزادَ بعضهمْ في بعضها: ولكنْ ليغترفا جميعًا. فقالتْ طائفةٌ: لا يجوزُ أنْ يغترفَ الرجلُ معَ المرأةِ في إناءٍ واحدٍ، لأنَّ كلَّ واحدٍ منهما متوضئٌ بفضلِ صاحبهِ. وقالَ آخرونَ: إنما كرهَ منْ ذلكَ أنْ تنفردَ المرأةُ بالإناءِ ثمَّ يتوضأُ الرجلُ بعدها بفضلها. وكلُّ واحدٍ منهمْ روى بما ذهبَ إليهِ أثرًا. والذي ذهبَ إليهِ الجمهورُ منَ العلماءِ وجماعةُ فقهاءِ الأمصارِ أنهُ لا بأسَ أنْ يتوضأَ الرجلُ بفضلِ المرأةِ وتتوضأَ المرأةُ منْ فضلهِ، انفردتِ المرأةُ بالإناءِ أوْ لمْ تنفردْ. وفي مثلِ هذا آثارٌ كثيرةٌ صحاحٌ. والذي نذهبُ إليهِ أن الماء لا ينجسه شيء إلا ما ظهرَ فيهِ منَ النجاساتِ أوْ غلبَ عليهِ منها، فلا وجهَ للاشتغالِ بما لا يصحُّ منَ الآثارِ والأقوالِ. واللهُ المستعانُ.

روى الترمذيُّ عنِ ابنِ عباسٍ قالَ: حدثتني ميمونةُ قالتْ: كنتُ أغتسلُ أنا ورسولُ اللهِ ﷺ منْ إناءٍ واحدٍ منَ الجنابةِ. قالَ هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. وروى البخاريُّ عنْ عائشةَ قالتْ: كنتُ أغتسلُ أنا والنبيُّ ﷺ منْ إناءٍ واحدٍ يقالُ لهُ الفرقُ. وفي صحيحِ مسلمٌ عنِ ابنِ عباسٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ يغتسلُ بفضلِ ميمونةَ. وروى الترمذيُّ عنِ ابنِ عباسٍ قالَ: اغتسلَ بعضِ أزواجِ النبيِّ ﷺ، في جفنةٍ فأرادَ رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يتوضأَ منهُ فقالتْ: يا رسولَ اللهِ، إني كنتُ جنبًا. قالَ: «إنَّ الماءَ لا يجنبُ». قالَ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، وهوَ قولُ

مالكٍ والشافعيِّ، وكرهَ بعضُ الفقهاءِ فضلَ طهورِ المرأةِ، وهوَ قولُ أحمدَ.

الرابعة عشرة: روى الدارقطنيُّ عنْ زيدِ بنِ أسلمَ مولى عمرَ بنِ الخطابِ أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ كانَ يسخنُ لهُ الماءُ في قمقمةٍ ويغتسلُ بهِ. قالَ: وهذا إسنادٌ صحيحٌ. ورويَ عنْ عائشةَ قالتْ: دخلَ على رسولِ اللهِ ﷺ وقدْ سخنتُ ماءً في الشمسِ. فقالَ: «لا تفعلي يا حميراءُ فإنهُ يورثُ البرصَ». رواهُ خالدُ بنُ إسماعيلَ المخزوميُّ عنْ هشامِ بنِ عروةَ عنْ أبيهِ عنْ عائشةَ، وهوَ متروكٌ. ورواهُ عمرو بنُ محمدٍ الأعشمُ عنْ فليحٍ عنِ الزهريِّ عنْ عروةَ عنْ عائشةَ. وهوَ منكرُ الحديثِ، ولمْ يروهِ غيرهُ عنْ فليحٍ، ولا يصحُّ عنِ الزهري، قاله الدارقطني.

الخامسة عشرة: كلُّ إناءٍ طاهرٍ فجائزٌ الوضوءُ منهُ إلا إناءَ الذهبِ والفضةِ، لنهيِ رسولِ اللهِ ﷺ عنِ اتخاذهما. وذلكَ - واللهُ أعلمُ - للتشبهِ بالأعاجمِ والجبابرةِ لا لنجاسةٍ فيهما. ومنْ توضأَ فيهما أجزأهُ وضوءهُ وكانَ عاصيًا باستعمالهما. وقدْ قيلَ: لا يجزئُ الوضوءُ في أحدهما. والأولُ أكثرُ، قالهُ أبو عمرَ. وكلُّ جلدٍ ذكيٍّ فجائزٌ استعمالهُ للوضوءِ وغيرِ ذلكَ. وكانَ مالكٌ يكرهُ الوضوءَ في إناءِ جلدِ الميتةِ بعدَ الدباغِ، على اختلافٍ منْ قولهِ.

قوله تعالى: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ﴾ أيْ بالمطرِ ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ بالجدوبةِ والمحلِّ وعدمِ النباتِ. قالَ كعبٌ: المطرُ روحُ الأرضِ يحييها اللهُ بهِ. وقالَ: ﴿مَّيْتًا﴾ ولمْ يقلْ ميتةً لأنَّ معنى البلدةِ والبلدِ واحدٌ، وقيل: أرادَ بالبلدِ المكانَ ﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾ قراءةُ العامةِ بضمِّ النونِ، وقرأَ عاصمٌ فيما روى المفضلُ عنهُ «نَسْقِيَهُ» بفتحِ النونِ ﴿مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ أيْ بشرًا كثيرًا، وأناسيُّ واحدهُ إنسيٌّ، وقولُ آخرُ وهوَ أنْ يكونَ واحدهُ إنسانًا ثمَّ تبدلُ منَ النونِ ياءٌ، فتقولُ: أناسيُّ، والأصلُ أناسينَ، مثلَ بستانٍ وبساتينَ، فجعلوا الياءَ عوضًا منَ النونِ، وعلى هذا يجوزُ بساتيُّ.

وقالَ ﴿كَثِيرًا﴾ ولمْ يقلْ كثيرينَ، لأنَّ فعيلًا قدْ يرادُ بهِ الكثرة، نحو ﴿وَحَسُنَ أُولَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ﴾ يعني القرآنَ، وقدْ جرى ذكرهُ في أولِ السورةِ في **قوله تعالى**: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾. وقوله: ﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِىۗ﴾ وقوله: ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورًا﴾.

﴿لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۞﴾ أيْ جحودًا لهُ وتكذيبًا بهِ.

وقيل: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ﴾ هوَ المطرُ، فليسَ عامٌ بأكثرَ مطرًا منْ عامٍ ولكنَّ اللهَ يصرفهُ حيثُ يشاءُ، وقيل: ﴿صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ﴾ وابلًا وطشًا وطلًا ورهامًا، والرهامُ الأمطارُ اللينةُ- ورذاذًا. وقيل: تصريفهُ تنويعُ الانتفاعِ بهِ في الشربِ والسقيِ والزراعاتِ بهِ والطهاراتِ وسقيِ البساتينِ والغسلِ وشبههِ.

﴿لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۞﴾ بقولهم في الأنواءِ: مطرنا بنوءِ كذا. ونظيرهُ فعلَ النجمُ كذا، وأنَّ كلَّ منْ نسبَ إليهِ فعلًا فهوَ كافرٌ. **وقيل**: التصريفُ راجعٌ إلى الريحِ.

وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ ﴿لِيَذۡكُرُواْ﴾ مخففةَ الذالِ منَ الذكرِ. الباقونَ مثقلًا منَ التذكرِ، أيْ ليذّكروا نعمَ اللهِ ويعلموا أنَّ منْ أنعمَ بها لا يجوزُ الإشراكُ بهِ، فالتذكرُ قريبٌ منَ الذكرِ غيرَ أنَّ التذكرَ يطلقُ فيما بعدَ عنِ القلب فيحتاج إلى تكلف في التذكر.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِى كُلِّ قَرۡيَةٍ نَّذِيرًا ۞﴾ أيْ رسولًا ينذرهمْ كما قسمنا المطر ليخف عليكَ أعباءُ النبوةِ، ولكنا لمْ نفعلْ بلْ جعلناكَ نذيرًا للكلِّ لترتفعَ درجتكَ فاشكرْ نعمةَ اللهِ عليكَ ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أيْ فيما يدعونكَ إليهِ منْ اتباعِ آلهتهمْ ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ﴾ بالقرآنِ، وقيل: بالإسلامِ، وقيل: بالسيفِ، وهذا فيهِ بعدٌ، لأنَّ السورةَ مكيةٌ نزلتْ قبلَ الأمرِ بالقتالِ ﴿جِهَادًا كَبِيرًا ۞﴾ لا يخالطه فتور.

قوله تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ عادَ الكلامَ إلى ذكرِ النعمِ. وَ «مرجَ» خلطَ وأفاضَ أحدهما في الآخرِ، ومرجَ الدينُ والأمرُ اختلطَ واضطربَ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿فِىٓ أَمۡرٍ مَّرِيجٍ﴾. وقيل: ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ أيْ أجراهما ﴿هَٰذَا عَذۡبٌ فُرَاتٌ﴾ أيْ حلوٌ شديد العذوبة ﴿وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٌ﴾ أيْ فيهِ ملوحةٌ ومرارةٌ ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخًا﴾ أيْ حاجزًا منْ

قدرتهِ لا يغلبُ أحدهما على صاحبهِ، كما قالَ في سورةِ الرحمنِ ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾.

﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ أيْ سترًا مستورًا يمنعُ أحدهما منَ الاختلاطِ بالآخرِ. فالبرزخُ الحاجزُ، والحجرُ المانعُ. فلا يَعْذَب الملحُ بالعذبِ، أوْ يملح العذبُ بالملح.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ أيْ خلقَ منَ النطفةِ إنسانًا ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾ أيْ جعلَ الإنسانَ ﴿نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ﴾. وقيل: ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ إشارةٌ إلى أصلِ الخلقةِ في أنَّ كلَّ حيٍّ مخلوقٌ منَ الماءِ. وفي هذهِ الآيةِ تعديدُ النعمةِ على الناسِ في إيجادهمْ بعدَ العدمِ، والتنبيهُ على العبرةِ في ذلكَ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ﴾ النسبُ والصهرُ معنيانِ يعمانِ كلَّ قربى تكونُ بينَ آدميينِ. قالَ ابنُ العربيِّ: النسبُ عبارةٌ عنْ خلطِ الماءِ بينَ الذكرِ والأنثى على وجهِ الشرعِ، ولذلكَ لمْ يدخلْ تحتَ قولهِ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ بنتهُ منَ الزنى، لأنها ليستْ ببنتٍ لهُ في أصحِّ القولينِ لعلمائنا وأصحِّ القولينِ في الدينِ، وإذا لمْ يكنْ نسبٌ شرعًا فلا صهرٌ شرعًا، فلا يحرمُ الزنى بنتَ أمٍّ ولا أمَّ بنتٍ، وما يحرمُ منَ الحلالِ لا يحرمُ منَ الحرامِ، لأنَّ اللهَ امتنَّ بالنسبِ والصهرِ على عبادهِ ورفعَ قدرهما، وعلقَ الأحكامَ في الحلِّ والحرمةِ عليهما فلا يلحقُ الباطلُ بهما ولا يساويهما.

قلتُ: اختلفَ الفقهاءُ في نكاحِ الرجلِ ابنتهُ منْ زنى أوْ أختهُ أوْ بنتَ ابنهِ منْ زنى، فحرمَ ذلكَ قومٌ منهمْ أبو حنيفةَ، وأجازَ ذلكَ آخرونَ منهمْ الشافعيِّ.

واشتقاقُ الصهرِ منْ صهرتُ الشيءَ إذا خلطتهُ، فكلُّ واحدٍ منَ الصهرينِ قدْ خالطَ صاحبهُ، فسميتِ المناكحُ صهرًا لاختلاطِ الناسِ بها. وقيل: الصهرُ قرابةُ النكاحِ، فقرابةُ الزوجةِ همُ الأختانُ، وقرابةُ الزوجِ همُ الأحماءُ. والأصهارُ يقعُ عامًا لذلكَ كلهُ.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ على خلق ما يريده.

قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ﴾ عجبَ منَ المشركينَ في إشراكهِمْ بهِ وجهلهِمْ فيعبدونَ منْ دونهِ أمواتًا جماداتٍ لا تنفعُ ولا تضرُّ ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا ٥٥﴾ معينًا للشيطانِ على المعاصي، وقيل: وكانَ الكافرُ على ربهِ الذي يعبدهُ وهوَ الصنمُ قويًا غالبًا يعملُ بهِ ما يشاءُ، لأنَّ الجمادَ لا قدرةَ لهُ على دفع ضر ونفع.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٥٦﴾ بالجنةِ مبشرًا ونذيرًا منَ النارِ لا وكيلًا ولا مسيطرا ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ على ما جئتكمْ به، وَ ﴿مِن﴾ للتأكيدِ ﴿إِلَّا مَن شَآءَ﴾ لكنْ منْ شاءَ، فهوَ استثناءٌ منقطعٌ ﴿أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٥٧﴾ بإنفاقهِ منْ مالهِ في سبيلِ اللهِ فلينفقْ.

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ التوكل: اعتمادُ القلبِ على اللهِ تعالى في كلِّ الأمورِ، وأنَّ الأسبابَ وسائطُ أمرَ بها منْ غيرِ اعتمادٍ عليها ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ﴾ أيْ نزهِ اللهَ تعالى عما يصفهُ هؤلاءِ الكفارُ بهِ منَ الشركاءِ. والتسبيحُ التنزيهُ، وقيل: ﴿وَسَبِّحۡ﴾ أي صل لهُ، وتسمى الصلاةُ تسبيحًا ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ٥٨﴾ فيجازيهم بها.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ﴾ وَ ﴿ٱلَّذِي﴾ في موضعِ خفضٍ نعتًا للحيِّ. وقالَ: ﴿بَيۡنَهُمَا﴾ ولمْ يقلْ بينهنَّ، لأنهُ أرادَ الصنفينِ والنوعينِ والشيئينِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ٥٩﴾ قيل: المعنى فاسألْ عنهُ، والباءَ تكونُ بمعنى عنْ، كما قالَ تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ وقالَ الشاعرُ:

هلا سألتِ الخيلَ يا بنةَ مالكٍ   إنْ كنتِ جاهلةً بما لمْ تعلمي

وقالَ علقمةُ بنُ عبدةَ:

فإنْ تسألوني بالنساءِ فإنني   خبيرٌ بأدواءِ النساءِ طبيبُ

أيْ عنِ النساءِ وعما لمْ تعلمي.

وقيل: الخبيرُ هوَ اللهُ تعالى. فَ ﴿خَبِيرٗا﴾ نصبَ على المفعولِ بهِ بالسؤالِ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أيْ للهِ تعالى ﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ على جهةِ الإنكارِ والتعجبِ، أيْ ما نعرفُ الرحمنَ إلا رحمانَ اليمامةَ، يعنونَ مسيلمةَ الكذابَ. وزعمَ القاضي أبو بكرِ بنُ العربيِّ أنهمْ إنما جهلوا الصفةَ لا الموصوفَ، واستدلَّ على ذلكَ بقولِهِ: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ولمْ يقولوا ومنِ الرحمنُ، ويرده قوله تعالى ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾.

﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ هذهِ قراءةُ المدنيينَ والبصريينَ، أيْ أنتَ يا محمدُ، وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ: «يَأْمُرُنَا» بالياءِ. يعنونَ الرحمنَ، كذا تأولهُ أبو عبيدٍ، قالَ: ولوْ أقروا بأنَّ الرحمنَ أمرهمْ ما كانوا كفارًا، والأولى أنْ يكونَ التأويلُ لهمْ «أَنَسْجُدُ لِمَا يَأْمُرُنَا» النبيُّ ﷺ.

﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾ أيْ زادهمْ قولُ القائلِ لهمُ اسجدوا للرحمنِ نفورًا عنِ الدينِ.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ أيْ منازلَ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ يعني الشمسَ، نظيرهُ، ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾. وقراءةُ العامةِ: ﴿سِرَاجًا﴾ بالتوحيدِ. وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ: «سُرُجًا» يريدونَ النجومَ العظامَ الوقادةَ ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ ينيرُ الأرضَ إذا طلعَ.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾، فيهِ أربعُ مسائلَ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿خِلْفَةً﴾ شيء بعد شيء. وكلُّ واحدٍ منَ الليلِ والنهارِ يخلفُ صاحبهُ، وقيل: ﴿خِلْفَةً﴾ منَ الخلافِ، هذا أبيضُ وهذا أسودُ، وقيل: يتعاقبانِ في الضياءِ والظلامِ والزيادةِ والنقصانِ ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ أيْ يتذكرُ، فيعلمُ أنَّ اللهَ لمْ يجعلهُ كذلكَ عبثًا فيعتبرُ في مصنوعاتِ اللهِ، ويشكرُ اللهَ تعالى على نعمهِ عليهِ في العقلِ والفكرِ والفهمِ. وقيل: من فاته شيء منَ الخيرِ بالليلِ أدركهُ بالنهارِ، ومنْ فاتهُ بالنهارِ أدركهُ بالليلِ. وفي الصحيح: «ما منِ امرئٍ تكونُ لهُ صلاةٌ بالليلِ فغلبهُ عليها نومٌ فيصلي ما بينَ طلوعِ الشمسِ إلى صلاةِ الظهرِ إلا كتبَ اللهُ لهُ أجرَ صلاتهِ وكانَ نومهُ عليهِ صدقةً». وروى مسلم عنْ عمرَ بنِ الخطابِ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «منْ نامَ عن حزبه أو عن شيء منهُ فقرأهُ فيما بينَ صلاةِ

الفجرِ وصلاةِ الظهرِ كتبَ لهُ كأنما قرأهُ منَ الليلِ».

الثانية: منَ الغبنِ العظيمِ أنْ يعيشَ الرجلُ ستينَ سنةً ينامُ ليلها فيذهبُ النصفُ منْ عمرهِ لغوًا، وينامُ سدسُ النهارِ راحةً فيذهبُ ثلثاهُ ويبقى لهُ منَ العمرِ عشرونَ سنةً، ومنَ الجهالةِ والسفاهةِ أنْ يتلفَ الرجلُ ثلثيْ عمرهِ في لذةٍ فانيةٍ، ولا يتلفُ عمرهُ بسهرٍ في لذةٍ باقيةٍ عندَ الغنيِّ الوفيِّ الذي ليس بعديم ولا ظلوم.

الثالثة: اختلفَ أيُّ الوقتينِ أفضلُ، الليلُ أوِ النهارُ. وفي الصومِ غنيةٌ في الدلالةِ، واللهُ أعلمُ، قالهُ ابنُ العربيِّ.

قلتُ: والليلُ عظيمٌ قدرهُ، أمرَ نبيهُ ﷺ بقيامهِ فقالَ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾، وقالَ: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ على ما يأتي بيانهُ. ومدحَ المؤمنينَ على قيامهِ فقالَ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾. وقالَ ﷺ: «والصدقةُ تطفئُ الخطيئةَ كما يطفئُ الماءُ النارَ وصلاةُ الرجلِ في جوفِ الليلِ وفيهِ ساعةٌ يستجابُ فيها الدعاءُ وفيهِ ينزلُ الربُّ تباركَ وتعالى» حسبما يأتي بيانهُ إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

الرابعة: قرأَ حمزةُ وحدهُ: «يَذْكُر» بسكونِ الذالِ وضمِّ الكافِ، وقرأَ الباقونَ: ﴿يَذَّكَّرَ﴾ بتشديدِ الكافِ. ويذكرُ ويذّكرُ بمعنى واحدٍ. وقيل: معنى «يَذْكُرُ» بالتخفيفِ أيْ يذكرُ ما نسيهُ في أحدِ الوقتينِ في الوقتِ الثاني، أوْ ليذكرَ تنزيهَ اللهِ وتسبيحهُ فيها ﴿أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ٦٢﴾ على أنهما جعلهما قوامًا لمعاشهمْ. وكأنهمْ لما قالوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ قالوا: هوَ الذي يقدرُ على هذهِ الأشياء.

قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ أضافهمْ إلى عبوديتهِ تشريفًا لهمْ، كما قالَ: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾، والهونُ مصدرُ الهينِ وهوَ منَ السكينةِ والوقارِ، قالَ ﷺ: «أيها الناسُ عليكمْ بالسكينةِ فإنَّ البرَّ ليسَ في الإيضاعِ»، ورويَ في صفتهِ ﷺ أنهُ كانَ إذا زالَ زالَ تقلعًا، ويخطو تكفؤًا، ويمشي هونًا، ذريعُ المشيةِ إذا مشى كأنما ينحطُّ منْ صببٍ. والتقلعُ، رفعُ الرجلِ بقوةٍ والتكفؤُ: الميلُ إلى سننِ المشيِ وقصدهِ. والهونُ الرفقُ والوقارُ. والذريعُ الواسعُ الخطا، أيْ إنَّ مشيهُ كانَ يرفعُ فيهِ رجلهُ بسرعةٍ ويمدُّ

خطوهُ، خلافَ مشيةِ المختالِ، ويقصدُ سمتهُ، وكلُّ ذلكَ برفقٍ وتثبتٍ دونَ عجلة. وكانَ عمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسرعُ جبلةً لا تكلفًا. وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

وقالَ ابنُ عباسٍ: بالطاعةِ والمعروفِ والتواضعِ، وقيل: لا يتكبرونَ على الناسِ، وكلها معانٍ متقاربةٌ، ويجمعها العلمُ باللهِ والخوفُ منهُ، والمعرفةُ بأحكامهِ والخشيةِ منْ عذابهِ وعقابهِ، لأنهُ ربَّ ماشٍ هونًا رويدًا وهوَ ذئبٌ أطلسُ، ألا ترى أنَّ المبطلينَ المتحلينَ بالدينِ تمسكوا بصورةِ المشيِ فقطْ، حتى قالَ فيهم الشاعر ذما لهم:

كلهم يمشي رويد كلهم يطلب صيد

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ۝٦٣﴾ أيْ تسلمًا منكَ، أيْ براءةً منكَ، وقيل: ﴿قَالُوٓاْ﴾ هوَ العاملُ في ﴿سَلَٰمًا﴾ لأنَّ المعنى قالوا هذا اللفظَ، وقيل: معنى ﴿سَلَٰمًا﴾ سدادا. أي يقول للجاهل كلاما يدفعهُ بِهِ برفقٍ ولينٍ.

مسألةٌ: هذهِ الآيةُ كانتْ قبلَ آيةِ السيفِ، نسخَ منها ما يخصُّ الكفرةَ وبقيَ أدبها في المسلمينَ إلى يومِ القيامةِ.

وذكرَ سيبويهِ النسخَ في هذهِ الآيةِ في كتابهِ، وما تكلمَ فيهِ على نسخٍ سواهُ، رجحَ بِهِ أنَّ المرادَ السلامةُ لا التسليمُ، لأنَّ المؤمنينَ لمْ يؤمروا قطُّ بالسلامِ على الكفرةِ. والآيةُ مكيةٌ فنسختها آيةُ السيفِ.

قال ابنُ العربيِّ: لمْ يؤمرِ المسلمونَ يومئذٍ أنْ يسلموا على المشركينَ ولا نهوا عنْ ذلكَ، بلْ أمروا بالصفحِ والهجرِ الجميل، وقدْ كانَ ﷺ يقفُ على أنديتهمْ ويحييهمْ ويدانيهمْ ولا يداهنهمْ. وقدِ اتفقَ الناسُ على أنَّ السفيهَ منَ المؤمنينَ إذا جفاكَ يجوزُ أنْ تقولَ لهُ سلامٌ عليكَ. قلتُ: هذا القولُ أشبهُ بدلائلِ السنةِ. وقدْ بينا في سورةِ «مريمَ» اختلافَ العلماءِ في جوازِ التسليمِ على الكفارِ، فلا حاجةَ إلى دعوى النسخِ، واللهُ أعلمُ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴿٦٤﴾﴾ باتَ الرجلُ يبيتُ إذا أدركهُ الليلُ، نامَ أوْ لمْ ينمْ. قالَ زهيرٌ:

فبتنا قيامًا عندَ رأسِ جوادنا ... يزاولنا عنْ نفسهِ ونزاولهُ

وقالَ ابنُ عباسٍ: منْ صلى ركعتينِ أوْ أكثرَ بعدَ العشاءِ فقدْ باتَ للهِ ساجدًا وقائمًا.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ﴾ فهمْ معَ طاعتهمْ مشفقونَ خائفونَ وجلونَ منْ عذابِ اللهِ، يقولونَ ذلكَ في سجودهمْ وقيامهمْ ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ أيْ لازمًا دائمًا غيرَ مفارقٍ. ومنهُ سميَ الغريمُ لملازمتهِ. ويقالُ: فلانٌ مغرمٌ بكذا أيْ لازمٌ لهُ مولعٌ بهِ. ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٦٦﴾﴾ أيْ بئسَ المستقرُّ وبئسَ المقامُ، يقولونَ ذلكَ عنْ علمٍ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ﴾ اختلفَ المفسرونَ في تأويلِ هذهِ الآيةِ. فقيل: الإسرافُ ما أنفقَ في غيرِ طاعةِ اللهِ، والإقتارُ ما أمسكَ عنْ طاعةِ اللهِ، والقوامُ ما أنفقَ في طاعةِ اللهِ تعالى.

وقيل: إنما التأديبُ في هذهِ الآيةِ هوَ في نفقةِ الطاعاتِ في المباحاتِ، فأدبُ الشرعِ فيها ألا يفرطَ الإنسانُ حتى يضيعَ حقًا آخرَ أوْ عيالًا ونحوَ هذا، وألا يضيقَ أيضًا ويقترَ حتى يجيعَ العيالَ ويفرطَ في الشحِّ، والحسنُ في ذلكَ هوَ القوامُ، أيِ العدلُ، والقوامُ في كلِّ واحدٍ بحسبِ عيالهِ وحالهِ، وخفةِ ظهرهِ وصبرهِ وجلدهِ على الكسبِ، أوْ ضدِّ هذهِ الخصالِ، وخيرُ الأمورِ أوساطها، ولهذا تركَ رسولُ اللهِ ﷺ أبا بكر الصديق يتصدقَ بجميعِ مالهِ، لأنَّ ذلكَ وسطٌ بنسبةِ جلدهِ وصبرهِ في الدينِ، ومنعَ غيرهُ منْ ذلكَ.

قال عبد الملك بن مروانَ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ حينَ زوجهُ ابنتهُ فاطمةَ: ما نفقتكَ؟ فقالَ لهُ عمرُ: الحسنةُ بينَ سيئتينِ، ثمَّ تلا هذهِ الآيةَ. كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾ وقالَ الشاعرُ:

ولا تغلُ في شيءٍ منَ الأمرِ واقتصدْ ... كلا طرفيْ قصدِ الأمورِ ذميم

﴿وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾ قرأَ حمزةُ والكسائيُّ وعاصمٌ ﴿يَقۡتُرُواْ﴾ بفتحِ الياءِ وضمِّ التاءِ، وهي

قراءةٌ حسنةٌ، منْ قترَ يقترُ، وهذا القياسُ في اللازم، مثلُ قعدَ يقعدُ، وقرأَ أبو عمرو بنُ العلاءِ وابنُ كثيرٍ بفتحِ الياءِ وكسرِ التاءِ، وقرأَ أهلُ المدينةِ وابنُ عامرٍ وأبو بكرٍ عنْ عاصمٍ بضمِّ الياءِ وكسرِ التاءِ، وكلها لغاتٌ صحيحةٌ. وقرأَ أبو عمرو والناسُ «قَوامًا» بفتح القاف، يعنى عدلا، فكانَ الإنفاقُ بينَ الإسرافِ والقترِ قوامًا.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إخراجٌ لعبادهِ المؤمنينَ منْ صفاتِ الكفرةِ في عبادتِهمُ الأوثانَ، وقتلهمُ النفسَ بوأدِ البناتِ، وغيرِ ذلكَ منَ الظلمِ والاغتيالِ، والغاراتِ، ومنَ الزنى الذي كانَ عندهمْ مباحًا، فبدأَ في صدرِ هذهِ الآياتِ بصفاتِ التحلي تشريفًا لهمْ، ثمَّ أعقبها بصفاتِ التخلي تبعيدًا لها، واللهُ أعلمُ.

وفي مسلمٌ منْ حديثِ عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ قالَ قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أيُّ الذنبِ أكبرُ عندَ اللهِ؟ قالَ: «أنْ تدعوَ للهِ ندًا وهوَ خلقكَ» قالَ: ثمَّ أيُّ؟ قالَ: «أنْ تقتلَ ولدكَ مخافةَ أنْ يطعمَ معك» قالَ: ثمَّ أيُّ؟ قالَ: «أنْ تزانيَ حليلةَ جاركَ» فأنزلَ اللهُ تعالى تصديقها: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ۝٦٨﴾.

والأثامُ في كلامِ العربِ العقابُ، وقيل: ﴿أَثَامٗا﴾ وادٍ في جهنمَ جعلهُ اللهُ عقابًا للكفرةِ. وقيل: جبلٌ فيها، وفي صحيح مسلم أيضًا عنِ ابنِ عباسٍ: أنَّ ناسًا منْ أهلِ الشركِ قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا، فأتوا محمدًا ﷺ فقالوا: إنَّ الذي تقولُ وتدعو إليهِ لحسنٌ، ولو يخبرنا بأنَّ لما عملنا كفارةً، فنزلتْ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا﴾. ونزل: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ الآيةَ.

قولهُ تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ أيْ بما يحقُّ أنْ تقتلَ بهِ النفوسُ منْ كفرٌ بعدَ إيمانٍ أوْ زنى بعدَ إحصانٍ ﴿وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾ فيستحلونَ الفروجَ بغيرِ نكاحٍ ولا ملكِ يمينٍ. ودلتْ هذهِ الآيةُ على أنهُ ليسَ بعدَ الكفرِ أعظمُ منْ قتلِ النفسِ بغيرِ الحقِّ ثمَّ الزنى، ولهذا ثبتَ في حدِّ الزنا القتلُ لمنْ كانَ محصنًا أوْ أقصى الجلدِ لمنْ كانَ غيرَ محصنٍ.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ﴾ قرأَ نافعٌ وابنُ عامرٍ وحمزةُ والكسائيُّ ﴿يُضَٰعَفْ﴾. و ﴿يَخْلُدْ﴾ جزمًا. وقرأَ ابنُ كثيرٍ: «يُضَعَّفْ» بشدِّ العينِ وطرحِ الألفِ، وبالجزمِ في يُضعَّفْ ويَخلُدْ.

وقرأَ عاصمٌ في روايةِ أبي بكرٍ: «يُضَاعَفُ». «وَيَخْلُدُ» بالرفعِ فيهما على العطفِ والاستئنافِ. و ﴿مُهَانًا ۝٦٩﴾ معناه ذليلا خاسئا مبعدا مطرودا.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ لا خلافَ بينَ العلماءِ أنَّ الاستثناءَ عاملٌ في الكافرِ والزاني. واختلفوا في القاتلِ منَ المسلمينَ على ما تقدمَ بيانهُ في «النساءِ».

ومضى في «المائدةِ» القولُ في جوازِ التراخي في الاستثناءِ في اليمينِ، وهوَ مذهبُ ابنِ عباسٍ مستدلًا بهذهِ الآيةِ.

قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ قيل: التبديل في الدنيا، يبدلهمُ اللهُ إيمانًا منَ الشركِ، وإخلاصًا منَ الشكِّ، وإحصانًا منَ الفجورِ، وقيل: ذلكَ في الآخرةِ يبدلُ اللهُ السيئاتِ حسناتٍ. وقيل: التبديلُ عبارةٌ عنِ الغفرانِ، أيْ يغفرُ اللهُ لهمْ تلكَ السيئاتِ لا أنْ يبدلها حسناتٍ.

قلتُ: فلا يبعدُ في كرمِ اللهِ تعالى إذا صحتْ توبةُ العبدِ أنْ يضعَ مكانَ كلِّ سيئةٍ حسنةً، وقدْ قالَ ﷺ لمعاذٍ: «أتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحها وخالقِ الناسَ بخلقٍ حسنٍ». وفي صحيح مسلمٌ عنْ أبي ذرٍّ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إني لأعلم آخرَ أهلِ الجنةِ دخولًا الجنةَ وآخرَ أهلِ النارِ خروجًا منها رجلٌ يؤتى بهِ يومَ القيامةِ فيقالُ اعرضوا عليهِ صغارَ ذنوبهِ وارفعوا عنهُ كبارها فتعرضُ عليهِ صغارُ ذنوبهِ فيقالُ عملتَ يومَ كذا وكذا كذا وكذا وعملتَ يومَ كذا وكذا كذا وكذا فيقولُ نعمْ لا يستطيعُ أنْ ينكرَ وهوَ مشفقٌ في كبارِ ذنوبهُ أنْ تعرضَ عليهِ فيقالُ لهُ فإنَّ لكَ مكانَ كلِّ سيئةٍ حسنةً فيقولُ يا ربِّ قدْ عملتُ أشياءَ لا أراها ها هنا» فلقدْ رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ ضحكَ حتى بدتْ نواجذهُ.

قوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ فمنْ تابَ بلسانهِ ولمْ يحققْ ذلكَ بفعلهِ، فليستْ تلكَ التوبةُ نافعةً، بلْ منْ تابَ وعملَ صالحًا فحققَ توبتهُ بالأعمالِ الصالحةِ فهوَ الذي تابَ إلى اللهِ متابًا، أيْ تابَ حقَّ التوبةِ وهيَ النصوحُ ولذا أكدَ بالمصدرِ. فَـ ﴿مَتَابًا﴾ مصدرٌ معناهُ التأكيدُ، كقولهِ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ أيْ فإنهُ يتوبُ إلى اللهِ حقا فيقبل الله توبته حقا.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أيْ لا يحضرونَ الكذبَ والباطلَ ولا يشاهدونهُ. والزورُ كلُّ باطلِ زُوِرَ وزُخرِفَ، وأعظمهُ الشركُ وتعظيمُ الأندادِ، وعنِ ابنِ عباسٍ أنهُ أعيادُ المشركينَ، وقيلَ: لعب كانَ في الجاهليةِ يسمى بالزورِ، وقيل: الغناءُ، وقيل: الكذبُ، وقيل: هو منَ الشهادةِ لا منَ المشاهدةِ.

قالَ ابنُ العربيِّ: أما القولُ بأنهُ الكذبُ فصحيحٌ، لأنَّ كلَّ ذلكَ إلى الكذبِ يرجعُ، وأما منْ قالَ إنهُ لعبٌ كانَ في الجاهليةِ فإنهُ يحرمُ ذلكَ إذا كانَ فيهِ قمارٌ أوْ جهالةٌ، أوْ أمرٌ يعودُ إلى الكفرِ، وأما القولُ بأنهُ الغناءُ فليسَ ينتهي إلى هذا الحدِّ.

قلتُ: منَ الغناءِ ما ينتهي سماعهُ إلى التحريمِ، وذلكَ كالأشعارِ التي توصفُ فيها الصورُ المستحسناتُ والخمرُ وغيرُ ذلكَ مما يحركُ الطباعَ ويخرجها عنِ الاعتدالِ، أوْ يثيرُ كامنًا منْ حبِّ اللهوِ.

الثانية: قالَ أكثرُ أهلِ العلمِ: لا تقبلُ شهادة شاهدَ الزورِ أبدًا، وإنْ تابَ وحسنتْ حالهُ فأمرهُ إلى اللهِ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ اللغوِ كلُّ سقطٍ منْ قولٍ أوْ فعلٍ، فيدخلُ فيهِ الغناءُ واللهو وغير ذلك مما قاربه، وتدخل فيهِ سفهُ المشركينَ وأذاهمُ المؤمنينَ وذكرُ النساءِ وغيرُ ذلكَ منَ المنكرِ، وقيل: إذا ذكرَ النكاحُ كفوا عنهُ. وقالَ الحسنُ: اللغوُ المعاصي كلها. وهذا جامعٌ.

وَ ﴿كِرَامًا﴾ معناهُ معرضينَ منكرينَ لا يرضونهُ، ولا يمالئونَ عليهِ، ولا يجالسونَ أهلهُ، وقيل: منَ المرورِ باللغوِ كريمًا أنْ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

قولهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ٧٣﴾، فيهِ مسألتانِ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ أيْ إذا قرئَ عليهمُ القرآنُ ﴿لَمۡ يَخِرُّواْ﴾ لمْ يقعدوا على حالهمُ الأولِ كأنْ لمْ يسمعوا.

الثانية: قالَ بعضهمْ: إنَّ منْ سمعَ رجلًا يقرأُ سجدةً يسجدُ معهُ، لأنهُ قدْ سمعَ آياتِ اللهِ تتلى عليهِ. قالَ ابنُ العربيِّ: إنْ كانَ الذي جلسَ معهُ جلس يسمعه فليسجدْ معهُ، وإنْ لمْ يلتزمِ السماعَ معهُ فلا سجودَ عليهِ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾، فيهِ جوازُ الدعاءِ بالولدِ، والذريةُ تكونُ واحدًا وجمعًا. فكونها للواحدِ قولهُ: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ﴾ ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا﴾ وكونها للجمعِ ﴿ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا﴾، وقرأَ نافعٌ وابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ: ﴿وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾ وقرأَ أبو عمرَ وحمزةُ والكسائيُّ «وَذُرِّيَّتِنَا» بالإفرادِ.

﴿قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ نصبَ على المفعولِ، أيْ قرةَ أعينٍ لنا، وذلكَ أنَّ الإنسانَ إذا بوركَ لهُ في مالهِ وولدهِ قرتْ عينهُ بأهلهِ وعيالهِ، حتى إذا كانتْ عندهُ زوجةٌ اجتمعتْ لهُ فيها أمانيهُ منْ جمالٍ وعفةٍ ونظرٍ وحوطةٍ أوْ كانتْ عندهُ ذريةٌ محافظونَ على الطاعةِ، معاونونَ لهُ على وظائفِ الدينِ والدنيا، لمْ يلتفتْ إلى زوجِ أحدٍ ولا إلى ولدهِ، فتسكنُ عينهُ عنِ الملاحظةِ، ولا تمتدُّ عينهُ إلى ما ترى، فذلكَ حينَ قرةِ العينِ، وسكونِ النفسِ.

ووحدَ ﴿قُرَّةَ﴾ لأنهُ مصدرٌ، تقولُ: قرتْ عينكَ قرةً. وقرةُ العينِ يحتملُ أنْ تكونَ منَ القرارِ، ويحتملُ أنْ تكونَ منَ القرِّ وهوَ الأشهرُ. والقرُّ البردُ، لأنَّ العربَ تتأذى بالحرِّ وتستريحُ إلى البردِ. وأيضًا فإنَّ دمعَ السرورِ باردٌ، ودمعَ الحزنِ سخنٌ، فمنْ هذا يقالُ: أقرَّ اللهُ عينكَ، وأسخنَ اللهُ عينَ العدوِّ. وقالَ الشاعرُ:

فكمْ سخنتْ بالأمسِ عينٌ قريرةٌ   وقرتْ عيونٌ دمعها اليومَ ساكبُ

قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾ أيْ قدوةً يقتدى بنا في الخيرِ، وهذا لا يكونُ إلا أنْ يكونَ الداعي متقيًا قدوةً، وهذا هوَ قصدُ الداعي.

وقالَ: ﴿إِمَامًا﴾ أرادَ أئمةً.

قالَ إبراهيمُ النخعيُّ: لمْ يطلبوا الرياسةَ بلْ بأنْ يكونوا قدوةً في الدينِ كما قالَ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾، وفيهِ دليلٌ على أنَّ طلب الرياسة في الدين ندب.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ خبر ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وهوَ أحسنُ ما قيلَ فيهِ. وما تخللَ بينَ المبتدأِ وخبرهِ أوصافهمْ منَ التحلي والتخلي، وهيَ إحدى عشرةَ: التواضعُ، والحلمُ، والتهجدُ، والخوفُ، وتركُ الإسرافِ والإقتارِ، والنزاهةُ عنِ الشركِ، والزنى والقتلِ، والتوبةُ وتجنبُ الكذبِ، والعفوُ عنِ المسيءِ، وقبولُ المواعظِ، والابتهالُ إلى اللهِ.

وَ ﴿ٱلْغُرْفَةَ﴾ الدرجةُ الرفيعةُ وهيَ أعلى منازلِ الجنةِ وأفضلها كما أنَّ الغرفةَ أعلى مساكنِ الدنيا، وقيل: الغرفةُ الجنةُ.

﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ أيْ بصبرهمْ على أمرِ ربهمْ، وطاعةِ نبيهمْ عليهِ أفضلُ الصلاةِ والسلامِ، وقيل: على الفقرِ والفاقةِ في الدنيا، وقيل: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ عنِ الشهواتِ ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ٧٥﴾ قرأَ حمزةُ والكسائيُّ وخلفُ «وَيَلْقَوْنَ» مخففةً، وقرأَ الباقونَ: ﴿وَيُلَقَّوْنَ﴾؛ لقولهِ تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾.

والتحيةُ منَ اللهِ والسلامُ منَ الملائكةِ، وقيل: التحيةُ البقاءُ الدائمُ والملكُ العظيمُ، والأظهرُ أنهما بمعنى واحدٍ، وأنهما منْ قبلِ اللهِ تعالى، دليلهُ قولهُ تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ نصبَ على الحالِ ﴿فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ٧٦﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾ يقالُ: ما عبأتُ بفلانٍ أيْ ما باليتُ بهِ، أيْ ما كانَ لهُ عندي وزنٌ ولا قدرٌ. وأصلُ يعبأُ منَ العبءِ وهوَ الثقل، والعبءُ الحمل الثقيل، والجمع أعباء. والعبء المصدر.

وما استفهاميةٌ، ولا يبعدُ أنْ تكونَ نافيةً، لأنكَ إذا حكمتَ بأنها استفهامٌ فهوَ نفيٌ خرجَ مخرجَ الاستفهام، كما قالَ تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾، والتقديرُ: أيُّ عبءٍ يعبأُ بكمْ، أيْ أيُّ مبالاةٍ يبالي ربي بكمْ لو لا دعاؤكمْ، أيْ لو لا دعاؤهُ إياكمْ لتعبدوهُ، فالمصدرُ الذي هوَ الدعاءُ على هذا القولِ مضافٌ إلى مفعولِه، وفاعلهُ محذوفٌ وجوابُ لو لا محذوفٌ كما حذفَ في قولِه: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ تقديرهُ: لمْ يعبأْ بكمْ، ودليلُ هذا القولِ قولهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ فالخطابُ لجميعِ الناسِ، فكأنهُ قالَ لقريشٍ منهمْ: أيْ ما يبالي اللهُ بكمْ لو لا عبادتكمْ إياهُ أنْ لوْ كانتْ، وذلكَ الذي يعبأُ بالبشرِ منْ أجلهِ.

وقيل: المعنى لو لا استغاثتكمْ إليهِ في الشدائدِ ونحوِ ذلكَ. بيانهُ: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ﴾ ونحو هذا.

وقيل: ﴿مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ﴾ أيْ بمغفرةِ ذنوبكمْ ولا هوَ عندهُ عظيم ﴿لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ﴾ معهُ الآلهةَ والشركاءَ. بيانهُ: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ﴾.

﴿فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ﴾ بما دعيتمْ إليهِ، هذا على القولِ الأولِ، وكذبتمْ بتوحيدِ اللهِ على الثاني ﴿فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ٧٧﴾ أيْ يكونُ تكذيبكمْ ملازمًا لكمْ. والمعنى: فسوفَ يكونُ جزاءُ التكذيبِ كما قالَ: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ﴾ أيْ جزاءُ ما عملوا، وقولهُ: ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ أيْ جزاءَ ما كنتمْ تكفرونَ. وحسنَ إضمارُ التكذيبِ لتقدمِ ذكرِ فعلهِ، لأنكَ إذا ذكرتَ الفعلَ دلَّ بلفظهِ على مصدرهِ، كما قالَ: ﴿وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ﴾ أيْ لكانَ الإيمانُ. وقولهُ: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ أيْ يرضى الشكرَ. ومثلهُ كثيرٌ.

وجمهورُ المفسرينَ على أنَّ المرادَ باللزامِ هنا ما نزلَ بهمْ يومَ بدرٍ، وفي صحيحِ مسلمٍ

عنْ عبدِ اللهِ: وقدْ مضتِ البطشةُ والدخانُ واللزامُ. وسيأتي مبينًا في سورةِ «الدخانِ» إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

وقالَ أبو عبيدةَ: لزامًا فيصلًا بينكمْ وبينَ المؤمنينَ، وقالَ الطبريُّ: ﴿لِزَامًا﴾ يعني عذابًا دائمًا لازمًا، وهلاكًا مفنيًا يلحقُ بعضكمْ ببعضٍ. قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾.

وباللهِ التوفيقُ وهوَ المستعانُ والحمدُ لله رب العالمين.